مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث

المجموعة الأولى

انتقاء وإعداد

محمد بن إبراهيم الحمد

دار ابن خزيمة

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحمد ، محمد بن إبراهيم
مقالات لكبار كتاب العربية / محمد بن إبراهيم الحمد- الزلفي، ١٤٢٥ هـ
٤٣٢ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك : ٢-٧٩٠-٤٦-٩٩٦٠
١ – المقالات العربية أ – العنوان
ديوي ٠٨١ ١٤٢٥/٦٠٨٦

رقم الايداع :١٤٢٥/٦٠٨٦
ردمك : ٢-٧٩٠-٤٦-٩٩٦٠

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

دار ابن خزيمة
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض
الملز - شارع الاحساء - غرب حديقة الحيوان
هاتف : ٤٧٣٠٧٨٨ - ٤٧٦٩٩٣٢ - فاكس : ٤٧٦٠٧٩٥

المحتويات

المحتويات

ح دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحمد ، محمد بن إبراهيم

مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث / المجموعة الثانية

محمد إبراهيم الحمد – الزلفي، ١٤٢٦ هـ

٤٨٠ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٤٨٥-٤٧-٩٩٦٠

١- المقالات العربية أ – العنوان.

ديوي : ٠٨١ ١٤٢٦/٩٨٩

رقم الايداع : ١٤٢٦/٩٨٩

ردمك: ٢-٤٨٥-٤٧-٩٩٦٠

الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

دار ابن خزيمة

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

الملز - شارع الاحساء - غرب حديقة الحيوان

هاتف : ٤٧٣٠٧٨٨ - ٤٧٦٩٩٣٣ - فاكس : ٤٧٦٠٧٩٥

المحتويات

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحمد ، محمد بن إبراهيم
مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث / المجموعة الثالثة
محمد إبراهيم الحمد - الزلفي، ١٤٢٦ هـ
٥١٢ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ٠-٤٨٦-٤٧-٩٩٦٠
١- المقالات العربية أ - العنوان.
ديوي : ٠٨١ ١٤٢٦/٩٩١

رقم الايداع : ١٤٢٦/٩٩١
ردمك: ٠-٤٨٦-٤٧-٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

دار ابن خزيمة
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض
الملز - شارع الاحساء - غرب حديقة الحيوان
هاتف : ٤٧٣٠٧٨٨ - ٤٧٦٩٩٣٣ - فاكس : ٤٧٦٠٧٩٥

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد:

فهذه هي المجموعة الأولى من (مقالات لكبار كُتَّاب العربية في العصر الحديث).

وقبل الكلام على هذه المقالات يحسن الكلام على المقالة من حيث نشأتها، ومفهومها، وموضوعها، وأنواعها، إلى غير ذلك مما يدور في هذا الفلك.

فالمقالة ـ أو المقال ـ باب عظيم من أبواب العلم، وطريق واسع لنشر الفكر والتأثير في الناس.

ولقد عُرفت بعد ظهور المطابع، وانتشار الصحافة في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، وذلك حين أنشئت صحيفة الوقائع المصرية، ثم بلغت الصحافة أوجها في منتصف القرن الرابع عشر الهجري، حيث ازدهرت حركتها في البلاد العربية، وصارت عِمَادَ الكُتَّاب، والأدباءِ، والقالبَ الذي يصبُّون فيه أفكارهم، وينشرونها بين الناس.

وليست المقالة غريبة عن الأدب العربي القديم ـ وإن تغيَّرت صيغها، وشروطها ـ.

فعبدالحميد الكاتب حين كان يتكلم عن الصيد، أو الكتابة كان يكتب شيئاً

قريباً من المقالة، والفصول الأدبية التي أنشأها ابن المقفع في الأدب الصغير والأدب الكبير كانت أشبه بالمقالات المطوَّلة.

وكذلك صنيع الجاحظ في البخلاء، والبيان والتبيين، والمحاسن والأضداد؛ فهي مقالات مطوَّلة تنقصها بعض شروط المقالة الحديثة.

أما في العصر الحديث فقد أخذت المقالة لوناً آخر؛ فصار لها طابع مميَّز؛ فهي قطعة نثريَّة يعرض فيها الكاتب قضيةً أو فكرة بطريقة مُنَظَّمة مشوِّقة.

والمقالة محدودة الحجم، لا يتوسَّع فيها الكاتب كثيراً.

أما موضوعاتها فكثيرة متنوِّعة؛ فهناك المقالة الدينيَّة، التي يتناول كاتبها باباً من أبواب الدين سواء كان في الاعتقاد، أو الأحكام، أو السلوك، أو الأخلاق، أو السيرة، أو يكتب عن قضيَّة من قضايا الإسلام والمسلمين، أو نحو ذلك.

وهناك المقالة الاجتماعية، وهي التي يعالج فيها كاتبها أدواء المجتمع، وأمراضه كالجهل، والفقر، والعادات السيئة، ونحو ذلك؛ فيشخِّص تلك الظاهرة، ثم يقوم بتحليلها، وعرضها بطريقة تجتذب القارئ، ثم يتوصَّل من خلال ذلك إلى العلاج.

وهناك المقالة السياسيَّة التي تتعرَّض لتحليل موقف، أو قضيَّة، أو ما شاكل ذلك.

وهناك المقالة النَّقديَّة، وهي التي يَعْمَدُ صاحبها إلى نَقْدِ عملٍ علميٍّ، أو أدبيٍّ نقداً يجلو محاسنه، ويكشف عن عيوبه بأسلوب مبنيٍّ على أساس من الإلمام بالضوابط والمعايير النَّقديَّة.

والمقالة النَّقديَّة إذا أحسن كاتبها، وَوُفِّقَ في طريقة نقده كانت مدرسة للتهذيب.

وهناك المقالة الوصفيَّة، وهي أرحب ميداناً؛ لأن كاتبها يستطيع أن يتناول أيَّ مجال من مجالات الحياة، فيصفه وصفاً يصوِّره لمن لم يره، وكأنَّه يراه رأيَ العين.

غير أنَّ هذا النوع يُحتاج فيه إلى دقَّة الملاحظة، وصدق التصوير، وشمول النظرة.

وبالجملة فموضوع المقال يتَّسع لكلِّ شيء في الوجود من تعبير عن عاطفة، أو رغبة، أو رهبة، أو فكرة.

وهناك تقسيم آخر للمقالة، حيث يقسمها بعض النُّقَّاد والأدباء إلى نوعين كبيرين: أحدهما: المقال الذاتي، أو المقالة الذَّاتيَّة، والآخر هو المقال الموضوعيُّ، أو المقالة الموضوعيَّة.

أمَّا المقال الذَّاتيُّ فهو الذي يرتبط بالكاتب، فَتَظْهَرُ من خلاله شخصيَّتُهُ قويَّةً آسرةً؛ حيث يعرض لبعض القضايا ممزوجة بمشاعره، ويستخدم فيه الأسلوب الأدبيَّ.

أمَّا المقال الموضوعيُّ فيُبْعِد فيه الكاتبُ عواطفَه، وقضاياه الشَّخصيَّة، فَتَنْصَبُّ عنايتُه على الموضوع، ويقدِّم الحقائق كما هي، ويستخدم الأسلوب العلميَّ، فيجمع مادَّته، ويرتِّبها، ويعرِضها بصورة منطقيَّة متسلسلة، وبعبارات واضحة.

غير أنَّ الفصل بين هذين النوعين قد يكون صعباً؛ فالمقالة تنسب إلى أظهر الموضوعين، أو إلى السبب في إنشائها، وهذا قد يخفى إذا لم يدلَّ اللفظ عليه.

ثم إنَّ هناك بعضَ الاختلاف بين مقالة الصَّحيفة ومقالة المجلَّة؛ فبينما تتَّسم مقالة الصحيفة باليسر والسهولة في لفظها وأسلوبها فإنَّ العمق، والجزالة، من سمات مقالة المجلَّة.

والمقالة الصَّحفيَّة زادٌ يوميٌّ قد ينتهي بانتهاء يومه غالباً، بينما مقالة المجلَّة تحمل قابليَّة البقاء، بل هي أقرب إلى البحث، بل قد تكون بحثاً.

ومقالة الصحيفة طابِعُها القِصَر، ولا يُصَارُ فيها إلى الإطالة إلا نادراً، وعكسها مقالة المجلَّة.

وهكذا عُرِفَت المقالة، وصار لها منهجها المميَّز، وطريقتها التي سار عليها الكُتَّاب إلى يومنا الحاضر(١).

ولا ريب أنَّ الفترة الذَّهبيَّة للمقالة كانت ـ كما مرَّ ذكره ـ في النِّصف الأوَّل في القرن الرابع عشر إلى ما يقارب العقد السابع من ذلك القرن؛ حيث ازدهرت، وراج سوقها في كثير من البلاد العربيَّة خصوصاً في الشام ومصر، وظهر في ذلك الوقت كُتَّاب أفذاذ يضارعون الكُتَّاب الأوائل في أساليبهم الراقية، وتحريراتهم العالية.

وفي ذلك الوقت حرصت الصحفُ والمجلاَّت على استقطاب أكابر الكُتَّاب والعلماء؛ فصارت ميداناً فسيحاً لنشر الأدب، والعلم، والنَّقد، والرُّدود، وما جرى مجرى ذلك.

---

(١) انظر «في الأدب الحديث» لعمر الدسوقي، ١/٥١٤ـ٥٢٥، و«الأدب العربي وتاريخه ـ العصر الحديث»، د.محمد بن سعد بن حسين، ص٨٨ـ٩١، و«النقد الأدبي» د.عبدالباسط بدر.

ولقد يسَّر الله لي فرصة الاطلاع على كثير من تلك المقالات، سواء عبر أعداد تلك الصحف والمجلات، أو عبر الكتب التي جمعت تلك المقالات.

ومهما يك من انتشار تلك المقالات، وشهرة أصحابها في ذلك الوقت ـ فإنه يبقى محدوداً إذا ما قِيس بانتشارها وسهولة تداولها في عصرنا هذا.

ثمَّ إنَّ كثيراً مما نُشِر آنذاك قد انطوى، ودَرَس، ويُخشى أن تَطَالَهُ يدُ النِّسيان، وتعدو عليه عوادي الضياع؛ فيُحرمَ هذا الجيلُ خيراً عظيماً من ذلك التُّراث، ومن تلك التَّجارب التي تسمو بهمَّة قارئها، وترتقي بأساليبه الكتابيَّة أو الخطابيَّة، وتكسبه خبرة ودراية، وتختصر عليه كثيراً من الوقت والجهد، وتوقفه على مدى ما وصلت إليه العقول في تلك الفترة، وتُقْصِره عن كثير من البحث في الأطروحات التي طرقت، وقتلت بحثاً، وأخذاً، ورداً.

كما أن بعض تلك المقالات قد خرجت في طباعة رديئة، ولم تراع فيها قواعد الترقيم؛ مما قد يغلق فهمها على كثير من القراء.

ومن هنا نشأت فكرة جمع شيء من تلك المقالات، وانتقائها، وإعدادها للنَّشر إعداداً ملائماً؛ لعلَّها تحقِّق الأغراض السابقة، وتمد قارئها بقسط وافر من العلم والفكر، وتفتح له آفاقاً من المعرفة والتَّجربة، وتوقفه على شيء من تلك الأساليب البيانيَّة الرَّاقية، وتُعرِّف القارئ بكُتَّاب في بلاد لم تأخذ حظَّها الكافي من الدِّراسة والبحث، فيظن بعض الناس أنَّها خِلْوٌ من الفكر والكتابة، مع أنَّها قد بلغت الذُّروة في العلم، والأساليب، كما هو الحال في بلاد تونس، والجزائر ـ كما سيتبيَّن من قراءة بعض ما خطَّتْهُ أنامل بعضِ العلماء والكُتَّاب هناك ـ.

ولقد احترت كثيراً في الطريقة الملائمة لنشر تلك المقالات: هل تنشر كلُّ كتابة في موضوعٍ ما على حِدَةٍ، وتخرج في أجزاء متعدِّدة كلُّ جزء يدور حول موضوع معيَّن؟

أو تجمع مقالات كلِّ كاتب، وتوضع في جزء وهكذا؟

أو يخرج ما تيسَّر منها، ثمَّ يخرج الباقي تباعاً؟

وأخيراً استقرَّ الأمر ـ بعد مشورة واستخارة ـ على أن تخرج في مجموعات، وكلُّ مجموعة تحتوي على عدد من الموضوعات لعدد من الكُتَّاب؛ حتَّى يجد القارئ في كلِّ مجموعة ما يلائم ميوله أياً كان مع مراعاة قرب بعض تلك المقالات من بعض في الموضوع.

وكل ذلك على سبيل التقريب، ومن باب تيسير القراءة، وطرد الملل.

وإلا فالمقال الواحد قد يكون داخلاً في أكثر من باب؛ لتداخل المقالات، وصلاحيَّة بعضها ليكون في أكثر من موضع.

وليس الغرض من نشر هذه المقالات تقييمَ هؤلاء الكُتَّاب، أو وزنهم، وبيان ما لهم وما عليهم.

وإنما الغرض الإفادة، والاطلاع على نتائج تلك القرائح، وما جرى مجرى ذلك ممَّا ذكر آنفاً.

ولعل ما نشر في هذه المجموعة خير ما تركوه من ثروة علمية.

ولعله ـ أيضاً ـ سبيل لنشر علمهم، وتعريف الناس بهم، وإيصال الأجر والثواب إليهم.

ثمَّ إنَّ ترجمة هؤلاء الكُتَّاب جميعاً لا تتسنَّى؛ لتعسُّر ذلك، ولكن سيكون

ترجمة موجزة لأكابر أولئك، وذلك عند أوَّل مقال يُنْشَر لهم.

كما أن بعض الكتاب ليس مشهوراً، وإنما وجدت له مقالات طيبة في تلك الصحف، فكانت ضمن ما وقع عليه الاختيار.

وكم كانت الأمنية أن تتناول هذه المجموعة وما يليها أكبر قدر من الكُتَّاب في شتى البلاد، ولكن ذلك قد لا يتأتى.

وهذه المجموعة تشتمل على أبواب متفرقة، وموضوعات متنوعة؛ في العلم والدعوة، وفي الإصلاح، وبيان أصول السَّعادة، وفي الأخلاق والتَّربية، وفي السِّياسة والاجتماع، وفي قضايا الشَّباب والمرأة، وفي أبواب الشِّعر والأدب، وفي العربيَّة وطرق التَّرقِّي في الكتابة، كما أنها تشتمل على مقالات في السِّيرة النبويَّة، وبيان محاسن الإسلام، ودحض المطاعن التي تثار حوله.

وسيجد القارئ فيها جِدَّة الطَّرح، وعمقه، وقوَّته، وطرافةَ بعض الموضوعات، ونُدرةَ طرقها.

وسينتقل من خلالها من روضة أنيقة إلى روضة أخرى، وسيجد الأساليب الرَّاقية المتنوِّعة؛ إذ بعضها يميل إلى الجزالة والشَّماسة، وبعضها يجنح إلى السُّهولة والسَّلاسة، وهكذا.

وقد يخطر ببال القارئ أن بعض المقالات يكفي قراءة عنوانها؛ فيقصره ذلك عن قراءة بقية المقال.

ولو قرأ المقال لربما رأى فيه ما لم يكن يدور في خلده من نفيس العلم، ودقيق الفهم، وجمال العرض.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، ويكفي في ذلك مقال: (مجلس رسول الله ﷺ)

للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله.

ولا يغيب عن فطنة القارئ الكريم أنَّ تلك الكتابات قد أنشئت في زمن مظلم؛ فالاحتلال كان ضارباً بجرانه في كثير من بلاد المسلمين، والشيوعيَّة كانت في عزِّ أوجها وبريقها، والجهل والهزيمة النَّفسيَّة كانا شائعين في ذلك الوقت.

وهذا يدفع إلى تقدير ما قام به أولئك الكُتَّاب، وإلى التماس العذر لهم فيما فاتهم، أو قصَّروا به إن وُجِد شيء من ذلك.

وهذه المقالات التي يحتويها هذا المجموع معزوَّة إلى مراجعها، ومُشَارٌ إلى تواريخ كتابتها إن كانت موجودة.

كما أنَّ بعضها قصير، وبعضها متوسِّط، وبعضها مطوَّل أقرب ما يكون إلى البحث العلمي.

وقد أبقيت تلك المقالات كما هي، وربَّما حَذَفْت من بعضها -وهو قليل- ما قد يُستغنى عنه، وما لا يخلُّ بأصل الموضوع، خصوصاً إذا كان يحتاج إلى مناقشة، أو كان فيه إلباس على بعض القراء، أو ما كان مشتملاً على تسويغ بعض البدع، وما إلى ذلك.

وما كان الغرض - كما مرَّ - هو محاكمة الكاتب، بل إنَّني أحاول جهدي ألا أتعرَّض لأيِّ مقال بانتقاد أو اعتراض إلا ما لا بدَّ منه من إيضاح معنى، أو إزالة إشكال، وهو قليل جدًّا؛ لأجل ألا أقطع على القارئ استرساله، ومتعته.

وأكثر الهوامش إنما هي من صنع الكتاب، وأما ما أعلق به فسيكون مختوماً بحرف (م) حتى يتميز عن الأصل.

وإليك مسرداً بعنوانات الموضوعات والمقالات التي تضمنتها هذه المجموعة:

أولاً: مقالات في السعادة

١ـ **ابتسم للحياة**: للأستاذ أحمد أمين.

٢ـ **السعادة**: للشيخ علي الطنطاوي.

٣ـ **اللذة مع الحكمة**: للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

ثانياً: مقالات في الأخلاق والمروءات والسلوك

٤ـ **أخلاق العرب وعاداتها**: للعلامة أحمد تيمور باشا.

٥ـ **أخلاق الطفولة وأخلاق الرجولة**: للأستاذ أحمد أمين.

٦ـ **الإنصاف الأدبي**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين.

٧ـ **علم الأخلاق**: للشيخ علي فكري.

٨ـ **أخلاق الناس**: د. زكي مبارك.

٩ـ **الوفاء**: للأديب الكبير مصطفى لطفي المنفلوطي.

١٠ـ **الشرف**: للأستاذ أحمد أمين.

١١ـ **مضار الإسراف**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين.

ثالثاً: مقالات في العمل والهمة والنبوغ

١٢ـ **قوة العرب المعطلة**: للعلامة محب الدين الخطيب.

١٣ـ **معركة الحياة كيف نفوز فيها**: للأستاذ أحمد أمين.

١٤ـ **النبوغ**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي.

١٥ـ **يوم البعث**: للعلامة محمود شاكر.

رابعاً: مقالات في الشباب

١٦ـ **التربية الدينية والشباب**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين.

خامساً: مقالات في المرأة

سادساً: مقالات في العادات والعبادات

سابعاً: مقالات في السياسة والإجتماع

ثامناً: مقالات في الإصلاح والدعوة إلى الله

تاسعاً: مقالات في العلم والتحقيق والطب

عاشراً: مقالات في اللغة والأدب

حادي عشر: مقالات في السيرة النبوية

الثاني عشر: مقالات في المشاعر والعواطف الإنسانية

٤٧ـ **الصداقة**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين.

٤٨ـ **الأربعون**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي.

٤٩ـ **موت أم**: مصطفى صادق الرافعي.

٥٠ـ **مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة**: للعلامة محمد البشير الإبراهيمي.

وأخيراً لا يسعني إلا أن أسأل الله العليَّ القدير أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجزيَ خير الجزاء من أعان على إخراجه مقابلةً، ومراجعةً، ومتابعةً.

كما آمل من القارئ الكريم أن يمدني بملحوظاته، واستدراكاته، وله جزيل الشكر، وخالص الدعاء.

والله المستعان وعليه التكلان.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد.

محمد بن إبراهيم الحمد

٧/ ٩/ ١٤٢٥هـ

الزلفي ص.ب ٤٦٠

الرمز البريدي ١١٩٣٢

www.toislam.net

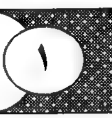
Alhamad@toislam.net

أولاً: مقالات في السعادة

١ـ **ابتسم للحياة**: للأستاذ أحمد أمين

٢ـ **السعادة**: الشيخ علي الطنطاوي

٣ـ **اللذة مع الحكمة**: للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور



ابتسم للحياة[١] الأستاذ أحمد أمين[٢]

لا شيء يضيع ملكات الشخص ومزاياه كتشاؤمه في الحياة، ولا شيء يبعث الأمل، ويقرب من النجاح ويُنَمِّي الملكات، ويبعث على العمل النافع لصاحبه وللناس، كالابتسام للحياة.

ليس المبتسمون للحياة أسعد حالاً لأنفسهم فقط، بل هم كذلك أقدر على العمل، وأكثر احتمالاً للمسئولية، وأصلح لمواجهة الشدائد، ومعالجة الصعاب، والإتيان بعظائم الأمور التي تنفعهم، وتنفع الناس.

---

(١) فيض الخاطر (وهو مجموع مقالات أدبية واجتماعية) ٦/١٢٥ـ ١٢٩.

(٢) هو الأديب والكاتب المصري الشهير صاحب المؤلفات المشهورة كفجر الإسلام، وضحى الإسلام، وفيض الخاطر، وحياتي وغيرها، توفي رحمه الله عام ١٩٥٤م.

وإليك هذه الكلمة التي كتبها عنه الشيخ العلامة الجزائري محمد البشير الإبراهيمي بعد وفاته: «فمقدمة صفوف العلماء والأدباء الأستاذ أحمد أمين، وهو من أعيان علماء العصر، وألمع أدبائه.

ولقد تركت وفاته ثُلمة في صفوف العلماء والأدباء لا إخالها تسد في هذا الجيل.

ومن يخلف أحمد أمين في دقة البحث، والتعمق، والتوجيه، وأصالة الرأي، والنقد النزيه.

تمتاز آثاره العلمية بتلك المميزات، وبالنزعة الدينية من غير تعصب، أو تزمت، وهو رجل هادئ في بحوثه، صبور دؤوب يحترم نفسه، ويحترم قراءه، وأقسم يميناً برة أني ما قرأت له شيئاً إلا وخرجت بفكرة قويمة، وفائدة عظيمة.

عرفناه ـ كما عرفه غيرنا من قراء العربية ـ على صفحات مجلتي الرسالة، والثقافة، وكتاب فجر الإسلام، وما تسلسل بعد من الضحى، والظهر، وكتاب يوم الإسلام، وكتاب حياتي فكان إعجابي به يتعاظم» انظر آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ٤/ ١٠٥.

لو خُيِّرتُ بين مال كثير، أو منصب خطير، وبين نَفْسٍ راضية باسمة ـ لاخترت الثانية؛ فما المال مع العبوس؟ وما المنصب مع انقباض النفس؟ وما كل ما في الحياة إذا كان صاحبه ضيقاً حرجاً كأنه عائد من جنازة حبيب؟ وما جمال الزوجة إذا عبست، وقلبت بيتها جحيماً؟ لَخَيْرٌ منها ألف مرة زوجة لم تبلغ مبلغها في الجمال، وجعلت بيتها جنة.

ولا قيمة للبسمة الظاهرة إلا إذا كانت منبعثةً عن نفس باسمةٍ، وتفكير باسمٍ، وكل شيء في الطبيعة جميلٌ باسمٌ منسجمٌ، وإنما يأتي العبوس مما يعتري طبيعة الإنسان من شذوذ، فالزهر باسم، والغابات باسمة، والبحار، والأنهار، والسماء، والنجوم، والطيور كلها باسمة، وكان الإنسان بطبعه باسماً لولا ما يعرض له من طمع، وشر، وأنانية تجعله عابساً؛ فكان بذلك نشازاً في الطبيعة المنسجمة.

ومن أجل هذا لا يرى الجمالَ مَنْ عَبَستْ نفسُه، ولا يرى الحقيقةَ مَنْ تدنَّس قلبه؛ فكل إنسان يرى الدنيا من خلال عمله، وفكره، وبواعثه؛ فإذا كان العمل طيباً، والفكر نظيفاً، والبواعث طاهرة ـ كان منظاره الذي يرى به الدنيا نقياً، فرأى الدنيا جميلة كما خلقت، وإلا تغبَّش منظاره، وأسْوَدَّ زجاجُه، فرأى كل شيء أسودَ مغبَّشاً.

هناك نفوس تستطيع أن تخلق من كل شيء شقاءًا، ونفوس تستطيع أن تخلق من كل شيء سعادة، هناك المرأة في البيت لا تقع عينها إلا على الخطأ، فاليوم أسود؛ لأنَّ طبقاً كُسِرْ ولأنّ نوعاً من الطعام زاد الطاهي في ملحه، أو أنها عثرت

على قطعة من الورق في الحجرة، فتهيج، وتسب، ويتعدى السباب إلى كل من في البيت، وإذا هو شعلة من نار.

وهناك رجل ينغِّص على نفسه، وعلى مَنْ حوله مِنْ كلمة يسمعها، أو يؤولها تأويلاً سيئاً، أو من عمل تافهٍ حدث له، أو حدث منه، أو من ربح خسره، أو من ربح كان ينتظره فلم يحدث، أو نحو ذلك، فإذا الدنيا كلها سوداء في نظره، ثم هو يُسَوِّدها على من حوله.

هؤلاء عندهم قدرة المبالغة في الشر، فيجعلون من الحبة قبة، ومن البذرة شجرة، وليس عندهم قدرة على الخير، فلا يفرحون بما أوتوا ولو كثيراً، ولا ينعمون بما نالوا ولو عظيماً.

الحياة فنٌّ، وفنٌّ يُتَعَلَّم، ولَخيرٌ للإنسان أن يَجِدَّ في وضع الأزهار، والرياحين، والحب في حياته من أن يَجِدَّ في تكديس المال في جيبه، أو في مصرفه.

ما الحياة إذا وجهت كل الجهود فيها لجمع المال، ولم يوجه أي جهد لترقية جانب الجمال، والرحمة، والحب فيها؟

أكثر الناس لا يفتحون أعينهم لمباهج الحياة، وإنما يفتحونها للدرهم والدينار، يمرون على الحديقة الغناء، والأزهار الجميلة، والماء المتدفق، والطيور المغردة؛ فلا يأبهون لها، وإنما يأبهون لدينار يأتي، ودينار يخرج.

قد كان الدينار وسيلة للعيشة السعيدة، فَقَلبوا الوضع، وباعوا العيشة السعيدة من أجل الدينار، وقد رُكِّبت فينا العيون؛ لنظر الجمال، فعودناها ألا تنظر إلا إلى الدينار.

ليس يعبس النفس والوجه كاليأس؛ فإن أردت الابتسام فحارب اليأس.

إن الفرصة سانحة لك وللناس، والنجاحَ مفتوحٌ بابُه لك وللناس؛ فَعَوِّد عقلك تَفَتُّحَ الأمل، وتوقُّعَ الخير في المستقبل.

إذا اعتقدت أنك مخلوق للصغير من الأمور لم تبلغ في الحياة إلا الصغير، وإذا اعتقدت أنك مخلوق لعظائم الأمور شعرت بهمة تكسر الحدود والحواجز، وتنفذ منها إلى الساحة الفسيحة، والغرض الأسمى.

ومصداق ذلك حادث في الحياة المادية، فمن دخل مسابقة مائة متر شعر بالتعب إذا هو قطعها، ومن دخل مسابقة أربعمائة متر لم يشعر بالتعب من المائة والمائتين؛ فالنفس تعطيك من الهمة بقدر ما تحدد من الغرض، حدد غرضك، وليكن سامياً صعب المنال، ولكن لا عليك في ذلك ما دمت كل يوم تخطو إليه خطواً جديداً.

إنما يصد النفس، ويعبِّسُها، ويجعلها في سجن مظلم ـ اليأسُ، وفقدان الأمل، والعيشة السيئة برؤية الشرور، والبحث عن معايب الناس، والتشدق بالحديث عن سيئات العالم لا غير.

وليس يُوفَّق الإنسان في كل شيء كما يوفق إلى مربٍّ ينمي ملكاتِه الطبيعيةَ، ويعادل بينها، ويوسع أفقه، ويعوِّدُه السماحة وسعة الصدر، ويعلمه أن خير غرض يسعى إليه أن يكون مَصْدَرَ خيرٍ للناس بقدر ما يستطيع، وأن تكون نفسه شمساً مشعةً للضوء، والحب، والخير، وأن يكون قلبه مملوءاً، عطفاً، وبراً، وإنسانية، وحباً لإيصال الخير لكل من اتصل به.

النفس الباسمة ترى الصعاب فيلذها التغلب عليها، تنظرها فتبسم، وتعالجها فتبسم، وتتغلب عليها فتبسم، والنفس العابسة لا ترى صعاباً فتخلقها، وإذا رأتها أكبرتها واستغرت همتها بجانبها، فهربت منها، وقبعت في جحرها تسب الدهر والزمان والمكان، وَتَعلَّلَتْ بلو، وإذا، وإن.

وما الدهر الذي يلعنه إلا مزاجه وتربيته، إنه يود النجاح في الحياة ولا يريد أن يدفع ثمنه، إنه يرى في كل طريق أسداً رابضاً، إنه ينتظر حتى تمطر السماء ذهباً، أو تنشق الأرض عن كنز.

إن الصعاب في الحياة أمور نسبية؛ فكل شيء صعب جداً عند النفس الصغيرة جداً، ولا صعوبة عظيمة عند النفس العظيمة، وبينما النفس العظيمة تزداد عظمة بمغالبة الصعاب إذا بالنفوس الهزيلة تزداد سقماً بالفرار منها، وإنما الصعاب كالكلب العقور إذا رآك خفت منه، وجريت نبحك وعدا وراءك، وإذا رآك تهزأ به، ولا تُعِيرُه اهتماماً، وتبرق له عينك أفسح الطريق لك، وانكمش في جلده منك.

ثم لا شيء أقتل للنفس من شعورها بضعتها، وصغر شأنها، وقلة قيمتها، وأنها لا يمكن أن يصدر عنها عمل عظيم، ولا ينتظر منها خير كبير.

هذا الشعور بالضعة يفقد الإنسان الثقة بنفسه، والإيمان بقوتها؛ فإذا أقدم على عمل ارتاب في مقدرته، وفي إمكان نجاحه، وعالجه بفتور؛ ففشل فيه.

الثقة بالنفس فضيلة كبرى عليها عماد النجاح في الحياة، وشتان بينها وبين الغرور الذي يعد رذيلة، والفرق بينهما أن الغرورَ اعتماد النفس على الخيال،

وعلى الكبرِ الزائفِ، والثقةَ بالنفس اعتمادُها على مقدرتها على تحمل المسؤولية، وعلى تقوية ملكاتها، وتحسين استعدادها.

وبَعْدُ: فالشرق في حاجة كبرى إلى كميات كبيرة من الابتسامات الصادقة الدالة على النفوس الراضية الآملة الطامحة.

سِرْ أنى شئت في الشوارع، واغشَ المنتدياتِ والمجتمعات، وَتَفرّسْ في الوجوه، فقلما ترى إلا وجوهاً مُقَطّبة الجبين، ورؤوساً أثقلها الهم، فخفضها، وعيوناً ساهمةً قد فقدت بريق السرور، ولمعان الحيوية.

استتن الضحكات العالية في مجالي اللهو، وأماكن التنادر، فهل ترى إلا العبوس وما يشبه العبوس، واستبعد البسمات المزيفة المتصنعة في المقابلات، والمجاملات، وانفذ منها إلى أعماق النفوس، فهل ترى إلا انقباضاً وانكماشاً؟

فما السر في هذا كله؟

سِرُّهُ في تعاقبِ الظُّلم على الشعوب من زمن قديم حتى سلبها حريَّتَها، وهل تَبَسَّمُ النفسُ إلا للحرية، وهل تَنقبضُ إلا من الاستبداد؟!

وسرُّه في الفقر الشامل لأكثر أفراد الشعب، فهم يحملون الهم المضني، كيف يأكلون ويعيشون، وكيف يسدون حاجات أسرتهم ومَنْ تعلَّق في رقبتهم، والمنافذ ضيقة في وجوههم، وأكثر الثروة قد ضاعت من أيديهم.

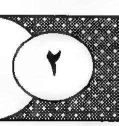
وسرُّه في ضعف التربية التي لا تفتح النفس للحياة، وتكتفي بالعلم الجاف.

وسره في أننا إلى الآن لم نتعلم فن الحياة، ولم نسمع به في برامج الدراسة، ولم نره لا في بيوتنا، ولا في مدارسنا، ولا عند خطبائنا وكتابنا.

وسره أننا لم نستشعر الثقة بالنفس؛ فلا الفرد يثق بنفسه، ولا المواطن يثق بمواطنه، ولا رجال الإدارة والأعمال يثقون بمواطنيهم، ولا الناس يثقون بأولي الأمر فيهم.

فلنتغلب على هذه الصعوبات جميعاً، ولنبسم للحياة ولو تَكَلُّفاً ينقلب التكلف بعد حين تَطَبُّعاً.

ابسم للطفل في مهده، وللصانع في عمله، وابسم لأولادك وأنت تربيهم، وابسم للتاجر وأنت تعامله، وابسم للصعوبة تعترضك، وابسم إذا نجحت، وابسم إذا فشلت، وانثر البسمات يميناً وشمالاً على طول الطريق؛ فإنك لن تعود للسير فيه.



٢ السعادة[١] للشيخ علي الطنطاوي[٢]

كنتُ أَقْرَأُ في ترجمة (كانت) الفيلسوف الألماني الأشهر أنه كان لجاره ديك قد وضعه على السطح قبالة مكتبه، فكلما عَمِدَ إلى شغله صاح الديك، فأزعَجه عن عمله، و قطع عليه فكره.

فلما ضاق به بعث خادمه؛ ليشتريه، و يذبحه، و يطعمه من لحمه، و دعا إلى ذلك صديقاً له، وقعدا ينتظران الغداء، ويحدِّثه عن هذا الديك، وما كان يلقى منه من إزعاج، وما وجده بعده من لذة وراحة، ففكَّر في أمان، واشتغل في

---

(١) نشرت في سنة ١٩٤٨م، وهي في كتاب (صور وخواطر) للشيخ علي الطنطاوي رحمه الله.

(٢) هو الشيخ الأديب علي بن مصطفى الطنطاوي، ولد في مدينة دمشق ١٣٢٧هـ، لأسرة ذات علم ودين.

أصله من مدينة طنطا في مصر حيث انتقل جده محمد بن مصطفى في أوائل القرن التاسع عشر إلى دمشق.

تلقى الشيخ علي الطنطاوي دراسته الابتدائية الأولى في العهد العثماني، فكان طالباً في المدرسة التجارية، ثم في المدرسة السلطانية الثانية وبعدها في المدرسة الجقمقية، ثم في مدرسة حكومية أخرى إلى سنة ١٩٢٣ حيث دخل مكتب عنبر الذي كان الثانوية الوحيدة في دمشق، ومنه نال البكالوريا سنة ١٩٢٨، ثم ذهب إلى مصر ودخل دار العلوم العليا، ولكنه لم يتم السنة، وعاد إلى دمشق في السن التالية، فدرس الحقوق في جامعتها حتى نال الليسانس سنة ١٩٣٣.

كان الشيخ علي الطنطاوي من الذين جمعوا في الدراسة بين طريقي التلقي على المشايخ، والدراسة في المدارس النظامية، فقد تعلم في هذه المدارس إلى أن تخرج من الجامعة، وكان يقرأ معها على المشايخ علوم العربية والعلوم الدينية على الأسلوب القديم.

=

هدوء، فلم يقلقه صوته، ولم يزعجه صياحه.

ودخل الخادم بالطعام معتذراً أن الجار أبى أن يبيع ديكه، فاشترى غيره من السوق، فانتبه (كانت) فإذا الديك لا يزال يصيح!

= ابتدأ الطنطاوي التدريس في المدارس الأهلية في دمشق وهو في الثامنة عشرة من عمره، وقد طبعت محاضراته التي ألقاها على طلبة الكلية الوطنية في دروس الأدب العربي عن (بشار بن برد) في كتاب عام ١٩٣٠.

بعد ذلك عين معلماً ابتدائياً في مدارس الحكومة سنة ١٩٣١.

عام ١٩٣٦ انتقل الطنطاوي للتدريس في العراق حتى عام ١٩٣٩، لم ينقطع عنه غير سنة واحدة أمضاها في بيروت مدرساً في الكلية الشرعية فيها حتى عام ١٩٣٧.

ثم رجع إلى دمشق فعين أستاذاً معاوناً في مكتب عنبر.

عام ١٩٤١ دخل الطنطاوي سلك القضاء، فعين قاضياً في النبك مدة أحد عشر شهراً ثم قاضياً في دوما (من قرى دمشق)، ثم قاضياً ممتازاً في دمشق مدة عشر سنوات، فمستشاراً لمحكمة النقض في الشام، ثم مستشاراً لمحكمة النقض في القاهرة أيام الوحدة مع مصر.

انتقل الطنطاوي عام ١٩٦٣ بعد انقلاب الثامن من آذار، وإعلان حالة الطوارئ في سورية إلى المملكة العربية السعودية؛ ليعمل مدرساً في كلية الشريعة وكلية اللغة العربية في الرياض، ومنها انتقل إلى مكة، للتدريس فيها ليمضي فيها وفي جدة خمساً وثلاثين سنة.

وفي عام ١٤٢٠هـ توفي علي الطنطاوي في جدة، ودفن في مكة في اليوم التالي بعدما صلي عليه في الحرم المكي الشريف.

كان الطنطاوي أديباً وداعية يتمتع بأسلوب سهل جميل جذاب متفرد لا يكاد يشبهه به أحد، يمكن أن يوصف بأنه السهل الممتنع، فيه تظهر عباراته أنيقة مشرقة، فيها جمال ويسر، وهذا مما مكّنه من طرح أخطر القضايا والأفكار بأسلوب يطرب له المثقف، ويرتاح له العامي.

ترك الطنطاوي عدة مؤلفات هي: هتاف المجد ـ مباحث إسلامية ـ فصول إسلامية ـ نفحات من الحرم ـ صور من الشرق ـ صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق) ـ فكر ومباحث ـ بشار بن برد ـ مع الناس ـ رسائل =

فكّرت في هذا الفيلسوف العظيم فرأيته قد شَقِيَ بهذا الديك؛ لأنه كان يصيح، وسَعِد به وهو لا يزال يصيح.

ما تبدَّل الواقع، ما تبدَّل إلا نفسه، فنفسه هي التي أشقته لا الديك، ونفسه هي التي أسعدته، وقلت: مادامت السعادة في أيدينا فلماذا نطلبها من غيرنا؟ ومادامت قريبة منا فلماذا نبعدها عنَّا؛ إذ نمشي إليها من غير طريقها، ونلجها من غير بابها؟

إننا نريد أن نذبح (الديك) لنستريح من صوته، ولو ذبحناه لوجدنا في مكانه مائة ديك؛ لأن الأرض مملوءة بالدِيَكة، فلماذا لا نرفع الدِيَكة من رؤوسنا إذا لم يمكن أن نرفعها من الأرض؟ لماذا لا نسدُّ آذاننا عنها إذا لم نقدر أن نسدَّ أفواهها عنَّا؟ لماذا لا نجعل أهواءنا وَفْقَ ما في الوجود إذا لم نستطع أن نجعل كل ما في الوجود وفق أهوائنا؟

أنام في داري فلا توقظني عربات الشارع وهي تزلزل بسيرها الأرض، ولا أصوات الباعة وهي ترعد في الجو، ولا أبواق السيارات وهي تُسْمِعُ الموتى،

= الإصلاح - مسرحية أبي جهل - ذكريات علي الطنطاوي. (ثمانية أجزاء) - أخبار عمر - بغداد - حكايات من التاريخ (من أدب الأطفال) - أعلام التاريخ (سلسلة للتعريف بأعلام الإسلام) - تعريف عام بدين الإسلام - صور وخواطر - من حديث النفس - الجامع الأموي - قصص من التاريخ - قصص من الحياة - أبو بكر الصديق - عمر بن الخطاب. (جزآن) - في إندونيسيا - في بلاد العرب - في سبيل الإصلاح - رسائل سيف الإسلام - رجال من التاريخ - الهيثميات - التحليل الأدبي - من التاريخ الإسلامي - دمشق - مقالات في كلمات.

وتوقظني همسة في جوِّ الدار ضعيفة، وخطوة على ثراها خفيفة، فإن نمت في الفندق لم يوقظني شيء وراء باب غرفتي، فإن كان نومي في القطار لم يزعجني عن منامي حديث جيراني إلى جنبي، ولا صوت القطار وهو يهتز بي؛ فكيف احتملت هنا ما لم أكن أحتمله هناك؟ وآلمني هناك ما لم يؤلمني هنا؟

ذلك لأن الحس كالنور، إن أطلقته أضاء لك ما حولك فرأيت ما تحب و ما تكره، وإن حجبته حجب الأشياء عنك، فأنت لا تسمع أصوات الشارع مع أنها أشد وأقوى، وتسمع همس الدار وهو أضعف وأَخْفَت؛ لأنك وجَّهت إلى هذا حسَّك، وأدخلته نفسك؛ فسمعته على خُفُوته كما ترى في الضياء صغائر الأشياء، وأَغْفَلتَ ذلك وأخرجته من نفسك، فلم تَسْمَعه على شدته، وخفي عنك كما تختفي في الظلام عظائمُ الموجودات.

فلماذا لا تَصرِفُ حسَّك عن كل مكروه؟ إنه ليس كل ألم يدخل قلبك، ولكن ما أدخلته أنت برضاك، وقَبِلْتَه باختيارك، كما يُدْخِلُ الملكُ العدوَّ قلعته بثغرة يتركها في سورها، فلماذا لا نقوِّي نفوسنا حتى نتخذ منها سوراً دون الآلام؟

إني أسمعكم تتهامسون، تقولون: «فلسفة و أوهام» نعم، إنها فلسفة، ولكن ليست كل فلسفة هذياناً، وإنها أوهام، ولكن الحياة كلها أوهام تزيد وتنقص، ونسعد بها ونشقى، أو شيء كالأوهام.

يحمل الرجلان المتكافئان في القوة الحمل الواحد، فيشكو هذا ويتذمر؛ فكأنه حمل حملين، ويضحك هذا ويغني؛ فكأنه ما حمل شيئاً.

ويمرض الرجلان المتعادلان في الجسم المرض الواحد، فيتشاءم هذا، ويخاف، ويتصور الموت، فيكون مع المرض على نفسه؛ فلا ينجو منه، ويصبر هذا ويتفاءل ويتخيل الصحة؛ فتسرع إليه، ويسرع إليها.

ويُحكم على الرجلين بالموت؛ فيجزع هذا، ويفزع؛ فيموت ألف مرة من قبل الممات، ويملك ذلك أمره ويحكِّم فكره، فإذا لم تُنجه من الموت حيلته لم يقتله قبل الموت وَهْمُهُ.

وهذا (بسمارك) رجل الدم والحديد، وعبقري الحرب والسِلْم، لم يكن يصبر عن التدخين دقيقةً واحدة، وكان لا يفتأ يوقد الدخّينة من الدخينة نهاره كله فإذا افتقدها خلَّ فكرُه، وساء تدبيره.

وكان يوماً في حرب، فنظر فلم يجد معه إلا دخينة واحدة، لم يصل إلى غيرها، فأخَّرها إلى اللحظة التي يشتد عليه فيها الضيق ويعظم الهم، وبقي أسبوعاً كاملاً من غير دخان، صابراً عنه أملاً بهذه الدخينة، فلما رأى ذلك ترك التدخين، وانصرف عنه؛ لأنه أبى أن تكون سعادته مرهونة بلفافة تبغ واحدة.

وهذا العلامة المؤرخ الشيخ الخضري أصيب في أواخر عمره بِتَوَهُّمِ أن في أمعائه ثعباناً، فراجع الأطباء، وسأل الحكماء؛ فكانوا يدارون الضحك حياءاً منه، ويخبرونه أن الأمعاء قد يسكنها الدود، ولكن لا تقطنها الثعابين، فلا يصدق، حتى وصل إلى طبيب حاذق بالطب، بصير بالنفسيات، قد سَمِع بقصته، فسقاه مُسَهِّلاً وأدخله المستراح، وكان وضع له ثعباناً فلما رآه أشرق وجهه، ونشط جسمه، وأحس بالعافية، ونزل يقفز قفزاً، وكان قد صعد

متحاملاً على نفسه يلهث إعياءاً، و يئن ويتوجع، ولم يمرض بعد ذلك أبداً.

ما شَفِي الشيخ لأنَّ ثعباناً كان في بطنه ونَزَل، بل لأن ثعباناً كان في رأسه وطار؛ لأنه أيقظ قوى نفسه التي كانت نائمة، وإن في النفس الإنسانية لَقُوىً إذا عرفتم كيف تفيدون منها صنعت لكم العجائب.

تنام هذه القوى، فيوقظها الخوف أو الفرح؛ أَلَمْ يتفق لواحد منكم أن أصبح مريضاً، خامل الجسد، وَاهِيَ العزم لا يستطيع أن ينقلب من جنب إلى جنب، فرأى حيَّة تقبل عليه، ولم يجد مَنْ يدفعها عنه، فوثب من الفراش وثباً، كأنه لم يكن المريض الواهن الجسم؟ أو رجع إلى داره العصر وهو ساغب لاغب، قد هَدَّه الجوع والتعب، لا يبتغي إلا كُرْسِيًّا يطرح نفسه عليه، فوجد برقية من حبيب له أنه قادم الساعة من سفره، أو كتاباً مستعجلاً من الوزير يدعوه إليه؛ ليرقي درجته، فأحسَّ الخفة و الشبع، وعدا عدواً إلى المحطة، أو إلى مقر الوزير؟

هذه القوى هي منبع السعادة تتفجر منها كما يتفجر الماء من الصخر نقيًّا عذباً، فتتركونه وتستقون من الغدران الآسنة، والسواقي العكرة!

يا أيها القراء: إنكم أغنياء، ولكنكم لا تعرفون مقدار الثروة التي تملكونها، فترمونها؛ زهداً فيها، واحتقاراً لها.

يصاب أحدكم بصداع أو مغص، أو بوجع ضرس، فيرى الدنيا سوداء مظلمة؛ فلماذا لم يرها لما كان صحيحاً بيضاء مشرقة؟ ويُحْمَى عن الطعام ويمنع منه، فيشتهي لقمة الخبز ومضغة اللحم، ويحسد من يأكلها؛ فلماذا لم يعرف لها لذتها قبل المرض؟

لماذا لا تعرفون النعم إلا عند فقدها؟

لماذا يبكي الشيخ على شبابه، ولا يضحك الشاب لصباه؟

لماذا لا نرى السعادة إلا إذا ابتعدت عنَّا، ولا نُبْصِرها إلا غارقة في ظلام الماضي، أو مُتَّشحةً بضباب المستقبل؟

كل يبكي ماضيه، ويحن إليه؛ فلماذا لا نفكر في الحاضر قبل أن يصير ماضياً؟

أيها السادة والسيدات:

إنا نحسب الغنى بالمال وحده، وما المال وحده؟ ألا تعرفون قصة الملك المريض الذي كان يُؤْتى بأطايب الطعام، فلا يستطيع أن يأكل منها شيئاً، لمَّا نَظَر من شباكه إلى البستاني وهو يأكل الخبز الأسمر بالزيتون الأسود، يدفع اللقمة في فمه، ويتناول الثانية بيده، ويأخذ الثالثة بعينه، فتمنى أن يجد مثل هذه الشهية ويكون بستانياً؟

فلماذا لا تُقدِّرون ثمن الصحة؟ أَما للصحة ثمن؟

من يرضى منكم أن ينزل عن بصره و يأخذ مائة ألف دولار؟ من يبيع قطعة من أنفه بأموال الشربتلي؟

أما تعرفون قصة الرجل الذي ضل في الصحراء، وكاد يهلك جوعاً وعطشاً، لما رأى غدير ماء، وإلى جنبه كيس من الجلد، فشرب من الغدير، وفتح الكيس يأمل أن يجد فيه تمراً أو خبزاً يابساً، فلما رأى ما فيه، ارتد يأساً، وسقط إعياءً. لقد رآه مملوءاً بالذهب!

وذاك الذي لقي مثل ليلة القدر، فزعموا، أنه سأل ربه أن يحول كل ما مسته

يده ذهباً، ومس الحجر فصار ذهباً؛ فكاد يجن من فرحته؛ لاستجابة دعوته، ومشى إلى بيته ما تسعه الدنيا، وعمد إلى طعامه؛ ليأكل، فمس الطعام، فصار ذهباً وبقي جائعاً، وأقبلت بنته تواسيه، فعانقها فصارت ذهباً، فقعد يبكي يسأل ربه أن يعيد إليه بنته وسُفرته وأن يبعد عنه الذهب!

وروتشلد الذي دخل خزانة ماله الهائلة، فانصفق عليه بابها، فمات غريقاً في بحر من الذهب.

يا سادة: لماذا تطلبون الذهب وأنتم تملكون ذهباً كثيراً؟ أليس البصر من ذهب، والصحة من ذهب، والوقت من ذهب؛ فلماذا لا نستفيد من أوقاتنا؟ لماذا لا نعرف قيمة الحياة؟

كلفتني المجلة بهذا الفصل من شهر، فما زلت أماطل به، والوقت يمر، أيامه ساعات، وساعاته دقائق، لا أشعر بها، ولا أنتفع منها، فكأنها صناديق ضخمة خالية، حتى إذا دنا الموعد ولم يبق إلا يوم واحد، أقبلت على الوقت أنتفع به، فكانت الدقيقة ساعة، والساعة يوماً، فكأنها العلب الصغيرة المترعة جوهراً وتبراً، واستفدت من كل لحظة حتى لقد كتبت أكثره في محطة (باب اللوق) وأنا أنتظر الترام في زحمة الناس، وتدافع الركاب، فكانت لحظة أبرك عليَّ من تلك الأيام كلها، وأسفت على أمثالها، فلو أني فكرت كلما وقفت أنتظر الترام بشيء أكتبه، وأنا أقف كل يوم أكثر من ساعة متفرِّقة أجزاؤها ـ لربحت شيئاً كثيراً.

ولقد كان الصديق الجليل الأستاذ الشيخ بهجة البيطار يتردد من سنوات بين دمشق وبيروت، يعلم في كلية المقاصد وثانوية البنات، فكان يتسلى في القطار

بالنظر في كتاب (قواعد التحديث) للإمام القاسمي ، فكان من ذلك تصحيحاته وتعليقاته المطبوعة مع الكتاب.

والعلامة ابن عابدين كان يطالع دائماً ، حتى إنه إذا قام إلى الوضوء أو قعد للأكل أمر من يتلو عليه شيئاً من العلم فألّف (الحاشية).

والسرخسي أَمْلَى وهو محبوس في الجب ، كتابه (المبسوط) أَجَلَّ كتب الفقه في الدنيا.

وأنا أعجب ممن يشكو ضيق الوقت ، وهل يُضَيّق الوقت إلا الغفلة أو الفوضى؛ انظروا كم يقرأ الطالب ليلة الامتحان ، تروا أنه لو قرأ مثله ـ لا أقول كل ليلة ، بل كل أسبوع مرة ـ لكان عَلاَّمَة الدنيا ، بل انظروا إلى هؤلاء الذين ألّفوا مئات الكتب كابن الجوزي والطبري والسيوطي ، والجاحظ ، بل خذوا كتاباً واحداً كنهاية الإرب ، أو لسان العرب ، وانظروا ، هل يستطيع واحد منكم أن يصبر على قراءته كله ، ونسخه مرة واحدة بخطه ، فضلاً عن تأليف مثله من عنده؟

والذهن البشري ، أليس ثروة؟ أما له ثروة؟ أما له ثمن؟ فلماذا نشقى بالجنون ولا نسعد بالعقل؟ لماذا لا نمكن للذهن أن يعمل ، ولو عمل لجاء بالمدهشات؟

لا أذكر الفلاسفة و المخترعين ، ولكن أذكركم بشيء قريب منكم ، سهل عليكم هو الحفظ ، إنكم تسمعون قصة البخاري لما امتحنوه بمائة حديث خلطوا متونها وإسنادها ، فأعاد المائة بخطئها وصوابها ، والشافعي لمّا كتب مجلس مالك بريقه على كفه وأعاده من حفظه ، والمعري لما سَمِع أرمنيين يتحاسبان بِلُغَتهما ،

فلما استشهداه أعاد كلامهما وهو لا يفهمه، والأصمعي وحمّاد الراوية وما كانا يحفظان من الأخبار والأشعار، وأحمد وابن معين وما كانا يرويان من الأحاديث والآثار، والمئات من أمثال هؤلاء؛ فتعجبون، ولو فكّرتم في أنفسكم لرأيتم أنكم قادرون على مثل هذا، ولكنكم لا تفعلون.

انظروا كم يحفظ كل منكم من أسماء الناس، والبلدان، والصحف، والمجلات، والأغاني، والنكات، والمطاعم، والمشارب، وكم قصة يروي من قصص الناس والتاريخ، وكم يشغل من ذهنه ما يمر به كل يوم من المقروءات، والمرئيات، والمسموعات؛ فلو وضع مكان هذا الباطل علماً خالصاً، لكان مثل هؤلاء الذين ذكرت.

أعرف نادلاً كان في (قهوة فاروق) في الشام من عشرين سنة اسمه (حلمي) يدور على رواد القهوة وهم مئات يسألهم ماذا يطلبون: قهوة، أو شاياً، أو هاضوماً - كازوزة - أو ليموناً، والقهوة حلوة ومرة، والشاي أحمر وأخضر، والكازوزة أنواع، ثم يقوم وسط القهوة ويردد هذه الطلبات جهراً في نَفَسٍ واحد، ثم يجيء بها فما يخرم مما طلب أحد حرفاً!

فيا سادة: إن الصحة والوقت والعقل، كل ذلك مال، وكل ذلك من أسباب السعادة لمن شاء أن يسعد.

وملاك الأمر كله ورأسه الإيمان، الإيمان يشبع الجائع، ويدفئ المقرور، ويغني الفقير، ويُسَلّي المحزون، ويقوّي الضعيف، ويُسَخّي الشحيح، ويجعل للإنسان من وحشته أنساً، ومن خيبته نُجحاً.

وأن تنظر إلى من هو دونك، فإنك مهما قَلَّ مُرَتَّبك، وساءت حالك أحسن من آلاف البشر ممن لا يقل عنك فهماً وعلماً، وحسباً ونسباً.

وأنت أحسن عيشة من عبدالملك بن مروان، وهارون الرشيد، وقد كانا مَلِكَي الأرض.

فقد كانت لعبد الملك ضرس منخورة تؤلمه حتى ما ينام منها الليل، فلم يكن يجد طبيباً يحشوها، ويلبسها الذهب، وأنت تؤلمك ضرسك حتى يقوم في خدمتك الطبيب.

وكان الرشيد يسهر على الشموع، ويركب الدواب والمحامل وأنت تسهر على الكهرباء، وتركب السيارة، وكانا يرحلان من دمشق إلى مكة في شهر و أنت ترحل في أيام أو ساعات.

فيا أيها القراء: إنكم سعداء ولكن لا تدرون، سعداء إن عرفتم قدر النعم التي تستمتعون بها، سعداء إن عرفتم نفوسكم وانتفعتم بالمخزون من قواها، سعداء إن سددتم آذانكم عن صوت الديك[1]، ولم تطلبوا المستحيل، فتحاولوا سد فمه عنكم، سعداء إن طلبتم السعادة من أنفسكم لا مما حولكم.

سعداء إن كانت أفكاركم دائماً مع الله، فشكرتم كل نعمة، وصبرتم على كل بَلِيَّة، فكنتم رابحين في الحالين، ناجحين في الحياتين.

والسلام عليكم ورحمة الله.

---

(١) يشير إلى قصة ديك الفيلسوف (كانت) الماضية (م).

٣ اللذة مع الحكمة[1] الشيخ محمد الطاهر بن عاشور[2]

سبرنا أغراض الإنسان، فوجدناه ظَمِئاً إلى مُلائِماتِ نفسه كيفما اتفق، ومتى اتفق، وأين اتفق، غير باحث عن ما يتبع ذلك من المضار، فأردنا أن نبين

---

(١) السعادة العظمى، العدد١٩و٢٠، (١٦) شوال ١٣٢٢هـ، المجلد الأول(٣٠٤ـ٣٠٩).

(٢) هو العلامة الشيخ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، ولد في ضاحية المرسى في تونس سنة ١٢٩٦هـ بقصر جده للأم الصدر الوزير محمد العزيز بو عتور.

وقد شب في أحضان أسرة علمية، ونشأ بين أحضان والد يأمل أن يكون على مثال جده في العلم والنبوغ والعبقرية، وفي رعاية جده لأمه الوزير الذي يحرص على أن يكون خليفة في العلم والسلطان والجاه.

تلقى العلم كأبناء جيله، حيث حفظ القرآن، واتجه إلى حفظ المتون السائدة في وقته، ولما بلغ الرابعة عشرة التحق بجامع الزيتونة سنة ١٣١٠، وشرع ينهل من معينه في تعطش وحب للمعرفة، ثم برز ونبغ في شتى العلوم سواء في علوم الشريعة، أو اللغة، أو الآداب أو غيرها؛ فكان آية في ذلك كله.

له مؤلفات عديدة في شتى الفنون، منها تفسيره المسمى بالتحرير والتنوير، ومقاصد الشريعة، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام، وكشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ، وردٌّ على كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق، وأصول التقدم في الإسلام، وأصول الإنشاء والخطابة، وغيرها كثير.

وكان ذا عقل جبار وذا تدفُّق وتدفُّع في العلم؛ فكأنه إذا كتب في أي فنٍّ أو موضوع- يغرف من بحر، وينحت من صخر؛ فإذا رأيت عنوان الموضوع قلت ماذا سيقول؟ فإذا قرأت ما تحته رأيت العجب العجاب، لهذا فإنك تحتاج وأنت تقرأ له أن تُحضر ذهنك، ولا تتشاغل عنه.

وهذا المقال كتبه وهو في الخامسة والعشرين من عمره.

توفي رحمه الله يوم الأحد ١٣ رجب ١٣٩٣هـ.

وإذا أردت التوسع في ترجمته فارجع إلى كتاب شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، تأليف د. بلقاسم الغالي.

هنا حقيقة اللذة، ثم نبحثَ عن مواقعها، وننظر فيما إذا كانت لذةٌ دائمةٌ في هذا الكون الجثماني.

اضطربت آراء الناس - حتى الفلاسفة - في تشخيص معنى اللذة، وكلّت أقلام الكتاب والشعراء دون ذلك، **والذي نختار من بين كثرتها رأيان:**

أولهما: يرى أن اللذة هي إدراك النفس ما يلائمها، وتراه حسناً.

وثانيهما: أنها التخلص من آلام طبيعية، أو عارضة.

ونحن إن نقدنا الأقوال، ولم نذهب مع تشعبها لا يعترضنا شك في الحق أن اللذةَ إدراكُ النفسِ ما يلائمها على ما رأى أهلُ الرأي الأول، وأَنَّ مَنْ حصر اللذة في التخلص من الألم لم يستقرئْ في حَدِّها استقراءاً تاماً كما يجب أن يكون التحديد للموجودات، إنما نظر إلى نحو النوم، والأكل، والشراب من كل لذة دعى إليها احتياجٌ فطري، وضيَّق في دائرتها حتى كاد أن يُخْرِج المعارفَ كلَّها عن اللذة.

نحن لا ننكر أن أكثر اللذات لا يفارقه الشعور بمبدأ ألم، ولو بالأقل ألم الشوق إلى نَيْل ما يلائم النفس، حتى ننكر على هذا القائل قوله كله.

ولكنّا نعلم أن من اللذات ما ينساق إلى المرء بدون فكر سابق، وربما وقع منه موقعاً لا يقعه لو كان مترقباً من قبل؛ فماذا ترون في هذا الإحساس؟!

انقسمت اللذات بحكم الطبيعة إلى ثلاثة أقسام: حسية، وعقلية، ومركَّبَةٍ منهما.

والنظر في التقسيم إلى الداعي والحاصل جميعاً، فإن كان الداعي الحس

-وهو الذي تَحْصُل به- فهي الحسية، وإن كان العقل فهي العقلية، وإن كان الداعي العقل - وتحصل بالحس - فهي المركبة.

أما الحسية فأمرها خطير، ومطالبها محدودة يسهل استيفاء ما تقتضيه في الإمكان، ومتى قضى الحس منها شيئاً كان الزائد عليه عنده ألماً.

وأما العقلية فهي حركة الفكر في المعقولات التي تطمح إليها النفس، وشعوره بالحقائق التي يجد عند الشعور بها مَسَرَّةً لا يَعْدِلُها عنده شيءٌ، وهذه يجدها العقل طوع[1] متى بالغ في البحث وجدها منطاعة لا تقف به عند حد.

أما إن أردتم التعب الشديد، والمشقة في السرور فاطلبوا قسمنا الثالث من أقسام اللذة، أعني ما تطلبه النفس، ويقتضيه البدن، تجدون خَرْطَ القتاد دونه سهلاً، وتفرضه في المحبة الحب العشقي؛ فإن الروح إن تعلقت به لقيت في سيرها من المكدرات ما يُمَرِّر حلاوة منالها منه، وإذا كانت مطالب الروح غير واقفة عند مدى فإن سلطانَ وهمِ المحبة يتسلط عليها، فيناجيها أن تطمع باتحاد الروحين، وأن تروم المقارنة الدائمة، والرِّضا الأبدي، وهكذا يغادرها تستهتر بأماني لا يتناهى غرامها، ولا يبرد أوامها، ولكنها تجد طريق الاقتضاء هذا البدن القادر في مبدئه، العاجز في غايته، الذي تَسِمُه المداومة، وتعوقه الموانع، فماذا عساه حقق من مطالب هاتِه الروح، وكم ذا يمكنها أن تقضي من استخدامه؟ لا شك أنها سيكون لهما مثلاً في هذه الحال قول أبي الطيب:

وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجسام

---

(١) كأن فيه كلمة ساقطة، ولعلها: يديه.(م)

فإذا نظرنا بعدَ هذا إلى المقدار الذي يمكن الإنسان تناوله من غير القسم الثاني نجد أن لا شيء من الملاذ الحسية بلذَّة حقيقية، وإن تموَّه على عقول جمهور الناس؛ فإن هاته الملاذّ ـ على ما فيها من توقف على تسويغات الدين، والصحة، والعادة، والاحتياج إلى مُكْنة الفرص ـ هي واقفة عند غاية.

ثم ماذا ترى عند البلوغ إلى غايتها؟ ترى الهَيْضَة إن أَكَلتْ، والامتلاء إن شَرِبتْ، والندامة إن داعبتْ، والعجز إن استزادتْ، غير أن الذي يريد أن يغض عن هذا كله، ولا يعتبر من حال اللذات إلا أوقات اقتضائها، ويقول ما الإنسان إلاّ ابن ساعته، وما هو بمفكر في التي تليها ـ نقول له: انظر إليك وأنت تزعم أنك في لذاتك الحالية، وجرد عقلك مما تسلط عليه من الوهم ـ تجد نفسك في لذاتك كلها محتاجاً إلى معونة غيرك، وإن كنت عاجزاً عن تحضير أسباب لذاتك؛ فليتك تشعر أنك تفقد واحداً، أو ينقبض لك آخر، وفي الأقل تفكر في انتهاء اللذَّة ومفارقتها، وكيف تجدك في حالك هاته ألا تجدك كما قال الشاعر:

فأبكي إن نأوا شوقاً إليهم ... وأبكي إن دنوا خوف الفراق[1]

حكي أن الناصر لدين الله ملك قرطبة كتب بخطه أنه لم يَصْفُ له من زمان حكمه على ذلك البلد الطيب في ذلك السلطان القاهر الذي دام خمسين سنة إلا

---

(١) هذه إشارة إلى أبيات للنصيب بن رباح يصور فيها حال العاشق ويقول:

وما في الأرض أشقى من محبٍّ ... وإن وجد الهوى حلوا المذاق

تراه باكياً في كل حين ... مخافة فرقة أو لاشتياق

فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم ... ويبكي إن دنوا خوف الفراق (م)

ساعات تَلَفَّق من جميعها مقدارُ أربعة عشر يوماً؛ لذلك قال الأسطوانيون[١] من الفلاسفة: إن الدنيا دار شقاء، وبلاء.

دعْ عنك هذا، وولِّ وجهك شطر اللذات الروحية والكمالات العقلية تجد المرء متى التذَّ بشيء منها لا يقف عند منتهى؛ فهو كلَّ الزمان مبتهج بما يعلمه من العلوم، ويستفيده من الآداب.

وهذا حال الحكيم؛ فهو دائماً ينظر نفسه؛ فيستفيد علوماً، ويلمح العالم؛ فيزداد تذكرة، وتُزْوى له الدنيا؛ فلا تهزه وهو مسرور بإقبالها، وتدبر عنه وهو مسرور بما يعلم من إخلافها، ربما نام ليلة وهو يرصد طلوع الصباح للرجوع إلى لذة التفكير التي قطعها عنه النوم، فإن حاول أمراً، أو أتم له فلا تسل عن لذته منه، وإن لم يتم فقد حَصَّل - في الأقل - معرفةَ طريقٍ لا يُهدى إليه، ومتى أَلَمَّ به ضررٌ من مصاب استهون به في فائدة التجربة، كما يرى العالم النحرير؛ فيسره مرآه؛ لما ينال من علمه، كذلك يرى الأحمق الجاهل؛ فيعلمه وبالأقل يأخذ الحكمة من حاله بطريق الحضارة[٢]؛ فرب خطأ جر إلى صواب.

إذن فالحكيم لا يتنكد أبداً، وهو مسرور في كل وقت، سبب ذلك علمه بحقيقة كل شيء؛ لأنَّ هاته الدنيا -وإن كانت خضرة حلوة- فإنها تعقب تفاهةً، أو مرارة في

---

(١) هم أصحاب زينون الفيلسوف اليوناني الزاهد المولود سنة ٤٩٠ قبل المسيح، وهو الذي لما مات بأثينا، صاغوا له تاجاً من الذهب، وضعوه على قبره تنويهاً بقدره، وقال بعض خطبائهم في ذلك: «ليعلم أن أهل أثينا يكرمون أهل الفضل أحياء وأمواتاً».

أما كلمة أسطوانيين، فالتحقيق أنها مأخوذة من اليونانية.

(٢) أي بطريق استحضار قبح صنيع ذلك الأحمق، وتجنب فعله.(م)

فَم مجتنيها، ومن ثمَّ لا يوجد فيها سرورٌ متساوي الأطراف، وقد كادت مصالحها أن لا تسلم من ضرر تُخْلِفه.

وينبغي أن يكون هذا سبيل طائفة الابيكوريين[1] من الفلاسفة الذين يرون الدنيا كلها لذَّات؛ فإن رئيسهم لا يذهب عنه أن متاعبها كثيرة لغير الحكيم، ولكنه أراد اقتضاء لذاتها بقدر الاستطاعة.

جاءت شريعة الإسلام في آدابها على الحكمة الفطرية، فلذلك يكون حال المؤمن أشبه بحال الحكيم، ذلك أن الدين يأمره أن يأخذ من الدنيا ما يريد من الحلال، وأن لا يكون جازعاً عند فقدها.

وبهاته التربية التي أصلها التسليم للقدر فيها لا حيلة فيه فُقِدت المفاسد التي تنشأ عن الآلام في الأمم الأخرى من انتحار وجنون ونحوهما، قال ـتعالىـ ﴿ **وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا** ﴾ القصص : ٧٧.

إذا كانت النفس ميَّالة إلى لذاتها في كل حال **فالعاقل لا يسمح لنفسه باقتضاء لذتها الحسية**، وربما وصل العقل إلى التفكر في حال اللذة ومآلها، فرأى أَنْ لابدَّ من انقطاعها، فقطعها قبل أن تقطعه، وهو مبدأ عظيم من الحكمة، قال فيه

---

(١) هم أصحاب أبيكور الفيلسوف اليوناني المولود سنة ٣٤١ قبل المسيح ومات سنة ٢٧٠ وهو الذي كان مبدؤه أن الدنيا خلقت للسرور، وكان قد اتخذ لتلاميذه مدرسة في بستان كبير، وكان يسلك بهم مسلك الرياضة والنزهة والأكل الطيب البسيط الذي لا يخلف أكداراً، ويرى أن الرجل يجب عليه اغتنام اللذات بقدر استطاعته، ويجب أن يتكدر في الدنيا.

ولا شك أن هذا لا يتم بغير ما بيَّنا من التوطين النفسي؛ فإن كل غرض أبيكور تحصيل مع إهمال هذا، فهو يطلب ما لا يسمح به الزمان.

فيلسوف الشعراء أبو العلاء المعري:

ضحكنا وكان الضحك منَّا سفاهة   وحقّ لِسُكَّان البسيطة أن يبكوا

وكما ترى من نفسك استنكافاً عن بعض اللذات، وترى غيرك يرغب فيها، بل ترى من نفسك الفرق في لذاتك بين حالتي الصبا والفتوة مثلاً ـ كذلك لا تشك أنَّ الحكمة إنْ أشرقت على قوم ربما نزعت كلَّ هَوَسٍ من قلوبهم، فرأوا الدنيا كلها سفاسف وغروراً، كما ترى أنت اليوم الرقصَ مع الصبيان وتَلَقُّفَ الكرة جنوناً بعد أنْ كانا شُغُلَك الوحيدَ.

أولئك هم السعداء الذين استوى عندهم الكدر والطرب، فعاشوا وقلوبهم ممتعة بإدراك الحقائق الذي وراءه للعاقل مطلب، وهذا قسم شريف فات أبا الطيب إذ يقول:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل   عما مضى فيها وما يتوقع

ولمن يغالط في الحقائق نفسَه   ويسومها طلب المحال فتطمع

وذكَّرني تشكي الناس من سوء معاملة الزمان عادة من عوائده، وهي انزواؤه لمن لا يقدر قدره، أو من لا ينتفع به، وتزلُّفه لمن عَدِم العقل والفضيلة، وأنه لا وصل إلى مقاصده وأمانيه من الحكيم بما سهلت الدنيا بين يديه لولا أن يخونه الطريق، فيضله عن كنه مقاصده، وكما ترى الجمادات تنال بدون ارتقاب ما تشيب دون نيله رؤوس الشباب، وترى الزجاج ينال من الثغور ما تتلظي دونه أرباب الأساورة والقصور، فلا تتعجب ممن قرب إلى الجمادية أن تكون الدنيا أسوق إليه، وأنها لا تدين لمن يسخر منها، وإنما تُقَرِّب من تضحك عليه.

ثانياً: مقالات في الأخلاق والمروءات والسلوك

٤ـ **أخلاق العرب وعاداتهم**: للعلامة أحمد تيمور باشا

٥ـ **أخلاق الطفولة وأخلاق الرجولة**: للأستاذ أحمد أمين

٦ـ **الإنصاف الأدبي**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٧ـ **علم الأخلاق**: للشيخ علي فكري

٨ـ **أخلاق الناس**: د.زكي مبارك

٩ـ **الوفاء**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

١٠ـ **الشرف**: للأستاذ أحمد أمين

١١ـ **مضار الإسراف**: للعلامة محمد الخضر حسين

٤ أخلاق العرب وعاداتهم[1] للعلامة المحقق أحمد تيمور باشا[2]

من أخلاق العرب الحسنة و عاداتهم الطيبة: الشجاعة، والعفة، والشهامة، والنجدة، وعلو الهمة، والحمية، وحفظ العهود، والإيفاء بالوعود، والمحافظة على الأعراض أشد المحافظة، فقد كان الموت عندهم أسهل من العار حتى أدَّاهم ذلك إلى دفن بناتهم وهنَّ أحياء؛ خشية العار.

ومنها المدافعة عن الجار، وحفظ الْجِوار، والسخاء، والكرم، والضيافةُ للغريب والقريب.

---

(١) كتاب محمد رسول ﷺ للعلامة أحمد تيمور باشا ص٢٤-٢٥

(٢) هو العلامة المحقق الأديب المشهور ذو الأخلاق العالية، والمكارم الفذة، والتواضع الجم، والأيادي البيضاء على التراث وتحقيقه وعلى العلم وطلابه: أحمد بن إسماعيل بن محمد بن محمد ابن إسماعيل بن علي كرد، ينتمي إلى الأسرة التيمورية الكردية الأصل، والتي كان لها وجاهة، وفضل، ويسار.

ولد رحمه الله قبل وفاة والده بمائة يوم وذلك عام ١٢٨٨هـ، فنشأ يتيماً في كفالة أخته الأديبة عائشة التيمورية.

حرص على العلم، وعلى لقاء العلماء، والتلقي عنهم منذ صباه.

وكان مولعاً بالكتب والمخطوطات، وكان لفضل أسرته ويسارها أثرٌ في كونه يعيش في بحبوحة من العيش، فكان له من المال ما يعينه على تحصيل الكتب، والمخطوطات، وعلى بسط يده لإسعاد الفقراء، والجمعيات، وذوي الحاجات، مع حرصه التام على إخفاء ما يبذل.

وكان معتزاً بدينه، ولغته، وتراثه أيما اعتزاز، وكان يُجيد الفرنسية، والتركية.

وكان منزله دوحة عامرة بالزوار من الأعلام، وطلاب العلم، والوجهاء وغيرهم.

=

ومنها الافتخار بشدة البأس، وعزَّة النفس، وإباء الضيم، و الولوع بالشعر؛ لأنه ديوان العرب، وبالحكم و الأمثال، والحِلْم، و الفصاحة، و الغلو في حفظ الشرف، ومكانة النفس.

وكانت لغتهم من أعز الأشياء لديهم، حتى إنهم كانوا يأنفون من مخالطة غير العرب؛ حفظاً لها من العُجْمة.

ومن عاداتهم السيئة: دفنُ البنات وهن أحياء؛ خشية العار، وقَتلُ الأولاد؛ خشية الفقر، والغلو في أخذ الثأر، حتى إنهم يشنُّون الحرب التي تزهق فيها

= تزوج وهو في التاسعة عشرة من عمره، ورزق بثلاثة أولاد، ثم ماتت زوجته وهو في التاسعة والعشرين من عمره أي بعد زواجه منها بعشر سنين؛ فلم يتزوج بعدها؛ خوفاً من أن يقترن بمن تنغص على أولاده؛ فرضي أن يعيش بقية عمره الإحدى وثلاثين عاماً دون زواج.

وكان ذا عبادة، وعفاف، وكان القرآن يُتلى في منزله، وتُسمع فيه الأحاديث الشريفة، ولم يكن ميَّالاً إلى اللهو، والبطالة، والمساخر.

وبالجملة فقد كان أمَّةً في رجل، وكان محل إجماع بين أهل عصره علماً، وأدباً، ونبلاً، وكرماً لا تكاد تجد من يذكره بسوء.

أُصيب في آخر عمره بمرض القلب، وكانت نوباته تعاوده بين الفينة والأخرى إلى أن توفي في الساعة الرابعة من صبيحة يوم السبت ٢٧ ذي القعدة عام ١٣٤٨هـ.

وقد رثاه الشعراء، والأدباء، والعلماء، كالرافعي، والأمير شكيب أرسلان، والعلامة محمد الخضر حسين وغيرهم.

كما ترجم له عدد كبير من معاصريه وغيرهم كالعلامة محمد الخضر حسين، والعلامة محمد كرد علي، والعلامة الشيخ محمد رشيد رضا، والعلامة خير الدين الزركلي وغيرهم.

وقد جمع بعض تلك التراجم الشيخ الفاضل محمد بن ناصر العجمي في رسالة لطيفة سماها: «العلامة أحمد تيمور باشا ذكريات شخصية للعلامة محمد كرد علي، ويليه مقالات بأقلام معاصريه».

النفوس الكثيرة في سبيل أخذ ثأر رجل منهم.

ومنها: المنابزة بالألقاب.

ومنها التَبَنِّي، وهو أن يجعل الولد غير الحقيقي الذي يُتَّخَذُ كالابن - بمنزلة الابن الحقيقي، يَرِثُ ويُورَث.

ومنها عبادة غير الله، وكانت عبادتهم على أنواع مختلفة، ولهم آلهة وأصنام كثيرة، كاللات، والعُزَّى، وهُبَل، ونَسْر، وسُوَاع، ويَغُوثَ، ويَعُوقَ، وغير ذلك.

وكان منهم من يعبد النجوم :كالشمس، و القمر، وعطارد، والمشتري وغيرها.

ومن ذلك أسماؤهم: كعبد العُزّى، وعبد يَغُوث، وعبد شمس، ونحوها، وكان في بلادهم من بينهم بعضُ النصارى، و اليهود، والمجوس.

وكانوا قَبْلاً موحّدين يعبدون الله على ملّة إبراهيم الخليل وإسماعيل -عليهما السلام- ثم اتخذوا الأصنام؛ لتكون واسطة بينهم وبين الله بزعمهم، إلى أن عبدوها، وقدموا لها القرابينَ، وذبحوا الذبائح على اسمها.

فلما وصلوا إلى هذه الدرجة من الجهل، و الكفر، وعبادة غير الله - أرسل الله لهم رسوله المصطفى، ونبيه المرتَضَى ؛فأعادهم إلى الشريعة الحقّة، شريعةِ إبراهيم وموسى وعيسى والأنبياء من قبلهم، فهداهم بعد الضلالة، وأرشدهم بعد الحيرة.

٥ أخلاق الطفولة وأخلاق الرجولة[1] للأستاذ أحمد أمين

لاحِظ الطفل، وأمعن النظر في تصرفاته، وراقب البواعث على حركاته وسكناته تَخْرُجْ بنتيجة حتمية، وهي أنه أناني مفرط الأنانية، يرى أنَّ أهمَّ ما في الوجود شخصه، وكل شيء حوله يجب أن يكون له، ما يصدر عنه من أعمال فإنما هي لجسمه، ولِلَذَّة يلتذها جسمه، ليس يهمه أي شيء يتصل بغير شخصه، لا يعنيه من أمِّه إلا أنَّ ثدييها وعاء للبنه، كل ما له من عمل، وكل ما له من شعور، وكل ما له من فكر، وكل ما له من رغبات فإنما هي موجهة نحو ذاته؛ فإذا أحسَّ فراغاً من الزمن ليس فيه شيء مما يشتهي ويلتذُّ بكى، لو كُلِّف أن يرسم خريطة العالم كما يرى، واستطاع ذلك لَرَسم شخصه فقط، وكان هو العالمَ وحده، وما عداه من شيءٍ فلخدمته.

لاحِظْ بعد ذلك وهو ينمو تجده يتحول من (أنا) قليلاً قليلاً إلى (نحن) شيئاً فشيئاً؛ فهو يبدأ يشعر بأسرته بجانب شخصه، ثم بتلاميذ مدرسته بجانب نفسه، ويتعلَّم دروس الأخذ والإعطاء بعد أن كان درسه الوحيد هو الأخذ، ويضم إلى العمل لشخصه العمل لغيره، ويعتاد ألا يعمل فقط ما يحب، بل يعمل -أيضاً- ما يجب، ويعمل ما تقتضيه التقاليد، ويعمل خوف الاستهجان أو العقوبة أو نحو ذلك، يتعلَّم ذلك كله في أسرته، وفي مدرسته، وفي ألعابه وفي شارعه، ويتولَّد فيه شعور، وتفكير، ورغبات للعمل للغير، كما تولَّدَت فيه من قبل هذه الأمور

---

(١) فيض الخاطر، ٥/ ١٦٧ ـ ١٧٢.

للعمل لشخصه.

ويَرْقَى فيه الشعور بـ (نحن) إذا اتَّسع أُفُقه في الحياة العامة، وخرج من المدرسة وتولَّى عملاً، وعاملَ الناس، وتبادل معهم المنافع والمصالح؛ فيشعر بأن هناك أناساً غير أسرَته، وغير مدرسته وغير معارفه، وأنه مرتبط ببعضهم في التعامل، ويشعر بأن هناك مسؤوليةً مُلقاةً على عاتقه نحوَ مَنْ يعمل معهم، وأنه خاضعٌ لقوانين البلاد، وله روابط بقومه وأهل دينه ونحو ذلك، كما يشعر أنه يجب عليه العمل، لا كما يحب الطفل، ولا طاعةً للتقاليد أو خوفاً من العقوبة كالفتى، ولكن ليحصِّل رزقه يقوت به نفسه، أو أهله، أو منْ يحمل عبأهم.

وهكذا تراه يبعد بعض الشيء من (أنا) ويقرُب من (نحن)، ولكن في حدود ضيِّقة معيَّنة.

فإذا نحن سَمَوْنا لدراسة (الرجال) وعظماء الناس، رأينا استغراقاً وعمقاً في (نحن)، وضموراً في (أنا) رأينا الرجل العظيم الناضج يصل إلى منزلة يرى معها أن لا قيمة لحياته إلا إذا ارتبطت بحياة الناس، والعملِ لإسعادهم، لا يقتصر على علاقاته الطيبة بمن حوله في الأعمال العادية، ولكن يضع نصب عينه العمل؛ لترقية الناس روحيّاً ونفسيّاً وماديّاً، لا يرى أن مسؤوليته هي نحو أسرته فقط، ولا أصدقائه فقط، ولا قريته أو مدينته فقط، ولكن لأمَّته خاصة، وللإنسانية عامة. إن وسعه الجهد والكفاية، هو واسع النظر، عميق الفهم، رحب الصدر، متسامح أمام ما يشل العقل من العصبية الوطنية والدينية، والخلافات الحزبية، يختبر حاجات الناس، وأسباب شقائهم في الناحية التي هو

مُعَدٌّ لها، ثم يوجه إرادته لرفع الشقاء عنهم، وجلب السعادة لهم ما أمكن، ويَحْمِل مسؤولية ذلك في لذة وسرور وتضحية، ولا بأس إن كان فقيراً، ولا بأس إن لم تُنبته أسرة أرستقراطية، ولا بأس إن لم يتسلَّح بقوَّة؛ فهو يشعر أن نُبل غرضه قوة فوق قوة المال، وفوق الأسرة النبيلة، وفوق أسلحة الناس.

إذا كانت جماهير الناس يعملون للأجر، ويقوِّمون العمل بالمال؛ فإن أُعطوا كثيراً عملوا كثيراً، وإن أُعطوا قليلاً عملوا قليلاً، ويفاضلون بين عمل وعمل بقدر ما يدر من ربح ـ فإن هؤلاء العظماء يعملون؛ لأنهم يلذُّهم العمل، ويقوِّمون العمل بمقدار ما يحقق من خير لأمتهم، وللإنسانية أجمع، يدأبون في العمل، ويعرِّضون حياتهم للخطر في سبيل مرض يكتشفونه وداء يعالجونه به، أو في سبيل تحرير العقول من أغلالها، أو تحرير العقيدة مما أفسدها، أو يحاربون الظلمة والطغاة؛ لتحقيق العدل في الأمة أو العالم، يحتملون في ذلك العذاب ألواناً؛ لأن عشقهم للحق غلب حبهم للذات، وهيامهم بـ (نحن) أضعف حبهم لـ (أنا).

فإذا قال الطفل (أنا)، وقال الإنسان العادي (أُسرتي) وقال الرجل (أُمَّتي)، أو (عالَمي)، وإن تلذذ الناس بالعمل يُرْبح تلذذهم بالفكرة تنجح، وإن تساءلوا عند العمل: ماذا نجني من دَخْل؟ تساءل هو: ماذا يستلزم العمل من جهد؟.

قد منحهم الله قوَّةً من قوَّته، وقدرة من قدرته؛ فهم ـ دائماً ـ مصدرُ نفعٍ وجمال، حدَّدوا غرضهم في الحياة؛ فعلموا أنهم لا يصلون إليه إلا إذا فهموا حق

الفهم دنياهم التي يعيشون فيها، وطبائع نفوس الناس في الاستجابة للإصلاح، والنفور منه.

يلتذُّونَ تحمُّلَ التبعات كما يلتذ الجبناء الهرب منها، يواجهون الصعوبات بابتسام، ويتقبلون الهزيمة ريثما يستعدُّون للوثوب، أقوياء في خصومتهم، صابرون في هزيمتهم، كرماء سمحاء في انتصارهم، آلوا على أنفسهم أن يكونوا قوة محاربة للشر المحيط بهم حتى ينهزم، وأن يكونوا ضوءاً يدافع الظلام حتى ينجاب، يكرهون من أعماق نفوسهم المرض، والجهل والفقر، والسخافة والتخريف، وكل عيوب البشرية، ومع هذا يمزجون كراهيتهم لهذه الأشياء بالعطف على المنكوبين بها حتى ينقذوهم منها.

ثم الأمر في النفس ليس كالأمر في الجسم؛ فقد ينضج الجسم ويكتمل، والنفس لا تزال على حالها نفس طفل، فالشاعر كان محقاً حين قال:

. . . . جسم البغال وأحلام العصافير

وفي الناس حولنا أشكال وألوان من هذا القبيل، رجولة جسم وطفولة نفس، ومقياس ذلك الذي لا يتخلف هو ضمير (أنا) و (نحن)، فإن رأيت لا شيء إلا (أنا) رأيت طفلاً مهما كان جسمه وسنُّه، وإن رأيت (نحن) كثيراً و (أنا) قليلاً رأيت رجلاً، والرجال قليل.

هناك من ليس أمامه في الدنيا إلا جسمه، يبحث حياته عن الأكل الطيِّب، والملبس الطيب، والنعيم الطيب، وذلك كل تفكيره، وكل سعيه، وكل غرضه، ركزوا في صحة جسمهم ونعيمه كل شعورهم، وكل عواطفهم، وكل

ملذاتهم، فإن عملوا عملاً خارج هذه الدائرة فلهذه الغاية، تعرفه بالإفراط في العناية بنوع ما يأكل، ومقدار ما يأكل، وبهندامه وبمرآه في المرآة، وبالحذلقة في حركاته وسكناته، ونحو ذلك، ثم لا شيء، فهذا طفل كبير.

وإن شئتَ فعُدَّ من هذا القبيل ناسكاً راهباً لا يفكر في أحد من بني آدم حوله، ولا يهمه حال قومه سياسياً ولا اجتماعياً، ولا يعنيه شقوا أم سعدوا، ولا يحتمل تبعة شيء، ولا يُصدِّق أحداً، ولا همَّ له في الحياة إلا نفسه وعبادته، أليس هو الآخر طفلاً كبيراً شغلته (أنا) عن (نحن)؟

وهناك من يَحُدُّ العالم بحدود نفسه، إذا فكّر فكّر فيها، وإذا عمل عمل لها، لا يعنيه من العمل إلا مقدار ربحه منه، خسر الناس أو كسبوا، لا يمنعه من الغش في عمله إلا خوف العقوبة، فإن أمِنَها عمل ما شاء؛ ليربح مالاً، أو يكسب شهرة، أو يحقق غرضاً من أغراضه لنفسه، تعلم درس الأخذ ولم يتعلم درس العطاء، وليست الدنيا كلها وما فيها إلا قنطرة يعبر عليها للوصول إلى غايته، فهذا كذلك طفل كبير.

وهناك من يهرب ـ كالطفل ـ من كل تبعة، لا يقتحم الحياة، ولكن ينتظر القدر، ولا يزاحم، ولكن ينتظر الحظ، إن عرض له شيءٌ متعب تنحَّى عنه إلى شيءٍ مريح.

وهناك أسوأ من هذا، من رفع نفسه فوق الناس، فهم لم يُخلقوا إلا له، ولم تُخْلق عيونهم إلا لتقع على مطلبه، ولا آذانهم إلا لتصغي إلى كلمته، ولا أيديهم إلا للعمل في خدمته، يسير في الحياة على ما يهوى، ويحب أن يسير

الناس فقط على ما يهوى، فهذا ـ أيضاً ـ طفل كبير، وكم في الناس من أطفال كبار، وهم في طفولتهم أشكال وألوان.

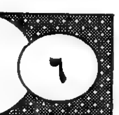
ارسم خطّاً مستقيماً رأسياً، وضع في أسفله (أنا) وفي أعلاه (نحن) وامتحن نفسك: كيف أنت في عملك؟ هل لا تنظر إلا إلى شخصك، أو تراعي فيه مصلحة قومك؟ وكيف أنت في علاقتك بالناس وعلاقة الناس بك؟ وهل تؤدي زكاة مالك، وزكاة علمك، وزكاة فنِّك، وزكاة كفايتك؟ أو تشح بكل ذلك؛ فلا تنفقه إلا لمال أكثر تحصله، أو جاه تبتغيه؟ وكيف أنت في نيَّاتك ومقاصدك، هل يؤلمك بؤس الناس وشقاؤهم وفقرهم؛ فتتعاطف معهم، وتعمل جهدك لإسعادهم؟ أو أنت وبيتك، ثم على الدنيا العفاء؟

وحدد بذلك كله مركزك من الخط المستقيم، فإذا قربت جداً من (أنا) فهذا دليل الطفولة ولا محالة، وإن قربت جداً من (نحن) فأنت رجل.

هذا هو التقويم الصحيح للناس، وهو ـ مع الأسف ـ غير ما تواضعوا عليه؛ إنهم يقدرون الرجل بماله وبجاهه وبمنصبه، وبكل شيءٍ إلا قيمته الحقيقية.

ولو راعيت هذا المقياس الحق الذي ذكرنا لرفعت من شأن عامل بسيط على صاحب مصنع كبير، وموظفٍ في الدرجة الثامنة على موظف في الدرجة الأولى، ومعلمٍ أوَّليٍّ على سَريٍّ كبير، وكنَّاسٍ مخلصٍ على طبيب غير مخلص، وجنديٍّ مجهولٍ على قائد مشهور.

ولكن أنَّى لنا المدنية الحقَّة التي تهدم نظام القِيَم المتعفِّن لتضع مكانه نظاماً للقيم نظيفاً؟



٦ الإنصاف الأدبي[١] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين[٢]

لا أريد أن أبحث تحت هذا العنوان عن الإنصاف الذي يُفَسَّر بالعدل،

---

(١) رسائل الإصلاح ١/ ٣٨ـ ٤٦

(٢) ولد رحمه الله في بلدة (نفطة) بتونس عام ١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٣م من أسرة علم، وصلاح، وتقوى.

ـ يتصل نسبه بالنبي ﷺ وجده للأب علي بن عمر، وجده لأمه مصطفى بن عزوز، وخاله العلامة الشيخ محمد المكي بن عزوز، وشقيقاه العلامة اللغوي محمد المكي بن الحسين، والعلامة زين العابدين بن الحسين.

ـ لما بلغ الثانية عشرة من عمره انتقل مع والده إلى العاصمة تونس، والتحق بطلاب العلم بجامعة الزيتونة أرقى المعاهد الدينية وأعظمها شأناً في المغرب، وحصل منها على الشهادة العالمية في العلوم الدينية والعربية.

ـ أوتي بياناً ساحراً، وقلماً سيالاً قلما يوجد له نظير في العصور المتأخرة، بل إنه يضارع أرباب البيان الأوائل.

ـ كان ذا همة عالية، ونفس كريمة، وغيرة إسلامية، وقوةٍ في الحق.

ـ كان هادئ الطبع، حسن المعشر، ليِّن العريكة، جم التواضع، ذا زهد وقناعة.

ـ كان متفنناً في علوم الشريعة من أصول، وتفسير، وفقه، ونحو ذلك.

ـ كان إماماً من أئمة العربية في العصور المتأخرة، وفذاً من أفذاذ علماء الإسلام كما قال عنه العلامة محمد الطاهر بن عاشور ـ رحمهما الله ـ.

ـ كان مستقصياً في بحثه وفي نقاشه لآراء مخالفيه، وكان معتدلاً في حكمه وفتاويه يتمثَّلُ في ذلك نزاهةَ قلم المؤلف، وحسن أدبه، ونبل أخلاقه ـ كما يقول الشيخ العلامة عبدالرزاق عفيفي رحمه الله ـ.

ـ أصدر مجلة (السعادة العظمى) عام ١٣٢١ هـ، وهي أول مجلة ظهرت في المغرب ثم أغلقتها سلطات الاستعمار الفرنسي.

=

وُيوصَف به من ينتصب للحكم بين المتخاصمين ، فقد سبق لنا أن تعرضنا لهذا

= تولى القضاء في مدينة بنزرت عام ١٩٠٦م ، ولم يرقْهُ ميدان القضاء؛ إذ حال بينه وبين الدعوة إلى الإصلاح والجهاد ، فتركه إلى التدريس في جامع الزيتونة أستاذاً للعلوم الشرعية والعربية ، كما تولى التدريس في مدرسة الصادقية بتونس.

ـ حكم عليه بالإعدام ـ إبان الاستعمار الفرنسي لتونس ـ لاشتغاله بالسياسة ودعوته إلى التحرير ، فهاجر إلى دمشق مع أسرته عام ١٣٣١هـ ، وأقام فيها مدة طويلة تولى في مطلعها التدريس وأعاض الله به أهل الشام بعد رحيل علامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي رحمه الله فكان الخضر من أسباب النهضة العلمية في بلاد الشام.

ـ رحل رحلات عديدة ، حيث رحل إلى الآستانة ، وألمانيا ، وقد أتقن اللغة الألمانية وكتب عن مشاهداته في برلين.

وبعد ذلك عاد إلى دمشق ، فلحقته سلطات الاحتلال الفرنسي ، فرحل إلى مصر لاجئاً سياسياً عام ١٩٢٠م ، والتقى كبار علمائها ورجالها.

ـ قام بتأسيس جمعية الهداية الإسلامية ، وأصدر مجلة تحمل نفس الاسم ، واشترك في تأسيس جمعية الشبان المسلمين ، واستلم رئاسة تحرير مجلة (نور الإسلام) التي يصدرها الأزهر ، والمعروفة اليوم باسم مجلة (الأزهر).

ـ انضم إلى علماء الأزهر ، وعين مدرساً للفقه في كلية أصول الدين ، ثم أستاذاً في التخصص.

ـ عين عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة أول إنشائه ، كما عين عضواً في المجمع العلمي بدمشق ، واختير عضواً في جماعة كبار العلماء بعد أن قدم رسالته العلمية (القياس في اللغة العربية).

ـ استلم رئاسة تحرير مجلة (لواء الإسلام) كما ترأس جمعية (جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية).

ـ اختير عام ١٩٥٢م إماماً لمشيخة الأزهر ، فقام بالأزهر خير قيام ، وهو آخر عالم تولى الأزهر بترشيح العلماء ، ثم أصبح بعد ذلك يعين من قبل الدولة.

ـ توفي عام ١٣٧٧هـ ، ١٩٥٨م ، ودفن في المقبرة التيمورية إلى جانب صديقه العلامة أحمد تيمور باشا ـ رحمهما الله ـ بناءً على وصيته.

الموضوع في مقال «القضاء العادل في الإسلام»[(١)].

كما أني لا أريد البحث عن الإنصاف الذي هو خلقٌ يحملُ صاحبَه على أن يُعطي الحقوق المادية من نفسه، كأن يعرف الرجل أن هذا المال أو المتاع حق لفلان؛ فَيَكُفَّ يده أو يرفعها عنه من تلقاء نفسه، لا يخشى سطوة حاكم، أو لومة لائم؛ فللحديث عن الإنصاف الذي هو تبرئة الذمة من الحقوق المادية مقام غير هذا المقام.

وإنما الغرض البحث عن ضرب خاص من ضروب الإنصاف وهو أن يقول الرجل صواباً؛ فتعترف بأنه محق، أو يحرز خصلة حمد؛ فتقر بها ولا تنازع من

= قد خلف آثاراً علمية عديدةً منها الحرية في الإسلام، ورسائل الإصلاح، والسعادة العظمى، والهداية الإسلامية، ومحاضرات إسلامية، والدعوة إلى الإصلاح، ونقض كتاب الشعر الجاهلي، ونقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، والرحلات، وتراجم الرجال، وأسرار التنزيل، والخيال في الشعر، ودراسات في الشريعة الإسلامية، وبلاغة القران، وله ديوان شعر جمعه بعض محبيه واسمه (خواطر الحياة).

وقد اعتنى ابن أخيه الأستاذ علي الرضا الحسيني بتلك الكتب، وبالترجمة للشيخ الخضر.

ـ لقد كان لتلك الآثار أثرها البالغ في حياة الشيخ، وبعد وفاته، ولا زال الناس يفيدون منها، ويقبسون من نورها.

ولا زالت حياته، وآراؤه، ومؤلفاته، موضع الدراسة، والتحليل.

ولازال العلماء يتلقون كتبه بالعناية، والقبول، والثناء. انظر تمام ترجمته في كتاب «الصداقة بين العلماء» للمؤلف.

(١) سيأتي هذا المقال ضمن هذا المجموع في المقالات التي تحت عنوان (مقالات في السياسة والاجتماع).

يصفه بها.

ولا أجد مانعاً من أن أسمي هذا النوع من الإنصاف «الإنصاف الأدبي» ويقابله من الأخلاق المذمومة «العناد» وهو جحود الحق، ورده مع العلم بأنه حق.

والإنصاف الأدبي من الخصال التي لا ترسخ إلا في نفس نبتت في بيئة صالحة، وارتضعت من ثدي التربية الصحيحة لبناً خالصاً.

والجماعة التي تفقد هذا الخلق تفقد جانباً عظيماً من أسباب السعادة، ويدخلها الوهن بعد الوهن، حتى تتفرق أيدي سبا[1] وعليك الإنصات، وعلينا البيان:

بين الأخلاق روابط، وكثيراً ما يكون بعضها وليد بعض، كالعدل قد يكون وليد القناعة، وكالشجاعة قد تكون وليدة عزة النفس، وكالجبن قد يكون وليد الطمع، وكذلك خلق العناد، وعدم الإذعان للحق قد يكون وليد الحسد، وقد ينشأ عن طبيعة الغلو في حب الذات.

وللغلو في حب الذات فرعان: حب الانفراد بالفخر، وإيثار النفس على كل شيء حتى الحق؛ فالحاسد أو الحريص على الانفراد بالفخر هو الذي يسمع الرجل يقول صواباً فيقول له: أخطأت، أو يسمع الثناء عليه ببعض ما أحرز من خصال فيقول للمُثني عليه: كذبت.

وإيثار النفس على الحق هو الذي يحمل الرجل على التعصب لرأيه، والدفاع

---

(١) هذا مثل يضرب للتفرق والشتات. (م)

عنه وهو يعلم أنه في خطأ مبين.

فمن أراد أن يَطْبَع ناشئاً على خلق الإنصاف نَقَّب على علتي الحسد والغلو في حب الذات، فإن وجد لهما في نفس الناشئ أثراً راوضه بالحكمة والموعظة الحسنة؛ حتى يتهيأ الناشئ لأن يكون على هذا الخلق العظيم، أعني خلق الإنصاف.

وإذا كان منشأُ الحسد قلةَ ملاحظةِ أنَّ النعمَة تصل إلى صاحبها مِنْ علام الغيوب، وهو لا يرسلها إلا لِحِكْمَة ـ فإن من وسائل علاج هذا الداء تلقينَ الناشئ أن النعم ماديةً أو أدبيةً إنما ينالها الناس بمشيئة العليم الحكيم.

وإذا كان منشأُ الحرصِ على الانفرادِ بالفخرِ هو الغلوَّ في حب الذات ـ كان على المربي تهذيبُ عاطفةِ حبِّ الذات في نفس الناشئ حتى تكون عاطفةً معتدلة: تجلب لها الخير، وتأبى له أن يَنال غيرَهُ بمكروه.

وإذا شُفي الناشئ من مرض الحسد، وخَلُصَ من لوثة الغلو في حب الذات ـلم يبقَ بينه وبين فضيلة الإنصاف إلا أن تَعْرِضَ عليه شيئاً من آثارِها الطيبةِ، وتُذَكِّره بما يدرك المحرومين منها والمُسْتَخِفِّين بها من خسار وهوان.

وقلّةُ الإنصاف تُبْعِد ما بين الأقارب أو الأصدقاء، وكم من تَجَافٍ نَشَأَ بين أخوين أو صديقين، وإنما نشأ من جحود أحدِهما بَعْضَ ما يتحلى به الآخر من فضل، أو من رَدِّه عليه رأياً أو روايةً وهو يعلم أنه مصيبٌ فيما رأى، أو صادقٌ فيما روى، قال الحكيم العربي:

ولم تزل قِلَّةُ الإنصافِ قاطعةً ... بين الرجال وإن كانوا ذوي رَحِمِ

ومتى شَعُرَ الرجلُ من آخر بإنكار شيء من فضله، أو بتعسفه في معارضة رأيه- رآه غير موضعٍ للصحبة والمعاشرة، وربما وقع في ظنه أن الراحة في عدم لقائه.

قلةُ الإنصافِ تَجُرُّ إلى التقاطعِ، والإنصافُ يدعو إلى الألفة، ويؤكد صلةَ الصداقة؛ فإذا كنت في مجلس، فقرر الرجل رأياً واضح الحجة، فغلبك ما في نفسك، وحاولت أن تصوره للناس خطأً ـ فقد ألقيت بينك وبينه عداوة؛ فإن خضعت لحجته، وأعربت له عن استحسان رأيه فقد مددت بينك وبينه سبباً من أسباب الألفة؛ إذ يشعر من إنصافك أنك لا تحمل له ضغناً، ولا تكره له أن ينال حمداً؛ فإن سبق هذا الإنصاف خصومةً شعر بأنك خصم شريف؛ فيسعى لأن تنقلب الخصومة سلماً، ويتبدل التقاطع ولاءاً.

وقلةُ الإنصاف تسقط احترامك من العيون؛ فإن من يراك تهاجم الآراءَ المُؤَدَّيةَ بالحجة قد يَحْمِلَ هذا الهجومَ على قصر نظرِك، وعجزك عن تمييز الباطل من الحق، فإن حمله على أنك تهاجمها؛ كراهة أن تكسب صاحبها حمداً وقع في نفسه أنك تتمنى لغيرك زوال النعمة، أو أنك حريص على الانفراد بخصال الحمد، فإن ذهب في تأويل إبايَتِكَ لقبول الحق إلى أنك تموه على الناس؛ حتى لا ينسبوا إليك نقيصة الخطأ علم ما لم يكن يعلم من إيثارك النفس على الحق.

ولا احترام لمن لا يدرك الآراءَ المؤيدةَ بالحجة، أو يتألم من أن يرى غيره في نعمة، أو من يعمل للانفراد بالحمد من طريق التعسف والعناد، أو من يدافع عن نفسه نقص الخطأ بمحاولة قتل الحق.

قلةُ الإنصافِ تُسْقط احترامك من القلوبِ، والإنصافُ يزيد احترامك في القلوب مكانة؛ ذلك لأن إنصافك للرجال يدل على صفاء سريرتك، ونقائها من أن تكون قد حملت شيئاً من دنس الحسد، أو حام بها الغلوُّ في حب الذات.

نقرأ في كتب الأدب أن منذر بن سعيد البلوطي دخل مصر، وحضر مجلس أبي جعفر النحاس وهو يملي أخبار الشعراء، فأنشد أبو جعفر أبيات مجنون ليلى هكذا:

خليلي هل بالشام عينٌ حزينة ... تُبَكّي على نجد لعلي أعينها
قد اسلمها الباكون إلا حمامةٌ ... مطوقةٌ باتت وبات قرينها
تجاوبها أخرى على خَيْزَرانةٍ ... يكاد يُدَنِّيها من الأرض لينها

فأراد منذر أن ينبه على أن قراءة «باتت وبات» من عجز البيت الثاني بالتاء المثناة خطأ، فقال: يا أبا جعفر ماذا أعزك الله باتا يصنعان؟ فقال أبو جعفر: كيف تقول أنت يا أندلسي؟ قال منذر: «بانت وبان قرينها».

كيف يكون مقام أبي جعفر في نفسك لو قص عليك التاريخ أنه تلقى تصحيح منذر بن سعيد بالارتياح، وقال له: أنا أخطأت، وأنت أصبت؟ لا شك أنك تحمل له من الاحترام فوق ما كنت تحمل.

ولكن منذر بن سعيد يقول: إن ابن النحاس سكت وما زال يستثقلني، ثم عاد بعد حين إلى ما كنت أعرفه منه، يعني من الإقبال والحفاوة.

وقلة الإنصاف تحول بين الرجل وبين أن يزداد علماً؛ فمن لم تنصفه من أهل العلم وجد في نفسه مُثَبِّطاً عن أن يسرع إلى إفادتك، أو يفيض القول في

مذاكرتك؛ فيفوتك حظٌّ من العلم لولا عدم إنصافك لازددت به قوةً في الفهم، وسعةً في العلم.

وقد يكون من أثر جحودك لفضل الرجل أن تقل رغبتك في ملاقاته، والتزود من آرائه أو رواياته، وكم وصل الرجل بإنصافه إلى علم وأدب جم.

قال أبو إسحاق الزجاج: لما قدم المبرد بغداد آتيته لأناظره؛ وكنت أقرأ على أبي العباس ثعلب، وأميل إلى قول الكوفيين، فعزمت على إعنات المبرد، فلما فاتحني ألجمني بالحجة وطالبني بالعلة؛ وألزمني إلزامات لم أهتد إليها، فتبينت فضله، واسترجحت عقله وجددت في ملازمته.

فلو كان أبو إسحاق من أولئك الذين يجمع بهم التعصب للأشياع أو المذهب حتى ينبذوا الإنصاف ناحية ـ لما اعترف بفضل المبرد وقد فاتحه بالمناظرة عازماً إعناته، ولَفَاتَه العلمُ الذي غَنِمَه بالجد في ملازمته.

وقلة الإنصاف تحدث في العلم فساداً كبيراً؛ ذلك بأن من لم يقدر الإنصاف قدره، قد يرى بعض الآراء العلمية الصحيحة قد صدرت من شخص لا يرتاح هو لأنْ تكون قد صدرت منه، فيقابلها بالرد والإنكار؛ وقد تكون له براعة بيان؛ فيصرفها في تشويه وجه الحق وهو يعلم أنه حق، فيظهر الجهل على العلم ولو في فئة قليلة، أو دائرة صغيرة.

قلة الإنصاف تخذل العلم، وتطمس شيئاً من معالمه، والإنصاف يؤيد العلم، ويجعل موارده صافية سائغة.

ولو أخذ الإنصافُ حظَّه من نفوس جميع الباحثين عن الحقائق لقلّت مسائلُ

الخلاف في كل علم؛ فيكون حفظ العلوم أيسر، ومدة دراستها والرسوخ فيها أقصر.

نقرأ في تاريخ العلامة محمد بن عبد السلام أن ابن الصباغ اعترض عليه في أربعَ عشرةَ مسألة، فلم يدافع عن واحدة منها، بل أقر بالخطأ في جميعها.

ومن النواحي التي غفل فيها بعض الناس عن فضيلة الإنصاف؛ فكانت منبتَ فسادٍ غيرِ قليل ـ **ناحيةُ التعصب للمذهب** تَعَصُّبَ من لا يسمع، ولا يرى.

ولصاحب المذهب أو المُقْتَدي به أن يبسط القول في تقرير أصوله، وإيراد حججه، وله أن يناقش أقوال مخالفيه وأدلتهم؛ فيردها، ويصفها بالخطأ إذا شاء.

ومن الإنصاف أن يناقشها استبانةً للحق، ولا يصفها بالخطأ إلا بعد أن تأذن له الحجة في وصفها.

والعالم الذي يطول نَظَرُه في أقوال الأئمة يشهدهم كيف يَرْمُون إلى غرض واحد هو الحكم المطابق للحق؛ فيمتلئ قلبه باحترامهم، ويقف في حدود الإنصاف عند دَرْسِهِ لمسألة من المسائل التي جرى فيها اختلافهم.

قال الإمام الشافعي: «الظُّرف في الوقوف عند الحق كما وقف».

لا يصعب على النفوس التي فيها بقيةٌ مِنْ خير أن تنصفَ الرجل يَبْتَكِر رأياً، أو ينهض لعمل؛ فتعترف لرأيه بالإصابة، أو لعمله بالإجادة.

والإنصاف الذي قد تجمع عنه نفسك كثيراً أو قليلا أن تقول قولاً تظنه صواباً، أو تعمل عملا تحسبه حسناً؛ فينقده آخر بميزان العلم الصحيح، ويريك أنك قد قلت خطأً، أو عملت سيئا؛ ففي مثل هذا المقام قد تجد في نفسك كراهةً

للاعتراف بالخطأ في القول، أو الإساءة في العمل؛ فإن كنت على ذكْرٍ من فضيلة الإنصاف، وما تؤتيه من ثمارٍ طيبة لم تلبث أن تَكْظُم هذه الكراهةَ، ولا تجد في نفسك حرجاً من أن تقول للناس: إني قد أخطأت في قولي، أو أسأت في عملي.

وتاريخ علماء الإسلام مملوء بقصص الذين رجعوا عن آرائهم بعد محاورات أو مناظرات ظهر لهم منها أن الحق في جانب مَنْ دارت بينهم وبينه المحاورة أو المناظرة.

ومما يروى في هذا الصدد أن مناظرةً جرت بين الإمامين: مالك بن أنس، وأبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة في مقدار الصاع الذي تؤدى به زكاةُ الفطر، فقال مالك: هو خمسة أرطال وثلث، وكان أبو يوسف يذهب إلى أنها ثمانية أرطال، فاحتج عليه مالك بالصيعان الموجودة لذلك العهد عند أبناء المهاجرين والأنصار بالمدينة؛ فرجع الإمام أبو يوسف إلى ما قاله الإمام مالك.

لا يصعب على الرجل أن ينصف قريباً أو صديقاً، بل لا يصعب عليه أن ينصف مَنْ لا تربطه به قرابةٌ أو صداقةٌ، ولا تبعده منه عداوةٌ.

والإنصاف الذي قد يحتاج فيه إلى مُراوضةِ النفس كثيراً أو قليلاً أن يبدي بعض أعدائه رأياً سديداً، أو يناقشه في رأي مناقشةً صائبة؛ فهذا موطن تذكير النفس بأدب الإنصاف، وإنذارها ما يترتب على العناد من إثم وفساد.

ومن الإنصاف الذي يدل على الرسوخ في الفضيلة أن يتحدث الرجل عن خصمه، فينسب إليه ما يعرفه له من فضل.

أُنشِد في مجلس الإمام علي بن أبي طالب قول الشاعر:

فتىً كان يُدنيه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر
كأن الثريا عُلِّقت بجبينه وفي خَدِّه الشِّعرى وفي الآخر البدر

فلما سمعها علي بن أبي طالب ﷺ، قال: هذا طلحة بن عبيد الله، وكان السيف لَيَلْتَئِدُ مجرداً بينهما.

يسهل على الرجل أن ينصف مَنْ هو أكبر سناً منه أكثر مما يسهل عليه أن ينصف قرينه؛ ذلك لأن أكبر عائق عن الإنصاف التحاسدُ، وحسدُ الإنسان لأقرانه أكبر وأشدُّ من حسده للمتقدمين عليه في السن.

ويسهل عليه أن ينصف أقرانه أكثر مما يسهل عليه أن ينصف من هو أحدثُ سناً منه؛ إذ يسبق إلى ظنه أن ظهورَ مزيةٍ لمن هو أحدث عهداً منه قد تفضي إلى أن يكون ذِكْرُهُ أرفعَ.

وفضلُ القرين على بعض أقرانه شائعٌ أكثر من فضل المتأخر على المتقدم، وشيوع الشيء يجعله أهونَ على النفس مما هو أقل شيوعاً منه.

فينبغي للإنسان أن يتيقظ للأحوال التي تتقوى فيها داعيةُ العناد، ويعدَّ للوقوف عند حدود الإنصاف، ومقاومة تلك الداعية ـ ما استطاع من قوة.

ويقص علينا التاريخ أن في الأساتذة من يحرص على أن يرتقي تلاميذه في العلم إلى الذروة، ولا يجد في نفسه حرجاً من أن يَظْهَرَ عليه أحدُهم في بحث أو محاورة.

يذكرون أن العلامةَ عبدَالله الشريفَ التلمسانيَّ كان يحمل كلام الطلبة على أحسن وجوهه، ويبرزه في أحسن صوره.

ويروى أن أبا عبد الله هذا كان قد تجاذب مع أستاذه أبي زيد بن الإمام الكلامَ في مسألة، وطال البحث اعتراضاً وجواباً حتى ظهر أبو عبد الله على أستاذه أبي زيد، فاعترف له الأستاذ بالإصابة، وأنشد مداعباً:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

ومن نظر بروية إلى أن فضل العلم من جهة أنه وسيلة إلى إصلاح العمل، وإسعاد البشر، وكان مع هذا النظر ناصحاً لأمته ـ وقف عند حد الإنصاف، ولم ينحرف عنه إجابةً لداعي الحسد؛ أو انسياقاً مع حب العلو في الأرض ولو بغير حق.

أخذ رجال بأدب الإسلام؛ فرسخوا في فضيلة الإنصاف على قدر صفاء سرائرهم، واحترامهم لأصول الدين وأحكامه.

وقد مثل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ الإنصاف في أكمل صورة، بدا لعمر ابن الخطاب مرة أن يضع للمهور حداً، فخطب قائلاً: «لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية، فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال».

فقامت امرأة من صف النساء، فقالت: ما ذاك لك، قال: ولم؟ قالت لأن الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾

فقال عمر: «امرأة أصابت، ورجل أخطأ».

ولو كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أولئك الذين يألمون من أن ينسب إليهم نقصٌ أكثرَ من ألمهم لتحريف آية عن موضعها، أو استبدال خاطر بشري بحكم إلهي ـ لما عَدِم وجهاً من أمثال تلك الوجوه التي يصورها المخادعون، أو ضعفاء

الإيمان؛ تعصباً لآرائهم المخالفة للقرآن.

اختلف ابن عباس وزيد بن حارثة - رضي الله عنهما - في مسألة من باب الحيض، فقرر ابن عباس حكماً؛ وخالفه زيد، فرأى فيها رأياً آخر، فقال له ابن عباس: سل نسيَّاتك: أم سليمان وصويحباتها، فذهب زيد فسألهن، ثم جاء وهو يضحك، فقال لابن عباس: القول ما قلت.

وموضع العبرة من هذه القصة أن زيداً تمسك برأيه في مخالفة ابن عباس حتى استبان له أن الحق مع ابن عباس، فلم يجد في نفسه حرجاً من أن يرجع إليه ضاحكاً، ويقول له: القول ما قلت.

ويروى أن الإمام علي بن أبي طالب ﷺ تكلم في مسألة، فقال له أحد الحاضرين: ليس الأمر كذلك يا أمير المؤمنين، ولكنه كذا وكذا، فقال علي: أصبتَ وأخطأتُ، وفوق كل ذي علم عليم.

وعشاق الأخلاق الكريمة يجلون الإمامَ علياً لهذا الإنصاف إجلالهم له عندما يفتي، فيصيب الحق، أو يعظ، فينطق بالحكمة.

وقد اقتدى بالصحابة في هذا الخلق الكريم من جاء بعدهم من كبار العلماء، وهذا الإمام الشافعي ﷺ يقول: «ما ناظرت أحداً على الغلبة، ووددت إذا ناظرت أحداً أن يظهر الحق على يديه».

والراسخون في فضيلة الإنصاف لا يبالون أن يكون رجوعهم عن الخطأ أمام من خالفهم وحده، أو بمحضر جمع كبير لم يشعروا بالخلاف، ولا بخطأ المخطئ، أو إصابة المصيب.

وها هو ذا التاريخ يحدثنا عن رجال من علماء الإسلام بلغوا هذه الغاية من الإنصاف، قال عبد الرحمن بن مهدي: ذاكرت القاضي عبيد الله بن الحسين في حديث وهو يومئذ قاض، فخالفني فيه، فدخلت عليه بعد وعنده الناس سماطين[١]، فقال لي: ذلك الحديث كما قلت أنت؛ وأرجع أنا صاغراً.

فعبيد الله بن الحسين قد أحسن إلى نفسه؛ إذ أخذها بفضيلة الإنصاف، وأحسن إلى الناس؛ إذ علمهم كيف يعترفون بالخطأ إذا أخطأوا، ولا يتلبثون في الرجوع إلى الحق ولو عظمت مناصبهم، وعلت أقدارهم.

العناد قبيح، ويشتد هذا القبح بمقدار ظهور الحجة على الرأي الذي تحاول رَدَّه على صاحبه؛ فمتى كانت الحجةُ أظهرَ كان العنادُ أقبحَ، والإنصافُ جميلٌ ويكون جمالُه أوضحَ وأجلى حيث يكون في حجة الرأي الصائب شيءٌ من الخفاء، وحيث يُمْكِنُك أن تتحيز لرأيك، وتهيئ كثيراً من الأذهان لقبوله.

وقد ينقل التاريخُ شذراتٍ من حوادث المنصفين لمن خالفهم في أمر، أو المعترفين لبعض خصومهم بفضيلة؛ فتهتز في نفوس قرائها عاطفة احترام لمن أقر بالخطأ، أو اعترف لخصمه بخصلة حمد، وربما كان إكبارهم لمن أقر بالخطأ فوق إكبارهم لمن خالفه في الرأي فأصاب، وربما كان إكبارهم لمن شهد لخصمه بمكرمة فوق إكبارهم للشخص المشهود له بتلك المكرمة.

وسببُ هذا الإكبارِ عظمةُ الإنصافِ، وعِزَّةُ مَنْ يأخذ نفسه بها في كل حال.

قال ابن وهب: سمعت مالك بن أنس يقول: ما في زماننا شيء أقل من

---

(١) سماط القوم صفهم، يقال: قام القوم حوله سماطين أي صفين.

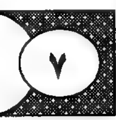
الإنصاف.

وإذا لم ينصفك الرجل، فرد عليك الحق بالشمال واليمين، أو جحد جانباً من فضلك وهو يراه رأي العين ـ فلا تكن قلةُ إنصافِه حاملةً لك على أن تقابله بالعناد، فترد عليه حقاً، أو تجحد له فضلاً، واحترس من أن تسري لك من خصومك عدوى هذا الخلق الممقوت، فَيَلِجَ في نفسك، وينشط له لسانك أو قلمك، وأنت تحسبه من محاربة الخصوم بمثل سلاحهم.

كلا، **لا يحارب الرجل خصومه المبطلين بمثل الاعتصام بالفضيلة**، ولا سيما فضيلة كفضيلة الإنصاف تدل على نفس مطمئنة، ونظر في العواقب بعيد.

ومن وجد في خصمه فضائل حصر محاربتَه في الأمر الذي هو منشأ الخصومة؛ وترك تلك الفضائل قارَّةً في مكانها، باديةً لمن أراد أن يقتدي بها.

وإذا كان الإنصافُ فضيلةً ترتفع بها أقدارُ الرجال، وتتسع بها دوائرُ العلوم، وتصفو بها مواردُ الآداب، ويشتد بها حبلُ الاتحاد، وينتظم بها شأنُ الاجتماع ـ كان من واجب أولياء الأطفال، وأساتذة الأخلاق، ودعاة الإصلاح أن يجعلوا له من تربيتهم، وتعليمهم، ودعوتهم نصيباً يكفي لأن نرى أنديتنا ومؤلفاتنا وصحفنا نقيةً من إنكار الحق، بريئة من جحود الفضل.



٧ علم الأخلاق[1] للشيخ علي فكري ـ أمين دار الكتب المصرية

علم الأخلاق: هو العلم الذي يبحث عن حالة النفس، ونزوعها في أفعالها إلى الخير أو الشر، وعن الصفات الإنسانية عاليها وسافلها، وعن بقاء تلك الصفات في الإنسان وقبولها للتغيير.

وقد قال العلماء: إن الأخلاق هي صورة النفس المستترة التي تظهر في الإنسان عند القيام بأفعاله التي لا تكلف فيها.

ولا تكون الأفعال خلقاً للإنسان إلا إذا كانت صادرة لا عن تكلف، ولا عن إجهاد نفس، ولا عن تفكير.

فالأعمال التي يحتاج فاعلها إلى إكراه نفسه عليها لا تعد من خلقه؛ لأنها ليست سجية له، ولا طبعاً.

فمن يتكلف فعل المكرمات، وبذل المال؛ رياء لا يقال خلقه السخاء أو الكرم، ومن تصنَّع الحلم أو التواضع لا يسمى حليماً ولا متواضعاً.

وها هو ذا أبو الطيب المتنبي يقول:

وللنفس أخلاق تدل على الفتى ... أكان سخاء ما أتى أم تساخيا

فرب شخص من خلقه السخاء لكنه لم يبذل لفقده المال، أو لمانع آخر، ورب بخيل تراه في طليعة الباذلين والمتبرعين؛ لحاجة في نفسه قضاها.

من أجل هذا عرَّف بعضهم الأخلاق فقال: هي ميول وجدانية تقوم بالنفس؛

---

(١) مجلة جمعية مكارم الأخلاق، ١ / ٧ ـ ١٠ رجب ١٣٤٣هـ.

فتوحي بها إلى الجوارح؛ فتحدث آثارها إن خيراً، وإن شرّاً وفاقاً لإرادة الشخص ونزوعه النفسي...

والأخلاق إما حسنة وإما سيئة، فالحسن: ما حسَّنه الشرع والعقل[١]، والسيئ: ما ذمه الشرع والعقل.

ومن شأن العاقل الكامل أن يختار الأفضل، والأحسن في العاقبة وإن كان في فعله مشقة على النفس، أو كان مكروهاً لها، ومبغضاً قال ـ تعالى ـ: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾

وآفة عقل الإنسان هواه؛ ولذا قال بعض الحكماء: أرفض الهوى؛ فإنه إذا غلب العقل جعل محاسن المرء مساوئ، فيصير الحلم حقداً، والعبادة رياءاً، والجود تبذيراً، والاقتصاد بخلاً.

وقال آخر:

وآفة العقل الهوى فمن علا   على هواه عَقْلُه فقد نجا

وإذا قوي العقل، وغلب قاد صاحبه إلى محاسن الأخلاق، ومحامد الأمور، وحفظه من التردي من مهاوي الهلكة.

وإن ضعف العقل هلكت النفس، وظهر اعوجاجها.

---

(١) المقصود بالعقل: العقل السليم، وهو السالم من الشهوات والشبهات؛ وإلا فقد تُحسِّن بعض العقول ما ليس بحسن، وقد تقبح ما ليس بقبيح؛ فالعبرة ـإذاًـ بالشرع، وإن كان للعقل مدخل في التحسين والتقبيح، ولكنه لا يستقل بذلك. (م)

وليس الإنسان شرِّيراً بفطرته، ولا خيراً بطبعه، ولكنه خلق أداة صالحة؛ لفعل ما يوجهها العقل إليه قال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ[1] (١٠)﴾ البلد: ٨ ـ ١٠، وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا[2] (١٠)﴾ الشمس: ٧ ـ ١٠.

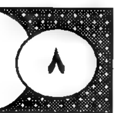
وفي التاريخ أمثلة كثيرة تدل على أن العقل السليم يهدي صاحبه إلى الخير، فالأمة العربية في جاهليتها كانت غريقة في بحار الآثام من خمر، وميسر، وقتل نفس بغير حق، ووأد بنات، وهتك أعراض؛ فلما جاء الإسلام وغلب العقل الهوى انتقلت تلك الأمة من حمأة الفساد إلى روضة الصلاح والاستقامة، فأتت فعلاً حميداً، ونالت عزّاً مجيداً.

وحسبك أن تعلم أن الأمة العربية سادت بجميل الأخلاق، وحميد الخلال، فكان الصدق، والأمانة، والعفة، والوفاء، والمروءة، والإخلاص في العمل، والألفة، والاتحاد، وكلها مجتمعة في الرجل منها يُتَحلَّى بها عن رغبة لا عن رهبة، وبميل ووجدان شريف، ونزعة نفسية حرة.

---

(١) الطريقين.

(٢) دنَّسها.



٨ أخلاق الناس[1] للدكتور. زكي مبارك[2]

قَلِّبْ ما شئت من مؤلفات القدماء فسترى أنَّ المؤلفين كانوا يهتمون في أكثر الأحيان بمحارية الرذائل الاجتماعية، لاسيما الغيبة والنميمة؛ لأنهما من أخطر أسباب القطيعة بين الناس.

---

(١) البدائع، د. زكي مبارك ١/١٨.

(٢) هو الأديب الدكتور زكي بن عبدالسلام بن مبارك: أديب من كبار الكتَّاب المعاصرين، امتاز بأسلوب خاص في كثير مما كتب، وله شعر في بعضه جودة وتجديد، عاش في الفترة ما بين: ١٣٠٨ـ١٣٧١هـ.

ولد في قرية «سنتريس» بمنوفية مصر، وتعلم في الأزهر، وأحرز لقب «دكتور» في الآداب من الجامعة المصرية، واطلع على الأدب الفرنسي في فرنسة، واشتغل بالتدريس بمصر.

انتدب للعمل مدرساً في بغداد، وعاد إلى مصر، فعين مفتشاً بوزارة المعارف.

نشر مؤلفاته في فترات مختلفة، وكان في أعوامه الأخيره يوالي نشر فصول من مذكراته وذكرياته في فنون من الأدب والتاريخ الحديث تحت عنوان «الحديث ذو شجون».

أصيب بصدمة من عربة خيل أدت إلى ارتجاج في مخه، فلم يعش غير ساعات؛ إذ توفي في القاهرة، ودُفن في سنتريس.

له نحو ثلاثين كتاباً، منها «النثر الفني في القرن الرابع ـط» جزءان، و«البدائع ـط» مقالات في الأدب والإصلاح، و«حب ابن أبي ربيعة وشعره ـط»، و«التصوف الإسلامي ـط»، و«ألحان الخلود ـط» ديوان شعره، و«ليلى المريضة في العراق ـط» ثلاثة أجزاء، و«الأسمار والأحاديث ـط»، و«ذكريات باريس ـط»، و«الأخلاق عند الغزالي ـط»، و«وحي بغداد ـط»، و«ملامح المجتمع العراقي ـط»، و«الموازنة بين الشعراء ـط»، و«عبقرية الشريف الرضي ـط» جزءان، وورد اسمه على بعض كتبه «محمد زكي مبارك». انظر الأعلام للزركلي ٣/٨١ـ٨٢.

أما المؤلفون في العصر الحاضر فيرون الغيبة والنميمة من الموضوعات البالية التي لا تصلح لأقلام المُحْدَثين، وإني لأكتب هذه الفقرات في هيبة وحذر؛ خشيةَ أن يقول قائل: ما هذه الرجعة إلى أوهام الأولين!

ويسألني من أرى من الأصدقاء: أين تسهر؟ وأين نراك؟

والسهرات عند هؤلاء هي جلساتٌ سخيفة تؤكل فيها لحوم الناس، ويجري فيها من السفه والبذاءة ما يندى له الجبين! ويا ويل من تَكْرُمُ عليه نفسُه؛ فلا يشترك في لغو الحديث؛ فهو عندهم ثقيل الظل، بارد الأنفاس!

والتطرف في عصرنا هو مضغ أخبار الأدباء والشعراء والمؤلفين.

وفي شباب اليوم أفراد يعيشون من هذا الرزق الحرام؛ فهم زينة الأندية الرقيعة التي لا تجري فيها كلمةُ خير، ولا تَعْرِف زواياها غيرَ الإفك والبهتان من عبث القيل والقال.

وفي كهول اليوم طوائفُ تتلمس هذه الأنواع البشرية التي تحسن تلفيق الأراجيف والأكاذيب.

وإنك لتعجب كيف يتفق لمن يسمونهم أدباء الشباب وأدباء الكهول أن يجيدوا شيئاً، وهم يقضون ثلاثة أرباع الوقت في تلك الأحاديث الممجوجة التي تتنافر مع سماحة الطبع، وسلامة الذوق، ورجاحة العقل.

أين أسهر؟ أنا أسهر في بيتي حيث آنس بوحشة الليل؛ فقد ضجرت من إخوان الزمان، وعادت الوحدة أحبَّ إلى نفسي مِنْ صحبة مَنْ يلبسون ثوباً للمحضر، وثوباً للمغيب.

أين من يعرف أدب النفس في هذه الأيام؟ وأين الرجل الذي تثق بكرمه ومروؤته؟ وتطمئن إلى أن أذنه لا تفتح لأهل اللغو والفضول ممن يبعثرون النمائم ذات اليمين وذات الشمائل؟ وأين من يزن ما يقول، ويفكر في عواقب ما يقول؟ وأين من سَلِم أديمُه في هذا البلد، فلم تمزقه الأقاويل والأراجيف؟

دلونا أيها الناس على رجل واحد سلم عرضُه وشرفُه، وحُفِظَ معروفُه وجميله، واستطاع الفضل أن يحميه من لغو المرجفين، وكيد المفسدين.

لقد صحبت طوائف من المصريين وطوائف من الأجانب وانتهيت إلى النتيجة الآتية: الغيبة والنميمة من الرذائل الإنسانية يقع فيها المصريون وغير المصريين.

ومع هذا لاحظت أن المثقفين من الأجانب قد يستبيحون الاغتياب، ولكنهم لا يستبيحون البهتان؛ فالرجل قد يغتابك، ولكنه يتحرَّج من أن يصفك بما ليس فيك، وقد ينم، ولكن نمائمه خالصة من المفتريات.

أما المثقفون منَّا ـ وا أسفاه! ـ فيجمعون بين الرذيلتين: النميمة، والافتراء.

ومعنى هذا أنَّ من الأجانب من يعصمه الحياء من خَلْقِ الأكاذيب، وأنَّ فينا من تنقصه فضيلة الحياء.

إننا نتحدث كثيراً عن الوطنيةِ، والوطنيةُ لا تقوم إلا على فكرة الوطن، والوطن لا يُحَبُّ إلا حين يكون لنا فيه أصدقاء وأخلاء؛ فإنَّ الموداتِ والعلاقاتِ هي أساس التقديس[1] للأفكار والأشخاص.

أيها المغتابون والنمامون! أنتم أعداء الصدق والكرامة والوطنية، وأنتم أعداء أنفسكم لو تعلمون!

---

(١) لو قال: التقدير (م).

٩ الوفاء[1] لمصطفى لطفي المنفلوطي[2]

يا صاحب النظرات[3]:

تزوجت منذ سنة من زوج صالحة طيبة القلب والسريرة، فاغتبطت بعشرتها

---

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة الموضوعة ص٣٦٤ـ٣٦٧.

(٢) هو مصطفى لطفي المنفلوطي، ولد بمنفلوط من أعمال محافظة أسيوط سنة ١٢٩٣هـ، ١٨٧٦م، ونشأ في بيت كريم جليل معروف بالعلم والقضاء، وقد نهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثقافة، فحفظ القرآن في المكتب، وتلقى العلم بالأزهر، وكان ميالاً إلى علوم اللغة، وفنون الأدب؛ فهو يحفظ الأشعار، ويتصيد الشوارد، ويصوغ القريض، وينشئ الرسائل، وقد برز في الكتابة أكثر من بروزه في غيرها؛ فصار في مصاف أكابر الكتاب في عصره، وكان رحمه الله أديباً موهوباً، ذا أسلوب ساحر، وبيان عذب.

وجملة القول ـكما يقول الزياتـ أن المنفلوطي في النثر كالبارودي في الشعر كلاهما أحياد، وجدد.

أما مؤلفاته فله النظرات في ثلاثة أجزاء جمع فيها ما نشره في صحيفة المؤيد من الفصول في النقد، والاجتماع، والوصف، والقصص.

وله مختارات المنفلوطي من أشعار المتقدمين ومقالاتهم.

وقد ترجم له بعض أصدقائه من الفرنسية تحت ظلال الزيزفون (مجدولين) لأفونس كار رويول سود فرجيني (الفضيلة) لبرناردي سان بيير، وسيرانود برجراك (الشاعر) لأدمون رستان، فصاغها بأسلوبه البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصل؛ فأضافت إلى ثراء الأدب العربي ثروة، وكانت للفن القصصي الحديث قوة.

وقد جمعت كتاباته في المجموعة الكاملة ـالموضوعة والمقتبسةـ.

أما أخلاقه فكان كريماً عف الضمير، رقيق القلب، سليم الصدر.

توفي رحمه الله سنة ١٩٢٤م عن ٤٨سنة.

انظر تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات ص٥٣٧ـ٥٤٠.

(٣) صاحب النظرات هو المنفلوطي رحمه الله وصَدْرُ هذه المقالة سؤال وجه إليه، ورمز السائل لنفسه بـ: إنسان، وبعد ذلك أجابه.

برهة من الزمان، وقد عرض لها في هذه الأيام رمد في عينيها؛ فذهب ببصرها فأصبحت عمياء، وأصبحت أعمى بجانبها، وقد بدا لي أن أطلقها وأتزوج من غيرها... فماذا ترى ؟

إنسان.

أيها الإنسان: لا تفعل، فإنك إن فعلت كان عليك إثم الخائنين، وجرم الغادرين، وكن اليوم أحرص على بقائها بجانبك منك قبل اليوم؛ لتستطيع أن تدخر لنفسك عند الله من المثوبة والأجر ما يدخر أمثالك من الصابرين المحسنين.

لا تقل: إنها عمياء فلا خير فيها، ولا غبطة لي بها؛ فإنك ستجد بين جنبيك من لذة المروءة والإحسان والجود والإيثار ما يحسدك عليه الناعمون بالحور الحسان، في مقاصير الجنان.

اجلس إليها صباحك ومساءك، وحادثها محادثة الصديق صديقه، بل الزوج زوجه، وتلطف بها جهدك، وروِّح عن نفسها ما يساورها من الهموم والكروب وقل لها: لا تجزعي ولا تحزني؛ فإنما أنا بصرك الذي به تبصرين، ونورك الذي به تهتدين.

أعيذك أيها الإنسان بالله ألا تجعل لهذا الخاطر السيء ـ خاطر الطلاق والفراق ـ سبيلاً إلى نفسك، فإنها لم تسىءْ إليك؛ فتسيءَ إليها، ولم تنقضْ عهدك؛ فتنقضَ عهدها، فإن كنت لا بدَّ ثائراً لنفسك فاثأر من القدر إن استطعت إليه سبيلاً!

إنَّ عجزاً من الرجل وضعفاً أن يغضب؛ فيمد يده بالعقوبة إلى غير من أذنب إليه، ويعتدي عليه.

إن لم يكن احتفاظك بزوجك، وإبقاؤك عليها عدلاً يسألك الله عنه فليكن

إحساناً تحاسبك الإنسانية فيه.

إنك قد خسرت بصرها، ولكنك ستربح قلبها، وحسب الإنسان من لذة وهناءة في هذه الحياة قلب يخفق بحبه، ولسان يهتف بذكره.

إنها أسعدتك برهة من الزمان، فليخفق قلبك رحمة بها، بقدر ما خفق سروراً بعشرتها.

لا أحسب أنها كانت تاركتك، أو غادرة بك لو أن هذا السهم الذي أصابها قد أصابك من دونها؛ فاحرص الحرص كله على ألا تكون امرأة ضعيفة أسبق منك إلى فضيلة الصدق والوفاء.

إلى من تعهد بها بعد فراقك إياها؟ وأي موطن من المواطن هيأته لمقامها؟ وما أعددت لها من الوسائل التي تستعين بها على عيشها؟ وتأنس بها في وحشتها ووحدتها؟

كيف يهنأ لك عيش، أو يغمض لك جفن؟ إذا أظلك الليل فذكرتها، وذكرت أنها تقاسي في وحدتها من الوحشة ما لا قبل لها باحتماله، وأنها ربما طلبت جرعة ماء، فلا تجد من يقدمها إليها، أو كسرة خبز، فلا تجد من يدلها عليها، أو ربما قامت من مضجعها في سكون الليل وهدوئه تتلمس الطريق إلى حاجة من حاجاتها، فأخطأ تقديرُها، فصدمها الجدار في جبينها صدمة أسالت دمها حتى امتزج بدمعها؟

أيها الإنسان: إن لم تكن عادلاً ولا وفياً ولا محسناً فارحم نفسك من هذا الخيال الذي لابدَّ أن سيساورك، يفت في عضدك ويزعجك من مرقدك، فإن لم

تكن هذا ولا ذاك، فغيرك أخاطب؛ لأني لا أحسن إلا مخاطبة الإنسان.

إني محدثك عن صديق لي من كرام الناس وأوفيائهم تزوج امرأة حسناء؛ فاغتبط بها برهة من الزمان، ثم أصابها الدهر بمثل ما أصاب به زوجك، ولم يترك لها من ذلك النور الذاهب إلا كما تترك الشمس من الشفق الأحمر في حاشية الأفق، فلم يقنعه من الوفاء لها أَن استبقاها واستمسك بها، بل كان يحرص جهده على ألا تعلم أنه ينكر من أمرها شيئاً، فكان يعتب عليها في بعض الأحايين في أشياء لا يؤاخذ بها عادة إلا الناظرون المبصرون؛ يريد أن يلقي في روعها أنه لا يزال يعدها ناظرةً مبصرة، وأنه لا يرى شيئاً جديداً عليها؛ رحمة بها، وإبقاءاً على ما كانت تحب أن تحاوله من الاعتداد بنفسها، والإدلال بمزاياها.

ولقد قرأت جملة صالحة من نوادر العرب في آدابهم، ومكارم أخلاقهم، ورقة شعورهم، ولطف وجدانهم، فلم أر بينها نادرة أوقع في النفس، ولا أجمل أثراً في القلب من قول أبي عيينة الكاتب المعروف في عهد الدولة العباسية، وكان كفيف البصر: اختلفت إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد أربعين عاماً فما سمعته مرة يقول لغلامه عند تشييعي: خذ بيده يا غلام بل يقول: اخرج معه يا غلام.

فإن كنت تريد أن يسجل لك من الوفاء في صفحات القلوب، ما سجل

لأحمد بن أبي دؤاد[١] في صفحات التاريخ فلا تُطَلِّق زوجك، ولا تنقم منها أمراً قد خرج حكمه من يدها، وإن أبيت إلا أن تأخذ لنفسك حظها من لذائذ العيش فاعلم أنه ما من لذة يتمتع بها الإنسان في حياته إلا ويشوبها الكدر، أو يعقبها الألم، إلا لذة البر والإحسان.

(١) ولكن التاريخ سجل عليه ما لا ينسى من قيامه بتبني امتحان الناس وخصوصاً الإمام أحمد رحمه الله في مسألة خلق القرآن الكريم (م).

١٠ الشرف[1] للأستاذ أحمد أمين

في الحرب الروسية اليابانية الماضية أُخذ بعضُ الضباط أسرى ووضعوا في مكان وأخذ منهم كلمة ألا يهربوا، ولم يوضع عليهم حُرَّاس؛ اكتفاءاً بوعدهم وكلمتهم، فما الذي منعهم أن يفروا أو يهربوا ؟ كلمة الشرف...

ومن حكايات العرب المشهورة أن حصن بن زرارة لما ضاقت المعيشة به وبقومه رحل إلى كسرى، فشكا إليه ما أصابهم من الجهد في أموالهم وفي نفوسهم، وطلب إليه أن يأذن له ولقومه أن ينزلوا في البلاد المتاخمة لفارس؛ لِخِصَبها، فقال كسرى: إن العرب فيهم غدر، فإذا أذنت لهم عاثوا في الأرض وأغاروا، فقال: أنا ضامن لهم، قال كسرى: فمن لي أن تفي أنت؟ قال: أرهنك قوسي، فلما جاء بها ضحك مَنْ حول الملك؛ لتفاهة القوس وحقارتها، ولكن كسرى كان عارفاً بالرجل وبعادات العرب فقبل منه القوس رهناً، فما الذي حمله على قبول قوسه الحقير؟ لأنه انضم إلى رهن القوس ذمة الرجل ووعده وكلمته، وقد بَرَّ بوعده، وهذا هو الشرف؛ فالشرف في أبسط أشكاله أن يحافظ الطفل، والشاب، والرجل، والمرأة على الكلمة تصدر منهم كأنها «عِقْد» سواء في ذلك اللسان، أو التوقيع بالقلم، والفرق بينهما أن التوقيع على العقد يُلْزِمُ به القانون، والنطق بالكلمة يلزم به الشرف.

وهناك مظاهر للشرف في كل عمل يعمله الإنسان؛ فالأطفال في أعمالهم قد

---

(١) فيض الخاطر ٦/٢٥٥ـ ٢٥٨.

يَغُشُّون فلا يكون لهم شرف، وقد يكونون أمناء فلهم الشرف، والبائع قد يغش في الكيل والميزان فلا شرف له، وقد يكون أميناً؛ فهو شريف، ورئيس الوزارة قد يحترم كلمته، ويحافظ على بلاده ويحفظ سمعتها؛ فيكون شريفاً، وقد لا يقوم بذلك؛ فلا يكون شريفاً وهكذا.

وهناك نوع آخر من الشرف، وهو حماية الضعفاء؛ فالدنيا مملوءة بالضعفاء كالفلاّح المسكين الذي لا يجد ما يأكل، والصانع الذي حدثت له إصابة منعته من العمل، والمريض لا يجد ما يتداوى به، والأسرة مات ربها ولا عائل لها، والتلميذ النابغة لا يجد وسيلة لتعليمه وهكذا، كل هؤلاء ضعفاء، وكل هؤلاء يحتاجون إلى المعونة لسد حاجتهم.

فمساعدتهم، وسد عوزهم، والأخذ بيدهم ضربٌ من ضروب الشرف؛ فشريفٌ مَنْ ينزل عن بعض ماله لمساعدة هؤلاء المنكوبين، وشرفاءُ مَنْ يؤسسون جمعيات ينفقون عليها من مالهم، وعقولهم، ونشاطهم؛ لرفع البؤس عن البائسين.

وهناك أنواع أخرى صغيرة من أنواع الشرف، إذا كان أمامك خطاب لآخر تستطيع أن تقرأه ولكن رأيت من الواجب ألا تقرأه؛ لأنك لا تملكه؛ فهذا شرف، وإذا اؤتمنت على سرٍّ فلم تبح به؛ فهذا شرف، وإذا ضغطت عليك الحوادث؛ لتسير سيراً معوجاً لا يتناسب والخلقَ السامي فأبيت إلا أداء الواجب مهما ضحيت في سبيله فهذا شرف، وإذا كانت كلمة الحق تهددك في منصبك أو مالك فقلتها ولم تبال بالعواقب فهذا شرف.

إذاً فيجمع الشرَف كلمةٌ واحدة هي أن تحافظ على الكلمة تصدر منك، وعلى واجبك تؤديه على الرغم من كل شيء.

وللشريف مكافأتان يكافئه بها الناس ويكافئ بها نفسه، فمكافأة الناس كالأوسمة، والرتب، وبعض المناصب، والمكافآت المالية، والدرجات الجامعة، وإقامة الخطب، والهتافات إذا منحت كل هذه لرجل شريف لأداء عمل شريف.

وهناك مكافأة أهم من هذه وهي مكافأة الشريف نفسه برضا ضميره لأداء واجبه، هي راحة نفسه، وسرورها باحتمال المشقة؛ لعمل ما كان ينبغي أن يعمل، ولذة هذا الشعور تفوق كل لذة[1].

كان الجنرال (غوردون) قائد حملة في الصين فلما انتهت مهمته كتب يقول: «إني أعلم أني سوف أترك الصين فقيرة كما دخلتها، ولكنَّ ضميري مرتاح؛ لأني استطعت أن أُنْجِيَ نحو مائة ألف نفس من الموت، وهذا عزائي».

ولما مُنِحَ لقب الشرف على عمله قال: إن هذه الألقاب والنعوت كلها لا تساوي عندي (بنسين) ولما منحه إمبراطور الصين ميدالية ذهبية صهرها، وباعها، وتصدق بثمنها على فقراء الصين.

الطفل الشريف يأبى أن يعمل عملاً يسيء سمعته، أو فصله، أو مدرسته.

والرجل الشريف يأبى أن يعمل عملاً يضر بأسرته، أو أمته.

والمرأة الشريفة تأبى أن تأتي عملاً يضر بأسرتها أو أمتها، بل أكثر من ذلك أن الرجل الشريف أو المرأة الشريفة عنده شعور قوي يدفعه للإعجاب بمن يأتي

---

(١) وهناك أعظم من جميع هذه المكافآت، الا وهي نيل رضا الله -عز وجل- والفوز بالجنة (م).

بعمل يُشرِّف أسرته أو أمته.

ويتجلى هذا الشعور بالقول، وبالتبرع، وبالتكريم، كما أن هذا الشعور القوي يدفعه إلى السخط الشديد على من يرتكب عملاً نذلاً يَحُطُّ أسرته، أو أمته، ويترجم هذا الشعور بالقول والعمل.

وكما أن هناك جنيهاً صحيحاً، وجنيهاً مزيفاً، وعَقْدَ بيعٍ صحيحاً وعقداً مزيفاً ـ كذلك هناك شريف صحيح، وشريف مزيَّف؛ فكل الأنواع التي ذكرتها من المحافظة على الكلمة، ومساعدة الضعفاء، وقول الحق في صراحة، وأداء الواجب في أمانة، ودفع السوء عن الأسرة، والوطن، وجلب الخير لهما ـ كل هذه أنواع من الشرف الصحيح.

أما الشرف الـمُزَيَّف فأنواع كذلك، كالشرف بالغنى الذي لا ينفع الغنيُّ به أمتَه وقومه، فاحترام الناس للغني؛ لأنَّ عنده ألف فدان أو أقل أو أكثر احترامٌ خاطئ، وتعاظمُ الغنيِّ؛ لأن عنده هذه الأطيان شرف مزيف.

إنما يكون شريفاً صحيحاً يوم يفخر أنه استخدم غناه في مصلحة قومه، فساهم في أعمال الخير، وتبرع لرفع البؤس عَمَّنْ كانوا سبب غناه، وخَفَفَ بماله بؤس البائسين، وعوز المحتاجين.

كذلك من الشرف المزيف الفخر بالمنصب، كأن يكون وزيراً، أو مديراً، أو في الدرجة الأولى أو الثانية، فهذا الفخر إن لم يقترن بالعمل النافع شرفٌ مزيفٌ.

وواجبُ الأمةِ العاقلةِ أن تزن الأمور بميزان صحيح؛ فلا تَبْذِلَ من الاحترام، والتوقير، والإجلال لغني، أو وزير، أو مدير إلا بمقدار ما يسدي للأمة بماله

ومنصبه من خير.

ولو عقل الناس لاحترموا كناساً في الشارع يؤدي واجبه أكثر مما يحترمون وزيراً لم يؤدِّ واجبه بل أضاع واجبه.

كذلك من ضروب الشرف المزيف الفخر بالحسب والنسب، فهو من أسرة فلان، ومن بيت فلان، ونسيب فلان، وابن فلان، وحفيد فلان؛ فكل هذا لا قيمة له في الشرف ما لم يُدْعَمْ بالعمل النافع.

ورجل عصامي نشأ من بيت فقير، وكان أبوه نجاراً، أو حداداً ثم أتى بعمل جليل خيرٌ من الحسيب النسيب لا يأتي عملاً، أو يأتي ما يشين.

ومثل هذا من الشرفِ المزيَّفِ الأمةُ تفتخر بماضيها، ولا تعمل لحاضرها، ومستقبلها، والشاعر العربي يقول:

إذا أنت لم تحمِ القديم بحادث ... من المجد لم ينفعك ما كان من قبل

فالذي يَشْرُف بماله، أو بمنصبه، أو نسبه، أو تأريخه شريف مزيف، ما لم يأت بأعمال شريفة من نفسه.

الشريف يحترم نفسه؛ فلا يعمل الدنيء من الأعمال، ولو أَمِنَ أن يطلع عليه أحد، ويخاف من ضميره أكثر مما يخاف من غيره، ويترفع عن الصغائر، ويَحْرِمُ نفسه من بعض المباح؛ لأنه يرى نفسه أرفع من أن تأتي بمواضع الشُبَه.

والشريف يسمو إلى الغرض النبيل، ولا يهدأ ضميره حتى يناله، أو يقرب منه.

لقد أخذت اللغة الإنجليزية من اللغة العربية كلمة (شريف)، واستعملتها في بعض المناصب الرفيعة، وسَمَّتْ بعض المحاكم (محكمة الشرفاء)؛ فهل يعتز العرب بهذه الكلمة، ويتخذونها أساساً لأفعالهم؛ كما تأصلت في لغتهم؟ أرجو ذلك.

١١ مضار الإسراف[1] للشيخ محمد الخضر حسين

تعظم الأمة، وترقى في سماء العزة والمنعة، بخصال من أكبرها أثراً الاقتصاد في الإنفاق، والاقتصاد فضيلة بين رذيلتين: هما البخل، والإسراف.

وتقديره يختلف باختلاف أحوال الأشخاص من اليسار وقلة ما في اليد، وضابطه أن لا يتجاوز الإنسان في نحو مطعمه، وملبسه، ومسكنه، وأثاث منزله سيرةَ من يماثلونه في مقدار ما يملك، أو يكسب من المال، وهم يعيشون في مروءة، وسلامة من هموم الدين.

ولما كان الاقتصاد يقوم على عدم الإسراف في الترف اخترنا أن نجعل حديثنا في الإسراف وما يجرُّ إليه من عواقب وخيمة.

الإسراف يُفضي إلى الفاقة؛ ذلك أن المسرف يطلق يده في الإنفاق إرضاءً لشهواته؛ حتى يفقده ما عنده، وينزل إلى طبقة المقلّين أو المعدمين، وكم من بيوت أسسها آباء مقتدرون، وعمَّروها بما يليق بها من المرافق والأمتعة، وأقاموا حولها وسائل للثروة، من نحو المزارع، أو المصانع، أو المتاجر، ثم صارت إلى أبنائهم من بعدهم وقد غلب عليهم حب الترف، فأطلقوا لشهواتهم العنان حتى أتلفوا وسائل الثروة، وتقوَّض بناء تلك البيوت، والتحق أولئك الخلف بطبقة البائسين الذين لا يجدون ما ينفقون.

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية الجزء الأول والثاني، من المجلد الرابع عشر، وانظر كتاب محاضرات إسلامية لفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين جمعها وحققها علي الرضا التونسي ص١٤٠-١٤٧.

وإذا وقع الرجل في الفقر بعد اليسار، تجرَّع مرارة الهوان المصحوب بحسرات.

وكذلك الأمة تملك عزتها بقدر عمارة بيت مالها، قال أبو جعفر المنصور في وصيته للمهدي: «**فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً**».

ومن ثمَّ كان القاضي منذر بن سعيد البلوطي يواجه الخليفة عبدالرحمن الناصر بالنهي عن الإسراف في المباني وزخرفتها، ويلقي بحضرته الخطب الزاجرة، حتى خاطبه يوماً بقوله:

يا باني الزهراء مستغرقاً ... أوقاته فيها أما تمهل

لله ما أحسنها رونقاً ... لو لم تكن زهرتها تذبل

ثم قال: اللهم اشهد فقد بلَّغت.

والإسراف في الترف ينبت في النفوس أخلاقاً مرذولة، من نحو الجبن والجور، وقلة الأمانة، والإمساك عن البذل في وجوه الخير.

أمَّا أن الإسراف في الترف يدعو إلى الجبن فلأن شدة تعلق النفوس بالزينة واللذائذ من العيش يقوِّي حرصها على الحياة، ويحملها هذا الحرص على تجنب مواقع الحروب وإن كانت مواقف شرف، وذود عن النفس والعرض والمال.

شأن المحفوف بالزينة، وملاذ العيش أن تشتد كراهيته للموت، ولا يسابق إلى خوض غمار الحروب؛ لهذا ترى الرجل الذي يريد أن يجعل لشجاعة ممدوحة مزية زائدة يحدثك أنه يندفع إلى الحروب غير مبال بما تركه وراءه من لذة وزينة، كما قال الحطيئة العبسي:

إذا هم بالأعداء لم يثن عزمه ... كعاب عليها لؤلؤٌ وشنوفُ

حَصَانٌ لها في البيت زيٌّ وبهجة ومشيٌ كما تمشي القطاة قَطوفُ[1]

وإذا كان شأن المترفين الفرار من الموت، فحق الأمة التي تريد النهوض من كبوتها أن تقلع عن الإسراف في الرفاهية، وتضع مكان الإسراف بذلاً في وجوه البر والإصلاح.

وأما أن الإسراف في الترف يسهل على النفوس ارتكاب الجور؛ فلأن المنغمس في الترف يحرص على اكتساب المال ليشبع شهواته، فلا يُبالي أن يأخذه من طرق غير مشروعة، فيمد يده إلى الاستيلاء على ما في يد غيره من طريق الرشوة، أو من طريق الغصب، إن كان ذا سلطان وقوة.

دُعِيَ العلامة محمد بن بشير إلى ولاية القضاء بقرطبة، فاستشار بعض أصحابه في قبول الولاية، فسأله صاحبه عن أشياء؛ ليعلم مقدار قوته في العدل، ومما قاله له: كيف حبك للأكل الطيّب، واللباس اللين، والمركوب الفاره؟ قال: والله لا أبالي ما رددت به جوعي، وسترت به بدني، وحملت به رحلي، قال: اقبل الولاية، فلا بأس عليك.

وأما أن الإسراف في الترف يذهب بالأمانة فلأن الغريق في الترف إنما همّه

---

(١) هذان البيتان ضمن قصيدة مدح بها الحطيئة سعيدَ بن العاص، ومعنى قوله (وشنوف): جمع شنف، وهو القرط الأعلى، و(الحَصان): العفيفة، وقوله (كما تمشي القطاة..) يعني أنها قليلة المشي، مقاربة الخطو، ليست كمن اعتاد السير.

والمعنى أن الممدوح إذا أراد الغزو، فنهته امرأته عن ذلك مضى إلى سبيله، ولم يلتفت إليها، مشيراً إلى الزينة والترف لا يذهب برجوليته، ولا يقعد به عن حماية الشرف، والكرامة. (م)

الوصول إلى زينة، أو لذة مطعم ونحوه، وكثيراً ما تدفعه هذه الشهوات إلى أن يخون من ائتمنه، فيمد يده إلى المال الذي يؤتمن عليه، وينفقه في شهواته الطاغية.

وأما أن الإسراف في الترف يمسك الأيدي عن فعل الخير فلأن من اعتاد الترف حتى أخذ بمجامع قلبه، كان أعظمُ قصدِه من جمع المال إنفاقَه فيما يلذه من مأكول، أو يتزين به من نحو ملبوس أو مفروش.

لذلك كان الغالبُ على المترفين المسرفين قبضَ أيديهم حيث يبسط غيرهم يده إسعاداً لذوي الحاجات من الفقراء والمنكوبين، أو إجابة لما تدعو إليه المروءة من مجاملات الإخوان، ومن هنا نستبين أن للإسراف سيئةً أخرى، هي قطع صلة التعاطف والتواد بين كثير من أفراد الأمة.

وللإسراف في الترف أثرٌ كبير في إهمال النصيحة والدعوة إلى الحق؛ ذلك أن من اعتاد التقلب في الزينة، وألفت نفسه العيش الناعم يغلب عليه الحرص على هذا الحال، فيتجنب المواقف التي يمكن أن تكون سبباً لفوات بعض النعيم، كسكوته عن كلمة حق بين يدي ذي جاه، أو سلطان يكره أن يسمع صوت الحق، ومن تَرك أن يواجه بكلمةِ حقٍّ ذا جاه، أو سلطان يخشى أن يحول بينه وبين رفاهيته ـ سهل عليه أن يترك الدعوة إلى الحق جملة.

وللإسراف في الترف أثر في الصحة؛ فقد دلت المشاهدات على أن المسرف في نحو المأكل والمشرب لا يتمتع بالصحة التي يتمتع بها المقتصدون فيما يأكلون وما يشربون.

وقد أورد ابن خلدون في مقدمته حديثاً عن الأمراض، ونبّه على أنها تكثر في

أهل الحضر والأمصار؛ لِخِصَب عيشهم، وكثرة مآكلهم، وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية، ثم نبّه على أن تلك الأمراض تقل في أهل البادية؛ لقلة مأكولاتهم، وبساطة أغذيتهم.

وإذا كانت الصحة من متممات البطولة كان حقاً على الأفراد والجماعات أن يأخذوا في مآكلهم ومشاربهم بحكمة الاقتصاد؛ فلا فضل للأمة في أن تضع على موائدها ألواناً من الأطعمة مختلفة، وإنما الفضل في أن يكون لها رجالٌ سليمة أبدانُهم، قوية عزائمُهم، مضيئة بصائرهم.

والإسراف في الترف يقل معه النبوغ في العلم؛ ذلك أن النفس المحفوفة بالرفاهية من كل جانب، يضعف طموحها إلى اللذات العقلية؛ لأنها في لذة قد تشغلها أن تطلب لذة كلذة العلوم طلباً يبلغ بها مرتبة العبقرية، ومن الجلي أن مرتبة العبقرية لا تدرك إلا باحتمال مصاعب، واقتحام أخطار، والمسرف في الترف ضعيف العزيمة، لا يثبت أمام المكاره والشدائد.

هذا شأن الإسراف في الترف، ولكن التاريخ قد حدثنا عن أفراد نشأوا في بيوت توفرت فيها وسائل الرفاهية، ولم يكونوا بحال المترفين المستضعفين، بل نشأوا وقد عظم في نفوسهم الطموح إلى معالي الأمور، فاحتقروا ما يسمى لذاتٍ حسيّةً، وإن كانت طَوْعَ أيمانهم وشمائلهم، وأقبلوا على العلم، أو على ضرب آخر من ضروب السيادة، فأدركوا فيه غاية قصوى، مثل عمر ابن عبدالعزيز رضي الله عنه فقد نشأ في بيت إمارة، وحينما تولّى الخلافة استطاع بما وهبه الله من الحكمة والرويَّة أن لا يقيم للزينة والأطعمة الفاخرة وزناً، فعاش عيشة

الكفاف، وخزائن الأرض طوع يمينه، وتوفي وقد أبقى سيرة غراء، وذكراً أطيب من ريح المسك.

ومثل أبي محمد بن حزم الذي نشأ في بيت وزارة بالأندلس، وتولّى هو نفسه الوزارة، ثم نفض يده وانقطع للازدياد من العلم، حتى ارتقى إلى طبقة كبار العلماء بنظر مستقل، وقلم بارع.

ونحن إذا حذرنا من الإسراف في الترف لا نريد من الناس أن يكونوا على سنّة واحدة من الإعراض عن الزينة والملاذ، فقد قال -تعالى-: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ الأعراف: ٣٢.

وإنما نريد الدعوة إلى أخذ النفوس بالاقتصاد، وحمايتها من الحرص على الزينة واللذيذ من العيش، حتى لا تجعلها مظهر الفخار والمباهاة:

يفاخرنا بمأكول ولبس وذلك فخر ذي حظ هزيل

وقد سلكت هداية القرآن الكريم بالناس هذا الطريق القويم أعني طريق الاقتصاد، فبعد أن أمر في آيات كثيرة بالإنفاق في وجوه الخير نهى عن الإسراف نهياً بالغاً، فقال -تعالى-: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ الإسراء: ٢٩.

وألحق المسرفين بقبيل الشياطين، فقال -تعالى-: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ الإسراء: من٢٧.

وعدّهم في زمرة من يستحقون بغضه، فقال -تعالى-: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأعراف: ٣.

ونفي محبة الله كناية عن بغضه إياهم.

وأثنى الله - تعالى - على المصطفين من عباده بفضيلة الاقتصاد، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ الفرقان: ٦٧.

ونظر الشارع الحكيم إلى أن الإسراف يذهب بسعادة الفرد والأسرة، فشرع إقامة أولياء على أموال من لم يبلغوا سِن الرشد، أو من بلغوه وظهر عليهم السفه في تصرفاتهم، لينفق الأولياء عليهم باقتصاد، حتى يتبين رشدهم، قال -تعالى-: ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ النساء: ٦.

وإذا كان المسرف في إنفاق ماله ملوماً أو مذموماً فإن الذي يقترض مال غيره لينفقه في الشهوات أحق بالملام أو المذمة، قال الشاعر الحكيم:

إذا رمت أن تستقرض المال من أخ ... تعودت منه اليسر في زمن العسر

فسل نفسك الإنفاق من كيس صبرها ... عليك وإنظاراً إلى ساعة اليسر

فإن أسعفت كنت الغنيَّ وإن أبت ... فكلٌّ منوعٍ بعدها واسع العذر

وقد نظر بعض الحكماء إلى ما يجره الدَّين من الذلة والهموم، فكرهه حتى لمن تحدثه نفسه أن يقترض مالاً؛ لينفقه في تثبيت سؤدده فقال:

أخذت الدَّين أدفع عن تلادي ... وأخذُ الدَّين أهلك للتلاد

ولا حرج في الدَّين متى دعت إليه حاجة ملحة، وكان المقترض واثقاً بسماحة نفس المقرض مع العزم على قضاء الدين عند حلول أجله.

يُعَيِّرني بالدين قومي وإنما ... تدينت في أشياء تُكْسِبُهُمْ حمدا

نحذر من عواقب الإسراف وندعو إلى الاقتصاد، ولا فضيلة في الاقتصاد إلا

بعد أن يؤدي الرجل حق المال من نحو النفقات الواجبة عليه لأقاربه، والزكوات المفروضة للفقراء والمساكين، وبعد أن يبسط يده بالإعانة على بعض المصالح العامة، كإنشاء مساجد، أو مدارس، أو مستشفيات، أو ملاجئ، أو إعداد وسائل الاحتفاظ بسيادة الأمة، والدفاع عن حقوقها.

وليس غنى إلا غنى زين الفتى   عشية يعرى أو غداة ينيل

ورُمي محمد بن عمران بالبخل، فقال: «والله إني لا أجمد في الحق، ولا أذوب في الباطل».

ويقولون: «لا تصن كثيراً عن حق، ولا تنفق قليلاً في الباطل».

وقيل لكريم بذل في وجوه البر مالاً كثيراً: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير.

لا يضر أولي اليسار أن يقتصدوا في أطعمتهم وملابسهم متى كانوا يبذلون أموالهم فيما تكمل به المروءة، وتدعو إليه حقوق المجتمع، بل يزيدهم ذلك الاقتصاد مكرمة على مكرمة، قال قتيبة بن مسلم: أرسلني أبي إلى ضرار ابن القعقاع، وقال لي: قل له: في قومك دماء وجراح، وقد أحبوا أن تحضر المسجد فيمن يحضر؛ لتقوم بقسطك من الديات، قال: فأتيته وأبلغته، فقال: يا جارية هات الغداء، فجاءت بأرغفة خُشْن، ففتتهن في نقيع من التمر، ثم صبَّ عليهن زيتاً، فأكل، وقال: الحمد لله، حنطة الأهواز، وتمر الفرات، وزيت الشام، ثم انطلق إلى المسجد، فصلى ركعتين، واجتمع من قومه الطالبون للدِّيات والمطلوبون، فأكثروا الكلام، فقال ضرار: إلى ما صار أمركم؟ قالوا: إلى كذا

وكذا من الإبل، فقال: هي عليَّ كلها: ثم قام وانصرف إلى منزله.

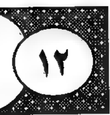
فلو كان ضرار بن القعقاع من المسرفين في الترف لما تبرع بجميع ما لزم القوم من الديات، ولم يزد على أن تحمل قسطاً ضئيلاً من نحو ما يتحمله المسرفون في الترف وهم كارهون.

نشكو إطلاق الأيدي بإنفاق المال في غير جدوى، ومن أمثلة هذا الإسراف الممقوت مظاهر الأفراح والمآتم؛ فإنها تقام عندنا على غير حكمة وحسن تقدير، وتأكل من الأموال ما لا يجر إلى صاحبها حمداً، بل شأنه أن يسوق إليه ذماً أو إثماً.

وإذا كان الإسراف يوقع الأفراد والجماعات في مضار كثيرة، كان واجباً على أولياء الأمور، ودعاة الإصلاح أن يتعاونوا على الجهاد في هذا السبيل؛ حتى يبتعد الناس عن الإسراف في مآكلهم، ومشاربهم، وملابسهم، ومراكبهم، ومساكنهم، وأمتعة بيوتهم، ويتحروا في جميع ذلك الطريقة المثلى.

قال ابن الخطيب في مقالته السياسية: «رَعِيَّتُك ودائع الله عندك» ثم قال: «ورِضْهم على الإنفاق بقدر الحال».

ثالثاً: مقالات في العمل والهمة والنبوغ



١٢ قوة العرب المعطلة[1] للعلامة محب الدين الخطيب[2]

ما ذل الشرق وانقطعت صلته بينبوع قوته، ومادة حياته إلا يوم جهل الناطقون بالضاد قدر أنفسهم، ونسوا رسالتهم العُلويةَ التي كانوا بها ملح الأرض؛ فرفعوا يدهم عن دفة السفينة، وتعطلت ألبابهم عن هداية القافلة؛ وهنالك استعجم الإسلام.

ولا تعود إلى الشرق قوتُه وحياته إلا إذا عاد إلى اغتراف إيمانه المحمدي من

---

(١) الحديقة ١٢/ ٥٤ ـ ٦٠، عام ١٣٥٣هـ.

(٢) هو الأديب الكبير والكاتب الإسلامي الشهير الشيخ العلامة محب الدين الخطيب بن أبي الفتح محمد عبد القادر صالح الخطيب.

ولد بدمشق عام ١٣٠٣هـ، وتعلم بالآستانة، وحضر إلى القاهرة، وعمل في جريدة المؤيد، ثم قصد العراق، فاعتقله الإنجليز سبعة أشهر، ثم ذهب إلى مكة المكرمة عند إعلان الثورة العربية ١٩١٦م، فحكم عليه الأتراك بالإعدام غيابياً، ثم استقر في مصرسنة١٩٢٠م، وعمل محرراً للأهرام، وأنشأ مجلتي الزهراء، والفتح، وأنشأ المطبعة السلفية ومكتبتها.

وقد عرف بغيرته الإسلامية، وكتاباته البارعة، ومعالجته لكثير من القضايا الأخلاقية، والعقدية، واللغوية وغيرها.

كان من أكابر الكتاب الإسلاميين في القرن الرابع عشر، حيث مارس الكتابة في سن مبكرة، وحرص على نشر الفضيلة، ومقاومة دعاة التغريب والرذيلة.

له مؤلفات عديدة، منها كتاب «الخطوط العريضة»، وكتاب «مع الرعيل الأول».

ومن كتبه، ما نحن بصدده وهو كتاب الحديقة.

وكان رحمه الله ذا علاقات كثيرة، وصداقات متينة مع أكثر علماء وأدباء عصره.

توفي رحمه الله عام ١٣٨٩هـ عن ست وثمانين سنة.

ينبوعه الأول من بين الصخور التي انفجرت عن معينه، وصفَّق عليها برحيقه السَّلْسل.

ولا يكون ذلك إلا إذا اشتركت في حمل مشعله سواعدُ العرب. وسُمع في حُداء صوت أَبْنَاء العرب.

بالإسلام يلم الشرق شعثه، ويستعيد قوته، وتنمو فيه أخلاق الرجولة، ويتأهل لمشاركة الأمم في حمل عبء الحضارة، واحتلال المحل الشريف من صف القيادة.

وإذا دبت في الإسلام روح الحياة، فعاد إلى ما كان عليه من صفاء وبهاء، وصراحة في عصر السعادة وفي أيام التابعين ـ فستجد فيه الإنسانية دواءها من أوصابها، وسيتقي به البشر طغيان القوميات الذي يتمخض بمذبحة جهنمية تحترق بها الأرض.

وإذا بقيت منها بقية بعد الحرب المقبلة فستستعد لشر منها.

وإذا أبطأ على الناس شر القوميات وملاحمها فسيكتسحهم وباء الشيوعية الذي يتغلغل في أحشاء الأمم، وتقاومه الأمم بالعصبيات الحقودة الباغية.

وهكذا يستشفي الناس من داء بداء، ما لم يهتدوا إلى الإسلام، ويستشفوا به.

وكيف يهتدون إلى الإسلام والمسلمون واقفون في طريقه يصدون الأمم عنه بمخازيهم، وجرائمهم، وضعفهم، ونفاقهم، وشحهم، وحسدهم، وشحنائهم، وكذبهم على الإسلام بأنهم أهله ودعاته؟!

تجربة جربها آباؤنا مرة يوم باعوا نفوسهم للهداية المحمدية، ووقفوا عليها مداركهم، وأفئدتهم، وسواعدهم، ونقودهم، وأسلحتهم، وسروا على ضوئها

إلى مقاصدهم، ورجعوا إلى ميزانها في تقدير الأمور، فنجحت تلك التجربة النجاح كله، وما لبثوا أن رأوا النفوس التي باعوها لله ـ وكانت نفوس رجال من عامة الناس ـ عادت إليهم وهي نفوس ملوك، ورأوا مداركهم التي وقفوها في سبيل الله صارت من أغزر ينابيع الحكمة، وأفئدتهم التي عمروها بالإيمان بالله أهَّلتهم لاقتحام العقبات، واختراق الآفاق، وسواعدهم التي حملوا بها ألوية الإسلام إلى أمم الأرض تقدمت أمم الأرض لمصافحتها ومسالمتها، ونقودهم التي بذلوها لإعلاء كلمة الحق عوضهم الله منها كنوز كسرى وقيصر، وأسلحتهم التي جردوها لنصرة اليقين غدت ملاذ العز، وعنوان الفوز، ونقمة الله على الظالمين.

وبينما كان آباؤنا يجربون افتتاح كنوز السعادة بمفتاح الإيمان المحمدي كان الدهر يجرب مواهبهم، ويقيس طول باعهم، ويسبر غور أخلاقهم إذا انطوت أفئدتهم على ذلك الكنز؛ فوجدهم أمة ضربت الرقم القياسي في الحكمة والحكم، وفي الفراسة والفروسية، وفي الرفق وحسن الارتفاق.

وقف الحكيم الفرنسي غوستاف لوبون يراقب بعض ما استطاع أن يراقبه من تصرفاتهم في أدوار التاريخ، فهتف بملء فيه يقول: «ما عرفت الإنسانيةُ فاتحاً أحكم ولا أعدل من العرب».

تركوا وراءهم في آفاق الأندلس من بدائع الفن، وآيات العمران، وآثار الحضارة ما يشهد لهم بأنهم أدق الأمم حسًّاً، وألطفهم ذوقاً، وأبعدهم نظراً، وأقلهم غطرسةً ودعوى.

تركوا وراءهم في مكتبة الإنسانية معارف في كل ضرب من ضروب الحكمة والتفكير والعلم عجزت جهالة أعدائهم من التتار والصليبيين والأسبانيين عن

تبديدها في مياه دجلة، ونيران طرابلس، والقدس، ومحاكم التفتيش؛ فبقيت من بقاياها أثارة لا تزال مطابع المستشرقين في أوربا، وهمم الشرقيين في الهند وإيران وبلاد الغرب تجدُّ في نشر الألوف منها في أكثر من مائة عام، وكلُّ ما نشر منها لا يساوي قطرةً من بحر علم العرب الذي لا يزال مطوياً في مخطوطات دور الكتب الشرقية والغربية، مما عرفه الناس ومما لم يسمعوا به.

وتركوا وراءهم هداية لو تجرد الغرب من تعصبه الأعمى للكنيسة، وأخذ بهداية الإسلام لشفاه الله من كل أمراضه، ولتمتع بالسعادة التي يبحث عنها في الظلام ولا يجدها.

بل لو تجردنا نحن أحفاد العرب من جهالتنا الكسيحة، ووطَّنا النفوس على العمل بقواعدها، وعملنا على إحياء تكاليفها الاجتماعية التي لا تكون الأمة أمة إلا بها ـ لظهرت حقيقة الإسلام في سيرتنا وسريرتنا، وتجلت محاسنه في أعمالنا ومعاملاتنا.

ويومئذ نكون حجة للإسلام لا عليه، ومبشرين به لا منفرين عنه، وقبل أن ينتفع الإسلام بنا ذيوعاً وانتشاراً ننتفع به نحن تقدماً واعتلاءاً.

هنالك تعرف الأمم الإسلام بنا، وتعرفنا بالإسلام، وهنالك تقبل شعوب الأرض على الإيمان به أمة بعد أمة؛ كما يقبل الأفراد الآن على الدخول فيه واحداً بعد واحد.

في أعناقنا ـ نحن العرب ـ جريمةُ إعراضِ أممِ الأرض عن معرفة هداية الإسلام، وفي أعناقنا ـ نحن العرب ـ جريمة خذلاننا وضعفنا واستخذائنا لكثير

من أمم الأرض، حتى اليهود.

وما دام ناشئ الفتيان منا ينشأ على حب الشهوات، والظنِّ بأن الإسلام دين لا فائدة له في سعادة الدنيا، ويجهل نفسه بأنه من سلالة أمة اختصها الله بالرسالة إلى الإنسانية لو أهلت نفسها لأدائها لتغيرت الأرض بذلك غير الأرض؛ ما دام ناشئ الفتيان منا ينشأ على ذلك- فبطن الأرض أولى له من ظهرها.

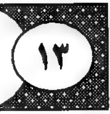
نحن العرب نصلح لأن نكون خير الأمم أو شر الأمم، أما التوسط بين ذاك وهذا فلم يقع في دور من أدوار التاريخ.

نكون في سبات عميق، وفي غفلة تأخذ علينا السبل؛ فإذا استيقظنا قفزنا قفزتنا من سَمْت القدم إلى سمت الرأس، وأصبحنا ملح الأرض، وتاج الإنسانية، وقادة الدنيا، ولكن كيف نستيقظ، ومن الذي يوقظنا؟

كنت في يأس أغالط نفسي فيه لأسعد بالأمل، كنت أعلم أن اليقظة يجب أن تكون في مصر، وأن دعاتها لابد أن يكونوا من مصر، ولكن كلما قيلت كلمة (عرب) فهم القراء في مصر أن المَعْنِيَّ بهذه الكلمة غيرهم، وأن العربي لا يكون إلا أعرابيّاً حافي القدمين، فلما قرأت في أسبوع واحد كلمة الأديب الكبير الأستاذ الشيخ عبد الله عفيفي التي عنوانها (وطن وعشيرة) وقد اقتطفت باقة منها في هذا الجزء من الحديقة، وقرأت فقرات من محاضرة الأستاذ عبد الرحمن عزام عن (وحدة الثقافة الإسلامية)، ورأيت جريدة الاستعمار البريطاني (المورنن بوست) في جزع من أن تعرف مصر أنها عربية، فتهب لإيقاظ العرب- تَحوَّل حينئذ يأسي الذي كنت أغالط نفسي فيه إلى أمل كنت أعلل نفسي به،

ولكن الغطيط أعظم من أن يؤثر فيه قلم كاتب واحد، ونبرات صوت خطيب واحد.

ولابد من إفراغ هذا الإيمان في قلوب رجال آخرين من أهل الاستعداد للخير، ممن لم تكن لهم سابقة في الإلحاد، والتفرنج، وحب الشهوات، فعن هؤلاء يجب أن نبحث، وفي قلوب هؤلاء يجب أن نبث هذا الإيمان، ثم يهتف المؤذنون بصوت واحد بحي على الفلاح حتى يستيقظ الناطقون بالضاد جميعاً ويعرفوا طريقهم، ويهبوا لأداء رسالتهم في العالمين.



معركة الحياة كيف نفوز فيها؟[1] لأحمد أمين

أهم نقطة يتركز عليها النجاح الإرادة القوية، التي يصحبها التنفيذ السريع، وانتهاز الفرص؛ ألَمْ يقولوا «إنَّ الحَرْبَ جِهَادٌ» وبعبارة أخرى «الحَيَاةُ حَرْبٌ»!؟

وخير محارب من هاجم ولم يقتصر على الدفاع، وعَمِل ولم يقتصر على الحذر، ومتى سنحت له فرصة أقدم فانتهزها، ولم يتوان لحظة حتى لا يُضَيِّعَها.

ثم هو يسدد الرمي، ويحكم إصابة المرمى، ولا بَأْسَ من الفشل؛ فإنما يفشل؛ لينجح.

إذا أنت أكثرت من التردد، وبالغت في الحذر، ولم تقدم على عمل حتى تثق من نجاحه مائة في المائة فقد تصلح أن تكون أديباً حالماً، أو فيلسوفاً في الخيال سابحاً، ولكن لا تصلح أن تكون رَبَّ عملٍ ناجحاً.

فليس يكسب المعركةَ القائدُ الجبانُ، ولا القائدُ الحذرُ، ولا القائدُ الذي لا يريد أن يضحي بشيء من جنوده.

وإنما يكسبها من يفكر حسب طاقته، ولا يطيل التفكير أكثر مما يلزم، ثم يضرب الضربة في حينها، وهو يغلب النجاح وإن كان لا يتأكده، فإن فشل بعد ذلك فقد أدى واجبه.

إن الأخلاق الحديثة تفضل «فعل الأمر» على «فعل النهي» «فاصدق» خير من «لا تكذب» و «اعدل» خير من «لا تظلم».

---

(١) فيض الخاطر ١٠/٢٢٥ـ ٢٢٨.

والأمر بعمل الفضيلة خير من النهي عن الرذيلة؛ لأَنَّ في الأولى عملاً ووجوداً وحياة، وفي الثانية تركاً وعدماً وموتاً.

كل شيء في الحياة يجاهد، الجسم يجاهد المكروبات حوله وفيه، والصحة لا تعتمد على الوقاية وحدها، وإنما خير من الوقاية «الحيوية» بالرياضة والعمل والحركة والنشاط وما إلى ذلك.

وإنما يعتمد على الوقاية، والسكون، وقلة الحركة والسير الدقيق على طرق العلاج ـ المرضى في أسِرَّتهم، والمرضى في المستشفيات، أَمَّا الأَصِحَاء فيعتمدون قليلاً على الوقاية، وكثيراً على الحيوية والعمل.

والعقل يجاهد الأفكار السقيمة، والخيالات السامة، وخير وسيلة للتغلب عليها حيويته، ونشاطه، وتفكيره المنتج، لا خنوعه واستسلامه.

وهكذا كل شيء في الحياة جهاد، والجهاد الصحيح يعتمد على الإرادة الصحيحة، والتجارب الدائمة، والعمل المستمر.

إن العالم مملوء بالحيوية، وهو في حركة دائمة، ونشاط مستمر، وقُوىً متفاعلة أبداً، من كهرباء وقوى ذرية، وحرارة وبرودة، ورياح وعواصف، ونحو ذلك.

فالذي ينجح في هذا العالمِ المتحركِ النشيطِ إنما هو مَن انسجم معه بالعمل والقوة والحيوية، ولذلك كان السكون التام موتاً.

وبجانب هذه القوى المادية في الحياة قُوى معنوية هي الأخرى في حركة مستمرة وجهاد دائم، كالنظام وعدمه، والجهل والعلم، والرأي العام وقوته وضعفه،

والعدل والظلم، واختلاف رغبات الناس في التزاحم على كسب الخير لأنفسهم.

ولابُدَّ للنجاح في الحياة من تحديد موقف الإنسان أمام هذه القوى المادية والقوى المعنوية، فأمام القوى المادية لابُدَّ أنْ يعرف كيف يستخدمها في مصلحته، ويسايرها ولا يعاكسها، فالكهرباء قد تصعقه إذا هو لم يعرف استخدامها، ولكنه يستطيع أنْ يَسْتَنِير بها ويَسْتَدْفِئ بها، ويُسيِّر القطارات بها إذا هو أحسن استخدامها، وكذلك كل قوة من القوى الطبيعية.

وفي القوى المعنوية يجب أن يحدد موقفه أمام التيارات المختلفة للنظم الاجتماعية، فينغمس فيها، ويكون هو نفسه قوة معها، يُصْلِحها ما استطاع، ويستخدمها في خيره وخير الناس ما استطاع.

وكلما كان الإنسان أقوى جسماً وعقلاً وخُلُقَاً كان أقدر على الانتفاع بالقوى المادية والروحية؛ فالإنسان استطاع أن يلجم الفرس ويركبه ويوجهه في خدمته؛ لأنه أكبر منه نفساً وعقلاً؛ فكذلك هو يستطيع وسط الظروف الاجتماعية المتضاربة، أن يصرفها ويستغلها للخير الخاص والخير العام، فإذا خمل أو كسل أو أفلت زمام الأمور من يده لم يستطع نجاحاً، وساقته الظروف أكثر ما يسوقها هو.

فالإنسان إنما ينجح بتقوية ملكاته الداخلية، وعلمه بالقوى الطبيعية والاجتماعية التي حوله، ثم بانسجامه معها، ومعرفته كيف يستخدمها.

وإن شئت فاستعرض كل من نجح في الحياة نجاحاً حقيقياً تَجِدْ نجاحه بمقدار تطبيقه هذه القاعدة، ولو لم يحسن التعبير عنها.

ثم شأن الأمم والحكومات شأن الأفراد؛ فلكل أمة قواها الطبيعية التي حولها، وقواها المعنوية التي تحيط بها.

فالأمة الفاشلة هي التي تكون في أرضها معادن لا تعرف كيف تستغلها، وقوى مائية لا تعرف أن تنتفع بها، وأراض زراعية لا تعرف كيف تستخرج منها أغزر ما تنتج وهكذا، ثم حولها ظروف اجتماعية ترتبك في توجيهها، وتحار في التصرف فيها، ليس لها إرادة قوية في التنفيذ، ولا رغبة صادقة في الإصلاح، تسيرها القوى الطبيعية كالريشة في الهواء، وتسيرها القوى الاجتماعية حيثما اتفق، ليست هي إنساناً يمسك بزمام فرسه، ولكنها فرس ملجمة تقاد.

أَمَّا الأمة الناجحة فكالرجل الناجح يدرس قوى الطبيعة، ويعرف أنها لا تتغير ولا تتبدل، ولكنه كالمَلاَّح الماهر يعرف متى ينشر شراعه ومتى يطويه، وكيف يسير سفينته وإلى أي اتجاه، يعرف أنه لا قدرة له على تغيير الرياح، ولكن له قدرة على استخدامها في مصلحة سفينته.

كذلك هذا شأن الأمة الناجحة مع القوى الاجتماعية؛ ترى الفوضى فتنظمها، وترى الرأي العام ضعيفاً فتقويه، وترى الأضرار من بطء الآلة الحكومية فتجددها، وترى ظلماً هنا وظلماً هناك فتمحوه بالعدل، ولا تكتفي بالوقاية وعلاج الأمراض، بل تبعث في الأمة الحيوية والنشاط، وهكذا قانون الفرد، وقانون الأمة في النجاح والفشل واحد.

فكِّر، واعمل، وابتكر، وجاهد، وغامر، وانتهز الفرصة تنجحْ، وإلا فالموت أو شبهه.

١٤ النبوغ[1] للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

من العجز أن يزدري المرء نفسه فلا يقيم لها وزناً، وأن ينظر إلى من فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم إلى الحيوان الناطق، وعندي أن من يخطئ في تقدير قيمته مستعلياً خير ممن يخطئ في تقديرها متدلياً؛ فإن الرجل إذا صغرت نفسه في عين نفسه يأبى لها من أعماله وأطواره إلا ما يشاكل منزلتها عنده؛ فتراه صغيراً في علمه، صغيراً في أدبه، صغيراً في مروءته وهمته، صغيراً في ميوله وأهوائه، صغيراً في جميع شؤونه وأعماله؛ فإن عظمت نفسه عظم بجانبها كل ما كان صغيراً في جانب النفس الصغيرة.

ولقد سأل أحدُ الأئمة العظماء ولدَه ـ وكان نجيباً ـ: أيُّ غاية تطلب في حياتك يا بني؟ وأي رجل من عظماء الرجال تحب أن تكون؟

فأجابه: أحب أن أكون مثلك، فقال: ويحك يا بني لقد صغَّرت نفسك، وسقطت همتك؛ فلتبك على عقلك البواكي، لقد قدّرت لنفسي يا بنَي في مبدأ نشأتي أن أكون كعلي بن أبي طالب؛ فما زلت أجدُّ، وأكدح حتى بلغتُ تلك المنزلة التي تراها، وبيني وبين علي ما تعلم، من الشأو البعيد والمدى الشاسع؛ فهل يسرك، وقد طلبت منزلتي أن يكون ما بينك وبيني من المدى مثل ما بيني وبين عليّ؟

كثيراً ما يخطئ الناس في التفريق بين التواضع وصغر النفس، وبين الكبر وعلو

---

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة الموضوعة، ص٢٣٨ـ٢٤٣.

الهمة، فيحسبون المتذلل المتملق الدنيء متواضعاً، ويسمون الرجل إذا رفع بنفسه عن الدنايا، وعرف حقيقة منزلته من المجتمع الإنساني متكبراً.

وما التواضع إلا الأدب، ولا الكبر إلا سوء الأدب؛ فالرجل الذي يلقاك متبسماً متهللاً، ويقبل عليك بوجهه، ويصغي إليك إذا حدثته ويزورك مهنئاً ومعزياً ـ ليس صغير النفس كما يظنون، بل هو عظيمها؛ لأنه وجد التواضع أليق بعظمة نفسه؛ فتواضع، والأدبَ أرفعَ لشأنه؛ فتأدب.

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ولكنَّ كبراً أن يقال به كبر

فإذا بلغ الذل بالرجل ذو الفضل أن ينكس رأسه للكبراء، ويتهافت على أيديهم وأقدامهم لثماً وتقبيلاً، و يتبذل بمخالطة السوقة والغوغاء بلا ضرورة ولا سبب، ويكثر من شتم نفسه، وتحقيرها، ورميها بالجهل والغبارة، ويبصبص برأسه، وهو سائر في طريقة بصبصة الكلب بذنبه، ويجلس في مدارج الطرق، وعلى أفواه الدروب جلسة البائس المسكين ـ فاعلم أنه صغير النفس، ساقط الهمة، لا متواضع، ولا متأدب.

إن علو الهمة إذا لم يخالطه كبر يزري به، ويدعو صاحبه إلى التنطع وسوء العشرة ـ كان أحسنَ ذريعة يتذرع بها الإنسان إلى النبوغ في هذه الحياة، وليس في الناس من هو أحوج إلى علو الهمة من طالب العلم؛ لأن حاجة الأمة إلى نبوغه أكثر من حاجتها إلى نبوغ سواه من الصانعين والمحترفين، وهل الصانعون والمحترفون إلا حسنة من حسناته، وأثر من آثاره؟

بل هو البحر الزاخر الذي تستقي منه الجداول والغدران.

فيا طالب العلم كن عالي الهمة، ولا يكن نظرك في تاريخ عظماء الرجال نظراً يبعث في قلبك الرهبة والهيبة؛ فتتضاءل وتتصاغر كما يفعل الجبان المستطار حينما يسمع قصة من قصص الحروب، أو خرافة من خرافات الجان، وحذار أن يملك اليأس عليك قوتك وشجاعتك؛ فتستسلم استسلام العاجز الضعيف، وتقول: من لي بِسُلَّم أصعد فيها إلى السماء حتى أصل إلى قبة الفلك؛ فأجالس فيها عظماء الرجال؟

يا طالب العلم، أنت لا تحتاج في بلوغك الغاية التي بلغها النابغون من قبلك إلى خلق غير خلقك، وجو غير جوك، وسماء وأرض غير سمائك وأرضك، وعقل وأداة غير عقلك وأداتك.

ولكنك في حاجة إلى نفس عالية كنفوسهم، وهمة عالية كهممهم، وأمل أوسع من رقعة الأرض، وأرحب من صدر الحليم، ولا يقعدن بك عن ذلك ما يهمس به حاسدوك في خلواتهم من وصفك بالوقاحة أو بالسماجة؛ فنعم الخلق هي إن كانت السبيل إلى بلوغ الغاية؛ فامضِ على وجهك، ودعهم في غيهم يعمهون.

جناحان عظيمان يطير بهما المتعلم إلى سماء المجد والشرف: علو الهمة والفهم في العلم، أما علو الهمة فقد عرفته، وأما الفهم في العلم، فإليك الكلمة الآتية:

العلم علمان: علم محفوظ وعلم مفهوم، أما العلم المحفوظ؛ فيستوي صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم، ولا فرق بين أن تسمع من الحافظ كلمة، أو تقرأ في

الكتاب صفحة؛ فإن أشكل عليك شيء مما تسمع، فانظر إن نطق الكتاب بشرح مشكلاته، نطق الحافظ بتفسير كلماته.

الحافظ يحفظ ما يسمع؛ لأنه قوي الذاكرة، وقوة الذاكرة قدر مشترك بين الذكي والغبي والنابه والخامل؛ لأنَّ الحفظ ملكة مستقلة بنفسها عن بقية الملكات: وإنك لترى الشيخ الفاني الذي لا يميز بين الطفولة والهرم، والذي يبكي على الحلوى بكاء الطفل عليها، ويرتعد فرقاً حينما يسمع ابنته تخيف طفلها بأسماء الجن والشياطين، ويسرد ذلك من تواريخ شبيبته وكهولته ما لو دوَّنته لكان تاريخاً صحيحاً ضخماً مملوءاً بالغرائب والنوادر؛ وقيل لأحد العلماء: إن فلاناً حفظ متن البخاري، فقال: لقد زادت نسخة في البلد![1]

ذلك هو السر العظيم في كثرة المتعلمين وقلة العاملين؛ لأن من فهم معلوماً من المعلومات حق الفهم أُشْرِبَتْه روحه، وخالط لحمه ودمه، ووصل من قلبه إلى سويدائه، وكان إحدى غرائزه، فلا يرى له أبداً من العمل به رضي أم أبى.

لولا أن العلم الديني قد أصبح اليوم علماً محفوظاً لما وجدت في العلماء من يجمع بين اعتقاد الوحدانية وبين التردد على أبواب الأحياء والأموات في مزاراتهم وفي مقابرهم يسألهم المعونة والمساعدة على قضاء الله وقدره، ولا وجدت بين الذين يحفظون قوله -تعالى- ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ الأعراف: ١٨٨.

---

(١) ليس الكلام هنا على إطلاقه؛ فشأن الحفظ عظيم، ولكنه لا يكفي وحده ما لم يقرن بعلم، وفقه وعمل.(م)

مَنْ يُسْنِد النفع والضر إلى كل من سال لعابه، وتمزق إهابه، ولا وجدت في الناس كثيراً من ضعفاء العزيمة الذين يحفظون ما ورد على ألسنة الأنبياء والحكماء من مدح الفضائل وذم الرذائل، ثم لا تجد فرقاً بينهم وبين العامة في ارتكاب المنكرات والنفور من الصالحات.

لو كان العلم المحفوظ علماً ـ وهو على ما نشاهد ونعلم من سوء الأثر وقلة الجدوى ـ ما مدح العلم في كتاب ولا سنة، ولا قدَّسه كاتب، أو ترنم بمدحه شاعر، فإذا سمعت ذكر العلم فاعلم أنه العلم المفهوم لا المحفوظ، وآية فهم المعلوم تأثر العالم به، وظهوره في حركاته وسكناته، وترقرقه في شمائله، ولا تثق بالحافظ فيما ينقل إليك، فربما مرَّ بالمعلوم مُحَرَّفاً فأخذه على علاته.

وأقبح ما عرفنا من أطواره أنه يجمع في حافظته بين النقيض ونقيضه، والغث والسمين، والجيِّد والزائف، فكأن ذاكرته حانوت عطَّار اختلطت فيها الأدوية الشافية، بالعقاقير السامة.

وجملة الأمر أن الحافظ البحت لا رأي له في مبحث فيسأل عن مذهب، ولا أثر لمعلوماته في نفسه فيقتدى به، ولا ذوق له في الفهم فيعتمد على شرحه وتأويله.

أما العلم المفهوم فهو الواسطة التي إذا جمع المتعلم بينها وبين علو الهمة طار إلى المجد بجناحين، وكان له سبيل مختصر إلى منزلة العظماء ودرجة النابغين.

والعلم سلسلة طويلة طرفاها في يدي آدم أبي البشر وإسرافيل صاحب

الصور[1]، ومسائله حلقات يصنع كل نابغة من النوابغ في كل عصر من العصور واحدة منها، ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ إلا إذا وضع في العلم الذي مارسه مسألة، أو كشف حقيقة، أو أصلح هفوة، أو اخترع طريقة، ولن يسلس له ذلك إلا إذا كان علمه مفهوماً لا محفوظاً، ولا يكون مفهوماً إلا إذا أخلص المتعلم إليه، ولم ينظر إليه نظر التاجر لسلعته، والمحترف لحرفته؛ فالتاجر يجمع من السلع ما يتفق سوقه، لا ما يغلو جوهره، والمحترف لا يهمه من حرفته إلا لقمة الخبز وجرعة الماء، أحسن أم أساء.

لا يزور العلم قلباً مشغولاً بترقب المناصب، وحساب الرواتب، وسَوْق الآمال وراء الأموال، كما لا يزور قلباً مقسماً بين تصفيف الطُّرَّة، وصقل الغرَّة، وحسن القوام، وجمال الهندام، وطول الهيام بالكأسين: **كأس المدام، وكأس الغرام.**

---

(١) المراد أن العلوم لا يتم تدوينها ولا تنحصر مسائلها مادامت العقول تفكر، فالعلم دائب فيها من ابتداء الدنيا إلى انتهائها.

١٥ يوم البعث[1] للأستاذ محمود بن محمد شاكر[2]

إن أحدنا لتستبد به في بعض عمره فترات يجد فيها الحياة قد وقفت في دمه

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة الرسالة العدد ٣٦٨، عام ١٩٤٠م ص ١٨٨-١٨٩، وهو في كتاب جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمعها وقرأها وقدم لها، د.عادل سليمان جمال.

(٢) هو العلامة الشيخ الأديب محمود بن الشيخ محمد شاكر -رحمهم الله- ولد في العاشر من المحرم سنة ١٣٢٧هـ.

بدأ تعليمه في مدرسة والده عباس الابتدائية، وأفاد من والده، ومن شيخه الشيخ سيد بن علي المرصفي؛ حيث كان والده مورداً كثير الزحام لعلية القوم من الساسة والعلماء والأدباء، وكان شيخه المرصفي من أكابر أدباء عصره، وكان يختلف عليه، ويقرأ عليه في كتب الأدب كالكامل للمبرد، وحماسة أبي تمام، وأشعار الهذليين، وشيء من أمالي القالي.

حصل على البكالوريس سنة ١٩٢٥م والتحق بكلية الآداب بقسم اللغة العربية دون زملائه في الدراسة الثانوية جميعاً، واستمر في ذلك حولين كاملين كان فيهما في صراع مع طه حسين في قضية الشعر الجاهلي غادر على إثرها الجامعة.

ثم هاجر إلى الحجاز، ورجع مرة أخرى إلى مصر، وعاد إلى الكتابة والأدب والعلم متابعاً ما كان منه قبل من التحرير في مجلتي الفتح والزهراء.

وقد كتب في مجلة المقتطف والرسالة، والثقافة، والهلال، والمجلة، والعرب، والكتاب، والكاتب، وفي صحف الأهرام، والبلاغ والدستور.

وكان ذا أسلوب مميز، وشاعرية فذة، وكان شديد الغيرة على العربية والإسلام.

وكان من أكابر المحققين للتراث.

وكان عضواً في المجمع في القاهرة، ونال جائزة الملك فيصل العالمية، وله كتب عديدة في الحديث، والتفسير واللغة والأدب.

توفي في ١٩٩٧/٨/٧م.

كالجدار المصمت لا تميل، ولا تنثني، ولا تتحول، ويجد النفس متماوتة لا ترف رفة واحدة تُشْعِرُ العقل أن الحي الذي فيه لا يزال حياً يعمل، ويجد الدنيا كأنها بساط ممدود يمشي فيه بعينه، ولكن البساط لا يمنحه حركة من هموده وسكونه وانعدام الحياة ذات الإشعاع فيه، ويتمنى أحدنا يومئذٍ أن تحل بأيامه قارعة تملأ عليه الزمن ضجيجاً ونزاعاً، عسى أن يتحول كل ما يجده من الفتور إلى نشاط ويقظة وخفة تبعث ميت نفسه من رمس الحياة الخاملة.

وهذا العارض إذا ألمَّ جعل الأيام مقعدة تزحف في زمانه زحفاً بطيئاً مرهقاً كأنها أمسكت على مرفأ الحياة بسلسلة ربوض، ويجعل الحي يعيش في كذب وباطل وفراغ من الروح، أي في حيرة وقلق وملل، فإذا حار وقلق ومل، جاءت أعماله كلها جسداً لا ينبض نبض الحياة، وكذلك يختلف ما بين الحي وعمله، ويقف أحدهما من الآخر موقف المثَّال العاجز من تمثاله، يقول له: أين أنا فيك أيها التمثال الغبي؟ فيجيبه الصامت البغيض: أين أنت في نفسك أيها الأحمق؟.

الحياة هي حركة الروح في العمل، فإذا خلا العمل، فلم تتمثل في كل أنحائه حركة الروح العاملة ـ فذلك دليل على أن الروح مضروبة بالموت أو ما يشبهه، وأنها قد فقدت شرطها ونعتها وحقيقتها، وأنها إن عاشت على ذلك فستعيش في قبر منصوب عليها في تمثال إنسان.

وإذا بلغ الإنسان ذلك أريقت كل إنسانيته على أيامه المقفرة فلا يثمر، فإن

يثمر فما يطيب له ثمر، وإنما هو حسَك[١]، وأشواك، وحطب، وكل ما لا نفع فيه إلا أذى وبلاءً عليه وعلى الناس.

وكما يكون ذلك أمر الفرد الواحد، يكون هو أمر الأمة من الناس، والجيل من الأمم؛ فإن الفرد هو خلاصة الجماعة، وأصل الجماعة؛ فالأمة تصاب بمثل الفترة التي يصاب بها الواحد منها، ولا يمنع ذلك أن يكون في بعضها ما يخرج على ضرورة هذا العارض من الفتور الذي وصفناه.

وعندئذٍ تتمنى الأمة أن تنزل القارعة لتهز الجو الذي تعيش فيه هزة مدوية مجلجلة، ترمي في سمع أبنائها الصوت الموقظ الذي يفزع عليه النائم ينفض عن نفسه الخمول والأحلام الهائمة، والأماني الباطلة المكذوبة.

وقد عاش الشرق من قرون طويلة وهو يجد الحياة من حوله فاترة ساكنة بليدة ميتة الظلال عليه، وجاء بعض أبنائه من سراديب الفكر البعيدة يصرخون؛ ليوقظوا الأحياء الذين ضُرب على آذانهم بالأسداد، وغشاهم النعاس عجزاً وذلاً ومهانة، ولكن هؤلاء رجعوا وارتدوا، ولم يسمع الناس، وإنما سمعوا هم صدى أصواتهم وهي تتردد في قفر خراب موحش.

أما اليوم الذي نحن فيه فقد جاءت الشرق القارعة التي حلت بديار الناس وبدياره، وهو يسمع صليل صواعقها بأعصابه كلها لا بآذانه وحدها، وهو يفيق من نومة طويلة على ما لا عهد له بمثله؛ فهل يحق لنا أن نؤمل أنَّ هذا الصليل

---

(١) الحسك: عُشبة تضرب إلى الصفرة ولها شوك يسمى الحَسَك أيضاً، مدحرج، لا يكاد أحد يمشي عليه إذا يبس إلا من في رجليه خُف أو نعل.

المفزع سيجعل الشرق يَلُمُّ ما تشعث من حياته الجديدة قد جمع قواه للنهضة والوثبة والانقباض على أوثان المظالم القديمة التي نُصبت، فَعَبَدها من عَبَدَ ممن خشعوا وذلوا، وطمعوا في رحمة الطواغيت فما نالوا ـ على أوهامهم ـ إلا فُتاتاً من موائد هذه الطواغيت المتوحشة المستبدة الطاغية؟.

إن الشرق اليوم يجب أن يسأل سؤلاً واحداً يكون جوابه عملاً صارماً نافذاً لا يرعوي دون غايته، وهذا السؤال هو أول سؤال ينتزع إنسانية الحي من الموت الفادح، إذا كان الدافع إليه هو رغبة النفس في تحقيق إرادتها تحقيقاً لا يبطل.

من أنا ؟ هذا هو السؤال؛ فإذا أخذ الشرق يسأل يحاول أن يصل إلى حقيقته المضمرة في تاريخه ـ فهذا بدء النصر على الأيام الخاملة التي غط غطيطه في كهوفها المظلمة.

شاك حائر، فإذا لم يستعن في حيرته بالسداد في الرأي وطول التقليب وحسن الاختيار وبالله التوفيق ـ فإن السؤال سوف ينزع به وينبُثُ[١] عليه ويأخذه ويدعه حتى تتحطم قوته على جبل شامخ قد انغرست فيه أشواك صخرية من الحصا المسنون، ويرجع مجرَّحاً تدمي جروحه، يتألم، ويتوجع، ويشتكي قد أعياه الصبر على الذي يلقاه من أوجاعه.

فحاجتنا في البحث عن الحقائق التي يتطلبها هذا السؤال أن نتدرع بقوة اليقين مما نحن مقبلون عليه من مجاهله ومنكراته، وأن نستجيش للنفس كل ما يزعها، ويكفها عن الشك والتردد، وأن نقبل على دراسة أنفسنا بفضيلة المتعلم

---

(١) ينبُثُ شره : يستخرجه.

المتواضع، لا برذيلة المتعالم المتشايخ؛ فإن بلاء التعلم والدرس هو كبرياء الحمقى وغرور ذوي العناد والمكابرة.

والأمر كله الآن بيد الشعب أفراداً أفراداً، فإن العادة المستقبحة في هذا الشرق أنه يَكِلُ كلَّ أمره إلى حكوماته التي أثبتت بوجودها إلى اليوم أنه لا وجود لها في حقيقة الحياة الشرقية.

فالحكومات لا تستطيع أن تضع في روح الشعب هذا الإلهام الإلهي السامي الذي يشرق نوره على الإنسانية، فيجلي لها طريقها، وينفي عنها خبثها، ويغسلها بأضوائه المنهلة من أعراض البلادة، وجراثيم التفاني والانقراض.

ليس لشرقيٍّ ولا عربيٍّ بعد اليوم أن يقف مستكيناً يقول لحكومته: افعلي من أجلي يا حكومتي العزيزة! بل يجب أن تكون كلمته: اعملي يا حكومتي فإذا أسأتِ فأنا الذي سيصحح أخطاء أعمالك الرديئة! ويجعل كل أحد منَّا همه سامياً إلى غاية، وأمله معقوداً بغرض، ويبيت ليله ونهاره يَتَدَارس في نفسه، وفي أهله، وفي عشيرته، وفي شعبه، وفي التاريخ النبيل، وفي التراث المجيد ـ حقيقة ما يجب أن يتعرَّفه من شُعَب هذا السؤال الواحد: من أنا؟؟

والدعوة الجديدة إلى اليقظة الشرقية والعربية والإسلامية يجب أن تقوم على إثارة الشعب كله ليسأل كل أحد نفسه هذا السؤال: من أنا؟.

فالعالم، والأديب، والشاعر، والفيلسوف، والعامل، والصانع، وأعضاء الأمة على اختلاف منازعهم، ونوازعهم ـ يجب أن يشعروا في قلوبهم بحاجتهم إلى هذا السؤال، وأنهم موكلون به لا يهدأون، وأنهم دائماً في طريقهم إلى جمع

الحقائق للجواب عن هذا السؤال الواحد.

أما قيام الدعوة على البحث عن طريق الإصلاح، وأساليب الإصلاح، وتحقيق ذلك بالطرق العلمية...إلى آخر ما يقال في هذا الباب من القول، فما يجدي على الأمة شيئاً إلاَّ ما أجدى قديم ما رددوه ولاكوه ومضغوه من الآراء التي عانوا وضعها، فلما وضعوها ماتت في المهد، وليس يمنع البحث عن مثل هذه الأشياء أن نكون أول ما نكون سباقين إلى الأصل الذي يجب أن تقوم عليه هذه الأشياء كلها.

إن الأمم لا يُصلحها مشروع، ولا أسلوب من الحكم، ولا باب من الإصلاح، وإنما يحييها أن يكون كل فرد فيها دليلاً ـ بما فيه من الحركة النفسية ـ على أن الحياة التي يعيشها هي إثبات لوجوده، ولا يثبت الوجود للحي إلا بقدرته على الاحتفاظ بشخصيته، ولا يحتفظ المرء بشخصيته إلا أن يكون قد استوعب فهم ما يستطيع من حقيقة هذه الشخصية، وهو لا يفهم هذه الشخصية إلاَّ أن تكون كل أفكاره متنبهة لتحليل كل شيء يعرض له، وذلك حين يكون كل همه في البحث عن أشياء هذا السؤال الواحد: من أنا؟

فإذا استطعنا في هذه الساعة الهائلة من تاريخ العالم، وتاريخ الإنسانية أن نجعل طبقات الشعوب الشرقية تثور ثورتها على الفتور، والجهل، والغباء، والبلادة، وقلة الاحتفال بالحياة، وأن نجعل سلاح الثورة على أحسنه، وأجوده، وأمضاه في هذا السؤال، فقام كل أحد يسأل من أنا؟

فتجديد الحياة في الشرق حقيقة لا مناص للعالم بعدها من الاعتراف بأنها

واجبة الوجود على الأرض.

وأما إذا انطلقنا مع أحلام النوم، وفلسفة الأحلام، وجعلنا نلبس مسوح العلماء والمفكرين، وجلابيب الوقار والسمت..أي البلادة! فقد هلك على أيدينا من كان حقه علينا أن نجعل هذه الأيدي خدماً في حاجاته ومرافقه.

إنَّ من الهراء أن تأتي مجلس قوم من المهندسين قد اختلفوا في الأرض، كـ: هل تصلح لوضع الأساس أو لا تصلح؟ فتحدثهم أنت أن الرأي أن يتحوَّلوا إلى مكان آخر من صفته ومن نعته... مما يصلح عليه البناء؛ فإن هؤلاء إذا بدأوا أمرهم بالاختلاف على ما يجدون عنه مندوحة فاعلم أنه لا فلاح لهم.

وإنما الرأي أن تتحول أنت عن هؤلاء البلداء إلى من تجد عنده من الانبعاث إلى العمل ما لا يجد معه وقتاً يضيعه في ترجيح بعض ما يختلف عليه على بعض آخر.

فالطريق الآن إلى الحياة الجديدة أن يتحول الشرق عن أصحاب الاختلاف، والمنابذة، وعلم الآراء التي يضرب بعضها وجوه بعض تناقضاً وتبايناً وافتراقاً، وأن يصغي إلى حنين النفوس المتألمة التي تحن وتئن من أشواقها، فيتجاوب حنينها نغماً روحياً فيه حركة الحياة، وحرارة الوجد، وأضواء الأمل.

وعندئذٍ يستجيب القلب للقلب، وتستمد الروح من الروح، وتثور الأشواق الخالدة في القلوب الطامحة والأرواح السامية، وبذلك تستحث الحياةُ الحياةَ إلى الغاية التي يرمي إليها الشرق بأبصاره من تاريخه، ومن وراء التاريخ.

إن عمل العامل في أول الطريق غير عمله في آخره، فنحن سوف نبدأ ـ وسنبدأ بإذن الله ـ فعملنا الآن هو إنقاذ أرواح الملايين من الموت ومن الفتور ومن الكسل،

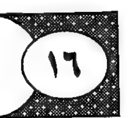
وليس عملنا أن نضع الأسس العلمية، أو السياسية، أو الأدبية لأرواح موات لا حركة فيها ولا انبعاث لها، وما جدوى علم لا روح فيه؟ أو سياسة لا نشاط فيها؟ أو أدب لا قلب له؟

إن عمل من يريد أن يعمل اليوم هو أن ينفخ في صُوْرٍ جديد يكون صوته فزعاً جديداً مع الفزع الأكبر الذي نحن فيه، حتى تنبعث الأمم الشرقية من أجداثها ثائرة حثيثة قد احتشدت في ساحة الجهاد تلمع قسماتها بذلك اللهيب المتضرم الذي يتوقد بالأشواق، وتلمح نظراتها لمحاً بالشعاع الظامئ المتوهج بالأماني المرهقة المستعرة، وتتجلى في كل عضو منها تلك القوة المعروفة في العضلات المفتولة، يخيل لمبصرها أنها تكاد تنفجر من ضغط الدم في أنهارها وأعصابها لولا ما يمسكها من جلدة البدن.

يومئذٍ يكون جواب الشرق عن سؤاله: من أنا ؟ عملاً صامتاً لا يتكلم؛ لأنه لا يضيع أيامه في إسماع الزمن الأصم أساطيره الباطلة التي يرويها عن أحلام البلادة، والجهل، والخمول.



رابعاً: مقالات في الشباب



١٦ التربية الدينية والشباب[1] للشيخ محمد الخضر حسين

سادتي: نقلب النظر في الأيام الخالية، فنقف على وقائع تحدث عنها التاريخ بإعجاب، ذلك أنها كانت مظهر قوة الفكر، ومتانة العزم.

ومن هذه الوقائع ما رفع أمة من خمول إلى نباهة، أو نقلها من استعباد إلى سيادة، فإذا تجاوزنا الوقائع إلى الأيدي التي هزتها وأطلقتها من عقالها وجدناها أيدي الشباب الذين يشعرون فيعزمون، ويبصرون الخطر فلا يحجمون.

فذلك أبو مسلم الخراساني نهض بالدعوة العباسية، وزلزل عرش الدولة الأموية، وهو ابن إحدى وعشرين سنة، وتولّى محمد بن القاسم الثقفي قيادة جيش قاتل قبائل ثائرة، فأطفأ ثورتها وهو ابن سبع عشرة سنة، وقال فيه الشاعر:

إن السماحة والمروءة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد

قاد الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤدداً من مولد

وقد نبَّه رسول الله ﷺ على أن الولايات منوطة بالكفاية، وأن الكفاية للعظائم قد تتحقق في الشباب، فولّى أسامة بن زيد جيشاً تخفق رايته على أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، ولم يتجاوز أسامة يومئذٍ الثامنة عشرة من عمره.

ففي الشباب نفوس قريبة من الخير، وهمم لا ترضى من المجد إلا باللباب؛ فإذا توجه الشباب إلى غايات خطيرة، وساروا في طرق قويمة فما للأمة إلاَّ أن ترفع

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية الجزء الحادي عشر من المجلد التاسع ص٧٠ـ٧٢.

رأسَها عِزّة، وما لخصومها إلاَّ أن يتقوا بأسها، ويجنحوا لسلمها.

ومن أين لنا أن يتوجه شبابنا إلى السيادة لا يبغي بها بدلاً ؟ وإذا توجهوا إليها فمن أين لنا أن يسيروا إليها في أقوم الطرق وآمنها؟

وذلك ما يجب علينا أن نفكر فيه بجد، ونبذل في سبيله كل جهد.

نعم؛ ذهبنا بالفكر في كل مذهب، ورجعنا إلى التاريخ والتجارب، فلم ندع بعيداً إلاَّ دَنَوْنَا منه، ولا شافياً إلاَّ كشفنا غطاءه، فلم نر لشبابنا سيرة تجعلهم خير شباب أُخْرِجَ للناس إلاَّ أن نراهم يستنيرون بهدى الله، ويتنافسون في التجمل بآداب شريعته الغراء:

أَدَبُ الفتى في أَنْ يُرى مُتمسكاً بِأوامرٍ مِنْ رَبِّه ونَوَاهي

إن الدين ليهدي للتي هي أقوم؛ يطبع النفوس على الأخلاق السمحة الكريمة، ويضع أمامها موازين تستبين به الرشد من الغي، ويريها كيف تحيا الحياة الزاهرة المطمئنة.

فإذا تلقن شبابنا حقائق الدين نَقِيَّةً من كل بدعة، وابتهجت نفوسهم بحكمته ابتهاج البلد الطيب بالغيث النافع ـ فقد أعددنا للخوض في غمار الحياة رجالاً لا يكتفون بالخطب تلقى على المنابر، ولا بالمقالات تحرر على المكاتب، بل يعلمون فيقولون، ويقولون فيفعلون.

وأراكَ تفعلُ ما تَقولُ، وبعضهم مَذِقُ اللسان يَقولُ ما لا يفعل

إنَّ الإيمان ليملأ القلوب إجلالاً للواحد الخلّاق، ومَنْ أجلَّ مقام خالقه صغر في عينه كل جَبَّار مخلوق، ومن الأمراض التي تأكل من كرامة الأمم أكلاً ذريعاً، وترمي بالمهانة في أوطانها أنْ تُرْهِبَ سطوة المخلوق رهبة تمنعها من أن تقول في

صدق، أو تعمل في حكمة.

فحقيق بشبابنا أنْ يكون الإيمان الصادق رائدهم؛ فإنَّا لا نرى من ضعيف الإيمان عملاً إلاَّ أنْ يكون مخلوطاً برياء؛ ولا نرى له من سيرة إلاَّ أنْ تنحرف إلى الشمال مرة، وتتأخر إلى الخلف مرة أخرى.

وإذا كان في الأنابيبِ حيفٌ   وقعَ الطيشُ في صدورِ الصعادِ

وإذا قيل: إن الذمم تباع وتشترى فإن ذمم المؤمنين الصادقين لا يملك ثمنها إلا رب العالمين.

كنَّا رأينا من بعض شبابنا انحرافاً عن الرشد، فخشينا أنْ تسري عدوى هذا الانحراف إلى سائر الشباب، فتصبح مصر - وهي زعيمة الأقطار الشرقية - مبعث الجحود والإباحية، ولكنَّا لم نلبث أن رأينا شباباً في المدارس العالية يحرصون على تلقي دروس علوم الدين، ويتبينون أحكامه وآدابه، ويتصلون بالجمعيات الإسلامية، بل أقول إن للشباب الفضل في إنشاء هذه الجمعيات، أو المؤازرة على نهوضها.

والواقع أنَّ ما قام به بعض العاملين من دعوة الشباب إلى الدين قد أتى بثمر على قدر الجهاد الذي بذل في هذا السبيل.

فمتى اتسعت دائرة هذا الجهاد، وكثر العاملون في صفوفه من رجال العلم، ووجه أولوا الشأن عنايتهم للتربية الدينية أكثر مما وجهوا، متى تحقق هذا الأمل -ولا أراه إلاَّ متحققا- أدركنا كل ما نبتغي من شرف وقوة، وفزنا بحياة آمنة المسالك، محمودة العواقب، ذلك وعد الله، والله لا يخلف الميعاد.

١٧ الشباب المحمدي[١] للشيخ محمد البشير الإبراهيمي[٢]

الشباب في كل أمّة هم الدم الجديد الضامن لحياتها واستمرار وجودها، وهم الامتداد الصحيح لتاريخها، وهم الورثة الحافظون لمآثرها، وهم المصحّحون

---

(١) نشرت في مجلة (المسلمون) السنة الثالثة عدد٩ ذو القعدة ١٣٧٣هـ وهي في آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، وقد كتبها في مكّة المكرمة في ١ صفر الخير ١٣٧٢هـ..

(٢) هو الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي ولد عند طلوع الشمس من يوم الخميس الثالث عشر من شهر شوال عام ١٣٠٦ هـ، وتوفي عام ١٣٨٥هـ.

وهبه الله حافظة خارقة، وذاكرة عجيبة تشهدان بصدق ما يحكى عن السلف، وكانتا معينتين له في العلم في سن مبكرة.

تلقى التعليم في بيت أسرته، وقام على تربيته وتعليمه عمُّه الشيخ محمد المكي الإبراهيمي الذي كان علامة زمانه في العربية.

بدأ في حفظ القرآن والتعليم في الثالثة من عمره وأتقن القرآن حفظاً في السابعة من عمره، وحفظ كثيراً من المتون في مختلف الفنون، وحفظ العديد من الدواوين الشعرية، وكان يحفظ من سماع واحد.

كان من أبرز علماء الجزائر، ومن طليعة المجاهدين للاستعمار، والدجل، والبدع، والخرافات.

وكان من الشجعان المغاوير، وكان في طليعة العاملين على إحياء العلوم الدينية والعربية في الجزائر.

ويرجع الفضل ـ بعد الله ـ إليه وإلى الشيخ عبد الحميد بن باديس في تكوين جمعية العلماء في الجزائر.

وكان شديد العناية بأمور المسلمين وقضاياهم، كان خطيباً مِصْقَعاً، وشاعراً مُفْلِقاً، وكاتباً بارعاً.

وقد خلف آثاراً جمعت تحت مسمى (آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي)، ثم جمعها وأعاد صياغتها ابنه د. أحمد طالب الإبراهيمي في خمس مجلدات ، وسماها: «**آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**» .ـانظر ترجمته وافية في ثنايا المجلدات بأقلام متعددة، كما أنه ترجم لنفسه فيها.

وقد ترجمتُ له في كتابي «الصداقة بين العلماء».

لأغلاطها وأوضاعها المنحرفة، وهم الحاملون لخصائصها إلى من بعدهم من الأجيال.

كنا شباباً فلما شِبْنا تلفّتنا إلى الماضي حنينًا إلى الشبيبة، فرأينا أن الشباب هو الحياة التي لا يُدْرِكُ قيمتها إلاّ من فارقها، ورأينا أخطاء الشباب من حيث لا يمكن تداركها وسيصبح شباب اليوم شيوخ الغد، فيشعرون بما نشعر به نحن اليوم.

وليت شعري إذا كان شيوخ اليوم هم شباب الأمس، وشبابُ اليوم هم شيوخ الغد فعلام هذه الشكوى المترددة بين الفريقين؟ وهذا التلاوم المتبادل بين الحبيبين؟ يشكو الشيوخ نزق الشباب وعقوقهم ونزواتهم الكافرة، ويشكو الشباب بطء الشيوخ، وترددهم، وتراجعهم إلى الوراء، ونظرتهم إلى الحياة نظرةَ الارتياب.

مَهْلاً أيُّها المتقاربان المتباعدان، فليس التفاوت بينكما كسبيًا يعالج، وليس النزاع بينكما علميًا يحكم فيه الدليل، ولكنّه سنّة وتطوّر.

كنَّا حيث أنتم، وستصبحون حيث نحن بلا لوم ولا عتاب؛ هما مرحلتان في الحياة، ثم لا ثالثة لهما طويناهما كرهاً، وستطوونهما كرهاً، والحياة قصيرة وهي أقصر من أن نُقَطِّعها في لوم، أو نقطعها بنوم.

ليحرص الشباب على أن يكونوا كمالاً في أمّتهم لا نقصًا، وأن يكونوا زيناً لها لا شينًا، وأن يضيفوا إلى تليد مكارمها طريفًا، وإلى قديم محاسنها جديداً، وأن يمحوا كل سيئة لسلفهم بحسنة.

والشباب المحمّدي أحقّ شباب الأمم بالسبق إلى الحياة، والأخذ بأسباب القوة؛ لأنَّ لهم من دينهم حافزاً إلى ذلك، ولهم في دينهم على كل مكرمة دليل، ولهم في تاريخهم على كل دعوى في الفخار شاهد.

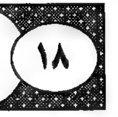
أُعيذ الشباب المحمدي أَنْ يُشْغِل وقته في تعداد ما اقترفه آباؤه من سيئات، أو في الافتخار بما عملوه من حسنات، بل يبني فوق ما بنى المحسنون، وليتق عثرات المسيئين.

وأُعيذه أن ينام في الزمان اليقظان، أو يهزل والدهر جادّ، أو يرضى بالدون من منازل الحياة.

يا شباب الإسلام، وصيتي إليكم أَنْ تتصلوا بالله تديُّناً، وبنبيّكم اتِّباعاً، وبالإسلام عملاً، وبتاريخ أجدادكم اطّلاعاً، وبآداب دينكم تخلُّقاً، وبآداب لغتكم استعمالاً، وبإخوانكم في الإسلام ولِداتكم[1] في الشبيبة اعتناءاً، واهتمامًا، فإن فعلتم حزتم من الحياة الحظ الجليل، ومن ثواب الله الأجر الجزيل، وفاءت عليكم الدنيا بظلها الظليل.

---

(١) لداتكم: أقرانكم.



حديث إلى الشباب[1] للأستاذ الأديب أحمد أمين

تفضلت (مجلة الهلال) فطلبت إليَّ أن أتحدث هذا الشهر إلى (الشباب) فرحبت بهذا الطلب، لأن الحديث مع الشباب وعن الشباب وإلى الشباب، حبيب إلى النفس قريب إلى القلب، وكيف لا يكون كذلك وهم ـ كما قال أبو العتاهية ـ رائحة الجنة، وأيامهم خير أيام الحياة، وهي أكبر مظاهر القوة، وأكبر مظاهر الإنسانية، وهي في الأيام كالربيع في الزمان، تغنى بها الشعراء يوم كانوا ينعمون بها، وبكوا عليها يوم حرموا منها؛ فالشباب كان شغلَهم الشاغلَ إذا وجد وإذا فقد، وما أكثروا من القول في الحزن على الشيب إلا لأنهم أعظموا الشباب.

ثم أين حكمة الشيوخ من قوة الشباب؛ فلطالما كانت الحكمة معوقة عن العمل، بما ملئت من حذر، ومن دعوى بعد النظر، بل وما الحكمة التي زعموها إلا وليدة الشباب وبفضل الشباب، فلولا حركة الشباب الدائمة وإقدامهم في شجاعة على الخطأ والصواب ما كانت حكمة ولا تجارب، ولا مران، ولا شيء مما يدعي المحنكون.

والحق أن لا شيء في الشيوخ يعوض ما للشبان من لمعان في عيونهم، وقوة في عضلهم، ويقظة في عقلهم، ويقين في قلبهم، ليسوا بالأطفال يصعدون، ولا بالشيوخ ينحدرون، وإنما هم في الذروة التي ليس بعدها غاية، هم حَجَرُ

(١) فيض الخاطر، ١٠/ ٢٨٠ ـ ٢٨٦.

الزاوية، وواسطة العقد في الأمة.

طريق المستقبل:

في سن الشباب «ينعقد» الإنسان، ويتحدد قالبه، ويرسم خطة نجاحه وفشله، وليس له بعد الشباب إلا تنفيذ ما رسم، واستقبال ما قُضِي وقدر.

وعلى الجملة فحياته بعد شبابه هي حركة «القصور الذاتي» واستمرار في دفعة الشباب.

وإذا كُتب لكل إنسان تاريخٌ فكتب الناس متشابهة في أن أهم فصولها فصول شبابه وليس بعد «فصل» الشباب إلا فصل «النتيجة» وهل بعد صب العجين في القالب إلا التصلب، أو هل بعد استكمال المقدمات إلا النتائج، أو بعد انتهاء الفصول إلا الخاتمة، أو بعد انتهاء المهندس من رسم البناء والموافقة عليه إلا التنفيذ.

ولكن ـ وا أسفاه ـ يخطئ كثير من الشباب فيصب نفسه في قالب غير القالب الذي يناسبه، أو يؤلف كتاب تاريخه على غير ما خلق له، أو يرسم هندسة بنائه ومساحة نفسه التي يقيم عليها البناء لا قوائم شكل البناء فيخرج معيباً مشوهاً؛ فكثير من رجال الأعمال أضاعوا شبابهم في دراسة نظرية بحتة، وكثير ممن حسن استعدادهم للفلسفة والنظريات البحتة أضاعوا شبابهم في عمل يدوي، ففقدت الأمة نبوغَ هؤلاء وهؤلاء جميعاً، وكنا كأننا في مصنع يكنس أرضه المهندس، ويهندس آلاته الكناس، ويقوم بكل عمل فيه مَنْ لا يحسنه.

وهذا أكبر سبب في ضياع الشبان، وفساد الأعمال.

فنقطة البدء في حياة الشباب يجب أن تكون هي دراسة نفسه، وتعرُّفُه موضع نبوغه، ومواضع ضعفه، واختيار العمل الذي يعمله، ونوع الدراسة التي تناسبه، وتحديد الغاية التي ينشدها.

وليس يستطيع أي عالم، أو مرشد، أو ولي أمر أن يستكشف موضع النبوغ في الشاب كما يستطيع الشاب نفسه؛ فنفسه بين جنبيه هو أقدر على أن يقيسها ويقيس اتجاهاتها، وهو لو دقق النظر، وأخلص النية في تَعرُّف جوانبها ولم تغره المطامع الخادعة، والمظاهر الكاذبة ـ لعرف سرَّ نفسه، وموضع عظمته.

صعوبات الشباب:

وليست هذه هي الصعوبة الوحيدة للشباب، فهناك صعوبات عدة تعرضهم وتحاربهم، وتدفعهم إلى الشر، وتصدهم عن الخير.

من أهم هذه الصعوبات «الوراثة والبيئة» فهناك كثير من الشباب ورثوا الميل إلى الإجرام، والميل إلى الخمر، والميل إلى النساء ونحو ذلك عن آبائهم، وظلت هذه الجذور الموروثة كامنةً فيهم مدةَ صباهم حتى إذا دخلوا في دور الشباب تحركت هذه الميول بقوة وشدة؛ فظهرت فيهم مرعبة مزعجة.

كما أن كثيراً من الظروف السيئة تحيط بالشاب الطيب، فتلتهم ميوله الطيبة، وتهدم آماله وطموحه، وتستأصل شعوره بالشرف والنبل، وتجعل على عقله غشاوة؛ فلا يستطيع التفكير، وتجعل كل طموحه، وكل أمله، وكل تفكيره في شهوات وضيعة، وكل يوم تقوم لنا البراهين العدة على هذا.

فمن هذه الظروف «الصداقة السيئة» فقد يكون الشاب طاهراً نقياً، فما هو

إلا أن يصاب بصديق يفتح له حديث الشر، ويحيي فيه كوامن شهواته، ويقص عليه مغامراته ومغامرات أمثاله في النساء وفي الشراب، ويستدرجه من سيجارة يدخنها، إلى كأس يشربها، إلى ما هو أسوأ من ذلك، فإذا رأسه مشتعل بالشر، وإذا هو يطلِّق كل ما اعتنقه من مبادئ الخير، وإذا هو لا يصلح لجدٍّ ولا لدراسة وإذ هو لا يصلح إلا لضروب الشر.

ومثل هذه الصداقة، صداقة الكتب والمجلات والجرائد التي من هذا النوع، فهناك أنواع من الأدب مضلةٌ مغويةٌ، وكم من الشباب اتخذوا مثلهم العليا من روايات السينما الداعرة الفاتكة بالعقول، الممثلة للجرائم واللصوصية، المحركة لأسفل أنواع الشهوة، وكذلك الكتب، والمجلات، والصحف، والصور التي من هذا القبيل.

ومما نأسف له أن هذا النظر، وهذا القول يعد عند بعض الشبان من أخلاقية القرون الوسطى لا يصح أن ينطبق على عصورهم وزمنهم.

والواقع أن التجارب التي أجريت والحريات التي مُنحت في هذا الباب دلت على صحة أخلاقية القرون الوسطى، وأصبح المعاصرون من كتاب أرقى الأمم المدنة يخشون من تهور الشباب في هذا الباب، وأصبحوا في فزع مما يرونه من المآسي التي يرتكبها الشاب باسم الحرية.

كيف يبني الشاب نفسه؟:

والآن نتساءل: ماذا يجب أن يكون الشاب وكيف الوصول إلى ما يجب؟

أول واجب على الشاب أن يبني نفسه؛ فينظر في ملكاته واستعداداته،

ويكوِّن منها نفسه على أحسن وضع يمكن أن تكون عليه المواد الأولية.

والناس كلهم مختلفون في كمية الملكات والاستعدادات وكيفياتها، ولكن كل كمية وكيفية يمكن أن يصاغ منها إنسان جيد في ناحية من النواحي، له شخصية ممتازة نوع امتياز، وليس يفسد هذا العمل إلا عدم القدرة على البناء، أو عدم الاهتداء لخير الأشكال؛ يجب أن يبني نفسه جسمياً وعقلياً وخلقياً؛ فيرسم له مثلاً أعلى محدوداً في كل ناحية من هذه النواحي، ويرسم خطة السير للوصول إلى هذه الغاية، ولا يترك نفسه سهلاً كالسفينة بلا قائد تتقاذفها الأمواج، وتدفعها الرياح كما تهوى.

ولا يتسنى له ذلك إلا إذا امتلأ عقيدة بخير هذا المثل، ومناسبته له.

وقد دلت التجارب على أن القلب لا العقل هو الذي يبني الإنسان ويكتب تاريخه، ويحدد مقدار نجاحه، فلا خير في عقل كبير لا قلب معه، وتاريخ الإنسانية يشهد أن خدمة القلوب الكبيرة لها ـ أقوى من خدمة العقول الكبيرة.

وأهم ما يدعو إليه القلب، ويتطلبه من الشاب أن يكون «رجلاً» والرجولة وصف جامع لكثير من الصفات المحمودة: أهمها الجد في العمل، والشجاعة في مواجهة الصعاب، والحرص على المبادئ.

وهذه الصفة ـ نحن الشرقيين ـ أحوجُ ما نكون إليها الآن، وأحق صفة لكثرة الكلام فيها؛ لأني أرى في الشباب ميلاً إلى الانحدار، والتحلل من الواجبات، وعدم الاكتراث بالمبادئ، والميوعة في السلوك.

وهي كلها مظاهر لقلة «الرجولة» أو عدمها، وهي أكبر سبب فيما نرى من

عدم نجاح الشبان في الأعمال الحرة؛ فالعمل الحر يتطلب جدًّا فائقاً ونشاطاً كبيراً، وعملاً شاقاً في زمن طويل، وإعمال العقل في الابتكار والتفكير في وسائل النجاح، فإذا لم يكن الشاب مسلحاً بكل هذه الخصال فشل فشلاً تاماً.

لماذا يفشل الشاب:

ولعل من أكبر أسباب هذا الفشل وعدم هذا الخلق ـ خلق الرجولة ـ أن الآباء لم يتعودوا عندنا أن يزجوا بأبنائهم الشبان في معترك الحياة، ويحملوهم عبء أنفسهم، بل يفتحون لهم صدورهم، وبيوتهم، وجيوبهم حتى بعد أن يتخرجوا من المدارس العالية، ويتركونهم في البيت يأكلون، ويشربون، وينامون وينعمون، وكل عملهم السعي في دواوين الحكومة لعلهم يجدون لهم «وظيفة».

ولم يعتد الآباء فينا هذه العادة الجيدة التي اعتادها الغربيون وهي أنهم منذ تعليمهم يطلبون منهم أن يصطدموا بالحياة، ويلجؤونهم أن يجدوا لهم عملاً وأن يبحثوا لهم عن قوت، وأنهم ـ وقد أعانوهم على إتمام دروسهم ـ قد أنهوا الواجب عليهم؛ فوجب على الشاب أن يحمل عبء نفسه، ويتعلم أن يعوم في الحياة كما يعوم في البحر، وأن يكافح الأمواج، ويحارب الصعاب، ويبذل جهده حتى يجد قُوتَه؛ فهذا هو ما يبني الشاب حقاً، ويستخرج منه الرجولة.

أما طريقتنا التي نسير عليها فلا نتيجة لها إلا ما نشاهد من ميوعة، وتسكع على أبواب المصالح الحكومية.

وللوصول إلى هذا يجب أن يكون الشاب ـ دائماً ـ باسماً للحياة متفائلاً لا متشائماً آملاً في النجاح؛ فاليأس يستلزم الفشل والخيبة، ويسمم الحياة كما

يسمم «المكروب» الماء.

وأخيراً على الشاب أن يمتلئ شعوراً بأنه مكلف أن يفعل ما يستطيع لتصحيح الخطأ الذي يقع فيه الناس من جرائم وشرور؛ فلا يكون في حياته أنانياً بحتاً لا ينظر إلا إلى نفسه، بل هو مطالب بعد أن يبني نفسه: أن يشترك في بناء أمته، وفي بناء الإنسانية عامة على قدر جهده وكفايته بخلقه وبعلمه وبماله وجاهه.

على الشباب أن يكونوا قوةً فاعلة دائمة في حياة أمتهم، ويجب أن يتحملوا في الحياة أكبر عبء؛ لأن حيويتهم في الأمة أقوى حيوية.

وهم المقياس الصحيح لرقي الأمة أو انحطاطها؛ فإذا أردت أن تعرف هل ارتقت أمة أو انحطت وما مقدار هذا الرقي أو الانحطاط فاعرف الفرق بين شباب الأمة وشيوخها، فبمقدار تفوق الشبان على الشيوخ في العلم والخلق والصحة يكون الرقي، وبمقدار ضعفهم عن الشيوخ في ذلك يكون الانحطاط.

إن كل طبقة من طبقات الأمة لها رسالة يجب أن تؤديها وليس في كل هذا أجدى، وأنفع من أن يؤدي الشباب رسالتهم.

خامساً: مقالات في المرأة

١٩ تحرير المرأة[1] للشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي

حرر الإسلام المرأة من ظلم الرجال وتحكمهم، فقد كانت المرأة في العالم كله في منزلة بين الحيوانية والإنسانية، بل هي إلى الحيوانية أقرب، تتحكَّم فيها أهواء الرجال، وتتصرف فيها الاعتبارات العاديَّةُ المجرَّدة من العقل، فهي حيناً متاعٌ يُتخطَّف، وهي تارة كرة تُتلقَّف، تُعتبر أداة للنسل، أو مطيَّةً للشهوات.

وربَّما كانت حالتها عند العرب أحسن، ومنزلتها أرفع، يرون فيها عاملاً من عوامل ترقيق العواطف، وإرهاف النفس، ودواءاً لكثافة الطبع، وبلادة الحسّ، ويجدون فيها معانيَ جليلةً من السموِّ الإنساني، وأشعارهم -على كثرتها- عامرةٌ بالاعتراف بسلطان المرأة على قلوبهم، وبشرح المعاني العالية التي يجدونها فيها.

ولا عبرة بما شاع عنهم من وأد البنات؛ فإنه لم يكن عامًّا فاشياً فيهم، وتعليله عند فَاعِلِيْهِ يُشعر أنه نتيجة حبٍّ طغى حتى انحرف، وأَثَرُ عقلٍ أسرف في تقدير العواقب، لا نتيجة كراهيةٍ لنوع الأنثى.

وعلى كلِّ حال فالوَأْدُ خطأ كبير، وجريمة شنيعة، وشذوذ في أحكام الرجال خارجٌ عن نطاق الإنسانية، وحسبه تسفيه قوله -تعالى-: ﴿أَلا سَاْءَ مَاْ يَحْكُمُوْنَ﴾.

وجاء الإسلام فنبَّه على منزلتها، وشرفها، وكرم جنسها، وأعطاها كلَّ ما يناسب قوَّتها العقلية، وتركيبها الجسمي، وسوَّى بينها وبين الرجل في التكاليف

---

(١) من مقال للشيخ رحمه الله عنوانه «الرق في الإسلام»، وهو موجود في كتاب: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٤/٣٦٠-٣٦٢، ولم يُعثر على تاريخها، ولا مكان إلقائها.

الدينية، وخاطبها بذلك استقلالاً؛ تشريفاً لها، وإبرازاً لشخصيتها، ولم يجعل للرجل عليها سبيلاً في كلِّ ما يرجعُ إلى دينها وفضائلها، وراعى ضعفَها البدني بالنسبة للرجل، فأراحها من التكاليف المادِّيَّة في مراحلِ حياتها الثلاث: من يوم تولد إلى يوم تموت: بنتاً وزوجاً وأماً، فأوجب على أبيها الإنفاق عليها وتأديبها ما دامت في حِجْره إلى أن تتزوَّج، وهذا حقٌ تنفرد به البنت على الابن الذي يسقط الإنفاق عليه ببلوغه قادراً على الكسب، فإذا تزوَّجت انتقل كلُّ ما لها من حقٍّ أدبي أو مادي من ذمة الأب إلى ذمة الزوج، فتأخذ منه الصداق فريضة لازمة، ونِحْلَةً مسوَّغة، وتستحق عليه نفقتها ونفقة أولادها منه بالمعروف، فإذا خلت من الزوج ولها أولاد مكتسبون وجبت الحقوق على أولادها، ولا تُنفق شيئاً من مالها إلا باختيارها.

ووصايا القرآن والسنَّة وأحكامها في برِّ الأمهات معروفة، وهي أظهر من الشمس؛ فالإسلام أعطى المرأة وأولادها من الإعزاز والتكريم ما لم يُعطها إياه دينٌ آخرٌ، ولا قانونٌ وضعيٌّ، وأعطاها حقَّ التصرفِ في أموالها، وحقَّ التملك من دون أن يجعل للزوج عليها من سبيل، وأحاطها بالقلوب الرحيمة المتنوِّعة النوازع، المتلوِّنة العواطف: قلب الأب وما يحمل من حنان، إلى قلب الزوج وما يحمل من حب، إلى قلب الولد وما يحمل من برٍّ ورحمة؛ فهي لا تزال تنتقل من حضن كرامة وبر إلى حضن كرامة وبر إلى أن تفارق الدنيا، وبين المهد واللحد تتبوَّأ المراتب الكاملة في الإنسانية.

نرى من هذه المعاملة الصريحة للمرأة في الإسلام أنه سلَّحها بأحكام قطعية،

وحماها بتشريع سماوي عادل، ولم يكلها إلى طبائع الآباء الذين يلينون ويقسون، ولا إلى أهواء الأزواج الذين يرضون ويغضبون، ولا إلى نزعات الأبناء الذين يَبرُّون ويعقُّون، وإنما هي أحكام إلهية واجبة التنفيذ، لا تدور مع الأهواء والعواطف والنزعات وجوداً وعدماً.

ولا يَنْقُضُ علينا هذه الأصول شُذاذُ العصور المتجاوزون لحدود الله الخارجون عن الفطرة الصحيحة كمسلمي زماننا الذين منعوا المرأة المسلمة كلَّ أو جُلَّ حقوقها، وحسب هؤلاء أنهم ظلموا أنفسهم قبل أن يظلموا المرأة، وأنهم هدموها، فهدمتهم من غير قصد في أبنائهم، وأفسدوا كونها، فحُرموا عونها.

وفي موضوع «المرأة في الإسلام» يتدخَّلُ علماءُ الغرب ملاحدةً ومُتألِّهين، ويتعاطون ما لا يُحسنون من القول في هذا الموضوع، ويجعلون منه ذريعةً للنيل من الإسلام.

ولقد ناظرنا جماعةً منهم في الموضوع، فأفحمناهم، وألقمناهم حجراً، قلنا لهم: هاتوا مثالاً نتناقش فيه، فقالوا: الميراث، قلنا: من أي جهة؟ فإنَّ المرأة ترث بعدة أسباب، فنظر بعضُهم إلى بعض، هل يراكم من أحد، وكادوا يتسلَّلون، وكأنهم كانوا لا يعرفون إلا أنَّ المرأةَ مظلومة في القرآن الذي يقول: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾، فقال لنا أحدهم: نعني ميراثَ البنت مع أخيها، فقلت: أنتم قوم تبنون الحياة كلَّها على الحساب، فهلمَّ «نتحاسب»، ولنفرض أنَّ مُورِّثاً مسلماً مات وترك ابناً، وبنتاً، وثلاثمائة نقداً، قال الإسلام: للابن مائتان، وللبنت مائة، فقلتم: هذا ظلم، هذا غبن، هذا إجحاف، ولم تفهموا أنَّ

الإسلام نظر إلى المرأة ككل، ونظر إلى مراحل حياتها الثلاث كمنظومة متناسقة، فإذا نقص لها في جزئية جبر لها في جزئية أخرى، ولنجرِ معكم على مثالنا ولا نخرج عنه، ولنفرض أنَّ الأخوين الذكر والأنثى تزوَّجا في يومٍ واحد، وليس لهما من المال إلا ذلك الميراث، فالذكر يدفع لزوجته مائة صداقاً، فيُمسي بمائة واحدة، وأخته تأخذ من زوجها مائة صداقاً فتُصبحُ ذات مائتين، والذكر مطلوب بالإنفاق على نفسه وزوجته وأولاده إن ولد، وأخته لا تُنفق شيئاً على نفسها ولا على أولادها.

فهذا هو الميزان العادل في الإسلام يتجلَّى من هذا المثال، وتتجلَّى منه رحمةُ الله في هذا المخلوق الذي ركَّبه الله على ضعف، ورشَّحه لحمل أعظم أمانة، وهي تربية الناشئة وإعدادها للحياة.



مستودع الذخائر[1] للأستاذ أحمد أمين

أين- تظن - مستودع الذخائر للأمة؟

وقد تجيب على الفور: إنه المطارات، ومخازن الأسلحة، ومستودع القنابل، وما إلى ذلك من أماكن تكدس فيها آلات القتال، وأدوات الحرب.

إن أجبت بذلك فقد أجبت بالعرض دون الجوهر، وبالمجاز دون الحقيقة.

وقد تتفلسف قليلاً، فتقول: إن ذخيرة الأمة هي جيشها المسلح بعَدده وعُدَدِه، ومرانه وتجهيزه، وفنونه وتشكيله.

إن قلت ذلك فقد قاربت الصواب ولم تقله، وحُمْتَ حوله، ولم تقع عليه.

فما قيمة الذخائر إن لم تجد رجالاً؟ وما ينفع السيف إذا لم تك قتَّالاً؟

إن السيف في يد الغِرِّ والحاذق كالقلم في يد الأميِّ والكاتب، بل ما ينفع الجندي المسلح إن لم يكن له بين جنبيه قلبٌ لا يهاب، ونفسٌ لا تفزع؟

الإجابة الحقة هي أن مستودع الذخائر للأمة قلب المرأة، قلب المرأة هو الجيش الأول الذي لا قيمة لقنابل، ولا طيَّارات، ولا غواصات، ولا دبابات، بدونه.

وإن شئت فقل هو الطابور الخامس الذي لا يوقع الرعب والفزع في قلوب الأعداء شيء مثله.

لقد خُلقت المرأة من ضِلَع من أضلاع الرجل، ولكن سرعان ما تغير الحال؛

---

(١) فيض الخاطر (٢/٨٩-٩٣).

فخلق قلب الرجل من قلب المرأة.

يخطئ من يظن أن لبن الأم ليس إلا نسبة معينة من الدسم، ونسبة معينة من الماء، وما إلى ذلك؛ فليس هذا كله إلا تحليلاً للمادة، وليست المادة كل شيء في اللبن.

وإنما قصر تحليل الكيمياويين، فقصرت نتائجهم.

إن في اللبن صفات خلقية، وصفات عقلية، وصفات روحية، وراء الصفات المادية، يرضعها الطفل كما يرضع مادة اللبن، فتتغذى بها روحه، وتتشكل منها نفسه؛ وليست هذه الصفات الروحية متطابقة دائماً مع الصفات المادية؛ فقد يحلل اللبن في معامل الكيمياء فيتبين من تحليله أنه المثل الأعلى للبن، وهو مع ذلك سمٌ خلقي ينفث الجبن، ويشيع الفساد، ويبعث الفزع والخور؛ على حين أن لبناً آخر ينقصه الدسم، ويعيبه التحليل الكيمياوي؛ وهو مملوء روحاً، ومملوء شجاعة ونشاطاً، ومملوء قوة، ومن أجل ذلك صدق الشاعر إذ يقول:

ترى الرجلَ النحيفَ فتزدريه ... وفي أثوابه أسدٌ مَزِيرُ

ويعجبك الطرِيرُ فتبتليه ... فيُخلفُ ظنَّكَ الرجل الطريرُ

ثم إن اللبن الذي ترضعه الأم أولادها توعز إليهم الجبن أو الشجاعة بسلوكها؛ فإن هي ربتهم تربية الأرانب فأدفأتهم وأشبعتهم، وحاطتهم بكل ضروب العناية، ولم تسمح لهم أن يجربوا، وأن يخاطروا وأن يجازفوا، ثم حدثتهم من الأحاديث ما يخلع قلوبهم، ويحبب إليهم الحياة بأي ثمن، وعلمتهم أن لا قيمة للعقيدة بجانب حياتهم، ولا للوطن بجانب سلامتهم، وصاحت

وولولت يوم يجندون، وفقدت رشدها يوم يسلحون، فهناك ترى صورة جند ولا جند، ويرى أشكال الرجال ولا رجال، وترى أجساماً ضخاماً وقلوباً هواءاً.

وإن هي ربتهم من صغرهم على المخاطرة والمجازفة، وحدثتهم أحاديث الأبطال وعظماء الرجال، وعودتهم مكافحة الحياة والتغلب على الصعاب، وعلمتهم أن المبادئ فوق الأشخاص، والوطن فوق حياة الأفراد، وعيرتهم يوم يفرون من واجب، وأنبتهم يوم يأتون بنقيصة، وفخرت بهم يوم يضحون لمبدأ، واعتزت بهم يوم يخاطرون لأمة ـ فهناك الرجال، وهناك العزة، وهناك الشرف.

ألست ترى معي بعدُ أن قلب المرأة هو الذي يخلق قلب الرجل؟.

قَلِّبْ صفحات التاريخ إن شئت، فحيثما رأيت للأم قلباً رأيت للرجل قلباً، فإذا انخلع قلبها انخلع قلبه.

إن هنداً بنت عتبة التي تخاطب الجيش بقولها:

إن تُقبلوا نُعانِقِ ... أو تُدْبروا نُفارِقِ ... فراقَ غير وامِقِ

هي التي أنجبت معاوية.

وأسماء بنت أبي بكر التي قالت لابنها: يا بني لا ترضَ الدنية؛ فإن الموت لا بدَّ منه، فلما قال لها: إني أخاف أن يمثَّل بي، قالت: إن الكبش إذا ذبح لا يؤلمه السلخ ـ هي التي أنجبت عبد الله بن الزبير.

والتاريخ مملوء بهذه الشواهد في كل أمة.

وظلت المرأة العربية على شهامتها ومعرفتها بأمور الدنيا حتى أصبحت المرأة ليست إلا رمزاً للمتعة، أو رمزاً للكيد؛ وتجادل الشعراء، فمنهم من يقول:

إن النساء رياحينٌ خُلِقنَ لنا وكلنا نشتهي شَمَّ الرياحينِ

ومنهم من يقول:

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شرِّ الشياطينِ

وكلا النظرين سخيف قاصر؛ فليست المرأة ريحانة فحسب، ولا شيطانة فحسب؛ وإنما هي فوق ذلك مَرْبىً للرجال، ومحضنةٌ للقلوب، ومستودع للذخائر.

بمثل هذه النظرات البلهاء فقدنا المرأة ففقدنا الرجل؛ فإن أردنا تنظيم حياتنا على أسس جديدة وجب أن يكون أولها وأولاها خلق قلب المرأة.

ليس ما يمنع أن تحيا المرأة حياة الجمال، بل هو واجب أن يكون ولكن يجب أن يكون بجانب الجمال الحسي جمال معنوي؛ فيه جمال حديث المرأة، وجمال رقيها وخبرتها، وجمال شجاعتها، وجمال قلبها، فعند ذلك نجد المرأة فنجد الرجل.

انظر الآن دور المرأة الغربية في الحرب، ولا أقص عليك إلا مثلاً واضحاً تلمسه في كثير مما يدور من قصص، وما يتلى من أخبار وهو أن الشبان والرجال يتعيرون كل العار أن يُروا في بلادهم أيام الحرب وهم لا يحملون السلاح، ولا يشتركون في القتال أو وسائل القتال، ويحز في نفوسهم أن قد أصيبوا بعاهة أو منعهم مانع جسمي عن أن يؤدوا لوطنهم خدمة ولأمتهم عملاً.

ومن يقوم بهذا الدور الخطير من تأنيب وتعيير غير نساء الأمة؟ فتكفي نظرة من إحداهن ليفضل الرجل الموت على الحياة، وخطر الحرب على أمن السلم،

وعيشة القتال على عيشة الدعة.

كل هذا يلخص لنا الأمر في جملة: شَجُعَتْ المرأة فشجع الرجل، وماعت المرأة فماع الرجل.

ليست تُعد الأمة راقية تستحق البقاء إلا إذا أرسلت الأمة أبناءها إلى ميادين القتال وهي تبتسم، وودعت الزوجة زوجها إلى الحرب وهي تملؤه أملاً بالعيشة السعيدة بعد النصر، وقالت الأمهات لأبنائهن ما قالت (أسماء): «إن ضربة بسيف في عز خيرٌ من لطمة في ذل».

إن وراء كل جيش في الأمة جيشاً غير منظور من قلوب نسائه، ووراء كل جيش صاخب جيش المرأة الصامت، ووراء البنود والأعلام والجنود والذخائر ذخيرة أسمى وأرقى وأغلى، وهي (قلب المرأة).

٢١ اختلاط الجنسين في نظر الإسلام[1] للشيخ محمد الخضر حسين

ألقى أحد الأساتذة محاضرة تعرض فيها لاختلاط الفتيان والفتيات في الجامعة، وأبدى استحسانه لهذا الاختلاط، ووقف موقف الدفاع عنه.

وما كنا ننتظر من الأستاذ المحاضر وقد قضى سنين غير قليلة وشؤون المجتمع تمر عليه بمقدماتها، وبما ينتج عنها من خير وشر أن يقول ما قاله في تلك المحاضرة.

بل كنا ننتظر منه أن يملي على أبنائنا وبناتنا كلمات يتلقونها على أنها آراءٌ أحْكَمَتْها التجارب، فيستنيرون بها في حياتهم المحفوفة بالأخطار من كل جانب.

ولكن الأستاذ لم يشأ إلا أن يتناول في محاضرته مسألة اختلاط الفتيان والفتيات، ويرضى عن ذلك الاختلاط، صارفاً النظر عما يجر إليه من الانحلال في الأخلاق، وغمز في الأعراض.

وغَرضنا من هذه المحاضرة نقد كلمات وردت في محاضرة الأستاذ، وإنما ننقدها على طريقة آداب البحث، وما تقتضيه قوانين المنطق، ثم انظروا ماذا ترون.

وما كان لي ولا للأستاذ وقد أخذنا نبحث في شأن اجتماعي أن نهمل وجهة الدين الإسلامي في هذه المسألة الهامة، فإذا نحن حققنا النظر فيها من حيث اتجاه الدين الإسلامي، وأعقبناه بالنظر في حكمة هذا الاتجاه ـ استطعنا أن نحكم على ما يقال في اختلاط الفتيان والفتيات بين جدران الجامعة، أو حول جدرانها،

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية ج ٦ من المجلد الثالث عشر، وانظر كتاب محاضرات إسلامية لفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين جمعها وحققها علي الرضا التونسي ص١٩٠ـ٢٠٠.

ونحن على بينة من أمر هذا الحكم.

قال الأستاذ في محاضرته: «ويتصل بخطأ الجمهور في فهم رسالة الجامعة مسألة قبول الفتيات المصريات طالبات في الجامعة».

يعد الأستاذ فيما أخطأ الجمهور في فهمه من رسالة الجامعة مسألة قبول الفتيات المصريات طالبات في الجامعة، ويريد بخطأ الجمهور إنكارهم لما صنعته الجامعة من قبولهن، وخلطهن بالفتيان في حجرات التدريس.

والواقع أن الجمهور لم يخطئ، وأن الجامعة هي التي أخطأت في هذا الخلط؛ ذلك أن جمهور الأمة المصرية يستضيء في حياته بدين قامت لديه الأدلة القاطعة على أنه وحي سماوي، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإذا عرضت له مسألة اجتماعية كالجمع بين الفتيان والفتيات على الوجه الذي يقع في الجامعة - أقبل يستفتي دينه الحق، فإن وجده قد أذن في ذلك سكت عنه ورضي به، وإن وجده قد نهى عنه بادر إلى إنكاره.

وتحريم الدين لاختلاط الجنسين على النحو الذي يقع في الجامعة معروف لدى عامة المسلمين، كما عرفه الخاصة من علمائهم، وأدلة المنع واردة في الكتاب والسنّة وسيرة السلف الذين عرفوا لباب الدين، وكانوا على بصيرة من حكمته السامية.

يقول الله - تعالى -: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ النور:٣٠، ويقول: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ النور: ٣١.

ومعنى غضّ البصر صرفه عن النظر الذي هو وسيلة الفتنة، والوقوع في

فساد، ومن ذا الذي يجمع الفتيان والفتيات في غرفة وينتظر من هؤلاء وهؤلاء أن يصرفوا أبصارهم عن النظر، ولا يتبعوا النظرة بأخواتها؟ وهل يستطيع أحدٌ صادق اللهجة أن يقول: إن أولئك المؤمنين والمؤمنات يحتفظون بأدب غضّ أبصارهم من حين الالتقاء بين جدران الجامعة إلى أن ينفضّوا من حولها؟ والشريعة التي تأمر بغض النظر عن النظر إلى السافرات، تنهى أولي الأمر عن تَصَرُّفٍ شَأْنُهُ أن يدفع الفتيان والفتيات إلى عواقب وخيمة.

ويقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الأِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ النور: ٣١.

والزينة ما يتزين به من نحو القُرط، والقِلادة، والخاتم، والوشاح والشعر، والأصباغ من نحو الكحل والخضاب، والملابس الأنيقة، وما ظهر من الزينة هو الثوب الذي يستر الجسد حتى لا يظهر ما تحته من حلي، وشعر، ونحوه.

ثم إن القرآن قد استثنى طائفة من الناس تكثر مداخلاتهم للمرأة؛ فيكون في التزامها التستر الذي تلزمه مع الأجنبي مشقةٌ عليها، فأذن لها في عدم زينتها منهم، ثم إنَّ تَوقُّعَ الفساد منهم شأنهُ أن يكون مفقوداً أو نادراً، إما لشدة القربة، كالأب والابن والأخ والخال والعم وابن الأخ وابن الأخت، وإما لأن شأنهم

الغيرة على حفظ عرض المرأة كأبي الزوج وابنه، فإن أبَ الزوج أو ابنه تدعوه الغيرة على أن يحافظ على عرض المرأة؛ لأن في حفظ عرضها حفظاً لعرض ابنه إن كان أباً، أو لعرض أبيه إن كان ابناً.

وهؤلاء وإن اشتركوا في جواز رؤية الزينة الباطنة، لا يتساوون فيما يصح أن يطلع عليه، فالزوج يحل له النظر إلى ما شاء، وأما الابن والأب والأخ والجد وكل ذي محرم، فلا يجب على المرأة أن تستر منهم الشعر والنحر والساقين والذراع، وأما غير أولي الإربة من الرجال، وهم الذين عرف منهم التعفف وكانوا على حالة من لا يقدر على مباشرة النساء، كالطاعنين في السن الذين عرفوا بالصلاح وعدم الحاجة إلى النساء، فإنما يحل للمرأة أن تظهر أمامهم في ثياب صفيقة وإن لم تكن عليها ملحفة.

وليس من شك في أن طالبات الجامعة لا يضربن بخمرهن على جيوبهن، وقد يأتين في أجمل ثيابهن، ويختلطن بفتيان ليس بينهم وبينهن صلة من الصلات المشار إليها في الآية الكريمة.

ويقول الله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾ الأحزاب: ٥٩.

الجلباب: الثوب الذي يستر المرأة من فوق إلى أسفل، أو كل ثوب تلبسه المرأة فوق ثيابها، وإدناؤه عليهن إرخاؤه عليهن، قال ابن عباس وجماعة من السلف: أن تلوي الجلباب فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الأنف، فتستر الصدر ومعظم الوجه إلا عينيها.

ثم ذكر حكمة هذا الستر، وهي أن التستر يدل على العفاف والصيانة؛ إذ من كانت في هذا الحال من التستر لا يطمع الفسَّاق في أن ينالوا من عرضها؛ فلا تلقى من الفساق تعرضاً يؤذيها مثلما تلقى المتبرجات بزينتهن، وذلك معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾.

والأحاديث الصحيحة الواردة في النهي عن اختلاط المرأة بغير محرم لها تدل بكثرتها على أن مقتَ الشريعة الغرَّاء لهذا الاختلاط شديد، وأن عنايتها بأمر صيانة المرأة بالغة، وأذكر منها ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري: «قالت النساء للنبي ﷺ غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن».

ولو كان اختلاط الطلاب بالطالبات مما يأذن به الدين لكان للنساء أن يجلسن مع الرجال في مجلس رسول الله ﷺ ولما قلن له: غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك، ولما وعدهن يوماً لقيهن فيه وحدهن.

وأذكر منها ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «لقد كان رسول الله ﷺ يصلي الفجر، فيشهد معه نساء من المؤمنات متلفعات في مروطهن، ثم يرجعن إلى بيوتهن ما يعرفهن أحد».

ولو كان اختلاط الرجال بالنساء مأذوناً فيه لما احتاج المؤمنات إلى أن يتلفعن بمروطهن، ويرجعن إلى بيوتهن دون أن يعرفهن أحد.

وأذكر منها ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النبي ﷺ: «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، ولا يدخل عليها رجل إلا

ومعها محرم، فقال رجل: يا رسول الله إني أريد أن أخرج في جيش كذا وكذا وامرأتي تريد الحج، فقال: اخرج معها».

ولو كان اختلاط النساء والأجانب مأذوناً فيه، لما حرَّمت الشريعة على المرأة أن تسافر لأداء فريضة الحج إلا أن يكون معها محرم، ولما نهى النبي ﷺ عن أن يدخل رجل على امرأة إلا ومعها محرم.

وأذكر منها ما رواه البخاري في صحيحه عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم، قام النساء حينما يقضي تسليمه، وهو يمكث في مقامه يسيراً قبل أن يقوم، قالت: نرى ـ والله أعلم ـ أن ذلك لكي ينصرف النساء قبل أن يدركهن الرجال».

فقيام النساء، وانصرافهن عقب تسليمه ﷺ لأنه مأذون لهن في الصلاة دون البقاء في المسجد لغير صلاة، وقد أشارت رواية الحديث إلى أن مكث النبي ﷺ في مقامه عقب الصلاة من أجل تمكين النساء من الانصراف؛ لأن الرجال لا يقومون من موضع الصلاة إلا إذا قام ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وفي هذا شاهد على كراهة الشارع لاختلاط الرجال الأجانب بالنساء.

ثم إن سنة النساء في صلاة الجماعة أن يصلين خلف صفوف الرجال، روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «صلى النبي ﷺ في بيت أم سليم، فقمت، ويتيم خلفه، وأم سليم خلفه».

ويدلكم على أن النهي عن اختلاط الرجال بالنساء كان معروفاً بين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ حتى أصبحت قاعدة يذكرونها عندما يشتبه عليهم الأمر في

بعض الآثار أو الأحاديث، ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن جريج قال: «أخبرني عطاء إذ منع ابن هشام الطواف مع الرجال، قال: كيف يمنعهن وقد طاف نساء النبي ﷺ مع الرجال، قلت: أبعد الحجاب أو قبل؟ قال: أي لعمري لقد أدركته بعد الحجاب، قلت: كيف يخالطن الرجال؟ قال لم يكن يخالطهن: كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تطوف في حجرة من الرجال لا تخالطهم».

والحجرة الناحية المنفردة، تقول رأيت رجلاً يسير من القوم حجرة أي ناحية منفردة.

فانظر كيف بدا لابن هشام أن يمنع النساء الطواف مع الرجال؛ أخذاً بالقاعدة المعروفة في الشريعة من منع اختلاط النساء بالرجال.

ولما أنكر عليه عطاء لم يقل له: إن اختلاط النساء بالرجال لا حرج فيه، ولكنه استدل بحديث أن نساء النبي ﷺ كن يطفن مع الرجال، ولما بدا لابن جريج أن طوافهن مع الرجال يقتضي الاختلاط بهم، والاختلاط محظور في الشريعة، قال متشكلاً الإذن لهن في الطواف مع الرجال: كيف يخالطهن الرجال؟ فلم يقل له ابن جريج: وأي مانع من هذا الاختلاط، بل بيّن له أنهن يطفن مع الرجال دون أن يخالطنهم.

وليست نصوص الدين وحدها هي التي تسوق الجمهور إلى إنكار اختلاط الطلاب والطالبات، بل المشاهدات والتجارب قد دلتا على أن في هذا الاختلاط فساد لا يستهان به، ومن أنكر أن يكون لهذا الاختلاط آثار مقبوحة فإما أن

يكون غائباً عن شؤون المجتمع، لا يرقبها من قريب ولا من بعيد، وإما أن يكون قد نظر إلى هذا الاختلاط وآثاره بعين لم تنبه إلى وجهة استقباحه، ووجوب العمل على قطع دابره.

ومن عمد إلى البلاد التي يباح فيها اختلاط الجنسين، ونظر إلى ما يقع فيها من فساد الأعراض، وقاسه بالفساد الذي يقع في البلاد التي يغلب على رجالها ونسائها أن لا يجتمعوا إلا على وجه مشروع ـ وجد التفاوت بين الفسادين كبيراً.

بل لا نحتاج في معرفة هذا التفاوت إلى إحصاء مفاسد هذه وتلك؛ فإن المعروف بالبداهة أن الاختلاط يُحْدِث في القلوب فتنة، ولا تلبث الفتنة أن تجر إلى فساد، فعلى قدر كثرة الاختلاط يكثر ابتذال الأعراض.

قال الأستاذ: «وهي مسألة كانت قليلة الأنصار في الرأي العام».

يريد أن قبول الطالبات في الجامعة لم يَرْضَ عنه فيما مضى إلا قليل من الناس، والواقع أن الذين يرضون عن هذا الاختلاط لا يزال عددهم قليلاً إذا نظر إليهم إزاء مَنْ ينكرونه، ويَشْكُون من سوء مغبته، ولو استُفْتِيت الأمة استفتاءاً صحيحاً لظهر أن أنصاره لا يزالون في قلة، على أن المسائل الاجتماعية إنما يرجع الحكم فيها إلى الأدلة القائمة على رعاية ما يترتب عليها من مصالح أو مفاسد، أما كثرة الأنصار فلا تجدي أمام النصوص الشرعية، والأدلة المؤيدة بالتجارب ولو مثقال ذرة.

قال الأستاذ: «بعد عشر سنوات من قبول هؤلاء الطالبات، قامت ضجة تنكر علينا هذا الاختلاط فلم نأبه له؛ لأن التطور الاجتماعي معنا، والتطور لا غالب له».

ليس هناك تطور يعرض للاجتماع في نفسه، وإنما تطور الاجتماع أثر أفكار وأذواق وميول نفسية، ورقيُّ هذا التطور أو انحطاطه يرجع إلى حال تلك الأفكار والأذواق والميول؛ فإن غلب على الناس جودة الفكر، وسلامة الذوق، وطهارة ميولهم النفسية ـ كان التطور الاجتماعي راقياً وهذا هو الذي لا تنبغي معارضته، ويصح أن يقال فيه: إنه تطور لا غالب له.

أما إذا غلب على الناس انحراف الأفكار في تصور الشؤون الاجتماعية، أو تغلبت أهواؤهم على عقولهم، كان التطور الاجتماعي في انحطاط، وهذا هو الذي تجب معارضته، وأقل دعوة تقوم لإصلاحه يمكنها أن تقوِّم عوجه، وترد جماحه.

وإذا كان اختلاط الجنسين من قبيل التطور الاجتماعي فهو من نوع ما ينشأ عن تغلب الأهواء، وتقليد الغربيين في غير مصلحة، فيتعين على دعاة الإصلاح أن يجهروا بإنكاره، ويعملوا على تنقية المجتمع من أقذائه، ومتى قويت عزائمهم، وجاهدوه من طرقه الحكيمة أماطوا أذاه، وغلبوه على أمره.

وما كانت حالة العرب في الجاهلية إلا تطوراً اجتماعياً، وقد قام النبي ﷺ يحارب هذا التطور، فقضى عليه في أعوام غير كثيرة.

ولو عرض حال فرنسا قبل الحرب، ونظرنا إلى ما كان فيها من تهتك، وحاول بعض عقلائهم التخفيف من شر ذلك الاستهتار ـ لوجد من يقول له: هذا التهتك تطور اجتماعي، والتطور الاجتماعي لا غالب له.

فهل يرضى الأستاذ المحاضر أن يسكت دعاة الإصلاح عما يغلب في الناس

من الفساد، وييئسوا من إصلاحه بدعوة أنه تطور اجتماعي، والتطور الاجتماعي لا غالب له؟

والذي نرى أن الإصلاح يسود بالدعاية الحكيمة، وقد يسود بقوة السلطان العادل متى كانت الأمة في عماية عن طريق الرشد، وصَمَمٍ من مواعظ الحكماء، أما الباطل فإنما يسود بوجاهة أشياعه، أو قوة سلطانهم، وإذا تغلب باطل بالدعاية الماكرة فلأن أنصار الحق كانوا غارقين في نوم ثقيل، ولا يرفع الباطل صوته إلا في بيئة غاب عنها الدعاة المصلحون.

وقد حسبنا عندما سقطت فرنسا في هذه الحرب تلك السقطة المزرية أن يأخذ منها رجالنا عبرة بالغة، فيعود الذين كانوا يحبذون السفور، واختلاط الجنسين، دعاة إلى أدب الإسلام من تستر المرأة بثياب العزة، وصيانتها عن مواقف الابتذال، ومواطن الاختلاط.

ومن دواعي الأسف أن يتنبه رجال فرنسا قبل أن يتنبه كثير من رجالنا، ويأخذ من سقوط دولتهم عبرة، هي أن سبب ضعف فرنسا وانهيار بنائها هو انحلال أخلاق شبابها، وإغراقهم في الملاذ والشهوات.

ولا إغراق في الشهوات أكثر من تخلية السبيل للنساء يخالطن الرجال، ويبدين لهن ما بطن من زينتهن دون أن تلتهب في نفس أبيها أو أخيها أو زوجها غيرةٌ حامية.

وقال الأستاذ المحاضر: «ومعنا العدل الذي يسوي بين الأخ وأخته في أن يحصل كل منهما أسباب كماله الخاص».

لا يتنازع أحد في العدل بين الأخ والأخت، ولا يمانع من التسوية بينهما في تحصيل كل منهما أسباب كماله الخاص، [١]لا يستدعي اختلاطها بالفتيان، بل يعد هذا الاختلاط عائقاً لها عن الوصول إلى كمالها الخاص، فإنه يذهب بجانب كبير من الحشمة، وهدوء النفس، ويهيؤها لأنْ تنحدر في حفرة من سوء السمعة، ولو كان ولي أمرها الناصح في تربيتها ينظر إلى هذه العاقبة بعين تدرك حقيقتها لحال بينها وبين هذا الاختلاط بكل ما يملك من قوة.

ونحن لا نعارض في تعليم المرأة، ولا في استمرارها على التعليم إلى أبعد مدىً، ولكنا نريد الاحتفاظ بأساس كمالها الخاص، وهو الصيانة ونقاء العرض.

ولا شك في أن اختلاطها بالفتيان وسيلة قريبة إلى هدم ذلك الأساس، فالذين ينكرون اختلاط الطلاب بالطالبات هم الذين يناصرهم العدل الذي يسوي بين الأخ وأخته في أن يحصل كل منهما أسباب كماله الخاص.

فللمرأة أن تطلب من العلوم ما وَسِعَها أن تطلبه، ولكن على أساس الصيانة، فإن كان طلبها لبعض العلوم يُعَرِّض هذا الأساس للانتقاص فلتكتف بما وصلت إليه يدها من علم، وفي الرجال كفاية للقضاء، والمحاماة، وعضوية مجلس النواب، إلى ما يشابه هذا من الأعمال التي لو تولتها المرأة لانجرَّت بطبيعة العمل إلى عاقبة سيئة هي الاختلاط بالرجال.

قال الأستاذ المحاضر: «ومعنا فوق ذلك منفعة الأمة من تمهيد الأسباب لتكوين العائلة المصرية على وجه يأتلف مع أطماعنا في الارتقاء القومي».

---

(١) هكذا في الأصل، ولعل فيه سقطاً، ولو قيل: وأن ذلك لا يستدعي... لاستقام الكلام.(م)

إذا كنّا لا نستسلم لتقليد أوربا في كل شأن من شؤون الاجتماع، وترفّعنا عن أن نجعل حال الأوربيين المثال الكامل للارتقاء القومي ـ قلنا: إن أساس ارتقائنا القومي هو الاحتفاظ بآداب ديننا، وأن يكون في فتياتنا علم واسع، وعزم صارم، وإرادة ماضية، وصبر على تحمل المشاق، وأن يكون في فتياتنا حشمة، وصيانة، وعلم يساعدهن على تأدية واجباتهن في الحياة من نحو تدبير المنزل، والقيام على تربية الولد، وقد دل النبي ﷺ على هاتين المهمتين بقوله: «خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده».

وأشار ﷺ إلى مهمة تدبير المنزل بقوله: «والمرأة راعية على بيت زوجها».

فمن أطماعنا أن تكون المرأة على خلق عظيم من الحشمة، بعيدة من مواطن الفتنة والريبة، فرغبتنا في تكوين العائلة المصرية على وجه يأتلف مع أطماعنا تدعونا وتلح في دعوتنا إلى أن نجعل بين الفتيات والفتيان فارقاً يقطع مثار الفتنة، وتسلم به النفوس من خواطر السوء التي قد تنقلب إلى عزم ثم إلى مقدرة.

وإذا كان النظر إلى زينة المرأة، والتأمل في محاسن وجهها وسيلةَ تعلقِ القلب بها، وتعلقُ القلب مدرجة الفتنة ـ فالاختلاط الذي يستدعي تكرار النظر، ويجر إلى الأخذ بأطراف الحديث يكون بلا ريب أمرا منكراً؛ إذ هو الوسيلة المباشرة لزلزلة نفوس الفتيان والفتيات بعد سكونها زلزلة قد تذهب بأعراضٍ كانت مصونة، وإذا دخل ابتذال العرض في الأسرة، فمن أين لنا أن نكونها على وجه يأتلف مع أطماعنا في الارتقاء القومي ؟.

وليس في حماية الفتاة من الاختلاط بغير محارمها، تضييق لدائرة الحياة في وجهها، وإنما هو احتفاظ بكرامتها، وتوفير لهنائها؛ إذ بصيانتها عن الاختلاط تعيش بقلب طاهر، ونفس مطمئنة، وبهذه الصيانة تزيد الصلة بينها وبين زوجها، وأولي الفضل من أقاربها متانة وصفاءاً.

وأنا لا أستبعد صحة ما أسمعه كثيراً من أن النزاع بين الرجال وزوجاتهم أصبح أكثر مما كان، وأن منشأ هذا الخصام تهافت النساء على التبرج الممقوت، وتساهلهن في الاجتماع بغير محارمهن.

والواقع أن أنصار اختلاط الجنسين لا يؤيدهم تطور اجتماع صحيح، ولا يناصرهم العدل بين الأخ وأخته في تحصيل كل منهما أسباب كماله الخاص، ولا تقف بجانبهم مصلحة الأمة في حال، وليس معهم إلا أنهم فعلوا ذلك، ففتحوا أبواب الجامعة للطالبات، وكان منكرو هذا الاختلاط على كثرتهم في تفرق، فلم يصدعوا بإنكارهم، واقتصروا على أن يرددوا هذا الإنكار في مجالسهم، وربما كتب أحدهم مقالة في صحيفة، أو قال كلمة في محاضرة.

ولو عقد دعاة الإصلاح مؤتمراً أخلاقياً، ونظروا في شأن اختلاط الجنسين نظراً خالياً من كل هوى، وبسطوا القول في وجوه مفاسده ـ لكان لقرارهم شأن، وكان لرجال السياسة الرشيدة في أمر الفتيات رأي يجمع بين إعطائهن حظهن من التعليم، وصيانتهن من مواضع الفتنة والابتذال.



٢٢ أمهات المؤمنين[(١)] للعلامة الشيخ محمد بهجة البيطار[(٢)]

النساء في عصر النبوة:

النساء في فجر الإسلام وعصر النبوَّة كُنَّ كالرجال، يتدارسن القرآن، ويروين الأحاديث، ويحافظن على العبادات، ويصلين صفوفاً وراء الرجال، ويستمعن المواعظ والخطب في المساجد، ويسافرن لأداء فريضة الحج والعمرة، بل كنَّ يشهدنَ الحروب، ويضمدن الجروح، ويُهيئن الطعام، ويسقين الماء، ويغسلن الثياب، ويشتركن في الجهاد أحياناً كما حصل في واقعة اليرموك.

وقد كان تعلم العلم الديني بعقائده وعباداته إلزامياً، فعمَّ الرجال والنساء،

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» الجزء العاشر من المجلد التاسع الصادر في ربيع الآخر ١٣٥٦هـ، وانظر كتاب: محمد بهجة البيطار، إعداد الأستاذ علي الرضا الحسيني ص٢٨ـ٣٦.

(٢) هو الشيخ العلامة محمد بهجة بن بهاء الدين بن عبدالغني بن حسن بن إبراهيم الشهير بالبيطار.

ولد في الثاني من شهر رمضان المبارك سنة ١٣١١هـ (١٨٩٤) في مدينة دمشق من عائلة كريمة يرجع أصلها إلى الجزائر «مدينة بليدة».

عرف والده بالعلم وقرض الشعر، ووالدته ابنة الشيخ عبدالرزاق البيطار صاحب كتاب «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» وهي ابنة عم والده.

تلقى علومه في المرحلة العلمية الأولى على والده. وفي المدرستين الابتدائيتين «الريحانية» و «الكاملية» بدمشق.

تابع علومه على أفاضل العلماء، والده وجده لأمه الشيخ عبدالرزاق البيطار، وعلى كبار أعلام العصر كالإمام محمد الخضر حسين، والشيخ جمال الدين القاسمي، والمحدث الأكبر محمد بدر الدين الحسني.

=

والبنين والبنات، وإنك لتجد أسماء النساء مدونة في كتب طبقات المحدِّثين وغيرهم، وقد استغرقت المحدِّثات المجلد السادس من مسند الإمام أحمد ابن حنبل إلا قليلاً، ومسند السيدة عائشة ـ أي الأحاديث التي سمعتها وروتها ـ قد بلغ وحده أكثر من مائتين وخمسين صفحة «ص٢٩-٢٨٢».

= وحصل منهم على الإجازات العلمية تشهد بتفوقه ومثابرته على طلب العلم.

قام بالخطابة في الجمع والأعياد والإمامة والتدريس في جامع الشربجي بحي الميدان سنة ١٣٢٨هـ ١٩١٠م خلفاً لوالده.

كما تولى الخطابة والتدريس في جامع كريم الدين الشهير بالدقاق سنة ١٣٣٥هـ ـ ١٩١٧م وحتى وفاته ولم ينقطع عنهما إلا لداعي السفر أو المرض.

وكانت دروسه في جامع الشربجي بعد صلاة الصبح. وفي الدقاق ثلاثة أيام في الأسبوع بين المغرب والعشاء.

عمل في سلك التعليم، وتلّد في عددٍ من المناصب في سوريا والسعودية.

توفي يوم السبت في الثلاثين من جمادى الأولى سنة ١٣٩٦هـ الموافق للتاسع والعشرين من أيار سنة ١٩٧٦م.

له عددٌ من المؤلفات منها: كتاب «نقد عين الميزان» ألفه أيام الطلب والتحصيل انتصاراً لأستاذه الشيخ جمال الدين القاسمي وأئمة الرواية في الأخذ عن كل ثقة ثبت صدوق. طبع بدمشق سنة ١٣٣١هـ، ورسالة «نظرة في النفحة الزكية»: هي دعوة إلى مذهب السلف الصالح ونبذ المعتقدات الزائفة والآراء الفاسدة. طبع بدمشق سنة ١٩٢٢م، رسالة «النفخة على النفحة والمنحة» طبعت باسم مستعار مع الرسالة السابقة في الرد على رسالة «النفحة الزكية في الرد على شبه الفرقة الوهابية»، كتاب «حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» طبع بدمشق سنة ١٩٦١م، رسالة «الكوثري وتعليقاته» بيان افتراءات زاهد الكوثري في تعليقاته على عقيدة أهل السنة. طبع بمصر سنة ١٩٣٨م.وغيرها من الكتب، انظر ترجمته في كتاب «محمد بهجة البيطار» إعداد علي الرضا حسيني.

وقد تسلسل العلم ببعض البيوتات في السيدات، حتى صارت الواحدة تروي أحاديث النبيﷺ عن أمها وجدتها.

ومن شواهد ذلك ما رواه الإمام أبو داود في سننه: قال: حدثنا محمد ابن بشار، حدثني عبدالحميد بن عبدالواحد، حدثتني أمُّ جَنوب بنت نميلة عن أمها سُويدة بنت جابر عن أمها عَقيلة بنت أسمر بن مضرّس قال: أتيت النبيﷺ فقال: «من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو له» أي من الأرض ـ الحديث.

إحدى أمهات المؤمنين وفتاة في القرن العشرين:

لنقايس الآن من الوجهة العلمية بين فتاة في صدر الإسلام، وفتاة في عصر العلم والحضارة، لنعلم كنه الحياة في العصرين:

عائشة ـ رضي الله عنها ـ عاشت في صدر الإسلام، ودخلت المدرسة النبوية في التاسعة من عمرها، ولبثت تسع سنوات في مدرستها، وتوفي عنها معلمها الأمين ﷺ وهي في الثامنة عشرة من عمرها، فما العلوم التي درستها، وما نوع شهادتها يا ترى؟

كانت تلك النابغة فقيهة جداً حتى قيل: إن ربع الأحكام منقول عنها، عالمة بكل العلوم.

قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً».

وقال عروة: «ما رأيت أحداً أعلم بالقرآن، ولا بفريضة، ولا بحرام، ولا بحلال، ولا بفقه، ولا بشعر، ولا بطب، ولا بحديث العرب، ولا نسب ـ من

عائشة».

وقال مسروق: «رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض».

وكانت فصيحةً جداً، قال معاوية: «والله ما رأيت خطيباً قط أبلغ، ولا أفصح، ولا أفطن من عائشة».

وعند الطبراني برجال الصحيح عن موسى بن طلحة: «ما رأيت أحداً كان أنفح من عائشة».

من أخذ عنها من الصحابة:

روى عنها جماعة كثيرة من الصحابة كعمر وابنه عبدالله، وأبي هريرة، وأبي موسى، وزيد بن خالد، وابن عباس، وربيعة بن عمرو بن السائب بن يزيد، وصفية بنت شيبة، وعبدالله بن عامر بن الحارث بن نوفل.

تلاميذها من كبار التابعين:

من أجلّائهم ابن المسيب، وعمرو بن ميمون، وعلقمة بن قيس، ومسروق، وعبدالله بن عليم، والأسود بن يزيد، وأبو سلمة بن عبدالرحمن، وأبو وائل.

من روى عنها من آل بيتها:

أختها أم كلثوم، وعائشة بنت طلحة، وأخوها من الرضاع عوف ابن الحارث، وابنا أخيها محمد: القاسم وعبدالله، وبنتا أخيها الآخر عبدالرحمن: حفصة وأسماء، وابنا أختها أسماء: عبدالله وعروة، وحفيد عبدالله: عباد ابن حمزة، وآخرون كثيرون.

فهذه شذرة من شهادة كبار الصحب لعائشة بكونها صارت مرجعاً في كل علم، حلاّلة لكل مشكل.

إن عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت على حداثة سنها تجيب كبار الرجال عما يُشكل عليهم من أمر دينهم، ولكن فتياتنا في سنها لا يُجبن عن مشكلات الدين أحداً، بل هنَّ يسألن ويستشكلن مسائل كان يُرجى منهن أنفسهن الجواب عليها، مثل كون شهادة المرأة نصف شهادة الرجل، وميراثها نصف ميراثه، ومثل تعدد الزوجات «أو عدم المساواة كما يُقال»، وعن الحكمة في كون أزواج النبي أكثر من أربع، وأمثال هذه المسائل.

حكمة تعدد أمهات المؤمنين بعد الهجرة:

لو رجعنا إلى التاريخ الصحيح في أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين، لعلمنا أنَّ التعددَ، أو الجمع بين التسع لم يكن إلا بعد هجرته ﷺ إلى المدينة في السنوات العشر الأخيرة من عمره ﷺ.

أما في مكة فقد عاش فيها قبل الهجرة ثلاثة وخمسين عاماً، لم يجمع في أثنائها بين زوجتين قط، والسيدة خديجة التي كانت أولى أزواجه وأم أولاده ـ عدا إبراهيم؛ فإنه من مارية القبطية ـ قد تزوج بها[1] وهي امرأة في الأربعين من عمرها، وهو في الخامسة والعشرين من حياته الشريفة، في نضارة الصبا، وريعان الفتوة، وجمال الطلعة، وكمال الرجولة، وعاشت معه ٢٥ عاماً، ثم توفيت وهي عجوز في الخامسة والستين من عمرها.

---

(١) الضمير يعود إلى أم المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ (م)

قضى حياة الشباب، وسنَّ الحاجة إلى النساء مع خديجة، المرأة الثيب التي تزيد عنه في السن خمسة عشر عاماً، ولم يتزوج عليها، ولا أحب بعدها أحداً أكثر من حبه لها، وكان طول حياته يذكرها، ويكرم صديقاتها ومعارفها، ولما قالت له عائشة: «هل كانت إلا عجوزاً أبدلك الله خيراً منها ـتعني نفسهاـ» وكانت تُدِلّ بحداثة سنها وجمالها، وكونها بنت صديقه الأول، وصديقه الأكبر أبي بكر رضي الله عنه ـ قالت: فغضب، وقال: «والله ما أبدلني خيراً منها، آمَنَتْ بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء».

من هذا الشاهد تعلم أن عفَّته ﷺ لا نظير لها، ولو شاء لتزوج بحسان الأبكار، أو لو شاء لتزوج على خديجة كما كان يفعل غيره، لاسيما أن تعدد النساء كان في الجاهلية شائعاً جداً، وليس له حدٌّ معين، ولكنه عف ضميره، ولم يمد عينه إلى زهرة الحياة، وزينتها.

أما باقي أزواجه ﷺ فخمس من قريش، وهنَّ عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أمية، وأما الأربع الباقيات فهن صفية بنت حيي الخيبرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، وليس فيهن كلِّهن بِكْرٌ إلا عائشة.

والحكمة في تزوجه ﷺ بعد هجرته إلى المدينة ببضع نسوة في بضع سنين هو العناية بإصلاح البيوت، وتهذيب النفوس، ونشر الفضيلة، وأن تكون أزواجه

قدوة حسنة لجميع النساء في تلقي العلم والحكمة، والرحمة، والتقوى والعبادة، والتربية والتعليم، وإليك البيان:

١ـ جعل الله ـ تعالى ـ من بيوت نساء النبي ﷺ مدارس داخلية يتعلمن فيها الدين، عقائده وعباداته، ومعاملاته وأخلاقه، لاسيما ما يختص منه بالنساء، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... الآية﴾ (الأحزاب: ٣٣).

فالقرار في البيوت من أجل أن يتعلمن ما يحتجن إليه، وما يعظن به النساء والرجال، ولهذا قال ـتعالىـ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ...الآية﴾ (الأحزاب: ٣٤).

وآيات الله: براهينه وكتابه، والحكمة: سنة نبيه ﷺ المبينة ما نزل إليه من ربه.

وإنما نهى عن التبرج الجاهلي؛ لأن المتبرجات المتهتكات، الكاسيات العاريات، المائلات المميلات، لا يأتي منهن معلمات ولا مربيات.

ونساء النبي ﷺ إنما وجدن عند النبي لتعليم الأمة وتربيتها، وإرشادها وإسعادها.

٢ـ لما طلبن منه التوسع في الطيبات، وملابس الزينة، والترف في المعيشة نزلت في حقهن آيتا التخيير، وهما قوله ـتعالىـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٢٨ـ٢٩).

لما نزلت هاتان الآيتان بدأ ﷺ بعائشة ـ وكانت أحبهن إليه، كما كان أبوها أعز الرجال عليه ـ فقال: «يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك» قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، ثم خيرهن كلهن فاخترن ما هو خير لهن، اخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

٣ـ أراد نساء النبي ﷺ أن يقمن حيث أقامهن الله ورسوله صالحات مربيات ومعلمات، مرشدات ومفتيات، فاخترن الدار الآخرة ونعيمها الدائم، ورضوان الله الأكبر، على حظوظهن من هذه الحياة الدنيا وزينتها، ومُتعها ومفاتنها، فأثابهن الله كرامة لهن، وجزاء على ما اخترن ورضين بأن قصر نبيه ﷺ عليهن، دون أن يتزوج أو يطلق، أو يستبدل بهن غيرهن، فقال ـ عز شأنه ـ: ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ (الأحزاب: ٥٢).

والحكمة في تحريم تطليقهن هي استدامة سماعهن ما يُتلى في بيوت النبي ﷺ من آيات الله والحكمة، وذِكر ذلك، ونشره بين الناس، لاسيما نساء الصحابة ـرضي الله عنهمـ.

وأيّة فائدة تُرجى لهن أو لغيرهن من طلاقهن وهن أمهات المؤمنين؟ أي تحريماً وتعظيماً على الرجال كالأمهات.

فأنت ترى أنَّ النبي ﷺ قد قُصِر على أزواجه الطاهرات، وحُرِّم عليه أن يمد عينيه إلى غيرهن بالزيادة أو التبدل، بخلاف رجال أمته الذين أبيح لهم التعدد بشروطه، وكذا التطليق، وأن يستبدلوا بأزواجهم غيرهن، إذاً فقد قصر النبي

ﷺ على دائرة ضيقة من الأزواج، وكانت الأمة في دائرة أوسع منها.

أهذا الذي يسمونه تمتعاً بالنساء أو الأزواج؟

نساء كلهن ثيبات ـ عدا السيدة عائشة ـ ومنهن من لها أولاد، تزوجهنَّ ـ صلوات الله عليه ـ في سن الكهولة أو الشيخوخة، وحين الحاجة إلى التبليغ والتعليم، وربما كان التزوج بهن كلهن قبل نزول آية التحديد بأربع نسوة، فهي قد نزلت في السنة الثامنة للهجرة، وكان تزوجه بآخرهن ميمونة بنت الحارث الهلالية في أواخر سنة سبع منها، وحرم عليه تطليقهن؛ لأنهن قد اخترن ما عند الله على زهرة الحياة الدنيا وزينتها، على أنهن قد صرن أمهات المؤمنين، فما الفائدة من طلاقهن وهن حرام على الرجال؟ أوليست الحكمة في بقائهن عند هذا الزوج الكريم، والرسول العظيم متعلماتٍ، ومعلماتٍ، ومُثلاً عليا في البر والتقوى وسائر الصالحات؟ بلى ثم بلى.

سادساً: مقالات في العادات والعبادات

٢٣ الناس والعادات[1] للشيخ علي محفوظ

من العادات الممقوتة: تساهل المسلمين في دخول بعضهم على بعض، واختلاط الرجال بالنساء مع عدم الحجاب.

وهي بدع محرمة بالكتاب والسنة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) ﴾ النور.

فرعايةً لحرمة النساء، وصوناً للأعراض، ومحافظةً على حقِّ المسلم في التمتع بما أباح الله له من الحرية في بيته حرم الله ـ عز وجل ـ على كل مؤمن أن يدخل بيتاً غير بيته قبل أن يستأذن أهله ويسلم عليهم، فإن أذنوا في الدخول دخل وإلا رجع.

وذلك أن كل إنسان في مسكنه له حالات خاصة قد لا يحب أن يطلع عليها أحد من الناس، ولو كان ألصق الناس به وأقربهم إليه.

فلو أبيح للطارق أن يقتحم البيت على أهله من غير استئذان لفاجأهم بما يكرهون، ودهمهم بما يؤلمهم.

وقد يطلع على ربة البيت وهي مكشوفة الرأس عارية بعض البدن، وفي ذلك ـ زيادة على الفتنة له والإيذاء لصاحبه ـ ما لا يخفى من العواقب السيئة

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، الجزء الثاني، المجلد الثاني، ص٧٦ ـ ٨١، ١٣٤٨هـ.

والنتائج المحزنة، ولهذه الحكمة الجليلة بعينها حرمت الشريعة الغرَّاء على الإنسان أن ينظر في بيت غيره قبل الاستئذان، حتى قال الإمام الشافعي ﵀: لو فقئت عينه في هذه الحالة فهي هدر؛ تمسكاً بحديث سهل بن سعد ﵁ قال: اطلع رجل من جحر - ثقب مستدير - في حجرة النبي ﷺ ومع النبي ﷺ مِدْرًى يحك بها رأسه - بكسر الميم وسكون الدال وتنوين الراء حديدة يسرح بها الشعر، وقال الجوهري: شيء كالمسلة يكون مع الماشطة تصلح بها قرون النساء - قال ﷺ: «لو أعلم أنك تنظر لطعنت به - أي المدرى وهو يذكر ويؤنث - في عينيك إنما جعل الاستئذان - أي شُرِع - من أجل البصر - لئلا يقع على أهل البيت ويطلع على أحوالهم -» رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي.

فتحصَّل من هذا أن السرَّ في إيجاب الاستئذان هو صيانة الأعراض، والمحافظة على القلوب وقد وردت السنة بلزوم تكراره ثلاث مرات؛ حتى يتمكن أهل البيت من إصلاح شؤونهم، وستر أمورهم.

ففي الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «الاستئذان ثلاث بالأولى يستنصتون، وبالثانية يستصلحون، وبالثالثة يأذنون أو يردُّون».

وقال ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يؤذن له فليرجع».

ولا تظن أن الاستئذان خاص بالأجانب دون الأقارب؛ فإن الخطاب في الآية عام لجميع المؤمنين فيستوي فيه القريب والأجنبي ويلزم به الأب، والابن، والعم، والخال، جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «أستأذن على أمي؟ فقال: نعم، فقال الرجل: إنها لا تجد من يخدمها غيري أفأستأذن عليها؟ فقال ﷺ: أتحب أن

تراها عريانة؟ قال: لا، قال: فاستأذن» وفي ذلك غاية الأدب والكمال.

وكذلك ألزم الله المملوك أن يستأذن على سيِّده، والصبي الحر على مخدومه في أوقات ثلاث هي مظنة لكشف العورات قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ النور: ٥٨.

وأباح الدخول بدونه فيما عداها للخادم مملوكاً أو صبيّاً، فإذا جاوز الطفل حدَّ الطفولة، وبلغ مبلغ الرجال لزمه الاستئذان على مخدومه في عموم الأوقات كسائر الأجانب قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ النور: ٥٩.

بهذه الآداب العالية أدَّب الله المؤمنين؛ لتظلَّ قلوبهم نقيَّة من دنس الشهوات، سليمة من الضغائن والأحقاد.

وهذا هو السر في أن الشارع الحكيم أمر الرجال والنساء جميعاً بغض البصر، والبعد عن مواطن الشكوك والريب؛ حيث كان النظر بريد الزنا، ورائد الفتنة، ورسول الفساد والفجور.

وحرم على النساء المسلمات أن يظهرن زينتهن، أو يطلعن الرجال الأجانب على شيء من عوراتهن ومحاسنهن؛ لما في ذلك من الفتنة، وانتشار الفاحشة بين المسلمين، ووقوعهم في مقت الله وغضبه قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا

مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ النور: ٣٠ـ ٣١.

فأنت ترى في هذه الآية الحكيمة أن الله ـ تعالى ـ قد حرَّم على الرجال النظر إلى النساء الأجنبيات، وحرَّم على النساء كشف العورات وإظهار الزينات؛ درءاً للمفاسد والفتن، وقطعاً لأطماع النفس الأمارة بالسوء، وحرصاً على سلامة القلوب من الأذى؛ ليدوم الوفاق ويبقى التضامن.

وبهذا يظهر لك السر في أن الدين الإسلامي قد حرَّم على الرجل مسَّ الأجنبية كما حرَّم عليه مخالطتها والخلوة بها؛ لأن الفتنة في هذا أشد، والمفسدة به أعظم، والشر فيه أقرب، روى الطبراني بسند صحيح أن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قال: «لأنْ يُطْعَن في رأس أحدكم بمخيط خير له من أن يمسَّ امرأة لا تحل له».

وروى ـ أيضاً ـ أن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قال: «إياكم والخلوة بالنساء، والذي نفسي بيده ما خلا رجل بامرأة إلا ودخل الشيطان بينهما، ولأنْ يزحم رجلاً خنزير متلطخ بطين أو حمأة خير له من أن يزحم منكب امرأة لا تحلُّ له».

وهو صريح في منع الاحتكاك بالمرأة الأجنبية.

فتبين لك من مجموع هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أن الدين القويم قد جعل بين المسلم وبين الفسوق سدّاً منيعاً من الآداب، وحصناً حصيناً من

الأوامر والنواهي؛ فهل تأدب المسلمون في هذا العصر المفتون بما أدبهم الله به؟ وهل ابتعدوا عما نهاهم الله عنه؟ وهل تحرزوا مما حذرهم رسول الله ﷺ منه؟ وهل عنوا بتعليم نسائهم وبناتهم ما يخصهم من آداب الشرع وأحكام الدين؟ وهل باعدوا بينهم وبين الفجَّار والمفسدين؟.

كل ذلك لم يكن؛ ولذا ترى الشر ينمو والفساد ينتشر، والاختلاط بين الرجال والنساء يزداد يوماً عن يوم، والجهل بدين الله يضرب أطنابه في الأسر الإسلامية حتى أصبحنا ونحن في تدهور أخلاقي، وانحلال اجتماعي ينذرنا بأسوأ العواقب، وأفدح الخطوب.

انظر إلى بيوت الأغنياء تجدها قد زالت من أكثرها الصبغة الإسلامية، وحلّت محلّها العادات الفرنجية التي لا تتفق مع أحكام الدين ومحاسن آدابه في شيء، ولا تلتئم مع العفاف والصيانة بحال من الأحوال.

ترى ربة القصر هناك تخالط خدمَها وحشَمَها وتظهر أمامهم بما أمرها الدين بستره عن الرجال من حليها وزينتها، والسيد الكريم يرى ذلك ولا ينكره ولا يغار له؛ كأن الخادم في نظره جماد لا يهز قلبه سحر الجمال، أو معصوم عن الخنا لا يفتنه النظر إلى ربات الحجال.

ترى سائقي العربات والسيارات وهم يذهبون بالعقائل والمخدرات للرياضة في مختلف الأماكن البعيدة وليس هذا إلا خلوة بالأجنبيات، يعدها الشرع الشريف من كبائر المنكرات.

ثم انظر إلى بيوت المتوسطين والفقراء تجد المرأة تخالط أقارب زوجها، وأولاد

أعمامها، وأخوالها، وأولاد جيرانها، وقد تظهر أمامهم في ثيابها الرقيقة أو القصيرة حاسرة عن رأسها كاشفة عن ذراعيها وصدرها كأنها ليست من جماعة المسلمين.

وربما ظهرت بهذا المنظر الفاضح للسَّقَّاء، واللَّبَّان، والطَّحَّان، والفرَّان، ولباعة الفواكه والخضروات المتجوِّلين في الأزقة والحارات.

وكان حقًّا عليها ـ لو أنها حافظت على آداب دينها ـ أن تحتجب عن هؤلاء وأمثالهم؛ اتقاءً للفتنة، وتباعداً عن الفساد والشر؛ فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، وقبيح أن تكون نساء المسلمين على هذا الحال بعد أن أوجب الله عليهن في كتابه الكريم أن يسترن زينتهن عن أنظار الرجال جميعاً ما عدا أزواجهن، والمحارم من أقاربهن، ومن يأمَنُّ فِتْنَتَه من أتباعهن ومماليكهن، قال ـتعالىـ: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنْ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ (النور: ٣١)

وأقبح من ذلك أن يجترئ الرجال على انتهاك حرمات الله ـ تعالى ـ بالدخول على النساء بعد أن ألزمهم الله ـ عز وجل ـ برعاية الحجاب الذي هو الضمان الوحيد للعفاف والطهارة خصوصاً في هذا الزمان الذي كثر فيه الفسوق والعصيان.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

وقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «إياكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو؟ فقال ﷺ: الحمو الموت» متفق عليه.

استفهم الأنصاري عن الحمو ـ وهو قريب الزوج كأخيه وابن أخيه وابن عمه ـ أيمنع من الدخول على النساء كما يمنع غيره من الأجانب والغرباء؟ فأجابه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأن دخول الحمو على الزوجة أشد بلاءاً وأعظم فتنة من دخول غيره؛ لأنه قد يستخدم صلته بالزوج في تنفيذ مقاصده السيئة، ومآربه الخبيثة، وإن مثله في فك روابط الزوجية وإفساد نظام الحياة المنزلية كمثل الموت في إبطال حركة الأجسام، وتفريق أجزاء الأبدان.

ولقد صدق رسول الله ﷺ فكم شاهدنا من بيوت قد خربت بعد عمرانها، وأُسَرٍ قد اختلت بعد تماسك وَحْدَتِها وحسن نظامها، وكم رأينا من محبة وصفاء قد تحولا إلى عداوة وجفاء، ولم يكن لذلك من سبب إلا اختلاط الأجانب وأقارب الأزواج بالزوجات؛ فهل آن للمسلمين أن يستبدلوا الشك باليقين، ويتبصروا في عاقبة التساهل، ويأخذوا بآداب الدين ويتخلقوا بأخلاقه؟

هل آن لهم أن يفيقوا من سكرتهم، ويتنبهوا من غفلتهم؛ فيعلموا أن فلاحهم موقوف على الرجوع إلى أحكام دينهم، وعلى العمل بسنة نبيهم؟ هدانا الله جميعاً إلى سواء السبيل.

٢٤ فلسفة الصيام[١] لمصطفى صادق الرافعي[٢]

لم أقرأ لأحدٍ قولاً شافياً في فلسفة الصوم وحكمته، أما منفعته للجسم، وأنه

---

(١) وحي القلم ٢/٦٦-٧٢.

(٢) هو الأديب الكبير مصطفى صادق بن عبد الرزاق الرافعي ولد سنة ١٢٩٨هـ ببلدة بهتيم بمحافظة القليوبية بمصر، وقضى شطراً من صباه فيها والتحق بمدرستها الابتدائية.

ثم انتقل أبوه إلى المنصورية فانتقل معه والتحق بالابتدائية هناك، وتخرج فيها سنة ١٣١٥هـ، ثم أصيب بالمرض الذي أضعف صوته، وأفضى بسمعه إلى الصمم؛ فانقطع عن الدراسة، وأقبل على مكتبة أبيه الزاخرة بصنوف الكتب ،وكان أبوه من علماء الأزهر لذا كان مجلسه عامراً بالعلماء والأدباء، ومكتبته زاخرة بنفائس الكتب.

ومن هذه المصادر الثلاثة ـ والده ،مكتبة والده ،مرتادو مجلس والده ـ استقى الرافعي علمه وتحصيله، ثم نقل والده الشيخ عبد الرزاق إلى طنطا قاضياً بمحكمتها، فانتقل معه ابنه مصطفى ، وعُيِّن كاتباً في المحكمة، وكان مثال النشاط والإخلاص في عمله الذي لم يصرفه عن الإقبال على القراءة والكتابة.

انتخب الرافعي للمجمع العلمي بدمشق، وكان منزله ومكتبه ومقهى لمنوس أماكن يرتادها تلامذة الرافعي ومحبوه، يتلقى أسئلتهم، ويجيب عليها بصدر رحب.

ويعد الرافعي في زمانه حامل أدب الأصالة، ورافع راية البلاغة؛ فهو الرجل الذي وقف قلمه وبيانه في سبيل الدفاع عن القرآن ولغة القرآن.

وقد بدأ حياته شاعراً، إلا أنه أقبل على الكتابة في أواخر عمره، وكانت صلته بالصحف مبكرة؛ حيث أقبل عليها يودعها مقالاته وبحوثه التي كان يطرق بها كل ميدان؛ فكان يعالج قضايا المجتمع كالفقر، والجهل، و السفور، والرد على مطاعن أعداء الإسلام.

له مؤلفات عديدة، ومنها: تاريخ آداب العرب، وحديث القمر، ورسائل الأحزان، والسحاب الأحمر، وأوراق الورد، وتحت راية القرآن.

وخير كتبه كتاب وحي القلم، ويقع في ثلاث مجلدات، وكان حصيلة ما كتب في مجلة الرسالة، وله مؤلفات عديدة غيرها، وقد ضاع كثير مما كتب بسبب رداءة خطه، توفي رحمه الله عام ١٣٥٦هـ.

نوعٌ من الطب له، وبابٌ من السياسة في تدبيره ـ فقد فرغ الأطباءُ من تحقيق القول في ذلك؛ وكأن أيام هذا الشهر المبارك إن هي إلا ثلاثون حبَّةً تؤخذ في كل سنة مرةً؛ لتقوية المعدة، وتصفية الدم، وحياطة أنسجة الجسم.

ولكنا الآن لسنا بصدد من هذا، وإنما نستوحي تلك الحقيقة الإسلامية الكبرى التي شرعت هذا الشرع لسياسة الحقائق الأرضية الصغيرة، عاملةً على استمرار الفكرة الإنسانية فيها، كي لا تتبدَّل النفس على تغير الحوادث وتَبَدُّلها، ولكيلا تجهل الدنيا معانيَ الترقيع إذا أتت على هذه الدنيا معاني التمزيق.

من معجزات القرآن الكريم أنه يدَّخر في الألفاظ المعروفة في كل زمن حقائق غير معروفة لكل زمن، فيجليِّها لوقتها حين يضجُّ الزمانُ العلميُّ في متاهته وحيرته، فيشغَب على التاريخ وأهله مُسْتَخِفّاً بالأديان، ويذهب يتتبع الحقائق، ويستقصي في فنون المعرفة؛ ليستخلصَ من بين كفرٍ وإيمان ديناً طبيعياً سائغاً، يتناول الحياة أوَّل ما يتناول، فيضبِطها بأسرار العلم، ويوجهها بالعلم إلى غايتها الصحيحة، ويضاعف قواها بأساليبه الطبيعية؛ ليحقّق في إنسانيته العالَم هذه الشيئية المجهولة التي تتوهمُها المذاهب الاجتماعية، ولم يهتد إليها مذهبٌ منها ولا قاربها؛ فما برحت سعادة الاجتماع كالتجربة العلمية بين يدي علمائها: لم يحققوها، ولم ييأسوا منها، وبقيت تلك المذاهب كعقارب الساعة في دورتها: تبدأ من حيث تبدأ، ثم تنتهي لا تنتهي إلاَّ إلى حيث تبدأ....

يضطرب الاشتراكيون في أوربا وقد عجزوا عجزَ مَنْ يحاول تغيير الإنسان بزيادة ونقص في أعصابه، ولا يزال مذهبهم في الدنيا مذهبَ كتب ورسائل، ولو

أنهم تدبروا حكمة الصوم في الإسلام، لرأوا هذا الشهر نظاماً علمياً من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة؛ فهذا الصوم فقرٌ إجباري تفرضه الشريعة على الناس فرضاً؛ ليتساوى الجميع في بواطنهم، سواء منهم من ملك المليون من الدنانير، ومن ملك القرش الواحد، ومن لم يملك شيئاً، كما يتساوى الناس جميعاً في ذهاب كبريائهم الإنسانية بالصلاة التي يفرضها الإسلام على كل مسلم، وفي ذهاب تفاوتهم الاجتماعي بالحج الذي تفرضه على من استطاع.

فقر إجباري يراد به إشعار النفس الإنسانية بطريقة عملية واضحة كل الوضوح أن الحياة الصحيحة وراء الحياة لا فيها، وأنها إنما تكون على أتمها حين يتساوى الناس في الشعور لا حين يختلفون، وحين يتعاطون بإحساس الألم الواحد لا حين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعددة.

ولو حققت رأيت الناس لا يختلفون في الإنسانية بعقولهم، ولا بأنسابهم، ولا بمراتبهم، ولا بما ملكوا، وإنما يختلفون ببطونهم، وأحكام هذه البطون على العقل والعاطفة؛ فمن البطن نكبة الإنسانية، وهو العقل العملي على الأرض، وإذا اختلف البطن والدماغ في ضرورةٍ مدَّ البطن مدَّه من قوي الهضم فلم يُبْقِ، ولم يَذَرْ.

ومن ههنا يتناوله الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب، ويجعل الناس فيه سواء: ليس لجميعهم إلا شعورٌ واحد، وحسٌّ واحد، وطبيعة واحدة، ويُحْكِمُ الأمر؛ فيحول بين البطن وبين المادة، ويبالغ في إحكامه فيمسك حواشيه العصبية في الجسم كله يمنعها تغذيتها ولذتها حتى نفثة من دخينة.

وبهذا يضع الإنسانية كلها في حالة نفسية واحدة، تتلبس بها النفس في مشارق الأرض ومغاربها، ويطلق في هذه الإنسانية كلها صوت الروح يُعَلِّم الرحمة، ويدعو إليها، فَيُشْبِع فيها بهذا الجوع فكرةً معينة هي كل ما في مذهب الاشتراكية من الحق، وهي تلك التي يكون عنها مساواة الغنيّ للفقير من طبيعته، واطمئنان الفقير إلى الغني بطبيعته.

ومن هذين: الاطمئنانِ والمساواةِ يكون هدوءُ الحياة بهذه النفسين اللتين هما السلب والإيجاب في هذا الاجتماع الإنساني.

وإذا أنت نزعت هذه الفكرة من الاشتراكية بقيَ هذا المذهب كلُه عبثاً من العبث في محاولة جعل التاريخ الإنساني تاريخاً لا طبيعة له.

من قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم، وهذا بعض السر الاجتماعي العظيم في الصوم؛ إذ يبالغ أشدَّ المبالغة، ويدقق كل التدقيق في منع الغذاء، وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدةً آخرها آخر الطاقة؛ فهذه طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس، ولا طريقة غيرها إلا النكبات والكوارث؛ فهما طريقتان كما ترى: مبصرة وعمياء، وخاصة وعامة، وعلى نظام وعلى فجأة.

ومتى تحققت رحمةُ الجائع الغني للجائع الفقير أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانها النافذ، وحَكَمَ الوازع النفسي على المادة، فيسمع الغني في ضميره صوت الفقير يقول: «أعطني»، ثم لا يسمع منه طلباً من الرجاء، بل طلباً من الأمر لا مفرَّ من تلبيته والاستجابة لمعانيه، كما يواسي المبتلى مَنْ كان في مثل بلائه.

أية معجزة إصلاحية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية؛ التي تقضي أن يُحذَف

من الإنسانية كلها تاريخ البطن ثلاثين يوماً في كل سنة؛ ليحلَّ في محله تاريخ النفس؟

وأنا مستيقنٌ أن هناك نسبةً رياضية هي الحكمة في جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثني عشر شهراً، وأن هذه النسبة متحققة في أعمال النفس للجسم، وأعمال الجسم للنفس، كأنه الشهر الصحيُّ الذي يفرضه الطب في كل سنة للراحة والاستجمام وتغيير المعيشة، لإحداث الترميم العصبي في الجسم.

ولعل ذلك آتٍ من العلاقة بين دورة الدم في الجسم الإنساني، وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل في المحاق، إذ تنتفخ العروق وتربو في النصف الأول من الشهر، كأنها (مدّ) من نور القمر ما دام هذا النور إلى زيادة، ثم يراجعها (الجَزْرُ) في النصف الثاني؛ حتى كأن للدم إضاءةً وظلاماً.

وإذا ثبت أن للقمر أثراً في الأمراض العصبية، وفي مدِّ الدم وجزره[1] فهذا من أعجب الحكمة في أن يكون الصيام شهراً قمرياً دون غيره.

وفي ترائي الهلال ووجوب الصوم لرؤيته معنى دقيق آخر، وهو ـ مع إثبات رؤية الهلال وإعلانها ـ إثبات الإرادة وإعلانها، كأنما انبعث أول الشعاع السماوي في التنبيه الإنساني العام لفروض الرحمة، والإنسانية والبر.

وهنا حكمة كبيرة من حكم الصوم، وهي عمله في تربية الإرادة، وتقويتها بهذا الأسلوب العلمي، الذي يدرب الصائم على أن يمتنع باختياره من شهواته

---

(١) قال الجاحظ في الحيوان: «ولزيادة القمر حتى يصير بدراً، أثر بين زيادة الدماء والأدمغة وجميع الرطوبات».

ولذةِ حيوانيته، مُصِرّاً على الامتناع، متهيئاً له بعزيمة، صابراً عليه بأخلاق الصبر، مزاولاً في كل ذلك أفضل طريقةٍ نفسية لاكتساب الفكرة الثابتة ترسخ لا تتغير ولا تتحوَّل، ولا تعدو عليها عوادي الغريزة.

وإدراك هذه القوة من الإرادة العلمية منزلة اجتماعية سامية، هي في الإنسانية فوق منزلة الذكاء والعلم؛ ففي هذين تعرض الفكرة مارَّةً مرورها، ولكنها في الإرادة تعرض؛ لتستقر، وتتحقق؛ فانظر في أي قانون من القوانين، وفي أية أمة من الأمم تجد ثلاثين يوماً من كل سنة قد فُرضت فرضاً لتربية إرادة الشعب، ومزاولته فكرة نفسيةً واحدةً بخصائصها وملابساتها حتى تستقر، وترسخ، وتعود جزءاً من عمل الإنسان، لا خيالاً يمرُّ برأسه مراً.

أليست هذه هي إتاحة الفرصة العلمية التي جعلوها أساساً في تكوين الإرادة؟ وهل تبلغ الإرادة فيما تبلغ أعلى من منزلتها حين تجعل شهوات المرء مُذْعنةً لفكره، منقادة للوازع النفسي فيه، مصرَّفَةً بالحس الديني المسيطر على النفس ومشاعرها؟

أما والله لو عمَّ هذا الصوم الإسلامي أهل الأرض جميعاً لآلَ معناه أن يكون إجماعاً من الإنسانية كلِّها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة؛ لتطهير العالم من رذائله وفساده، ومحق الأثرة والبخل فيه، وطرح المسألة النفسية؛ ليتدارسها أهل الأرض دراسة علميةً مدةَ هذا الشهر بطوله؛ فيهبط كل رجل، وكل امرأة إلى أعماق نفسه ومكامنها؛ ليختبر في مصنع فكره معنى الحاجة ومعنى الفقر، وليفهم في طبيعة جسمه ـ لا في الكتب ـ معاني الصبر والثبات والإرادة، وليبلغ

من ذلك وذلك درجات الإنسانية والمواساة والإحسان؛ فيحقق بهذه وتلك معاني الإخاء، والحرية، والمساواة.

شهرٌ هو أيام قلبية في الزمن، متى أشرفت على الدنيا قال الزمن لأهله: هذه أيام من أَنفسكم لا منْ أيامي، ومنْ طبيعتكم لا منْ طبيعتي، فيقبل العالم كله على حالة نفسية بالغةِ السمو، يَتَعهَّد فيها النفس برياضتها على معالي الأمور، ومكارم الأخلاق، ويفهم الحياة على وجه آخر غير وجهها الكالح، ويراها كأنما أجيعت من طعامها اليومي كما جاع هو، وكأنما أفرغت من خسائسها وشهواتها كما فرغ هو، وكأنما أُلزمت معاني التقوى كما ألزمها هو.

وما أجمل وأبدع أن تظهرَ الحياة في العالم كله ـ ولو يوماً واحداً ـ حاملة في يدها السُّبحة! فكيف بها على ذلك شهراً من كل سنة؟

إنها والله طريقة عملية لرسوخ فكرة الخير والحق في النفس، وتطهير الاجتماع من خسائس العقل المادي، ورد هذه الطبيعة الحيوانية المحكومة في ظاهرها بالقوانين، والمحررة من القوانين في باطنها ـ إلى قانون من باطنها نفسه يُطهِّر مشاعرها، ويسمو بإحساسها، ويصْرِفُها إلى معاني إنسانيتها، ويهذب من زياداتها، ويحذف كثيراً من فضولها، حتى يرجع بها إلى نحو من براءة الطفولة، فيجعلها صافيةً مشرقةً بما يجتذب إليها من معاني الخير والصفاء والإشراق؛ إذ كان من عمل الفكرة الثابتة في النفس أن تدعوَ إليها ما يلائمها ويتصل بطبيعتها من الفِكَرِ الأخرى.

والنفس في هذا الشهر مُحْتَسَبَة في فكرة الخير وحدها؛ فهي تبني بناءها من

ذلك ما استطاعت.

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر، بل هو فصل نفساني كفصول الطبيعة في دورانها، ولهو ـ والله ـ أَشْبَه بفصل الشتاء في حلوله على الدنيا بالجو الذي من طبيعته السحب والغيث، ومن عمله إمداد الحياة بوسائلَ لها ما بعدها إلى آخر السنة، ومن رياضته أنْ يُكْسِبَهَا الصلابة والانكماش والخفَّة، ومن غايته إعداد الطبيعة للتفتح عن جمال باطنها في الربيع الذي يتلوه.

وعجيب جداً أن هذا الشهر الذي يدَّخر فيه الجسم من قواه المعنوية؛ فيودعها مصرف روحانيته؛ ليجد منها عند الشدائد مدد الصبر والثبات والعزم والجلد والخشونة.

عجيب جداً أن هذا الشهر الاقتصادي هو من أيام السنة كفائدة ٨,٥ في المائة، فكأنه يسجل في أعصاب حساب قوته وربحه، فله في كل سنة زيادة ٨,٥ من قوته المعنوية الروحانية.

وسِحْرُ العظائم في هذه الدنيا إنما يكون في الأمة التي تعرف كيف تدَّخر هذه القوة، وتوفِّرها؛ لتستمدها عند الحاجة، وذلك هو سرُّ أسلافنا الأولين الذين كانوا يجدون على الفقر في دمائهم وأعصابهم ما تجد الجيوش العظمى اليوم في مخازن العتاد، والأسلحة، والذخيرة.

كل ما ذكرته في هذا المقال من فلسفة الصوم، فإنما استخرجته من هذه الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٨٣.

وقد فهمها العلماء جميعاً على أنها معنى (التقوى)، أما أنا فأوَّلتُها من (الاتِّقاء)؛ فبالصوم يتقي المرء على نفسه أن يكون كالحيوان الذي شريعته معدته، وألاَّ يُعامل الدنيا إلا بمواد هذه الشريعة، ويتقي المجتمع على إنسانيته وطبيعته مثل ذلك، فلا يكون إنسانٌ مع إنسانٍ كحمارٍ مع إنسان: يبيعه القوة كلها بالقليل من العلف.

وبالصوم يتقي هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه؛ فإنَّ ما بين يديه هو الحاضر من طباعه وأخلاقه، وما خلفه هو الجيل الذي سيرث من هذه الطباع والأخلاق، فيعمل بنفسه في الحاضر، ويعمل بالحاضر في الآتي[1].

وكل ما شرحناه فهو اتقاء ضرر؛ لجلب منفعة، واتقاء رذيلة؛ لجلب فضيلة، وبهذا التأويل تتوجه الآية الكريمة جهةً فلسفيةً عاليةً، لا يأتي البيان ولا العلم ولا الفلسفة بأوجزَ ولا أكملَ من لفظها، ويتوجَّه الصيام على أنه شريعة اجتماعية إنسانية عامة، يتقي بها الاجتماع شرور نفسه، ولن يتهذب العالم إلا إذا كان له مع القوانين النافذة هذا القانون العام الذي اسمه الصوم، ومعناه

---

(١) يفسر القرآن بعضه بعضاً، ومن معجزاته في هذا التأويل الذي استخرجناه، أنه يؤيده بالآية الكريمة في سورة (يس): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يّس: ٤٥، ويشير إلى هذا التأويل قول النبي ﷺ: «إنما الصوم جُنَة فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، إني صائم».

الجنة الوقاية يتقي بها الإنسان، والمراد أن يعتقد الصائم أنه قد صام؛ ليتقي شرَّ حيوانيته وحواسه، فقوله: «إني صائم، إني صائم»، أي إنني غائب عن الفحش والجهل والشر، إني في نفسي، ولست في حيوانيتي.

«قانون البطن» ...

ألا ما أعظمك يا شهر رمضان ! لو عرفك العالم حق معرفتك لسَمَّاكَ: «مدرسة الثلاثين يوماً».



٢٥ لبيك اللهم، لبيك![1] للعلامة محب الدين الخطيب

صوت القدس يصدر اليوم من أفئدة مائة وخمسين ألف مؤمن جمعتهم ساحة عرفات، فدوَّت به أرجاؤها، ورددت صداه جبالها، وحملته الآفاق إلى ثلاثمائة مليون مسلم انتشروا في أنحاء العالم الإسلامي؛ فاشتركوا مع إخوانهم في إرسال هذا الصوت من الأرض إلى السماء؛ إشعاراً بالعروة الوثقى التي عقدها بينهم دين التوحيد، وشكراً لله على ما أنعم به عليهم من نعمة الهدى والرشاد.

إن قلوب المسلمين تتجه اليوم بما فيها من نور وإيمان إلى موقف تجرد الناس فيه لربهم، وتساووا فيه جميعاً، فلا يتميزون بثيابهم، ولا تفرق بينهم مظاهر الدنيا.

وإذا علا بعضهم على بعض بشيء فبمبلغ الإخلاص الذي تصدر به كلمة «لبيك اللهم لبيك» من صميم الفؤاد.

لقد دعانا الله لأن نكون أمة صدق، وإن أعلانا منزلة عند الله والناس من كان أكثرَنا إخلاصاً حين يجيب نداء ربه قائلاً: «لبيك اللهم لبيك».

ولقد دعانا الله لأن نكون أمة سعي، وإن أعلانا منزلة عند الله والناس من كان أقوانا عزيمة حين يجيب نداء ربه قائلاً: «لبيك اللهم لبيك».

ولقد دعانا الله لأن نكون أمة عزيزة بين الأمم، وإن أعلانا منزلة عند الله والناس من كان أكثرنا عملاً لإعزاز هذه الأمة حين يجيب نداء ربه قائلاً: «لبيك

---

(١) الحديقة ٧/ ١٠٦ـ ١١٠، عام ١٣٤٩هـ

اللهم لبيك».

ولقد دعانا الله لأن نكون من أهل الفلاح، وإن أعلانا منزلة عند الله والناس من يذكر أن من واجبه العملَ لفلاح أمته كلما سمع المؤذن يقول: «حي على الفلاح» وكلما تصور هذه المعاني فقال: «لبيك اللهم لبيك».

ولقد دعانا الله لأن نعد ما استطعنا من قوة، وإن أصدقنا إسلاماً من يحاسب نفسه على ما عمل من هذه الناحية، فيذكر ذلك مغتبطاً إذا أجاب نداء ربه فقال: «لبيك اللهم لبيك».

أيها المسلمون، إن الأمر قد حزبكم في أضيق وقت، وإن الأخطار قد حفت بكم من كل جانب، وإن دينكم بريء من كل ما حاق بكم من ذل، وبكل ما نزل بكم من خطب، وبكل ما ابتليتم به من فقر وفاقة وعجز؛ لأن الله قد أرشدكم بهذا الدين إلى أن تكونوا أعز الأمم، وهداكم به إلى ابتغاء الجلادة[1] والسعادة من أقرب الطرق وأشرفها.

فإن كنتم قد فاتكم قبل اليوم أن تعملوا بهدايته، فأدبكم بالمصائب فقولوا مع شاعركم:

جزى الله المصائب كل خير . . . .

وارجعوا إلى ربكم رب الهدى والرشاد، ارجعوا إلى دينكم دين العز والقوة والسداد، انسوا السفاسف التي ألفتموها، وترفعوا عن المنافع الخسيسة التي صرتم لا تقيسون الأمور إلا بمقياسها، وذوبوا في الحق، واكتبوا سجلَّ اليوم

(١) لعلها: الجادة. (م)

الوقفية التي تجعلون بها أشخاصكم وقفاً على عز الإسلام ونهوضاً بالمسلمين؛ فإنكم إن تفعلوا يكتب الله لكم ذلك عنده وعند خلقه في الدرجات العلى، وتكونوا عنده وعندهم أسمى وأكبر مما لو عملتم للمنافع الخسيسة والسفاسف الصغيرة.

وإذن فلن يحول الحول، فيأتي مثل هذا اليوم المبارك من العام القادم حتى تكونوا سائرين في طريق السعادة والسيادة، وتكونوا من أهل الصدق والإخلاص تنادون ربكم: «لبيك اللهم لبيك!».

هيا تعالوا نتعاهد على هذا، ونجعل الله عليه خير الشاهدين.

٢٦ روح المجالس [1] للأستاذ أحمد أمين

لعل للمجالس روحاً كالتي للأفراد، فقد تكون روح المجلس مرحة فكهة، وقد تكون مُتَزَمِّتَةً جامدة، ثم قد تكون أحياناً خفيفة رقيقة، وأحياناً ثقيلةً غليظة، ثم قد تكون أحياناً ضاحكة مستبشرة، وأحياناً عابسة مكتئبة.

وروح المجالس كروح الأفراد، صعبة التعريف، غامضة التعليل، فمن أين تتكون؟ هل تتكون من روح الأفراد الذين يضمهم المجلس؛ فتكون روح المجلس حصيلة روح الأفراد؟

الظاهر أن ليس الأمر كذلك؛ لأنا نرى أن روح المجلس تتأثر أكثر ما تكون بفرد أو فردين؛ لامتيازهما بشخصية قوية أكثر مما تتأثر ببقية الحاضرين؛ فإنا نرى المجلس يحضره نابغة في الفكاهة؛ فتكون روح المجلس فكهة ضاحكة، حتى ليضحك الحاضرون من أتفه شيء وأخف نكتة، ويضفي هذا النابغة على المجلس من روحه حتى تتلاشى كل روح ما عداه.

وقد يكون في المجلس نابغة في العقل أو في التفكير؛ فيصطبغ المجلس كله بروح العقل والتفكير مهما كان فيه من أشخاص قليلي العقل قليلي التفكير.

فليست روح المجلس حصيلة روح الحاضرين إلا إذا قلنا إنها تتكون من الحاضرين، ولكن لا بمقدار واحد، بل بمقدار ما لهم من شخصية قوية أو ضعيفة.

---

(١) فيض الخاطر، ٨/ ١٨٩ ـ ١٩٢.

وتختلف روح المجلس كذلك باختلاف طبائع الحاضرين؛ فالمجلس إذا تكون من نساء فقط كان له روح خاصة غير روح المجلس إذا تكون من رجال فقط، وهما غير روح المجلس يتكون من رجال ونساء، وروح مجلس الصبيان غير روح مجلس الشبان غير مجلس الشيوخ، فكل مجلس يستمد روحه من طبيعة نوع أفراده.

وشيء آخر: وهو أن روح المجلس ليست تعتمد على روح أعضائه فقط، بل على مزاجهم -أيضاً- لذلك نرى أن المجلس قد يضم أفراداً معينين فيكون فكهاً مرحاً مرة، وعابساً مكتئباً مرة أخرى، والحاضرون هم هم، لم يزد عليهم، ولم ينقص منهم، ولكن اختلف مزاجهم، فكان مرَّة مزاجاً فكهاً، ومرَّة مزاجاً عابساً، فاختلفت روح المجلس باختلاف أمزجتهم.

ومن العوامل -أيضاً- في تكوين روح المجلس موضوع الحديث، فقد يثقل الحديث وقد يَخِفّ؛ فتكون روح المجلس ثقيلةً أو خفيفة.

وقد يكون موضوع الحديث خفيفاً لطيفاً؛ فتخف روح المجلس وتلطف.

وأكبر دليل على ذلك أن المجلس قد يتغير حاله، وتختلف روحه مع بقاء الجالسين كما هم لم يزيدوا ولم ينقصوا؛ لتنقلهم في موضوعات مختلفة؛ فقد يثيرون موضوعاً فكهاً يستخرج الضحك من أعماق صدورهم؛ فتستولي على المجلس روحٌ فَكِهَةٌ ضاحكة، ثم ينتقلون إلى حديث ديني وقور فيتوقر المجلس، ويتوقر الروح، وقد ينتقلون بعد ذلك إلى حديث آسف حزين؛ فتحزن نفوسهم، وتتغير روح المجلس إلى روح حزينة، وهكذا...

بل إن مكان المجلس، وزمانه عاملان كبيران في روحه، فإذا كان المجلس في بستان على نهر، والشمس ساطعة، والجو جميل، والمناظر فاتنة ـ اكتست روح المجلس من هذا المنظر واصطبغت بصبغته.

وعلى العكس من ذلك إذا كان المجلس في حجرةٍ ثقيلةٍ في أثاثها، وَخِمَةٍ في هوائها فإن هذا المكان يشع ثقلاً على الروح، وانقباضاً في الصدر، وكذلك شأن الزمان؛ فالسمر لا يحسن إلا ليلاً، فإن أنت عقدت مجلس سمر قبيل الظهر أو بعد الغداء كان المجلس أثقل ما يكون.

كذلك يتحكم في روح المجلس عدد الحاضرين، فالمجلس من اثنين له روح غير روح المجلس من ثلاثة، وللأربعة روح غير روح الخمسة، فإذا زاد العدد زيادة مفرطة ضاعت الروح ولم يعد مجلساً، بل كان جماعة.

بل إن المناظر الطبيعية الجميلة تختلف روح مجالسها، فجلسة القمر تحتاج إلى هدوء وتفكير في الفلسفة، ومنظر البحر الهائج يعدي النفوس؛ فتحتاج إلى مجلس هائج ونفوس متحركة، وكذلك قل في منظر الزرع والشجر، أو قمم الجبال، أو طلوع الشمس، أو غروبها في البحر؛ فكلٌّ من هذا لا يناسبه إلا منادمة خاصة، وحديث خاص، وإلا فسد الطعم وساء الذوق.

وكما تموت روح الفرد قد تموت روح المجلس، فقد ترى جماعة اتخذوا شكل مجلس، ولكنه مجلس بلا روح، كمجلس لا تعارف بين أصحابه، أو هم متعارفون ولكنهم متناكرون، أو هم متعارفون متحابون ولكن انقبضت صدورهم لسبب ما؛ فنفروا من الحديث ولجأوا إلى الصمت، فإن شئتَ فقل في

هذا المجلس إنه مجلس بارد، وإن شئتَ فقل إنه مجلس ميت.

كل هذا أدركه من قبلنا، ولكن لم يعبروا عنه تعبيراً، فقد أدركوا المعنى الجزئي ولم يدركوا ما نسميه اليوم روح المجلس، والأدب العربي مملوء بهذه النظرات.

ومع ذلك كله فلا تزال روح المجالس يكتنفها الغموض، شأنها شأن روح الأفراد، فقد تتفتح روح الفرد، وتنتعش، وتغمر بالسرور من غير سبب واضح، وقد تنكمش، وتنقبض، ويعلوها الحزن والضيق من غير سبب واضح ـ أيضاً ـ.

كذلك الشأن في روح المجلس، قد يجتمع إخوان على أصفى ما يكونون روحاً وتجانساً وألفة، وتتهيأ جميع ظروف الزمان والمكان ويتنبؤون جميعاً بمجلس سار ممتع، وإذا روح المجلس تنقلب ثقيلة بغيضة كريهة كأسوأ ما يكون.

وقد يخلو المجلس من شروط صفائه ومجلبة سروره، ثم يكون مجلساً ساراً ممتعاً، كل ذلك لأسباب قد تعرف وكثيراً ما تجهل.



سابعاً: مقالات في السياسة والاجتماع

٢٧ الدهاء في السياسة[1] للعلاَّمة محمد الخضر حسين

بدا لي أن تُلْقَى في هذا الاحتفال كلمة ولو على وجه الذكرى، وكان على المكتب أمامي أوراق مبعثرة، فمددت إليها يدي لعلي أجد ما لا يكون في إلقائه على مسامعكم الزكية من بأس، فوقعت يدي على كلمة كنت جمعتها في حال اقتضى جمعها، ورأيتها الآن غير نابية عن هذا المقام، فتفضلوا بسماعها:

الدهاء: جودة الرأي التي تمكن السياسي من أن يدير نظاماً، أو يكشف عن وجه قضية بأسلوب لطيف، فغير الداهية ينبذ إلى الباطل على سواء؛ فتكون الحرب بينهما سجالاً، والداهية ينصب له المكيدة، فيقع كما يقع الأسد في الزبية[2] العميقة، ومن لم يكن داهية لا يمشي إلى الغرض إلاَّ على خط مستقيم، فإذا اعترضته عقبة كؤود وقف في حيرة أو رجع على عَقِبه يائساً، والداهية يسير في خطٍّ منحنٍ أو منكسرٍ ولا يبالي بطول المسافة في جانب الثقة بإدراك الغاية المطلوبة.

يقوم الدهاء على فطرة الذكاء التي هي سرعة تصور المعاني الغامضة، وسهولة نفوذ الفكر إلى المقاصد الخفية.

والإفراط فيه الذي يعد عيباً في صاحب السياسة إنما هو اختطاف صورة الأمر

---

(١) محاضرة في نادي الجمعية الإسلامية، ونشرت في مجلة الهداية الإسلامية الجزء السادس من المجلد الخامس، ص٩٤-١٠٠ وهي -كذلك- في كتاب محاضرات إسلامية للشيخ محمد الخضر ﷺ ص٩٤.

(٢) الزبية: نوع من الحِبالة التي تنصب لصيد الحيوانات.

أو النتيجة من غير تثبيت في مأخذها، أو إحاطة بكنهها؛ إذ الشأن فيمن تضرب أشعة فكره في المعاني البعيدة أول ما يلتفت إليها لا يطيل البحث عن أسرارها أو يستوفي النظر إلى آثارها.

فمن لم ينظر في الشؤون العامة بفكر ثاقب، ضاع من بين يديه كثيرٌ من المصالح، ووقع في شراك الخداع والمخاتلة، وكم من أمة قضى عليها بَلَهُ زعمائها أن تعيش في هاوية الذل ونكد الحياة.

وإنما استقام ظهر الخلافة لعهد عمر بن الخطاب؛ لأنه كان ـ مع سلامة ضميره وصفاء سريرته ـ نافذَ البصيرة في السياسة، بعيدَ النظر في عواقبها.

قال المغيرة بن شعبة: كان عمر أفضل من أن يَخْدَع، وأَعْقَلَ من أن يُخدَع.

السياسة فنون شتى، والبراعة في كل فن تكون على حسب الأخذ بمبادئه، والدَّرَبَةِ في مسالكه، فهذا خبير بسياسةِ الحرب، وبصيرتُه في السياسة المدنية عشواء، وآخر يدير القضايا، ويجري النظاماتِ بين الأمة في أحكم نسق، فإذا خَرَجْتَ به؛ ليخوض في صلة أمة بأخرى ضاقت عليه مسالك الرأي، وتلجلج لسانه في لُكْنَة، وربما جنح إلى السِلم والحربُ أشرف عاقبة، أو أَذَّن بحرب والصلحُ أقرب وسيلة إلى سعادة الأمة؛ فلابُدَّ للدهاء في فن سياسي من الوقوف على شيء من سننه، إمَّا بتقلب الإنسان في الوقائع بنفسه ومشاهدته لها عن رؤية عين، وهي التجارب الملوَّح إليها بقول أبي تمام:

من لم يُقَد ويطيرَ في خيشومه رهجُ الخميس فلن يقود خميسا

أو بتلقيها على طريق النقل، كدراسة فن التاريخ، أو الكتب المؤلفة في ذلك

الفن من السياسة خاصة.

ولا يملك مزية الدهاء في السياسة، إلا من كان في استطاعته كتمُ تأثراته النفسية من غضب وسرور، ومودَّة وبغضاء، ولهذا يقول الأدباء: إنَّ أحكم بيت قالته العرب:

ولَرُبَّما ابتَسَم الكريمُ من الأذى وفُؤَادُه مِنْ حَرِّه يَتَأَوَّهُ

فأناة الرئيس ورصانته هي المنبع الذي تُسقى منه الأمةُ حريةَ الفكر، والسلَّم الذي تعرج منه إلى الأفق الأعلى من الأمن والسعادة.

تسمح الحكومات الحرة للكتاب والخطباء أن يكشفوا عما في ضمائرهم ويجهروا بآرائهم، وتسيرُ معهم على مبدأ أنَّ الناس أحرار في آرائهم وعواطفهم.

فلا يسألون عنها، أو يؤاخذون بها متى كانت مباينة لمقاصد الرئيس، أو معارضة لمذهبه في السياسة، إلاَّ إذا وضعوا أيديهم في إجرائها، واندفعوا إلى العمل على نفاذها.

تعد الحرية البالغة هذا الحد في حسنات بعض الحكومات الحاضرة، وقد أدار عليها أمراء الإسلام رحى سياستهم منذ ألف وثلاثمائة سنة؛ فهذا معاوية بن أبي سفيان يقول: «والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يشتفي به القائل بلسانه، فقد جعلت له ذلك دبر أذني، وتحت قدمي».

يتلقى الأمراء نقد سياستهم وآرائهم بصدر رحب، وكثير منهم من إذا أنس في الأمة تهيباً كره أن ينقلب ذلك التهيب رهبةً تجرهم إلى إيثار الخَلق على الحق، ويدعوهم إلى ما دعا إليه عمر بن الخطاب في قوله: «أيما رجل عتب علينا في

خلق فليؤذِنِّي» أي فليعلمني.

وكان المأمون يقول لأهل ناديه إذا جارَوه في كلام: «هلاَّ سألتموني لماذا؟ فإنَّ العلم على المناظرة أثبت منه على المهابة».

يطلق الأمراء العادلون للآراء أعنتها؛ لتعرض عليهم في أي صبغة شاءت، ويثقون في هذا التسامح بأن أمامها أفكاراً مستقلة وعقولاً راجحة، فتقبل منها ما كان حقيقة ناصعة، وترد الزائف على عقبه خائباً.

يدور على الألسنة قول ابن خلدون في مقدمة تاريخه: «إنَّ العرب أبعد الأمم عن سياسة الـمُلْك».

يلهج بهذه المقالة بعض الأعجمين رامزين إلى أن العرب لا يليق بهم أن يعيشوا كما يعيش الرجل الرشيد يتصرف في بيته، ويدير مصلحته بنفسه، وتبسط طائفة أخرى النكير على هذا الفيلسوف قائلة: كيف يصف الأمة التي شادت تلك الدولة الكبرى بالبعد عن مذاهب السياسة؟.

والذي ينظر في الفصل المعقود لهذه المقالة من (المقدمة) يجد ابن خلدون يتكلم على الأمة العربية الطبيعية، حيث ذكر أن العلة في بعدهم عن إجادة السياسة اعتيادهم على البداوة، ونفورهم من سلطة القوانين، واحتياج رئيسهم إلى الإحسان إليهم وعدم مراغمتهم، والسياسة تقتضي أن يكون السائس وازعاً بالقهر.

ثم صرح ابن خلدون في هذا الفصل نفسه، بأن هذه الأمة بعد ما طلع عليها الإسلام، وفتح أبصارها في مناهج السياسة العادلة سارت فيها باستقامة، فعظم

ملكها، وقوي سلطانها.

ويوافق ما قاله ابن خلدون من أنَّ العربي بعد مطلع الإسلام غير العربي في عصر الجاهلية أن سعد بن أبي وقاص أرسل نفراً منهم المغيرة بن زرارة إلى «يزدجرد» فدارت بينه وبينهم محاورة أفصح لهم في آخرها عن تعجبه من ظهورهم في هذا المظهر العظيم بعد أن كانوا بمكانة من الجهل، فقال له المغيرة: إن ما وصفت به العرب من الجهل هو حق، إلا أنه قد كان ذلك قبل الإسلام.

وبعد أن انصرفوا قال لقائده رستم: «ما كنت أرى أن في العرب مثل هؤلاء، ما أنتم بأحسن جواباً منهم».

ركبتُ مرة القطار من بَرْلين إلى إحدى قراها القريبة منها، وكان في رفقتي أستاذان من المستشرقين، فأخذا يتحاوران باللسان الألماني، ولم أكن أفقه من هذا اللسان يومئذ شيئاً، ثم أقبل عليَّ أحدهم وقال لي: أليس هكذا يقول ابن خلدون أن العرب لا يعرفون السياسة؟ فقلت له: إنما يصف ابن خلدون العرب في حال جاهليتهم، وقبل أن يهتدوا بهدي الإسلام ويستنيروا بحكمته، فانقطع، وعاد إلى محاورة صاحبه.

ومن نظر إلى العربي في حال جاهليته، رآه مطبوعاً على خصلتين يُطوِّح به الغلو فيهما إلى ما ليس وراءه غاية:

إحداهما: اندفاعه للانتقام ممن هَضَمَ له حقاً، أو مسَّ جانبه بأذى.

وحُسْنُ السياسة يقتضي التأني، والإغضاء عن كثير من الهفوات.

ثانيتهما: إطلاقه لأيدي شيعته وعشيرته، وغضُّ الطرف عنهم إذا أخذهم

الاعتزاز بجاهه، واضطهدوا حق ضعيف لا ينتمي إليه.

والسياسة تنافي الإفراطَ في معاضدة الأشياع والأحلاف، ولا تستقيم مع الانتصار وهم مبطلون.

وقد قاومت الشريعة الإسلامية هاتين الطبيعتين، وجاهدت فيهما حق جهادها، حتى أعدت لسياسة العالم أساتذة مثل عمر بن الخطاب الذي كان لا يراعي في إقامة الحق وكبح الباطل أشد الناس به صلة وأمسَّهم به رحماً.

ومثل معاوية بن أبي سفيان؛ فإنه كان يُرمى بالمطاعن، ويرشق بسهام الإنكار، فيُسرُّها في نفسه، ولا تبدو عليه سورة الغيظ الذي يتخبط كثيراً من المستبدين.

ومن دهاء عمر بن عبد العزيز أنه كان يرى في كثير من الأمور مصالح للرعية، ولكن كان يسلك في إجرائها طريقة التمهل والتدريج؛ حَذَرَ أن يثقل عليهم عبؤها، فيطرحوها عن ظهورهم، ويقعوا في عاقبة سيئة.

قال ابنه عبد الملك: «مالك لا تُنَفِّذ الأمور؟»، فقال: «لا تعجل يا بني؛ فإنني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة؛ فيدفعوه، وتكونَ فتنة».

فلا يخرج السياسي عن مجرى الاستقامة حيث يرى في سيرة الأمة عوجاً يتعذر عليه تقويمه بالقوة؛ فيحجم عن مكافحته، ولكن يبذل حكمته في علاج ذلك المبدأ السقيم، حتى يأخذ صحته ولو بعد أمد طويل.

وقد بدأت السياسة في عهد معاوية لا تبالي أن تمر إلى الحق ولو على جسر من الباطل، كما قال زياد في بعض خطبه: قد علمنا أنا لا نصل إلى الحق إلا أن

نخوض في الباطل خوضاً.

ويقول ابن خلدون: «إن العلماء من بين البشر أبعد الناس عن السياسة ومذاهبها».

وذكر في توجيه هذه المقالة، أنهم معتادون في سائر أنظارهم الأمور الذهنية، والأنظار الفكرية لا يعرفون سواها، والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج، وما يلحقها من الأحوال، ويتبعها من الآثار.

وتحقيق هذا أنَّ العلم في نفسه لا يعوق صاحبه أن يدرك الغاية القصوى في السياسة، وإنما العلة التي تَقْعُدَ بالعالم عن البراعة في تدبير الشؤون العامة إنما هي انكبابه وعكوفه على القواعد، وما يتفرع عنها من الأحكام دون أن يضيف إليها الاطلاع على أحوال أهل العصر، ويفحص عما تقتضيه مصالحهم، وتستدعيه حاجتهم، ويغوص على الوقائع؛ فيتفقه في نشأتها، وما تصير إليه عاقبتها.

فما قاله ابن خلدون إنما ينطبق على حال العلماء الذين أنفقوا أوقاتهم في القضايا النظرية، ولم يضربوا بسهم في معرفة أسباب العمران وطبائع الاجتماع، وهذه الحالة هي الغالبة على أمرهم في عصر ابن خلدون، وما تقدمه بزمن طويل، ولاسِيَّمَا بعد أن وقفوا دون مرتبة الاجتهاد، وتهاونوا بالشطر الأهم من وظيفتهم وهو الدعوة إلى الإصلاح أينما كانوا.

وأما الذين يُقَدِّرون وظيفتهم حق قدرها، ويقومون بما قلدهم الله من مراقبة سير الأمة وإرشادها إلى وسائل الفلاح عن فكرة سليمة، وألمعية مهذبة ـ فإنهم يسبقون ـ بلا ريب ـ إلى الغاية السامية في السياسة القيِّمة، ولا يكون العلم عثرة

تهوي بهم في البله والجهل بتدبير شؤون الاجتماع، كما يدعي الذين يسمعون أو يسردون مقالة ابن خلدون على غير تدبر وروية.

وكان الوزير التونسي خير الدين باشا يعقد مجالس من علماء جامع الزيتونة، ويلقي على وجه الشورى ما يهمه من المسائل العامة، فيتناوبونها بالبحث والنظر، حتى إذا نطق أحدهم برأي يصيب به المفصل من القضية اهتَزَّ ذلك الوزير ارتياحاً، وضرب يمناه على يسراه قائلاً: لا تتقدم أمة إلا بعلمائها.

٢٨ القضاء العادل في الإسلام[1] للشيخ العلامة: محمد الخضر حسين

أحاط الإسلام بضروب السعادة هداية وتعليماً ، فدل على كل ضرب منها دلالة تقوم بها الحجة ، وتَقْطَع عن الناس عُذْرَ الجهلِ به.

وله في هدايته درجات، فقد يرشد إلى الشيء دون أن يلهج به، أو يُلْحِفَ في الترغيب فيه، حيث يكون سهل المأخذ على النفس، أو يكون في طبيعة البشر ما يسوق إليه، كإحسان الوالد لولده، والسعي في الأرض؛ لابتغاء الرزق.

وقد يكون في الأمر ثقل على النفس، وصرف لها عن بعض شهواتها، فلا تكاد تقبل عليه إلا بعزم صميم، ونظر في العواقب بعيد، كإقامة الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد.

وهذا ما يأمر به المرة بعد الأخرى، ويسلك في الدعوة إليه أساليب شتى؛ حتى يأخذ إليه النفوسَ على تفاوت هممها، واختلاف رغائبها، وكذلك ترى مسلكه في الدعوة إلى العدل في القضاء.

يتقدم الخصمان إلى القاضي وكثير ما يجد في نفسه ميلاً ـ شديداً أو ضعيفاً ـ إلى أحدهما، يميل إليه؛ لنحو قرابة، أو صداقة، أو وجاهة، أو غنى، أو يميل إليه؛ لأنه فقير، أو ضعيف، أو خصم لمن يناوئه .

وقلما استطاع القاضي في هذه الأحوال أن يضع الخصمين من نفسه في درجة واحدة إلى أن يفصل في القضية بما أراه الله من الحق.

---

(١) رسائل الإصلاح ١/٢٨ـ٣٧.

تلك العواطف التي تثور في القاضي حال النظر في القضية هي في حكم المعفو عنه إلا أن يكون لها في رجحان أحد الخصمين على الآخر أثرٌ غيرُ ما تقتضيه البينةُ، وأصولُ الحُكْمِ.

شأنُ تلك العواطفِ أن تجاذبَ القاضيَ، وتناجيَه أن يَنْحُوَ بالحكم نحوَ منفعةِ المعطوف عليه، وعلى قدر العطف تكون هذه المجاذبة والمناجاة، ومتى قَوِيتا في نفس لا تخاف مقَام ربِّها، ولم تكن على بصيرة مما في لباس العدل من زينة وفخار ـ نبذت الحق وراء ظهرها، وانحدرت مع عاطفتها إلى هاوية الظلم، وما هاوية الظلم إلا حفرة من النار.

هذه العواطف التي تجاذب القاضي، وتناجيه أن يُرْضِيَ خصماً بعينه تجعل العدل في القضاء من قبيل ما يثقل على النفس، ويجمح عنه الطبع؛ فكان من حكمة الدعوة الإسلامية أن تُعْنى به عنايةً صافية، وتَدْخُلَ إلى الترغيب فيه من أبواب متعددة.

عُنيت الشريعةُ بالعدل في القضاء عنايتَها بكل ما هو دَعامةٌ لسعادة الحياة؛ فأتت فيه بالعظات البالغات: تُبَشِّرُ مَنْ أَقامَه بعلو المنزلة، وحسن العاقبة، وتُنْذِرُ مَنِ انحرف عنه بسوء المنقلب، وعذاب الهون.

فمن الآيات المنبهة لما في العدل من فضل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

فقد أمر بالعدل، ونبه على أن خيراً عظيماً ينال الحاكم بالقسط هو محبة الله له، وما بعد محبة الله إلا الحياة الطيبة في الدنيا والعيشة الراضية في الأخرى.

ومن الأحاديث الدالة على ما يورثه العدل من شرف المنزلة عند الله ـ تعالى ـ قوله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ـ عز وجل ـ وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[١].

وفي ذكر «الرحمن» تربية للرجاء والثقة بأنَّ الحاكم العادل يجد من النعيم ما تشتهيه نفسه، وتلذه عينه، شأن مَنْ يكون قريبَ المنزلة من ذي رحمةٍ وسعت كلَّ شيء.

وإن شئتَ مثلاً من آيات الوعيد فانظر قوله ـتعالىـ: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

تجد الآية تنادي بأن الفَصْلَ في القضايا جرياً مع الأهواء ضلالٌ عن سبيل الله، والضلال عن سبيل الله مُلْقٍ في شديد العذاب.

ومن ذا الذي يستخف بعذاب وصفه الكبير المتعال بالشدة، ويشتريه بمتاع من هذه الحياة؟ إلا من سفه نفسه، ولم ينفذ الإيمان إلى سويداء قلبه.

فلهذه الآية أثر بليغ في النفوس المطمئنة بالإيمان، كان أحمد بن سهل جاراً لقاضي مصر بكار بن قتيبة، فحدث أنه مرَّ على بيت بكار في أول الليل، فسمعه يقرأ هذه الآية، قال: ثم قمت في السحر فسمعته يقرؤها ويرددها؛ فلا عجب أن يكون بَكَّارٌ هذا من أعدل القضاة حكماً، وأشرفهم أمام أولي الأمر موقفاً.

ومن الأحاديث الواردة في الوعيد على الجور في القضاء قوله ﷺ: «من ولي

---

(١) صحيح الإمام مسلم.

من القضاء فقد ذبح بغير سكين»[١]

ففي هذا الحديث تمثيل القاضي إذ يلاقي جزاءه في الآخرة بأشد الناس عذاباً في هذه الحياة، وهو المذبوح بغير سكين.

وهذا حالُ مَنْ يكون حظُّه من علم القضاء بخساً، أو يكون خلق العفاف في نفسه واهياً.

ويصح حمل الحديث على معنى الإشارة إلى صعوبة القضاء، حتى كأن القاضي مِنْ أجلِ ما يلاقيه مِنْ تَعَرُّفِ الحق وتنفيذه مِنْ مكاره ومجاهدةٍ للأهواء - مذبوحٌ بغير سكين.

وهو بعد هذا مُشْعِرٌ بسمو منزلة القضاء؛ إذ كان القاضي العادل يضاهي القتيل في سبيل الله بما انقطع عنه من شهوات، وقاساه من آلام؛ يبتغي أجر الله، والله عنده أجر عظيم.

ومما جمع بين الوعد والوعيد قوله ﷺ: «القضاة ثلاثة: اثنان في النار، وواحد في الجنة: رجل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار، ورجل عرف الحق وجار في الحكم فهو في النار»[٢]

وَصَفَ هذا الحديثُ عاقبةَ مَنْ يقضي بالحق على بينة منه، وهي المصير إلى الجنة، وآذن بعاقبة مَنْ يقضي على جهل أو جور، وهي المصير إلى النار.

ولا يتناول هذا الوعيدُ العالمَ بأصول الشريعة يجتهد رَأْيَهُ فلا يُصيب الحق،

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجة والحاكم وصححه.

(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم.

ويقضي بما رأى.

قرأ الحسن البصري قوله -تعالى-: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً... الآية ﴾ (الأنبياء:٧٨-٧٩).

وقال: لولا ما ذكر الله من أمر هذين لرأيت أنَّ القضاة هلكوا؛ فإنه أثنى على هذا بعلمه، وعذر هذا باجتهاده.

وصف الإسلام ما في العدل من فوز، وأعلن بما في الحيف من شقاء، وكان قضاؤه ﷺ المثل الأعلى لصيانة الحقوق، والتسوية بين الخصوم، ويكفي شاهداً على هذا أنَّه ﷺ أراد إقامة الحد على امرأة مخزومية سرقت، فخاطبتْ قريشٌ أسامةَ؛ ليكلم رسول الله ﷺ في إسقاط الحد عنها فقال - صلوات الله وسلامه عليه -: «أتشفع في حد من حدود الله»! ثم قام؛ فخطب قال: «يا أيها الناس إنما ضلَّ من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

رسم - عليه الصلاة والسلام - طريقَ العدلِ في القضاء قَيِّمَةً غيرَ ذات عوج، وزادها بسيرته العملية وضوحاً واستنارة؛ فاستبانت لأصحابه في أجلى مظهر، فاقتدوا بهديها الحكيم، وأروا الناس القضاء الذي يزن بالقسطاس المستقيم؛ انظر إلى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في رسالته إلى أبي موسى الأشعري: «آس[1] بين الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك؛ حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا

---

(١) آس: أي سوِّ بينهم، واجعل كل واحد أُسْوَةَ خصمه.

ييأس ضعيف من عدلك».

كان للإسلام وسيرةِ الذين أوتوا العلم من رجاله أثرٌ في إصلاح القضاء كبيرٌ، ولا تُشْرِقُ المحاكم بنور العدل إلا أن يمسك زمامها رشيدُ العقل، راسخ الإيمان بيوم الفصل.

فتقوى الله تحمل القاضي على تحقيق النظر في كل واقعة؛ حتى يتعرف الحق، ولا يأخذ بأول ما يلوح له من الفهم، وإن تيقنَ أن قضاءَه نافذ، وما له في الرؤساء من مُعَقِّب.

ومن أمراء الأندلس من كان يعزل القاضي متى رأى منه السرعة في فصل القضايا التي تستدعي بطبيعتها شيئاً من التروي؛ إذ يفهم من هذه السرعة عدمَ تَحَرُّجِه من إثم الخطأ في الحكم.

وتقوى الله هي التي تقف القاضي في حدود العدل: لا يخرج عنها قيد أنملة في حال.

قيل للقاضي إسماعيل بن إسحاق المالكي: ألا تؤلف كتاباً في أدب القضاء؟ فقال: «اعدل، ومد رجليك في مجلس القضاء، وهل للقاضي أدب غير الإسلام؟».

وفي سيرة أبي عبدالله محمد بن عيسى أحد قضاة قرطبة أنه «التزم الصرامة في تنفيذ الحقوق، والحزامة في إقامة الحدود، والكشف عن البيان في السر، والصدع بالحق في الجهر، ولم يهب ذا حرمة، ولا داهنَ ذا مرتبة، ولا أغضى لأحدٍ من أرباب السلطان وأهله، حتى تحاموا حِدَّةَ جانبه، فلم يجسر أحدٌ منهم عليه».

ونقرأ في وصف إبراهيم بن أبي بكر الأجنادي أحد قضاة مصر أنه «كان لا يَقْبَلُ رسالة ولا شفاعة، بل يصدع بالحق، ولا يولي إلا مستحقاً».

وامتُحِنَ عبدُالله بن طالب ـ أحد قضاة القيروان ـ فكان يقول في سجوده وهو في السجن «اللهم إنك تعلم أني ما حكمت بجور، ولا آثرتُ عليك أحداً من خلقك، ولا خفت فيك لومة لائم».

ووصف المؤرخون محمد بن عبدالله بن يحيى ـ أحد قضاة قرطبة ـ بأنه «لم يداهن ذا قدرة، ولا أغضى لأحد من أصحاب السلطان، ولم يطمع شريف في حيفه، ولم ييأس وضيع من عدله، ولم يكن الضعفاء قطُّ أقوى قلوباً ولا ألسنة منهم في أيامه».

ومن القضاة العادلين مَنْ تُطْرح بين يديه قضية يدلي فيها أحد الخصمين بشهادة الخليفة نفسه، فيرد الشهادة في غير مبالاة، شهد السلطان با يزيد عند شمس الدين محمد بن حمزة الفناري قاضي الأستانة في خصومة رُفعت إليه، فرد القاضي الشهادة، ولما سأله السلطان عن وجه ردها قال له: إنك تارك للجماعة، فبنى السلطان عند قصره جامعاً، وعين لنفسه فيه موضعاً، ولم يترك الجماعة بعد ذلك.

ورفعت قضية إلى محمد بن بشير قاضي قرطبة أحد الخصمين فيها سعيد الخير عم الخليفة عبدالرحمن الناصر، وأقام سعيد بيِّنةً أحدُ شهودِها الخليفةُ نفسه، ولما قدم كتاب شهادة الخليفة إلى القاضي نظر فيه ثم قال لوكيل سعيد: «هذه شهادة لا تعمل عندي فجئني بشاهد عدل».

فمضى سعيد إلى الخليفة، وجعل يغريه على عزل القاضي، فقال الخليفة: «القاضي رجل صالح لا تأخذه في الله لومة لائم، ولست ـ والله ـ أعارضه فيما أحتاط به لنفسه ولا أخون المسلمين في قبض مثله».

ولما سُئل ابنُ بشير عن رد شهادة الخليفة قال: «إنه لا بد من الأعذار في الشهادة، ومن الذي يجترئ على القدح في شهادة الأمير إذا قبلت! ولو لم أعذر لبخست المشهود عليه حقه».

فالإسلام يلقن القاضي أنه مستقل ليس لأحد عليه من سبيل، وقد قص علينا التاريخ أنَّ كثيراً من القضاة العادلين كانوا لا يتباطؤن أن يحكموا على الرئيس الذي أجلسهم على منصة القضاء حكمهم على أقصر الناس يداً، وأدناهم منزلة.

قال ابن عبدالسلام يصف القضاة العادلين: «وربما كان بعضهم يحكم على من ولاه، ولا يقبله إن شهد عنده».

وقال المقري يصف القضاء في الأندلس: «أما خطة القضاء في الأندلس فهي أعظم الخطط عند الخاصة والعامة؛ لتعلقها بأمور الدين وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضي».

وحكم ابن بشير قاضي قرطبة على الخليفة عبدالرحمن الناصر في قضية رفعها عليه أحد المستضعفين من الرعية، وأبلغ الخليفة الحكم مقروناً بالتهديد بالاستقالة من القضاء إذا لم يُسلِّم الحكم، ويبادر إلى تنفيذه.

ومن القضاة العادلين مَنْ يرمي بالمنصب في وجه الدولة إذا أخذ بعض رجالها

يتدخل فيما يرفع من خصومات، فعل هذا إبراهيم بن إسحاق قاضي مصر حين تخاصم إليه رجلان، وأمر بكتابة الحكم على أحدهما، فتشَفَّع المحكوم عليه إلى الأمير، فأرسل إليه الأمير يسأله الرجوع، فقال: لا أعود إلى ذلك أبداً، ليس في الحكم شفاعة.

وفعل هذا برهان الدين بن الخطيب بن جماعة أحد قضاة مصر، عارضه محب الدين ناظر الجيش في قضية، فقال: لا أرضى أن أكون تحت الحجر، وصرف أتباعه، وصرح بعزل نفسه، وأغلق بابه، فبلغ أمره الملك الأشرف، فانزعج وما زال يسترضيه حتى قبل، واشترط أشياء تلقاها منه بالإجابة.

والرئيس الناصح يكبر القاضيَ الذي يأنس منه استقامة، ويعمل لإرضائه؛ حتى يصرفه عن الاستقالة.

أرسل أبو عبيد قاضي مصر أبا بكر بن الحداد إلى بغداد؛ ليستعفي له عن القضاء، فأبى الوزير علي بن عيسى بن الجراح أن يعفيه وقال: «ما أظنه إلا أنه كره مراقبة هلال بن بدر؛ لأنه شابٌ غِرٌّ لا يعرف قدره؛ فأنا أصرف هلالاً، وأولي فلاناً وهو شيخ عاقل يعرف قدر القاضي».

والرئيس العادل يعجب بالعالم الذي دلته التجربة على استقامته عند الحكم، وتجرده من كل داعية غير داعية ظهور الحق، ويدعوه هذا الإعجاب إلى إقامته قاضياً بين الناس؛ أخذ عمر بن الخطاب ﷺ فرساً من رجل على سوم، فحمل عليه فعطب، فخاصمه الرجل، فقال عمر: اجعل بيني وبينك رجلاً، فقال الرجل: إني أرضى بشريح القاضي، فقال شريح: أخذته صحيحاً سليماً، فأنت

ضامن له حتى ترده صحيحاً سليماً، قال الشعبي -وهو راوي القصة- فكأنه أعجبه؛ فبعثه قاضياً.

ولصعوبة القضاء من ناحية التثبت من الحق أَوَّلاً، والقدرة على تنفيذه ثانياً - أبى كثير من العلماء الأتقياء أن يقبلوا ولايته، ورفضوها بتصميم يخشون أن يعترضهم في التنفيذ ما لا طاقة لهم بدفعه، أو يخشون الزلل عند النظر في بعض النوازل، وتَعَرُّف أحكامها؛ فإن إدراج الوقائع الجزئية تحت الأصول الكلية عسير المدخل؛ لكثرة ما يحوم حوله من الاشتباه؛ فكثير من الجزئيات تحتوي أوصافاً مختلفةً، وكلٌّ وصفٍ ينزع إلى أصل، وقد يكون في الأصل الذي هو أَمَسُّ بالواقعة خفاءٌ لا ينكشف إلا أن يرددَ القاضيْ الألمعيُّ نظره، ويجهد في استكشافه رَوِيَّتَه.

عرض هارون الرشيد على المغيرة بن عبدالرحمن بن الحارث قضاءَ المدينة بجائزة قدرها أربعة آلاف دينار، فأبى، وقال: لأن يخنقني السلطان أحب إلي من القضاء.

ومن العلماء من يأبى قبولها، ويكون الأمير ممن يقدر قدره، ويراه أقدر أهل العلم على القيام بها؛ فيهدده بالعقاب، أو يسومه العذاب؛ ليكرهه على قبولها، ومنهم من يقبلها بعد التهديد البالغ، مثل عيسى بن مسكين أحد الفقهاء بالقيروان؛ عرف الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب من زهده في المناصب أنه يأبى ولاية القضاء، فأحضره وقال له: ما تقول في رجل جمع خلال الخير أردت أن أوليه القضاء، وألم به شعث هذه الأمة فامتنع؟

قال له عيسى بن مسكين: يلزمه أن يلي، قال: تَمَنَّع، قال تجبره على ذلك بجلد، قال: قم فأنت هو، قال: ما أنا بالذي وصفت، وَتَمَنَّع حتى أخذوا بمجامع ثيابه، وثربوا السيف من نحره، فتقدم لها بعد أمر خطير.

ولارتباط سعادة الأمة باستقامة القضاء جاز للرئيس الأعلى متى رأى في أهل العلم من هو أدرى بمسالكه، وأقدر على القيام بأعبائه ـ أن يكرهه على ولايته بالوسائل الكافية، قيل للإمام مالك: هل يُجبر الرجل على ولاية القضاء؟ قال: لا، إلا أن لا يُوجد منه عوض فيُجبر عليه، قيل له: أيُجبر بالضرب والسجن؟ قال: نعم.

وطلب ابن الأغلب أمير القيروان الإمام سحنون لولاية القضاء فامتنع، وبقي نحو سنة يطلبه لها وهو يمتنع، حتى قال له حالفاً: لئن لم تتقدم لها لأقدمن على الناس رجلاً من غير أهل السنة؛ فاضطره هذا الحلف إلى قبولها.

ومن العلماء من يُطلب للقضاء فلا يُجيب إلا على شرط يصعب على رجال الدولة قبوله، ولا يسعهم إلا أن يتركوه، طلبوا أبا محمد بن أبي زيد لقضاء القيروان، وقطعوا دون قبوله كل عذر؛ فشرط عليهم أن يجعلوا لمن بين يديه من الأعوان ما يقوم بكفايتهم من بيت المال بحجة أن من واجب السلطان أن يوصل لكل ذي حقٍّ حقه، وليس على صاحب الحق أن يُعطي من حقِّه شيئاً[1]، فاستكثروا ما يُنفق في هذا السبيل، وتركوه.

---

(١) نص على هذا ابن رشد في كتاب البيان، وعمل القضاة جار على غير هذا وهو أنَّ أجرة العون على طالب الحق.

وإن شئت مثلاً يريك الاعتزازَ بالعلم والزهد في المناصب إلا أن يتيقن السير بها في استقامة ـ فإليك قصةَ زيادِ بن عبدالرحمن: دعاه هشام عندما تولى الخلافة بالأندلس إلى القضاء، فأبى، وبعث إليه الوزراء، فلم يتخلص منهم حتى قال لهم: عليَّ المشيُ إلى مكة إن وليتموني القضاء، وجاء أحد يشتكي بكم ـ لآخذن ما بأيديكم، وأدفعه إليه، وأكلفكم البينة؛ لما أعرفه من ظلمكم؛ فعرفوا أنه سيفعل ما يقول؛ فتركوه.

وعناية الإسلام بالقضاء رَفَعَتْهُ إلى درجة أفضل الطاعات؛ فمن سار فيه على بينة وهدى كانت الأوقات التي يشغلها بالنظر في النوازل، وإعداد الوسائل لساعة الفصل أوقاتاً معمورة بالعمل الصالح، كافلة لصاحبها الكرامة في الدنيا، والفوز في الأخرى.

ولهذا ترى بعض العلماء يتقلدون القضاء، ويأبون أن يأخذوا عليه رزقاً.

ومن هؤلاء العلماء الزاهدين أبو القاسم حماس بن مروان ولاه زيادة الله ابن الأغلب قضاء إفريقية فتولاه وأبى أن يأخذ عليه أجراً «وكانت أيامه أيام حقٍّ ظاهر، وسنة فاشية، وعدل قائم».

وكان سحنون قاضي إفريقية «لا يأخذ لنفسه رزقاً ولا صلة من السلطان، وإنما يأخذ لأعوانه وكتابه من جزية أهل الكتاب».

ومن أبى أخذ الأجر على القضاء فليدخر ثوابه كاملاً عند الله، أو لأنه كان في غنى، وليس في أهل العلم من يكفي كفايته، فتكون ولايته من قبيل القيام بفرض عين، ومن تعين عليه القضاء وهو في بسطة من المال فهو الذي لا يُجيز له

الفقهاء أن يأخذ على ولايته عوضاً.

حقيقةً إن الإسلام بنى القضاء على أسس محكمة، ونظم صالحة، وأخرج للناس قضاة سلكوا إلى العدل في الحكم، والحزم في التنفيذ مسلكاً هو أقصى ما يستطيعه البشر، وأرقى ما يجده الباحث في القديم والجديد؛ فإذا وفقت الدول الإسلامية لأن تربي رجالاً مثل من وصفنا علماً وجلالة ـ أمكنها أن تحتفظ بروح العدل الذي لا يجري إلا على يَدِ مَنْ تفقه في كتاب الله وسنة رسوله، واهتدى بحكمتهما إلى أنَّ الدنيا متاعٌ، وأن الآخرة هي دار القرار.



٢٩ الإسلام والمسلمون[1] للأستاذ أحمد أمين

من البديهي أنه يجب التفريق بين الإسلام في مبادئه وتعاليمه، كما يدل عليه القرآن الكريم، والسنة الصحيحة، وبين أعمال المسلمين من وقت أن اعتنقوا الإسلام إلى اليوم؛ فمن أراد الحكم على الإسلام فليرجع إلى أصوله الأولى، وينظر إلى جوهر تعاليمه ويزنها بميزان الحق والعدل.

ومن الخطأ الفاحش أن يحكم على الإسلام بالمسلمين، فقد يكون الدين صحيحاً، ومعتنقوه خارجين عليه، منحرفين عنه؛ فيكون الخطأ خطأ أصحابه لا خطأه هو، بل أحياناً يكون الدين فاسداً في جوهره وتعاليمه، ويرتقي معتنقوه، فتصدر عنهم أعمال فاضلة، لا تمت إلى دينهم الأصيل بسبب، وإنما هم الذين حوَّروا دينهم، وصاغوه صياغة خيراً مما كانت عليه.

والحق أن الفرق كبير بين الإسلام نفسه، وعمل المسلمين في مختلف العصور، وأكاد أجزم بأن الإسلام لم يحيَ حياة عملية صحيحة طبق مبادئه إلا عصراً قصيراً جداً، وهو عصر الرسالة وما بعدها بقليل، وأما ما عدا هذه الفترة، فقد عاش المسلمون عيشة منحرفة عن الدين، وإن اختلف هذا الانحراف قلةً وكثرةً، أو شدةً وضعفاً.

لننظر قليلاً في أهم عنصر من عناصر الإسلام، وهو التوحيد الذي تبلور في قولنا: «لا إله إلا الله» فهل سار المسلمون عملياً واقتصادياً على هذا المبدأ، وإلى

---

(١) فيض الخاطر، ٩/١ ـ ٥.

أي حد؟.

إنَّ هذا المبدأ يدعو إلى اعتقاد أنه لا يصح تأليه غير الله، وعبادة غير الله.

وأما من عداه من الناس فسواسية لا إله ولا مألوه، قد يختلفون في النسب، وقد يختلفون في الثروة، وقد يختلفون في غير ذلك، ولكنهم كلهم عبيدٌ لله وحده.

ولكن هذه العقيدة بعدم تأليه أحد من الناس، تحتاج إلى جهد جهيد في تطبيقها في الحياة العملية، إنها تحتاج إلى رياضة قوية، تحتاج إلى أن يحتفظ الضعفاء بإيمانهم؛ فلا يركعوا للأقوياء، وتحتاج إلى أن يلجم الأقوياء غرائزهم؛ فلا يحاولوا السيطرة على الضعفاء، وهذا مطلب ليس باليسير، وإن كان هو جوهرَ الإسلام.

ومن أجل هذا كان أسرع الناس إلى الإسلام أكثرهم من الضعفاء، لا من أصحاب السيطرة، كبلالٍ وأمثاله؛ لأنهم وجدوا في الإسلام تحرراً من عبوديتهم لغير الله.

وكان أكبر المعاندين أصحاب السيطرة والتأله من مثل صناديد قريش، فلم يسلموا إلا أخيراً، وبعد عناد طويل، كأبي سفيان بن حرب في مكة، أو إسلاماً ظاهراً بعد أن سدت الأبواب في وجوههم، كعبدالله بن أُبَي في المدينة، وأكبر سبب في تأخرهم، أنهم رأوا الإسلام يُفقدهم تألههم، وعظمتهم، وربوبيتهم.

ولما فتح المسلمون فارس والروم كان أغرب ما استرعى أنظارهم عبادة الرعية لسادتهم؛ لِما وقر في نفوسهم ـ بسبب الإسلام ـ من أنه لا معبود إلا الله.

والقرآن مملوء بلعن الذين اتخذوا سادتهم أرباباً، أو خلعوا القدسية والربوبية

على رؤسائهم الدينيين، وكانت دعوة الإسلام دائماً دعوة إلى عبادة الله وحده، وعدم الاعتراف بربوبية أحد غيره: ﴿يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ آل عمران: ٦٤.

ولذلك حارب الإسلام الاعتزاز بالنسب، والاعتزاز بالجاه، والاعتزاز بالمال؛ لأن كلَّ ذلك من ضروب التأله، والإسلام عدو كلِّ تأله.

ولكن لم يستطع كثير من المسلمين أن يحتفظوا بهذا المبدأ الجليل القويم، وظهر التراجع.

وكلما تقدم الزمن نمت غريزة التأله، كما كان في العصر العباسي وبعده، وبلغ ذلك التأله أوجَه في مثل جنكيز خان، وتيمور لنك، وأشباههما.

إن نظرة الإسلام إلى الألوهية، والدعوة إلى إله واحد يتساوى أمامه الناس جميعاً - تقضي على كل فكرة من شأنها وجود طبقة يكون لها الشفاعة أو الوساطة بين الله وخلقه.

ولكن ما لبث المسلمون أن عادوا إلى سيرتهم الجاهلية الأولى؛ فاتخذوا أصنافاً من الناس شفعاء يستشفعون بهم عند الله، ويتقربون بهم إلى الله، متأثرين بالديانات القديمة.

أما الإسلام نفسه فيدعو إلى أنه لا حجاب بين أي عبد مهما ضعف وبين الله، وقد عاب على النصارى واليهود اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

ولعل السبب في ذلك أن هذه العقيدة الصحيحة ـ عقيدة الإيمان بالله وحده ـ والخضوع له وحده، وعبادته وحده، تحتاج إلى رياضة شديدة في تصفية النفس من الشوائب، والنفوس القوية عادة تعشق التأله والاستعلاء، والنفوس الضعيفة سرعان ما تستسلم، وهذا مشاهد في كل أمة، وفي كل جماعة، وفي كل عصر من عهد أن قال فرعون: «أنا ربكم الأعلى» ومن قبله ومن بعده.

وهؤلاء الأقوياء يتخذون لتألههم أشكالاً وألواناً من المظاهر، فمنهم من يتأله بجنوده وبنوده، وكثرة ماله ونحو ذلك، ومنهم كبار المستبدين في أممهم مثل نابليون، ومثل هتلر وستالين، ومنهم كبار أصحاب رؤوس الأموال في كل أمة، ونحو ذلك، كلهم يتألهون، وكل الناس حولهم تؤلههم، وإن لم يسمِّ الأولون أنفسهم آلهة، وإن لم يسمِّ الآخرون أعمالهم عبادة، ولكن العبرة بالحقيقة لا بالأسماء.

والإسلام يكره هذا التأله بجميع أشكاله وألوانه، والمسلمون ـ مع الأسف ـ في كل عصورهم ما عدا الفترة الأولى لم يخل سلوكهم من تأله من جانب القوة، وعبادة وخضوع من جانب الضعف.

هذه ناحية من نواحي التأله والعبودية، يصح أن نسميها ناحية سافرة، وهناك ناحية أخرى من التأله والعبودية، يصح أن نسميها مُحَجَّبة؛ ذلك أن هناك قوماً لم يكن لهم من قوة السلطان، وكثرة المال والجنود والعصبية ما يمكنهم من الاستعلاء في الظاهر، فبحثوا عن وسائل للاستعلاء من طريق خفي، ولهؤلاء أمثلة كثيرة كالسحرة، والمشعوذين، والدجالين من رجال الدين الذين يدعون

الاتصال بالغيب، والاستمداد من السماء، وأن بينهم وبين الله نسباً، أو بينهم وبين الجن صلة، وأنهم يستطيعون بذلك أن يقربوا إلى الله من يشاؤون، ويحرموا من الجنة من يشاؤون، أو أنهم يستطيعون أن يسيطروا على قوانين الطبيعة في هذا الكون بسحرهم، وتعاويذهم، وتعازيمهم، وما إلى ذلك، كل هؤلاء وأمثالهم لما فقدوا السلطة الظاهرة، والقوة الدنيوية لجؤوا بمكرهم وحيلهم إلى ادعاء سلطة خفية يستمدون منها سلطانهم، ويبسطونها على السذَّج والبُلْه.

وكان من سوء الحظ، وضعف العقل أن قُبِلَتْ دعوتهم، وتألهوا هم الآخرون، وعبدهم أتباعهم؛ فكان في الدنيا مملكتان: مملكة السلطنة المادية، ومملكة السلطنة الغيبية، والناس موزعون في العبادة بين هؤلاء وهؤلاء، وكل هذا حرب على الإسلام في جوهر تعاليمه، وهو الذي ينادي دائماً، ويجعل شعاره دائماً، أن لا إله إلا الله، وأن كلَّ تأله باطل، وأن كل عبادة لغير الله باطلة.

ولكن كم من المسلمين في العصور المختلفة استطاعوا أن يحتفظوا بهذه الوحدانية خالصة لم يشبها شيء من عبادة وتأله.

ومن الأسف أنه في كثير من عصور تاريخ المسلمين تعاونت القوتان، الظاهرة والباطنة، والمادية والغيبية، على إفساد حال المسلمين؛ فتحالف الملوك الظلمة والسلاطين الغاشمة مع الدجالين من رجال الدين، والدجالين من المتصوفين، وأعملوا قوتهم في إفساد عقيدة الوحدانية، وفي تعديد الآلهة وعبادتها، واتخذوا لذلك وسائل لا تحصى، فالسلاطين الغاشمة تحيط مظاهرها بكل أنواع الجبروت

والطغيان، والخطباء والوعاظ يصرفون الناس عن المطالبة بحقوقهم بإفهامهم أن الفقر من الله، والغنى من الله، وليس للجد ولا للعمل أي دخل في الغنى والفقر، وأنَّ ظلم الظالمين إنما هو انتقام من الله لسوء سيرة المسلمين، ونحو ذلك من تعاليم تفسد الروح، وتذل النفس، وتمكن المتألهين من التأله، وتوجه الأذلة إلى عبادة المتأله، ولم يكن هذا من جوهر الإسلام في قليل، ولا كثير.

ولو نحن نظرنا نظرة شاملة لرأينا أن أكثر شرور العالم في الشرق والغرب، وفساد حال الأمم يرجع إلى هذا التأله من جانب، والعبادة والضعف من جانب آخر، فالعلاقاتُ بين الأمم، والحروبُ المتتابعةُ إنما يبعثها في الغالب حبُّ الاستعلاء، أو بعبارة أخرى التألُّه، ومحاولةُ الدولة القوية أن تسيطر على العالم؛ لتكون إلهه، وليكون غيرها عباداً أذلة، وكان كل هذا يزول لو اعتنق الجميع أن لا إله إلا الله.

وبعد فهذا أصل من أصول الإسلام، رأينا كيف انحرف المسلمون عنه، فساء حالهم، وانحط شأنهم، ولعلنا نتبع ذلك ببيان بعض الأصول الإسلامية الأخرى، ونبين كيف عطلت وأهملت، والله الموفق.

٣٠ شرعة الحرب في الإسلام للشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي[1]

من لوازم الحرب سفك الدماء، والدماء في الإسلام محترمة معصومة إلاّ بحقها، وليست عصمة الدماء خاصةً بالمسلمين في حكم الإسلام، بل مِثْلُهم في ذلك ثلاثة أصناف من الكتابيين وهم الذميون الذين استقروا في دار الإسلام وفي ذمته، والمعاهدون الذين استقروا فيها بعهد محدد بأجل، والمستأمنون وهم كل من دخلها بأمان مؤجل أو غير مؤجل؛ فهذه الأصناف دماؤهم معصومة كدماء المسلمين، ولا يجوز للحاكم كيفما كانت سلطته أن يستبيح دم أحدهم إلاّ بحقه.

وأول حق يكتسبه المسلم بإسلامه، أو الذمي ومَنْ معه من الأصناف المذكورة هو عصمة دمه وماله، فإذا سفك دمَ غيره عَدْوًا بغير حق استبيح دمه، ورفعت العصمة عنه بما كسبت يداه، وإذا أخذ مال غيره بغير وجه شرعي أخذ من ماله بقدره من غير زيادة، ولا إجحاف، ولا ظلم.

فالحرب في الإسلام لا تكون إلاّ لمن آذنه بالحرب، أو وقف في وجه دعوته يصدّ عنه المُستَعِدِّين لتلقيها، والإسلام في أعلى مقاصده يعتبر الحرب مفسدة لا تُرْتَكَبُ إلاّ لدفع مفسدة أعظم منها، وأول مفسدة شرعت الحرب لدفعها مفسدة الوثنية، ومفسدة الوقوف في سبيل الدعوة الإسلامية بالقوة.

ولو أن قريشًا لم يقفوا في طريق الدعوة المحمدية، وتركوها تجري إلى غايتها

---

(١) كلمة ألقاها الشيخ من إذاعة صوت العرب بالقاهرة، ٥ جوان ١٩٥٥، وهي منشورة في كتاب: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٥ ـ ٩٢ ـ ٩٤

بالإقناع لما قاتلهم محمد ﷺ ولكنهم بدأوها بالعدوان، والتقبيح، والحيلولة بينها وبين بقيه العرب، والقعود بكل صراط لصد الناس عنها.

ومن اللطائف الحكمية أن القتال لم يشرع في القرآن بصيغة شرع، أو وجب، أو غيرهما من صيغ الأحكام، وإنما جاءت الآية الأولى فيه بصيغة الإذن المشعرة بأنه شيء معتاد في الاجتماع البشري، ولكنه ليس خيرًا محضاً ولا صلاحًا سرمدًا، وإنما هو شر أحسن حالاته أن يدفع شرًا آخر.

ومما وقر في نفوس البشر أ ن بعض الشرور لا تدفع بالخير، ولا تنقصم إلاّ بشر آخر.

وإذا كانت الأحكام على الأشياء إنما هي بعواقبها وآثارها فإن الشر الذي يدفع شرًّا أعظم منه يكون خيراً كقطع بعض الأعضاء لإصلاح بقية البدن، وكقتل الثلث لإصلاح الثلثين كما يؤثر عن الإمام مالك، قال ـ تعالى ـ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ﴾.

ففي قوله ـ تعالى ـ: «يُقَاتَلُونَ» وفي قوله: «بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا» وقي قوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بيان للشروط المسوِّغةِ للحرب في الإسلام تحمل عليها نظائرها في كل زمان.

شرعت الحرب في الإسلام أي أذن فيها بدستور كامل للحدود التي تربطها، وتحدد أولها وآخرها، وتخفف من شرورها، وتكبح النفوس على الاندفاع فيها

إلى الخروج عن الاعتدال، وتعدي الحدود.

وإذا كان الإسلام الذي هو آخر الأديان السماوية إصلاحاً عاماً لأوضاع البشر فإن أحكام القتال فيه إصلاح وتهذيب لمسألة طبيعية فيهم وهي الحرب.

إن أحكام الحرب في الإسلام مثال غريب في تاريخ العالم: ماضيه وحاضره يصور الحرب عذابًا تحفّه الرحمة من جميع جهاته، ويتخلله الإحسان في جميع أجزائه.

ولو وازناها بالقوانين المتبعة في الحروب إلى يومنا هذا، وقارنا أسبابها في الإسلام ببواعثها اليوم لوجدنا الفروق أجلى من الشمس.

ولو لم يكن من مظاهر العدل في الإسلام إلاّ قوانينه الحربية لكان فيها مَقْنَع للمنصفين باعتناقه؛ ذلك أن الحرب تنشأ عادة عن العداوات والمنافسات على المصالحِ الماديةِ، والعداوةُ مِنْ عمل الشيطان يوريها بين أبناء آدم؛ ليرجعوا إلى الحيوانية الضارية التي لا عقل لها، ولا رحمة فيها، ولا عدل معها؛ فجاء الإسلام بتعاليمه السامية المهذِّبة للفطرة، المُشَذِّبة للحيوانية، فحددت أسباب الحرب وأعمالها تحديدًا دقيقًا، وحرمت البغي والعدوان، وقَيَّدتها بقوانين هي خلاصة العدل، ولبابه حتى كأنها عملية جراحية تؤلم دقائق؛ لتترك الراحة والاطمئنان العمرَ كلَّه.

حرم الإسلام التعذيب والتشويه والمُثْلَةَ في الحرب، أوصى بالأسرى خيراً حتى جعل إطعامهم والإحسان إليهم قربة إلى الله، أمر بألا يُقْتَل إلاّ المقاتل، أو المُحَرِّض على القتال، أوالمظاهر على المسلمين، نهى وتوعد عن قتل النساء

والصبيان والشيوخ الهَرْمَى والقَعَدَة والرهبان المنقطعين في الصوامع، نهى عن عقر الحيوان المُنْتَفَع به، نهى عن إتلاف الزرع وإحراق الأشجار وقطعها.

وما وقع ليهود المدينة إنما هو تصرف خاص لحكمة، لا تشريع عام للتشفي والانتقام.

ووصيه أبي بكر رضي الله عنه للجيش هي الكلمة الجامعة في هذا الباب، وهي التطبيق العملي لمجملات النصوص من الكتاب والسنة.

وما نسبة هذه الأحكام والآداب التي جاء بها الإسلام من قبل أربعة عشر قرناً إلى ما يجري في حروب هذا العصر الذي يَدْعُونه عصر النور والعلم والإنسانية والمدنية - إلاّ كنسبة نور النهار إلى ظلمة الليل.

أين ما يرتكب في حروب هذا العصر المدني من تقتيل النساء، وبَقْرِ بطونهن على الأجنة، ومن قتل الصبيان والعجزة، وهدم البيوت بالقنابل الجوية، والمدافع الأرضية على من فيها، ومن هدم المعابد، ومن تسميم المياه والأجواء، وإحراق الناس أحياءً، إلى القنبلة الذرية التي لا تذر من شيء أتت عليه إلاّ جعلته كالرميم؟

أين هذه الموبقات من تلك الرحمة الشاملة التي جاء بها الإسلام؟ **والإسلام يعتبر السلم هو القاعدة**، والحرب شذوذ في القاعدة؛ لأن الإسلام دين عدل، ورحمة، وعمران، وعصمة في ما يسميه علماء الإسلام بالكليات الخمس وهي: الدين، والعقل، والعرض، والمال، والنسب.

والدين هو ملاك التهذيب النفسي، والعقل هو قسطاس الآراء التي تقوم

عليها الحياة، والعِرْض هو مقياس الشرف الإنساني، والمال هو قوام الحياة، والنسب هو مناط الفخر، وملاك القوميات والنظام التفاضلي والتنافس المحمود، فإذا انهارت هذه الكليات ارتكست الإنسانية، وتردت إلى الحيوانية؛ فحاطها الإسلام بحصون من الأحكام المنيعة.

ولحرص الإسلام على السلم جاءت آية الأنفال آمرةً بالجنوح له كلما جنح له العدو؛ حتى لا يُسْبَقَ المسلمون إلى فضيلة.

والإسلام يأمر بالوفاء لذاته، ويجعله من آيات الإيمان، وينهى عن الغدر، ويجعله شعبة من النفاق، يأمر بالوفاء حتى في الحرب التي هي مظنة الترخيص في الأخلاق، والتساهل في الفضائل، يقول ـتعالىـ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾.

ويقول في وجوب انتصار المسلم للمسلم: ﴿إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾، ويقول: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

هذه هي آداب الحرب في الإسلام وأعماله.



٣١ المجاهدون الأولون[1] للعلامة محب الدين الخطيب

في كتاب الإصابة للحافظ ابن حجر (١ : ٥٧٦ ـ ٥٧٧) عن خالد بن سعيد ابن عمرو بن سعيد بن العاص، عن أبيه قال:

لما بويع مروان بن الحكم ـ وكان ذلك سنة ٦٤هـ أي قبل ثلاثة عشر قرناً ـ مرَّ على ماء في البادية لبني جَزْءٍ بن عمرو بن عوف بن كعب بن أبي بكر بن كلاب، وعلى الماء شيخ منهم كبير، فقال له مروان:

كيف أنتم آل جزء؟

فقال الشيخ: بخير؛ أنبتنا الله فأحسن نباتنا، ثم حصدنا فأحسن حصادنا.

قال الحافظ ابن حجر: وكانوا هلكوا في بلاد الروم، في الجهاد.

أما كيف هلكوا قبل ذلك في الجهاد، فقد ذكر مؤرخو الإسلام لمعاً من أخباره. وأنت إذا وقفت على القليل مما ذكروا تجلت لك صورة من صور الكمال الذي كان للمجاهدين الأولين؛ فجمعوا فيه بين الإخلاص لدين الله، وتصريف الشجاعة والفروسية والأموال بل والأهواء باستعمال ذلك كله في سبيل الله.

وكان لهم ـ مع ذلك الكمال ـ نضوجُ العقل، وجمال المنطق، وهما من ميراث القومية العريق في القدم الذي ازدان به سلفنا من العرب، وبه امتاز الإنسان على سائر خلق الله من ذوي الحياة.

وحكاية جهاد آل جزء ـ الذي كان به حصادهم كما قال ذلك الشيخ من

---

(١) مع الرعيل الأول ص٢٠٠ ـ ٢٠٩.

شيوخهم لمروان بن الحكم سنة ٦٤هـ - هي أن زرارة بن جزء الكلابي، انتهى إليه وهو في نجوعه بالبادية سنة ٤٩هـ، أن أمير المؤمنين معاوية يعقد رايات الجهاد لأبطال العرب ومجاهديهم تحت قيادة ابنه يزيد، وأن القبائل تقرع طبولها في كل أفق متجهة إلى دمشق؛ لتأخذ مكانها في فيالق الحملة الكبرى التي ينظم كتائبها في البر وأساطيلها في البحر سفيان بن عوف الأزدي، وأن طائفة من أعلام الصحابة وعلمائهم التحقوا بهذه الحملة جنوداً في سبيل الله، وفي مقدمتهم عبدالله بن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعبدالله بن العباس بن عبدالمطلب - ابن عم النبي ﷺ - وعبدالله بن الزبير بن العوام - حفيد عمة رسول الله، وسبط أبي بكر الخليفة الأول - وأبو أيوب الأنصاري الذي نزل النبي ﷺ ضيفاً عليه في بيته عند هجرته الشريفة من مكة إلى المدينة.

واتفق في ذلك الحين مرور أمير من أمراء البيت المالك بديار آل جزء، وهو الأمير عنبسة بن أبي سفيان أخو الخليفة، فاحتفل آل جزء بمقدمه، وأنزلوه في المقام اللائق به.

ومما أكرم به آل جزء ضيفهم الأمير أن الشاب النبيل عبدالعزيز بن زرارة ابن جزء استعرض أمامه خيلَه بفرسانِها، وإبلَه بركبانِها، ومواشيَه وأموالَه التي جَرَتْ عادة العرب أن يرفقوها بفرسانهم وركبانهم إذا نفروا للقتال؛ فرأى الأمير الأموي من ذلك ما أعجبه، فلما لمح ذلك عبدالعزيز في وجه أخي الخليفة -وكان قد وقف على خبر الحملة التي تجهز في الشام لغزو القسطنطينية- نادى قائلاً -والأمير عنبسة يسمع-: «اللهم إني أشهدك أني حبست نفسي، وأهلي ومالي،

في سبيلك...».

فكانت هذه التضحية في مقام بدلية التجنيد التي كان يبذلها أبناء الوجهاء إلى عهد قريب، ولكن أبناء وجهاء العرب الأولين لم يكونوا يبذلونها؛ ليقعدوا بها عن الجهاد، وليهربوا من كتائبه، ويتخلوا عن حمل أعبائه، واحتمال متاعبه، وتحمل عواقبه في أنفسهم وذويهم، بل لتكون هذه التضحية نوراً يمشي بين يدي دمائهم التي عاهدوا الله على بذلها في سبيله؛ إعلاء لكلمة الحق في آفاق جديدة من آفاق الأرض.

وما كاد ضيفهم الأمير يرحل عن نجعهم متوجهاً إلى دمشق، حتى تجهز شيخ العشيرة زرارة بن جزء أبو عبدالعزيز وركب من باديته قاصداً عاصمة الإسلام الرابضة بين جبل قاسيون وضفاف بَرَدَى، حتى إذا صار بباب معاوية، رأى ازدحام زعماء القبائل عليه، وصعوبة الوصول إليه، فقال لمن كان هناك: «من يستأذن لي اليوم على أمير المؤمنين أستأذن له غداً»!.

أي أنه يستقرض الاستئذان حقاً بحق، ولا يستجديه عفواً بلا مقابل.

وكان زرارة يثق فيما له من مواهب أنها ستنيله الحظوة عند معاوية، وتحله منه في المكان الأقرب، كما كان يثق بأن معاوية يعرف أقدار الرجال، وينزلهم من نفسه ومجلسه ودولته على قدر رجولتهم، وعلى قدر ثقتهم بفضائل أنفسهم، وجودهم للملة بما تحت أيديهم.

فلما أذن له معاوية ودخل عليه، قال: «يا أمير المؤمنين، إني رحلت إليك بالأمل، واحتملت جفوتك بالصبر، ورأيت أقواماً أدناهم منك الحظ، وآخرين

باعدهم منك الحرمان، وليس للمقرب أن يأمن، ولا للمباعد أن ييأس».

ونسب الجاحظ في البيان والتبيين (٣: ٣٧) إلى ابنه عبدالعزيز الفقرة التالية خطاباً لمعاوية، وما علمنا أن عبدالعزيز خطب بين يدي معاوية، وهي بكلام أبيه أشبه، ومعانيها تدل على أنها من تمام الخطبة التي أوردنا منها الفقرة السالفة.

قال: «يا أمير المؤمنين، لم أزل أستدل بالمعروف عليك، وأمتطي النهار إليك، فإذا ألوى بي الليل، فقبض البصر، وعفى الأثر أقام بدني، وسافر أملي، والنفس تلوم، والاجتهاد يعذر، وإذ بلغتك فقطني...».

فأعجب معاوية كلامه، كما أعجبت أخاه عنبسةَ خيلُ ابنهِ عبدالعزيز وإبلُه.

وزرارة بن جزء - أبو هذا الشبل الشهيد الفارس الكريم - معدود من الصحابة.

ونقل أبو عثمان الجاحظ أبياتاً من بليغ شعره قالها حين أتى عمر بن الخطاب في خلافته، وهي:

أتيت أبا حفص ولا يستطيعه	من الناس إلا كالسنان طرير
فوفَّقني الرحمن لما لقيته	وللباب من دون الخصوم صرير
قُرومٌ غَيارى عند باب ممنع	تُنازِعُ مَلْكاً يهتدي وتجور
فقلت له قولاً أصاب فؤاده	وبعض كلام الناطقين غرور

أما الابن المجاهد الشهيد فقد ظلت سيرته على ألسنة الفتيان في البادية يتحدثون بها جيلاً بعد جيل؛ ليقوموا بمثل فضائلها وروائعها بأنفسهم كلما سنحت لهم الفرص.

وقد زار أرضهم بعد ذلك بأمد طويل هارون بن بكار ـ حفيد عبدالله بن الزبير ابن العوام الذي كان زميل عبدالعزيز بن زرارة في حصار القسطنطينية الأول ـ فذكروا له في جملة ما ذكروه من أخلاق عبدالعزيز بن زرارة، وإعلانه التبرعَ بنفسه، وبأهله، وبأمواله بين يدي الأمير عنبسة بن أبي سفيان، ثم وفاءه بهذا العهد أكمل وفاء عرف عن فارس شاعر نبيل.

هذه صورة صادقة لبادية العرب في صدر الإسلام إلى نهاية دولة بني أمية، وهو زمن التابعين والتابعين لهم بإحسان، وهو زمن الخير الذي عمَّت فيه الفتوح، وحدث فيه أعظمُ انقلابٍ في تاريخ الإنسانية؛ لأن دخول الممالك في الإمبراطورية الإسلامية لم يكن معناه الظفرَ والفتحَ كما تفهمه الأمم قبل الإسلام وبعد الإسلام، بل كان معناه تحولَ الأمم عن أنانيتها، وعن باطلها، وعن ضعفها الخلقي وسخافاتها الدينية والعقلية؛ بل عن ألسنتها وقومياتها إلى لسان القرآن وقومية رسوله، والتحاقها بتلاميذ محمد ﷺ وأتباعهم التحاقَ تخلقٍ واندماج، وهو انقلاب لم يسبق له نظير، ولا استطاع أن يأتي بمثله الفاتحون فيما بعد، لا من المسلمين المتأخرين، ولا من الغربيين.

والمجاهدون الذين تم على أيديهم هذا الانقلاب هم أمثال عبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن الزبير، وأبي أيوب الأنصاري، الذين تقدموا بأنفسهم للجهاد في سبيل الله تحت راية معقودة ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكان الأميرَ القائدَ الذي يصلي بالناس، وهو الذي يرجعون إليه في جميع حركاتهم وسكناتهم.

وإذا تجاوزنا هذه الطبقة من علماء الصحابة وأعلامهم نلقى بعدها الطبقة التي

منها أمثال عبدالعزيز بن زرارة بن جزء الكلابي.

وإن الكثيرين من مثقفي المسلمين يعلمون أن من أحداث الدعوة المحمدية الأولى تبرعَ عثمانَ بنِ عفانَ بنفقات جيش العسرة، وتبرعَ إخوانه من كبار الصحابة بكرائم أموالهم، ولكن قلَّ من يعلم منهم أن من أحداث الجهاد الإسلامي الأعظم في زمن التابعين تَبَرُّعَ أمثالِ هذا البدوي النبيلِ القابع في نجعه، المنزوي بين الحمات في الصحراء بكل ما يملك من خيلٍ وإبلٍ ومواشيَ وأموال، بل تبرعه بدمه وبأهله في سبيل الله.

وهذا البدوي المجاهد، وكل عربي تقدم للجهاد معه أو قبله أو بعده، كانوا يعرفون فرق ما بين شمس باديتهم الساطعة الضاحية، وبين جو القسطنطينية التي كان يتجمد ماءُ خليجها في بعض السنين من شدة البرد؛ فتسير الخيول، والعربات، والناس على مائه المتجمد.

ومع ذلك فإن هذه الطبيعة بقسوتها وشدتها لم تستطع أن تصد أبناء البادية، ولا أهل الرفاهة من وجوه أبناء العواصم وفي مقدمتها دمشق عن أن يقدموا أنفسهم ودماءهم في سبيل إعلاء كلمة الحق والخير، تحت كل سماء، وفي دائرة كل أفق؛ لأنهم يرون أن الله الذي أنبتهم فأحسن نباتهم، إنما أكرمهم بالجهاد؛ ليحصدهم في سبيله فيحسن حصادهم.

هذه الأخلاق التي كان عليها المجاهدون الأولون هي التي تمكنوا بها من إسعاد البشر بالإسلام فيما بين نهر الغانج، وجبال الأطلس وتخوم البيرنيه في عشرات قليلة من السنين.

وبتلك الدماء الطاهرة سقى العرب تربة الدنيا، فأينعت بها ثمرات الإسلام.



ثامناً: مقالات في الإصلاح والدعوة إلى الله

٣٢ـ دمعة على الإسلام: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

٣٣ـ الله أكبر: مصطفى صادق الرافعي

٣٤ـ الأذان: للأديب عباس محمود العقاد

٣٥ـ العلماء والإصلاح: للشيخ محمد الخضر حسين

٣٢ دمعة على الإسلام[1] لمصطفى لطفي المنفلوطي

كتب إليَّ أحدُ علماءِ الهند كتاباً يقول فيه: إنه اطلع على مؤلف ظهر حديثاً بلغة (التاميل)، وهي لغة الهنود الساكنين بناقور وملحقاتها بجنوب مدراس... موضوعه: (تاريخ حياة السيد عبد القادر الجيلاني، وذكر مناقبه وكراماته).

فرأى فيه من الصفات والألقاب التي وصف بها الكاتب السيد عبدالقادر، ولقبه بها صفاتٍ وألقاباً هي بمقام الألوهية أليق منها بمقام النبوة؛ فضلاً عن مقام الولاية كقوله: «سيد السموات والأرض» و «النفاع الضرار» و «المتصرف في الأكوان» و «المطلع على أسرار الخليقة» و «محيي الموتى» و «ومبرئ الأعمى والأبرص والأكمه» و «أمره من أمر الله» و «ماحي الذنوب» و «دافع البلاء» و« الرافع الواضع» و «صاحب الشريعة» و «صاحب الوجود التام» إلى كثير من أمثال هذه النعوت والألقاب!

ويقول الكاتب: إنه رأى في ذلك الكتاب فصلاً يشرح فيه المؤلف الكيفية التي يجب أن يتكيف بها الزائر لقبر السيد عبد القادر الجيلاني يقول فيه: «أول ما يجب على الزائر: يتوضأ وضوءاً سابغاً، ثم يصلي ركعتين بخشوع واستحضار، ثم يتوجه إلى تلك الكعبة المشرفة.. وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول:

« يا صاحب الثقلين، أغثني وأمدني بقضاء حاجتي، وتفريج كربتي، أغثني

---

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الموضوعة الكاملة ص٣١١ـ٣١٦.

يا محي الدين عبدالقادر، أغثني يا ولي عبدالقادر، أغثني يا سلطان عبدالقادر، أغثني يا بادشاه عبدالقادر، أغثني يا خوجة عبدالقادر».

«يا حضرة الغوث الصمداني، يا سيدي عبدالقادر الجيلاني، عبدك ومريدك مظلوم عاجز محتاج إليك في جميع الأمور في الدين والدنيا والآخرة».

ويقول الكاتب ـ أيضاً ـ: إن في بلدة (ناقور) في الهند قبراً يسمى «شاه الحميد»، وهو أحد أولاد السيد عبدالقادر ـ كما يزعمون ـ وإن الهنود يسجدون بين ذلك القبر سجودهم بين يدي الله، وإن في كل بلدة من بلدان الهنود وقراها مزار السيد عبدالقادر.. فيكون القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في تلك البلاد والملجأ الذي يلجؤون في حاجاتهم وشدائدهم إليه، وينفقون على خدمته وسدنته، وفي موالده وحضراته ما لو أنفق على فقراء الأرض جميعاً لصاروا أغنياء.

هذا ما كتبه إليَّ ذلك الكاتب، ويعلم الله أني ما أتممت قراءة رسالته حتى دارت بي الأرض الفضاء، وأظلمت الدنيا في عيني، فما أُبصر مما حولي شيئاً؛ حزناً وأسفاً على ما آلت إليه حالة الإسلام بين أقوام أنكروه بعد ما عرفوه، ووضعوه بعد ما رفعوه، وذهبوا به مذاهب لا يعرفها، ولا شأن له بها.

أي عين يجمل بها أن تستبقي في محاجرها قطرة واحدة من الدمع، فلا تريقها أمام هذا المنظر المحزن، منظر أولئك المسلمين، وهم ركَّع سجَّد على أعتاب قبر ربما كان بينهم مَنْ هو خير مِنْ ساكنه في حياته، فأحرى أن يكون كذلك بعد مماته؟!

أي قلب يستطيع أن يستقر بين جنبي صاحبه ساعة واحدة، فلا يطير جزعاً حينما يرى المسلمين أصحاب دين التوحيد أكثر من المشركين إشراكاً بالله؛ وأوسعهم دائرة في تعدد الآلهة وكثرة المعبودات ؟!

لِمَ يَنْقِمُ المسلمون التثليث من المسيحيين؟ لِمَ يحملون لهم في صدورهم تلك المُوجِدَةَ وذلك الضغن؟ وعلام يحاربونهم؟ وفيم يقاتلونهم، وهم لم يبلغوا من الشرك بالله مبلغهم، ولم يغرقوا فيه إغراقهم؟!

يدين المسيحيون بآلهة ثلاثة، ولكنهم يشعرون بغرابة هذا التعدد وبعده عن العقل، فيتأولون فيه ويقولون: إن الثلاثة في حكم الواحد، أما المسلمون فيدينون بآلاف من الآلهة أكثرها جذوع أشجار، وجثث أموات، وقطع أحجار، من حيث لا يشعرون!.

كثيراً ما يضمر الإنسان في نفسه أمراً وهو لا يشعر به، وكثيراً ما تشتمل نفسه على عقيدة خفية لا يحس باشتمال نفسه عليها، ولا أرى مثلاً أقرب من المسلمين الذين يلتجؤون في حاجاتهم ومطالبهم إلى سكان القبور، ويتضرعون إليهم تضرعهم للإله المعبود؛ فإذا عتب عليهم في ذلك عاتب، قالوا: إنا لا نعبدهم، وإنما نتوسل بهم إلى الله، كأنهم يشعرون أن العبادة ما هم فيه، وإن أكبر مظهر لألوهية الإله المعبود أن يقف عباده بين يديه ضارعين خاشعين، يلتمسون إمداده ومعونته، فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الأموات من حيث لا يشعرون.

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد: ليرفع نفوس المسلمين، ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمية، وليعتق رقابهم من رق العبودية، فلا يذل

صغيرهم لكبيرهم، ولا يهاب ضعيفُهم قويَّهم، ولا يكون لذي سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل، وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى، فكانوا ذوي أنفة وعزة، وإباء وغيرة، يضربون على يد الظالم إذا ظلم، ويقولون للسلطان إذا جاوز حده غيرها سلطانه[١]: قف مكانك، ولا تَغْلُ في تقدير مقدار نفسك، فإنما أنت عبد مخلوق لا رب معبود، واعلم أنه لا إله إلا الله.

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد، أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر أخرى فقد ذلت رقابهم، وخفقت رؤوسهم، وضرعت نفوسهم، وفترت حَمِيَّتهم، فرضوا بخطة الخسف، واستناموا إلى المنزلة الدنيا، فوجد أعداؤهم السبيل إليهم، فغلبوهم على أمرهم، وملكوا عليهم نفوسهم وأموالهم ومواطنهم وديارهم؛ فأصبحوا من الخاسرين.

والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءتها إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد وإن طلوع الشمس من مغربها، وانصباب ماء النهر في منبعه أقرب من رجوع الإسلام إلى سالف مجده ما دام المسلمون يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدي الله، ويقولون للأول كما يقولون للثاني: «أنت المتصرف في الكائنات، وأنت سيد الأرضين والسموات».

---

(١) هكذا في الأصل، ولعل الصواب: إذا جاوز حد غير سلطانه...(م).

إن الله أغير على نفسه من أن يسعد أقواماً يزدرونه، ويحقرونه، ويتخذونه وراءهم ظهرياً، فإذا نزلت بهم جائحة، أو ألمت بهم ملمة ذكروا الحجر قبل أن يذكروه، ونادوا الجذع قبل أن ينادوه.

بمن أستغيث؟ وبمن أستنجد؟ ومن الذي أدعوه لهذه الملمة الفادحة؟ أأدعو علماء مصر وهم الذين يتهافتون على «يوم الكنيسة[1]» تهافت الذباب على الشراب؟ أم علماء الآستانة وهم الذين قتلوا جمال الدين الأفغاني فيلسوف الإسلام؛ ليحيوا أبا الهدى الصيادي شيخ الطريقة الرفاعية! أم علماء العجم وهم الذين يحجون إلى قبر الإمام كما يحجون إلى البيت الحرام، أم علماء الهند وبينهم أمثال مؤلف هذا الكتاب؟

يا قادة الأمة ورؤساءها، عَذَرْنا العامة في إشراكها وفساد عقائدها، وقلنا: إن العامي أقصر نظراً، وأضعف بصيرة من أن يتصور الألوهية إلا إذا رآها ماثلة في النصب والأضرحة والقبور، فما عذركم أنتم وأنتم تتلون كتاب الله، وتقرؤون صفاتِه ونعوتَه، وتفهمون معنى قوله -تعالى-: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلا اللَّهُ﴾ (النمل: ٦٥)، وقوله مخاطباً نبيه: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً﴾ (الأعراف: ١٨٨)، وقوله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال: ١٧).

إنكم تقولون في صباحكم ومسائكم وغدوكم ورواحكم:

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

(١) يومٌ يذهب فيه علماء الدين إلى ضريح الإمام الشافعي؛ للتبرك بكنس ترابه.

فهل تعلمون أن السلف الصالح كانوا يجصصون قبراً، أو يتوسلون بضريح؟ وهل تعلمون أن واحداً منهم وقف عند قبر النبي ﷺ أو قبر أحد من أصحابه وآل بيته، يسأله قضاء حاجة، أو تفريج هَم؟ وهل تعلمون أن الرفاعي والدسوقي والجيلاني والبدوي أكرم عند الله، وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين؟

وهل تعلمون أن النبي ﷺ حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل نهى عنها عبثاً ولعباً؟ أم مخافة أن تعيد للمسلمين جاهليتهم الأولى؟

وأي فرق بين الصور والتماثيل وبين الأضرحة والقبور، ما دام كل منها يجر إلى الشرك، ويفسد عقيدة التوحيد؟

والله ما جهلتم من هذا، ولكنكم آثرتم الحياة الدنيا على الآخرة؛ فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم، وانتقاض أمركم، وسلط عليكم أعداءكم يسلبون أوطانكم، ويستعبدون رقابكم، ويخربون دياركم، والله شديد العقاب.



الله أكبر[1] لمصطفى صادق الرافعي

جلستُ وقد مضى هزيعٌ من الليل، أهَيِّئ في نفسي بِناء قصة أُديرُها على فتىً كما أحَبُّ.. خبيث داعر، وفتاة كما أحبَّتْ.. عذراءَ مُتَمَاجِنة، كلاهما قد درس وتخرَّج في ثلاثة معاهد: المدرسة، والروايات الغرامية، والسِّيما، وهو مصري مسلم، وهي مصرية مسيحية، وللفتى هِنَاتٌ وسيئاتٌ لا يتنزَّه ولا يتورَّع، وهو من شبابه كالماء يغلي، ومن أناقته بحيث لم يبْقَ إلا أن تَلْحَقَه تاءُ التأنيث، وقد تشعَّبتْ به فنون هذه المدنية، فرفع الله يده عن قلبه لا يُبالي في أيّ أوْديتها هلَكَ، وهو طِلْبُ نساء، دأْبه التَّجوالُ في طُرقهنّ، يتْبَعُهنَّ ويتعرض لهنّ، وقد أَلِفَتْه الطرق حتى لو تكلَّمتْ لقالت: هذا ضرْبٌ عجيبٌ من عربات الكنس...!

وللفتاة تبرُّجٌ وتهتك، يعبثُ بها العبثُ نفسه، وقد أخرجتْها فنونُ هذا التأنث الأوربي القائم على فلسفة الغريزة، وما يسمّونه (الأدب المكشوف) كما يصوِّره أولئك الكتَّابُ الذين نقلوا إلى الإنسانية فلسفة الشهوات الحرَّة عن البهائم الحرَّة، فهي تبْرُزُ حين تخرج من بيتها، لا إلى الطريق، ولكن إلى نظرات الرجال، وتظهرُ حين تظهر، مصوَّرة لا بتلوين نفسها مما يجوز وما لا يجوز، ولكن بتلوين مرآتها مما يُعْجِبُ وما لا يُعجب.

وكِلا اثنيهما لا يُقيم وزناً للدين، والمسلم والمسيحيُّ منهما هو الاسمُ وحده؛ إذ كان مِن وَضْع الوالدين.

---

(١) وحي القلم ٣١٤/١ كتبها في الأسبوع الأخير من رمضان.

والدِّين حرِّية القيد لا حرية الحرية، فأنت بعد أن تُقيِّدَ رذائلك وضراوتِك وشرَّك وحيوانيتك ـ أنت من بعد هذا حرٌّ ما وسعتْكَ الأرضُ والسماء والفكرُ؛ لأنك من بعد هذا مكمِّلٌ للإنسانيَّة، مستقيمٌ على طريقتها.

ولكن هبْ حماراً تفلْسَفَ وأراد أن يكون حرّاً بعقله الحماري، أي تقرير المذهب الفلسفي الحماريّ في الأدب؛ فهذا إنما يبتغي إطلاقَ حريته، أي تسليطَ حِماريَّتِه الكاملة على كل ما يتصل به من الوجود.

وتمضي قصَّتي في أساليبَ مختلفة تمْتَحِنُ بها فنونُ هذه الفتاة شهوات هذا الفتى، فلا يزال يمشي من حيث لا يصل، ولا تزال تمنعه من حيث لا تردُّه، وما ذلك من فضيلة ولا امتناع، ولكنها غريزة الأنوثة في الاستمتاع بسُلطانها، وإثباتها للرجل أن المرأة هي قوة الانتظار، وقوَّة الصبر، وأن هذه التي تحمل جنينها تسعةَ أشهرٍ في جوفها، تمسكُ رغبتَها في نفسها مدَّةَ حملٍ فكريٍّ إذا هي أرادت الحياة لرغبتها؛ ليكون لوقوعها وتحقُّقها مثل الميلاد المُفرح.

ولكنَّ الميلادَ في قصتي لا يكون لرذيلة هذه الفتاة، بل لفضيلتها؛ فإن المرأة في رأيي ولو كانت حياتُها محدودةً من جهاتها الأربع بكبائر الإثم والفاحشة ـ لا يزال فيها من وراء هذه الحدود كلِّها قلبٌ طبيعتُه الأمومةُ، أي الاتصال بمصدر الخلق، أي كلُّ فضائل العقيدة والدين، وما هو إلا أن يتنبه هذا القلبُ بحادث يتَّصل به فيبلغُ منه، حتَّى تتحوَّلَ المرأةُ تحوُّلَ الأرض من فصلها المقشعرِّ المجدب، إلى فصلها النَّضِرِ الأخضر.

ففي قصتي تُذْعِنُ الفتاة لصاحبها في يوم قد اعترتْها فيه مخافةٌ، ونزلَ بها همٌّ،

وكادتْها الحياةُ من كيدها، فكانت ضعيفةَ النفس بما طرأ عليها من هذه الحالة، وتخلو بالفتى وفكرُها منصرفٌ إلى مصدرِ الغيبِ، مؤمِّلٌ في رحمةِ الله، ويَخْلِبُها الشابُّ خلابةَ رُعُونته وحبِّه ولسانه، فيعطيها الألفاظَ كلَّها فارغةً من المعاني، ويقرُّ بالزواج وهو منطوٍ على الطَّلاق بعد ساعة، فإذا أوشكت الفتاة أن تُصْرَعَ تلك الصرعة دوَّى في الجوّ صوتُ المؤذن: «الله أكبر».

وتُلسعُ الفتاةُ في قلبها، وتتصلُ بهذا القلب رُوحانيةُ الكلمة، فتقعُ الحياةُ السماويةُ في الحياة الأرضية، وتنتبه العذراء إلى أن الله يشْهَدُ عارَها، ويَفْجؤها أنها مُقْدمةٌ على أن تُفْسِدَ من نفسها ما لا يُصلحه المستحيلُ فضلاً عن الممكن، وترنو بعين الفتاة الطاهرة من نفسها إلى جسمِ بغيٍّ ليستْ هي تلك التي هي، وتنظر بعين الزوجة من صاحبها إلى فاسق ليس هو ذاك الذي هو، ويَحْكي لها المكانُ في قلبها المفطور على الأمومة ـ حكايةً تَثُور منها وتشمئزّ، ويصرُخُ الطفلُ المسكينُ صرختَه في أذنها قبل أن يُولد ويُلقى في الشارع...!

الله أكبر! صوتٌ رهيبٌ ليس من لغة صاحبها، ولا من صوته ولا من خسَّتِه، كأنما تُفرغُ السماءُ فيه مِلءَ سحابةٍ على رجسِ قلبها؛ فتُنْقيه حتى ليس به ذرَّةٌ من دَنَسِه الذي ركِبَه الساعة.

كان لصاحبها في حسٍّ أعصابها ذلك الصوتُ الأسود، المنطفئ، المبهَم، المتَلَجلجُ مما فيه من قوَّةِ شهواته، للمؤذِّن صوتٌ آخر في روحها، صوتٌ أحمر، مشتعلٌ كمعمعةِ الحريق، مُجلْجِلٌ كالرعد، واضح كالحقيقة فيه قوَّةُ الله.

سمعتْ صوتَ السلسلة وقعْقَعتَها تُلوى وتُشدُّ عليها، ثم سمعتْ صوتَ

السلسلة بعينها يُكسرُ حديدُها ويتحطَّم.

كانت طهارتُها تختنقُ فنفذتْ إليها النَّسمات، وطارتْ الحمامة حين دعاها صوتُ الجو بعد أن كانت أسفَّتْ حين دعاها صوتُ الأرض، طارت الحمامة؛ لأنَّ الطبيعةَ التفتتْ فيها لفتةً أخرى.

ويُكرِّرُ المؤذِّنُ في ختامِ أذانه: «الله أكبرُ الله أكبر!» فإذا...

وتبلَّدَ خاطري، فوقفتُ في بناء القصة عند هذا الحد، ولم أدرِ كيف يكون جوابُ «إذا...» فتركتُ فكري يعمل عملَه كما تُلْهمه الواعيةُ الباطنة، ونِمْتُ...

ورأيتُ في نومي أنِّي أدخل المسجدَ لصلاة العيد وهو يعُجُّ بتكبير المصلين: «الله أكبر الله أكبر!» ولهم هديرٌ كهدير البحر في تلاطُمِه، وأرى المسجدَ قد غصَّ بالناس فاتَّصلوا وتلاحموا، تجدُ الصفَّ منهم على استوائه كما تجد السطرَ في الكتاب: ممدوداً محتبكاً ينتظمه وضعٌ واحد، وأراهم تتابعوا صفّاً وراء صف، ونَسَقاً على نَسَق، فالمسجد بهم كالسُنْبُلة مُلئتْ حباً ما بين أولها وآخرها، كلُّ حبَّةٍ هي في لِفٍّ من أهلها وشملها، فليس فيهن على الكثرة حبَّةٌ واحدةٌ تُميِّزُها السنبلة فضلَ تمييز، لا في الأعلى ولا في الأسفل.

وأقف متحيِّراً مُتلدِّداً ألتفت ههنا وههنا، لا أدري كيف أخلُصُ إلى موضعٍ أجلس فيه، ثم أمضي أتخطَّى الرِّقابَ أطمعُ في فُرجة أقتحمها وما تنفرج حتى أنتهي إلى الصف الأول، وأنظرُ إلى جانب المحراب شيخاً بادِناً يملأ موضعَ رَجلين، وقد نفحَ منه ريح المسك، وهو في ثيابٍ من سندسٍ خُضر، فلما حاذيته جمعَ نفسَه وانكمش، فكأنما هو يُطوى طيّاً، ورأيتُ مكاناً وسِعني، فحططتُ

فيه إلى جانبه، وأنا أعجبُ للرجل ضاقَ ولم أضيِّق عليه، وأين ذهبَ نصفُه الضخم وقد كان بعضه على بعضه زِيَماً على زِيَم[1]، وامتلاءً على امتلاء.

وجعلتُ أحدسُ عليه ظني، فوقع في نفسي أنه ملَكٌ من ملائكة الله قد تمثَّل في الصورة الآدمية؛ فاكتتم فيها لأمر من الأمر.

وضجَّ الناس: «الله أكبرُ الله أكبر!» في صوتٍ تقشعرُّ منه جلود الذين يخشونَ ربهم، غيرَ أنَّ الناسَ مما أَلِفوا الكلمةَ ومما جهلوا من معناها ـ لا يسمعونها إلا كما يسمعون الكلام.

أما الذي إلى جانبي فكان ينتفضُ لها انتفاضةً رجَّتْنِي معه رجّاً، إذ كنت ملتصقاً به مُناكِباً له، وكأن المسجد في نفْضِه إيَّانا كان قطاراً يجري بنا في سرعة السحاب، فكلُّ ما فيه يرتجُّ ويهتزّ، ورأيتُ صاحبي يذهل عن نفسه، ويتلألأُ على وجهه نورٌ لكل تكبيرةٍ، كأنَّ هناك مصباحاً لا يزال ينطفئ ويشتعل، فقطعتُ الرأيَ أنه من الملائكة.

ثم أقيمتْ الصلاةُ وكبَّر أهل المسجد، وكنت قرأتُ أنَّ بعضهم صلى خلفَ رجلٍ من عظماءِ النفوس الذين يعرفون الله حقَّ معرفته، قال: فلما كبَّرَ قال: «اللهُ...» ثم بُهِتَ وبقيَ كأنه جسدٌ ليس به روح من إجلاله الله ـتعالىـ، ثم قال: «أكبر» يَعْزِمُ بها عزماً، فظننتُ أنَّ قلبي قد انقطع من هيبة تكبيره.

قلتُ أنا: أما الذي إلى جانبي، فلما كبَّر مدَّ صوته مدّاً ينبثق من روحه ويستطير، فلو كان الصوتُ نوراً لملأ ما بين الفجر والضحى.

---

(١) أي كتل على كتل، والزيم المتفرق من اللحم.

وعرفتُ ـ والله ـ من معنى المسجد ما لم أعرف، حتى كأنِّي لم أدخله من قبل، فكان هذا الجالسُ إلى جانبي كضوء المصباح في المصباح، فانكشفَ لي المسجدُ في نوره الروحيّ عن معانٍ أدخلتني من الدنيا في دنيا على حِدَة، فما المسجد بناءاً ولا مكاناً كغيره من البناء والمكان، بل هو تصحيحٌ للعالم الذي يموج من حوله ويضطرب، فإنَّ في الحياة أسبابَ الزَّيغ والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها، وهذه كلُّها يمحوها المسجد إذ يجمعُ الناسَ مراراً في كل يوم على سلامة الصدر، وبراءة القلب، وروحانيَّة النفس، ولا تدخله إنسانيَّة الإنسان إلا طاهرةً منزَّهة مُسْبغةً على حدود جسمها من أعلاه وأسفله شعارَ الطُّهْرِ الذي يُسمَّى الوضوء، كأنما يغسلُ الإنسانُ آثارَ الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد.

ثم يستوي الجميع في هذا المسجد استواءاً واحداً، ويقفون موقفاً واحداً، ويخشعون خشوعاً واحداً، ويكونون جميعاً في نفسيَّةٍ واحدة، وليس هذا وحدَه، بل يَخِرُّون إلى الأرض جميعاً ساجدين لله، فليس لرأسٍ على رأسٍ ارتفاع، ولا لوجه على وجه تمييز، ومن ثَمَّ فليس لِذَاتٍ على ذاتٍ سلطان.

وهل تُحقِّقُ الإنسانيةُ وَحْدَتَها في الناس بأبدعَ من هذا؟ ولعمري أين يجدُ العالمُ صوابَه إلا ههنا؟

فالمسجد هو في حقيقته موضعُ الفكرةِ الواحدةِ الطاهرةِ المصحِّحةِ لكلِّ ما يزيغُ به الاجتماع، هو فكرٌ واحدٌ لكلِّ الرؤوس، ومن ثَمَّ فهو حلٌّ واحدٌ لكل المشاكل، وكما يُشقُّ النهرُ فتقف الأرضُ عند شاطئه لا تتقدم يُقامُ المسجدُ،

فتقف الأرضُ بمعانيها التُّرابيَّةِ خلفَ جدرانه لا تَدْخله.

وما حركةٌ في الصلاة إلا أوَّلُها «الله أكبر» وآخرها «الله أكبر»، ففي ركعتين من كلِّ صلاة إحدى عشرةَ تكبيرةً يجهرُ المصلُّون بها بلسان واحد، وكأني لم أفطن لهذا من قبل، فأي زمام سياسي للجماهير وروحانيَّتها أشدُّ وأوثقُ من زمام هذه الكلمة التي هي أكبرُ ما في الكلام الإنسانيّ؟

ولما قُضيتْ الصلاةُ سلَّمتُ على المَلَك وسلَّم علي، ورأيتُه مقبلاً محتفياً، ورأيتُني أتيراً[1] في نفسه، وجالت في رأسي الخواطرُ فتذكرتُ القصةَ التي أريد أن أكتبها، وأن المؤذنَ يكرر في خاتمةِ أذانه: «الله أكبرُ الله أكبر» فإذا...

وقلت: لأسألنَّه، وما أعظمَ أن يكونَ في مقالتي أسطرٌ يلْهِمها مَلَكٌ من الملائكة! ولم أكدْ أرفعُ وجهي إليه حتى قال:

«... فإذا لطْمَتان على وجه الشيطان، فولَّى مدبراً ولم يُعقِّبْ، ووضعتِ الكلمةُ الإلهيَّةُ معناها في موضعه من قلب الفتاة، فلأياً بِلأيٍ ما نَجَت.

إنَّ الدينَ في نفس المرأة شعورٌ رقيق، ولكنه هو الفولاذ السميكُ الصلبُ الذي تُصفَّحُ به أخلاقُها المدافعة.

الله أكبر! أتدري ماذا تقول الملائكة إذا سمعت التكبير؟ إنها تُنشدُ هذا النشيد:

بينَ الوقتِ والوقتِ من اليوم تدقُّ ساعةُ الإسلام بهذا الرنين: الله أكبرُ الله أكبر، كما تدقُّ الساعةُ في موضع ليتكلمَ الوقتُ برنينها.

---

(١) لعلها: أثيراً (م)

الله أكبرُ! بين ساعات وساعاتٍ من اليوم تُرسلُ الحياةُ في هذه الكلمة نداءها تهتفُ: أيُّها المؤمن! إن كنتَ أصبتَ في الساعات التي مضتْ، فاجتهد للساعات التي تتلو، وإن كنت أخطأتَ، فكفِّرْ وامحُ ساعةً بساعة، الزمن يمحو الزمن، والعملُ يُغيِّرُ العمل، ودقيقةٌ باقيةٌ في العمر هي أملٌ كبير في رحمة الله.

بين ساعات وساعات يتناول المؤمنُ ميزانَ نفسه حين يسمع: الله أكبر، ليعرفَ الصِّحةَ والمرضَ من نيَّتِه، كما يضعُ الطبيبُ لمريضه بين ساعات وساعات ميزانَ الحرارة.

اليومُ الواحد في طبيعة هذه الأرض عُمْرٌ طويلٌ للشر، تكاد كلُّ دقيقة بِشرِّها تكون يوماً مختوماً بليل أسود، فيجب أن تَقسِمَ الإنسانيةُ يومها بعدد قارَّات الدنيا الخمس؛ لأن يوم الأرض صورةٌ من الأرض، وعند كل قسم: من الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء ـ تصحيحُ الإنسانيةُ المؤمنة مُنبِّهةً نفسَها: الله أكبر، الله أكبر!.

بين ساعات وساعات من اليوم يعرِضُ كلُّ مؤمنٍ حسابَه، فيقومُ بين يدي الله ويرفعه إليه، وكيف يكون من لا يزال ينتظر طولَ عمره فيما بين ساعاتٍ وساعاتٍ ـ الله أكبر...؟

بين الوقتِ والوقت من النهار والليل تُدوِّي كلمةُ الروح: الله أكبر، ويجيبها الناسُ: الله أكبر؛ ليعتادَ الجماهير كيف يُقادونَ إلى الخير بسهولة، وكيف يحقِّقونَ في الإنسانية معنى اجتماع أهل البيت الواحد، فتكون الاستجابة إلى كل نداء اجتماعي مغروسةً في طبيعتهم بغير استكْراه.

النفسُ أسمى مِن المادة الدنيئة، وأقوى من الزمن المخرّب، ولا دِيْنَ لمن لا تشمَئِزُّ نفسُه من الدناءة بأَنَفَةٍ طبيعية، وتحمل همومَ الحياة بقوة ثابتة.

لا تضطربوا، هذا هو النظام، لا تنحرفوا، هذا هو النَّهج، لا تتراجعوا، هذا هو النداء، لن يكبرَ عليكم شيء ما دامت كلمتُكم: الله أكبر...!

٣٤ الأذان[١] للأديب عباس محمود العقاد[٢]

أشبهُ الأشياءِ بالدعوة إلى الصلاة دعوةٌ تكون من معدن الصلاة، وتَنِمُّ على صوت من أصوات الغيب المحجَّب بالأسرار: دعوةٌ حيَّة كأنما تجد الإصغاء

---

(١) داعي السماء بلال مؤذن الرسول للعقاد، ص١٤١.

(٢) هو الأديب الكبير عباس بن محمود بن إبراهيم مصطفى العقاد، ولد في اليوم الأول من شهر يوليه سنة ١٨٨٩م كما تقول شهادة الميلاد التي استخرجها من دار المحفوظات، ولكن والدته تقول إنه ولد في ٢٨ من شهر يونيه، وتقول: إنها سجلت مولده يوم التبليغ عنه لا يوم ميلاده.

نشأ بين والدين كريمين مشهورين بالتقى والصلاح.

وتحمل أسرته اسم العقاد اشتقاقاً من صناعة نَسْجِ الحرير وعَقْدِه ـكما يقول هوـ.

تلقى العلم في الابتدائية، وعلى أيدي عدد من أساتذة عصره، اشتغل بوظائف الحكومة وبالتدريس بالمدارس الأهلية، ثم استقال من وظائف الحكومة.

اشتهر بالشعر، والكتابة إلا أن شهرته بالكتابة كانت أكثر، له مؤلفات تزيد على الثمانين، وله مقالات كثيرة جداً في العلم، والأدب والسياسة، وكان ذا صبر وجلد، وقوة بأس خصوصاً في الردود، بل كان يشعر بقوة ونشاط في الأيام التي يكتب فيها مقالات، أو ردود تثير ضجة.

يقول صاحبه الأديب طاهر الجبلاوي :«كان يكتب مقالاته وهو مستلقٍ على ظهره بحجرة نومه، وقلت له ذات يوم: إن مقالاتك أحدثت ضجة في الدوائر الوزارية، فالتفت إليَّ باسماً، وقال: ألا يعلمون أني أكتبها وأنا نائم؟».

ويقول الجبلاوي عنه :«وكان العقاد يتحاشى المسكنات طوال حياته حتى الإسبرين، وأعرف أنه لم يتناول حتى المسكن الخفيف، وقد أجرى عملية جراحية في عينه بغير مخدر».

وكانت له معارك أدبية، وصولات وجولات مع طه حسين والرافعي وغيرهما، توفي في ١٢ مارس سنة ١٩٦٤م، وقد كُتبت عنه كتابات ودراسات عديدة، ومن أظرفها، وأطرفها ما كتبه صديقه طاهر الجبلاوي في كتاب عنوانه «ذكرياتي مع العقاد».

والتلبية من عالم الحياة بأسرها، وكأنما يبدأ الإنسان في الصلاة من ساعةِ مسراها إلى سمعه، ويتصل بعالم الغيب من ساعة إصغائه إليه.

دعوةٌ تلتقي فيها الأرض والسماء، ويمتزج فيها خشوع المخلوق بعظمة الخالق، وتعيد الحقيقة الأبدية إلى الخواطر البشرية في كل موعد من مواعد الصلاة، كأنها نبأ جديد.

الله أكبر. الله أكبر.

تلك هي دعوة الأذان التي يدعو بها المسلمون إلى الصلاة، وتلك هي الدعوة الحيَّة التي تنطق بالحقيقة الخالدة ولا تومئ إليها، وتلك هي الحقيقة البسيطة غاية البساطة، العجيبة غاية العجب؛ لأنها أغنى الحقائق عن التكرار في الأبد الأبيد، وأحوج الحقائق إلى التكرار بين شواغل الدنيا، وعوارض الفناء.

المسلم في صلاةٍ منذ يسمعها تدعوه إلى الصلاة؛ لأنه يذكر بها عظمة الله، وهي لب لباب الصلوات.

وتنفرج عنها هدأةُ الليل، فكأنها ظاهرةٌ من ظواهر الطبيعة الحية تلبيها الأسماع والأرواح، وينصت لها الطير والشجر، ويَخِفُّ لها الماء والهواء، وتبرز الدنيا كلها بروز التأمين والاستجابة منذ تسمع هتفة الداعي الذي يهتف بها إن «الصلاة خير من النوم».

فتخرج كلها إلى الحركة بعد لمحة أو لمحتين، وتقول كلها: إن الحركة صلاة خفيَّة بيد محرك الأشياء، وإن الصلاة خير من النوم.

وإذا ودع بها الهاتفُ ضياءَ النهار، واستقبل بها خفايا الليل فهو وَدَاعٌ

متجاوبُ الأصداء، كأنه ترجمان تهتف به الأحياء، أو تهمس به في جنح المساء، وكأنه ينشر على الآفاق عظمةَ الله، فتستكين إلى سلام الليل، وظلال الأسر والأحلام.

وإنها لتسمع بالليل ثم تسمع بالنهار، تُسمع والنفوس هادئة كما تسمع والنفوس ساعية مضطربة: توقظ الأجسام بالليل، وتوقظ الأرواح بالنهار، فإذا هي أشبهُ صياحٍ بسكينة، وأقرب ضجيج إلى الخروج بالإنسان من ضجيج الشواغل والشهوات.

حي على الصلاة!

حي على الفلاح!

نعم هذا هو الفلاح جد الفلاح؛ لأن كل فلاح بغير الإيمان هو الخسار كل الخسار.

وما يُعْرَفُ وقعُ الأذان من شيء كما يُعْرَف مِنْ وقْعِه بمعزل عن العقيدة، ومعزل عن العادة والسنة المتبعة، أو كما يُعرف مِنْ وَقْعه في بدائه الأطفال، وبدائه الغرباء عن البلاد، وعن عقيدة الإسلام.

ففي الطفولة نسمع الأذان، ولا نفهمه، ولكننا نميزه حين يحيط بنا بين دعوات هذه الأرض وبين صيحات اللعب، وصيحات البيع والشراء، ونؤخذ به ونحن لا ندري بم نؤخذ، ونود لو نساجله، ونصعد إليه، ونستجيب دعاءه، ويفسره المفسرون لنا «بأمر الله» فنكاد نفهم كلمة الأمر، ونكاد نفهم كلمة الله، ولكننا نحار في البقية ونحيلها إلى الزمن المقبل.

ثم نقضي السنوات بعد السنوات من ذلك الزمن المقبل ونحن نتعزى من حيرة الطفولة بأننا ما نزال حائرين، وإن سُمِّيت الحيرة بأسماء بعد أسماء، وأطلق عليها عنوان بعد عنوان.

وفي الذكريات أصداء تكمن في النفس من بعيد، ويلتفت المرء لحظةً من اللحظات، فكأنما هو قد فرغ من سماع تلك الأصداء منذ هنيهة عابرة، ثم التفت على حين غرة؛ ليرقب مصدر ذلك الصدى الذي سرى إليه.

إن أبقى هذه الأصداء في كل ذاكرة لهي صيحة الأذان الأولى التي تنبهت إليها آذان الطفولة لأول مرة، وما تزال تبتعد في وادي الذاكرة، ثم تنثني إليه من بعض ثنياتها القريبة، فإذا المرء من طفولته الباكرة على مدى وثبة مستطاعة لو تستطاع وثبة إلى ماض بعيد أو قريب.

أما الغرباء عن البلاد وعن عقيدة الإسلام فما يلفتهم من شيء من شعائر العبادة الإسلامية كما يلفتهم صوت الأذان على المنائر العالية كيفما اختلف الترتيل والتنغيم.

يقول إدوارد وليام لين صاحب كتاب «أحوال المُحْدَثين وعاداتهم»: «إن أصوات الأذان أخَّاذة جدّاً ولاسيما في هدأة الليل».

يقول جيرار دي نرفال في كتابه سياحة بالمشرق: «إنني لأول مرة سمعت فيها صوت المؤذن الرخيم الناصع خامرني شعور من الشجو لا يوصف، وسألت الترجمان: ماذا يقول هذا الهاتف؟ فقال: إنه ينادي أن لا إله إلا الله، قلت: فماذا يقول بعد هذا؟ فقال: إنه يدعو النيام قائلاً: يا من ينام توكل على الحي

الذي لا ينام...»

وأنشأ الكاتب المتصوِّف «لافكاديو هيرن» Lafcadio Hearn رسالة وجيزة عن المؤذن الأول ـ أي بلال بن رباح ـ فقال: «إن السائح الذي يهجع لأول مرة بين جدران مدينة شرقية، وعلى مقربة من إحدى المنائر قلما تفوته خشعةُ الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذي ينبعث به دعاء المسلمين إلى الصلاة، وهو لا شك يستوعب في قلبه ـ إذا كان قد هيأ نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة ـ كلَّ كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة، ويتبين مقاطعها وأجزاءها في نغمات المؤذن الرنانة، حيثما أرسل الفجر ضياءه المورد في سماء مصر أو سورية، وفاض بها على النجوم، وإنه ليسمع هذا الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود إلى المشرق ضياء الصباح يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة، ويسمعه قبيل مغيب الشمس والمغرب يتألق بألوان القرمز والنّضَار، ويسمعه عقيب ذلك حين تنسرب هذه الألوان الزاهية في صبغة مزدوجة من البرتقال والزُّمُرُّد، ثم يسمعه آخر الأمر حين تومِضُ مِنْ فوقه ملايين المصابيح التي ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق مسجد الله الذي لا يزول.

ولعله يسمع في المرة الأخيرة عند نهاية التنغيم كلمات مقنَّعة بالأسرار جديدة على أذنيه، فإذا سأل عنها ترجمانه كما فعل جيراردي نرفال أجابه ولا شك بتفسير كذلك التفسير: يا من تنام توكل على الحي الذي لا ينام.

عظات جليلة تعيد إلى الذاكرة تلك الآيات التي ينقشونها في المشرق على بعض الحجارة الكريمة ومنها ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

فإن كان الترجمان ممن يعون طرفاً من تاريخ الإسلام فلعله ينبئه أن المؤذن الأول ـ أول من رتل الدعاء إلى الصلاة ـ كان الخادم المقدس الذي اصطفاه نبي الإسلام لهذه الدعوة، بلال بن رباح، صاحب الضريح الذي يشار إليه للسائح في ناحية من دمشق حتى هذا اليوم».

وقد لمسنا نحن آثار الأذان البالغ في رُوْع كثير من السائحين والسائحات الذين ينزلون ببلدتنا أسوان خلال الشتاء، أو يمرون بها في الطريق من السودان وإليه.

فإنهم كانوا يَصِلون إلى أسوان وقد سمعوا الأذان مرات في القاهرة والاسكندرية، وربما سمعوه في غيرهما من البلدان الإسلامية ولكنه كان يفاجئهم بجدة لا تبلى كلما طرق أسماعهم بالليل أو النهار ـ ولاسيما في أيام الجمعة.

وكان من المصادفات الطيبة أن مؤذن الجامع الأكبر بالمدينة كان حسن الصوت منطلق الدعاء يمزج الغيرة الدينية بالغيرة الفنية في أذانه، فكان يخيل إلينا وهم يصغون إليه أنهم يتسمعون هاتفاً من هواتف الغيب يطرق الأسماع في وقت رتيب، أو يترقبون طائراً من طوائر الهجرة التي تأتي في الأوان ولكن كما يأتي كل شيء غريب.

وكان من عادات المؤذنين التي لبثوا يعيدونها في شهر رمضان إلى عهد قريب أن يدقوا طبول السحور على المنائر العالية في الهزيع الأخير من الليل؛ فشكا بعض النازلين بالفنادق القريبة من المنارة، وترددوا في تبليغ شكواهم إلى رجال الحكومة؛ لأنهم حسبوا هذه الطبول شعيرة من شعائر الإسلام.

فلما سأل عنها بعضُ مثقفيهم وقيل لهم: إنها عادة من عادات البلد، وليست شعيرة من شعائر الدين تقدموا برجائهم وقالوا: إننا لا نشكوا من الأذان؛ لأنه لا يقلقنا، ولا يزال يسري إلينا في ساعة الفجر كما يسري الحلم الجميل، ولكننا نقلق من هذه الطبول التي تدق فوق رؤوسنا، وكنا نحتملها لو علمنا أنها شعيرة لا تبديل لها، ولكنا علمنا أنها تبدل في كل بلد إسلامي على حسب عاداته، وأن المدن الكبرى تستبدل بها طبولاً صغيرة تدق على الأبواب: فاسمحوا لنا أن نهدي إلى البلد بعض هذه الطبول.

وكانت هذه الطبول مما يباع في كل موسم للسائحين على أحجام مختلفة؛ لأنها كانت تستخدم في عهد الدراويش بالسودان، إما لجمع الجند أو لتنبيه الغافلين، أو للتوقيع والتنغيم، وكانت ملابس الدراويش وأسلحتهم وأدوات معيشتهم مما يبحث عنه السائحون في أسواق البلدة، فتبرعوا بالطبول الصغيرة فرحين؛ لأنها تنقذهم من قرع الطبول حين يختلط بأصوات المؤذنين، فيقلقهم ويشوِّه عندهم جمال الأذان الخفيف على أسماع النيام.

وقد كانت هذه الطبولُ وشيكةً في بداية الأمر أن تقوم مقام الأذان في دعوة المسلمين إلى الصلاة؛ إذ لم يكن الأذان كما نسمعه اليوم معروفاً قبل انتشار الإسلام في مكة والمدينة، وإنما كان المسلمون طائفة قليلة يدعون إلى الصلاة الجامعة بالنداء الذي يُسمع من قريب، فلما صرفت القبلة إلى الكعبة فكر المسلمون في دعاء إلى الصلاة يسمعه المنتشرون بالمدينة من بعيد.

ومن جملة الروايات التي جاءت في طبقات ابن سعد وغيرها يُفهم أنهم كانوا

قبل أن يؤثر بالأذان ينادي منادي النبي ـ عليه السلام ـ : الصلاة جامعة! فيجتمع الناس، فلما صرفت القبلة إلى الكعبة تذاكر المسلمون الأمر فذكر بعضهم البوق، وذكر بعضهم الناقوس، وذكر بعضهم ناراً توقد كنار القِرى، ثم تفرقوا على غير رأي ومنهم عبدالله بن زيد الخزرجي، فلما دخل على أهله فقالوا: ألا نعشيك؟ قال: لا أذوق طعاماً؛ فإني قد رأيت رسول الله قد أهمه أمر الصلاة، ونام فرأى أن رجلاً مرَّ وعليه ثوبان أخضران وفي يده ناقوس، فسأله: أتبيع الناقوس؟ فقال: ماذا تريد به؟ قال: أريد أن أبتاعه لكي أضرب به للصلاة لجماعة الناس، فأجابه الرجل: بل أحدثك بخير لكم من ذلك، تقول: الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله. حي على الصلاة. حي على الفلاح. الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلا الله. ونادى الرجل بذلك النداء وهو قائم على سقف المسجد ثم قعد قعدة، ثم نهض، فأقام الصلاة.

فلما استيقظ عبدالله بن زيد من منامه ذهب إلى النبي ـ عليه السلام ـ فقص عليه ما رأى فقال له: قم مع بلال فألق عليه ما قيل لك.

وجاء الفاروق بعد ذلك فقصَّ على النبي مناماً يشبه ذلك المنام.

وجرى الأمر في الدعوة إلى الصلاة منذ ذلك اليوم على الأذان كما نسمعه الآن، وزاد بلال في أذان الصبح «الصلاة خير من النوم» فأقرها النبي ـ عليه السلام ـ وبقي النداء في الناس بالصلاة الجامعة للأمر يحدث فيحضرون له يخبرون به مثل فتح يقرأ، أو دعوة يُدعون إليها، وإن كان في غير وقت الصلاة.

وقد ندب بلال بن رباح للأذان من لحظته الأولى فلم يُسمع لأحد أذان قبله

ولم يسبقه إلى ذلك سابق في تاريخ الإسلام، وهو شرف عظيم؛ لأن محمد ابن عبدالله كان إمام المسجد الذي كان مؤذنه بلال بن رباح.

ومن المتفق عليه في أقوال الصحابة أن بلالاً كان محبب الصوت إلى أسماع المسلمين، وأنهم كانوا يقرنون دعوته بصلاة النبي فيزيدهم هذا خشوعاً لسماع صوته فوق خشوع.

على أننا نقرأ في أنباء فتح مكة أن رهطاً من المشركين كانوا ينكرون نداءه ويتساءلون: أما وجد محمد غير هذا العبد ينهق على ظهر الكعبة؟ وكانوا يستكبرون من رجل كائناً من كان أن يعلو ظهر البيت الذي لم يصعد إليه أحد في الجاهلية، فهالهم أن يروا «عبداً» يصعد إليه ويجهر بذلك النداء.

قال بعضهم للحارث بن هشام: ألا ترى هذا العبد أين يصعد؟ فلجأ الرجل إلى حكمة المضطر وقال: دعه: فإن يكن الله يكرهه فسيغيره.

وكان الحارث بن هشام، وأبو سفيان بن حرب، وعتّاب بن أَسيد جلوساً بفناء الكعبة يوم أمر النبي بلالاً أن يصعد إلى ظهر الكعبة فيقيم الأذان، فقال عتّاب: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه.

وقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، وأنكر أبو سفيان ما سمع، أو قيل في بعض الروايات أنه جمجم قائلاً: لا أقول شيئاً، ولو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصا.

وقبل أن نحيل هذا الإنكار إلى شيء يؤخذ مأخذ النقد ينبغي أن نذكر أن ذلك الوصف من المشركين كانوا خلقاء أن ينكروا أول أذان يرتفع في سماء مكة ولو

ترنمت به الملائكة، وتجاوبت به سواجع الأطيار، وأنهم سمعوه زعيقاً و «نهيقاً» ـ كما قالوا ـ لأنهم سمعوا شيئاً لا يطيقونه ولا يستريحون إليه، وكانت بهم عُنْجُهِيَّة السادة في النظر إلى العبيد، وكان لبلال عندهم وَتْرٌ معروف بمن قتل من سادات مكة في غزواته مع النبي ـ عليه السلام ـ.

٣٥ العلماء والإصلاح[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

نودُّ من صميم قلوبنا أن تكون نهضتُنا المدنيةُ راسخةَ البناء، رائعة الطلاء، محمودة العاقبة.

ولا يرسخ بناؤها، ويَرُوع طلاؤها، وتُحْمَدُ عاقبتها إلا أن تكون موصولةً بنظم الدين، مصبوغةً بآدابه.

والوسيلة إلى أن يجري فيها روح من الدين يجعلها رشيدةً في وجهتها، بالغةً غايتَها أن يزداد الذين درسوا علوم الشريعة عناية بالقيام على ما استحفظوا من هداية؛ فلا يذروا شيئاً يشعرون بأنه موكول إلى أمانتهم إلا أحسنوا أداءه.

ينظر أهل العلم في حال الناس من جهة ما يتقربون به إلى الخالق، ويزنون أعمالهم، ليميزوا البدعة من السنة، ويرشدوهم إلى أن يعملوا صالحاً.

ومَنِ الذي لا يدرك أن البدع تقف كقطع من الليل المظلم، فتغطي جانباً من محاسن الشريعة الغراء، وهي بَعْدَ هذا ضلالات تهوي بأصحابها في ندامة وخسران؟

ينظرون في أحوال الناس من جهة ما يدور بينهم من المزاعم الباطلة، والأحاديث المصنوعة، وينفون خبثها نفيَ النار لخبث الحديد، يفعلون هذا؛ ليكون الناشئ المسلم نقيَّ الفكر، صافي البصيرة، لا يحمل في نفسه إلا عقائدَ خالصةً، وحقائقَ ناصعةً.

---

(١) رسائل الإصلاح ١/٤٨.

ينظرون في أحوال الناس من جهة ما يجري بينهم من المعاملات، فيصلحون ما كان فاسداً، ويصلون ما كان متقطعاً.

وما شاعت المعاملات التي نهى عنها الدين في غير هوادة كالربا والميسر إلا حيث قل من يعظ الناس في ارتكابها، ويبسط القول في شؤم عاقبتها.

ينظرون في أحوال الناس من جهة ما يمسهم من السراء والضراء، ويسعون ما استطاعوا في كشف الضر عنهم ولو بعرض حالهم على أولي الشأن، وإثارة دواعيهم إلى أن يعالجوا العسر حتى ينقلب بفضل تدبيرهم يسراً.

يحدثنا الكاتبون في تاريخ الأندلس أن العلماء المقيمين في ضواحي قرطبة كانوا يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة، ويطالعونه بأحوال بلدهم وقال أحد علمائهم:

وأَتْعَبُ إن لم يُمْنَحِ الناسُ راحةً وغيري إن لم يَتْعَبِ الناس يتعبِ

ينظر أهل العلم بعين الاحتراس إلى كل من يدعو إلى مذهب باسم الدين، ويتخذون الوسائل إلى الاطلاع على حقيقة قصده.

ومن أسباب وهن حبل الإسلام، وتقطُّع أوصاله ـ مذاهبُ يبتدعها ملاحدة يمكرون، أو جهال لا يفقهون؛ أفلم يكن المذهب البهائي يعمل لهدم قواعد الإسلام، واستهواء أبنائه من خلف ستار؟.

وقد أحس بعضُ أتباعه اليوم بقوة، فصاروا يخطبون على منابر بعض النوادي، ويجهرون بشيء من مزاعمه، وعرف بعض خصوم الإسلام قصدهم، فقاموا يشدون أزرهم، ويرددون الثناء على مذهبهم.

نحن نعلم أن في كل أمة فئةً يفتحون صدورهم لقبول كل دعوة توافق أهواءهم، أو تأتيهم في طلاء يلائم أذواقهم.

ولكن نهوضَ العلماء بعزم وحكمة إن لم يسحق آراء زعماء هذه الفئة سحقاً فإنه يكشف عما فيها من سوء؛ فلا يسكن إليها إلا مَنْ هم إلى الحيوان الأعجم أقرب منهم إلى الإنسان.

يَرْقُبُ أهل العلم كل حركة تقوم بها جماعة من الأمة، فينقدونها بالنظر الخالص، ويصدعون فيها بآرائهم مدعومة بالأدلة المقنعة.

ولا تُعَدُّ هذه المراقبة، وهذا النقد خارجين عن خطة العالِم الإسلامي، بل هما واجبان في عنقه كواجب التعليم والإفتاء.

وإذا قصَّ علينا التاريخ أن فريقاً من أهل العلم قضوا حياتهم في بحث من المسائل العلمية البحتة ـ فقد قصَّ علينا أن أمة من عظمائهم كانوا ينظرون في الشؤون العامة، ويمثلون السيرة التي تكسو صاحبها جلالة، وترفع له بين الخلائق ذكراً.

كان أهل العلم يوجهون هممهم إلى الوسائل التي تقي الأمة ممن يبغونها الأذى، فهذا أبوبكر بن العربي قاضي أشبيلية رأى ناحيةً من سور أشبيلية محتاجة إلى إصلاح، ولم يكن في الخزانة مالٌ موفَّرٌ يقوم بسدادها، ففرض على الناس جلود ضحاياهم، وكان ذلك في عيد أضحى، فأحضروها، وصرفت أثمانها في إصلاح تلك الناحية المتهدمة.

وكان محمد بن عبدالله بن يحيى الليثي قاضي قرطبة كثيراً ما كان يخرج إلى

الثغور، ويتصرف في إصلاح ما وهى منها حتى مات في بعض الحصون المجاورة لطليطلة.

وظهور العلماء في أمثال هذه المواقف يغرس لهم في نفوس الأمة ودًّا واحتراماً، ويورثهم في رأي أولي الأمر مقاماً كريماً.

أفلا نذكر أيام كان أمراء الإسلام يَعْرِفون في طائفة من العلماء رجاحةَ الرأي، وصرامةَ العزم، وخلوص السريرة، فيلقون إليهم بقيادة الجيوش، فيكفون بأس أعدائهم الأشداء.

وما كان أسد بن الفرات قائد الجيش الذي فتح صقلية إلا أحد الفقهاء الذين أخذوا عن مالك بالمدينة، ومحمد بن الحسن في بغداد، وعبدالرحمن بن القاسم في القاهرة.

ينظر أهل العلم إلى ما غرق فيه بعض شبابنا من التشبه بالمخالفين، وتقليدهم في عادات لا تغني من الرقي شيئاً، وقد يرى بعضهم انحطاط كثير من أبنائنا في هذا التشبه والتقليد، فيعده قضاءً مبرماً، ويملكه خاطر اليأس حتى ينتكث من التعرض للشؤون العامة ومعالجتها.

ولكن الذي يعرف علة هذا التسرع ويكون قد قرأ التاريخ؛ ليعتبر يرى الأمر أهون من أن يصل بالنفوس إلى التردد في نجاح الدعوة، بَلْه اليأس من نجاحها.

وأذكر بهذا أن كاتباً كتب في إحدى المجلات مقالاً تحت عنوان: «وحدة العالم» يدعو فيه إلى مسايرة أوربا في السفور ونحوه، وقال في علة الدعوة إلى

هذه المسايرة: ليخرج الشرق والغرب في مدينة[1] واحدة، وأشار على دعاة الإصلاح في الشرق بأن لا يقفوا في سبيل هذه المدنية زاعماً أنهم لا يستطيعون مقاومتها، ولا يزيدون على أن يجعلوا سيرها بطيئاً، ورغب إليهم أن يحثوا الناس على المسارعة إلى قبولها.

والذين ينظرون إلى مدنية أوربا باعتبار يبصرون فيها على البداهة ما لا يرتضيه العقل، ولا يقبله الشرع.

واختلاف الأمم بالحق خير من اتحادها على باطل، ولا يفوت الحكمة أن تجد نفوساً مهذبة وعقولاً سليمة فتقبلها؛ فحقيق على العلماء أن يبتسموا لهذا الرأي تبسم الازدراء، ولا يقيموا لمثله وزناً إلا أن يكشفوا سريرته، ويعرضوا على الأنظار سوء مغبته.

والعالم بحق من يتدرع بالإيمان البالغ، والثقة بما وعد الله به الداعي إلى الحق من الظهور على أشياع الباطل وإن أوتوا زخرفاً من القول، وسعة من المال، وكانوا أكثر قبيلاً.

لا ينبغي لأهل العلم أن يغفلوا عن سير أرباب المناصب والولايات؛ فمن واجبهم أن يكونوا على بينة من أمرهم، حتى إذا أبصروا عوجاً نصحوا لهم بأن يستقيموا، أو رأوا حقّاً مهملاً لفتوا إليه أنظارهم، وأعانوهم على إقامته.

أمر السلطان سليم بقتل مائة وخمسين رجلاً من حفاظ الخزائن؛ فبلغ هذا النبأ الأستاذ علاء الدين الجمالي، وكان متولياً أمر الفتوى، فذهب إلى السلطان

---

(١) هكذا في الأصل، ولعلها: مدنية. (م)

وقال له: وظيفة أرباب التقوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وهؤلاء الرجال لا يجوز قتلهم شرعاً؛ فعليك بالعفو عنهم، فغضب السلطان سليم، وقال له: إنك تتعرض لأمر السلطنة، وليس ذلك من وظيفتك، فقال الأستاذ علاء الدين: لا بل أتعرض لأمر آخرتك، وإنه من وظيفتي؛ فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فعليك عقاب عظيم؛ فانكسرت سَوْرَةُ غضبِ السلطان، وعفا عن الجميع.

ومتى كان في الولاة شيء من العدل، وكان في الداعي إلى الإصلاح حكمة وإخلاص ـ نجحت الدعوة في سعيها، وبلغت بتأييد الله مأربها.

يكون العالم رفيقاً في خطابه، ليناً في إرشاده.

أما إذا أراده ذو قوة على أن يقول ما ليس بحق، أو يأتي ما ليس بمصلحة ـ أخذ بالتي هي أرضى للخالق، وكان مثالاً للاستقامة صالحاً.

أذكر أن أحمد بن طولون دعا القاضي بكار بن قتيبة إلى خلع الموفق من ولاية العهد فأبى، فحبسه، وكرر عليه القول، فأصر على الإباءة، وبقي في السجن حتى ثقل ابن طولون في مرض الوفاة، فبعث إلى القاضي بكار يقول له: أردك إلى منزلتك أو أحسن منها، فقال بكار للرسول: قل له: شيخٌ فانٍ، والملتقى قريب، والقاضي الله ـ عز وجل ـ.

فأبلغ الرسول ابن طولون ذلك، فأطرق ساعة ثم قال: شيخ فان، والملتقى قريب، والقاضي الله ـ عز وجل ـ وأمر بنقله من السجن إلى دارٍ اكْتُريت له.

وإنما يقوم العالم بإسداء النصيحة إلى ذي قوة، أو لا يوافقه فيما يخدش أمانته وتقواه ـ متى قَدِرَ مقامَه العلميَّ قَدْرَه، وكان شأن العلم أسمى في نظره من كل شأن.

وهذا الشعور هو الذي يهيئه بعد داعية الغيرة لأن يجاهد في سبيل الحق مستهيناً بكل ما يواجهه من أذى.

ومن أدب العلماء أن ينصحوا للأمة فيما يقولون أو يفعلون، ويحتملوا ما ينالهم في سبيل النصيحة من مكروه.

وكم من عالم قام في وجه الباطل فأوذي، فتجلد للأذى، وأجاب داعي التقوى متأسياً بقوله ﷺ: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وممن جرى على هذا الخلق المتين أبوبكر بن العربي يوم كان قاضياً بأشبيلية، قال في كتاب القواصم والعواصم: حكمتُ بين الناس، فألزمتُهم الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يك يرى في الأرض منكر، واشتد الخطب على أهل الغصب، وعظم على الفسقة الكرب، فتألبوا وألبوا، وثاروا عليَّ، فاستسلمت لأمر الله، وأمرت كل من حولي ألا يدفعوا عن داري، وخرجت على السطوح بنفسي، فعاثوا علي حتى أمسيت سليب الدار، ولولا ما سبق من حسن الأقدار لكنت قتيل الدار ـ يعني بقتيل الدار عثمان رضي الله عنه.

ولا يستحق لقب عالم أو مصلح ذلك الذي يدعو الناس إلى العمل الصالح، ويقبض عنه يده، أو ينهاهم عن العمل السيئ ولا يصرف عنه وجهه؛ فمن أدب العلماء أن يسابقوا الأمة إلى اجتناب ما يؤاخذ به، وعمل ما يحمد عليه كأن ينفقوا في وجوه البر والمشروعات الصالحات ما ينفقه أمثالهم من المكثرين أو المقلين، فإن ذلك أدل على إخلاصهم، وأدعى إلى توقيرهم، وقبولهم نصائحَهم.

وإذا كان العدد القليل فيما سلف يكفي لحراسة الدين، وإرشاد من ينحرف عنه حتى يعود إليه ـ فَلأَنَّ سلطانَ الإسلام يومئذ وصوتَ غالبِ الجهلِ عليه خافتٌ.

أما اليوم فالحال ما ترون وما تسمعون، فلا يمكن للدعوة أن تأتي بفائدتها إلا أن تَضُمَّ المعاهد الإسلامية بين جدرانها طوائف كثيرة من أولي الغيرة والعزم يصرفون جهدهم في الدفاع عن الدين والدعوة إلى الخير، ويعيدون الدعوة مرة بعد أخرى.

وستنبت المعاهد الإسلامية ـ إن شاء الله ـ كثيراً من العلماء القوامين على نحو ما وصفناه، ولاسيما حين يأخذ التعليم بالأزهر الشريف نظامه الأسمى، ويجري مثل هذا النظام في غيره من المعاهد الإسلامية كجامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين في فاس، ويقوى الأمل في أن تؤتيَ هذه المعاهد الثمرة الغزيرة الطيبة متى نظر إليها أولوا الأمر برعاية، وعاملوا النشء المتخرجين منها بما يدل على أنهم يحترمون الشريعة، ويقدرون ما تبثه في الأمة من رشد وإصلاح.

تاسعاً: مقالات في العلم والتحقيق والطب



التاريخ لا يكون بالافتراض ولا بالتحكم[(١)]
لأمير البيان شكيب أرسلان[(٢)]

لا أريد أن أناقش أحداً ولا أن أسمي أشخاصاً ولا أن أحمل على باحث أديب بتجهيل، وإنما أُلمح من خلال الكتابات التي يجود بها بعضُ أدباء الوقت

---

(١) كتبها الأمير شكيب في روما في ٨مارس سنة ١٩٢٦م، وهي في كتاب: تحت راية القرآن ـ المعركة بين القديم والجديد للرافعي، ضبطها وصححها محمد سعيد العريان ص٨٧ـ٩٦.

(٢) هو شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان.

ومعنى شكيب بالفارسية: الصابر، ومعنى أرسلان بالفارسية والتركية: الأسد.

ولد عام ١٢٨٦هـ، ١٨٦٩م، وتوفي ١٣٦٦هـ، ١٩٤٦م.

وهو من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة، وهو من طائفة الدروز اللبنانية، ولكنه ـكما يقول د. أحمد الشرباصيـ: كان سنياً وإن انتسب سياسياً أو إدارياً إلى الدروز، وكان يتعبد على طريقة أهل السنة، فهو يصوم، ويصلي، ويحج كما يفعل جمهور المسلمين.

ويقول الشرباصي: وقد أكدت لي زوجته هذه الحقيقة، وقالت: «إن الدروز يُحَرِّمون الزواج من سنية، ولكنه تزوجني، وأنا سنية مسلمة؛ فسبب هذا الوضع متاعب لشكيب».

وكان رحمه الله ذا غيرة على الإسلام، وذا قلم سيَّال، وكان عالماً بالأدب، والسياسة والتاريخ، ويُنعت بأمير البيان، وهو من أعضاء المجمع العلمي العربي، ولد في الشويفات بلبنان، وتعلم في مدرسة دار الحكمة ببيروت، وعُيِّن مديراً للشويفات سنتين، فقائم مقام في الشوف ثلاث سنوات، وأقام بمصر مدة، وسكن دمشق، ثم برلين، وانتقل إلى جنيف بسويسرا، فأقام بها نحو ٢٥عاماً، وعاد إلى بيروت، فتوفي فيها، ودُفن بالشويفات.

عالج السياسة الإسلامية من قَبْل انهيار الدولة العثمانية، وكان من أشد المتحمسين من أنصارها، واضطلع بعد ذلك بالقضايا العربية، وقام بسياحات كثيرة في أوربا وبلاد العرب، وزار أمريكا سنة ١٩٢٨م، وبلاد الأندلس ١٩٣٠م، وهو في حلِّه وترحاله لا يدع فرصة إلا كتب فيها مقالاً أو بحثاً.

=

منزعاً، إن كان في حد ذاته محموداً فقد ينقلب في إساءة استعماله مذموماً، ويصير ضلالاً.

ولع بعض الأدباء[1] باتهام التاريخ الإسلامي الذي لدينا وسلوكِ طريقة في التعليل لم يسلكها الأولون؛ ارتياداً لوجوه جديدة، وأسبابٍ للحوادث لم تكن معروفة، بحيث يُقال: إنهم كشفوا حقائق تاريخية لم يعرفها غيرهم، أو عرفوا أسراراً أعماها التاريخ الديني أو عَمّتْها السياسةُ وأهواؤها على الجمهور، ويسمون ذلك تحقيقاً وتمحيصاً، ويظنون أن التمحيصَ والتحقيقَ هما بمجرد المخالفة، والخروج عمّا عليه الرأيُ العام.

والحقيقة أنه إن كان مقصدُهم مجردَ المخالفة، وتغيير الأسلوب؛ لعدم الصبر

= جاء في رسالة بعث فيها إلى صديقه السيد هاشم الأتاسي عام ١٩٣٥م أنه أحصى ما كتبه في ذلك العام فكان ١٧٨١رسالة خاصة و١٧٦مقالة في الجرائد، و١١٠٠صفحة كتبت وطبعت، ثم قال: «وهذا محصول قلمي كلَّ سنة».

وكان ذا علاقات واسعة مع كثير من المصلحين، والعلماء، والقادة، وكان له تصانيف، منها «الحلل السندسية في الرحلة الأندلسية طبعت ثلاثة مجلدات منه، وهو في عشرة»، و«غزوات العرب في فرنسا وشمالي إيطالية وفي نويره ـ ط»، و«لماذا تأخر المسلمون ـ ط»، و«الارتسامات اللطاف ـ ط» وهذا الكتاب يدور حول وصف رحلته إلى الحجاز وأدائه فريضة الحج سنة ١٣٥٤هـ، و«شوقي وصداقة أربعين سنة»، و«السيد رشيد رضا وأخبار أربعين سنة»، وله نظم جيد نُشر منه الباكورة ـ ط، مما نظمه في صباه، وديوان الأمير شكيب مما نظمه بعد الأول.

وكان يُجيد الفرنسية، والتركية، وله إلمام بالإنجليزية والألمانية.

انظر الأعلام للزركلي ٣/٢٥١ـ٢٥٢، وشكيب أرسلان للشيخ د. أحمد الشرباصي ص٥١ـ٥٢.

(١) يشير الأمير إلى طه حسين.

على طعام واحد ـ فقد أصابوا الغرض.

ولكن إن كانوا يزعمون أن هذه التعليلات الغريبة هي الأصل في تلك الوقائع فليسمحوا لنا أن نستعفيَهم من التصديق؛ لأننا نعرف التاريخ بالأدلة العقلية والنقلية، وملاحظة ما سبق وما لحق، واستنباطِ النتائج من المقدمات، ولا نعرفه تخرصاتٍ وافتراضاتٍ وأبنيةً على غير أساس.

فإن كان هذا هو التمحيص التاريخي الذي يتوخى بعض العصريين أن يقلد به الإفرنج فلا كان هذا التمحيص الذي هو عبارة عن قلب الحقائق؛ لأجل الإتيان بالبدع، ويجلُّ علماء الإفرنج عن أن يكون تمحيصهم من هذا النمط، وقد خلط منهم من خلط في معرض التمحيص، ولكن نبَّه المدققون منهم على أنهم خلطوا.

فعندما يقوم واحد، فيذهب إلى أن تاريخَ حربِ اليمامة محاطٌ بالغموض، وأن مُقاتلة أبي بكر لأهل الردة لم تكن من أجل إقامة الدين، بل من أجل تأسيس الملك، وما أشبه ذلك من التوجيهات التي لم يقم عليها أدنى دليل ـ نعلم أنه حاول أن ينهج مناهج المحصين، فظن التمحيص مجرد الخروج عن الإجماع ولو كان الإجماع صحيحاً؛ فلم يُصِبِ المرمى.

وعندما يقومُ آخر فيدَّعي أنَّ السلفَ في صدرِ الإسلام وضعوا «سانسورا»[1] على الشعر الجاهلي المُشْرَبِ مبادئ الوثنية أو النصرانية أو اليهودية ـ نعلم أنَّ هذه

---

(١) كأنها كلمة فرنسية، ولعل معناها: الغطاء، أو الساتر أو الرقابة، كما يفهم من سياق الكلام.(م)

الدعوى مبنية على الافتراض والتخيُّل، وأنها لا تستند على دليلٍ، بل الواقع يُناقضها من كلِّ الجهات.

أعجبتني جداً عبارة الذي ردَّ على هذه الفئة[1] فقال لهم «مَنْ مِنْ ملوك المسلمين وحكامهم أمر بوأد الوثني واليهودي والنصراني ومحوه؟ ومَنْ مِن أعوان هؤلاء الحكام تولَّى ذلك؟ وكيف كانت طريقةُ المحو؟ وهل كُتب لها النجاح في كلِّ بلادِ الإسلام؟ ...إلخ».

والحقيقة أنه ليس لهم من جواب على هذا السؤال، ولا حيلةَ لهم في التخلص منه إلا بإيراد أدلة واهية لا تدفع شيئاً من حقيقة حرية الرواية في ذلك العصر، ومِن كون بابها بقي مفتوحاً على مصراعيه، ولا تنفي أن عصر الصحابة لم يعرف «السانسور» ولا مراقبة الرواية، ولا كمَّ الأفواه، ولا شيئاً من أوضاع «ديوان التفتيش».

وإذا تأملتَ في كلامِ هذه الفرقةِ رأيتهم يشيرون من طرف خفي إلى نزول درجة الحضارة التي كان عليها الصحابة، وأن شرائعهم وقوانينهم إنما كانت شرائع قوم في طفولة المدنية، وأنها لا تمس الحياة إلا قليلاً، وما أشبه ذلك، ثم ينسون أن مراقبة الكتابات والروايات إنْ هي إلا من أوضاع الهيئات الاجتماعية المتمدينة التي استبحر فيها العمران وتأثَّلَ الملك، وأن «السانسور» لا يأتي مع بداوة المجتمع، ولا يعقل وجوده في أيام السذاجة كالتي عاش فيها النبي ﷺ والصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ.

---

(١) يشير إلى مقالة الأستاذ عباس فضلي.

فمراقبة الكتب والخطب كانت تقع في رومية والقسطنطينية لعهد عظمة القياصرة، وفي أيام سلطة الباباوات، وفي عهد ملوكٍ فاتحين كلويس الرابع عشر، وقد بالغ فيها نابليون الأول ثم نابليون الثالث، وقد وقعت من أيام العرب في عهد العباسيين وغيرهم من ملوك الأعاجم، أو الملوك العرب الذين اتخذوا أطوار الأعاجم.

فأما القولُ بأنها كانت في عهد الخلفاء الراشدين وفي أيام الصحابة فمحضُ تحكمٍ ومكابرة.

نعم كان هؤلاء الناس من شديدي التحمس بالدين الجديد الذي جاءهم به محمدﷺ ولكن حماستهم هذه لم تَقْلَعْ ما في قلوبهم من حبٍّ الحرية التي نشأوا عليها في الجاهلية، والتي لا يوجد في الشرق ولا في الغرب أمةٌ بلغت شَأْوَ العرب فيها.

ومن قال: «إن العرب أعرق الأمم في الحرية» فغير مبالغ؛ لهذا تجدهم رووا بألسنتهم، وكتبوا بأقلامهم جميع مطاعن المشركين في النبي ﷺ وصحْبِه، ولم يُخْفوا منها قليلاً ولا كثيراً، ونقلوا الشُبَهَ والاعتراضات التي كانت تقع على الرسول ورهطه، وذكروا كثيراً مما كان يردُّ به بعض العرب على رسول الله ﷺ وكيف أنَّ اثنين تخاصما إليه، فحكم لأحدهما فقال المحكوم عليه: «هذا حكم لم يُرد به وجه الله»، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أوذيَ موسى من قبلي بأكثر من هذا».

وغير ذلك مما هو مستفيض في كتب السيرة النبوية وأخبار صدر الإسلام،

ومما رواه الرواة المسلمون، وحرره الكتبة المسلمون، وأقرأه العلماء المسلمون.

ولم يكن عندهم حرج في نقل تلك الأحاديث وإبرازها كما جاءت؛ لأنهم كانوا على بينة من دينهم الذي دانوا به، وكانت قلوبهم مطمئنةً بالإيمان، وكانت سيرة النبي ﷺ معلومة عندهم بدقائقها، فلم يكونوا يحتاجون فيها إلى «السانسور» دَرْءاً للشبهات عنها، وخوفاً من أن يُفضي تداول هذه الروايات إلى زعزعة عقيدة الإسلام التي لم تكن منذ جاء بها صاحبها ﷺ إلى اليوم على شفا جرف هار.

إن الإسلامَ مولودٌ رُزِقَ الصحةَ، ووثاقةَ التركيب منذ ولادته.

نعم في هاتيك الأيام وما يليها كانوا يردون[1] أهاجي بعض الشعراء للصحابة والأنصار و«لبني النجار» وفي تلك الأيام كان يُعاتَبُ الرسولُ ويُقال له:

ما كان ضَرَّكَ لو عَفَوتَ فربما منَّ الفتى وهو المَغيظُ المُحْنَقُ

في أيام السلف كان يُنادي الأخطل:

ولستُ بصائمٍ رمضانَ عُمري ولستُ بآكلٍ لحمَ الأضاحي

ولستُ بقائلٍ ما عشتُ يوماً قُبيلَ الصبحِ: «حيَّ على الفلاحِ»

كان يقولُ هذا ويدخلُ على الخلفاء، ويُجيزونه الجوائز السنية، وكان هو وغيره من النصارى واليهود يفتخرون بدينهم، ويُعلنونه في أشعارهم التي كانَ يرويها المسلمون، ويُقيِّدونها في دفاترهم.

ولَمَّا جاءَ الملكَ النعمانَ بن المنذر رجلٌ نصراني في اليوم الذي كان عنده يومَ

---

(١) هكذا في الأصل، ولعلها: يرددون. (م)

بؤس وأمر النعمان بقتله، استماحه النصرانيُّ مُهلةً أن يذهبَ ويودِّعَ أهله، فأذن له، على أن يقدِّم كفيلاً يحل محله في القتل إذا هو لم يرجع، فرجع، وتعجب النعمان من وفائه، فسأله: ما حملك على هذا الوفاء؟ فأجابه النصراني: حملني ديني! فقال له النعمان: وما دينك؟ قال له: النصرانية، وتنصَّرَ النعمان بعد ذلك.

فكانت هذه الرواية مما حرَّره المسلمون ولم يغمطوا النصرانية حقَّها، ولا غمطوا اليهودية ـ أيضاً ـ حقَّها.

وأجمع العرب المسلمون على نقل مآثر السموأل، وكان السموأل يهودياً، ومازال السموأل مَضْرِباً للأمثال في علوِّ النفسِ وكرمِ السجية إلى يومنا هذا، حتَّى قال شوقي ـشاعر العصرـ منذ أيام قلائل[1]:

كأنَّ من السموأل فيه شيئاً فكلُّ جهاته كرمٌ وخُلْقُ

فكيفَ يكون المسلمون الأوائل حاولوا خنقَ كلِّ صوتٍ غيرِ صوتهم، ومحو آثارَ النصرانية واليهودية والوثنية من شعر العرب؟

ثم إنَّ شعرَ شعراء النصرانية في الجاهلية يملأ الدواوين، وما منهم إلا من حرص علماء الإسلام على التنبيه أنَّه كان نصرانياً، وقد نقلوا خطب قس ابن ساعدة الذي كان مُطراناً، ونقلوا ثناء النبيﷺ عليه.

وأما كون ديوان شعراء النصرانية المطبوع في بيروت موضوعاً، وأنَّ الشعراءَ المرويةَ أشعارُهم فيه لم يكونوا نصارى، بل جعلهم صاحب الديوان نصارى

---

(١) كتبها الأمير في سنة ١٩٢٦، وقد توفي شوقي رحمه الله سنة ١٩٣٢.

وهم جاهليون لا غير ـ فمن يقول هذا؟ ومن يصل به المراء إلى إنكار أن أكثر أولئك الشعراء كانوا نصارى؟ غاية ما يُقال: إنَّ بعض أولئك الشعراء لم تثبت نصرانيتهم، وهذا لا ينفي أنَّ شعراء كثيرين مثل العبادي، والأخطل، والقطامي كانوا نصارى مجمعاً على نصرانيتهم، وأنَّ المسلمين نقلوا أشعارهم كما هي ولم يحذفوا منها شيئاً، وكان شعراء المسلمين يناقشونهم ويداعبونهم، وكان جرير يقول:

قال الأُخيطلُ أن رأى راياتهم ... يا مارِسرجس لا نريد قتالا

فالقول بأن النبيﷺ وأصحابه لم يبقوا على أي نزعة تخالف دين الإسلام، وأنهم طووا شعر النصارى واليهود والمشركين ـ محضُ تحكمٍ لم يقم عليه أدنى دليل، بل قام الدليل على حرية الإسلام.

ونقل رواة المسلمين ليس شعر النصارى واليهود والمشركين فقط، بل أهاجيَ كثيرةً قالها هؤلاء في النبي وأصحابه وأنصاره.

وأما عدم حرمة النبيﷺ والصحابة للشعر وقولهم إن روايته ضلال فهذا زعم باطل مخالف للإجماع، فقد روى النبيﷺ الشعر[1] واستحسنه وقال: «إنَّ من الشعر لحكمة» ورواه عمر وعلي وسائر الصحابة، وتناشدوه، وطربوا له وكان فكاهة مجالسهم، وقصة كعب بن زهير مع رسول الله ﷺ وإنشاده إياه «بانت سعاد» واهتزاز النبي لهذه القصيدة وإنعامه على كعب ببُردته الشريفة ـ

---

(١) كان ينشد الشعر فلا يقيم وزنه؛ وقد بينا حكمة ذلك في كتابنا «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» ولكنه يستنشد الشعر كثيراً (الرافعي).

كلُّ ذلك لا يحتاج إلى بيان.

ولكنَّ الشعر كسائر الأشياء إذا أسيء استعماله انقلب إلى الضرر، وإذا كان وقعَ من عمر رضي الله عنه - وهو من أبصر الناس بنقد الشعر وأشدهم اهتزازاً لجيده - تضييقٌ على الشعراء، فيكون في المواطن التي أسيء فيها استعمال الشعر، وصار باباً للمشاحنات والفتن.

وكما أنَّ للخليفة طبيعةً ينفش بها إلى الأدب، ويعجب بسحر البيان فإنَّ عليه واجباً هو حماية الأعراض، وحفظ السلام.

وأما إزراء الشعراء بالعلماء، وما قاله بعض هؤلاء في الإعراض عنه، والتعوذ منه فهو من باب التورُّع من بعض الفقهاء، وذلك لأنهم كانوا يرون فيه مبالغة، وغلواً، وعبثاً، فأشفقوا من أن يؤثِّرَ الاعتمادُ عليه في أخلاقِ النشء، ويصرفهم عن العبادة.

ولكن هذا الزهد في الشعر لم يحملهم، ولا حَمَلَ الخلفاء والسلاطين على منع قرضِ الشعرِ وروايته والتأدبِ به، وذلك كما أنَّ نصرانية الأخطل والقطامي وأمثالهما لم تمنع متأدبي الإسلام من رواية أشعارهم، وحفظها والتأدب بها، وأن وثنيةَ أكثرِ شعراء الجاهلية لم تَحُلْ دونَ انطباع طلاب الفصاحة من المسلمين بأساليبهم، ونسْجهم على منوالهم.

ومَنْ مِنْ العلماء والمؤرخين المحققين يقدر أن يقول إن أدباء العرب بعد الإسلام رغبوا عن شعر الجاهلية، وأهملوا روايته؛ من أجل أن قائليه كانوا مشركين؟ أو أن المسلمين طووا كلام قس بن ساعدة، لأنه كان نصرانياً؟ أو لم

يعجبوا بقصيدة «إذا المرء لم يَدنس من اللؤم عرضه» لأن صاحبها كان يهودياً؟ من يا رب يقول هذا إلا الذين يبنون التاريخ على الأهواء والخيالات؟

وقع التشدد في مثل هذه الأمور في أيام الدولة العباسية؛ لبعد العهد بسذاجة الدَّور الأول، وميلِ هذه الدولة إلى مناحي الأعاجم، وفُشُوِّ الفلسفة اليونانية والفارسية والهندية في دار السلام، مما أخافَ الخلفاء ووزراءَهم على العقيدة الدينية، وحَفَزهم على الاحتياط لعدم انحلالها، وهذا أشبه بما كان في أوربة في القرون الوسطى، لا بل في القرون الأخيرة، لا بل بما لا تزال بقاياه إلى هذه الآونة.

وبرغم ما كان من هذا الاحتياط في أيام العباسيين، ومَنْ في عصرهم من ملوكِ الإسلام ـ فقد كان الناس يروون أهاجيهم، ومثالبهم، ويتناشدون المطاعن الفاحشة في أعراضهم حتى في مجالس أقرب الناس إليهم.

وقد شاعت أقاويل التعطيل والإلحاد في هاتيكَ الأيام برغم الضبط والمراقبة، ودُوِّنتْ أقوال الملحدين والدهريين.

ورُويتْ أشعارُ المعرِّي ومن في سبيله حتى ما يخالف الدين الإسلامي مثل قوله:

وقوم أتوا من أقاصي البلاد لرمي الجمارِ ولثمِ الحجر

وكثير غير هذا من أقواله، ورسالة الغفران وصلتْ إلينا، ولولا أنها تُدوِّلت بالنسخ من قراب ألف سنة ما وصلتْ إلينا، ولو كان هناك «سانسور» ما أبقى على رسالة الغفران.

وتجادل نصراني في الدين مع أحد بني العباس، ونال النصراني من العقيدة الإسلامية، وبلغَ المأمون ذلك فقال ما معناه، ما كان أغنى ابن عمِّنا عن تعريض دينه للطعن!

ولا أنفي ـ مع ذلك ـ أنَّ الدولة الإسلامية في القرون التالية كانت تحجر ـأحياناًـ على الفلسفة التي يُراد منها التعطيلُ أو الإلحاد، ويُسمونها الزندقة.

فأما إزالة شعر النصارى أو اليهود أو المشركين، ومنع روايته فشيء لم يقع لا في زمن الصحابة، ولا في أيام بني أمية ولا أيام بني العباس.

فيا إخواننا إنَّ التاريخ لا يكون بالظن، وإنَّ الظنَّ لا يُغني من الحقِّ شيئاً، وهذا نتفٌ من كثير، ووشل من بحر؛ ولو كانت بيدينا الآن كتب لأحلناكم على شواهد لا تنتهي، فإن كنتم مع هذا تُصرُّون على المخالفة؛ لأجل المخالفة فليس هذا مما يزيد الثقة بعلمكم، بل هو مما يُنقصها، وبدلاً من أن يضعَ العلم على قواعد اليقين يضعه على قواعد أوهى من بيت العنكبوت.

٣٧ تصحيح الكتب[1] للعلامة الشيخ أحمد محمد شاكر[2]

تصحيح الكتب، وتحقيقها من أشق الأعمال وأكبرها تبعة، ولقد صوَّر أبوعمرو الجاحظ ذلك أقوى تصوير، في كتاب (الحيوان) فقال (ج١، ص٧٩ من

---

(١) مجلة الهدي النبوي، العدد١٧، ص ٢١ـ٢٦، شعبان ١٣٥٧هـ.

(٢) هو الشيخ العلامة المحدث أحمد بن محمد شاكر ولد سنة ١٣٠٧هـ وتوفي سنة ١٣٧٧هـ.

كان أبوه الشيخ محمد شاكر رحمه الله أميناً للفتوى في مصر، ثم صدر الأمر بإسناده منصب قاضي قضاة السودان في ١٣١٧/١١/١٠هـ، فذهب إلى هناك، وألحق ولده أحمد بكلية غودون، فبقي تلميذاً بها حتى عاد أبوه من السودان، وتولى مشيخة علماء الإسكندرية عام ١٩٠٤م فألحق ولده بمعهد الإسكندرية الذي يتولى.

كان الشيخ أحمد منذ أن عقل محباً للأدب والشعر، ثم انصرف بعد ذلك إلى دراسة علم الحديث، منذ عام ١٩٠٩م، ولكنه لم ينقطع عن قراءة الآداب حديثها وقديمها.

وكان لوالده أعظم الأثر في دراسة علم الحديث، ولما انتقل والده إلى القاهرة وكيلاً لمشيخة الأزهر ـ التحق أحمد بالأزهر؛ فكانت إقامته بالقاهرة بداية عهد جديد في حياته، حيث اتصل بكثير من العلماء والرجال، وعرف الطريق إلى دور الكتب في المساجد وغيرها.

وكانت القاهرة يومئذٍ مستزاداً لعلماء البلاد الإسلامية؛ فكان ذلك سبباً للقائه بكثير من العلماء والأخذ عنهم.

ومن هؤلاء السيد عبدالله بن إدريس السنوسي عالم المغرب ومحدثها، فتلقى عنه طائفة كبيرة من صحيح البخاري، فأجازه برواية البخاري، ورواية باقي الكتب الستة، ومنهم محمد بن الأمين الشنقيطي، فأخذ عنه كتاب بلوغ المرام، وأجازه به وبالكتب الستة.

ولقي غير هؤلاء أحمد بن الشمس الشنقيطي عالم القبائل الملثمة، ولقي الشيخ طاهر الجزائري، والشيخ محمد رشيد رضا، ولقي كثيراً غير هؤلاء من علماء السنة.

=

طبعة أولاد السيد مصطفى الحلبي بمصر): «ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفاً، أو كلمة ساقطة، فيكون إنشاء عشر ورقات من حرِّ اللفظ، وشريف المعاني أيسر عليه من إتمام ذلك النقص؛ حتى يرده إلى موضعه من أمثلة الكلام؛ فكيف يطيق ذلك المعارض المستأجر، والحكيم نفسه قد أعجزه هذا الباب؟ وأعجب من ذلك أنه يأخذ بأمرين: قد أصلح الفاسد، وزاد الصالح صلاحاً، ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخة لإنسان آخر، فيسير فيه الورَّاق الثاني سيرة الورَّاق الأول.

= وهذا اللقاء المتتابع للعلماء هو الذي مهد لهذا العالم أن يستقل بمذهب في علم الحديث حتى استطاع أن يقف في منتصف القرن الرابع عشر علماً مشهوراً لا ينازعه في إمامة التحديث إلا قليل.

ولما حاز الشهادة العالمية من الأزهر سنة ١٩١٧م عين مدرساً بمدرسة ماهر، ولكن لم يبق فيها غير أربعة أشهر، ثم عين موظفاً قضائياً، ثم قاضياً، وظل في القضاء مدة ثلاثين سنة حتى أحيل إلى المعاش في سنة ١٩٥١م عضواً بالمحكمة العليا.

ولكنه لم ينقطع خلال ذلك عن دراساته، وعن المشاركة في نشر التراث الإسلامي في الحديث والفقه والأدب.

وكان رحمه الله ينشر مقالات نفيسة في مجلة (الهدي النبوي) بدءاً من المجلد الخامس عشر حينما كان رئيساً لتحريرها، وذلك تحت عنوان (كلمة الحق).

كما كان ينشر مقالات أخرى في الإرشاد، والنقد، والإصلاح، والأخلاق.

خلف رحمه الله آثاراً عظيمة في الحديث والفقه والأدب ولعل أبرزها تحقيقه للمسند، وإخراج كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة، ولباب الآداب لأسامة بن منقذ وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره.

انظر مقدمة الأستاذ عبدالسلام هارون، وترجمة الأستاذ محمود شاكر لأخيه أحمد ـ رحمهم الله ـ وذلك في مقدمة كتاب (كلمة الحق).

ولا يزال الكتاب تتداوله الأيدي الجانية، والأعراض المفسدة، حتى يصير غلطاً صرفاً وكذباً مصمتاً؛ فما ظنكم بكتاب تتعاقبه المترجمون بالإفساد، وتتعاوره الخطاط بشرٍّ من ذلك أو بمثله، كتاب متقادم الميلاد، دهريُّ الصنعة».

وقال الأخفش: «لو نُسخ الكتاب، ولم يعارض، ثم نُسخ ولم يعارض خرج أعجميّا!».

وصدق الجاحظ والأخفش، وقد كان الخطر قديماً في الكتب المخطوطة، وهو خطر محصور؛ لقلة تداول الأيدي إياها، مهما كثرت وذاعت؛ فماذا كانا قائلَين لو رأيا ما رأينا من المطابع، وما تجترحه من جرائم تسميها كتباً!!

ألوف من النسخ من كل كتاب، تنشر في الأسواق والمكاتب، تتناولها أيدي الناس، ليس فيها صحيح إلا قليلاً؛ يقرؤها العالم المتمكن، والمتعلم المستفيد، والعامي الجاهل وفيها أغلاط واضحة، وأغلاط مشكلة، ونقص وتحريف؛ فيضطرب العالم المتثبِّت إذا هو وقع في خطأ في موضع نظر وتأمل ويظن بما علم الظنون، ويخشى أن يكون هو المخطئ، فيراجع ويراجع، حتى يستبين له وجه الصواب؛ فإذا به أضاع وقتاً نفيساً وبذل جهداً هو إليه أحوج؛ ضحيَّة لعب من مصحح في مطبعة، أو عمد من ناشر أمِّيٍّ، يأبى إلا أن يوسد الأمر إلى غير أهله، ويأبى إلا أن يركب رأسه؛ فلا يكون مع رأيه رأي.

ويشتبه الأمر على المتعلم الناشئ، في الواضح والمشكل، وقد يثق بالكتاب بين يديه، فيحفظ بالخطأ، ويطمئن إليه، ثم يكون إقناعه بغيره عسيراً، وتصوَّر أنت حال العامي بعد ذلك!!.

وأيٌّ كتب تبتلى هذا البلاء؟ كتب هي ثروة ضخمة من مجد الإسلام، ومفخرة للمسلمين، كتب الدين والعلم: التفسير والحديث، والأدب والتاريخ، وما إلى ذلك من علوم أُخر.

وفي غمرة هذا العبث تضيء قلةٌ من الكتب طبعت في مطبعة بولاق قديماً عندما كان فيها أساطين المصححين، أمثال الشيخ محمد قطة العدوي، والشيخ نصر الهوريني، وفي بعض المطابع الأهلية كمطبعة الحلبي والخانجي.

وشيء نادر عنى به بعض المستشرقين في أوروبة وغيرها من أقطار الأرض يمتاز عن كل ما طبع في مصر بالمحافظة الدقيقة - غالباً - على ما في الأصول المخطوطة التي يطبع عنها مهما اختلفت، ويذكرون ما فيها من خطأ وصواب، يضعونه تحت أنظار القارئين، فَرُبَّ خطأ في نظر مصحح الكتاب هو الصواب الموافق لما قال المؤلف، وقد يَتَبَيَّنُهُ شخص آخر عن فهم ثاقب، أو دليل ثابت.

وتمتاز طباعتهم - أيضاً - بوصف الأصول التي يطبعون عنها وصفاً جيداً، يظهر القارئ على مبلغ الثقة بها، أو الشك في صحتها؛ ليكون على صحة من أمره.

وهذه ميزة لن تجدها في شيء مما طبع في مصر قديماً بلغ ما بلغ من الصحة والإتقان؛ فها هي الطبعات الصحيحة المتقنة من نفائس الكتب المطبوعة في بولاق، أمثال: الكشاف، والفخر، والطبري، وأبي السعود، وحاشية زاده على البيضاوي، وغيرها من كتب التفسير، وأمثال البخاري، ومسلم، والترمذي، والقسطلاني، والنووي على مسلم، والأم للإمام الشافعي، وغير

ذلك من كتب الحديث والفقه؛ وأمثال لسان العرب، والقاموس، والصحاح، وسيبويه، والأغاني، والمزهر، والخزانة الكبرى، والعقد الفريد، وغيرها من كتب اللغة والأدب؛ وأمثال تاريخ ابن الأثير، وخطط المقريزي، ونفح الطيب، وابن خلكان، وذيله، والجبرتي، وغيرها من كتب التاريخ والتراجم، إلى غير ذلك مما طبع من الدواوين الكبار ومصادر العلوم والفنون.

أتجد في شيء من هذا دليلاً أو إشارة إلى الأصل الذي أخذ؟!

وأقرب مثل لذلك كتاب سيبويه طبع في باريس سنة ١٨٨١م (توافق سنتي ١٢٩٨، ١٢٩٩هـ) ثم طبع في بولاق في سني ١٣١٦ـ ١٣١٨هـ وتجد في الأولى اختلاف النسخ تفصيلاً بالحاشية، ومقدمة باللغة الفرنساوية فيها بيان الأصول التي طبع عنها، ونصَّ ما كتب عليها من تواريخ وسماعات واصطلاحات وغير ذلك حرفيًّاً باللغة العربية؛ ثم لا تجد في طبعة بولاق حرفاً واحداً من ذلك كله، ولا إشارة إلى أنها أخذت من طبعة باريس.

فكان عمل هؤلاء المستشرقين مرشداً للباحثين من المُحْدَثين.

وفي مقدمة من قلَّدهم وسار على نهجهم العلامةُ الحاج أحمد زكي باشا رحمه الله ثم من سار سيره، واحتذى حذوه.

ومن ذلك كانت طبعات المستشرقين نفائس تقتنى، وأعلاقاً تُدَّخَر، وتغالى الناس، وتغالينا في اقتنائها على علو ثمنها، وتعسر كثير منها على راغبيه.

ثم غلا قومنا غلوًّاً غير مستساغ في تمجيد المستشرقين، والإشادة بذكرهم، والاستخذاء لهم، والاحتجاج بكل ما يصدر عنهم من رأي خطأ أو صواب

يتقلدونه، ويدافعون عنه، ويجعلون قولهم فوق كل قول، وكلمتهم عالية على كل كلمة؛ إذ رأوهم أتقنوا صناعة من الصناعات: صناعة تصحيح الكتب؛ فظنوا أنهم بلغوا فيما اشتغلوا به من علوم الإسلام والعربية الغاية، وأنهم اهتدوا إلى ما لم يهتد إليه أحد من أساطين الإسلام وباحثيه؛ حتى في الدين: التفسير والحديث والفقه.

وجهلوا أو نسوا، أو علموا وتناسوا أن المستشرقين طلائع المبشرين، وأن جلَّ أبحاثهم في الإسلام وما إليه إنما تصدر عن هوى، وقصد دفين، وأنهم كسابقيهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.

وإنما يفْضُلونهم بأنهم يحافظون على النصوص، ثم هم يحرفونها بالتأويل والاستنباط.

نعم إن منهم رجالاً أحرار الفكر لا يقصدون إلى التعصب، ولا يميلون مع الهوى، ولكنهم أخذوا العلم عن غير أهله، وأخذوه من الكتب، وهم يبحثون في لغة غير لغتهم، وفي علوم لم تمتزج بأرواحهم، وعلى أسس غير ثابتة وضعها متقدموهم، ثم لا يزال ما نُشِّئوا عليه، واعتقدوا يَغْلِبُهم، ثم ينحرف بهم عن الجادة، فإذا هم قد ساروا في طريق آخر غير ما يؤدي إليه حريةُ الفكر والنظر السليم.

ومعاذ الله أن أبخس أحداً حقه، أو أنكر ما للمستشرقين من جهد مشكور في إحياء آثارنا الخالدة، ونشر مفاخر أئمتنا العظماء.

ولكني رجل أريد أن أضع الأمور مواضعها، وأن أُقِرَّ الحقَّ في نصابه، وأريد

أن أعرف الفضل لصاحبه، في حدود ما أسدى إلينا من فضل، ثم لا أجاوز به حده، ولا أعلو به عن مستواه.

ولكني رجل أتعصب لديني ولغتي أشد العصبية، وأعرف معنى العصبية وحدَّها، وأنْ ليس معناه العدوان، وأنْ ليس في الخروج عنها إلا الذل والاستسلام.

وإنما معناها الاحتفاظ بمآثرنا ومفاخرنا، وحوطُها والذود عنها؛ وإنما معناها أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأعرف أنه «ما غُزِيَ قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا».

وقد ـ والله ـ غُزِينا في عقر دارنا، وفي كل ما يقدسه الإسلام، ويفاخر به المسلمون.

وكان قومنا ضعافاً، والضعيف مُغْرَىً أبداً بتقليد القويِّ وتمجيده؛ فرأوا من أعمال الأجانب ما بهر أبصارهم؛ فقلدوهم في كل شيء، وعظموهم في كل شيء، وكادت أن تعصف بهم العواصف، لولا فضل الله ورحمته.

غرَّ الناسَ ما رأوا من إتقان مطبوعات المستشرقين؛ فظنوا أن هذه خطة اخترعوها، وصناعة ابتكروها، لا على مثال سابق، ليس لهم فيها من سلف، ووقع في وهمهم أن ليس أحد من المسلمين بمستطيع أن يأتي بمثل ما أتوا، بَلْهَ أن يُبُزَّهم إلا أن يكون تقليداً واتباعاً، وراحوا يثقون بالأجنبي، ويزدرون ابن قومهم ودينهم؛ فلا يعهدون له بجلائل الأعمال وعظيمها، بل دائماً: المستشرقون! المستشرقون!! ويلقى الأجنبي منهم كل عون وتأييد إلى ما له في قومه

وبلاده من عون وتأييد.

وقد يلقون للمسلم والمصري فضلات من الثقة؛ على أن يكون ممن يعلنون اتِّباع المستشرقين، والاقتداء بهم، والاهتداء بهديهم، وعلى أن يكون ممن درسوا وتعلموا باللغات الأجنبية، حتى فيما كان من العلوم إسلاميًّا وعربيًّا خالصاً، وعلى أنه إذا عهد لأجنبي ومصري بعمل واحد كان الاسم كله للأول، والثاني تابع؛ ولعله أن يكون الثاني أرسخ قدماً فيما عهد إليهما، على قاعدة (علمه وأطع أمره)!!

وما كان هذا الذي نصف خاصًّا بالعمل في الكتب وحدها، وإنما هي ذلة ضربت على المسلمين في شأنهم كله، عن خطط تبشيرية ثم استعمارية، رسمت ونفِّذت، في كل بلد من بلدان الإسلام، وليس المقام مقام تفصيل ذلك، ولكنا نعود إلى ما نحن بسببه من تصحيح الكتب.

لم يكن هؤلاء الأجانب مبتكري قواعد التصحيح، وإنما سبقهم إليها علماء الإسلام المتقدمون، وكتبوا فيها فصولاً نفيسة، نذكر بعضها هنا، على أن يذكر القارئ أنهم ابتكروا هذه القواعد؛ لتصحيح الكتب المحفوظة، إذ لم تكن المطابع وُجدت، ولو كانت لديهم لأتوا من ذلك بالعجب العجاب، ونحن وارثوا مجدهم وعزِّهم، وإلينا انتهت علومهم؛ فلعلنا نحفز هممنا لإتمام ما بدؤا به.

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا



٣٨ احترام الأفكار[١] للشيخ محمد الطاهر بن عاشور

يقول المبتدؤون والمتوسطون من الكتَّاب «بنات الأفكار» إذا أرادوا أن يملّحوا العبارة، ويدلوا على منزلهم في علم الاستعارة، وهم لا يشعرون ـ عند لفظ هاته الكلمة من أفواههم إلا بتلك الاستعارة المطروقة المبذولة ـ حدوث ذلك الشيء الذي ذكروه عن ازدواج المقدمات وتمخض الفكر.

وربما كان البعض ذاهلاً أو عاجزاً عن هذا المقدار؛ فلا عجب أنهم ذهلوا عن شيء أكبر منه أفادته العبارة وما أراده قائلها: وهو تمام التشابه بين الأفكار وبين انتساب البُنُوة من جميع أطرافه، حتى تجد مُبْتَكَرَ فكرك منك بمنزلة ابنك أو بنتك، وكأنهم اختاروا الثاني؛ قصداً للمبالغة في الحرمة والغيرة.

احترام النسب يقع على وجهين: احترامه قبل قوامه، أي أن يُتوخى كل ما يدفع اختلاطاً أو فساداً في النسب، وهو الذي سماه علماء الشريعة حفظ الأنساب، وناطوه مع الكليات التي كانت أساس قانون الشرع التفصيلي، واحترامه من الاعتداء عليه بعد وجوده أن لا يسبَّ أو ينبذ، أو يقابل بالطعن.

فإذا كانت الأفكار أنساباً أدبية فبغير شك يكون الاجتراء عليها بواحد من

(١) مجلة السعادة العظمى عدد١٨ ص٢٧٣ـ٢٨١، في ١٦ رمضان ١٣٢٢، وسيلاحظ القارئ الكريم أن هذه المقالة متينة قوية، ولكنها صعبة متعاصية؛ لأنها من بواكير كتابات الشيخ ابن عاشور رحمه الله حيث كتبها وهو في السادسة والعشرين من عمره، وسترى مقالة «مجلس رسول الله ﷺ» وهي أي أيسر وأسلس من هذه المقالة بكثير.

هذين الجرمين ـ اللذين احترما بالاحترامين ـ جنايةً عظيمةً في باب الأدب لو سنَّ له أهله حدوداً يُخزى بها المعتدون، ويخسأ بها المتكالبون.

وضع شيء في غير ما وضعته يد الزمان، وإن تقصى عن كلفة التصنع لا يفارق مفسدة الاجتراء على بعثرة نواميس الكون والاعتداء على نظامه، وإيهام غير الواقع فيه واقعاً.

وفي ذلك من قلب الحقيقة ما أوجب تحريم الكذب، وتكرير لعن صاحبه، فإذا كان الكذب الذي يذكرونه التمويه اللساني، فهذا التمويه الفعلي الذي يكون أشد متى كان الفعل أوقع من القول: لو عمدت إلى رجل من سوقة الناس، فأسندت إليه مسائل حققتها، أو رسائل نَمَّقتها، لكنت توحي إلى الأمة أن تسند إلى هذا الرجل منصب الرئاسة في علومها، أو أن تكل إليه قلمها الذي به تدافع عن نفسها.

وفي هذا ما يجر الفساد لنفسك ولصاحبك وللأمة، أما الثالثة فقد ضرب فيها الفساد منذ صارت بيد من لا يعرف كيف يدير، وحسبك من هاته الكلمة تشخيصاً لحالها.

وأما صاحبك فرجل ألقي إلى الأمة بذلك الوصف العظيم، فكيف تراه والمشاكل تتقاطر عليه، وعيون الحيرة تعشو إلى ضوء اهتدائه، وتنظر إليه، ثم لا يبوء لهم أمرهم إلا بضلال مبين، أو سكوت إن كان المسؤول من خُلَّص الجاهلين.

وأما نفسك فأنت ـ إذن ـ بها أعرف.

قضت سنة الله في الناس أن تخضع نفوسهم إلى الحق والواقع والثابت، ترى الرجل تُسند إليه الهِنَةُ وهو بريء منها، فتصعد إلى دماغه دماء الغضب، ويدافع عن نفسه دفاع البريء المخلص، بلسان فصيح، وقلب صحيح، ثم تراه تسند إليه تلك السيئة إن كان قد اقترفها، فيطأطىء لها رأساً، ولا يجد منها مناصاً، مهما سترها بأطمار الجمود[1] والمكابرة، حتى تفتضح حاله عند الفراسة الصادقة، أو يزلق لسانه عند البحث الشديد، أليس ذلك آية على أن النفس تخضع إلى الحق وإن لم يكن مشتهاها؟ وتبرأ من الباطل وإن كان هواها؟

كذلك الرجل يبلوه الله ـ تعالى ـ بنبات ذرية سوء، فيستسلم إلى ما قدر عليه، فلو كان ذلك الولد دَعِيَّه لقرع السن من ندم، ورضي أن لو باء من سعيه بالعدم.

هكذا حال الأفكار ومنشئاتها متى أسندت إلى غير أصلها قارنتها ندامة واغتباط، وفضيحة تلوح على أخواتها مِنْ تخالفِ شكل، وانحلال، ورباط.

لعل في هذا المقدار مَقْنَعاً من إيصال هذا الإحساس الحكمي إلى نفوسكم أيها النقاد، وتعريفاً بوجوب دعائنا الأفكار إلى آبائها؛ لنقوم بالقسط، فلن نكون كذي ذهن عاقر يُشَوِّه فضيلته بانتحال أفكار ما كان لينال أمثالها.

قد تغتفر الأمور الضرورية والإحساسات الفطرية العامة التي تشترك فيها أفراد الأمة متى تقاربت في الشعور، فلا يجب إسنادها، وربما استحال في البعض ذلك، إن الذي قالها بالأمس لم يصدر كلامه حتى قال مثلها، أو قاربها اليوم

---

(١) لعلها: الجحود. (م)

آخر.

أما احترام الفكر بالمعنى الثاني فحق على كل صاحب فكر أن يقابل فكر غيره بالاحترام دون السخرية والهزو؛ فإن الاسترسال على ذلك يُجْبِنُ الذين تخلقت فيهم مبادئ العقل النظري عن الإعلان بما وُهِبوه؛ خشية الاستهزاء والاستسخار، ولو كانت قد وصلت إلى التمكن والرسوخ لأَمَّنا عليها حتى إن تتستر كشمس تحت السحاب، أو كإدبار المحترف للقتال، أترون ذلك يرزونا المنفعة المقصودة؟ ولكننا لا نخشى عليها إلا أن تموت تحت أقفال الأسر في صباها، وما بلغت أَشُدَّاً تستطيع به مقاومةَ الزمان، ولَيَّ أيدي المضطهدين.

نحن نوقن أن أفكاراً ساقطة تنشأ في الأمة قد يجب الضغط أن لا تشيع؛ فتستهوي أقواماً غافلين بسطاء، فتصبح وباءاً في الأفكار المهزولة.

ولكنَّا لما وازنَّا بين هاته المصلحة النادرة، وبين المفسدة الكبرى التي كانت ولا زالت تتضاءل من اضطهاد الأفكار السامية، باسم التحقيق آونة وباسم.... أخرى؛ لأنها لا توافق الرغبات، ولا تجاري الشهوات ـ حكمنا للأفكار باحترامها، وجعلنا البحث والنقد معياراً يُمَيِّز به خبيثها من طيبها، ولا يلبث الحق أن يهزم الباطل.

لو كنا نضطهد الأفكار لاشتبه الباطل منها بالحق، فيصرخ يستنصر لاهتضامه كما يستصرخ الحق شيعته، وربما وجد من السامعين قلوباً ترق للمضعوف وإن جار، فيصبح فتنة أشد مِنْ أَنْ لو ترك يتمارض بالنقد الصحيح والحجة الدامغة، حتى يموت حتف أنفه، ثم لا يثأر له أحد.

ليس يحول هذا دون الواجب من تقويم المخطئ، إنا نعني باحترام الفكر أن لا يُتعرَّض لصاحبه الشخصي بالطعن والاستخفاف.

ولكن التقويم يكون بصفة كلية، وتعريض بسيط بين سقوط الرأي بوجه برهاني أو خطابي ينفر الغافلين.

وليس احترام الأفكار يأبى مناقشتها والحكم بضعفها، لكن تجب الأناة في الحكم على الفكر أن لا يتعرض له بالنقد، مادام فيه احتمال الصواب.

أليس في ارتياء مقاصد المتكلمين قبل التسارع إلى تغليطهم ببوادر الظنون، أو بشهوات نفس تخب خَبَبَ البازل الأمون ما نقتصد به زمان المراجعة إلى استئناف شيء جديد ونحفظ به كرامة الاتحاد، وسلامة الضمير، ونسلم به من افتضاح حب التشفي، والانتقام لإطفاء ثوائر الحسد والغل؟.

ما كان التقرير على الخطأ إلا خطأً وتضليلاً، ولكن نظيره في التضليل وأعظم منه فساداً التسارعُ إلى تغليط الصائبين لاسيما إن قارنه ما يقارن سفاهة الرأي، وضيق الصدر، وبالثاني غليل الجهل من تفويق سهامِ نقدٍ تخطىء الرمية، والأخذ بسلاح العاجزين من الغيبة والشتيمة التي تسترحم عن قصد صاحبها من غير غرض ترشقه، اللهم إلا رأي رجل اعتدت منه المكابرة والمسارعة إلى الزج بنفسه فيما لا يدبر منه مخرجاً ولا يجد لمثله فيه مولجاً، ثم قومته المرة والمرتين، فما زاده تقويمك إلا عناداً، ولا أكسبه اقتصادك إلاَّ سرافاً وازدياداً؛ فإنك إن رأيت منه ما يقتضي أن تسلك معه مسلك الخطابة من تقبيح انتحاله، وتشخيص مشوه حاله ـ فلا ملام عليك إن كنت قد صادفت البلاغة في

فعلك أو قاربت.

قد ترى قوماً أغرقوا في احترام أفكار الناس «وما كل الناس» إلى غور عميق، فغشيهم ظلام طمس على أعينهم حتى تلقوا كل قول بالتأييد، وحكموا في كلا المتناقضين بأنه سديد، واتسموا -أكرمك الله- بِسمَةِ البليد، ثم ترى رجلاً يخترق قلوبهم بنصائح تفتح لهم أعيناً عمياً، وقلوباً غلفاً وهم في صمم عن تلقيها؛ أفتعذره إن رأيته يسلك معهم ذلك المسلك؟أم تعذره إن خالف ما تأصل من احترام الأفكار؟

لعلك تشعر ساعتئذٍ بأن أصول التهذيب دواليب تدور، وأنه تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور؟.

سيظن البسطاء من الناس أن احترام الأفكار، وحريتها يخولها حق الاجتراء بنحو الشتيمة، ولكنه ظن سريع التقشع متى وجدوا لساناً حكيماً يبين لهم أن الحرية والاحترام شيء، وأن الاجتراء شيء آخر؛ لأن الحرية إنما ينالها المرء بعد شعوره بوجوب مساواته مع غيره فيها، وإلا كانت الاستعباد الذي نفر منه، فإن طلبت أنفسهم زيادة البيان فإنا نحيلهم على كلام طويل في معنى الحرية، لو بسطناه لفصم عنا سلك الكلام في مرادنا من هذا المقال.

فإذا كانت الأفكار محترمة كما قلنا فالاجتراء عليها بما ذكرنا يتساهل عقوبة على خرق سياج هذا الاحترام حقاً؛ لأن ذلك يثير العصبيات ويجفي عن الحقيقة التي ما احترمت الأفكار إلا لأجل الوصول إليها.

من أكبر الأسباب في تقدم الأمة بعلومها وقبولها لرتبة التنوير وأهليتها

للاختراع في معلوماتها ـ أن تشب على احترام الآراء على الوجه الذي وصفنا من قبل، وعسى أن نصف من بعد.

وقد كان للمسلمين من ذلك الحظ الذي لم يكن لغيرهم يومئذٍ من التسامح مع الأفكار، شهد بذلك التاريخ وأهله إلا المتعصبين منهم مع ما كان بين أصناف أهل الآراء من التناظر والجدل، ولكنك لا تجد ذلك محفوظاً بتعصب ولا اضطهاد، كنت ترى الأشعري بين يدي المعتزلي لا يستنكف عن تلقي فوائده، والاعتراف له بحق التعليم، وترى السني يتعلم عن القدري وعن الفيلسوف الشاكّ، قد كان عمرو بن عبيد الزاهد الشهير من خاصة تلاميذ الحسن البصري ـ رحمهما الله ـ وهو الذي كان مكلفاً بكتابة ما يمليه الحسن من التفسير الذي يرد به على القدرية والمعتزلة، وما كان يمنعه ذلك من المجاهرة باتباعه مذهب المعتزلة، ومن التحاقه بدروس واصل بن عطاء الغزال الذي قال له الحسن لما كثرت مناقشته اعتزل مجلسنا، فكان عمرو بن عبيد يختلف إلى الدرسين جميعاً، وما كان ذلك يمنع الحسن من تكليفه بإملاء تفسيره، حتى استخدم اختلاف الآراء آلة للتشيع السياسي حين أذنت الدولة العربية والجامعة الإسلامية بالانحلال والافتراق اللذين تركا من الآثار ما نحن نتخبط في مصائبه ولأوائه حتى اليوم.

وكذلك الحَجْر على الرأي يكون منذراً بسوء مصير الأمة، ودليلاً على أنها قد أوجبت نفسها خفية من خلاف المخالفين، وجدل المجادلين، وذلك يكون قرين أحد أمرين، إما ضعف في الأفكار، وقصور عن إقامة الحق، وإما قيد الاستعباد الذي إذا خالط نفوس أمة كان سقوطها أسرع من هويّ الحجر الصلد.

حكى الجاحظ: أنَّ النظَّام دخل على شيخه أبي هذيل العلاّف، فقال: يا أبا الهذيل! لم قررتم أن يكون الله ـ تعالى ـ جوهراً خشية أن يكون جسماً؟ فهلاَّ قررتم أن لا يكون جوهراً مخافة أن يكون عرضاً، والجوهر أضعف من العرض، فبصق أبو هذيل في وجهه فقال النظَّام: قبحك الله من شيخ! فما أضعف حجتك!.

وكان الخليفة المأمون يقول لأهل ناديه إذا جاروه على كلام: هلاَّ سألتموني لماذا؟ فإنَّ العلم على المناظرة أثبت منه على المهابة.

دامت على ذلك الأمة الإسلامية متمتعة باحترام الأفكار، جرى كل واحد على أن يبوح برأيه، وجرى كل مستمع على تقويمه بالحق، وإن وقع في خلال ذلك حادثة صغيرة وقعت بالقدس بين الباطنية وأهل السنة؛ إلا أنهما لأسباب عالية، وغلط فاحش لا يسع ذكره اليوم.

لما استخدمت الآراء للسياسة، وشاعت المداهنة بين الناس، وضعفت الكبراء عن الحجة، يومئذٍ ساد اضطهاد الأفكار والضغط عليها؛ كي لا تسود على مخالفتها القاصرين الظاهرين في مظاهر العلماء المحققين.

نعني بالسياسة ما يقرن سياسة الدول في تصرفاتها وأغراضها بسياسة الأشخاص المسيطرين في هواهم، وربما كان القسم الثاني أشد على الأفكار لكثرة دواعيه، ووفرة منتحليه، وأنواع وجهتهم في هذا الغرض: منهم من يفعل ذلك إبقاءاً على منصبه، واستحفاظاً على وجاهته؛ لأنه يخال أن كل مخالفة له في الرأي تنذر بثَلِّ عرشه، وزلزال أركانِه، والمريضُ كثير الأوهام.

ومنهم الذي يسخط من مخالفة المعتاد، ويرى العادة ديناً أو شبه دين، يجب أن لا يتلاعب به الشخص، ومنهم الذي يتوهم أن الدين يخالف احترام الآراء، وهذا إن شئت أن تجعله فرعاً من سابقه وجدته لك أطوع من نعلك.

ومنهم الحاسد العاجز الذي يحب أن يظهر في مظاهر الكمال بكلمات يلفقها، ويحس في ذكر ذلك لذة ما دام منفرداً بها، فإن شاع ذلك بين الناس تميز من الغيظ.

كنت أعرف رجلاً ينادي بين الناس باسم النقد للحالة والطعن في الأوضاع المعتادة، وربما ترقى إلى بعض الشتيمة زمانَ كان يقول ذلك وحده يحب الشهرة وما يلقاها، ويترصد طريقها وما يقع بمرآها، كان يومئذٍ مستأثراً بورقات ينقل منها ما يغلط به، فلما امتدت الأيدي، وانبرت العيون إليها، واستوى مع غيره في معرفتها ـ انصاع يُقبِّح ذلك الحال، ويرى خلفه ودعاءهم في ضلال.

مما يخص بالوصاية والاحترام أفكار المتقدمين الذين وصلوا بنا إلى حيث ابتدأنا من العلم والمدنية، عوضاً أن نكون في متحركهم الأول نبتدئ سيراً بطيئاً، كما قالوا: إن الإنسان ابن يومه لا ابن أمسه، فهو ـ أيضاً ـ ليس بابنٍ لغده؛ فمقدار فضيلة الرجل ومكان شهرته لا ينظر فيه إلى غير يومه الذي كان فيه، فلا يغلط لنا كثير من الناس ينتقصون الأقدمين بمستدركات المتأخرين، فإنما تعرف مقادير الرجال بما أوجدوه، لا بما تركوه؛ ولكن طرق الشهرة لا تختلف، وهي قوة الفكر، ومرتبة العلم والعمل على تنوير آراء المتعلمين والقارئين في عقل صحيح، ونية قويمة، ونصح جهير.

قد استهوى هذا الغلط الشيخ أبا علي ابن سينا حين بالغ في ثنائه على أرسطو حتى قال: أما أفلاطون الإلهي فإن كانت غايته من الحكمة ما وصلنا من علومه فإن بضاعته إذن لمزجاة.

وكأنه نسي أنه لولا أفلاطون بكلماته القليلة خوّل لأرسطو أن يبني عليها كثيراً ـ لكان أرسطو هو أفلاطون وبضاعته الوافرة كانت مزجاة.

هذا أيها الناشؤون على النقد، الباحثون عن الحكمة نبراس مبين، أقمناه بين أيديكم؛ ليضيء لكم مستقبلاً نيّراً وعسى إن اهتديتم بضيائه، واحتفظتم عليه من عواطف الأهواء والشبهات ـ أن تحمدوا غبَّه، وتسلكوا به طريق العقلاء، فتصبحوا سمراءَهم، والله يضيء آراءكم بالحكمة.

٣٩ الطب في نظر الإسلام[1] للشيخ العلامة محمد الخضر الحسين

عُرف الإسلام بأنه يدعو إلى التوكل على الخالق ـ جلَّ شأنه ـ ويوجِّه القلوب إلى تفويض الأمور إليه في كل حال، وهو ـ إن عُدَّ التوكلُ والتفويضُ إلى الله في جملة آدابه ـ لم يهمل النظر في الأسباب وارتباطها بمسبباتها؛ فأَذِنَ بل أمر بتعاطي ما دلَّتْ العقول والتجارب على أنه مجلبة خير، ونهى عن القرب مما عرف بأنه مجلبة شر.

والتوكل والأخذ بالأسباب يلتقيان في نفس واحدة ما شدَّ أحدهما بعضد الآخر؛ التوكل أدب نفسيٌّ يُبْتَغى به رضا الخالق ومعونتُه، والأخذُ بالأسباب عملٌ يجري على سنن الله في الخليقة؛ فمن وكَّل أمرَه إلى الله، ثم تعاطى أسبابه وصل إليه من أرشد الطرق، وعاد منه بأحسن العواقب.

والطبُّ إنما هو من قِبَل[2] الأسباب التي أذن الإسلام في تعاطيها، وهو من أشرف الصناعات.

وشرفُ الصناعة على قدر ما يترتب عليها من نفع الأمة، وتقويم أود حياتها.

ونَفْعُ الطبِّ في حماية الناس أو إنقاذهم من كثير من المهالك أمرٌ جليٌّ لا

---

(١) مجلة (الهداية الإسلامية) الجزءان الأول والثاني من المجلد التاسع عشر الصادران في رجب وشعبان ١٣٦٥، وانظر روائع مجلة الهداية الإسلامية ـ الإسلام والطب ـ إعداد الأستاذ علي الرضا الحسيني ص٩ـ٢٠.

(٢) لعلها: قبيل. (م)

يحتاج إلى بسط واستدلال.

ولا جرم أن يتجه الإسلام بشيء من العناية إلى الطب؛ ذلك أنه يريد من الأمة أن تكون عزيزة الجانب مهيبة السلطان حتى تستطيع أن تنفذ ما أمر الله به من إصلاح، وتتحامى ما نهى عنه من فساد.

وإنما يعزُّ جانبها، ويهاب سلطانها متى كانت كثيرة العدد، قوية الأيدي، والطبُّ من أهم الوسائل إلى كثرة النسل وقوة الأجسام.

ومن المعروف أنَّ في سلامة الأجسام معونةً على انتظام الأفكار، وسداد الآراء، وسماحة الأخلاق، وإنما تتفاضل الأمم برجاحة عقولها، واستقامة أخلاقها.

وإذا تحدثنا عن الطب في هذه المحاضرة، فإنما نقصد إلى معالجة الأمراض الحاصلة في الحال، ووقاية الأبدان من أن تُصاب بها في المستقبل، وذلك ما يُدعى بحفظ الصحة، وكذلك قال جالينوس: الطب حفظ الصحة، وإزالة العلة.

لما دخل عضدُ الدولة بغداد دخل عليه من الأطباء أبو الحسنِ الحرَّانيُّ وسنانُ بن ثابت، فقال: من هؤلاء؟ قالوا: الأطباء، قال: نحن في عافية، وما بنا حاجة إليهم، فقال له سنان: أطال الله بقاء مولانا، موضوع صناعتنا حِفْظُ الصحة لا مداواة المرضى، والملك أحوج الناس إلى حفظ الصحة، فقال عضد الدولة: صدقت، وقرر لهما الجاري السنوي، وقرَّبهما إلى مجلسه في طائفة من الأطباء.

رفع الإسلام من شأن الطب: مداواة العلل، وحفظ الصحة، وعرف هذا من القرآن الكريم، وأقوال النبي ﷺ وسيرته.

أما القرآن الكريم فقد أذن في ترك بعض الفرائض متى كان القيام بها يؤثر في الصحة بإحداث مرض، أو زيادته، أو تأخر برئه، وشرعَ في أحد هذه الأحوال التيمم بدل الوضوء أو الغسل، كما أذن للمريض والمسافر أن يترك كلٌّ منهما الصيامَ الواجبَ، ويقضيَ المريضُ الأيامَ التي أفطر فيها عندما تعود إليه صحته، كما يقضي المسافر أيام إفطاره عندما ينقطع سفره، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة: ١٨٤).

والإذن في الفطر للمسافر من قبيل حفظ الصحة؛ فإن السفر مَظِنةُ التعب، والتعب من مغيِّرات الصحة، فإذا وقع فيه الصيام ازداد التعب، فيزداد تغير الصحة.

وحرَّم الإسلام الدمَ ولحمَ الخنزير والميتة وما ألحق بها من المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السبع.

وسرُّ هذا التحريم أنها مؤثرة في الصحة، كما بيَّن هذا الأطباء في القديم والحديث، وقد تحدَّث الأطباء في هذا العصر عن مضارها من جهة الصحة بأوسع بيان.

وحرَّم القرآن مباشرة الحائض، وقد بسط الأطباء ـ أيضاً ـ في مضار هذه المباشرة بها من جهة الصحة مما يدل على أنه تحريم شارع حكيم.

وحرَّم القرآن الخمر والزنا، ولهذه المحرمات مضار صحية علاوة على المضار الاجتماعية، وكذلك فعل الأطباء اليوم.

فكشفوا القناع عن هذه المضار الصحية، فنترك الكلام عن هذه المضار

لحضرات الأطباء المحققين.

في الكشاف: يُحكى أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي ابن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان، فقال له: قد جمع الله الطبَّ في نصف آية من كتابه، قال: وما هي؟ قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأعراف: ٣١.

أما أقواله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فمنها ما رواه مالك في موطَّئه عن زيد ابن أسلم أن رجلاً في زمن النبيﷺ جرح، فاحتقن الدم، وإن الرجل دعا رجلين من بني أنمار فقال لهما رسول اللهﷺ: «أيكما أطب» فقال: أو في الطب خير يا رسول الله؟ فقال: «أنزل الدواء الذي أنزل الداء».

وعن هلال بن يسار أن رسول اللهﷺ دخل على مريض يعوده، فقال: «أرسلوا إلى طبيب» فقال قائل: وأنت تقول يا رسول الله؟ قال: «نعم إن الله ـعز وجلـ لم يُنزل داءاً إلا أنزل له دواءاً».

ونهى عن التنفس والنفخ في إناء الشراب أو الطعام؛ حتى لا يتناول الإنسان الطعام أو الشراب وقد مازجه ما لا خير في امتزاجه به.

وأما سيرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإنه كان يتعاطى بعض الأدوية، كما تداوى للجرح الذي أصابه في غزوة أحد، وأذن في الاحتجام عند تَبَوُّغ[1] الدم،

---

(١) تبوغ الدم: توقُّده، وهيجانه، ويشير هنا إلى حديث: «إذا تبوَّغ بأحدكم الدم فليحتجم». انظر لسان العرب ٤٢٢/٨ (م)

واحتجم في الأخدُعينِ والكاهل، وثبت في الصحيح أنه بعث إلى أبي بن كعب طبيباً فقطع له عرقاً، وكواه عليه، وجاء في الحمية أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ رأى علي بن أبي طالب يأكل عنباً فقال له: «مه مه يا علي؛ فإنك ناقِهٌ».

ومما جاء في الوقاية نهيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن الإقدام على أرض فشا فيها الوباء فقال: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها»، وفي رواية: «فلا تقدموا عليها».

ومما جاء من هذا القبيل تحذيره ـ عليه الصلاة والسلام ـ من مخالطة بعض ذوي الأمراض السارية كالجرب والجذام، وقال: «فرَّ من المجذوم كما تفر من الأسد».

قال ابن خلدون: «وللبادية من أهل العمران طبٌّ يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، متوارث عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض، إلا أنه ليس على قانون طبيعي، ولا على موافقة المزاج.

وكان عند العرب من هذا الطب كثير، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره، والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل وليس من الوحي في شيء، وإنما هو أمرٌ كان عادياً للعرب، ووقع في ذكر أحوال النبي ﷺ من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبلَّة لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل؛ فإنه ﷺ إنما بُعث ليعلمَنا الشرائع، ولم يُبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات، وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع، فقال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

فلا ينبغي أن يحمل شيء في الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع؛ فليس هناك ما يدل عليه اللهم إلا إذا استعمل على جهة التبرك، وصدق العقد الإيماني، فيكون له أثر عظيم في النفع».

وذهب ابن القيم في «زاد المعاد» غير هذا المذهب فقال: «وليس طبُّه ﷺ كطبِّ الأطباء؛ فإنَّ طبَّ النبي ﷺ متيقن قطعي إلهي صادر عن الوحي، ومشكاة النبوة وكمال العقل، وطبُّ غيرِه أكثره حدسٌ وظنون وتجارب.

ولا ينكر عدم انتفاع كثير من المرضى بطب النبوة؛ فإنه إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول، واعتقاد الشفاء به، وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان؛ فهذا القرآن الذي هو شفاء لما في الصدور إن لم يتلق بهذا التلقي لم يحصل به شفاء الصدور».

ثم قال: «فطبُّ النبوة لا يناسب إلا الأبدان الطيبة، كما أنَّ شفاء القرآن لا يناسب إلا الأرواح الطيبة، والقلوب الحية».

ونحن نرى أنَّ الطبَّ النبوي لا يلزم أن يكون وحياً، ولكن ما يقوله النبي ﷺ في هذا الشأن لابد أن يكون صحيحاً كبقية المسائل الطبية المشهود بصحتها في علم الطب، وننبه هنا على بعض أحاديث طبية تنسب إلى النبي ﷺ ونسبتها غير ثابتة، منها حديث: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء» يورده بعضهم مرفوعاً إلى النبي ﷺ ولم يثبت هذا عند المحدِّثين، بل قالوا: هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، أو كلام غيره.

ومنها حديثه: «البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء، وعوِّدوا كلَّ بدن ما

اعتاد» أورده الغزالي في الإحياء، وقال المحدِّثون: ليس له أصل.

ومنها حديث: «المعدة حوض البدن، والعروق إليه واردة، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة، وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم».

ولا يعرف هذا من كلام النبي ﷺ، وإنما هو من كلام عبدالملك بن سعيد ابن الحارث.

وأدرك الفقهاء رعاية الدين لحفظ الصحة والطب، فبنوا كثيراً من الأحكام الشرعية على رعايتها؛ فتراهم يفتون بمداواة الأجنبي للمرأة عند الضرورة، وإن اقتضى العلاج أن يطلع على ما لا يباح الاطلاع عليه.

وأفتوا بقبول قول الطبيب في كثير من الوقائع، والاعتماد عليه في القضايا نحو الجنائيات، ومن هنا نشأ ما يُسمَّى في هذا العصر بالطب الشرعي، ويسميه بعض علماء الهند بالطب الحكمي، وقالوا في تعريفه: هو المعارف الطبية والطبيعية المستعملتان في الأحكام الواقعة بين الناس.

وفي أمثال هؤلاء يقول بعضهم:

أعمى وأفنى ذا الطبيبُ بكحله ودوائه الأحياءَ والبصراءَ

فإذا رأيت رأيت من عميانه أمماً على أمواته قرّاء

وأجمع الفقهاء على أنَّ الطبيبَ الماهرَ إذا عالج مريضاً فأخطأ في اجتهاده، وتولد من معالجته تلف عضو أو نفس أو ذهاب صفة ـ فلا ضمان عليه، بخلاف المتطبب الذي لم يتقدم له معرفة بالطب يقدم على معالجة عليل، فيترتب على

علاجه تلف عضو أو نفس، فإنه يضمن[1].

ويعللون بعض الأحكام الشرعية بوجوه ترجع إلى حفظ الصحة.

أمر النبي ﷺ بغسل الإناء الذي يلغ فيه الكلب سبع مرات إحداهن بالتراب، فذكر الفقيه ابن رشد في تعليل هذا الحكم فقال: «ليس من سبب النجاسة، بل من سبب ما يتوقع أن يكون الكلب الذي ولغ في الإناء كَلِباً، فيخاف من ذلك السم».

قال الحفيد: «وقد اعترض عليه فيما بلغني بعض الناس بأن قال: إنَّ الكَلْبَ الكَلِبَ لا يقرب الماء حين كلبه» قال: «وهذا الذي قالوه عند استحكام هذه العلة بالكلاب لا في مبادئها، وفي أول حدوثها؛ فلا معنى لاعتراضهم».

وقال طائفة من محققيهم: إن المجذومين إذا كثروا يمنعون من المساجد والمجامع، ويتخذ لهم مكان ينفردون به عن الأصحاء، ويجري هذا الحكم في الجرب، وبعض أنواع الحمى التي يقرر الأطباء أنها أمراض سارية.

وعرف علماء الشريعة فضل صناعة الطب، وأنها من الأعمال التي تُكْسب حمداً؛ فأنفقوا فيها جانباً من أنظارهم وأوقاتهم، وأضافوها إلى علومهم الشرعية.

ومن هؤلاء العلماء رجال بلغوا في علوم الشريعة الذروة، منهم الإمام أبوالحسن علي سيف الدين الآمدي، وأبو عبدالله محمد بن عمر فخر الدين

---

(١) وأصل هذا ما رواه أبو داود والنسائي: أنه ـعليه الصلاة والسلامـ قال: «من تطبب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك فهو ضامن».

الرازي، والإمام أبو عبدالله المعروف بالمازري؛ فقد كان هذا العالم كما قال في ترجمته: يُفْزَعُ إليه في الطب كما يفزع إليه في الفتوى في الفقه، والفيلسوف محمد ابن أحمد بن رشد، وهو مؤلف «بداية المجتهد» في الفقه، وكتاب «الكليات» في الطب، والعلامة موفق الدين عبدالمطلب البغدادي، فقد كان يجمع بين الفقه والطب.

وظهرت عناية العلماء بهذه الصناعة في الإقبال على تدريسها والتأليف فيها.

وعني أمراء الإسلام بالطب، ولهذه العناية أربعة مظاهر:

أولها: تقريب الأطباء على اختلاف مللهم، وإسعادهم بالأرزاق الواسعة، والمناصب العالية، فقد نال عبدالملك بن أبجر الكناني لدى عمر بن عبدالعزيز حظوة، وكان عمر يستطبه، ويعتمد عليه في صناعة الطب، ونال ابن أثال حظوة عند معاوية بن أبي سفيان، فكان معاوية يستطبه، ويحسن إليه، ويكثر من محادثته.

ومن عناية سيف الدولة بالأطباء أنه كان يَحْضُر على مائدته أربعة وعشرون طبيباً، وقد يبلغ الطبيب أن يكون رفيع الشأن في دولة، فإذا تغيرت وقامت دولة أخرى مكانها استمرت منزلته في رفعة واحترام، كأبي بكر بن زهير؛ كان ذا حظوة في دولة المرابطين بالمغرب، ولما خلفتها دولة الموحدين لقي من هذه الدولة ـ أيضاً ـ الإقبال والإكرام.

أما إحرازهم المناصب العالية، فقد تولى الطبيب رفيع الدين الحلبي منصب قاضي القضاة بدمشق، وتولى ابن المرخم يحيى بن سعد منصب قاضي القضاة في

أيام المقتفي بدمشق، وكان طبيباً في المارستان المحمول، وفصَّاداً فيه.

وتولى الوزارة في عهد يعقوب المنصور سلطان المغرب أبو بكر بن نصر، وهو ـ كما قالوا ـ بمكان من اللغة مكين، ومورد من الطب عذب معين.

كما تولى الطبيب يحيى بن إسحاق الوزارة لعبدالرحمن الناصر، وحظي عنده بمنزلة رفيعة، ويدلكم على أن لصناعة الطب شرفاً يناسب الوزارة أن هذا الطبيب الوزير قد يلجأ إليه المبتلون بأمراض عسرة، وهو وزير، فيتولى علاجها بنفسه.

ثانيها: نقل كتب الطب إلى العربية: وجرى هذا في عهود طائفة من الخلفاء والأمراء مثل خالد بن يزيد بن معاوية، والمأمون، ومحمد بن عبدالملك الزيات، ومحمد بن موسى بن عبدالملك.

ودخل معظم كتب جالينوس الطبية في العربية بنقل حنين بن إسحاق، أو تصحيحه لها بعد نقلها، وظهر بعد نقل هذه الكتب إلى العربية مؤلفات عربية اللهجة ككتاب «القانون» لابن سينا وغيره من المؤلفات الوارد معظمها في كتاب «كشف الظنون» والكتب التي تصدت لتراجم الأطباء ككتاب «عيون الأنباء في تراجم الأطباء».

ثالثها: صيانة الطب عن أن يتعاطاه غير أهله: اتصل بالمقتدر أن غلطاً جرى من بعض المتطببين على رجل من العامة، فصدر أمر بمنع سائر المتطببين من التصرف إلا من امتحنه سنان بن ثابت، فامتحنهم سنان، وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه.

وفوَّض الخليفة المستضيء بأمر الله رياسة الطب ببغداد لأمين الدولة ابن التلميذ، فاجتمع إليه سائر الأطباء؛ ليرى ما عندهم، وشرع في امتحانهم واحداً بعد آخر.

رابعها: بناء المستشفيات: بنى الخلفاء والأمراء وغيرهم من المطبوعين على فعل الخيرات مستشفياتٍ كثيرةً كانت بالغةَ الغاية في استيفاء وسائل العلاج، وتوفير راحة المرضى حسبما يقتضيه رقيُّ العلم في عصورهم.

وقد تكفل كتاب تاريخ البيمارستانات في الإسلام للدكتور أحمد عيسى بوصف واسع تناولها من كل ناحية، مثل: البيمارستان العتيق الذي أنشأه أحمد ابن طولون بالقاهرة، والبيمارستان العضدي الذي أنشأه عضد الدولة ابن بويه في بغداد، وبيمارستان مراكش الذي أنشأه يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن في مدينة مراكش.

واتخذ أمراء الإسلام المستشفيات المتنقلة، قال ابن خلكان: إنَّ أبا الحكم المقري عبدالله بن المظفر نزيل دمشق، كان طبيب البيمارستان الذي كان يحمله أربعون رجلاً، والمستصحب في معسكر السلطان محمود السلجوقي حيث خيَّم.

وأول مستشفى أحدثه الوليد بن عبدالملك بن مروان بدمشق للمجذومين سنة ثمانٍ وثمانين وأجرى لهم فيها أرزاقهم.

شدة عنايتهم بمداواة المرضى، وتوفير وسائل الراحة لهم:

كان الأمراء يبنون المستشفيات، ويعيِّنون لها أطباء، ويُعِدّون فيها من الأدوية ما يُحتاج إليه.

كتب الوزير علي بن عيسى بن الجرَّاح في أيام خلافة المقتدر إلى سنان ابن

ثابت، وكان سنان هو القائم على أمر البيمارستانات: «فكرت في أمر الحبوس، وأنهم لا يخلون مع كثرة عددهم، وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض؛ فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم كلَّ يوم، ويحملون معهم الأدوية والأشربة وما يحتاجون إليه من المزوَّرات[1]، وتتقدم إليهم بأن يدخلوا سائر الحبوس، ويعالجوا فيها من المرضى، ويريحوا عللهم فيما يصفون لهم إن شاء الله ـ تعالى ـ».

وكتب إليه كتاباً آخر يقول فيه: «فكرت فيمن بالسواد من أهله، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم؛ لخلو السواد من الأطباء؛ فتقدم بإيفاد متطببين، وخزانة من الأدوية والأشربة يطوفون بالسواد، ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم، ويعالجون من فيه ثم ينتقلون إلى غيره».

وقد يتجاوز بعضهم في العناية بأحوال المرضى إلى حد الرفاهيةِ، وأوضحُ مثال لهذا معاملة المرضى بالمستشفى الذي أنشأه أبو يوسف المنصور يعقوب ابن يوسف بن عبدالمؤمن بن علي في مدينة مراكش، قال عبدالواحد المراكشي: «ذلك أنه بعد أن بنى المستشفى في ساحة فسيحة، وظهر في نقوشه البديعة وزخارفه المحكمة، وحفَّه بالأشجار ذات الثمار والأزهار، وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت، وأمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره مما يزيد عن الوصف».

ثم قال: «وأعد فيها للمرضى ثيابَ ليلٍ ونهار للنوم من جهاز الصيف

---

(١) خضر بدون لحم ولا دسم.

والشتاء، فإذا نقه المريض أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل».

وقال: «وكان في كلِّ جمعة بعد صلاته يركب، ويدخل يعود المرضى، ويسأل عن أهل بيت أهل بيت، ويقول: كيف حالكم، وكيف القومةُ عليكم».

عني رجال الإسلام بالطب حتى أصبح من العلوم التي تدرس في المعاهد أو المساجد على طريقة البحث وتحقيق النظر، يحدثنا التاريخ أن الملك الأشرف جعل لمهذب الدين عبدالرحيم بن علي مجلساً لتدريس صناعة الطب، ووقف مهذب الدين هذا داره بدمشق، وجعلها مدرسة يُدَرّس فيها صناعة الطب من بعده، وكان لموفق الدين عبدالعزيز بن عبدالجبار مجلس عام للمشتغلين عليه بعلم الطب.

وأقرأ علمَ الطبِّ رضيُّ الدين يوسف بن حيدرة الرحي، وكان لا يُقْرِئ هذا العلم إلا لمن يجده أهلاً له، قالوا: وكان يعطي صناعة الطب حقها من الرياسة والتعظيم.

وكان شمس الدين محمد بن عبدالله مدرساً للأطباء بجامع طولون.

وكان موفق الدين البغدادي يدرس الطب فيما يدرسه من العلوم بالأزهر الشريف.

وكان من إقبال أمراء الإسلام وعلمائه على علم الطب أن كثر أساتذته في العهود التي ازدهرت فيها العلوم على اختلاف موضوعاتها، وأسوق شاهداً على هذا أن سنان بن ثابت لما كلفه المقتدر بامتحان الأطباء بلغ عدد الذين أجرى عليهم الامتحان في جانبي بغداد ثمانمائة شخص ونيف وستين سوى من استغنى

عن امتحانه بشهرته بالتقدم في هذه الصناعة.

والذي نرمي إليه في هذا الحديث أن دينَ الإسلام، ونبيَّ الإسلام رفعا علم الطب وصناعته مكانة عالية؛ إذ كان الطب مظهراً من مظاهر الرأفة بالإنسانية، ووسيلة من أهم وسائل راحة النفوس، وتخليصها من آلام تُكَدِّر عليها صفو حياتها، ومعونةً لذوي الهمم الكبيرة على أن يتمتعوا بعافية تسعدهم في القيام بأعمال جليلة؛ فالأخذ بما ينصح به الأطباء الأمناء من إتيان أشياء، أو اجتنابها إنما هو عمل على حفظ الصحة التي تظهر بها الأفراد والأمم في قوة وعزم يسهل عندهما كل صعب، ويتضاءل أمامهما كلُّ خطب، وإنما خلق الإنسان؛ ليسير في طريق الفلاح، ويذلل ما يلاقيه من العقبات بإيمان صادق، وعزيمة ماضية.

عاشراً: مقالات في اللغة والأدب

٤٠ لغة الضاد[1] لمحمد صادق عنبر

أغنى اللغات السامية مادة، وأعذبها سحر بيان، وأرقها حاشية تبيان.

نزلت على ألسنة العرب، فجرت على ألسنتها سحراً كلُّ سحر غيره باطل، ولا بدع فكل بلد هي حلَّت به بابل.

أجل، لقد انقطعت ألسنة من منابتها، واجتثت لغات من أصولها، فلم يبق منها إلا آثار تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد، وتلك اللغة تدور مع الفلك: لا يُخْلِقُ ديباجتَها هرمٌ، ولا يُلِمُّ بها قدم.

وآية لها أنك ترى كيف عجز السيف على سعة الزمن أن يحول أمة عن لغتها، وقد استطاعت ـ ولم تجرد سيفاً ـ أن تشق لها طريقاً إلى ألسنة أعيا على غيرها علاجُها، وتقتحم العقبات إلى قلوب كان محكماً عليها رِتَاجُها[2]؛ فكأنها كانت ديناً لفطرة الألسنة لتكون بعد ذلك لساناً لدين الفطرة، ولا عجب إذا قَدِرتْ أن تصبغ كل بلد حَلّتْ به صِبْغَةً عربيةً إذ قالت لكل شيء: كن منذ الآن، فكان عربياً.

دخلت لغة القرآن الكريم كثيراً من بقاع الأرض، فما هي إلا فترة يبلغ الصبي في دونها الحلم حتى استتب لها الأمر فيها، وكانت كأنها محورٌ دارَ عليه التاريخ دورة أخرى ترى أين كانت العربية، ثم أين بلغت؟

---

(١) الحديقة ٧/ ١٥٠ـ ١٥٤، عام ١٣٤٩هـ.

(٢) الرتاج: القُفل.(م)

لقد كانت بدأةً تطوف بأركان تلك الجزيرة الجرداء على صفة ما كانت تأخذه أعين الناطقين بها من الفَدْفَد الوعر، والمَهْمَهِ القفر، ومن الفحل إذا هدر، والليث إذا زأر، والحمامة إذا سجعت، والناقة إذا ضبغت، والريح إذا لفحت، والسماء إذا ضنَّت، والأرض إذا حرَّت، والمكارم إذا هزَّت، والخيل إذا استنت، والأسنة إذا اشتجرت، ونحو هذا مما هو بتلك البادية أشبه وأمثل.

نعم، كان هنالك مطاف اللغة في باديء أمرها، ولكنها من سماء تلك البادية الناطقة الخرساء قد استمدت ذلك الخيال الذي يريك من الورد الذابل خدًّاً نديًّاً، ومن الغصن المائل قدًّاً عادلاً سمهريًّاً.

ثم سما ذلك الخيال الذي كان كأنه يواثب النجوم فلم يدع تشبيهاً بليغاً إلا وقع من ورائه، ولا فنًّاً من فنون القول إلا بلغ الغاية من الافتنان فيه، ولم يذر معنىً دقيقاً إلا أحكم تصويره، حتى بذَّت العربية اللغات على بكرة أبيها.

لقد وسعت اللغة العربية ما تضيق ببيانه هذه الأوراق فكانت وما فتئت تساير كل آخذ بِحُجْزَتِها إلى كل غرض يمشي إليه، فلم تضق ذرعاً باصطلاح، ولا برمت بالكشف عن معنى، ولا نشزت على قلم غَذَتْهُ بِلَبانها، ولا وقع بها العِيُّ دون حاجة، فلم تنهض ببيانها.

أما أين بلغت، فكل مبلغ؛ فقد تسربت بين العصا ولحائها، وتغلغلت بين الذَّرة وأجزائها، ومادَّت العلمَ حَبْلَها وقد ظلَّ ما بينه وبينها مبلولاً؛ فلم ييبس إلا حقباً معدودات؛ فقد وسعت معارف الدهر كلها، ولا تزال آثار العرب حجة لهم، ولعربيتهم ناهضة لم تقعد بها الأيام.

ألا إن العربية التي نبتت في تلك البيداء قد مدَّت ظلها على العلم كله، وذلك العربي الذي حيَّ حياته الأولى في منقطع من الأرض إذا سافرت فيه عيناه ففي صميم القفر، وإذا وقفنا به فعلى أديم الصخر، قد مشى بلغته مدىً بعيداً في أمد قريب.

فسلام على ذلك العهد النضير، وسلام على تلك البادية التي نبتت فيها أمة المجد والبيان، وسلام على هذه اللغة الخالدة على فناء الزمان.

٤١ البيان[1] لمصطفى لطفي المنفلوطي

قال لي أحد الوزراء ذات يوم: «إني لتأتيني رقاع الشكوى فأكاد أهملها لما تشتمل عليه من الأسباب المنفرة، والكلمات الجارحة، لولا أن الله ـ تعالى ـ يلهمني نيات كاتبيها وأين يذهبون، ولولا ذلك لكنت من الظالمين».

ذلك ما يراه القارئ في كثير من المخطوطات التي يخطها اليوم كاتبوها في الصحف، ورقاع الشكوى، والكتب الخاصة، والمؤلفات العامة.

هزلٌ في موضع الجد، وجدٌ في موضع الهزل، وإسهاب في مكان الإيجاز، وإيجاز في مكان الإسهاب، وجهل لا يفرق ما بين العتاب والتأنيب، والانتقام والتأديب، والاستعطاف والاستخفاف، وقصور عن إدراك منازل الخطاب ومواقفه بين السوقة والأمراء، والعلماء والجهلاء، حتى إن الكاتب ليقيم في الشوكة يشاكها مناحة لا يقيمها في الفاجعة يفجع بها، ويكتب في الحوادث الصغار ما يعجز عن كتابة مثله في الحوادث الكبار، ويخاطب صديقه بما يخاطب به عدوه، ويناجي أجيره بما يناجي به أميره.

ذهب الناس في معنى البيان مذاهب متشعبة، واختلفوا في شأنه اختلافاً كثيراً، ولا أدري علام يختلفون وأين يذهبون؟ وهذا لفظه دال على معناه دلالة واضحة لا تشتبه وجوهها، ولا تتشعب مسالكها؟

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم في النفس، وتصويره في نظر القارئ أو

---

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة الموضوعة ٢٥١/٢٥٧.

مسمع السامع تصويراً صحيحاً لا يتجاوزه، ولا يقصر عنه، فإن علقت به آفة تَيْنِكِ الآفتين فهي العي والحصر.

جَهل البيانَ قومٌ فظنوا أنه الاستكثار من غريب اللغة، ونادر الأساليب، فأغَصُّوا بها صدور كتابتهم، وحشوها في حلوقها حشواً يقبض أوداجها، ويحبس أنفاسها، فإذا قدّر لك أن تقرأها، وكنت ممن وهبهم الله صدراً رحباً، وفؤاداً جلداً، وجناناً يحتمل ما حمل عليه من آفات الدهر وأرزائه ـ قرأت متناً مشوشاً من متون اللغة، أو كتاباً مضطرباً من كتب المترادفات.

وجَهلَه آخرون فظنوا أنه الهذر في القول، والتبسط في الحديث واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع، فلا يزالون يَجْتَرون بالكلمة اجترار الناقة بجرتها، ويتمطقون بها تمطق الشفاه بريقها، حتى تَسِفَّ وتُبتذل، وحتى ما تكاد تسيغها الحلوق، ولا تَطْرُفُ عليها العيون، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

يخيل إلي أن الكُتَّاب في هذا العصر يكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس، وأن كتابتهم أشبه شيء بالأحاديث النفسية التي تتلجلج في صدر الإنسان حينما يخلو بنفسه، ويأنس بوحدته؛ فإني لا أكاد أرى بينهم من يحكم وضع فمه على أذن السامع، وينفث في روعه ما يريد أن ينفث من خواطر قلبه، وخوالج نفسه.

الكلام صلة بين متكلم يفهم، وسامع يفهم، فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلة الكاتب من العلو والإسفاف، فإن أردت أن تكون كاتباً فاجعل هذه القاعدة في البيان قاعدتك، واحرص الحرص كله على ألا يخدعك منها خادع؛ فتسقط مع الساقطين.

ما أصيب البيان العربي بما أصيب به إلاَّ من ناحية الجهل بأساليب اللغة، ولا أدري كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً عربياً قبل أن يطلع على أساليب العرب في أوصافهم، ونعوتهم، وتصوراتهم، وخيالاتهم، ومحاوراتهم، ومساجلاتهم، وقبل أن يعرف كيف كانوا يعاقبون، ويؤنبون، ويعظون، وينصحون، ويَتغزَّلون، وينسبون، ويستعطفون، ويسترحمون، وبأية لغة يحاول أن يكتب ما يريد إن لم يستمد تلك الروح العربية استمداداً يملأ ما بين جانحتيه حتى يتدفق مع المداد من أنبوب يراعته على صفحات قرطاسه.

إني لأقرأ ما كتبه الجاحظ، وابن المقفع، والصاحب، والصابئ، والهمذاني، والخوارزمي، وأمثالهم من كتاب العربية الأولى، ثم أقرأ ما خطه هؤلاء الكاتبون في هذه الصحف والأسفار، فأشعر بما يشعر به المتنقل دفعة واحدة من غرفة محكمة النوافذ، مسبلة الستور إلى جو يسيل قراً وضراً، ويترقرق ثلجاً وبرداً؛ ذلك لأني أقرأ لغة لا هيَ بالعربية؛ فاغتبط بها، وهي[1] بالعامية؛ فألهو بأحماضها ومجونها.

رأيت أكثر الكاتبين في هذا العصر بين رجلين: رجل يستمد روح كتابته من مطالعة الصحف وما يشاكلها في أساليبها من المؤلفات الحديثة والروايات المترجمة، فإذا علقت بنفسه تلك الملكة الصحفية ألقى بها في رُوْع قارئ كتابته أَدْوَنَ مما أخذها، فيدلي آخذها كذلك إلى غيره أسمج صورة، وأكثر تشويهاً، وهكذا حتى لا يبقى فيها من روح العربية إلا كما يبقى من الأطلال البالية بعد كرِّ

(١) هكذا في الأصل ولعل الصواب: ولا هي. (م)

الغداة ومر العشيّ، وطالب قصارى ما يأخذه من أستاذه: نحو اللغة وصرفها، وبديعها وبيانها، ورسمها وإملاؤها، ومترادفها ومتواردها، وغير ذلك من آلاتها وأدواتها.

أما روحها وجوهرها فأكثر أساتذة البيان عنده علماء غير أدباء، وحاجة طالب اللغة إلى أستاذ يفيض عليه روح اللغة، ويوحي إليه بسرِّها، ويفضي له بلبها وجوهرها أكثر من حاجته إلى أستاذ يعلمه وسائلها وآلاتها.

وعندي أن لا فرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان؛ فكما أن طالب الأخلاق لا يستفيدها إلا من أستاذ كملت أخلاقه، وسمت آدابه، كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من أستاذ مبين.

ولا يقذفن في روع القارئ أني أحاول استلاب فضل الفاضلين، أو أني أريد أن أنكر على شعراء الأمة وكتابها ما وهبهم الله من نعمة البيان؛ فما هذا أردت ولا إليه ذهبت، وإنما أقول إن عشرة من الكتاب المجيدين، وخمسة من الشعراء البارعين، قليل في بلد يقولون: إنه مهد اللغة العربية اليوم، ومرعاها الخصيب.

وبعد: فإني لا أدري لك يا طالب البيان العربي سبيلاً إليه إلا مزاولة المنشآت العربية منثورها، ومنظومها، والوقوف بها وقوف المتثبت المتفهم لا وقوف المتنزه المتفرج؛ فإن رأيت أنك قد شغفت بها، وكلفت بمعاودتها، والاختلاف إليها فاعلم أنك قد أخذت من البيان بنصيب؛ فامض لشأنك، ولا تلوِ على شيء مما وراءك تبلغْ من طلبتك ما تريد.

ولا تحدثك نفسك أني أحملك على مطالعة المنشآت العربية لأسلوب

تستَرِقه، أو تركيب تختلسه، فإني لا أحب أن تكون سارقاً، أو مختلساً، فإن فعلت لم يكن دركك دركاً، ولا بيانك بياناً، وكان كل ما أفدته[1] أن تخرج للناس من البيان صورة مشوهة لا تَنَاسُبَ بين أجزائها، وبردة مرقعة لا تلاؤم بين آثارها عفواً بلا تكلف ولا تَعَمُّل، وإلا كان شأنك شأن أولئك القوم الذين علقت ذاكرتهم بطائفة من منثور العرب ومنظومها، فقنعوا بها، وظنوا أنهم قد وصلوا من البيان إلى صميمه.

فإذا جدَّ الجد وأرادوا أنفسهم على الإفصاح عن شيء مما تختلج به نفوسهم، رجعوا إلى تلك المحفوظات، ونبشوا دفائنها، فإن وجدوا بينها قالباً لذلك المعنى الذي يريدونه، انتزعوه من مكانه انتزاعاً، وحشروه في كتابتهم حشراً، وإلا تبذلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة، أو هجروا تلك المعاني إلى معان أخرى غيرها، لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولاحقاتها، فلا بدَّ لهم من إحدى السوأتين: إما فساد المعاني واضطرابها، أو هجنة التراكيب، وبشاعتها.

فاحذر أن تكون واحداً منهم، أو تصدق ما يقولونه في تلمُّس العذر لأنفسهم من أن اللغة العربية أضيق من أن تتسع لجميع المعاني المستحدثة، وأنهم ما لجؤوا إلى التبذل في التراكيب إلا لاستحالة الترفع فيها؛ فاللغة العربية أرحب صدراً من أن تضيق بهذه المعاني العامة المطروقة بعدما احتملت من دقائق العلوم والمعارف ما لا قبل لغيرها باحتماله، وقدرت من هواجس الصدور، وخوالج النفوس على ما عيَّت به اللغات القادرات.

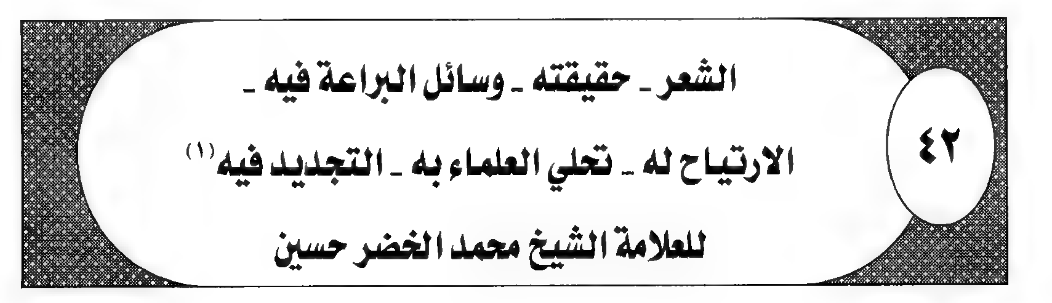
---

(١) بمعنى: أفاد واستفاد.

وليس الشأن في عجز اللغة وضيقها، وإنما الشأن في عجز المشتغلين بها عن الاضطراب في أرجائها، والتغلغل في أعماقها، واقتناعهم من بحرها بهذه البَلَّةِ التي لا تثلج صدراً، ولا تشفي أواماً.

وكل ما يُعَدُّ عليها من الذنوب أنها لا تشتمل على أعلام لبعض هذه الهنات المستحدثة، وهو في مذهبي أهون الذنوب وأضعفها شأناً، ما دمنا نعرف وجه الحيلة في علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل إليه، أو التعريب إن عجزنا عن الاشتقاق، فالأمر أهون من أن نحار فيه، وأحقر من أن نقضي أعمارنا في العراك ببابه، والمناظرة في اختيار أقرب الطرق إليه، وأجداها عليه.

واعلم أنه لا بدَّ من حسن الاختيار فيما تريد أن تزاوله من المنشآت العربية، فليس كل متقدم ينفعك، ولا كل متأخر يضرك، ولا أحسبك إلا واقفاً بين يدي هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب؛ لأن حسن الاختيار طِلْبَةٌ تتعثر بين يديها الآمال، وتتقطع دونها أعناق الرجال؛ فالجأ في ذلك إلى فطاحل الأدباء الذين تعرف ويعرف الناس منهم ذوقاً سليماً، وقريحة صافية، وملكة في الأدب كمصفاة الذهب، فإن فعلت وكنت ممن وهبهم الله ذكاء وفطنة وقريحة خصبة لينة صالحة لنماء ما يلقى إليها من البذور الطيبة ـ عُدْتَ وبين جنبيك ملكة في البيان زاهرة، يتناثر منها منثور الأدب ومنظومه تناثُرَ الوردِ والأنوار من حديقة الأزهار.



٤٢ الشعر ـ حقيقته ـ وسائل البراعة فيه ـ الارتياح له ـ تحلي العلماء به ـ التجديد فيه[1]

للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

حقيقة الشعر:

الكلام إما نثر، وهو ما يُلقى من غير قصد إلى تقييده بوزن، ولا يلزم بناؤه على حرف معين تنتهي به جمله.

وإما منظوم، وهو الكلام الذي يُصاغ في أوزانٍ خاصة، وتبنى قِطَعُه على حرف خاص يختاره الناظم ويلتزمه في آخر كل قطعة منه، وهذا هو فن الشعر.

ورأي بعض الأدباء أن من المنظوم ما لا يختلف عن الكلام العادي إلا بهيئة الوزن والتزام القافية، فلا يحسن أن تجعل ميزة الشعر شيئاً يعود إلى مقدار الحروف، وأشكالها، والتزام حرف منها في آخر كل قطعة منه دون أن تكون له خاصة تميزه عن غيره من جهة المعنى؛ فزادوا في بيانه قولهم: من شأنه أن يُحَبِّبَ إلى النفوس ما قصد تحبيبه إليها، ويكرِّه إليها ما قصد تكريهه إليها، وتحبيبُه الأشياء أو تكريهُها بوسيلة ما يشتمل عليه من حسن التخييل.

فالكلام الموزون المقفى الذي يحبب إلى النفوس شيئاً، أويكرِّهه إليها بوسيلة

---

(١) مجلة نور الإسلام عدد ٩، مجلد ٣، الصادر في رمضان ١٣٥١هـ، وانظر إلى كتاب هدى ونور للشيخ الخضر عناية الأستاذ علي الرضا الحسيني ص١٢١ ـ ١٣٢.

الحجة التي يصوغها العقل، وتجري عليها قوانين المنطق ـ لا يسمى شعراً على وجه الحقيقة، لأنه خالٍ من روح الشعر الذي هو حسن التخييل.

والحق أن الشعر ما يقصد به حمل النفوس على فعل الشيء أو اعتقاده، أو صرفها عن فعله أو عن اعتقاده، من جهة ما يشتمل عليه من حسن التخييل أو براعة البيان، ومن هنا دخل في الفنون الجميلة، ولا جمال في المنظوم إلا أن يكون في معناه غرابة، أو في تركيب ألفاظه براعة.

فالكلام الموزون المقفى إنما يكون حفياً باسم الشعر متى بدى فيه وجهٌ من حسن الصَّنعة، بحيث يكون هذا الحسن زائداً على أصل المعنى الذي يقصد بالإفادة أولاً، ولا فرق بين أن يكون أثر البراعة في التخييل، أو أثر البراعة في ترتيب المعاني وإيرادها في ألفاظ مؤتلفة سنّية.

ولا ننسى أن للنفس عند سماع الكلام الموزون حالاً من الارتياح غير حالها عند سماعه منثوراً، يدل لهذا الجُمَلُ البليغة المرسلة إذا تُصُرِّفَ فيها بنحو التقديم والتأخير حتى وافقت وزناً من الأوزان المألوفة؛ فإن ارتياح النفس لها بعد هذا التصرف يكون أوفر.

ومن أمثلة ما جرى فيه التخييل البارع قول أبي زيد عبد الرحمن الفنداقي الأندلسي من قصيدة ألقاها بين يدي إدريس بن يحيى، أحد أمراء الأندلس:

ومصابيح الدجى قد طفئت ... في بقايا من سواد الليل جونْ
وكأن الظل مِسكٌ في الثرى ... وكأن الطل درٌّ في الغصونْ
والندى يقطر من نرجسه ... كدموعٍ أسكبتهنَّ الجفونْ

والثريا قد هوت من أفقها كقضيب زاهر من ياسمينْ
وانبرى جنح الدجى عن صبحه كغراب طار عن بيضٍ كنينْ

فلو تحدث الشاعر عن انجلاء الليل، وطلوع الصبح، وانبساط الظل، ونزول الطل وتساقط الندى، وهويِّ الثريا من أفقها بالعبارات المجردة عن مثل هذا التخييل لما اهتزت النفوس لها هذا الاهتزاز البالغ.

ومن أمثلة الشعر الذي جاءه الجمال من حسن ترتيب معانيه وبراعة نسجه، قول أبي العلاء المعري:

كم بودرت غادةٌ كعاب وعمرت أمها العجوزُ
أحرزها الوالدان خوفاً والقبر حرز لها حريز
يجوز أن تبطئ المنايا والخلد في الدهر لا يجوز

فمعاني هذه الأبيات يستوي في معرفتها القرويّ والبدوي، كما قال الجاحظ في البيان والتبيين، ومن الذي لا يدري أن داعي الموت كثيراً ما يبادر الفتاة، ويدع أمها وهي عجوز، وأن المنايا قد تبطئ عن بعض الأشخاص فتطول أعمارهم، وأن الخلود في الدنيا غير مطموع فيه ؟

ولكن الشاعر صاغ هذه المعاني في سلك التناسب، وأبرزها في ثوب قشيب من الألفاظ العذبة، والنسج الحكيم؛ فكان لها ـ وهي في ائتلافها، وزخرف أثوابها ـ وقْعُ ما تبتهج له النفوس ابتهاجها لمعان جديدة لم تخطر لها من قبل على بال.

ومن الشعر ما هو باطل، وهو الذي وصف الله ـ تعالى ـ أصحابه بقوله:

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَى أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾... الآية الشعراء.

ومنه ما هو حق، وهو المشار إليه بقوله ﷺ: «إن من الشعر حكمة».

وسائل البراعة فيه:

لا يَطُوع الشعر البارع إلا لمن يردد نظره على كثير من الأشعار البليغة، ويملأ منها حافظته، ثم يأخذ قريحته بالتمرين على النظمِ الفينةَ بعد الفينةِ؛ فهذان ركنان لتربية ملكة الشعر، وترقيتها.

فإذا أتيح للشاعر مع هذا جودةُ هواءِ المنازل التي يتقلب فيها، وحسنُ مناظرها، ووثق بأن في قومه من يقبل على الشعر، ويقدر مراتب الشعراء ـ لم يلبث أن يأتي بما يسترقُّ الأسماع، ويسحر الألباب.

وشأنُ مَنْ يزاول العلوم ذات المباحث العميقة، والقوانين الكثيرة أن لا يبلغ الذروة في صناعة القريض؛ ذلك أن الناشئ الذي يقبل على طلب العلوم إقبالَ مَنْ يرومُ الرسوخ في فهمها، والغوص على أسرارها ـ لا يجد من الوقت ما يصرفه في حفظ المقدار الكافي من أشعار البلغاء، وفي تمرين قريحته على النظم تمريناً يصعد بها إلى الذروة.

وإذا صرف من وقته في الحفظ والتمرين ما فيه الكفاية وجد من قريحته المعنية بالبحث عن الحقائق العلمية ما يبطئ به عن اختراع معان خيالية بديعة.

ونظر ابن خلدون في وجه قصور العلماء عن التناهي في صناعة الشعر،

وأبدى أن السبب ما يسبق إليهم من حفظ المتون العلمية؛ فإن عبارات هذه المتون ـ وإن كانت على وقف العربية ـ لا يراعى فيها قانون البلاغة.

وامتلاءُ الذهن من الكلام النازل عن البلاغة، لا يخلو من أن يكون له أثر في النظم؛ فيقصر به عن المرتبة العالية من الفصاحة، فلو انبعثت قريحته في فضاء واسع من الخيال، واستطاعت اختراع صور غريبة لخدشت تلك المحفوظاتُ ملكةَ فصاحته، فيخرج الشعر وفي ألفاظه أو في نسج جُمَلِه ما يتجافى عنه الذوق، فلا تُتَلَقّى تلك الصور بالارتياح وإن كانت في نفسها غريبة.

فالتوغل في العلوم يضايق ملكة الشعر، وأشد ما يضايقها العلوم النظرية، كالمنطق، والكلام والفلسفة، والفقه، ولا سيما ما يُعنى صاحبه بالبحث في طرق الاستنباط، ويتعلم كيف يطبق الأصول على الوقائع الخارجية.

وعلوم النحو والصرف والبيان معدودة في وسائل إحكام صنعة الشعر، ومتى دُرِسَتْ على طريقة التوسع في مسائل الخلاف، ومناقشة الآراء والأدلة والعبارات ـ أصبحت في خدش ملكة الشعر كالمباحث الفلسفية أو الفقهية.

وقد يكون في الرجل قوةُ الشاعرية فيهجُرُها، فتضعف حتى لا تواتيه عندما يهم باستدرارها.

قال أبو القاسم الأندلسي: جرى ذكر الشعر بحضرة أبي علي الفارسي وأنا حاضر، فقال: إني أغبطكم على قول الشعر؛ فإن خاطري لا يوافقني على قوله على تحقيقي في العلوم التي هي موادّه، فقال له رجل: فما قلت قط شيئاً منه؟ قال: ما أعلم أن لي شعراً إلا ثلاثة أبيات في الشيب، وهي قولي:

خضبت الشيب لما كان عيباً ... وخضب الشيب أولى أن يعابا
ولم أخضِب مخافة هجر خلٍّ ... ولا عيباً خشيت ولا عتابا
ولكن المشيب بدا ذميماً ... فصيرت الخضاب له عقابا

فهذه الأبيات تدل على أن في أبي علي الفارسي مبدأَ نظم الشعر، وعدمُ مواتاة الشعر له عندما يهم بنظمه ناشئٌ من عدم إقباله على هذه القوة بالتربية والتهذيب.

الارتياح للشعر:

ترتاح النفس لصور من المعاني يصنعها الخيال، أو تخرج في ثوب قشيب من حسن البيان، ذلك الارتياح لذة الشعر الذي هو صنع الألمعية المتلألئة، والتخيل الواسع، والذوق الصحيح.

ولا أظن أن في الناس من لا يلذ الشعر البديع متى أحسّ معانيه، ووقعت في ذهنه بادية الوجوه كما كانت في ذهن مصوّرها.

وإنما المشاهد أن الناس يتفاوتون في الارتياح للشعر على قدر تفاوتهم في صفاء الذوق، وتقدير ما في معانيه من غرابة وحسن التئام، أو تقدير ما في ألفاظه من حسن السبك وجودة التركيب.

فإذا رأيت الرجل يسمع الشعر البارع، ولا تلوح عليه أمارة الارتياح لسماعه، فلأنه لم يحس ما فيه من إبداع وجودة صنعة.

وكثيراً ما يعيب الناقد صورة معنى خيالي حيث لا يحس الناحية التي فعل فيها الخيال البارع فعلته.

أورد بعض الكاتبين في الأدب قول الشاعر:

كالطيف يأبى دخول الجفن منفتحاً ... وليس يدخله إلا إذا انطبقا

وعابه بقوله: إن الطيف لا يدخل الجفن، وإنما يتخيل إلى النفس.

ولو اعتاد هذا الكاتب النظر إلى الصور الخيالية من مسالكها اللطيفة، لما أتعب فكره في البحث عن الباب الذي يدخل من الطيف المتخيل للنفس في صورة المرئي رأي العين.

يصفو الذوق؛ فيحس براعة الشعر ولطف مسلكه؛ فتأخذ النفس من شدة الإعجاب به حالة ربما عبروا عنها بالإغماء.

أنشد عمرو بن سالم المالقي، في مجلس أبي محمد عبد الوهاب، أبياتاً لبعض الأندلسيين، منها:

ورأوا حصى الياقوت دون نحورهم ... فتقلدوا شهب النجوم عقودا

فأخذ أبا محمد حال من الإعجاب بهذه الأبيات حتى تصبب عرقاً، وقال: إني مما يقهرني ولا أملك نفسي عنده الشعر المطبوع.

وروى حماد بن إسحاق، أن أباه قال له: كان العباس بن الأحنف، إذا سمع شيئاً استحسنه أطرفني به، وأفعل معه مثل ذلك، فجاءني يوماً ووقف بين البابين، وأنشد لابن الدمينة:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... لقد زادني مسراك وجداً على وجد

إلخ الأبيات، ثم ترنّح ساعة وقال: أنطح العمود برأسي من حسن هذا البيت! فقلت: لا، ارفق بنفسك.

وكان سعيد بن المسيب ماراً ببعض أزقة البصرة فسمع منشداً ينشد قصيدة لمحمد بن عبد الله النميري يقول فيها:

تضوّع مسكاً بطن نعمان إذ مشت ... به زينب في نسوة خَفِرات

يخبئن أطراف البنان من التقى ... ويخرجن جنح الليل معتجرات

فضرب سعيد برجله الأرض، وقال: هذا ـ والله ـ يلذ سماعه.

وصام أبو السائب المخزومي يوماً، فلما صلى المغرب وقدمت له المائدة خطر بقلبه بيتا جرير:

إن الذين غدوا بلبك غادروا ... وشلاً بعينك لا يزال مَعيناً

غَيَّضْنَ من عبراتهن وقلن لي ... ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فاشتد ارتياحه لهما، حتى حلف أن لا يفطر في تلك الليلة إلا على هذين البيتين.

وكثيراً ما يكون ارتياح الأمير لبيت واحد سبباً في إغناء الشاعر ودفع مظلمته، نقرأ في أخبار ابن شرف أن أحد عمال المعتصم ناقشه في قرية له، فورد ابن شرف على المعتصم شاكياً هذا العامل، وأنشد بين يديه قصيدة في الغرض، ولما بلغ قوله:

لم يبق للجور في أيامهم أثر ... إلا الذي في عيون الغيد من حور

قال المعتصم: كم في القرية التي تحرث فيها من بيت؟ قال: فيها خمسون بيتاً، فقال له: أسوغك جميعها لهذا البيت الواحد، ثم وقّع له بها، وعزل عنها كل والٍ.

وكيف ترى ابتهاج أبي عمرو بن العلاء، حين سمع قول بشار:

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف

روِّحي عني قليلاً واعلمي أنني يا عبدُ من لحم ودم

إن في برديّ جسماً ناحلاً لو توكأت عليه لانهدم

لا شك أن ابتهاجه لسماعه كان بالغاً ما يمكن أن يبلغ، ينبئك بهذا أنه سُئل عن أبرع الناس بيتاً، فقال: الذي يقول: لم يطل ليلي، وأنشد الأبيات الثلاثة.

العلماء والشعر:

في العلماء من يلذ استطلاع الحقائق إلى حد أن يستغرق أوقاته في البحث العلمي، ويرغب عن أن يصرف في صناعة الشعر، أو تذوّق بلاغته ولو ساعة من شهر، حكى المقري أنه أنشد بحضرة العلامة محمد بن إبراهيم الأبلي قول ابن الرومي:

أفنى وأعمى ذا الطبيبُ بطبه وبكُحْله الأحياءَ والبصراءَ

فإذا مررت رأيت من عميانه جمعاً على أمواته قرّاءَ

قال: فاستعادني الأبيات، حتى عجبت منه مع ما أعرف من عدم ميله إلى الشعر، ثم قال: أظننت أنني استحسنت الشعر؟ إنما تعرفت منه أن العميان كانوا في ذلك الزمان يقرأون على المقابر، فإني كنت أرى ذلك حديث العهد؛ فاستفدت التاريخ.

وفي العلماء من يأخذ الشعر البارع بمجامع قلبه، ويجد في نفسه قوةً على نظمه، فيضرب مع الشعراء بسهم، ليزين عمله بهذا الفن الجميل.

وسبْقُ الشعراء المتجردين للشعر وحده في هذه الحلبة لا يثني العلماء عن تعاطيه؛ نظراً إلى أنه فن من فنون الأدب الجميلة، وقد يتخذ وسيلة إلى جلب خير أو دفع أذى.

والتاريخ يحدثنا أن في أعلام العربية من كانوا يجيدون صناعة القريض، كابن دريد، الذي كانوا يصفونه بأنه أعلم الشعراء وأشعر العلماء، ومن مختارات شعره الأبيات العينية التي يقول فيها:

ومن لم يزعه لبه وحياؤه ... فليس له من شيب فوديه وازع

ومثل الإمام النحوي أبي الحسين علي بن أحمد بن حمدون، ومن جيد شعره:

تناءت ديار قد ألفتْ وجيرةٌ ... فهل لي إلى عهد الوصال إيابُ

وفارقت أوطاني ولم أبلغ المنى ... ودون مرادي أبحر وهضاب

مضى زمني والشيب حل بمغرقي ... وأبعد شيء أن يُردَّ شباب

ويحدثنا أن في رجال الفقه من يجيد التخيل، ويحسن صياغة الكلام المنظوم، كالقاضي عبد الوهاب بن نصر المالكي الذي قال فيه أبو العلاء المعري:

والمالكي ابن نصر زار في سفر ... بلادنا فحمدنا النأي والسفرا

إذا تفقه أحيا مالكاً جدلاً ... وينشر الملك الضليل إن شعرا

ومن نظم هذا القاضي:

متى تصل العطاش إلى ارتواء ... إذا استقت البحار من الركايا

ومن يَثْنِ الأصاغر عن مراد ... وقد جلس الأكابر في الزوايا

وإنَّ ترفّعَ الوضعاءِ يوماً   على الرفعاء من إحدى البلايا
إذا استوت الأصاغر والأعالي   فقد طابت منادمة المنايا

ويحدثنا بأن في علماء الحديث من يجيد صنع الشعر، مثل الحافظ سليمان ابن موسى الكلاعي؛ فإن له من الشعر ما يشبه أن يكون عربياً مطبوعاً، ومما قال:

أحن إلى نجد ومن حل في نجد   وماذا الذي يغني حنينيَ أو يجدي
وقد أوطنوها وادعين وخلفوا   مُحِبَّهُمُ رهن الصبابة والوجد
وضاقت عليّ الأرض حتى كأنها   وشاحٌ بِخَصرٍ أو سوارٌ على زند

ونجد للقاضي عياض -وهو من علماء الحديث والفقه- شعراً ذاهباً في التخييل إلى حد بعيد ومما قال:

انظر إلى الزرعِ وخاماتُه   تحكي وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة   شقائق النعمان فيها جراح

ويحدثنا أن في علماء المنطق والرياضيات من يصنع صوراً خيالية، ويبرزها في ألفاظ عذبة رقيقة، مثل أبي بكر بن الصائغ الأندلسي، ومن نظمه البديع قوله:

ضربوا الخيام على أقاحي روضة   خطر النسيم بها ففاح عبيرا
وتركت قلبي سار بين حمولهم   دامي الكلوم يسوق تلك العيرا
لا والذي جعل الغصون معاطفاً   لهمُ وصاغ من الأقاح ثغورا
ما مر بي ريح الصبا من بعدهم   إلا شهقت له فعاد سعيرا

يبرع بعض العلماء في الشعر، ولكن فحول الشعراء من غير العلماء يكون

جيد أشعارهم أكثر، ونَفَسهم في الشعر أطول، وقرائحهم إلى المعاني الغربية أسرع.

التجديد في الشعر:

يجري على ألسنة المحاضرين، وأقلام الكتب حديث التجديد في الشعر، ولسنا ممن يتجافى عن رأي التجديد؛ إذ التجديد سنة من سنن الشعراء النابغين، ولا سيما شعراء ينشؤون أو ينزلون في بلاد عامرة بمظاهر المدينة، وإنما نريد بحث ما يعنى بكلمة التجديد، حتى نصل إلى مافيه إصلاح الشعر، ونتحامى هدم ناحية من نواحي اللغة الفصحى.

للشعر مقاييسُ، وقوافٍ، ومعانٍ، وألفاظٌ، وأساليبُ، وفنونٌ.

أما المقاييس فقد نظم العرب في ستة عشر مقياساً، وهي المدونة في كتب العروض وما زال الشعراء يصوغون أشعارهم على هذه المقاييس إلى عهد الدولة العباسية، وفي ذلك العهد حدثت موازين خارجة عن الموازين السالفة، ووجدت كما تجد الأزجال في هذا العهد من يعجب بها، ويلذ سماعها.

ومن الموشحات الأندلسية ما يختلف في أشطار القصيدة بالطول والقصر اختلافاً بيّناً، كقول أبي الحسن بن سهل:

كحل الدجى يجري　　من مقلة الفجر　　على الصباح

ومعصم النهر　　في حلل خضر　　من البطاح

ومن هذا القبيل موشحة ابن الوكيل، التي دخل بها على أعجاز قصيدة ابن زيدون:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ومما يقول في الموشحة:

يا جيرة بانت ... عن مغرم صب

لعهده خانت ... من غير ما ذنب

ما هكذا كانت ... عوائد العرب

لا تحسبوا البُعدا يغير العهدا إذ طالما غيّر النأي المحبينا

وإذا كان الأدباء في العصور الماضية لم يَقْصُروا شعرهم على المقاييس المعروفة فأحدثوا مقاييس جديدة ـ فلا نكره لأديب أن يصوغ الشعر في مقياسٍ محدث متى وثق من موافقته لأذواق الناس، وارتياحهم لحركاته وسكناته.

وأما القافية فقد ألزمها العرب على النحو المعروف في أشعارهم، حتى اخترع الأدباء الموشحات، فأخذت القافية هيئة غير هيئتها الأولى، كما رأيتها في المُثل التي أوردناها آنفاً.

وفي التزام القافية على الوجه الذي اختاره العرب سابقاً، وعلى نحو ما أحدثه الأدباء من بعد ـ دلالةٌ على البراعة، ومحافظةٌ على وجه من الوجوه التي يمتاز بها المنظوم على المنثور.

وأما المعاني فللشاعر أن يذهب فيها كل مذهب، وله أن يأخذ في التشبيه والاستعارات كل مأخذ، فيرسل خياله فيما احتوته الحافظة من المعاني القديمة والحديثة، والطبيعية والصناعية، ويؤلف منها ما شاء من الصور الخيالية، مراعياً أذواق الطوائف التي يريد إثارة عواطفها نحو الشيء أو صرفها عنه.

وما زال فحول الشعراء في كل عصر يبتكرون المعاني، وينتزعون من مظاهر المدينة المتجددة صوراً يبرعون في صنعها، فلشعراء العصر العباسي بالشرق، أو شعراء الأندلس بالغرب معانٍ وتخيلاتٌ لم يطرقها الشعراء في الجاهلية، أو في صدر الإسلام، أو عهد الدولة الأموية.

وقع هذا التجديد من فحول شعرائنا، وكانوا على شعور من الحاجة إليه، ونبه أدباؤنا على هذا الشعور فيما كتبوا قديماً.

قال ابن سعيد، يفاخر أهل القيروان بشعراء الأندلس: «وهل منكم شاعر رأى الناس قد ضجوا من سماع تشبيه الزهر بالنجوم، وتشبيه الخدود بالشقائق، فتلطف لذلك في أن يأتي به في منزع يصير خَلَقُهُ في الأسماع جديداً، وكَلِيلُه في الأفكار حديداً، فأغرب أحسن إغراب، وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إعراب؟»

وإذا لم تُجِدْ قرائح شعراء عصر أو بلد بمعان جديدة، ورأيناهم لا يزيدون عن أن يرددوا معاني أسلافهم- فلضعف ملكاتهم الشعرية، وقصورها عن أن تخرج للناس ثمراً جديداً.

وأما الألفاظ، فحقها أن يراعى فيها ما ثبت عن العرب، وما تقتضيه قوانين الصرف، وما تضعه المجامع العلمية على حسب ما تدعو إليه حاجة التعبير عن المعاني المحدثة.

والألفاظ الجديرة بأن يصاغ منها الشعر هي الألفاظ التي لا يخفى المراد منها على أكثر من يقصد استمالة عواطفهم إلى الشيء أو صرفها عنه.

ولا يكفي لجواز استعماله اللفظ في القصيدة خلوُّه من تنافر الحروف، وموافقته للوضع العربي، ووجوده في كتب اللغة القريبة التناول؛ إذ ليس كل لفظ يتحقق فيه شرط الفصاحة يصلح للشعر، بل وراء الفصاحة شيء آخر هو مراعاة حال قراء الشعر؛ فيصاغ لهم في ألفاظ تطرق أسماعهم، فتحضر معانيها في أذهانهم؛ فلو هُجِرَتْ ألفاظ في عصر من العصور، أو قل استعمالها بحيث لا يصل إلى معانيها إلا بعد الرجوع إلى كتاب من كتب اللغة، وشاعت ألفاظ ترادفها بحيث تكون أسرع بالمعنى إلى ذهن المخاطب ـ كان من حق الشاعر اختيارُ الألفاظ التي يكون بها المعنى أقرب إلى الذهن، ولا سيما ألفاظ تساوي الألفاظ المهجورة أو النادرة الاستعمال في خفة النطق، وحسن تأليف حروفها.

فطبيعة الشعر تستدعي التجديد في الألفاظ على النحو الذي وصفنا، فالشاعر المجيد لا يجمد على الألفاظ التي استعملها الشعراء في عصور ماضية، ثم قل دورانها في كلام البلغاء من بعد.

وإذا لم يكتف الشاعر في خدمة اللغة بحفظ مذاهب بلاغتها، وفنون بيانها، وأراد أن يكون له نصيب في إحياء ما هجرته الألسنة من كلماتها العذبة السائغة ـ ففي استطاعته أن يأتي إلى الكلمة التي تختفي معانيها على أكثر القراء، ويوردها حيث لا يفوتهم فهم المراد من البيت، والارتياح لما فيه من حسن التخييل.

فلو أصبحت كلمةُ «امتشق» مثلاً غيرَ جاريةٍ في استعمال الشعراء في عصر ـ لما كان على شاعر أراد إحياءها من حرج في استعمالها حيث ينبه مساق الكلام على المراد منها، كما استعملها العزازي في قوله:

والبدر نحو الغروب أسرع كهارب ناله فرَقُ

والبرق بين السحاب يلمع كصارم حين يُمْتَشَقُ

ومن ذا يسمع هذا البيت ولا يفهم أن القصد تشبيه حال البرق عند لمعانه بحال السيف عند تجريده من قرابه؟

وأما الأساليب فيراعى فيها قوانين النحو والبيان المسلَّمة، فلا نقبل من الشاعر أن يقدم خبر «إن» مثلاً عليها، فيقول «كاتب إنَّ زيداً» بدعوى التجديد في الأسلوب، ولا يحسن منع أن يتكئ على علة التجديد، ويسقط حرف العطف في نحو «لا ورحمك الله» أو يدع الكلمات والجمل التي توضع في أثناء الكلام، فتكسو البيت لطفاً، وتدفع عنه أوهاماً يَفْقِدُ بها المعنى قوته، أو ينقلب بها إلى غير مراد، إلى ما يشاكل هذه التصرفات التي تخرج بالشعر العربي عن حدود البلاغة وحسن البيان.

وللشاعر أن يتخذ من الأساليب بعد رعاية قوانين النحو والبيان ما يشاء.

وقد اختلفت أساليب الشعراء في دائرة قانون اللغة الصحيح اختلافاً واضحاً، حتى إن الألمعي الدارس لأشعار الفحول من الشعراء في عصور متعددة ـ يكاد يعرف من أسلوب القصيدة الشاعرَ الذي قالها، أو العصرَ الذي قيلت فيه.

وأما فنون الشعر ـ أعني الأغراض العامة التي توجه إليها الشاعر بالنظم، نحو تهذيب النفوس، وإصلاح الاجتماع، والحماسة والفخر، والمديح، والهجاء، والوصف، والنسيب، والاستعطاف، والاعتذار ـ فقد نظم فيها العرب كثيراً، وسلكوا فيها طرقاً بديعة.

ومن الشعراء من يبرع في فن أو فنون، كما يبرع عمر بن أبي ربيعة في فن الغزل، والمتنبي في إرسال الحكمة.

ومن العصور ما يشيع فيه بعض فنون الشعر أكثر مما سواه، كالعصر الذي يحمي فيه وطيس الحروب؛ فإنه يغلب فيه الحماسة والفخر، والعصر الذي يشيع فيه الفسوق يغلب فيه النسيب ووصف الخمور.

وإذا غلب فن من الفنون وجد رواجاً حتى عند من لا ناقة له في ذلك الفن ولا جمل، فتسمع الحماسة مثلاً في شعر الجبان الذي «إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً»[1] وتسمع الغزل ممن لم يحمل قلبه صبابة، ووصف الخمر ممن لا يعرف للخمر رائحة.

أما عصرنا هذا، ففيه إباحية وإلحاد، فلا عجب أن نرى من الشعر الرفيع ما تنبذه مجالس أهل الفضل، ولا عجب أن نرى من الشعر المارق من الدين ما يلقي بالمستضعفين في تهلكة، وإننا اليوم في حركة علمية اجتماعية، تنادي كل طائفة منا لأن تسعفها بما لديها من قوة.

ولكثير من شعرائنا في تقوية هذه الحركة مواقف محمودة، وأملنا أن يكون الفن الذي يُعرف به الشعر في هذا العصر فنَّ استنهاضِ الهمم، والصعود به إلى ذروة العز والمجد، فنَّ تقويمِ الأخلاق، وإصلاح الحياتين: العلمية والمدنية.

---

(١) هذا تضمين لقول الشاعر:

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم ... إذا رأى غير شيء ظنه رجلا (م)



حادي عشر: مقالات في السيرة النبوية

٤٣ القول الحق في استعداد محمد ﷺ للنبوة والوحي[(١)]

للشيخ العلامة محمد رشيد رضا[(٢)]

التحقيق في صفة حال محمد ﷺ من أول نشأته، وإعداد الله ـ تعالى ـ إياه

---

(١) الوحي المحمدي للشيخ محمد رشيد رضا ص١٢٩ـ١٣٣.

(٢) هو العلامة الشيخ محمد رشيد رضا ولد يوم ٢٧ من جمادى الأولى عام ١٢٨٢هـ في بلدة (القلمون) بالقرب من طرابلس الشام، ونشأ في رعاية والديه في بيت علم وفضيلة، لقن فيه الأخلاق الحميدة منذ نعومة أظفاره، وشاهد مجالس العلم تعقد في ساحته، حفظ القرآن الكريم، وبعض مبادئ العلوم الدينية، وقواعد الحساب، والخط، وغير ذلك من العلوم الأساسية لمبتدئي التعليم، وذلك في مدرسة بقريته (القلمون)، ثم التحق بالمدرسة الرشدية الابتدائية بطرابلس، ومكث بها سنة، ثم تركها إلى المدرسة الوطنية الإسلامية التي أسسها الشيخ حسين الجسر الأزهري.

كان سريع الفهم حتى أنه كان يضجر من مجرد تكرار الأساتذة لما يشرحونه ممن مواضيع، إلا أنه لم يكن سريع الحفظ فنادراً ما كان يحفظ أكثر من بيت واحد من الشعر عند سماع أبيات شعر لأول مرة، لكنه بصفة عامة كان مكباً على طلب العلم، وتفوق على أقرانه حتى أن أستاذه الشيخ الجسر قال عنه في ملأ من الناس: «إن محمد رشيد رضا ساوى في سنة واحدة من سبق لهم الاشتغال عليَّ سبع سنين من أذكياء الطلاب».

وقد قرأ على الشيخ الجسر وعلى غيره من أفاضل علماء طرابلس، ولشغفه بالقراءة فقد قرأ أثناء طلبه للعلم مصنفات عديدة في التفسير، والحديث، والأدب، والتاريخ، وغير ذلك من علوم.

انتقل إلى مصر عام ١٣١٥هـ واتصل بالشيخ محمد عبده، وبعد وصوله مصر بثلاثة أشهر أصدر العدد الأول من مجلة (المنار).

تعددت جهوده وأنشطته في خدمة الإسلام في أكثر من مجال، فقد عمل على إنشاء مدارس، وجمعيات إسلامية في كثير من الأقطار تؤدي خدمات خيرية وتعليمية.

توفي رحمه الله فجأة في القاهرة يوم الأربعاء ٢٣ من شهر جمادى الأولى عام ١٣٥٤هـ ودفن بها. انظر المختار من المنار إعداد وتعليق الشيخ عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ ١/٩ـ١٨.

لنبوته ورسالته: هو أنه خلقه كامل الفطرة؛ ليبعثه بدين الفطرة، وأنَّه خَلَقَهُ كامل العقل الاستقلالي الهيولاني[1]؛ ليبعثه متمماً لمكارم الأخلاق، وأنه بُغِّض إليه الوثنية وخرافات أهلها ورذائلهم من صغر سنه، وحبب إليه العزلة حتى لا تأنسَ نفسه بشيء مما يتنافسون فيه من الشهوات واللذات البدنية، أو منكرات القوة الوحشية، كسفك الدماء، والبغي على الناس، أو المطامع الدنيئة كأكل أموال الناس بالباطل؛ ليبعثه مصلحاً لما فسد من أَنْفُسِ الناس، ومزكّياً لهم بالتأسِّي به، وجعله المثلَ البشريَّ الأعلى؛ لتنفيذ ما يوجه إليه من الشرع الأعلى.

فكان من عفَّته أنْ سَلَخَ مِنْ سني شبابه وفراغه خمساً وعشرين سنة مع زوجته خديجة كانت في عشر منها كهلةً نَصَفاً أمَّ أولاد، وفي خمسة عشر منها عجوزاً يائسة من النسل، فتوفيت في الخامسة والستين وهي أحب الناس إليه، وظل يذكرها، ويفضِّلها على جميع من تزوج بهن من بعدها، حتى عائشة بنت الصديق على جمالها، وحداثتها، وذكائها، وكمال استعدادها للتبليغ عنه، ومكانة والدها العليا في أصحابه.

وظل طول عمره يكره سفك الدماء ولو بالحق، فكان على شجاعته الكاملة يقود أصحابه؛ لقتال أعداء الله وأعدائه المعتدين عليه وعليهم؛ لأجل صدهم عن دينه، ولكنه لم يقتل بيده إلا رجلاً واحداً منهم هو أبي بن خلف كان موطّناً نفسه على قتله ﷺ فهجم عليه وهو مُدَجَّجٌ بالحديد من مِغْفَرٍ ودرع، فلم يجد ﷺ بداً من قتله، فطعنه في ترقوته من خلل الدرع والمغفر فقتله.

---

(١) الهَيُولَى: كلمة يونانية ومعناها: أصل الشيء ومادته، ومعنى الهيولاني: الأصلي. (م)

وظل طول عمره ثابتاً على أخلاقه، من الزهد والجود والإيثار، فكان بعدما أفاء الله عليه من غنائم المشركين واليهود يؤثر التقشف، وشظف العيش على نعمته، مع إباحة شرعه لأكل الطيبات، ونهيه عن تركها؛ تديناً.

وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله، مع إباحة دينه للزينة، وأمره بها عند كل مسجد، وكان يساعد أهل بيته على خدمة الدار.

أكمل الله استعداده الفطري الوهبي، لا الكسبي؛ للبعثة بإكمال دين النبيين والمرسلين، والتشريع الكافي الكافل؛ لإصلاح جميع البشر إلى يوم الدين، وجعله حجة على جميع العالمين بأن أنشأه كأكثر قومه أُمِّياً، وصرفه في أُمِّيته عن اكتساب أي شيء من علوم البشر من قومه العرب الأميين ومن أهل الكتاب، حتى إنه لم يجعل له أدنى عناية بما يتفاخر به قومه من فصاحة اللسان، وبلاغة البيان من شعر، وخطابة، ومفاخرة، ومنافرة[1]؛ إذ كانوا يؤمُّون أسواق موسم الحج وأشهرها عكاظ من جميع النواحي؛ لإظهار بلاغتهم وبراعتهم، فكان ذلك أعظم الأسباب لارتقاء لغتهم، واتساع معارفهم، وكثرة الحكمة في شعرهم، فكان من الغريب أن يزهد محمد ﷺ في مشاركتهم فيه بنفسه، وفي روايته لما عساه يسمعه منه.

وقد سمع بعد النبوة زهاء مائة قافية من شعر أمية بن الصلت فقال: «إن كاد ليسلم»، وقال: «آمن شعره وكفر قلبه»، وقال: «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر حكماً» رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عباس.

---

(١) المنافرة: المحاكمة والمفاخرة في الأحساب والأنساب.

وأما قوله: «إن من البيان لسحراً» فقد رواه مالك، وأحمد، والبخاري، وأبو داود، والترمذي، من حديث ابن عمر.

قلنا: إن الله ـ تعالى ـ جعل استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة فطرياً وإلهامياً لم يكن فيه شيءٌ من كسبه بعلم، ولا عمل لساني، ولا نفسي، وإنه لم يُرْوَ عنه أنه كان يرجوها، كما رُوي عن أمية بن أبي الصلت، بل أخبر الله عنه أنه لم يكن يرجوها، ولكن رُوي عن خديجة ـرضي الله عنها ـ أنها لما سمعت من غلامها ميسرة أخبار أمانته، وفضائله، وكراماته، وما قاله بحيرى الراهب فيه ـ تعلَّق أملُها بأن يكون هو النبي الذي يتحدثون عنه، ولكن هذه الروايات لا يصل شيء منها إلى درجة المسند الصحيح، كحديث بدء الوحي.

فإن قيل: إنه يقوِّيها حَلِفُها بالله أن الله ـتعالى ـ لا يُخزيه أبداً، قلنا: إنها عللت ذلك بما ذكرته من فضائله، ورأت أنها في حاجة إلى استفتاء ابن عمها ورقة في شأنه.

وأما اختلاؤه ﷺ وتعبده في الغار عام الوحي فلا شك في أنه كان عملاً كسبياً مقوياً لذلك الاستعداد الوَهْبي، ولذلك الاستعداد السلبي، من العزلة، وعدم مشاركة المشركين في شيء من عباداتهم، ولا عاداتهم.

ولكنه لم يكن يقصد به الاستعداد للنبوة؛ لأنه لو كان لأجلها لاعتقد حين رأى الملك، أو عَقِبَ رؤيته حصولَ مأموله، وتحقق رجائه، ولم يَخَفْ منه على نفسه.

وإنما كان الباعثُ لهذا الاختلاء والتحنث اشتدادَ الوحشة من سوء حال

الناس، والهرب منها إلى الأنس بالله ـ تعالى ـ والرجاء في هدايته إلى المخرج منها، كما بسطه شيخُنا الأستاذ الإمام[١] في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾ (الضحى: ٧) وما يفسره من قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ (الشورى: ٥٢ـ٥٣) وألم به في رسالة التوحيد إلماماً مختصراً مفيداً، فقال:

«من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمياً مِثْلَه تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه، لاسيما إن كان من ذوي قرابته، وأهل عصبته، ولا كتاب يرشده، ولا أستاذ ينبهه، ولا عضد إذا عزم يؤيده؛ فلو جرى الأمر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم، وأخذ بمذاهبهم إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع إلى مخالفتهم إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده[٢]».

ولكنَّ الأمر لم يَجْرِ على سنته، بل بُغِّضتْ إليه الوثنية من مبدأ عمره، فعالجته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليقة.

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) كأمية بن أبي الصلت، وزيد بن عمرو بن نفيل.

وما جاء في الكتاب من قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾ لا يُفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم، حاش لله، إن ذلك لهو الإفك المبين، وإنما هي الحيرة تُلِم بقلوب أهل الإخلاص، فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين، وإرشاد الضالين، وقد هدى الله نبيَّه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته» أ. هـ.

أقول: وجملة القول أن استعداد محمدﷺ للنبوة والرسالة عبارة عن جعل الله -تعالى- روحه الكريمة كمرآة صقيلة حيل بينها وبين كلِّ ما في العالم من التقاليد الدينية، والأعمال الوراثية والعادات المنكرة، إلى أن تجلى فيها الوحي الإلهي بأكمل معانيه، وأبلغ مبانيه؛ لتجديد دين الله المطلق الذي كان يُرسل به رسله إلى أقوامهم خاصة، بما يناسب حالهم واستعدادهم، وأراد إكمال الدين به، فجعله خاتم النبيين، وجعل رسالته عامة دائمة، لا يحتاجون بعدها إلى وحي آخر.

٤٤ عبرة الهجرة[1] لمصطفى لطفي المنفلوطي

إن أخلاق النبي ﷺ وسجاياه التي لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن خارقة تأتيه من الأرض أو السماء، أو الماء أو الهواء.

إن ما كان يبهر العرب من معجزات علمه، وحلمه، وصبره، واحتماله، وتواضعه، وإيثاره، وصدقه، وإخلاصه ـ أكثر مما كان يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر، ومشي الشجر، ولين الحجر؛ وذلك لأنه ما كان يريبهم في الأولى ما كان يريبهم في الأخرى، من الشبه بينها، وبين عرافة العرافين، وكهانة الكهنة، وسحر السحرة، فلولا صفاته النفسية، وغرائزه، وكمالاته ما نهضت له الخوارق بكل ما يريده، ولا تركت له المعجزات في نفوس العرب ذلك الأثر الذي تركته؛ ذلك هو معنى قوله ـتعالىـ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران: ١٥٩.

كان ﷺ شجاع القلب، فلم يهب أن يدعو إلى التوحيد قوماً مشركين يعلم أنهم غلاظ جفاة، شرسون، متنمرون، يغضبون لدينهم غضبهم لأعراضهم، ويحبون آلهتهم حبهم لأبنائهم.

كان على ثقة من نجاح دعوته، فكان يقول لقريش ـ أشد ما كانوا هزءاً به وسخريةـ: «يا معشر قريش والله لا يأتي عليكم غير قليل؛ حتى تعرفوا ما تنكرون، وتحبوا ما أنتم له كارهون».

---

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة الموضوعة ص١٣١ـ١٣٣.

كان حليماً سمح الأخلاق؛ فلم يزعجه أن كان قومه يؤذونه، ويزدرونه، ويشعثون[١] منه، ويضعون التراب على رأسه، ويلقون على ظهره أمعاء الشاة، وسلى[٢] الجزور، وهو في صلاته، بل كان يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

كان واسع الأمل، كبير الهمة، صلب النفس، لبث في قومه ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله فلا يلبي دعوته إلا الرجل بعد الرجل، فلم يبلغ الملل من نفسه، ولم يخلص اليأس إلى قلبه، فكان يقول: «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك دونه فيه ما تركته».

وما زال هذا شأنه حتى علم أن مكة لن تكون مبعث الدعوة، ولا مطلع تلك الشمس المشرقة، فهاجر إلى المدينة؛ فانتقل الإسلام بانتقاله من السكون إلى الحركة، ومن طور الخفاء إلى طور الظهور، لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام؛ لأنها أكبر مظهر من مظاهره.

لقد لقي ﷺ في هجرته عناءً كثيراً ومشقةً عظمى؛ فإن قومه كانوا يكرهون مهاجرته لا ضناً به، بل مخافة أن يجد في دار هجرته من الأعوان والأنصار ما لم يجد بينهم، كأنما يشعرون بأنه طالب حق، وأن طالب الحق لابد أن يجد بين المحقين أعواناً وأنصاراً، فوضعوا عليه العيون والجواسيس؛ فخرج من بينهم ليلة

---

(١) يقال شعث فلان من فلان: تنقصه.

(٢) السلى للدواب بمنزلة المشيمة للإنسان.

الهجرة متنكراً بعد ما ترك في فراشه ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه عبثاً بهم، وتضليلاً لهم عن اللحاق به.

ومشى هو وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه يتسلقان الصخور، ويتسربان في الأغوار والكهوف، ويلوذان بأكناف الشعاب والهضاب، حتى انقطع عنهما، وتم لهما ما أرادا بفضل الصبر والثبات على الحق.

إن حياة النبي ﷺ أعظم مثال يجب أن يحتذيه المسلمون للوصول إلى التخلق بأشرفِ الأخلاق، والتحلي بأكرمِ الخصال، وأحسنُ مدرسة يجب أن يتعلموا فيها كيف يكون الصدق في القول، والإخلاص في العمل، والثبات على الرأي - وسيلةً إلى النجاح، وكيف يكون الجهاد في سبيل الحق سبباً في علوه على الباطل.

لا حاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان، وحكماء الرومان، وعلماء الإفرنج؛ فلدينا في تاريخنا حياة شريفة مملوءة بالجد والعمل، والبر والثبات، والحب والرحمة، والحكمة والسياسة، والشرف الحقيقي، والإنسانية الكاملة، وهي حياة نبينا ﷺ وحسبنا بها وكفى.

٤٥ مجلس رسول الله ﷺ[1] لفضيلة الشيخ العلامة محمد الطاهر بن عاشور

احتفاف العظيم بمظاهر العظمة في أعين ناظريه وتُبَّاعه وسيلة من وسائل نفوذ تعاليمه في نفوسهم، وتلقيهم إرشادَه بالقبول والتسليم، واندفاعِهم بالعمل بما يمليه عليهم.

وإن للعظمة نواحيَ جمةً، ومظاهرَ متفاوتةَ الاتصال بالحق: فمنها العظمة الحقة الثابتة، ومنها المقبولة النافعة، ومنها الزائفة التي إنْ نفعت حيناً أضرت أزماناً، وإن راجت عند طوائف عُدَّتْ عند الأكثرين بطلاناً، وفي هاته الأصناف معتاد وغير معتاد، وبينها مراتب كثيرة الأعداد، لا يعزب عن الفطن استخراجُها من خلال أصنافها، والحكمُ الفصلُ في آدابها وألاَّفها.

وبمقياس اتسام العظيم بسمات العظمة الحقة، يكون مقياس غُنْيته عن مخايل التعاظم الزائفة، كما أنه بمقدار خلوه من تلك السمات الحقة يقترب من الاحتياج إلى شيء من تلك المخايل، كالمصاب بفقر الدم لا يستغني عن زيادة التدثر بدثر الدفاء.

ولَكَثُرُ ما تحمَّل العظماءُ مشاقَّ التكلف، لما يثقل عليهم التظاهر به؛ مجاراةً لأوهام التُّبَّاع أولي المدارك البسيطة؛ حذراً من أن ينظروا إليهم بعين الغضاضة، أو يلاقوهم بمعاملة الفضاضة.

فهم يقتحمون ذلك الثقل، ولسان حالهم يقول: «مكره أخوك لا بطل» فلا

(١) مجلة الهداية الإسلامية، الجزء العاشر، المجلد العاشر ص٥٧٨ـ٥٩٧، ربيع الثاني ١٣٥٧هـ ـ١٩٣٨م.

غرو أن كان المتوسمون منذ القدم تقوم لهم من صفات مجالسِ السَّراة والجماعات دلائلُ منبئةٌ بأحوال أصحاب تلك المجالس كما قال:

ولما أن رأيت بني جُوَيْن ... جلوساً ليس بينهم جليس

يئست من التي قد جئت أبغي ... إليهم إنني رجل يؤوس

وإننا إذا تتبعنا ما يعد من هيئات المجالس أحوال كمالٍ حقّاً أو وهماً نجد منها المتضاد الذي إن اشتمل المجلس على شيء منه لم يشتمل على ضده، مثل الحجاب والإذن، والوقار والهزل، ونجد بعضها غير متضاد بحيث يمكن اجتماعه كوضع الأرائك والطنافس النفيسة مع التزام الوقار والحكمة، وكالفخامة والزركشة مع إقامة الإنصاف؛ فقد كان مجلس سليمان -عليه السلام- مكسوّاً بفخامة الملك، وهو مع ذلك منبع لآثار النبوة والحكمة، وكانت مدرسة أفلاطون الحكيم محفوفة بمظاهر الرفاهية والترف وهي مناخ كل أستاذ حكيم.

فأما الأوصافُ المتضادةُ فلا شبهةَ في كون مجالسِ العظماء حقًّا تُنَزَّه عما يضاد الحق منها، وأما غير المتضادة فلا يُعد تجردُ مجلسِ العظيمِ عما هو من هذا الصنف مهمًّاً إلا زيادةً في عظمته، وليس ذلك بلازم في تحقق أصل عظمته الحقة.

تجرى أشكال الدعوة الإلهية على حسب استعداد الأقوام؛ لتلقي مراد الله منهم، فيسن لهم من الأحوال والهيئات ما هم به أَحْرِياء[1]؛ لنفوذ مراد الله فيهم؛ فقد يُتسامح لدعاتهم ببعض المظاهر التي لا حظ لها في التأثير الخلقي، أو التشريعي، ولا تحط من اعتبار صاحب الدعوة في أنظار أهل الكمال، وتعين

---

(١) أحرياء جمع حري، بمعنى خليق وجدير. (م)

على قبول دعوته بين العموم البسطاء؛ لموافقتها بساطة إدراكهم، وعدم منافاتِها الحقَّ؛ فإن بني إسرائيل لما فَتَنَتْهم مظاهرُ عبدةِ الأصنام وقالوا لموسى: ﴿ اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ غضب عليهم رسولهم، ووبخهم على ذلك.

ولما بهرتهم مظاهر الملك التي شاهدوها عند الأقوام الذين مروا بهم في تيههم، والذين جاوروا بلادهم وقالوا لنبيهم شمويل: ﴿ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لم ير نبيهم في ذلك بأساً؛ إذ رآه أعونَ لهم على الدفاع عن جامعتهم؛ فأقام لهم شاول ملكاً، ثم خلفه من الملوك من كان له وصف النبوة مثل داود وابنه سليمان الذي عظم سلطانه، وفخمت مَظاهرُ ملكه التي ما كانت تُنْقِصُ كماله النبوي.

وأظهر حجة على ذلك أن ملكة سبأ ما دانت له حين مجيء كتابه إليها بالدعوة إلى الإيمان بالله، والدخول في طاعة ملكه العادل، فقالت: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾.

ثم هي لما وفدت عليه بمدينته، ورأت من عظمة سلطانه ما أبْهَتَها ودخلت الصرح الممرد فحسبته لجة ـ هنالك قالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

وكذلك فرعون موسى كان مما منعه أن يؤمن بموسى أنه لم ير عليه آثار العظمة الزائفة؛ إذ قال في تعليل كفره به: ﴿ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ وهي شعار الملوك في عرفهم.

وفي هذا ما يشرح لنا تلك المجادلة التاريخية العظيمة الجارية بين عظيمين من

عظماء أمتنا عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان؛ إذ شاهد عمر حين مقدمه الشامَ فخامةَ إمارةِ معاويةَ هنالك فقال له: «أَكُسْرَوِيَّةٌ[1] يا معاوية؟!».

فقال معاوية: «إننا بجوار عدو فإذا لم يروا منا مثل هذا هان أمرنا عليهم».

فقال عمر حينئذ: «خدعة أريب، أو اجتهاد مصيب لا آمرك ولا أنهاك».

الآن تهيأ لنا أن نفيض القول في صفة مجلس رسول الله ﷺ ومتعلقاته، وهو مبحث جليل لم يسبق للعلماء الباحثين عن السيرة والشمائل النبوية تدوينُه، وتخصيصُه بالبحث والتبويب، واستيعابُ ما يتعلق به.

ومن العجب أن ذكر هذا المجلس الشريف ورد في القرآن، قال الله ـتعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾.

قال جمهور العلماء من السلف ومن بعدهم: المراد بالمجلس في الآية هو مجلس رسول الله، وسأذكر ذلك في المبحث المناسب له.

ثم إني لم أر لأحد من الباحثين في السيرة من ذكر هذا المجلس سوى عياض في كتاب الشفاء؛ فإنه ذكره بكلمة واحدة في غرض آخر؛ إذ قال في فصل زيارة القبر الشريف هذه العبارة: «قال إسحاق بن إبراهيم[2] الفقيه: لم يزل مِنْ شأن مَنْ حجَّ المرورُ بالمدينة، والقصد إلى التبرك برؤية مسجد رسول الله، وروضته، ومنبره، وقبره، ومجلسه» اهـ.

---

(١) كسروية: منسوبة إلى كسرى، والمعنى: أهيئة كسروية، أو أإمارة كسروية؟

(٢) هو إسحاق بن راهويه.

فكان حقّاً علينا أن نخصه بمقال أتقصَّى فيه ما تناثر في خلال كتب الحديث والسيرة؛ فيجيء بحثاً أُنفاً[١] يبهج من كان بسيرة رسول الله كلفاً.

❖ **صفة مجلس الرسول -عليه السلام-:**

إن رسول الله هو أكمل البشر، وإن أصحابه هم أفضل أصحاب الرسل، وأفضل قوم تقوَّمت بهم جامعةٌ بشريةٌ حسبما بينته في مقال المدينة الفاضلة[٢] المنشور في الجزء العاشر من المجلد التاسع من مجلة الهداية الإسلامية، فأراد الله -تعالى- أن يكون أعظم المصلحين وأفضل المرسلين مقصوراً على التأييد بالدلائل الحقة الباقية على الزمان، وأن يجرد عن وسائل الخِلابة والاسترهاب؛ فتكون دعوتُه أكملَ الدعوات، وعِظَتُه أبلغَ العظات كما كان هو أكمل الدعاة والواعظين، **وفي ذلك حكم جمة يحضرني الآن منها خمس:**

الحكمة الأولى: أن لا يكون جلالُ قَدْرِه في النفوس ونفوذُ أمره في الملأ محتاجاً إلى معونة بوسيلة من الوسائل المكملة للتأثير الذاتي النفساني، بل يكون تأثيره الذاتي كافياً في نفوذ آثاره في قلوب أتباعه؛ إذ كانت نفسُه الشريفةُ أكملَ نفسٍ برزت في عالم الوجود الحادث، فتكون أغنى النفوس عن التوسل بغير صفاتها الذاتية؛ إذ لا نقص في تأثير نفسه.

من أجل ذلك ادخر الله لرسوله التأييد بأوضح الدلائل، وأغناها عن العوارض التي تصطاد النفوس، وتسترهب العيون؛ حتى لا يكون شأنه جارياً

---

(١) أُنفاً: أي جديداً(م).

(٢) سترى المقال -إن شاء الله- في مجموعة أخرى من هذه المقالات (م).

على الشؤون المألوفة.

ولعل هذا مما يلوح إليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

أي هذه دعوة الحق المحض الغَنِيَّةُ عن البهرجةِ الزائلة والله أعلم؛ فيكون هذا من المعجزات الخفية التي هي آيات للمتوسمين على كُرور الأيام والسنين.

الحكمة الثانية: أن يكون الرسول غيرَ مشارك لأحوال أصحاب السيادة الباطلة من الجبابرة والطغاة؛ حتى لا يكون من دواعي إيمان بعض الفرق به وطاعتهم له ما بهرهم من تلك الزخارف، كحال الذين استكبروا من قوم نوح إذ قالوا: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾.

وهذا معنى قول رسول الله ﷺ: «خيرت بين أن أكون نبيًّا عبداً أو نبيًّا ملكاً فاخترت أن أكون نبيًّا عبداً».

الحكمة الثالثة: أن يحصل له ـ مع ذلك ـ أعظمُ جلال في نفوس أعدائه بله أوليائه؛ فيكون فيه دليل على أن جلاله مستمد من عناية الله ـ تعالى ـ وتأييده.

روى الترمذي أن قيلة بنت خرمة جاءت رسول الله وهو في المسجد قاعداً القرفصاءَ قالت: «فلما رأيت رسول الله المتخشع في الجلسة أرعدت من الفرق».

فقولها: المتخشع في الجلسة أَوْمَأَ إلى أن شأن المتخشع في المعتاد ألا يرهب، وهي قد أَرْعَدَتْ منه؛ رهبة.

ووصف كعب بن زهير رسول الله حينما دخل عليه المسجد في أصحابه مؤمناً تائباً وكان كعب يومئذ أقرب عهداً بالشرك وأوغل في معرفة مظاهر ملوك العرب

وسادتهم؛ إذ هو الشاعر ابن الشاعر؛ فإذا هو يقول بين يدي رسول الله يصف مجلسه:

لقد أقوم مقاماً لو أقوم به أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لظل يرعد إلا أن يكون له من الرسول بإذن الله تنويل

ثم يقول في صفة الرسول:

لَذاك أهيبُ عندي إذ أُكَلِّمُه وقيل: إنك منسوب ومسؤول
من خادر من ليوث الأسد مسكنه من بطن عَثَّرَ غِيلٌ دونه غيلُ

الحكمة الرابعة: أن رسول الله بعث بين قوم اعتادوا من سادتهم وكبرائهم أن يكونوا محفوفين بمظاهر الأبهة والفخامة، والرسول سيد الأمة، وقد جاء بإبطال قوانين سادتهم وكبرائهم؛ فناسب أن يشفع ذلك بتجرده عن عوايد سادتهم؛ ليريهم أن الكمال والبر ليس في المظاهر المحسوسة، ولكنه في الكمالات النفسية، وأن الكمال ـ كما يحصل بالتخلق والتحلي ـ يحصل بالتجرد والتخلي، ولذلك قال رسول الله: «أما أنا فآكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد».

الحكمة الخامسة: أن مجلس رسول الله هو مصدر الدين الموسوم ببساطة الفطرة؛ فكان من المناسب أن تكون هيئةُ ذلك المصدرِ على بساطة الفطرة؛ ليحصل التماثل بين الحالِّ والمحل، ولتكون أحوال الرسول مظاهرَ كمالٍ ماثلةً لجميع الأجيال على اختلاف المدارك والأذواق؛ ليكون التاريخ شاهداً على ما لرسول الله من الكمال الحق، الذي لا تختلف فيه مدارك الخلق؛ فإن الفخامة ـ وإن كانت تبهر الدهماء ـ فالبساطة تُبهج نفوس الحكماء، وإن بينها وبين ناموس الفطرة أشدَّ انتماء.

❖ **مكان مجلس الرسول:**

إن من مارس الحديث والسيرة لا يَشَكُّ في أن مجلس رسول الله الذي يلتف حوله فيه أصحابه، وتجرى فيه معظم أعماله في شؤون المسلمين ـ إنما كان بمسجده، وأن ما عداه من الأمكنة التي ورد في الآثار حلوله فيها إنما هي مقاعد كان يحل فيها قبل البعثة، وبعدها قبل الهجرة، وبعدها قبل أن ينتظم أمر المسلمين، أو بعد ذلك فيما بعد الهجرة؛ لعوارض تعرض من زيارة، أو ضيافة، أو عيادة، أو قضاء مصالح، أو نحو ذلك؛ فقد جلس قبل البعثة وهو بمكة في دار ابن جُدعان، وفي المسجد الحرام، وآوى إلى غار حراء يَتَحَنَّث بإلهام من الله ـتعالىـ استئناساً بالوحي، وجلس بعد البعثة في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وفي شعب أبي طالب مدة القطيعة، وسكن دار أبي أيوب الأنصاري عند مقدمه المدينة، وجلس بمسجد قباء قبل بناء المسجد النبوي، ولم يلبث أن بنى مسجده؛ فكان مجلسه بَعْدُ في ذلك المسجد فيما عدا أحوالاً تعرض مثل خروجه إلى بني عمرو بن عوف؛ للإصلاح بينهم.

وقد أرشدنا إلى ذلك ما في الصحيح عن أبي موسى الأشعري أنه قال: «توضأت يوماً وخرجت من بيتي فقلت: لألزمن رسول الله يومي هذا، ولأكونن معه، فجئت المسجد فسألت عنه، فقالوا: خرج» إلخ.

فقوله فجئت المسجد، فسألت عنه ينبئ بأن مَظِنَّةَ لقاءِ الرسول هي المسجد.

ثم إن تعيين مكان جلوسه من المسجد لم يَجْرِ له ذكر في كلامهم.

والذي يظهر لي أنه كان يلزم مكاناً معيناً للجلوس؛ لينتظره عنده أصحابه

والقادمون إليه.

والظاهر أن هذا المكان المعين هو ما بين المنبر وحجرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وهو الملقب بالروضة، ويدل لذلك أربعة أدلة:

الدليل الأول: ما ورد في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة».

وللعلماء في معنى ذلك تأويلات أظهرها والذي مال إليه جمهورهم أنه كلام جرى على طريقة المجاز المرسل؛ فإن ذلك المكانَ لما كان موضع الإرشاد والعلم كان الجلوس فيه سبباً للتنعم برياض الجنة؛ فأطلق على ذلك المكان أنه روضة من رياض الجنة بإطلاق اسم المسبب على السبب.

أو جرى على طريق الاستعارة بأن شَبَّه ما يصدر في ذلك المكان من الإرشاد والتشريع والعلم والموعظة والحكمة المنعشة للأرواح بما في رياض الجنة من الثمار والأزهار والأنهار ذات الإنعاش الخالد، فأطلق اسم المشبه به على المشبه.

وفي هذا إنباء بأن موضع الروضة مجلس رسول الله الذي كان فيه معظم إرشاده وتعليمه الناس.

الدليل الثاني: أنا نجد أحاديث كثيرة روتها عائشة ـرضي الله عنهاـ تتضمن ما دار بين رسول الله وبين سائليه، ولم نجد مثل ذلك لبقية أمهات المؤمنين؛ فعلمنا أن ذلك انفردت به عائشة؛ من أجل قرب بيتها من مجلس الرسول، وقد كان بيتها بقرب الروضة.

الدليل الثالث: قولهﷺ: «خذوا شطر دينكم عن عائشة».

وهو كلام جار مجرى البلاغة في غزارة علمها بالدين، ومن جملة أسباب ذلك اطلاعها على ما يجري في مجلس رسول الله، وبذلك امتازت على بقية الأزواج.

الدليل الرابع: ما رواه الترمذي عن أبي هريرة أنه قال: «لقد رأيتني وإني لأَخِرُّ فيما بين منبر رسول الله وحجرة عائشة؛ فيجيء الجائي، فيضع رجله على عنقي يرى أن بي جنوناً وما بي جنون، وما هو إلا الجوع».

مع ما رواه البخاري وغيره أن أبا هريرة قال: «يقول الناس أكثر أبو هريرة، وإن إخواننا المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وكان إخواننا من الأنصار يشغلهم العمل في أموالهم، وكنت ألزم رسول الله على شبع بطني؛ فأسمع ما لا يسمعون، وأشهد ما لا يشهدون».

فينتج من ذلك أن مقام أبي هريرة كان في الروضة، وأن ملازمته رسول الله كانت في ذلك المقام، وأن الروضة هي مجلس رسول الله ﷺ.

هذا وقد رأيت في كلام شهاب الدين الخفاجي في شرحه على شفاء عياض كلمة تقتضي الجزم بأن مجلس رسول الله هو الروضة؛ فإنه لما بلغ إلى قول عياض: «لم يزل من شأن مَنْ حج المرورُ بالمدينة والقصد إلى التبرك برؤية مسجد رسول الله وروضته ومنبره وقبره ومجلسه» إلخ... قال: «ومجلسه أي موضع جلوسه في الروضة المأثور اهـ.» ولم أقف على مستنده الصريح فيما جزم به.

❖ كيفية التئام مسجد الرسول وخروجه إليه:

كان أصحاب رسول الله إذا قصدوا مسجده يحضرون المكان الذي اعتاد

الجلوس فيه، فإذا قدموا قبل خروج الرسول يجلسون ينتظرونه حتى إذا خرج رسول الله كانوا يقومون له، فنهاهم عن ذلك، روى أبو أمامة قال: «خرج علينا رسول الله فقمنا له فقال: لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً» فصار القيام منسوخاً على الأصح.

وعندما يخرج رسول الله على أصحابه يبقون جلوساً؛ فلا يرفع أحد منهم بصره إلى رسول الله إلا أبو بكر وعمر؛ فإنهما كانا ينظران إليه، وينظر إليهما، ويبتسمان إليه، ويبتسم إليهما، كذا في الشفاء.

وفي الشفاء أنه كان يجلس حيث انتهى به المجلس، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم.

والظاهر أن معنى ذلك أنه حين يخرج إليهم لا يتخطى رقابهم، ولكن يجلس حيث انتهى به المجلس؛ ففي صحيح البخاري عن أبي واقد الليثي أن رسول الله بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان منهم إلى رسول الله وذهب واحد، فوقفا على رسول الله، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله ـ أي من كلامه ـ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهما فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيى فاستحيى الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه».

وفي أسباب النزول والتفسير أن رسول الله كان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، وأن ناساً منهم جاؤوا إلى مجلسه فلم يجدوا موضعاً فقاموا مواجهين له

ولم يوسع لهم أحد، فقال رسول الله لبعض من حوله من غير أهل بدر: قم يا فلان ويا فلان، وفي ذلك نزل قوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَلِسِ﴾ الآية.

وسيأتي تفصيله في ذكر آداب مجلسه.

وربما وقف السامع إلى حديث رسول الله. وفي البخاري: باب من سأل وهو قائم عالماً جالساً، وأخرج حديث أبي موسى الأشعري: جاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله ما القتال في سبيل الله؟ فرفع رسول الله رأسه إليه وقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا»، قال الراوي: وما رفع رأسه إليه إلا أن السائل كان قائماً.

وكان الملازمون مجلسَ رسول الله ﷺ أصحابَه من الرجال.

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «قال النساء للنبي غلبنا عليك الرجال؛ فاجعل لنا يوماً لنفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن»...إلخ.

وظاهر ترجمة البخاري لهذا الحديث أن اليومَ المجعولَ للنساء لم يكن يوماً مفرداً وحيداً، بل جعل لهن نوبة من الأيام؛ فيحتمل أنه جعل لهن يوماً في الأسبوع، أو في الشهر، أو بعد مدة غير معينة يعين لهن موعده من قبل، والله أعلم.

❖ هيئة المجلس الرسولي:

تدل الآثار على أن مجلس رسول الله ﷺ كان على صورة الحلقة الواحدة، أو

الحِلَق المتداخلة كما ورد في حديث أبي واقِد الليثي في صحيح البخاري؛ إذ قال فيه: «فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم».

وقد تقدم آنفاً، بل صرح بعض الرواة بأن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجلسون حوله حِلَقاً.

أما رسول الله ﷺ فكان مجلسه في وسطهم؛ ففي الصحيح عن أنس ابن مالك رضي الله عنه أن ضماماً بن ثعلبة السعدي رضي الله عنه لما دخل المسجد قال: أيكم محمد؟ قال أنس والنبي متكئ بين ظهرانيهم، وسيأتي الحديث، ومعنى بين ظهرانيهم أنه في وسطهم.

ومن الغريب ما ذكره القرطبي في كتاب المفهم على صحيح مسلم عن مسند البزار عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يجلس بين ظهراني أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أهو هو حتى يسأل، فطلبنا لرسول الله ﷺ أن نجعل له مجلساً كي يعرفه الغريب، فبنينا دكاناً من طين يجلس عليه» اهـ.

وهذا غريب، إذ لم يذكر هذا الدكان فيما ذكروه من تفصيل صفة المسجد النبوي في الكتب المؤلفة في ذلك.

وكانت هيئة جلوس رسول الله ﷺ في مجلسه غالباً الاحتباء، فقد ذكر الترمذي في كتاب الشمائل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه «كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المجلس احتبى بيديه» اهـ.

وقول الراوي: كان يفعل، يدل على أنه السَّنَةُ المتكررة.

والاحتباء هو الجلوس وإيقاف الساقين، فتجعل الفخذان تجاه البطن بإلصاق، ويلف الثوب على الساقين والظهر، فإذا أراد المحتبي أن يقوم أزال الثوب.

وأما الاحتباء باليدين هو أن يجعل المحتبي يديه يشد بهما رجليه عوضاً عن الثوب، فإذا قام قالوا حلَّ حِبوته (بكسر الحاء وضمها).

وكان الاحتباء أكثر جلوس العرب، وربما جلس رسول الله ﷺ القُرْفُصَاء -بضم القاف وسكون الراء بالمد والقصر- وهي الاحتباء باليدين، وربما جعلت اليدان تحت الإبطين وهي جلسة الأعراب والمتواضعين.

وقد وُصِف جلوس رسول الله ﷺ القرفصاء في حديث قيلة بنت مخرمة -رضي الله عنها- وقد تقدم آنفاً، وربما اتكأ رسول الله ﷺ في مجلسه في المسجد.

وفي الصحيح عن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أحدثكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئاً فجلس وقال: ألا وقول الزور...الخ.

وفي حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه رأيت رسول الله ﷺ متكئاً على يساره وربما اتكأ على يمينه، وفي حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جلس متربعاً.

ويؤخذ ذلك من حديث جبريل في الإيمان والإسلام من صحيح مسلم.

وقد تجعل له وسادة، روى الترمذي عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ متكئاً على وسادة سوداء.

وعددُ جُلساء رسول الله ﷺ لا ينضبط، بل كان يختلف باختلاف الأيام

وأوقات النهار، فربما اشتمل المجلس على أربعين رجلاً كما ورد في الصحيح من حديث أنس بن مالك ﵁ قال: «أرسلني أبو طلحة الأنصاري ﵁ أدعو له رسول الله ﷺ خامس خمسة لطعام صنعه لرسول الله ﷺ فوجدت النبي ﷺ في المسجد معه ناس فقمت، فقال: أأرسلك أبو طلحة؟ قلت: نعم، قال: لطعام؟ قلت: نعم، فقال لمن معه: قوموا وكانوا نحو الأربعين».

وربما كان مجلسه يشتمل على عشرة، ففي الصحيح عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ أتى بجمار نخلة فقال النبي ﷺ: «إن من الشجرة لما بركته كبركة المسلم»، فأردت أن أقول هي النخلة ثم التفت، فإذا أنا عاشر عشرة أنا أحدثهم فسكتُّ» ... إلخ.

❖ **ما كان يجري في مجلس رسول ﷺ:**

نبعت ينابيع الهدى والحكمة والتشريع من مجلس رسول الله ﷺ ومن منبره، ولقد كان أكثر ما رواه أصحابه عنه مما سمعوه منه في مجلسه؛ لذلك يكثر أن تجد في الأحاديث المروية عن الصحابة أن يقول الصحابي: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ».

وكان يقع التحاكم عند رسول الله ﷺ في مجلسه، وقد حكم فيه بين المسلمين كثيراً، وبين اليهود في قصة الرجم؛ إذ جاءه اليهود برجل وامرأة زنيا فأمر بهما، فرجما في موضع الجنائز من المسجد.

وكانت تفد عليه الوفود وهو في مجلسه، ويأتيه سفراء المشركين من أهل مكة، ويَعْتَورُه العُفاة، وأصحاب الحاجات.

في الشفاء أن أعرابيًّا جاء يطلب من النبي ﷺ شيئاً فأعطاه ثم قال له: أأحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم رسول الله ﷺ أَنْ كُفُّوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده، فقال له: أأحسنت إليك؟ قال: نعم.

ثم هو ـ أيضاً ـ مجلس أدب ينشد فيه الشعر وتضرب فيه الأمثال.

ولقد أنشد كعب بن زهير قصيدته المشهورة فلما بلغ إلى وصف راحلته فقال:

قنواء في حرتيها للبصير بها ... عِتْقٌ مبينٌ وفي الخدين تسهيل

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: ما حرتاها؟ فقال بعضهم: عيناها، وسكت بعضهم، فقال رسول الله ﷺ : هما أذناها.

ولما بلغ كعب قوله في مدح المهاجرين:

لا يقع الطعن إلا في نحورهم ... وما لهم عن حياض الموت تهليل

نظر رسول الله ﷺ إلى من حوله من قريش نظر من يومئ إليهم أن اسمعوا هذا المدح.

وروى الترمذي عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: جالست رسول الله ﷺ أكثر من مرة وكان أصحابه يتناشدون الشعر، ويتذاكرون من أمر الجاهلية وهو ساكت، وربما تبسم معهم.

وقد ورد في الأثر أن أصحاب رسول الله ﷺ إذا دخلوا عليه كانوا لا يفترقون إلا عن ذَواق، ويخرجون أدلة.

للعلماء اختلاف في تأويله، فحمله بعضهم على ظاهره، أي لا يفترقون إلا

بعد أن يطعموا طعاماً قليلاً؛ ولذلك عبر عنه بذَواق، وهو بفتح الذال الشيء المَذُوق من تمر أو نحوه أو ماء.

وقد ورد في حديث عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ أتى بِجُمَّار نخلة...إلخ. أي أتى به ليؤكل في مجلسه، ولذلك ترجم البخاري هذا الحديث: باب أكل الجمار، وفي حديث الموطأ عن أبي هريرة رضي الله عنه: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يذكر أنه وقع على أهله في نهار رمضان إلى أن قال: فبينما نحن على ذلك إذ أُتي النبي ﷺ بعرق فيه تمر... إلخ.

والعَرَق بفتح العين وفتح الراء ويجوز كسرها هو المكتل أي الزنبيل.

وتأوله الأنباري، وابن الأثير، وغير واحد أنه أراد أنهم لا يتفرقون إلا عن علم تعلموه يَقُوْم لأنفسهم مقامَ الطعامِ والشراب للأجسام في الانتعاش والالتذاذ؛ فجرى الكلام على طريقة الاستعارة.

❖ **وقت المجلس الرسولي:**

أحسب أن معظم جلوس رسول الله ﷺ للناس كان في أوقات تفرغ معظم الصحابة من العمل، فكان يجلس لهم بعد صلاة الصبح كما يشهد لذلك حديث كعب بن مالك رضي الله عنه وتوبته، قال كعب: «وأتى رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة ثم قال: فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا سمعت صوت صارخ يا كعب بن مالك أبشر، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس... إلخ».

وكذلك حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه المتقدم إذ يقول: توضأت يوماً

وخرجت من بيتي فقلت: لألزمن رسول الله ﷺ يومي هذا وأكون معه فجئت المسجد... إذ لا شك أن ذلك وقت صلاة الصبح، وما كان رسول الله ﷺ يستغرق الصباح كله في المجلس فإن أصحابه كانوا يذهبون إلى أعمالهم وحاجاتهم، ولأن رسول الله ﷺ كان يدخل بيوت أزواجه، فقد قالت عائشة -رضي الله عنها- كان يكون في بيته في مَهْنَةِ أهله.

وفي حديث علي رضي الله عنه من رواية الترمذي ورواية عياض: كان دخوله لنفسه فكان إذا أوى إلى منزله جزَّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءاً لله، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس، فيرد ذلك على العامة بالخاصة، ولا يدخر عنهم شيئاً.

أي كان له في بيته وقت يجلس إليه فيه خاصة أصحابه ومن له حاجة خاصة.

ومعنى يرد ذلك على العامة أنه تحصل منه منفعة للعامة بما يرويه الخاصة من علمه للناس، وفي هذا دليل على أن معظم ما عدا وقت دخوله إلى منزله كان وقت مجلسه إلا إذا عرضت حاجة يذهب إليها.

❖ **آداب مجلس رسول الله:**

كيف لا يكون مجلس يحتله رسول الله ﷺ ميدان تسابق الآداب إلى غاياتها، وجوّاً ترفرف فيه الكمالات راقبةً إلى سماواتها.

فإن صاحبه هو الذي أدبه ربه بأحسن تأديب، وجلساءه هم أولئك الغُرُّ المناجيب، وناهيك بأن ورد بعض آدابه في الكتاب المجيد، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَلِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ

وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ﴾.

قال الواحدي، وابن عطية عن مقاتل وقتادة وزيد بن أسلم: كان النبي ﷺ يجلس في المسجد فجلس يوماً وكان في المجلس ضيق؛ إذ كان الناس يتنافسون في القرب من رسول الله ﷺ، وفي سماع كلامه، والنظر إليه، وكان رسول الله ﷺ يكرم أهل بدر، فجاء أناس من أهل بدر فلم يجدوا مكاناً في المجلس فقاموا وجاه النبي ﷺ على أرجلهم يرجون أن يوسع الناس لهم، فلم يوسع لهم أحد، فأقام رسول الله ﷺ أناساً بقدر من جاء من النفر البدريين، فعرف رسول الله ﷺ الكراهية في وجوه الذين أقامهم فنزلت الآية.

فقوله: ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَلِسِ ﴾ فيما إذا كان في المجلس ضيق، فيتفسح الناس بدون أن يقوم أحد، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ﴾ أي إذا قيل لكم ارتفعوا وقوموا عن المجلس فافعلوا، أي إذا أمركم الرسول ﷺ في مجلسه بالقيام فلا تتحرجوا، وهو ضرب من التفسح.

وقيل التفسح يكون بالتوسعة من قعود أو من قيام، فهما داخلان في قوله: تفسحوا، والنشوز هو أن يؤمروا بالانفضاض عن المجلس، فإذا أمروا بذلك فلا يتحرجوا؛ لأن رسول الله ﷺ يحب أحياناً الانفراد بأمور المسلمين؛ فربما جلس إليه القوم فأطالوا؛ لأن كل أحد يحب أن يكون آخر الناس عهداً بالنبي ﷺ، وكل ذلك من فرط محبتهم إياه، وحرصهم على تلقي هداه.

ومن آدابه المذكورة في الكتاب المجيد ما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ

لِبَعْضٍ ﴾، وقوله: ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾.

قال علماء التفسير: نزلت هاتان الآيتان بسبب محاورة جرت بين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - بين يدي رسول الله ﷺ في مجلسه، وذلك حين قدم وفد بني تميم أشار أبو بكر رضي الله عنه على النبي ﷺ أن يؤمَّ على بني تميم القعقاع بن معبد، فقال عمر رضي الله عنه بل أمِّر عليهم الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي! فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماديا، وارتفعت أصواتهما، فنزل القرآن بهذه الآية، قالوا: فكان أبو بكر بعد ذلك لا يكلم رسول الله ﷺ إلا كأخي السرار - أي كصاحب السر والمسارة - وكان عمر رضي الله عنه بعد ذلك إذا كلم رسول الله ﷺ لا يكاد يسمعه حتى إن رسول الله ﷺ لَيَستَفْهِمه.

ومن آداب مجلسه أن أصحابه يكونون فيه على غاية التؤدة والسكينة؛ فقد روى أصحاب السنن عن أسامة بن شريك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، ومثله في حديث هند بن أبي هالة في صفة رسول الله ﷺ.

ومعنى كأنما على رؤوسهم الطير: أي في حالة السكون؛ لأن الطائر ينفر من أدنى تحرك.

وفي حديث هند بن أبي هالة - رضي الله عنها -: كان رسول الله ﷺ يعطي كل جلسائه نصيبه لا يحسب أحد أن أحداً أكرم عليه منه.

وفيه أن مجلسه مجلس وقار، وحلم، وحياء، وخير، وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم، ولا تثنى فلتاته.

ومعنى لا تؤبن فيه الحرم: أي لا تذكر فيه حرمات الناس بسوء، يقال أَبَنه إذا ذكره بسوء، والمراد بالحرم هنا أعراض الناس وما يحرِّمون تناوله منهم، ومعنى لا تثنى فلتاته: لا تعاد، مأخوذٌ من التثنية وهي الإعادة، والفلتات جمع فلتة وهي الزلة من القول والفعل إذا جرت على غير قصد بغتة؛ يعني أن أهل ذلك المجلس أهل حفظ للسر، وإعراض عن اللغو، فلو صدرت من أحد فلتة لم يتناقلها جلساؤه بالتسميع والتشنيع، وهذا أدب عربي رفيع، وفي هذا المعنى قال وداك بن ثميل من شعراء الحماسة:

وأحلام عاد لا يخاف جليسهم   إذا نطق العوّارَ غربُ لسان



ثاني عشر: مقالات في المشاعر والعواطف الإنسانية

٤٦ـ **ضبط العواطف**: للأستاذ أحمد أمين

٤٧ـ **الصداقة**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٤٨ـ **الأربعون**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

٤٩ـ **موت أم**: للأديب مصطفى صادق الرافعي

٥٠ـ **مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة**: للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

٤٦ ضبط العواطف[1] لأحمد أمين

تختلف الأمم في ضبط العواطف اختلافاً كبيراً كاختلاف الأفراد؛ فبعضهم حاد المزاج سريع الانفعال، وبعضهم هادئ المزاج بطيء الانفعال، وكذلك الشأن في الأمم؛ فهي تختلف في حدة عواطفها، وبرودتها، ومقدار انفعالاتها أمام الحوادث، ودرجة حزنها، وسرورها، وخوفها، وطمأنينتها، إلى غير ذلك.

ومن مظاهر العواطف الخوف من الأمور الصغيرة، والفزع الشديد من الحوادث التي تكون تافهة، والغضب الشديد للكلمة النابية، والوصول إلى أقصى حد في الانفعال للحوادث اليومية، التي يكفي لمرورها غض الطرف عنها، إلى كثير من أمثال ذلك.

هذه الحِدَّةُ في العواطف، والمبالغة في الانفعال تتخذ في الأمة ظاهرة واضحة؛ فجانب كبير من الجرائم سببه حدة العواطف، فكل يوم نرى في الجرائد أخباراً عن قتل، أو كسر، أو جرح لأسباب تافهة يعجب العقل الهادئ كيف وصلت إلى هذه النتائج؛ فقتل لنزاع على ماء للري، وضرب أفضى إلى الموت لكلمة صدرت اعتبرها السامع سبّاً فاضحاً، وهكذا مما نطالعه كل يوم، حتى في الطبقة المثقفة يثور الجدل بينهم ويبدأ هادئاً، ولكن سرعان ما يحتد المزاج وتعلو نغمة الجدال، فتنقلب إلى سباب، ولا يقتصر الأمر على حجة، ولا برهان أمام برهان، بل يتعداه إلى سباب، ونقد لاذع أمام نقد لاذع، وتنسى المسائل

---

(١) فيض الخاطر ٣/١٩٤-١٨٩.

الأصلية، وتبقى الحزازات النفسية؛ هذا هو المظهر العام في الشارع، وفي البيت، وفي المحاكم وفي الصحف، كأن كل الناس يحمل مستودعاً من البنزين ينتظر أقل اشتباك أو احتكاك.

ومما يؤسف له أن هذه الحدة في العواطف، والحرارة في الانفعال تُظْهِر كل الأشياء التي ذكرنا، وتكون فيها أكثر مما ينبغي، مع أنها تبرد أمام أشياء أخرى، وتكون أقل مما ينبغي؛ فلا نرى حرارة في الانفعال أمام جمال الطبيعة، ولا جمال المعاني، ولا حسن النظام، ولا نرى غيرة شديدة على الحرية الفردية، ولا الحرية الاجتماعية.

وهذا الذي يغضب غضباً شديداً لكلمة جرحت إحساسه لا يغضب لمنظر أوذيت فيه العدالة، وهذا الذي ينفعل انفعالاً شديداً على شيء من ماله لا ينفعل للتعدي على سمعة قومه، أو حرية قومه، وهذا الذي يَذُوبُ حُبّاً ويفنى عشقاً فيمن يحب لا يتحرك قلبه لجمال طبيعة، أو جمال مبدأ سام؛ فأوتار أعصابه لا تنفعل هذا الانفعال العنيف إلا للنواحي الشخصية والأشياء المادية.

ولو أنها انفعلت لهذا وذاك لاحتمل ذاك القبح في سبيل هذا الجمال.

حدة العواطف وشدة الانفعال في الأمة تسبب لها متاعب كثيرة في الحياة، وتفقدها سعادتها، فالبيت جحيم من غضب الآباء والأبناء؛ فكلمة صغيرة من أب لابنه، أو ابن لأبيه أو من أم لبنتها، أو من بنت لأمها تشعل النار في البيت وتجعله جحيماً زمناً طويلاً، والعلاقات بين الأصدقاء عرضة للخطر لتوافه الأمور، والعلاقات بين العاملين في مصلحة أو جمعية معرضة للفساد ولأقل

حادث، والعلاقات بين الأحزاب علاقة عداء حادّ غالباً، والمحاكم مكدَّسة بالقضايا من أثر النزاع الحادِّ.

ولو تعودنا ضبط العواطف في كثير من الأحوال لمرت الحوادث بسلام.

ولكن هل هذا العيب قابل للإصلاح، وهل هذه الانفعالات قابلة للانضباط؟

قد يرى قوم أنها حركات نفسية اضطرارية كنبض القلب، وإفراز المعدة، وأنها نتيجة طبيعية لحرارة الجو وطبيعة الإقليم.

ولكني لست أرى هذا الرأي، وأنها حركات نفسية إرادية يمكن إصلاحها، وتهذيبها، والتغلب عليها؛ بدليل أننا نعيش جميعاً في بيئة واحدة خاضعة لدرجة واحدة من الحرارة ومع ذلك فينا من يضبط عواطفه، ويحكم انفعالاته.

ولو كان الأمر خاضعاً لفعل الطبيعة وحدِّها لم يَشُذَّ عن الخضوع لها أحد، وكما يقول الفلاسفة: «ما بالطبع لا يتخلف».

والـمُثقَّفون ـ في جملتهم ـ أضبط لعواطفهم من غير المثقفين في جملتهم.

و نحن لو نظرنا إلى سُلَّم الرُقِيِّ من الحيوان إلى أرقى نوع من الإنسان وجدنا أن الحيوان تُسَيِّره غرائزه وانفعالاته الوقتية فقط، وكذلك الشأن في الإنسان البدائي، فإذا ارتقى وجدنا عاملاً جديداً يظهر في تسيير تصرفاته وهو الفكر والعقل، ونراه محكوماً بهما معاً، وكلما رقى الإنسان كان الفكر أظهر في تصرفه، ووجدنا الحدود الفاصلة بين العواطف والفكر تتكسَّر؛ فعواطفه تُلَطِّفها الفكرة، وتُهدِّئها الحكمة، وعقله تُحَمِّسُه العاطفة، ويزيد حرارتَه الشعورُ

والانفعالاتُ، ووجدنا العلاقةَ بين عواطفِه وفكرِه علاقةً متينة؛ ذلك لأنه لو عاش بعواطفه وانفعالاته فقط لم يكن هناك تفاهم بينه وبين غيره إلاَّ من شعر مثل شعوره؛ لأنَّ أساس التفاهم هو العقل؛ فمن قال: إني أحب هذا الشيء، أو أكرهه ولم يزد على ذلك لم يكن هناك سبيل إلى مناقشته، وإقناعه بخطئه، ولأنَّ الخضوع للعواطف وحدها عرضةٌ للاندفاع السريع، ثم التراجع السريع، كما نشاهد في الحب الذي لم يؤسس على التفكير، وعلى النظر في العواقب، فهو انفعال مؤقت كثيراً ما يعقبه فشل أليم.

وعلى العكس من ذلك: العواطف بعد التفكير، والاندفاع بعد العلم والتأمل.

ولو تتبعتَ أكثر الناس الذين يسيرون وراء عواطفهم فقط لوجدتَّ عاقبتَهم الفشلَ دائماً؛ فمن يغضب لأقل سبب، ويحب لأول نظرة، ويندفع لداعي الغريزة لم يستطع السيرَ في الحياة طويلاً، ولابدَّ للنجاح من عواطف يحكمها الفكر، وأفكارٍ تُحَمِّسُها العواطف.

يتطلبُ ضبطُ العواطف كظمَ الغيظ عند دواعي الغضب، والاعتدالَ في الانفعال عند بواعث السرور والحزن، والتؤدة والتفكير عند إصدار الحكم، والتفكير عند نزوات الهوى.

فلا إفراط في السرور والحزن ولا الغضب، ولا نحو ذلك من أنواع الانفعال.

وهو فضيلة في الأمم كما هو فضيلة في الأفراد؛ فقد تكون حِدَّة العواطف في الأمة سبباً في شقائها؛ فكثيراً ما تَعْرِض للأمة أزماتٌ سياسيةٌ أو اقتصاديةٌ أو

اجتماعيةٌ فيمكنها أن تجتازَها بضبطِ عواطفها، وتلطيفِ انفعالاتِها، والحكمةِ في تصرفاتها، ووزنِ عواقبها، على حين أنها تُعَرِّضُ نفسها للخطر إذا انقادت لعواطفها من غير تفكير.

ضبط العواطف في الفرد يكتسب بالمِران والتعود، فلا يزال المرء يغضب؛ فيكظم، ثم يغضب فيكظم حتى يكون حليماً، ولا يزال يقاوم نفسه فلا يندفع في سروره وحزنه حتى يكون حكيماً، وكثيراً ما تكون حدة العواطف نتيجةَ قصرِ النظر وضيق العقل، فإذا وَسَّع أُفُقَه، وجَرَّب الحياة، ودرس الأشياء، ونتائجها علم كيف يضبط نفسه.

أما تربيةُ هذا الخُلُق في الأمة فهو ـ أولاً ـ في يد الرأي العام، فإذا احتقر الناس الغَضوب لغضبه، والجَبان لخوفه، والمرِحَ لاستهتاره، والحزين لجزعه ـ تَصَلَّبَ عُود الأمَّة، وانضبطت عواطفها واعتدلت في انفعالاتها.

وهو ـ ثانياً ـ في يد قادتها؛ فالأمة تحتاج في طور تَكْوينِها إلى مُثُل عُليا من قادتهم يقتدون بها، فإذا رأتهم قد ضبطوا عواطفهم إذا اختلفوا، وحفظوا ألسنتهم إذا غضبوا، وضَحُّوا بشهواتهم إذا أَزِموا، كانت كل هذه دروساً للشعب يحتذي حذوَهم، ويسيرُ على منهجهم.

٤٧ الصداقة[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

عاطفة سامية القدر، غزيرة الفائدة، تلك هي الصداقة.

والشارع رغب في أن تكون المعاملة بين المسلمين معاملة الصديق للصديق؛ ألا ترونه كيف أمر المسلم بأن يحب لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه؟، بل استحب للمسلم أن يؤثر أخاه المسلم وإن كان به حاجة، وذلك أقصى ما يفعله الصديق مع صديقه.

هذا الأدب الإسلامي نبهني لأن أتحدث إليكم في هذه الليلة عن الصداقة:

ما هي الصداقة؟:

المحبة إما أن تكون للمنفعة، وإما أن تكون للذة، وإما أن تكون للفضيلة، وقد يطلق على كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة اسم الصداقة.

صداقة المنفعة:

هي أن يحب الإنسان شخصاً لما يناله منه من منافع، وشأنُ هذه الصداقة أن تبقى معقودة بين الشخصين ما دامت المنافع جارية، فإن انقطعت المنافع انقطعت هذه الصداقة.

صداقة اللذة:

هي المحبة التي تثيرها الشهوة، وقد تشتد فتسمى عشقاً، وشأن هذه الصداقة

---

(١) نُشرت في مجلة الهداية الإسلامية الجزئين الأول والثاني من المجلد الثامن، ورسائل الإصلاح ٢/٧ـ١٩، ومحاضرات إسلامية ص١٢٥ـ١٣٩.

ـأيضاًـ أن تنقطع عندما تنصرف النفس عن اللذة التي بعثتها.

صداقة الفضيلة:

هي المحبة التي يكون باعثُها اعتقادُ كلٍّ من الشخصين أن صاحبه على جانب من كمال النفس، وهذه هي الصداقة التي يهمنا الحديث عنها في هذا المقام.

الصداقة فضيلة:

ليست صداقة المنفعة، ولا صداقة اللذة بمعدودة في خصال الشرف، وإنما الذي يصح أن يعد خصلة شريفة هو الصداقة التي يبعثها في نفسك مجردُ اعتقادِ أن صاحبك يتحلى بخلق كريم.

وهذه الصداقة تشبه سائر الفضائل في رسوخها في النفس، وإيتائها ثمراً طيباً في كل حين، وهي التي توجد من الجبان شجاعة، ومن البخيل سخاءًا؛ فالجبان قد تدفعه قوة الصداقة إلى أن يخوض في خطر؛ ليحمي صديقه من نكبة، والبخيل قد تدفعه قوة الصداقة إلى أن يبذل جانباً من ماله لإنقاذ صديقه من شدة؛ فالصداقة المتينة لا تحل في نفس إلا هذبت أخلاقها الذميمة؛ فالمتكبر تنزل به الصداقة إلى أن يتواضع لأصدقائه، وسريع الغضب تضع الصداقة في نفسه شيئاً من كظم الغيظ، ويجلس لأصدقائه في حلم وأناة، وربما اعتاد التواضع والحلم، فيصير بعدُ متواضعاً حليماً.

والفضل في خروجه من رذيلتي الكبر وطيش الغضب عائد إلى الصداقة.

وإن شئت فقل: إن حب الشخص لك لفضيلتك علامة على كمال أصل خلقه؛ فإنك لا ترجو من شخص أن يحبك لفضيلتك إلا أن يكون صاحب فضيلة.

وليس يعرف لي فضلي ولا أدبي   إلا امرؤ كان ذا فضل وذا أدب

الداعي إلى اتخاذ الأصدقاء:

في اتخاذِ صديقٍ حميمٍ لذةٌ روحية يدركها من يَسَّر الله له أن انعقدت بينه وبين رجل من ذوي الأخلاق النبيلة، والآداب العالية مودة، ولا منشأ لهذه اللذة الروحية إلا الشعور بما بينه وبين ذلك الرجل النبيل المهذب من صداقة.

وصديق الفضيلة هو الذي يجد في لقاء صديقه ارتياحاً وابتهاجاً، ويعد الوقت الذي يقضيه في الأنس به من أطيب الأوقات التي لا تسمح بها الأيام إلا قليلاً.

ثم إن الصداقة ـ وإن قامت على أساس الفضيلة، ولم يكن للمنفعة أثر في تكوين رابطتها ـ تستدعي بطبيعتها جلب المنفعة أو دفع الضرر؛ فإنها تبعث الصديق على أن يدفع عن صديقه الأذى بما عنده من قوة، وتهزه لأن يسعده في الشدائد بما أوتي من جاه أو سطوة.

ولمثل هذا أوصى بعض الحكماء باتخاذ الأصدقاء فقال: «أعجز الناس من فرط في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم».

وقال الشاعر الحكيم:

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة ... ولكن إخوان الثقات الذخائر

الاستكثار من الأصدقاء:

متى حظي الإنسان بأصدقاء كثيرين فقد ساقت له الأقدار خيراً كثيراً، ففي الصداقة ابتهاج القلب عند لقاء الصديق، وفيها لذة روحية ولو في حال غيبة الصديق، وفيها عون على تخفيف مصائب الحياة.

وكذلك أوصى بعض الحكماء ابنه فقال: «يا بني إذا دخلت المصر، فاستكثر

من الصديق أما العدو فلا يهمنك».

وقال بعض الأدباء:

ولن تنفك تُحسد أو تُعادى ... فأكثر ما استطعت من الصديق

ومبنى هذه النصيحة على أن شأن حساد الرجل وأعدائه تدبير الوسائل للكيد له، وطَرْقُ كلِّ باب يحتمل أن يكون من ورائه ما يشفي صدورهم؛ فإذا ساعده القدر على أن يُكْثِر من الأصدقاء فقد أكثر من الألسنةِ التي تدحض ما يُرمى به من المزاعم، والأيدي التي تساعده على السلامة من الأذى.

علامة الصداقة الفاضلة:

ليس من علامة الصداقة الفاضلة أن يقوم لك الرجل مُبْتَدراً، أو يلاقيك باسماً، أو يثني عليك في وجهك مسهباً ومكرراً؛ فذلك شيء يفعله كثير من الناس مع من يحملون له أشدَّ العداوة والبغضاء، وأصبح كثير منهم يعدونه من الكياسة، ويخادعون به من إذا أسمعوه مدحاً فكأنما سقوه خمراً.

وربما استثقلوا من لم يسلك هذه الشعبة من النفاق، ونسبوه إلى جفاء الطبع، وقلة التدرب على الآداب الجارية في هذا العصر.

وقد ذكر الأدباء للصداقة الخالصة علامات منها أن يدفع عنك وأنت غائب عنه.

قال العتابي:

وليس أخي مَنْ ودَّني رأيَ عينِه ... ولكن أخي من صدَّقْتهُ المغائب

ومنها أن تكون مودته في حال استغنائك عنه واحتياجك إليه سواءًا.

قال الأحنف بن قيس: «خير الإخوان من إن استغنيت عنه لم يزدك في المودة، وإن احتجت إليه لم ينقصك منها».

ومنها أن ينهض لكشف الكربة عنك ما استطاع كشفها، لا يحمله على ذلك إلا الوفاء بعهد الصداقة، قال بعضهم في صديق له:

وكنت إذا الشدائد أرهقتني يقوم لها وأقعد أو أقوم

والألمعي يَعْرف الصداقة من نظرات العيون، ويحسها في أساليب الخطاب، ويلمحها من وراء أحرف الرسائل:

والنفس تدرك من عيني محدثها إن كان من حِزْبها أو مِنْ أعَاديها

ومن الْمُثُل العالية للصداقة المتينة صداقة الوزير الوليد بن عبد الرحمن بن غانم للوزير هاشم بن عبدالعزيز.

نقرأ في تاريخ الأندلس أن الوزير هاشماً بعثه السلطان محمد ابن عبدالرحمن الأموي على رأس جيش، فوقع هذا الوزير أسيراً في يد العدو، وجرى ذكره يوماً في مجلس السلطان محمد بن عبدالرحمن، فاستقصره السلطان، ونسبه للطيش والعجلة والاستبداد بالرأي، فلم ينطق أحد الحاضرين في الاعتذار عنه بكلمة، ما عدا صديقه الوليد؛ فإنه قال: «أصلح الله ـ تعالى ـ الأمير، إنه لم يكن على هاشم التخير في الأمور، ولا الخروج عن المقدور، بل قد استعمل جهده، واستفرغ نصحه، وقضى حق الإقدام، ولم يكن ملاك النصر بيدهِ، فخذله مَنْ وثق به، ونَكَل عنه من كان معه، فلم يزحزح قدمه عن موطن حفاظه، حتى مُلِكَ مقبلاً غير مدبر، ملبياً غير فشل،

فجوزي خيراً عن نفسه وسلطانه؛ فإنه لا طريق للملامة عليه، وليس عليه ما جنته الحرب الغشوم.

وأيضاً فإنه ما قصد أن يجود بنفسه إلا رضاً للأمير، واجتناباً لسخطه، فإذا كان ما اعتمد فيه الرضا جالب التقصير، فذلك معدود في سوء الحظ».

وقع هذا الاعتذار من السلطان موقع الإعجاب، وشكر للوليد وفاءه لهاشم، وترك تفنيد هاشم، وسعى في تخليصه.

ووصل خبر هذا الاعتذار إلى هاشم، فكتب خطاب شكر للوليد ومما يقول في هذا الخطاب: «الصديق من صدقك في الشدة لا في الرخاء، والأخ من ذب عنك في الغيب لا في المشهد، والوفي من وفى لك إذا خانك زمان».

ومما جاء في هذا الخطاب من الشعر:

أيا ذاكري بالغيب في محفل به ... تَصَامَتَ جَمْعٌ عن جوابٍ به نصري

أتتني والبيداءُ بيني وبينها ... رُقَى كلماتٍ خَلَّصَتْني من الأسرِ

لئن قَرَّب الله اللقاء فإنني ... سأجزيك ما لا ينقضي غابر الدهرِ

فكتب إليه الوليد جواباً يقول فيه:

«وصلني شكرك على أن قلتُ ما علمتَ، ولم أخرج عن النصح للسلطان بما ذكرته للسلطان من ذلك، والله -تعالى- شاهد على أني أتيت ذلك في مجالس غير المجلس المنقول إلى سيدي، إن خَفِيَتْ عن المخلوق فما تخفى عن الخالق، ما أردت بها إلا أداء بعض ما اعتقده لك، وكم سهرتَ وأنا نائم، وقمتَ في حقي وأنا قاعد، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً».

الصداقة تقوم على التشابه:

لا تنعقد الصداقة الصافية بين شخصين إلا أن يكون بين روحيهما تقارب، وفي آدابهما تشابه، قال عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة:

وما يلبث الإِخوان أن يتفرقوا ... إذا لم يُؤلِّف روحُ شكلٍ إلى شكل

فإن وجدت صحبة بين بخيل وكريم، أو جبان وشجاع، أو غبي وذكي، أو مهتد ومبتدع ـ فاعلم أن الصحبة لم تبلغ أن تكون صداقة بالغة، قال الطائي:

عصابةٌ جاورتْ آدابُهم أدبي ... فهم وإن فُرِّقُوا في الأرض جيراني

أرواحنا في مكان واحد وغدت ... أبدانُنا بشآم أو خُراسان

البعد من صداقة غير الفضلاء:

ينبغي للرجل أن يتخير لصداقته الفضلاء من الناس، فهؤلاء هم الذين تجد الصداقة فيهم قلوباً طيبة، فتنبت نباتاً حسناً، وتأتي بثمر لذيذ.

قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة:

عزيزٌ إخائي لا ينال مودتي ... من القوم إلا مسلمٌ كاملُ العقل

وقال آخر:

وبغضاء التقيِّ أقلُّ ضيراً ... وأسلم من مودة ذي الفسوق

وكثيراً ما يقاس الرجل بأصدقائه؛ فإن رآه الناس يصاحب الفساق والمبتدعين سبق إلى ظنونهم أنه راضٍ عن الابتداع ولا يتحرج من الفسوق.

وقد صرح أحد الشعراء بأنه ترك مودة رجل من أجل أنه يصاحب الأراذل من الناس، فقال:

يزهدني في ودِّك ابنَ مساحقٍ　　　مودتُك الأرذال دون ذوي الفضل

الاحتراس من الصديق:

قد يوصي بعض الأدباء بالاحتراس من الصديق، كما قال أحدهم:

أما العداة فقد أروك ظنونهم　　　وأقصد بسوء ظنونك الإخوانا

وأتى على هذا المعنى آخر، وأبدى له وجهاً هو الخوف من أن ينقلب الصديق إلى عدو، فيكون أدرى بوجه الضرر، فقال:

احذر عدوك مرة　　　واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديـ　　　ـق فكان أعلم بالمضرة

والقول الفصل في هذا أن صديق المنفعة متى عرف الإنسان وجه صداقته كان له أن يحترس منه، ويكون هذا موضع الأشعار التي تنصح بالاحتراس مع الأصدقاء.

أما من انعقدت بينك وبينه صداقة الفضيلة، وكنت على يقين من أن هذا وجه صداقتكما ـ فلا موضع للاحتراس منه.

فإن اجتهدت أيها الألمعي رَأْيَك في صداقة شخص، وبدا لك أنها صداقة فضيلة، ثم رأيت منه ما لم تكن تحتسب ـ فلا يَحْمِلْك هذا الخطأُ في الاجتهاد على الاحتراس من كل صداقة؛ فإن ما وقع إنما هو أمر نادر، والأمور النادرة لا تتخذ مقياساً في معاملة الأصدقاء، ولا تستدعي أكثر من أن تستعيذ بالله من شرها، ثم تمضي مع أصدقائك الفضلاء في وداعة خلق، وسماحة نفس.

هل الصداقة اختيارية؟

إذا كانت الصداقة الشريفة ترجع إلى محبة الشخص لفضيلته، كانت غير اختيارية؛ لأنها ترتبط بسبب هو الفضيلة.

وقد أشار بعض الأدباء إلى أنه لا منة له في الصداقة حتى يستحق عليها الحمد، فكتب إلى صديق له: «إني صادفت منك جوهر نفسي، فأنا غير محمود على الانقياد إليك بغير زمام؛ لأن النفس يتبع بعضها بعضاً».

والواقع أن الاختيار يرجع إلى فتح الصدر لها، وربط القلب عليها، والسير في الأقوال والأفعال على مقتضى عاطفتها؛ فإذا حَمَدْتَ الرجل على صداقته فإنما تحمده على أنْ أَقرَّها في صدره مغتبطاً بها، ثم جرى على ما تستدعيه من نحو المواصلة والمؤانسة.

دعوى أن الصداقة الخالصة مفقودة:

يزعم بعض الأدباء أن الصداقة الخالصة من كل شائبة مفقودة، ومن هؤلاء من ينفيها من الدنيا بإطلاق كما قال أبو الجوائز الحسن بن علي:

دعِ الناسَ طرًّاً واصرف الودَّ عنهمُ ... إذا كنت في أخلاقهم لا تسامح[1]

ولا تبغ من دهرٍ تظاهرَ رَنْقُهُ ... صفاء بنيه والطباع جوامح[2]

وشيئان معدومان في الأرض: ... حلالٌ، وخلٌّ في الحقيقة ناصح

وقال آخر:

زمانٌ كلُّ حُبٌّ فيه خِبٌّ ... وطعم الخِلِّ خَلٌّ لو يذاق[3]

له سوق بضاعته نِفَاقٌ ... فنافِقْ فالنِّفَاقُ له نَفَاق

---

(١) طراً: جميعاً.

(٢) رنقه: كدره.

(٣) الخب: الخداع.

ومنهم من يشكو أهل زمانه، ويخبر بأنه لم يجد من بينهم من يصطفيه للصداقة، كما قال بعضهم:

خَبَرْتُ بني الأيام طُرّاً فلم أجد   صديقاً صدوقاً مسعداً في النوائب
وأصفيتهم مني الودادَ فقابلوا   صفاءَ ودادي بالنَّوى والشوائب
وما اخترت منهم صاحباً وارتضيته   فأحمدته في فعله والعواقب

وكما قال الطُّغرائي:

فلا صديق إليه مشتكى حزني   ولا أنيس إليه منتهى جذلي [1]

والحق أن صاحب الفضيلة لا يعدم الصديق الفاضل، وتُحْمَل هذه الأشعار وأمثالها على أن أصحابها قد نظموها في أحوال خاصة، كأن يروا من بعض من كانوا يعدونهم أصدقاء أموراً يكرهونها، أو يروا منهم سكوناً حيث يجب عليهم أن يتحركوا لإسعادهم.

الصديق المخلص عزيز:

إن كان أصدقاء المنفعة كثيراً فإن الذي يحبك لفضلك، وتحبه لفضله حباً يبقى ما بقيت الفضيلة ـ عزيزُ المنال.

قال يونس: اثنان ما في الأرض أقل منهما ولا يزدادان إلا قلة: درهم يوضع في حق، وأخ يُسْكن إليه في الله.

وهذا الصديق هو الذي حثك الشاعر على التمسك به فقال:

---

(١) الجذل: الفرح.

وإذا صفا لك من زمانك واحدٌ فاشددْ عليه وعِشْ بذاك الواحدِ

وكلما قضى الإنسان مرحلة من عمره في الاعتبار والتجارب ازداد علماً بأن أصدقاء الفضيلة لا تسمح بهم الأيام إلا قليلاً.

وإذا بدا لك أن أصدقاءك في وقت الشباب أكثر من أصدقائك وأنت شيخ - فإن الشاب مقبل على الحياة في شيء كبير من النشاط والارتياح؛ فيكون أسرع إلى اتخاذ الأصدقاء من الشيخ الذي ترك طولُ السنين في عظامه فتوراً، وأبقت الحوادث في صدره ضيقاً.

وإن شئت فقل: إن الشباب لم يزل على الفطرة، فيقيم صداقته على الظواهر، ولا يبالغ في نقد الناس مبالغة الشيخ الذي يحمله طول التجارب على أن يتريث في اختيار الأصدقاء.

ويضاف إلى هذا أن الشيخ لا يبلغ السن الذي يبلغه حتى يأخذ الموت من أصدقائه فوجاً أو أفواجاً.

وفَقْد الأصدقاء يترك في نفس الرجل وحشة، وربما وقع في ظنه، وجرى على لسانه استبعاد أن يجد بعد أولئك الأصدقاء من يماثلهم في إخلاص المودة والوفاء بالعهد.

الإغماض عن عثرات الأصدقاء:

يرى الباحثون في طبائع البشر أن ليس فيهم من يتخذ صديقاً، ويُرْجَى منه أن يسير على ما يُرْضِي صديقه في كل حال، ودَلَّتْهُمُ التجارِبُ على أنَّ الصديق - وإن بلغت صداقته المنتهى - قد يظْهر لك من أمره ما لا يلائم صلة الصداقة؛ فلو أخذت

تهجر من إخوانك كلَّ مَنْ صدرت منه هفوةٌ لم تلبث أن تفقدهم جميعاً، ولا يبقى لك على ظهر الأرض صديق غير نفسك التي بين جنبيك.

عرَّف هذا المعنى الشاعر الذي يقول:

ولست بمستبق أخاً لا تُلِمُّه على شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المهذبُ

والذي يقول:

أُغمِّضُ للصديق عن المساوي مخافة أن أعيش بلا صديق

والذي يقول:

ومن يتتبعْ جاهداً كل عثرة يجدْها ولا يَسْلمْ له الدهرَ صاحبُ

وقد عبر عن هذا المعنى بشار بن برد إذ قال:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فعش واحداً أَوْ صِلْ أخاك فإنه مُقَارِفُ ذنبٍ مرة ومُجَانبه

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأيُّ الناسِ تصفو مشاربه

وإذا كان الصفح عن الزلات من أفضل خصال الحمد ـ فأحق الناس بأن تتغاضى عن هفواتهم رجالٌ عرفت منهم المودة، ولم يقم لديك شاهد على أنهم صرفوا قلوبهم عنها.

معاملة الأصدقاء بالمثل:

يذهب بعض الناس إلى أن يسيروا مع الأصدقاء على مثل سيرتهم معهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وأشار إلى هذا المذهب أبو القاسم الحريري في مقاماته بمثل قوله: «بل نتوازن بالمقال وزن المثقال، ونتحاذى في الفعال حذو النعال».

والقول الفصل في هذا أنَّ ما يصدر من الصديق إن كان من قبيل العثرة التي تقع في حال غفلة، أو خطأ في اجتهاد الرأي ـ فذلك موضع الصفح والتجاوز، ولا ينبغي أن يكون له في نقض الصداقة أثر كثير أو قليل.

أما إن كان عن زهد في الصحبة، وانصرافٍ عن الصداقة، فلك أن تزهد في صحبته، وتقطع النظر عن صداقته.

وهذا موضع الاستشهاد بمثل قول الكُميت:

وما أنا بالنِّكس الدنيء ولا الذي إذا صدَّ عني ذو المودةِ يقرب

ولكنه إن دام دمت وإن يكن له مذهب عني فلي فيه مذهب

ألا إن خير الودِّ ودٌّ تَطَوَّعت له النفس لا ودٌّ أتى وهو مُتْعَب

والفرق بين عثرة قد تصدر من ذي صداقة، وبين جفاء لا يكون إلا من زاهد في الصداقة ـ يَرْجِعُ فيه الرجلُ إلى الدلائل التي لا يبقى معها ريب.

والتفريط في جانب الصديق ليس بالأمر الذي يستهان به؛ فلا ينبغي الإقدام عليه دون أن تقوم على قصده لقطع المودة بَيِّنةٌ واضحةٌ.

عتاب الأصدقاء:

لا يخلو الرجل ـ وهو معرض للغفلة والضرورة والخطأ في الرأي ـ أن يُخِلَّ بشيء من واجبات الصداقة؛ فإن كنت على ثقة من صفاء مودة صديقك أقمت له من نفسك عذراً، وسرت في معاملته على أحسن ما تقتضيه الصداقة.

فإن حام في قلبك شُبْهةٌ أن يكون هذا الإخلال ناشئاً عن التهاون بحق الصداقة ـ فهذا موضع العتاب؛ فالعتاب يستدعي جواباً، فإن اشتمل الجواب

على عذر أو اعتراف بالتقصير، فاقبل العذر، وقابل التقصير بصفاء خاطر، وسماحة نفس.

وعلى هذا الوجه يُحْمَل قول الشاعر:

أعاتبُ ذا المودةِ من صديقٍ إذا ما سامني منه اغتراب
إذا ذهب العتابُ فلا وداد ويبقى الود ما بقي العتاب

ومما يدلك على أن صداقة صاحبك قد نبتت في صدر سليم أن يجد في نفسك ما يدعوه إلى عتابك، حتى إذا لقيته بقلبك النقي، وجبينك الطلق ذهب كلُّ ما في نفسه، ولم يجد للعتاب داعياً.

قال أحد الأدباء:

أزور محمداً وإذا التقينا تكلمت الضمائر في الصدور
فأرجع لم أَلُمْهُ ولم يلمني وقد رضي الضميرُ عن الضمير

فإن أكثر صاحبك من الإجحاف بحق الصداقة، ولم تجد له في هذا الإجحاف الكثير عذراً يزيل من نفسك الارتياب في صدق مودته ـ فذلك موضع قول الشاعر:

أَقْلِلْ عتابَ مَن اسْتَرَبْتَ بودِّه ليست تُنَال مودةٌ بعتاب

كتم السر عن الأصدقاء:

من المعروف أن الإنسان لا يكتم عن أصدقائه سراً يخشى من إفشائه ضرراً، وقد يجد الرجل في نفسه شيئاً متى شعر بأن صديقه قد كتم عنه بعض ما يعلم من الشؤون.

وأشار إلى هذا بعضهم فقال:

والْخِلُّ كالماء يبدي لي ضمائره مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

ومن الأدباء من ذهب في النصح بكتم السر الذي يُخْشى من إذاعته ضررٌ إلى حدٍّ أَنْ نَصَح بكتمه حتى عن الأصدقاء.

ووجه هذا الرأي إنما هو الخوف من أن يكون لصديقك صديق لا يكتم عنه حديثاً، وإذا انتقل السر إلى صديق لم يؤمن عليه أن يصبح خبراً مذاعاً، قال محمد بن عبشون:

إذا ما كتمت السرَّ عمَّن أَوَدُّهُ توهم أنَّ الودَّ غيرُ حقيقيْ

ولم أُخْفِ عنه السرَّ مَنْ ظنَّةٍ به ولكنني أخشى صديقَ صديقيْ

والقول الفصل في هذا أن الأمر يرجع إلى قوة ثقتك بصديق الفضيلة، وذكائه، وفهمه قصدَك لأن يكون هذا السرُّ في صدره، لا يتجاوزه إلى غيره؛ فإن كان صديقك على هذا المثال فأطلعه على ما في نفسك؛ فإنما أنت وهو روح واحدة، ولكنها في بدنين، فإن كان مع صداقته الخالصة لا تأمن أن يجري على لسانه بعض ما أفضيت به إليه فذلك موضع قول الشاعر:

ولكنني أخشى صديق صديقي

ومن الأذكياء من يحرص على كتم سرِّ صديقه، فلا يفضي به إلى صديق له آخر، ولا سيما صديقاً ليس بينه وبين الذي أودع عنده السر صلة صداقة، قال مسكين الدارمي:

أواخي رجالاً لست مُطلعَ بَعْضِهم على سرِّ بعضٍ غير أني جِماعُها
يَظلُّون شتى في البلاد وسرُّهم إلى صخرة أعيا الرجالَ انصداعُها

أثر البعد في الصداقة:

شأن الصداقة أن تنعقد بين شخصين يقيمان في موطن، وتبقى حافظة المظاهر ما دام الصديقان يتمتعان بأنس القرب والتزاور، فإن فرَّقت الأيام بين داريهما، وبدَّلَتْهما بالقرب بعداً، وبالأنس شوقاً بقيت الصداقة في قوتها، وإنما يكون للبعد أثر في مظاهرها.

وذكر أرسطو أن الغَيْبَة الطويلة من شأنها أن تنسي الصداقة، وساق على هذا المثل الذي يقول: «كثيراً ما أودى بالصداقة سكوت طويل».

ونحن نرى أن صداقة الفضيلة متى بلغت منتهاها لا تأخذ الغَيبة الطويلة شيئاً أكثر من مظاهرها.

وربما عُقِدَت الصداقة بين شخصين لم يتجاورا ولم يلتقيا، وإنما عرف كلٌّ منهما فضل الآخر على بعد، ولم يكن بينهما اتصال إلا من طريق المراسلة:

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم سمعت بها والأذن كالعين تعشق

وكثيراً ما تأتي هذه الصداقة بثمار طيبة غزيرة، وإن كان مسلكها في الروح غير مسلك الصداقة الناشئة عن لقاء ومشاهدة.

الصداقة صلة بين الشعوب:

لا غنى للشعوب أن ترتبط بصلات تجعلها كأمة واحدة، تسير إلى غاية واحدة، وهذه الرابطة تتحقق بالصداقات التي تستوثق بين علمائها وزعمائها

الناصحين.

فالصداقة التي تنتظم بين طائفة من علماء الصين وطائفة من علماء المغرب الأقصى مثلاً ـ تجعل القطرين في اتحاد أدبي، وللاتحاد الأدبي غايات سامية لا يستهان بها.

وإذا دلنا التاريخ أو المشاهدة على صداقة كانت بين علماء متباعدي الأقطار، ولم تعد على تلك الأقطار بفائدة ـ فإن هذا الزمن يدعونا إلى أن نعمل على تقوية روابط الصداقة بين علماء الشرق والغرب، ونوجه جانباً من هذه الصداقات إلى خدمة المصالح العامة، والتعاون على أسباب السعادة المشتركة في الحياة.

٤٨ الأربعون[(١)] لمصطفى لطفي المنفلوطي

الآن وصلت إلى قمة هرم الحياة، والآن بدأت أنحدر في جانبه الآخر، ولا أعلم هل استطيع أن أهبط بهدوء وسكون حتى أصل إلى السفح بسلام، أو أعثر في طريقي عبرة[(٢)] تهوي بي إلى المصرع الأخير هوياً.

سلام عليك أيها الماضي الجميل، لقد كنت ميداناً فسيحاً للآمال والأحلام، وكنّا نطير في أجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين طيران الحمائم البيضاء في آفاق السماء، لا نشكو ولا نتألم، ولا نضجر ولا نسأم، بل[(٣)] نعتقد أن في العالم هموماً وآلاماً، وكان كل شيء في نظرنا جميلاً حتى الحاجة والفاقة، واحتمال أعباء الحياة وأثقالها، كان كل منظر من مناظرك قد لبس ثوباً قشيباً من نسيج الزهر الأبيض، فأصبح فتنة الأنظار، وشَرَكَ الألباب! وكان يخيل إلينا أن هذا الزورق الجميل الذي ينحدر بنا في بحيرتك الصافية الرائقة سيستمر في طريقه مطرداً مندفعاً لا يعترضه معترض، ولا يلوى به عن طريقه لا وإلى ما لا نهاية لاطِّراده وتَدَفُّعه.

وكان كل ما نعالج فيك من آلام وهموم، أن يكون لنا مأربان من مآرب

---

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة الموضوعة ص٧١٥-٧٢٠، وقد كتب هذا المقال بعد بلوغه الأربعين من عمره.

(٢) هكذا في الأصل ولعلها: عثرة (م).

(٣) هكذا في الأصل، ولعل الصواب: بل لا نعتقد.... (م)

الحياة، فنظفر بأحدهما ويفوتنا الآخر، أو غرضان من أغراضها، فنصل إلى القريب، ونبيت دون البعيد.

وكان كل ما يستذرف الدمع من أعيننا هجر حبيب، أو طلعة رقيب، أو أرق ليلة، أو ضجر ساعة، أو نظرة شزر يلقيها بغيض، أو نفثة شرٍّ يرمينا بها حقود، ثم لا تلبث مسراتنا ومباهجنا أن تطرد تلك الآلام أمامها كما يطرد النهر المتدفق الأقذار والأكدار بين يده، وتسلم لنا الحياة سائغة لا كدر فيها، ولا تنغيص.

سلام عليك أيها الشباب الذاهب، سلام على دوحتك الفينانة الغَنَّاء، التي كنَّا نمرح في ظلالها مرح الظباء العُفْر في رملتها الوعثاء، ننظر إلى السماء فيُخيَّلُ إلينا أنها مغدى ومِراحٌ لنا، وإلى الآفاق البعيدة فيُخيل إلينا أنها مجرى سوابقنا ومجرّ رماحنا، فكأن العالم كله مملكتنا الواسعة العظيمة التي نسيطر عليها ونتصرف في أي أقطارها شئنا.

أبكيك يا عهد الشباب، لا لأنني تمتعت فيك براحٍ[1] أو غزَل، ولا لأني ركبت مطيتك إلى لهو أو لعب، ولا لأني ذقت فيك العيش بارد الهواء كما يذوقه الناعمون المترفون، بل لأنك كنت الشباب وكفى.

أبكيك لأني كنت أرى في سمائك نجم الأمل لامعاً متلألئاً يؤنسني منظره، ويطربني لألاؤه، وينفذ إلى أعماق قلبي شعاعه المتوهج الملتهب، فلما ذهبت ذهب بذهابك، فأصبح منظر تلك السماء منظرَ فلاةٍ موحشةٍ مظلمة لا يضيئها كوكب، ولا يلمع فيها شعاع.

---

(١) الراح: الخمر(م).

أجل، لم أتمتع فيك بمتعة من المتع ، ولا بلذة من الملاذ ، ولا نلت في عهدك مأرباً من مآرب المجد أو الجاه، ولكني كنت أؤمل وأرجو، وبذلك الأمل كنت أعيش وتحت ظلال ذلك الرجاء كنت أهنأ وأنعم.

أما اليوم وقد بدأت أنحدر من قمة الحياة إلى جانبها الآخر فقد احتجب عني كل شيء، ولم يبق بين يدي مما أفكر فيه إلاّ أن أُعِدَّ عُدتي لتلك الساعة الرهيبة التي انحدر فيها إلى قبري.

مضى عهد الشباب وبدأت أختلف إلى الأطباء الثلاثة: طبيب العيون، وطبيب المعدة، وطبيب الأسنان، وتقاربت خطواتي فأصبح فرسخي ميلاً، وباعي ذراعاً، ونعى الناعون إليّ كثيراً من أصحابي وأترابي أي أنهم نعوا إليّ نفسي، ورأيت أصدقائي الذين نشأت معهم في طريقي، فأنكرت استحالة حالهم واغبرار وجوههم، واحمرار خدودهم، وابيضاض شعورهم، فعلمت أني أولهم وأنهم ينكرون مني ما أنكر منهم، ودعا لي الداعون بالقوة والنشاط وطول البقاء، وحسن الختام، أي أن قوتي في هبوط، ونشاطي في اضمحلال، وسلامتي في خطر، وحياتي على وشك الانحدار إلى مغربها،ومررت بمجامع الشُبَّان الحافلة بالقوة، والنشاط والمرح والسرور؛ فخيل إليّ أنني غريب عنهم لا صلة لي بهم، ولا شأن لي معهم، وأنني أعيش في عالم غير العالم الذي يعيشون فيه، وانتقلت من النظر في شأن نفسي، وشأن مستقبلي إلى النظر في شأن أولادي وشأن مستقبلهم؛ لأن مستقبلي أصبح ماضياً، وغداً أصبح أمس لا رجعةَ له إلى الأبد، وسمعت كلمة «الجدّ» يهتف بها أحفادي الصغار، فلم

أنكرها ولم أبتئس كأنني معترف أنها الكلمة التي يجب أن أسمعها، ونصحني الناصحون بالاقتصاد والتدبير؛ إبقاءاً على مصلحة أولادي الفقراء، كأنهم يقولون لي: إنك موشك أن ترحل، فأَعِدَّ لمن وراءك من أهلك وبنيك ما يُغْنِيْهم عنك يوم يفقدون وجهك، وهدأت نفسي بعد ثورتها وجماحها، فأصبحت سمحاً كريماً، عفواً غفوراً، لا أبغض أحداً، ولا أحقد على أحد، ولا أقابل ذنباً بعقوبة، ولا إساءةً بمثلها، كأنني أقول في نفسي: مالي وللعالم ولما يحويه من خير وشر وأنا مفارقه وشيكاً، إن لم يكن اليوم فغداً، وأخذت أتحدث عن الماضي أكثر مما أتحدث عن الحاضر، لا لأنَّ الأول أجمل من الثاني؛ بل لأن الشبيبة أجمل من الشيخوخة، وذكرت الجلسة البسيطة التي كنت أجلسها أيام الطلب في غرفتي العادية الصغيرة بين زملائي الفقراء البسطاء؛ فبكيتها، ورثيتها، ولم تُنْسِني إياها جلستي اليوم في منزلي الأنيق الجميل بين خير الناس أدباً وفضلاً ومجداً وشرفاً؛ لأن الأولى كانت في سماء الأحلام الحلوة اللذيذة، أمَّا الثانية ففي أرض الحقيقة المرة المؤلمة، وكنت أنعم في صبايَ بكثير من الملاذ الوهمية الكاذبة، فكنت أجد في نفسي غبطة عظمى حينما أجلس لمطالعة قصة ألف ليلة وليلة، أو سيرة سيف بن ذي يزن، أو حروب عنترة، أو وقائع أبي زيد، أو أساطير الجن والشياطين، وحين آوي إلى مضجعي فأرى في منامي رؤى بديعة، يجتمع لي فيها جميع ما أحب وأشتهي من مطامع الحياة، ومآربها، وملاذ العيش، ومباهجه.

والآن وقد حرمت ذلك كله منذ الساعة التي عرفت فيها أن أساطير الأولين

أكاذيب وأباطيل، وأن الرؤى والأحلام هوسٌ وجنون، وأنَّ الأولياء والصالحين أحياء كانوا أو أموات في شاغل بأنفسهم عن غيرهم لا يستطيعون نفعاً ولا ضراً؟ أي أنني شقيت حين علمت، وكنت سعيداً قبل أن أعلم، وكان كل ما أفكر فيه أن أشيد لي بيتاً جميلاً أعيش فيه عيش السعداء الآمنين في مدينة الأحياء، فأصبحت وكل ما أفكر فيه الآن أن أبنيَ لي قبراً بسيطاً يضم رفاتي في مدينة الأموات.

وكنت أدهش لبلاغة البليغ، وذلاقة الخطيب، وبراعة الشاعر، وقدرة الكاتب الصائغ، ونبوغ المبتكر، وأطرب لكل عظيم وجليل مما أرى ومما أسمع، فأصبحت لا أدهش لشيء، ولا أعجب من شيء؛ لأن مرآة نفسي قد صدئت؛ فلا ينطبع فيها غير الكوكب الفخم العظيم، وأين ذلك الكوكب فيما يقع عليه نظري من كوكب السماء ونجومها، ما أنا بآسف على الموت يوم يأتيني، فالموت غاية كل حي، ولكني أرى أمامي عالماً مجهولاً، لا أعلم ما يكون حظي منه، وأترك ورائي أطفالاً صغاراً لا أعلم كيف يعيشون من بعدي، ولولا ما أمامي ومن ورائي ما باليت أسقطت على الموت، أم سقط الموت علي؟!

لكن ما أراده الله، أما ما أمامي فالله يعلم أني ما ألممت في حياتي بمعصية إلا وترددت فيها قبل الإلمام بها، ثم ندمت عليها بعد وقوعها، ولا شككت يوماً من الأيام في آيات الله وكتبه، ولا في ملائكته ورسله، ولا في قضائه وقدره، ولا أذعنت لسلطان غير سلطانه، ولا لعظمة غير عظمته، وما أحسب أنه يحاسبني حساباً عسيراً على ما فرطت في جنبه بعد ذلك.

وأمَّا من ورائي فالله الذي يتولى السائمة في مرتعها، والقطاة في أفحوصها، والعصفور في عشه، والفرخ في وكره - سيتولى هؤلاء الأطفال المساكين، وسيبسط عليهم رحمته وإحسانه، وداعاً يا عهد الشباب، فقد ودَّعْتُ بوداعك الحياة، وما الحياة إلا تلك الخفقات التي يخفقها القلب في مطلع العمر، فإذا هدأت فقد هدأ كل شيء، وانقضى كل شيء!

أيا عهد الشباب وكنت تندى ... على أفياء سرحتك السلام

٤٩ موت أم*(١) مصطفى صادق الرافعي

رجعتُ من الجَنازة بعد أن غبَّرت قدميَّ ساعةً في الطريق التي تُرابها ترابٌ وأشعة، وكانت في النعش لؤلؤةٌ آدميَّةٌ محطَّمة، هي زوجة صديق طَحْطَحَتْها الأمراضُ ففرَّقتها بين علل الموت، وكان قلبُها يحييها فأخذ يهلكها، حتى إذا دنا أن يقضيَ عليها رحمها الله، فقضى فيها قضاءَه، ومن ذا الذي مات له مريضٌ بالقلب ولم يره من قلبه في علَّته كالعصفور التي تَهْتَلك تحت عيني ثعبانٍ سلط عليها سمومَ عينيه!.

كانت المسكينة في الخامسة والعشرين من سنِّها، أما قلبُها ففي الثمانين أو فوق ذلك، هي في سن الشباب وهو متهدِّمٌ في سن الموت.

وكانت فاضلةً تقيَّةً صالحة، لم تتعلم ولكنَّ علْمَها التقوى والفضيلة، وأكملُ النساء عندي ليست هي التي ملأت عينيها من الكتب فهي تنظر إلى الحياة نظرات تَحِلُّ مشاكلَ وتخلق مشاكل، ولكنها تلك التي تنظر إلى الدنيا بعين متلألئة بنور الإيمان تُقِرُّ في كلِّ شيء معناه السماوي، فتؤمن بأحزانها وأفراحها معاً، وتأخذ ما تُعطى من يد خالقها رحمةً معروفة أو رحمةً مجهولة، هذه عندي تسمى امرأة، وتكون الزوجة، ومعناها الزوجة المُسْعِدة، وتَصِيْرُ الأمَّ، ومعناها التكملةُ الإلهيةُ لصغارها وزوجها ونفسِها.

---

* هي زوج الأستاذ حسنين مخلوف، وانظر «عمله في الرسالة» من كتاب «حياة الرافعي».

(١) وحي القلم ١٥١/٢

ومهما تبلغ المرأة من العلم فالرجلُ أعظم منها بأنه رجل، ولكنَّ المرأةَ حقَّ المرأةِ هي تلك التي خُلقتْ لتكونَ للرجل مادةَ الفضيلة والصبر والإيمان، فتكون له وحياً وإلهاماً وعزاءً وقوة، أي زيادةً في سروره ونقصاً من آلامه.

ولن تكون المرأةُ في الحياة أعظمَ من الرجل إلا بشيء واحد، هو صفاتها التي تجعل رجُلَها أعظمَ منها.

ومشيتُ من البيت الذي ألبسْته الميتةُ معنى القبر إلى القبر الذي ألبسَ الميتةَ معنى البيت، وأنا منذ مشيتُ في جنازة أمي ـ رحمها الله ـ لا أسير في هذا الطريق مع الأحياء، ولكن مع الموتى، فأتبعُ من الميتِ صديقاً ليس رجلاً ولا امرأة، لأنه من غير هذه الدنيا، وأمشي في ساعةٍ ليست ستين دقيقة؛ لأنها خرجت من الزمن، ولا أرى الطريقَ من طرق الحياة، لأنني في صحبة ميت، وتصبحُ للأرضِ في رأيي جغرافيةٌ أخرى، عَمِيَ الناسُ عنها لشدةِ وضوحها، كالألوهية خفيتْ من شدةِ ما ظهرت.

يقولون: إن ثلاثة أرباع الأرض يغمرها البحر، أما أنا فأرى في تلك الساعة أن ثلاثة أرباع الأرض لا يغمرها البحر الذي وصفوا، ولكن خضمٌّ آخرُ زخَّار مُتَضَرِّب، هو ذلك البحر الترابيُّ العظيمُ المسمَّى «المقبرة».

يقولون: إن الحياةَ هي.. هي ماذا ـ ويْحكم ـ أيها المغرورون، أفلا ترون هذه الصلةَ الدائمةَ بين بطنِ الأم وبطن الأرض؟

لعمري كيف تجعلُ هذه الحياةُ للناس قلوباً مع قلوبهم؛ فيحسُّ المرءُ بقلب، ويعمل بقلب آخر: يعتقد ضرر الكذب؛ فيكذب، ويعرف معرَّةَ الإثم؛ فيأثم،

ويُوقن بعاقبة الخيانة ثم يخون، ويمضي في العمر منتهياً إلى ربه، ما في ذلك شك، ولكنه في الطريق لا يعمل إلا عملَ من قد فرَّ من ربِّه...؟

هبَّت الريح في السَّحَرِ على روضةٍ غناءَ فطابت لها، فعقدتْ عقدتَها أن تتخذ لها بيتاً في ذلك المكان الطيب لتقيمَ فيه، يا لها حكمةً من التدبير! تزعم الريحُ الإقامةَ على حين كلُّ وجودها هو لحظةُ مرورها، وتحلُم بالقرار في البيت وهي لا تملك بطبيعتها أن تقف.

يا لها حكمةً سامية، لا يسكنها من المعنى إلا أسخف ما في الحُمق.

هَمَدَ الحيُّ وانطفأت عيناه، ولكنه تحرك في تاريخه مما ضيَّقَ على نفسه أو وسَّع، وأصبح ينظر بعينٍ من عمله إما مُبْصِرةٍ أو كالعمياء، فلو تكلم يصف الحياة الدنيا لقال: إن هذه النجومَ على الأرض مصابيحُ مأتمٍ أقيمَ بليل وما أعجب أن يجلس أهلُ المأتم في المأتم؛ ليضحكوا، ويلعبوا.

ولو نطق الموتى لقالوا: أيها الأحياء، إن هذا الحاضرَ الذي يمر فيكونُ ماضيَكم في الدنيا هو بعينه الذي يكون مستقبلَكم في الآخرة، لا تزيدون فيه ولا تنقصون، وإن الدنيا تبدأ عندكم من الأعلى إلى الأدنى، من العظماء إلى الفقراء، ولكنها تنقلب في الآخرة، فتبدأ من الفقراء إلى العظماء، وأنتم ترسمونها بخطوطِ المطامع والحظوظ، ويرسمها الله بخطوط الحرمان والمجاهدة، إن التامَّ على الأرض من تمَّ بمتاعها ولذاتها، ولكنَّ التامَّ في السماء من تمَّ بنفسه وحدها.

يا أسفا! لن يقول الميتُ للحي شيئاً، ومن يدري؟ لعلنا ونحن نُلْحِدُ للموتى،

ونُنزلهم في قبورهم، يَرون بأرواحهم الخالدة أننا نحن موتاهم المساكين، وأننا مدفونون في القبر الذي يسمونه «الكرة الأرضية»! وهل الكرةُ الأرضيةُ من اللانهاية إلا حفرةٌ برجلِ نملة لتُدفَن فيها نملة.

الحياة... أتريد أن تعرفها على حقيقتها؟ هي المُبْهماتُ الكثيرةُ التي ليس لها في الآخرة إلا تفسيرٌ واحد: حلالٌ أو حرام.

ورجعنا مع الصديق إلى بيته، وله خمسةُ أطفالٍ صغارٍ لو أنهم هم الذين انتُزعوا من أمهم لترك كلٌّ واحد على قلبها مثل المِكْوَاةِ المحميِّ عليها في النار إلى أن تحمَرَّ، ولكنَّ أمهم هي التي نُزعت منهم، فكان بقاؤهم في الحياة تخفيفاً لسكرةِ الموت عليها، وغَشِيَتْها الغَشيةُ فماتت وهي تضحك، إذ تراهم نائمين تحت جناح الرحمة الإلهية الممدود، وقالت: إنها تسمع أحلامَهم، وكانوا هم عقلَها في ساعة الموت!

تبارك الذي جعل في قلب الأمِّ دنيا من خلْقِهِ هو، ودنيا من خلْقِ أولادها.

تبارك الذي أثاب الأمَّ ثوابَ ما تُعاني، فجعل فَرحَها صورةً كبيرةً من فرح صغارها.

وجاء أكبر الأطفال الخمسة، وكأنه ثمانيةُ أرطالٍ من الحياةِ لا ثمانيةُ أعوام من العمر، جاء إلينا كما يجيء الفزع لقلوبٍ مطمئنة، إذ كان في عينيه الباكيتين معنى فقد الأم.

وطغَتْ عليه الدموعُ، فتناول منديلَه، ومسحَها بيده الصغيرة، ولكنَّ روحَه اليتيمةَ تأبى إلا أن ترسمَ بهذه الدموعِ على وجههِ معانيَ يُتْمها.

وظهر الانكسار في وجهه يُعبر ببلاغةٍ أنه قد أحسَّ حقيقةَ ضعفِه وطفولتِه بإزاء المصيبة التي نزلت به، وجلسَ مستسلماً تترجم هيئتُه معانيَ هذه الكلمة: «رِفْقاً بي».

ثم تطير من عينيه نظرات في الهواء، كأنما يحسُّ أنَّ أمَّه حوله في الجو ولكنه لا يراها.

ثم يُرخي عينيه في إغماضةٍ خفيفةٍ، كأنما يرجو أن يرى أمَّه في طَوِيَّتِه!

ولا يُصدق أنها ماتت، فإنَّ صوتَها حي في أذنيه لا يزال يسمعه من أمس!

ثم يعود إلى وجهه الانكسار والاستسلام، ويتململ في مجلسه، فينطقُ جسمُه كله بهذه الكلمة: «يا أمي».

أحسَّ - ولا ريب - أنه قد ضاع في الوجود؛ لأن الوجود كان أمَّه.

ولمس خشونةَ الدنيا منذ الساعة، بعد أن فقد الصدرَ الذي فيه وحده لين الحياة؛ لأن فيه قلبَ أمه وروحَها.

وشعر بالذل ينسابُ إلى قلبه الصغير؛ لأن تلك التي كان يملك فيها حقَّ الرحمة قد أُخِذَتْ منه، وتركَته بلا حقٍّ في أحد، وليس لأحد أُمَّان.

ولبِسَتْهُ المسكنةُ؛ لأن له شيئاً عزيزاً أصبح وراء الزمان فلن يصلَ إليه.

ولبسته المسكنة؛ لأنه صار وحده في المكان كما هو وحده في الزمان.

وارتسم على وجهه التعجب، كأنه يسأل نفسَه: «إذا لم تكن أمي هنا، فلماذا أنا هنا؟!».

ثم تَغَرْغَرَتْ عيناه، فيُخرجُ منديلَه، ويمسح دمعَه بيده الصغيرة، ولكن

روحَه اليتيمةَ تأبى إلا أن ترسمَ بهذه الدموعِ على وجهه معانيَ يُتْمِها.

ونهضَ الصغيرُ ولم ينطقْ بذاتِ شَفَةٍ، نهضَ يحملُ رجولتَه التي بدأت منذ الساعة.

انتهت ـ أيها الطفل المسكين ـ أيامُك من الأم، هذه الأيام السعيدةُ التي كنت تعرفُ الغَدَ فيها قبل أن يأتيَ معرفتَك أمس الذي مضى؛ إذ يأتي الغدُ ومعك أمُّك.

وبدأتْ ـ أيها الطفل المسكين ـ أيامُك من الزمن، وسيأتي كلُّ غدٍ محجَّباً مرهوباً، إذ يأتي لك وحدَك، ويأتي وأنت وحدك.

الأمّ...؟ يا إلهي، أيُّ صغيرٍ على الأرض يجدُ كفايتَه من الروح إلا في الأم؟!.

مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة[1] للعلامة محمد البشير الإبراهيمي *

سلام يتنفس عنه الأقاحُ بإزهاره وإيراقه، ويتبسم عنه الصباحُ بنوره وإشراقه.

وثناءٌ يتوهج به من عنبر الشجر عبيرُه، ويتبلج به من بدر التمام على الركب الخابط في الظلام منيره.

وصلوات من الله طهورها الروح والريحان، وأركانها النعيم والرضوان، وتحيات زكيات تتنزل بها - من الملأ الأعلى - الملائكة والروح، ونفحات ذكيات

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٢/٥٣ـ٥٨.

❖ هذه المقالة كتبها الإبراهيمي في رثاء زميله ورفيق دربه الشيخ العلامة عبدالحميد بن باديس رحمه الله وقد لا يستغني القارئ الكريم عن اصطحاب أحد المعاجم إذا أراد قراءة هذه المقامة؛ لما فيها من كثرة الغريب، وإحكام التركيب، كما لا يستغني عن الإلمام بأمهات الكتب في الأدب، والدواوين الشعرية، والتواريخ، والعقائد؛ لما في تلك المقامة من كثرة التضمين، والبديع، ونحو ذلك من الألوان البلاغية، والإشارات التاريخية وما جرى مجرى ذلك.

ولو شُرحت ألفاظ تلك المقامة، وعُزيت إشاراتها- لبلغت صفحات عديدة.

وقد قدم لهذه المقامة تلميذ البشير الأستاذ محمد الغسيري؛ فإليك شيئاً من مقدمة الغسيري، ثم مقامة البشير:

يقول الغسيري:

الوفاء قليل في البشر، وأوفى الأوفياء من يفي للأموات؛ لأن النسيان غالباً ما يباعد بين الأحياء وبينهم، فيغمطون حقوقهم، ويجحدون فضائلهم.

تغدو بها رسل الرحمة وتروح، وخيرات مباركات يصدّق برهانُ الحقِّ قولَها الشارحَ بفعلها المشروح.

= من أعلى ما امتاز به أستاذنا الجليل، ورئيسنا الأكبر، محمد البشير الإبراهيمي من شرف الخلال (نكران الذات) فهو لا يزال يعمل الأعمال التي تعجز عنها الجماعات وتنوءُ بها العُصَب، وهو مع ذلك لا ينسب الفضل إلا لإخوانه ورفقائه الأموات والأحياء.

يصرح بذلك في خطبه الدينية، ومحاضراته الجامعة، ويقول: إن كل فضل في هذه الحركة العلمية النامية يرجع إلى جمعية العلماء، وإنه لولا جمعية العلماء لما كان هو.

ونحن ـ أبناءه ـ نشهد، وإخوانه يشهدون أنه لولا علمه، ولسانه، وصبره وتأثيره الذي يشبه السحر ـ لما كانت جمعية العلماء، ولولا براعته في التصريف والتسيير لما سار لجمعية العلماء شراع في هذه الأمواج المتلاطمة من الفتن.

مات ابن باديس، في حين كان رفيقه في الجهاد وقسيمه في العلم والعمل محمد البشير الإبراهيمي منفياً في قرية (آفلو) من الجنوب الوهراني، بحيث لم يحضر دفنه، ولم يؤبّنه بكلمة، فعوّض ذلك برسائل تعزية كتبها إلى إخوانه بثَّ فيها حزنه للمصيبة، وصوّر فيها آثارها، ولم تنسه الفجيعة ما يجب من النصائح بالثبات، واستمرار السير، فجاءت رسائلَ من ذلك الطراز الساحر الذي لا يحسنه إلا الإبراهيمي، ولا أدري أيحتفظ إخواني بتلك الرسائل الفنية أم ضيّعوها؟!

ولما مضت على موت الأستاذ سنة، ورفيقه لا يزال في المنفى، أرسل الرئيس الجليل من منفاه هذه المقامة؛ فأبكت العيون، وجدّدت الأسى.

رغبنا إلى أستاذنا أن ننشر هذه المقامة فأذن ـأبقاه اللهـ بعد امتناع؛ لأن أستاذنا ـحفظه اللهـ لا يرى السجعَ معبّراً عن النوازع العميقة، وإن كان هو إمامَ العصر بلا منازع في هذه الطريقة الأندلسية البديعة التي لا يحسنها إلا من جمع بين الطبع والصنعة، وملك أزمة اللغة والغريب . . .

وحلّت في الأخير رغبتنا منه محل القبول، حرصاً على هذه المقامة أن تضيع إن لم تسجل، وكم نفائس مثل هذه المقامة، وكم من رسائل، وكم من تحف فنية من أدب الهزل والنكتة، وكم من ملاحم شعرية، بلغت الآلاف من الأبيات! ما زالت مطمورة في أوراق الأستاذ، وفي حافظته العجيبة.

=

وسلام من أصحاب اليمين، وغيوث من صوادق الوعود، لا صواعق الرعود لا تخلف ولا تمين،[١] وسحائب من الرحمات تنهل سواكبها، وكتائب من المبشرات تزجى مواكبها، وسوافح من العبرات تنحلّ عزاليها، ولوافح من الزفرات تسابق أواخرها أواليها على الجدث الذي التأمتْ حافَّتاه على العلم الجم والفضل العد، ووارَى ترابُه جواهرَ الحِجا والذكاء والعزم والجد، وطَوى البحرَ الزخَّار في عدة أشبار، فأوقف ما لا حدّ له عند حد، واستأثر بالفضائل الغُزْر،[٢] والمساعي الغرّ،[٣] والخلال الزُّهر، فلم يكن له في الأجداث ند، وأصبح من بينها المفردَ العلم كما كان صاحبه في الرجال العلمَ الفرد.

وسلام على مشاهدَ كانت بوجوده مشهودة، وعلى معاهد كانت تحت ظلال

= وإذا لم يحرص أمثالنا من تلامذة الأستاذ على استخراجها ونشرها ضاعت، وخسر الأدب والعلم خسارة لا تعوّض، وهاهي ذي المقامة الباديسية، وننبِّه إلى أن الأستاذ حذف منها كثيراً مما لا تسمح الظروف بنشره.

وما رأينا في حياتنا رفيقين جمع بينهما العلم والعمل في الحياة، وجمع بينهما الوفاء حين استأثر الموت بأحدهما ـ مثلما رأينا إمامي النهضة الجزائرية عبد الحميد بن باديس، ومحمد البشير الإبراهيمي، رحم الله الميت، وأمد في عمر الحي حتى يحقق للجزائر أمنيتها.

تلمسان

محمد الغسيري

(١) لا تمين: المين هو الكذب.(م)

(٢) الغزر: الكثيرة.(م)

(٣) الغُر: الأفعال الكريمة.(م)

رعايته وتعهّده عليها ممدودة، وعلى مساجد كانت بعلومه ومواعظه معمورة، وعلى مدارس كانت بفيضه الزاخر، ونوره الزاهر مغمورة، وعلى جمعيات كان شَمْلها بوجوده مجموعاً، وكان صوته الجهير كصوت الحق الشهير مدوّياً في جنباتها مسموعاً.

مشاهد كان يراوحها للخير والنفع، وكانت آفاقها بأنواره مسفرة، ومعاهد كان حاديَ زُمَرها إلى السلم، وهادي نُزَّاعها إلى الإحسان والعلم؛ فأصبحت بعده مقفرة.

ومدارس، ما مدارس؟ مَهَدها للعلم والإصلاح مغارس، ونَصَبَها في نحور المبطلين حصوناً ومتارس، وشيّدها للحق والفضيلة مرابطَ ومحارس.

وسلام على شيخه الذي غذّى وربّى، وأجاب داعيَ العلم فيه ولبّى، وآثر في توجيهه خير الإسلام، فقلّد الإسلام منه صارماً عضباً، وفجّر منه للمسلمين معيناً عذباً، فلئن ضايقته الأيامُ في حدود عمره فقد أبقت له منه الصيت العريض، والذكر المستفيض، ولئن سلبته الحليةَ الفانية فقد أَلْبستْه من مآثر حُلل التاريخ الضافية، ولئن أذاقتْه مرارة فقده فقد متّعته بقلوب أمّة كاملة، ولئن حرمته لذة ساعات معدودة فقد أسعدته به سعادةً غير محدودة.

وسلام على إخوان كانوا زينة ناديه، وبشاشةَ واديه، وكانوا عمَّار سامره، والطِّيبَ المتضوع[1] من مجامره، والجوارحَ الماضيةَ في تنفيذ أوامره.

وسلام على أعوان كانوا معه بناة الصرح، وحماة السرح، وكانوا سيوف

---

(١) المتضوع: المنتشر، والمنبعث.(م)

الحق التي بها يصول، وألسنة الصدق التي بها يقول.

أبت لهم عزة الإسلام أن يضّرعوا أو يذلّوا، وأبتْ لهم هداية القرآن أن يزيغوا عن منهاجه أو يضلّوا، تشابهت السبل على الناس فاتخذوا سبيل الله سبيلاً، وافترق الناس شيعاً فجعلوا محمداً وحزبه قبيلاً.

ولقد أقول على عادة الشعراء ـ وما أنا بشاعر ـ لصاحبين من تصوير الخيال أو من تكييف الخَبال، تُمثّلهما الخواطر تمثيلَ صفاء، وتقيمهما في ذهني تمثالَ وفاء: بكّرا صاحبي فالنجاح في التبكير،[(١)] وما على طالب النّجْح بأسبابه من نكير، تُنْجِحا لصاحبكما طِيةً،[(٢)] لا تبلغ إلاّ بشد الرحل وتقريب المطية، فقد خُتِمت ـكما بُدئت ـ الأطوار، بدولة الرحال والأكوار، فادفعا بالْمهريّة القوْد[(٣)] في نحر الوديقة الصيخود،[(٤)] ولا تخشيا لذع الهواجر،[(٥)] وإن كنتما في شهري

---

(١) هذا تضمين لبيت بشار بن برد، يقول فيه:

بكّرا صَاحبيَّ قبل الهَجير إنَّ ذاك النجاح في التبكير (م)

(٢) الطِّية : الحاجة والوطر.(م)

(٣) المهرية القود : هي الفرس الطويلة الظهر والعنق، والمهرية منسوبة إلى مَهَرة بن حيدان بطن من قضاعة، والقود الطوال، ومفردها قوداء وأقود، وهذا مضمن بيت المتنبي الذي يقول فيه:

ويُلّمها خطة ويلمِّ قابلها لمثلها خُلِق المهرية القود (م)

(٤) الوديقة الصيخود : الوديقة: هي حر نصف النهار، والصيخود: الشديدة، والمعنى: ادفعا بالفرس الطويلة في عز الهاجرة والحر الشديد، والوديقة الصيخود: شدة الحر، أو الحر الشديد.(م)

(٥) لذع الهواجر: حرها الشديد.(م)

ناجر،[١] ولا يهولنَّكما بُعْدُ الشُّقة، وخيال المشقَّة، ولا الفلَواتُ يُصِمّ صداها، ويقصر الطرف عن مداها، ولا السراب يترجرج رقراقُه، ويخدع الظامئ المحرور مُراقُه.

سيرا - على اسم الله - في نهار ضاح، وفضاء منساح، ضاحك الأَسَرَّة وضَّاح، وتخلَّلا الأحياءَ؛ فستجدان لاسم مَنْ تَنْتَجعانِه ذكراً ذائعاً في الأفواه، وثناءً شائعاً على الشفاه، وأثراً أزكى نماءً وأبقى بركةً على الأرض من أثر الغمام المنهل، فإذا مَسّكُما الملالُ أو غشّى مطيّكما الكلالُ فاحدوا بذكراه ينبعث النشاط، وينتشر الاغتباط، وتَغْنيا بها عن حمل الزاد، ومَلءِ المزاد، وتأمنا غوْلَ الغوائل، من أفناء دراج ونائل.[٢]

سيرا - روحي فداؤكما من رضيعي همة، وسليلي منجبة من هذه الأمّة - حتى تدفعا في مَسِيٍّ خامسٍ، له يوم الترحل خامس،[٣] إلى الوادي الذي طرّز جوانبه

---

(١) شهري ناجر: قيل: صفر، وقيل: رجب، وقيل: كل شهر في صميم الحر فاسمه ناجر؛ لأن الإبل تَنْجُر فيه، أي يشتد عطشها حتى تيبس جلودها.(م)

(٢) دارج ونائل: أولاد دارج مجموعة قبائل ترجع أصولها إلى هلال بن عاصم جد القبائل العربية التي أغارت على شمال أفريقيا.

وأولاد نائل مثلهم، ولكنهم أكثر عدداً.

وسكناهم ما بين المسيلة (المحمدية) وطنبة في مقاطعة قسنطينة.

(٣) هذا تضمين لبيت أبي نواس:

أقمنا بها يوماً ويوماً ثالثاً ... ويوماً له يوم الترحل خامس (م)

آذار، وخلع عليه الصانع البديع من حَلْي الترصيع، وحلل التفويف[1] والتوشيع ما تاه به على الأودية؛ فخلع العذار.

وأتِيا العُدوة الدنيا فثمَّ المنتجعَ والمرَاد، وثمّ المطلب والمراد، وثمّ محلة الصدق التي لا يصدر عنها الوُرّاد، وثمّ مناخ المطايا على حُلاّل الحق، وجيرة الصدق، وعُشراء الخلود، الذين محا الموت ما بينهم من حدود، اهتفا فيها بسكان المقابر عني:

أوَ ما استقلّت بالسميع الواعي ما للمقابر لا تُجيب الداعي

وخصّا القبر الذي تضمّن الواعيَ السميع، والواحدَ الذي بذّ الجميع، فقولا له عني:

يا قبر، عزَّ على دفينك الصبر، وتعاصى كسرُ القلوب الحزينة على من فيك أن يُقابَل بالجبر، ورجع الجدال إلى الاعتدال بين القائلين بالاختيار والقائلين بالجبر.

يا قبر، ما أقدر الله أن يطويَ عَلماً ملأ الدنيا في شبر!

يا قبر، ما عهدنا قبلك رمساً، وارى شمساً، ولا مساحة، تكال بأصابع الراحة، ثم تلتهم فلكاً دائراً، وتحبس كوكباً سائراً.

يا قبر، قد فصل بيننا وبينك خط التواء لا خط استواء، فالقريب منك والبعيد على السواء.

يا قبر، أتدري من حويت؟ وعلى أي الجواهر احتويت؟ إنك احتويت على

---

(١) التفويف: من الفَوَف وهو الزهر.(م)

أمة، في رمّة، وعلى عالَم في واحد.

يا قبر، أيدري مَنْ خطّك، وقاربَ شطّك، أي بحر ستضُم حافتاك؟ وأي معدن ستزن كفتاك؟ وأيَّ ضرغامةِ غابٍ ستحتبل كفتاك؟ وأي شيخٍ كشيخك؟ وأي فتى كفتاك؟ فويح الحافرين ماذا أودعوا فيك حين أودعوا؟ وويح المشيعين ماذا شيعوا إليك يوم شيّعوا؟ ومن ذا ودّعوا منك إذ ودّعوا؟ إنهم لا يدرون أنهم أودعوا بنَّاء أجيال في حفرة، وودَّعوا عامر أعمال بقفرة، وشيعوا خِدَن أسفارٍ، وطليعة استنفارٍ إلى آخر سَفْرة.

يا قبر، لا نستسقي لك كل وطفاء سكوب، تهمي على تربتك الزكية وتصوب، ولا نحذو في الدعاء لك حذو الشريف الرضي، فنستعير للنبت جنيناً ترضعه المراضع، من السحب الهوامع، تلك أودية هامت فيها أخيلة الشعراء، فنبذتهم بالعراء، وزاغوا بها عن أدب الإسلام ومنهاجه، وراغوا عن طينته ومزاجه، بل تلك بقية من بقايا الجهل، ما أنت ولا صاحبك لها بأهل.

قولا لصاحب القبر عني: يا ساكنَ الضريح، نجوى نِضْوٍ طليح، صادرةً عن جفنٍ قريح، وخافق بين الضلوع جريح، يَتَأَوَّبُهُ في كل لحظةٍ خيالُك وذكراك، فيحملان إليه على أجنحة الخيال من مسراك اللهب والريح، وتؤدي عنهما شؤونه المنسربة، وشجونه الملتهبة، وعليهما شهادة التجريح.

إن من تركت وراءك، لم يحمد الكرى فهل حمدت كراك؟ وهيهات، ما عانٍ كمستريح!

يا ساكن الضريح، أأكني؟ أم أنت كعهدي بك تؤثر التصريح؟ إن بُعدك

أتعب من بَعدك.

لقد كانوا يلوذون من حياتك الحية بكِنف حماية؛ ويستذْرُون من كفاءتك للمهمات بحصن كفاية، ويستدفعون العظائم منك بعظيم؛ وايم الله لقد تَلَفَّتَتْ بعدك الأعناق، واشرَأَبَّتْ، وماجت الجموع واتلأَبَّتْ، تبحث عن إمام لصفوف الأمة، يملأ الفراغ ويسد الثلمة، فما عادت إلا بالخيبة، وصِفْر العَيبة.[1]

يا ساكنَ الضريح؛ مِتَّ فمات اللسان القوّال، والعزم الصوّال، والفكر الجوّال، ومات الشخص الذي كان يصطرع حوله النقد، ويتطايرُ عليه شرر الحقد؛ ولكن لم يمت الاسم الذي كانت تقعقع به البرد، وتتحلّى به القوافي الشُّرد، ولا الذكرُ الذي كانت تطنطن به الأنباء، وتتجاوب به الأصداء، ولا الجلال الذي كانت تعنو له الرقاب، وتنخفض لمجلاه العقاب، ولا الدوي الذي كان يملأ سمعَ الزمان، ولا يبيت منه إلا الحق في أمان.

مات الرسم، وبقي الاسم، واتفق الودود والكنود على الفضل والعلم.

وعزاء فيك لأمّة أردت رشادَها، وأصلحت فسادَها، ونفقت كسادَها، وقوّمت منآدها، وملكتَ بالاستحقاق قيادَها، وأحسنتَ تهيئتها للخير وإعدادَها، وحملتها على المنهج الواضح، والعَلَمِ اللائح، حتى أبلغتها سدادَها، وبنيت عقائدها في الدين والحياة على صخرة الحق، ومثلك مَنْ بنى العقائد وشادها؛ أعليت اسمها بالعلم والتعليم، وصيّرت ذكرها محل تكريم وتعظيم، وأشربتها معاني الخير والرحمة والمحبة والصدق والإحسان والفضيلة

---

(١) العَيْبَة: هي الوعاء الذي يوضع فيه المتاع.(م)

فكنت لها نعم الراحم وكنت بها البر الرحيم.

ولقد حييتَ فما كانت لفضلك جاحدة، ومتّ فما خَيَّبتْ من آمالك إلا واحدة.[١]

وهنيئاً لك ذخرك عند الله مما قدّمت يداك من باقيات صالحات، وعزاءاً لك فيمن كنت تستكفيهم، وتضعُ ثقتك الغاليةَ فيهم، من إخوانك العلماء العاملين، الصالحين المصلحين.

فهم ـ كعهدك بهم ـ رُعاة لعهد الله في دينه، وفي كتابه، وفي سنّة نبيه، دعاةٌ إلى الحق بين عباده، يلقَوْن في سبيله القذى كُحْلا، والأذى من العسل أحلى.

وسلام عليك في الأوّلين، وسلام عليك في الآخرين، وسلام عليك في العلماء العاملين، وسلام عليك في الحكماء الربّانيين، وسلام عليك إلى يوم الدين.

آفلو[٢]، ٢٢ ربيع أول ١٣٦٠ هـ / ٩ أفريل ١٩٤١.

---

(١) هي القيام بثورة جارفة تكتسح الاستعمار الفرنسي، وتنتزع بها منه حريتها واستقلالها، فهذه هي الأمنية التي كنا نتناجى بها ونعمل لتصحيح أصولها، وقد حققت الأمة الجزائرية الماجدة هذه الأمنية بعد نحو أربع عشرة سنة على أكمل وجه.

(٢) آفلو: قرية نائية في جبل العمور من الجنوب الوهراني، وهذه القرية هي التي اختارتها السلطة العسكرية الفرنسية منفى لكاتب هذه الكلمات في أول الحرب العالمية الثانية فقضى فيها ثلاث سنوات.



فهرس الأعلام المترجم لهم





صدر للمؤلف

١- جوانب من سيرة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله .

٢- التوبة وظيفة العمر.

٣- رسائل في العقيدة.

٤- رسائل في التربية والأخلاق والسلوك.

٥- رسائل في الزواج والحياة الزوجية.

٦- أخطاء في مفهوم الزواج.

٧- من أخطاء الأزواج.

٨- من أخطاء الزوجات.

٩- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة ١.

١٠- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة ٢.

١١- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة ٣.

١٢- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة ٤.

١٣- سوء الخلق .. مظاهره .. أسبابه .. العلاج، قرأه سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله .

١٤- الفاحشة (عمل قوم لوط) الأسباب - العلاج.

١٥- عقيدة أهل السنة والجماعة، قرأه وقدم له: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله .

١٦- الإيمان بالقضاء والقدر، قرأه وقدم له: سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز رحمه الله .

١٧- الهمة العالية، قرأه وقدم له: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله.

١٨- مع المعلمين.

١٩- شرح وتحقيق الوصية الصغرى لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٢٠- شرح وتحقيق القصيدة التائية في القدر لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٢١- الصداقة بين العلماء (**نماذج تطبيقية معاصرة**).

٢٢- رمضان دروس وعبر تربية وأسرار.

٢٣- أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة.

٢٤- من أقوال الرافعي في المرأة.

٢٥- من أحوال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز في الحج.

٢٦- الحج آداب وأسرار.

٢٧- الدعاء مفهومه -أحكامه- أخطاء تقع فيه، قرأه وعلق عليه: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله.

٢٨- الإيمان باليوم الآخر.

٢٩- الشيوعية.

٣٠- توبة الأمة.

٣١- البابية.

٣٢- البهائية.

٣٣- القاديانية.

٣٤- الوجودية.

٣٥- الجوال آداب وتنبيهات.

٣٦- الإنترنت امتحان الإيمان والأخلاق والعقول.

٣٧- المنتقى من بطون الكتب (المجموعة الأولى).

٣٨- المنتقى من بطون الكتب (المجموعة الثانية).

٣٩- المنتقى من بطون الكتب (المجموعة الثالثة).

٤٠- مختصر الإيمان بالقضاء والقدر.

٤١- لطائف في تفاضل الأعمال الصالحة.

٤٢- عقوق الوالدين .. أسبابه .. مظاهره .. سبل العلاج.

٤٣- قطيعة الرحم .. المظاهر .. الأسباب .. سبل العلاج.

٤٤- التقصير في تربية الأولاد .. المظاهر .. سبل الوقاية والعلاج.

٤٥- التقصير في حقوق الجار.

٤٦- الكذب .. مظاهره .. علاجه.

٤٧- لماذا تدخن؟

٤٨- إلى بائع الدخان.

٤٩- الجريمة الخلقية.

٥٠- العشق .. حقيقته .. خطره .. أسبابه .. علاجه.

٥١- الطريق إلى التوبة.

٥٢- رسالة إلى طالب نجيب، ترجم إلى الأردية.

٥٣- الهجرة دروس وفوائد.

٥٤- الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة.

٥٥- مختصر عقيدة أهل السنة والجماعة؛ المفهوم والخصائص.

٥٦- الإيمان بالله، ترجم إلى الإنجليزية.

٥٧- لا إله إلا الله: معناها -أركانها - فضائلها - شروطها.

٥٨ـ توحيد الربوبية.

٥٩ـ توحيد الألوهية.

٦٠ـ توحيد الأسماء والصفات.

٦١ـ الإيمان بالكتب.

٦٢ـ الطريق إلى الإسلام، ترجم إلى عدة لغات.

٦٣ـ كلمات في المحبة والخوف والرجاء، ترجم إلى الإنجليزية.

٦٤ـ الطيرة.

٦٥ـ نبذة مختصرة عن الشفاعة، والشرك، والرقية، والتمائم، والتبرك.

٦٦ـ من صور تكريم الإسلام للمرأة.

٦٧ـ معالم في التعامل مع الفتن.

سيصدر قريباً ـ بإذن الله ـ

١- فقه اللغة مفهومه ـ مناهجه ـ موضوعاته.

٢- رسائل في الفرق والمذاهب والأديان.

مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث

المجموعة الثانية

انتقاء وإعداد
محمد بن إبراهيم الحمد

دار ابن خزيمة

المقــدّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد:

فإن المقالة ـ أو المقال ـ باب عظيم من أبواب العلم، وطريق واسع لنشر الفكر والتأثير في الناس.

ولا ريب أنَّ الفترة الذَّهبيَّة للمقالة كانت في النِّصف الأوَّل في القرن الرابع عشر إلى ما يقارب العقد السابع من ذلك القرن؛ حيث ازدهرت، وراج سوقها في كثير من البلاد العربيَّة خصوصاً في الشام ومصر، وظهر في ذلك الوقت كُتَّاب أفذاذ يضارعون الكُتَّاب الأوائل في أساليبهم الراقية، وتحريراتهم العالية.

وفي ذلك الوقت حرصت الصحفُ والمجلاَّت على استقطاب أكابر الكُتَّاب والعلماء؛ فصارت ميداناً فسيحاً لنشر الأدب، والعلم، والنَّقد، والرُّدود، وما جرى مجرى ذلك.

ولقد يسَّر الله لي فرصة الاطلاع على كثير من تلك المقالات، سواء عبر أعداد تلك الصحف والمجلات، أو عبر الكتب التي جمعت تلك المقالات.

ومهما يك من انتشار تلك المقالات، وشهرة أصحابها في ذلك الوقت ـ فإنه يبقى محدوداً إذا ما قِيس بانتشارها وسهولة تداولها في عصرنا هذا.

ثمَّ إنَّ كثيراً مما نُشِر آنذاك قد انطوى، ودَرَس، ويُخشى أن تَطَالَهُ يدُ النِّسيان،

وتعدو عليه عوادي الضياع؛ فيُحرمَ هذا الجيلُ خيراً عظيماً من ذلك التُّراث، ومن تلك التَّجارب التي تسمو بهمَّة قارئها، وترتقي بأساليبه الكتابيَّة أو الخطابيَّة، وتكسبه خبرة ودراية، وتختصر عليه كثيراً من الوقت والجهد، وتوقفه على مدى ما وصلت إليه العقول في تلك الفترة، وتُقْصِره عن كثير من البحث في الأطروحات التي طرقت، وقتلت بحثاً، وأخذاً، ورداً.

كما أن بعض تلك المقالات قد خرجت في طباعة رديئة، ولم تراع فيها قواعد الترقيم؛ مما قد يغلق فهمها على كثير من القراء.

ومن هنا نشأت فكرة جمع شيء من تلك المقالات، وانتقائها، وإعدادها للنَّشر إعداداً ملائماً؛ لعلَّها تحقّق الأغراض السابقة، وتمد قارئها بقسط وافر من العلم والفكر، وتفتح له آفاقاً من المعرفة والتَّجربة، وتوقفه على شيء من تلك الأساليب البيانيَّة الرَّاقية، وتُعرِّف القارئ بكُتَّاب في بلاد لم تأخذ حظَّها الكافي من الدِّراسة والبحث، فيظن بعض الناس أنَّها خِلْوٌ من الفكر والكتابة، مع أنَّها قد بلغت الذُّروة في العلم، والأساليب، كما هو الحال في بلاد تونس، والجزائر -كما سيتبيَّن من قراءة بعض ما خطَّتْهُ أنامل بعضِ العلماء والكُتَّاب هناك-.

ولقد يسر الله إخراج المجموعة الأولى من هذه المقالات، وهذه هي المجموعة الثانية من (مقالات لكبار كُتَّاب العربية في العصر الحديث).[1]

---

(١) سبق في مقدمة المجموعة الأولى حديث عن المقالة من حيث مفهومها، ونشأتها، وتاريخها، وأنواعها، كما تضمنت المقدمة حديثاً عن الأسباب الداعية لنشر هذه المقالات، والأهداف المرجوة من ذلك، والطريقة التي ستسير عليها هذه المجموعات.

وهي تشتمل على أبواب متفرقة، وموضوعات متنوعة؛ في العلم والدعوة، وفي الإصلاح، وبيان أصول السَّعادة، وفي الأخلاق والتَّربية، وفي السِّياسة والاجتماع، وفي قضايا الشَّباب، وفي أبواب الشِّعر والأدب، وفي العربيَّة وطرق التَّرقِّي في الكتابة، كما أنها تشتمل على مقالات في السِّيرة النبويَّة، وبيان محاسن الإسلام، ودحض المطاعن التي تثار حوله.

وسيجد القارئ فيها جِدَّة الطَّرح، وعمقه، وقوَّته، وطرافةَ بعض الموضوعات، ونُدرةَ طرقها.

وسينتقل من خلالها من روضة أنيقة إلى روضة أخرى، وسيجد الأساليب الرَّاقية المتنوِّعة؛ إذ بعضها يميل إلى الجزالة والشَّماسة، وبعضها يجنح إلى السُّهولة والسَّلاسة، وهكذا.

وقد يخطر ببال القارئ أن بعض المقالات يكفي قراءة عنوانها؛ فيقصره ذلك عن قراءة بقية المقال.

ولو قرأ المقال لربما رأى فيه ما لم يكن يدور في خلده من نفيس العلم، ودقيق الفهم، وجمال العرض.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً في المقالات التي سترد في هذا المجموع.

ولا يغيب عن فطنة القارئ الكريم أنَّ تلك الكتابات قد أنشئت في زمن مظلم؛ فالاحتلال كان ضارباً بجرانه في كثير من بلاد المسلمين، والشيوعيَّة كانت في عزِّ أوجها وبريقها، والجهل والهزيمة النَّفسيَّة كانا شائعين في ذلك الوقت.

وهذا يدفع إلى تقدير ما قام به أولئك الكُتَّاب، وإلى التماس العذر لهم فيما فاتهم، أو قصَّروا به إن وُجِد شيء من ذلك.

وقد ترجمت لأكثر أولئك الكتاب في المجموعة الأولى.

وهذه المقالات التي يحتويها هذا المجموع معزوَّة إلى مراجعها، ومُشَارٌ إلى تواريخ كتابتها إن كانت موجودة.

كما أنَّ بعضها قصير، وبعضها متوسِّط، وبعضها مطوَّل أقرب ما يكون إلى البحث العلمي.

وقد أبقيت تلك المقالات كما هي، وربَّما حَذَفْت من بعضها ـوهو قليلـ ما قد يُستغنى عنه، وما لا يخلُّ بأصل الموضوع، خصوصاً إذا كان يحتاج إلى مناقشة، أو كان فيه إلباس على بعض القراء، أو ما كان مشتملاً على تسويغ بعض البدع، وما إلى ذلك.

وما كان الغرض هو محاكمة الكاتب، بل إنَّني أحاول جهدي ألا أتعرَّض لأيِّ مقال بانتقاد أو اعتراض إلا ما لا بدَّ منه من إيضاح معنى، أو إزالة إشكال، وهو قليل جدًّا؛ لأجل ألا أقطع على القارئ استرساله، ومتعته.

وأكثر الهوامش إنما هي من صنع الكُتَّاب، وأما ما أعلق به فسيكون مختوماً بحرف (م) حتى يتميز عن الأصل.

وإليك مسرداً بعنوانات الموضوعات والمقالات التي تضمنتها هذه المجموعة:

أولاً: مقالات في السعادة

١ـ **فن السرور**: للأستاذ أحمد أمين

٢ـ **الابتهاج بالحياة**: للأستاذ أحمد أمين

٣ـ **الإيمان ينبوع السعادة**: للأستاذ أحمد أمين

ثانياً: مقالات في التربية والتعليم

٤ـ **التربية**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٥ـ **التربية الأخلاقية وأثرها في ارتقاء الأمم**: للشيخ علي فكري

٦ـ **صحة التفكير**: للعلامة محب الدين الخطيب

٧ـ **أول درس ألقيته**: للأديب الأستاذ أحمد حسن الزيات

٨ـ **حقوق المعلمين الأحرار على الأمة**: للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

٩ـ **حقوق الجيل الناشئ علينا**: للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

ثالثاً: مقالات في الأخلاق والمروءات والسلوك

١٠ـ **ثبات الأخلاق**: للأديب مصطفى صادق الرافعي

١١ـ **سجايا العرب في التراث الإسلامي**: للعلامة محب الدين الخطيب

١٢ـ **الوفاء في العربي**: للأستاذ محمد الطيب النجار

١٣ـ **التضحية**: للأستاذ أحمد أمين

١٤ـ **الحياء**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

١٥ـ **صدق اللهجة**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

١٦ـ **من أخلاقنا**: للشيخ علي الطنطاوي

١٧ـ **إشاعة السوء وموقف الإسلام منها**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

١٨ـ **البخيل**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

١٩ـ **الآداب العامة**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

رابعاً: مقالات في العمل والهمة

خامساً: مقالات في المدنية والعمران

سادساً: مقالات في الشباب

سابعاً: مقالات في العبادات والعادات

ثامناً: مقالات في السياسة والاجتماع

تاسعاً: مقالات في الإصلاح والدعوة إلى الله

عاشراً: مقالات في العلم والتحقيق

حادي عشر: مقالات في اللغة والأدب

ثاني عشر: مقالات في السيرة النبوية

ثالث عشر: مقالات في المشاعر والعواطف الإنسانية

٦٧ـ من نفحات الشرق: الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار: للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

٦٨ـ عبرة الموت: للأستاذ أحمد أمين

وأخيراً لا يسعني إلا أن أسأل الله العليَّ القدير أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجزيَ خير الجزاء من أعان على إخراجه كتابةً، ومراجعة، ومتابعة.

كما آمل من القارئ الكريم أن يمدني بملحوظاته، واستدراكاته، وله جزيل الشكر، وخالص الدعاء.

والله المستعان وعليه التكلان.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد.

محمد بن ابراهيم الحمد

٥/ ١ / ١٤٢٦هـ

الزلفي ص.ب ٤٦٠

الرمز البريدي ١١٩٣٢

www.toislam.net

Alhamad@toislam.net

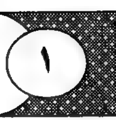


أولاً: مقالات في السعادة

١ـ **فن السرور**: للأستاذ أحمد أمين

٢ـ **الابتهاج بالحياة**: للأستاذ أحمد أمين

٣ـ **الإيمان ينبوع السعادة**: للأستاذ أحمد أمين



فن السرور[1] للأستاذ أحمد أمين[2]

نعمة كبرى أن يمنح الإنسان القدرة على السرور، يستمتع به إن كانت أسبابه، ويخلقها إن لم تكن.

يعجبني القمر في تقلده هالةً تشع فنًّا وسروراً، وبهاءً ونوراً، ويعجبني الرجل أو المرأة يَخلُقُ حوله جوًّا مشبعاً بالغبطة والسرور، ثم يَتَشَرَّبه فيشرق في محياه، ويلمع في عينيه، ويتألق في جبينه، ويتدفق من وجهه.

يخطئ من يظن أن أسباب السرور كلها في الظروف الخارجية، فيشترط لِيُسَرَّ مالاً وبنين وصحة؛ فالسرور يعتمد على النفس أكثر مما يعتمد على الظروف، وفي الناس من يشقى في النعيم، ومنهم من ينعم في الشقاء؛ وفي الناس من لا يستطيع أن يشتري ضَحَكةً عميقةً بكل ماله وهو كثير، وفيهم من يستطيع أن يشتري ضحكات عالية عميقة واسعة بأتفه الأثمان، وبلا ثمن.

مع الأسف أُلاحظ أن كمية السرور في مصر والشرق قليلة، كما لاحظت من قبل أن كمية الحب في مصر والشرق قليلة.

وليست تنقصنا الوسائل، فجوُّنا جميل، وخيراتنا كثيرة، وتكاليف الحياة هينة، ووسائل العيش يسيرة، ومصائب الشرق من الحرب أقل منها في الغرب ومع هذا كله لا تزال كمية السرور في الشرق أقل.

---

(١) فيض الخاطر ٢/١٩٧ـ٢٠٠.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

أكبر سبب لذلك في نظري أن الحياة فَنٌّ، والسرور كسائر شئون الحياة فن؛ فمن عرف كيف ينتفع بالفن استغله واستفاد منه وحظِي به، ومن لم يعرفه لم يعرف أن يستغله وشقي به.

أول درس يجب أن يتعلم في فن السرور «قوة الاحتمال» فأكبر أسباب الشقاء رخاوة النفس وانزعاجها العظيم للشيء الحقير؛ فما أن يصاب المرء بالتافه من الأمر حتى تراه حَرِجَ الصدر، لهيف القلب، كاسف الوجه، ناكس البصر، تتناجى الهموم في صدره، وتقض مضجعه، وتؤرق جفنه.

وهي وأكثر منها إذا حدثت لمن هو أقوى احتمالاً، لم يلق لها بالاً، ولم تُحَرِك منه نَفساً، ونام ملء جفونه رضِيَّ البال فارغ الصدر.

ومن أهم الأسباب في أنَّ أمم الغرب أقدر على السرور من أمم الشرق أنَّ تاريخ الغرب الحربي متسلسل متتابع، ومن مزايا الحروب أنها تصهر الأمم، وترخص الحياة، وتهوِّن الموت، وإذا رخصت الحياة وهان الموت رأيت المرء لا يعبأ بالكوارث إلا بقدر محدود؛ وإذا كان لا يهاب الموت فأولى ألا يهاب ما عداه؛ لأن كل شيء غير الموت أهون من الموت؛ فكل أسرة أوربية لها رجال فقدوا في الحرب؛ أو أصيبوا في الحرب أو ابتلوا بنوع من كوارث الحرب؛ فعلمتهم أن يتقبلوا هذه الرزايا بقوة احتمال، ونشأ عن هذا أنهم لا ينغصون حياتهم بذكرى الرزايا؛ فالأولى ألاَّ ينغصوها بتوافه الأمور.

أما أمم الشرق فقد مرَّ عليهم دهرٌ طويل لم يكونوا فيه أمماً حربية؛ بل كانوا مستسلمين وادعين، يتولى غيرهم الدفاع عنهم، وإن حاربوا فحرب الضرورة،

وحرب الأفراد لا حرب الشعوب، فاستفظعوا الموت، وغَلوا في الحرص على الحياة، ولم يصابوا بكوارث شعبية يستعذبون معها الموت والتضحية، وتبع ذلك رخاوة العيش، وعدم القدرة على الاحتمال، وتهويل الصغائر، والجزع من توافه الأمور، ولا دواء لهذا إلا التربية القوية، وبث الأخلاق الحربية.

وسبب آخر لقلة السرور في الشرق، وهو سوء النظم الاجتماعية؛ ففي كل بيت محزنة من سوء العلاقات الزوجية والعلاقات الأبوية، وفي كل مصلحة أهلية أو حكومية مأساة من سوء العلاقات المصلحية، وأحاديث الدرجات والعلاوات، وعدم التعاون في حمل الأعباء، وبناء المعاملات على الفوضى والمصادفات.

ثم عدم القدرة على خلق أسباب السرور الاجتماعية؛ فاجتماعات المنازل التي تبعث السرور محدودة ضيقة نادرة، وفي كثير من الأحيان تنتهي بمنغصات والملاهي العامة إما داعرة لا ترضي الذوق السليم، ولا ترمي إلى غرض شريف، وإما تافهة لا يرقيها ذوق؛ ومن أجل ذلك كان أشد الناس بؤساً في الأمم الشرقية الطبقة المثقفة المهذبة التي رقى ذوقُها؛ فهي لا تكاد تجد لها ما يتفق وذوقها.

ومع هذا كله ففي استطاعة الإنسان أن يتغلب على كل هذه المصاعب، ويخلق السرور حوله، وجزء كبير من الإخفاق في خلق السرور يرجع إلى الفرد نفسه، بدليل أنا نرى في الظروف الواحدة والأسرة الواحدة والأمة الواحدة من يستطيع أن يخلق من كل شيء سروراً، وبجانبه أخوه الذي يخلق من كل شيء حزناً؛ فالعامل الشخصي ـ لاشك ـ له دخل كبير في خلق نوع من الجو الذي

يتنفس منه؛ ففي الدنيا عاملان اثنان: عامل خارجي وهو كل العالم، وعامل داخلي وهو نفسك؛ فنفسك نصف العوامل؛ فاجتهد أن تكسب النصف على الأقل؛ و إذاً فرجحان كفتها قريب الاحتمال، بل إن النصف الآخر-وهو العالم - لا قيمة له بالنسبة إليك إلا بمروره بمشاعرك؛ فهي التي تلونه، و تجمِّله أو تقبحه؛ فإذا جلوت عينيك، وأرهفت سمعك، وأعددت مشاعرك للسرور - فالعالم الخارجي ينفعل مع نفسك فيكون سروراً.

إنا لنرى الناس يختلفون في القدرة على خلق السرور اختلاف مصابيح الكهرباء في القدرة على الضياء؛ فمنهم المظلم كالمصباح المحترق، ومنهم المضيء بقدر كمصباح النوم، ومنهم ذو القدرة الهائلة كمصباح الحفلات؛ فغيِّرْ مصباحك إن ضعف، واستعض عنه بمصباح قوي ينير لنفسك وللناس.

ولكن ما الوسيلة إلى ذلك؟

مما لا شَكَّ فيه أن غلبة الحزن مرض قد ينشأ من عوامل كثيرة مختلفة؛ فمن الخطأ رجوعها كلها إلى علة واحدة؛ وإذاً فمن الخطأ وضع علاج واحد للعلل كلها، ولكن فَحْصُ كل نفس وأسباب حزنها، ووضع العلاج الخاص بها لا يستطيعه إلا طبيب نفسي ماهر، أما الكاتب فلا يستطيع إلا قولاً عاماً، ووصفاً مشتركاً، وتعرضاً للمسائل العامة.

ولعل من أهم أسباب الحزن ضيقَ الأفق، وكثرة تفكير الإنسان في نفسه، حتى كأنها مركز العالم، وكأن الشمس والقمر والنجوم والبحار والأنهار والأمة والحكومة والميزانية والسعادة والرخاء كلها خلقت لشخصه؛ فهو يقيس كل

المسائل بمقياس نفسه، ويديم التفكير في نفسه وعلاقة العالم بها، و هذا ـ من غير ريب ـ يوجد البؤس والحزن؛ فمحال أن يجري العالم وفق نفسه؛ لأن نفسه ليست المركز، وإنما هي نقطة حقيرة على المحيط العظيم، فإن هو وسَّع أفقه، ونظر إلى العالم الفسيح، ونسي نفسه أحياناً، ونسي نفسه كثيراً ـ شعر بأن الأعباء التي ترزح تحتها نفسه، والقيود الثقيلة التي تثقل بها نفسه قد خفت شيئاً فشيئاً، وتحللت شيئاً فشيئاً.

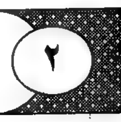
وهذا هو السبب في أن أكثر الناس فراغاً أشدهم ضيقاً بنفسه، لأنه يجد من زمنه ما يطيل التفكير فيها إلى درجة أن يجن بنفسه؛ فإن هو استغرق في عمله، وفكر في أمته وفكَّر في عالمه، كان له من ذلك لذة مزدوجة: ذة الفكر والعمل، ولذة نسيان النفس.

ولعل من أول دروس فن السرور أن يقبض على زمام تفكيره؛ فيصرِّفه كما يشاء؛ فإن هو تعرض لموضوع مُقْبِضٍ ـ كأن يناقش أسرته في أمر من الأمور المحزنة، أو يجادل شريكه، أو صديقه فيما يؤدي إلى الغضب ـ حوَّل ناحية تفكيره، وأثار مسألة أخرى سارَّةً ينسى بها مسألته الأولى المحزنة؛ فإن تضايقْت من حديث ميزانية البيت فتكلم في السياسة، وإن آلمك حديث «الكادر» فتكلم في الجو، وانقل تفكيرك كما تنقل بيادق الشطرنج.

ثاني الدروس أو ثالثه ـ لا أدري ـ ألاَّ تقدر الحياة فوق قيمتها؛ فالحياة هينة، وكل ما فيها زائل؛ فاعمل الخير ما استطعت، وافرح ما استطعت ولا تجمع على نفسك الألم بتوقع الشر ثم الألم بوقوعه؛ فيكفي في هذه الحياة ألم واحد للشر

الواحد.

وأخيراً، افعل ما يفعله الفنانون، فالرجل لا يزال يتشاعر حتى يكون شاعراً، ويتخاطب حتى يصير خطيباً، ويتكاتب حتى يصير كاتباً؛ فتصنَّع الفرح والسرور والابتسام للحياة؛ حتى يكون التطبع طبعاً.



٢ الابتهاج بالحياة[1] للأستاذ أحمد أمين

لقد أكثرت في أحاديثي الماضية عن متاعب الحياة فلأحدثكم اليوم عن الابتهاج بالحياة.

والحق أنَّا لو قارنا بين الغربيين والشرقيين لوجدنا أن الشرقيين تغلب عليهم طبيعة الحزن والاكتئاب.

وهذا ما يلاحظه الغربيون على الطلبة الشرقيين الذين يتعلمون عندهم، وهذا ـأيضاًـ ما نلاحظه نحن على أنفسنا، فنحن إذا حدث ما يستوجب الحزن أفرطنا فيه كما يحدث في الوفيات؛ نبالغ في البكاء على الميت، وننغص حياتنا لفقده مدة طويلة، ونقيم التقاليد الكثيرة من مآتم وأخمسة وأربعين، وحفلات تأبين ونحو ذلك.

وكذلك نبالغ في الحزن في النكبات كالحزن عند الأمراض، والحزن عند خسارة مالية، ونحو ذلك.

وكثير منا إذا لم يجد سبباً من أسباب الحزن أوجده؛ فهو وأهله في صحة، وعندهم من المال ما يكفيهم، ودنياهم سائرة على ما يرام، ولكنهم مع ذلك يخلقون أسباب الحزن خَلْقاً؛ فيحملون همَّ المستقبل، وماذا سيكون فيه؟ أو يتنازعون على شيء تافه؛ فيحزنون من أجله.

وعلى كل حال فطبيعتنا يغلب عليها الحزن، ومن فرح بالحياة وابتهج بها

---

(١) فيض الخاطر، ١٠/ ٢٠٢ ـ ٢١٠.

فابتهاج قليل يعقبه حزن طويل، أو إفراط في مباهج الحياة يسبب تنغيصاً، وحزناً، وألماً يعقبه أضعاف ما ناله من فرح وابتهاج.

ولعل السبب في انتشار طابع الحزن علينا يرجع إلى أمور كثيرة، أهمها ما مضى على الشرق من عصور كان فيها ظلم الحكام شديداً قاسياً أمات روح الناس، وقلل من ابتهاجهم.

وتلا هذا الاستعمار وما فيه من ظلم، واستغلال، وضغط على الحرية جعل الناس يألمون ويكتمون ألمهم، والألم المكتوم أفعل في النفس من الألم الظاهر.

وهناك سبب آخر وهو أن الحياة في الشرق تسودها الفوضى، وعدم النظام، والفوضى في الحياة تسبب المتاعب والألم؛ فإذا كان البيت فوضى تعب أفراد الأسرة، وإذا كانت الوظائف فوضى تعب الموظفون، وإذا كان الترام والسيارات فوضى تعب الراكبون، وإذا كان الطباخون وقائدوا السيارات والخدم لا يسيرون في حياتهم على نمط معقول تعب من يعاملهم، وهكذا...

فالإنسان في استمرار يعامل طائفة كبيرة من أفراد المجتمع، فإذا لم تنتظم الحياة معهم سببت الألم والمتاعب، وهيجت الأعصاب، وأورثت الحزن، وهكذا...

والحياة فن من الفنون فإذا ضاع فن الحياة ضاع السرور بها، بل إن السرور بالحياة نفسه فن من الفنون، ويخطئ من يظن أن أسباب السرور كلها في الظروف الخارجية، فيشترط لأجل أن يكون مسروراً مالاً وبنين وصحة ونحو ذلك.

فالسرور يعتمد على النفس أكثر مما يعتمد على الظروف، وفي الناس من يشقى في النعيم ومنهم من ينعم في الشقاء، ومن الناس من لا يستطيع أن يشتري

ساعة سعيدة ضاحكة مستبشرة بأغلى الأثمان، ومنهم من يستطيع أن يشتريها بأتفه الأثمان، وذلك لاختلافهم في الطبع والمزاج.

إننا نحتاج للابتهاج بالحياة إلى شيئين هامين: أولهما تنظيم الحياة في أنفسنا وفي مَنْ حولنا؛ فالبيت إذا نُظِّم - أعني نُظِّمت ميزانيتُه، ونظمت حياةُ صغاره وكباره، ونظمت العلاقة بين الزوجين، وبينهما وبين الأولاد- كان أهله أقربَ إلى الابتهاج بالحياة.

والموظف إذا نظمت مصلحته، أعني حسنت علاقته بينه وبين رؤسائه ومرؤوسيه كان أهدأَ بالاً، وأسعدَ حالاً.

وكذلك كل ما يتعلق بالإنسان من شؤون إذا نظمت كانت مبعث سعادة وابتهاج.

والأمر الثاني الشجاعة؛ فكثيراً ما يكون سبب الحزن فقدان الشجاعة، يخاف الإنسان من الموت، ويخاف من الفقر، ويخاف أن تنزل به كارثة، ويخاف من المستقبل، ويخاف أن يفشل في عمله؛ فهذا الخوف كله ينغص عليه حياته، ويجعله منقبضاً غير مبتهج.

وسبب آخر وهو عدم تنظيم أسباب السرور، وهذا أمر يحتاج إلى مهارة، فالزوج أو الزوجة في البيت إذا مَهَرا في خلق أسباب السرور جعلا البيت جنة، ونحن تنقصنا هذه المهارة في خلق السرور مع مهارتنا الكبرى في خلق المنغصات؛ فاجتماعات المنزل كثيراً ما تنتهي بنزاع، حتى الملاهي العامة كثيراً منها لا يرضي الذوق السليم ولا الفن الرفيع، وكثيراً ما تكون تافهة لا يجملها فن، ولا يرقيها

ذوق، ومن أجل هذا كان أشد الناس بؤساً في الحياة هنا من رقي ذوقه، ونبلت نفسه.

إن الناس يختلفون في قدرتهم على الابتهاج بالحياة اختلاف المصابيح الكهربائية، فمنها مصباح محترق لا ضوء فيه، ومنها مصباح يضيء بقوة عشر شمعات، أو خمس عشرة، أو عشرين أو مائة أو مائتين، وهكذا الناس طبيعة منيرة مضيئة مشرقة، وطبيعية حزينة أسيفة مكتئبة مظلمة.

وجزء من هذا الاختلاف طبيعي في خِلْقَةِ بعض الأفراد، ولكن الجزء الكبير يرجع إلى العادة؛ فمن السهل تعويد النفس النظر إلى الحياة نظراً بهيجاً مفرحاً.

ومن الملاحظ أن الذين يغلب عليهم الحزن هم الذين يكثرون التفكير في أنفسهم، والتفكير في مستقبلهم؛ فإذا اعتدل الإنسان في التفكير في نفسه، ووسع أفقه، وفكَّر في غيره، وفكَّر في العالم كان أقل حزناً، وأكثر ابتهاجاً.

وهذا الفن ـ فن الابتهاج بالحياة ـ يتطلب أن يقبض الإنسان على زمام تفكيره فيصرفه كما يشاء، فإن رأى نفسه قد تعرض لموضوع مُقْبض كميزانية بيته، أو سوء مصلحته، أو متاعبه في وظيفته ـ فليحول تفكيره إلى مسألة أخرى، ويثير مسألة من المسائل التي تجلب السرور عليه.

ومن الحكمة والعقل ألا يجمع الإنسان على نفسه بين الألم بتوقع الشر، والألم بحصول الشر؛ فليسعد ما دامت أسباب الحزن بعيدة عنه، فإذا حدثت ـ لا قدر الله ـ فليقابلها بشجاعة واعتدال.

إن الرجل المبتهج بالحياة يزيده الابتهاج بالحياة قوة؛ فيكون أقدر على الجد،

وحسن الإنتاج، ومقابلة الصعاب من الرجل المنقبض الصدر الممتلئ بالهم والغم.

وكما أن كل عادة تكتسب بالتمرين، فالصانع يكتسب صناعته من التمرين، والموظف يتقن عمله بالتمرين، والنظافة والقذارة حسب الاعتياد، والأخلاق الفاضلة أو الرذيلة حسب الاستعداد ـ فكذلك الشأن في مقابلة الحياة بالحزن والألم، أو بالابتهاج والسرور.

وما الحياة؟ مرحلة عابرة لا تستحق أن ينغص الإنسان نفسه فيها بكثرة الألم، وكل ما يطلب من الإنسان فيها أن يقضيها على أحسن وجه مبتهجاً مسروراً فعالاً للخير، يشعر بالفرح لفرح الناس، وبالخير يَصِلون إليه، ويبتهج بجمال الطبيعة وجمال ما فيها، فإن صادفه ما يؤلم نَحّاه جانباً إن أمكنه، ورضي مطمئناً بما لم يمكن تغييره، وبهذا يعيش عيشة راضيةً، عيشة سعيدة موفقه.

إن أردت أن تعرف شيئاً صحيح هو أو فاسد؟ سواء كان هذا الشيء عادة من العادات، أو خلقاً من الأخلاق ـ فانظر هل هو مما يزيد الحياة، قوة ويكسب الحياة صحة فاحكم عليه ـ إذن ـ بأنه عمل نافع .

وإن كان يضعف الحياة ويجعلها مريضة فاحكم عليه ـ إذن ـ بأنه عمل ضار .

ولا شك أن الهم والاستسلام للحزن، والخوف من توقع المكروه، والإفراط في تقدير الآلام ـ مما يضعف الحياة، ويضعف الإنتاج، ويزيد الآلام والبؤس والشقاء؛ فحارب الكآبة في نفسك وابتسم للحياة، وابتهج بها في غير إسراف تزد حياتك، قوة وتشعر بالسعادة، وتُشعر بها من حولك.

إن الابتهاج بالحياة فن من الفنون جهلناه، فأصبحت حياتنا كالماكينة التي وضع جزء منها في غير موضعه، فسبب ذلك خراب الماكينةَ كلِّها، وضوضاءها في سيرها، وعدم انتظامها، والذَّنْبُ ذنبُنا لا ذنب أي شيء آخر.

خذ مثلاً الأسرة؛ فكل أسرة غالباً لها أوقات فراغ تقضيه في البيت مجتمعة، وهذا الوقت عند الأمم الراقية من أسعد الأوقات يقضونه إما في حديث ممتع، أو في لعب فنية، أو نوادر طريفة، أو (فوازير) جميلة، فتنتعش بذلك النفس، وتبتهج الحياة، وينسى كل فرد ما لقيه من متاعب عمله خارج البيت؛ فماذا نصنع نحن في مثل هذا الوقت؟ لَمْ نتقِنْ فن اللعب الظريف، ولا النوادر اللطيفة، وإنما أتقنا فن المشادة والغضب لأتفه الأسباب، وتنغمس الحياة بما لا يُحصى ولا يعد من أسباب.

إن أهم ما في الحياة معرفة طرق المعيشة، وكان من الطبيعي ـ وقد كانت حياتنا أعز شيء علينا ـ أن نبذل جهداً كبيراً في البحث عن أسباب سعادتها، والابتهاج بها.

فإذا خرجنا عن الأسرة إلى الحياة خارج البيت وجدنا الرجل يضيع أكثر أوقاته في الجلوس على مقهى ولعب شطرنج أو نرد أو نحو ذلك، أو جلس مع أصدقاء يتحدثون حديثاً سخيفاً في العلاوات والدرجات، وتركوا أسرتهم تضيع الوقت ـأيضاًـ في توافه الأمور؛ فلا الرجل يفكر كيف يسعد أهله، ولا المرأة تفكر في كيف تسعد أسرتها، وقل من استفاد من الحياة كما ينبغي، فلا المناظر الطبيعية الجميلة تجذب انتباههم، ولا القراءة اللذيذة الممتعة تسترعي انتباههم،

ولا تخصيص وقت للخدمة الاجتماعية العامة تنال حظاً من أوقاتهم؛ فمن أين يفرحون؟ وبأي شيء يبتهجون؟

فالحق أن الحياة رواية في استطاعة الإنسان أن يجعلها رواية ضاحكة مبتهجة، وأن يجعلها مأساة حزينة مكتئبة.

إن أهم سبب في الابتهاج بالحياة هو أن يكون للإنسان ذوق سليم مهذب يعرف كيف يستمتع بالحياة، وكيف يحترم شعور الناس ولا ينغص عليهم، بل ويدخل السرور على أنفسهم؛ فالذوق السليم قادر على استجلاب القلوب، وإدخال السرور على نفس صاحبه ونفس من حوله، وكما قال القائل: «ما تريد نيله بالتخويف والإرهاب يمكنك أن تناله بالابتسام».

تصور أسرة ساد فيها الذوق السليم نرى كل فرد فيها يتجنب جرح إحساس غيره بأي لفظ أو أي عمل يأباه الذوق، بل إن ذوقه يرفعه إلى حد أنه يتخير الكلمة اللطيفة والعمل الظريف الذي يدخل السرور على أفراد أسرته.

إن الذوق السليم في البيت يأبى النزاع، ويأبى حدة الغضب، ويتطلب النظام، وحسن الترتيب، والاستمتاع بجمال الزهور، وجمال النظافة، وجمال كل شيء في البيت، فلسنا مبالغين إذا قلنا: إن رقي الذوق أكثر أثراً في السعادة من رقي العقل؛ إن الذوق إذا رقي أنف من الأعمال الخسيسة، ومن الأقوال النابية ومن الأفعال السخيفة.

ولو استطعت لجعلت جزءاً كبيراً من مناهج التعليم في المدارس لتربية الذوق بجانب المناهج المكتظة بتربية العقل.

كل إنسان في الدنيا يضع على عينيه منظاراً حقيقياً أو مجازياً، وأكثرنا مع الأسف يلبس منظاراً أسود يريه كلَّ شيء أسود؛ فإذا نظروا إلى الأشياء نظروا إلى معايبها، ولم ينظروا إلى محاسنها، ولم يعجبهم حاضرهم، ورأوا السعادة في غير ما هم فيه ولذلك يكثرون من إذا... ولو... ولعل... وعسى...

ولو حصل كل ما يتمنون ما زادوا شيئاً وما تغيرت حالتهم ما دامت على أعينهم هذه النظارات، ولم يغيروها بنظارات بيضاء ترى الحياة على حقيقتها، وترى الدنيا مملوءةً بالمسرات مع قليل من الأحزان، وكثيراً من النعم مشوبة بقليل من النقم.

وهذه الأحزان، وهذه النقم قليلة القيمة إذا تسلح الإنسان بالشجاعة في مقاومتها، وفي استطاعة الإنسان أن ينصب في نفسه سرادقاً كبيراً، إما لمأتم كبير، أو لفرح كبير.

ويخطئ كثير من الناس فيظن أن الابتهاج بالحياة معناه اللذة الحادة الجامحة، ويظنون السعادة في الإفراط في الملاهي على اختلاف ألوانها، إما في سكر مفرط، أو غشيان دار من دور اللهو الخليعة أو نحو ذلك.

وليس هذا ابتهاجاً بالحياة وإنما هو إبادة للحياة، وهذه اللذات الحادة كنار القش تلتهب سريعاً، وتخمد سريعاً، وقد يكون من أضرار التهابها وآلامها ما يساوي أضعاف لحظات لذتها.

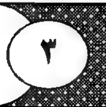
إنما نعني بالابتهاج بالحياة موقف النفس إزاء الحياة، والاستمتاع بها استمتاعاً معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط، نريد بها حالة من أحوال النفس، تهيئ ذوقاً

للاستمتاع بمحيطنا استمتاعاً أطول ما يمكن، وأقوى ما يمكن، استمتاعاً يقوِّينا على الجد في الحياة، ويجعلنا أقدر على إسعاد أنفسنا وإسعاد من حولنا.

أما اللذات الحادة الوقتية فلذاتٌ وهميةٌ يتبعها من الألم أكثر مما تستوجب من اللذة.

إن راحة الضمير، ولذة العقل، ولذة الروح، ولذة النفس واللذة التي يشعر لها المرء إنه مصدر للخير يشعه على الناس كما تشع الشمس ضوءها.

كل ذلك ابتهاج بالحياة لا يعادله التمرغ في اللذات الدنيئة الوقتية التي تسبب لذة عارضة تعقبها حسرات دائمة.



الإيمان ينبوع السعادة[1] للأستاذ أحمد أمين

يروى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه دعا الله أن يرزقه إيماناً كإيمان العجائز، ولم يقل كإيمان العلماء، لأن إيمان العجائز إيمان عميق، هادئ مطمئن، لا يرقى إليه الظن، ولا يحوم حوله الشك، دينهم شعور عميق بإله بلغ النهاية في الكمال، وعن هذا تصدر أعمالهم، وبلقائه تتعلق آمالهم.

أما العلماء فقد اعتادوا الشك، واعتمدوا على الحجج العقلية، فكان إيماناً مقلقلاً، يحول بينهم وبين تمام اعتقادهم صعوبة إدراكهم لحقيقته بعقولهم[2].

ثم إن خير الدين ما أتى عن طريق القلب، والعجائز إيمانهم عن طريق قلوبهم، والعلماء إيمانهم عن طريق عقولهم، والعقل عادة مصدر للشك والتردد، والقلق والحيرة، والقلب لا يعرف شكاً ولا تردداً.

وإيمان العجائز إيمان بسيط سهل، فهم يدركون أن الإيمان بالله معناه أن الله خالق كل شيء، ومدبر كل شيء، يعطف على من يحبه بالخير، وينتقم ممن لا يؤمن به، إن عاجلاً وإن آجلاً، وهذه العقيدة على بساطتها كافية في سير الشخص سيراً حسناً حميداً، يفعل الخير، ويجتنب الشر.

إن الإيمان بالدين مبني على أساسين: رغبة ورهبة، فالإنسان يعمل الخير

---

(١) فيض الخاطر، ٩/ ٤٥ ـ ٤٨.

(٢) لعله يقصد علماء الكلام والفلاسفة ونحوهم، أما العلماء بالله وأمره فهم أكثر الناس يقيناً، وأبعدهم عن الشك والحيرة(م).

رغبة في ثوابه، وأملاً في جنته، وهو يخاف عقوبته، ويخاف ناره، وبين الرغبة والرهبة تصلح الأعمال وتتم السعادة.

ما الحياة بلا إيمان بالله؟ إن الإنسان خلق في هذه الحياة وسط تيار جارف، وجو عاصف، تنتابه الأحداث العظام، وتحل به الكوارث؛ فما لم يعتقد في إله يتخذه ملجأً له، وركناً يعتمد عليه، ومعزياً له في المصائب، ومساعداً له في المتاعب، ومأمناً له ضد الأخطار، ومواسياً له عند الحزن ـ كان كبناءٍ لا يستند إلى أساس، وبيت ليس له دعامة؛ ومن أجل ذلك نرى أشقى الناس في الحياة أكثرهم إلحاداً؛ إنهم قد يملكون المال الكثير، ويحصلون على الرزق الوفير، ولكن لا يلبثون إذا حلّت بهم مصيبة أن يأخذهم الجزع؛ لأن من طبيعة النفس الخوفَ من العدم، أما المؤمن فيحمد الله في السراء والضراء، ومهما فعل، ومهما حلَّ به؛ فهو يعتمد على ركن ركين، وملجأ حصين، إن فاته الخير في الدنيا أمَّل في الآخرة، وإن لم تسعفه ظروف اليوم أمل في الله غداً.

وتجاربنا في الحياة تدلنا على أن الإيمان بالله موردٌ من أعذب موارد السعادة ومناهلها[1].

فالدين يكسب النفس قوةً، وسلوى، وعزاءً.

وكان القرآن حكيماً في مخاطبته للشعور في مثل قوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾. الغاشية: ١٧ـ٢٠

---

(١) بل هو أعذبها على الإطلاق (م).

ودعوته إلى النظر في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، واختلاف الألسنة والألوان، أكثر من اعتماده على مقدمات منطقية، وأقيسة جدلية؛ لأن آيات القرآن هذه تخاطب الشعور والقلب، والأقيسة المنطقية تخاطب العقل، وكل إنسان صالح لأن يوجه الحديث إلى قلبه، وليس كل إنسان صالحاً لأن يوجه الحديث إلى عقله.

نعم، إن العلم يخدم الدين، ولكن لا يبعثه؛ فَتَقَدُّمُ الناس في العلم اليوم خفف آلام البشرية من اعتقاد في السحر، ووجود أرواح شريرة تتسلط على البشر وتعذبهم حسبما تشاء، فكل هذه اعتقادات أزالها أو مزقها نور العلم، فخدم الدين بذلك خدمة جليلة، فإذا اجتمع في الناس قلب ينبض بحب الله، وعقل يزيل الخرافات والأوهام عنه، كان ذلك منتهى السعادة، ومنتهى الرقي.

لولا الدين ما كانت السعادة، ولا كانت للحياة قيمة، بل نحن نرى أن آباءنا كانوا أسعد منَّا بإيمانهم، وشبابنا أشقى منهم بشكهم، أو على الأقل بعدم اكتراثهم.

وإن شئت فقارن بين أسرتين: أسرة أسست حياتها على الدين والتزَمَتْ به، وأسرة أضاعت الدين ولم تلتفت إليه، وأَجِبْني: أي الأسرتين أسعد؟

إني أعتقد أن أكبر سبب لشقاء الأسر وجود أبناء وبنات فيها لا يرعون الله في تصرفهم، وإنما يرعون هواهم وملذاتهم؛ فهم يركبون رؤوسهم، ويروُّون رغباتهم، من غير وازع ديني يزعهم، أو نظرة في العواقب تردعهم، فإذا فشا الدين في أسرة فشت فيها السعادة، وخاصة إذا كان ديناً راقياً تجرد عن الخرافات

والأوهام، وتدعَّم بالعلم، وحكم أفرادها دينهم في سلوكهم.

إن أهمَّ ركنٍ في السعادة راحةُ البال، والدين أكبر دعامة لراحة البال؛ إذ يظهر أنه من طبيعة النفس الإنسانية أن تشعر بوجود إله تعتمد عليه، فإذا لم يكن ذلك قلقت واضطربت؛ لأنها خالفت طبيعتها.

ولذلك نجد أكثر الملحدين يعيشون عيشة مضطربة، وإذا جد الجد وحضرهم الموت كانوا كفرعون، لما أدركه الغرق، قال: ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ يونس: ٩٠

وهذه هي السعادة في الحقيقة، فليست السعادة في كثرة المال، ولا في عظم الجاه، إنما هي في أنفسنا، وفي داخل قلوبنا.

وشيء آخر، وهو أنَّ من مزية الدين الإيمانَ باليوم الآخر؛ فهو بذلك يضم حياة أبدية إلى حياته القصيرة الدنيوية، وذلك ـ من غير شك ـ يدعوه إلى أن يفكر فيما يعمل؛ لاعتقاده في الجزاء العادل، إن لم ينله في الدنيا ناله في الآخرة، ويكفه عن عمل الشر لأن وراءه إلهاً يجازيه على عمله مهما أَسَرَّ.

ومن طبيعة الإنسان حب الحياة؛ ولذلك يرتعد فرقاً إذا قيل له: إن حياته في الدنيا هي الحياة؛ لأن معنى ذلك أنها حياة قصيرة تنتهي بعدمٍ مُفْزِعٍ، وسعادته الحقة في أن يعتقد أن وراء هذه الحياة حياةً أبديةً، يتسلط[1] عليها إله عادل، من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

هذه هي الطبيعة الإنسانية التي خلقنا عليها، وأي تنحٍّ عنها يفسدها، وقد علمتنا الحياة أن الخروج على الطبيعة الإنسانية ولو قيد شعرة مدعاة للحيرة والاضطراب.

---

(١) لو قال: يملكها إله...، أو يحكم فيها ...(م).

ثانياً: مقالات في التربية والتعليم

٤ـ **التربية**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٥ـ **التربية الأخلاقية وأثرها في ارتقاء الأمم**: للشيخ علي فكري

٦ـ **صحة التفكير**: للعلامة محب الدين الخطيب

٧ـ **أول درس ألقيته**: للأديب الأستاذ أحمد حسن الزيات

٨ـ **حقوق المعلمين الأحرار على الأمة**: للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

٩ـ **حقوق الجيل الناشئ علينا**: للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

٤ التربية[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين[2]

ألم يأن للذين آمنوا أن تكون لهم آذان صاغيةٌ، وقلوب واعيةٌ؛ فيستجيبوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم؟ يحييهم كتاب الله إذا تشبعت عقولهم بأنوار مواعظه الحسنة، وإرشاداته الصحيحة، وارتبطوا بالعمل به ارتباطاً يَهَنُ كيد المردة عن نقض عراه، حتى إذا رسخ في أذواقهم طَعْمُ شجرتِه المباركة استقدروا ما ترميه أفواهُ الذين اتبعوا أهل المدنية الحديثة المصفَّدين بأغلال التقليد لهم في كل مثال جديد.

ذلك التقليد الأعمى، عِلَّتُه سوءُ التربيةِ الأولى، وعدمُ ارتواء النفس من أول النشأة بمحاسن الشريعة الغراء، ومن ثَمَّ كان الغالب على من شبوا في كفالة من قدروها حق قدرها علماً وعملاً شرَفَ الوجدان وسلامةَ القصد، والاستماتةَ في مدافعة الشبه التي تحركها استحسانات النفوس الكَدِرَة.

ولعلك تتلو قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾ مريم:٢٧ ـ فتجد المنكرين عليها فيما اتهموها به، أرادوا بنفي البغي والسوء عن أبويها المبالغةَ في توبيخها عما يراها الله منه؛ تنبيهاً على أن من كان أبواه صالحين ليس من شأنه التجردُ عن طورهما، والتردي بغير ردائهما.

وما كان ينبغي له إلا أن يسلك سنن أعمالهما الصالحة شبراً بشبر وذراعاً

---

(١) السعادة العظمى ـ عدد٧ ـ غرة ربيع الثاني ١٣٢٢ المجلد الأول، ص٩٧ـ٩٩.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

بذراع.

كما أنك تجد أكثر الناشئين في حُجور السفلة، أو من أطلقت حُبالهم على غواربهم زمَن الحداثة في أفظع حال من فساد الأذواق، وعدم الخضوع لسلطة الأحكام الدينية، والانخداع بالظواهر المزخرفة عن الغوص على الحقائق التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم من الحكمة.

تَعْجَبُ العامةُ لرجل يبرع في فنون كثيرة، ويبدع في التصرف في مباحثها المشكلة، فَيُفْرِغُها في قالب التحقيق، حتى إذا فاوضته في أي علم منها خُيِّل لك أنه الواضع لأصوله، ولا تلبث زمناً يسيراً تَجُسُّ نبضَ أخلاقه إلا وجدت فيها عِوجاً وأمتاً.

أما الفيلسوف النَّقَّاد فلا يرى ذلك شيئاً عجباً؛ للنكتة التي لَوَّحْنَا إليها، وهي سوء التربية الأولى.

والدليل على ما نقوله أن الصبي يولد على الفطرة الخالصة والطبع البسيط، فإذا قوبلت نفسه السَّاذَجَةِ بخلق من الأخلاق انتقشت صورته في لَوْحِها، ثم لم تزل تلك الصورة تمتد شيئاً فشيئاً إلى أن تأخذ بجميع أطراف النفس، وتصير كيفيّةً راسخةً فيها حائلة لها عن الانفعال بضدها.

يؤيد هذا أنا إذا رأينا من الغرباء من هو لطيفُ الخطاب، جميل اللقاء، مهذب الألمعية لا نرتاب في دعوى أنه ممن أنبته الله في البيوت الفاضلة نباتاً حسناً.

ومن الناس من يدرك أن التقام الأطفال لثدي التربية، مما يؤثر في نفوسهم إصلاحاً عظيماً، ولكن فَرْط الرأفة الذي ينشأ من التغالي في حبهم يكسر من

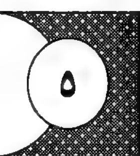
صلابة الآباء شيئاً كثيراً، فيدفعهم عن مكافحة طباع أبنائهم الرديئة، ومقاومتها بالتأديب، وينفض بهم ذلك الإهمال إلى التنقل في مراتع الشهوات الزائغة.

كل، هذه رأفة غير ممزوجة بحكمة؛ التنقل في مراتع الشهوات تتولد عنه نتائجُ وخيمةٌ، تثير بين الآباء والأبناء من النفرة والتباعد بمقدار ما كان بينهما من الحنان والمقاربة، وتصير بهم إلى أن تُضَرِّسهم أنياب الاضطهاد، وتدوسهم أقدام الامتهان.

لا نريد بكراهة هذه الرأفة المفرطة أن يَفْتَكَّ من الصبي سائرَ إرادته، ويسلب منه جميع عزائمه، كما يفعله الجاهلون بأساليب الإصلاح والتهذيب؛ إن ذلك مما يحول بينه وبين عزة النفس، وما يتبعها من قوة الجأش، وأصالة الرأي، والإقدام على إرسال كلمة الحق عندما يقتضيها المقام؛ فيكون ألعوبة بيد معاشريه كالكرة المطروحة يتلقفونه رجلاً رجلاً، أو آلة يستعملونها فيما يشتهون؛ التربية النافعة ما كانت أثراً لمحبةٍ يطفئ البأسُ شيئاً من حرارتها، وصرامةٍ تلطف الشفقة نبذة من شدتها، وهي التي يستوجب بها الولدان دعاء الولد بقوله: ﴿رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ الإسراء: ٢٤.

ولما كان الابن مثالاً لمن جعل الله عليه كفيلاً، ومظهراً لآثار تعود على وليه بِكِفْل من أجزائها ـ فما بالنا لا نرسم في طباع أبنائنا أشكالاً محمودة، تمثل لمن بعدنا هيئةَ ما كان عليه سلفهم الصالح عِوَضَ أن ننقشها لهم في عَمَدٍ ممددة، أو خشب مسندة.

وخاتمة المقال، أن تعميم التربية بين طبقات الأمة، شيء واجب، لا ينتظم لها العيش الناعم بدونه، ولا تشرق صحائفُ تاريخِها بسواه.



التربية الأخلاقية وأثرها في ارتقاء الأمم[1]

للكاتب علي فكري ـ أمين دار الكتب المصرية

التربية الأخلاقية هي المقياس الصادق الذي تقاس به خطواتُ الشعوب، ونهضات الأمم.

بل هي الأساس المتين الذي تبنى عليه عظمة الأمم وارتقاؤها؛ فما ارتقت أمة في العالم القديم أو الحديث إلا وكان سببُ ذلك سموَّ أخلاقِ أفرادها، وقناعتَهم، واقتصادَهم، وحبَّهم الناسَ محبتَهم أنفسَهم، وإخلاصَهم في العمل لوطنهم، وانتشار روح النشاط والإقدام بينهم، وبعدهم من الفخر والرياء، والدسائس والفتن، ونفورهم من الانقسام والمخاصمة.

قال لوثر: ليست سعادة الدول بوفرة إيرادها، ولا بقوة حصونها، ولا بجمال مبانيها، وإنما سعادتها بكثرة المهذبين من أبنائها، وعلى مقدار الرجال ذوي التربية والأخلاق فيها.

وما انحطت أمة، ولا أفل نجم مجدها، ولا زال سلطانها إلا بزوال تلك الأخلاق الفاضلة من نفوس أبنائها، وانغماسهم في الشر والفساد.

والأدلة على ذلك كثيرة؛ انظر إلى الدولة الرومانية القديمة التي أخضعت العالم القديم، وامتدت شوكتها إلى غالب ممالكه ـ ترَ أن الأخلاق الكريمة كانت سبب رفعتها، وأن الترف والفساد كانا سبب انحطاطها.

---

(١) مجلة جمعية مكارم الأخلاق، العدد الأول ص١٠ـ ١٤، رجب ١٣٤٣هـ.

وألقِ معي نظرة أخرى إلى الدولة العربية بعد ظهور الإسلام دين العلم والأخلاق الحسنة ببلاد المشرق وبلاد الأندلس - ترَ أنها قد بلغت بين الأمم أسمى ما تصبو إليه نفوس الشعوب الناهضة حتى كانت جنةَ هذا العالم وزينةَ الحياة الدنيا، وأضحت واسطةَ عقدِ حضارة العالم، والغرةَ المشرقةَ في جبين الأيام، وكعبةَ طلاب العلوم والآداب؛ فامتد سلطانها، وعلا كعبها، وزها نجمها، وكمل بدرها يوم كانت تنشر ألوية الحضارة على جميع العالم، وتتلو عليه آيات بينات من الهدى والفرقان.

لم تزل الأمة العربية كذلك حتى دبَّ دبيب الفساد الأخلاقي في نفوس أهلها، وتدلَّى إلى الحضيض مترفوها؛ فحقَّت عليهم كلمة ربك ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (١٦)﴾ الإسراء.

حقًّا إن أمراض النفوس لأشدُّ فتكاً بالشعوب، وأسرع إبادة للأمم من أمراض الأجسام، ومن نظر في تاريخ الأمة المصرية قديماً رأى أن الفضل في تقدمها وعظمتها راجع إلى الأخلاق الكريمة التي كان عليها سلفها.

كتب مسيو بورجيه الذي كان يرافق العالم الأثري شمبليون في سنة ١٨٢٢ بمصر فيما كتب هذه الكلمة:

«المصريون كلهم علماء، وهم على ما هم عليه من النقص الخلقي ما وصلت الأمة إلى المجد الحقيقي الذي يرفعها ويعلي شأنها، ولا تصل إلى الاستقلال الحقيقي الذي يرجوه لها كلُّ محب مخلص لبلاده؛ فنحن وإن كنا في حاجة إلى

العلم عشرين مرة فحاجتنا إلى الأخلاق عشرين ألف مرة».

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁: «تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم».

وقال العالم الأخلاقي صمويل سميلز: «إن العلم يجب اقترانه بالخير فربَّ عالم أقل من جاهل أمانة، وفضيلة، وأخلاقاً، وعملاً بالواجب».

وقال جورج هربرت الشاعر الإنجليزي: «الحياة الصالحة خير من كثير من العلم والمعرفة».

ألا ترى بعد هذا أن العلم لا يغني عن الأخلاق.

ومن تأمل بعين الحق المجردة عن الهوى في مواضع الضعف في الأمة المصرية وجدها كلها أخلاقية، ورأى في أخلاقنا الفردية والاجتماعية دلائل النقص الخلقي تكاد تكون ملموسة باليد.

لو أردنا أن نشرح النقائص الأخلاقية المنتشرة في الأمة لضاق بنا المقام على أن في سردها إثارةً للنفوس، وتهيُّجاً للخواطر؛ فأمسكنا عن ذكرها؛ إشفاقاً على القارئ، ومحافظة على مكارم الأخلاق.

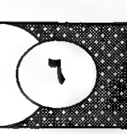
فإذا أردتم صلاحاً وفلاحاً لأمتنا المصرية العزيزة فاجتهدوا في تربية أخلاق أبنائها، وتخليصها من براثن الفساد؛ وذلك بنشر الدين بجانب معاهد التعليم، فالدين هو روح الآداب، ومنبع الأخلاق الصحيحة المنزهة عن الهوى والمطامع الشخصية، الدين هو الأساس المتين للتربية الأخلاقية في الشرق قاطبة؛ فالشرقيون يخالفون الغربيين في تغلب عواطفهم على عقولهم، والدين موطنه

العواطف، ومركزه الفؤاد؛ فلذلك كان الشرق من قديم الزمان مهبط الأديان، وموطن الأنبياء والمرسلين.

ولئن جاز لبعض الأمم الغربية تجريد التربية الخلقية من روح الدين فلا يجوز لأمة شرقية كالأمة المصرية أن تسير على هذا المنهج؛ لأن الوازع الديني، والرجوع إلى خالق قادر خالق الكائنات واقف على السرائر المدفونة في أعماق القلوب أقوى عامل في إصلاح الأخلاق، بل هو الأساس الوحيد لنجاح الأفراد، وعظمة الأمة.

لهذا الغرض قامت جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية، فهدرت شقشقتها حيناً ثم قرت، والآن قد عادت لشنشنتها.

نسأل الله أن يأخذ بيدها، وأن يوفقها إلى إصلاح المعوج من أخلاق الشبيبة المصرية، وأن يهديها إلى طريق الخير والفلاح آمين.



صحة التفكير[1] للعلامة الشيخ محب الدين الخطيب

لو كانت شكوى المصلحين مقصورة على قلة ما لدينا من وسائط التعليم والتهذيب، ووسائل تنوير القلوب والعقول بهما ـ لهان الأمر كثيراً؛ لأن ما نراه من قلة هذه الوسائل والوسائط سيتبدل يوماً بعد يوم بحال أرقى من التي نحن فيها، إلا أن هنالك مصيبة أدعى إلى الشكوى، وأجدر بالعناية والاهتمام، وهي تباين أثر هذه الوسائط في العقول؛ فإذا ألقى بعض الأفاضل محاضرة أخلاقية في بعض الأندية، أو إذا كتب أديب مقالة إصلاحية في إحدى الصحف ـ تجد سامعي المحاضرة وقارئي المقالة متفاوتين في الانتباه إلى مراميها، وفهم المعاني الواردة فيهما، وربما تلقاها بعضهم بوجه، وتلقاها آخرون بضده.

وليس هذا المرض منحصراً في الأمور العلمية، كالمحاضرات والمقالات، بل إن الرجل يسمع بأذنه الخبر البسيط، أو يرى بعينه الحادث التافه، ثم يذهب في تأويلهما وروايتهما مذاهب بعيدة عن الحقيقة؛ حتى أصبح هذا الأمر من مشوهات الرأي العام الذي بدأ يتكون عندنا بشكل صريح.

قد يظن بعض القراء أن صحة التفكير والحكم، وجودة التصور والتصديق، منوطان بموهبة الذكاء. وليس الأمر كذلك، بل هما منوطان بتربية النفس من الصغر على حب الخير والحق، والتجرد عن الشرور والأهواء، والاهتمام بإدراك الأمور من كل وجوهها، وافتداء الصلاح بكل منفعة ذاتية، وربح غير

---

(١) الحديقة ٦/ ٢٠٨ ـ ٢١٤، عام ١٣٤٩هـ

مشروع.

ليس خطأ الناس في التصور والتصديق ناشئاً في كل الأحوال عن أسباب طبيعية كالنقص في المدارك، بل إنهم إذا صوبوا أنظارهم إلى حادثة من الحوادث يحاذرون تمثيلها في أذهانهم بشكلها الحقيقي، ويريدون أن يروها بالصورة التي توافق هوىً في نفوسهم دعت إلى وجوده المنافع الزائلة، أو العقائد الباطلة، أو اللوامع الآفلة.

يا لهذه التربية ما أشد تأثيرها على كل شيء فينا: بها نكون رجالاً صالحين في المجتمع، أو لصوصاً وقَتَلة ومتشردين، وبها نكون كرام النفوس محبين للإحسان، أو لئاماً وبخلاء ومفسدين.

وبها نكون صحيحي الأجسام نشيطين مرنين، أو ضعافاً وكسولين ومتقاعسين.

حتى أفكارنا وأحكامنا ـأيضاًـ قد رفعا للتربية راية الخضوع والتسليم، فإذا تربى الفكر من الصغر على صحة التفكير نشأ صاحبه جيد التصور، سديد الحكم، محبّاً للحق سواء كان له أوعليه، وإذا كانت الثانية بات الرجل وليس فيه من الرجولية غير اسمها.

ولا غَرْوَ؛ فإن التصور والتصديق شطرا المنطق، ولا يزال الإنسان حيواناً حتى يتمكن من إزالة سلطان الهوى عن نفسه الناطقة الممتازة بحسن التصور، وصحة التصديق.

إن أقدس عمل يصنعه الإنسان في حياته الدنيا هو أن يدرك الحق إدراكاً صحيحاً، وأن يصرح به بلا مواربة ولا خوف، وإن الرجل الذي يستطيع أن

يتغلب على كل ما يعترض صحة التفكير من أهواء وخرافات ومنافع ومؤثرات، وأن يكون بعد ذلك مدركاً للحق لا تأخذه في التصريح به لومة لائم ولا مقاومة مقاوم، ثم يضيف إلى هذه المنزلة العالية منزلة تربية هذا الخلق نفوس الناشئة- فلا شك أن مثل هذا الرجل الشجاع مكتوب في عداد أولياء الحق الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قلت: إن الهوى الناشئ عن المنافع الزائلة والعقائد الباطلة يمنع صحة التفكير، ومن مصائبنا أن بعض الذين سمعوا بأن التعصب لبعض العقائد ينافي الحرية الفكرية تحولوا من التعصب لها إلى التعصب عليها، فبرهنوا على عجز الذين ربوهم عن أن يجعلوهم صحيحي التفكير أولاً وآخراً.

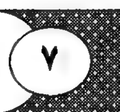
وكان يجب أن يعتادوا من الصغر على دقة النظر، وأن يمارسوا محاكمة الأمور بالموازنة بين براهينها، والتنقيب عن دواعيها وأسبابها، متجردين عن التعصب لها أوعليها؛ وبذلك تنمو فيهم قوة الاجتهاد والاكتشاف، وترسخ في عقولهم ملكة العدل والإنصاف.

من لي بمن يذكر أساتذة المدارس بما أخذوا على أنفسهم من الواجبات العظمى.

إننا لا نطلب منهم أن يعلموا أولادنا أشياء كثيرة : يكفي أولادنا من مسائل العلم ما يحتاجون إليه في هذه الحياة، أما نحن فقد كان أساتذتنا يعلموننا أشياء لم تلزم لنا حتى الآن، وفاتهم أن يعلمونا أموراً تلزم لكل إنسان.

صحة التفكير لازمة للموظف، والطبيب، والصانع، والسياسي، والتاجر،

وحارث الأرض، وإن طريقة تفكير الإنسان دليل على أخلاق الإنسان، وأخلاق الإنسان هي الإنسان نفسه؛ فهل لأساتذة مدارسنا أن يسهروا لياليهم في التنقيب عن الوسائل التي تزيد رجال مستقبلنا تقدماً في مواطن الرجولية، وارتفاعاً في مراقي الإنسانية؟.



٧ أول درس ألقيته[1] للأديب الأستاذ أحمد حسن الزيات

أبداً لا أنسى تلك الساعة الرهيبة العصيبة التي ألقيت فيه أول درس في أول فصل، كان ذلك منذ سبعة عشر عاماً، والسن حديثَة، والنفس غريرة، والنظر قصير، وكانت المدرسةُ ثانويةً أجنبيةً، تجمع أخلاطاً من الأجناس والأديان، وأنماطاً من الأخلاق والتربية، وكنت قد أدركت قسطاً من العلم النظري على الطريقة الأزهرية، وشدوت طرَفاً من التعليم الفني على الطريقة اللاتينية، إلا أن ما حصَّلت منهما كان لا يزال طافياً في ذهني، متحيراً في فكري، لا يطمئن إلى ثقة، ولا يستقر على تجربة، أضف ذلك إلى طبع حيي، ولسان من الخجل عيي، ووجهٍ للقاء الناس هيوب.

قضيت موهناً من الليل في إعداد الدرس، أراجع مادته، وأرسم خطته، وأسدد خطاه، ثم احتفلت لكلام أقابل به التلاميذ قبل التمهيد للدرس؛ وغدوت إلى المدرسة أقرَعُ باب الأمل المرجو، وأستطلع ضمير الغيب المحجَّب.

دق الجرس؛ فجاوبه قلبي بدقات عنيفة كادت تقطع نياطه، وتشق لفائفه، وقمت أجر رجلي وبجانبي مفتش الكلية جاء يُقَدِّمني إلى الطلبة.

دخلنا الفصل؛ فحيانا التلاميذ بالوقوف، وقال المفتش، فأطال القول، وأجزل الثناء، ثم خَرَج وبقيتُ!!

---

(١) نشرت في عدد يناير من السنة الأولى من مجلة التربية الحديثة ١٩٢٨م، وانظر كتاب: في أصول الأدب، لأحمد حسن الزيات ص١٢١-١٢٥.

أقسم لك أني أقول الحق، وإن كنت أجد بشاعة طعمه، ومرارة مذاقه على لساني؛ لقد نظرت إلى التلاميذ نظرةً حائرةً، ثم رجعت إلى نفسي أحاول إخراج ما فيها من الكلام المُهَيأ المحفوظ، فكأن ذاكرتي صحيفة بيضاء، وكأن لساني مُضْغَةٌ جامدة لا تحس.

السكون شاملٌ رهيبٌ، والأبصار شاخصة ما تكاد تَطْرُف، ووجوهُ الشباب ترتسم عليها ألوان مختلفة متعاقبة من خطرات النفوس، ونزوات الرؤوس، وأنا واقف منهم موقف المحكوم عليه، أعالج في نفسي الخَوَرَ والحَصَر، وأجهد في لم ما تَشَعَّثَ من ذهني، وتبدد من قواي، حتى هداني الله إلى طريق الدرس، فاعتسفته اعتسافاً دون مقدمةٍ ولا تمهيدٍ ولا عَرْض!!

أتريد أن تُعْفيَني يا صديقي من وصف هذا الدرس؛ إبقاءً عليَّ وصوناً لسر المهنة؟

ولكن لماذا نتدافن الأسرار، ونتكاتم العيوب، ما دامت هذه المجلة خاصةً بنا، مكتوبةً منّا ولنا؟

إن في الدلالة على أوعار الطريق ومضايقها ومزالقها تحذيراً للسالك البادئ، وتبصرة للناشئ الغَرير.

بدأت الدرس بصوت خافض، وطرف خاشع، ولسان مبلبل، وسرت فيه وأنا واقف لا أدنو من السبورة؛ مخافة أن أحرك سكون الفصل، ولا ألمس الطباشير، خَشَاةَ أن أسيء الكتابة!!

كان من المعقول أن يعاودني الهدوء، ويراجعني الثبات بعد زوال دهشة

الدخول ورَبْكة البَدْء، لو كنت واثقاً من نفسي، متمكناً من درسي.

ولكنَّ نظامَ الموضوع كان قد انقطع؛ فتبعثرت حَبَّاته، وتعثَّرت خطواتُه، ورُحْتُ أسرُد ما تذكرته منه، وأنا أشعر بكلماتي تُحتَضَرُ على شفتي، وبِريقي يجمد في فمي، وبِعَرَقي يتصبَّب على جبيني، حتى فَرَغْتُ، ثم جلست أبلع ما بقي من ريقي، ونظرت فإذا الساعة لم يَمْضِ نصفُها، وإذا التلاميذ يتلاحظون ويتهامسون وعلى كل شفة بسمة خبيثة لولا تَعَوُّدُ النظامِ، وقوةُ التهذيب لعادت قهقةً صاخبة!!

ماذا أقول بعد أن نفد القول؟ وبماذا أملأ الفراغ الباقي من الوقت؟ وكيف أؤخر انفجار هذه الضحكات المكظومة؟

أسئلة كانت تضطرب في خاطري القَلِق؛ فلا أجد لها جواباً غير الحيرة!! حتى تطوع تلميذ جريء؛ لإنقاذ الموقف فقال:

«إحك لنا حكاية يا أفندي بأى[1]!».

ولم تكد شفتاي تنفرجان عن مشروع الرد حتى ابتدرني آخر: «لأَّ يا أفندي، اتكلم لنا شَوَيَّة إنشا شفهي».

وآخر: «حضرتك حتدِّينا على طول؟».

وآخر: «اسم حضرتك إيه يا أفندي، والله إنت راجل طيب!!».

وآخر: «فلان صوته جميل يا أفندي، خليه يغني شويَّة».

---

(١) بأى: هي بلهجة إخواننا المصريين العامية بمعنى: إذن، أو نحوها (م).

فقطعت سيل هذه الأسئلة المتجنية الساخرة بهذه الجملة الحيية المتواضعة: على كل حال كاد الوقت ينتهي؛ فلا يتسع لشيء من هذا.

ولكن صوتاً انبعث من أقصى الحجرة يقول: «أوه ! دا لسه ساعة وربع! حصة العربي ساعتين كل يوم !!»

ساعة وربع؟؟ نعم ساعة وربع! أقضيها على هذه الحال الأليمة كما شاء نظام (الفرير) أو كما قضى الجدُّ العاثر، وإذن لا مناص من انفجار البركان ووقوع الكارثة.

كأنك تريدني على أن أسوق إليك بقيةَ القصة!!

حنانيك، ولا تكلفني هذه الخُطة، واعتمد على نفسك وحَدْسِك في التخبر والاستنتاج!

لقد انحل النظام؛ فتشعَّث الأمر وانتشر؛ وأذكر أني حاولت الكلام مراراً، فلم أسمع صوتي من اللغط؛ فجعلت قيادي في يد أولادي، ثم سَكَتُّ حتى نطق الجرس.

خرجت من الفصل أَمِيدُ من الهمِّ، وأجرُّ ذيلَ الفشلِ السابغ الضافي، وفي نفسي أن أتركَ التعليمَ وهو حديثُ صباي، ومنتجع هواي إلى عمل آخر يصلح لي وأصلح له..!

ولكني عُدْتُ إلى الفصل، ومضيت في التعليم، وكنت بعد شهرين اثنين مدرسَ الفصلِ الأخير، وأستاذ الكلية الأول!!

فما الذي جعل من اليأس أملاً، ومن الفشل فوزاً، ومن الضعف قوة؟

اسمح لي أن أكون صريحاً فيما كان لي، كما كنت صريحاً فيما كان عليَّ.

لقد التمست الوِصْلَةَ إلى النجاح في أسباب خمسةٍ كلها معلوم بالضرورة مؤيدٌ بالطبع، ولكن العلمَ غيرُ العمل، والرأي خلاف العزيمة، والتجربةَ وجودُ الفكرة وواقعُ الحقيقة:

١ـ **مواصلة الدرس وإدمان النظر:** فلم أترك كتاباً في المواد التي أدرِّسها حتى تقصَّيْتُه، أو أَلْمَمْتُ به، واستفدت منه، وكان جدوى ذلك عليَّ وثوقَ الطلبة بما أقول، وظهورَ التجديد فيما أعمل، وتصريفَ الدرس وتنويعه على ما أحب.

ولن تجد أشفعَ للمدرس من سعة اطلاعه، وغزارة مادته.

٢ـ **إعداد الدرس وأداؤه:** وكان يعنيني ـ على الأخص ـ ربطُه بالدروس السابقة، والسيرُ فيه مع الطلاب خطوةً خطوةً على الطريقة الاستنتاجية (inductive) ثم تلخيصه بطريق الأسئلة؛ فكان من حسن إعداده أن مَلأْتُ الوقت كله به، فلم يعد فيه فراغ لِعَبَثِ عابثٍ، ولا تَجَنِّي سفيهٍ، وجَرَرْتُ إليه أذهانَ الطلاب بالتشويق، والتطبيق، والسؤال؛ فلم يصبهم سأمٌ ولا ضِيْقٌ، وشغلتهم به عن أنفسهم وعني؛ فلم يفرغوا لاصطياد نكتةٍ؛ ولا لالتماس غَمِيزَة.

وليس أعون على حفظ نظام الفصل مِنْ مَلءِ الوقت بالمفيد الممتع، ولا أضمنُ لجودة شرح المعلم وحسن استماع التلميذ من فهم الموضوع.

٣ـ **مسايرة الترقي:** فلم أتشبَّث بالقديم، ولم أتعصَّب للكتاب، ولم أُعْنَ إلا بما له قيمةٌ عملية؛ فالموضوعات منتزعة من حياة التلميذ وحال المجتمع، والأمثلةُ مستنبطة من أساليب العصر ومواضعات أهله، والبحث حُرٌّ في حدود المنطق، يقوم على أساس التحليل والنقد والموازنة، وفي تشابه الفكرةِ والنزعةِ، والغايةُ

توثيقُ الصلةِ بين المعلم والمتعلم.

٤ـ **حسن الخلق:** ولعمري ما يؤتى المُعَلِّم إلا من إغفاله هذه الجهة؛ فالادعاءُ، والتظاهرُ، والكبرياءُ، والتفاخرُ، والبذاءُ، والتنادرُ، والكذبُ، والتحيزُ، والكسلُ، والتدليسُ ـ آفاتُ العلم، وبلايا المُعَلِّم.

وما أسر النفسَ الشابةَ الحرةَ كالخلق الكريم، ولا يَسَّر تعليمَها وتقويمَها كالقدوة الحسنة.

ناهيك بما يتبع ذلك من جمال الأُحْدُوثة، واستفاضة الذكر، وهما يزيدان في قَدْر المعلم واعتباره، ويغنيان التلاميذ الجُدُد عن اختباره.

٥ـ **قوة الحزم:** فكنت ألين في غير ضعف، وأشتد في غير عَسْف، وأسير بالطالبِ إلى الواجب عن طريق ضميره وحسه، لا عن طريق تأنيبه وحبسه، وأجعل رضاي عنه غايةَ ثوابِه، وسخطي عليه غايةَ عقابِه، وأَعِدُه الوَعْدَ فلا أَذْهَل عن تنجيزه، وأحكم عليه الحكم فلا أَنْكُل عن تنفيذه، وأستعين على فهم عقليته ودرس نفسيته بإنشائه، فأعامله بما يوائمه، وأعالجه بالدواء الذي يلائمه.

كل ذلك يسعده طبع غالب، ورغبة حافزة، ومِرَانَةٌ طويلة، وقدَر من الله جعلني أجد سعادتي وراحتي في الفصل وبين الطلاب أكثر مما أجدها في البيت وبين الأصحاب.

ولكن المعلمين ـ وا أسفاه ـ كما بدأهم الله يعودون! فليت شعري هل يكون الدرس الأخير في مبدإ مماتي، كما كان الدرس الأول في مبدإ حياتي؟

٨ حقوق المعلّمين الأحرار على الأمّة[1]
للشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي[2]

ونعني بالمعلّمين هذه الطائفة المجاهدة في سبيل تعليم أبناء الأمة لغتهم، وتربيتهم على عقائد وقواعد دينهم، وطَبْعِهم على قالب من آدابه وأخلاقه.

نعني هذه الطائفة الصابرة على مكاره الحياة كلها، المحرومة من الراحة والاطمئنان في جميع أوقاتها، فهي في الشتاء تشقى وتتعب، وفي الصيف تضْحَى وتَنْصَب، وفيما بين ذلك تكابد وتعاني، على ضيق من العيش، وفقدان للحافز من الرغبة والتنشيط؛ فلا مسكن مريح، ولا شمل مجموع، ولا مرتّبٌ كافٍ يسدّ الضرورة، ويقوّي الضعيف، ويخفّف الهم، ويصونُ الهمة عن التبذل.

هذه الطائفة هي عماد جمعية العلماء في أجلِّ وظائفها، وهي التربية والتعليم، وهي العَصَب المدبر لحياة هذه الحركة المباركة؛ فعليها ـ بحكم الأمانة والدين ـ واجبات تشرعها الجمعية بالنظام والقانون، وتؤكّدها بالدعوة والإرشاد، وتستعين على تحقيقها بالمراقبة والتفتيش، ولها حقوق تتقاسمها الجمعية والأمة أمراً وتنفيذاً؛ فهل قامت الجمعية والأمة متعاونتين بهذه الحقوق

---

(١) نشرت في العدد ١٤٩ من جريدة «البصائر»، ٢ أفريل سنة ١٩٥١، وانظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٣/٢٧٧ـ٢٨٠، وقد كتبها لمعلمي جمعية العلماء.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

على أكمل وجه؟

أما جمعية العلماء فإن واسطتها إلى الأمة هي هذه الجمعيات المحلية المشرفةُ على المدارس، القائمة مباشرةً بتصريف شؤونها المالية؛ وهذه الجمعيات هي المرجع الوحيد في ماديات المدارس، وهي الحاملة للحمل الثقيل فيها.

ولما كانت جمعية العلماء تبني كل أمورها على الواقع المشهود، وتُراعي الظروفَ وشدّتها ورخاءَها؛ لتضمن لهذه المدارس الدوامَ والبقاء كانت تتقدم إلى الجمعيات المحلية في باب المادّيات بما يحتمل الطاعة، وتتحمّله الطاقة؛ لأن من الحكمة اجتذابَ الجماهير بالترغيب والمسايرة، لا بالإثارة والسَّوْق العنيف؛ فهما من دواعي الانتكاس، والانتكاس أخطرُ ما يعرض للحركات في مراحلها الأولى؛ لذلك كانت تعتبر في مرتبات المعلّمين الحد الأدنى مما يقوم بالضروريات، وهي تعلم ما يقاسيه المعلم من آلام حياته، وتُشفق عليه، وترثي له.

ولكنها تعلم مع ذلك حالة الموارد المالية للمدارس، وأهمّها ما يؤخذ من آباء التلامذة مشاهرة، وأغلب الآباء فقراء.

ولو كان لمدارسنا مدد ثابتٌ من الأغنياء وحقّ الله في أموالهم لجعلناه بعض ما نبني عليه في التوسيع على المعلمين، وإزاحة بعض عللهم، ولكننا هزَزْنا هؤلاء الأغنياء بما يهتزّ له الكرام فلم تسقط منهم ثمرة، ورقينا لعاهة الشحّ فيهم باسم الله وباسم الدين والوطن، وناشدناهم الله في هذا الجيل المقبل أن يحلّ به ما حلّ بهم من جهل، يصحبه هوان، يصحبه شر مستطير ـ فلم ينزل عفريتُ بخلهم لِرُقْيَةٍ؛ وبقيت مواردُ المدارس ـ لغيبة الأغنياء عن ميدان البذل ـ محدودةً مقترة،

تتراجع ناضبة، حتى أصبحت لا تبلّ من جفاف، ولا تقوم بكفاف؛ وإذا لم يكن الغيثُ هامياً فلا ترجُ أن يكونَ النبت نامياً.

نوجّه بعضَ العتب إلى رجال جمعياتنا المحلية، ولا نبرئهم من تبعة التقصير، ونعيب فيهم خلةً كادت تكون غالبة عليهم، وهي أنهم يؤثرون المصالح الخاصة على المصلحة العامة عند التعارض.

ولو أنهم ـ سامحهم الله ـ وجّهوا بعضَ اهتمامهم إلى حالة المدارس المادية، وبعضَ تفكيرهم إلى ابتكار مواردَ أخرى للمال ـ لكان لعملهم أثرٌ يذكر في حلّ هذه الأزمة التي شغلنا التفكير فيها عن التفكير في توسيع دائرة الحركة وتكميل نقائصها؛ ولو أنهم كانوا أكثرَ جرأة مما هم عليه لما توقفوا عند كل فترة يأنسونها من الجمهور؛ فليعلموا ـ علمهم الله ـ أن كل تقصير يقع منهم في هذا الواجب فمصيبته تقع على المعلمين البائسين، وأننا لا نسمح بأن يكون تفريطهم على حساب هذه الطائفة المجاهدة، ولا نرضى أن تكون خاتمة أعمالهم فشلاً وخيبة، ولا أن يكونوا هم السبب أو بعضَ السبب فيما يصيب هذه النهضة العلمية من خمود أو تراجع.

إن الموانع لكثيرة، وإن العوائق عن الخير لوفيرة؛ وشرّها ما عاق عن العلم والدين، ووقف عثرةً في طريقهما، ولكنها عند الرجال مصاعب سهلة التذليل؛ لأنهم يعتبرونها عوارض تزول، وأحوالاً تتحول؛ فيكون فهمهم لها وتصورهم إياها على حقيقتها أكبر أعوانهم عليها؛ فيلقونها بالهمم النافذة، والتصميم الخارق، والصبر الثابت، حتى تنقشع غماؤها، وتسلم المقاصد الذاتية.

وإذا هاج البحر، وعصفَتْ عواصفه فالغرق عارض، والسلامة هي الأصل، وما على الربّان الحاذق المتأثّر بهذه الحقيقة إلا أن يعالجَ الشدّة بدوائها، فيعالج الفزع بالصبر، والعواصف بحسن التصريف لها، وإلحاح الأمواج بإلحاح العزيمة، فإذا هو ناجٍ سالمٌ محرزٌ لمهجته وسفينته.

ولكن هذا كله كلام لا يجلب المنام، ولا يغني عن الطعام، ولا يكسو العظام، ولا ينعل الأقدام.

والحقيقة التي تجب مواجهتها كفاحاً، هي أن الأزمة خانقة، وأسعار الضروريات والحاجيات كسعود الأقوياء كل يوم في ارتفاع، ووجه المستقبل يطلّ من خلل الأيام كالحاً باسراً ينذر بالسوأى وزيادة، وأصوات العمّال الكادحين، وأُجَراءُ المشاهرة والمياومة تصمّ الآذان بطلب الزيادة في الأجور؛ لأن الزيت ـ وهو الإدام ـ أصبح بقيمته شجًى في الحلوق، ولأن الثياب الساترة أصبحت بسبب الغلاء فاضحة، ولأن ورقة (الألف) بورك فيها فأصبحت (كالشين) في حساب الجُمَّل[1] في (الجزم الصغير) عند (اليقّاشين)[2]...

وهذه الطائفة المجاهدة الصابرة عندنا تتوقّع الموت، ولا ترفع الصوت، ولا مرجع لها ـ بعد الله ـ إلا جمعية العلماء التي حبّبت إليها التعليم، وزيّنته في قلوبها، ثم ساقتها إلى ميادينه، وجنّدتها في كتائبه؛ فإذا لم تبذلْ كل مجهود في

---

(١) الشين في ذلك الحساب يحسب بألف في اصطلاح المغاربة، ولكن ألفه كألف الفرق بعد واو الجماعة لا يساوي شيئاً.

(٢) اليقّاشين: الذين يكتبون التمائِم. واليَقْشَة: حِرْفَتُهم.

تخفيف البلاء وتهوين الغلاء عليهم بالزيادة في المرتبات - فإن العاقبة تكون وخيمة.

وإذا كنا لا نخشى أن يفرّوا من الزحفْ؛ ثقةً بهم، واعتماداً على متانة دينهم، وصدق وطنيّتهم، وركوناً إلى شهامتهم واعتزازاً بمهنتهم - فإننا نخشى ما هو أسوأ عاقبةً من ذلك؛ نخشى أن يعلموا أبناءنا بلا قلوب ولا عقول في وقت نحن أحوج ما نكون إلى صلة القلوب بالقلوب، وتأثر العقول بالعقول، واستقاء الأرواح من الأرواح؛ فإذا حصل ذلك جاء التعليم وفيه أثرُ الجوع والهزال، وعليه سيما الفقر والخصاصة، ويأتي هذا الجيل وعلى عقله من هذه الآثار ما على أجسام مواليد الحرب التي نشأتْ في فقر من المواد المغذية.

وإذا كنتم تسمعون عن الأمم الحية أنها توفّر أرزاقَ القضاة حتى لا تلجئهم مطالبُ الحياة إلى الرشوة فكذلك يجب توفير أرزاق المعلّمين حتى لا تطمحَ نفوسهم إلى هجر التعليم.

أما والله لو استطعتُ لأعطيتُ المعلّم جمّاً، ثم لأوسعت العطاء ذمًّا، حتى تقوى فيه نزعة الكرامة وشرف العلم، والشعور بأن العلم كالعبادة، وكفاؤه الأجرُ من الله لا الأجرةُ من المخلوق، ولكن التمنّي تعلّق بالخيال...

هذا نذير من النذر الأولى لرجالنا القائمين على المدارس، والحاملين معنا للعبء المادي؛ فعليهم أن يقدُروا قدرَه، ويفكّروا في مغزاه، ويتعاونوا على إيجاد موارد جديدة؛ ليتوفّر لنا مالٌ نرفع به مرتبات المعلّمين، ونرفع به أقدار العلم والتعليم.

وإن هذه الأزمة إلى انفراج؛ فليثبتوا لها، وليكسروا حدّتها بالتدبير الذي يفل الحدّة، ويخفّف الشدة.

وإننا قد قرّرنا الزيادة في المرتبات، ولكننا تربّصنا حتى لم يبقَ مصطبر، وانتظرنا حتى يبلغهم هذا الخطاب السافر؛ فإذا تماروا بالنذير، فسنقنعهم بسوء الحال، ووخامة العقبى، وإن ظننا فيهم ـ على ذلك ـ لجميل...

٩ حقوق الجيل الناشئ علينا[1] للشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي

للجيل الآتي علينا حقوق أوّليه مؤكّدة، لا تبرأ ذممنا منها عند الله ولا تسقط شهادة التاريخ علينا بها، إلا إذا أدّيناها لهم كاملةً غير مبخوسة وملاك هذا الحقوق أن نعدّهم للحياة على غير الطريقة التي أعدّنا بها آباؤنا للحياة.

الأخلاق والآداب، والأفكار والإحساسات، والاتجاهات العامة، والمشخّصات هي الأمتعة التي يرثها جيل عن جيل، ومنها يتكوّن مزاجه صحة واعتلالاً؛ فماذا وَرِثْنا عن آبائنا؟ وماذا نورث أبناءنا منها؟

ليس من العقوق أن نقول: إن آباءنا لم يورثونا شيئاً نافعاً من هذه الأمتعة، **وليس من العقوق أن تقول**: إن أباك خلفك فقيراً إذا كان عاش فقيراً ومات فقيراً.

بل من الإنصاف لهم أن نقولَ: إنهم ورثونا هذه الصفقة الخاسرة التي هي رأس مالنا اليوم من أخلاق لاتزنُ جناحَ بعوضة، وآداب لا تستقيم عليها حياة، وأفكار بدائية لا تجول في المدار الواسع من الحياة، وعقول تقدّر فتخطئ، وتدبِّر فتبطئ، وإحساسات مذبذبة، واتجاهات خاطئة مدبّرة؛ وغير ذلك مما تركنا غرباءَ عن عصرنا وأهل عصرنا، وصيّر الحياةَ منا في غير دار إقامة؛ فهل يحسن بنا أن نورث بنينا هذا السقط من الأمتعة بعد شعورنا ويقيننا بعدم كفايتها للحياة؟

يعذر هذا الجيل الذي نحن منه بأنه استلم التركة العامة أدوات معطلةً،

(١) نشرت في العدد ١٤٥ من جريدة (البصائر) ٥ مارس ١٩٥١، انظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٣/٢٧٣ـ٢٧٦

وأسلحةً مفلولة، وأجهزة باليه من جيل انتهى به زمنه إلى درجة من الإفلاس المادّي والأدبي، صيّرته في غير زمنه.

ولكنه لا يعذر إذا سلّمها ـ كما هي ـ إلى الجيل الآتي، ويقترف جريمة غش لا تغفر إذا حمل أوزاره وأوزار أجيال قبله على الجيل الآتي، بعد أن كشف عررها، وتبين ضررها.

فتح جيلنا هذا عينه في ظلمات مضطرّبة، بعضها فوق بعض تتخللها بروق معشية، ورعود صاخَّة، ثم رجع بصره فإذا ذئاب تتخطف، وصوالجة تتلقّف، وطفيليات أنبتها الدهر في دمنته، ثم رجع البصر كرتين فإذا أمامه مسافاتٌ مما قطع السائرون؛ ثم طلب الحياة، فإذا سبلها وعرة، والصراط إليها أرقّ[1] من الشعرة. وما زال هذا الجيل يتعثر في أذيال الماضي، ويتخبط في ظلمائه، ويحمل من أثقاله ما يقعد به كلما رام النهوض وإن أثقل ما يعانيه من تلك الأوزار، اختلافُ الرأي حتى فيما تبينت طريقته، ولجاجُ الفكر حتى فيما ظهرت حقيقته.

حرام علينا أن نرضى للجيل الآتي بما لم نرض به لأنفسنا، وأن نجرّعهم هذا الحنظل الذي تجرّعناه، وأن نلوّث نفوسهم البريئة بهذه القاذورات، وأن نبتليهم بما ابتلانا به آباؤنا من أدواء التفرُّق المهلك، والأنانية الكاذبة، والغرور المدُلي، والتنكر للقريب، والخضوع للغريب.

---

(١) هكذا في الأصل ولعلها: أدق (م).

حرام علينا أن نقلدهم هذه الأسلحة المسمومة؛ فيتفانون كما تفانينا، ويذوق بعضهم بأسَ بعض، ويشقون جميعاً، ويسعد بشقائهم الغير.

حرام علينا أن نسلم إليهم شيئاً من هذه التركة التي يجب أن تنفقَ في جهاز الميت فتدفنَ معه، ويأمن الأحياء شرها، إذ لم ينالوا خيرها.

السبيل القويم الذي يؤدي إلى حفظ الجيل الجديد من هذه الشرور المتوارثة، وإلى توثيق عُرى الأخوة بين أفراده، وإلى توحيد أفكاره ومشاربه واتجاهاته، وإلى تصحيح فهمه للحياة، وتسديد نظرته إليها، وتشديد عزيمته في طلبها ـ هو المدرسة العربية التي تصقل الفكر والعقل واللسان، وتسيطر عليها، وتوجيهُ الجيل الناشئ إلى الإسلام والعرب، وإلى الشرق والروحانية؛ فعلى هذه المدرسة يتوقَّف جزء كبير من ذلك الواجب الثقيل، وعليها يتوقف حظ كبير مما نرجوه لهذا الجيل وبهذه المدرسة نستطيع أن نبرئ ذممنا من حقوق أبنائنا، وأن نكفر عن سيئات اجترحها أجيالنا الماضية.

لا نغالط أنفسنا، فنزعم لها أن هذه اليقظة البادية الآثار، المتفشية في الجيل القديم كافيةٌ في توجيه الجيل الجديد إلى الخير، وفي توحيد ميوله على الخير، أو نزعم لها أن هذا الحظ التافه الذي حصلنا عليه من التعليم الأجنبي يغنينا أو يعيننا في هذا الصدد، أو نزعم لها أن الحالة الحاضرة للمدرسة العربية توصل إلى هذه النتيجة المرغوبة.

فاليقظة موجودة، ولكنها لم تصل ـ بعدُ ـ إلى الصحو الصاحي، وما زالت تغالبها بقايا من النوم الثقيل الطويل؛ والتعليم الأجنبي ـ على تفاهته في الكيف

وقلته في الكم، وعلى اضطرارنا إليه وإقبالنا عليه ـ يسبقه جهل، وتقترن به آفات، وتعقبه مفاسد، وهو ـ على ذلك كله ـ يفتح عيناً؛ ليعمي عيناً، ومن بلغ إلى غايته منَّا أصبح بالطبيعة متنكراً لماضيه ودمه وقومه؛ لأن ذلك التعليم وجده فارغاً؛ فملأه بما يشاء هو، لا بما نشاء نحن.

وأما حالة المدرسة العربية الحاضرة فهي محل الشاهد.

ما هي الغاية من المدرسة العربية الحديثة؟

ما دُمنا من بناة هذه المدرسة، ومن أول الداعين إليها، والقائدين لحركتها، والواضعين لبرامجها، والمشرفين على كل دقيقة وجليلة فيها، والمعرّضين للبلاء في سبيلها ـ ففينا من الجرأة ما يدفعنا إلى الجواب عن هذا السؤال.

الغاية من هذه المدرسة هي تربية هذا الجيل وتعليمه.

وغاية الغايات من التربية هي توحيدُ النشء الجديد في أفكاره ومشاربه، وضبطُ نوازعه المضطربه، وتصحيح نظراته إلى الحياة، ونقله من ذلك المُضْطَرَب الفكري الضيق الذي وضعه فيه مجتمعه، إلى مضطرَب أوسع منه دائرة، وأرحب أفقاً، وأصح أساساً؛ فإذا تمَّ ذلك، وانتهى إلى مداه طمعنا أن تخرِّج لنا المدرسة جيلاً متلائمَ الأذواق، متَّحدَ المشارب، مضبوط النزعات، ينظر إلى الحياة ـ كما هي ـ نظرةً واحدة، ويسعى في طلبها بإرادة متحدة، يعمل لمصلحة الدين والوطن بقوة واحدة، في اتجاه واحد.

غاية التعليم هي تفقيهه في دينه ولغته، وتعريفه بنفسه بمعرفة تاريخه.

تلك الأصول التي جهلها آباؤه فَشَقُوا بجهلها، وأصبحوا غرباء في العالم،

مقطوعين عنه، لم يعرفوا أنفسهم؛ فلم يعرفهم أحد.

فهذه هي الغاية السامية التي في تحقيقها نجهد ونكدح، وللوصول إليها نعمل، وفي العمل لها نلقى الأذى، وفي الأذى فيها نلقى راحة الضمير واطمئنان النفس، وببلوغها ـ إن شاء الله ـ نكون قد أدَّينا الأمانة، وقضينا المناسك، وكفَّرنا عن جريمة التقصير، وفزنا بالعاقبة؛ فحمدنا السرى.

وبماذا يتم تمامُ هذه الغاية؟

لا يتم هذا على وجهه المثمر إلا بتوحيد منهاج التربية، وبرنامج التعليم، ولا يتم توحيد المنهاج والبرنامج إلا بتوحيد الإدارة، ولا يتم توحيد الإدارة إلا بتوحيد الإشراف العام، درجات متلازمة سبقتنا بها الأمم التي بنتْ حياتها على تجربة النافع والأخذ بالأنفع، فقطعت الأشواط البعيدة في الزمن القريب.

وهذه هي المعاني التي دعتنا إلى جمع المدارس العربية تحت إدارة واحدة، وإشراف واحد، وإلى حشر المعلمين تحت لواء واحد؛ لِعِلمنا أن توحيد الغايات لا يأتي إلا بتوحيد الوسائل.

يسوؤنا ـ والله ـ ويسوء الحق، أن تكون الحقيقة في هذه القضية أوضحَ من الشمس، وأن يكون رأينا فيها بعيداً من اللبس، ثم يتمارى بعض الناس فيها فيشاقُّوننا في الرأي والعمل، وتأبى بعض الهيئات إلا أن تنفرد بمدرسة أو بضع مدارس، ويأبى بعض أبنائنا الطلبة أن يكونوا إلا ملوكَ طوائف: إمارة بلا عمارة، وزعامة بلا دعامة، كل ذلك لدواعٍ من الجبن، أو بواعثَ من الحسد أو دوافعَ من الغ‍رور والأنانية، أو كل ذلك مضروباً بعضُه في بعضه، ومن ادَّعى

منهم خلافَ هذا فلا يصدقه الناس؛ لأن قاعدة السبر الأصولي لا تقتضي إلا هذا.

لو رزق الله إخواننا هؤلاء عقولاً تزن الأمور بعواقبها، وإخلاصاً يُذيب الحسد، ويذهب بالأنانية ـ لعلموا أن الخير كل الخير في الاجتماع، وأن القوة كل القوة في الاتحاد، وأن الخروج على الجماعة أهلكَ من قبلنا، وهم في نهاية القوة؛ فكيف لا يهلكنا ونحن في نهاية الضعف؟ وأن الثمرات التي نرجوها من المدرسة للجيل الجديد لا تأتي مع هذا التفرُّق والتشتيت، وأن من يريد الإصلاح فليدخل فيما دخل فيه الناس، وليعالج ـ مخلصاً ـ من الداخل، أما محاولته للإصلاح وهو خارج فليست إلا هدماً وتخريباً؛ وأن الجيل الذي تخرجه هذه المدارس المتغايرة المتنافرة لا يأتي إلا متغايراً متنافراً، لا يزيد شيئاً عن خرِّيجي الزوايا في العهد القديم، لا يجمعهم من الخلال إلا أبلغها في تفريقهم وهو تعصُّب كل تلميذ لزاويته، والحلفُ برأس شيخها؛ وبئس الجيل جيل يكون هذا مبلغه من التربية والعلم، وبئس المربون نحن إن رضينا لهم هذه المنزلة.

ثالثاً: مقالات في الأخلاق والمروءات والسلوك

١٠ـ **ثبات الأخلاق**: للأديب مصطفى صادق الرافعي

١١ـ **سجايا العرب في التراث الإسلامي**: للعلامة محب الدين الخطيب

١٢ـ **الوفاء في العربي**: للأستاذ محمد الطيب النجار

١٣ـ **التضحية**: للأستاذ أحمد أمين

١٤ـ **الحياء**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

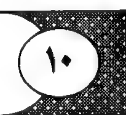
١٥ـ **صدق اللهجة**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

١٦ـ **من أخلاقنا**: للشيخ علي الطنطاوي

١٧ـ **إشاعة السوء وموقف الإسلام منها**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

١٨ـ **البخيل**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

١٩ـ **الآداب العامة**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي



ثبات الأخلاق[١] للأديب مصطفى صادق الرافعي[٢]

لو أنني سُئلتُ أن أُجمل فلسفةَ الدينِ الإسلامي كلَّها في لفظين، لقلُت: إنها ثباتُ الأخلاق، ولو سُئلَ أكبرُ فلاسفةِ الدنيا أن يُوجزَ علاجَ الإنسانية كلّه في حرفين، لما زاد على القول: إنه ثبات الأخلاق، ولو اجتمع كلُّ علماء أوربا ليدرسوا المدنية الأوربية ويحصُرُوا ما يُعْوزُها في كلمتين لقالوا: ثباتُ الأخلاق.

فليس ينتظر العالمُ أنبياءَ ولا فلاسفةً ولا مصلحين ولا علماء يُبدعون له بِدْعاً جديداً، وإنما هو يترقّب من يستطيع أن يفسِّر له الإسلام هذا التفسير، ويُثبتُ للدنيا أنَّ كلَّ العبادات الإسلامية هي وسائلُ عمليَّةٌ تمنع الأخلاقَ الإنسانية أن تتبدَّلَ في الحيِّ، فيخلعَ، منها ويلبس، إذا تبدَّلتْ أحوالُ الحياة فصعِدتْ بإنسانها أو نزلت، وأن الإسلام يأبى على كلِّ مسلم أن يكون إنسانَ حالتِه التي هو فيها من الثروة أو العلوم، ومن الارتفاع أو الضَّعة، ومن خمولِ المنزلة أو نباهتِها، ويوجبُ على كلِ مسلم أن يكون إنسانَ الدرجة التي انتهى إليها الكون في سموِّه وكماله، وفي تقلُّبه على منازله بعد أن صُفِّيَ في شريعةٍ بعد شريعة، وتجربة بعد تجربة، وعلم بعد علم.

انتهت المدنيَّةُ إلى تبدُّل الأخلاق بتبدُّلِ أحوال الحياة، فمن كان تقيّاً على الفقر والإملاق وحَرَمه الإعسارُ فنونَ اللذة، ثم أيسرَ من بعدُ ـ جَاْزَ لَهُ أن يكونَ فاجراً

---

(١) وحي القلم ٢/٧٣.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

على الغِنى وأن يتسمَّحَ لفجوره على مدِّ ما يتطوَّحُ به المال، وإن أصبح في كلِّ دينار من ماله شقاءُ نفسٍ، إنسانيةٍ، أو فسادُها.

ومن وُلِدَ في بطن كوخ، أو على ظهر الطريق وجبَ أن يبقى أرضاً إنسانية، كأن الله -سبحانه- لم يَبْنِ من عظامه ولحمِه وأعصابه إلا خَرِبةً آدميةً من غير هندسةٍ ولا نظام ولا فن، ثم يقابله مَن وُلِدَ في القصر أو شِبهِ القصر فله حكم آخر، كأن الله - سبحانه - قد ركَّبَ من عظمه ودمه وتكوينه آيةً هندسيةً، وأعجوبةَ فنٍّ، وطُرْفةَ تدبير، وشيئاً مع شيء، وطبقةً على طبقة.

ولكن الإسلامَ يقرر ثباتَ الخُلق، ويُوجبه، ويُنشئ النفسَ عليه، ويجعله في حِياطة المجتمع وحراسته؛ لأنَّ هنالك حدوداً في الإنسانية تتميز بحدود في الحياة، ولابد من الضبط في هذه وهذه، حتى لا يكونَ وضْعٌ إلا وراءَه تقدير، ولا تقديرٌ إلا معه حكمة، ولا حكمةٌ إلا فيها مصلحة، وحتى لا تعلوَ الحياةُ ولا تنزلَ إلا بمثل ما ترى من كفَّتيْ ميزان شدَّتا في عَلاَقَة تجمعهما وتحرِّكهما معاً؛ فهي بذاتها هي التي تنزلُ بالمنازل[1] لتدلَّ عليه، وتَشِيْلُ بالعالي لتبين عنه؛ فالإسلامُ من المدنية هو مدنية هذه المدنية.

إنها لن تتغيَّر مادةُ العظمِ واللحمِ والدمِ في الإنسان، فهي ثابتةٌ مقدَّرةٌ عليه، ولن تتبدَّلَ السُّننُ الإلهيةُ التي تُوجدها وتُفنيها؛ فهي مُصرِّفة لها قاضيةٌ عليها، وبين عمل هذه المادة وعملِ قانونِها فيها تكونُ أسرارُ التكوين، وفي هذه الأسرارِ تجد تاريخَ الإنسانية كلَّه سابحاً في الدم.

---

(١) لعلها: بالنازل (م).

هي الغرائز تعمل في الإنسانية عملَها الإلهي، وهي محدَّدةٌ محكمة على ما يكونُ من تعاديها واختلافِ بينها، وكأنها خُلقتْ بمجموعها لمجموعها، ومن ثَمَّ يكون الخُلق الصحيح في معناه قانوناً إلهيّاً على قوَّةٍ كقوَّةِ الكون وضبطٍ كضبطه.

وبهذه القوة وهذا الضبط يستطيع الخُلق أن يحوِّلَ المادة التي تعارضه إذا هو اشتدَّ وصلُب، ولكنَّه يتحوَّلُ معها إذا هو لانَ أو ضعُفَ، فهو قدَرٌ إلا أنه في طاعتك؛ إذ هو قوَّةُ الفَصْل بين إنسانيَّتِك وحيوانيتك، كما أنَّه قوَّةُ المزج بينهما، كما أنه قوة التعديل فيهما، وقد سُوِّغَ القُدرةَ على هذه الأحوالِ جميعاً، ولولا أنَّه بهذه المثابة لعاشَ الإنسانُ طولَ التاريخ قبل التاريخ؛ إذ لن يكونَ له حينئذ كونٌ تؤرِّخُ فضائلُه، أو رذائلُه بمدح أو ذم.

فلا عبرة بمظهر الحياة في الفرد؛ إذ الفردُ مقيَّدٌ في ذاتِ نفسه بمجموع هو للمجموع وليس له وحده؛ فإنَّك ترى الغرائزَ دائبةً في إيجاد هذا الفرد لنوعه بسُنَنٍ من أعمالها، ودائبةً كذلك في إهلاكه في النوع نفسه بسننٍ أخرى، فليس قانونُ الفرد إلا أمراً عارضاً كما ترى، وبهذا يمكن أن يتحولَ الفردُ على أسباب مختلفة، ثم تبقى الأخلاقُ التي بينه وبين المجموع ثابتةً على صورتها.

فالأخلاق على أنها في الأفراد هي في حقيقتها حكمُ المجتمع على أفراده، فقِوامها بالاعتبار الاجتماعي لا غير.

وحينَ يقعُ الفسادُ في المُجْمَعِ عليه من آداب الناس، ويلْتوي ما كان مستقيماً، وتشْتَبِهُ العاليةُ والسافلةُ، وتُطَّرحُ المبالاةُ بالضمير الاجتماعي، ويقومُ وزنُ الحكم في اجتماعهم على القبيح والمنكر، وتجري العبْرة فيما يعتبرونه، بالرذائل

والمحرمات، ولا يُعجبُ الناسَ إلا ما يُفسدهم، ويقع ذلك منهم بموقع القانون، ويَحِلُّ في محل العادة ـ فهناك لا مِساكَ للخُلُق السليم على الفرد، ولابد من تحوُّلِ الفرد في حقيقته؛ إذ كان لا يجيء أبداً إلا مُتصدِّعاً في كل مظاهره الاجتماعية، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو مثلوماً، وكأنه منتقلٌ من عالم إلى عالم ثانٍ بغير نواميس الأول.

وما شذَّ من هذه القاعدة إلا الأنبياءُ، وأفرادٌ من الحكماء، فأما أولئك فهم قوةُ التحويل في تاريخ الإنسانية، لا يُبعثُ أحدهم إلا ليهيجَ به الهيْجُ في التاريخ، ويتطرَّقُ به الناس إلى سُبُل جديدة كأنما تطردهم إليها العواصفُ والزلازلُ والبراكينُ، لا شريعتُه ومبادئُه وآدابُه.

وأما الحكماء الناضجون فهم دائماً في هذه الإنسانية أمكنةٌ بشريةٌ مُحصَّنة لحفظ كنوزها، وإحرازها في أنفسهم، فلهم في ذاتِ أنفسهم عصمةٌ ومَنَعَة كالجبال في ذات الأرض.

الأخلاقُ في رأيي هي الطريقةُ لتنظيم الشخصية الفردةِ على مقتضى الواجبات العامة، فالإصلاح فيها إنما يكونُ من عمل هذه الواجبات، أي من ناحية المجتمع والقائمين على حكمه، وعندي أن للشعبِ ظاهراً وباطناً، فباطنُه هو الدينُ الذي يحكم الفرد، وظاهره هو القانون الذي يحكمُ الجميع، ولن يصلُحَ للباطن المتصل بالغيب إلا ذلك الحكمُ الدينيُّ المتصلُ بالغيب مثلَه.

ومن هنا تتبيَّن مواضعُ الاحتلال[1] في المدنية الأوربية الجديدة، فهي في ظاهر

(١) لعلها: الاختلال (م).

الشعب دون باطنه، والفرد فاسدٌ بها في ذاتِ نفسه إذا هو تحلَّل من الدين، ولكنَّه مع ذلك يبدو صالحاً منتظماً في ظاهره الاجتماعي بالقوانين وبالآداب العامة التي تفرضها القوانين، فلا يبرحُ هازئاً من الأخلاق ساخراً بها؛ لأنها غير ثابتة فيه، ثم لا تكون عنده أخلاقاً يعتدُّ بها إلا إذا درَّتْ بها منافعه، وإلا فهي ضارَّة إذا كانت منها مضرَّة، وهي مؤلمة إذا حالت دون اللذات، ولا ينفكُّ هذا الفرد يتحول؛ لأنه مطلقٌ في باطنه غيرُ مقيد إلا بأهوائه ونزعاته، وكلمتا الفضيلة والرذيلة معدومتان في لغة الأهواء والنزعات؛ إذ الغايةُ المتاعُ واللذةُ والنجاحُ، وليكن السبب ما هو كائن.

وبهذا فلن تقومَ القوانين في أوربا إذا فَنِيَ المؤمنون بالأديان فيها أو كاثرهم الملحدون، وهم اليومَ يُبصرون بأعينهم ما فعلت عقليةُ الحرب العظمى في طوائفَ منهم قد خَرِبتْ أنفسهم من إيمانهم؛ فتحولوا ذلك التحول الذي أومأنا إليه، فإذا أعصابهم بعد الحرب ما تزال محارِبةً مقاتِلة ترمي في كل شيء بروح الدم والأشلاء والقبور والتَّعفن والبِلى، وانتهت الحربُ بين أمم وأمم، ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاق.

وقديماً حارب المسلمون، وفتحوا العالم، ودوَّخوا الأمم، فأثبتوا في كل أرضٍ هديَ دينهم، وقوةَ أخلاقهم الثابتة، وكان من وراء أنفسهم في الحرب ما هو من ورائها في السلم، وذلك بثبات باطنهم الذي لا يتحول، ولا تستخفُّه الحياةُ بِنَزَقِها، ولا تسفَّهه المدنيَّات؛ فتحمله على الطيش.

ولو كانوا هم أهلَ هذه الحرب الأخيرة بكل ما قذفت به الدنيا، لبقيتْ لهم

العقلية المؤمنة القوية؛ لأن كل مسلم فإنما هو وعقليته في سلطان باطنه الثابت القارِّ على حدودٍ بيِّنةٍ محصَّلةٍ مقسومةٍ، تحوطها وتُمسكها أعمال الإيمان التي أحكمها الإسلامُ أشدَّ إحكام بفرضها على النفوس منوَّعةً مكرَّرة: كالصلاة والصوم والزكاة؛ ليمنعَ بها تغيراً ويُحدِثَ بها تغيراً آخر، ويجعلَها كالحارسة للإرادة ما تزال تمر بها، وتتعهدها بين الساعة والساعة[1].

إنما الظاهر والباطنُ كالموج والساحل، فإذا جُنَّ الموج فلن يضِيْرُه ما بقي الساحلُ ركيناً هادئاً مشدوداً بأعضاده في طبقات الأرض، أما إذا ماجَ الساحل فذلك أسلوب آخرُ غير أسلوب البحار والأعاصير، ولا جرمَ ألا يكونَ إلا خسْفاً بالأرض والماء وما يتصل بهما.

في الكون أصل لا يتغير ولا يتبدل، هو قانون ضبط القوة، وتصريفها، وتوجيهها على مقتضى الحكمة، ويقابله في الإنسان قانونٌ مثلُه لابد منه لضبط معاني الإنسان، وتصريفها، وتوجيهها على مقتضى الكمال، وكل فروض الدين الإسلاميِّ وواجباته وآدابه، إنْ هي إلا حركة هذا القانون في عمله، فما تلك إلا طرقٌ ثابتةٌ لخلْقِ الحسِّ الأدبي، وتثبيته بالتكرار، وإدخاله في ناموسٍ طبيعي بإجرائه في الأنفس مجرى العادة، وجعله بكل ذلك قوةً في باطنها، فتسمَّى الواجباتُ والآدابُ فروضاً دينية، وما هي في الواقع إلا عناصرُ تكوين النفس

---

(١) فصلنا هذا المعنى في كثير من مقالاتنا: كمقالة (حقيقة المسلم)، و(فلسفة الصوم) وغيرها.

العالية، وتكون أوامرَ وهي حقائق[1].

ومن ذلك أرانا ـ نحن الشرقيين ـ نمتاز على الأوربيين بأننا أقربُ منهم إلى قوانين الكون، ففي أنفسنا ضوابط قويةٌ متينة إذا نحن أقررنا مدنيَّتهم فيها ـ وهي بطبيعتها لا تقبل إلا محاسن هذه المدنية ـ سبقناهم وتركنا غبارَ أقدامنا في وجوههم، وكنَّا الطبقةَ المصفَّاة التي ينشُدُونها في إنسانيتهم الراهنة ولا يجدونها، ونمتاز عنهم من جهة أخرى بأننا لم نُنشئ هذه المدنية، ولم تنشئنا، فليس حقاً علينا أن نأخذ سيئاتها في حسناتها، وحماقتها في حكمتها، وتزويرَها في حقيقتها، وأن نُسيغَ منها الحلوةَ والمرَّة، والناضجةَ والفجَّة، وإنما نحن نحصلها، ونقتبسها، ونرتجعُ منها الرَّجعة الحسنة؛ فلا نأخذ إلا الشيء الصالحَ مكان الشيء قد كان دونه عندنا، وندعُ ما سوى ذلك، ثم لا نأخذ ولا ندَعُ إلا على الأصول الضابطةِ المحكمة في أدياننا وآدابنا، ولسنا مثلهم متصلين من حاضر مدنيتهم بمثل ماضيهم.

بيدَ أن العجبَ الذي ما يفرغُ عجبي منه أن الموسومين منَّا بالتجديد لا يحاولون أولَ وهلةٍ وآخرها إلا هدمَ تلك الضوابط التي هي كلُّ ما نمتاز به، والتي هي كذلك كلُّ ما تحتاج إليه أوربا؛ لضبط مدنيتها، ويسمون ذلك تجديداً، ولَهُوَ بأن يسمى حماقةً وجهلاً أولى وأحق.

---

(١) هذا هو الذي ضل عنه مصطفى كمال ومن شايعوه، ومن قلدوه، ومن انخدعوا فيه، ولو فهمه حق الفهم لجدد تركيا وجدد العالم الإسلامي كله، ولكن الرجل غريب عن هذه المعاني قصير النظر، فما زاد على أن جدد ثوباً وقبعة...!

أقول ولا أبالي: إننا ابتلينا في نهضتنا هذه بقوم من المترجمين قد احترفوا النقلَ من لغاتِ أوربا، ولا عقلَ إلا عقلُ ما ينقلونه، فصَنَعتْهم الترجمةُ من حيثُ يدرون أو لايدرون صنعةَ تقليدٍ محْضٍ ومُتابعةٍ مُستعبَدة، وأصبح عقلهم ـ بحكم العادة والطبيعة ـ إذا فكَّر انجذب إلى ذلك الأصل لا يخرج عليه ولا يتحول عنه، وإذا صحَّ أنَّ أعمالَنا هي التي تعملُنا ـ كما يقول بعض الحكماء ـ فهم بذلك خطرٌ أيُّ خطر على الشعب وقوميَّته وذاتيته وخصائصه، ويُوشكُ إذا هو أطاعهم إلى كل ما يدعون إليه أن... أن يترجموه إلى شعبٍ آخر...

إن أوربا ومدنيتها لا تساوي عندنا شيئاً إلا بمقدار ما تُحقق فينا من اتساع الذاتية بعلومها وفنونها؛ فإنما الذاتيةُ وحدَها هي أساسُ قوتنا في النزاع العالمي بكل مظاهره أيَّما كان، ولها وحدَها، وباعتبارٍ منها دون سواها، نأخذ ما نأخذه من مدنية أوربا، ونُهمل ما نُهمل، ولا يجوز أن نتركَ التثبتَ في هذا، ولا أن نتسامحَ في دقةِ المحاسبةِ عليه.

فالمحافظة على الضوابط الإنسانية القوية التي هي مظاهر الأديان فينا، ثم إدخالُ الواجبات الاجتماعية الحديثة في هذه الضوابط لربطها بالعصر وحضارته، ثم تنسيق مظهر الأمة على مقتضى هذه الواجبات والضوابط، ثم العمل على اتحاد المشاعر، وتمازُجها؛ لتقويم هذا المظهر الشعبيّ في جملته بتقويم أجزائه ـ هذه هي الأركان الأربعةُ التي لا يقوم على غيرها بناءُ الشرق.

والإلحادُ، والنزعاتُ السافلة، وتخانيثُ المدنية الأوربية التي لا عملَ لها إلا أن تُظهِرَ الخطرَ في أجمل أشكاله، ثم الجهل بعلوم القوة الحديثة، وبأصول التدبير

وحياطة الاجتماع وما جرى هذا المجرى، ثم التدليسُ على الأمة بآراء المقلِّدين والزائفين والمستعمرين لمحْقِ الأخلاق الشعبية القوية وما اتصل بذلك، ثم التخاذلُ والشقاقُ وتدابُرُ الطوائف وما كان بسبيلها ـ تلك هي المعاولُ الأربعةُ التي لا يهدمُ غيرُها بناءَ الشرق.

فليكن دائماً شعارُنا نحن الشرقيين هذه الكلمة: أخلاقُنا قبل مدنيَّتِهم.

١١ سجايا العرب في التراث الإسلامي[1] للعلامة محب الدين الخطيب

إنما كانت الفضائل فضائل بالعمل بها لا بالعلم بها، وماذا يفيد العلم بأن الصدق خير إذا لم يعمل به؟ وماذا يفيد التحدث عن فضيلة الإيثارِ وامتداحُها والحضُّ عليها من أعلى المنابر وأفخمها إذا لم تكن هذه الفضيلة مما يتبارى فيه مادحُها والممدوحةُ له؟.

وأقدرُ أمم الأرض على العمل بالفضائل الأمة التي تعمل بها عن سجية متوارثة، لا عن تكلف وتظاهر وتقليد، وقديماً كانت العرب تقول:

ومن يبتدعْ خُلْقاً سوى خُلْق نفسه   يَدَعْهُ وترجعْه إليه الرواجع

وإنما استطاع الإسلام أن يثب وثبته الأولى التي لا يزال المؤرخون حائرين في تعليلها، ويعدونها من معجزات التاريخ؛ إذ لم ير التاريخ نظيراً لها فيما تقدمها ولا فيما جاء بعدها ـ لأن الله ـعز وجلـ اختار لحمل رسالة الإسلام أمة يُعدُّ الكثيرُ من فضائل الإسلام في جملة سجاياها المتوارثة، وأخلاقها التي طبعت عليها.

وقد جاء الإسلام لينظم هذه الفضائل، وليركز توجيهها إلى الخير، فيبعث فيها نوراً خالداً، وخيراً باقياً إلى أن تشيع معانيها في الأمم الأخرى؛ فتدخل الإنسانية في طور السعادة التي تنشدها ولا تجدها.

وإنما كانت لا تجدها؛ لأنها لا تريد أن تسلك إليها طريقها الذي لا طريق إلى

---

(١) مع الرعيل الأول ص٢٦٢ ـ ٢٦٨.

السعادة سواه.

من هذه الفضائل فضيلة الإيثار، وهي فضيلة تتحدث عنها الأمم جميعاً في كتب الأخلاق والفضائل، وتعدها من صفات الإنسانية الممتازة.

ولكنها قَلَّما تستطيع أن تضرب الأمثال العملية والتاريخية على الاتصاف بها إلا في توافه الأمور.

أما في المواقف الجُلَّى، وعندما يتناول الإيثار أفضل ما في الحياة -ولو كان الحياة نفسها- فقلما نجد التاريخ يتحدث عن ذلك إلا **بلغة العرب، في تاريخ العرب، عن رجال العرب الذين اختارهم الله لحمل أمانة الإسلام**، والتبشير برسالته.

كان فتيان من فتيان بني إياد قد خرجوا من منازلهم في شواطئ نهر سنداد بعد لصاف، وشرْج، وناظرة وراء نجران الكوفة، وعلى رأسهم الفتى كعب ابن سيدهم وأميرهم مامة بن عمرو بن ثعلبة بن سلولة بن شبابة الإيادي.

والظاهر أنهم أوغلوا في البادية؛ فضلوا الطريق، ولم يكن معهم إلا بعض الماء، فلما أشرفوا على الهلاك، نزلوا، فجمعوا ما في أسقيتهم من الماء.

واقتسموه على السوية؛ لئلا يكون مع أحدٍ منهم أقلُّ من الذي مع غيره.

وفيما هم سائرون يلتمسون الطريق شَرِبَ الفتيانُ نصيبهم من الماء، واستبقى رئيسهم كعب بن مامة نصيبه لساعة الشدة.

ولما حانت تلك الساعة العصيبة لقيهم أعرابي من بني النمر بن قاسط، فصحبهم، وكان النمريُّ قد اشتد به الظمأ يومه ذاك؛ فجعل ينظر إلى سقاء الأمير الشاب وفيه تلك البقية من الماء التي تتوقف عليها حياة مَنْ يَتَبَلَّغ بها، فلحظه

كعب، وأدرك أن موقفه من هذا النمري هو الموقف الذي اعتاد العربي أن يشتري فيه فضيلةَ الإيثار ولو بالحياة كلها، حتى لو كانت حياةَ أمير نبيل، وصاحب شرف أثيل؛ لأنه الموقف الذي يبرهن فيه العربي على كريم معدنه وأصالة شرفه؛ فآثر كعب بن مامة ضيفه النمري ببقية الماء التي لم يبق غيرها مع القوم جميعاً في تلك المفازة، ورضيَ لنفسه أن يواجه الموت ظمأً.

ومثل هذه الحادثة الخلقية يرى فيها العربي معنيين من معاني حياته الاجتماعية:

أحدهما: معنى الإيثار الذي ندير الكلام حوله، وهو يكون بين العربي وصاحبه كائناً من كان.

والمعنى الآخر: معنى الضيافة للنازل الطارئ ـ كهذا الرجل النمري الذي لقي الشبان الإياديين في الطريق ولم يكن معهم من قبل ـ.

وإمدادُ الضيف بما يحتاج إليه ـ ولا سيما الغذاءَ والماءَ ـ يعد في دستور العرب حقّاً لا كرماً.

ولما طال الأمر على الإياديين وهم يسيرون في طلب الماء اشتد الظمأ على كعب، وَشعُر بأنه لم تبق معه قوةٌ على السير معهم؛ فجعل أصحابه يعللونه بالأمل، ويقولون له: يا كعب، هذا الماء قريب منا، وسَنَرِدُ عليه عن قليل.

لكنه قد بلغ من الإعياء كل مبلغ؛ فمات عطشاً، فلما وصلوا إلى قصر أبيه على شاطئ سنداد أخبروه بما كان منه، وبإيثاره النمريَّ على نفسه بما بقي معه من الماء، فقال أبوه يرثيه:

أوفى على الماء كعبٌ ثم قيل له: رِدْ كَعْب، إنك ورَّادٌ، فما وردا
ما كان أسقى لنا جود على ظمأ خمراً بماء إذا ناجودها بردا
من ابن مامة كعبٍ ثم عيَّ به زوُّ المنية إلا حرة. وقدا

وبعد عشرات من السنين كثيرة مرَّ خليفة الإسلام الأعظم عمر بن عبدالعزيز بن مروان على هذه البقاع التي تداول الحكم والسيادة فيها قبل الإسلام أمراءُ إيادٍ وملوكُ غسان من آل جفنة، والمناذرة من بني لخم بن عدي، فأنشده مولاه مزاحم قول الأسود بن يعفر النهشلي يصفها:

ومن الحوادث لا أبا لك أنني ضُربت عليَّ الأرض بالأسداد
لا أهتدي فيها لمدفع تلعة بين العراق وبين أرض مراد
ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد
حلوا بأنقرةٍ يسيل عليهم ماء الفرات يجيء من أطواد
أرض تخيَّرها لطيب مقيلها كعبُ بن مامةَ وابنُ أمِّ دؤاد
جرت الرياح على عراص ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد
ولقد غَنَوْا فيها بأفضل عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد
فأرى النعيم وكلَّ ما يَلهى به يوماً يصير إلى بلىً ونفادِ

وعلى ذكر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز نقول: إن العارفين بمعنى الزهد على حقيقته كانوا إذا وصفوا أهله قالوا: ليس الزهد أن يكون المرء فقيراً محروماً فيزعم أنه زاهد، ولكن الزهد أن يملك الرجل أقطار الأرض المعمورة في آسيا

وأفريقية إلى أقصى بلاد أسبانيا والبرتغال من أوربا، ثم يزهد بكل ما تحت يده من نعيمها ومتعتها، كما فعل سيد الأرض وملك الشرق والمغرب عمر ابن عبدالعزيز، ولا يكتفي عظيم الدنيا بهذا بل يسترضي زوجته فاطمة بنت عبدالملك بن مروان وكان أمير المؤمنين، وأخت هشام والوليد وسليمان ويزيد وكانوا كلهم أمراء المؤمنين، فيأخذ منها حليها التي كانت من أثمن ما يتوارثه الملوك، ويردها إلى بيت مال المسلمين؛ إيثاراً منه لإخوانه في الدين على نفسه وزوجه وولده، وزهداً منه في حطام الدنيا وألاعيبها الصبيانية، ويعيش في بيته مع أسرته ـ وهو خليفة الأرض ـ عيشَة الشَّظَف والزهد والقناعة بأقل ما تقوم به الحياة.

وإنما استطاع عمر بن عبدالعزيز بن مروان أن يفعل هذا بفضيلة الإيثار التي آمن بها في جملة ما آمن به من فضائل الإسلام، وكان لهذه الفضيلة في مجرى الدماء من شرايينه ميراثٌ معدودٌ من سجايا العرب؛ فاستطاع ـ بما جمع من إيمان دينه إلى سجايا أصله ـ أن يضرب للدنيا مثلاً في الزهد والإيثار قلما يستطيع أن يضربه للناس أحد ممن بلغ مبلغه في سعة الملك وقدرة التصرف بأكثر ما على وجه الأرض من ثروة ومتعة ونعيم، ولذلك قال فيه جرير:

أقول إذا أتينَ على قرورى ... وآل البيد يطَّرد اطِّرادا
عليكم ذا الندى عمر بن ليلى[1] ... جواداً سابقاً ورث الجيادا
إلى الفاروق ينتسب ابن ليلى ... ومروان الذي رفع العمادا

---

(١) ليلى: هي أم عمر بن عبدالعزيز، وهي أم عاصم بنت عاصم بن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

تزوَّدْ مثل زاد أبيك فينا ... فنعم الزاد زاد أبيك زادا
فما كعب بن مامة وابن سعدى[1] ... بأجود منك يا عمر الجوادا
وأنت ابن الخضارم[2] من قريش ... هم نصروا النبوة والجهادا
وقادوا المؤمنين ولم تعوَّدْ ... غداة الروع خيلهم القيادا
إذا فاضلت مدك من قريش ... بحور عمّ زاخرها الثمادا

فأنت ترى أن سجية الإيثار والتضحية بالنفائس سجيةٌ جبل عليها العربي منذ كان ابن الصحاري والأودية والجبال، فتجلت في تصرُّف الأمير كعب ابن مامة الإيادي عندما آثر على نفسه ذلك الأعرابي من بني النمر بن قاسط بالماء، بل بالحياة.

ثم هذَّب الإسلام هذه السجيَّة الممتازة، ونظمها، وركز توجيهها إلى الخير الأعلى؛ فتجلت في تصرف سيد آخر من سادات العرب المتشبعين بالإسلام إلى أقصى مداه، وهو أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم الأموي، فضرب للتاريخ مثلاً لمن يحوز الدنيا بحذافيرها، ويقبض عليها بجميع ما في يد العربي القوي من أعصاب متينة، ويزهد ـ مع ذلك ـ بجميع ما استحوذ عليه من متع الدنيا ونعيمها.

وروى رجال دولته ـ أمثال المهاجر بن يزيد ومحمد بن قيس ـ أن فقراء البيوت

---

(١) ابن سعدى: هو أوس بن حارثة بن لأم الطائي، وهو ممن يضرب به المثل في الإيثار(م).

(٢) الخضارم: جمع خِضْرِم، وهو الكبير العطية، الحمول للعظائم(م).

المستورة الذين كانت تصرف لهم الصدقات من بيت مال المسلمين أَثْرَوا[1] في عهده، فصاروا هم يدفعون الزكاة عن أموالهم لبيت المال، وراح المزكون يبحثون عمن يستحق الزكاة؛ ليدفعوا إليه زكاتهم فلا يجدونه.

روى أبو محمد عبدالله بن الحكم المصري ـ ١٥٠ـ٢١٤هـ ـ عن يحيى بن سعيد قال: بعثني عمر بن عبدالعزيز على صدقات إفريقية، فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد فقيراً، ولم نجد من يأخذها مني، قد أغنى عمر ابن عبدالعزيز الناس، فاشتريت بها رقاباً، فأعتقتهم، وولاؤهم للمسلمين.

هذا وعمر نفسه ـ وهو أمير المؤمنين ـ لم يكن له في بيته غير الثوب الذي على بدنه، فإذا أراد غسله انتظر حتى يجف، فيعود إلى لبسه، ويخرج به إلى الناس.

وروى معاصرُه سعيدُ بنُ سويد أن رجلاً من القوم لم يطق الصبر على هذا الحال فقال لعمر: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك، فلو لبست وصنعت!...

فنكس عمر رأسه مليًّاً حتى عرفنا أن ذلك قد أساءه، ثم رفع رأسه وقال: «إن أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند القدرة».

وزوجته السَّرِيَّةُ النبيلةُ التي كانت زوجة خليفة، وبنت خليفة، وأخت أربعة من الخلفاء، كانت راضية بعيشة الشظف مع زوجها بطيب نفس وعظيم اطمئنان؛ لأنها هي ـأيضاًـ تنزع بِعِرْقٍ شريف إلى ذلك الأصل العظيم الذي كان الإيثار سجية فيهم زادها الإسلام تهذيباً.

وقد حدّثْتك بأن حُلِيَّها الثمينةَ النادرَة التي جاءت بها من بيت أبيها أمير

---

(١) يعني صاروا أثرياء.

المؤمنين عبد الملك بن مروان جرَّدها أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من يديها وعنقها وأذنيها برضىً منها، ووضعها في بيت مال المسلمين؛ فلما كان بعد زمن طويل من وفاة زوجها عمر بن عبدالعزيز بن مروان وولاية أخيها الثالث يزيد ابن عبدالملك بن مروان قال لها أخوها الخليفة: إن حُلَيَّك الذي وضعت في بيت المال هي من مالك الحلال، ولا تزال محفوظة بعينها كما كانت، فهل تحبين أن أردها عليك؟

فأجابته: «إن أمير المؤمنين عمر قد استحسن أن تكون هذه الأشياء حيث هي الآن، وأنا قد وافقته على ما استحسن، وما كنت لأطيعه حيّاً وأعصيه ميتاً».

قالت هذا وهي وأولادها وبناتها أحوج الناس إلى هذه الحلي؛ لأن ما كان يملكه عمر بن عبد العزيز من ضياع وأملاك رده على بيت المال في الأسبوع الأول من خلافته، ومزَّق حجج ملكيته وهو على منبر مسجد بني أمية بدمشق على ملأ من ألوف الأعيان والأمراء ووجهاء الناس.

وأرادت زوجته من بعده أن لا تكون أقل منه إيثاراً وتضحية، فاختارت أن تبقي عنقها وأذناها ويداها عاطلة من تلك الحلي والحلال، ولو كانت أخت الخليفة يزيد بن عبدالملك.

١٢ الوفاء في العربي[1] لفضيلة الأستاذ محمد الطيب حسن النجار

امتازت الأمة العربية من بين سائر الأمم بكثير من الفضائل قلَّما نجد من يتصف بشيء منها في أمة سواها، خصوصاً في هذا العصر الذي قام فيه معظم الناس على قدم وساق يحاربون الفضيلة، ويعملون على إزهاقها، ويسعون إلى إفناء معالمها وتعاليمها حتى تدهورت الأخلاق، وانحطت الآداب، وانتشر الفسق والفجور بين الناس، وانصرف المسلمون عن دينهم القويم الحنيف، وعن اتباع آدابه إلى تلك التُّرَّهات الكاذبة، والخزعبلات المزرية التي تتنافى مع أوامر الدين، ولا تتمشى مع ما جاء فيه، والتي يأباها العقل الصحيح، وتنفر منها النفوس العالية الكبيرة.

وأجل ما اختصت به الأمة العربية من الفضائل الوفاء الخلةُ الشريفة التي لم تجد جوّاً صالحاً لخروجها، ولا مناخاً ملائماً لها غير تلك الصحراء المقفرة المجدبة، فنبتت بين الرمال، وغذَّاها العربي بدمه وماله حتى نمت، وترعرعت، وأرسلت عليهم ظلَّها الوارف الظليل.

وليس في هذا ما يدعو إلى الشدة أو يثير التعجب والاستغراب؛ فالعربي الذي يقضي جُلَّ أوقاته وحياته بين سفر وانتقال، وبين ظعن وترحال، والذي كثيراً ما تُعْوِزه الظروفُ، وتلجئه الضرورة إلى أن يتخذ طريقه وسط تلك الصحراء في جوف الليل البهيم وحيداً لا يأنس لمخلوق سوى ناقته، ولا يأنس إليه مخلوق

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، الجزء الثاني، المجلد السابع، ص ١٠٣ـ١٠٧، شعبان ١٣٥٣هـ.

سوى ناقته، هذا العربي بلا شك أحوج الناس إلى رجل وفيٍّ ينصره وقت الشدة، ويعينه إذا حَزَبَ الأمر، ويستجيب لدعائه حينما يستصرخه، ويلجأ إليه.

والعرب الذين لم تكن لهم قدم راسخة في المدنية، ولم يكن لهم حتى بعثة النبي ﷺ دستور يكفل لهم النظام، ويبين لهم الحلال من الحرام ـ هم بلا شك أحوج الناس إلى أن يسود الوفاء بينهم، وينتشر لواؤه عليهم.

ولولا أن الله يسر هذا الخلق لتعطلت المتاجر، ووقف دولاب العمل، وتغلَّب القويُّ على الضعيف، وكثر العداء والجفاء، واشتعلت نيران الثورات والحروب؛ فما هي إلا أيام أو أعوام حتى تنقرض الأمة، وتخرب البلاد؛ فالوفاء هو الحجر الأساسي في بناء مستقبلهم، والمحور الوطيد الذي تدور عليه رحا عزِّهم وسعادتهم؛ لذلك كان العرب يَقْدُرون تلك الصفة حقَّ قدرها، ويرفعون مِنْ شَأْنِ مَنْ يشتهر بها، حتى كانوا يضربون بهم الأمثال، ويلهجون بذكرهم في الأندية والمجتمعات، ويترنمون بمدحهم والثناء عليهم في كل وقت وحين.

بل كانوا يترسمون طريقهم، ويدأبون في سبيلهم، وينقادون لأوامرهم انقياد العبد للسيد، والمرؤوس للرئيس.

وممن اشتهر بينهم بالوفاء السموأل بن عادياء، وكان من وفائه أن امرأ القيس ابن حجر لما أراد الخروج إلى قيصر استودع السموأل دروعاً له، فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام، فتحرز منه السموأل؛ فأخذ الملك ابناً له خارج الحصن، وصاح يا سموأل هذا ابنك في يدي وقد علمت أن امرأ القيس ابن عمي، وأنا أحق بميراثه، فإن دفعت إليَّ الدروع وإلا ذبحت ابنك.

فقال السموأل: أَجِّلْني، فأجله، فجمع أهل بيته فشاورهم، فكلهم أشاروا بدفع الدروع وأن يستنقذ ابنه، فلما أصبح أشرف عليه، وقال: ليس لي إلى دفع الدروع سبيل، فاصنع ما أنت صانع!

فذبح الملك ابنه وهو ينظر إليه وكان يهوديًّاً، وانصرف الملك، ووافى السموأل بالدروع الموسم، فدفعها إلى ورثة امرئ القيس، وقال في ذلك:

وفيت بأدرع الكنديِّ أني ... إذا ما خان أقوام وفيت
وقالوا عنده كنز رهيب ... فلا وأبيك أغدر ما مشيت
بنى لي عادياً حصناً حصيناً ... وبئراً كلما شئت استقيت

فانظر كيف فرط، وتهاون في فلذة كبده، ومهجة قلبه، وتركه لذلك الملك الجائر الجبَّار حتى فجعه فيه، وذبحه أمامه، ولم يفرط أو يتهاون في هذه الدروع!!

فلا عجب إذ طار صيته في كل فجٍّ وحدب، ولا عجب إذ كانوا يضربون به المثل فيقولون: أوفى من السموأل بن عادياء، وفي ذلك يقول الأعشى:

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به ... في جحفل كسواد الليل جرَّار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله ... حصن حصين وجار غير غدَّار
خَيَّرَهُ خطتي خسفٍ فقال له ... مهما تَقولَنْ فإني سامع حار
فقال ثكل وغدر أنت بينهما ... فاختر فما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل ثم قال له ... اقتل أسيرك إني مانع جاري

ومنهم الطائي صاحب النعمان بن المنذر، وكان من وفائه أن النعمان ركب في

يوم بؤسه ـ وكان له يومان يوم بؤس ويوم نعيم لم يلقه أحد في يوم بؤسه إلا قتله، ولا في يوم نعيمه إلا استبقى حياته وحباه وأعطاه ـ فاستقبله في يوم بؤسه أعرابي من طيء فقال: حيا الله الملك إن لي صبية صغاراً لم أوص بهم أحداً فإن رأى الملك أن يأذن لي في إتيانهم، وأعطيه عهد الله أن أرجع إليه إذا أوصيت بهم حتى أضع يدي في يده، فرقَّ له النعمان، وقال له: لا إلا أن يضمنك رجل ممن معنا فإن لم تأت قتلناه، وكان مع النعمان شريك بن عمرو بن شراحيل فنظر إليه الطائي، وقال:

يا شريك بن عمرو	هل من الموت محاله
يا أخا كل مضاف	يا أخا من لا أخا له
يا أخا النعمان فكَّ اليـ	ـوم عن شيخ غلاله
ابن شيبان قبيل	أصلح الله فعاله

فقال شريك: هو عليَّ أصلح الله الملك؛ فمضى الطائي وأجَّلَ له أجلاً يأتي فيه.

فلما كان ذلك اليوم أحضر النعمان شريكاً، وجعل يقول له: إن صدر هذا اليوم قد ولَّى.

وشريك يقول: ليس لك عليَّ سبيل حتى نمسي، فلما أمسوا أقبل شخص والنعمان ينظر إلى شريك، فقال شريك: ليس لك عليَّ سبيل حتى يدنو الشخص، فلعله صاحبي، فبينما هما كذلك إذ أقبل الطائي، فقال النعمان: والله ما رأيت أكرم منكما، وما أدري أيكما أكرم أهذا الذي ضمنك وهو الموت

أم أنت وقد رجعت إلى القتل؟! والله لا أكون ألأم الثلاثة ثم أطلقه وأمر برفع يوم بؤسه.

وأنشد الطائي:

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي فأبيت عند تجهم الأقوال

إني امرؤ مني الوفاء سجية وفعال كل مهذَّب مبذال

قال النعمان: ما حملك على الوفاء؟ قال: ديني، قال: وما دينك؟ قال: النصرانية، قال: اعرضها عليَّ، فعرضها عليه؛ فتنصر النعمان.

وقد افتخر النعمان بن المنذر بالعرب أمام كسرى ملك الفرس، وميزهم على غيرهم من الأمم، وامتدحهم بكثير من الفضائل وكان منها الوفاء، فقال: وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة، ويومئ الإيماءة فهي وَلْتٌ[1] وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يغلق[2] رهنه، ولا تخفر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب، فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته، أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المُحْدِث من غير معرفة ولا قرابة، فتكون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله..!!

والحق أن النعمان لم يكن مغالياً في كلامه، ولم يصف العرب بشيء ليس فيهم؛ فقد روي عن حاتم الطائي أنه خرج في الشهر الحرام في حاجة له فلما كان

---

(١) عهد.

(٢) غَلَقَ الرهن: استحقه المرتهن، وذلك إذا لم يفتك في الوقت المشروط.

بأرض (عنزة) استجار به أسير وناداه يا أبا سفانة أهلكني الأسار، فقال: ويلك قد ظلمتني بتنويهك باسمي في غير بلاد قومي، ثم اشتراه من بني عنزة، وأقام في القيد مكان الأسير حتى فدى نفسه فأطلقوه.

وتلك لعمري مكرمة يتضاءل دونها كل مدح وثناء؛ فأين من هذه النفوس نفوس تفرُّ من المكارم، وتنفر من الفضائل والمحامد، بل تعمل على محاربتها، وتسعى في تقويض دعائمها؟.

وأين من أولئك الأقوام أناس يتظاهرون لغيرهم بالحب والوفاء، ويغرونهم بابتسامات صفراء ومجاملات زائفة، يخفون بها دخيلتهم وما تنطوي عليه نفوسهم، ويتخذون من ذلك ستاراً يعملون من ورائه على الكيد لهم حتى إذا ما حانت لهم الفرصة، وأمكنتهم المقادير أعملوا فيهم سيوف غدرهم، ومعاول خيانتهم لا يرقبون في ذلك إلاًّ ولا ذمة، ولا يرعون حرمة لعهد أو ميثاق..؟!



١٣ التضحية[1] للأستاذ أحمد أمين

لعل من أهم الفروق بين أمة راقية، وأمة غير راقية، أنَّ أفراد الأولى يشيع بينهم العمل لأنفسهم ولغيرهم، وأنَّ أفراد الثانية لا يعملون إلاَّ لأنفسهم.

هاهو الجو حولنا مشبع بالأنانية إلى أقصى حد، هذا موظف كل همه أن يرضى رؤساه في الحدود الضيقة؛ لينال درجة، ولا يهمه بعد ذلك قُضِيَت مصالح الناس أو لم تقض، وهذا موظف آخر لم يُمْنح من المرتب ما يشتهي؛ فهو يضن بمقدرته وكفايته على الناس، وكل ما يعمل أن يؤدي الأعمال الآلية التي تنجيه من العقوبة ومن التبعية القانونية، فهو يحضر في الميعاد، وينصرف في الميعاد، ثم لا روح في عمله، ولا شعور بواجبه.

وهذا غني لا ينظر في تصرفاته إلاَّ إلى شخصه مهما شقي الناس من حوله.

وهذا مزارع من كبار المزارعين لا ينظر في مشروع القطن والقمح إلاَّ بمقدار ما يحتمل أن يدخل جيوبه من مال، مهما جاعت الأمة، وعَدِمَت القوت.

وهذا ثري ذو جاه يستعمل جاهه ونفوذه في الهرب من ضريبة واجبة عليه، أو يتحايل في تخفيضها إلى أقصى حد ممكن؛ فتكون النتيجة أن يدفع الضريبة كاملة غير القادر، ويهرب منها، أو ينقص منها القادر.

وهذه هي الروح الشائعة التي نراها في البيت، وفي الشارع وفي المصلحة، وفي البيع والشراء، والأخذ والعطاء، أنانية مسرفة، في حدود ضيقة، لا ينظر منها

---

(١) فيض الخاطر ٣/ ٢٣٢ ـ ٢٣٦.

الإنسان إلى نفسه، وإلى نفسه فقط، يدور في خلده أن ينهب من اللذائذ ما استطاع قبل فوات الوقت، ويهرب من الواجبات ما استطاع مع المحافظة على الشكل، حتى لا يقع في يد القانون، يردد قول أبي فراس: إذا مت ظمأناً فلا نزل القطر.

ويهزأ ببيت أبي العلاء:

فلا هطلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

ويقول البارودي:

أدعو إلى الدار بالسقيا وبي ظمأ أحق بالري لكني أخو الكرم

ليس مظهر التضحية مقصوراً على الجنود في مواقف القتال؛ فليس هذا إلا مثلاً عالياً من أمثلة التضحية، ولكن هناك أمثلتها العديدة في الحياة اليومية لكل فرد؛ فالذي يتنازل عن لذته الفردية الضيقة؛ للمصلحة العامة الواسعة يكون مُضَحِيًّاً على قدر ما بذل، والموظف ينال شيئاً من العناء؛ لراحة الجمهور مُضَحٍّ، والمدرس يبذل أقصى جهده في إعداد درسه وإيصاله إلى طلبته مُضحٍّ، والغني يتنازل عن بعض لذائذه لخير الناس مُضحٍّ، والمزارع يرعى حال فلاحيه مُضحٍّ، وهكذا.

وعلى قدر انتشار هذه الروح في الأمة يكون مقدار رُقِيِّها ونجاحها، ولا تفلح أمة يبحث أفرادها عن لذائذهم الشخصية فقط، مهما حسن تشريعها وصلح قادتها، فَشَرِّع ما شئت لتنظيم التموين فلن ينجح، ما دام كل فرد لا ينظر إلا إلى شخصه، وشَرِّع ما شئت لتنظيم الضرائب فلن ينجح مع محاولة الأفراد الهرب منها، وشَرِّع ما شئت لإصلاح الفلاحين فسيظلون كما هم، مادام التشريع لا

يلقى مجاوبة من نفوس القادرين.

لقد أضاع علماء النفس المحدثون جمال التضحية بما أفرطوا من تحليل، وما أرجعوا من أعمال نبيلة إلى غرائز وضيعة، وما وصلوا إليه من أنَّ مظاهر إنكار الذات تعود في آخر الأمر إلى حب الذات، فقالوا ـ مثلاً ـ: إن السياسي الكبير الذي يدل مظهره على أنه يؤدي واجبه، ويخدم أمته، ويتحمل أشق الأعباء في سبيل مَجْدِها ورُقِيِّها ونُهوضها لو حللت البواعث التي دفعته إلى عمله وسلوكه هذه السبيل لوجدتها ترجع في النهاية إلى غريزة حب الذات، وشعوره الكمين بأهمية ذاته وعظم شخصه، والواعظ الذي يعظ الناس ويذكرهم بالدين، ويخلص في سبيله، ويتحمل أشد العذاب في سبيل تحقيق دعوته وانتشار عقيدته إنما نصل إلى النهاية عند تحليل نفسه إلى حبه إظهار شخصه، وتمجيد ذاته، والتفات الناس إليه، واتجاههم نحوه، والزاهد الذي فَرَّ من الحياة ولذاتها، واعتكف في الأديار أو التكايا أو نحوها، وتجرد من الدنيا وشؤونها لم يكن في الحقيقة عند التأمل العميق في بواعثه إلا ناظراً لنفسه، هارباً من تبعات الحياة وتكاليفها، والطبيب الذي يعنى بمرضاه ولا يعنى بنفسه، ويتعرض للأخطار أيام الوباء؛ إنقاذاً للناس، ولو كان في ذلك حتفه قالوا: إنما يبحث وراء حسن سمعته وذيوع شهرته، والعالم الذي يقضي أوقاته في معمله أو في مكتبه باحثاً وراء حقيقة يكتشفها، أو نظرية يعثر عليها، أو اكتشاف يخدم به الإنسانية دواءاً لمرض، أو إمتاعاً للناس في ناحية من نواحي حياتهم ليس ـ في نظرهم ـ إلا مجيباً لما رُكّب في طبيعته من حب الاستطلاعِ، والمصلحُ الذي يكدح ليله ونهاره في

سبيل خدمة قومه وإصلاح عيوبهم، ومعالجة ما أصيبوا به من مرض اجتماعي، ليس يرجع ذلك - في رأيهم - إلاَّ إلى حب الظهور، وإشباع رغبته في إعظامِ نفسه، والدويِّ حول شخصه.

بل أكثر من ذلك وأعنف، قالوا: إن الممرضة التي تهب نفسها لخدمة المرضى، وتعمل جهدها في الرحمة بهم، وتلطيف عذابهم، وتضميد جراحهم، وتجد من نفسها السعادة في تفريج كربهم وتخفيف لآلامهم - ليست في الحقيقة مدفوعة إلى ذلك إلاَّ لداعي ما ركب في غريزتها من الاستطلاع الجنسي، قالوا: وإنما اختارت هذا الضرب من الإحسان؛ لأنه محفوف بما يغذي نفسها من مظاهر الإعجاب والمدح والثناء، والظهور بمظهر من يفني ذاته في نفع الناس، ويضحي بخيره لخير الناس.

وهكذا رجعوا كل البواعث النبيلة، ومظاهر التضحية الجميلة للغرائز الوضعية المتأصلة في النفس، وللبواعث الذاتية المتأصلة في الإنسان منذ ظهوره على وجه الأرض.

وقالوا: وما ذنبنا أن وجدنا الإنسان هكذا خلق، وعلى هذا طبع، وهو هو من بدايته إلى نهايته؟

ولكن أحق هذا؟ أيستطيعون أن يستمروا في تفسيرهم لكل أنواع التضحية من شخص لا يؤمن بدين، وهو - مع هذا - يرمي بنفسه في ميدان القتال دفاعاً عن أمته، وأمٌّ تُضَحِي براحتها ولذتها لابنها من غير أن تنتظر مثوبةً أو جزاءاً، ونحو ذلك من أمثلة لا تعد؟.

وهَبْ ذلك كله صحيحاً، فهل ذهب جمال التضحية، وقيمة التضحية؟.

لتكن كل هذه الأعمال النبيلة ناشئة عن غرائز شخصية وبواعث ذاتية؛ فهذه الغرائز في الحقيقة والواقع قد تتجه إلى أعمال خسيسة، فنكرهها ونشمئز منها، وهي هي قد تتجه إلى أعمال تنفع الناس؛ فنعجب بها، ونمجدها.

إن حُبَّ الذات قد يدفع الشخص إلى أنْ يقتل استيلاءاً على مال القتيل، وقد يدفعه إلى أن يقتل دفاعاً عن أمته أو دفاعاً عن عرض فتاة، ومحب الظهور قد يغذي غريزته بتضليل الناس، وخلق المؤامرات، وتدبير الدسائس حتى يُعْتَرَف له بالمقدرة، وقد يغذي غريزته بالإحسان الكثير والإصلاح الكبير، والمرأة قد تدفعها غريزتها الجنسية إلى الاستهتار، وقد تدفعها الغريزة نفسها إلى التمريض؛ فالغريزة في كل هذه الحالات واحدة، ثم قد يصدر عنها الخير، وقد يصدر عنها الشر؛ فالعبرة بالنتائج لا بالتحليل إلى العناصر الأولية.

وخَطَأُ علماء النفس هؤلاء ـ إن كان ما يقولون صحيحاً ـ أنهم أفرطوا في التحليل، ولم ينظروا في التركيب، بالغوا في المقدمات، وأعرضوا عن النتائج.

لتكن كل الأعمال ناتجة عن حب الذات، فلا تزال هناك أعمال نبيلة وأعمال خسيسة، ولا يزال هناك من الأعمال ما يصح أن يسمى «أثرة» وأنانية، وما يصح أن يسمى إيثاراً وتضحية، وكل الفرق فرق في التعريف لا في المعرف، وفي العَرَض لا في الجوهر، فعلى قولهم تكون التضحية أن يجد المرء لذته الشخصية فيما يعود على الناس بالنفع، وعلى قول الآخرين هي أن يبعثه على عمله نفع الناس وخيرهم.

ولا عبرة بالمقدمات إذا تساوت النتائج، وليس يهمنا أن يكون الباعث له على إتيان الخير لذاتهِ الشخصيةَ، أو رغبتَه في الصالح العام مادام العمل ينتج هذا الخير.

ولا يزال الناس بعد هذا البحث السيكولوجي منقسمين إلى قسمين: قسمٍ لا ينظر إلا إلى شخصه في حدوده الضيقة، وقسم ينظر إلى شخصه في حدوده الواسعة.

قسمٍ ينظر إلى ذاته كالحيوان، وقسمٍ ينظر إلى ذاته كفرد في أمة، وعضو في جسم، وفرع في شجرة، يوفق بين نفعه ونفع أمته، ونفعه ونفع شجرته، قسم بلغ به ضيق النظر أن يجد لذته في حرمان الناس، وسعادته في شقاء الناس، أو هو - على الأقل - لا يهتم بالناس، وقسمٍ قد بلغ من سعة نظره أن يجد لذته في لذة الناس، وسعادته في سعادتهم، وخيره في خيرهم، وهذا غاية الرقي.

وخير الناس من استطاع أن يوفق بين غرائزه وخير الناس، فإذا كان محباً للظهور فليظهر بما ينفع أمته، وإذا كان محباً للاستطلاع فلا يستطلع أخبار الناس وعيوبهم وخفاياهم، وإنما يستطلع حقيقة مجهولة في العلم أو قانوناً مجهولاً في الطبيعة؛ ومن كان طبعه الخوف فليخف من شر يلحق الناس، وأذى ينالهم، ولا يخف من أوهام من خَلْقِهِ، وعفاريت من خياله، وهكذا...

مهما قيل فالتضحية أنبل ما وصل إليه الإنسان، منظرها أجمل منظر وأروعه، ولا شيء يكسب الأمة قوة كما تكسبها التضحية؛ فالأمة المضحية تأكل غير المضحية في سهولة ويسر؛ لأن الأمة المضحية كتلة متماسكة، ووحدة واحدة، والأمة غير المضحية أفراد متفككة، وشهوات متعددة، تتحارب أجزاؤها، ويأكل

النزاع والشهوات والأنانية قواها؛ فالأسرة التي يعمل فيها كل فرد لشخصه أسرة ميتة، والمصنع الذي يعمل فيه كل فرد لمصلحته الخاصة لا يبقى شهراً، والحزب الذي ينظر فيه كل عضو إلى نفسه فقط حزب مصطنع لا حول له ولا قوة، والأمة التي يحسب فيها كل فرد حساب لذته الخاصة هي أفراد لا أمة.

في الأمة التي تسودها التضحية كل أفرادها أقرباء، وفي الأمة التي تسودها الأنانية كل أفرادها غرباء.

لا تكون التضحية حتى يتعود القلب لذة العطاء كما يتعود لذة الأخذ، ولذة أن الناس يجدون ويسعدون، كما يتعود أن يتلذذ من أن يجد ويسعد.

التضحية إرادة القوي، ليقوى، وإرادة الضعيف، ليتخلى عن ضعفه، هي حجر المِسَنّ تشحذ عليه الإرادة؛ لتقطع الصعاب وتجتاز العقاب.

التضحية أشرف الطرق تسير فيه الأمة لتحقيق ذاتيتها، وأنبل السبل تسير فيه الإنسانية؛ لتبلغ غايتها، وبدونها يصبح الإنسان حجراً لا روح فيه، أو بهيماً يعيش؛ ليأكل.

التضحية أفق واسع تنعم فيه النفس بجمال السعة، وبعد المدى، وجلال اللانهاية.

والأنانية أفق ضيق تألم فيه النفس بضيق المكان، وتنقبض فيه من كثرة السدود والحدود.

في التضحية حرارة وإيمان يسعد، وفي الأنانية جمود بارد وإلحاد مقبض.

في التضحية حياة كلية شاملة وفناء النفس فيما حولها ومن حولها، وفي الأنانية حياة جزئية محصورة، ودوران النفس حول ذاتها في خمود وركود.

في التضحية كرم وسماحة، وفي الأنانية شح وكزازة ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الحشر: ٩ .

١٣ الحياء[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

هذا الخلق إذا غرز في النفس ونمت عروقه فيها ازداد رونقها صفاء، ونفض على ظاهر صاحبها مآثر خيرات حسان، يعبر عنها عشاق الفضائل بصيغة الإنسانية.

وإذا انتزع من شخص فَقَدَ المروءةَ، وثكل الديانةَ التي هي الجناح المبلّغ لكل كمال.

والدليل على ما نقوله أن الحياء عبارة عن انقباض النفس عما تذم عليه، وثمرته ارتداعها عما تنزع إليه الشهوة من القبائح، فإذا تمزق ستر هذه الفضيلة بغلبة الشهوة على النفس اختلت هيئة الإنسانية بالضرورة، وبقي صاحبها سائماً في مراتع البغي والفسوق، وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان.

ويرشدنا إلى هذا قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء» رواه مالك في الموطأ.

وفي الصحيح ـ أيضاً ـ أن رسول الله ﷺ مرّ على رجل وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإن الحياء من الإيمان».

قال العلماء: وإنما صار الحياء من الإيمان المكتسب وهو جبلّة لما يفيد من الكف عما لا يحسن فعبر عنه بفائدته.

وأعجب ما عثرنا عليه في كتب الأخلاق أن الحياء مركب من جبن وعفة،

---

(١) السعادة العظمى ـ عدد٣ ـ غرة صفر ١٣٢٢ المجلد الأول ص٤٩ـ٥٠.

ولذلك لا يكون المستحيي فاسقاً ولا الفاسق مستحيياً، وقلما يكون الشجاع مستحيياً والمستحيي شجاعاً؛ لتنافي اجتماع الجبن والشجاعة. اهـ.

أما قوله: «لا يكون المستحيي فاسقاً ولا الفاسق مستحيياً» فَمُسَلَّمٌ؛ لأن الحياء متفرع عن العفة.

وأما قوله: «وقلما يكون الشجاع مستحيياً الخ» فباطل؛ لأنه يؤدي إلى تنافي الكمالات، وما سمعنا بهذا من قبل ولا نسمعه من بعد، ويدعو إلى إماطة برقع الحياء؛ حيث كان فيه نوع مباينة للشجاعة التي هي أعز ما يتعاظم بها الرجال.

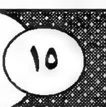
وكلمة الحق التي نقولها: أن الحياء من متممات الشجاعة ولا تستقيم بدونه، **ثم إن الحياء وسط بين رذيلتين إحداهما الوقاحة، والأخرى الخجل**، ويقال لها الخُرْق، أما الوقاحة فمذمومة بكل لسان بالنسبة لكل إنسان، وحقيقتها لجاج النفس في تعاطي القبيح:

صَلابَةُ الوَجْه لم تغلِبْ على أحدٍ إلا تكامَلَ فيه الشرُّ واجتَمَعا

وأما الخرق وهو الدهشة من شدة الحياء فيذم به الرجل اتفاقاً لا سيما في المواطن التي تقتضي حدة وإقداماً، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحكم بالحق، والقيام به، وأداء الشهادات على وجهها.

ثم إن الحياء ولو كان جبلياً قد يزيد بالكسب بواسطة مطالعة أخلاق الكمل، وهي إحدى فوائد علم التاريخ، أو كثرة الحضور بمجالسهم.

وقد يتولد الحياء من الله ـ تعالى ـ من التقلب في نعمه؛ فإذا شعر العاقل بذلك استحيى أن يستعين بها على معصيته، ولا ينشأ ذلك الشعور إلا عن عظم في النفس وسعة في العقل.



صدق اللهجة[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

في كل خصلة فاضلة شرف وخير، ولكل خصلة فاضلة أثر في سعادة الجماعة، وقد تتفاوت هذه الخصال بكثرة الحاجة إليها.

ومن الخصال التي تكثر مواضيع الاحتياج إليها صدق اللهجة؛ فلا غنى للجماعة عن أن يكون فيها صدق وحلم.

والأحوال التي يحتاج فيها إلى الصدق أكثر من الأحوال التي يحتاج فيها إلى الحلم، ونحن لا نشعر بالحاجه إلى شجاعة السيدات والأطفال، وكل منا يشعر بالحاجة إلى صدق الطفل الآخذ في التردد على المدرسة، وصدق الصانع في مصنعه والأمير على كرسيه.

فالكلمة التي نلقيها في هذه الليلة إنما نصف بها فضيلةً شأنها رفيع، وأثرها في الاجتماع كبير، وهي صدق اللهجة.

ولا تثريب علينا إذا تناولنا في أثناء بحث هذه الفضيلة نبذة من الحديث عن ضدها وهو الكذب؛ فإن حقائق الفضائل تتجلى بمعرفة أضدادها.

ما هو الصدق؟

الصدق في لغة العرب: إلقاء الكلام على وجه يطابق الواقع والاعتقاد.

ومقتضى هذا الشرح أن الكلام الذي يخالف الواقع والاعتقاد معاً أو يخالف أحدهما لا يدخل في حقيقة الصدق، بل يندرج تحت اسم الكذبِ، والكذبُ ذو

---

(١) رسائل الإصلاح ٢/ ٩٥ ـ ١٠٥ .

ضروب وألوان.

للصدق صورة واحدة: وهي أن تصوغ القول على نحو ما تعتقد، ويكون اعتقادك مطابقاً للواقع، كأن تقول وأنت الناصح الغيور: سلطة العدو أَمَرُّ من الصبر، وأشدُّ مضاضة من وقع الحسام.

وللكذب ثلاث صور: (إحداها) ما يخالف الواقع والاعتقاد: كمن يتملق فاسقاً أو باغياً؛ فيصفه بالاستقامة، وهو على بينة من سيرته المغضوب عليها

(ثانيتها) ما يخالف الاعتقاد ويطابق الواقع: كالزائغ المنافق ينطق على نحو مما ينطق به أولو الحكمة والهداية.

(ثالثها) ما يخالف الواقع ويطابق الاعتقاد: كالغبي يعتقد بعض صلاح الفجار، فيصفه بالولاية أو التقوى.

هذه صورة الكذب في مجاري كلام العرب، وقد رأيتموها ممثلة في المتملق، والمنافق، والغبي.

والذي يرجع عيبُه إلى الأخلاق العملية من هذه الصور ما جاء الحديث فيه مخالفاً للاعتقاد، وسواء بعد هذه أخالف الواقع ـ أيضاً ـ وهي الصورة الأولى أم كان مطابقاً للواقع وهي الصورة الثانية.

وبيان هذا أن الباحث في الأخلاق العملية يوجه عنايته إلى نفس المتكلم حين إلقائه الحديث، وينظر إلى اعتقاده وما بينه وبين الحديث من مطابقة أو مخالفة، فإن وجد الرجل يسوق الحديث على غير ما يعتقد وضع عليه اسم الكذب وعده في حملة هذه الرذيلة الساقطة ولو اتفق لحديثه أن كان مطابقاً للواقع.

وإن وجده يتلقى الحديث على نحو ما يعتقد لا يعده في أصحاب رذيلة الكذب، وإن لم يجئ حديثه موافقاً للواقع.

وهذا الذي تَحَدَّث عن اعتقاده، وجاء حديثه مخالفاً للواقع لا يرميه الباحثون في الأخلاق بِسُبَّة الكذب، وقد يؤاخذ من جهة أخرى، وهي انقياده إلى الظنون الواهيةِ، وحديثه عن الأمر قبل التثبت من أنه حقيقة واقعة.

فالكذب في إطلاق علماء الأخلاق ينصرف إلى من يحدثك بالأمر وهو يعتقد أنه غير واقعٍ، ومعظمُ ما ورد في الشريعة من ذم الكذب محمول على أولئك الذين تنطق عليك ألسنتهم بأشياء يزعمون أنها واقعة وقلوبهم تنكرها.

الاحتراس في صدق اللهجة:

يحدثك الرجل عن أشياء يحس بها في نفسه، كالحب والبغض والعطش والري، ويحدثك عن أمور يدركها بِمَحَسَّاته الخمس: البصر والسمع وغيرهما.

وهو ـ فيما يدركه بإحساسه الباطن أو إحساسه الظاهر ـ يستطيع أن لا يحدثك إلا بما يطابق الواقع والاعتقاد؛ فالرجل الصادق لا يقول: «أحببت» وهو يبغض، ولا يقول: «سمعت» أو «رأيت» إلا إذا سمع أو رأى.

وقد يحدثك عن حادثة تلقَّى خبرها عن طريق الرواية، أو يحدثك عن أمر أدركه على وجه النظر والاستدلال.

وهذان الصنفان هما ما يعثران به في مخالفة الواقع أحياناً، وينزلان به إلى أن تحوم حوله الظنون؛ فعلى صادق اللهجة أن يحترس فيهما يتحدث به عن رواية، أو يتحدث به عن ظن واستنباط.

والاحتراس في الأخبار التي تجئ من طريق الرواية أن لا يحدث بها قبل أن ينقدها نقداً بالغاً، وإن بدا له أن يخبر بها على نحو ما سمعها فليذكر أسماء رواتها؛ حتى يبرأ من عُهدتها.

والاحتراس في الحديث الذي يستند فيه إلى ظن وأمارة أن لا يطرحه إلى الناس في صورة المقطوع به، بل ينبه على أنه تحدث به على وجه الظن، كما يصنع كثير من الملأ الذين يعافون الكذب، ويريدون أن يجعلوا بينه وبين ألسنتهم حجاباً مستوراً.

فسياجُ صدقِ اللهجةِ الاحتراسُ في الحديث المستند إلى رواية أو ظن، ومن حدثك بما علم واحترس فيما روى أو ظن فقد قضى حق فضيلة الصدق، ووفّى.

صدق اللهجة والمجاز:

لا يخرج عن حدود الصدق ما يجرى على ألسنة البلغاء من ضروب الكناية وفنون المجاز، كأن تقول لشخص: جئتك ألف مرة، تكنى بالألف عن كثرة التردد، ولا تريد بها عدد المرار، وكأن تقول: رأيت أسداً مخلَبُهُ الحسامُ، وأنت تريد بطلاً لا يلوى جبينه عن منازلة الأقران.

وقد جاء في كتب الأصول أن قوماً منعوا أن يكون في القرآن مجاز، وهم الظاهرية، ولا شبهة لهؤلاء، إلا زعمهم أن المجاز من قبيل الكذب، والقرآن قول فصل وما هو بالهزل، وهذه الشبهة مدفوعة بقيام القرينة الدالة على أن المتكلم لا يقصد سوى معنى المجاز.

وإذا كان قوله ـ تعالى ـ ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يحتوى قرينة تنفي أن يكون المرادُ من الظلماتِ سوادَ الليل، ومن النور بياضَ الشمس والقمر والسراج ـ لم يكن هناك إخبار بما يخالف الواقع أو الاعتقاد حتى يتناوله اسم الكذب الذي لا يحوم على كتاب الله في الحال، وإنما الكذب ذلك الإغراقُ أو الغلو الذي يضعه الشاعر خيالا بحتاً، كقول بعضهم:

ليس ذا الدمع دمع عيني ولكن ... هي نفسي تذيبها أنفاسي

وقول الآخر:

وأَخَفْتَ أهلَ الشركِ حتى أنه ... لتخافُك النطفُ التي لم تُخْلقِ

صدق اللهجة والقصص الخيالية ضروب:

القصص الخيالية ضروب:

أحدها: ما يحكى على ألسنة الجماد أو الحيوان كقصة كليلة ودمنة.

ثانيها: ما يحكى على ألسنة ذوى نفوس ناطقة، ويدل المتكلم بالقرينة أو بالصريح من القول على أنه اخترعها؛ لتكون مأخذ عبرة أو أدب لغة، كما صنع أبو القاسم الحريري في مقاماته.

وهذان الضربان من قبيل الإخبار بما يخالف الواقع والاعتقاد، والذي يستر عيب الكذب هنا أن المتكلم لم يوقع المخاطب في غلط وسوء تصور، وإنما يعرض عليه حكمةً أو أدبَ لغةٍ في أسلوب طريف.

ثالثها: مايحكيه الرجل على ألسنة ذوى نفوس ناطقة، ولا ينبه على أن القصة غير واقعة، وهذه ـ أيضاً ـ خارجة عن حد الصدق إلى مكان بعيد، ولو كان

الداعي إلى وضعها ماتحتويه من عبرة أو أدب لغة.

فالذين يزعمون أن في القرآن قصصاً غير واقعة، وأنها سبقت لما تحتويه من موعظة لا يريدون إلا أن يطعنوا في القرآن، ويخادعوا المؤمنين، والمؤمنون لا يخدعون.

صدق اللهجة وإخلاف الوعد:

الوعد أخبار عما ستفعله في المستقبل من إحسان، والصدق والكذب يجريان في الأخبار المستقبلة كما يجريان في الأخبار الماضية.

وقد وصف الله ـ تعالى ـ إسماعيل ـ عليه السلام ـ بصدق الوعد أوفائه بما يعد فقال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً ﴾

وإذا كان الوفاء بالوعد يجعله صادقاً فإخلافه يجعله كاذباً لا محالة.

وقد اختلف أهل العلم بعد هذا في لزوم الوفاء بالوعد، فذهبت طائفة إلى أن من وعد شخصاً بإحسان وجب عليه إنجاز ما وعد، وقضى عليه بأدائه.

وهذا مذهب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ورجحه أبو بكر بن العربي في عارضة الأحوذي فقال «والصحيح لزوم الوعد، وُخْلفَه كذب ونفاق»

وذهب طائفة أخرى إلى أن الوفاء بالوعد من مكارم الأخلاق، وأن صاحبه يملك الرجوع عنه، وإذا بدا له أن يرجع فليس للقاضي عليه من سبيل.

وذهب جماعة من فقهاء المالكية إلى تفصيل، وهو أن الوعد المطلق غير لازم، وأما الوعد المنوط بسبب فإنه يصير بمنزلة الدَّين الذي لا مناص له من قضائه، ومثال هذا أن تقول لشخص: تزوج وأنا أدفع المهر، فإذا تزوج كان

للحاكم أن يقضي عليك بدفع المهر قضاءاً نافذاً.

صدق اللهجة وإخلاف الوعيد:

الوعيد إخبار عما ستفعله من شر؛ فإخلافه يجعله كالوعد المخلف قولاً كاذباً.

والرجل الذي يوعد آخر، ثم يضرب عنه عفواً إنما يمدح من جهة أن مصلحة إخلاف الوعيد أرجح من مصلحة إنفاذه؛ ففضيلة العفو تغمر عيب الكذب، وتجعله في نظر الأخلاق شيئاً منسياً.

ولتضاؤل نقص الكذب تحت عظم فضيلة العفو ساغ للإنسان أن يتمدح بإخلاف الوعيد الذي يقول:

وإني إن أوعدته أو وعدته لأخلف إيعادي وأنجز موعدي

ولا شك أن من يقرن الوعيد بنحو المشيئة يحميه أن يجعل إخلافه كذباً.

ولكن الوعيد شأنه أن يصدر في حال غضب لا يملك صاحبه النظر إلى العواقب؛ فهو لا يكاد يلفظ به إلا بعد عزم وتصميم.

صدق اللهجة والمعاريض:

في هذه الحياة بلاء، وأشد بلائها ما يمنعك من أن تقضي حق فضيلة؛ فقد يلاقي الإنسان حالاً ترغمه على أن ينطق بما يكره، ويسلك في القول ما لم يألف.

ولو وقف علم الأخلاق أمام هذه الأحوال المرغمة صلباً جامداً لضاقت سبيله، ووجد بعضُ النفوس للخروج على أمره عذراً بيناً.

وقد وجدنا علمَ مكارم الأخلاق ـ الذي رفع الإسلام قواعده ـ فسيحَ الصدرِ

بمقدار ما يسع مقتضياتِ الحياةِ الفاضلة.

فصدق اللهجة يعد من الفضائل؛ نظراً إلى ما هو شأنه من حفظ المصالح ودرء المفاسد، ولو عرضت على وجه الندرة حالٌ يكون حديثُ الرجل فيها على نحو ما يعلم جالباً عليه أو على غيره ضرراً فاحشاً ـ لوجد في قانون الأخلاق مرونةً تسمح له بأن يصوغ حديثه في أسلوب لا يجلب ضرراً.

فإذا وقع الإنسان في حال لا يليق معه التصريح بأمر واقع، ولم يكن بد من أن يقول في شأنه شيئاً ـ فها هنا يفسح له بمقتضى قانون الأخلاق الذي أتقن الإسلام صنعه أن يأخذ **بالمعاريض، وهي ألفاظ محتملة لمعنين يفهم السامع منها معنى، ويريد المتكلم منها معنى آخر.**

وإذا شئت فقل: هي ألفاظ ذات وجهين: أحدهما: غير حقيقة وهو ما يسبق إلى فهم المخاطب، وثانيهما: حقيقة وهو ما يقصد المتكلم، ويحق لك أن تسمى اللفظ من أجله حديثاً صادقاً.

وهذا ما يفعله الذين أُشْرِبوا صدق اللهجة متى عرفوا أن في القول الصريح حرجاً أو خطراً.

ومما يساق مثلاً لهذا أن أبا بكرٍ الصديقَ كان يُسْأَلُ عن النبيﷺ في طريق هجرتهما من مكة إلى المدينة وهو يريد كتم أمره فيقول: «هذا يهديني السبيل».

ويريد أبو بكر من السبيلِ سبيلَ الخير والسعادة، ويحملها السائل على الطريق التي يسلكها المسافرون.

وما كانوا يرضون عن الحديث ذي الوجهين إذا عمد إليه الرجل لغرض غير

صالح، قال عبد الله بن عقبة: دخلت مع أبي على عمر بن عبدالعزيز، فخرجت وعلي ثوب، فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين، فكنت أقول: جزى الله أمير المؤمنين خيراً، فقال لي أبي: يا بني اتق الكذب وما أشبهه؛ نهاه عقبه عن إجابة السائلين بقوله: جزى الله أمير المؤمنين خيراً؛ لأنه يلقي في أذهانهم أن الخليفة هو الذي خلع عليه هذا الثوب، ولا داعي له إلى أن يجيبهم بهذه الجملة التي يتبادر منها غير الواقع سوى قصد الفخرِ، والفخرُ بإصابة حظوة عند الأمراء - ولو كان مثل عمر بن عبد العزيز - لا يحسب في الأغراض المحمودة حتى يحل للرجل أن يرتكب له حديثاً ذا وجهين.

عنى الإسلام بصدق اللهجة جهد العناية، ويريد مع هذا للأمة إخاء وائتلافاً يجعلها كالبنيان يشد بعضه بعضاً، ويريد لجيشها الفوز على الأعداء يهاجمون أن يتحفزوا، ويرغب في أن يكون الزوجان على وفاق وحياتهما في نظام؛ لهذا خفف المصطفى - صلوات الله عليه - في الكلمة يقولها الرجل ليطفئ عداوة استمرت بين طائفتين، أو يقولها في حرب؛ ليكفي قومه قارعةَ تسلطِ الأعداء، أو ليسكت غضب زوجته الصالحة.

وقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في تأويل الحديث إلى أنه أذن في المعاريض، فذكر هذا الحديث الذي يروى في استثناء الحرب، والإصلاح، وإسكات غضب الزوجة، ثم قال «ولكن ذلك بالمعاريض وهي الألفاظ التي يفهم منها السامع خلاف ما يريد القائل، فهذا هو المأذون فيه».

أثر صدق اللهجة في سعادة الفرد:

يتحلى الإنسان بأدب الصدق، فيشرف قدره، وتطيب حياته، ويصفو باله.

أما الشرف فلأن الصدق يدل على نقاء السريرة، وسمو الهمة، ورجحان العقل، كما أن الكذب عنوان سفه العقل، وسقوط الهمة، وخبث الطوية.

وقد جاء في حديثِ أكملِ الخليقةِ ما يرشد إلى أن الصدق حسنة تنساق بصحبها إلى حسنات وأن الكذب سيئة تنجر به إلى السيئات، قال المصطفى ـصلوات الله عليهـ فيما رواه الإمام البخاري «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا» .

ولا يستقيم لأحد سؤدد، أو يحرز في قلوب الناس مكانة إلا حيث يهبهُ الله لساناً صادقاً.

وإذا ابتغى بالكذب منزلة فإنما يتبوؤها بين طائفة ضربت في أدمغتهم الغباوة، أو طائفة تؤثر اللهو على الجد ويشغلها الخداع عن النصيحة.

وأما طيب العيش فإن الناس لا يطمئنون إلا إلى معاملة الصادق الأمين، وشأنهم الانصراف عمن ألفوه يضع الكلمة في غير وقع، وقد يحرص التاجر أو الصانع على درهم أو دينار يقتنصه بكلمه غير صادقة، فإذا هو يضيع سمعة طيبة، وربحاً وافراً.

ومن الشاهد: أن الصدق يكسب الرجل وقاراً، ويلقي له المودة في عشيرته والناس أجمعين.

واحترامُ الناس للرجل مما يدعوهم إلى النصح في صحبته، وإذا وضع بين أيديهم شأناً من شؤونه الحيوية قاموا عليه بإخلاص.

وأما صفاء البال فمن ناحيتين:

أولاهما: أن مرتكب الرذيلة لابد أن يحس بوخز في ضميره، ويسمى توبيخ الضمير، والكذب من أفظع الرذائل؛ فوخزه في الضمير غير يسير، ومتى سار الإنسان في طرق الصدق، وأقام بينه وبين الكذب حصناً مانعاً عاش في صفاء خاطر، وراحة ضمير، ولم يكن لهذا الوخز النفسي عليه من سبيل.

أخراهما: أن من يلطخ لسانه برجس الكذب لابد من أن تبدوَ سريرته، ويجرَّ عليه شؤم هذه الرذيلة شقوة، فلا يلاقي من الناس إلا ازدراءاً، وربما رموه بالتوبيخ في وجهه.

أما صادق القول فإنه يظل ضافي الكرامة آمناً من مثل هذا الخطاب المشين.

أثر صدق اللهجة في سعادة الجماعة:

تسعد الجماعة، وتنتظم شؤونها على قدر احتفاظها بفضيلة الصدق؛ فالمعاملات كالبيع، والإجارة، والقرض، والشركة لا يتسع مجالها ويستقيم سيرها إلا أن تديرها لهجة صادقة.

والأمة التي تسود فيها فضيلة صدق اللهجة حتى يكون القائم بأي عمل موضع ثقة الجمهور تتقدم حالتها الاقتصادية، ولا يجد عدوها الوسيلةَ إلى مزحمتها في نحو التجارة والصناعة.

والصداقات التي تجعل أفراد الأمة كالجسد الواحد إنما يشتد رباطها على قدر

ما يكون لهؤلاء الأفراد من الاحتفاظ بصدق اللهجة.

وقد يكون للكاذب صديق من صنف أصدقاء المنفعة، ولكنه لا يستطيع أن يتخذ من إخوان الفضيلة صديقاً حميما.

فالذي يستهين بالكلمة الكاذبة يطلق بها لسانه، يؤذي نفسه، ويرهق المجتمع خللا وفساداً؛ فالكذاب لا يعد عضواً أشلَّ فقط، وإنما هو عضو يحمل دماً مسموماً لا يلبث أن يسريَ إلى الأعضاء المتصلة به، فيؤذِيَها.

أثر صدق اللهجة في العلم:

يمرق الرجل من فضيلة الصدق على طريق شتى، وأبعد هذه الطرق ضلالاً أن يتحدث في العلم بما ليس من العلم، أو يضيف إلى أحد قولاً لم يصدر عنه، يفعل هذا من يرغب في التفوق على قرين ينافسه، أو يرغب في أن تطير له سمعةً أعلى من منزلته.

ومن يحاول التفوق على قرينه بزخرف من الباطل فهو أخو الساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى.

ومن رضي بأن تكون سمعته فوق منزلته فإن وراء السمعة عقولاً تزن الرجال بالآثار؛ فلا يَدَعُون السمعةَ تغلو في طيرانها، بل يأخذون بناصيتها، ويهبطون بها إلى أن تكون مع منزلة صاحبها على سواء.

ولو أيقن أولئك الذين يدسون في العلم ما ليس من العلم أن من حولهم بصائرَ نافذةً وأقلاماً ناقدةً ـ لما انسلخوا من لباس الصدق، ولكنهم قوم لا يوقنون.

يتحدث العالم في غير صدق، فتذهب الثقة به من القلوب، ويذهب معها شطر علمه وهو ما يرجع إلى النقل والرواية.

وكم من مُنتمٍ إلى العلم اطلعوا له على اصطناعه خبراً؛ فطرحوه من حساب الموثوق بنقلهم، وكذلك الرجل يخرج عن أدب الصدق مرة، فيتعدى شؤم الكذب إلى سائر أقواله، فتوشك أن تذهب كما يذهب هذيان الْمُبَرْسَمِين هزوًا.

كذبت ومن يكذب فإن جزاءه إذا ما أتى بالصدق أن لا يُصَدَّقا

علل التهاون بصدق اللهجة:

ينحرف الرجل في حديثه عن قصد السبيل لدواعٍ مقبوحةٍ، ومآربٍ دنيئة.

وليس في وسعنا ذكر هذه الدواعي والمآرب، وإنما نسوق منها أمثلة تريكم أن من لا يَقْدُر قيمة الصدق قد يبيعه بثمن بخسٍ، وكلُّ مايرضى به ثمناً للصدق فهو بخس ولو حثوا له من هذه الصفراء والبيضاء[1] ما لا يأتي عليه حساب.

ينحرف الرجل عن الصدق؛ ليتملق ذا مقام وجيه، ولايتزلف إلى ذوي المقام الوجيهة بقول الزور إلا من صَغُرتْ نفسه وضاق عليه مجال القول الصائب الحكيم.

نحن نعلم أن بعض ذوي المناصب قد مُسِخَتْ فطرهم؛ فلا يرضون عمن يجلس إليهم إلا أن يدخل عليهم من باب التملق والنفاق، ونعلم مع هذا أن كرم الأخلاق يدعوك إلى أن ترعى حرية ضميرك، وتحافظ على صدق لهجتك؛ فأجب داعيَه، وذر الذين يحبون أن تشيع فاحشة في الأمة؛ فإنهم قوم لا يفقهون.

---

(١) يقصد بالصفراء: الذهب، وبالبيضاء: الفضة (م).

ينحرف الرجل عن الصدق؛ لَيُغْرِبَ عند الناس، ويريهم أنه صاحب سمر؛ حتى يخف عليهم ظله، ويرغبوا في منادمته.

وإنما يفعل هذا من يحرص على أن يغشى كل منزل، وتتمَّ به حلقة كل مجتمع. أما من يبتغي الحياة الزاهرة الشريفة فيتقلد فضيلة الصدق في كل حال، ثم لا يوالي إلا أولي الجد، ولا يبذل خطواتِه إلا حيث تحترم الحقيقة والفضيلة.

وقد ينطوي بعض الناس على عداوة الشخص، فيرميه بمساوىء؛ ليصرف عنه القلوب، ويُسْقِطَ مهابتَه من العيون.

ولا أشأم على الرجل من أن يناضل عدوه بالبهتان.

ومن كانت له حاجه في أن يؤلم أعداءه فإنه لا يؤلمهم بأشد من احتفاظه بمكارم الأخلاق، ومن أعز هذه المكارم أن يكون حرَّ الضمير، عفيف اللسان.

وفي الناس من إذا أخذ يحدثك في شأنه أو شأن سلفه أذن لقريحته، فيخترع، وأطلق لسانه فيرتع في غير واقع.

والألمعية تشهد بأن الرجل لا يستطيع أن ينال بمثل هذا الحديث ذرة من فخر أو حمد.

وربما قام حديثه هذا شاهداً على أنه لم ينشأ في أدب متين؛ فيطرح نفسه في زراية من حيث يريد أن يرفعها إلى فخار.

ومن لا يؤمن بأن خالق الكون يجازي هذه الألسنة على ما تصنع من تحريف أو تزوير ـ لا يبالي أن يلبس الحقيقة بالباطل، ويصور بلسانه أشياء ليس لها في الواقع من مثال.

ولا يكاد الملحد يحتفظ بصدق القول إلا حين يريد أن يتشبه بذوى المروءة، وحين يخشى افتضاح زوره، ويخشى من افتضاحه ضرراً.

وانظر في قصة أبي سفيان حين استدعاه هرقل في ركب من قريش، وأخذ يسأله في شأن النبي ﷺ فإنكم تجدون أبا سفيان وهو زعيم قريش يومئذ يقول «فو الله لولا الحياء من أن يأثروا عنى كذباً لكذبت عليه».

قال أبو سفيان هذا أيام جاهليته وهو سيد قومه.

أما صدق اللهجة القائم على الإيمان فلا يختل نظمه، ولا يختلف غيب صاحبه عن حال علا نيته؛ فمن تصدى جماعة، وعني بأن يجعلهم المثل الأعلى لفضيلة الصدق ـ فليسعَ لأن يكون إيمانهم بالله راسخاً، والإيمان الراسخ مطلع كل فضيلة.



١٦ من أخلاقنا[١] للشيخ علي الطنطاوي[٢]

أعرف رجلاً أنعم الله عليه بسعة المال، وفطره على صدق الود، وبسط اليد؛ فأباح إخوانه ماله، يغترقون منه اغترافاً، ويأخذون منه علاً ونهلاً، قرضاً حسناً لا يطالبون برده، وهدية لا يسألون المقابلة بمثلها، وهبة لا يُرتَقَبُ منهم عوضٌ عنها، ولا يسمعون كلمة منّ أو تذكير بها.

وفَتَحَ لهؤلاء الإخوان ـ وما كان أكثرهم ـ داره، وأفرد لهم جناحاً فيها لا يدخله أحد من حرمه وأهله، وأقام عليهم خادماً وطاهياً، وانقطع فيه لاستقبالهم قادمين بالبشاشة والترحيب، وإيناسهم مقيمين وخدمتهم، وتوديعهم راحلين مشيِّعاً إياهم بالكرامة، شاكرهم على تفضلهم بالزيارة، سائلهم التكرم بالعودة.

ولبث هذا الرجل على ذلك حتى أضاع ماله كله، فباع الدار وأثاثها، وغدا فقيراً يحتاج إلى الورقة السورية، فلا يجد في كل أولئك الإخوان من يدفعها إليه، لا وفاء دين، ولا مقابل هدية، ولا عوضاً من هبة، ولا قرضاً حسناً إلى أيام السعة، اللهم إلا قرضاً برباً، ولا يرضى المرابون أن يقرضوا مفلساً.

ولعل الرجل أخطأ حين عمد إلى هذا الكرم الجاهلي فأخذ به، وترك التأدب بأدب القرآن الذي يقول: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾؛ والذي جعل المبذرين إخوان الشياطين.

---

(١) نشرت عام ١٩٤٧م، وانظر كتاب «في سبيل الإصلاح» ص٩٥ـ١٠٠.

(٢) سبقت فب المجموعة الأولى ترجمة له.

ولعله لقي جزاءه؛ فما سقت القصة للحكم عليه، وإنما قصصتها لأنها ذكرتني بطائفة من أخلاقنا، هي كالداء في جسم الأمة، لا يجمل بالكتّاب وحملة الأقلام السكوت عنها والرضا بها، وهم أطباؤها وأساتها، وعندهم دواؤها.

ذكرتني بما نكاد نراه كل يوم من الحوادث وما يكاد يعرف له كل قارئ شبيهاً ومثيلاً، حين يأتيك الرجل من أصدقائك أو جيرانك متذللاً متواضعاً، مظهراً للتقى والأمانة، يسألك أن تقرضه مالاً قد تكون أنت في حاجة إليه في يومك أو غدك، ويذكرك الكرم والثواب؛ وربما استعان عليك بمن لا يُرَدُّ طلبُه عندك، فتعطيه ما يريد، تضعه في كفه خالياً به، تستحيي أن تشهد عليه شاهداً، أو تأخذ به كتاباً، مع أن الله أمر بكتابة الدين إلى الأجل المسمى أمر ندبٍ واستحبابٍ، لا أمر إيجاب وافتراض؛ فيأخذه منك ويذهب شاكراً فضلك، مثنياً عليك ثناءاً يخجلك ويضايقك، ثم لا تراه بعد ذلك، ولا تبصر له وجهاً، فتفتش عنه؛ لتسأله رد المال وقد انقضت مدة الدَّين، وتجددت حاجتك إليه، فيروغ منك، وينأى عنك، فتطرق بابه، فيقال لك: هو غائب عن الدار، فتعود إليه في الصباح فيقال: هو نائم، فترجع بعد ساعة فيقال: خرج، فتبتغي إليه الوسائل وتتشفع إليه بالأصدقاء، فيلقاك شامخ الأنف مصعّراً خده، يقول: يا أخي، أزعجتنا بهذا الدين، ما هذا الإلحاح الغريب؟ أتخاف أن آكله...؟!

وينتهرك وأنت تداريه، ثم إن كان رجلاً طيباً دفع إليك الدين، ولكن قرشاً بعد قرش، وورقة[1] بعد ورقة، فتريق في استيفاء دينك ماء وجهك، وتنفق فيه

(١) نحن في الشام نسمي الليرة السورية ورقة سورية.

الثمين من وقتك، ثم لا تنتفع منه بشيء.

وإن لم يكن صاحب ذمة أكل الدين كله، وصرخ فيك حيثما لقيك: ما لك عندي شيء. اشتك للمحاكم!، وهو يعلم أنه لا سند في يدك، ولا بينة لك عليه.

وهبك أخذت منه كتاباً بدينك، أفتصبر على طول المحاكمة، ومتابعتها، وتأجيلها، وتسويفها، ورسومها، ومصارفها؟ إن ضياع المال أهون من إقامة الدعوى به[١].

ومثل هؤلاء المقترضين الأفاضل مستعيرو الكتب، أولئك الذين تركوا في قلبي غصصاً حلفت بعدها بموثقات الأيمان أني لا أعير أحداً كتاباً، ولم أنج مع ذلك منهم، ولم يردّ لي إلى الآن كتاب «كشف الظنون» الذي نسيت من استعاره مني منذ إحدى عشرة سنة...

ولهؤلاء المستعيرين نوادر شهدت منها العجب، منها أن أستاذاً محترماً في قومه جاءني مرة يلتمس إعارته جزءاً من تفسير الخازن من خزانة كتبي؛ ليراجع فيه مسألة، ويرده إليَّ عاجلاً، ففعلت؛ وانتظرت أربع... أربع سنوات والله ثم ذكرته به؛ فغضب وقال: لإيش العجلة يا أستاذ؟ لم أراجع المسألة بعد...!

والذي يذكر منهم صاحب الكتاب، ويتنازل، فيرده إليه، يرده مخلوع الجلد ممزق الأوصال.

وأنكى منه المستعير المحقق المدقق الذي يرى في الكتاب موطناً يحتاج إلى تعليق، فيكتب التعليقة التي يفتح الله بها عليه، على هامش كتابك بالحبر

---

(١) ولو سألتني دليلاً لنبأتك أنها كانت لأسرتنا قضية بقيت في المحاكم ثلاثاً وثمانين سنة.

الصيني الذي لا يمحى ولا يكشط، ويذيّلها باسمه الكريم!!

وشر من هؤلاء جميعاً الثقيل الذي يتظرف، ويتخفف، فيرى أن من الظرف سرقةَ الكتب، فإذا زارك وتركته في المكتبة وخرجت؛ لتأتيه بالقهوة والشاي أخذ كتاباً فدسَّه تحت إبطه، أو وضعه في جيبه ثم ذهب به وأنت لا تدري[١]..

وربما كان هذا المدين المماطل، وذلك الذي يأكل الدين وينكره، والذي يستعير الكتاب ويمسكه، ربما كانوا عند العامة من أقطاب الوقت، وأولياء الله الكبار؛ ذلك لأن الناس جهلوا حقيقة التقى، وبدلوا معناه؛ فكان التقي في صدر الإسلام هو الذي يتقي المحارم والمظالم ما ظهر منها وما بطن، ولا يدخل جوفه ولا جيبه إلا طيباً حلالاً، ويفر من مواطن الشبهات، ولا يطلب المال إلا لإمساك الرمق ونيل القوام، والعيش عيش القناعة والرضا، ولا يأخذه إلا من حلّه.

ولم يكن الرجل؛ ليشهد للرجل بالتقوى إلا إن صحبه في سفر، أو عامله في مال؛ فصار التقي اليوم من يكبِّر عمامته، ويطوّل لحيته، ويوسع كمه، ولا تفارق يده سبحته، ولا يقف لسانه عن ذكر؛ ومن يتوقر ويطيل المكث في المساجد.

وهذا كله حسن لا اعتراض عليه، غير أن حُسْنَهُ ينقلب قبحاً أبشع القبح إذا

---

(١) وآخر ما وقع لي هنا أنه كان عندي دفتر كبير مكتوب كله بخطي فيه ما سمعته من الدروس في علم النفس لما كنت في شعبة الفلسفة سنة ١٩٢٩، فقدته من غرفتي في داري في مكة التي لا أدخلها إلا خاصة أصدقائي، وكان ذلك نحو سنة ١٤٠١ أو ١٤٠٢.

اتخذه صاحبه أحبولة يصطاد بها الدنيا.

كذلك الذي كان وصيَّاً على أيتام ضعاف لا يملكون حيلة، اغتر أبوهم بلحيته وسبحته فوصى بهم إليه، فجرعهم كؤوس المذلّة والجُوع، ونشَّأهم في الأزقة نشأة اللصوص، وأكل أموالهم وهو يقرأ كل يوم بصوته الجميل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾.

وهو مع ذلك لا ينقطع عن الأذكار وحلقاتها، ويجهر بالبكاء إذا سمع الموعظة، وينكر أشد الإنكار على من يهمل السنن؛ فيشرب بشماله، أو يحلق لحيته، والناس يتبركون بلثم يده؛ فكيف السبيل إلى إفهام هؤلاء الناس ما هي حقيقة التقى كيلا يعظموا اللص، ويجعلوه وليَّاً مباركاً، ولا يغتروا بالصلاح المجاني الذي لا يكلف صاحبه مالاً، بل يجمع به المال، ويعلموا أن الله الذي وضع في نفوس الشباب شهوة الجسد وضع في نفوس هؤلاء المشايخ ـ لست أعني المشايخ كلهم ـ شهوة المال، وأنه لا فضل لأحدهما على صاحبه؛ وأن الشيخ التقي هو الذي لا يقيم للمال وزناً، ولا عبرة بغضه البصر عن النساء واتباعه سبيل العفاف؛ وأن الشاب الصالح هو الذي لا تغلبه على نفسه تلك الشهوة ولا عبرة ببذله المال...

لقد انحدرت أخلاقنا حتى صار الشاب منا حين يخوض خِضَمَّ الحياة، ويرى الاختلاف بين ما علموه من الأخلاق في المدرسة، وما تواضع عليه الناس في الحياة ـ يقف حائراً مدهوشاً لا يدري ما يأخذ وما يدع؛ فلا هو يرتضي لنفسه التفريط في أخلاقه: صدقه وأمانته وعزة نفسه، ولا هو يرتضي الحرمان من المتع

واللذائذ والمناصب العالية والمرتبات الكبيرة يناله جزاء تمسكه بما علّموه من الأخلاق.

حدثني صديق لي أنه انتسب في شبابه إلى الشرطة، فجعلوه رئيس مصلحة السير في بلدة من بلاد الشام، وكان ذلك منذ خمس وعشرين سنة أو أوفى من ذلك، وكان مقره في مخفر في ظاهر البلد، فمر عليه رَتْلٌ من السيارات في حجاج آيبون، وكان نظام تلك الأيام أن سيارة لا تجتاز على مخفره إلا بوثيقة وإذن، لا أدري ما صفتهما فقد نسيت دقائق حديثه، ولم يكن معهم ذلك الإذن فوقفهم، ومنعهم من المرور إلا به، قال: فغاب السائق هنيهة ثم عاد وفي يده صرة وضعها على مكتبي فيها أربعون ريالاً مجيديًّا، وقال هؤلاء حجاج آيبون يريدون التعجيل بالوصول، وهذه الصرة ثمن فنجان قهوة رجاء السماح لهم... إلخ.

قال: فلما سمعت ذلك قفَّ شعري وصحت به: أتريد أن ترشوني يا كذا وكذا، وأمرت به فوقف، واستلمت الهاتف (التلفون) أهتف بمدير الشرطة أرفع إليه الأمر، وأنا أرى أنه سينزل به أشد الجزاء، فإذا به يأمر بإطلاقه، ويأذن للسيارات بأن تسافر على خلاف النظام، وأن يبعث إليه بالمال، ليجري التحقيق.

قال صديقي: وذهب المال ولم يعد، وتركت العمل، ولو أني بقيت لطرحت عن عاتقي ثقل الأخلاق التي تجعلني غريباً بين زملائي، وتحرمني الغنى، وتكسبني غضب الرؤساء، فلا يصيبني ترفيع، ولا يصل إليَّ خير.

وليست هذه القصة فريدة في بابها، ولا هي نادرة من النوادر، بل هي قصة

كل يوم، وهي الداء الذي يزداد ويسيطر، والأساة عنه غافلون.

وأين أساته وأهل السياسة مشغولون بالقتال على كراسي الحكم، هي الدنيا لهم وهي الأخرى، وأهل الأدب بين نائم يستمتع بشهيِّ الأحلام، ومستيقظ قد ألهاه هواه، فهو يملأ الدنيا بكاءاً ونحيباً؛ لأن صاحبته أسهرته بعدِّ النجوم ولم تأته، أو أنها قد وعدته بقبلة ثم وجدت أجمل منه، أو أفسق فأعطته إياها، وأهل العلم يعيش أكثرهم على هامش الحياة لا همَّ له إلا مرتبه يقبضه من دائرة الأوقاف في مطلع كل شهر، ثم لا تراه ولا يراه أحد إلى الشهر الذي بعده، أو حاشية يقرؤها ويعيدها على من حضر مجلسه قراءة تبرك لا قراءة تحقيق، فلا يرجع، ولا ينتقد، ولا يقابل قانوناً على قاعدة فقهية، ولا ينظر مشكلة من مشاكل العصر؛ ليرى حكمها.

ومن اشتغل منهم بالمسائل العامة أخذ نفسه بالاهتمام بأمر لا يقدم في الدين ولا يؤخر، ولا يتوقف عليه إيمان ولا كفر.

والشباب الناشئون؛ لجهلهم حقائق الإسلام، وبُعْدِ ما بينهم وبين المشايخ، وقَصَرِ أيديهم وأفهامهم عن نيل الكتب ذات الشروح والحواشي ـ قد زهدوا في كل ما هو شرقي واستهانوا به، وعظموا ما يقابله من كل حماقة دعيت مذهباً اجتماعيًّاً، وكل سفسطة سميت فلسفة، وكل كفر بالدين والعرض دعي أدباً، وأعانهم على ذلك أن أكثر المدرسين من الذين لم يقدر لهم فهم علوم الإسلام والغوص على كنوز كتبه.

ولست أطلق القول وأجنح إلى التعميم؛ فإن في كل فئة من هؤلاء ـ الطيبين

والمصلحين، ولكن الكثرة على نحو ما ذكرت؛ فمن أين يرجى إصلاح أخلاقنا وأوضاعنا؟

ومن أين يرجى لأخلاقنا صلاح؟ ولم نتفق بعد على الأخلاق التي ينبغي أن نتخلق بها؛ فمنا من يرى المثل الأعلى في أخلاق الجاهلية: كرم إلى حدّ التبذير، وشجاعة إلى حدّ التهوُّر، كصاحبنا الذي استهللت بحديثه هذا المقال، وعامة طائفة الزكرت في الشام، وهي أشبه بالفتوة في مصر وأكثر البدو، ومنا من يميل إلى التخلق بأخلاق أجدادنا في القرن الماضي على ما كانت عليه بلا زيادة عليها ولا نقصان منها، ومن يخالفهم مخالفة الضدّ للضدّ فيرى أن نقتبس الأخلاق الغربية برمتها.

ويتشعب بهؤلاء الرأي فيميل كل إلى الأمة التي تعلم في مدارسها، أو رحل إلى أرضها، ومن يرى اقتباس الجيد النافع من كل أمة من غير أن يحدد أو يعين.

ولا دواء لهذه الفوضى في رأيي، ولا صلاح لأخلاقنا، إلا بالرجوع إلى الإسلام الصحيح الذي جاء به سيدنا وسيد العالم محمد ﷺ لا الإسلام الذي يفهمه المتاجرون بالدين، ولا الذي تفهمه العامة؛ فإذا فعلنا فثمة كلُّ خيرٍ، ولا يكون ذلك إلا إذا شمر العلماء وحققوا المسائل، ودرسوا المشكلات، وألقوا عن المصنفين الأولين رداء التقديس، واستمدوا الأحكام من موردها، ثم ترجموا هذه الكتب القديمة إلى لغة العصر.

١٧ إشاعة السوء وموقف الإسلام منها[١] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

إشاعات السوء عن شؤون الأمة وسير أعمالها، وأهداف إصلاحاتها، ومقاصد رجالها ـ لا تقل ضرراً في كيان الأمة، وسلامة الوطن عن التجسس للعدو على دخائلها، ومواطن قوتها وضعفها؛ فكل ذلك خدمة للعدو، وموالاة له، وقد خاطب الله المسلمين بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ الممتحنة: ١.

بل إن موالاة العدو ـ في حال عدوانه ـ وترويج ما ينفعه في مضرة الإسلام وأهله تخرج الموالين له عن تبعيتهم لأمتهم، وتلحقهم بأمة عدوهم، وفي ذلك يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ المائدة: ٥١.

ترويج إشاعات السوء:

ومن أشد ما يوالي به المنافقون من يكيد للأمة من أعدائها ترويج إشاعات السوء والإصغاء إليها، وقد ورد في ذلك قول الله ـ عز وجل ـ ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ الأحزاب: ٦٠ـ٦١.

---

(١) من كتاب أحاديث في رحاب الأزهر، لفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وحققها علي الرضا التونسي ص١٠٧ـ١١٠، ومجلة «الأزهر» الجزء الثاني ـ المجلد الخامس والعشرون، صفر ١٣٧٣.

وكان مما كانوا يرجفون به ما ذكره الله عنهم في قوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُوراً﴾ الأحزاب: ١٢.

ولهؤلاء المنافقين خلفاء في كل عصر من عصور الإسلام، وفي كل وطن من أوطانه، يخذلون الناس عن أئمتهم وولاة أمرهم، ويشيعون السوء عن برامجهم وخططهم، وهذا مرض في القلوب كما وصفه الله - عز وجل - وعلى من يصاب بهذا المرض أن يعالج نفسه قبل أن يعالج بأحكام الله.

وفي هؤلاء - أيضاً - ورد قول الله - سبحانه -: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ النساء: ٨٣.

أي أفشوه حيث لا يكون من المصلحة العامة إذاعته وإفشاؤه، وقد يكون ما يذيعونه كذباً ومضراً بالمصلحة، فيكون ذلك من الإثم المزدوج الذي طهر الله قلوب المؤمنين منه.

واللائق بالمسلمين إذا سمعوا قالة السوء أن يكونوا كما أراد الله للمسلمين في قوله -عز وجل-: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ النور: ١٢، إلى أن قال - سبحانه -: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ. وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ النور: ١٥-١٦.

ولما عاد المسلمون من غزوة أحد كان فيهم من اختلفوا في الحكم على المنافقين

والمرجفين، فقال فريق للنبي ﷺ: «اقتلهم»، وقال فريق: «لا تقتلهم»، فنزل في ذلك قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ النساء:٨٨، وفي ذلك ورد الحديث النبوي: «إنها طيبة (أي المدينة) تنفي خبثها كما تنفي النار خبث الحديد» وفي رواية «خبث الفضة».

وأول فتنة في الإسلام، وهي الجرأة على خليفة رسول الله وصهره عثمان رضي الله عنه كان منشؤها إشاعاتِ السوءِ الكاذبةَ، وتضليلَ البسطاء وضعاف الأحلام، فجرّ ذلك على الأمة من الضرر ما لم تتوصل إلى مثله الدول المعادية بما لديها من جحافل وقوات حربية.

وفي الليلة الأخيرة قبل نشوب حرب الجمل توصل أصحاب رسول الله ﷺ من الفريقين إلى التفاهم على ما يرضي الله ـعز وجلـ من إقامة الحدود الشرعية على من يثبت عليه أن له يداً في مصرع أمير المؤمنين عثمان، وبات أبناء كل فريق في معسكر الفريق الآخر بأنعم ليلة وأسعدها وأرضاها لله، فما كان من القتلة ومن يتبعهم من قبائلهم إلا أن أنشبوا القتال في الصباح الباكر، وأشاعوا في كل معسكر من المعسكرين بأن المعسكر الثاني هو المهاجم له على خلاف ما اتفقوا عليه بالأمس، وبذلك كانت الإشاعات بين الطرفين أفتك بهما، وأضرّ على الإسلام من أسلحة البغاة الفاتكة.

أيها المسلمون: إن إشاعات السوء سلاح العدو، والذي يصغي إليها يُمَكّن العدو من الفتك بالأمة والوطن، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم؛ فاعملوا في ذلك وفقاً بهداية الله ـ عز وجل ـ وإرشاده حين يقول: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ

قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ النور: ١٦.

وعلى ولاة الأمر أن يتصرفوا فيمن يثبت عليهم ذلك وفقاً لحكم الله ـ تعالى ـ حين يقول لنبيه: ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً . مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ الأحزاب: ٦٠ـ٦١.

إن الأمة تجتاز اليوم مرحلة من أدق مراحلها في تاريخ نضالها العنيف، هي مرحلة تقرير المصير، وهذه المرحلة ـ بما لها من الخطر والأثر في مستقبل الأمة وحاضرها ـ تقتضي منَّا أن نتيقظ لكل ما يراد بنا، سواء من العدو الغاصب، أو من أعوانه، وأن نحذر دعاة الفتنة والذين يعملون على إشاعتها بين طبقات الأمة، ولنعلم أن هؤلاء وأولئك يستهدفون غرضاً واحداً، ويعملون لغاية واحدة، هي تمزيق الشمل، وتشتيت الجمع، وتفريق الكلمة، وإشاعة الكراهية بين الحاكم والمحكوم، وإلقاء العداوة بين المؤتمين والمأموم، وهم بهذا يعملون للفتنة ومن أجلها، فإذا ما تحققت غايتهم فإن الفتنة لا تصيبهم وحدهم، ولا تصيب طائفة دون أخرى، وإنما تصيب الأمة بأسرها، وقد حذرنا الله ـتعالى- منهم، ومن فتنتهم، فقال ـ جل شأنه ـ: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ الأنفال: ٢٥.

واتقاء الفتنة يكون بدفعها وإدحاضها، وإنزال العقوبة الرادعة على كل من يثبت عليه أنه كان سبباً فيها، أو في عنصر من عناصرها.

ويرى علماء الشافعية أن تكون العقوبة هي «الإعدام» لكل من يثبت عليه أنه

أحدث بين المسلمين فتنة، وأما علماء المالكية فإنهم يتركون الحد على هذه الجريمة لاجتهاد الإمام ـ أي الحاكم ـ.

ومن هنا نرى أنه لا سبيل إلى الهوادة أو المهادنة في إقامة الحد على هذه الجريمة النكراء، جريمة إحداث الفتنة بين الصفوف مناصرة لعدو البلاد الأكبر، وهو المستعمر الغاصب.

فلنتق الله في أمتنا ووطنا، وتقوى الله تدفع كل شيء، وتحول دون أي مكروه، والله يوفقنا، ويسدد خطانا إلى ما فيه النجاح والإرشاد.

١٧ البخيل[١] للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي[٢]

سألني سائل: ماذا يستفيد الإنسان من حتى بخله على نفسه؟ وأي غرض يرمي إليه من ذلك؟ فأجبته بهذا الجواب:

البخل إحدى الملكات النفسية، والمَلَكَةُ صفةٌ راسخة في النفس تصدر عنها آثارها عفواً بدون روية ولا اختيار؛ فكما لا يُسأل المسرفُ عن سبب إسرافه، والغاضبُ عن غايته من غضبه، والحاسدُ عن غرضه من حسده ـ كذلك لا يسأل البخيل عما يستفيده من بخله وحرصه؛ فكثيراً ما تعرض لأرباب هذه الملكات عوارضُ تنزع بهم إلى الرغبة عن التخلي عنها حيناً، فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً؛ لمكان تلك الملكات من نفوسهم، ونزولها منها منزلة لا تزعجها الرغبات، ولا تزعزعها الإرادات.

وربما عرض للبخيل ما يدفعه إلى بذل شيء من ماله؛ فإذا وضع يده في كيسه وحاول القبض على شيء مما فيه أحس كأنَّ تياراً كهربائياً قد سرى من نفسه إلى يده؛ فتشنَّجت أعصابُها، وتصلَّبت أناملُها، وأعيت على الالتواء والانثناء؛ فأخرجها صفراً كما أدخلها، وبودِّه أنْ لا يفعل لولا أنَّ للغريزة قوةً فوقَ الإرادة، وسلطاناً تخضع له الرغبات، وتنقاد إليه العقول، إلا إذا كان وراءها وازع من القانون يزعها؛ فإنه يكسر شرتها أحياناً، وإن لم ينتزعها انتزاعاً.

---

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة الموضوعة ص٢٢٣ـ٢٢٨.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

ويحكى أن شحيحاً تحركت في قلبه يوماً الشفقةُ على ابنته الجائعة العارية؛ فأراد نفسه على أن يبذل لها شيئاً من ماله فَتَأَبَّتْ عليه؛ فأذن لوكيله أن يختلس لها من ماله ما يسد خلَّتها من حيث لا يعلمه بذلك، ولا يدعه ينتبه لشيء منه، علماً بأنه لا يستطيع أن يكون كما يريد.

فالوجه في السؤال أن يقال: **ما هي الأسباب التي غرست ملكةَ البخل في نفس البخيل؟** فيكون الجواب عن ذلك: أن الأسباب تختلف باختلاف الأشخاص، وأطوارهم، وأخلاقهم، وتربيتهم، ونحن نذكر أهم تلك الأسباب من حيثُ ذاتُها بقطع النظر عن افتراق ما يفترق منها، واجتماع ما يجتمع.

الأول ـ الوراثة: وهي ـ وإن كانت سبباً ضعيفاً لما يعرض للأخلاق الموروثة أحياناً من التغير والانقلاب بمعاشرة المتصفين بأضدادها، والتأثر بمخالطتهم ـ إلا أنها كثيراً ما تنمو، وتتجسَّم إذا أُغفلت ولم يعترضها ما يسد سبيلها، ويقف في طريق نمائها.

الثاني ـ التربية: إذا نشأ الطفل بين أهل أشحَّاء، ولم يكن في فطرته ما يقاوم سلطان التربية على نفسه أخذ أخذهم في الحرص، وتخلَّق فيه بأخلاقهم كما يتخلق بها في العقائد والعادات من حيث لا يفكر في استحسان أو استهجان، كأنما هي عدوى الأمراض التي تسري إلى الإنسان من حيث لا يدري بها، ولا يشعر بسريانها.

ويُحْكَى أن رجلاً دخل منزلاً يُعْرَف أهلُه بالشح والحرص، فرأى طفلاً صغيراً في يده ليمونة؛ فطلب إليه أن يعطيه إياها، فأجابه الطفل: «إن يدك لا

تسعها»!

الثالث ـ سوء الظن بالله: ذلك أن المتدين إذا أخذت عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها رسخ في قلبه الإيمانُ بأن لله ـسبحانه وتعالىـ عيناً ساهرة على عباده الضعفاء؛ فهو أرحم من أن يغفل شأنهم، ويكلهم إلى أنفسهم، ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الأيام؛ فلا يَلِجُّ به الحرصُ على الجمع، ولا يزعجه الخوف من البذل.

وعلى العكس منه ضعيف الإيمان، ضعيف الثقة بواهب الأرزاق، ومقسم الحظوظ والجدود؛ فهو لسوء ظنه لا يزال الخوف من الفقر نصبَ عينيه حتى يصير البخل ملكةً راسخة فيه.

الرابع ـ النكبات: كثيراً ما تحلُّ بالإنسان نكباتٌ تصهر قلبه، وتزعج غريزته من مستقرها، ومن ذلك النكباتُ التي يكون مرجعُها قلةَ المال، كأنْ يقع الرجل في خصومة يرى أنه لولا ضيقُ ذات يده لما وقع في مثلها، فكلما تمثلت له نكبةٌ لجَّ به الحرصُ، وأغرق في المنع، حتى يصير ذلك غريزة فيه، وخلقاً ثابتاً له.

ومن ذلك جديد النعمة الذي ذاق مرارة الفقر حِقْبَةً من الزمان، وكابد منه ما كابد من الآلام والأوجاع؛ فإنه مهما حسنت حاله، وانتعشت نفسه، وفاضت خزائنه بالفضة والذهب ـ لا تذهب من فمه تلك المرارة، ولا تُضَيِّع ذاكرتُه آلامها، فلا يزال يتملك قلبه وسواس مقلق يُخَيِّل ما لا يُتَخَيَّل، ويريه ما لا يرى، كمن تمثل له خيال الشيطان مرة في أبشع صورة، وأفظع شكل؛ فهاله منظره، وذهب الخوف منه برشده؛ فلا يزال يراه في كل مكان وزمان، وفي حالتي

الأمن والخوف، والوحشة والأنس.

الخامس ـ اللؤم: فإن النفس إذا خبثت طينتُها، ولَؤُمَ طبعُها كان من أخص صفاتها الحقدُ على الوجود بأجمعه، وبغضُ الخير للناس قاطبة، فكيف يمنحهم من ذات يده ما يزيده ألماً على ألم، وحسرة فوق حسرة، وهو لو استطاع أن يمنع عنهم سارية السماء، ويعترض دونهم نابتة الأرض لفعل؟.

السادس ـ سقوط الهمة: إذا نشأ الإنسان عاليَ الهمة طموحاً إلى المعالي، محباً للذكر الحسن، والثناء الجميل ـ سهل عليه أن يبذل في سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده أو ذات نفسه.

وحب المجد أسال الذهب من خزائن الأغنياء، وصيَّر نفوس الشجعان نهباً مقسماً بين شفرات السيوف، وأسنة الرماح؛ طلباً لسعادة الحياة بالذكر، وسعادة الممات بالخلود؛ فمن لساقط الهمة ضعيف النفس بدافع يدفعه إلى بذل المال على مكانته الراسخة في قلبه، وامتزاج حبه بلحمه ودمه؟ أيدفعه حبُّ الثناء، وهو لا يشعر بلذته؟ أو خوف المذمة، وهو لا يتألم منها، ولا يحس بمرارتها؟ أم سعادة الحياة وسعادة الممات؟ وهو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على لسان الحطيئة من المكارم بلقمة يمضغها، وحُلَّةٍ يلبسها[1].

السابع ـ فساد المجتمع الإنساني: ذلك أن كثيراً من الناس قد بلغ بهم حبُّ المال، والتعبدُ له أن صاروا يعظمون صاحبه لا لفائدة يرجونها، أو خيرٍ يطمعون

---

(١) يشير إلى ما قاله الحطيئة في الزبرقان:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي (م)

فيه، بل لأنه ذو مال، وذو المال في نظرهم أحق الناس بالمحبة والإكرام والإعظام، وإن لم يحصلوا منه على طائل؛ فلو أنهم عبدوا الله ـسبحانه وتعالى ـ بهذا النوع من العبادة لأصبحوا من عِبَاده المقربين، فمن ذا الذي لا يحب من البخلاء أن ينال هذه المنزلة في نفوس هؤلاء المتملقين وليس بينه وبينها إلا الحرص على ما في يده، وهو عمل يتكلفه[1]، ولا يتعمَّل له، بل هو أشهى الأشياء إليه، وأكثرها ملائمة لفطرته؛ ليزداد شرفاً وعزاً، كلما ازداد ثراءً ووفراً.

ومن هنا قال أحد البخلاء لأولاده: يا بني لأنْ يعلم الناس أن عند أحدكم مائة ألف درهم أعظم له في أعينهما[2] من أن يقسمها فيهم.

وقال رجل آخر: يا بخيل؛ فقال له : لا أحرمني الله بركة هذا الاسم؛ فإني لا أكون بخيلاً إلا إذا كنت غنياً فَسمِّ لي المال، ولقبني بما تشاء.

هذه هي أهم الأسباب التي تألفت منها رذيلة البخل؛ فإن أغفلنا النظر إليها، وسَلَّمْنا للسائل صحة سؤاله عما يستفيده البخيل من بخله، حتى على نفسه، وفرضنا البخيل مختاراً فيما يفعل غير مساق إلى هذا المورد الوبيل بسائق الغريزة الفاسدة ـ كان منال النجم أقرب من تَطَبُّق حاله هذه على قاعدة من قواعد العقل؛ لأنَّ الله ـتعالى ـ خلق الإنسان، وَرَكَّبَ فيه رغباتِ الشهوات مختلفة، بعضها نفسي، والآخر جسدي؛ فهو لا يزال يتطلبها ما لم يعجز عنها؛ فصاحب المال الكثير الذي يقنع بالشملة والمضغة، والجرعة والظلة، ويحمل في كل لحظه

---

(١) لعلها: لا يتكلفه. (م)

(٢) لعلها: أعينهم. (م)

أشد الآلام من مقاومة نزوات نفسه، ونزعاتها إلى ميولها ورغباتها ـ لا يمكن أن يحمل حاله على محمل العجز؛ لأنه قادر، ولا على الزهد؛ لأنه ما زهد فيما لا ينفع؛ فيزهد فيما ينفع، ولا على الخوف من الفقر؛ لأن عنده من المال ما يفني الأعمار؛ فهيهات أن يفنيه عمر واحد، ولا على رغبة في سعادة الذرية؛ لأن محبة الأب لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته في أن يراه شريكاً له في سعادته.

فأما أن يشقى في حياته، ليسعد ولده بعد مماته فما لا يقبله العقل، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم، فلم يبق لنا إلا نتوسل إلى علماء النفس أن يأذنوا لنا بالتوسع في تفسير معنى الجنون؛ حتى لا يكون مقصوراً على المعربدين والهاذين، بل يكون شاملاً للعابثين الذين لا يدرون ما يأخذون وما يدعون، والذين يجلبون لأنفسهم بإرادتهم وباختيارهم آلاماً نفسية هي أشد مما يجلبه المجانين على أنفسهم بمناطحة الجدران، ومطاردة الصبيان، كما نتوسل إلى علماء الشرائع أن يضعوا قانوناً لاستخراج المال من خزائن المقترين كما وضعوا قانوناً لحفظ المال في صناديق المبذرين[1]؛ فإن تبذير المال يضر قوماً وينفع أقواماً، أما حبسه فيضر صاحبه، ويضر معه الناس أجمعين.

---

(١) لقد تكفلت الشريعة بكل هذا(م).

١٨ الآداب العامة[(١)] للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

يتحدث كثير من الناس عن فئة من الشبان المصريين المتعلمين قد ظهروا في هذه الأيام، واتخذوا لأنفسهم في حياتهم العامة طريقاً غير الطريق اللائقة بهم، وبكرامتهم وبمنزلة العلم الذي يزاولونه؛ فأصبحوا متبذلين في شهواتهم، مستهترين في ميولهم وأهوائهم، ينتهكون حرمات الأعراض ما شاءوا وشاءت لهم نزعاتهم، ويعبثون بها في كل مكان عبث الفاتك الجريء الذي لا يخاف مغبة، ولا يخشى عاراً.

وأهول ما يتحدثون به عنهم في هذا الشأن أنهم يغرون الطالبات الصغيرات اللواتي لا يزلن يختلفن إلى مدارسهن، أو اللواتي انقطعن عنها منذ عهد قريب إلى منازلهن، ويَنصِبون لهن صنوف الحبائل، وأنواع الأشراك؛ لاصطيادهن، وإسقاطهن في هُوَّة الإثم والعار، وهذا ما أريد أن أتكلم عنه قليلاً.

أصحيح ما يقولون عنكم أيها الفتيان التعسون أنكم تتخذون صلة العلم التي هي أشرف الصلات، وأكرمها صلةَ فسادٍ بينكم وبين أولئك الفتيات الضعيفات، وأن الحِبَالَةَ التي تنصبونها لهن؛ لاصطيادهن إنما هي حبالة القلم الذي هو أفضل أداة للخير، وأعظم وسيلة للفضيلة، وخير واسطة للأدب والكمال؟

أصحيح ما يقولون عنكم أنكم تكتبون إليهن؛ ليكتبن إليكم، وتُهْدُون إليهن

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة الموضوعة ص٦٠٦-٦١٢.

صوركم؛ ليهدين إليكم مثلها، فإذا امتلأت حقائبكم وجيوبكم بصورهن ورسائلهن أخذتم تنشرونها في كل مكان، وتعرضونها في كل معرض، وأخذ بعضكم يفاخر بكثرة ما يملك منها أو بجماله ورونقه، كما يفخر المرء بأفضل المزايا وأشرف الخصال؟

أصحيح أنكم تقفون لهن بكل طريق، وتأخذون عليهن كلَّ سبيل، وتضايقونهن في مَغداهن ومَرَاحِهن، وحيث ذهبن إلى عمل، أو خرجن لزيارة، أو برزن في مجتمع، فإذا عجزتم عنهن في الطريق أرسلتم وراءهن الرسل في منازلهن يخادعنهن ويخاتلنهن، وربما توسلتم إليهن بأخواتكم وبنات أعمامكم؛ ليسفرن بينكم وبينهن، ويداخلنهن مداخلة الأصدقاء حتى يجتذبنهن إلى منازلكم؟

أصحيح أنكم تقضون أكثر لياليكم مكبين على كتابة رسائل الغرام، وأكثر أيامكم حائمين حول المنازل تنتظرون خدمها الذين اصطنعتموهم؛ ليحملوا رسائلكم إلى ساكنيها، وربما جلستم على أبوابها بجانب البوابين والحوذيين ترقبون نوافذها وكُواها[1] علها تنفرج لكم عما تحبون؟

أصحيح أنكم أصبحتم لا تقنعون في أمر أولئك الفتيات البائسات اللواتي يقعن في مخالبكم بإفساد أخلاقهن، حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلاً موقعاً عليه بتوقيعاتهن، مُستَشْهَداً عليهن بصورهن وخطوطهن؛ لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك، وتحولوا بينهن وبين التفلُّت من أيديكم، والحياة بعيداً عنكم

---

(١) جمع كوَّة: وهي الفرجة في الجدار (م)

في جو غير جوكم، وجوار غير جواركم، عذارى أو متزوجات؟[١]

أصحيح أنكم لا تكتفون بإفساد نفوسهن وضمائرهن حتى تفسدوا عليهن عقولهن وصحتهن، فتشركوهن معكم في شرب الخمر، وتناول المخدرات سائلها وجامدها، فلا تلبث أن تنتهي حياتهن بما تنتهي به حياة النساء الساقطات اللواتي يلفظن أنفاسهن الأخيرة في أقبية الحانات، أو بين جدران المواخير؟

أصحيح أنكم فقدتم في تلك السبيل التي تسلكونها خلق الرجولة والشهامة؛ فأصبحتم تتجملون للنساء بأخلاق النساء، وتزدلفون إليهن بمثل صفاتهن وشمائلهن، وأصبح الرجل منكم لا همَّ له في حياته إلا أن يتجمل في ملبسه، ويتكسر في مشيته، ويرقق من صوته، ويلون ابتساماته ونظراته بألوان التضعضع والفتور، ويقضي الساعات الطوال أمام مرآته متعهداً شعره بالترجيل، وبشرته بالتنضير، وثناياه بالصقل والجلاء، حتى صار ذلك عادة من عاداتكم التي لا تنفك عنكم، وحتى سرى التأنث من أجسامكم إلى نفوسكم، فلم يبق فيكم من صفات الرجولة وأخلاقها غير الأسماء والألقاب؟

إن كان حقاً ما يقولون كله أو بعضه فرحمة الله عليكم أيها الفتيان المساكين، وسلام على الفضيلة والشرف سلامَ مَنْ لا يرجو عودةً، ولا ينتظر إياباً.

إن هذه الفتاة التي تحتقرونها اليوم وتزدرونها، وتعبثون ما شئتم بنفسها

---

(١) الله المستعان! هذا الكلام يقوله المنفلوطي رحمه الله قبل ثمانين عاماً، فكيف لو رأى الآن ما تفتقت عنه أذهان بعض من بُلوا بالمعاكسات، عن طريق المكالمات الهاتفية، ورسائل الجوال، والجوال المصور، والإنترنت؟

وضميرها إنما هي في الغد أم أولادكم، وعماد منازلكم، ومستودع أعراضكم ومروءاتكم؛ فانظروا كيف يكون شأنكم معها غداً، وكيف يكون مستقبل أولادكم وأنفسكم على يدها؟

أين تجدون الزوجات الصالحات في مستقبل حياتكم إن أنتم أفسدتم الفتيات اليوم؟ وفي أي جو يعيش أولادكم ويستنشقون نسمات الحياة الطاهرة إن أنتم لوَّثتم الأجواء جميعها وملأتموها سموماً، وأكداراً؟

لا تتكون أخلاق الفتاة في عهد طفولتها، أو في عهد شيخوختها، بل في عهد شبابها، فإذا سَلِمَ لها ذلك العهدُ فَقَدْ سَلِمَ لها كلُّ عهدٍ بعد ذلك؛ فَدَعوها تَجْتَزْ هذه المرحلةَ الوحيدةَ من مراحل حياتها شريفةً طاهرةً تجدوا فيها بعد قليل من الزمن خيرَ زوجةٍ للزوج، وخيرَ أمٍ للولد، وخيرَ سيدة للمنزل.

لا تعجلوا عليها، وانتظروا بها قليلاً؛ لتستطيعوا أن تجدوها غداً زوجة طاهرة شريفة في منازلكم بدلاً من أن تجدوها فتاة ساقطة من دراةٍ مُطَّرحة على أعتاب المواخير والحانات.

لا تزعموا بعد اليوم أنكم عاجزون عن العثور بزوجات صالحات شريفات يحفظن لكم أعراضكم، ويحرسن سعادتكم وسعادة منازلكم؛ فتلك جناية أنفسكم عليكم، وثمرة ما غرست أيديكم، ولو أنكم حفظتم لهن ماضيهن لحفظن لكم حاضركم ومستقبلكم، ولكنكم أفسدتموهن، وقتلتم نفوسهن؛ ففقدتموهن عند حاجتكم إليهن.

إنني لا أفزع في أمركم إلى القانون، فالقانون في هذا البلد مدني لا أدبي، ولا

إلى الحكومة، فالحكومة مشغولة بشأن نفسها عن شأن غيرها، ولا إلى الدين فقد ضعف شأنه في نفوسكم حتى هان أمره عليكم، ولا إلى آبائكم وأولياء أموركم، فقد عجزوا عنكم، وأصبحوا يبكون مع الباكين عليكم، بل أفزع في أمركم إلى ضمائركم التي هي الأمل الباقي لنا بَعْدَ فَقْدِ جميع آمالنا فيكم؛ فأصغوا إلى صوتها ساعة تسمعوا منها هذا الرجاء الذي نرفعه إليكم، وصوت الضمير أقوى من كل صوت في العالم.

يجب أن لا يُفْتَحَ قلبُ الفتاةِ لأحد من الناس، قبل أن يفتح لزوجها؛ لتستطيع أن تعيش معه سعيدة هانئة لا تنغصها ذكرى الماضي، ولا تختلط في مخيلتها الصور والألوان، ولا أعرف فتاة في هذا البلد بدأت حياتها بغرام قط فاستطاعت أن تتمتع بعده بحب شريف.

ولا أزال أذكر حتى اليوم حادثة ذلك الفتى الذي أهدت إليه حبيبته رسمها موقعاً عليه بتوقيعها، فلما تزوجت ـ وكان لا يحب ذلك منها ـ أراد الانتقام منها فقطع رأس الصورة ووضعها على جسم عار بتلك الطريقة الفنية المعروفة، ثم أرسلها مع كتاب وشاية إلى زوجها ليلة عرسها، فما لبثت أن خسرت في لحظة واحدة سمعتها وسعادتها.

وحدثني من أثق به أن كثيراً من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن إلا بعد أن يأخذن على أنفسهن عهداً أمام أخلائهن أن يكن لهم بعد الزواج، أي بعد أن يصبحن مطلقات من قيود العذرة وروابطها، وقلما تتزوج فتاة ذات صلات فاسدة من رجل إلا وردت عليه ليلة البناء بها، أو في صبيحتها كُتُبَ الوشاية بها

من الأشخاص الذين اتصلت بهم، وأخلصت إليهم، فانتهى أمرها في حياتها الجديدة بالشقاء والعار.

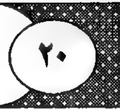
نحن في حاجة إلى أن نُعَلِّم بناتنا؛ لأننا لا نريد أن يعشن جاهلات متأخرات، فتنحوا عن طريقهن أيها الغواة المفسدون؛ ليستطعن أن يختلفن إلى مدارسهن آمنات مطمئنات على نفوسهن وأعراضهن، ولا تزعجوهن بفضولكم وإسفافكم؛ فإننا لم نبعث بهن في تلك السبيل؛ ليفسدن شرفهن وعفتهن، بل ليضفن إلى فضيلة الأدب والكمال فضيلة العلم والمعرفة.

أفسحوا الطريق لهن، وأفسحوا للعاملة الخارجة في طلب رزقها، والأرملة المسترزقة لبنيها، والفقيرة العاجزة عن قضاء حاجتها إلا بنفسها، والذاهبة لصلة رحمها، ولا تكونوا حجر عثرة في سبيل حرية المرأة في ذهابها وجيئتها، واضطرابها في مذاهب الأرض سعياً وراء رزقها، وقضاء مصالحها، فإن أبيتم عليها ذلك فاعترفوا أنكم أعداؤها القساة المتوحشون؛ لأنكم تأبون عليها إلا إحدى الخطتين القاتلتين: إما الجهل الدائم، أو السقوط العظيم.

الفضيلةَ الفضيلةَ أيها القوم؛ فهي العزاء الوحيد لهذه الأمة المسكينة عن جميع آلامها ومصائبها، والأمل الباقي لها إن ضاعت ـ لا قدر الله ـ جميع آمالها وأمانيها، والشرفَ الشرفَ فربما جاء يوم نديرُ فيه أعيننا من حولنا، فلا نجد مما تملك أيدينا شيئاً سواه.



رابعاً: مقالات في العمل والهمة



٢٠ النجاح في الحياة[١] للأستاذ أحمد أمين

كل إنسان في الوجود يأمل النجاح في الحياة، رجلاً أو امرأة، صانعاً، أو زارعاً، أو تاجراً، أو أديباً، أو عالماً، وإن اختلفت الصورة التي يرسمها كل لغايته في النجاح.

وهناك صفات كثيرة لابد منها في النجاح، بعضها خاص بنوع العمل الذي يعمله الشخص؛ فالتاجر تلزمه صفات خاصة لنجاحه قد لا يتطلبها نجاح العالم أو الأديب وهناك صفات عامة لابد أن يتصف بها كل مريد للنجاح.

وقد دلت التجارب على أن النجاح في الحياة ـ على وجه العموم ـ يعتمد على الأخلاق أكثر مما يعتمد على العلم، ومن أمثلة ذلك ما يشاهد من تجار كبار كانوا أميين أو شِبْهَ أميين بنوا لأنفسهم مجداً في التجارة، ونجحوا فيها نجاحاً باهراً؛ بجهدهم واستقامتهم، وحسن سمعتهم، ومعرفتهم ـ بالسليقة ـ نفسيةَ الجمهور ثم رزقوا أولاداً أرادوا أن يكونوا خيراً منهم في التجارة؛ فأرسلوهم إلى ألمانيا أو فرنسا أو إنجلترا، وعلموهم على آخر طراز، ونالوا الشهادات العالية في الاقتصاد وما إليه، ثم عادوا وحلّوا محل آبائهم بعد وفاتهم، وكانت النتيجة أن خسرت تجارتهم، وأُقفلت محالُّهم بعد إفلاسهم، وأصابهم الفقر بعد الغنى.

وبين أن آباءهم الأميين، أو شبه الأميين كانوا خيراً منهم، وليس المسؤول عن نجاح الأولين، وفشل الآخرين هو الجهل أو العلم، ولكن الأخلاق، فالأب

---

(١) فيض الخاطر ١٠/ ٢٤٩ ـ ٢٥٢.

ـعلى أميته ـ كان يحسن الأخلاق التي تتطلبها التجارة ، فنجح ، والابن لم يحسنها ، ففشل ولو كان الابن المتعلم في مثل أخلاق أبيه الجاهل لكُتب له من النجاح أكثر مما كتب لأبيه ، وهكذا في كل نواحي الحياة.

قد يضرب الناس أمثلة كثيرة بقوم فاسدي الأخلاق نجحوا في الحياة برذائلهم حيث لم ينجح كثير من الناس بفضائلهم ، ولديهم أمثلة كثيرة على ذلك وخاصة في أيام الحرب؛ فالتاجر المستقيم ربح بحساب أو لم يربح مطلقاً ، والتاجر الذاعر[1] ربح من غير حساب ، والموظف الأمين عاش على مرتبه الضئيل ، والموظف الخائن حاز الأموال الطائلة حتى لم تعد تهمه الوظيفة ، ثم الموظف المتملق لرؤسائه قد يرقى على أكتاف الموظف المستقيم وهكذا...

قد يكون هذا صحيحاً ، ولكن لابد أن تحسب راحة الضمير للمستقيم وقلقه عند الخائن ، وتحسب احتقار الرأي العام للخائن واحترامه للنزيه ، وتحسب حساب المسؤولية أمام الله ، وتحسب حساب أن المال الحرام قلما يفيد صاحبه ، وأولاده؛ لأسباب دينية ونفسية واجتماعية ، وتحسب حسابَ مَنْ ضُبِطوا في حياتهم ، فعوقبوا ، فخسروا الدنيا والآخرة؛ **فلو حسبت حسابَ هذا كلّه لترددت كثيراً في تسمية هذا نجاحاً.**

وهَبْهُ صحيحاً؛ فأغنياء الحرب الذين اكتسبوا من طريق الرذائل استثناءٌ من الحياة العامة ، ومن نجحوا في السلم عن طريق غشهم وخداعهم وملقهم استثناء من الحياة العامة.

---

(١) لعله : الداعر (م).

أما القانون العام في كل زمان ومكان فهو أن النجاح في الحياة يتوقف كثيراً على الأخلاق التي يستلزمها العمل من صفات خاصة وعامة من اعتدال في الحياة، وضبط للنفس، وجدٍّ في العمل، وأمانةٍ واعتماد على النفس، وثقةٍ بها، وإخلاص في العمل، وإخلاص لنفسه، وللناس، وصدق في المعاملة إلى غير ذلك من فضائل.

وكلما رقيت الأمة كان من مظاهر رقيها نجاح الذين يعتمدون على أخلاقهم وفشل الذين يعتمدون على رذائلهم.

وهكذا الشأن في الأمم، تنجح الأمة في عالم التجارة إذا حسنت سمعتها، وحسنت معاملاتها، وحسن إنتاجها، وتفشل إذا انهارت هذه الأخلاق.

وتنجح في السياسة إذا صدقت في وعودها، وشرفت في معاملاتها، وخَدَمَتِ الإنسانية بأغراضها؛ فإن نجحت بغير ذلك فنجاح مؤقت، ونجاحٌ كنجاح الموظف الخائن.

ومؤرخوا الدولة الرومانية ـ مثلاً ـ مجمعون على أن نجاحها في عصر ازدهارها كان مؤسساً على أخلاقها؛ فلما تدهورت أخلاقها تدهورت أملاكها.

ثم قد ينجح المرء في الحياة بسبب النبوغ العلمي النادر، أو الذكاء العقلي اللامع، أو القدرة الفائقة على إدراك الفرص، وانتهازها ولو لم تدعمها الأخلاق الفاضلة، ولكن حتى في هذه الأحوال النادرة لو كان لهذه المزايا الفائقة مستندٌ من أخلاق فاضلة لكان صاحبها أكثر نجاحاً؛ فالأخلاق الفاضلة تقويه وتقوي نجاحه، والأخلاق السيئة تضعفه وتضعف نجاحه.

إن الذكاء اللامع، والعقلية القوية، والقدرة على انتهاز الفرص، ونحو ذلك لو دعمتها أخلاق فاضلة لتوجهت إلى خير صاحبها وخير الناس، وإن هي لم ترتكز على الأخلاق الفاضلة كانت عرضة لأن تتجه للعمل لشر الناس.

وفي ذلك من الخطر ما لا يخفى، والنابغ والذكي أقدر على الخير والشر من الرجل العادي.

وهناك أمر لابد من التنبيه إليه، ويقع في الخطأ فيه كثير من الناس، وهو أن الأخلاق الفاضلة التي تسبب النجاح يجب أن تصحبها اللباقة أو الأدب في المعاملة أو حسن المجاملة أو ما شئت من أسماء؛ فالأخلاق الفاضلة وحدها لا تكفي في النجاح إذا هي اصطحبت بجفاف في المعاملة، أو خشونة في الطباع، أو عدم ظرف ولباقة؛ قد يكون التاجر أميناً مستقيماً، ولكنه خشن غير لبق، وقد يكون الموظف مستقيماً أميناً جاداً في عمله قائماً بواجباته ولكنه جافٌّ غليظ سمج في معاملاته لرؤسائه وللناس، وقد يكون الأديب أو العالم مستقيماً في سلوكه مخلصاً لأدبه أو علمه، ولكنه غير لبق في معاملته لمن حوله، كل هؤلاء قد يفشلون في الحياة، ولا ينجحون ثم هم يخطؤون؛ إذ يظنون ويظن بعض الناس معهم أن فشلهم أتى من استقامتهم، وجدهم، وإخلاصهم.

والحقيقة أن فشلهم أتى من قلة لباقتهم وعدم ظرفهم، لا من حسن أخلاقهم.

واللباقة، والأدب، والظرف في المعاملة لا تكرهه الأخلاق، بل تدعو إليه الأخلاق، وهذه اللباقة غير الكذب وغير الملق؛ فقد يكون الإنسان صادقاً، ومع ذلك فهو مؤدب لبق.

وقد يكون الإنسان صريحاً غير متملق ومع ذلك فهو غير مؤدب لبق.

وعدم اللباقة قد يهدم الصداقة وقد يسبب كثيراً من العداوة وقد يسيء إلى السمعة، وكل ذلك يعرض للفشل، وليس المسؤول هو الأخلاق الفاضلة، ترى هذا في التاجر، والعالم، والموظف، والمحامي، وعضو البرلمان، وجميع صنوف الناس إذا خلوا من اللباقة سببوا لأنفسهم وأهلهم ومن حولهم متاعب تؤدي إلى الفشل والخيبة مع ما قد يكون لهم من كفاية نادرة، وأخلاق فاضلة، على حين أن من دونهم كفاية قد يكونون أكثر نجاحاً للباقتهم وظرفهم.

وشأن المرأة من ذلك شأن الرجل فالمرأة الفاضلة اللبقة أكثر نجاحاً في الحياة الزوجية والحياة الاجتماعية، وقد تكون الحياة جحيماً وليس لذلك من سبب إلا أن المرأة - مع استقامتها وسمو أخلاقها - قد حرمت اللباقة والظُّرف، فهي تسبب بعدم لباقتها كل يوم مشكلة جديدة قد يصعب حلها.

وبعد: فالأخلاق الفاضلة مع اللباقة والظرف والكياسة عدة النجاح.

٢١ العمل والبطالة[١] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

لا يزال الذين ينظرون إلى ما أنزل الله بعيون حشوها التبصر، وقلوب ملؤها الاعتبار يؤمنون بأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من الإرشاد والتهذيب إلا حث عليها، ولا رذيلة ولا مفسدة إلا صد عن سبيلها.

وبذلك كان المعظّمون لشأنه، المقيمون لشعائره في أعلى طبقة من أدب النفس وتربيتها على محاسن الشيم، وتمرينها على الأعمال النافعة.

وهذا مما يعرفه الذين آمنوا كما يعرفون أبناءهم، ولكن للهمم خمود، وللعزائم فترة لا يتيقظ من موتتها إلا من استفزَّته صروفُ الحوادث، وأَرَتْهُ كيف ترقى أمةٌ إلى مكانةِ العزِّ، وتنحط أخرى إلى وَهْدَةِ السقوط، ولا تفعل ذلك إلا بمن أدركت منه رمقَ حياةٍ لم يزل نبضُها خافقاً.

أما من سكنت إحساساته، حتى التحق عند أولي البصائر ببهيمة الأنعام- فلا يحس لها وَجْبَة، ولا يسمع لها ركزاً.

وإن تعجب فعجب ما يتخيله بعض من رُبِّي في مهد الجمود من أن هذا الدينِ القيِّم لم يرشد إخوانه إلى إلا العبادات المحضة، وأنه حجاب مسدول بينهم وبين المدنية، وروج هذا التخيل الزائف على البسطاء وقوفهم عند ظواهر آيات وأحاديث واردة في ذم متاع الحياة الدنيا، ولو اتسعت خطواتهم في التدبر

---

(١) السعادة العظمى - عدد٣ - غرة صفر ١٣٢٢ المجلد الأول ص٦٤-٦٧.

لأبصروا ما هو التحقيق.

وإيضاحه أن الشارع يفعل بالمكلف فعل الطبيب الرفيق، إذا أصابت المريض علةٌ بانحراف بعض الأخلاط قابله في معالجتها على مقتضى انحرافه في الجانب الآخر؛ ليرجع إلى الاعتدال.

لما آمن الناس، وظهر من بعضهم ما يقتضي الرغبة في الدنيا رغبةً ربما أمالته عن الاعتدال في طلبها، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إن مما أخاف عليكم ما يفتح لكم من زهرات الدنيا».

ولما لم يظهر ذلك منهم مظنته قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الأعراف:٣٢.

ولما ذمَّ الدنيا ومتاعها، همَّ جماعة من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أن يتبتلوا ويتركوا النساء واللذة والدنيا، وينقطعوا إلى العبادة، فرد ذلك عليهم رسول الله ﷺ ودعا لأناس بكثرة المال والولد بعد ما أنزل الله: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ الأنفال:٢٨.

وأقر الصحابة على جمع الدنيا، والتمتع بالحلال منها، ولم يزهدهم، ولا أمرهم بتركها إلا عند ظهور حرص، أو وجود منع من حقه.

وقد كان المتعبدون من قبل يترهبون بالتخلي عن أشغال الدنيا، وترك ملاذها والعزلة عن أهلها وتَعمُّد مشاقها، فنفاها النبي ﷺ ونهى المسلمين عنها فقال: «لا رهبانية في الإسلام».

ومن الآيات الشاهدة لهذا الغرض قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ القصص:٧٧، لما وقع الأمر بصرف المال إلى الآخرة في قوله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ بين الواعظ بعد بقوله: ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا﴾ أنه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة، ما لم يكن صاحبها عن الواجبات في شغل شاغل، قال مادح عمر بن عبدالعزيز:

فلا هو في الدنيا مُضيعٌ نصيبَه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

وعلى نحو هذا جرى ذكر التجارة في معرض الحط من شأنها حيث شغلت عن طاعة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً﴾ الجمعة:١١.

ولما فُقِد ذلك المعنى العارض ذكرت ولم يُهْضَم من جانبها شيء كما في قوله ـتعالىـ: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ النور:٣٧.

فقد أثبت لهؤلاء الكمل أنهم تجارة وباعة، ولكنها لم تشغلهم ضروب منافع التجارة عن فرائض الله، وهذا قول المحققين في الآية.

أما ما يقوله بعضهم من أنه نفى كونهم تجاراً أو باعةً أصلاً فخلاف ظاهر الآية، والسر في اختصاص الرجال بالذكر أن النساء لسن من أهل التجارات والجماعات وما ينبغي لهن ذلك، كما أن تخصيص التجارة من بين سائر أسباب الملك؛ لكونها أغلب وقوعاً وأوفق لذوي المروءات.

ومما يزداد به هذا المقصد بياناً قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأعراف:٣١.

فقد بيّن بهاته الآية أن الزينة من علائق العبادة، وأنها غير منافية لها، وأن

العبادة تستدعي الإعراض عن اللذات الحسية المعتدلة.

وبالجملة فإن الآيات التي تحث على العمل والكسب كثيرة قال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ الجمعة:١٠، ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الجاثية:١٢، ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ المزمل:٢٠.

فالحكيم الخبير مَنْ يَقْدُرُ الوقت حَقَّ قدره، ولا يتخذه وعاء لأبخس الأشياء وأسخف الكلام، ويعلم أنه أجلُّ شيءٍ يصان عن الإهمال والإضاعة، ويَقْصُره على المساعي الحميدة التي ترضي الله وتنفع الناس، وبذلك ينتشر العمران في أطراف البلاد، وتتوفر مواد الصلاح، وتنقطع أسباب الفساد، وذلك هو معنى المدنية.

أما من كتب على نفسه البطالة، فقد رضي لها بأسوءِ الحرف وأخسها؛ إذ لا صُنْعَ لهذا المحترف غالباً إلا التَّمَضْمُضُ بكلمات التشنيع والتسخط على ما يفعله غيره وإن غَزُرَتْ فائدته، ولا تراه إلا متردداً على المجالس التي تساق إليها بضائع اللغو، ليكون أحد الحاملين لأسفارها.

ومما يعجب منه أنك تجد الرجل يحسن القراءة، وحواليه كتبٌ مفيدة يمكنه أن يقتبس منها فوائد يستضيء بها صدره من ظلمات الجهالة ولا يفعل، وتجد آخر يتقن صناعة أَوْ لَهُ استعداد لإتقانها وليس له حركة إلا الانتشار في الطرق كأنما أوجر على قيسها، ولا توفيق إلا بالله.



٢٢ الواجب[1] عبدالسلام الشربيني

لا يعرف الواجب من لا إرادة له، ولا يعرف الإرادة من لا ضمير له، ولا يعرف الضمير من لا عقل له، ولا فائدة في عقل لم تعمل فيه يد المعرفة.

وليست الإرادة أن يستبد الإنسان بسلطته إن كان من ذوي السلطات، أو يتمسك بكل شيء من غير أن يقدر أو يفهم هذا الشيء، فإن هذا يسمى جهلاً لا إرادة؛ لأنه إذا قيل: فلان له إرادة قوية كأنه قيل: فلان هذا له عقل مهذب، وضمير سليم؛ لأنه عرف كيف يستفيد منهما.

والضمير لا يكون إلا بوجود العقل المهذب، فإنَّ تركَ العقلِ بدون تربية وتهذيب يموت الضمير بموته، وينقطع الصوت الذي يؤنبنا على فعل السيئ، والذي يمدحنا ويشجعنا على فعل الحسن، أو بمعنى أصح تتنحى المحكمة المنظمة ـ التي تُنْشَأ لأنفسنا من أنفسنا ـ عن إرشادنا.

والويل كل الويل لمن لا محكمة له من نفسه، فإن لم تكن هذا المحكمة الصالحة، أو إن لم يسع إلى وجودها فكأنه أقام الناس عليه حكاماً ينفذون عليه كل أحكامهم.

ومن هنا يموت ضميره، ويصدأ عقله، وتكون حياته بين الإنسانية والحيوانية.

إن الواجب هو الذي يلهمنا الثبات أمام ما هو مفروض علينا، وهو الذي يجعلنا نزداد ثباتاً أمام هذا الشيء الواجب علينا عمله، لا متطلعين إلى مطامع،

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، الجزء الثامن، المجلد التاسع ص٥٠٥، صفر ١٣٥٦هـ ـ إبريل١٩٣٧م.

ولا هائبين أيَّ إنسان ما دمنا في طريق الحق.

والإخلاص للواجب من شيم الأحرار، وهم أحرار؛ لأنهم يفعلون ما وجب فعله بإيحاء من ضمائرهم وعقولهم، وليسوا بعبيد يفعلون ما يؤمرون.

فإن كنا لا ننتظر من عمل الواجب شيئاً إلا أن نصل بفعله إلى ما نبتغي من آمال ومطامع فكأننا نخدع أنفسنا بأنفسنا؛ لأن من يقوم بعمل الواجب مخلصاً في عمله لا ينتظر شيئاً بعد ذلك اللهم إلا تشجيع ضميره، وهذا هو الذي يسمى بالرجل الفاضل.

وليست الفضيلة قولاً خلاَّباً مزركشاً، ولكنها عمل وثبات وتضحية، تصحبها المعرفة والنزاهة والشرف.

كثيراً ما أجد الناس يرمون الحياة بالفساد والخبث، والحقيقة أنهم جدُّ خاطئين.

ما فسدت الحياة إلا بفساد الإنسان، وما فسد الإنسان إلا لعدم قيامه بالواجب؛ فلو هذَّب عقله لعمل هذا العقل على تربية ضميره، ولو رقى ضميره لأجبره هذا الضمير على عمل الواجب، ولو عمل كل إنسان ما عليه من واجبات لاتزنت الحياة، ولما رأينا فيها هذا الفساد ولا هذا الخبث، ولا شيئاً من هذه العادات التي يمقتها الناس، مع العلم بأن الناس هم الذين أوجدوا هذه العادات.

ومن الناس من لا يعرف من الواجب إلا ما يقوم به نحو نفسه؛ فهو يقوم بكل ما تتطلبه شهواته، وما سيطرت عليه شهواته إلا لموت ضميره، وأيضاً من يقوم بكل ما تطلبه نفسه من لذات هذه الحياة قد تسوقه هذه النفس إلى الخطايا، وهذا

الحب للنفس هو الذي يجعله يرتكب أكبر الآثام، ويعميه عن معرفة الصالح والطالح، ويجعله عاجزاً عن تقدير الأمور؛ ولذا تجد آخرته منقلبة؛ فبعد أن كان محبًّا لنفسه يصير عدوًّا لها، وقد لا يشعر بهذه العداوة.

وهل هذا إلا من ضعف الإرادة، وموت الضمير، وفساد العقل؟

إن خير ما يقوم به الإنسان نحو نفسه هو أن يروِّضها على العمل، ويدربها على الشجاعة، وأن لا يجعلها ألعوبة تتقاذف بها الأهواء، وأن يضعها في المكان اللائق بها.

وقد يجد ذوو النفوس الضعيفة صعوبة في تدريب أنفسهم على هذه الفضائل؛ ولكن ليعلموا أنه لا سعادة لهم بغيرها، فإن كان ظاهرها العذاب فباطنها الرحمة.

وما السعادة إلا أن يعمل الإنسان ما عليه من واجبات، وأن يقوم بهذه الواجبات خير قيام.



الغني والفقير[1] للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

مررت ليلة أمس فإذا برجل بائس فرأيته واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو ألماً، فرثيت لحاله وسألته: ما باله؟ فشكا إلي الجوع، ففثأته[2] عنه ببعض ما قدرت عليه، ثم تركته وذهبت إلى زيارة صديق لي من أرباب الثراء والنعمة، فأدهشني أني رأيته واضعاً يده على بطنه، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير، فسألته عما به فشكا إليَّ البطنة، فقلت: يا للعجب! لو أعطى ذلك الغنيُّ ذلك الفقيرَ ما فَضَل عن حاجته من الطعام ما شكا واحدٌ منهما سقماً ولا ألماً.

لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته، ويطفئ غلته؛ ولكنه كان محباً لنفسه، مغالياً بها، فضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير؛ فعاقبه الله على قسوته بالبطنة؛ حتى لا يهنئ للظالم ظلمُه، ولا يطيب عيشُه.

وهكذا يصدق المثل القائل بطنة الغني انتقام لجوع الفقير.

ما ظنت السماء بمائها، ولا شحت الأرض بنباتها، ولكن حسد القوي الضعيف عليهما فزواهما[3] واحتجنهما[4] دونه، فأصبح فقيراً معدماً، شاكياً

---

(١) مؤلفات المنفلوطي الكاملة الموضوعة ص٦٩ـ ٧١.

(٢) يقال: فثأت فلاناً عن فلان إذا سكنت غيظه عليه.

(٣) زوى عنه حقه: منعه إياه.

(٤) احتجن الشيء: إذا جذبه بالمحجن إلى نفسه، والمحجن الصولجان، والمراد أنه استأثر به.

متظلماً، غير ماؤه المياسير الأغنياء، لا الأرض والسماء.

ليتني أملك ذلك العقل الذي يملكه هؤلاء الناس؛ فأستطيع أن أتصور كما يتصورون حجة الأقوياء في أنهم أحق بإحراز المال، وأولى بامتلاكه من الضعفاء؛ إن كانت القوة حجتهم عليه، فلم لا يملكون بهذه الحجة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب أموالهم؟ وما الحياة في نظر الحي بأثمن قيمة من اللقمة في يد الجائع. وإن كانت حجتهم أنهم ورثوا ذلك المال عن آبائهم قلنا لهم: إن كانت الأبوة غلة الميراث فلم ورثتم آبائكم في أموالهم ولم ترثوهم مظالمهم؟ فلقد كان آبائكم أقوياء فاغتصبوا ذلك المال من الضعفاء، وكان حقاً عليهم أن يردوا إليهم ما اغتصبوا منهم، فإن كنتم لابد ورثاءهم فاخلفوهم في رد المال إلى أربابه، لا في الاستمرار على اغتصابه.

ما أظلم الأقوياء في بني الإنسان، وما أقسى قلوبهم، ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير، ولا يقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره، وهو يرعد برداً وقراً، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قَدِيدِهِ وشوائه حلوه وحامضه ولا ينغص عليه شهوته علمه أن بين أقربائه وذوي رحمه من تتواثب أحشاؤه شوقاً إلى فُتَات تلك المائدة ويسيل لعابه تلهفاً على فضلاتها، بل إن بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء لسانه، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته، وربما استعان به على عد ما تشتمل خزائنه من الذهب وصناديقه من الجوهر وغرفه من الأثاث والريش؛ ليكسر قلبه وينغص عليه عيشه ويبغض إليه حياته وكأنه يقول له في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته: أنا سعيد؛

لأني غني، وأنت شقي؛ لأنك فقير.

أحسب لولا أن الأقوياء في حاجة إلى الضعفاء يستخدمونهم في مرافقهم وحاجاتهم كما يستخدمون أدوات منازلهم، ويسخرون في مطالبهم كما يسخرون مراكبهم، ولولا أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم؛ ليمتعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم وسجودهم بين أيديهم ـ لامتصوا دمائهم كما اختلسوا أرزاقهم، ولحرموهم الحياة كما حرموهم لذة العيش فيها.

لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنسان حتى أراه محسناً؛ لأني لا أعتمد فصلاً صحيحاً بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان، وإني أرى الناس ثلاثة: رجل يحسن إلى غيره؛ ليتخذ إحسانه إليه سبيلاً إلى الإحسان إلى نفسه، وهو المستبد الجبار الذي لا يفهم من الإحسان إلا أنه يستعبد الإنسان؛ ورجل يحسن إلى نفسه ولا يحسن إلى غيره وهو الشَّرِه المتكالب الذي لو علم أن الدم السائل يستحيل إلى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعاً؛ ورجل لا يحسن إلى نفسه ولا إلى غيره وهو البخيل الأحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه؛ وأما الرابع: وهو الذي يحسن إلى غيره، ويحسن إلى نفسه، فلا أعلم له مكاناً، ولا أجد إليه سبيلاً، وأحسب أنه هو الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني «ديوجين الكلبي» حينما سئل: ما يصنع بمصباحه؟ وكان يدور به في بياض النهار، فقال: «أفتش عن إنسان».

٢٤ متاعب الحياة[1] للأستاذ أحمد أمين

الحق أن هناك صنفين من المتاعب: متاعب حقيقية ومتاعب وهمية، وربما كانت الأخيرة أكثر من الأول؛ فمن كان فقيراً لا يجد ما يسد رمقه ورمق أسرته فهذا مصدر تعب حقيقي، ومن رزقت بزوج غير صالح فَتَعَبُها منه تعبٌ حقيقي.

ولكن هذا وأمثاله قليل بجانب المتاعب الوهمية التي يخلقها الإنسان خلقاً والتي تعود إلى حالة مرضية في نفسه أكثر مما تعود إلى سبب خارجي متعب حقاً.

ولنستعرض الآن نماذج من الناس يتعبون متاعب جمة، ومصدر تعبهم هم أنفسهم، وكان في إمكانهم أن لا يتعبوا إذا غيَّروا نفسيتهم، وأصلحوا من نظرتهم إلى الحياة.

هنالك الرجل الذي لا يعمل عملاً إلا وأغضب من حوله؛ فإذا وظف أتعب زملاءه بما يجرحهم من كلام، أو ما يصدر عنه من تصرف، وإذا ساق سيارة لم يبال بما يصنع في الطريق، وإذا أشرف على أسرته لم يعبأ بزوجته ولا ولده، وإذا تصرف أي تصرف في الحياة استطاع بقدرته العجيبة أن يحول تصرفه إلى معركة مهما كان نوع العمل بسيطاً.

وهناك المرأة التي تخلق من كل شيء سبباً للنزاع حول ما تشتري، وحول ما تلبس، وحول ما تسكن، ولا يعجبها أي تصرف من تصرفات زوجها، ولا يعجبها أي عمل من أعمال أولادها؛ فهي ناقمة أبداً ساخطة أبداً متعبة لنفسها

---

(١) فيض الخاطر، ١٠/ ١٩٣ ـ ٢٠١.

ولأسرتها أبداً.

وهناك الرجل الذي حطم أعصابه بسلوكه، وتوقع الفشل في كل شيء سيحدث فهو إذا تزوج اعتقد أنه سيفشل في الزواج، وإذا رزق أولاداً توقع أنهم لا ينجحون في مدارسهم، وإذا سار في الطريق توقع أنه ستصدمه سيارة أو ترام، وإذا عهد إليه عمل توقع أنه لن ينجح فيه وهكذا...

فنظرته إلى الدنيا نظرة تشاؤم مستمر، وهذه النظرة كفيلة بأن تنغص عليه، وعلى من حوله معيشتهم.

وهناك العيَّابون والظنَّانون الذين لا يعجبهم العجب، فلا أسرتهم تعجبهم ولا حكومتهم تعجبهم، ولا الجرائد إذا قرؤوها، ولا المجلات إذا تصفحوها، ولا التعليم إذا عرضت عليهم أساليبه، ولا أي نظام في بلدهم يعجبهم، ثم هم يعيبون ولا يقترحون، ويهدمون ولا يبنون، فاسودَّ العالم أمامهم، وسودوه من حولهم.

هذه بعض أمثلة من متاعب الحياة الوهمية التي أوجدها الإنسانُ بنفسه، وخَلَقَها بأوهامه أو أعصابه أو تشاؤمه، ثم رمى نفسه بها، وتعب منها، وأتعب من حوله بها.

والعالم مملوء بهذه المتاعب الوهمية التي ليس لها علاج خارجي، وإنما علاجها ليس إلا في إصلاح النفس ونظرتها إلى الحياة.

والناس في هذه المتاعب الوهمية كلابس المنظار؛ فمن لبَّس منظاراً أسود رأى الدنيا كلها سوداء، ومن لبس منظاراً أبيض رأى الدنيا كلها بيضاء.

وفي استطاعة الإنسان إذا ربى نفسه تربية صحيحة أن يتغلب على المتاعب الوهمية، بل وعلى كثير من المتاعب الحقيقية؛ نعم إن هناك متاعبَ خارجةً عن إرادته كمتاعب الغارات الجوية، وكوارث الحرب، وبعض ما أنتجته المدنية الحديثة من شرور، ولكن هذه نادرة الحصول في الحياة العامة للإنسان.

أما المتاعب اليومية الكثيرة الوقوع فيمكن التغلب عليها بتسليح النفس وتقويتها، وأهم سلاح للنفس تستطيع به التغلب على المتاعب قدرتها على تعديل نفسها على وفق الصعاب التي تعترضها، فإذا كانت متاعب الحياة من قلة دخل البيت أمكن بالحكمة في الإنفاق التغلب على الصعاب، وإذا كان التعب من غضب الزوجة أو الزوج فالعلاج أن يتعود الحلم، ويقابل الإساءة بالإحسان.

وكلما استطاع الإنسان أن يعدِّل نفسه وفق الظروف التي حوله كان أسعد حالاً، وأقل متاعب.

يُروى أن ستة أشخاص قضت عليهم الظروف السيئة أن يُحبسوا في حجرة ضيقة مغلقة ستة أشهر ومعهم طعام قليل، وماء قليل، فأما اثنان منهم فتبرما أشد التبرم من هذه الحياة، ولم يريا بصيصاً من الأمل يسري عنهما؛ فأصيبا بالجنون.

وأما ثلاثة آخرون منهم فنظروا إلى هذه الحياة بمنظار أقل سواداً من الأولين؛ فأصيبوا بنوبات عصبية متقطعة، وأما السادس فأبعد عن ذهنه ما استطاع فكرة البؤس الذي هو فيه والتفكير فيما سيحدث، وشغل نفسه بتأليف كتاب يستمده

من أفكاره وآرائه ومعلوماته؛ فلما فتح عليهم الباب ليطلق سراحهم كانت حالتهم ما شرحنا، ولا فرق بينهم إلا أن من نجا منهم عدَّل نفسه وفق ظروفه، وأما الخمسة الآخرون فلم يستطيعوا ذلك.

إن كثيراً من متاعبنا تنشأ من جُبننا واستسلامنا للمتاعب تطغى علينا، وتخيفنا، وتحاربنا؛ فتهزمنا.

أما من شجع قلبه، وصمم على أن يتغلب على المتاعب مهما كثرت، وكبرت فإنه يغلبها، ويظفر بها، وينجو من أضرارها.

إن موقف الإنسان أمام المتاعب كموقف الجنود في ميدان القتال، إن فروا هزموا وتغلب العدو عليهم، وإن صبروا واحتملوا وصمموا على أن يغلبوا العدو فازوا وظفروا.

من أراد أن يعالج نفسه علاجاً حقيقياً ليخفف عنه وعمن حوله ما يصدر عنه من متاعب، فليعرف نفسه أولاً.

-٢-

حدثتكم في الحديث الماضي عن متاعب الحياة وأن كثيراً من هذه المتاعب وهمي، وبعضها حقيقي.

واليوم أذكر لكم أن هذه المتاعب بعضها يكون مصدرها الشخص، وبعضها يكون مصدرها النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والأخلاقي الذي يحيط به مما له به علاقة.

فأبدأ بذكر المتاعب التي مصدرها الإنسان نفسه؛ فقد نرى ثلاثة أشخاص أو

أكثر في ظروف واحدة أو متشابهة من حيث الدخل ومن حيث الوظيفة، ومن حيث الأسرة ونحو ذلك.

وأحدهم سعيد في حياته فرح مسرور مغتبط يحمد الله على ما هو فيه من خير، والثاني شقي منقبض الصدر كثير الشكوى متململ مضطرب، والثالث وسط بين هذا وذاك ليس بسعيد كالأول، ولا شقي كالثاني، يبكي ويضحك، ويحزن ويفرح، ولا فرق بينهم إلا حالتهم الشخصية.

ومن الحكايات الطريفة في ذلك أن دلوين كانا مربوطين بحبل ومعلقين في بكرة على بئر ورجل واقف على البئر يستقبل الدلو الملآن، ويفرغه في حوض ثم ينزله إلى البئر ثانية بواسطة البكرة، وفي العادة أن الدلوين يتقابلان في منتصف البئر أحدهما مملوء والآخر فارغ، فلما تقابلا سأل الدلو الفارغ الدلوَ المملوء: لماذا تبكي؟ فقال: وكيف لا أبكي، وقد ملئت ماء رائقاً وهأنذا أصعد ليفرغني الرجل ثم ينزلني إلى قاع البئر المظلم وأنت لِمَ ترقص؟

قال الدلو الفارغ: وكيف لا أرقص وأنا أنزل أمتلئ ماءً رائقاً ثم أصعد إلى الجو المضيء المشمس؟ وهكذا يعمل الدلوان عملاً واحداً وأحدهما يبكي منه، والآخر يرقص له.

وفي الناس كثير من أمثال هذين الدلوين يعملون عملاً واحداً وظروفهم واحدة، وبعضهم يبكي ويضحك بعضهم.

كل إنسان مهما صح جسمه، ومهما صح عقله فيه نقطة ضعف جسمي ونقطة ضعف عقلي، وليس إنسان سليم الجسم سليم العقل سلامة تامة، وكلنا

نألم من هذا الضعف وهذا المرض إلى حد ما.

والجسم والعقل مرتبطان ارتباطاً وثيقاً؛ فالجسم يؤثر في النفس والعقل، والنفس أوالعقل يؤثر في الجسم؛ فالإنسان قد يحس قوة في جسمه؛ فَيَصِحُّ مزاجُه ويصح تفكيرُه، وقد يمرض جسمه؛ فيسوء مزاجه، ويسوء تفكيره، بل قد يأكل أكلة ثقيلة فيثقل ذهنه، ويأكل أكلة لطيفة فتنبسط نفسه، وينبسط تفكيره، وقد تخجل الفتاة فيحمر وجهها، وقد يغضب الرجل فتحمر عيناه، ويكاد ينقدح منهما الشرر، وتتوتر أعصابه، وقد يخاف الإنسان فترتعش أطرافه، ويقف شعر رأسه، وآلاف الأمثلة من هذا القبيل تُرينا أثر الجسم في العقل، وأثر النفس في الجسم.

وكثير من متاعب الحياة الشخصية سببه المرض الجسمي، أو العقلي، وعلى الخصوص هذا المرض العقلي أو النفسي.

وكثير من متاعب الحياة ترجع إلى مزاج الشخص، والمزاج هو أساس ما يصدر عن الإنسان من سلوك، **وقد كان الأقدمون يقسمون الأمزجة إلى أربعة**: دموي، وبلغمي، أو ليمفاوي وصفراوي، وسوداوي، وقد خصصوا لكل مزاج من هذه الأمزجة صفات خاصة؛ فالدمويون يمتازون بحب الحركة، والمرح، والخفة، وسعة الأمل، والطيش، وقلة الصبر.

والبلغميون يميزهم بطء الحركة والخمول، وقلة الجلد والوداعة، والميل إلى السكون.

والصفراويون يميزهم الطموح، والعناد، وحب العمل، والشجاعة.

والسوداويون يميزهم الانقباض، والحزن، والتشاؤم، والتأمل، والتواضع.

وقد قسموهم إلى هذه الأقسام بناء على أن في الجسم سوائل مخلوطة، إذا غلب سائل منها نسب المزاج إليه، والعلم الحديث لا ينكر أقسام الناس إلى هذه الأمزجة، ولكن يعللها بأسباب أخرى، ويرى أحد علماء النفس أن الناس كلهم يمرون في حياتهم بجميع الأمزجة؛ فهم يبدؤون دمويين في الطفولة، ثم سوداويين في الشباب، ثم صفراويين في الكهولة، ثم بلغميين في النهاية.

وأيًّا ما كان فمزاج الإنسان، أو كيفية سلوكه في الحياة قد تكون مصدر سعادة له، وقد تكون هي مصدر المتاعب، والمسؤول عنها هو الشخص نفسه.

استعرض كثيراً من الأسر، وابحث سبب متاعبها تجد أن أسرة مثلاً سبب متاعبها ما أصيب به الزوج أو الزوجة، أو هما معاً من حدة المزاج، وسرعة الغضب؛ فهي أو هو يغضب لأتفه الأسباب، يغضب من طبق كسر، أو قرش ضاع، أو طفل عمل عملاً لايرضاه أو كلمة نابية، أو غير نابية صدرت من أحد أفراد الأسرة فيغضب، فإذا غضب خرج عن وعيه، وأتى بأعمال جنونية أو شبه جنونية، وكثيراً ما تسبب هذه الأعمال متاعب متسلسلة يصعب حلها.

وهكذا تصبح الأسرة بين أعمال شاذة ومعالجة لنتائجها السيئة، ولا سبب لهذا كله إلا مزاج شاذ فالمرض في أصله مرض نفسي تسببت عنه أعمال مادية شاذة ـ أيضاً ـ.

وهذه زوجة أصيبت بالإسراف؛ فهي تستولي على مرتب الزوج في أول الشهر، وتنفقه في كماليات من فستان فخم، أو أدوات زينة، ونحو ذلك، وتظل

الأسرة بعد هذا التصرف في عذاب ونزاع وعتاب، ولوم بقية الشهر.

وهذا التبذير إذا دققت النظر فيه وجدته يرجع إلى مرض نفسي أو إلى مزاج خاص سببه إما غلبة حب الظهور عند الزوجة، أو حب التعالي على مثيلاتها، أو الاعتداد بالجمال، والاعتداد بالنفس، ويضاف إلى ذلك عدم الاكتراث بالنتائج، وعدم النظر في العواقب؛ فهي تنفعل انفعالاً وقتياً، وتتصرف حسب هذه الدوافع الوقتية من غير النظر إلى النتائج.

وهذا رجل يعذب الأسرة بسقوطه في (كيف) من الكيوف وإدمانه عليه، فهو ينفق على (كيفه) أكثر ماله، ويسطو على ما لزوجته وأولاده من حقوق في هذا المال، كما أنه يفقد بهذا (الكيف) الاستمتاع الصحيح بحياة الأسرة، وأداء واجبها وما عليه من التزامات نحو زوجته وأولاده، وهذا -أيضاً- مرض نفسي، يرجع إما إلى وراثة ورثها عن أبيه، أو إلى تقليد لأصحاب صحبهم، أو انهيار أعصاب، حسَّن له بعدها أصدقاء السوء أن ينتشل أعصابه المحطمة (بكيف) من الكيوف فزادتها تحطماً.

وهذه فتاة نغَّصت على الأسرة حياتها بمزاجها، فهي تريد أن تتزوج من لا يرضاه أهلها، أو هي متسامية جداً لا يعجبها كل من تقدم إليها، ورسمت لنفسها حياة خيالية لا يحققها الواقع، أو هي تأثرت بمناظر السينما فأرادت نوعاً من الحياة غريباً عن حياتنا الشرقية، وتقاليدنا الاجتماعية؛ فهي في نزاع دائم مع أسرتها لا تريد ما يريدون، ولا يريدون ما تريد، وهذا -أيضاً- يرجع إلى مزاج الفتاة، وسرعة تأثره بالمحيط من غير نظر في النتائج، ومن غير تفكير عميق فيما

يقلد وما لا يقلد وهكذا وهكذا من آلاف الأمثلة التي تدل على أنَّ كثيراً من متاعب الحياة سببه مرض نفسي، أو مزاج شاذ؛ فيسبب لنفسه ولمن حوله من أسرته، ومن يتصل به متاعب لا تنتهي، وقد يكفي تصرف واحد من هذه التصرفات الشاذة في متاعب سنين تستوجب من الألم المتعاقب المتسلسل ما لا يعد ولا يحصى.

ولا يمكن التغلب على المتاعب التي من هذا القبيل إلا إذا عرف السبب، ثم عولج علاجاً صحيحاً عميقاً لا علاجاً سطحياً ظاهراً.

وهذه هي نقطة الصعوبة في الموضوع؛ فكثير من الأمراض النفسية لا يمكن علاجه إلا إذا عرف أصله، وعرف تاريخه، وفي كثير من الأحوال يرجع المرض النفسي إلى حالة الشخص في طفولته، أو حادث قديم حدث له في شخصه أو حدث في أسرته، وعلى ذلك أمثلة كثيرة؛ فالأبوان اللذان لم يرزقا إلا طفلاً واحداً وهما على حالة جيدة من الثراء يعتادان أن يجيبا الطفل من صغره إلى كل مطالبه، فلا يذوق ألم الحرمان، ولا يتعود شيئاً من التضحية؛ وليس له أخ أو أخت يعلمانه في البيت درس الأخذ والعطاء والأثرة والإيثار؛ فينمو عنده الاعتداد بشخصه، وعدم النظر إلى شيء إلا إلى نفسه، فَمَالُ الأبوين له وللذاته، وصحتهما ومتاعبهما لراحته، وينمو وهو مدلل، يغضب أشد الغضب إذا لم تحقق رغبته، هكذا هو في بيته وخارج بيته.

مثل هذا الشاب يكون مصدراً لمتاعب لا تنتهي؛ متاعب في مدرسته عند تعلمه، ومتاعب في وظيفته إذا وظف، ومتاعب في زواجه إذا تزوج، فإذا أردنا

أن نعرف السبب في متاعبه لا يمكن أن يتضح إلا بالرجوع إلى حالته في الطفولة، كما رأينا، وإذا أردنا العلاج فلا يصح علاج إلا بعد معرفة سبب المرض.

وهكذا لا يمكننا أن نعرف سبب المتاعب التي تصدر من بخل البخيل، وإسراف المسرف، وغضب الغضوب، وخوف الجبان، والوقوع في مصائب (الكيوف) ونحو ذلك إلا بالرجوع إلى أساسها الأول، كيف نشأ الطفل في بيته، وما هي الظروف التي أحاطت به، وما أصل هذه العادات السيئة، وكيف نمت، وإلام وصلت؟ وفي ضوء هذا كله يمكن معرفة العلاج إذا حسنت النية، وصدقت الإرادة.

أما غير ذلك فإنما يكون علاجاً كما يُعالج الصداع بحبة من الأسبرين من غير أن يعرف السبب الحقيقي للصداع، فقد يكون المعدة، وقد يكون الأمعاء، وقد يكون الأسنان، وهذا ما جعل قول سقراط باقياً على الدهر وهو «اعرف نفسك».

فمن أراد أن يعالج نفسه علاجاً حقيقياً ليخفف عنه وعمن حوله ما يصدر عنه من متاعب فليعرف نفسه أولاً، في أي نقطة هو ضعيف، وبأي مرض هو مريض، ثم يبدأ بالعلاج.

وليس هذا بالأمر الهين، فمعرفة النفس لا بد لها من كشف ستائر تحيط بها، والدخول منها إلى قاعة مظلمة لابد من تسليط الضوء عليها، وكثيراً ما يعيقه غرور الإنسان واعتقاده الكمال في نفسه، أو يعوقه جبنه وعدم جرأته على كشف هذه الستائر عن الوصول إلى حقيقة المعرفة.

ولكن على كل حال هذا هو العلاج الوحيد للتغلب على متاعب الحياة التي مصدرها مزاج الشخص، أو حالته النفسية المرضية.



١٦ كبر الهمة[1] للشيخ محمد الخضر حسين

جرت سنّة الله في خلقه، أن لا ينهض بَأَصْر المقاصد الجليلة، ويرمي إلى الغايات البعيدة، التي يشد بها نطاق السيادة الكبرى ـ غير النفوس التي عظم حجمها، وكبرت هممها، فلم تعلق إرادتها بسفاسف الآمال.

ولذلك لما بعث ـعليه الصلاة والسلامـ لإسعاف الأمة بجميع وسائل الحياة الأدبية أنشأ يؤسس مبادئ العزة والكرامة، ويعبر عن مكانتها الرفيعة باليمين والشمال، فاجْتَثَّ من الأنفس شجرةَ الذلة من جذورها، وأعتق رقابَها من الاستكانة؛ مخافة أن تهوي بها إلى أدنى درجات الضعة والدناءة، ولم يأل جهداً في إجراء دم الشهامة وكبر الهمة في عروقها الميتة، حتى أخرجها في قالب الكمال، لا تتردد إلا على أبواب الفضائل، ولا تبسط ساعديها إلا لمهمات الأمور.

أليس من الإيماء إلى هذا الخلق العظيم النهي عن السؤال لمن وجد طريقاً عملياً للاكتساب؟

في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، ليأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة حطب على ظهره، فيبيعها، فيكف الله بها وجههـ خير له من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله، فيسأله، أعطاه أو منعه».

ومن أحكام الشريعة إباحة التيمم للمكلف، وعدم إلزامه بقبول هبة ثمن الماء

(١) السعادة العظمى ـ عدد١٤، ١٦ رجب ١٣٢٢هـ المجلد الأول، ص٢٠٩ـ٢١٢.

للوضوء؛ لما في ذلك من المنة التي تنقص حظاً وافراً من أطراف الهمة الشامخة.

ومنها عدم إلزامه باستهابة ثوبٍ يستر عورته في الصلاة، وأبيح له أن يصلي عارياً؛ صيانة لضياء وجهه من الانكساف بسواد المطالب.

وليحذر الذين يحاولون الوصول إلى هذا الخلق الأسمى، أن يهرعوا إليه من طريق يدع التواضع دبر آذانهم، فيعودون كما بدؤوا.

ليس من كبر الهمة الترفع عن الرجل يبسط لك وجهاً رحباً، ويمنحك لساناً رطباً، وتشهد لك ألمعيتُك الوقّادةُ بمطابقة ظاهره لما يُكِنُّه ضميره، بل ذلك نفور من النفس، وجموح إلى جهة العلو بغير انتظام، وهو ما نسميه كبراً.

ماذا يردع النفوس عن أنها تُرى حيثما نهى الله، ويغلق في وجوهها أبواب الفسوق والملاهي؟ كِبَرُ الهمة.

ماذا يقبض من الأيدي ويسد اللهى عن ابتلاع ما يدلي به الظالمون ليأكلوا فريقاً من أموال الناس؟ كِبَرُ الهمة.

ماذا يوحي إلى الرجل أن يقيم لسائر تقلباته وزناً بالقسط، حتى إذا جَسَّتْها يد الناقد الحكيم لم تجد في حركاتها طيشاً عن الأغراض التي ترمي إليها ذوو العقول النيرة؟! كبر الهمة.

كبر الهمة يعقد الألسنة عن الانطلاق في مجاري التملق والمداهنة، ويصفد الأقدام عن غشيان المنازل التي لا تطؤ فيها على بساط الاحترام والحفاوة.

كبر الهمة يصيِّر العالم الأمين عوداً مُرّاً، ومكسراً صلباً يقف للمبتدعين المرجفين موقف الشجى بين الحلق والوريد، ويصارعهم بقول الحق الذي تشتد

عراه على أكنتهم إبراماً.

كبر الهمة يستفز الموسر الكريم إلى أن يقول بمال الله الذي أتاه هكذا وهكذا، متحرياً به مصارف المبرات التي تقربه إلى الله زلفى.

يقف أحدٌ أمام بعض الكبراء؛ فيسترسل في مخاطبته بثبات جَأْشٍ، وسكون في الأعضاء ومَهَلٍ في القول، ويعقبه آخر؛ ليقوم مقامه؛ فيرجف فؤاده، وترتعد فرائصه، ويتعثر لسانه في أذيال الفهاهة؛ فهل يختلج في ضمير ذي عقل رشيد، أن الأول اتسم بالقحة المذمومة، والآخر طبع على الحياء المحمود؟

معاذ الله، إنما هو كبر الهمة وضعفها يمثلان لك الإنسانية بالسلك الذي ينظم خرزاً كثيراً تباينت معادنها شرفاً وحطة، واختلفت مناظرها سماجة وجمالاً؛ فمن الناس من تسمو بهم نفوسهم إلى الوقوف على أسرار الهداية، فيتقلبون في أبوابها، ويتمسكون بأسبابها إلى أن تعرج بهم إلى الأفق الأعلى، فَيحُلُّون من العلم بطرقها محل القطب من الرحى، وهذا الفريق هو الذي تستضيء الأمة بأنوار عقولهم، وتتوكؤ على كواهلهم القوية، ولا ينوء بهم عبؤها الرزين، فيخطون بها سراعاً إلى مجادة شامخة الذرى، ويوقدون في كل شعبة منها سراجاً منيراً.

ومنهم من تتضاءل هممهم حتى يتمكن الذبول والخمول من نواصيهم، فيزلقان بهم إلى الحضيض الأسفل من الحطة والرذالة، وتُمحى من إحساساتهم آياتُ الشعور، ورسوم العواطف التي يكون بها الإنسان رجلاً حقيقياً، فينشرون الخبائث نشر الفريق الأول للأفعال المحمودة.

وَتَقهْقُر الأمة وشقاؤها بمقدار ما يتناسل فيها من مثل هؤلاء الأرذلين.

تجد الذين تربوا على مبدأ الإذلال والإهانة، يحبون أن تشيع فاحشة الذلة في إخوانهم الذين آمنوا، فيتغالون في إطراء كل مَنْ تزمل بثياب الهوان، وخفض لهم جناح المسكنة.

وإنها لأحدى العلل التي نخرت منها عظامنا من قبل أن يدركنا الموت الذي يجعلنا من أصحاب القبور.

أما الحر الذي رُبِّي في مهاد العز، وفُطِر على كرامة النفس فإنه لا يرفع إلا من شأن شريف الهمة، الناسج على مثال العزة التي هي من شعائر الإيمان.

وإذا استبنا أن كبر الهمة سجية من سجايا الدين، تصدر عنها الأعمال العظيمة، وتضم تحت جناحيها فضائل شتى ـ فَلِمَ لا نعقل عليها نفوس أبنائنا، ونرشَحَهم بلبانها في أدوار تربيتهم الأولى؟ ليستشعروا بالآداب المضيئة، ويتجلببوا بالقوانين العادلة، ولنا حياة طيبة في العاجل، وعطاء غير مجذوذ في الآجل.

خامساً: مقالات في المدنية والعمران

٢٦ مدنية الإسلام والعلوم العصرية[1] الشيخ محمد الخضر حسين

خذ أيها الباحث الحكيم بمجامع نظرك السديد، وجُلْ به جولة بديعة الإحاطة في قوانين الشريعة المقدسة، التي نعت بها الكتاب العزيز، وأرشدت إليها السنَّة، ثم ارجع البصر كرتين إلى الأسباب أسبابِ ارتقاء الأمم الحية، وبسطها أجنحة الاستعمار في الأرض، ولتكن هكذا كل ذرة من ذرات جسمك عيناً تبصر، وأذناً تصغي، وفؤاداً يذكر، إلى أن تتأصل في صدرك شجرة الحكمة البارعة، وتتفرع أغصانها تحت طي لسانك.

وهلم إلينا من بعد نتجاذب أطراف الأحاديث بيننا بقسطاس صحيح، ولهجة صادقة لا تدخل على الأحكام إلا من باب الإنصاف؛ لكيما نعلم عين اليقين أَنْ لا سبيل على استيفاء لوازم الحياة الاجتماعية إلا بإقامة قواعد الدين على الوجه الذي اهتدى إليه الخلفاء الراشدون، ومن كان على شاكلتهم من السلف الصالح، وهو المثال الذي لابد لنا من محاذاته ولو بعد حين من الدهر؛ لأنهم أبناء العصر الذي نزل فيه القرآن، وأخوان اللغة التي ورد على أساليبها؛ فهم أعرف بمساقاته، وأعرق في فهم مغازيه ممن سواهم.

ما تسنى لهم انتهاج تلك الطريقة الواضحة إلا لخلو جامعتهم -على سعة دائرتها- من طائفة تجهل ما هيَّةَ الحياة الصالحة وقفت عُرْضَةً في وجوه الخلف تسد عليهم طرق العلم بأسباب الانتظام في شؤونهم السياسية والمعاشية حتى

---

(١) السعادة العظمى - عدد١٢، ١٦ جمادى الثانية ١٣٢٢ المجلد الأول ص١٧٧-١٨٠.

توهم ذو بصيرة عشواء أن الإسلام والنظام لا يجتمعان.

ولربما رجفت هذه الراجفة في صدور ضعفاء الأحلام من الناشئة الحديثة.

ما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً أيُّ مدنية قويمة لم يكشف الإسلام غشاوتها؟ أو حضارة نافعة لم ينشر بين أخوانه لواءها؟

تسابقت الدول في طباق العمران بمعرفة العلوم الرياضية التي من فروعها الحساب، والمساحة، وعلم التكسير، وعلم رفع الأثقال، وعلم الحيل المائية، والهوائية، والمناظر، والحرب، والهيأة، والميقات، والفنون الطبيعية التي من فروعها علم الفلاحة، وعلم المعادن، وعلم الطب وفروعه.

ومن كان على بينة من الشريعة القَيِّمة عارفاً بغايات هذه الفنون لا سيما في مثل هذا العصر الذي كشف عنا الغطاء، وأرانا من نتائجها ما أرى-لا يسعه إلا استلحاقها بالعلوم الإسلامية؛ لتستخدم في بعض الشعائر المفروضة، ويتطرق بها إلى اغتنام السعادة في الدنيا التي هي الكافل للسعادة الأبدية.

ولقد فعل ذلك ذوو الفطر السليمة من علمائنا الذين لم ينكثوا أيديهم من التأسّي بذلك السلف في التمتع بلذة النظر، وأخذ الأشياء النافعة من أي وجهة صدرت؛ فَمَحَّصوها بتطبيق أصول الديانة عليها، وغرسوها في معادن معارفهم العالية؛ فَرَبَتْ، وأنبتت من كل زوج بهيج.

ولقد أَعَجبَ مَنْ سوانا نباتُها، فاستمالوا إليهم غصونها؛ فاستحكمت جذورها عندهم، واجتنوا منها ثمراً لذيذاً.

شهد الله أن ليس الغرض من ترديد صدى هذه الجملة الأخيرة على الآذان

نشر فضيلة كانت مطلوبة، أو الإعلان بمنة قوبلت بالكفران، كلا! ثم كلا؛ إن ذلك لا يجدي نفعاً، ولا يطفئ لوعة، بل المراد إيقاد نار الغيرة على استرجاع ما أَوْرَثَناه آباؤنا الأولون.

وليست العلة في تجافينا عن هذه الفنون، وعدم تعهدها بالتنمية إلى أن أصبحت بضاعتها لدينا مزجاة- إلا ما خُيِّل إلى بعض الجاهلين بحقائقها من أنها حية تسعى، تساور الأفكار فتلسع عقائدها الصحيحة:

وإذا امرؤ لسعته أفعى مرة تركته حين يُجَرُّ حبلٌ يَفْرَقُ

ثم سرت عدوى ذلك الوهم إلى إحساسات كثير ممن يظن بهم القيام بأحمالها الخفيفة، ولربما تحاشى عن تعاليمها بعض العالمين بما فيها من المنافع؛ رهبة من إساءة الظن به، واتهامه بالإلحاد الذي تزعم العامة أنه منقوش على كل سطر من صحائفها.

هذا مع إخلادنا إلى الخمول إخلادَ مهيضِ الجناح إلى الأرض؛ فلا تتطاول أعناقنا، أو تشخص أبصارنا إلى الاستطلاع عن الوسائل التي تأخذ بساعد الأمة إلى التدرج في طبقات السؤدد والاستعلاء؛ فنسعى لها سعيها.

ومن الناس مَنْ أشربوا في قلوبهم اليأس والقنوط، فلا يرجون للإسلام تقدماً، فيميتون في أنفسهم كل قوة واستعداد، ويثبطونها عن المجاراة في مثل هذه الفنون، مما يستجلب به مصلحة، أو يدرأ به مفسدة، فإذا سمعوا منادياً ينادي لمراجعة التفاتنا، واستدراك ما فاتنا نَغَضُوا إليه رؤوسهم سخرية، كأنما تَطَلَّب نشر الأموات، أو كلفهم البلوغ إلى أسباب السموات، سبحانك هذا ضلال مبين

نُنْفِدُ له ماء الشؤون، ونأسف له أسفاً أليماً.

كما أن بعض المتدربين في هذه الفنون، قد يأخذهم التعاظم شأن المقلد الأعمى إلى أن يلقوا على أفواههم كلمات يهتفون بها جانب العلوم الدينية ومستتبعاتها، يرددونها بكل مكان، ويلوكونها لوك الخيل للشكائم صباحاً ومساءاً، غدواً ورواحاً، ويريدون أن تَرَدَّى الناس جميعاً في سواء الجهالة بها.

أبمثل هاته الإرادة ينفخون في عروق الأمة حياةً جديدة؟ أولم يشعر هؤلاء بأن علوم الديانة هي عنصر المدنية الكبرى؟ ولماذا لا يقتدون بأهل النجارة والحياكة والفلاحة وسائر الصنائع؟ فإنهم على عِلْم -أعانهم الله- أن الهيأة الاجتماعية لا يستقيم أَوَدُها إلا بحركاتهم اليومية، ولا يحومون حول هذه الآراء العقيمة التي لا تصدر إلا ممن حرم نظره من التعلق بما وراء هذه الحياة الدنيا.

اللهم ألهمنا طريقة عادلة يستوي على ظهرها القيمِ السائرون في مضيق الإفراط، والخابطون في مهامه التفريط.



٢٧ مدنية الإسلام والخطابة[1] للشيخ محمد الخضر حسين

أتى على هذا العالم حين من الدهر، ومعظمه تحت قبضة دولتي الفارسيين والرومانيين، لا يخشون فيه منازعاً ولا يهابون معارضاً، وذلك قبل بعثته -عليه الصلاة والسلام- بنحو ثلاثة قرون.

وانتشبت خلال هذه الأزمنة المستطيلة والآماد البعيدة بين هاتين الدولتين حروب دموية كان شررها مستطيراً، ولم تأخذهم بأبناء جنسهم المكرم رأفةٌ تغل أيديهم عما أرهقوهم به من الخسف والعدوان، وساموهم به من سوء العذاب الذي كانوا يصبون صواعقه على رؤوسهم صبّاً متوالياً.

انقسمت دولة الرومان سنة ٣٩٥م إلى قسمين، قسم في الشرق وعاصمته القسطنطينية، وقسم في الغرب وعاصمته رومة، وبعد هذا التقسيم بنحو ثمانين سنة، منيت الدولة الرومانية الغربية بغارة شعواء شنتها عليهم البرابرة، اندفعوا عليهم من آسيا اندفاع السيل مِنْ عَلُ؛ فأيقظوا في قارة أوروبا فتنةً رمت بشواظها ذات اليمين وذات الشمال، وعاثوا فيها بأضرب الفساد وأنواع البغي، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعل المتوحشون.

كل ذلك يفصِّله لك التاريخُ بتبيان لا يشوبه غموض، ويذكرك بأيامه الخالية تذكرة نافعة.

ولم تزل تلك الفتن قائمة على سوقها، والجهالة المظلمة ضاربة أطنابها

---

(١) السعادة العظمى - عدد١٣، غرة رجب ١٣٢٢هـ المجلد الأول، ص١٩٣-١٩٧.

بمشارق الأرض ومغاربها، إلى أن انفتحت في الحجب المحدقة بأنوار الحضرة المحمدية كوةٌ نفذت منها بوارق لمعت في جزيرة العرب أولاً، ثم انبعثت منها أشعة إلى سائر أطراف المعمورة، فقشعت ببهرتها سحائب الهمجية الغالبة، وأخمدت نيران الضلالة المرهقة.

وإن المنصفين من مؤرخي الإفرنج على ذلك لمن الشاهدين، قال أحد فلاسفتهم وكتّابهم «شارل ميسمر» في كتابه تذكار العالم الإسلامي: «الإسلام أفاد العالم، فيلزم أوروبا أن تحافظ على حياة أهله».

وقال المسيو «دروي» أحد وزراء معارف فرنسا السابقين في كلامه على الأمة العربية ـ نقلته إحدى المجلات المصرية ـ: «وبعد ظهور النبي ﷺ الذي جمع قبائل العرب أمة واحدة تَقَصَّد مقصداً واحداً، ظهرت للعيان أمة كبيرة، مدَّت جناحها من نهر تاج في إسبانيا إلى نهر الجانج في الهند، ورفعت على الإشادة أعلام التمدن في أقطار الأرض أيام كانت أوروبا مظلمة بجهالات أهلها في القرون المتوسطة».

ثم قال: «إنهم كانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الأمم، وانقشعت بسببهم سحائب البربرة التي امتدت على أوروبا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين، ورجعوا إلى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة، ولم يكفهم الاحتفاظ على كنوزها التي عثروا عليها، بل اجتهدوا في توسيع دائرتها، وفتحوا طرقاً جديدة لتأمل العقول في عجائبها».

ولعلك بعد أن تصغي إلى هذه الشهادة التي لا تختلج بريبة تنفث في رُوْعك،

ما لنا نرى إخوان الإسلام بمعزل عن سعادة الحياة وراحة العيش، يوم أصبح غيرهم يتقلب في سعة الملك وبسطة من الرفاهية. فنجيب: تأمّلْ جيداً ـبصَّرك اللهـ أن الوادي الذي يهيم فيه المسلمون لهذا العهد غير الطريقة التي سنّها كتاب الله، وشرحت وجهتها السنّة الصحيحة.

ما عليه غالب المسلمين الآن إنما هو مثال ينطبق عليه ما توسوس عليه الكتب المحشوة بالتُرَّهات الباطلة، والخرافات التي تؤثر في العقائد والأخلاق خَمةً وفساداً، ككتاب ألف ليلة وليلة، وقصة عنترة، وقصة فتوح اليمن، وكتاب أعلام الناس، وكتاب قصص الأنبياء المنسوب لأبي منصور الثعالبي، وكتاب مُجَّاني الأدب وبعض كتب المواعظ والتفاسير المملوءة بالأحاديث الموضوعة، وقصص الإسرائيليين.

هذه الكتب وأشكالها هي الآن أكثر انتشاراً بين عامة المسلمين من الكتب المعتمدة، ويحسبون أن ما فيها هو من التعاليم الدينية، ولا يدرون بأنها فتحت علينا باباً من الغواية وآخر من المعرة، لا يسدهما إلا البراءة منها وحرقها أينما وجدت.

ولو طهرنا أفكارنا مما اشتملت عليه هذه الأسفار من القاذورات، وأفرغنا فيها من التعاليم الثابتة والآداب الحقة وابلاً غزيراً ـ لأثمرت في جوارحنا أعمالاً صالحة نستوفي أجورها مرتين.

من المسؤول أولاً عن هذا الانقلاب العظيم الذي أودى بالمسلمين قاطبة إلى مرارة العيش وكدر الأنفس وهم لا يشعرون؟

هم سادتنا العلماء؛ فإنهم تنازلوا عن شيء كثير من خطتهم، وضيقوا في نطاقها إلى حد لا يسع إرشاد الأمة وإصلاحها، ولا ينكر ما حدث منذ أزمنة غير قريبة، وامتدت سلسلة تعسة وشقاية لهذا العصر من اتخاذ بعض المتردين برداء العلم اسم الدين شراكاً يقتنصون منه مآربهم الشخصية، ومنهم من تختم المطامع والجشع على أفواههم؛ فيكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلاً، والذي يتولى كبر هذه المسؤولية خطباء المنابر، فإن كثيراً منهم غيّروا الخطب تغييراً فاحشاً كاد يخرج بها عن دائرة حكمتها التي شرعت لها.

شرعت الخطب للإرشاد إلى ما غايته راحة في الدارين، وسعادة في الحياتين، وما مثل الخطيب في قومه إلا كمثل الطبيب الحكيم يُسْلَم إليه شخصٌ؛ ليتكفل بالمحافظة على صحته، فلا يمكنه توفية هذه المحافظة حقها إلا بتفقد بدن ذلك الإنسان، وتعهده في جميع الأزمنة، فإن طرأ على بِنْيَتِه اعتلال، أو مزاجه انحراف بادر إلى معالجته بدوائه المناسب له، وإلا فشأنه التحذير مما تتولد منه العلل، وتتعفن به الأخلاط.

وكما أن الطبيب لا يخص مراقبته بالأعضاء الرئيسية الدماغ والقلب مثلاً ويترك ما عداه غير مأسوف عليه- كذلك الخطيب لا يقف بتذكرته النافعة عند حد العبادات المحضة؛ فإن التمكن من القيام بقواعدها له شروط ووسائل لا يتم إلا بها؛ فلا بد من استلفات الأنظار إلى استجماعها، والتنشيط إلى الاستعداد فيها، ومن هنا وجب أن يكون الخطيب بحاثاً عن أحوال الأمة، متفطناً لمصالحهم الدينية والدنيوية.

إن أدرك الناسَ فتورٌ عن إقامة شعائر الدين استمالهم إليها ببواعث الترغيب تارة، وقرَّعهم بسيوف الترهيب تارة أخرى، وإن تخبطتهم شياطين التدابر والتخاذل عوَّذهم من شر عاقبتها الوخيمة بِرُقْيَةِ الآيات والأحاديث التي تحيي في نفوسهم عواطف المحبة والائتلاف، وإن آنس من أخلاقهم عوجاً وحيفاً كعدم الصدق في المعاملات والتظاهر بالمداهنة والنفاق بشبهة أنها دهاء وسياسة ـ عالج استقامتها بمواعظه الحسنة وفي المواعظ شفاء الصدور، وإن خامر عزائمهم داء الفشل والتلذذ بالراحة الوقتية؛ فَقَيَّدا سواعدهم عن أعمالهم الصناعية التي بلغت بها الأمم التي يضرب بها المثل في القوة والسيادة مبلغاً عظيماً ـ استنهضهم بلسان الشريعة السامية، للمسابقة في ميدانها والمزاحمة على إحراز غاياتها، وأنذرهم سوء المنقلب الذي يتقلب فيه البطالون.

٢٨ تهيئة الشرق لوراثة الحضارات والمدنيات[1]

للعلامة محمود محمد شاكر

لبثت في أسر «الوظيفة الحكومية» عشر سنوات متواليات أعمل فيها ولها، ثم تنزل القدر فعافتني وعفتها، وانطلقت أطوي الأرض أنظر بعينيَّ إلى آفاق تترامى على مطرح البصر، وكأني آبدٌ قد حطَّم القيود، وانفلت من بين أعواد الحديد التي كانت تمسكه من ورائها، وملأت رئتيَّ من الهواء الحر، يا رب، أين كنت؟ إن طبيعتي التي فُطِرْتُ عليها تأبى أن تألف هذه الأنفاس المقتّرة المعطاة على المنة لصدور تنطوي على قلوب حية تنبض وتتحرك وتسمو بآمالها إلى الخير النبيل.

وبقيت أياماً، هي من حياتي كأنها ذكرى فرحة قديمة انبعثت على حين غفلة من كهوف النفس المهجورة التي يختبئ في ظلماتها ما يمضي من أفراح الحياة.

وتوالت الأيام تتسحب على ظلال العمر، وتجلت الأحلام العزيزة التي لا تفنى وسكنت االنفس إلى حريتها، وبدأت أبحث عن واجبي في الحياة، فمكثت على لبث أتأمل وأفكر، والروح في فترة من هدوء ورضاً، حتى اهتديت بحمد الله إلى الطريق والغاية.

نحن شعوب متخاذلة قد غفلت عن حقيقة الحياة، فواجبنا أن نعمل على

---

(١) العصور العدد الثاني ٩ ديسمبر ١٩٣٨ ص٣٧-٣٩، وانظر جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمعها وقرأها وقدم لها د. عادل سليمان جمال ٢/٨٠٩.

إيقاظ هذه الشعوب من سِنَةِ النوم التي طالت بها، وقتلت فيها مادة النشاط التي تدفعها إلى تحقيق الأغراض النبيلة التي خلق من أجلها الإنسان على الأرض.

أجل... وهذه الشعوب نفسها، هذا الشرق قد أثبت في التاريخ مرات أنه قادر على صناعة الحضارات والمدنية، يتقنها، ويستجيدها، ويطهرها من أدران البلاء التي تعصف بإنسانية الإنسان كما تعصف الريح بأوراق الشجر؛ فَلِمَ لا يثبت الشرق مرة أخرى في التاريخ الحديث أنه لم ينس هذه الصناعة؟ وأن أنامله الرفيقة لا تزال قادرة على نسج الثياب الرفيعة التي تلبسها الإنسانية؛ لتزهى بها، وتبدو في زينتها؟

هذه المدنية الأوربية المحدثة من أمامنا قد عملت عملها، وأتمت ما وجدت له على طريقتها ومذهبها، وجعلتنا ننظر إليها ذاهلين كأنما نرى معجزة تحققها أيدي مردة من الجن ليسوا من الإنس في أصل ولا نسب.

إن هذا الوهم الكبير هو الذي أعجز الشرق عن العمل، ورماه في براثن الأمم المستأسدة الضارية، وجعله كالفريسة تنتفض تحت أقدامه عجزاً وهلعاً واستكانة.

ولكن الحين قد حان، وآن للشرق أن ينظر إلى الحقائق الواقعة؛ ليعرف كيف يعمل.

إن أوروبا، التي هي مصدر المدنية الحديثة تقف على هذه الأرض موقفاً ظاهراً لمن يتأمل.

هذه دول الحضارة الحديثة من أمامنا قد هبت كلها في جنبات الأرض تملأها

حديداً، وناراً، وضجيجاً في الأرض، وصخباً طائراً في السماء.

والرجال على الأرض كأنهم قنابل معدة مهيأة لتنفجر، وفي كل ناحية أمة مُقْعِيَةٍ[1] متربصة تكاد تثب، والحياة تتدافع بهذا وذاك وهؤلاء، فلا تلبث أن تصطدم هذه الأمم بعضها ببعض، ويومئذ لن تثبت الأرض، ولن تسكن السماء، وتتطاير أشلاء الحضارة الحديثة إلى أعلى؛ لتسقط على أهل هذه الحضارة، وتطويهم في أكفانها، وتدفنهم في قبورها.

إن المدنية الأوربية المحدثة في هذا العصر، تحمل في داخلها كل عناصر التهدم، وكل أسباب الفناء والبلى، وأهم هذه العناصر والأسباب، هذه الحالة الحربية التي شملت كل دولة أوربية، ودفعتها إلى زيادة التسلّح بكل أدوات الدمار والهلاك، والسرعة الجامحة التي تعمل بها هذه الأمم في كل ما يمس الاستعداد الحربي.

ولا شك في أن هذه الإرادة وحدها مع الإسراع في تنفيذها سوف تؤدي حتماً إلى اختلال التوازن في القوى المتساندة، وسينتهي هذا الاختلال باصطدام قوى الشر جملة واحدة، وسيعقب هذا الاصطدام انفجار هائل يشوِّه وجه الإنسانية الباغية أبد الدهر، ويتركها مثلاً في العالمين.

ولو أن هذا الاستعداد الحربي العظيم كان نتيجة للدفاع عن مبادئ استقرت على أصولها في نفوس القائمين بأمرها لقلنا عسى أن تنتفع الإنسانيةُ بانهزام الباطل وانتصار الحق، وإن ضحَّت في سبيل ذلك بالملايين من البشر الذين

---

(١) أقعى الكلبُ: جلس على مؤخرته مُفْتَرِشاً رجليه، وناصباً يديه.

تأكلهم هذه الحروب الضروس، ولكان ثمَّة أمل في عودة الحضارة إلى منزلة من الإصلاح تعمل فيها لسعادة الإنسان بعد الشقاء الكبير الذي تعس به.

ولكن الواقع غير ذلك؛ فإن الحرب الحديثة المقبلة إنما هي بغيٌ؛ لقد بغى بعضهم على بعض في العلم؛ فضربوا للإنسان أسوأ الأمثلة على أن ضَرَرَ العلم أكبر من نفعه[1]، وأن الشقاء قرينٌ لعلم هذه المدنية الطاغية، وأن الفرد فيها حيوان يُستغل، فيا لشناعة هذا الاستغلال الذي هزم العقل والإرادة، وردهما إلى أدنأ درجة في تاريخ الإنسان على الأرض!.

هذه أوربَّا التي نفضتْ على كلمة «الحرية» من تهاويل الخيال، وتخاليف الفن، وتحاسين الإبداع، وزخارف الأرض، حتى بدتْ فتنةً يتهاوى في فتونها كل غاوٍ وحليم ـ تثبتُ للناس أن «الحرية» كلمة ضامرة ضعيفة لا معنى لها، ولا حياة فيها.

ولعل التاريخ كله لم يشهدْ عصراً ضاعت فيه كل معاني هذه الكلمة مع كثرة دورانها على الألسنة مثل الذي شهده في هذا العصر؛ ففي كلّ ناحية في أوربا يضرب الحصار على حرية الأفراد، وحرية الجماعات، وعلى حرية السر، وحرية العلن، وعلى حرية الرأي، وحرية الضمير.

في فرنسا ـ باعثة هذه الفتنة في أوربا ـ في إنجلترا، في ألمانيا، في إيطاليا، في روسيا، في كل بلد، يشهد التاريخ أفظع استبداد تستبد به السياسة الدولية، وتتعسف به المعاهدات والمحالفات القائمة على مصالح البغي السياسي والحربي،

---

(١) يعني به العلم المادي (م).

في إزهاق الروح الحقيقية التي تحملها كلمة «الحرية».

إن كل عمل، بل كل رأي، بل كل فكر، بل كل شيء في أوربا الآن تقتسره السياسة الحربية على صورة تنفعها، فإن لم تكن تنفعها فلا تضرها، حتى صارت العقول الإنسانية آلة في يدها تصرفها كيف تشاء، وفسدت معاني الأشياء، وطغى غرور القوة والاعتداد بها في العلم والفن والأدب، وفي كل شيء، واختلط الحق بالباطل اختلاطاً فاسداً لا أمل في تطهيره إلا بجهد كبير تبذله نفوس هادئة ساكنة حكيمة تتجرد للعمل، وتعمل للحق، وتختار صالحَ كلِّ شيء، وتنفي فساده، وتحريفه، وغلوَّه، وغروره؛ ليكون الانتفاع به أقرب لإنقاذ الإنسانية من مصير مخيف، يرتد بها إلى وحشية الغرائز الدنيا التي تتحكم في مراشد العقل والقلب بغير حكمة ولا رويَّة.

هذه الصور الدانية الآن للحالة الظاهرة في أوروبا غير ناظرين إلى الاختلاط الفكري القبيح بين المذاهب المتباينة، ولا إلى الفساد الكبير في المبادئ العقلية التي تبني عليها سعادة القلب الإنساني، ولا إلى تشاجر الأهواء الاجتماعية في حرب الفضيلة والرذيلة، والخير والشر، والعدل والبغي، ولا إلى انحلال القوى الاقتصادية وتزعزع الأسس المالية، ولا إلى ما يمد كل هذه بأكبر أسباب الفساد إلا وهو غرور هذه المدنية بعلمها، ورأيها، وفهمها، وادعائها إدراك سر الحقيقة في كل ما تتناوله بالبحث والتحليل.

أما الشرق فهو الآن يموج، ويهتز، ويمتد بآماله، ويطالب بحرياته؛ فبذلك تُهَيِّئُهُ ضرورةُ الحياة الحاضرة لانتزاع الخير المحض مما يقع إليه من مدنية وحضارة،

وتهيئه طبيعتُه الموروثةُ للاستفادة من نتاج الحضارات والمدنيات قديمها وحديثها، وتهيئه ما انحدر معه في أعصابه من الحكمة القديمة، والرزانة التقليدية؛ لتعبئة قواه التاريخية كلها؛ فيأخذ الحضارة الحديثة، فيصهرها، ويذيبها، ويعيد تكوينها موسومة بسمته: الحرية، العدل، الشرف، الفضيلة، سكينة النفس، التقوى تقوى الله في عمل الدنيا وعمل الآخرة، تلك سمات الشرق التي يَسِمُ بها مدنيته الجديدة التي يتهيأ اليوم لوراثتها عن سالف الحضارات والمدنيات.

سادساً: مقالات في الشباب

٢٩

نهوض الشباب بعظَائِم الأُمور(١)

للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

يسبق إلى الأذهان أن الفتى حديث السن؛ لقلّة ما مَرَّ عليه من التجارب، تخفى عليه عواقب الأمور ويقصر باعه عن حل المعضلات، وتصريف الأمور بحكمة، ومن هنا نرى الناس يحتملون أخطاء الشباب أكثر من احتمالهم أخطاء غيره، ويعتذرون عنه بحداثة سنة، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمن أنكر عليه عزل خالد بن الوليد من قيادة الجيش الفاتح للشام: «إنك حديث السن، مُغْضَبٌ في ابن عمك».

وهذا حق بالنظر إلى الشباب الذين ينشأون نشأة عادية، فتنمو عقولهم على قدر ما يمر عليهم من السنين، وعلى قدر ما يلاقون من تجارب الحياة.

ما استقامت قناةُ فكري إلا بعد أن أعوج المشيب قناتي

ولكنَّ التاريخ والمشاهدة يدلان على أن في الشباب من يبلغ في حصافة العقل، وحسن التدبير المنزلة الكافية لأن يُلْقَى على عاتقه ما يُلْقَى على عواتق الكهول أو الشيوخ من عظائم الأمور.

وفي مثل هذا الفتى يقول بعض الأدباء: «قد لبس شبابه على عقل كهل، ورأي جزل، ومنطق فصل، حمدت عزائمه، قبل أن تحمل تمائمه».

وفي مثل هذا يقول آخر: «وكان بارعاً في العلم أو السياسة إلى درجة تسمو

(١) مجلة الهداية الإسلامية، وكتاب الدعوة إلى الإصلاح ص١١٩.

على سنِّه».

وفي مثل هذا الفتى يقولون: «كان حسن السيرة رفيقاً بالرعية، على حداثة سنِّه».

وقد يقولون: لا تنظر إلى صغر سن فلان، وانظر إلى عظم ما بلغه من المجد، كما قال البحتري:

لا تنظرن إلى الفياض من صغر   في السن وانظر إلى المجد الذي شادا
إن النجوم نجوم الأفق أصغرها   في العين أذهبها في الجو إصعادا

وإذا قلَّبنا صفحات التاريخ دلَّتنا على رجال ظهرت عبقريتهم، وكفايتهم للقيام بأعمال جليلة وهم في أوائل عهد شبيبتهم.

نقرأ في السيرة النبوية أن النبي ﷺ ولّى عتاب بن أسيد مكة وقضاءها وهو في سن الحادية والعشرين، وولّى معاذ بن جبل على اليمن وهو دون سن العشرين، وولّى أسامة بن زيد إمارة جيش فيه الشيخان أبو بكر وعمر، وسنُّ أسامةَ يومئذ تسعَ عشرةَ سنةً.

وولّى عُمَر بنُ الخطاب رضي الله عنه كعبَ بنَ صور قضاء البصرة وهو في سن العشرين، وكان يدعو ابن عباس في المعضلات، ويجلسه بين الأشياخ وهو دون سن العشرين، وقلّد عثمانُ رضي الله عنه عَبد الله بن عامر ولاية البصرة و هو ابن خمس وعشرين سنة، قاد الجيوش، وفتح ما بقي من بلاد الفرس، حتى انقرضت على يده الدولة الساسانية.

وولّى الحجاجُ محمدَ بنَ القاسمِ بنِ محمد بن الحكم الثقفي قيادة جيش أخمد

ثورة في الفرس، وقيادة جيش افتتح السند، وكان عمر هذا القائد سبع عشرة سنة حتى قال فيه بعضهم:

قاد الجيوش لسبع عشرة حجّة ... يا قربى ذلك سؤدداً من مولد

وظهر نبوغ مخلد بن يزيد المهلبي في أوائل عهد شبابه، وفيه يقول حمزة ابن بيض الحنفي:

بلغت لعشر مضت من سنيـ ... ـك ما يبلغ السيد الأشيب

فهمّك فيها جسام الأمور ... وهمّ لداتك[1] أن يلعبوا

وكان مخلد هذا والياً على جرجان، وتوفي في عهد عمر بن عبد العزيز، وهو ابن سبع وعشرين سنة، وقال عمر بن عبد العزيز: اليوم مات فتى العرب، وأنشد متمثلاً:

على مثل عمرو تذهب النفس حسرة ... وتضحي وجوهُ القوم مغبرّةً سودا

وولىَّ المأمون يحيى بنَ الأكثم قضاء بغداد وهو في سن الحادية والعشرين، وتولى أبو شجاع بن نظام الدين الوزارة للمسترشد، وسنه دون العشرين، ولم يل الوزارة أصغر منه.

وإذا انتقلنا إلى النظر في شباب الملوك وجدنا رجالاً تقلدوا الملك في سن العشرين أو فيما دونه أو فيما يزيد عليه بقليل، وأخص حديثي وما أسوقه من الأمثال بمن تولوا الملك في عهد الشباب، وظهرت لهم آثار تدل على كفايتهم للقيام بأعباء الملك، وأضع في أول سلسة هؤلاء الشباب من الملوك الخليفة

---

(١) يعني: أقرانك.

هارون الرشيد فإنه تولى الخلافة وهو في سن الحادية أو الثانية والعشرين، وماذا أقول في هارون الرشيد وصحف التاريخ مملوءة بمآثره الحميدة، وبما بلغه الإسلام في عهده من العزة والعظمة؟

وإذا لم يكن بدٌّ من ذكر خصلة من خصاله الزاهرة، فإنه كان يدع القضاء يتمتع بحريته الكاملة، ومما حدثنا به التاريخ أن يهودياً كان قد رفع عليه قضية لدى القاضي أبي يوسف وحكم القاضي لليهودي، وكان هارون في المجلس فبادر إلى تنفيذ ما حكم به القاضي.

ومن عظماء شباب الملوك ملك شاه بن ألب أرسلان الملقب بالسلطان العادل، تولّى الملك وهو في سن التاسعة عشرة أو العشرين، وقد ملك من كاشغر - أقصى مدينة في بلاد الترك - إلى بيت المقدس، وكان مغرماً بالعمران، لهجاً بالصيد، مظفراً في الحروب، وكانت السبل في أيامه آمنة: تسافر القوافل أو الأفراد مما وراء النهر إلى أقصى الشام من غير خوف ولا رهبة.

وأصدق شاهد على إخلاصه في سياسة الأمة أنه خرج لقتال أخيه أبي سعيد بن ألب بن أرسلان؛ فقال في دعائه: «اللهم انصر أصلحنا للمسلمين، وأنفعنا للرعية».

ومن عظمائهم محمد بن ملك شاه؛ فقد تولى السلطنة وهو في سن العشرين، وسار سيرة حسنة، وكانت له الآثار الجميلة من العدل الشامل، والبرّ بالفقراء والأيتام، وكان ساهراً على أن تكون عقيدة الأمة سليمة يخشى أن يدخلها الإلحاد؛ فتتزعزع قوتها المعنوية، وما تفشّى الإلحاد والإباحية في قوم إلاّ فقدت

الرجولة من نفوسهم، وركِب العدو أعناقهم.

ومن عظمائهم محمود بن محمد بن ملك شاه فقد تولى السلطنة في خلافة المستظهر بالله، وخطب له في بغداد وهو في سن الحلم، وكان هذا السلطان متوقداً ذكاءاً، قوياً في العربية، عارفاً بالتواريخ، شديد الميل إلى أهل العلم والفضل، وهو الذي مدحه الشاعر حَيْصَ بَيْص بقصيدته التي يقول فيها:

يا ساري الليل لا جدب ولا فرق فالنبت أغيد والسلطان محمود

قيلٌ تألفت الأضداد خيفته فالمورد الضنك فيه الشاء والسِّيْد[1]

ومن عظمائهم فنا خسرو عضد الدولة بن بويه فقد ولّي سلطنة فارس وعمره خمسة عشرة سنة، واستولى على العراق والجزيرة، وهو أول من خوطب بالملك في الإسلام، وكان شهماً حازماً متيقظاً محباً لأهل الفضل، وقصده فحول الشعراء ومدحوه بأحسن المدائح، ومن هؤلاء المتنبي ومما قال فيه:

ومن أعتاض عنك إذا افترقنا وكل الناس زور ما خلاكا

ومنهم محمد بن عبد الله السلامي وهو الذي يقول فيه:

وبشرت آمالي بِملْكٍ هو الورى ودارٍ هي الدنيا ويومٍ هو الدهر

---

(١) السِّيد: الذئب، تقول العرب: سيد الغضا، كما قال طرفة في معلقته المشهورة:

وكرّي إذا نادى المضاف مُحنباً كسيد الغضا نبَّهته المتوردِ

يقول: إن مما أفتخر به: أني أَكُرُّ وأنهض إذا استجد بي المهموم، وأركب فرساً محنباً ـ وهو الذي تقوست رجلاه وهي خصلة محمودة في القوس ـ.

وحالي هذه كسيد الغضا ـ وهو أخبث أنواع الذئاب ـ إذا انتبه لورود الماء (م).

ومن عظماء شباب الملوك في الشام أو مصر، أبو الفتح غازي بن السلطان صلاح الدين المعروف بالملك الظاهر؛ فقد سَلَّم إليه والده مملكة حلب وسِنُّه أربعة عشر سنة، وكان ملكاً حازماً، عالي الهمة، حسن السياسة، كثير الاطلاع على حال الرعية وأخبار الملوك، باسطاً للعدل، مجّلاً للعلماء، مجيزاً للشعراء، ورثاه راجح بن إسماعيل الحلبي بقصيدة بديعة يقول في طالعها:

سل الخطب إن أصغى إلى من   بمن علقت أنيابه ومخالبه

ثم يقول:

أيا تاركي ألقى العدو مسالماً   متى ساءني بالجد قمت ألاعبه

ومن شباب ملوك مصر خمارويه بن أحمد بن طولون، فقد تولى ملك مصر وهو ابن عشرين سنة، وكان هذا الملك يمثل الثبات ومقارعة الخطوب، فقد أصابه في أوائل ولايته ما يكسر العزم، ولكنه مازال ينهض حتى ثبت لقتال الخارجين عن طاعته، ووصل أصحابه إلى «سر من رأى» بالعراق، وعظم أمره، واستولت الهيبة منه في القلوب.

وإذا نزل بِقَدْره شيء فهو أنه كان ينفق الأموال الطائلة في الملاهي والزينة، كما فعل في تجهيز ابنته «قطر الندى».

وممن يذكر في هذا القبيل علي بن الحاكم العبيدي، الملقب بالظاهر، فقد تولّى ملك مصر وعمره ست عشرة سنة، وكان على خصال حميدة من نحو السخاء والحلم والتواضع والعدل في الرعية، والنظر في إصلاح البلاد، وكان لا يدَّعي ما كان يدَّعيه والده وجدُّه من المزاعم، وله كتاب يتبرأ فيه من الغلاة فيه وفي آبائه.

ومن هؤلاء العظماء المظفّر موسى بن الملك العادل؛ فقد ملكه والده مدينة الرُّها وهو في سن العشرين، واتسع ملكه بعد، وكان سلطاناً واسع الصدر، كريم الأخلاق، ويقول المؤرخون: إنه أحسن إلى الناس إحساناً لم يعهدوه ممن كان قبله؛ فكان محبوباً إلى الناس مؤيداً في الحروب، ومن شعرائه أبو الحسن علي ابن محمد المعروف بابن النبيه، ويعجبني من مديحه له قوله:

قام بالدنيا وبالأخرى معاً فهي ضراتٌ به قد رضيت

حسن الظاهر للناس ولـلـ ـه منه حسناتٌ خفيت

ومن عظماء شباب الملوك في تونس أحمد بن محمد بن الأغلب؛ فقد ولي الملك بالقيروان وهو في سن العشرين، وكان حسن السيرة، رفيقاً بالرعية، كثير الصدقات، وكان مولعاً بالعمارة؛ فبنى بأفريقية حصوناً كثيرة بالحجارة، والكلس، وأبواب الحديد.

ومن هؤلاء العظماء باديس بن المنصور، فقد تولّى الملك بالقيروان وعمره إحدى عشرة سنة، وكان ملكاً كبيراً حازم الرأي شديد البأس، وأذكر من مآثره أن الفقيه الزاهد محرز بن خلف بعث إليه بكتاب يعظه فيه، ويطلب رفع مظلمة وقعت على أحد تلاميذه، ومما يقوله في الكتاب: «لا يغرنك توالي زخارف الدنيا عليك، وشاور في أمرك من يتقي الله، وخَفْ من لا يحتاج إلى عون عليك، أنت على رحيل؛ فخذ الزاد».

ولما وصل الكتاب إلى باديس، أصدر أمراً بتحرير طلبة العلم كافة، ورفع الظلم عنهم جملة.

ومن هؤلاء العظماء المعزّ معد بن منصور العبيدي تولى الملك وهو في الثانية والعشرين من العمر، وثبَّت دعائم دولتهم بالمغرب، ثم أسس الدولة العبيدية بمصر، وكان عاقلاً حازماً أديباً.

ومنهم المعزّ بن باديس؛ فقد تولّى الملك وهو في السنة الثامنة من العمر، وكان ملكاً جليلاً، عالي الهمة، حريصاً على تنفيذ أحكام الشريعة الغراء، واجتمع بحضرته من أفاضل الشعراء ما لم يجتمع إلا بباب الصاحب بن عباد.

ويدخل في صف هؤلاء المستنصر بالله محمد بن زكريا؛ فقد تقلّد الملك في تونس وعمره عشرون سنة، فنهض بأعباء الملك، وعلا صيته، وأبقى آثاراً علمية وأدبية وعمرانية أبقت له ذكراً جميلاً، وهو الذي قدم عليه حازم القرطاجني من الأندلس، فأكرم نزله، ومدحه بقصيدته الطائية المعروفة، وقصيدته الرائية التي يقول في نسيبها:

ولا تعجبوا يوماً لكسر جفونها فإن إناء الخمر في الشرع يكسر

ويقول في حال الأعداء:

وقد شابه الأعداء جمعاً مؤنثاً لذاك غدت في حالة الفتح تكسر

ومن عظماء شباب السلاطين بالمغرب الأقصى إدريس بن إدريس الحسني؛ فقد أخذت له البيعة بالمغرب الأقصى وعمره إحدى عشرة سنة؛ فقد نشأ في كفالة مولى أبيه راشد، فأقرأه القرآن الكريم، وعلمه السنّة، وروَّاه الشعر وأمثالَ العرب، وأطلعه على سير الملوك، ودربه على ركوب الخيل والرمي بالسهام، فلم يصل إلى السنة الحادية عشرة حتى ترشح للأمر، واستحق أن يبايع، وظهر

من ذكائه ونبله ما أذهل العامة والخاصة.

صعد المنبر يوم بيعته وخطب، ومما قال في خطبته: «أيها الناس! إنا قد ولّينا هذا الأمر الذي يضاعف للمحسن فيه الثواب، وللمسيء الوزر، ونحن ـ والحمد لله ـ على قصد جميل، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا؛ فإن ما تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا».

وكان عاملاً بكتاب الله قائماً بحدوده، وبذلك استقام له الملك وعظم أمره.

ومن هؤلاء العظماء علي بن محمد بن إدريس، أخذت له البيعة بعد وفاة أبيه، وكان يوم بويع في سن العاشرة من العمر، فظهر ذكاؤه ونبله، وسار بسيرة أبيه وجده في العدل، وإقامة الحق، وقمع الأعداء، وضبط البلاد والثغور، ويقول المؤرخون: كانت أيامه خير أيام.

ومن هؤلاء العظماء علي بن يوسف بن تاشفين، بويع وعمره ثلاث وعشرون سنة، وكان حليماً عادلاً وقوراً آخذاً بالحزم؛ فضبط الثغور، وملك من البلاد ما لم يملكه أبوه من قبله.

ومن عظماء شباب الملوك بالأندلس عبد الرحمن الناصر، تولّى الملك غير متجاوز الثانية والعشرين من عمره، درس عبد الرحمن القرآن والسنّة، وأجاد النحو والتاريخ، وبرع في فنون الحرب والفروسية، وزهت في عصره العلوم والزراعة والصناعة، وساد الأمن في البلاد، وكان للعلماء في عصره الحرية المطلقة، يواجهونه بالأمر بالمعروف، ويتلقى منهم ذلك بصدر رحب.

ومواقف منذر بن سعيد في نصحه له معروفة في التاريخ، وهو الذي خطب

على المنبر في بعض المجالس الحافلة منكراً عليه بالإسراف في تشييد المباني وزخرفتها، وهو الذي خاطبه في أحد المجالس بقوله:

يا باني الزهراء مستغرقاً أوقاته فيها أما تمهل

لله ما أحسنها رونقاً لو لم تكن زهرتها تذبل

وكان القضاة في عهده على استقلال لا يخشون معه لومة لائم، وكان القاضي ابن بشير يحكم عليه لخصمه، ويتوعده بالاستقالة إذا لم يتمثل ما حكم به عليه.

ومن هؤلاء العظماء أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج أحد ملوك غرناطة، تولّى الملك وهو في السادسة من العمر، وكان الغالب على أيامه الهدنة والصلاح والخير، وكان وزيره الأديب الكبير أبو الحسن بن الجياب، ثم توزَّر له لسان الدين بن الخطيب.

ومن هؤلاء العظماء ابنه محمد بن يوسف بن إسماعيل، بُويع له بعد وفاة أبيه يوسف وعمره تسع سنين، وكان وزيره لسان الدين بن الخطيب بعد أن توزر لأبيه من قبله، ووصفه ابن الخطيب فقال: مُتَحلٍّ بوقار وسكينة، وسافرٌ عن وسامة يكتنفها جلباب حياء وحشمة، كثير الأناة، ظاهر الشفقة، عطوف مخفوض الجناح، مائل إلى الخير بفضل السجية؛ فأنست العامة بقربه، وسكنت الخاصة إلى طيب نفسه، وحمد الناس فضل عفافه وكلفه بما يعنيه من أمره، وكان ـ مع هذه المزايا ـ مثلاً في الفروسية، قال بعض مادحيه:

إن ألَمَّتْ هيعةٌ طا ر إليها غير وان

يصدع الليل بقلبٍ ليس بالقلب الجبان

وأختم حديثي هذا بحديث ملوك تقلدوا في أوائل شبابهم ولايات كانوا فيها مظهر اليقظة والحزم، وتولوا الملك بعده، فساروا فيه سيرة عبقري زادته التجارب خبرة بطرق السياسة الرشيدة.

ومن هؤلاء الملوك هشام بن عبد الرحمن الداخل ـ مؤسس الدولة الأموية بالأندلس ـ فقد كان والده عبد الرحمن يوليه في صباه الأعمال، ويرشحه لولاية الملك، ولما توفي عبد الرحمن تولى هشام الخلافة وعمره ثلاثون سنة، وكان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

ويدخل في نظم هؤلاء الملوك عبد الرحمن بن الحكم الأموي، وكان أبوه الحكم يوليه قيادة الجيوش العظيمة في الأندلس وهو ابن خمس عشرة سنة، فيهزم الأعداء، ويعود ظافراً.

وأذكر من هذا القبيل تميم بن المعزّ بن باديس، فوض إليه والده المعزّ ولاية المهدية وهو في سن الثالثة والعشرين، وتولى الملك بعده وهو في سن الثانية والثلاثين، وكان حسن السيرة محمود الآثار، معظماً لأرباب الفضائل، وقصدته الشعراء من الآفاق، وكان هو نفسه معدوداً من طبقات الأدباء، ومن شعره:

فإما الملك في شرف وعزٍّ ... عليَّ التاج في أعلى السرير
وإما الموت بين ظُبا العوالي ... فلست بخالد أبد الدهـور

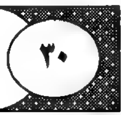
والغرض من حديثنا عن أولئك الشباب الذين تولّوا أموراً جليلة القدر عظيمة الشأن، فقاموا بأعبائها خير قيام ـ أن نستنهض همم أبنائنا للأخذ بأسباب قوة الفكر، وسعة الدراية لأول عهد التمييز، ولمواصلة السير في سبيل السيادة

بجد وحزم؛ لكي نراهم وهم في ريعان الشباب قد بلغوا بجودة النظر واستقامة السيرة أن كانوا موضع آمال الأمة، يعملون لسلامتها، والاحتفاظ بعزتها.

وواجب على ولي أمر الناشئ أن يشعره بأن بلوغ الفتى المنزلة المحمودة في السيادة وهو في مقتبل العمر ـ ليس بالأمر المتعذر أو المتعسر.

وليس من شك في أن هذا الشعور يريه السيادة قريبة التناول، فيشمر عن ساعد الجد، وسرعان ما يبلغ ذروتها.

ومن أدرك السيادة في عنفوان شبابه، فإن مات مات سيداً، وإن عاش إلى زمن الكهولة أو الشيخوخة، كانت سيادته أطول عماداً، وأرفع ذكراً، وأطيب ثمراً.



٣٠ إلى شباب محمد [1] للشيخ العلامة محمد الخضر حسين

أيها الشباب الناهضون:

تعلم حق اليقين أنه دين الإسلام منبع العزة في الدنيا، ومرقاة السعادة في الأخرى، يدري هذا من درس أصول الدين، واطلع على أسرار أحكامه وآدابه، ولا يزال المسلمون في سلامة وسيادة، حتى حادوا عن سبيله، ونكثوا أيديهم عن عروته الوثقى، وكان عاقبة ذلك أن سقطت أوطانهم في أيدي أعدائهم، وأصبحوا لا يملكون لأنفسهم رأياً ولا نفاذاً.

وكان يهوِّن هذا الخطب أنَّ انحراف المسلمين عن شريعتهم الذي كان سبب ضعفهم ـ لم يكن إلاَّ إهمال الواجبات العملية عن غفلة، أو تغلب شهوة، والغفلة تداوى بالتنبيه، والشهوات تقاوم بالموعظة الحسنة.

ولكن أمتنا بعد أن انحدرت بها الأهواء في تلك الحفرة من الذلة أصيبت بعلة أخرى هي أسوء أثراً، وأشأم عاقبة من علتهم الأولى، وهي ابتلاء كثير من أبنائنا بزيغ العقيدة، ومحاكاة المخالفين حتى في الآراء المخالفة لجوهر الدين.

وإذا كان خسران العقيدة ـفيما سلفـ قد يبتلى به أشخاص متفرقون، ويبالغون في كتمانه، وإنما يظهر في لحن خطابهم، أو ينقله عنهم بعض من يسرون إليه به ـ فإنه في هذا العصر قد تفشى حتى أصبح الملاحدة، والإباحيون،

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية الجزء الثاني من المجلد الثالث عشر، والدعوة إلى الإصلاح ص١٠١ـ١٠٣.

يصرخون في المجالس العامة، أو على صفحات المجلات أو الجرائد بما لا يختلف علماء الإسلام في أنه رِدَّة وخروج على الدين إلى حد بعيد.

وليس من العجب أن يُلْحِد أبناؤنا الذين نشأوا في بيئات لا تعرف من الدين إلا اسمه، ولم يلاقوا إلاَّ النفر الذين تصدوا لمحاربة الدين بجهالة أو بسوء قصد.

وإنما العجب أن تجد الإلحاد والإباحية في نفر نشأوا في معاهد إسلامية، ولكنهم يتسترون بتأويل القرآن المجيد، والحديث النبوي الشريف تأويلاً لو سلكناه في تأويل كلام أحدهم لغضب منه، وعدَّه رمياً له بالعيِّ أو العبث بأوضاع اللغة العربية.

إذن فالزائغون عن الرشد في أوطاننا صنفان:

١ـ **صِنْفٌ نشأوا في بيئات شأنها الطعن في الدين**، ولا عمل لها إلاَّ إيراد الشبه مجردة من الحجج التي تدفعها، وتُقِرُّ الحقائق في مواضعها.

٢ـ **وصِنْفٌ نشأوا في معاهد إسلامية**، ولكنهم لم يدرسوا الدين دراسة جِدٍّ وتحقيق تجعلهم في حصانة من أنْ تأخذهم الشبه، وتخدعهم زخارف الحياة، ولم يملكوا من خشية الله ـ تعالى ـ ما يمنعهم أنْ يقولوا على الله غير الحق.

وتقويم الصنف الأول من الملاحدة أيسر من تقويم الصنف الثاني؛ إذ الصنف الأول قد يجلس إليك بصفتك داعياً إلى الإصلاح، فيصغي إليك عندما تتصدى لدفع شبهة وإقامة حجة، فإذا بصر بالشبهة ذهبت، وبالحجة أضاءت لم يلبث أن يجيب دعوتك متأسفاً عما سبق له من الغواية، مغتبطاً بما وفقه الله إليه من هداية.

أما الصنف الثاني وهم الذين يلحدون بعد قطع مراحل من التعليم الديني - ففي دعوتهم من ظلمات الزيغ إلى نور الرشد عُسْرٌ؛ إذ يُخَيِّل إليهم أنهم عرفوا ما يعرفه الدعاة، ولم يجدوا موصلاً إلى حق، وهذا التخيل يصدهم عن الإصغاء إلى الدعوة، وإذا أصغوا إليها فإنما يقصدون في غالب أمرهم استكشاف موضع ضعف يهاجمونها منه.

وهذا الصنف أشد ضرراً على الأمة من الصنف الأول؛ إذ الصنف الأول قد يكون إلحاده مقصوراً عليه، وإن قام بدعاية إلى الإلحاد فإنَّ الناس لا يستمعون إليه؛ إذ هو محمول على الجهل بحقائق الدين وأصوله.

أمَّا ذلك الذي يخرج لهم في زي رجال الدين، أو يذكر أنه درس الدين حتى انتهى إلى غاية بعيدة - فكثيراً ما يغرّ الغافلين من الشباب أو العامة؛ إذ يسبق إلى أذهانهم أنَّه يتكلم على بينة، ولا ينتبهون لما يحمل في صدره من زيغ، ولا لما يضمر في نفسه من أغراض دنيئة.

أقول هذا أيها الشباب الناهضون؛ لأذكركم بأنكم ستلاقون شُبَّاناً سرى إليهم وباء الإلحاد والإباحية من اتصالهم بنفر أعرف بطرق المكر، أو أبرع في صناعة البيان، فخذوهم بالحكمة والرفق، وسعة الصدر عند المناقشة؛ فإنكم تدعون إلى الحق، وللحق ضياء ينكشف إزاءه كل باطل، وإن خرج في ثوب مستعار من الحق.

وأنكم ستلاقون فئة ممن يدّعون أنهم درسوا الدين وهم زائغون عن سبيله، وقد يجنحون بكم إلى طريقة التأويل الفاسد، فازدروا أقوالهم، وارموا في

وجوههم بالحجة، ولا تهابوهم ولو لبسوا العمائم؛ فإنها قد تنصب على رؤوس لا تفكر إلاَّ في وسائل المكر بالدين الحنيف.

وهذه الخيانة تكسبهم ضعفاً، وتجعل مسالك القول أضيق عليهم من سَمِّ الخياط؛ فلا يقفون لجدالكم إلا بمقدار ما يعرفون قوة إيمانكم وثبات أقدامكم.

وإنكم ستلاقون فئة بَاضَ اليأس من الإصلاح في قلوبهم وفَرَّخ، ويصارحونكم بأن الدعوة إلى الحق في هذا العصر من قبيل النقش في الماء، أو الضرب في حديد بارد، فإنْ تعذر عليكم اقتلاع هذا اليأس من نفوسهم فاعلموا أنَّ خلف يأسهم جبناً، ولا خير لكم في محادثة الجبناء.

وإنكم ستمرون بأشخاص مَردوا على التهكم والاستهزاء، فيهمسون في الآذان، ويتغامزون بالأعين، وكذلك كان أمثالهم يستهزؤون بالدعاة إلى الخير، فَيجِدُون من الدعاة إخلاصاً وثباتاً يذهب كل استهزاء من حولهما لاغية، فدعوا المتهكمين والمستهزئين في هزلهم، وامضوا في سبيل دعوتكم إلى الحق والفضيلة، فستجنون بتأييد الله ـ تعالى ـ ثمرتها، وتحمدون عاقبتها، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٣١ كيف يتقي الشاب أخطار الشباب[1] للأستاذ علي سيد منصور

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فيا أيها السادة، لما كانت مرحلة الشباب هي المرحلة الرهيبة في حياة الإنسان حيث تحفُّه أثناء قَطْعِها الأخطارُ، وتعترضه عقبات الأهواء، وتتفتح أمامه مهاوي الفساد، وتهجم عليه جيوشُ الشهوات، وكان قاطعُها في حاجة ماسة إلى سلاح قوي يتَذرَّع به لدفع غائلة أهوالها، ومرشدٍ يرشده لأفضل السبل وأبعدها عن أخطارها؛ حتى يتسنى له أن يسير إلى مراده في أمان ويبلغ غايته بسلام، ولما كنت أنا أحد المجتازين تلك المرحلة، الخبيرين بأحوالها- أحببت أن أتحدث إليكم عما وصل إلى علمي من شؤونها، باذلاً قصارى وسعي في تشخيص ما وقعت عليه من أدوائها؛ كي تضموا ما أذكره لكم عنها إلى ما لديكم من معلومات تتعلق بها؛ فيتكون لديكم العلم الكافي للتخلص من آفاتها.

وقبل التعرض لذكر أخطارها ينبغي أن نذكر مقدمة نشرح فيها حقيقة الشباب ونبين مقدار أهميته في حياة الإنسان.

شرح حقيقته: هو نَضَارةُ الجسدِ، وقوته، وقدرته على مزاولة أعماله بخفة ونشاط، وهو اللمحة التي يكون فيها القلب ميداناً للأفكار المختلفة، والآمال المتضاربة، واللحظة التي إذا وُفِّق الشخص فيها لضبط نفسه، وإيقافها

(١) مجلة الهداية الإسلامية، الجزء السادس، المجلد الرابع ص٣١٣، ذو القعدة ١٣٥٠هـ.

عند حدود الواجب ـ عاش بقية حياته في سعادة وهناء، وإذا أطلق لنفسه العنان في متابعة الهوى قضى على عوامل سعادته، وعاش معيشة التعساء.

وهو الريح العاصفة التي تعصف بالألباب؛ فتميل بها عن جادة الصواب إن لم يتداركها لطف الكريم الوهاب، والتيارُ الكهربائي الذي يسحر العقولَ؛ فيجعلها تبصر الأشياء مصبوغة بغير صبغة الحقيقة، وتطيش في الآراء والأحكام.

أما بيان أهميته: فقد أجدني في غنى عن ذلك؛ إذ كل ما نشاهده حولنا من المظاهر والآثار كالمباني الشاهقة والصروح العالية والمصنوعات المدهشة وقوة الدول، وانتصارها، وعزها وهيبتها ـ كل هذا متوقف على الشباب وإن يكن لبعض الشيوخ أثر في ذلك فقدرته على إبراز هذا الأثر وليدة جِدِّه وعمله في عهد الشباب.

فالشباب هو الفرصة التي ينتهزها العاقل لبناء صرح مجده وسعادته فيها؛ فهو دعامة العز، وأساس العلى وسلم الرقي والفخار؛ فمن لم يُشَمِّر فيه عن ساعد الجد، ويستغله للعلم النافع لم يستطع بعده الحصولَ على شيء من أسباب الفلاح، وقضى ما بقي من حياته على أسوأ حال، ولقد أدرك ذلك الشاعر الحكيم فقال:

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه شديد

وإذا قد علمنا أنه على هذا الجانب العظيم من الأهمية ينبغي أن نذكر أخطاره بعد أن نبين السبب الذي جعله مثاراً لهذه الأخطار دون سواه، ثم نتبع كل خطر ببيان كيفية الوقاية منه.

أما السبب في ذلك هو توفر الدواعي المثيرة لغرائز الشرور التي جبل عليها الإنسان فيه؛ ولهذا كان أكثر ما يظهر من الشبان الأفعال السيئة، ومن أجل ذلك كانت الوسيلة الوحيدة التي يتوسل بها العاملون إلى إصلاح أخلاق الشبان هي إضعاف دواعي غرائز الشر، وتقوية غرائز الخير فيهم.

هذا هو السبب، ولنتكلم الآن عن المسببات وهي الأخطار مبتدئين بالأهم فالأهم.

الخطر الأول: يولد الشاب، ويترعرع، ويستمر في قطع أطوار الحياة ومراحلها؛ فأول خطر يستهدف له، ويحس به **هو خطر الشهوة الجنسية**، فيحتل هذا الخطر قَلْبَه، ويملك عليه أعصابه ولبَّه، وتتضاءل أمامه كل وسائل المقاومة، فيصبح من أجله في اضطراب شديد، وقلق عظيم؛ فإذا لم يُحَطْ بسياج يقيه عاقبته، ويحول بينه وبين أهواله أعمل فيه معاول الهدم، وانتزع من قلبه بذور الخير، وصيَّره مجرداً من عوامل الفلاح، وتَعَسّر إخراج أثر هذا الخطر من قلبه.

ولو فرض إمكانُ إخراجه فلا يخرج حتى يترك قلبه خرقة بالية لا تصلح لشيء في الحياة، وأرضاً سبخة لا تنبت بها أشجار السعادة؛ فمن المُشَاهد أن من لم يتحصن منه بالوسائل المشروعة، وسلك سبل الفسوق ـ يصاب بالأمراض الفتاكة التي تضعفه عن القيام بواجباته، ويتجرد من الغيرة والشهامة والعزة وكل الصفات العالية التي لا يكون الرجل كاملاً إلا بها، ويبدد أمواله فيما لا ينفع، فيغدو فقيراً معدماً، ولا يرجى له بحال أن يسلك سبل الهداية؛ فمن شبَّ على شيء شاب عليه، ومن شاب على شيء مات عليه.

وإذا لم يسلك هذه السبل فلا بد من تأثره بالطوارئ الناجمة عن الاختلاط كالحب والغرام مما يعبث بالقلب، ويفعمه بالأماني الباطلة؛ فينصرف عن واجباته، وتضييع أوقاته فيما لا يجدي، وإن نجا من ذلك فلا ينجو من الذكريات الأثيمة، والأفكار الخبيثة التي تلعب بعقله، وتصرفه عن سبل السعادة.

أما السياج الذي ينبغي إحاطة الشاب به؛ لينجو من ذلك الخطر فهو يتركب من عدة أمور:

أولاً: على أولياء أمور الشبان أن يزودوهم في صغرهم بالأخلاق العالية، ويشوهوا لهم الرذيلة، ويشرحوا لهم آثارها الوخيمة في الدنيا والآخرة؛ فإنهم إذا علموهم ذلك في ذلك العهد الذي تكون فيه نفوسهم على استعداد عظيم لقبوله وتأثيره فيها، ثم سوَّلت لهم أنفسهم الفاحشة ـ ردعتهم ضمائرهم عن ذلك، وخافوا تلك العواقب السيئة.

وعليهم أن يزوجوهم عند بلوغهم أشدَّهم، فيضعف في أنفسهم الداعي إلى الفساد.

وليعلم أولئك الأولياء أن هذين الأمرين من حقوق الأبناء عليهم التي أمر بها الشارع الشريف.

ثانياً: على الشاب أن يتزوج عند بلوغه الحلم إذا كان في وسعه ذلك، ولا يسوِّف طمعاً في المآرب البعيدة من أنه سيتزوج في المستقبل فتاةً راقيةً ذات حسب ونسب وجمال؛ فإن ما يجنيه من وراء ذلك التسويف المنافي للدين على فرض حصوله وإن كان ذلك نادراً لا يقاس بجانب ما يعتري جسمه ودينه من الأمراض

والعلل في تلك المدة، وإذا لم يستطع الزواج فليكثر من الصوم، وليتجنب ما استطاع أكلَ المواد المثيرة للشهوة؛ فإن ذلك يساعده على ضبط نفسه.

وقد أمرنا النبي ﷺ بذلك حيث قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء».

ثالثاً: على الشاب أن يتجنب النظر إلى الأجنبيات؛ فالنظر بريد الزنا، وعدمه راحة للقلب، وفيه سعادة عظيمة كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾.

ولقد أجاد بعض الشعراء في وصف أثر النظر حيث قال:

وأنت إذا أرسلت طرفك رائداً ... لقلبك يوماً أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وعليه ألا يقرأ أحاديث الخلاعة والمجون، ولا الجرائد والمجلات التي تنشر صور السيدات على أشكال مثيرة للشهوة، أو تتعرض لِذِكْرِ الغرام؛ فإن ذلك يحرك بالقلب الهوى، ويقدح زناد العشق، ولا يذهب إلى دور الصور المتحركة والتمثيل الخليعة؛ فإنها تسوقه إلى هاوية الفجور، ولا يسكن بالأوساط التي لا احتشام فيها؛ فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

رابعاً: يجب على الشاب الذي يودُّ أن يعيش سعيداً أن لا يصحب الأشرار؛ فإن صحبتهم تقود إلى ملابسة الرذيلة، وتصرف المرء عن طريق الخير؛ وذلك لأنهم يحبذون شرورهم لمن صاحبهم، ويشجعونه على ارتكابها.

بل إن طَبْعَهُ يسرق من طباعهم ولو لم يقصد ذلك؛ فكم شاهدنا من شبان كانوا على جانب عظيم من الهداية، فلما اصطحبوا بالأشرار أصبحوا مجردين من كل خير.

وهذا مصداق قوله ﷺ: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة».

خامساً: يجب على الشاب إذا هاجت، وسولت له نفسه الفاحشة أن يبادر في الحال بالاشتغال بأمر آخر يكون صارفاً له عنها؛ وذلك كأن يقوم من مكانه الذي هو فيه، ويذهب للرياضة، أو لزيارة صديق صالح، وكأن يقرأ في كتاب، أو يتوضأ ويصلي؛ فإن اشتغاله بمثل هذه الأمور مما يكبح جماح النفس.

وخير الأمور التي تصرفه عنها هو مراقبته لله ـ تعالى ـ فإنه إذا أشعر نفسه أنه في حضرة الله ـ تعالى ـ وأنه يراه حيثما كان، وعلم أنه سيحاسبه على ذلك، ويجازيه عليه في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا بإذهاب بهاء الوجه، وبركةِ الرزق والعمر، وتسليطِ الفساق على عرضه، وابتلائه بالمصائب العديدة، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار الحامية.

إنه إذا أشعر نفسه ذلك كله وقت هياج الشهوة فلا بد من انطفاء لهيبها، ورجوع النفس إلى صوابها.

وهذه المراقبة هي معنى الإحسان الذي بينه النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك».

سادساً: على أولياء أمور النساء ألا يسمحوا لهن بالخروج في الطرقات متبرجات متزينات؛ فإنهم إذا سمحوا لهن بذلك كانوا قاضين على أخلاق أبنائهم، وصارفين لهم عن واجباتهم الدينية والأخروية.

وعلى الحكومة أن تسن القوانين لمنع هذا التبهرج الشنيع؛ فإنها إذا ظلت تاركة باب الحرية للنساء في التبرج مفتوحاً على مصراعيه كانت جانيةً بذلك على أخلاق رجال المستقبل، وسائقة لهم إلى بؤر الهلاك، ومانعة لهم من النهوض بأمتهم إلى العلى؛ وكيف يرجى للشبان النهوض بأمتهم وقد أضحت قلوبهم غرضاً تنتابه سهام النساء من كل صوب حتى مزقتها، وملأتها بالأفكار المقلقة، والأماني الباطلة؛ فأصبحت خراباً لا يوجد بها أثر لِلْفِكَر السامية والأماني المفيدة؟!.

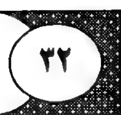
وعلى الشاب المسكين في هذا العصر الذي أصبحت النساء فيه لا تقع العين إلا عليهن في كل مكان أن يجاهد نفسه، ويصرف نظره عنهن، وإن كان ذلك شاقّاً عليه؛ فهو سهل بجانب الثمرة التي يجنيها من وراء ذلك، وليعلم بأن الجنة حفت بالمكاره، وأن النار حفت بالشهوات، وهو خير له من التقلب على جمر وخزات النفس، والاكتواء بمياسم الذكريات الأليمة.

هذه هي أهم الوسائل التي يتقي بها الشاب ذلك الخطر الداهم.

قد يقول قائل: إن تقيد الشاب بهذه الوسائل شاقٌّ جدّاً، ومن المتعسر فعل واحدة منها عند ثوران النفس، فأقول له: نعم إن التقيد بها شاقٌّ، ولكن عند بدء استعمالها فقط، فإذا كان لدى الشخص إرادةٌ قويةٌ وعزيمةٌ صادقةٌ، ووطَّنَ

نفسه على استعمال هذه الوسائل مدة من الزمن؛ فإنها تصبح عادة من عاداته لا يجد فيها أدنى مشقة.

وهذا أمر مقرر في علم التربية وقد ضربوا لذلك مثلاً بمن يريد أن يتعلم الكتابة، ويحسِّن خطه فإنه يجد ذلك في بدء الأمر شاقّاً حتى إذا زاوله كثيراً صارت الكتابة وحسن الخط عادة لديه لا يجد فيها أدنى صعوبة.



٣٢ إلى الشباب[1] للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

أوجّه طلائع الحديث في هذه الليلة إلى الشباب الذين هم الساق الجديد في بناء الأمة، والدم المجدِّد لحياتها، والامتداد الطبيعي لتاريخها، وهم الحلقات المحققة لمعنى الخلود الذي ينشده كل حيٍّ عاقل ويتمناه حتى إذا فاته في نفسه التمسه في نسله، وقربت له الأماني معنىً من معنىً، فتعلّل بالخيال عن الحقيقة، وتسلّى بشبه الشيء عن الشيء، ودأب جاهداً في تدنيته وتوفير الراحة والهناء والسعادة له، ويعلِّل نفسه بأنه سيرث اسمه وماله وهو لا يعلم أنه سيموت اسمه و يُبدَّد ماله، ومازالت التَعِلاّت صارفة عن اليأس منذ طبع الله الطباع.

وأقول: الشباب، ولستُ أعني بهذا اللفظ معناه المصدري في عرف اللغة، ولا ذلك الطور الثالث من عمر هذا الصنف البشري في مقاييس الأعمار.

وإنما أعني بهذا اللفظ طائفة من الأناسي انتهوا في الحياة إلى ذلك الطور الثالث بعد الطفولة واليفاعة، فَجَمَعَتْهُم اللغة على شبيبة وشبّان، وَوَصَفَتْهُم بالمعنى في نحو لطيف من أنحائها فقالت: شباب وشبيبة، كما وصف القرآن محمداً بأنه رحمة، وكما وصفت الخنساء الظبية بأنها إقبال وإدبار، ثم جمعتهم سنَّة التكامل على القوة والفتوة، وجَمَعهم اتحاد السنِّ أو تقاربُه على التعاطف والأخوة، وجمعهم الدين على التكاليف والواجبات، ووقفت بهم الحياة على

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٤/٢٦٧-٢٧١.

جددها[١]، تعرض عليهم السعادةَ في صور ملتبسة بالشقاءِ، والشقاءَ في صورٍ ملتبسة بالسعادة، واكتنفتهم الملائكة والشياطين، أولئك يدعونهم إلى الجنة محفوفةً بالمكاره، مسوقة بالصبر والألم، وهؤلاء يدعونهم إلى النار ملفوفة بالشهوات، مسوقةً بالإغراء والتزويق والتزيين.

ووقفنا ـ نحن معاشر الآباء ـ من ورائهم، نتمنَّى لهم، ونتجنَّى عليهم، ونقترف في حقهم، ولا نعترف بظلمنا إياهم، ونُرخي في تربيتهم أو نشدِّد، ولكننا لا نقارب ولا نسدّد، ونعطيهم من أفعالنا ما نمنعهم منه بأقوالنا: ننهاهم عن الكذب ونكذب أمامهم الكذب الحريت، وننهاهم عن الرذائل جملة وتفصيلاً، ثم نخالفهم إلى ما ننهاهم عنه، فيأخذون الرذيلة عنا بالقدوة والتأسي، ويحتقروننا؛ لأننا قبحنا لهم الكذبَ بالقول، ثم أشهدناهم بالعمل على أننا كاذبون.

إلى هؤلاء الشباب الوارثين لحسناتنا وسيئاتنا، المهيئين لخيرنا وشرنا، الحاملين لخصائصنا وألواننا إلى مَنْ بعدهم من أبنائهم، المتبرمين هنا بحالة هم مقدمون عليها كرهاً، فقد كنا مثلهم شباباً وسيصبحون مثلنا شيوخاً، وسيلقون من أبناؤهم ما لقينا نحن منهم، وسيلقى منهم أبنائهم ما لقوه هم منا؛ جزاءً وفاقاً وقصاصاً عدلاً، وسنَّة أجراها الواحد القهار، وجرى بها الفَلَك الدوار.

إلى هذا الجيل الذي عودتنا الحياة المدبرة أن نشفق عليه، وعودته الحياة المقبِلة أن يشفق منا ـ أتوجه، وإياه أعني، وإليه أسوق الحديث، داعياً له بما دعا له

---

(١) جمع جادة.

شوقي في قوله:

إن أسأنا لَكَمُ أو لم نُسئ نحن هلكى فَلكُمْ طول البقاء

متمنياً له ما تمنَّاه له شوقي في قوله:

هل يمدُّ الله لي العيشَ عَسَى أن أراكم في الفريق السعداء

لا أخالف شوقي إلا في التخصص فقد خاطب بهذا شباب النيل، وأنا أهتف بشباب العرب، وبشباب الإسلام، أهتِفُ بشباب العرب أن يراعوا حق العروبة وأن يكونوا أوفياء لها، وأن يعلموا أنها ليست جنسية تميز، ولا نسبة تعرف، وأنها ليست جلدة تسمُّر أو تحمُّر، ولا بلدة تعمر وتقفر، وأنها ليست جزيرة يحيط بها البحر، ولا قلادة تحيط بالنحر، وأنها ليست متاعاً مما يرث الوارثون، ولا أرضاً مما يحرث الحارثون، وإنما هي خلال وخصال، وهمم تتشقَّقُ عن فعال، وإنما هي بناء مآثر، وتشييد أمجاد ومحامد، وإنما هي مساعٍ من الكرام إلى المكارم، ودواعٍ من العظماء إلى العظائم، وإنما هي عزائمُ، لا تعرف الهزائم، وإنما هي عزَّة وكرامة، وشدة في الحفاظ وصرامة، وإنما هي طموح وجموح: طموح إلى منازل العزِّ، وجموح عن مواطن الذلِّ، وإنما هي رجولة وبطولة، وأصالة وفحولة، وإنما هي طبع أصيل ورأي جليل، ولسان بالبيان بَلِيْل، وعقل على الحكمة دليل، فمجموع هؤلاء هو العروبة، وجامع هؤلاء هو العربي، وما عداه فهو تعلل بباطل، وتعلق بضلال، وتَخَلُّق يكذبه الخلق، وخيانة للعروبة في اسمها وفي وسمها، وعقوق للأجداد، كأنما عناهم المعري بقوله:

جَمالَ ذي الأرض كانوا في الحياة و هُمْ بَعْد المماتِ جَمالُ الكُتْبِ والسِّيَرِ

ثم أهتف بشباب الإسلام ليعلموا أن الإسلام ليس لفظاً تلوكه الألسنة المنفصلة عن القلوب، وتتناوله قوانين التعريف بموازينها الحرفية، وتقلّبه اشتقاقات اللغة على معانيها الوضعية، فينزل به إلى المعاني الوضعية من السلم إلى الاستسلام، إلاّ أن في الإسلام الشرعي نوعاً من معنى الإسلام اللغوي، ولكنه أرفع تلك المعاني وأعلاها، هو معنى تتقطع دونه الأفهام والأوهام، معنى لو طاف طائفهُ بعقول العرب أهل اللغة قبل الإسلام لرفع هممهم عن عبادة الشجر والحجر، ولَسَما بهم حينما بُعثَ محمد ﷺ عن الجدل بالباطل ليدحضوا به الحق: هو إسلام الوجه لله عنواناً لإسلام القوى الباطنة له، هو المعنى الذي خالطت بشاشته قلب نبي التوحيد إبراهيم فقال: أسلمتُ وجهي، وتذوقته بلقيس حين هداها الله فقالت: وأسلمت.

ألاَ وإن في الاستسلام نوعاً من المعاني لم يتخيله وضع ولا عرف، ولم يتداوله نقل ولا استعمال حتى جاء محمد بالهدى ودين الحق، ونقل اللغة من طور إلى طور، هو استسلام الجوارح ـ وسلطانها القلب ـ لله ولعظمته وقدرته وعلمه حتى توحِّده وحده، وتعبده وحده، وتدعوه في النائبات وحده، وتنيب إليه وحده، وتذعن إلى سلطانه وحده، وتخشاه وحده، فتستقل عن الأغيار بقدر ذلك الاستسلام إليه، وتتحرر بقدر العبودية له، وتتوحد قواها بقدر إفراده بالألوهية، وتعتز بقدر التذلل لعظموته، وتنجح في الحياة بقدر اتِّباعها لسننه، وتصفو من الكُدُرات الحيوانية بقدر اتِّصالها به، وتتزكى سرائرها بقدر إيمانها به، وتبعد عن الشرور والآثام بقدر قربها منه، ثم تسود الكائنات بأمره،

وتُخْضِعُ الكون لسلطانها بسلطانه، وتكشف أسرار الوجود بصدق التأمل في آياته، والتفكر في بدائع ملكوته.

هذه بعض معاني هذا الدين العظيم دين الله السماوي الذي بلّغه محمد ﷺ وفسره بأقواله، وشرحه بأفعاله، ووسعته لغة العرب، وحمله إلينا الأمناء الهداة، وعصمه القرآن آية الله الكبرى ومعجزة الدهر الخالدة وكتاب الكون الأبدي، وكنز الحكمة المعروض على العقول والأفكار، وعلى الأسماع والأنظار؛ لتأخذ منه كل جارحة حظها من الغذاء.

أيها الشباب: شاع بين الناس مبدأ فطري توارد عليه المُحْدَثون والقدماء، ونصره الحس، وهو أن الكبير قريب من الموت يغذّ إليه السير مكرهاً كمختار وعجلان كمتريث، ومن ثم فهو قريب من الله، والقرب من الله مدعاة عند العاقل المتأله إلى الاستعداد للقائه، والتزود للدار الآخرة بأهبها وليوم الفاقة العظمى بالأعمال الصالحة، وقد قال شاعر حكيم يصوّر هذا القرب:

وإن امرءًا قد سار خمسين حجَّة ... إلى منهل من وِرْدِهِ لَقَرِيبُ

تواضعوا على هذا وأكثروا فيه القول، وأداروا عليه النصائح والمواعظ للجماعات المتدينة، يُزْجُونها للشيوخ المسرعين إلى الموت، الذين طووا المراحل ودنوا من الساحل ـ حتى أوهموا الشبان أن الشباب عصمة لهم من الموت، وأنتج لهم القياس الفاسد أنهم بعيدون عن الله، ولا يبعد في نظر المتوسم في غرائب النفوس أن يكون تخصيص الشيوخ الهرمين بتلك المواعظ بعض السبب في اغترار الشبان وانهماكهم في الشهوات واسترسالهم مع النزوات، وبعض

السبب في إبعادهم عن الله مضافاً إلى جنون الشباب، وسلطان الهوى، وتنبه الغرائز الحيوانية.

وأنا أرى أن الشبان أحق الناس بذلك الوعظ وبالتوجيه إلى الله، والتقريب منه، وبالتعهد المنظم، والحراسة اليقظة حتى تكون أقوى الملكات التي تتربى فيهم ملكة الخوف من الله، في وقت قابلية الملكات للثبوت والاستقرار في النفوس، وفي وقت تنازع الخير والشر للنفوس الجديدة.

وإنها لكبيرة أن ينشأ الشاب على الخير والاتصال بالله من الصغر، ولكن جزاءها عند الله أكبر؛ لما يصحبها من مغالبة للهوى في لجاجه وطغيانه، ومجاهدةٍ للغريزة في عنفوانها وسلطانها.

ولهذا السر عدَّ ﷺ الشابَّ الذي ينشأ في طاعة الله أحدَ السبعةِ الذين يظللّهم الله بظلّه يوم لا ظلَّ إلا ظله، وعدَّ الشيخَ الزانيَ أحدَ الثلاثة الذين يلعنهم الله واللاعنون من عباده؛ لأن المعصية من مثله خالصة لوجه الشيطان؛ لم تصحبها داعية، ولم يخففها عذر، ولم تسبقها مغالبة ولا جهاد.

أيها الشباب: ساء مثلاً مَنْ أوهمكم أن بينكم وبين الموت فسحةً وإمهالاً، لقد علمتم أن الموت لا يخاف الصغير، ولا يعاف الكبير.

وأسوء منه نظراً مَنْ تَوَهَّم أنكم لذلك أبعد عن الله من حيث المعاد؛ فإنكم أقرب إلى الله من حيث المبدأ، وأن أثر يد الله فيكم لأظهر، وأن المسحة الإلهية على شبابكم لأوضح، وإن أغصانكم الغضة المورقة لمطلولة بنداء السماء، وقد وخزتها خضرته من كل جانب، وإن نفحات الله لتشم من أعطافكم وشمائلكم؛

فلئن كنا قريباً من لقاء الله بالموت فلأنتم أقرب إليه بالحياة، ولئن صحبكم الاتصال به في جميع المراحل فيا بُشراكم، ولئن كنا نقبل عليه كارهين مُتَسَخِّطين على الموت فأنتم مقبلون من عنده فرحين بالحياة مستبشرين؛ فَصِلوا حبلكم بحبله واحفظوا عهده، وحذارِ أن تقطعكم عنه القواطع.

أيها الشباب: إن الشباب نسب بينكم ورحم وجامعة، ولا مؤثِّر في الشباب إلا الشباب؛ فليكن بعضكم لبعض إماماً، وليعلِّم المهتدون الضُّلالَ.

دينكم ـ **أيها الشباب** ـ لا يفتننكم عنه ناعق بإلحاد، ولا ناعٍ بتنقص.

وربّكم ـ **أيها الشباب** ـ لا يقطعنكم عنه خنَّاس من الجِّنة والناس.

وكتاب ربّكم ـ **أيها الشباب** ـ هو البرهان والنور، وهو الفَلَج والظهور، وهو الحجة البالغة، والآية الدامغة؛ فلا يزهدنكم فيه زنديق يؤول، وجاهل يعطل، ومستشرق خبيث الدخلة، يتخذه عضين؛ ليفتن الغافلين، ويلبِّس على المستضعفين.

إن دينكم شَوَّهَتْه الأضاليل، وإن سيرة نبيكم غمرتها الأباطيل، وإن كتابكم ضيعته التأويل؛ فهل لكم يا شباب الإسلام أن تمحوا بأيديكم الطاهرة الزيف والزيغ عنها، وتكتبوه في نفوس الناس جديداً كما نزل، وكما فهمه أصحاب رسول الله عن رسول الله؟.

إنكم قد اهتديتم إلى سواء الصراط؛ فاهدوا إلى سواء الصراط، إنكم لو عبدتم الله الليل والنهار لكان خيراً من ذلك كله عند الله وأقرب زلفى إليه أن تجاهدوا في سبيله بهداية خلقه إليه.

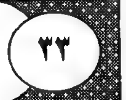
إن تلك الفئة القليلة من أصحاب محمد ﷺ ما فتحوا الكون بقوة العَدد

والعُدد، ولكن بقوة الروح؛ فانفخوا في هذه الأرواح الضعيفة التي أضعفها الضلال عن طريق الحق تنقلبْ ناراً متأجّجة.

حيّاكم الله وأحياكم، وأبقاكم للإسلام تذودون عن حياضه، وتوردون في رياضه، وللغة العرب تصلون أسبابها، وتردون عليها نضرتها وشبابها، ولمواطن الإسلام تصونون عرضها، وتردون قرضها، وتحفظون سماءها وأرضها، والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته.



سابعاً: مقالات في العبادات والعادات



٣٣ يوم عاشوراء وعادات الناس[1] للشيخ علي محفوظ

إن لله - تعالى - نفحاتٍ يتعرض لها الموفقون من عباده ويغفل عنها المخذولون، ومن رحمته أَنِ اختص من الأيام والليالي والأشهر ما شاء، وتسمى المواسم، ثم أرشد عباده إليها طالباً منهم أن يَجِدُّوا في طاعته عسى أن يمسهم شيءٌ من رحمته وإحسانه؛ فالمواسم هي الأوقات التي رسمها الشارع؛ لطلب القرب منه فيها، والقيام بشكره على نعمه.

والمواسم معالمُ الخيرات، ومظانُّ التجارات التي بالغفلة عنها يفوت الربح العظيم؛ فإن البضائع لا تروج إلا في المواسم، والله - تعالى - إذا أحب عبداً شرح صدره للهداية، واستعمله في هذه الأوقات الفاضلة بأفضل الأعمال؛ ليثيبه أفضل الثواب ويجزيه أحسن الجزاء على ما قدم من خير العمل ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾.

ولكن الشيطان - لعنه الله - قد آلى على نفسه أن يصد الناس عن سبل الخير، ويقعد لهم بكل صراط مستقيم؛ ليحول بينهم وبين إحسان الله ورحمته، ويقذف بهم في مهاوي الشقاء والخسران؛ فزين لهم في هذه المواسم أموراً بعيدة عن الهدى والرشد، ورسم لهم فيها من ضروب الهوى ما استمال به قلوبهم، ووضع لهم مكان كل سنة بدعة حتى تعرضوا لمقت الله، وغضبه بدل رضوانه وإحسانه.

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، الجزء الثامن، المجلد الثاني ص٤٤٣، محرم ١٣٤٩هـ.

الدين واضح، والحلال بيِّن، والحرام بيِّن، والسنة جليَّة نيِّرة، والبدعة خفيَّة مظلمة؛ فلا تكون السنة يوماً بدعة، ولا تكون البدعة يوماً سنة إلا إذا عميت البصائر، وانصرفت النفوس عن هدي رسول الله ﷺ وسار كلٌّ وراء شهوته وهواه، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

فإن السير وراء الهوى يعمي باصرة القلب حتى لا تعرف للخير سبيلاً.

وللإيمان الصحيح نورٌ يسطع في العقول، فيهديها في ظلمات الحيرة، ويضيء أمامها السبيل إلى الحق الذي لا يشوبه باطل، ويسهِّل عليها أن تتجنب كل أذىً يتعثر فيه السالك.

والإيمان الصحيح لا يبيح لصاحبه أن يعمل عملاً قبل أن يتبصر فيه، ويعلم أنه نافع له في دينه ودنياه، و«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

ولا يسمح له أن يترك أمراً حتى يشهد عنده البرهان أو العيان بأنه ليس مما يجب عليه أن يأتيه بحكم إيمانه.

الإيمان الصحيح يجعل من نفس صاحبه رقيباً عليها في كل خطرة تمر بباله، وكل نظرة تقع منه على ما بين يديه من آيات الله في خلقه.

ماذا يقع في يوم عاشوراء؟

يقع في هذا اليوم كثير من البدع، منها ما لا أصل له في الدين القويم، ومنها ما ينبني على أحاديث موضوعة أو ضعيفة كاتساع الناس في اتخاذ الأطعمة الخاصة بهذا اليوم، واعتبارهم له عيداً وموسماً من مواسم المسلمين.

وهذا من تلبيس الشيطان على العامة ـ فإنه قد ثبت أن هذا اليوم تعده اليهود عيداً وكانت تصومه كما في مسلم: «كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء يتخذونه عيداً، ويلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم» أي لباسهم الحسن الجميل.

فأمرنا الشارع الحكيم بمخالفتهم بصوم يوم قبله أو بعده، قال الإمام الشافعي رحمه الله أخبرنا سفيان أنه سمع عبدالله بن أبي زيد يقول سمعت ابن عباس يقول: «صوموا التاسع والعاشر، ولا تشبهوا باليهود».

وفي رواية له عنه: «صوموا يوم عاشوراء وخالفوا اليهود، وصوموا قبله يوماً أو بعده يوماً».

ولم يشرع فيه توسعة في مطعم، ولا غيره؛ لهذه المخالفة.

وما ورد في صلاة ليلة عاشوراء ويومها وفي فضل الكحل فيه لم يصح عن الرسول ﷺ، ومن ذلك حديث عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ رفعه: «من اكتحل بالإثمد يوم عاشوراء لم يرمد أبداً» وهو حديث موضوع وضعه قتلة الحسين رضي الله عنه.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «والاكتحال يوم عاشوراء لم يرد فيه عن رسول الله ﷺ فيه أثر وهو بدعة».

فلقد أحدث الشيطان بسبب قتل الحسين رضي الله عنه بدعتين:

الأولى: الحزن، والنوح، واللطم، والصراخ، والبكاء، والعطش، وإنشاد المراثي، وما إلى ذلك من سبِّ السلف، ولعنهم، وإدخال البريء مع المذنب،

وقراءة أخبار مهيجة للعواطف، مثيرة للفتن كثير منها كذب.

وكان قصدُ مَنْ سنَّ هذه السنَّة السيئة في ذلك اليوم فتحَ باب الفتنة، والتفريق بين الأمة؛ فإن هذا ليس مستحبًّا، ولا جائزاً باتفاق المسلمين، بل إحداث الجزع والنياحة للمصائب القديمة من أكبر المحرمات.

الثانية: بدعة السرور والفرح واعتبار هذا اليوم عيداً يلبسون فيه ثياب الزينة، وذلك أنه كان بالكوفة، وقوم من الشيعة ينتصرون للحسين، ويغلون في حبه رأسهم المختار بن عبيد الكذاب، وقومٌ من الناصبة يبغضون عليًّا وأولاده ومنهم الحجاج بن يوسف الثقفي.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: «سيكون في ثقيف كذاب ومبير».

فكان ذلك الشيعي هو الكذاب، وهذا الناصبي هو المبير؛ فأحدث أولئك الحزن، وهؤلاء السرور، ورووا أن من وسَّع على عياله يوم عاشوراء وسَّع الله عليه سائر سنته.

وقد سئل الإمام أحمد رحمه الله عن هذا الحديث فقال: «لا أصل له وليس له سند إلا ما رواه ابن عيينة عن ابن المنتشر وهو كوفيٌّ سمعه ورواه عمن لا يعرف».

ورووا أنه من اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد ذلك العام، ومن اغتسل يوم عاشوراء لم يمرض ذلك العام؛ فصار قوم يستحبون في هذا اليوم الاكتحال والاغتسال والتوسعة على الأهل، وهذه بدعة أصلها من خصوم الحسين، كما

أن بدعة الحزن من أحبابه.

والكل باطل، وبدعة وضلالة؛ ولذا قال العز بن العز الحنفي: «إنه لم يصح عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في يوم عاشوراء غير صومه وإنما الروافض لما ابتدعوا المأتم وإظهار الحزن يوم عاشوراء؛ لكون الحسين قُتِل فيه ابتدع أهل السنة إظهار السرور واتخاذ الحبوب والأطعمة والاكتحال، ورووا أحاديث موضوعة في الاكتحال والتوسعة على العيال».

وقد جزم الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة بوضع حديث الاكتحال، وتبعه غيره منهم مثلاً[1] علي القارئ في كتاب الموضوعات.

ونقل الحافظ السيوطي في الدرر المنتثرة عن الحاكم أنه منكر.

وقال الجراحي في كشف الخفاء ومزيل الإلباس: «قال الحاكم ـأيضاًـ: الاكتحال يوم عاشوراء لم يرد عن النبي فيه أثر وهو بدعة». اـهـ

ولم يستحب أحد من الأئمة الأربعة، ولا غيرهم لا هذا ولا هذا؛ لعدم الدليل الشرعي بل المستحب يوم عاشوراء عند جمهور العلماء هو صومه مع صوم يوم قبله؛ فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قدم النبي المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: يوم صالح هذا يوم نجَّى الله ـعز وجلـ بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى.

قال: فأنا أحق بالصوم منكم، فصامه، وأمر بصيامه» متفق عليه.

أي أن موسى صامه؛ شكراً، ونحن نصومه تعظيماً له.

---

(١) لعلها: مُلاًّ.

وعنه ـ أيضاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع» رواه مسلم.

وعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال: «يكفر السنة الماضية» رواه مسلم.

ومن بدع اليوم الشحذ على الأطفال باسم زكاة الفطر؛ رجاء أن يعيشوا، وهو شائع في مصر ويزعم بعض أرباب الأموال أن ذلك كاف عما وجب في زكاته، ولا يخفى أنه ضلال.

ومنها البخور الذي يطوف به على البيوت قومٌ من العاطلين الذين لا خلاق لهم، فيرقون الأطفال منه مع كلمات يقولونها بمحضر من أمهاتهم يوهمونهن أن ذلك وقاية لهم من العين وكلِّ مكروهٍ إلى السَّنَةِ القَابلة.

وهذا أمر يحتاج إلى توقيف من صاحب الشريعة ﷺ ولم يثبت إلا أنه بدعة وضلالة.

ومن البدع السيئة في هذا الموسم طواف البنات بأطباق الحلوى ينادين عليها بقولهن: «يا سي على لوز» فهذه ضلالة؛ فإن البنات قد بلغن حدَّ الشهوة، ويخرجن متبرجات بزينة على صورة الخلاعة تعبث بهن الكهول والشبان في الشوارع وعلى قارعة الطريق، ولا يخفى ما في ذلك من الفتنة وفساد الأخلاق نعوذ بالله من الشيطان وحزبه، ونسأله ـ تعالى ـ السلامة من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

٣٤ الصيام[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة:١٨٣.

هذه الآية مدنية، وهكذا الشأن في كل آية استفتحت بهذا العنوان، بخلاف ما افتتح بـ: يا أيها الناس؛ فقد وقع في الآيات المكية والمدنية، وإنما ابتدأت بهذا المطلع الذي يخص المؤمنين لأنها سيقت للتكليف بأمر فرعي وهو الصوم، وكذلك جرت سنة كتاب الله أن يفتتح الأوامر الفرعية بـ: **يا أيها الذين آمنوا**، نحو ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ الحج:٧٧، ونحو ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ البقرة:٢٥٤، وكقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ المائدة:٩٠، إلى غير ذلك.

ويصدر الأوامر الاعتقادية بـ: يا أيها الناس، والسر في ذلك أن الفروع لا تصح إلا مع وجود شرطها وهو الإيمان؛ فناسب توجيه الخطاب إلى من حصلوا على شرط صحتها وهم الذين آمنوا، مع ما في ذلك من تقوية الداعية لهم، والمبالغة في التهييج إلى العمل؛ فكأنه يقول لهم: أيها المؤمنون شأن المؤمن بالله أن يتلقى أوامره بغاية القبول وسرعة الامتثال.

ومن يرى من الأصوليين عدم تكليف غير المؤمنين بفروع الشريعة لا يحتاج إلى بيان وجه العدول عن يا أيها الناس في الأوامر الفرعية.

---

(١) السعادة العظمى ـ عدد١٤، ١٦ رجب ١٣٢٢هـ المجلد الأول، ص٢٦٨ـ٢٧١.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ﴾ الصيام في اللغة الإمساك عما تنازع إليه النفس، كالكلام والطعام والشراب والنكاح.

وفي الشريعة الإمساك عن المفطرات بياض النهار.

وشرع الصيام لتصفية مرآة العقل، ورياضة النفس بحبسها عن شهواتها وإمساكها عن خسيس عاداتها، وليذوق الموسرون لباس الجوع؛ فيعرفون قدر نعمة الله عليهم، وتهيج عواطفهم إلى مواساة الفقراء.

وللصوم عند من تنبهوا لأسرار العبادات ثلاث درجات: صوم العامة وهو كف البطن والفرج عن شهوتيهما، وصوم الخاصة وهو ما تقدم مع قصر الجوارح عن أفعال المخالفات، وصوم خاصة الخاصة وهو صوم القلب وترفعه عن الهمم الدنيَّة والأفكار الدنيوية التي لا تراد للدين وإلا فهي من زاد الآخرة ومطاياه، وهذه هي الدرجة الكاملة التي جمعت بين عمل الظاهر والباطن.

وينبئك على حطة الدرجة الأولى وقصور صاحبها عن الانخراط في زمرة الصائمين حقيقة، قوله ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

وقال أبو بكر العربي: كان من قبلنا من الأمم صومهم الإمساك عن الكلام مع الطعام والشراب؛ فكانوا في حرج ثم أرخص الله لهذه الأمة في الإمساك عن الكلام؛ ليرفعها بالكرامة في أعلى الدرج؛ فوقعت في ارتكاب الزور، واقتراب المحظور في حرج، فأنبأنا الله ـ سبحانه ـ على لسان رسوله أن من اقترب زوراً، أو أتى من القول منكوراً، أن الله ـ سبحانه ـ في غنى عن الإمساك عن طعامه

وشرابه».

يسمع الناس بحديث: «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»، وحديث «كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فهو لي وأنا أجزي به»، وحديث: «الصيام جُنّة»، فيضعونها في غير مواضعها، ويحملونها على غير محاملها، باعتقاد أنها صادقة على أهل الدرجة الأولى وهو خطأ صراح؛ كيف تكون رائحة فم تَقَذَّر بتناول الأعراض والتمضمض بنحو الكذب والهذيان والمراء أطيب عند الله من ريح المسك؟ وكيف يستاهل صيامٌ تَجهَّم وجهه بسماجة المعاصي أن يضاف إلى ملك الملوك -جلَّ جلاله- ويتولى جزاءه بنفسه؟.

وكيف يكون الصيام جُنّة ووقاية من عذاب الله، وقد انخرق سياجه، وتدنس ذيلُه بقول الزور والتلبس بالآثام التي تهيء له في نار جهنم وطاءاً وغطاءاً؟.

نعم، لأهل تلك الدرجة ثواب عن صيامهم، ولكنه لا يبلغ في الموازنة مبلغ ثقل أوزارهم؛ فيستحقون هذه الكرامات.

ومما يعاكس حكمة الصيام، ويهدم أصل مشروعيته، الإسراف في الأكل سواد الليل، والتفنن في الأطعمة تفنن ذوي الأرواح القدسية على الأذواق العجيبة وأسرار الملكوت، ومنهم من لا يقنعهم التمتع بها في بيوتهم حتى ينقلون أحاديثها اللذيذة عندهم إلى المنتديات العامة والمجتمعات التي تضم أشتاتاً من الناس، ويتواجدون لسماعها ولا تواجد الأم بنغمات صبيّها عند ما يكاد يبين لها عن مآربه الخفية.

وإنه ليعظم في عينك الرجل باديء الرأي حتى تحسبه واحداً من رجال الأمة، فما يروعك إلا وقد أخذ يسوق إليك حديث الأطعمة، ويشخص لك هيآتها يحلّلها لك تحليلاً كيماوياً ثم يطبخها بلسانه مرة أخرى.

وإن لفقه النفس أثراً عظيماً في تعديل المخاطبات، وتحسين العادات.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ هذا التشبيه عائد إلى أصل إيجاب الصوم، والمعنى أن الصوم لم يُفْرَض عليكم وحدكم حتى يعظم وقعه في نفوسكم، بل كان مكتوباً على الأمم الماضية من لدن آدم إلى عهدكم.

وما يقوله بعض المفسرين من أن التشبيه يعود إلى وقت الصوم وقدره ـ أيضاً ـ لا يلتفت إليه بدون أثر صحيح يثبته، وكل ما جاء في القرآن مطلقاً أو مبهماً لا ينبغي تقييده أو حمله على معنى معين إلا بحديث ثابت.

وفائدة هذا التشبيهِ تهوينُ هذه العبادةِ الشاقةِ، وتخفيفُ وطأتها على الأنفس ببيان عدم اختصاصهم بإيجابها؛ لأن الأمور الشاقة إذا عُمِلت سهل تحملها، ولم تشفق الأعناق من التطوق بعدتها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تصيرون أتقياء؛ فإن الصوم يقهر النفس، ويخطمها عن مألوفاتها، وذلك مما يورث التقوى، وقد فسرت «الجنّة» في حديث «الصيام جنّة» بالوقاية والسترة من المعاصي؛ رعاية لهذا المعنى، وهو ثاني فهمين في الحديث.

أولهما: ما أشرنا إليه فيما سبق، وقد كنّى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن طهارة نفوس الصائمين من رجس المعاصي، وتخلصها من البواعث على

الفواحش بغلق أبواب النار وتصفيد الشياطين، كما كنّى عن تنزيل الرحمة، وحسن القبول للأعمال بفتح أبواب الجنة في قوله: «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة - وللبخاري «أبواب السماء» - وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين» وحمل هذا الحديث على الكناية أعظم للمنة، وأتم للنعمة وأفيد للصائمين من حمله على ظاهره، ولا مانع من حمله على الحقيقة - أيضاً -.



٣٥ الحج المبرور[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: إيمان بالله وبرسوله، قال السائل: ثم ماذا؟ قال: ثم الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: ثم حج مبرور.

وقد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم وأكثر كتب السنة المعتبرة أن النبي ﷺ قال: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

والحج المبرور: هو الذي وفيت أحكامه، ولم يخالطه شيء من الإثم.

والذي يستعرض أعمال الحج، وأحكامه يجدها ترجع إلى عناصر يكمل كل منها الآخر، ومدارها على أن يجدد المسلم حياته بالحج؛ فيقطع صلته بكل مكان يعلق بها من شوائب الإثم، أو الانحراف عن طريق الله ووسائل مرضاته، ويبدأ حياته جديدة نقية، بنفس راضية تقية، بعد توبة نصوح يشهد الله عليها في أطهر بقاع الأرض، مخاطباً ربه ـ عز وجل ـ قائلاً: «لبيك اللهم لبيك» وملتزماً أن لا يعمل من ذلك الحين إلا ما يرضي الله من عمل، وأن لا يقول إلا ما يقربه إلى

---

(١) من كتاب أحاديث في رحاب الأزهر، لفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وحققها علي الرضا التونسي ص٩٦-٩٨، و مجلة «الأزهر» الجزء الأول ـ المجلد الخامس والعشرون، غرة المحرم ١٣٧٣.

ربه من خير وحق، وأن لا يعود إلى أهله ووطنه إلا وهو إنسان آخر يؤثر مرضاة الله في كل ما يصدر عنه، ويكون في جانب الحق في كل ما يصطدم فيه الحق والباطل، ويحرص على أن يكون من أهل الخير، كلما دعته الظروف، وسنحت له الفرص لعمل الخير.

كما أن المدرسة مصنع يدخله غير العارفين ثم يتخرجون منه علماء عارفين كذلك الحج فرصة من فرص الحياة يتعرض لها المسلمون بما ارتكبوا في حياتهم من هفوات، وما وقع منهم مما لا يرضى الله عنه، فيجددوا توبتهم العظمى في البلد الحرام والشهر الحرام، ويهتفون من أعماق قلوبهم معاهدين ربهم على التزام أوامره واجتناب نواهيه قائلين: (لبيك اللهم لبيك) فلا ينتهون من مناسكهم إلا وهو على عهد مع الله -عز وجل- بأن يكونوا من أهل الاستقامة في حياة جديدة قامت مناسك الحج حائلاً بينها وبين شوائب الماضي، فيعفو الله عما سلف على قدر ندم صاحبه عما فرط منه، وعلى قدر ثباته على عهده مع الله بأن يكون من أهل السلامة والاستقامة والتقوى.

إن عشرات الألوف من المسلمين يقفون بين يدي الله -عز وجل- في عرفة، في البقعة المباركة التي وقف فيها رسول الله ﷺ وصفوة خلق الله من أصحابه الأكرمين والتابعين لهم بإحسان.

وهذه الألوف التي لا تحصى، ترفع أصواتها بالدعاء إلى الله الرحمن الرحيم معلنة أنها أجابت دعوته، وأنها تعاهده - عز وجل - على أن تتوخى رضاه في أقوالها وأفعالها، ولن تكتفي هذه الجموع العظمى بهذا العهد العظيم مع الله،

بل إنها بعد الإفاضة من عرفات إلى مزدلفة تدفع من مزدلفة إلى منى قبل أن تطلع الشمس، وفي منى تعلن مقاطعتها للشيطان، وترمز لهذه المقاطعة برميه عند الجمرة الكبرى، ثم عند الجمرة الصغرى والوسطى، وجمرة العقبة في أيام التشريق وهي الأيام الثلاثة التي بعد يوم النحر.

هذه المقاطعة الرمزية للشيطان في كل ما ينتظر أن يسول به للمسلم في حياته من شر، أو إثم، يقوم بها الحجاج جميعاً بعد ذلك العهد الذي قطعوه لربهم كلما هتفوا له: (لبيك اللهم لبيك)، فتخرج نفوسهم نقية طاهرة مثيبة إلى الله، مستريحة من أوزار الماضي، ومستقبلة حياة جديدة صالحة، وأياماً سعيدة هنيئة.

هذا هو الحج المبرور؛ لأنه يرجع بالمسلم إلى الله، ويرجع المسلم إلى سعادته التي كفلها له الإسلام، ودله على طريقها، وضمن له الجنة إذا التزم هذا الطريق فلم يخرج عنه.

يا حجاج بيت الله الحرام، إن الله ـ عز وجل ـ قد هيأ لكم الفرصة الثمينة؛ لتجددوا أنفسكم، وترجعوا إلى ربكم، وتكونوا من خيرة أبناء بلادكم وأمتكم، فتسعدوا في الدنيا، وتكونوا من أهل الجنة في الآخرة.

وسبيل ذلك أن تكونوا من أهل الحج المبرور، ولا يكون حجكم مبروراً إلا بالتوبة الصادقة، ومقاطعة الشيطان إلى الأبد وفي كل شيء.

نسأل الله ـ عز وجل ـ أن يتم عليكم هذه النعمة، وأن يجعلكم من عباده الصالحين.

٣٦ عيد الأمس، عيد اليوم، عيد الغد[1] للعلامة محب الدين الخطيب

ما انفك هذا الشرق العربي يستقبل الأعياد بقلوب أبنائه دون عقولهم، إلى أن فاجأتنا أعياد أَفَقْنا فيها من رقادنا، فشعرنا بحاجتنا إلى استقبالها بعقولنا دون قلوبنا.

وتلك عادة من عاداتنا السيئة أن تكون نظرتنا الأولى إلى كل أمر من أمورنا منتزعةً من قلوبنا، وضلال مشاعرنا، وميول أنفسنا؛ مهملين كل الإهمال عقولنا التي بنورها يتبدد دَيْجور الليالي، وبمقياسها تقدر المنافع الحقيقية، وبقسطاسها يرجح جانب الصواب في كل حادث.

الأعياد السنوية عند الأمم هي الحد الفاصل بين عام مضى وعام أقبل؛ لذلك كان من شأن كل أمة أن تتفرغ في أيام عيدها لاستعراض حوادث العام المنصرم فتصفى حسابه، وتنظر في مبلغ ما نالته فيه من ربح، فتعده عيداً سعيداً يجدر بأفرادها أن يتبادلوا فيه عبارات التهاني، أو مقدار ما أصابها فيه من خسران فتفكر في أسباب تلافيه، ويتمنى بعضهم لبعض أن يعود عليهم أمثاله بخير مما عاد به عليهم في عامهم الذي هم فيه.

ولو كان أفراد جيلنا والجيل الذي تقدمنا قاموا بعملية هذا الجرد الاجتماعي في فرصة كل عيد سنوي لما كنا دون الأمم التي نهضت في تلك البرهة من الزمن، وأعني بها الأمة اليابانية، والأمة البلغارية، والأمة الفنلندية، وسائر الأمم التي

---

(١) الحديقة ٦/٧ ـ ١٠، عام ١٣٤٩هـ، وقد كتبها رحمه الله في ٩ ذي الحجة ١٣٣٧هـ.

سَرَتْ مسراهن، ونجحت نجاحهن.

ظللنا ـ كما كانت تفعل طبقة آبائنا ـ نستقبل الأعياد بسرور وغرور، غير شاعرين بمساعي اليابانيين والبلغاريين والفنلنديين في سبيل نهضتهم الوطنية والصناعية والتهذيبية، وما انقضى نحو خمسين عيداً حتى انجلت عنهم وعنا غيوم الأزمان، فظهروا للعالم بمظهر المغالب للطبيعة في الحصول على مقومات الحياة، وظهرنا بمظهر الذي عاند الطبيعة؛ ليمنع مقومات الحياة من أن تتسرب إليه؛ فحصلوا هم منها على القسم الوافر رغم الطبيعة، ونحن أخذنا منها بالقسم اليسير الذي أرغمتنا طبيعة الزمان على الأخذ به.

وها نحن نرى الآن بأعيننا ما بيننا وبين اليابانيين من المسافات الشاسعة في ميدان الارتقاء ومعترك الحياة: هم يلبون داعي الوطنية بالألوف، ونحن نلبيه بالمئات، وهم يشعرون بحاجة الوطن إليهم في ساعة حاجته إليهم، ونحن نشعر بذلك متأخرين، هم يقدمون للوطن من رؤوس أموالهم علماً منهم بأن حياة أفراد الوطن متصلة بحياة الوطن نفسه ونحن نمن على الوطن إذا جدنا عليه بحثالة الكأس، وفضلات المائدة.

لقد كانت الحرب المنصرمة امتحاناً للأمم يُبتلى فيه مَضاء سلاحها التهذيبي، وكنا في جملة من دخل هذا الامتحان فعلمنا من نتيجة ذلك أننا بدأنا نشعر بالحياة، وأن فينا من قواها نسيساً لم يكن فينا قبل عشرين عاماً.

لذلك يمكننا أن نعلم من الجرد الاجتماعي الذي نجريه في عيدنا هذا أن ثروتنا الوطنية والتهذيبية في نماء وتقدم، ولكنهما ـ ويا للأسف ـ قد تسربا إلينا بضغط

طبيعة الزمان علينا، وإرغامها إيانا على مجاراتها للتسلح بمقومات الحياة.

ولو أننا جاريناها بلا ضغط منها علينا، بل لو اندفعنا في طريق الترقي مقاومين ما قد يعترضنا من العقبات -كما يفعل اليابان- لكنا اليوم بمنزلة اليابانيين صناعة، ووطنية، وتهذيباً.

إن هذا اليوم له ما بعده، ونحن واقفون في هذه الساعات على برزخ بين الحياة والموت؛ فإما أن يندفع كل فرد منا في سبيل الحياة بلا تردد، ويسارع إلى أن يكون قدوة لغيره قبل أن يكون غيره قدوة له، وإما أن يلبث كل واحد منا واقفاً يراقب كل ما يبدر من الآخرين ليفعل كما يفعلون؛ فتكون النتيجة بقاء الجميع وقوفاً أوشبه وقوف، وذلك هو الموت بعينه.

الواجبات الوطنية كثيرة، والسبيل التي سارت فيها الأمم الراقية واضحة أمامنا، فليكن حديثنا في هذا العيد دائراً حول هذا البحث شعارنا (إلى الأمام... دائماً إلى الأمام...) وبهذا يكون عيدنا سعيداً، ونكون واثقين من أننا وأولادنا سنستقبل بعقولنا وقلوبنا بمنافعنا ومسراتنا أعياداً سعيدة إلى الأبد.

ثامناً: مقالات في السياسة والإجتماع

٣٧ الشورى في الإسلام[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

أتى على العالم حينٌ من الدهر وهو يتخبط في جهل وشقاء، ويتنفس من نار البغي الطاغية على أنحائه الصعداء، حتى نهض صاحب الرسالة الأعظم ﷺ بعزم لا يحوم عليه كلال، وهمة لا تقع إلا على أشرف غرض، فأخذ يضع مكان الباطل حقاً، ويبذر في منابت الآراء السخيفة حكمة بالغة، وما لبثت الأمم أن تقلدت آداباً أصفى من كواكب الجوزاء، وتمتعت بسياسة يتجلى بها العدل في أصرح مظهر، وأحسن تقويم.

وضع الإسلام للسياسة نظاماً يقطع دابر الاستبداد، ولا يبقي للحيف في فصل القضايا أو الخلل في إدارة الشؤون منفذاً، أوصى الرعاة بأن لا ينفردوا عن الرعية بالرأي في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾ آل عمران:١٥٩، وقوله: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾ الشورى:٣٨، ثم التفت إلى الأمة وعهد إليها بالرقابة عليهم ومناقشتهم الحساب فيما لا تراه مطابقاً لشرط الاستقامة، فقال ـتعالىـ: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ**﴾ آل عمران:١٠٤.

ولم يكن الأمراء الراشدون احتراماً لهذا القانون الإلهي يكرهون من الناس، أو يحجرون عليهم البحث في الشؤون العامة، ومجادلتهم فيها بلهجة ناصح أمين.

---

(١) مجلة البدر الجزء الخامس من المجلد الثاني الصادر في منتصف جمادى الأولى ١٣٤٠هـ تونس، وانظر (هدى ونور) ص٣٩.

وهذه صحف التاريخ حافلة بقصص الذين كانوا يقفون للخليفة عمر ابن الخطاب ـ وهو يخطب على منبر المسجد الجامع ـ فينكرون عليه عزل عامل اعتقدوا أمانته، أو يجادلونه في رأي عزم على أن يجعله قانوناً نافذاً، فلا يكون منه سوى أن يقول لمن نطق عن بينة «أصبت» ويرد على من أخطأ في المناقشة رداً جميلاً.

وإن شئت مثلاً من سيرة الأمراء الذين تقلبوا في فنون من أبهة الملك، ولبسوا من عظمته بروداً ضافية فقد حضر القاضي منذر بن سعيد مجلس الخليفة الناصر بمدينة الزهراء، فتلا الرئيس عثمان بن إدريس أبياتاً تمضمض فيها بشيء من إطراء الخليفة، حتى اهْتَزَ طرباً، وكان منذر بن سعيد ينكر على الناصر إفراطه في تشييد المباني وزخرفتها؛ فأطرق لحظة ثم قال:

يا باني الزهراء مستغرقاً ... أوقاته فيها أما تمهل

لله ما أحسنها رونقاً ... لو لم تكن زهرتها تذبل

فما زاد الناصر على أن قال: «إذا هب عليها نسيم التذكار، وسقيت بماء الخشوع، لا تذبل إن شاء الله» فقال منذر: «اللهم اشهد فإني قد بثث ما عندي».

في مقدرة ذلك الخليفة أن يفصل منذر بن سعيد عن وظائفه، أو يبعث به إلى المنفى غير آسفٍ عليه، ويجعل عذره في ذلك العقاب خطبه التي كان يلقيها على منبر الجامع، ويتصدى فيها لنقد أعمال الدولة بلهجة قارصة.

ولكنه أمير نفذت بصيرته إلى روح الشريعة الغَرَّاء، ودرس تاريخ الخلفاء قبله

عن عبرة؛ فعرف أن لا غنى للدولة عن رجال يجمعون إلى العلم شجاعة، وإلى الشجاعة حكمة، حتى يمتطوا منصب الدعوة إلى الإصلاح بحق، ويكونوا الصلة التي يظهر بها أولوا الأمر وبقية الشعب في مظهر أمة تولي وجهها شطر غاية واحدة، ثم لا يغيب عن مثل ذلك الخليفة العادل أن الدولة لا تحرز مجداً خالداً وسمعة فاخرة إلا أن يعيش في ضلالها أقوام حرة، وفي مقدمتهم علماء يجدون المجال للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فسيحاً.

يصفون بعض الأمم بمحررة الشعوب، ويلقبون عاصمة بلادها بمطلع الحرية، إلا أن ناشر لواء الحرية بحق، ومعلم البشر كيف يتمتعون بالحقوق على سواء مَنْ وضع لطاعة الأمراء حداً فاصلاً؛ فقال: «**إنما الطاعة في المعروف**» وجعل الناس في موقف القضاء أكفاء فقال ﷺ: «**أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**».

كم ظهر في بلاد العرب من سيد بلغ في الرئاسة أن أحرز لقب ملك كآل جفنة وغسان، وربما وجد من بينهم من لا يَقِلُّ في قوته النفسية الفطرية عن الفاروق رضي الله عنه فما بالهم لم يأخذوا في السياسة بنزعته، ويرموا إلى أغراضها عن قوس حكمته؟.

لا عجب أن يمتطي ابن الخطاب تلك السياسة الفائقة، ويجول بها بين الأمم جولته التي رفعت الستار عن أبصارهم، حتى شهدوا الفرق بين سيطرة الدول المستبدة وسيرة الخليفة الذي ينام في زاوية من المسجد متوسداً إحدى ذراعيه.

إنْ هو إلا الإسلام أقام له أساسها، وأنار سراجها، فبنى أعماله على أساس راسخ، واستمد آراءه من سراج باهر، فكانت صحف آثاره أبدع عند عشاق السياسة القيمة من مناظر الروضة الغناء.

تدرب الخلفاء العادلون على مذاهب السياسة وفنون الحرب بما كانوا يتلقونه من حضرة الرسول -عليه الصلاة والسلام- من الحكم السامية كحديث «**الحرب خدعة**» أو ما يشهدونه من التدابير المحكمة كوسيلة التكتم في الأمور الجارية عند الدول لهذا العهد، وهي أن يبعث الرئيس الأعلى إلى الرئيس الأدنى أو يناوله رسالة مختومة، ويأمره أن لا يفك ختامها إلا في محل أو وقت يسميه له.

وقد جاء في صحيح البخاري وغيره أن حضرة صاحب الرسالة - عليه الصلاة والسلام - ناول عبد الله بن جحش - وهو أمير نجد - كتاباً وقال له: «**لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا**».

فلما بلغ عبد الله ذلك المكان، قرأ الكتاب وأخبر الجند بما في ضمنه من الأمر.

إن اختلاف الأمم في عاداتها وحاجاتها، يستدعي أن تكون سياستها ونظاماتها مختلفة، كما يقتضي أن يكون المدبرون لأحكام الأمة وتراتيبها المدنية ممن وقفوا على روحها، وأحاطوا خبرة بمزاجها، حتى لا يضعوا عليها من الأوامر والنواهي ما يجعل سيرها بطيئاً، أو يردها على عقبها خاسرة.

وكذلك الإسلام يقيم السياسة على رعاية العادات، ويسير بها على ما يطابق المصالح، ولهذا فصَّل بعضَ أحكامٍ لا يختلف أمرها باختلاف المواطن كآية: **﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾** البقرة:١٧٩ وحديث: «**البينة على المدعي واليمين**

على المدعى عليه».

ووكل البقية إلى أنظار الراسخ في العلم بمقاصد الشريعة، البصير بما يترتب على الوقائع من آثار المفاسد والمصالح.

وإن تعجب فعجب لبعض من لا يدري أن الإسلام نورٌ إذا نفذ في قلب لا ينطفئ منه حتى يكون الواحد ثلاثة والثلاثة واحداً[1]، فكتب في إحدى المجلات مقالة عقد فيها موازنة بين الإسلام والدين الذي يعتنقه إلى أن قال: «قد يقول البعض أن الإسلام تطور عما كان عليه، وقطع إلى الأمام شوطاً بعيداً، لأن الأتراك قد أعلنوا الدستور، ولأن الفرس أدخلوا الإصلاحات البرلمانية، ولأن معاهد العلم والجامعات منتشرة في كل نواحي العالم الإسلامي، ولكنا نحيل القارئ الكريم إلى ما جاء في تقارير المذابح الأرمنية والفضائع الوحشية التي أتاها الأتراك أنفسهم».

وليس في وسع هذا المقام ولا من غرضه التعرض للروايات المصنفة في حوادث الأرمن كما أنني أنبش مقابر التاريخ الأندلسي، أو ألفت نظر ذلك الكاتب لفتة حقيقية إلى ما تقاسيه بعض الشعوب الإسلامية اليوم من أهل دين يقدسه، ويتقلد عقائده.

ولكني أذكره بأن الطرق المنطقية لا تبيح له الاحتجاج على عدم مطابقة التعاليم الإسلامية للإصلاحات المدنية بمذابح الأرمن، ولو انعقد الإجماع على صحة روايتها.

---

(١)لعله يشير إلى بعض الكتاب النصارى(م).

وإنما يرجع في الترجيح بين الأديان إن شاء إلى شرائعها، ونصوص الذين أوتوا العلم من أئمتها، وإن شريعة تقوم على قواعد: «الضرر يزال، المشقة تجلب التيسير، العادة مُحَكَّمَة» ويقول أحد العظماء من فقهائها: «تَحْدُثُ للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من المعاملات والسياسات» ـ لا يحق لأحد أنْ يَرمِيَها بمجافاة الإصلاح والبعد عما تقتضيه طبائع العمران، إلا أن يفوته العلم بحقائقها، أو يحمله التعصب الجامد على جحودها.

٣٨ بيئة الإسلام الأولى التي اختارها الله لمولد خاتم رسله وظهور أكمل رسالاته[1] للعلامة محب الدين الخطيب

بلدة لا كالبلاد، لجيل لا كالأجيال، من أمة لا كالأمم...

بلدة اختارها الله ـ في الدهر الأول ـ لأول بيت قام في الأرض؛ لتوحيد الله والعبادة الخالصة والنسك السليم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران: ٩٦ـ ٩٧.

قال الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله: «كان الرجل قبل الإسلام يَقتل، فيضع في عنقه صوفة ويدخل أرض الحرام، فيلقاه ابن المقتول، فلا يهيجه حتى يخرج من حدود الحرم».

وقد وصف الله في سورة (العنكبوت الآية: ٦٧) هذه الميزة لبيت الله الحرام، ومنَّ بها على أهله فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

وفي سورة (القصص: ٥٧ـ ٥٩) ـ وهي مكية ـ نعى الله على الحارث بن عامر ابن نوفل بن عبد مناف وأمثاله من رجالات قريش وشبابهم أنهم تخوَّفوا من إقامة الحق بالدخول في الإسلام يوم كانت مكة هي بيئةَ الإسلام الأولى ومشرقَ

---

(١) مع الرعيل الأول ص١٨ ـ ٢٤.

دعوته ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾.

ومما خاطب الله قريشاً ـ فيما أنزله من القرآن بمكة ـ ومنَّ عليهم بهذه الميزة الكبرى لبلدتهم دون بلاد الأرض كلها قوله ـ جلَّ ثناؤه ـ: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(٤) ﴾ قريش.

إن حرم مكة الآمن لا ينحصر في حرم الكعبة ، ولا يقتصر على البلدة كلها ، بل يعم أرض الحرم إلى مسافات بعيدة أقيمت لها أعلام في كل ناحية من نواحيها ، فما كان خارج هذه الأعلام يسمى الحل ، وما هو في داخل نطاقها يسمى الحرم، وفي الحرم تأمن الطير ـأيضاًـ كما يأمن الإنسان؛ فلا تنفر عن أوكارها ، ويأمن فيه حتى الوحش ، فلا يحل اصطياده.

بل من جملة تحريمها تحريمُ قطع شجرها ، وقلع حشيشها.

وقد خطب رسول الإنسانية الأعظم ـ صلوات الله عليه ـ يوم فتح الله عليه مكة ، فقام على باب الكعبة يقول لقريش ومن وراءها من جماهير الناس ، ولكتائب الفتح من المهاجرين والأنصار:

«إن الله حرَّم هذا البلد يوم خلق السموات والأرض؛ فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحلَّ القتال لأحد قبلي ، ولم يحلَّ لي إلا في ساعة من نهار؛

فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا يُنَفَّرُ صيدُه، ولا يلتقط لقطته إلا من عَرّفها، ولا يختلى خلاه».

فقال عمه العباس: يا رسول الله إلا الإذخر ـ وهو نبات طيب الرائحة ينتفعون به ـ فقال ﷺ: «إلا الإذخر».

وقد حيل بين من يلجأ إلى الحرم من المجرمين وبين حقوق الله والناس بما رواه سعيد بن جبير عن عبدالله بن عباس أن القاتل إذا عاذ ببيت الله في مكة أعاذه البيت، ولكن ليس على أحد من ساكني الحرم أن يؤويه، أو يطعمه ويسقيه، حتى يضطر إلى الخروج من حدود الحرم فإذا خرج أخذ بذنبه.

ومن أعجب ما امتازت به مكة عن بلاد الله جميعاً بين زمن مولد حامل أكمل رسالات الله وزمن هجرته ـ أنها بلدة لم يشعر أهلها بحاجتهم إلى حكومة، ولم تمس حاجتهم إلى إقامة شرطة تحمي أهل العافية فيهم من أهل البغي والشر؛ لأنهم قلما عرفوا فيهم مُواطناً من أهل مكة تنزع نفسه إلى البغي والشر[١].

وأكثر ما كان يقع فيهم الباطل أن يمطل المدين دائنه في وفاء ما في ذمته له، فكان يستعين عليه بأهل العافية؛ فيحصل منه على حقه بلا حاجة إلى قضية أو محكمة.

ولأجل هذا انعقد في بيت وجيه من وجهاء مكة وشريف من أشرافها وهو عبدالله بن جدعان التيمي ـ من أسرة أبي بكر الصديق ـ حِلْفٌ اشترك فيه طائفة من أهل الفُتُوَّة والمروءة في قريش، وتعاقدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من

(١) أين الكاتب رحمه الله من الحال في هذه الأزمان والله المستعان (م).

أهلها أومن غيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على مَنْ ظلمه حتى تُرَدَّ عليه مظلمته.

وكان رسول الله ﷺ لا يزال يومئذ فتى، روى طلحة الندى ـ وهو طلحة ابن عبدالله عوف الزهري قاضي مكة في القرن الأول للإسلام ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمْرَ النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت».

إن الناس هم الناس، وفيهم الطيب والوسط والخبيث، تشترك في ذلك الأمم كلها، غير أنها تتفاضل بنسبة أهل هذه الأصناف الثلاثة بعضهم إلى بعض؛ فمن الأمم من تطغى نسبة الخبيث من أهلها على من فيها من الطيبين والعنصر الوسط؛ فهي من شر الأمم، ومنها من يكثر فيها العنصر الطيب وتكون له الكلمة النافذة والتوجيه المطاع في المجتمع؛ فهي من أكرم الأمم معدناً، ومنها من تعظم فيها نسبة الطبقة الوسطى؛ فيعم فيها الخير ويستتب الاستقرار.

يقول النبي ﷺ فيما قرره من حقائق: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا الحديث في كتابه منهاج السنة (٢: ٢٦٠ـ٢٦١) بقوله: «فالأرض إذا كان فيها معدن ذهب، ومعدن فضة كان معدن الذهب خيراً؛ لأنه مظنة وجود أفضل الأمرين فيه؛ فإن قُدِّر أنه تعطل ولم يخرج ذهباً كان ما يخرج الفضة أفضل منه؛ فالعرب في الأجناس ـ وقريش فيها، ثم هاشم من قريش ـ مظنةُ أن يكون فيهم الخير أعظم مما يوجد في غيرهم؛ ولهذا

كان في بني هاشم النبي ﷺ الذي لا يماثله أحد في قريش، فضلاً عن وجوده في سائر العرب وغير العرب.

وكان في قريش الخلفاء الراشدون، وسائر العشرة، وغيرهم ممن لا يوجد له نظير في العرب وغير العرب.

وكان في العرب السابقين الأولين مَنْ لا يوجد له نظيٌر في سائر الأجناس؛ فلا بد أن يوجد في الجنس الأفضل ما لا يوجد مثله في المفضول، وقد يوجد في المفضول ما يكون أفضل من كثير مما يوجد في الفاضل، كما أن الأنبياء الذين ليسوا من العرب أفضل من العرب الذين ليسوا بأنبياء، والمؤمنون المتقون من غير قريش أفضل من القرشيين الذين ليسوا مثلهم في الإيمان والتقوى، وكذلك المؤمنون المتقون من قريش وغيرهم أفضل ممن ليس مثلهم في الإيمان والتقوى من بني هاشم؛ فهذا هو الأصل المعتبر في هذا الباب، دون من ألغى فضيلة الأنساب مطلقاً، ودون من ظن أن الله ـ تعالى ـ يفضل الإنسان بنسبه على من هو أعظم إيماناً وتقوى منه؛ فكلا القولين خطأ، وهما متقابلان، بل الفضيلة بالنسب فضيلةُ جُمْلَة، وفضيلةٌ لأجل المَظِنَّةِ والسببِ، والفضيلةُ بالإيمان والتقوى فضيلةُ تعيينٍ وتحقيق وغاية؛ فالأول يَفْضُل به؛ لأنه سببٌ وعلامة، ولأن الجملة أفضل من جملة تساويها في العدد، والثاني يفضل به؛ لأنه الحقيقة والغاية، ولأن من كان أتقى لله كان أكرم عند الله، والثواب من الله يقع على هذا؛ لأن الحقيقة قد وجدت فلا يعلق الحكم بالمظنة، ولأن الله يعلم بالأشياء على ما هي عليه فلا يستدل بالأسباب والعلامات».

بهذا فسر شيخ الإسلام ابن تيمية حديث معادن الناس، وكان ينظر ـ وهو يعالج هذا الموضوع الدقيق ـ إلى آية الحجرات ١٣ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، كما ينظر إلى حديث عبدالله بن عمر قال: إنا لقعود بفناء رسول الله ﷺ إذ مرت امرأة، فقال بعض القوم: هذه ابنة محمد ﷺ ـ والحقيقة أنها كانت درة بنت أبي لهب، وكانت زوجة للحارث بن نوفل، ثم تزوجها دحية الكلبي ـ فقال رجل: إن مثل محمد ﷺ في بني هاشم مثل الريحانة في وسط النتن؛ فانطلقت المرأة فأخبرت النبي ﷺ فجاء ـ عليه السلام ـ يُعرَفُ في وجهه الغضب، ثم قام على القوم فقال: «ما بال أقوام تبلغني عن أقوام؟ إن الله ـ عز وجل ـ خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم؛ فأنا خيار من خيار؛ فمن أحب العرب فبحبي أَحَبَّهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم».

قال الحافظ العراقي: «وهو حديث حسن، أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ورواه من غير هذا الإسناد ـأيضاًـ وروى نحوه من حديث أبي هريرة، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط وقال: حديث صحيح».

فالتفاضل بالتقوى هو الأصل، وهو الحقيقة والغاية، وكرم المعدن فضيلةُ جملةٍ، ومظنة أن يوجد فيه الخير أكثر مما يوجد في غيره.

إن البيئة التي ولد فيها خاتم رسل الله، وهي قريش سكان شعاب مكة وبطاحها ـ قد تفاوت رجالها ونساؤها في سرعة الاستجابة لدعوة الإسلام؛ فهذا

عمر بن الخطاب كان من مشركي قريش يوم كان أبو بكر أول رجل من قريش استجاب لهذه الدعوة، وأخذ يحببها بحكمته ورجاحة عقله ودماثة خلقه إلى طائفة من أعز شباب قريش في بطحاء مكة، من أمثال عثمان، والزبير، وعبدالرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم من مسلمي الرعيل الأول؛ فهل أزرى بعمر أن تأخر إسلامه عن إسلام هؤلاء وعن إسلام أخته وصهره؟.

وهذا خالد بن الوليد كان في وقعة أحد قائد خيل المشركين، وكان المفروض فيه لما عاد من غزوة أحد إلى مكة أن يكون ثملاً بخمرة ما اتفق له من فوز؛ فيكون ذلك أبعد له عن الاستجابة لنداء الحق.

لكننا رأيناه في أوائل السنة الثامنة للهجرة يزهد في عظيم الجاه الذي كان لأبيه وبيته في أم القرى، ويخرج متوجهاً إلى المدينة؛ ليلتحق بدعوة الحق؛ **فالتقى في الطريق بين مكة والمدينة بعمرو بن العاص السهمي**، وعثمان بن طلحة أحد بني عبدالدار سدنة الكعبة، قال عمرو: فقلت لخالد: إلى أين يا أبا سليمان؟

قال خالد: والله لقد استقام المنسم، وإن الرجل لنبي، إني أذهب والله لأسلم، فحتى متى؟.

قال عمرو: وأنا والله ما جئت إلا لأسلم.

وقال صاحب مفتاح بيت الله الحرام مثل مقالتهما.

فلما دخلوا على رسول ﷺ ونظر إليهم من بعيد قال لأصحابه: «لقد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها».

قال عمرو: فتقدم خالد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله، إني أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي.

فقال ﷺ: يا عمرو بايع، فإن الإسلام يجبُّ ما قبله، وإن الهجرة تجبُّ ما قبلها.

ونقل الحافظ ابن حجر في الإصابة عن الزبير بن بكار أن رجلاً سأل عمرو ابن العاص: ما أبطأ بك عن الإسلام، وأنت أنت في عقلك؟

فأجابه: إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدُّم، وكانوا ممن توازن حلومهم الجبال؛ فلما بعث النبي ﷺ فأنكروا عليه قلدناهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا، فإذا حقٌّ بيِّنٌ؛ فوقع في قلبي الإسلام، فعرفت قريش ذلك من إبطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم عليه؛ فبعثوا إليَّ فتى منهم فناظرني في ذلك، فقلت: أنشدك الله ربك ورب آباءك من قبلك ومن بعدك أنحن أهدى، أم فارس والروم؟

قال: بل نحن أهدى ـ أي أعقل وأعظم بصيرة وإدراكاً لحقائق الأمور ـ.

٣٩ معدن سليم كريم[1] للعلامة محب الدين الخطيب

شعب ظهر فجأة من بين تلك الصحاري التي لا يكاد يعرفها أحد.

شعب جديد بدأ يمثل دوره على مسرح الحياة بعد أن ظل نهباً مقسماً، تناوئ كل قبيلة منه القبيلة الأخرى، فيحتدم النزاع، وتقع الحرب الطاحنة.

ها قد رأيناه يتَّحد، ويجمع شمله الشتيت، للمرة الأولى.

ذلكم هو الشعب الناهض الذي تملَّك نفسَه حبُّ الحرية، وساعدته على النجاح صفاتُه النبيلة؛ فقد كان متقشفاً في طعامه، مخشوشناً في لباسه، نبيلاً في أخلاقه، كما كان طروباً، سريع البديهة، حاضر النكتة.

كان شريف النفس، أرْيَحيًّا؛ فإذا استثرته مرة فهو قاسٍ، غضوبٌ، شرس، لا يني عن أخذ ثأره، ولا يرده عن انتقامه شيء.

ذلكم هو الشعب الذي قلب ـ في لحظة واحدة ـ إمبراطورية الفرس، بعد أن ظل السوس ينخر في عظامها قروناً عدة.

وانتزع من خلفاء قسطنطين أجمل ضواحيهم، ثم سحق مملكةً جَرمانيةً حديثة العهد تحت قدميه، وشرع يهدِّد ـ بعد ذلك ـ بقية أوربا، بينما كان ـ في ذلك الوقت نفسه ـ يوالي فتوحه، وانتصاره في الجانب الآخر من المعمورة، حتى وصلت جيوشه الظافرة إلى الهملايا.

لم يكن ذلك الشعب فاتحاً فحسبُ ـ كغيره من الشعوب الأخرى ـ بل كان

(١) مع الرعيل الأول ص٤ ـ ٦.

داعياً إلى دين جديد، ومبشراً به ـ أيضاً ـ.

كان داعياً إلى دين جديد؛ فقام يناوئ الثَّنَوية[1] الفارسية، والمسيحية التي أفسدتها الخرافات والبدع، حاملاً إلى الناس توحيداً خالصاً لم يلبث أن دان به الملايين من الناس.

إن ديانة العرب الأولى كانت واهية لا ترتكز على أساس متين، ومتى أقررنا ذلك سهل أن نفرض أنه كان من اليسير على العرب أن يقبلوا ديناً آخر؛ فيدينوا بالمسيحية أو اليهودية مثلاً.

هذا كلام صحيح؛ ولكن إلى حدٍّ ما...

إن المسيحية انتشرت لهذا السبب نفسه في جهتين: في الحبشة جنوباً، وفي سوريا شمالاً، حيث لقيت شيئاً من القبول.

وقد انتصرت كذلك في مدينة نجران في وقت مبكر، ودانت شبه جزيرة سينا بالمسيحية كما تنصر عرب سوريا.

على أن هذا النجاح لم يكن ـ في أي مكان تقريباً ـ إلا مظهراً من المظاهر، لا حقيقة من الحقائق.

أما في أواسط بلاد العرب، وفي قلب جزيرتهم، حيث نبتت جرثومة[2] العربي القُحّ وأُرومَتُه ـ فلم تنجح الدعاية للدين المسيحي، ولم تكن لترى ثَمّ إلا أثراً ضعيفاً له إن لم نقل معدوماً.

---

(١) يعني بها المجوسية التي يدين أهلها بإلهية اثنين: النور، والظلمة (م).

(٢) جرثومته: أصله (م).

كانت المسيحية في ذلك الزمن ـ على وجه عام ـ بما تحويه من معجزات، وبما فيها من عقيدة التثليث، وما يتصل من ذلك من رب مصلوب قليلة الجاذبية، بعيدة عن التأثير في نفس العربي الساخر الذكي.

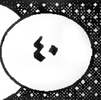
وآية ذلك ما نراه واضحاً فيما حدث للأساقفة الذين سعوا إلى تنصير المنذر الثالث ملك الحيرة حوالي سنة ٥١٣ من الميلاد؛ فإن المنذر لَيُصغي إلى ما يقوله الأساقفة بانتباه إذ دخل عليه أحد قُوَّاده فأسرَّ إليه بضع كلمات، ولم يكد ينتهي منها حتى بدت على أسارير الملك أمارات الحزن العميق؛ فتقدَّم عليه أحد القساوسة يسأله ـ متأدِّباً متلطِّفاً ـ عما أشجاه؛ فأجابه الملك:

يا له من خبر سيِّئ! لقد أعلمني قائدي أن رئيس الملائكة قد مات، فواحسرتا عليه!

فأجابه القسِّيس: هذا محال أيها الملك، فقد غشَّك من أخبرك بذلك، إن الملائكة خالدون، ويستحيل عليهم الفناء!

قال الملك: أحقٌّ ما تقول؟ وتريد مع ذلك أن تقنعني بأن الله ذاته يموت!

العربي رجل عمليٌّ ماديٌّ، لا يُعنى بغير الحقائق، حتى في شعره؛ فهو لا يسبح في الخيال والوهم، ولا يميل إلى الأخذ بتلك الألغاز والمعميات الدينية التي يعتمد الإنسان في استيعابها على التخيُّل أكثر من اعتماده على التعقل.



٤٠ حقيقة المسلم[1] للأديب مصطفى صادق الرافعي

لا يعرف التاريخُ غيرَ محمد ﷺ رجلاً أفرغَ الله وجودَه في الوجود الإنساني كلّه، كما تنصبُّ المادة في المادة، لتمتزجَ بها، فتحوّلها، فتحدثَ منه الجديد، فإذا الإنسانية تتحوَّل به وتنمو، وإذا هو ﷺ وجودٌ سارٍ فيها؛ فما تبرح هذه الإنسانية تنمو به وتتحوَّل.

كان المعنى الآدميُّ في هذه الإنسانية كأنما وَهَنَ من طول الدهر عليه، يتحَيَّفُه ويمحوه ويتعاوره بالشر والمنكر، فابتعث الله تاريخ العقل بآدم جديد بدأتْ به الدنيا في تطوُّرها الأعلى من حيث يرتفعُ الإنسانُ على ذاته، كما بدأتْ من حيثُ يُوجدُ الإنسانُ في ذاته، فكانت الإنسانية دهرَها بين اثنين: أحدهما فتحَ لها طريقَ المجيء من الجنة، والثاني فتح لها طريقَ العودةِ إليها: كان في آدم سرُّ وجودِ الإنسانية، وكان في محمدٍ سرُّ كمالها.

ولهذا سُمِّيَ الدينُ (بالإسلام)؛ لأنه إسلام النفس إلى واجبها، أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية، كأن المسلمَ يُنكر ذاته فيُسْلمها إلى الإنسانية تُصرِّفُها وتَعْتَمِلها في كمالها ومعاليها، فلا حظَّ له هو من نفسه يمسِكها على شهواته ومنافعه، ولكنْ للإنسانية بها الحظ.

وما الإسلام في جملته إلا هذا المبدأ: مبدأ إنكار الذات و(إسلامها) طائعةً على المَنْشط والمَكْره لفُروضها وواجباتها، وكلما نكَصَتْ إلى منزعها الحيواني،

---

(١) وحي القلم ١٢/٢

أسلمها صاحبُها إلى وازعها الإلهي، وهو أبداً يرُوضُها على هذه الحركة ما دام حيّاً، فينتزعها كلَّ يوم من أوهام دنياها، ليضعَها ما بين يدي حقيقتها الإلهيَّة: يروضُها على ذلك كلَّ يوم وليلة خمسَ مرّات مُسماة في اللغة خمسَ صلوات، لا يكون الإسلام إسلاماً بغيرها، فلا غروَ كانت الصلاة بهذا المعنى كما وصفها النبي ﷺ هي عِمَادُ الدين.

بين ساعات وساعات في كلِّ مطلع شمس من حياة المسلم صلاة، أيْ إسلامُ النفس إلى الإرادة الاجتماعية الشاملة[1] القائمة على الطاعة للفرضِ الإلهي، وإنكارٌ لمعانيها الذاتية الفانية التي هي مادةُ الشرِّ في الأرض، وإقرارُها لحظات في حيِّز الخير المحض البعيد عن الدنيا وشهواتها وآثامها ومنكراتها، ومعنى ذلك كلّه تحقيقُ المسلم لوجود روحِه، إذ كانت أعمالُ الدنيا في جملتها طُرُقاً تتشتَّتُ فيها الأرواح وتتبعثر، حتى تضلَّ روحُ الأخ عن روح أخيه فتنكرها ولا تعرفها.

وهذا الوجود الروحيُّ هو مبعثُ الحالة العقلية التي جاء الإسلامُ ليَهديَ الإنسانيةَ إليها: حالة السلام الروحاني الذي يجعل حربَ الدنيا المهلكة حرباً في خارج النفس لا في داخلها، ويجعلُ ثروةَ الإنسان مقدَّرة بما يعامل الله والإنسانية عليه، فلا يكون ذهبُه وفضَّته ما كتبتْ عليه الدول: «ضُرِبَ في مملكة كذا»، ولكن ما يراه هو قد كُتبَ عليه «صُنِعَ في مملكة نفسي»، ومن ثمَّ لا يكون وجودُه الاجتماعيُّ للأخذ حَسْبُ، بل للعطاءِ أيضاً؛ فإن قانون المال هو الجمع، أما

---

(١) هذه هي حكمة صلاة الجماعة والحث عليها وكونها أفضل من غيرها وأن الثواب الأكبر فيها وحدها.

قانون العمل فهو البذل.

بالانصراف إلى الصلاة وجمْع النيَّةِ عليها يستشعر المسلمُ أنه قد حطَّمَ الحدودَ الأرضية المحيطةَ بنفسه من الزمان والمكان، وخرجَ منها إلى روحانية لا يَحَدُّ فيها إلا بالله وحدَه.

وبالقيام في الصلاة يُحقِّقُ المسلمُ لذاته معنى إفراغ الفكر السامي على الجسم كلِّه؛ ليمتزجَ بجلالِ الكون ووقاره، كأنه كائنٌ منتَصبٌ مع الكائنات يسبِّحُ بحمده.

وبالتولِّي شطر القبلة في سَمْتِها الذي لا يتغيَّر على اختلاف أوضاع الأرض، يعرف المسلمُ حقيقةَ الرمز للمركز الثابت في روحانية الحياة، فيحملُ قلبُه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبيَّة الدنيا وقلقِها.

وبالركوع والسجود بين يدي الله يُشعرُ المسلمُ نفسَه معنى السموّ والرِّفعةِ على كلِّ ما عدا الخالق من وجود الكون.

وبالجلسة في الصلاة وقراءةِ التحياتِ الطيبات، يكونُ المسلمُ جالساً فوقَ الدنيا يحمدُ اللهَ، ويُسلِّمُ على نبيِّه وملائكتِه، ويشهدُ(١)، ويدعو.

وبالتسليم الذي يخرجُ به من الصلاة، يُقْبِلُ المسلمُ على الدنيا وأهلها إقبالاً جديداً: من جهتي السلامِ والرحمة.

هي لحظاتٌ من الحياةِ كلَّ يوم في غير أشياء هذه الدنيا، لجمع الشهوات وتقييدها بين وقتٍ وآخرَ بسلاسلها وأغلالِها من حركات الصلاة، ولتمزيق الفنَاء خمسَ مرات كلَّ يومٍ عن النفس، فيرى المسلمُ من ورائه حقيقةَ الخلود،

---

(١) لعلها: ويتشهد (م)

فتشعرُ الروحُ أنها تنمو وتتَّسع.

هي خمسُ صلوات، وهي كذلك خمسُ مرَّاتٍ يَفْرَغُ فيها القلبُ مما امتلأ به من الدنيا، فما أدقَّ وأبدعَ وأصدقَ قوله ﷺ: «جُعلتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة»[1].

لم يكن الإسلامُ في حقيقته إلا إبداعاً للصيغةِ العمليَّة التي تنتظمُ الإنسانيةُ فيها، ولهذا كانت آدابُه كلُّها حرَّاساً على القلب المؤمن، كأنها ملائكةٌ من المعاني، وكان الإسلامُ بها عملاً إصلاحيّاً وقعَ به التطورُ في عالَمِ الغريزة، فنقلَه إلى عالم الخلُق، ثم ارتقى بالخُلُق إلى الحق، ثم سما بالحق إلى الخير العام، فهو سموٌّ فوق الحياة بثلاث طبقات، وتدرُّجٌ إلى الكمال في ثلاث منازل، وابتعادٌ عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق.

وبتلك الأعمال والآداب كانت الدنيا المُسْلمةُ التي أسَّسها النبي ﷺ دنيا أسلمتْ طبيعتُها، فأصبحتْ على ما أراد المسلمون لا ما أرادتْ هي، وكأنها قائمةٌ بنواميسَ من أهليها، لا على أهليها، وكان الظاهرُ أن الإسلام يغزو الأممَ بالعرب ويفتتحها، ولكنَّ الحقيقةَ أنَّ إقليماً من الدنيا كان يحاربُ سائرَ أقاليم الأرض بالطبيعة الأخلاقية الجديدة لهذا الدين.

وكأن الله ـ تعالى ـ ألقى في رمال الجزيرة روحَ البحر، وبَعثَها بعثَه الإلهيَّ لأمره، فكان النبي ﷺ هو نُقطةَ المدِّ التي يفورُ البحرُ منها، وكان المسلمون

---

(١) كان محمد ﷺ يستبطئ الصلاة وقد جاء وقتها، من شدة شوقه إليها فيقول: «أرحنا بها يا بلال» ولا أفصح ولا أدق في تصوير نفسيته ﷺ وأشواق روحه العالية من قوله: «أرحنا بها»، فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه.

أمواجه التي غُسلتْ بها الدنيا.

لهذا سمع المسلمون الأولون كلامَ الله ـ تعالى ـ في كتابه، وكلامَ رسوله ﷺ، لا كما يسمعون القولَ، ولكن كما يتلقَّونَ الحكمَ النافذَ المقْضيّ، ولم يجدوا فيه البلاغةَ وحدَها، بل روعةَ أمرِ السماء في بلاغة، واتصلوا بنبيِّهم، ثم بعضُهم ببعض، لا كما يتصل إنسانٌ بإنسان، بل كما تتصل الأمواج بقوةِ المد، ثم كما يُمدُّ بعضها بعضاً في قوة واحدة.

وحقَّقُوا في كماله ﷺ وجودَهم النفسي، فكانوا من زخارف الحياة وباطلِها في موضع الحقيقةِ التي يُرى فيه الشيءُ لا شَيء.

ورأوا في إرادته ﷺ النقطةَ الثابتةَ فيما يتضاربُ من خيالاتِ النفس، فكانوا أكبر علماء الأخلاقِ على الأرض، لا من كُتُبٍ ولا علم ولا فلسفة، بل من قلبِ نبيهم وحدَه.

وعرفوا به ﷺ تمامَ الرجولة، ومتى تَّمتْ هذه الرجولةُ تمامَها في إنسان، رجعتْ له الطفولةُ في روحه، وامتلك تلك الطبيعةَ التي لا يملكُها إلا أعظمُ الفلاسفة والحكماء فأصبحَ كأنما يمشي في الحياة إلى الجنة بخُطُوات مسدَّدة لا تزيغُ ولا تنحرف، فلا شرَّ ولا رذيلة، ودنياه هي الدنيا كلُّها بشمسها وقمرها، يملكُها وإن لم يملك منها شيئاً، ما دامت في قلبه طبيعةُ السرور، فلا فقرَ ولا غنى مما يشعرُ الناس بمعانيه، بل كل ما أمكن فهو غنىً كاملٌ؛ إذ لم تَعُدْ القوةُ في المادة تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها، بل القوةُ في الروح التي تتصرفُ بطبيعة الوجود، وتدفع قوى الجسم بمثل دوافع الطفولةِ الناميةِ المتغلّبة، حتى لَتَجْعَلُ من النور

والهواء ما يؤتَدَمُ به مع الخبز القَفَار، كما يؤتَدَمُ باللحم وأطايبِ الأطعمة.

ويذلك لا تتسلَّط ضرورةٌ على الجسم ـ كالجوع والفقر والألم ونحوها ـ إلا كان تسلُّطها كأنه أمرٌ من قوَّةٍ في الوجود إلى قوَّةٍ في هذا الجسم: أن تظهر لتعملَ عملَها المُعجزَ في إبطالِ هذه الضرورة.

وهذا الجنسُ من الناس كالأزهار على أغصانها الخضْر، لو قالت شيئاً لقالت: إنَّ ثروتي في الحياة هي الحياةُ نفسُها، فليس لي فقرٌ ولا غنى، بل طبيعةٌ أو لا طبيعة.

ولقد كان المسلم يُضربُ بالسيف في سبيل الله، فتقعُ ضرباتُ السيوف على جسمه فتمزِّقُه، فما يحسُّها إلا كأنها قُبَلُ أصدقاء من الملائكة يلْقَونه ويعانقونه.

وكان يُبتلى في نفسه وماله، فلا يشعر في ذلك أنه المُرَزَّأ المُبْتلى يُعرفُ فيه الحزن والانكسار، بل تظهر فيه الإنسانية المنتصرةُ كما يظهرُ التاريخ الظافرُ في بطله العظيم أصيبَ في كلِّ موضع من جسمه بجراح، فهي جراحٌ وتشويهٌ وألم، وهي شهادة النصر.

ولم تكن أثقال المسلم من دنياه أثقالاً على نفسه، بل كانت له أسبابَ قوة وسمو، كالنَّسر المخلوق لطبقات الجوِّ العليا، ويحمل دائماً من أجل هذه الطبقات ثِقْلَ جناحيه العظيمين.

وكانت الحقيقة التي جعلها النبي ﷺ مثلَهم الأعلى، وأقرَّها في أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله ـ أن الفضائل كلَّها واجبةٌ على كل مسلم لنفسه؛ إذ إنها واجبةٌ بكل مسلم على غيره، فلا تكون في الأمة إلا إرادةٌ واحدة متعاونة، تجعل المسلم

وما هو روح أمته تعمل به أعمالها هي لا أعمالَه وحدها.

المسلم إنسانٌ ممتدٌ بمنافعه في معناه الاجتماعي حولَ أمته كلِّها، لا إنسانٌ ضيِّقٌ مجتمعٌ حولَ نفسِه بهذه المنافع، وهو من غيره في صدق المعاملة الاجتماعية كالتاجر من التاجر، تقول الأمانة لكليهما: لا قيمةَ لميزانك إلا أن يُصدِّقه ميزان أخيك.

ولن يكون الإسلامُ صحيحاً تاماً حتى يجعلَ حاملَه مثلاً من نبيِّه في أخلاق الله، فما هو بشخص يضْبِط طبيعتَه: يقْهرها مرةً وتقهره مراراً، ولكن طبيعة تضبِط شخصها فهي قانون وجوده.

لا يضطرب من شيء، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار؟

لا يخاف من شيء، وكيف يخاف ومعه الطمأنينة؟

لا يخشى مخلوقاً، وكيف يخشى ومعه الله؟

أيها الأسد، هل أنت بجملتك إلا في طبيعةِ مخلبك وأنيابك...؟

٤١ حركة الإسلام في أوربا[١] للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

الإسلام روح تجري، ونفحة تسري، وحقيقة ليس بين العقول وبين قبولها إلاَّ مواجهتها لها، وليس بين النفوس وبين الإذعان لها إلاَّ إشراقها[٢] عليها من مجاليها الأولى، لذلك نراه في جميع مراحل التاريخ يقطع الفيافي بلا دليل، ويقطع البحار بلا هاد، ويغزو مجاهل إفريقيا في الوسط والجنوب، ومنتبذات آسيا في الوسط والشرق، ثم يدخل شرق أوروبا مع الفتوحات العثمانية، كما دخل غربها في القديم مع الفتوحات الأموية، وكما دخل جنوبها مع الفتوحات القيروانية، وهو في كل ذلك يقتحم الأذهان، من غير استئذان.

وليست تلك الفتوحات الحربية هي التي غرسته أو مكّنت له؛ لأنَّ الفتح في الإسلام لم يكن في يوم ما إكراهاً على الدين؛ **وإنما مكنت للإسلام طبيعته**، ويسره، ولطف مدخله على النفوس، وملاءمته للفطر، والأذواق، والعقول.

ولو بقي الإسلام على روحانيته القويّة، ونورانيته المشرقة، ولو لم يفسده أهله بما أدخلوه عليه من بدع، وشانوه به من ضلال ـ لطبق الخافقين، ولجمع أبناءه على القوة والعزّة والسيادة حتى يملكوا به الكون كله.

ولكنهم أفسدوه واختلفوا فيه، وفرّقوه شيعاً ومذاهب؛ فضعف تأثرهم به،

---

(١) صحيفة البصائر التي كان يصدرها الشيخ، العدد ١٤٧، السنة الرابعة من السلسلة الثانية(١٩/مارس ١٩٥١م)، وانظر آثار الإمام البشير (٢/٣٨٥ـ٣٨٦).

(٢) لعلها: إشرافها، كما في الطبعة الأولى للآثار(م).

فضعف تأثيره فيهم، فصاروا إلى ما نرى ونسمع.

لا يعود المسلم إلى العزة والسيادة حتى يغيّر ما به، فيرجع إلى حقائق القرآن يستلهمها الرشد، ويستمد منها تشديد العزيمة، وتسديد الرأي، وإصابة الصواب ومتانة الأخلاق، فيأخذ دينه بقوة تهديه إلى أن يأخذ دنياه بقوة، ويقوده كل ذلك إلى أخذ السعادة بأسبابها.

ولو كان المسلم مسلماً حقّاً لعرف نفسه، ولو عرف نفسه لعرف أخاه، ولو عرف أخاه لكان قويّاً به في المعنى، كثيراً به في المادة.

ويوم نصل إلى هذه الدرجة نكون قد أعدنا تاريخ الإسلام من جديد، ونكون قد أضفنا إلى هذا العنصر المادي العصري الفوار عنصراً روحانياً فواراً يُلَطِّف من حدته، ويخفف من شدته، فيتكون منهما مزاج صالح يصلح عليه الكون كله، لا المسلمون وحدهم.

إنك لترى للمسلمين وجوداً في كل قطر، وتسمع عنهم نبأً في كل ناحية، ولكنهم متفرقون في زمن أصبح فيه التكتل شرطاً للحياة، ومتباعدون في وقت أصبح فيه التقارب أساساً للقوة، ومتناكرون في عصر أصبح فيه التعارف أقوى وسائل التعاون، ومنصرفون عن الجامعة الإسلامية الواسعة إلى جوامع أخرى ضيقة الآفاق من جنسية وإقليميه في هذا الزمن الذي يتداعى فيه أتباع الأديان القديمة، ومعتنقو النحل الحديثة إلى التجمع حول المبادئ الروحية أو الفكرية.

وهناك في الأقاصي من شمالي أوروبا طوائف من إخواننا المسلمين المنحدرين من السلائل التركية والصقلبية التي امتزجت في شبه جزيرة البلقان، ثم مدت

مدها إلى النمسا وهنغاريا، ثم نزحت منها مجاميع إلى الشمال، فكان من بقاياها هذه المجموعة المتوطنة في «فنلندا».

ولا نشك في أن إخواننا هؤلاء قد اصطبغوا بصبغة ذلك الوطن في حياتهم الدنيوية وطرق معايشهم، ولا نشك أنهم أخذوا فيها بنظام العصر وقوته وجده، ولكنهم في حياتهم الدينية مستضعفون محتاجون إلى إمداد من إخوانهم المسلمين في جميع الأقطار، تُقَوِّي ضعفهم المادي، وتكمل نقصهم العلمي، وتشعرهم بالعزة والكرامة، وترفع رؤوسهم بين مواطنيهم.

٤٢ داء المسلمين ودواؤهم[١] للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

الباحث في أحوال المسلمين بحث تَقَصٍّ واستقراء رجل من اثنين: رجل من أنفسهم ورجل من غيرهم، وكلا الرجلين يجتمع بصاحبه في نقطة تبعث الحيرة وهي: كيف يسقط المسلمون هذا السقوط المريع وفيهم كل أسباب الصعود وبين أيديهم كل ما ارتقى به أسلافهم، فأصول الدين من كتاب وسنة محفوظة لم يَضِعْ منها شيء، وأسباب التاريخ واصلة لم ينقطع منها شيء، واللغة إن لم ترتق لم تنحدر، والعرب الذين هم جذْمُ[٢] الإسلام ما زالوا يحتفظون بكثير من الخصائص الجنسية ومعظمها من المكارم والفضائل، والأرحام العربية ما زالت تجد من بين العرب من يَبُلُّها بِبَلالها، فلم تجفُ الجفاء كله، وإن لم توصل الوصل كله، والتجاوب الروحاني الذي تردِّد صداه كلمة الشهادة في نفوس المسلمين وكلمة التلبية في جنبات عرفات لم يتلاشَ تماماً، والأرحام المتشابكة بين المسلمين لم تجف الجفاف الذي يقطع الصلة، ومن السنن الكونية المقرَّرة في سقوط الأمم وعدم امتداد العزة والرقي فيها أن ينسى آخرها مآثر أوَّلها فينقطع التيَّار الدافع فيتعطل التقدم.

والمسلمون لم ينسوا مآثر سلفهم، بل هي بينهم مدوَّنة محفوظة مقطوع بها

---

(١) مجلة (المسلمون) السنة الثالثة، العدد٩، ذو القعدة ١٣٧٣ هـ، وانظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

(٢) جذم: يعني أصل.

بالتواتر، بل هم أكثر الأمم احتفاظاً بمآثر السلف وتدويناً لها، ولا يعرف بين أمم الأرض أمة كتب علماؤها فيما يسمونه الطبقات والسير مثل ما كتب المسلمون في ذلك.

والباحث الأجنبي معذور إذا تحير، وقد يخفف عنه ألم الحيرة ابتهاجه بهذا السقوط، وإن بحثه عن الداء ليس بقصد الدواء، فقد عودنا كثير من هؤلاء الباحثين الأجانب أنهم لا يبحثون لذات البحث، ولا يدرسون هذه المواضيع لوجه التاريخ الخالص، فضلاً عن أن نجد عندهم ما يطلب من العالم المخلص، وهو أن يرمي ببحثه وبإعلان نتائج بحثه إلى تنبيه الضال؛ ليهتدي، والمريض؛ ليسعى في الاستشفاء، والساقط؛ ليأخذ بأسباب الصعود والنهوض، وإفهامه أن الأيام دول، وأن من سار على الدرب وصل، بل نرى أكثرهم يتعمَّد إضلالنا في تعليل الأشياء؛ كي لا يقف المريض على حقيقة دائه فيغفل مغتراً، أو يعالج داءه بداء أضر، أو يضع الدواء في غير موضعه، وقد نرى منهم من ينتهي من بحثه بنتيجة وهو أن سبب انحطاط المسلمين هو الإسلام نفسه، وإنَّ من يستطب لدائه بإشارة عدوه لحقيق بأن يسمع مثل هذه النصيحة.

أما الباحثون في أحوال المسلمين من المسلمين فهم ينقسمون إلى فريقين ـ بعد اتفاقهم على أن الجسم الإسلامي مريض وأن مرضه عضال ـ **فريقٍ منهم هُدِيَ إلى الحق** فعرف أن الجسم الإسلامي لا مطمع في شفائه إلاَّ إذا عولج بالأشفية القديمة التي صحَّ بها جسم سلفه، وغذي بالأغذية الصالحة التي قوي عليها سلفه؛ وذلك أنه أقام الدين؛ فاستقامت له الدنيا، وانقاد إلى الله؛ فانقاد له عباد

الله، وأخذ كتاب الله بقوة؛ فمشى على نوره إلى السعادة في الدارين، وأرشده إلى أنَّ سعادة الدنيا عزٌّ وسلطان، وعدلٌ وإحسان، وأنَّ سعادة الآخرة حياة لا نصب فيها ولا نهاية، واطمئنان لا خوف معه ولا كدر في أثنائه، ورضوان من الله أكبر.

وفريق منهم ضلَّ عن الحق في الدواء؛ لأنه ضلَّ قبل ذلك في تشخيص الداء، وضلَّ من قبل ذلك في طريقة البحث، فتلقَّاها من أعداء الإسلام زائغة ملتوية، وضلَّ من قِبَل أولئك في أسلوب التفكير، فهو يفكر بعقل ملتاث بلوثات هذه الحضارة الخاطئة الكاذبة المستمدة من أصول الاستعمار الذي يسقي الأقربين ما يرويهم، ويغذي الأبعدين بما يرديهم، ثم يجتثهم من أصولهم، ولا يلحقهم بأصوله، ويتركهم متعلقين بأسباب هذه الحضارة مفتونين بها، مهجورين منها، وقل ما شئت في العاشق المهجور، الذي لا يملك من أسباب الحب إلاَّ القشور، ولا يملك من أسباب الوصل شيئاً.

وقد علمنا من سنن الحب أنَّ أعلاه ما كانت معه كبرياء تزع، واعتداد بالنفس يأخذ ويدع، وقوتان إحداهما تدلل، والأخرى تذلل.

أمَّا هؤلاء العشاق المتيَّمون بحضارة أوربا وعلومها وتهاويلها فقد فقدوا الشخصية التي تحفظ التوازن في ميدان العشق، وتحفظ لصاحبها خط الرجوع.

هذا الفريق المزوَّر على الإسلام، الذي لا صلة له به إلا بما لا كسب له فيه كاسمه ولقبه ـ يرى أنه لا نجاة للمسلمين إلا بالانسلاخ عن ماضيهم ودينهم، والانغماس في الحضارة الغربية ومقتضياتها من غير قيد ولا تَحَفُّظ، وهو يعمل لهذا جاهداً، يُسِرُّهُ المُسِرُّ كيداً، ويعلنه المعلن وقاحة، وإنك لتعرف ذلك منهم في

لحن القول، وفي مظاهر العمل، وفي إدارة الكلام على أنحاء معينة، وفي البداوات الخاصة، وفي اللفتات العامة، حتى لتعرفه في أسباب معيشتهم الشخصية، ولكنهم يتناقضون ويتهافتون، فيبتدئون من حيث انتهى سادتهم؛ فسادتهم يرون أن اللعب إنما يحلو بعد الجد، وأنَّ القشور إنما يلتفت إليها بعد تحصيل اللباب، وأنَّ الكماليات تأتي بعد الضروريات، وأنَّ الوقت رأس مال لا يجوز تبديده في غير نفع.

ولكن هذه الطائفة منَّا تفعل عكس ذلك كله وتختصر الطريق إلى اللهو؛ لأنه يروي شهواتها، وإلى الكماليات والمظاهر؛ لأن لها بريقاً هو حظ العين وإن لم يكن للعقل منه شيء، وأن عصارة رأيهم في علاج حالة المسلمين تترجم بجملة واحدة، هي: أن النجاة في الغرق.

هؤلاء الدارسون لعلل المسلمين منهم هم علة علل المسلمين، وهو أنكى فيهم من المستعمرين الحقيقيين، فلقد كان دهاة الاستعمار في القرن الماضي يباشرون الشعوب الإسلامية كفاحاً ووجهاً لوجه، صراعاً في الحرب، وحكماً في السلم، فيمارسون منها خصماً شديد المراس، قوي الأسر، متين الأخلاق؛ فلم ينالوا منها إلا ما تناله القوة من الضعف، وهو محصور في التسلط على الماديات، أمَّا القلوب والعقول والعقائد والاعتزاز بالقوى والخصائص فلم تستطع أن تخضعها، ولم يستطع سلطانهم أن يمتدّ إليها، وهي عناصر المقاومة، المدَّخرة ليوم المقاومة، ولن تجد فيما ترى وما تقرأ أمة قاومت الغاصب فدحرته ولو بعد حين إلاَّ لأنَّ هذه العناصر بقيت فيها سليمة قوية، وبقيت هي عليها

محافظة.

ولكن أولئك الدهاة أتونا من جهات أخرى فهادنونا على دخن، وحبَّبوا إلينا مدنيتهم من جهاتها القوية، ثم أعشونا ببريقها، وابتلونا بما يلائم النفوس الضعيفة الحيوانية من شهواتها، وقالوا: إنَّ وراء هذه المدنية علماً هو أساسها، وإن وراء العلم ما وراءه من سعادة، وفتحوا لناشئتنا أبواباً أمامية يدخلون منها، وأبواباً خلفية يخرجون منها إلى عالم غير عالمهم الأصلي، وجاءت البلايا تزحف، فنقلتها تلك الناشئة تجري ركضاً، ودعت الكأس الأولى إلى ما بعدها، وأصبحنا نتنافس في تقديم هذا القربان من ناشئتنا للاستعمار، وما زدنا بسفهنا على أن جهزنا له جيشاً من أبنائنا يقتل فيه خصائصنا وروحانيتنا، ليقاتلنا به، وليوليه ما عجز عنه لصعوبة مراسنا وشدة احتراسنا، وليرجع إلى أهليه مملوء النفس باحترام أستاذه، مصمم العزم على التمكين له، وقد كنا لا نحترمه ولا نصادقه، ولا نصافيه، ولا ندمث له موضع الإقامة.

ما هو موقع الغلط في أبنائنا؟ إنهم بتعلمهم في الغرب بلغة الغرب، وبلباسهم لباس الغرب، وانتحالهم رسومه في الأكل والشرب، ظنوا أنهم أصبحوا كالغربيين؛ فانسلخوا في مظاهرهم ومخابرهم عن خصائصهم الأصلية الموروثة، فخسروها ولم يربحوا شيئاً، إذ لم يقع في تقديرهم أن جُلَّ الأحوال التي قلدوا فيها الأوربي هي ألوان إضافية اصطبغ بها بعد أن استكمل وسائل عزه وقوته، فلا تحسن في العين، ولا ترجح في الوزن إلاَّ ممن وصل إلى درجته، وقطع المراحل التي قطعها في الحياة، وأنهم ظنوا غلطاً في الفهم أنَّ هذه الحضارة غربية،

وأخطأوا؛ فإن الحضارات ليست شرقية ولا غربية، وإنما هي تراث إنساني متداول بين الأمم تتعاقب عليه فيزيد فيه بعضها، وينقص منه بعضها، ويبتكر بعضها بعض الفروع فينسب إليه، ويلونها بعضهم بألوان ثابتة، فتبقى شاهدة له حتى تضمحل.

إنَّ جُلَّ أبنائنا الذين التقطتهم أوربا لتعلّمهم عكسوا آية فرعون مع موسى؛ ففرعون التقط موسى؛ لينفعه، ويتخذه ولداً، وربَّاه صغيراً وأحسن إليه، فكان موسى له عدُّواً وحَزَنَاً وسخنة عين.

أمَّا أبناؤنا فقد التقطتهم أوربا وعلمتهم وربتهم فكانوا عدواً لدينهم، وحزناً لأهله، وسخنة عين لأهليهم وأوطانهم، إلا قليلاً منهم دخل النار فما احترق، وغشي اللج فأمن الغرق.

والسبب في هذا البلاء هو استعداد فينا كاستعداد المريض للموت، وشعور بالنقص في أنفسنا؛ لبعد عهدنا بالعزة والكرامة، ولموت أشياء فينا تصاحب موتها في العادة يقظة أشياء؛ فَفَقْدُ الإحساس بالواجب تصحبه يقظة الشهوات الجسدية، وقوة الإحساس بالواجب هي التي أمْلَتْ على بعض خلفائنا أن يعتزل النساء كلما هم بالغزو[1]، وهي التي حملت كثيراً من قضاة سلفنا على أن يقمعوا شهواتهم الجسدية بالحلال قبل أن يجلسوا للخصوم في مجالس الحكم.

---

(١) كما في قصة عبدالملك بن مروان مع إحدى جواريه عندما وقفت له بالباب لما أراد الغزو؛ فأعرض عنها وتذكر قول جرير:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم عن النساء ولو باتت بأطهار (م)

وموت النخوة تصحبه سرعة التقليد، وعادة الخضوع للغالب وسرعة التحلل والذوبان.

إنَّ الغرب لا يعطينا إلاَّ جزءاً مما يأخذ منَّا، ولا يعطينا إلاَّ ما يعود علينا بالوبال، وقد أَعَنَّاه على أنفسنا، فأصبح المهاجر منَّا إلى العلم يذهب بعقله الشرقي فينبذه هناك كأنه عقال على رأسه لا عقل في دماغه، ثم يأتينا يوم يأتي بعقل غربي، ومنهم من يأتي بعقل غربي، ومعه امرأة تحرسه أن يزيغ.

٤٣ حالة المسلمين[١] بقلم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

تتردّدُ على أقلام الكُتَّاب العرب، وعلى ألسنة خطبائهم منذ عهد قريب كلمات: **الوعي**، **اليقظة**، **النهضة**، منسوبة إلى الإسلام، أو مضافة إلى المسلمين، والكلمة الأولى منهن حديثة الاستعمال في المعنى الاصطلاحي المراد منها وإن كانت عريقة النسبة في معناها الوضعي، والوعي في معناه الاجتماعي الذي يعنيه هؤلاء الكُتَّاب والخطباء إدراك بعد جهل، واليقظة في قصدهم تنبُّه بعد غفلة، والنهضة معناها حركة بعد ركود.

فهل هذه الأقلام والألسنة متهافتة على هذه الكلمات تصف حقيقة، أم تصور خيالاً؟ فإن الصفات لا تتحقق إلا بظهور آثارها في الخارج، وبشهادة الواقع الذي لا يمارى فيه لها، والوعي الحقيقي يصحبه رعي، ويعقبه سعي، واليقظة الحقيقية يصحبها علم لا هوينا فيه، ويتبعها عمل لا تردد فيه.

والنهضة الحقيقة يَصْحَبُها حزم لا هوينا فيه، ويتبعها عزم، ويسوقها إقدام لا إحجام فيه إلى غاية لا اشتباه فيها.

وهل هذه الآثار وهذه الدوال موجودة حقيقة في المجتمعات الإسلامية؟

لا نثبت، فنكون متفائلين في موضوع لا ينفع فيه التفاؤل، ولا ننكر؛ فنكون مثبطين في مقام ينفر فيه التثبيط، إنما نقول ـ مقرِّرين للواقع إن شاء الله ـ.

إنَّ المعاني الحقيقية للألفاظ الثلاثة لا تظهر إلا إذا سبقتها إرهاصات، أو

---

(١) مجلة الأخوة الإسلامية العدد السابع عشر بغداد شوال ١٣٧٢هـ.

أمارات، كما يسبق الفجر طلوع الشمس، وأدلُّها تقارب القلوب، وتعارف الشخوص، أو تجاوب الشعور، وتجانس الأفكار، وتعاطف الأرواح، وتهيؤ الطباع إلى الاستحالة من صبغة إلى صبغة، وإلى الانسلاخ من جلدة إلى جلدة، وصدق التوجيهات من النتائج إلى المقدمات، ومن الوسائل إلى الغايات، وسهولة التغلب على المضائق، وسرعة الاستجابة إلى داعي الحق إذا دُعِيَ إليه، وخفَّة الإقدام إلى الأمام، وتلمس القيادة الرشيدة، والشعور بالحاجة إلى توحيدها، وغير ذلك من العوارض التي تظهر لمثل هذه الأطوار من حياة الأمم، وهل هذه الإرهاصات موجودة؟

نعم يوجد بعضها القليل، ولكن آفته الكبرى أنه مُتّجه إلى غير القبلة المشروعة، وإن الرياح تسوق سحبه إلى غير أرضنا.

لِنَخْرُجْ من النفاق الغرَّار الخادع إلى الصدق والصراحة فنقولَ: الموجود من تلك الأشياء الثلاثة هو الأسماء مفسَّرة في الغالب بغير معانيها، مصوَّرة بغير صورها الحقيقية.

وإذا فسد التصور فسد التصوير؛ لأننا ما زلنا نبني تصوراتها على أُسس من الأماني، ونزجُّها بالفأل ومعاني الفأل، فلا تنتهي بنا إلى الأعمال، وإنما تنتهي إلى الخيال ثم إلى الخبال، وما زلنا على بقية من الافتتان بالتفسيرات القاموسية التي تقول لنا مثلاً: إنَّ اليقظة التي هي الصحو من النوم، ولو أن نائماً صحا من نومه صحواً كاملاً ولم يبق في أجفانه فتور ولا ترفيف، ولكنه بقي في مضجعه لم يعمل عملاً ولم يأت شيئاً من مستلزمات الصحو، ونواقض النوم ـ لكان هذا

كافياً في تحقيق المعنى القاموسي، ولكنه لا يفيد المعنى الاجتماعي بل يُعَدُّ كما لو كان يغط في نومه، وكذلك تقول في معنى اليقظة ومعنى النهضة.

تصحيح معاني هذه الكلمات يستلزم إصلاحاً شاملاً للمفاسد النفسية، ويتغلغل إلى مكامن الأمراض فيها، فيطهرها؛ ليبني العلاج على أصل صحيح وإلى عروق الشرِّ منها فيمتلخها، ليأْمَنَ النكسة.

ومردُّ ذلك كله إلى الأخلاق؛ فهي أول ما فسد بيننا؛ فتكون أول ما أفسد علينا كل شيء.

فلتكن هي أولَ ما نُصْلِح إنْ كُنَّا جادِّين في تثبيت الوعي، واليقظة، والنهضة؛ لأن الأخلاق إذا استقامت تفتحت البصائر للوعي، وتهيأت الشواعر لليقظة، وانبعثت القوى للنهضة، فكان الوعي بصيراً، وكانت اليقظة عامّة وكانت النهضة شاملة، وكانت الحياة لذلك كله كاملة.

نعترف أن نومنا كان ثقيلاً، وبأنَّ عمر أمراضنا كان طويلاً.

نعرف أنَّ النوم الثقيل لا يصحو صاحبه لا بصوت يصخّ، أو بضرب يصكّ، وأنَّ المرض الطويل لا يشفى المبتلى به إلاَّ بتدبير حكيم قد يفضي إلى البتر أو القطع، وقد أصابنا من القوارع ما لو أصاب أهل الكهف لأبطل المعجزة في قصتهم، ولما كانوا به مثلاً في الآخرين.

ولكننا لم نصحُ من نوم إلاَّ لنستغرق في نوم، ولم ننفلت من قبضة مُنَوِّم إلا لنقع في قبضة مُنَوِّم.

صَحَوْنا من نوم الاتكال، فنقلنا إلى نوم التواكل، وخرجنا من نوم الجهل

ومن نوم الركود إلى طفرة تدقُّ الأعناق، وانفلتنا من تنويم تُجَّار الدين فوقعنا في تَنْوِيم تجار السياسة.

أولئك يمنوننا بسعادة الآخرة من دون أن يسلكوا بنا سبيلها الواضحة، وهؤلاء أصبحوا يُغَنُّون لنا بسعادة الدنيا دون أن يدلونا على نهجها الصحيح، وكانت العاقبة لذلك كله ما نرى وما نحس وما نشكو.

وما أضلنا إلا المجرمون الذين يدعونا بعضهم إلى الجمع بوسيلة التفريق، ويدعونا بعضهم إلى النجاة بطريقة التغريق، والأولون هم رجال الدين الضالون الذين فرَّقوه إلى مذاهب وطوائف، والآخرون رجال السياسة الغاشون الذين بَدَّلوا المشرب الواحد، فجعلوه مشارب.

فهل هَبَّة من روح الإسلام على أرواح المسلمين تذهب بهؤلاء وهؤلاء إلى حيث ألقت[1]، وتجمع قلوبهم على عقيدة الحق الواحدة، وألسنتهم على كلمة الحق الجامعة، وأيديهم على بناء حصن الحق على الأُسس التي وضعها محمد ﷺ.

ولا مَطْمَع لنا في الوصول إلى هذه الغاية إلاَّ إذا أصبح المسلم يلتفت إلى جهاته الأربع فلا يرى إلا أخاً يشارك في الآلام والآمال، فهو حقيق أن يشاركه في العمل.

إنَّ الوسائل إلى هذه الغاية كثيرة، وأقربْها نفعاً، وأجداها أثراً أنْ تُربَّى الأحداث من الصبا على غير ما ربَّانا آباؤنا، وأن نحجب عليهم نقائصنا، فإن

(١) هذا اقتباس من قول زهير: إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم (م).

اطلعوا عليها سميناها باسمها، وأنها نقائص، وأنها سبب هلاكنا، وحذرناهم من التقليد لنا فيها، فإذا شبُّوا على هذه الهداية سلكنا بهم سبيل الحق الواحدة ووجهناهم بتلك القابلية إلى وجهة واحدة، وحميناهم من هذه التيارات الفكرية التي تتجاذبهم، ومن الذئاب الغربية التي تتخطفهم.

إنَّ شبابنا اليوم يتخبّط في ظلمات من الأفكار المتضاربة، والسبل المضلة، تتنازعه الدعايات المختلفة التي يقرأها في الجريدة والكتاب، ويسمعها في الشارع وفي المدرسة، ويرى مظاهرها في البيت وفي المسجد، وكل داعٍ إلى ضلالة فكرية أو إلى نحلة دينية مفرِّقة يرفع صوته ويجهر، ويزين ويغري، ويعد ويمني، ونحن ساكتون، كأنَّ أمر هؤلاء الشبان لا يعنينا، وكأنَّهم ليسوا منَّا ولسنا منهم، ولا عاصم من تربية صالحة موحدة يعصمهم من التأثر بهذه الدعايات، ولا حامي من مذكر أو معلم أو مدرسة أو قانون يحميهم من الوقوع في هذه الأشراك.

إن شبابنا هم هدف هذه الدعايات وهم ميدان الصراع، وموضوع النزاع بين دعاة الفكرة الجامعة وصوتهم ضعيف وعملهم ضئيل، وبين دعاة الشيوعية والإلحاد والوطنيات الضيقة والعنصريات المحدودة وأصواتهم عالية، وأسنادهم قوية، ومحرِّكهم الأول واحد، وإن لم يشعروا به أو غالطوا أنفسهم وغالطونا فيه.

وما هم إلاَّ أسلحة في يده موجهة إلى شبابنا، إنْ لم يصب بواحد منها أصاب بالآخر، وهو الظافر على كل حال إن لم تعالجه بما يبطل كيده، ويفلُّ أسلحته كلها، وهو حماية هذا الشباب وتحصينه بالمعوذات من فضائل الإسلام وأخلاقه

وروحانيته، وإن فيه العوض المضاعف عن كل ما تمنيه به الدعايات الخارجية.

إذا كان الشباب لا يفهم الدين من البيت ولا من المسجد ولا من المدرسة ولا من المجتمعات، فإن فهم شيئاً منه في شيء منها فهمه خلافاً وشعوذة وتخريفاً - ففي أي موضوع يفهم الإسلام على حقيقته طهارة وسمواً واتحاداً وقوة وعزَّة وسيادة؟!

إنْ عاملناه بالإنصاف نقول له معذور إن زلَّ وضلَّ بالانسياق مع هذه التيارات الخاطئة التي تختلف بالأسماء والمبادئ، وتتفق في الغاية، وهي حرب الإسلام في أبنائه لتحاربه بعد ذلك بأبنائه.

وإذا كان الشاب يجلس إلى أبويه وذويه فلا يسمع إلا المذهب والخلاف، ولمز المخالفين بالمذهب قبل المخالفين بالدين، ثم يجلس إلى العالم الديني فلا يسمع إلا «عندنا وعندهم» ثم يجلس في المدرسة فلا يسمع ذكراً للإسلام، ولا تمجيداً لمبادئه وعظمائه وتاريخه، ولا يرى فيها شيئاً من مظاهره بل لا يسمع إلا تحقيراً لماضيه، وغضاً من أمجاده.

إذا كان لا يسمع في مضطربه إلاَّ هذا، ولا يرى إلاَّ هذا - فكيف نطمع أن ينتصر مع هذه الدعايات الجارفة؟ إننا حين نطمع في هذا لفي غيٍّ بعيد.

إن شبابنا؛ لجهلهم بالإسلام أصبحوا لا يثقون بماضيه؛ وكيف يثقون بماض مجهول وهذا حاضره؟ أم كيف يدافعون عن هذا الماضي المجهول إذا عرض لهم الطعن فيه في الكتاب الطاعن؟ أم سمعوا اللعن له من الأستاذ اللاعن؟ أم كيف يفخرون بالمجهول إذا جليت المفاخر الأجنبية في كتاب يقرره قانون، ويزكيه

أستاذ؟ اعذروا الشبان، ولا تبكوا على ضياعهم فأنتم الذين أضعتموهم، ولا تلوموهم ولوموا أنفسكم.

أهملتموهم فذوقوا وبال الإهمال، وأنزلتموهم إلى اللجة، وقلتم لهم: إياكم أن تغرقوا، ثم استرعيتم عليهم الذئاب، ومن استرعى الذئب ظلم.

لا أحمق منَّا: نُلَقِّن أبنائنا الخلاف في الدين والدنيا بأعمالنا، ونقول لهم بألسنتنا اتّحدوا، وإنَّ صالحةً يأخذها الابن عن أبيه بطريق القدوة خير من ألف نصيحة باللسان.

النهضات الصادقة تبدأ من الأخلاق وتنتهي إلى الأخلاق، وما زادت بحوث الفلسفة ماضيها وحاضرها في الأخلاق شيئاً على ما جاء به الإسلام، وأقرَّته الفطر السليمة، ويزيد الإسلام على هذه الفلسفات ويشقُّ بقوة العرض للفضيلة، والتشويق لها، وشرح آثارها في الفرد والجماعة، وبيان صلتها الوثيقة بالأقانيم الثلاثة: الحق، والخير، والجمال.

وإن شعراء العرب الفطريين لأَدَقُّ تصويراً للفضائل، وأصدق تعبيراً عليها، وتفسيراً لآثرها، وحثّاً على التحلي بها من جميع الفلاسفة النظريين، وقد أثرت الماديات في هذا العصر على عقول فلاسفته، ورانت عليها العصبيات الجنسية والإقليمية حتى انعكس نظرهم في فهم الفضيلة؛ فسموها بغير اسمها، فأصبحت القوة فضيلة يدعى إليها بدل الرحمة، والظلم فضيلة يُتَمَجَّد بها بدل العدل، والاستعباد فضيلة يتغنى بها بدل الحرية.

وكل هذا يدل على أن الفضيلة في نظر الفلسفة العملية الجديدة هي لباس

للعقل لا نبع منه، وأنها خاضعة للحكم لا للحكمة.

أمَّا الفضائل في نظر الإسلام وحكمه فإنها صبغة لا تتحول، وحقيقة لا تتغير ولا تتبدل؛ فالصدق في معناه الإسلامي هو الصدق لا تتصرف في معناه المصالح والمنافع، ولا تتلاعب به الأهواء والمطامع، والوفاء هو الوفاء، والعدل، والإحسان، والرفق، والعفو عند القادر، كل أولئك من الفضائل الثابتة ثبوت الحقائق لا تنال منها تصاريف الأيام، ولا يتصور أن يأتي على الناس يومٌ تُجْمِع فيه عقول العقلاء على أنَّ الصدق مثلاً رذيلة تَصِمُ صاحبها بالذم إلاَّ إذا جوزنا مجيء يوم يخرج فيه الكون من تدبير الله إلى تدبير الشيطان ويكون أفضل الذكر فيه أن يقال كلما ذكر الشيطان: رضي الله عنه.

فالموازين القرآنية للفضائل هي التي يجب أن تحكم في العقول حتى تأْمَنَ على الفضيلة ما يجري بيننا على «الأوراق النقدية».

ونحن أهل القرآن أحق الناس بالدعوة إلى هذا، وتبيّنه ونشره في هذا العالم المضطرب الذي فقد الفضائل الإنسانية؛ فانحدر إلى حيوانية عارمة توشك أنْ تفضي به إلى الفناء.

نحن أهل القرآن ـ الذي وضع الموازين القسط للفضائل، وحثَّ عليها وجعلها أساساً للسعادة، وسُلَّماً للسيادة ـ أولى الناس بأنْ نَزِنَ النهضات بحظوظها من الفضائل، وأن نبني بأيدينا أساس نهضتنا على صخرة الفضائل طبقاً عن طبق، ونحن ـ لو أجلنا بصائرنا في القرآن ـ أبعد الناس عن فساد التصور في تسمية هذه الحركات المتهافتة في المجتمعات الإسلامية نهضة.

٤٤ الشعور السياسي في الإسلام[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

بثَّ الإسلام في نفوس معتنقيه ديناً قيماً، وأدباً راقياً، وسَنَّ لهم قواعد ليقيموا عليها أحكام مدنيتهم، ويهتدوا بها في تدبير سياستهم، وبعد أن وقف ذوو البصائر منهم على كُنْه الروح الذي يتماسك به العمران، ولا ينهض شعب أو يملك حياة مستقلة إلاَّ إذا ضرب فيه بأشعته - شعروا بحق القيام على تدبير شؤونهم بأنفسهم، وأخذوا ينشرون تلك المبادئَ الشريفةَ، والتعاليم المحكمة بين أمم كانت تعثو في الأرض فساداً، وتخوض في الباطل خوضاً إلى أنْ كان ما أدهش العقول عن فتوحات نسخت ليل الجهالة، وجعلت آية العلم الصحيح مُبْصَرَة.

كان الشعور السياسي منبثاً في نفوس الأمة قاطبة، حتى إذا نهض الرئيس الأعلى لقتال يحمي ذمارهم، أو عمل يرفع شأنهم خَفُّوا إلى دعوته، وأسلموا أنفسهم وأموالهم إلى رأيه وتدبيره.

ما هي العوامل التي أحيت ذلك الشعور، وجعلته يتألق بين جوانحهم تألق القمر في سماء صاحية، فأَكْبَر هممهم، وشَدَّ عزائمهم، حتى تراءى لهم الجبل ذرة، واستهانوا بالموت الذي - كما قال بعض الحكماء - لا مرارة إلاَّ في الخوف منه؟.

---

(١) مجلة الفجر، المجلد الثاني من السنة الثانية الصادر في شهري صفر وربيع الأول سنة ١٣٤٠هـ تونس.

أحيا ذلك الشعور تلقيهم للكتاب الحكيم عن تدبر وإنعام في مراميه الاجتماعية والسياسية.

ومما يبعثهم على تجريد النظر لاجتلاء حقائقه، والكشف عن مقاصده أنه القانون الأساسي الذي لا تخضع الأمة إلاَّ لسلطانه؛ فكان العلماء ـ وهم بمنزلة نواب الأمة ـ يرقبون سير الهيئة الحاكمة، وما عليهم سوى أن يزنوا أعمالها بذلك الميزان السماوي، فيصفوها للناس بأنها جادة أو هازلة.

فالشعور السياسي نورٌ يسطع في الشعوب على قدر ما ينتشر بينها من معرفة حقوقها، والطرق الكافلة لحفظ مصالحها.

ولقد كنَّا نتلقى عن تجربة أن السلطة القابضة على زمام شعب يسوء أن يتنبه لحياته الشريفة، وينهض للمطالبة بحقوقه العالية تَصْرِفُ دهاءها إلى منابع التعليم، فتسد مسالكه، فإن لم تستطع ضَيَّقت مجاريَه، أو خلطته بعناصر تفتك بالإحساسات السامية، وتقلب النفوس التي فطرها الله على الحرية إلى طاعة عمياء.

أحيا ذلك الشعور أنَّ الله قَيَّض لهم رؤساء ما كانوا ليعدوا أنفسهم سوى أنهم أفراد من الشعب يقومون بتدبير جانب من مصالحه، فطرحوا التعاظم جانباً، وجلسوا لذوي الحاجات على بساط المساواة.

وكذلك قلوب الرعية إنما تنجذب إلى رجال الدولة، وتلتف حولهم بعاطفة خالصة، على قدر ما يبعدون عن مظاهر الأُبَهَةِ، ويخففون من شعار العظمة.

أرسل سعد بن أبي وقاص المغيرة بن شعبة إلى رستم القائد الفارسي، فأقبل

إليه حتى جلس معه على سريره، فوثب عليه أتباع رستم وأنزلوه، فقال المغيرة بصوت جهير: «إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً، فظننت أنكم تتواسون كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، اليوم علمت أنكم مغلوبون، وإن مُلْكاً لا يقوم على هذه السيرة، ولا على هذه العقول».

أراد المغيرة أن يبثَّ في الجنود الفارسية النُفْرَة من قائدها، حتى ترتخي عزائمهم عن نجدته، فما كان إلاَّ أن أيقظهم لما خص به ذلك القائد نفسه من الميزة والاعتلاء بغير حق، وأَومَأَ إلى أن الإسلام قرر قاعدة المساواة على وجهها الصحيح، فلا فضل لرئيس على أدنى السوقة إلا بتقوى الله.

وقد نجح دهاؤه ونفذت فيهم مقالته، حتى صاحت طائفة منهم قائلة: «صدق والله العربي فيما قال».

ومن مثل هذا القصة، نَفْقَهُ أن سقوط تلك الممالك تحت رايتهم لم يكن نتيجة البسالة والسيف وحدهما، بل كان الأثر الأعظم للدهاء في السياسة.

أحيا ذلك الشعور أن رأوا باب الحرية مفتوحاً على مصراعيه، ولم يجدوا دون مناقشة أولي الأمر حاجباً، فكان اطمئنانهم في سيرهم ووثوقهم بسلامة مستقبلهم مما يذكرهم بالسكينة، ويعظهم بأن يكونوا كالكنانة بين يدي أميرهم العادل، يرمي بعيدانها الصلبة في وجه من يشاء.

ومن ألقى نظرة في التاريخ الإسلامي عرف أن الرجال الذين أسسوا ملكاً لا سلف لهم به كعبد الرحمن الداخل، أو جددوا نظامه بعد أن تقطعت أوصاله

كعبد الرحمن الناصر ـ إنما استقام الأمر بما كانوا ينحونه في سياستهم من العدل في القضية، وتَلَقِّي الدعوى إلى الإصلاح بإذن صاغية، وصدر رحيب.

ماذا يخيل إليك من حال الأمة لعهد المنصور بن أبي عامر حين تقرأ في تاريخ دولته أن أحد العامة رفع إليه الشكوى بأحد رجال حاشيته فالتفت إليه، وكان ممن انتظم بهم عقد مجلسه، وقال له: انزل صاغراً، وساوِ خصمك في مقامه، حتى يرفعك الحق أو يضعك، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به: خذ بيد هذا الظالم، وقدِّمه مع خصمه إلى صاحب المظالم؛ لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره.

وإن الذي يتحلى بمزية إنصاف الضعيف من القوي، وتتمتع رعيته بمثل هذا العدل ـ لجدير بأن يبلغ من العز الشامخ والتأييد الراسخ حيث جذب عنان الملك من يد هشام بن الحكم، واستقل بالأمر، وغزا ستاً وخمسين غزوة، دون أن تنتكس له راية، أو يتخاذل له جيش.

ذاق المسلمون طعمَ سياسةٍ أعدلَ من القسطاس المستقيم، وعرفوا أن الدولة التي لا تقوم على قواعد المساواة، والشورى، وحرية التصريح بالرأي ـ ليست هي الدولةَ التي أذنت لهم شريعتهم بأن يلقوا إليها أمرهم عن طاعة وإخلاص، والحركات التي قلبت الدول رأساً على عقب كنهضة أبي مسلم الخرساني في الشرق، والمهدي بن تومرت في الغرب إنما نجحت وكان لها ذلك الأثر الخطير؛ لأنها تقوم بجانب دولة نامت عينها عن الحقوق الموكلة إلى رعايتها، وهامت بها الأهواء في أودية السَرَف والتفنن في الملاذ، حتى سَئِمَ الناس تكاليفها، ومالأوا

الثائرين على إبادتها.

ولكن الفتن التي ترفع رأسها في مثل إمارة عمر بن عبد العزيز، أو صلاح الدين الأيوبي، أو عبد المؤمن بن علي لا تلبث أن تتضاءل وتنطفئ، كما تنطفئ الذُّبالة إذا نفد الزيت من السراج، وما ذاك إلاّ أن العدل متماسك العُرَى، وجمال الشَرْعِ يلوح في مُحَيَّا الدولة؛ فلا تجد نار الفتنة من القلوب النافرة ما يذهب بلهبها يميناً ويساراً.

فالإحساس السياسي الذي يربيه الإسلام في نفوس من يتقلدونه، إنما يرمي بأشعته إلى مبادئ مقدسة، وغايات شريفة، فإذا ربطوا قلوبهم باحترام أمير أو وزير أو زعيم، وبسطوا أيديهم إلى مؤازرته؛ فلأنه يرعى مبادءهم، ويولي وجهه شطر غاياتهم.

تاسعاً: مقالات في الإصلاح والدعوة إلى الله

٤٥ الدعوة[1] للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

ما من قائم يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعياً إلى ترك ضلالة من الضلالات، أو بدعة من البدع، إلا وقد آذن نفسه بحرب لا تخمد نارها، ولا يخبو أوارها حتى تهلك، أو يهلك دونها.

ليس موقف الجندي في معترك الحرب بأحرج من موقف المرشد في معترك الدعوة، وليس سلب الأجسام أرواحها بأقرب منالاً من سلب النفوس غرائزها.

ولا يَضَنُّ[2] الإنسان بشيء مما تملك يمينه ضَنَّه بما تنطوي عليه جوانحه من المعتقدات، وإنه ليبذل دمه صيانة لعقيدته، ولا يبذل عقيدته صيانة لدمه، وما سالت الدماء، ولا تمزقت الأشلاء في موقف الحروب البشرية من عهد آدم إلى اليوم إلا حماية للمذاهب، وذوداً عن العقائد.

لذلك كان الدعاة في كل أمة أعداءها وخصومها؛ لأنهم يحاولون أن يرزؤوها في ذخائر نفوسها، ويفجعونها في أعلاق قلوبها.

الدعاة أحوج الناس إلى عزائم ثابتة، وقلوب صابرة على احتمال المصائب والمحن التي يلاقونها في سبيل الدعوة، حتى يبلغوا الغاية التي يرونها، أو يموتوا في طريقها.

الدعاة الصادقون لا يبالون أن يسميهم الناس خونة، أو جهلة، أو زنادقة، أو

---

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة الموضوعة ص٢٩٥ ـ ٢٩٩.

(٢) يضن: يبخل.

ملحدين، أو ضالين، أو كافرين؛ لأن ذلك ما لا بدَّ أن يكون.

الدعاة الصادقون يعلمون أن محمداً ﷺ عاش بين أعدائه ساحراً كذاباً، ومات سيد المرسلين، وأن الإمام الغزالي عاش بالكفر والإلحاد ومات حجة الإسلام، وابن رشد عاش ذليلاً مهاناً حتى كان الناس يبصقون عليه إذا رأوه، ومات فيلسوف الشرق؛ فهم يحبون أن يكونوا أمثال هؤلاء العظماء أحياءً وأمواتاً.

سيقول كثير من الناس: وما يغني الداعي دعاؤه في أمة لا تحسن به ظناً، ولا تسمع له قولاً؛ إنه يضر نفسه من حيث لا ينفع أمته، فيكون أجهل الناس وأحمق الناس.

هذا ما يوسوس به الشيطان للعاجزين الجاهلين، وهذا الداء الذي ألمَّ بنفوس كثير من العلماء؛ فأمسك ألسنتهم عن قول الحق، وحبس نفوسهم عن الانطلاق في سبيل الهداية والإرشاد، فأصبحوا لا عمل لهم إلا أن يكرروا للناس ما يعلمون، ويعيدوا عليهم ما يحفظون، فجمدت الأذهان، وتبلدت المدارك، وأصبحت العقول في سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس، ولا ينفذ إليه الهواء.

الجهل غشاء سميك يَغْشى العقل، والعلم نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويداً رويداً؛ فلا يزال العقل يتألم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها، حتى إذا أتت عليه انكشف له الغطاء؛ فرأى النار نوراً، والألم لذة وسروراً.

لا يستطيع الباطل أن يصرع الحق في ميدان؛ لأن الحق وجود، والباطل عدم، إنما يصرعه جهل العلماء بقوته، ويأسهم من غلبته، وإغفالهم النداء به، والدعاء إليه.

محال أن يهدم بناء الباطل فرد واحد في عصر واحد، وإنما يهدمه أفراد متعددون؛ في عصور متعددة، فيهزه الأول هزة تباعد ما بين أحجاره، ثم ينقض الثاني منه حجراً، والثالث آخر، وهكذا حتى لا يبقى منه حجراً على حجر.

الجهلاء مرضى، والعلماء أطباء، ولا يجمل بالطبيب أن يحجم عن العمل الجراحي؛ فراراً من إزعاج المريض، أو خوفاً من صياحه وعويله، أو اتقاءاً لسبه وشتمه؛ فإنه سيكون غداً أصدق أصدقائه، وأحب الناس إليه.

وبعد: فقليل أن يكون الداعي في الأمة الجاهلة حبيباً إليها، وقليل أن ينال حظه من إكرامها وإجلالها إلا بعد أن تتجرع مرارة الدواء، ثم تشعر بحلاوة الشفاء.

الدعاة في هذه الأمة كثيرون ملء الفضاء، وكظة[1] الأرض والسماء، ولكن لا يكاد يوجد بينهم داعٍ واحد؛ لأنه لا يوجد بينهم شجاع واحد.

أصحاب الصحف، وكتاب الرسائل، والمؤلفون، وخطباء المجامع، وخطباء المنابر كلهم يدعون إلى الحق، وكلهم يعظون وينصحون، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع أن يحمل في سبيل الدعوة ضراً، أو يلاقي في طريقها شراً[2].

رأيت الدعاة في هذه الأمة أربعة: رجلاً يعرف الحق ويكتمه عجزاً وجبناً، فهو ساكت طول حياته لا ينطق بخير ولا شر، ورجلاً يعرف الحق وينطق به

---

(١) الكظة: البطنة.

(٢) ليس هذا الكلام على إطلاقه (م).

ولكنه يجهل طريق الحكمة والسياسة في دعوته، فيهجم على النفوس بما يزعجها وينفرها، وكان خيراً له لو صنع ما يصنعه الطبيب الماهر الذي يضع الدواء المر في «برشامة» ليسهل تناوله وازدراده؛ ورجلاً لا يعرف حقاً ولا باطلاً، فهو يخبط في دعوته خبط الناقة العشواء في بيدائها، فيدعو إلى الخير والشر والحق والباطل، والضار والنافع، في موقف واحد؛ فكأنه جواد امرئ القيس الذي يقول فيه:

مكَرٍّ مفَرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معاً ....

ورجلاً يعرف الحق ويدعو الأمة إلى الباطل دعوة الـمُجِّد المجتهد، وهو أخبث الأربعة وأكثرهم غائلة؛ لأنه صاحب هوى يرى أنه لا يبلغ غايته منه إلا إذا أهلك الأمة في سبيله، فهو عدوُّها في ثياب صديقها؛ لأنه يوردها موارد التلف والهلاك باسم الهداية والإرشاد؛ فليت شعري من أي واحد من هؤلاء الأربعة تستفيد الأمة رشدها وهداها؟!

ما أعظم شقاء هذه الأمة وأشد بلاءها؛ فقد أصبح دعاتها في حاجة إلى دعاة، ينيرون لهم طريق الدعوة، ويعلمونهم كيف يكون الصبر والاحتمال في سبيلها؛ فليت شعري متى يتعلمون، ثم يرشدون؟

٤٦ الدعوة إلى الخير[1] للشيخ محمد عبدالعزيز الخولي

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾ فصلت.

أصدق الحديث كتاب الله ـ تعالى ـ لأنه كلام العليم الحكيم: العليم بالنفوس، وما يسعدها، وما يرقيها، وبالأمم وما يدنيها من السعادة والعزة وما يقصيها.

وهو الحكيم في أمره، ونهيه، ووصفه، وفعله؛ فلا يكون منه إلا ما يتفق مع مصلحة الأفراد والأسر والجماعات والأمم، وإذا وصف أدوية الأمراض والعلل فخير الأوصاف وصفه، وخير الأدوية دواؤه؛ فالشفاء من العلل مُعْقِبه لا محالة.

وإذا كان ذلك شأن الله وشأن كلامه فاستمع لإرشاده، وتمسك بقرآنه، وتدبر معناه ومرماه وفحواه ومغزاه، وكن من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ومن الذين ظهرت آثار الموعظة الحسنة في قلوبهم وأخلاقهم وأعمالهم، ولا تكن من الذين قالوا: سمعنا وعصينا؛ فإن ذلك الشقاء بعينه والخسارة ليست بعدها خسارة.

ولا أظنك من هؤلاء وقد اتخذت الإسلام ديناً، وجعلت كتاب الله إماماً، فالظن بك أن تكون المستمع المنصت لما يلقيه عليك العليم الحكيم من النصائح،

(١) مجلة جمعية مكارم الأخلاق، العدد الأول، ص ١٦ـ ٢١، رجب ١٣٤٣هـ.

فاستمع أرشدني الله وإياك إلى الصراط المستقيم الذي لا يضل سالكه، ولا تلعب بعقله وفطرته الأهواء والشهوات.

الإنسان يتكلم كثيراً، ولكن النافع من كلامه قليل، والله ـ جل شأنه وتعالت حكمته ـ يرشدنا في هذه الآيات إلى خير الكلام، وأصدقه، وأحسنه، وأنفعه قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾ فصلت.

فأعذب الناس لفظاً، وأحسنهم قولاً الذي يدعو إلى الله، وإلى دينه الحقِّ، وشريعته الحكيمة العادلة الكفيلة بسعادة الناس في دنياهم وأخراهم.

وكيف لا يكون أحسن الناس كلاماً وقد سلك مسلك الرسل في الدعوة إلى الحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعمل على تطهير النفوس من رذائل الأخلاق، ومحدثات الأمور، وتكميلها بما يرفع شأنها، ويعلي أمرها.

واعلم أن الدعوة إلى الله لا تنفع ولا تجدي إلا إذا كانت صادرة عن نفس طيبة لله مخلصة قد امتلأت بحب الدين، ورسخت فيها أخلاقه وأعماله؛ فإن الكلمة منها تؤثر بالنفوس ما لا تؤثره السيوف، وتسوقها إلى الخير ما لا تسوقها القوة الغاشمة، وإن الكلام إذا خرج من القلب وصل إلى القلب، وإن خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان.

وهل تظن بكلام لا يبرهن عليه عملك أن تكون له قيمة عند الناس؟

هيهات هيات؛ فقبل أن تنصب نفسك داعية إلى الخير هذبها بالأخلاق الطيبة، والأعمال الصالحة من صدق، وكرم، وعزة، وشهامة، ونجدة،

ومروءة، وصلاة، وزكاة، وحج، وصيام؛ فإن لهذه من التأثير في كمال النفوس، وسوقها إلى الخير أثراً كبيراً، وصلاحاً عظيماً.

ولهذا قرن الله الدعوة إليه بالعمل الصالح؛ لأنه عماد الدعوة، ووسيلتها التي تجعلها نافعة مفيدة؛ فكمِّل نفسك تستطعْ تكميل غيرك، وهذِّب خلقك يتأدبِ الناس بأدبك، وينهجوا مثل نهجك.

وإن الدعوة إلى الله كما تكون باللسان تكون بالأعمال، والناس يتأثرون بالأعمال أكثر مما يتأثرون بالأقوال.

فالحكومة التي يرأسها وزير قائم على رعاية المصالح، وإعطاء الحقوق، والضرب على أيدي الظالمين، والصلابة في الحق، وعدم التأثر بالأهواء والشهوات ـ يغلب في أفراد حكومته وموظفيها تلك الشيم العالية، والمكارم الطيبة.

والبلد الذي استقام علماؤه، ونصبوا أنفسهم حراساً على الدين، ودعاة إليه يهتدي أهل البلد بهديهم، ويرتسمون طريقتهم.

وناظر المدرسة وأساتذتها إذا كانوا مثالاً صالحاً في أخلاقهم وأعمالهم وإخلاصهم وقوة عزيمتهم ـ نشأ تلامذتهم على شاكلتهم متأدبين بآدابهم، سالكين مسلكهم.

وكذلك رب الأسرة إذا كان ورعاً تقيًّا نهاره في عمله، وليله في بيته، لا يقصر في واجب الله أو الناس، ولا تؤثر في نفسه الشهوات التي أضلت كثيراً، وظنوا أنها السعادة، وإنْ هي إلا الشقاوة.

هذا الشخص يتخلق بأخلاقه، ويعمل بأعماله زوجُهُ، وبنوه، وبناته، بل وأقرباؤه، وجيرانُه، ومن يختلط بهم في العمل؛ فاستقامة رب البيت مدعاة لاستقامة أهل البيت، وإن المنبت الطيب لا ينبت إلا طيباً، والبيئة الفاسدة لا تنشئ إلا فساداً.

فيا معشر الرؤساء كلكم راع ومسئول عن رعيته؛ فليتق الله كل فيما يرعاه، وليكن له مثالاً طيباً، وأسوة حسنة، وقدوة صالحة.

ولما كان الدعاة إلى الحق يتصدى لهم معارضون مفسدون يسيئون سمعتهم، ويعرقلون أعمالهم كما جرت سنة الله في خلقه كما نطق به القرآن ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ الأنعام:١١٢.

ولما كانت سنة الله فيهم كذلك، وكان لا بد لهم من التصادم مع أنصار الباطل، وأعداء الحق ـ ندبهم الله إلى أن يقابلوا قولهم وعملهم بلين من القول، وجميل من العبارة لا يدل على التراجع عن الحق، ولكن على التمسك به فيقول كل منهم: ﴿إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾ فصلت، المنقادين لأوامر الله ـ سبحانه وتعالى ـ والمحافظين على حدوده؛ فإن أسأتم إليَّ فلي رب يحميني، وإله يدفع عنِّي، وما أنا ممن أتى منكراً، أو زوَّر قولاً إن هو الطريق مستقيم استبانت لي أعلامُه، ووضحت محجتُه، فسلكته على بصيرة، وإن الذي وفقني لسلوكه لسوف يوفقني لغايته، وما يضرني كيدكم شيئاً إن كان الله يريد نفعي ونصري.

ثم بيَّن ـ جلَّ جلاله ـ أنه لا تستوي الحسنة ولا السيئة، بل لين القول مقدَّم على جافِّه، ورقيقه مقدَّم على غليظه، ومقابلة الهفوة بالعفو، والإيذاء بالصفح

أنجح في باب الدعوة، وأرجى للإجابة ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ البقرة:٢٣٧.

ولذلك قال ـ جلَّ جلاله ـ:﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٤)﴾ فصلت:٣٤، أي صديق قريب؛ فمقابلة السيئة بالحسنة، والرذيلة بالفضيلة تجعل الأعداء أصدقاء، والمشاغبين مسالمين، والمنافقين مخلصين، والبعيد عن حقك وعملك قريباً منك.

وذلك أهم ما تصبو إليه نفس الداعي أن يهتدي الناس بهديه، ويتأدبوا بأدبه، ويتخلقوا بخلقه أي أن يكونوا على الصراط المستقيم الذي سلكه ـ صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض؛ فالمسالمة في الدعوة ـوإن طالت مدتهاـ أولى من المعاداة والمشاكسة، ولنا برسول الله ﷺ أسوة حسنة؛ فإنه مكث أربع عشرة سنة يدعو إلى الله بقوله وعمله، ولم يجرد سيفاً، ولم يعلن حرباً إلا بعد أن خشيَ على دينه من أعمال الكفار، وبعد أن أخرج هو وأتباعه من ديارهم وأموالهم ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(٣٩)﴾ الحج.

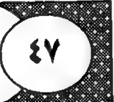
واعلم أن مقابلة السيئة بالحسنة أمر شاقٌّ لا يقدر عليه إلا شخص وطَّن نفسه على الصبر، ومرَّنها عليه حتى صار عادة له.

وكذلك لا يقوم بها إلا شخص له حظٌّ عظيم من الكمال الخلقي، والتهذيب النفسي، والعمل الصالح ولذلك يقول ـ جلَّ ثناؤه ـ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾ السجدة.

فأخبر ـ جلَّ ثناؤه ـ بأنهم لم يصيروا أئمة في الهداية، وقادة في الدعوة إلا بعد أن تحلوا بالصبر، وكانوا موقنين بآيات الله إيقاناً ظهرت آثاره في أعمالهم وأخلاقهم؛ فلما كانوا كاملين صابرين جعلهم الله أعلاماً للهداية، وأئمة في الخير.

فيا من نصبت نفسك للدعوة، وأقمت نفسك مقام الرسل الدعاة الهداة تحمَّل كلَّ ما يلاقيك من المحن بقلب ثابت، وجأش رابط، ولا تزعزعنَّك الكروب؛ فإنها مربِّية الرجال، ومهذِّبة الأخلاق، ومكوِّنة النفوس.

وإن رجلاً لم تعركه الحوادث، ولم تجرِّبه البلايا لا يكون رجل إصلاح ولا داعي خلق إلى حقٍّ؛ فوطِّن النفس على تحمُّل المكروه، وابذل كل ما تستطيع من قوة ومال يهدك الله طريقاً رشداً، ويصلح بك جماعات بل أمماً ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾ العنكبوت.



٤٧ عذاب المصلحين[١] للأستاذ أحمد أمين

قرأتُ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ البقرة: ٨٧.

وقرأت حديث ورقة بن نوفل مع رسول الله، إذ حدثه الرسول بما نزل عليه من وحي فقال له ورقة: «ليتني حياً إذ يخرجك قومك» قال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجي هم؟**».

قال: «نعم؛ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي».

وقرأت كثيراً من سير المصلحين المجددين، فرأيت أكثرهم ـ في اضطهاد الناس لهم ـ سواء، ورأيت تاريخهم يكاد يتشابه؛ دعوة حارة إلى الإصلاح يتبعها تألب العامة عليهم، واضطهادُ الرأي العام لهم، والتنكيل بالمصلح، ثم انتصار الأفكار الجديدة التي أتى بها هذا المصلح، بعد أن يكون قد انهدت قواه، أو انتقل إلى رحمة الله.

لماذا كل هذا؟ ولماذا يتشابه التاريخ حتى كأنه قانون طبيعي؟ ولماذا يتكرر هذا المنظر في الشرق والغرب وكل مكان حل به الإنسان؟

السبب في هذا الفكرة الجديدة تأتي وقد التأمت أفكار الناس على نمط خاص، وتجمعت وشد بعضها بعضاً، وتماسكت حلقاتها.

وتأتي الفكرة الجديدة غريبة عن هذه الأفكار المألوفة فلا تجد مكاناً بينها، ولا

---

(١) فيض الخاطر (٣/١٤١ـ١٤٤).

تجد نفسها منسجمة مع الأفكار الموجودة، ويشعر الناس أَنَّ هذه الفكرة نابية عن أفكارهم، غير منسجمة مع النظام العلى[1] الذي استقر في أذهانهم، فيكرهونها، ويقفون في سبيلها، وكل ما كانت الفكرة الجديدة أبعد عن المألوف كانوا لها أكثرهم كراهية ومقتاً، وأشد تحمساً لمناهضتها وطردها أو القضاء عليها.

إنَّ أفكار كل إنسان تُبنى بنياناً مما رآه وسمعه وقرأه وصادفه في حياته، وهي مع تكونها في أزمان مختلفة تكون وحدة منسجمة، ولا تقبل أن يزيد عليها إلا ما لاءمها وانسجم معها، فإذا رأت فكرة جديدة لا تلتئم مع هذا النظام المحبوك، ولا تستطيع أن تكون حلقة في شبكة العقلية المنسوجة ـ طوردت وأقصيت.

ثم إن هذا النسيج من الأفكار يشعر أنه أتت الفكرة الجديدة الغريبة عنه، ودخلت فيه، وأفسدت نظامه، وأقلقت راحته، فهو يَصُدُّها ويقف في سبيلها، ولا يسمح بالدخول، كطائفة من الدجاج مؤتلفة منسجمة نشأت في بيت واحد ثم دخلت عليها دجاجة جديدة لم تنشأ في بيئتها، ولم تعتد عاداتها؛ فهي تطَارَدُ وتُبْعَدَ عن الحَبِّ، وتُنْقَّر، وتُعَذَّب.

ثم إنَّ المخ يشعر أنه إن قَبِل هذه الفكرة اقتضته تعديلاً في نظامه، وتجديداً في أوضاعه، وتغييراً في نسيجه، ومجهوداً كبيراً في إعادة ترتيب القديم والمألوف. وهذه عملية شاقة لا يرتضيها العقل في سهولة ويسر، ولا سيما أنه يشعر أن الفكرة الجديدة ستكلفه إعادة تقويم الأشياء، ووزنها وزناً جديداً، وهو قد استنام إلى ما حدث، وألف ما كان.

---

(١) هكذا في الأصل ولعله: العام، أو الكلي (م).

ومخ الإنسان ـ وهو مركز عقله ـ أحدث الأعراض وجوداً في الإنسان، ومادته التي يتكون منها رخوة هينة لينة، لم تتصلب تصلب الأعضاء القديمة في أسلافنا من الحيوان كاليد والرجل ونحوهما.

ومن أجل هذا كان المخ أشد الأعضاء حساسية بالتعب وكراهية لمداومة العمل؛ وليس من الناس إلا القليل القادر على إعمال العقل، وتحريك المخ زمناً طويلاً.

والفكرة الجديدة تُكَلِّف المخ عناءً شديداً في قبولها، لما يترتب عليها من أعمال كثيرة؛ ولذلك هو يرفض كل هذا العناء؛ فيرفض الفكرة؛ ويستريح؛ ولذلك كان أكثر الناس يخافون التفكير؛ لأنه مؤلم لهم، فما يبدأ فيه حتى يشعر بانقباض في صدره، وصداع في رأسه، وما أقل من يجد في التفكير لَذَّتَهُ.

ومن أَجْلِ هذا كان دعاة التجديد والإصلاح في كل أمة وفي كل عصر نادرين جداً، وندرتُهم لم تأتِ من ندرة الذكاء، وإنما أتت ـ في الأغلب ـ من ندرة احتمال العقل الصبر على البحث وراء الحق، وندرةِ الشجاعة في اعتقاد الحق والجهر به؛ فالناس ـ إلا في القليل النادر ـ يألفون الحياة كما هي لا كما ينبغي أن تكون، وهم بين من لا يجد زمناً إلا لتحصيل قُوْتِه، ومن يجد الفراغ، ولكن لا يستطع عقله الصبر على البحث الحر، أو يجد كل ذلك ويستطيعه، ولكن لا يستطيع الجهر به؛ لما يتوقع من متاعب وآلام: مساسٍ بسمعته، وقدحٍ في ذمته، وتهكمٍ على عقله، وتجريحٍ لِخُلقه، ونيلٍ من دينه.

والتاريخ يجري على نمط واحد منذ تكونت الجمعية البشرية إلى اليوم، يلمع

فيها أفراد قلائل في كل عصر، يخرجون على إلف الناس، وما اعتادوه في أفكارهم وعقائدهم وعواطفهم؛ فيتألب عليهم الناس؛ لكسلهم العقلي، ولأن الدعوة الجديدة تقلق راحتهم وتدعوهم إلى قلب نظامهم العقلي والعاطفي، كالذي يدعو كسلاناً أن يغير نظام بيته أو نظام معيشته، وبدلاً من أن يوجه غضبه إلى نفسه؛ لكسلها أو جمودها، يحول غضبه على من سبب له هذا القلق؛ ثم لا يقتصر على محاربته بالأساليب الشريفة، بل يحاربه بكل سلاح، ولا يتورع عن أن يختلق عليه، و يتهمه بما يستطيع من تهم، ويرى أن كل وسيلة تقضي إلى قتل هذه الفكرة الجديدة جائزة ومشروعة؛ فإذا وصل إلى هذا الغرض بإعدام الفكرة أو إعدام قائلها، اطمأن واستراح؛ لأنها تتفق مع طبيعته في الكسل، واستنامته إلى ما ألف.

وقد اعتدنا أن نجد مسألتين تتصلان بهذه الظاهرة التاريخية:

الأولى ـ أن أكثر من يناصر الفكرة الجديدة يكونون عادة من الشباب، أو من ينتفع بها من الطبقات والأفراد؛ وتعليل ذلك واضح؛ فالشباب لم تتجمد بعد شبكة أفكارهم، ولا يزال فيها مرونة تصلح لأن تتقبل شيئاً جديداً كما تصلح للتشكيل الجديد، ولأن عواطفهم الحارة ترحب بالشيء الجديد الذي يتطلب منهم عملاً وقوة ونزالاً.

وأما من ينتفعون بالفكرة فأمرهم واضح، فقد ارتبطت الفكرة بمصالحهم، فهم يؤيدونها لما وراءها من مغنم.

والثانية ـ أننا نرى ـ في الغالب ـ تأييد السلطات للفكرة القديمة ومناهضتهم

للفكرة الجديدة، سواء كانت الفكرة الجديدة تمسهم مباشرة أو لا تمسهم؛ وسبب ذلك أن السلطات في الغالب تتطلب السلامة أكثر مما تتطلب التقدم، والرأي العام والسواد الأعظم من الناس يناصر الأفكار القديمة لما أسلفنا؛ فالسلطات يهمها ـ محافظة على السلامة والطمأنينة والهدوء ـ أن تغضب على من يغضب الرأي العام، ويقلق راحته، لأن في راحة الجمهور راحة السلطات، ولأن السلطات كالأفراد أحب شيء إليها راحتها من التفكير، ومن وجع الدماغ، والفكرة تحمل في ثناياها حرباً، وحركة، واضطراباً، وانقساماً إلى معسكرات، وذلك يتطلب مجهوداً من السلطات كانت في غنى عنه؛ فهي ـ أيضاً ـ تغضب على من سبب لها هذا القلق والاضطراب، ودعاها إلى التفكير، ورسم الخطط.

لهذا كانت عظمة المصلحين في تحملهم هذه الصعاب كلها أكثر من عظمتهم في العثور على الحق؛ لأن عثورهم على الحق في هدوء بينهم وبين أنفسهم، أما تحقيق هذا الحق فلا يتم إلا بكل هذه المصاعب التي ألممنا بها.

ومع هذا فإنا نرى أن الأفكار الجديدة الصالحة تبقى على الرغم مما لاقت من صعاب، وعلى الرغم من موت دعاتها، بل إن موت دعاتها يخفف من غضب المعاندين للفكرة؛ لأن السواد الأعظم من الناس لا يستطيع الغضب على المعاني ما لم تُجَسَّم في شخص؛ فإذا مات هذا الشخص الحسي فترت قوة المعارضة للمعاني، ويأتي جيل الشباب الذي اعتنق الفكرة الجديدة، فيكتسح الجيل القديم المعارض، ويتبوأ مراكزه في الحكم وفي العمل، فتسود أفكاره، حتى تبلى أفكاره وهو أيضاً، و يمثل الدور من جديد.

هذا هو قانون الطبيعة منذ خُلِقَ الإنسان، يجري الناس شوطاً، فيلهم القادة فكرة أو أفكاراً يستلزمها الرقي، فيعارضها أعداء الرقي، ثم يموت الدعاة والمدعوون، ويموت النزاع، وتسود الفكرة، ثم يتجدد تمثيل الرواية.

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان طبيعياً، ولكنَّ الناس بجهلهم يخلقون معسكرات غير طبيعية تدعو إلى النزاع غير الطبيعي، فيفتحون مدارس تعلم على أنماط مختلفة، فتخلق عقليات مختلفة، ويعددون النظم التي تخلق مطامع مختلفة، ويشرعون نظماً اقتصادية تكون طبقات متعادية، إلى أمثال ذلك، فيكثر العداء بين الأفكار، ويضيع جهد المصلحين في التقريب بين العقليات، مع أن عوامل التبعيد الأساسية لا تزال تعمل عملها.

والأمة العاقلة التي يدرك قادتها هذه الحقائق تقضي على عوامل هذه الاختلافات، ولا يبقى لديها حرب في الآراء إلا ما تقضي به الطبيعة مما يتفق وتقدم الزمان.

٤٨ الدعوة الشاملة الخالدة[١] للعلاَّمة الشيخ محمد الخضر حسين

بينما العالم يتخبط في جهل وغواية فإذا بنور يلوح تحت سماء مكة، وتنبعث أشعته في اليمين واليسار، حتى أخذت بلاد العرب من أطرافها، وضربت في أقاصي الشرق والغرب، فانقلب الجهل إلى علم، والغواية إلى هدى، ذلك هو نور الدعوة التي قام بها أكمل الخليقة محمد بن عبد الله ﷺ.

ترمي هذه الدعوة الصادقة إلى أهداف سامية: إصلاح العقائد، والأخلاق والأعمال، وتنقية النفوس من المزاعم الباطلة، وتحرير العقول من أسر التقليد، حتى تحت ضياء الحجة[٢]، وعلى ما يرسمه لها المنطق السليم.

جاء الرسول الأعظم بهذه الدعوة الشاملة، فكانت مصدر خير ومطلع حكمة، وقد أيدها الله ـ تعالى ـ بما يضعها في النفوس موضع القبول، ويجعلها قريبة من متناول العقول.

ومن أقوى مؤيداتها الآيات القائمة على أنَّ المبلغ لها رسول من رب العالمين، وسيرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ مملوءة بأرقى الفضائل وأَسنى الآداب وأجَلّ الأعمال، حتى إنَّ الباحث في السيرة على بصيرة ليجد في كل حلقة من سلسلة حياته معجزة، ولو استطعت ـ ولا إخالك تستطيع ـ أن تضعها في كفه، ثم تعمد

---

(١) مجلة لواء الإسلام العدد السابع من السنة الأولى في أول ربيع سنة ١٣٦٧هـ، وانظر كتاب: (هدى ونور) ص٤٣ـ٤٥، للشيخ محمد الخضر، عناية الأستاذ علي الرضا الحسيني.

(٢) هكذا في الأصل، ولعل هناك سقطاً، ولعله: حتى صارت.... (م).

إلى سيرة أعظم رجل تحدث عنه التاريخ، فتضعها في الكفة الأخرى، لعرفت الفرق بين من وقف في كماله عند حد هو أقصى ما يبلغه الناس بذكائهم وحزمهم، وبين من تجاوز ذلك الحد بمواهبه الفطرية، وبما خصه الله به من معارف غيبية، وحكم قدسية.

هي دعوة الحق اتجه إليها أقوام لا يؤمنون بأنها وحي سَمَاويّ، فاطلعوا على جملة من حقائقها، ووقفوا على جانب من أسرارها، فشهدوا لها بأنها محكمة الوضع، سامية الغاية، وألموا بأطراف من سيرة المبعوث بها، فاعترفوا بأنه أكبر مصلح أنقذ الإنسانية من غمرات الاستبداد، وعلمها بأقواله وسيرته العملية كيف تتمتع بحقوقها كاملة، وتحتفظ بحريتها وهي آمنة.

دعوة تأبى الخمول والإحجام، حيث ينبغي لها أنْ تظهر في شهامة وإقدام، توجه نصائحها إلى الأمم على اختلاف طبقاتها وتفاضل درجاتها؛ فتسدي النصيحة إلى الملوك فمن دونهم من ذوي المناصب السياسية، والقضائية، والتنفيذية، وتأخذ بأيدي العاملين من نحو التُّجَّار، والصُّنَّاع، والزُّرَّاع إلى أن يسيروا في الطريق الكافل للسلامة والنجاح، وأقبلت على الأسرة فرسمت لها نظماً تيسر لها أن تعيش في ألفة وهناءه، فقررت للزوجة والقرابة من نحو الأبوة والبنوة حقوقاً عادلة، وأوجبت على من يستطيع إسعاد ذوي الحاجات بمال أو جاه أن يسعدهم ما استطاع، وأوصت مع هذا برعاية حقوق الجوار.

وراعت في معاملة المخالفين ما تستدعيه العزة من الحزم، ثم ما تستدعيه العاطفة الإنسانية من الرفق، ففرقت بين من يدخل تحت سلطانها، وبين من

يناصبها العداء، فمنحت المسالمين من الحقوق ما تطمئن به نفوسهم، وتنعم به حياتهم، وأذنت في تقويم المناوئين بالقدر الكافي للنجاة من عدوانهم.

طلعت الدعوة المحمدية على الناس فصيحة البيان، قوية الحجة، حكيمة الأساليب، ولم تسلم مع هذا من طوائف يرمون أمامها أو وراءها عن قوس إلحاد وقح، أو جهل قاتم، ولولا أن الله ـ تعالى ـ تكفل بحفظها، وقيض لها في كل عصر أنصاراً رسخوا في فهم مقاصدها، وتصدوا للذود عن ساحتها بيقظة وحزم ـ لتمكن أولئك المفسدون من إخفات صوتها، وطمس معالمها.

وليست دعوة الإسلام بالدعوة التي ترشد إلى مواطن الإصلاح، ثم تترك الناس وشأنهم كما يفعل وعاظ المساجد والجمعيات[1]، بل هي دعوة تحمل في مبادئها فرضاً على الأمة أن تقوم بتنفيذ ما تقرره من حقوق، أو تفرضه من واجبات؛ إذ لا ينفع تَكَلُّمٌ بحق لا نفاذ له.

---

(١) لو قال: بعض وعاظ ... (م).

٤٩ قرآن الفجر[1] للأديب مصطفى صادق الرافعي

كنتُ في العاشرة من سنِّي وقد جمعتُ القرآنَ كلَّه حفظاً وجوَّدته بأحكام القراءة، ونحن يومئذٍ في مدينة «دمنهور» عاصمة البحيرة، وكان أبي كبير القضاة الشرعيين في هذا الإقليم، ومن عادته أنه كان يعتكف كل سنة في أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان يدخل المسجد، فلا يبرحه إلا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم؛ فهناك يتأمل ويتعبد ويتصل بإلهه الحق، وينظر إلى الزائل بمعنى الخالد، ويطل على الدنيا إطلال الواقف على الأيام السائرة ويغير الحياة في عمله وفكره، ويهجر تراب الأرض؛ فلا يمشي عليه، وتراب المعاني الأرضية فلا يتعرض له، ويدخل في الزمن المتحرر من أكثر قيود النفس، ويستقر في المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لا تتغير، ثم لا يرى من الناس إلا هذا النوعَ المرطَّبَ الروح بالوضوء، المدعوَّ إلى دخول المسجد بدعوة القوة السامية، المنحنيَ في ركوعه؛ ليخضع لغير المعاني الذليلة، الساجدَ بين يدي ربه؛ ليدرك معنى الجلال الأعظم.

وما هي حكمة هذه الأمكنة التي تقام لعبادة الله؟ إنها أمكنة قائمة في الحياة، تشعر القلب البشريّ في نزاع الدنيا أنه في إنسان لا في بهيمة.

وذهبت ليلة فبتُّ عند أبي في المسجد؛ فلما كنا في جوف الليل الأخير أيقظني

---

(١) وحي القلم ٣/٢٨ـ٣١

للسَّحور، ثم أمرني فتوضأت لصلاة الفجر وأقبل هو على قراءته؛ فلما كان السَّحر الأعلى هتف بالدعاء المأثور: اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد، أنت بهاء السموات والأرض، ولك الحمد أنت زين السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيام السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن، أنت الحق ومنك الحق.... إلى آخر الدعاء.

وأقبل الناس ينتابون المسجد، فانحدرنا من تلك العِلْيَة التي يسمونها الدكة، وجلسنا ننتظر الصلاة، وكانت المساجد في ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت، في كل قنديل ذبالة يرتعش النور فيها خافتاً ضئيلاً يبص بصيصاً كأنه بعض معاني الضوء لا الضوء نفسه؛ فكانت هذه القناديل والظلام يرتج حولها، تلوح كأنها شقوق مضيئة في الجو، فلا تكشف الليل ولكن تكشف أسراره الجميلة، وتبدو في الظلمة كأنها تفسير ضعيف لمعنى غامض يومئ إليه ولا يُبَيِّنُه، فما تشعر النفس إلا أن العين تمتد في ضوئها من المنظور إلى غير المنظور كأنها سرّ يشف عن سرّ.

وكان لها منظر كمنظر النجوم يتم جمال الليل بإلقائه الشُّعل في أطرافه العليا، وإلباس الظلام زينته النورانية؛ فكان الجالس في المسجد وقت السحر يشعر بالحياة كأنها مخبوءة، ويحس في المكان بقايا أحلام، ويسري حوله ذلك المجهول الذي سيخرج منه الغد، وفي هذا الظلام النوراني تنكشف له أعماقه منسكباً فيها روح المسجد؛ فتعتريه حالةٌ روحانيةٌ يستكين فيها للقدر هادئاً وادعاً راجعاً إلى نفسه، مجتمعاً في حواسه، منفرداً بصفاته، منعكساً عليه نور قلبه؛ كأنه خرج من

سلطان ما يضيء عليه النهار، أو كأن تلك الظلمة قد طمست فيه على ألوان الأرض.

ثم يشعر بالفجر في ذلك الغَبَش عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء شعوراً نديَّاً كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه؛ ليتنضَّر من يُبْس، ويَرِقَّ من غلظه، وكأنما جاءوه مع الفجر؛ ليتناول النهار من أيديهم مبدوءاً بالرحمة مفتتحاً بالجمال؛ فإذا كان شاعرَ النفس التقى فيه النور السماويّ بالنور الإنساني فإذا هو يتلألأ في روحه تحت الفجر.

لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن في جو المسجد، والقناديل معلقة كالنجوم في مناطها من الفلك، وتلك السرج ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب، والناس جالسون عليهم وقار أرواحهم، ومن حول كل إنسان هدوء قلبه، وقد استبهمت الأشياء في نظر العين؛ ليلبسها الإحساس الروحاني في النفس؛ فيكون لكل شيء معناه الذي هو منه ومعناه الذي ليس منه، فيخلق فيه الجمال الشعري كما يخلق للنظر المتخيَّل.

لا أنسى أبداً تلك الساعة، وقد انبعث في المسجد صوت غِرد رخيم، يشقُّ سُدْفَةَ الليل في مثل رنين الجرس تحت الأفق العالي وهو يردد هذه الآيات من آخر سورة النحل ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا

يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾.

وكان هذا القارئ يملك صوته أتمَّ ما يملك ذو الصوت المطرب؛ فكان يتصرَّف به أحلى مما يتصرَّف القمري وهو ينوح في أنغامه، وما كان إلا كالبلبل هزته الطبيعة بأسلوبها في جمال القمر، فاهتز يجاوبها بأسلوبه في جمال التغريد.

كان صوته على ترتيبٍ عجيبٍ في نغماته؛ يجمع بين قوة الرقة وبين رقة القوة، ويضطرب اضطراباً روحانياً كالحزن اعتراه الفرح على فجأة؛ يصيح الصيحة تترجح في الجو وفي النفس، وتتردد في المكان وفي القلب، ويتحول بها الكلام الإلهي إلى شيء حقيقي، يلمس الروح فيَرفَضُّ عليها بمثل الندى؛ فإذا هي ترف رفيفاً، وإذا هي كالزهرة التي مسحها الطل.

وسمعنا القرآن طريًّا كأول ما نزل به الوحي، فكان هذا الصوت الجميل يدور في النفس كأنه بعض السر الذي يدور في نظام العالم، وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجر يتناول الماء ويكسوها منه.

واهتز المكان والزمان، وبدا الفجر كأنه واقف يستأذن الله أن يضيء من هذا النور!

وكنا نسمع قران الفجر، وكأنما محيت الدنيا التي في الخارج من المسجد وبطل باطلها، فلم يبق على الأرض إلا الإنسانية الطاهرة ومكان العبادة؛ وهذه هي معجزة الروح متى كان الإنسان في لذة روحه مرتفعاً على طبيعته الأرضية.

أما الطفل الذي كان فيَّ يومئذٍ فكأنما دُعيَ بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويؤديها إلى الرجل الذي يجيء في من بعد؛ فأنا في كل حالة أخضع لهذا الصوت: ادع إلى سبيل ربك؛ وأنا في كل ضائقة أخشع لهذا الصوت: واصبر وما صبرك إلا بالله!

٥٠ كلمة الحق[١] للعلاَّمة أحمد محمد شاكر[٢]

ما أَقلَّ ما قلنا (كلمةَ الحق) في مواقف الرجال، وما أَكثر ما قصّرنا في ذلك، إن لم يكن خوفاً فضعفاً، ونستغفر الله، وأَرى أَنْ قد آن الأوان لنقولها ما استطعنا؛ كفَّارةً عما سَلَف من تقصير، وعما أَسْلَفْتُ من الذنوب، ليس لها إلاَّ عفوُ الله ورحمته، والعمر يجري بنا سريعاً، والحياة توشك أن تبلغ منتهاها.

وأَرى أنْ قد آنَ الأوانُ لنقولها ما استطعنا، وبلادُنا، وبلاد الإسلام تنحدر في مجرى السَّيْل، إلى هُوَّة لا قرار لها، هُوَّةِ الإلحاد والإباحية والانحلال، فإن لم نقف منهم موقف النذير، وإن لم نأخذ بحُجَزِهم عن النار انحدرنا معهم، وأصابنا من عَقَابيل ذلك ما يصيبهم، وكان علينا من الإثم أضعاف ما حُمِّلوا.

ذلك بأن الله أخذ علينا الميثاق ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ آل عمران: ١٨٧.

وذلك بأن ضرب لنا المثل بأَشقى الأُمم ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾ المائدة.

---

(١) نشرت في مجلة الهدي النبوي المجلد الخامس عشر، والسادس عشر، وهي في كتاب (كلمة الحق) الذي جمع مقالات الشيخ رحمه الله وقدم له الأستاذ عبدالسلام هارون، وترجم للمؤلف محمود شاكر ـ رحم الله الجميع ـ.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

وذلك بأن الله وصفنا ـ معشرَ المسلمين ـ بأننا خيرُ الأمم: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ ﴾ آل عمران: ١١٠.

فإن فقدنا ما جعلنا الله به خير الأُمم، كنَّا كَمَثَل أشقاها، وليس من منزلة هناك بينهما.

وذلك بأن الله يقول ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩) ﴾ الأحزاب.

وذلك بأن الرسول ﷺ قال: «**ألاَ لا يمنعنَّ أحدكم رهبة الناس أن يقول بحقٍّ إذا رآه الناس أو شَهِدَه؛ فإنه لا يُقرِّب من أَجَلٍ ذلك، ولا يُبَاعد من رِزْقٍ، أنْ يقولَ بحقٍّ، أو يُذكِّرَ بِعَظِيمٍ**».

وذلك بأن رسول الله ﷺ قال «**لا يحقرنَّ أحدكم نفسه**، قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أَحدنا نفسه؟ قال: **يرى أمراً لله عليه فيه مقال، ثم لا يقولُ فيه؛ فيقولُ الله ـ عز وجل ـ له يوم القيامة: ما منعك أن تقولَ فيَّ كذا وكذا؟ فيقولُ خَشْيَةَ الناس، فيقولُ: فإياي كنت أَحقَّ أن تَخْشَى**».

نريد أن نقول (كلمة الحق) في شؤون المسلمين كلها، نريد أن ننافح عن الإسلام ما استطعنا، بالقول الفصل، والكلمة الصريحة، لا نخشى أحداً إلاَّ الله؛ إذ نقول ما نقول في حدود ما أنزل الله لنا به، بل ما أوجب علينا أن نقوله، بهدي كتاب ربنا، وسنة رسوله.

نريد أَن نحارب الوثنية الحديثة والشرك الحديث، اللذين شاعا في بلادنا وفي أكثر بلاد الإسلام، تقليداً لأُوربة الوثنية الملحدة، كما حارب سلفنا الصالح

الوثنية القديمة، والشرك القديم.

نريد أن ننافح عن القرآن، وقد اعتاد ناس أن يلعبوا بكتاب الله بين أَظهرنا، فمن متأول لآياته غيرِ مؤمن به، يريد أن يَقْسِرَها على غير ما يدل عليه صريح اللفظ في كلام العرب، حتى يوافق ما آمن به، أو ما أُشْرِبَتْهُ نفسه، من عقائد أُوربة ووثنيتها وإلحادها، أو يُقَرِّبه إلى عاداتهم وآدابهم - إن كانت لهم آداب - ليجعل الإسلام ديناً عصريًّاً في نظره ونظر ساداته الذين ارتضع لبانهم، أو رُبِّي في أحضانهم!!.

ومِنْ مُنكرٍ لكل شيء من عالم الغيب، فلا يفتأ يحاور ويداور؛ ليجعل عالم الغيب كله موافقاً لظواهر ما رأى من سنن الكون، إن كان يرى، أو على الأصح لما فهم أَن أُوربة ترى!! نعم، لا بأس عليه - عنده - أن يؤمن بشيء مما وراء المادة، إن أثبته السادة الأُوربيون، ولو كان من خرافات استحضار الأرواح!!

ومِنْ جاهلٍ لا يفقه في الإسلام شيئاً، ثم لا يستحي أن يتلاعب بقراءات القرآن وألفاظه المعجزة السامية، فيكذب كل الأئمة والحفاظ فيما حفظوا ورووا؛ تقليداً لعصبية الإفرنج التي يريدون بها أن يهدموا هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ليجعلوه مثل ما لديهم من كتب.

وهكذا ما نرى وترون.

نريد أن نحفظ أعراض المسلمين، وأن نحارب ما أحدث (النسوانُ) وأنصار (النسوانِ) من منكرات الإباحة والمجون والفجور والدعارة، هؤلاء (النسوانُ) اللائي ليس لهن رجال، إلاَّ رجال (يُشْبِهْنَ) الرجال!! هذه الحركة النسائية

الماجنة، التي يتزعمها المجددون وأشباه المجددين، والمخنثون من الرجال، والمترجلات من النساء، التي يهدمون بها كل خلق كريم، يتسابق أولئك وهؤلاء إلى الشهوات، وإلى الشهوات فقط.

نريد أن ندعو الصالحين من المؤمنين ، والصالحات من المؤمنات: الذين بقي في نفوسهم الحفاظ والغيرة ومقومات الرجولة، واللاتي بقي في نفوسهن الحياء والعفة والتصوُّن إلى العمل الجدِّي الحازم على إرجاع المرأة المسلمة إلى خدرها الإسلامي الموصون، إلى حجابها الذي أمر الله به؛ طوعاً أو كرهاً.

نريد أن نثابر على ما دَعَوْنا وندعو إليه من العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله في قضائنا كله، في كل بلاد الإسلام، وهدم الطاغوت الإفرنجي الذي ضُرب على المسلمين في عقر دارهم في صورة قوانين، والله ـ تعالى ـ يقول:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً (٦١) ﴾ النساء، ثم يقول: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٦٥) ﴾ النساء.

نريد أن نتحدث في السياسةِ السياسةِ العليا للأمة الإسلامية، التي تجعلهم (أمة واحدة)، كما وصفهم الله في كتابه، نسمو بها على بدعة القومية، وعلى أهواء الأحزاب.

نريد أن نُبَصِّر المسلمين وزعماءَهم بموقعهم من هذه الدنيا بين الأمم، وتكالب الأمم عليهم بغياً وعَدْوَاً، وعصبية وكراهية الإسلام أولاً وقبل كل شيء.

نريد أن نعمل على تحرير عقول المسلمين وقلوبهم من روح التهتك والإباحية، ومن روح التمرد والإلحاد، وأن نريهم أثر ذلك في أوربة وأمريكا، اللتين يقلدانها تقليد القردة، وأن نريهم أثر ذلك في أنفسهم وأخلاقهم ودينهم.

نريد أن نحارب النفاق والمجاملات الكاذبة، التي اصطنعها كُتَّاب هذا العصر أو أكثرهم فيما يكتبون وينصحون! يظنون أن هذا من حسن السياسة، ومن الدعوة إلى الحق (بالحكمة والموعظة الحسنة) اللتين أمر الله بها!.

وما كان هذا منهما قط، وإنما هو الضعف والاستخذاء والملق والحرص على عَرَض الحياة الدنيا.

وما نريد بهذا أن نكون سفهاء أو شتامين أو منفِّرين، معاذ الله، و(**ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البذيء**) كما قال رسول الله ﷺ.

ولكنَّا نريد أن نقول الحق واضحاً غير ملتوٍ، وأن نصف الأشياء بأوصافها الصحيحة بأحسن عبارة نستطيعها، ولكنا نربأ بأنفسنا وبإخواننا أن نصف رجلاً يعلن عداءه للإسلام، أو يرفض شريعة الله ورسوله ـ مثلاً ـ بأنه (صديقنا)، والله ـ سبحانه ـ نهانا عن ذلك نهياً حازماً في كتابه.

ونربأ بأنفسنا أن نضعف ونستخذي؛ فنصف أمةً من الأمم تضرب المسلمين بالحديد والنار، وتهتك أعراضهم، وتنهب أموالهم، بأنها أمة (صديقة) أو بأنها

أمة (الحرية والنور) إذا كان من فعلها مع إخواننا أنها أمة (الاستعباد والنار)! وأمثال ذلك مما يرى القارئ ويسمع كل يوم والله المستعان.

نريد أن نمهد للمسلمين سبيل العزة التي جعلها الله لهم ومن حقهم إذا اتصفوا بما وصفهم به: أن يكونوا (مؤمنين).

نريد أن نوقظهم وندعوهم إلى دينهم بهذا الصوت الضعيف، صوت مجلتنا هذه المتواضعة ولكننا نرجو أن يدوِّي هذا الصوت الضعيف يوماً ما؛ فيملأ العالم الإسلامي، ويبلغ أطراف الأرض، بما اعتزمنا من نية صادقة نرجو أن تكون خالصة لله وحده؛ جهاداً في سبيل الله، إن شاء الله.

فإن عجزنا أو ذهبنا، فلن يعدم الإسلام رجلاً أو رجالاً خيراً منا، يرفعون هذا اللواء، فلا يزال خَفَّاقاً إلى السماء، بإذن الله.

٥١ أدب المناظرة[1] للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

أنا لا أقول إلا ما أعتقد، ولا أعتقد إلاَّ ما أسمع صداه من جوانب نفسي؛ فربما خالفت الناس في أشياء يعلمون منها غير ما أعلم، ومعذرتي إليهم في ذلك أن الحق أولى بالمجاملة منهم، وأن في رأسي عقلاً أُجِلُّه عن أن أنزل به إلى أن أكون سيقة للعقول، وريشة في مهاب الأغراض، والأهواء.

فهل يجمل بعد ذلك بأحد من الناس أن يرميني بجارحة من القول، أو صاعقة من الغضب؛ لأني خالفت رأيه، أو ذهبت غير مذهبه، أو أن يرى أن له من الحق في حملي على مذهبه، أكثر مما يكون لي من الحق في حمله على مذهبي؟

لا بأس أن يُؤَيِّد الإنسان مذهبه بالحجة والبرهان، ولا بأس أن ينقض أدلة خصمه، ويزيفها مما يعتقد أنه مبطل لها، ولا ملامة عليه في أن يتذرع بكل ما يعرف من الوسائل إلى نشر الحقيقة التي يعتقدها إلا وسيلة واحدة لا أحبها له، ولا أعتقد أنها تنفعه، أو تغني عنه شيئاً، وهي وسيلة الشتم والسباب.

إن لإخلاص المتكلم تأثيراً عظيماً في قوة حجته، وحُلول كلامه المحلَّ الأعظم في القلوب والأفهام.

والشاتم يعلم عنه الناس جميعاً أنه غير مختص فيما يقول؛ فعبثاً يحاول أن يحمل الناس على رأيه، أو يقنعهم بصدقه، وإن كان أصدق الصادقين.

أتدري لِمَ يَسُبُّ الإنسانُ مناظرَه؟ لأنه جاهل وعاجز معاً، أما جهله؛ فلأنه

---

(١) الموضوعة مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة طبعة دار الجيل، بيروت(٢١٠-٢١٣).

يذهب في وادٍ غير وادي مُناظِره، وهو يظن أنه في واديه ولأنه ينتقل من موضوع المناظرة إلى البحث في شؤون المناظر، وأطواره وصفاته وطبائعه، كأن كل مبحث عنده مبحث «فسيولوجي».

وأما عجزه فلأنه لو عرف إلى مناظره سبيلاً غير هذا السبيل لسلكه، وكفى نفسه مئونة ازدراء الناس إياه، وحماها الدخول في مأزق هو فيه من الخاسرين، محقاً كان أم مبطلاً.

لا يجوز بحال من الأحوال أن يكون الغرض من المناظرة شيئاً غير خدمة الحقيقة وتأييدها، وأحسب أن لو سلك الكُتَّاب هذا المسلك في مباحثهم لاتفقوا على مسائل كثيرة هم لا يزالون مختلفين فيها حتى اليوم، وما اختلفوا فيها إلا لأنهم فيما بينهم مختلفون، يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه، ويعتقد أنها كلمة لا ريب فيها، ولكنه يبغضه؛ فيبغض الحق من أجله؛ فينهض للرد عليه بحجج واهية، وأساليب ضعيفة، وإن كان هو قوياً في ذاته؛لأن القلم لا يقوى إلا إذا استمد قوته من القلب، فإذا جيء بالحجج والبراهين لجأ إلى المراوغة والمهاترة،فيقول لمناظره مثلاً: إنك جاهل لا يعتد برأيك، أو إنك مضطرب الرأي لا ثبات لك، تقول اليوم غير ما قلت بالأمس، وهناك يقول له الناس: رويداً، لا تخلط في كلامك، ولا ترواغ في مناظرتك، ولا شأن لك بعلم صاحبك أو جهله؛ فإنه يقول شيئاً، فإن كان صحيحاً فسلم به، أو باطلاً فبين لنا وجه بطلانه.

وهبه قولاً لا تعلم قائله، ولا شأن لك باضطراب صاحبه وثباته، فربما كان

بالأمس على رأي تبين له خطؤه اليوم، والمرء يخطئ مرة ويصيب.

فإذا ضاق بمناظره وبالناس ذرعاً فرَّ إلى أضعف الوسائل وأوهنها، فَسَبَّ مناظره، وشتمه، وذهب في التمثيل به كل مذهب، فيسجل على نفسه الفرار من تلك المعركة، والخذلان في ذلك الميدان.

على أن أكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه، فإنَّ لكل شيء جهتين: جهةَ مدحٍ، وجهة ذم، فإما أن تتساويا، أو تكبر إحداهما الأخرى، فإنْ كان الأول فلا معنى للاختلاف، وإن كان الثاني وجب على المختلفين أن يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق، لا أن يكون كل منهما من سلسلة الخلاف في طرفها الأخير.

كان يقع بين ملك من الملوك ووزيره خلاف في مسائل كثيرة حتى يشتد النزاع بينهما، وحتى لا يسلس أحدهما لصاحبه في طرف مما يخالفه فيه؛ فحضر حوارهما أحد الحكماء في إحدى الليالي وهما يتناظران في المرأة، يعلو بها الملك إلى مصاف الملائكة، ويهبط بها الوزير إلى منزلة الشياطين، ويسرد كل منهما على مذهبه أدلته، فلما علا صوتهما، واشتد لجاجهما خرج ذلك الحكيم، وغاب عن المجلس ساعة، ثم عاد وبين أثوابه لوحٌ على أحد وجهيه صورة فتاة حسناء، وعلى الآخر صورة عجوز شوهاء، فقطع عليهما حديثهما وقال لهما: أحب أن أعرض عليكما هذه الصورة؛ ليعطيني كل منكما رأيه فيها، ثم عرض على الملك صورة الفتاة الحسناء فامتدحها ورجع إلى مكان الوزير، وقد قَلَّبَ اللوح خِلْسَةً من حيث لا يشعر واحد منهما بما يفعل، وعرض عليه صورة

العجوز الشمطاء؛ فاستعاذ بالله من رؤيتها، وأخذ يذمها ذماً قبيحاً، فهاج الملك على الوزير، وأخذ يرميه بالجهل وفساد الذوق، وقد ظن أنه يذم الصورة التي رآها هو، فلما عادا إلى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديد استوقفهما الحكيم، وأراهما اللوح من جهتيه فسكن ثائرهما، وضحكا ضحكاً كثيراً، ثم قال لهما: هذا ما أنتما فيه منذ الليلة، وما أحضرت إليكما هذا اللوح إلا لأضربه لكما مثلاً؛ لتعلما أنكما متفقان في جميع ما كنتما تختلفان فيه لو أنكما تنظران إلى المسائل التي تختلفان فيها من جهتيها، فشكرا له همته، وأثنيا على فضله وحكمته، وانتفعا بحيلته انتفاعاً كثيراً، فما كانا يختلفان بعد ذلك إلا قليلاً.

عاشراً: مقالات في العلم والتحقيق

٥٢ـ العلم والعقل: للشيخ عبدالقادر المغربي

٥٣ـ الإنسان على الأرض: للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

٥٤ـ عمر الإنسان: للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

٥٥ـ الفلسفة والعلم والدين: للشيخ عبدالباقي سرور نعيم

٥٢ العلم والعقل[1] للشيخ عبدالقادر المغربي

إن الإسلام دين علم وعقل قبل كل شيء؛ فهو قبل أن يكلف أتباعه تحصيل أي غرض من أغراض الدنيا يكلفهم بأن يكونوا عقلاء صحيحي الفهم، ثاقبي الفكر، جيدي البصيرة، يتدبرون الأمور قبل الشروع فيها، ويقلبون وجوه الرأي في مواردها ومصادرها، ومباديها ومصايرها؛ فلا تقع إلا على مقتضى الحق والعدل والمصلحة والواجب؛ كما يكلفهم أن يكونوا علماء عارفين بأسباب المصالح، وطرق المنافع، واقفين على الحقائق الكونية، ملمين بتفاصيل التجارب العملية التي اهتدى إليها البشر في سابق أدوارهم، ومختلف أطوارهم مما يتعلق بتصحيح العقائد والعبادات، وتقويم الأخلاق والملكات، وإتقان أمر المعايش والمعاملات، وترقية شأن الصناعات والتجارات، وتحسين سائر مقومات الحياة.

فالقرآن لما دعا الناس إلى الإسلام، وكلفهم قبول تعليمه وهدايته كان يقيم العقل حكماً بينه وبينهم، ويعجب من انصرافهم عنه، وإهمالهم له، وترك الاستضاءة بنوره؛ فكان يقول وهو يحاجهم: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾.

﴿ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾.

---

(١) الحديقة ٨/ ٤٠ ـ ٥٢، عام ١٣٥٠هـ

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾.

و(الأبصار والألباب): العقول، وقد تكرر(أفلا تعقلون) في القرآن بضع عشرة مرة في صدد التوبيخ والتعجيب.

وكفى بهذا مزية ومنقبة للعقل مذ جُعِل للدين أصلاً، ولمصالح الدنيا عماداً.

وإنما حرم الخمر في الإسلام؛ خشية أن يسطو على العقل، فيفسده، أو يضعفه.

والعقل مِلاك سعادة الإنسان، وقوام حياته.

أما العلم فالقرآن رفع من شأنه ونوَّه بمنزلته بما لم يسبقه إليه سابق من الكتب السماوية، فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾

بل إذا تدبرنا أول آيات القرآن نزولاً وجدناها تحض على العلم، وترفع من مكانة العلم، وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾.

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾.

فقد نوَّه في الآيتين بشأن القلم والكتابة، والعلم والتعلم.

هذا الشأن من شؤون الحياة ومصالح الدنيا هو أول ما فاجأ به القرآن البشر المخاطبين، وأوقعه في أذهانهم؛ **أفلا يكون معنى ذلك أن الإسلام دين علم**، وأنه لا يرضى للمنتسبين إليه إلا العلم؟

ولا نظن أن كلمة من كلمات القرآن ـ عدا كلمة «الله» ـ تكررت فيه بقدر ما

تكررت فيه كلمة (العلم).

فالإسلام إذاً هو (دين العلم) كما أنه (دين التوحيد).

ولما أراد الله أن يلقن نبيه ﷺ دعاء يدعو به لقنه أن يطلب في دعائه المزيد من العلم إذ قال له: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾.

والعلم إذا أطلق في لسان الشرع كان المراد به العلم النافع الموصل إلى سعادتي الدنيا والآخرة، ذلك العلم الذي يتعلق بمصالح البشر مباشرة، وله الأثر البيِّن والنفع الظاهر في إتقان تلك المصالح، وإحكام أمرها، وتوثيق عراها.

أما العلوم المبنية على الوهم والتدجيل فإن الشارع لا يقيم لها وزناً.

والعلم لا ينمو في نفس صاحبه إلا بالعمل، والممارسة والتطبيق؛ فإن العمل بالعلم على هذه الصورة يزيده ثباتاً ورسوخاً، ويؤدي إلى انكشاف أمور من ذلك العلم كانت مجهولة، وانفتاح أبواب إلى غوامضه، وأسراره كانت مسدودة.

وهذا الأصل في العلم مما قرره الإسلام أيضاً في جملة ما قرر من الأحكام.

فالعمل بالعلم يتسبب عنه ـ بتيسير الله ـ علم جديد، ومعرفة غضة لم تكن حاصلة من قبل.

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «كل وعاء يضيق بما جُعِلَ فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع».

ووعاء العلم هو العقل، ولا جرم أن العقل يتسع وينمو كلما مُدَّ بالعلم وغذِّي بمسائله، ومن كلام جعفر الصادق: «يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل».

والمسلمون في زمن سلفهم الصالح كانوا على غير ما هم عليه اليوم من أمر العلم والتعلم، وحب الاستطلاع، والحرص على تعرف الحقائق من غير لبس، والجهر بها من دون ما خشية، فلم يكن أحد من الصحابة ولا التابعين يقبل من آخر علماً إلا إذا عقله، وتدبره، وفهم السر فيه، ووجه المصلحة المتأتية عنه، ويقول لراويه انظر يا هذا ماذا تقول، وخف الله، واحذره فيما تروي من النقول.

أما في هذه العصور المتأخرة فقد اختلط الحابل بالنابل، واجترأ الراوي والناقل، وتراكمت على العقول الأبحاث والمسائل، وصار من مقتضى الورع أن يذعن المسلم لكل ما تنقله الرواة، وتتداوله الأفواه، وإن صادم أحياناً أصلاً من أصول الإسلام، ولم يقم عليه دليل ولا برهان.

وهذه الفوضى العلمية التي خالفنا فيها سلفنا الصالح هي من أكبر أسباب انحطاطنا عنهم، وانخزالنا عن مثل مواقفهم، وَفقْدِنا ما كان لهم من عزٍّ وصولة، وملك ودولة، حتى صدق علينا مضمون الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.

ذكر السيد أمير علي الهندي في كتابه (تاريخ الإسلام) أنه كان يكتب على مدخل كل مدرسة في الأندلس هذه العبارة: «الدنيا تستند على أربع أركان: علم الأفاضل، وعدل الأكابر، ودعاء الصالحين، وجلال الشجعان».

وكما حذَّر الشارع من العلم الوهمي الذي لا ينفع حذَّر من دعاته وحملته، ونبَّه الناس إلى غوائلهم.

وعلماء السوء أنواع: الذين يحللون الحرام ويحرمون الحلال، أو يتخذون

العلم حِبَالة لحظوظهم ومنافعهم الخسيسة أو وسيلة للإضرار بالناس، أو يتعلمون من العلم أوهاماً ينافحون دونها؛ ليستفيدوا من ورائها جاهاً أو حطاماً، وغير هؤلاء ممن اتخذ العلم آلة شر وضر وإفساد.

هؤلاء علماء السوء نعوذ بالله من شؤمهم.

٥٣ الإنسان على الأرض[١] للعلاَّمة محمد الطاهر بن عاشور[٢]

جرى بين التلاميذ في خلال زمان قريب كلام في تقدير عمر نوح ـ عليه السلام ـ فحدا بقلم بعض العلماء المحققين[٣] إلى تبيان الحق، ذلك البحث الذي نشرته مجلة السعادة العظمى في عددها الرابع.

ولقد أجاد في دفعه وأقنع، ولكن أرى بقية تبيان هذه المسألة وتعضيداً للكاتب الأول بالتحقيق النظري، والسنة الطبيعية عادلاً عن توجيه إمكانه بفلتات الطبيعة؛ فإن الطبيعة إذا فلتت في عام أو عامين أو قرن أو قرنين، لا تذهب في فلتتها إلى حدّ آلاف سنة، ثم إن الآية تقضي أنه لبث في قومه تلك المدة، والقوم هم هم بحسب ما يعرف من بقاء قوم الرجل معه، وأنهم الذين استأصلهم الله تعالى بالطوفان، كما داموا على كفرهم والسخرية بشرعة ربهم.

ومن المحال أن تكون هاته كلها فلتات من الطبيعة، ونشر هاته المسائل بعد طيِّها هو الذي قضى علينا أن لا نتركها تلوح وما تلوح، وتناجي بسرها وما تبوح.

ستكون خطة بحثنا هنا في التحقيق: هل منح الإنسان بمائة وعشرين سنة من

---

(١) السعادة العظمى، العدد ٦ ربيع الأنور ١٣٢٢هـ، ص٨٧ـ٩١، وقد كتبها رحمه الله وعمره خمسة وعشرون عاماً.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

(٣) الشيخ محمد النخلي.

العمر موهبة طبيعية أم جعلية؟ وهل هي هبة قديمة تقارن نشأته أم طارئة على ذلك بحدثان ؟

يثبت علم الجيولوجيا ـ وإن اختلفت آراء أصحابه في طرق الإثبات ـ أن الأرض التي نحن عليها قد مرَّت عليها تقلبات مهولة معجبة في أحقاب طويلة جرَّاً طولها العلامة «هتون» الجيولجي البركاني الشهير أن يقول «إني لم أجد في بنية العالم أثراً للبداية ولا أملاً بالنهاية».

وأثبت أن الأرض ما كانت في ابتداء نشأتها في الزمن الأول من الأزمان الكبرى التي تبدلت فيها أطوارها كما هي اليوم، ولا كانت في الزمن الثالث الذي خلقت فيه الحيوانات والإنسان كما كانت أولاً[1] ولا تكون غداً كما تكون اليوم، بل هي كأبنائها يَعْتَورها طفولة وشباب، وفتوة وهرم.

والذي أنبأهم بذلك ما وجدوا في البحث عن أعضاء الحيوان من جثث

---

(١) هذا شيء اصطلحوا عليه أنتجته الفلسفة الجيلوجية والنظر في تكوين الأرض بآثارها طبقاتها، قسموا أزمان الأرض باعتبار أطوار عظيمة مرَّت على خلقتها إلى أربعة أقسام:

الأول: زمن تكوين الأرضين الأصلية وهي الصخور العرية عن الحفريات «أي المسام التي يمكن أن تبرز نباتاً».

الثاني: زمن رسوب الأرضين الثانوية المركبة من طفل وفحم وحجارة جيرية ورملية.

الثالث: الذي خلق فيه الحيوان والكائنات العضوية.

الرابع: ما نشأ بعد الاختلاط الطوفاني من نقل الماء أتربة المواضع بعضها إلى بعض وتسمى الأرضين الطوفانية.

كائنات عضوية لا تعرف في كائنات العصر الذي دون فيه تاريخ العلوم، والذي ابتدأ البشر فيه كتابة مشاهداتهم، لا نقول قبل أن يكتب أرسطو كتاب نعت الحيوان، بل قبل أن ينقش سكان وادي النيل على مسلاتهم ونواويسهم صور حيواناتهم المعروفة، وقبل أن يرسمها مصورو قرطاجنة على الفسيفساء[1].

ما أشبه الليلة بالبارحة، لم يزل التاريخ يعضد بعضه بعضاً، قد أثبت العلماء اليوم أن «الكركدن»[2]قد أخذ ينقطع تناسله منذ مدة، ولا يلبث معنا على الأرض غير زمن قليل حتى يبارحنا ملتحقاً بإخوانه من أصناف الحيوان التي أخنى عليها مرُّ الزمان، فإذا كان اليوم من يتنافس في قرنه يضع الإناء المنحوت منه في مواضع التباهي والفخر فما نحن ببعيد أن نصير نتنافس اقتناء عظامه من طبقات الأرض ومصارع الهلك؛ لنضعها بالمشاهدة العمومية والمكاتب الزولوجية؛ تعليماً لخلفنا، وتصديقاً لسلفنا.

---

(١) هي المسماة اليوم «موزاييك»وهي قطع صغيرة من الحجارة المنحوتة يحصل من التئامها صور وأشكال من تلوين أجزائها اللطيفة.

(٢) وربما قيل الكركند حيوان يسميه العرب الحريش أخذاً من الأحرش، لخشن الظاهر من الحيوان وغيره لأن جلده شديد، وحسبه أنه لا تعمل فيه طعنة ناب الفيل إذا احتدما لخصام، ذكره صاحب القاموس وشدد داله، ونسب تشديد نونه إلى العامة، وذكره في (ح ر ش) من الصحاح ويسمى الحمار الهندي وهو عدو الفيل له قرن على رأسه يفتك به فتكاً شديداً، وله شبه بالفيل في جلده وبعض خرطومه، ولكن له شبه بالحمار؛ من أجل ذلك قيل في الخرافات أنه متولد بين الفيل والفرس، قضى ثقل قرنه عليه أن يكون مطأطئ الرأس لا عن حياء بل عن مكر ودهاء، ويقول البعض إن الحرش غيره، وهو غلط والبعض إنه ضرب منه.

هذه الأطوار التي لحقت كرتنا، فصرعت أصنافاً من الحيوان شديدة القوى، ورمتها رمي الملتقف أيدي الزيال والنوى ما نالت من الإنسان ما نالت من غيره، كأن حيلة البشر قد أنجته من حيث لا يجد حيلة، وكأن هذا الضعف الذي كان قرينه - وإن أضرَّ به عند ملاقاة الضواري - فقد نفعه يوم تركه يتعظ بمصارعها، ويربع في مراتعها، كما اللين الصوفة حين تدقها المطارق، وأضرها حين ترمي بها الرياح فجاج المخارق، لكنها نالت منه شيئاً واحداً، هو عدم نسبي، وهو الأخذ من العمد؛ فقد كان البشر في أول العالم يبلغ بعيشه إلى ألف من السنين، دام على ذلك يبسط لها يداً، ثم ينفضُّ عنها وما يبعد أحداً حتى رمى الله هذا العالم بالطوفان الكبير في آخر حياة نوح - عليه السلام - فذلك كان الطور الرابع للأرض أنهك من قواها ما أنهك، وأبرد من حرارتها ما أبرد، يومئذٍ كتب الله على البشر، كما تقول التوراة، أن لا يعيش أكثر من مائة وعشرين سنة، ولكن التوراة أثبتت أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب ومن عاصرهما من ذوي الأسماء قد جاوزوا بآجالهم هذا العمر المكتوب على البشر دام ذلك إلى زمن موسى.

وفي الحقيقة ما كان الطوفان إلا حائلاً للبشر دون العيش المديد، ولكنه ترك بقية تزيد على المائة والعشرين وإن كانت هي الغاية المقصودة غبَّاً على ما تذكر التوراة، ولكن الوصول إلى الغايات في ناموس الكون الذي سنه الله - تعالى - لا يكون إلاَّ على درج الوصول التدلي هبوطاً والارتقاء صعوداً ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ الأحزاب: ٦٢.

ولقد أفضى ضعف الأرض بالإنسان إلى أن صيَّر عيشه إلى الأجل الموهوب له

بعد النجاة من أهوال الطوفان شيئاً نادراً هو المعدود من فلتات الطبيعة، وما عيش مائة وعشرين سنة اليوم ومائة وثلاثين إلاَّ شيئاً واحداً في الوقوع من الندرة والتعجب الموقع المتطرف.

وقد يعد كثير من العلماء العمر الطبيعي اليوم مائة سنة فقط، وهو المعضود بالتجربة التي هي آخر ملجأ نريد أن نثوب إليه في تحقيق العمر الطبيعي في كل عصر.

قد رأيت أن المائة والعشرين من السنين ما كانت إلا موهبة طبيعية باعتبار زمن معلوم ومبتدأ طور أخير من أطوار الأرض، هو خاتمة الأطوار المزعجة، والانتقالات المهولة.

وأما انتقالها بعد ذلك في مراتب الضعف ومتابعة كل من عليها لها في هذا الانتقال فشيء تدريجي خفي، كما ينتقل الرجل كل يوم إلى وهدة من وهدات السقوط بعد اكتهال، أو انتقال اليافع إلى ربوة من النهوض قبل الفتوة.

واستقراء أحوال عيش الأمم في كل عصر هو معدل العمر الطبيعي فيه.

لاشك أن وراءنا من أخبار العالم أعجب مما رأينا، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ﴾ الفرقان: ٣٨.

وكتاب آنسنا صدقه في غير موضع، وآمنّا به في كل عظيم، وبعد أن رأيناه والزمان ينصره في كل آونة، ويصدِّق وعد الله ـ تعالى ـ الذي وعد بقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فصلت: **٥٣**، ما كان ينبغي لنا أن نسرع إلى

منابذته لنعق ناعق، أو نخنع فيه إلى سوق سائق، بـل نجعلـه الـشهيد وإن تمـالأت على غيره الخلائق، وسنجد من معونة الله ـ تعالى ـ وَعِدتِه ما يصوِّب أعمالنا إن كنا شبح اليوم أو هامة غد، والله يفتح بصائر المؤمنين إلى مقدرة قدر أمور أدركها منكروها، وعذر فيها بعد الخبرة واشوها.

٥٤ عمر الإنسان[١] للعلاَّمة محمد الطاهر بن عاشور

كتبت في مجلة السعادة في عددها السادس شذرة في عمر الإنسان تحت عنوان «الإنسان على الأرض» جعلتها تعضيداً لمن كتب في عددها الرابع كلمة «عمر الإنسان الطبيعي».

ولكن اتحدت الوجهة واختلف الطريق، فإني عدلت عن اعتبار الفلتات الطبيعية في عمر الإنسان؛ لأني رأيته جواباً على تسليم الأصل الذي بنى عليهم الشاكون شكهم، وإنما أردت البحث في مستند الأصل الذي أصَّلوه أن عمر الإنسان لا يتجاوز المائة والعشرين سنة؛ من أجل ذلك بحثت في المسألة بحثاً فلسفياً ترديدياً؛ ليرى المبصرون أنْ لا دليل من العقل يجعل هذا الحد طبيعياً للبشر، وأنْ ليس المرجع في هاته التحديدات إلاَّ لاستقراء غالب عيش الأمم في كل عصر.

وإذا كان ما حددوه عمراً للإنسان منذ كتب البشر التاريخ، ونشهد أنه قد انحطَّ في عصرنا هذا عن ذلك الحد ـ فلا بِدْعَ أن يكون قبل ذلك أطول، لاسيَّما وقد أثبت العلم يقيناً باختلاف أطوار مرت على الأرض، وأنها كأبنائها يعتورها طفولة وشباب وهرم، ذلك كله بَيَّنَّاه فيما كتبنا أولاً مع بسط وترديد.

ومما زاد بي عدولاً عن اعتبار الفلتة أنَّ الأطباء الذين إليهم المرجع في هذا التحديد يرون أنه لا يمكن أن يتعدى الإنسان ما حدّ له من العمر، بل يتحلل إن بلغه تحللاً، وما بالطبع لا يتخلف ولا يختلف.

---

(١) مجلة السعادة العظمى عدد(٨)، ١٦ربيع الثاني ١٣٢٢هـ، ص١١٩ـ١٢٢.

ولا ينقص من شجاعتنا على هدم هذا الأصل، أن يصادق عليه الشيخ ابن خلدون و الفخر ابن الخطيب ـ رحمهما الله ـ فإنا لا نعلم الأول إلا فيلسوفاً تاريخياً، ولا الثاني إلاَّ رجلاً عالماً له سعة اطلاع على كلام الحكماء لم يخوِّله مرتبة الحكم اليقيني أو يكسبه صوتاً معهم.

وما كان واحد منهما بالفيلسوف الطبيعي، وإنما ذكرا ذلك الكلام في كتابيهما كما تذكر الأصول الموضوعة في كتب العلوم.

ثم أضفتُ إلى ذلك أدلةً ما تصل إلى إيثار اليقين، ولكنها لا تقصر بعد اجتماعها عن أن تكسب الحق قوة، منها: أن الأصل في الفلتات القلةُ، والفلتة ـ وإن لم يضعوا لها حداً تقف عنده ـ إلاَّ أنَّ اسمها وحده كافٍ في اعتبار قدرتها كمًّا وكيفاً، ولو كثرت لانقلبت عادة؛ إذ ليس أصلها من الأحكام العقلية التي لا يخرج الشاذ منها عن شذوذه ما بلغت به الكثرة.

وظاهر القرآن والتاريخ يقتضي أن نوحاً ـ عليه السلام ـ عاش هذا الزمن وقومه هم هم، وأنهم الذين عاقبهم الله ـ تعالى ـ بالطوفان ومن الآيات التي تقتضي طبيعة سوقها ذلك قوله ـ تعالى ـ في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ

مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُون (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ الشعراء.

وأما احتمال أن المعاقبين خلفهم فشيء بعيد عن سنة الله في الخلق، وإذا كان طول عمر نوح معجزة فمن الضروري أن يقارنها القوم المتحدين بها ليشهدوا بآيات ربهم.

ومن الأمثال التعجبية «الآباء يأكلون الحصرم، والأبناء يضرسون».

ومنها أن الطوفان قد أبرد حرارة الأرض وأنهك قواها، وذلك لنجعل مناسبة لاقترانه بقِصر عمر البشر؛ تصحيحاً للتاريخ العتيق بالإمكان كما تقتضي مدارات هذا الزمان، ولا شك أنه إن أفقد شيئاً عظيماً من حرارة الأرض ـ وحق له أن يفعل ذلك فإنه ما كان وادياً فائضاً أو مطراً وابلاً، ولكنه غمر ماء يعم الأرض كلها إلى قمم أشهق جبالها فماذا ترى مثل هذا الفعل ـ فقد أعدمها شيئاً ما كان ليرجع إليها من بَعْد.

وإذا كان الطوفان قد أتى على جانب عظيم من الأرض فلا بِدْعَ إنْ هو أنهك بعض قواها، وأبرد من حرارتها جزءاً عظيماً تسري أدواؤه إلى كلها، كما يصاب الجسم الواحد في بعض مواضعه فيألم كله، إذا صح عدم عموم الطوفان.

وربما وجدنا الأمم التي لم يصلها على هذا التقدير أطول أعماراً من الأمم التي يسمونها طوفانية.

ومن العجائب التي تنافي ما ينتحله الشيخ ابن خلدون من الفلسفة، أن تسمعه يسند طول عمر نوح إلى قرانات كوكبية غريبة، ناسياً أن الكواكب التي اقترنت ما طلعت على نوح وحده، بل على العالم كله؛ فمن الواجب أن يعيش كل البشر الموجود يومئذ كما عاش نوح حذو النعل بالنعل؛ فلا معجزة ولا خصيصة.

وتأثير الكواكب في بعض الأشخاص دون بعض من تدجيلات الكهان، التي ما كان ينبغي أن تأخذ مكاناً من عقل الشيخ ابن خلدون حتى يشوه بها كتابه، ويموه صوابه.

ثم ماذا يصنع في أعمار غير نوح من الأنبياء وغيرهم الذين ذكرتهم التوراة «العهد القديم» وهي الملجأ في التاريخ العتيق «المقدس».

أنا لا أرى هذا التحديد المنسوب للحكماء إلاَّ شيئاً سرى لهم من قولها في سفر التكوين ص٣٦: «فقال الرب لا يدين روحي لي الإنسان إلى الأبد لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة».

وربما لوَّحْنا فيما كتبنا أولاً إلى الانزواء عن الحكم فيه بعد ما رأينا من ذكرها أعماراً أخرى من الطوفان أطول من الأجل المكتوب.

نعم قد كان نوح أطول ذوي الأسماء التاريخية عمراً حسب ما يؤخذ من الأعمار المسرودة في التوراة، ولكن ذلك لا يوجب له خاصية ولا يقتضي قراناً أو طالعاً أو جواً خاصاً إنما هي اتفاقية لازمة في كل ما يقال عليه بالتشكيك، فكل أفراد تشككت في شيء مهما بلغت كثرتها فإن نسبة أقصر أفرادها إلى الذي يليه كنسبة أدناها إلى الذي فوقه، وتجد نسبة أطول رجل في العالم للذي يليه كنسبة

آخر قصير لأقصر رجل، وما ذلك لقرانات أو معجزات وإلاَّ لكان لكل صنف قران خاص، وجو خاص إن شئت وطبع خاص، ولعل هذا يشوش الطبيعة ويكثر حركة الكون.

هذا هو المراد من المنع، ووجه العدول عن التسليم لأصلهم، حتى نخنع إلى الاعتراف بالفلتة، والله أعلم بصحة ما نقول.

٥٥ الفلسفة والعلم والدين[1] للشيخ عبدالباقي سرور نعيم

الفلسفة عبارة عن نظريات محدودة تفسر بها ظواهر الكون، وهي مذاهب مختلفة تتجلى فيها شخصية أصحابها، وما كانت قط علماً خاصاً له موضوع وغاية، بل هي في الحقيقة مذاهب تقوم في كثير من نواحيها على الاستنتاج كما تقوم على الظن الشخصي تارة، والرغبة والميل تارة أخرى؛ فنظرياتها ليست وليدة الاستنتاج دائماً، ولا ناشئة عن التفكير المنطقي غالباً، بل كثيراً ما تكون ناتجة عن الميل الشخصي، أو حب المتابعة والتقليد لفيلسوف سابق؛ فالمذهب الجديد يضم بين جوانبه قضايا مسلمة كثيرة، بعضها مأخوذ بالحرف من مذهب سابق، وبعضها قائم على الهوى والميل الشخصي.

ومن أجل ذلك كثرت المذاهب الفلسفية، وتعددت وناقض بعضها بعضاً؛ ذلك بأنها غير قائمة على قواعد متفق عليها، ولا على بَدائِهَ معترفٍ بها، بل قائمةٌ على التقليد تارة، وعلى الهوى والميل تارة أخرى.

ومن هنا كانت المذاهب الفلسفية ضعيفة الأثر في هداية الناس إلى سعادتهم الدنيوية فضلاً عن سعادتهم الدينية.

أما العلم فهو ينقسم إلى قسمين: قسم عملي أنتج الماكينات والآلات والأجهزة، وهذا بالطبيعة قد أنتج تقدماً دنيوياً، وساعد على رقي الحضارة.

والقسم الثاني: هو الفروض التي فرضها العلماء وسموها نظريات العلم،

---

(١) الحديقة ٥/ ١٥٦ ـ ١٦١، عام ١٣٤٩هـ

وهذه قابلة للتغيير والتبديل، وما وضع منها من مدة قرن لا يبقى منه في القرن التالي إلا نظرية أو نظريتان، والباقي له قيمة محدودة بالزمان.

لا يمضي على الفروض العلمية جيل أو جيلان حتى تأخذ العقول في وزنها، والبحث عن قيمتها، والفحص عن نصيبها من الصحة ومطابقة الواقع.

وينتج من هذا الوزن والبحث أساليب حديثة تكتسح طرق التفكير العتيقة؛ فينتابها التغير، وتخضع لمبادئ مستحدثة؛ فكل قرن له أساليبه وفروضه، وكل قرن يأتي بتبديل وتغيير في أساليب البحث وفروض العلم.

والجاهل الغبي يظن أن فروض العلم ثابتة لا تتغير، مع أن نظريات القرن السابع عشر قد أتت عليها نظريات القرن الثامن عشر، وفروض القرن الثامن عشر قد محتها فروض القرن التاسع عشر.

ذلك شأن العلم في سيره، وتلك سنته في حياته، لا يبقى منه سوى ما صلح للعمل، وأصبح ملك المعامل والمصانع.

أما ما في الكتب فهو عرضة للتغير وللتبدل؛ لأن حركة العقل في تقدم، والفروض ما وجدت إلا لتفنى، وقد كتبت على أنها فروض لا على أنها حقائق؛ فمن الجهل والظلم للعلم أن نظن أن فروضه ونظرياته حقائق ثابتة لا تقبل النقص.

من هنا يتبين لك أن الحقائق العلمية شيء والنظريات العلمية شيء آخر.

وهنا يأتي سؤال: هل بين العلم والدين تناقض؟ وهل بين الدين والفلسفة تنازع؟ وهل يمكن أن يتآخى العلم مع الدين؟

قبل الإجابة على هذه الأسئلة ينبغي أن يحدد معنى العلم تحديداً تامًّا؛ فإن أرادوا من العلم المعنى الواقعي الحسي الذي أنتج الحضارة فليس بينه وبين الدين تناقض ألبته؛ لأنه عبارة عن تطبيقات تعمل في المعامل، وهذه الأمور لها دخل في إصلاح البشرية وتهذيب الحضارة، وهي بهذا الاعتبار غرض من أغراض الشارع يأمر ويحث عليه؛ فهي من مطالبه، وداخلةٌ في فروض الكفايات؛ فلها نصيب وافر من أوامره وتعاليمه.

أما إن أريد بالعلم تلك الفروض التي يفرضها العلماء وهي قابلة للتغير والتبدل ـ فالأمر يحتاج إلى تفصيل: فتارة تكون تلك الفروض قريبة من المعنى العلمي أي بينها وبين المحسوسات درجة واحدة من الاستنتاج، وهذه لقربها من المحسوسات لا تصادم الدين؛ لأنها تبحث فيما يقرِّب من عمل المعامل، وغايتها ضبط الصور المتعددة، ووضعها تحت نظام كلي بقدر الإمكان.

وتارة تكون باحثة في أصل الكائنات، أو أصل الأنواع كفروض دارون، وهي في الواقع ليست حقائق علمية، بل مذهب فلسفي لا يجوز أن يطلق عليه اسم العلم، وإن ادُّعي فيه ذلك؛ لأن مواد الدليل غير موجودة، بل هو قائم في الحقيقة على قياس التمثيل، وهو لا يفيد إلا ظنًّا ضعيفاً، خصوصاً إن كان قياس الغائب على الشاهد.

وهذا النوع إن وجد فيه ما يصادم الدين، أو يناقضه فلا يضر الدين في شيء؛ لأنه ليس من العلم القائم على الحس والمشاهدة، أي ليس من العلم الواقعي، بل هو محض فرض تُتَخَيَّل له علاقات منتزعة.

أما الفلسفة فلا تضر مخالفتها للدين؛ لأن مذاهبها متباينة متخاذلة، فإذا لم يُتَّفَقْ فيها على مذهب صحيح كانت المذاهب كلها عرضة للخطأ، وإذا كانت عرضة للخطأ لم تكن حسية واقعية فهي تحمل في كيانها عوامل انخذالها ودحضها.

هذا هو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال.



حادي عشر: مقالات في اللغة والأدب

٥٦ـ طرق الترقي في الكتابة: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٥٧ـ اللغة والأمة: للأستاذ محمد صادق عنبر

٥٨ـ البيان: للأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي

٥٩ـ قوة التخيل وأثرها في العلم والشعر والصناعة والتربية: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٥٦ طرق الترقي في الكتابة[(١)] الشيخ محمد الخضر حسين

ليست هذه الصناعة كغيرها من الفنون لها قواعد مضبوطة ومسائل مدونة يتدارسها الكتاب، فتنتهي بهم إلى معرفة إيراد الكلام في معاريض الفصاحة وحسن الاطراد في أنحائها، وإنما هي عبارة عن تنبيهات ترشد إلى الجهات التي تنمو بها قوى التفنن في تصاريف الألفاظ، والتأنق في تحسين هيأتها التأليفية.

ولا نستفيق جهداً - إن شاء الله - في البحث عن تلك التنبيهات واستقصائها، والإيماء إلى الكيفيات التي ينبغي أن توضع التراكيب في قوالبها؛ عسى أن تبعث تذكرتها في أفئدة نصراء اللغة العربية من أبناء هذا العصر نشاطاً جديداً؛ فيجهدوا أنفسهم عصبة واحدة؛ ليلجوا بنا في حدائق ناضرة، ومروج خَضِرة مما تستبدعه الأنفس، وتلذه الأسماع.

الإجادةُ في وضع الأقاويل أحكم وضع لا يأخذ بناصيتها إلا من كانت له قوةٌ حافظة، وقوة مائزةٌ، وقوة صانعةٌ؛ **فالقوة الحافظة** يستوعب بها الكاتب من مواد اللغة ما يسعه لكل غرض يأخذ في تفصيله وتفهيمه، حتى يكون آمناً مطمئناً من أن يكبوَ لسانه عِيَّاً وفهاهةً عندما يدفع لوصف خيل، أو نظام جيش، أو حالة حصن، أو سلاح، أو معمل أو صورة حرب مثلاً.

والقوة المائزة يمتاز بها ما يحسن من الكلام بالنظر إلى ترصيف كَلِمِهِ، وتآلف

---

(١) السعادة العظمى - عدد٨، ١٦ربيع الثاني ١٣٢٢ المجلد الأول، ص١٥٤-١٥٦.

حروفه، بالنسبة إلى المقامات التي يوجه إليه بسياقاته؛ فقد يتفق مِقْولان لشخص واحد، ويكون أحدهما أحسن في نفسه، والآخر أحسن بالنسبة إلى موقعه.

والقوة الصانعة هي التي تتولى العمل في ترتيب الألفاظ والمعاني، والتدرج من بعضها إلى بعض، فَتُصْدِرُها ملتئمة النسج غير متخاذلة النظم، بريئة من التمايز الذي يجعل كل جملة كأنها منحازة بنفسها.

لا تكمل القوة المائزة إلا بالانصباب على مطالعة المنشآت البعيد الغور في بيانها، المنتمية إلى الطرف الأعلى في عذوبة ألفاظها ورشاقة معانيها، وبتوسم ما أُرْسِل في طيّها من الاعتبارات المناسبة بذوق جيّد ومَهَلٍ في النظر؛ فمعرفة الفنون البلاغية وحدها غير كافية لاستواء هذه القوة واستحكامها؛ فقد نجد في المتضلّعين من قوانينها الخبيرين بِلُحْمَتِها وسُدَاها مَنْ لا يفرِّق بين الأقاويل المتفاوتة في بلاغتها وصفاء ديباجتها، وإن ارتفع بعضها فوق بعض درجات.

ولا تبلغ القوة الصانعة مبلغ التمكن وسرعة الترسل إلا بعد ارتياضها بالتمرين، والاستخدام في كل غرض تحقق عليه إرادتها في أزمنة متوالية.

ومما يربط بالأسف والتحسر على قلب كل مسلم أينع في صدره غُصْن الغيرة على اللغة الفصحى ـ أنك ترى في الذين أوسعوا العلوم الأدبية خبرةً، وساروا في التطلع على الإنشاءات الرفيعة عَنَقاً فسيحاً [1]، حتى أدركوا مغامزها، وأشرفوا

---

(١) هذا تضمين لقول الشاعر في الشاهد النحوي:

يا ناق سيري عنقاً فسيحاً ... إلى سليمان فتستريحا

والشيخ الخضر رحمه الله إمام في الاقتباس والتضمين.

على ما وراء أَكَماتها ـ يعجز عن التصرف في صوغ فقرات تَلُمُّ شقاقاً، أو تؤكد إخاءاً مثلاً؛ ذلك لفقده القوة الصانعة، التي لا يقيم صلبها إلا الإدمان على العمل، وهو القاعدة التي يجري عليه كل تقدم وارتقاء.

ومن الطرق التي تنهض بالكاتب في زمن يسير، وتساعد قوته الصانعة على الإجابة في طرفة عين، وتطبع في صحيفتها مَلَكَةَ الهجوم على المعاني وبثِّها في ألفاظ رصينة غير متوعرة ـ انحيازه إلى دَرَيٍّ بشعاب هذه الصناعة يقف به على المنافذ التي يسري منها الخلل إلى التأليف، ويبصره بالمذاهب التي ارتقت من نحوها التحارير الفائقة.

ولقد قال أئمة الصناعة الشعرية: لا تجد شاعراً إلا وقد لزم شاعراً آخر المدة الطويلة، وتَعَلَّم منه قوانين النظم، واستفاد منه الدَّرَبة في أنحاء التصاريف البلاغية؛ فقد كان كثيِّر أخذ علم الشعر عن جميل، وأخذه جميل عن هدبة ابن خشرم، وأخذه هدبةُ عن بشر بن أبي خازم، وكان الحطيئة قد أخذ علم الشعر عن زهير، وأخذه زهير عن أوس بن حجر، وكذلك جميع شعراء العرب المجيدين، والشِّعر والكتابة أخوان.



٥٧ اللغة والأمة[1] للأستاذ محمد صادق عنبر

اللغة من الأمة كالقلب من الجسم: كلاهما ألطف شيء وأدقه، وكلاهما لا تكون بدونه الحياة.

وما من أمة خلعت دهراً لبسته، فخرجت بذلك من ماضيها، وطفقت تعمل لحاضرها وتمهد لمستقبلها ـ إلا كانت لغتها معقداً لهذه الأطراف الثلاثة من التاريخ؛ ذلك أن اللغة من مُشَخصات الأمة الناطقة بها؛ فما فرَّطت أمة في جانب لغتها إلا كان ذلك إيذاناً بفدح مصابها، أو إيذاناً بوشك ذهابها، بل ليس هذا التفريط إلا انقطاعاً من سلك التاريخ، وما انقطعت أمة من سِلْكه إلا جهلته، فكان مَثَلُها مثلَ الرقيق الذي يألف من فقدان حريته أن يجهل حريته إذا مَلَكَ أمرَه؛ فهو إن لم يجد مالكاً يسخره كرهاً سخَّر نفسه طوعاً على أن يؤجر بمساك حياته؛ إذ تكون حريته مادة في معدته بعد أن كانت معنى روحانياً في فطرته.

أجل، إن اللغة وِصْلةٌ بين غابر وحاضر؛ فإذا ضاعت لغةُ أمةٍ انقطعت أواصر النسب بين السلف والخلف، وفقدت الأمة بفقدان لغتها سجلها الحي؛ فالتوى لسانها الناطق، وسكن قلبها الخافق، وفي بعض ذلك كل الموت.

وأنت ألست ترى إذا ذهبت توازن بين أخطار الأمم أن أهونها على الدهر خطراً هي التي جهلت لغتها، وما لغتها إلا لسان تاريخها؛ فلم تعد ترتبط من الزمان بصلة، وكان من الهيِّن على من يشاء أن يستلحقها وهان عليها ـ أيضاً ـ

(١) الحديقة ٥/ ١٠٨ ـ ١١١، عام ١٣٤٩هـ

أن تلتحق بكل تاريخ كما يلحق الخادم بكل من يستخدمه لا يميز بين سيد وسيد إلا بمقدار الأجر الذي يبيع به كرامته، ويشتري به مهانته.

وهل تفرق بين أمة بليَ فيها لسانها، وأمة غابرة بليت عليها أكفانها، وكلتا الأمتين ميتة، إلا بأن الأولى لم يُشَقَّ لها قبر!

ألا إن اللغة تَرِكةُ الماضي، وغنى الحاضر، وميراث المستقبل، وهذه الثلاثة الأزمنة هي كل أعمار الأمم في التاريخ؛ فما أرى إذا أضاعت أمة لغتها بأي شيء يشار إليها، وبأي دلالة يُدَلُّ عليها، ولا أعرف إذا لم تتميز جنسية أمة بلغتها أي حد يفصل بينها وبين غيرها من الأمم.

ولقد علمنا أن لكل أمة شاهداً من لغتها على ما فطرت عليه من دِين، ودوّن لها من تاريخ، وعرف عنها من نسب ومدنية وفنون، ففقدان أمة لهذه الثورة المعنوية اعتراف منها بسفاهتها، وبأنها في حاجة إلى القوّام.

ولقد أراق الكتّابُ كثيراً من المداد في بيان أن اللغة هي الأساس الذي يقام عليه بنيان الوحدة في كل جنس، وأنها هي الصلة الحسية بين المتكلمين بها أفراداً، وصورة الحياة الاجتماعية عندهم تركيباً؛ وكفى في الدلالة على ما بين اللغة والأمة من علاقة وثيقة أنك لا تجد أمة في مكان من العزة مكين إلا حيث تجد لغة أهلها قائمة السلطان على الألسنة، ولا تجد لغة عرضة لغائلة الحوادث إلا حيث تجد أمة عرضة لعوادي المقادير.

ألا إن اللسان من حيث هو مضغة مرآة للصحة، ومن حيث هو لغة مرآة للأمة؛ فأخلق بأمة تُسلم لغتها للفناء أن نقرأ عليها منذ الآن قصائد التأبين والرثاء.



البيان[1] للأديب مصطفى صادق الرافعي

لا وجُودَ للمقالة البيانية إلا في المعاني التي اشتملتْ عليها يُقيمها الكاتبُ على حُدود ويديرها على طريقة، مُصيباً بألفاظه مواقعَ الشعور، مثِيْراً بها مكامنَ الخيال، آخذاً بوزن، تاركاً بوزن؛ لتأخذَ النفس كما يشاء وتترك.

ونقلُ حقائق الدنيا نقلاً صحيحاً إلى الكتابة أو الشعر هو انتزاعها من الحياة في أسلوب وإظهارها للحياة في أسلوب آخرَ يكون أوفى وأدقَّ وأجملَ؛ لوضعه كلَّ شيءٍ في خاصِّ معناه، وكشْفِه حقائقَ الدنيا كَشْفَةً تحت ظاهرها الملْتبس، وتلك هي الصناعة الفنية الكاملة، تستدرك النقص؛ فتتمه، وتتناول السرَّ؛ فتُعلنه، وتلمس المقيَّد؛ فتُطلقُه، وتأخذ المطلقَ؛ فتحُدُّه، وتكشف الجمال؛ فتظهره، وترفع الحياة درجةً في المعنى، وتجعل الكلامَ كأنه وجد لنفسه عقلاً يعيش به.

فالكاتبُ الحقُّ لا يكتب ليكتب، ولكنَّه أداة في يد[2] القوة المصوِّرة لهذا الوجود، تُصوِّرُ به شيئاً من أعمالها فنّاً من التصوير، الحكمةُ الغامضةُ تريده على التفسير، تفسيرِ الحقيقة، والخطأ الظاهر يريده على التبيين، تبيينِ الصواب، والفوضى المائجةُ تسأله الإقرار، إقرارَ التناسب، وما وراء الحياة، يتخذ من فكره صلةً بالحياة، والدنيا كلها تنتقل فيه مرحلةً نفسيةً لتعلوَ به أو تنزل، ومن ذلك لا يُخلق المُلْهم أبداً إلا وفيه أعصابه الكهربائية، وله في قلبه

---

(١) وحي القلم ١/١٥

(٢) لعلها: في يده (م)

الرقيقِ مواضعُ مهيَّأة للاحتراق تنفذ إليها الأشعةُ الروحانية، وتتساقط منها المعاني.

وإذا اختير الكاتب لرسالة ما، شعر بقوة تفرض نفسَها عليه، منها سِنادُ رأيه، ومنها إقامةُ برهانه، ومنها جمال ما يأتي به، فيكون إنساناً لأعماله وأعمالها جميعاً، له بنفسه وجودٌ ولد بها وجودٌ آخر، ومن ثَمَّ يُصبح عالَماً بعناصره للخير أو الشر كما يوجَّه، ويُلقى فيه مثلُ السر الذي يُلقى في الشجرة لإخراج ثمرها بعمل طبيعي يُرى سهلاً كلَّ السهل حين يتمُّ، ولكنه صعبٌ أيُّ صعب حين يبدأ.

هذه القوة هي التي تجعل اللفظة المُفْرَدَةَ في ذهنه معنىً تاماً، وتحول الجملة القصيرة إلى قصة، وتنتهي باللمحة السريعة إلى كشف عن حقيقة، وهي تخرجه من حكم أشياء ليَحكُمَ عليها، وتُدخله في حكم أشياء غيرها لتحكم عليه، وهي هي التي تميز طريقته وأسلوبَه، وكما خُلقَ الكونُ من الإشعاع تضع الإشعاعَ في بيانه.

ولابد من البيان في الطبائع الملْهمة ليتَّسع به التَّصرف؛ إذ الحقائقُ أسمى وأدقُّ من أن تُعرفَ بيقين الحاسة أو تنحصر في إدراكها، فلو حُدَّت الحقيقة لما بقيت حقيقة، ولو تلبَّسَ الملائكةُ بهذا اللحم والدم لبطل أن يكونوا ملائكة، ومن ثَمَّ فكثرة الصور البيانية الجميلة، للحقيقة الجميلة هي كل ما يمكن أو يَتَسَنَّى من طريقة تعريفها للإنسانية.

وأي بيان في خُضرة الربيع عند الحيوان من آكِلِ العُشب إلا بيانُ الصورة

الواحدة في معدته؟ غير أن صور الربيع في البيان الإنساني على اختلاف الأرض والأمم، تكاد تكون بعدد أزهاره، ويكاد الندى يُنضِّرها حسناً كما يُنضره.

ولهذا ستبقى كل حقيقة من الحقائق الكبرى ـ كالإيمان والجمال، والحب، والخير والحق ـ ستبقى محتاجةً في كل عصر إلى كتابة جديدة من أذهان جديدة.

وفي الكتَّاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتي ألفاظُهم ومعانيهم فنّاً عقليّاً غايتُه صحةُ الأداء وسلامةُ النَّسق، فيكونُ البيانُ في كلامهم على نَدْرَة كوَخْزِ الخُضرة في الشجرة اليابسة هنا وهنا، ولكن الفن البياني يرتفع على ذلك بأن غايته قوةُ الأداء مع الصحة، وسموُّ التعبير مع الدقة، وإبداعُ الصورة زائداً جمالَ الصورة، أولئك في الكتابة كالطير له جناحٌ يجري به ويَدِفُّ ولا يطير، وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير به ويجري.

ولو كتب الفريقان في معنى واحد لرأيتَ المنطقَ في أحد الأسلوبين وكأنه يقول: أنا هنا في معان وألفاظ، وترى الإلهام في الأسلوب الآخر يُطالِعُكَ أنه هنا في جلال وجمال وصور وألوان.

ودورةُ العبارة الفنية في نفس الكاتب دورةُ خلق وتركيب، تخرج بها الألفاظ أكبرَ مما هي، كأنها شبَّتْ في نفسه شباباً، وأقوى مما هي، كأنما كسَبَتْ من روحه قوة، وأدلَّ مما هي، كأنما زاد فيها بصناعته زيادة، فالكاتب العلمي تمرُّ اللغةُ منه في ذاكرة وتخرج كما دخلت عليها طابعُ واضعيها.

ولكنها من الكاتب البياني تمر في مصنع وتخرج عليها طابعُه هو، أولئك أزاحوا اللغةَ عن مرتبة سامية، وهؤلاء علوا بها إلى أسمى مراتبها، وأنت مع

الأولين بالفكر، ولا شيء إلا الفكرُ والنظرُ والحكم، غير أنك مع ذي الحاسة البيانية لا تكون إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والإحساس والعاطفة والرأي.

وللكتابة التامة المفيدة مثلُ الوجهين في خلْق الناس؛ ففي كل الوجوه تركيبٌ تامٌّ تقوم به منفعة الحياة، ولكن الوجهَ المنفردَ يجمع إلى تمام الخلْق جمالَ الخُلُق، ويزيد على منفعة الحياة لذة الحياة، وهو لذلك، وبذلك، يُرى، ويُؤْثر ويُعشق.

وربما عابوا السمو الأدبيَّ بأنه قليل، ولكنَّ الخيرَ كذلك، وبأنه مخالف، ولكن الحقَّ كذلك، وبأنه محيِّر، ولكن الحسن كذلك، وبأنه كثير التكاليف، ولكن الحرية كذلك.

إن لم يكن البحرُ فلا تنتظر اللؤلؤ، وإن لم يكن النجمُ فلا تنتظر الشعاع، وإن لم تكن شجرةُ الورد فلا تنتظر الورد، وإن لم يكن الكاتبُ البيانيُّ فلا تنتظر الأدب.

٥٩ قوة التخيل وأثرها في العلم والشعر والصناعة والتربية[١]

للعلامة الشيخ: محمد الخضر حسين

في النفس قوة تحفظ الأشياء بعد غيبتها، وتجدد إحساس الإنسان للصورة المودعة في هذه القوة، تسمى تصوراً أو تخيلاً.

ولِتَجَدُّدِ إحساس الصور المسمّى تخيلاً أو تصوراً، أسبابٌ، وأكثر هذه الأسباب عملاً في النفوس، المماثلة، ويليه التضاد، ثم الوحدة المكانية، ثم الوحدة الزمانية.

والتماثل أن يكون بين الشيئين تشابه في بعض الوجوه المحسوسة أو المعقولة، فمن رأى الماء الصافي تذكر المرآة الصقيلة، ومن رأى القمر تذكر طلق المحيا، ومن رأى النرجس تذكر العيون، ومن جلس إلى كاذب تذكر مسيلمة الكذاب، ومن سمع أن معتوهاً ادّعى أنه نبي أو أن باطنياً حرف آيات الذكر الحكيم عن مواضعها تذكر زعيم طائفة القاديانية، أو زعيم طائفة البهائية.

وانظر إلى أبي الإصبع، كيف يخطر في باله ريق المرأة وثغرها فيذكر ما بين العذيب وبارق، ويخطر في باله قدها، ومدامعها تجري لفراقها، فيذكر مَجَرَّ الرماح، ومجرى الخيل، أخبر بذلك في قوله:

إذا الوهم أبدا لي لماها وثغرها تذكرت ما بين العذيب وبارق

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية عدد ٦، مجلد ٨، الصادر في شهر المحرم ١٣٥٥هـ، وانظر كتاب: هدى ونور للشيخ الخضر عناية الأستاذ علي الرضا الحسيني ص١٣٣ ـ ١٣٧.

ويذكرني من قدها ومدامعي ... مجر عوالينا ومجرى السوابق

والتضاد أن يتنافى الشيئان بحيث لا يجتمعان في محل، كالسرور والحزن، والضحك والبكاء، والشجاعة والجبن، والإخلاص والرياء، فإذا خطر في البال أمر تبعه ضده، فمن حضر في ذهنه الشتاء تذكر المصيف، ومن وقع في خاطره التقوى انتقل إلى معنى الفسوق، ومن هذا الباب ترى شخصاً، فتذكر خصمه المبين، وترى آخر في بلاء، فتذكر العافية، ولهذا عدَّ علماء البلاغة التضاد من علاقات المجاز.

والوحدة المكانية أن تحس الشيئين في مكان، وإن اختلف الإحساس، كأن ترى شخصاً في مكان صباحاً، وترى شخصاً آخر في المكان نفسه مساءاً، فمن كثرت مشاهدته لشخصين في مكان، ثم رأى أحدهما حضرت في ذهنه صورة الآخر.

ويتصل بهذا أن يجري ذكر الواقعة، فينتقل ذهنك إلى مكانها، أو تشاهد المكان فيحضر في ذهنك صورة الواقعة، ومما يجري على هذا قول ابن الرومي:

وحبّب أوطان الرجال إليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالك

إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرَتْهُمُ ... عهودَ الصبا فيها فحنوا لذلك

والوحدة الزمانية أن تحس الشيئين في زمن واحدة، فإذا وقع بصر الإنسان على شيئين في وقت واحد، ثم رأى أحدهما بعدُ تذكر الآخر، بل إذا حدَّث عن شخصين في وقت واحد حتى ارتسم لكل منهما صورة في قوة الحافظة، ثم رأى أحدهما أو جرى ذكره في المجلس حضر في ذهنه صورة الشخص الآخر.

ويدخل في هذا الباب تذكر الأسباب عند ذكر مسبباتها، أو تذكر المسببات عند أسبابها، كتذكر النار عند ذكر الحرارة، أو الدخان، وتذكر الأجنحة عند ذكر الطيران، وتذكر الأمة وسعادتها عندما يطرق سمعك كلمة الاستقلال، ولهذا عدّ علماء البلاغة من علاقات المجاز السببية والمسببية.

ومما ينبهك على أن اقتران الشيئين في الزمان يجعل حضور أحدهما داعياً إلى حضور صورة الآخر قول الخنساء:

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره بكل مغيب شمس

فإنها تذكره عند طلوع الشمس؛ لأنها كانت تراه وقت الطلوع في مظهر الشجاعة والتهيؤ للغزو، وتذكره عند مغيب الشمس؛ لأن وقت المغيب وقت توارد الضيوف عليه، وإطعامه الطعام في الغالب.

وتسلسل الأفكار يتكون من هذه الروابط؛ ذلك أنك تنتقل من صورة أمر إلى صورة أخرى، ومن هذه الصورة إلى غيرها، وهكذا يذهب بك التخيل من الأمر إلى ما يناسبه، حتى تضع سلسلة حلقاتها تلك الصور المتماثلة أو المتضادة أو المحسوسة في زمان أو مكان واحد.

فإذا شاهدت مصادفة ثلجاً على شجرة حول رمل، وفي منتهى الرمل بحر-فقد يخطر ببالك الثلج في وقت آخر، فتنتقل منه إلى الشجرة، ومن الشجر إلى الرمل، ومن الرمل إلى البحر.

ولو كنت شاهدت في البحر سفينة لكنت تنتقل من الرمل إلى البحر، ومن البحر إلى السفينة.

ولو شاهدت الثلج مركوماً في الشارع، والشارع محاط بمبان ذات نوافذ مفتحة ـ لكان لك عندما يذكر الثلج سلسلة أفكار، حلقاتها الثلج والشارع والجدران والنوافذ المفتحة.

ولو اتفق لك أن كنت شاهدت في زمن آخر نوافذ يشرف منها وجوه بيض، لانتقلت من النوافذ إلى الوجوه البيض، ومن الوجوه البيض إلى الوجوه السود، ثم إلى البلاد التي يكثر فيها الوجوه السود، فتصل هذه السلسلة في التخيل للسلسلة الأولى.

فالفكر يتسلسل بحسب المناسبة بين الصورة وما يقع الانتقال منها إليه، وقد يتحد الشخصان في بعض حلقات التفكير؛ لتوافقها في أسباب ارتباط هذه الحلقات، ثم يفترقان في غيرها من الحلقات فتضع مخيلة كل منهما سلسلة غير السلسلة التي تضعها مخيلة الآخر.

ومثال هذا أن يجري في حضرة المولع بالخمر، والقائم على أدوات الطعام ذكر الكأس، فينتقل المولع بالخمر من الكأس إلى الخمر، ويذهب متنقلاً فيما يتبع الخمر من لهو وفسوق.

أما القائم على أدوات الطعام، فإنه ينتقل من الكأس إلى الملعقة، إلى الشوكة، إلى الطبق، إلى المنديل، حتى يضع سلسلةً من هذه الأدوات وما يتصل بها غير السلسلة التي صنعتها مخيلة المولع بشرب الخمر.

وتسلسل الأفكار يكون على قدر ما تحتويه الحافظة من صور الأشياء؛ فأفكار البدو لا يطول تسلسلها، لعدم كثرة ما تحتويه حافظته من الصور، بخلاف

الناشئ أو المتردد على مدينة امتلأت بمظاهر العمران والزينة؛ فإنه يطول تسلسل أفكاره، وتجد مخيلتُهُ مسارح بعيدة المدى.

فالناس يتفاضلون في التخيل على قدر تفاوتهم فيما وقع إلى قواهم الحافظة من الصور، ويتفاضلون في التخيل ـ أيضاً ـ من جهة قوة الانتباه لما بين الأشياء من المناسبات.

فالناشئ في مدينة كبيرة يفوق في التخيل الناشئ في بداوة أو ما يشبه البداوة، وما ذلك إلا لكثرة ما يجده في حافظته من الصور المساعدة له على تأليف المعاني الجيدة.

وإذا وجدت رجلين يعيشان في بيئة واحدة منذ النشأة، ورأيت في أحدهما براعة في نحو الشعر والصناعة قد فاق بها صاحبه ـ فإن وجه فضله عليه من جهة قوة الانتباه لما بين صور الأشياء من المناسبات.

وقد يكون بين الشيئين ما يقتضي اقترانهما في الذهن، ولكن النفس قد تحس أحدهما ويشغلها عن الانتقال إلى الأمر الآخر ـ ما في ذلك الأمر الذي أحسته من معنى يجلب اهتماماً شديداً من حزن أو سرور.

وانظر إلى الشاعر حين أراد التنبيه على أن ذكر حبيبه لا يفارقه قط، كيف أخبر أنه يذكره في أشد حال من شأن الإنسان أن يذهل فيه عن كل غائب، فقال:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... مني وسيف الهند يقطر من دمي

ثم إن المخيلة قد تنتقل من صورة إلى أخرى غير قصد إلى غرض، ومن غير أن تكون تحت رعاية العقل، فتسمى مخيلة آلية، وقد يكون انتقالها صادراً عن

إرادة ومحاطاً بانتباه، وهذا قد يكون الغرض منه الوصول إلى إدراك حقيقته، فتسمى مخيلة علمية، وقد يكون الغرض منه الوصول إلى تأليف صور من المعاني جديدة، فتسمى مخيلة إبداعية.

فالمخيلة الآلية هي التي تسير دون قصد إلى جهة خاصة أو غرض معين، كأن يحصل للإنسان استغراق في التخيل، ويذهب متنقلاً من معنى إلى آخر، ويجول في جملة من صور الاشياء التي عرفها في الماضي من غير انتظام ولا قصد إلى استنتاج.

ومن المرائي المنامية ما يرجع إلى عمل هذه المخيلة؛ حيث يزول الانتباه ولا يبقى للإرادة سلطان، فتجري المخيلة طلقة من غير عنان، فتعرض على النفس صوراً غريبة أو لذيذة أو مؤلمة.

ومن المرائي ما هو إلهام إلهي، كما ثبت قي نصوص الشريعة القاطعة، ودلت عليه التجارب الصحيحة.

والمخيلة العلمية هي التي تتوجه بإرادة صاحبها، وتعمل تحت مراقبة قوته العاقلة، فتنتقل من صورة إلى أخرى تناسبها، حتى تجتمع في الذهن صور يحصل من ترتيبها على قانون المنطق إدراك حقيقتة كانت خافية.

ويقول المتحدثون عن العالم (نيوتن) إن مخيلته العلمية قد انتقلت به من مشاهدة تفاحة قد سقطت على الأرض وانساقت إلى النظر في قانون الجاذبية.

والمخيلة الإبداعية يتمكن بها الشخص من إحداث صور غريبة إما محسوسة كما يفعل الصانع الماهر، أو معنوية كما يفعل الشاعر المجيد، فالصانع يفسح

المجال لمخيلته، فتنطلق في صور ما شاهده من الأشياء ويساعد ذوقه على أن ينتقي من تلك الصور ما يركب منه صور جديدة.

وكذلك الشاعر يبعث مخيلته فيما عنده من صور الأشياء، وما زال على صورة بعد أخرى حتى يجتمع عنده ما يمكنه أن يركب منه صورة معنى لا عهد للأذهان به من قبل.

أما أثر التخيل في التربية فإنك إذا لقنت الناشئ الأخلاق الحميدة، والأعمال الصالحة، وذكرت له ما يترتب عليها من خير وسعادة ـ وجدته لا يذكر تلك الأخلاق والأعمال إلا وقد حضر في ذهنه ما يقع عَقِبَها من الخير والسعادة، فينهض لها بقوة، وهذا شأنه حين تذكر له السير القبيحة، وتبين له ما يتصل بها من عواقب تعود عليه بالضرر والتهلكة؛ فإنه لا يخطر بباله شيء من الخلق الرذيل أو العمل القبيح إلا وقد حضر في ذهنه ما يعقبه من ضرر، فيدعوه ذلك إلى الكف عنه.

ولا ريب أن من لم يلقن فوائد الآداب الفاضلة والأعمال الصالحة ويكون خالي الذهن مما يترتب على الأعمال المكروهة من فساد ـ تجده يذكر الفعلة القبيحة، فلا ينتقل ذهنه إلى شيء يردعه عنها، فيأتيها إجابة لداعي الشهوة.

ومتى كان تعليم الأخلاق وتقويم السير من جهة الدين رأيت الناشئ يذكر جلال الله في كل وقت يهم فيه بأمر نهى عنه ذو الجلال، وفي ذلك عصمة أي عصمة.

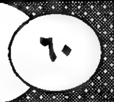


ثاني عشر: مقالات في السيرة النبوية

٦٠ـ قدوتنا الأعظم: للعلامة محب الدين الخطيب

٦١ـ من إلهامات الهجرة: للعلامة محب الدين الخطيب

٦٢ـ أثر الدعوة المحمدية في الحرية والمساواة: للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور



٦٠ قدوتنا الأعظم[1] ﷺ للعلامة محب الدين الخطيب

في ضميري دائماً صوت النبي
آمراً: جاهدْ، وكابدْ، واتعبِ!
صائحاً: غالبْ، وطالبْ، وادأبِ
صارخاً: كن أبداً حرّاً أبيّ
كن سواء ما اختفى وما علن
كن قويّاً بالضمير والبدن
كن عزيزاً بالعشير والوطن
كن عظيماً في الشعوب والزمن

مصطفى صادق الرافعي

كلما خارت قواي وظننت أن الاستسلام للتيار أجدى؛ رجعت بروحي وعقلي إلى سيرة القدوة الأعظم ﷺ فوقفت وقفة الخشوع والإجلال تجاه سنين من حياته الشريفة قضاها في معالجة أخلاق قومه العرب، وإعدادهم لحمل مَشْعَلِ الفضيلة والهدى، والسير به في أقطار الدنيا.

وما هي إلا سنوات قلائل حتى كانت دعوة الإسلام أعز دعوة تتحرك به الألسنة، وحتى كانت الشعوب تتجرد من عقائدها وعباداتها، بل من ألسنتها

---

(١) الحديقة ١٠/ ٩٠ ـ ٩٦، عام ١٣٥٣هـ

وعاداتها؛ لتدخل تحت لواء الإسلام، وتنادي بكلمة «حي على الفلاح!» في آفاق جديدة من آفاق الأرض.

كان من أول ما اشتهيت أن أعرفه ـ يوم دخلت مكة ـ جبل حراء الذي خوطب عليه سيد الخلق ﷺ بوحي الحق جل سلطانه، ودار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي التي كانت مُخْتَبَأَ النبي ﷺ وأصحابه إلى أن بلغوا أربعين، فكان منهم صفٌّ الجهاد الأول في سبيل إعلاء كلمة الله ـعز وجلـ.

وقفت من جبل النور على قُلَّة شامخة زَلُوج [1]، وأرسلت بصري في الآفاق، فإذا جبال خالية من الناس بعيدة عن ضوضائهم، مستريحة من دسائسهم وشرورهم، أمرها الله أن تكون فكانت، ولا تزال على ما أمرها الله به من غير تبديل أو تعديل إلى أن يأمرها الله بالزوال فتزول.

وتشرفت بدخول الغار المبارك، ثم خلوت بنفسي بعيداً عن أصحابي أتأمل كيف أن روح خاتم الأنبياء، وسيد أولي العزم كانت من السعة بحيث ترجو الله أن تعم كلمة «لا إله إلا الله» جميع أقطار الدنيا، وأن تعلو أرواح سكان تلك الأقطار من حضيض العبودية للبشر أوالجمادات إلى مستوى التوحيد الخالص الذي لا يليق بعقولِ البشر ونفوسِهم غيره، وأن تتحول أمم الأرض عن خرافاتها وأكاذيبها وخساساتها وحِيَلِها، فتكون بالإسلام أمة صدق ورحمة، وإيثار وعمل، وجهاد وإصلاح.

في هذا الغار هبط الوحي الإلهي على قلب عبد الله ورسوله محمد ﷺ ومن

---

(١) القُلَّة: القِمَّة، وقوله: شامخة زلوج: أي مرتفعة زلقة (م).

هذا الغار انتشر نور الهدى، فاستنارت به قلوب أمم لا عِداد لها، وسيدخل هذا النور قلب كل ابن أنثى إذا استطاعت أمة محمد ﷺ أن تتأسى به، وتصغي إلى صوته فيما أمر به من معروف، وما نهى عنه من فساد.

ودخلت دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي الواقعة على يسار الصاعد إلى الصفا، فقلت في نفسي: لو شاء الله أن يُلَيِّن لدعوة عبده محمد قلوب أهل الأرض جميعاً لأجابوا نداءه في بضع سنين، بل في ليال قلائل، ولكنه دَرْسٌ من سيرة سيد الخلق ﷺ يجب على كل مسلم أن يتعلمه، **فيعلم منه أن الحصاد لا يستحقه إلا الذي زرع، وأن النتائج لا يحصل عليها إلا من قام بمقدماتها.**

وويل لمن يتقاعس عن الدعوة إلى الخير بحجة أن أهل هذا الزمان يصدون عن الاستجابة لها، وهو يتجاهل أن ما لقيه قدوتنا الأعظم ﷺ من العقبات في سبيل دعوته لا يُعَدُّ ما يلقاه دعاة هذا الزمان في جانبه شيئاً مذكوراً.

ألا فليحاسب ورثة الأنبياء أنفسهم، وليقولوا لنا: ما هو الأذى الذي لقوه في سبيل كلمة الله، وما هو البذل الذي بذلوه لإعلاء كلمة الله، وأيُّ خُلُقٍ من أخلاق محمد ﷺ وأصحابه تخلقوا به؛ ليكونوا مثالاً حسناً للإسلام يُغْرِي الأغيارَ بالإقبال عليه، والإذعان له؟

لم تسئ أمة إلى تاريخها، ولم تعْشَ أبصار شعب عن سيرة عظمائه كما أسأنا نحن إلى تاريخنا، وكما عميت أبصارنا وبصائرنا عن مواقف العظمة في سيرة نبيناﷺ وحياة أكابر المهتدين بهديه من الصحابة والأئمة والمجاهدين.

ولعل هذه الثُّغْرة في سور قلعتنا أوسعُ مكان تسرَّبَ إلينا منه الضعف، وأصابنا

منه الوهن والانحلال.

نشكو إدبار النصر عنا، ولا نحب أن يمر ببالنا شبح المسؤولية التي تتوجه علينا من هذا الجانب.

نذكر بالفخر والإعجاب انتشار الإسلام في الصدر الأول انتشاراً يكاد يكون معجزة، وإذا قال لنا إنكليزي مسلم كالمستر مَرْ مَدْيُوك بِكْتول: إن انتشار الإسلام بمثل تلك السرعة ممكن إذا دعوتم إليه بسيرتكم وأخلاقكم ـ رجونا أن ينتهي كلامه بسرعة؛ ونهضنا معاهدين الشيطان على أن نبقى عند حسن ظنه فينا.

كلنا نقول: إن محمداً ﷺ هو قدوتنا الأعظم، وكلنا نقرأ في كتاب الله ـ عز وجل ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وكلنا نعلم أن الموانع الواقفة اليوم في سبيل القرآن لا تعد شيئاً مذكوراً في جانب الموانع التي كانت واقفة في سبيله يوم كان محمد ﷺ وأصحابه يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي عند الصفا يعاهدون الله على الثبات حتى النهاية.

وأقرب ما نقارن به بين حال اليوم وحال الأمس أننا الآن خمسمائة مليون يتلون القرآن؛ وأنهم كانوا يومئذ أقل من أربعين...

ولكن أين الأخلاق؟!

٦١ من إلهامات الهجرة[1] للعلامة محب الدين الخطيب

في الإسلام ظاهرة يمتاز بها على غيره من الأديان التي تموج أقطار الأرض بأتباعها؛ فأهل الديانات الأخرى ينحصر معنى الدين عندهم في العقيدة والعبادة، فإذا ضُمنتا لهم في أي نظام لهم من أنظمة الحكم اكتفوا بهما، وأذعنوا إلى ذلك النظام مهما كان، ولا يعرفون دينهم إلا ساعة الاجتماع في المعابد.

أما الإسلام، فكما أنه دين عقيدة وعبادة، فإنه يشمل ـ أيضاً ـ الآداب في المنازل والمجتمعات، والتعاون بين الأفراد والجماعات، ويتناول العقود والمصالح والالتزامات، وتتسع دائرته فتحيط بنظام الحكم كله.

والمسلمون لا يعتبرون أنفسهم عائشين في بلد إسلامي إلا إذا ساد نظام الإسلام بلدهم، وقامت فيه أحكامه وآدابه، كما تقوم فيه شعائره، وتسود عقائده.

وإذا تعذر على المسلمين إقامة أحكام دينهم، وتأييد أنظمته الاجتماعية، وآدابه الخلقية والبيتية ـ وجب عليهم الانتقال إلى البلد الذي يعمل فيه بأحكام الإسلام وآدابه؛ تكثيراً لسواد المسلمين، وإعزازاً لأمر الدين، واستعداداً لنصره وتأييده في العالمين.

وإذا لم يكن للمسلمين بلد تتوافر فيه هذه الشروط وجب عليهم أن يتجمعوا في بقعة صالحة يقيمون فيها نظام الإسلام تامًّا كاملاً، ويتعاونون على حماية

---

(١) مع الرعيل الأول ص٤٢ ـ ٤٧.

دعوته، واتخاذ الأسباب والوسائل؛ لتحقيق رسالة الإسلام كما جاء بها صاحبها - صلوات الله عليه - وكما فهمها منه أصحابه والتابعون لهم بإحسان.

هذه هي حكمة الهجرة، وهذا هو الباعث عليها، والداعي لها.

فالإسلام يجب أن يكون له وطن تقام فيه معاني الإسلام كلها، ويُعمل فيه بأحكامه وأنظمته في دواوين الدولة، ومرافق الأمة، ومعاملات الأفراد، وآداب البيوت، بقدر ما يعمل فيه بشعائر العبادات، وبقدر ما تُحمى فيه حقائق العقيدة التي لا يكون الإسلام إسلاماً إلا بها.

وقد غفل عن هذه الظاهرة من أمر الإسلام بعض الذين دخلوا فيه على عهد رسول الله ﷺ فلبثوا في وطنهم مكة مستضعفين بها لا يستطيعون إعلاء كلمة الله؛ لغلبة الباطل يومئذ على الحق، ولا يهاجرون منها إلى المدينة، فيقوى بهم الإسلام؛ فنزل فيهم قول الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ - أي بعد إقامة دينهم في بلدهم، وتخلفهم عن نصره وتأييده في دار هجرته -قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا؟ فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾.

وهذه الآية نزلت في قوم أسلموا، وكانوا يؤدون صلواتهم على النهج الشرعي في منازلهم أو في الحرم إن استطاعوا، وكانوا صحيحي العقيدة، وغير مقصرين في العبادة، إلا أنهم كانوا سبب ضعف للإسلام، بإذعانهم لنظام غير نظامه، وإحجامهم عن تقوية الإسلام في وطنه ودار هجرته.

ولما كان الإسلام دين يسر، ومن مبادئه أن تقدر الضرورات بقدرها، وأن

يعذر أهلها ـ كان من تمام الآيات السالفة قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً ـ أي مذهباً ومتحولاً ـ كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

إن النفس الإسلامية يريد لها الإسلام أن تعيش في جو من النظام والحكم يسهِّل لها فهم هداية الإسلام، ويحبب لها العمل بهذه الهداية في كل ضروب من ضروب الحياة، وتتوافر فيه حرية الدعوة إلى كل ما ينشده الإسلام من حقيقة وخير، فيتيسر القيام بها جهاراً في جميع أحوال الفرد المسلم والجماعة الإسلامية، ويكون فيه للحق قوة تقمع كل من يصد عن ذلك، أو يحول بين المسلمين وبين الدعوة إلى هدايتهم، والعمل بها في بيوتهم، وأسواقهم، وأنديتهم، ومجتمعاتهم.

فإذا نشأت النفس الإسلامية ونمت تحت جناح نظام يقيم أحكام الإسلام، ويحمي دعوته، ويحمل الأمة على آدابه ـ كانت هذه النفس قوة للإسلام تعمل على رفعته وتوسيع دائرته، غصناً في دوحة الإسلام تزهر وتورق وتثمر في جناته.

أما إذا نشأت ونمت تحت جناح يخالف الإسلام، ويخذل دعوته ولا يربي الأمة على آدابه ـ فإن قوتها تكون معطلة عن تأييد الإسلام، وتعميم هدايته.

إن الهجرة المحمدية من ديار الشرك إلى دار النصرة قد مضت بأهلها، ولكن الهداية المحمدية لا تزال في أمانة المسلمين، وهي في عصرنا أحوج ما كانت إلى تفكير المسلمين في صيانتها، والتماسهم الأسباب لازدهارها وتعميم العمل بها.

لما هاجر النبي ﷺ بأصحابه من ديار الشرك إلى دار النصرة، كان للإسلام ـ على قلة أهله يومئذ ـ قوة بتلك القلة من أهله لا نكون صادقين لو زعمنا أن عندنا للإسلام مثلها اليوم مع كثرتنا واتساع آفاق أوطاننا.

فإذا كانت الهجرة مضت بأهلها فإن القوة التي توخاها النبي ﷺ للإسلام بالهجرة لا تزال أنظمة الإسلام وآدابه وأهدافه مفتقرةً اليومَ إلى مثلها، بل هي اليوم أشد افتقاراً إلى مثل تلك القوة مما كانت في زمن الهجرة.

نحن محتاجون اليوم ـ من معاني الهجرة وأهدافها وحكمتها ـ إلى أن ننخلع في بيوتنا عن الآداب التي تخالف الإسلام، وأن نعيد إلى هذه البيوت الصدق، والصراحة، والنبل، والاستقامة، والاعتدال، والمحبة، والتعاون على الخير.

فالبيت الإسلامي وطن إسلامي، بل هو دولة إسلامية.

وقبل أن أتبجح؛ فأنتقد ما خرج عن دائرتي من بيئات لا يفيدها انتقادي شيئاً يجب عليَّ أن أبدأ بمملكتي التي هي بيتي، فأهاجر أنا ومن فيه من زوجة وبنات وبنين إلى ما يحبه الله من الصدق، هاربين من الكذب الذي يكرهه الله ويلعن أهله في صريح كتابه.

ويجب أن أنخلع أنا وأهل بيتي من رذيلتي الإفراط والتفريط؛ فنكون معتدلين في كل شيء؛ لأن الاعتدال ميزان الإسلام.

ويجب أن نحب أنظمة الإسلام وآدابه محبة تمازج دماءنا، فنتحرى هذه الأنظمة في أخلاقنا، وأحوالنا، وتصرفاتنا، ومعاملة بعضنا لبعض هاجرين كل ما خالفها مما اقتبسناه عن الأغيار، وخذلنا به مقاصد الإسلام، فضيعنا أغراضه الجوهرية.

إذا تربينا في بيوتنا على محبة الأنظمة الإسلامية، وتأصل ذلك في أذواقنا وميولنا، وتعودنا العمل به في مختلف ضروب الحياة - فشا العمل به حينئذ من البيوت إلى الأسواق، والأندية، والمجتمعات، ودواوين الحكم، ولا يلبث الوطن كله بعد عشرات قليلة من السنين أن يتحول من وطن عاص لله إلى وطن مطيع لله، ومن وطن تسود فيه الأنظمة التي يسخطها الله إلى وطن تسود فيه الأنظمة التي أمر بها الله.

نحتفل بذكرى الهجرة في كل سنة، ونتكلم فيها عن الماضي ولا ننتفع بها في الحاضر.

ولو أننا فهمنا الحكمة التي انطوت عليها حادثة الهجرة، وعلمنا أن كتاب الله الذي نتلوه قد أنحى باللائمة على جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في مكة يصلون ويصومون ولكنهم ارتضوا البقاء تحت أنظمة تخالف الإسلام، فلا قوة لهم على تغييرها، ولم يهاجروا إلى قلعة الإسلام ليكونوا من جنودها المتحفزين لتغيير تلك الأنظمة - لعلمنا أن الإسلام لا يكتفي من أهله بالصلاة والصوم، بل يريد منهم مع ذلك أن يقيموا أنظمته، وآدابه في بيوتهم، وأسواقهم، وأنديتهم، ومجامعهم، ودواوين حكمهم، وأن عليهم أن يتوسلوا

بجميع الوسائل لتحقيق هذا الغرض الإسلامي بادئين من البيت، وملاحظين ذلك في تربية من تحت أماناتهم من بنات وبنين، ومتعاونين عليه مع كل من ينشد للإسلام الرفعة والازدهار من إخوانهم، حتى إذا عمَّ هذا الإصلاح أرجاء واسعة تلاشت تحت أشعته ظلمات الباطل، فكان لهذا الأسلوب من أساليب الهجرة مثل الآثار التي كانت لهجرة النبي ﷺ وأصحابه الأولين.

روى مسلم في كتاب الأمارة من صحيحه عن أبي عثمان النهدي أن مجاشع ابن مسعود السلمي قال: جئت بأخي (أبي معبد) إلى رسول الله ﷺ بعد الفتح فقلت: يا رسول الله بايعه على الهجرة، فقال ﷺ: «قد مضت الهجرة بأهلها».

قال مجاشع: فبأي شيء تبايعه؟ قال: «على الإسلام، والجهاد، والخير».

قال أبو عثمان النهدي: فلقيت أبا معبد فأخبرته بقول مجاشع، فقال: صدق.

وفي كتب السنن وبعضه في الصحيحين عن عبدالله بن عمرو بن العاص وفضالة بن عبيد بن ناقد الأنصاري أن النبي ﷺ قال: «المهاجر من هجر السيئات».

وفي حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة، وفي حديث عبدالله بن عمير عن أبيه عن جده، أنه قيل لرسول الله ﷺ: «... فما أفضل الهجرة؟ قال: من هجر ما حرم الله».

وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل (٦ : ٢١) من حديث فضالة بن عبيد بن ناقد أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم؟ من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد؟ من

جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر؟ من هجر الخطايا والذنوب».

فإلى الهجرة أيها المسلمون...

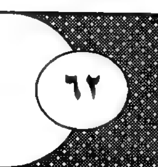
إلى هجر الخطايا، والذنوب، في أعمالنا، وأخلاقنا، وتصرفاتنا.

إلى هجر ما يخالف أنظمة الإسلام في بيوتنا، وما نقوم به من أعمالنا.

إلى هجر الضعف، والعطالة، والإهمال، والسرف، والكذب، والرياء، ووضع الأشياء في غير مواضعها.

إلى هجر الأنانية، والصغائر، والسفاسف مما أراد نبي الرحمة أن يطهر منه نفوس أمته حتى تكون خير أمة أخرجت للناس كما أراد الله لها.

وهذا هو الفلاح الذي يدعونا إليه المؤذن خمس مرات في كل يوم عندما يدعونا إلى الوقوف بين يدي الله الكريم.



أثر الدعوة المحمدية في الحرية والمساواة[1]

للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

المقام الأول

في الحرية والمساواة في الشريعة الإسلامية

وهو مقام يستدعى شيئاً من الإطالة؛ ليكون الحكم فيه على شيء مضبوط، فلا يظن أحد أن الإسلام دعا إلى الحرية والمساواة على الإطلاق أو على الإجمال؛ لأن هنالك حدوداً دقيقة بعضها محمود وبعضها ضارٌّ مذموم.

الحرية:

لا تجد لفظاً تهواه النفوس، وتهش لسماعه، وتستزيد من الحديث فيه ـ مع أن معظمهم لا يضبط مقدار المراد منه ـ مثلَ لفظِ الحرية.

وما سبب ذلك التعلق العام إلا أن معظم من يسمعون هذا اللفظ، أو ينطقون به يحملونه على محامل يخف محملها في نفوسهم.

فالوقح يحسب الوقاحة حرية، فيخف عنده ما ينكره الناس من وقاحته، والجريء الفاتك ينمي صنيعه إليها، فيجد من ذلك مبرراً لجرأته، ومحب الثورة يعد الحرية مسوغاً لدعوته، والمَفْتون في اعتقاده يدافع الناقمين عليه بأنه حر العقيدة إلى غير هؤلاء.

فيا لله لهذا المعنى الحسن ماذا لقي من المحن، وماذا عُدِل به عن خير سنن؟

---

(١) الهداية الإسلامية، الجزء التاسع والعاشر، المجلد السادس، ربيع الأول وربيع الثاني ١٣٥٣هـ

والتحقيق أن الحرية إنما يُعنى بها السلامةُ من الاستسلام إلى الغير بقدر ما تسمح به الشريعة والأخلاق الفاضلة.

ولقد أصاب الذين اختاروا للتعبير عن هذا المعنى في العربية لفظ الحرية؛ لأن الحرية في كلام العرب ضد الرق، وقد شاع عند العرب أن يلصقوا مَذامَّ الصفات النفسانية بالرق؛ إذ قد عرى العبيد عندهم عن الاهتمام باكتساب الفضائل، وزهدوا في خصال الكمال، قال ابن زيابة:

إنك يا عمر وَتَرْكَ الندى كالعبد إذ قَيَّدَ أجمالَه[1]

ولما استصرخ شداد العبسي ابنه عنترة؛ ليرد غارات عدوهم ـ وكان عنترة ابن أمة كما هو مشهور، وكان أبوه يأبى أن يعده في عداد بنيه بل جعله عبداً له على عادة أهل الجاهلية ـ أجابه عنترة بقوله: «العبد لا يحسن الكر وإنما يحسن الحلاب والصر»[2].

فقال له شداد «كر وأنت حر».

وبضد ذلك جعلوا الفضائل من سمات الأحرار قال جعفر بن علبة الحارثي:

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

وقال الراجز الجاهلي:

لن يُسْلِمَ ابنُ حرةٍ زَميلَه حتى يموت أو يرى سبيله

وقال مخيس بن أرطاة التميمي:

---

(١) فإنه إذا قيَّد جِمَال سيده يرى أنه قد أتم واجبه كله.

(٢) الصر: شد ضرع الناقة عند الحلب.

فقلت له تجنب كل شيء   يعاب عليك إن الحرَّ حرُّ

قال المبرد: «يعني أن الحر على الأخلاق التي عهدت في الأحرار وكما كنت تعهد». ا. هـ يعني وأنت حر فلا تخالف خلق الأحرار.

حتى لقد احتاج بعض أصحاب الأخلاق الحميدة من عبيدهم إلى إعلان الاختلاف بين حال عبودية شخصه، وكرم نفسه كما قال حية النوبي الملقب بـ: سحيم عبد بني الحسحاس:

إن كنت عبداً فنفسي حرة كرماً   أو أسود اللون أني أبيض الخلق

دعوة الإسلام إلى الحرية:

الحرية وصف فطري في البشر؛ فإننا نرى المولود ييفع حرًّا لا يعرف للتقييد شبحاً.

وإذ قد كان الإسلام دين الفطرة كما وصفه الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الروم: ٣٠

فكل ما هو من أصل الفطرة فهو من شعب الإسلام ما لم يمنعه مانع.

ويزيد إعراباً عن كون الحرية من أصول الإسلام قوله ـ تعالى ـ في وصف محمد ﷺ ووصف أتباعه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الأعراف: ١٥٧.

فالإصر: هو التكاليف الشاقة، والأغلال: غير الإصر؛ فهي مستعارة للعبودية التي كانوا عليها في الجاهلية وهي عبودية الأصنام وسدنتها، وعبودية الملوك،

وعبودية القادة أصحاب المرابيع[١].

ومما يزيد هذا بيانا قول عمر لعمرو بن العاص في قصة ولده الآتية: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

طرأت على الحرية الفطرية وسائل الضغط من القوة والتسلط، فَسَخَّرت الضعيفَ للقوي، والبسيطَ للمحتال وزادت هذا التسخير تمكناً التعاليمُ المضللةُ وهي أساطير الوثنية، والشرك، والكهانة، فجاء محمد ﷺ يضع عنها الأغلال إلى الحد الذي تصير به نفعاً ورحمةً قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ الأنبياء:١٠٧

لا تتحقق حرية تامة في نظام البشر؛ لأن تمام الحرية هو الانخلاع عن جميع القيود، وعن كل مراعاة للغير بأن يعيش المرء عيشة الوحوش، وذلك غير مستطاع إلا فيما تخيَّله الشنفري إذ يقول:

ولي دونكم أهلون سِيْدٌ عَمَلَّسٌ وأرقط زهلول وعرفاء جيأل[٢]

هم الأهلُ لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما دان يعزل

فأما والإنسان مدني بطبع خلقته، محتاج إلى الاتصال ببني نوعه؛ لأنه ضعيف محتاج في قوام أمره إلى التعاون ـ فالحرية المطلقة تنافي مدنيته؛ فتعين أن الحرية المحمودة التي يدعو إليها الإسلام والحكماء هي حرية مقيدة لا محالة.

---

(١) المرابيع: جمع مرباع، وهو ربع الغنيمة كان يأخذه سيد القبيلة حين يُغير بها.

(٢) السِّيْد: الذئب، والعملس: السريع السير، والأرقط: النمر؛ لأن فيه نقطاً بيضاً وسوداً، والزهلول: الأملس، والعرفاء: الضبع؛ لأن لها عرفاً من الشعر، والجيأل: اسم للضبع.

فلننظر إلى القيود التي دخلت على الحرية في تاريخ الحضارة، فان كانت تحصل منها فائدة للمقيد بها في خاصته أو في حالته الاجتماعية العامة فهي المعبَّر عنها بالشرائع والقوانين، ودخولها على الحرية مقصود منه تعديلها؛ لتكون نافعة غير ضارة.

وإن كانت تلك القيود في فائدة غير المقيد بها لاستغلال حقوق المقيد بها فهي الاستعباد الذي قصد منه، أو آل إلى إفساد الحرية.

مظاهر الحرية:

تتعلق الحرية بالاعتقاد، والقول، والعمل.

فأما **حرية الاعتقاد فقد أسس الإسلام حرية العقيدة بإبطال العقائد الضالة المخالفة لما في نفس الأمر**؛ فان محور تلك العقائد هو إرغام الناس على أن يعتقدوا مالا قبل له بجولان الفكر فيه، أو ما يموه بتخيلات، وتكليف اعتقاد مالا يفهم ينافي الحرية.

فبَيَّن الإسلامُ الاعتقادَ الحقَّ، ونصبَ الأدلةَ عليه وعلى تفريعه، ودعا الناس إلى الاستنتاج من تلك الأدلة قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يونس: ١٠١.

وقد اختلف الصحابة، وحدث الخلاف في عهدهم ومن بعدهم في مسائل كثيرة كمسألة الإمامة، ومسألة القدر، ومسألة التكفير بالذنب، فلم تكن طائفة ترغم غيرها إلا إذا خرج المخالف عن حد المناظرة إلى المغالبة والإرهاق.

وانقسم المسلمون إلى طوائف مختلفة الاعتقاد من آخذين بما ورد في السنة دون تأويل، وآخذين بذلك مع التأويل، ومن خوارج، وقدرية، وجبرية، ومرجئة، ومعتزلة، وظاهرية، وصوفية؛ فلم يكن أهل حكومة الإسلام يجبرون الناس على اتباع معتقدهم، بل كان الفصل بينهم قائماً على صحة الحجة، وحسن المناظرة إلى أن ظهرت في القرن الثالث مسألة خلق القرآن، وإثبات الكلام النفسي القديم التي أيقظت عين الفتنة، وابتلي فيها أهل السنة ببغداد ومصر، وظهرت بالقيروان مسألة الاستثناء في الإيمان، وهي قول المؤمن: أنا مؤمن إن شاء الله، ومسألة العندية في الإيمان وهي قول المؤمن أنا مؤمن عند الله، وتبعت ذلك فتن تبدو وتخفى، وتلتهب تارة ثم تطفى.

لم يسمح الإسلام بتجاوز حرية الاعتقاد حد المحافظة على دائرة الإيمان والإسلام المفسَّرَين في حديث جبريل الشهير؛ لأن ما تجاوز من حرية الاعتقاد يفضي إلى انحلال الجامعة الإسلامية فلا يكون محموداً.

فالذي يعتقد عقيدة الإسلام ثم يخرج عنه فهو المرتد؛ فارتداده إما أن يكون مع إظهار الحرابة للإسلام وهذا النوع قد حدث زمن النبي ﷺ من نفر من عُكل وعُرينة فحكم فيهم رسول الله بحكم المحارب.

وأما بدون حرابة فقد ارتد نفر آخرون ثم تابوا فقبل رسول الله ﷺ توبتهم.

ثم ارتدت قبائل من العرب بعد وفاة رسول الله ﷺ بإعلان الكفر، أو بجحد وجوب الزكاة، وقد أجمع الصحابة على وجوب قتالهم؛ فكان إجماعهم أصلاً في قتل المرتد مع الاعتضاد له بما رواه معاذ بن جبل وعبد الله بن عباس - رضي

الله عنهم ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من بدل دينه فاقتلوه»، يعني الإسلام.

وليس هذا الحكم بقادح في أصل حرية الاعتقاد؛ لأن الداخل في الإسلام قد كان على حريته في اعتقاده قبل دخوله فيه، فلما دخل في الإسلام صار غير حرٍّ في خروجه منه؛ لقيام معارض الحرية؛ لأن الارتداد يؤذن بسوء طوية المرتد من قبل؛ فإنه لا يتصور أن يجد بعد إيمانه ديناً آخر أنفذ إلى القلب من الإيمان، فتعين أن يكون دخوله في الإيمان لقصد التجسس، أو لقصد التشويه بالدين في نظر من لم يؤمنوا به؛ ليوهمهم أنه دين لا يستقر متبعه عليه بعد أن يعرفه؛ لأن معظم الناس أغرار تغرهم الظواهر، ولا يغوصون إلى الحقائق.

وكما استدل هرقل على صدق نبوة محمد ﷺ بسؤاله أبا سفيان «هل يرتد أحد من أتباع محمد بغضة لدينه بعد أن يدخل فيه» فأجابه أبو سفيان ـ وهو يومئذ مشرك ـ بأن لا، فقال هرقل: «وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب».

فكذلك يعكس الكائد للإسلام وجه الاستدلال، فيجعل من ارتداد الداخل في الإسلام دليلاً وهمياً على صحته.

وقد يكون الارتداد لمجرد الاستخفاف والسخرية بالإسلام.

وحرمة الله توجب الذب عن دينه في مثل هذا، على أن عدم المؤاخذة به يفضي إلى انحلال الجامعة كما وقع في ردة العرب لو لم يؤخذوا بالصرامة.

أما حرية الاعتقاد نحو غير الداخلين في الإسلام فلم يحمل الإسلام أهل الملل على تبديل أديانهم، بل اقتنع منهم بالدخول تحت سلطانه، وبدعائهم على الدخول في الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

ومعلوم أن الدخول تحت سلطان الإسلام ليس متعلقاً بالاعتقاد ولا بالعمل، ولكنه راجع إلى حفظ أمن دولة الإسلام، إذ الإسلام دينٌ قرينُ دولة؛ فكان من موجباتِ حفظِ بقائه تأمينُه من غوائل الناقمين على ظهوره.

قال بعض العلماء: كان رسول الله ﷺ لا يُكرِه أحداً على اتباعه، فأبى المشركون إلا أن يقاتلوه فنزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ الحج: ٣٩، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ﴾[1] البقرة: ٢٥٦.

وأما حرية القول فهي أن يجهر المفكر برأيه ويصرح بما يراه صواباً مما يأنس من نفسه أنه يحسن الإصابة فيه[2]، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ الأنعام: ١٥٢.

ولا شك أن قول العدل قد تكرهه النفوس التي يقمعها الحق؛ ولذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أكبر شعب الإيمان قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: ١٠٤.

---

(١) اختلف العلماء في المقصود من هذه الآية اختلافاً في إحكامها ونسخها والصحيح أنها محكمة، وأن المقصود منها أنْ لا يجبر غير المسلمين على التدين بالإسلام، ولم يُستثن من ذلك إلا مشركو قريش عند مالك، أو مشركو جميع العرب عند أبي حنيفة والشافعي.

(٢) لأن تكلم الإنسان فيما لم يتعاطَ علمه، أو في الأمور التي يدق وجهُ الصواب فيها ليس من الحرية، بل ذلك يُعدُّ من التكلم فيما لا يعني، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾.

وقال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ آل عمران: ١١٠.

وفي الحديث الصحيح «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

فالتغيير باليد خاص بأولي الأمر، وجعل التغيير بالقلب أضعف الإيمان فهو حظ ضعيف، فتعيَّن أن حظ عامة المؤمنين هو تغيير المنكر باللسان.

ومن حرية القول بذل النصيحة قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ العصر.

وفي الحديث الصحيح: «الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

وفي حديث جرير بن عبد الله البجلي: «بايعت رسول الله ﷺ على الإسلام فشرط عليَّ «والنصح لكل مسلم» فبايعته على ذلك».

ومن حرية القول حق المراجعة من الضعيف للقوي كمراجعة الابن أباه والمرأة زوجها، وفي حديث عمر بن الخطاب «كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم؛ فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصخبت عليَّ امرأتي فراجعتني، فأنكرت عليها أن تراجعني قالت: ولِمَ تُنكر عليَّ أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ليراجعنه وقد أخبر عمر بذلك رسول الله ﷺ فأقره».

وقد راجع الصحابة رسول الله ﷺ في أشياء من غير التشريع، من ذلك لما نزل

رسول الله ﷺ بالجيش أدنى ماء من بدر في وقعة بدر قال له الحباب بن المنذر: «أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة»؟

قال رسول الله ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

فقال: «يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل؛ فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزلَه، ثم نعورَ ما وراءه من القُلُب[1] ثم نبنيَ عليه حوضاً، فنملأَه، فنشربَ ولا يشربوا».

فقال رسول الله ﷺ «لقد أشرت بالرأي».

وقال عمر لرسول الله ﷺ يوم صلح القضية حين رأى عزم رسول الله ﷺ على إجابة شروط قريش: «ألسنا على الحق وعدونا على الباطل فعلام نعطى الدنية في ديننا»

ومن حرية القول حرية العلم والتعليم، ومظهرها في الإسلام في حالين: **الحال الأول**: الأمر ببث العلم بقدر الاستطاعة؛ فقد أمرنا ببث القرآن وتعليمه، وببث الآثار النبوية؛ ففي الحديث الصحيح: «نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه إلى من ليس بفقيه».

«وفي خطبة حجة الوداع، ليبلغ الشاهد الغائب».

---

(١) نعور بالعين المهملة: أي نفسدها ونسدمها، شبَّه القلب بعيون الناس، فجعل إفسادها كالعور يقال: عور العين وعارها، والقُلُب: جمع قليب وهي البئر القريبة الماء.

وقد أمر الخليفة الثالث بنسخ المصاحف وأرسل بها إلى أقطار الإسلام، وجعل النبي ﷺ يوما في الأسبوع لتعليم النساء، وأُسِّست المكاتب لتعليم الصبيان من عهد أبي بكر أو عمر، ثم قد وردت أحاديث في فضل العبيد والإماء.

ووراء هذا مرتبة أخرى في العلم والتعليم وهي مرتبة الاستنباط في العلم، فقد دعا الإسلام إليها، وأوجبها على من بلغ رتبة المقدرة عليها في الأحكام الشرعية وهي مرتبة الاجتهاد بمراتبه.

قال علماؤنا: إنها من مشمولات أمر الوجوب في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن:١٦، وغيره من آيات القرآن.

وفي الحديث: «من اجتهد وأصاب فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد».

وأَيَّةُ حريةٍ للعلم أوسع من هذه؛ إذ جعل الأجر على الخطأ؟.

الحال الثاني: تخويل أهل العلم نشر آرائهم ومذاهبهم وتعليمها مع اختلافهم في وجوه العلم، واحتجاج كل فريق لرأيه ومذهبه، وحرصهم على دوام ذلك تطلباً للحق؛ لأن الحق مشاع.

ولقد قال أبو جعفر المنصور للإمام مالك بن أنس: «إني عزمت أن أكتب كتبك هذه ـ يعني الموطأ باعتبار أبوابه ـ نسخاً ثم أبعث إلى كل مصر من الأمصار بنسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها، ولا يتعدوها إلى غيرها».

فقال مالك: «لا تفعل يا أمير المؤمنين؛ فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل،

وسمعوا أحاديث، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإن ردهم عن ذلك شديد فدع الناس وما هم عليه».

ولقد كان في مدة الدولة العبيدية بالقيروان مذهبان متضادان تمام المضادة في أصول الدين وفروعه وهما مذهب المالكية سكان البلاد، ومذهب الإسماعيلية من الشيعة مذهب أهل الدولة، وكان علماء الفريقين ينشرون كتبهم، ويدرسون مذاهبهم لا يصد أحدهم الآخر.

ثم كان نظير ذلك بمصر في عهد انتقال العبيديين إليها، وتأسيس دولتهم الملقبة بالفاطمية.

وشواهد هذا كثيرة في تاريخ المذاهب.

لم يقتصر الإسلام في بذل حرية العلم على المسلمين، بل منح الحرية لأهل الملل الداخلين في ذمته وسلطانه، وقد كان اليهود في حياة رسول الله ﷺ يدرسون التوراة في المدارس بالمدينة، وجاء رسول الله ﷺ إلى مدارسهم ودعاهم إلى الإسلام كما هو ثابت في الصحيح.

وأما حرية العمل فهي تتعلق بعمل المرء في خُوَيِّصته، وبعمله المرتبط بعمل غيره؛ فحرية العمل في الخويصة مثل تناول المباح والاحتراف بما شاء، ولا يجبر على أن يعمل لغيره إلا إذا تعين عليه عمل من المصالح العامة أو ما فيه حفظ حياء الغير مثل الدفاع عن الحوزة، وحراسة الثغور، وإنقاذ الغريق، وخدمة من تتعين عليه خدمته، وإعطاء الزكاة، ونفقة القرابة.

وكل ذلك يرجع إلى القسم الثاني في الحقيقة.

وكذلك التصرف في المال عدا ما هو محظور شرعاً، إلا إذا طرأ عليه اختلال التصرف من عَتَهٍ أو سفه، وذلك قيد في الحرية؛ لأنها حرية غير ناشئة عن إرادة صحيحة؛ فألغيت لأجل مصلحته ومصلحة عائلته.

وحكم النساء في حرية التصرف مثل الرجال بحسب ما تسمح به حالتهن من انتفاء المفاسد؛ فلهن التصرف في أموالهن إذا كن رشيدات، ولهن إشهاد الشهود في غيبة أزواجهن.

وكل ذلك لا عهد للعرب ولا لأهل الأديان الأخرى بمثله.

ولهن الخروج لقضاء حوائجهن بالمعروف، ولهن حضور الجمعة والجماعة والعيدين وفي الحديث: «ولتخرج العواتق، وربات الخدور، وليشهدن الخيرَ ودعوة المسلمين».

وكانت امرأة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ تخرج إلى صلاة الجماعة وتعرف منه الكراهية فتقول: «والله لأخرجن إلا أن تمنعني فلا يستطيع منعها».

ومعنى كراهته لذلك أنه يود أنها تترك فضيلة الجماعة؛ لما عرف به من شدة الغيرة، ومعنى قولها له: إلا أن تمنعني أي أن تصرح لي بالمنع وهو لا يستطيع ذلك؛ لأنه رأى أنه ليس من حقه عليها، وكان وقافاً عند كتاب الله.

وللمرأة حق مطالبة الزوج بحسن المعاشرة، وطلب عقوبته على ضد ذلك، ويُحكم لها بالطلاق في أحوال معينة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

وأما حرية العمل المرتبط بعمل الغير فأصله أنه لا يضر بأحد؛ لينتفع غيره،

ولكنه لا يعمل عملاً فيه اعتداء على حق الغير كاحترام الكليات التشريعية، وذلك بالتحقيق من قبيل رعي الحريات المختلفة؛ لأن مرجع أحكام المعاملات إلى حفظ مجموع الحريات.

وكذلك قد تراعى أعمال تجب على المرء لغيره؛ لإقامة المصالح كما تقدم، أو لبث الخير بين الأمة كالإرفاق والمواساة.

حرية العبيد:

سلط الإسلام حقيقة الحرية على حقيقة العبودية؛ قصداً لعلاجها، وإصلاح مزاجها.

إن الرق شيء قديم في المجتمع البشري من قبل التاريخ، وهو أثر تسلط القوي على الضعيف؛ فكان الرقيق معدودينَ كالحيوان يذيقهم سادتهم النكال؛ فلا يرثي لهم أحد، ولا ينتصف لهم قانون، وقد عذب العرب في الجاهلية بعض الرقيق، فعذبت قريش أَمَةً اتهموها بسرقة وشاح جويرية، ثم تبين أن الحدأة اختطفته، ثم ألقته بمكان فكان ذلك سبب إسلام هذه الأمة، وهجرتها إلى المدينة وكانت تقول:

ويومَ الوشاحِ من تعاجيبِ ربِّنا ... ألا إنَّه من دارةِ الكفرِ نَجَّاني

وقتلت بنو الحسحاس من بني أسد عبدهم سُحيماً الشاعر بتهمة تغزله بابنة سيده.

فمنح الإسلام من الحرية للعبيد ما لم يمنحهم إياه شرع سابق، ابتدأ الإسلام فأبطل معظم أسباب الرق وهي:

١ ـ **الاسترقاق الاختياري**: كان الأب أو الأم أو الولي يبيع قريبه لمن يصيره مملوكاً له، وكان هذا الاسترقاق مشروعاً في الشرائع القديمة، وقد ثبت في شريعة التوراة حسبما في الإصحاح ٢١ من سفر الخروج، والإصحاح ٢٥ من سفر اللاويين.

٢ ـ **والاسترقاق في الجناية**: بأن يحكم على الجاني ببقائه رقيقاً، وقد كان هذا مشروعاً حكاه القرآن في قصة يوسف بمصر ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ إلى قوله: ﴿لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

٣ ـ **والاسترقاق في الدَّين**: وكان مشروعاً عند الرومان أن يأخذ الدائنُ مَدِيْنَهُ إذا عجز عن الدفع فيسترقه، وكذلك كان في شرائع اليونان في عهد سولون الحكيم.

٤ ـ **والاسترقاق في الفتن والحروب الداخلية**: أعني الحروب بين المسلمين فهو ممنوع في الإسلام.

٥ ـ **واسترقاق السائبة**: كما استرقت السيارة من الإسماعيليين يوسف ـ عليه السلام ـ حيث وجدوه في الجب ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾.

وقد عزز الإسلام ذلك بروافع ترفع حكم الرق وهي كثيرة:

ـ **فمنها**: أن جعل من مصارف أموال المسلمين اشتراء العبيد، وعتقهم، وإعانة المكاتبين بنص قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾.

ـ **ومنها**: أنْ جَعَلَ عتق العبيد من خصال الكفارات الواجبة ككفارة قتل

الخطأ، وتعمد فطر رمضان، والظهار، والحنث.

- **ومنها**: أن أمر بمكاتبة العبيد وهي التعاقد معهم على مقدار من المال يؤديه العبد منجَّماً فإذا استوفاه صار حرًّاً قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ النور: ٣٣، حمل كثير من علماء الصحابة ومن بعدهم الأمر في قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ على الوجوب، وحمله الجمهور على الندب.

- **ومنها**: أن من أعتق جزءاً من عبده أُجْبِرَ على إكمال عتقه إن كان بقيته له، وإن كان لغيره معه فيه شركة قوّم عليه نصيب شريكه، وألزم الشريك ببيع نصيبه للمعتق بالقيمة، وأعتق جميعه.

- **ومنها**: أن من أولد أمته صارت في حكم الحرة بمعنى أنه لا يجوز له بيعها ولا له عليها خدمة ولا استغلال، وتعتق من رأس تركته بعد مماته.

- **ومنها**: أن من عاقب عبده عقاباً شديداً، فمثل به أعتق عليه جبراً، أو وجب عليه عتقه دون جبر إذا لم يبلغ حد التمثيل كاللطمة؛ لأن عتقه كفارة الاعتداء عليه كما في الأحاديث الصحيحة وأقوال الأئمة.

- **ومنها**: كثرة الترغيب في عتق العبيد والإماء.

- **ومنها**: أَنْ جَعل الفقهاءُ دعوى العتق لا يعجِّز مدعيها، ولا يحكم عليه أن لم يجد بَيِّنة - بحكم قاطع لدعواه، بل له أن يقوم بها متى وجد بينة.

ولقد استخلص فقهاء الإسلام من استقرائهم لأدلة الشريعة، وتصرفاتها في شأن العبيد قاعدة فقهية جليلة وهي قولهم «**إن الشارع متشوف إلى الحرية**».

ويضاف إلى هذا تأكيد الوصاية بالعبيد، وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ «عبيدكم خَوَلُكم[١] إنما هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم؛ فمن جعل أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه فَلْيُعِنْه».

وفي حديث آخر وأحسب أنه موجود في بعض روايات خطبة حجة الوداع «اتقوا الله في العبيد؛ فإن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم».

وفي الصحيح نهى رسول الله ﷺ عن أن يقول العبد لمالكه: ربي أو سيدي وليقل: مولاي، ونهى المالك أن يقول: عبدي، وأمتي وليقل: فتاي، وفتاتي، وغلامي.

فإن قال قائل: لماذا لم يبطل الإسلام أصل الاسترقاق، أو يبطل أسباب حدوثه بعد الإسلام فيكون أقطع ليجرثومته[٢] وأنفع لتحقيق مقصد الشريعة من التشوف إلى الحرية؟

قلنا: تبين أن الاسترقاق قد بنيت عليه نظم المدنية يومئذ في الخدمة والعمل والزراعة، والفراسة، وأصبح من المتمولات الطائلة، والتجارة الواسعة المسماة بالنخاسة، وانعقدت بسبب ذلك أواصر عظيمة، وهي أواصر الأمومة بين العائلات، وأواصر الولاء في القبائل؛ فإبطاله إدخال اضطراب عظيم على الثروة

---

(١) الخول: بفتح الخاء المعجمة وفتح الواو الذين يتخولون الأمور، ويصلحونها، وهذا الوصف؛ لبيان مزيتهم.

(٢) هكذا في الأصل، ولعلها: لجرثومته، أي أصله (م).

العامة، والحياة الاجتماعية بأسرها، على أنه ربما يعرض العبيد إلى الهلاك، والذهاب على وجوههم في الأرض لا يجدون من يؤويهم.

ثم لو أبطل الإسلام أسباب الرق في نظامه لكان ذلك ذريعة إلى جرأة أعدائه من العرب وغيرهم على حربه؛ لأن أعظم ما يتوقعه المحاربون من الهزيمة هو الأسر والسبي، فإذا أمنوا منهما لم يعبئوا بالموت وما دونه، وعبر عن ذلك أبو فراس بنزعته العربية بقوله يخاطب سيف الدولة:

ولكنَّني أختار موت بني أبي ... على سروات الخيل غير موسَّد
وتأبى وآبى أن أموت موسَّدا ... بأيدي الأعادي موت أَكْبَدَ أكمدِ

وقال النابغة في شأن الأسر والسبي:

حذار على أن لا تنال مقادتي ... ولا نسوتي حتى يمتن حرائرا

سد ذرائع انخرام الحرية:

جرى الإسلام على عادته في التشريع وهي أن يشرع الوسائل، ويؤسس القواعد المفضية إلى مقاصده، ثم يحيطها بسد الذرائع التي قد تتسلل من منافذها مفسدات المقاصد، فتعود على أصولها بالإبطال، وتلك هي المُلَقَّبة في أصول الفقه بسد الذريعة.

وهذه الذرائع إنما تتعلق بالقول والعمل؛ فأوجب الإسلام على المسلم أن يريد بكل قول وعمل وجه الله والإخلاص فيه، وترك الرياء، وسمي الرياء بالشرك الأصغر؛ وذلك ليجتنب الناس حب المحمدة الباطلة؛ فإن حب المحمدة قائد إلى الاستعباد الاختياري، ومانع للحرية؛ لأن الافتتان بحب المحمدة يُحَتِّم

على صاحبه الخوف من الانتقاد، وغضب الجمهور من الذين لا يفقهون مصلحة من غيرها، ولا يميزون بين الحق والباطل، فإذا حمِدوا ومجَّدوا أحداً حسبوا فعلهم مزية أنالوها إياه؛ فأصبحوا يمنُّون عليه، ويترقبون منه أن يطيعهم في قضاء ما يشتهون مما يظنونه مصلحة.

والفرض أنهم لا يفقهون؛ فإذا كان ناصحاً أميناً لم يستفزه ذلك إذا علم أن فيه لهم سيئَ العواقب، ولم يغترَّ منهم بتلك الظواهر الكواذب، ولم يَرُقْه السير في عراض المواكب[1].

وقد حكى الله ـ تعالى ـ من مواقف الرسل والناصحين من ذلك كثيراً: فحكى عن موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)﴾ (الأعراف).

فأما إذا فتنته تلك الظواهر الخلَّابة، فانتفخ عُجْباً، وخشي انحرافاً منهم وسلباً خَصَّ في إدراك الحقيقة، وخادعهم، وواربهم أضاع مصالحهم، وغلب سفههم على رشده، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ (الأنعام: ١٥٢)، وقال: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ (آل عمران: ١٤٦).

وقد سقط في هذه المهواة كثير من زعماء الأمم.

---

(١) هذا تضمين لقول الشاعر في الشاهد النحوي:

فأما القتال لا قتال لديكم ... ولكن سيراً في عراض المواكب (م)

وسدَّ ذرائعَ قتل الحرية بالقوة المالية؛ إذ قد يعرض الاستعباد من الحاجة إلى المال، وفي الحديث: «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض».

فلذا أبطل الإسلام الربا؛ لأنه طريق واسع لاستبعاد المضطرين، وأبطل عقود الإكراه، وأبطل معظم الشروط التي تشترط على العامل في القراض، والإجارة، والمغارسة، والمساقاة، والمزارعة، وقد أمكن أن تُستخرج قاعدةٌ شرعية لهذه المسائل الممنوعة وهي منع أن يفترص[1] الغني احتياج الفقير إليه، فيُعْنِتَه لأجل ذلك.

وذرائع فساد حرية القول تكون فيها تقدم، وتكون في حرية العلم بأن نحمل العلماء على تحريف الحقائق؛ لأجل المحمدة الكاذبة، أو لأجل الحصول على مال قليل.

وقد نعى الله ذلك على علماء بني إسرائيل فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ البقرة: ٧٩.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾ المائدة: ٤٤.

وكان ذلك كله في إرضائهم عامتهم، وحملهم الشريعة على ما يوافق هوى العامة كما أوضحته الآثار وأئمة التفسير.

وتكون ـ أيضاً ـ في حرية القضاء؛ فلذلك حرَّم الإسلام الرشوة، وأوجب

---

(١) يعني يغتنم الفرصة (م).

إجراء أرزاق الحكام وكفايتهم من بيت مال المسلمين بحسب الزمان والمكان.

قال ابن العربي في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ البقرة: ٢٤٧: «ليس من شرط الخليفة ولا القاضي أن يكون غنيًّا، ولكنه في حكم الإسلام لا يكون إلا غنيًّا؛ لأنه يأخذ ما يكفيه من بيت المال؛ فغناه فيه».

تحصيل:

إذا تبينت ما تقدم من البيان في أنحاء الحرية تَبَيُّنَ الحكيمِ البصير علمت أن الإسلام بذل للأمة من الحرية أوسع ما يمكن بذله في الشريعة جامعةً بين أنواع المصالح بحيث قد بلغ بها حدًّا لو اجتازته لجر اجتيازها إياه إلى اختلال نظام المدنية بين المسلمين، أو بينهم وبين الأمم المرتبطة بهم اختلالاً قويًّا أو قليلاً، وذلك الاختلال قد يفضي إلى نقض أصولها، وامتشاق السيوف؛ لتمزيق إهابها.

ومن القواعد المقررة في الحكمة: أن لا عبرة بوجود يفضي إثباته إلى نفيه.

ومن القواعد في أصول التشريع الإسلامي: أن المناسبة التشريعية لا تعتبر مناسبة إلا إذا كانت غير عائدة على أصلها بالإبطال، وأنها تتخرم إذا لزمها مفسدة راجحة أو مساوية.

وبقول راجح أقول: إن ما يتجاوز الحدود التي حدد الشرع بها امتداد الحرية في الإسلام لا يخلو عن أن يكون سببَ فوضى، وخلعٍ للوازع بين الأمة، أو موجب وهنٍ ووقوع في إشراك غفلة ومهاوي خطل سياسي، وتفصيل ذلك يحتاج إلى تحليل وتطويل لا يُعْوِز صاحب الرأي الأصيل.

المساواة:

نُقَفِّي القول في الحرية ببيان المساواة: المساواة مصدر ساواه إذا كان سواءاً له أي مماثلاً؛ فالسَّواء المِثل.

ولا يتصور تمام المساواة بين شيئين، أو أشياء في البشر؛ لأن أصل الخلقة جاء على تفاوت في الصفات المقصودة ذاتية ونفسية، وذلك التفاوت يؤثر تمايزاً متقارباً، أو متباعداً في أخلاق البشر وآثارهم بتفاوت الحاجة إليهم، وترقب المنافع والمضار من تلقائهم، وذلك يقضي تفاوت معاملة الناس بعضهم لبعض في الاعتبار والجزاء.

فلو دعت شريعة إلى دحض هذه الفروق والمميزات لدعت إلى مالا يستطاع.

وتأبى الطباع على الناقل

فضلاً على ما في ذلك من حمل الناس على إهمال المواهب السامية، وذلك فساد قبيح، والله لا يحب الفساد.

ويكون الاقتراب إلى الفساد يفيد الاقتراب إلى الإفراط في إلغاء المميزات الصالحة، ولا تستقيم شريعة ولا قانون لو جاء بهذا الإلغاء؛ فإن الذين تطرفوا في اعتبار المساواة لا يسيرون طويلاً حتى تجبههم سدود لا يستطيعون اقتحامها كالشيوعيين؛ فقد وقفوا في حدود عجزوا عن تحقيق مبدأ المساواة فيها كمساواة أبكم لفصيح، ومعتوه لذكي.

ومن هذا يتضح القياس، وتظهر المساواة الحقة بين الناس قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠)﴾ فاطر،

وقال: ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ الفرقان: ٤٤.

إذن فالمساواة تعتمد توفر شروط وانتفاء موانع؛ فالشريعة التي تبني المساواة على اعتبار الشروط والقيود شريعة مساواتها ضعيفة.

والشريعة التي تبني مساواتها على انتفاء الموانع شريعةٌ مساواتُها واسعةٌ صالحةٌ، ويظهر أن الدعوة الإسلامية بنت قاعدة المساواة على انتفاء الموانع.

وشتان بين قوَّةِ تأثيرِ الشرط وتأثير المانع، والشريعةُ التي لا تقيد المساواة بشيء شريعةٌ مضلِّلَة.

فإذا عددنا المساواة في أصول شريعة الإسلام فإنما نعني بها المماثلة بين الناس في مقاديرَ معلومةٍ، وحقوق مضبوطة من نظام الأمة سواء كان الضبط بكليات ومستثنيات منها أم كان بتعداد مواقع المساواة.

المساواة في الإسلام تتعلق بثلاثة أشياء: الإنصاف، وتنفيذ الشريعة، والأهلية:

الأول: المساواة في الإنصاف بين الناس في المعاملات: وهي المُعَبَّر عنها بالعدل، وهو خصلة جليلة جاءت به جميع الشرائع، وبينت تفاصيله بما يناسب أحوال أتباعها.

وشريعة الإسلام أوسع الشرائع في اعتبار هذه المساواة، ففي خطبة الوداع: «وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول رباً أبدأ به ربا عمي العباس بن عبدالمطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة وإن أول دم أبدأ به دم ابن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب».

وفي الصحيح: أن الرُّبَيِّعَ بنت النَّضْر لطمت جارية، فكسرت ثنيَّتها، فطلب أهل الجارية القصاص، فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص، فجاء أنس بن النضر أخو الربيع وكان من خاصة الصحابة من الأنصار فقال: يا رسول الله والله لا تكسر ثنية الربيع، فقال رسول الله ﷺ: «كتاب الله القصاص».

ثم إن أهل الجارية رضوا بالأرش.

وقصة الفزاري الذي لطمه جبلة بن الأيهم معروفة[1].

الثانية: المساواة في تنفيذ الشريعة وإقامتها بين الأمة: بحيث تجري أحكامها على وتيرة واحدة ولو فيما ليس فيه حق للغير؛ مثل إقامة الحدود.

وقد سرقت امرأة من بني مخزوم من قريش حليًّا، فأمر رسول الله ﷺ بإقامة الحد عليها، وعظم ذلك على قريش فقالوا: من يشفع لها عند رسول الله ﷺ؟ فقال قائل: ومن يجترئ عليه غير أسامة بن زيد، فكلموا أسامة، فكلم رسول الله ﷺ في شأنها فغضب رسول الله ﷺ وقال: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟ إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق

---

(١) جَبَلَة بنُ الأَيهم ملك غسان بدمشق أسلم بعد فتح الشام، وسكن المدينة، وحج مع عمر ابن الخطاب، فبينما هو يطوف إذ وطئ رجل من فزارة إزار جبلة فانحل إزاره، فلطمه جبلة، فهشم أنفه وكسر ثناياه؛ فاستعدى الفزاري عمر بن الخطاب على جبلة، فقال عمر لجبلة: إما أن يعفوَ عنك الفزاري وإما أن يقتص منك، فقال جبلة: أيقتص مني وأنا ملك وهو سوقة، قال عمر: شملك وإياه الإسلام؛ فما تفضله إلا بالعافية والتقوى، قال جبلة: ما كنت أظن ألا أكون في الإسلام أعزَّ مني في الجاهلية، قال عمر: دع عنك هذا، فلما رأى جبلة الجد من عمر قال له: أنظر في أمري الليلة، فرحل جبلة بخيله ورواحله ليلاً ولحق بالشام، ثم بالقسطنطينية، فتنصر، وبقي عند قيصر.

فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

أشار كلام رسول الله ﷺ إلى ما كان في الأمم السالفة من التفاضل في إقامة الشريعة، وقد كان ذلك في بني إسرائيل كما ثبت في بعض طرق هذا الحديث في الصحاح، وثبت أن الرومان كانت عقوبات الجنايات المتماثلة تختلف عندهم على حسب اختلاف حالات المجرمين ووسائلهم.

الثالثة: المساواة الأهلية أي في الصُّلوحية للأعمال والمزايا وتناول المنافع بحسب الأهلية لذلك: وهذه قد تكون بين جميع من هم داخلون تحت سلطة الإسلام، وتكون بين المسلمين خاصة، وتكون بين أصناف المسلمين من الرجال أو من الأحرار من النساء.

والأصل في هذه الأهلية في الإسلام هو المساواة بين الداخلين تحت حكم الإسلام كلهم لقوله ﷺ في أهل الذمة: «لهم مالنا وعليهم ما علينا».

ثم المساواة بين المسلمين خاصة في أحكام كثيرة بحكم قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات: ١٠.

قد جمع حكمُ الأخوةِ اطرادَ المساواةِ، فدخل الرجال والنساء والأحرار والعبيد إلا فيما دلت الأدلة على تخصيصه بصنف دون آخر لا تخصيصاً اقتضاه حال الفطرة، أو مصلحة عامة.

وفي الحديث: «الناس كأسنان المشط» فلم يقصر المساواة على جنس أو قبيلة، ولم يقدم عربيًّا على عجمي، ولا أبيض على أسود، ولا صريحاً على

مولى، ولا لصيق، ولا معروف النسب على مجهوله، وفي خطبة حجة الوداع: «أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى».

قد كان تمايز الأجناس أو القبائل في القوانين والشرائع السالفة أصلاً في الأحكام؛ ففي التوراة سفرٌ لِخَصَائصِ اللاويين[1]، وعند الرومان والفرس وبني إسرائيل لم يكن للدخيل في الأمة مثل ما للأصيل، وعند العرب لم يكن للصريح ما للصيق بَلْهَ الغريب عن القبيلة، والإسلام أبطل ذلك.

أَمَّر النبيُّ ﷺ زيدَ بنَ حارثة وهو من موالي قريش، وأَمَّرَ ابنَه أسامة بن زيد على جيش؛ فتكلم في المرتين بعض العرب فخطب رسول الله ﷺ فقال: «إن تطعنوا في إمارته «يعني أسامة» فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل وأيم الله إن كان «زيد» لخليقاً بالإمارة وإن هذا «أسامة» لمن أحب الناس إليَّ».

فنبه بقوله إن كان لخليقاً بالإمارة على أن الاعتبار بالكفاءة، ونبه بقوله: «لمن أحب الناس إلي» على أنه إنما اكتسب محبة الرسول ﷺ لفضله وكفاءته؛ إذ بذلك تكتسب محبة الرسول ﷺ.

كذلك لم يختص الإسلامُ بالمساواة طبقةً.

وقد كان نظام الطبقات فاشياً بين الأمم؛ فكانت الفرس والروم يعدون الناس أربع طبقات أشرافاً، وأوساطاً، وسفلةً، وعبيداً.

وكان العرب يعدون الناس طبقات ثلاثاً سادةً، وسوقةً، وعبيداً، فكان

---

(١) نسبة إلى لاوي بن يعقوب (م).

الفرس يخصون كل طبقة بخصائص لا تبلغ إليها الطبقة التي هي دونها.

سأل رستم قائد جيوش الفرس في حرب القادسية زهرة بن حوية عن الإسلام فكان من جملة ما قاله زهرة لرستم: «إن الناس بنو آدم إخوة لأب وأم.

فقال رستم: إنه منذ ولي أردشير لم يدع أهل فارس أحداً من السفلة يخرج من عمله، ورأوا أن الذي يخرج من عمله تعدى طوره، وعادى أشرافه.

قال زهرة: نحن خير الناس للناس، فلا نستطيع أن نكون كما تقول، بل نطيع الله في السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا.

وكان العرب يفرقون في الدية بين السادة والسُّوقة وفي الاقتصاص في الدماء، ويسمون ذلك بالتكايل، فَيُقَدَّر دمُ السيدِ أضعافَ دمِ السُّوقة، فجاء الإسلام بإبطال ذلك ففي الحديث: «المسلمون تتكافأ دماؤهم».

ولم يعتبر الإسلام للطبقات أحكاماً في الأهلية للكمال إلا في جعل الناس قسمين أهل الحل والعقد، والرعية؛ فأهل الحل والعقد هم ولاة الأمور، وأهل العلم، ورؤساء الأجناد، فهؤلاء طبقة إسلامية جُعل إليها النظر في إجراء مصالح الأمة، ومن خصائصها: انتخاب الخليفة، كما فعل عبد الرحمن بن عوف في تعيين الخليفة من الستة بعد عمر ـ رضي الله عنهم ـ.

وأما المخالفون في الدين من أتباع حكومة الإسلام فقد منحهم الإسلام مساواة في معظم الحقوق عدا ما روعي لهم فيه احترام شرائعهم فيما بينهم، وعدا بعض الأحكام الراجعة إلى موانع المساواة.

وقد اختلف علماء الإسلام في القصاص بين المسلم والذمي، وجوز العلماءُ

ولايةَ الذمي ولاياتٍ كالكتابة ونحوها.

وقد كان في الأمم الماضية يعد الاختلاف بين الحكومات ورعاياها في الدين حائلاً دون نيل الحقوق، وموجباً للاضطهاد.

وقد قص التاريخ علينا عدة اضطهادات من هذا القبيل كاضطهاد الآشوريين والرومان لليهود، واضطهاد التبابعة للنصارى في نجران، وهم أصحاب الأخدود، وتاريخ الإسلام مُبَرَّأ من ذلك.

موانع المساواة:

موانع المساواة في الإسلام كما أشرت إليه في أول مبحثها تكون: جِبِلِّية، وشرعية، واجتماعية، وسياسية؛ فالموانع الجبلية كموانع مساواة المرأة للرجل، فيما لا تستطيع أن تساويه فيه بخلقها؛ مثل قيادة الجيش، والقضاء عند جمهور المسلمين؛ لاحتياج هذه الخطط إلى رباطة الجأش، وكمنع مساواة الرجل للمرأة في كفالة الأبناء الصغار، وفي استحقاق النفقة.

والموانع الشرعية هي المعلولة لعلل أوجبتها، وهي مبينة في مواضعها من كتب الشريعة مثلاً عدم المساواة في إباحة تعدد الأزواج للمرأة، وفي مقدار الميراث، وفي عدد الشهادة، ومثل عدم مساواة العبد للحر في قبول الشهادة، وكذلك أهل الذمة عند من منع قبول شهادتهم، ومن منع القصاص لهم من المسلمين بالقتل.

والموانع الاجتماعية تتعلق غالباً بالأخلاق، وبانتظام الجامعة الإسلامية على أكمل وجه كعدم مساواة الجاهل للعالم في الولايات المشروطة بالعلم كالقضاء والفتوى، وعدم مساواة العطاء بين أهل ديوان الجند، فقد أعطاهم عمر على

حسب السابقية في الإسلام، وحفظ القرآن.

والموانع السياسية هي التي ترجع إلى حفظ حكومة الإسلام، وسد منافذ الوهن أن يصل إليها كمنع مساواة أهل الذمة للمسلمين في الأهلية للولايات التي يمنع منها التدين بغير الإسلام، ومنع مساواتهم للمسلمين في تزوج المسلمات، ومنع مساواة غير القرشيِّ القرشيَّ في الخلافة للوجه الذي نبه إليه أبو بكر رضي الله عنه يوم السقيفة؛ إذ قال: «إن العرب لا تدين لغير هذا الحي من قريش».

قال إمام الحرمين في الإرشاد: «ومن شرائطها ـ أي الخلافة ـ عند أصحابنا أن يكون الإمام من قريش، وهذا مما يخالف فيه بعض الناس وللاحتمال فيه مجال».

المقام الثاني:

أثر الدعوة في الحرية والمساواة بين الأمم غير أتباع الإسلام: أهابت دعوة الإسلام بالأمم، وقد كانوا غافلين مستسلمين، ففتحت أعينهم إلى ما في معاملة سادتهم وكبرائهم إياهم من الاعتداء والغض؛ فأخذ أولئك يقتربون إلى تقويم أَوَدِ جبابرتهم، والطموح إلى إصلاح أحوالهم، وأَخَذَ هؤلاء ينزلون عن صياصي الجبروت، ويخفضون من غلوائهم، فحدثت بذلك يقظة فكرية في العالم.

اخترقت دعوة الإسلام أفكار الحضارة العالمية بطرق شتى: منها تناقل الأخبار، ومنها الجوار، ومنها الدعوة بالكتب النبوية إلى ملوك الأمم المشهورة مثل الفرس، والروم والحبش، والقِبْط، وملوك أطراف بلاد العرب في العراق والشام والبحرين وحضرموت، ومنها: هجرة المسلمين الأولين إلى بلاد الحبشة،

ومنها: الفتوح الإسلامية في بلاد الفرس، والروم، والجلالقة ـ أسبانيا ـ والإفرنج، والصقالبة، والبربر، والهند، والصين.

قد كانت سيادة العالم حين ظهور الدعوة المحمدية منحصرةً في مملكتين الفرس والروم؛ فأما المملكة الفارسية فقد أوهنتها الحروب المادية بين الفرس والروم في زمن سابور الثاني وأبناء قسطنطين الروماني، وأعقبت تلك الحروب تنازعاً مستمرًّاً بين قواد الجيوش الفارسية إلى أن صار المُلك إلى أبرويز بن بهرام الذي أخذ يجدد ملك الدولة الفارسية، وهو الذي كان ملكه في وقت البعثة، وكتب إليه رسول الله ﷺ كتابه المشهور مع عبد الله بن حذافة السهمي.

وأما المملكة الرومانية فقد بلغت من الاختلال في الشرق والغرب أوائل القرن السادس مبلغاً أشرف بها على الفوضى بتنازع قواد الجيوش السلطة، ولم تأخذ في تدارك صلاح أحوالها إلا في زمن هرقل ـ هيراكليوس ـ.

وقد كان ملكه في عصر البعثة، وهو الذي جرى بينه وبين أبي سفيان المحاورة في شأن الإسلام كما تقدم، وهو الذي كتب إليه رسول الله ﷺ كتابه المشهور مع دحية الكلبي.

فكان لشيوع دعوته ﷺ في بلاد العالم أثران:

الأول: أنها سهلت لكثير من الأمم الدخول في دين الإسلام، أو في حكمه بما شاهدوا من آثار محامد سياسته لرعاياه مع عدم التشويش على أهل الأديان في عقائدهم؛ فتمكنوا بذلك خير تمكن من مخالطة المسلمين في معظم شئون الحياة مخالطةً خَوَّلَتْ لهم مزيد الاطلاع على محاسن الإسلام وتربية أهله، وربما كان

ذلك هو السبب في إسلام كثير من المتدينين مثل نصارى نجران وتغلب وقضاعة وغسان، ومثل يهود اليمن، ومثل مجوس الفرس والبربر، ومثل نصارى القبط والجلالقة والبربر.

ومن لم يدخل منهم في دين الإسلام سهل عليه الدخول في ذمته.

الأثر الثاني: **كان مِنْ تناقل تلك الحوادث، ومن تمازج الفرق من الأمة الواحدة،** أو من تمازج الأمم سمعة حسنة للإسلام ومعاملته، فكان لتلك السمعة أثر جليل في بقية الممالك التي بقيت خارجة عن حكم الإسلام.

ومن أمثلة ذلك ما تقدم من كلام زهرة بن حوية، وما جرى بين يدي النجاشي من كلام أفصح به جعفر بن أبي طالب عن حقيقة الإسلام ومن جملة ما قال له: «إنا كنا قبل الإسلام يأكل القوي الضعيف».

ومعناه فقد الحرية والمساواة، فصمم النجاشي على حماية المهاجرين من المسلمين، ورد سفراء الإسلام أساليب جديدة في سياسة ممالكهم أفضت إلى تخفيف وطأة الاستبداد، وإلى حصول خير كثير للبشر، وشكلاً جديداً للمدنية كانت عاقبته ما نشاهده اليوم من رقيٍّ إلى معارج سامية؛ فإن للفضائل عدوى سريعة كما قال أبو تمام:

ولو لم يزعني عنك غيرك وازع … لأعديتني بالحلم إن العلا تعدى

وحقت كلمة ربك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

ثالث عشر: مقالات في المشاعر والعواطف الإنسانية

٦٣ـ تعاون العقل والعاطفة على الخير: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٦٤ـ الخوف : للأستاذ أحمد أمين

٦٥ـ التعصب : للأستاذ أحمد أمين

٦٦ـ روح السماحة : للأستاذ أحمد أمين

٦٧ـ من نفحات الشرق : الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار : للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

٦٨ـ عبرة الموت : للأستاذ أحمد أمين

٦٣ تعاون العقل والعاطفة على الخير[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

في النفس قوة النظر والفكر، وذلك ما نسميه بالعقل، وفي النفس قوة الميل إلى الشيء والرغبة فيه، وذلك ما نسميه بالعاطفة؛ فالعقل يدرك حسن الشيء أو قبحه، والعاطفة تجعل النفس محبة له راغبة فيه.

وإذا حدثناكم عن العقل، فإنما نريد العقل السليم، فإن هذا هو العقل الذي يدرك في أغلب أحواله الخير أو الشر على ما هو عليه.

ولا أسْلَمَ من عقل تربى في أحضان الدين الحق، وتغذَّى بلبان حكمته الغرَّاء.

أما العاطفة فقد تتجه إلى ما يألفه العقل، وتسير مع العقل جنباً لجنب، وهي العاطفة الشريفة المحمودة، وقد تتجه إلى ما ينكره العقل، ويكون العقل في وادٍ وهي في واد، وهي العواطف التي نسميها أهواءاً وشهواتٍ جامحةً.

اختلاف العقل والعاطفة

يدرك العقل الخير والشر، ولا سِيَّما عقلاً يزنهما بقسطاس الشريعة العادلة، ولكن العاطفة قد تنصرف عن الخير، وتأخذ بزمام النفس إلى ما هو شر، فتُعَدُّ مناوئة للعقل، خارجة عن سلطانه.

وقد نبه القرآن المجيد لهذا النزاع، وحذَّر من الانحطاط مع العواطف فقال -تعالى-: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة:٢١٦.

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، الجزءان الثالث، والرابع من المجلد الرابع عشر ص١٤٨-١٥٧.

فالنفوس قد تحب الشيء وحقها أن تكرهه؛ لأنه شر، وقد تنفر منه وحقها أن ترغب فيه؛ لأنه خير.

وينبني على هذا التنبيه أن الإنسان لا ينبذ الشيء لأول ما تنقبض منه العاطفة، ولا يمد إليه يده لأول ما يحس تعلق العاطفة به، بل يرسل فكره في طلب الاستدلال على أنه خير حتى يتعاطاه، أو أنه شر حتى يتحاماه.

يختلف العقل والعاطفة، وإذا تعلقت العاطفة بما أنكره العقل كانت العاطفة هي الخاطئة، ومن جرى في عمله على إرضائها فقد ازدرى العقل، وضل سواء السبيل.

وليس من الممكن أن يدرك العقل الناشئ في مهد العلم الصحيح شيئاً ويذعن له، ثم تخالفه العاطفة، فتميل إلى غير ما أذعن له العقل، ويكون كل منها على هدى.

وقد زعمت طائفة من المناوئين للدين الحق أن قضايا الدين تتقبلها العواطف، وقضايا العلوم تتقبلها العقول، وأن العواطف قد تتقبل أشياء لا تسلمها العقول، ولم يَكْبُر عليهم أن يقولوا: إن قبول العاطفة للقضية الدينية وإنكار العقل لها لا يتنافيان، قالوا هذا حين قصدوا لصرف الناس عن وجهة الدين من طريق المداجاة والمخاتلة، فتسمعهم يقولون لمن أرادوا إغواءه:

إن الدين لا يَلْزَم أن يكون مطابقاً للعلم؛ لأن العلم يجيء من ناحية العقل؛ فنقبله على أنه ثمرة الفكر، وإن الدين نتقبله بقلوبنا وعواطفنا ولا يضره عدم تسليم العقل.

وقد يأتي أولئك المخادعون إلى أشياء قررها الدين وهي في زعمهم مخالفة للعلم، ويتظاهرون بأنهم يؤمنون بما جاء به الدين فيقولون: هذا قرره العلم فنتقبله بعقولنا، وهذا قرره الدين فنتقبله بعواطفنا.

ونحن نفهم أن الدين الحق قد يقرر شيئاً من الأحكام يقصر العقل عن فهم حكمتها، ككون صلاة المغرب ثلاث ركعات، أو يخبر بشيء يعجز العقل أن يقيم الدليل على إثباته كبعض الأخبار الواردة في الجنة أو النار.

ولكنا ننفي نفياً قاطعاً أن يقرر الدين شيئاً فينكره العقل، أي أن العقل يستطيع أن يقيم الدليل المقبول على انتفائه.

فالحقيقة التي نصدع بها موقنين، ونخرج من مقام الدفاع عنها ظافرين هي أن كل ما يقرره الدين لا تجرؤ العقول على إنكاره، إلا عقولاً لا ترجع في إنكارها إلى منطق صحيح.

والذين يريدون استهواء أفراد أو جماعات إلى مذهب زائغ أو عمل فاسد يتجنبون أن يأتوهم من ناحية العقل والمنطق؛ لعلمهم أن العقل والمنطق إنما يقفان بجانب الحق والفضيلة، فتجدونهم يلجأون إلى أن يأتوهم من ناحية العواطف، حتى إذا وجدوها مستعدة لأن تنحدر في طريق غير طريق العقل أخذوا يجاذبونها، ويغذونها بما يزيد في عوجها، حتى تخرج عن سلطان الحكمة، وهذا ما يفعله الدعاة إلى غير هداية، من نحو إعداد مستشفيات أو ملاجئ ينصبونها حبائل؛ لاصطياد الغافلين من المسلمين.

وكذلك يفعل الملاحدة، والإباحيون؛ إذ يتخذون في وسائل إغواء فتياننا

وفتياتنا، وإبعادهم عن حظيرة الدين، فتح باب الشهوات في وجوههم، من نحو استحسان التبرج واختلاط الجنسين، حتى يبلغ بعضهم أن يقول في غير استحياء: إن الدين لا يمنع من اختلاط الفتيان بالفتيات.

وقد حذر بعض الحكماء من الطائفة التي تأتي الناس من ناحية أهوائهم، فقال: أخوك من صدقك، وأتاك من ناحية عقلك لا من ناحية هواك.

والظالمون المستبدون يعملون على هذه الشاكلة؛ حيث لا يجدون من ذوي العقول الراجحة أولياء؛ فيفتشون عمن ينقادون إلى عواطفهم ـ أي أهوائهم ـ دون عقولهم، فيتخذون منهم أعواناً، ويشبعون أطماعهم بالأموال والمناصب وغيرها، من الملاذ المادية.

ولو رجعنا إلى التاريخ لوجدنا أكثر أعوان الظالمين هم من ذوي النفوس التي تجري مع العواطف السافلة، ولا تقيم لنصائح العقول وزناً.

وقد جاء القرآن الكريم إلى عواطفَ شأنها أن تجمح بالإنسان إلى حيف، أو تصده عن القيام بواجبه؛ فحذر من الإفراط في مسايرتها، مثل الأبوة والبنوة والزوجية والصداقة، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ التغابن: ١٤.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ التوبة ٢٤.

ونظر شارع الإسلام إلى عواطف يغلب عليها الخروج عن حد الاعتدال، وبنى الحكم على ما هو الغالب عليها من الإفراط والغلو، كما جعل الأبوة والبنوة والزوجية من وجوه الطعن في الشهادة، فلا تقبل شهادة الابن لأبيه، ولا شهادة الأب لابنه، وإن كانا معروفين بالعدالة؛ ذلك أن عاطفة الأبوة أو البنوة قد تطغى؛ فتقع بصاحبها في شهادة غير صادقة.

وقد يتنازع العقل والعاطفة إرادة الشخص إلى أن يتغلب سلطان أحدهما على سلطان آخر، وكثيراً ما تحذر الشريعة السمحة من الانقياد إلى العاطفة التي تثور على سلطان العقل، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ النور: ٢.

فالعقل يتجه إلى ما يوجهه إليه الدين من إنكار السفاح، واستحسان إقامة الحد على مرتكبه، ولكن عاطفة الشفقة قد تهز في القلب، فتجعله ينفر من إجراء العقوبة على الزاني، وهذا ما يحذر منه كتاب الله بقوله: ﴿ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾.

والذين ينكرون بعض ما شرع الله من الحدود كقطع يد السارق، وجلد القاذف ورجم الزاني المحصن ـ لا يرجعون في إنكارهم إلى رَوِيَّةٍ ونظرات في المصالح والمفاسد صحيحة، وإنما أخذوا إلى ما يقولون بعاطفة عمياء، أو ذوق غير سليم.

تقوى العواطف وتضعف، والتغلب على العاطفة القوية دليل قوة البصيرة، وإيثار الفضيلة على الرذيلة؛ فمن يخرج للحرب مثلاً، وقد ترك وراءه رزقاً

واسعاً، وأهلاً يعز عليه فراقهم يفضل من خرج إلى الحرب ولم يترك من ورائه شيئاً يأسف عليه.

وأراد جرير أن يبالغ في مدح قوم بطموحهم إلى أقصى مراقي المجادة، فنبه على أن العواطف التي شأنها أن تصرفهم عن هذه الوجهة لا تنال من عزائمهم شيئاً، حيث قال:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

ونبه آخر على أن عاطفة المحبة لا تشغله عن واجب الدفاع، فقال:

وترانا يوم الكريهة أحرا راً وفي السلم للغواني عبيدا

وإذا كانت الشجاعة درجات فإن هذه الدرجات ترتفع على قدر ما يقاوم الإنسان من العواطف الشخصية، ويرمي بها وراء ظهره.

قال عبد الملك بن مروان لجلسائه: «من أشجع الناس؟ فأكثروا من ذكر الأبطال، فقال لهم: أشجع الناس مصعب بن الزبير، جمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وأمة الحميد بنت عبد الله بن عباس، وولي العراقين، ثم زحف إلى الحرب فبذلت له الأمان والمال والولاية، فأبى أن يقبل ذلك، واطرح كل مشغوف به في ماله وأهله وراء ظهره، وأقبل بسيفه قرماً يقاتل ما بقي سبعة نفر، حتى قتل كريماً».

وعلى هذا المنوال يجري كثير من خصال الحمد كالكرم والإنصاف، قال المتنبي:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يعدم والإقدام قتال

والمشقة التي تعرض لطالب السيادة هي التعب الذي يلاقيه في مخالفة ميول نفسه، من نحو حب الحياة، والحرص على الاستئثار بالمال، والتوسع في الاستمتاع به.

وشأن الإنسان حب الانتقام ممن ألحق به أذى، فإذا كان للأذى الذي لحقه وجه من حق، وكان الذي ألحق به الأذى على جانب من الفضل كان مدحه له بدل هجائه؛ تقديماً لداعي العقل على العاطفة الجامحة، وذلك هو الإنصاف.

كان سعيد بن الجودي عاقب المقدام بن المعافى وكان شاعراً، وشأن هذا العقاب أن يهيج في نفس المقدام بغض سعيد وحب الانتقام منه بما يقدر عليه من الهجاء، ولكن المقدام رثى سعيداً بعد موته، فقيل له أترثيه، وقد أصابك بالضرب؟ فقال: والله إنه نفعني حتى بذنوبه، ولقد نهاني ذلك الأدب عن مضار جمة كنت أقع فيها على رأسي، أفلا أرعى له ذلك؟ والله ما ضربني إلا وأنا ظالم له، أفأبقى على ظلمي بعد موته؟

توافق العقل والعاطفة:

يدرك العقل حسن الشيء وصلاحه، وتسايره العاطفة.

والأمر الذي يستحسنه العقل، وتتجه إليه العاطفة تقبل عليه النفس بعزم صارم، وتسعى له بكل ما أوتيت من استطاعة وذلك معنى تعاون العقل والعاطفة على الخير.

اتجاه العاطفة إلى ما يتجه إليه العقل، يجعل الأمر الصعب سهلاً، والغاية البعيدة قريبة، والطريق الوعر مُعَبَّداً؛ لهذا نرى القران الكريم بعد أن يدعو الناس

إلى ما فيه خيرهم قد يأتي النفوس من ناحية العواطف؛ إذ يعقب الأمر بما شأنه أن يثير حماستها، وخذوا مثلاً أمره بدفاع العدو في قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾ البقرة: ١٩٠.

فشأن المسلم أن يتلقى أمر الله بالامتثال لقيام الدليل القاطع على أنه لا يأمر إلا بخير، ولكن الأهواء قد تستولي على القلوب، وتعوقها عن امتثال أمر القتال؛ فأخذ القرآن يهز العواطف حتى تتضافر هي والعقل على العزم والثبات في مواقف الدفاع، إذ قال ـ تعالى ـ: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾ التوبة: ٨.

فذكرهم فرض القتال بأنهم إذا تهاونوا بأمر الدفاع عن أوطانهم بسط عليهم العدو سلطانه، واستبد فيهم لا يرعى لهم عهداً ولا ذمة.

وليس من شك في أن التذكير بهذه العاقبة المشؤومة يثير في نفوس الأمة رغبة شديدة في الاحتفاظ باستقلالها إن كانت مستقلة، أو في الأخذ بأسبابه إن كانت مستعبدة.

وإن شئتم أن تزدادوا خِبْرةً بأثر العاطفة من الإقدام على العمل الصالح بقوة ـ فانظروا إلى رجلين اتحدا في مقدار ما تلقياه من العلوم الدينية، وأحدهما مُتَّقِدٌ حماسة، مجدٌّ في الدعوة إلى سبيل الله، متفانٍ في الذود عن حياض الشريعة، والآخر منهما خِلْوٌ من هذه الحماسة، فلا يؤلمه أن يرى حرمة الدين منتهكة، وكلمته غير نافذة، ونفوس الناشئين عنه منصرفة؛ ذلك أن الأول متفقه في الدين، وتربَّتْ له مع هذا التفقه عاطفةٌ نحوه.

أما الآخر فتلقى علوم الدين، وإنما صارت لمسائله صورة قائمة في ذهنه، دون أن تكون بجانبها عاطفة.

والعلماء الذين كانوا يواجهون ذوي السلطان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يبالون بما يلاقونه في سبيل الدعوة من الأذى، مثل سعيد بن المسيب، وعز الدين بن عبد السلام، ومنذر بن سعيد البلوطي، إنما امتازوا عن غيرهم من أهل العلم بشدة العاطفة الدينية المتدفقة غيرةً وحماساً.

وقد تتعارض العاطفة الدينية والعاطفة الشخصية، والكيس من يقدم العاطفة الدينية، ويرمي بالعاطفة الشخصية إلى وراء، وأسوق إلى حضراتكم مثلاً لهذا هو أن الخليفة هارون الرشيد كان جالساً بجانب القاضي أبو يوسف، فدخل يهودي رافعاً إلى القاضي دعوى على الخليفة، ومراعاةً للتسوية بين الخصمين في مجلس الحكم قام أبو يوسف من مكانه وأشار إلى اليهودي بأن يجلس به حتى يكون بجانب خصمه الذي هو الخليفة، وقضى لليهودي على الخليفة، ولكن أبا يوسف ذكر أن قلبه كان يميل إلى أن يكون الخليفة هو المحق، واليهودي مبطلاً، وكان يتألم من هذا الميل القلبي، ويستغفر الله منه.

فانظر كيف كان في نفس أبي يوسف عاطفة شخصية نحو هارون الرشيد جعلته يحب انتصاره على اليهودي، وكان في نفسه عاطفة دينية تدعوه إلى أن يصدر الحكم على نحو ما أمر به الدين من العدل، فأجاب رحمه الله داعي العاطفة الدينية فأصدر حكمه في القضية على ما أذن به الدين، وأعرض عن داعي العاطفة الشخصية جانباً.

وقد يتجاذب العاطفة الشخصية كعاطفة الصداقة ناحيتان تقتضي إحداهما

مسلكاً، وتقتضي الأخرى مسلكاً غيره، والكيِّسُ يزن الناحيتين، ويقدم الناحية التي ينصح بها الدين ويرتضيها العقل.

قال السلطان صلاح الدين الأيوبي يوماً للقاضي الفاضل: لنا مدة لم نر فيها العماد الكاتب؛ فلعله مريض؛ امض إليه، وتفقد أحواله.

فلما دخل القاضي الفاضل دار العماد، وجد أشياءً أنكرها في نفسه مثل آثار مجالس الخمر، وآلات الطرب، فخاطبه منشداً:

ما ناصحتك خبايا الودِّ من رجل ما لم ينلك بمكروه من العَذَلِ
محبتي فيك تأبى أن تسامحني بأن أراك على شيء من الخلل

فلما قام من عنده أقلع العماد عما كان فيه، ولم يعد إليه؛ فعاطفة المودة قد تدعو إلى الإغضاء عن معايب الصديق؛ لأنَّ تنبيهه إلى العيب قد يؤلمه، وربما أحدث جفاءاً بين الصديقين، وقد تدعو إلى تنبيهه لبعض ما يأخذه عليه الناس متى أبصروه، وهذا ما يدعوه إليه الدين، وتنادي به الفضيلة.

وكان ابن هبيرة يقول: «اللهم إني أعوذ بك مِنْ صحبة مَنْ غايته خاصة نفسه، والانحطاط في هوى مستشيره، ومن لا يتلمس خالص مودة أصدقائه إلا بالتأتي لموافقة شهواتهم».

كيف تربى عاطفة الخير؟:

عواطف الخير كثيرة، وتربى العاطفة الشريفة ببيان ما يترتب على العمل من فوائد عامة أو خاصة؛ فقد يعتقد الإنسان بصلاح عمل من جهة ثقته بحكمة من يأمره به؛ أو لأنه اطلع على فائدة من فوائده؛ فيجد داعية إلى إجابة الأمر، ولكن

هذه الداعية قد تبدو ضعيفة حيث لم يكن بجانبها عاطفة قوية تسهل عندها الصعاب، وتتضاءل أمامها العقبات.

وتقوى العاطفة نحو الشيء بقدر ما تعرف النفس من فضله وحسن عواقبه، فصدور الأمر بالشيء من الشارع الحكيم مثلاً هو كاف لقبول الإنسان له واعتقاده بصلاحه، ولكنه ينهض للعمل بنشاط أوفى، وعزم أمضى، متى ازداد علماً بما يترتب عليه من الآثار الحميدة.

وتربى العاطفة الشريفة بالأساليب البارعة من نحو التشابيه والاستعارات، وضرب الأمثال، حيث يُعْرَضُ الشيء المطلوب فعله، في صورة شيء تألفه النفوس وترغب فيه، فقد تدرك النفس حسن الشيء المطلوب فعله، ولكن عرضه في صورة ما ألفته واتجهت إليه من قبل يجعلها تزداد ارتياحاً له، ورغبة فيه.

ومن هنا كان الشعر مثيراً للعواطف، وصح أن يستعان به في توجيه النفوس إلى كثير من أعمال الخير.

وقد سلك القرآن الكريم في تربية العواطف هذا المسلك البديع، وكان لضربه الأمثال أثر عظيم في تثبيت حكمه البالغة في النفوس، وتنمية العواطف الدافعة إلى عظائم الأمور.

وخلاصة البحث: أن أطيب الناس حياةً، وأرفعهم في المجد مقاماً، وأوفرهم من خصال الحمد ثروة ذلك الرجل الذي رزق عقلاً سليماً، وديناً قيِّماً، ورزق بجانب ذلك عواطف شريفة تتوجه حيثما توجه العقل، ولا تنساق إلاَّ إلى ما يرتضيه الدين الحق.



٦٤ الخوف[1] للأستاذ أحمد أمين

الخوف من الأمراض التي تنغِّص الحياة وتذهب بالسعادة.

هو مرض خطير قلَّ أن يسلم منه إنسان، وهو أشكال وألوان، يُشَكِّل أعمال الإنسان ويوجهها طوع إشارته، وحسب إيحائه، وفي كثير من الأحيان يصده عن العمل، ويسبب له اليأس، ويفقده الأمل.

فمن أول أنواعه الخوف من الفقر؛ وهو من أخطر أنواعه؛ لأنه يَشُلُّ قوة التفكير، ويقتل الثقة بالنفس، ويولد الشك، ويضعف اليقين، ويفقد الأمل والطموح.

وقد زاد هذا الخوف في عصرنا عن كل العصور السابقة؛ للتزاحم المالي الشديد، والتقاتل عليه مما لم يعرف له من قبل مثيل؛ فقد أعلت المدنية الحديثة شأن المال جداً، وتسابق الناس في مقاتلة بعضهم بعضاً لكسبه.

نعم إنه داء قديم في الإنسان، ولكنه لم يبلغ الخطر الذي بلغه الآن؛ فالفقير ليس له قيمة سياسية ولا اجتماعية ولا قانونية، ومالك المال ـ مهما كانت الوسائل التي اتخذها في جمعه ـ هو الذي يسيطر، وهو الذي يُنتخَب، فيشارك في السياسة، وهو الذي تخضع له الرقاب.

من أجل هذا كانت تصور الفقر مرعباً، وكان الخوف منه شديداً، ومما زاده سوءاً أن حاجتنا في الحياة أصبحت معقدة مركبة، وما كان يكفي الرجل أسرته

---

(١) فيض الخاطر ٢٠٤/٤ ـ ٢٠٩.

قديماً لا تكفي أضعافه الآن، وكان رب الأسرة يحتمل المعيشة الخشنة، والرضا بالكفاف، ولكنه الآن يرى أن ضرورات العيش لا عداد لها، فهو يخشى الفقر؛ لأنه هو وأسرته لا يستطيعون أن يصبروا على القليل، وهو ـ إن افتقر ـ كان أتعس ممن قبله عندما افتقروا.

ومما يزيد الإنسان خوفاً من الفقر شعوره الشديد أنه يَوْمَ يفقد ماله، ويومَ لا يستطيع أن يسد حاجاته وحاجات أسرته يفقد عزته، ويشعر بالمذلة، ويرى نفسه أحقر من إخوانه الذين يملكون المال ولو كان أشرف منهم نفساً، وأحسن خُلُقاً، كل ذلك يملأ قلبه رعباً من تصور الفقر وتوقعه.

ونوع آخر من الخوف، الخوف من النقد، ومن كلام الناس، وهذا الخوف يسيطر على أعمالنا لدرجة كبيرة.

وهو يتخذ أشكالاً لا عداد لها، فالناس يلبسون (الطربوش) في الصيف لا للحاجة إليه ولكن خوفاً من كلام الناس، ويعملون كثيراً مما يعملون، ويجتنبون كثيراً مما يجتنبون؛ خوفاً من كلامهم.

واختراع البِدع ـ الموضة ـ كل عام، وإقبال الناس عليه مبني على هذه النظرية؛ فالمصانع تخرج كل سنة بدع الملابس، فتلبسه طائفة ممن عرف بالأناقة؛ فتهرع السيدات والآنسات للبسه؛ خشيةً من كلام الناس، وهكذا مصانع السيارات، ونحوها.

وكثيراً من العقلاء والمفكرين يجارون الناس في آرائهم، وأعمالهم، وإن اعتقدوا سخافاتها؛ خوفاً من كلام الناس.

ولو لاحظ الإنسان كل تصرفاته اليومية من أيام صغره إلى أيام كبره لرأى أن أكثرها صادر عن الخوف من نقد الناس.

وما مرض الفخفخة، وحب الظهور، ولا مرض الخجل، والمبالغة في الحياء، ولا مرض حب التقليد، وعدم الابتكار ـ إلاَّ أعراض من أعراض الخوف من كلام الناس.

ثم الخوف من المرض، وهذا النوع من الخوف متصل بنوعين آخرين هما الخوف من الهرم، والخوف من الموت، والإنسان يخاف من المرض؛ لأنه يستحضر في ذهنه احتمال الموت منه، كما قد يستحضر صورة العجز عن كسب العيش.

وقد استغل هذا الخوف من المرض تجار الأدوية؛ فصنعوا منها ما أغرق الأسواق، وكثير منها ليس علاجاً حقيقيا، وإنما هو علاج وهمي لأمراض ناشئة من الخوف من المرض.

وهذا الخوف قد ينتهي عند بعض الناس إلى مرض حقيقي؛ لأن الإيعاز المستمر بالمرض قد يسبب المرض، وكثيراً ما تحدث صاحبك بسوء صحته، أو تغير لونه، فيشعر عقب ذلك مباشرة بالضعف، والتخاذل، والمرض، ويكاد هذا المرض يكون عاماً عند الناس، وكثيراً ما يبعث عليه الفشل في الحياة، أو الفشل في الحب، أو اليأس من شيء مرجو، أو التعب الجسمي، فسرعان ما تظهر إذ ذاك أعراضه.

ومن أعراضه كثرة الكلام في المرض، واستفسار الأطباء عن المرض، وقراءة

الإعلان عن الأدوية، وكثرة وزن الجسم في الموازين العامة في الطرق، وتوهم المريض عندما يسمع وصف مرض أنه مصاب به، وكثرة استعمال المسكنات، وهكذا...

وهناك الخوف من فقد حب من يحب، وهو خوف يلازم الحب غالباً، فيخاف المحب أن ينصرف عنه محبوبه إلى غيره، وهذا ـ غالباً ـ هو علة الألم من الصد، والهجران.

وهذا الخوف كان مظهره في الزمن القديم الاستيلاء على المرأة بالقوة، وحبسها، ومراقبتها مراقبة شديدة، ونحو ذلك، ثم حولته المدنية إلى محاولة كسب قلبها من طريق الإغراء بالتحبب إليها، والتظاهر بمظاهر العظمة، والجاه ونحو ذلك.

وهذا النوع من الخوف يحدث للمرأة كما يحدث للرجل، بل هو عند المرأة أشد؛ لأن المرأة أقل ثقة بالرجل من الرجل بالمرأة.

ومن أعراضه شدة الغيرة غيرة الرجل على المرأة، و المرأة على الرجل؛ حتى يصل بالإنسان إلى درجة الهوس؛ فيكون الاتهام من غير أن تكون له أسباب معقولة.

كما أن من أعراضه كثرة مؤاخذة المحب حبيبته حتى على الأمور التافهة، والأمور الوهمية، وكثرة العتاب، وما إلى ذلك.

ثم الخوف من الهرم أو الشيخوخة، ويرجع سبب هذا الخوف إلى عاملين:

الأول: الخوف من أن الشيخوخة قد تعجز المرء عن الكسب؛ فيكون عالة

على غيره، وأكثر ما يكون هذا عند العامل، والصانع، ومن يعيشون على كسبهم اليومي؛ فهم يعيشون على حساب صحتهم؛ فإذا عجزوا عن العمل حُرِموا وسائل العيش.

والسبب الثاني: هو أن الشيخوخة نذير الموت، والموت بغيض مُخيفٌ، وقد يكون من أسبابه شعور المرء أنه إذا شاخ وهرم فقد جانباً كبيراً من استمتاعه بنعيم الحياة؛ إذ لا يعود يستطيع أن يجذب المرأة إليه، ولا المرأة أن تؤثر في الرجل، وربما كان هذا السبب الأخير عند المرأة أقوى منه عند الرجل؛ لأن جمال المرأة رأس مالها في الحياة، فهي تخشى الشيخوخة التي تضيع رأس مالها.

وأعراض هذا المرض تختلف اختلافاً متناقضاً؛ فأحياناً يظهر في شكل كثرة حديث المسنين عن الشيخوخة، وانتهاز كل مناسبة للتحدث عن شيخوختهم، وأنهم انتهوا من دور الشباب، واعتذارهم من حين لآخر عن كسلهم أو بأسهم أو فشلهم بشيخوختهم، وأحياناً يكون من أعراضه التظاهر بمظهر الشباب كصبغ الشعر، والتأنق في الملبس، ومحاربة تجاعيد الوجه، وتكلف اعتدال القامة، والكذب في السن الحقيقية.

وقلَّ أن يعزيه عن شيخوخته كِبَرُ عقله، ونضوجُ تفكيره.

وأخيراً ـ ويجب أن يكون أخيراً ـ الخوف من الموت، وهو عند أكثر الناس أشد أنواع الخوف، وسببه ـ في الأغلب ـ **يرجع إلى أمرين**:

الخوف مما بعد الموت؛ لأنهم يرون أنهم في حياتهم لم يرضوا الله بكثير من أعمالهم، والله حاكم عادل يثيب المحسن، ويعاقب المسيء، فهم يستحضرون في

أذهانهم إساءتهم، ويستحضرون ما للإساءة من عقوبة، فهم بذلك يخشون الموت كما يخشى المجرم المحكمة.

والسبب الثاني: ما يشعرون به من لذعة إذا تصوروا فراق الأهل والخلان.

وهذا النوع من الخوف عند الشيوخ أكثر منه عند الشباب، وعند الفارغين من العمل أكثر منه عند العاملين، وعند ضعاف الأعصاب أكثر منه عند أقوياء الأعصاب.

وقد يبالغ فيه بعض الناس؛ فيظهر ذلك بمظاهر مختلفة، فمنهم من يزهد في الحياة، وينقطع للعبادة، ومنهم من ينغص عليه الحياة؛ فيصيح مهوش الفكر مضطرب العقل، لا يصلح لعمل دنيا، ولا عمل آخرة، إلى غير ذلك.

هذه الأنواع من الخوف تملأ الحياة، وتلونها وتصبغها أصباغاً مختلفة؛ حتى لو قلنا إن أكثر أعمال الإنسان هي نتيجة الخوف لم نُبعد، بل هو كذلك أهم سبب للاتجاهات التي يتجهها الإنسان في حياته من فعل وترك، وفعل هذا دون فعل ذاك، والسير في هذه السبيل دون تلك.

والآن وقد فرغنا من وصف المرض، وأعراضه ومضاعفاته يحق لنا أن نتساءل: إذا كان هذا هو المرض؛ فما علاجه؟

لقد أَبَنَّا أن الخوف حالة نفسية تستولي على الفكر فتشله، فإذا نحن آمنا بأن للإنسان قوة على تفكيره كما أراد، كان هذا مفتاح العلاج.

احم نفسك من مؤثرات الخوف سواء في ذلك ما تثيره نفسك، وما يثيره من حولك، وكن شديد الإيمان بأن لإرادتك قوةً تستطيع بها أن تزيل هذه المخاوف، وأن تبني حاجزاً يحول بين نفسك، وبين مؤثرات الخوف.

اقرأ ما يبعث فيك القوة والشجاعة، ويملؤك أملاً وطموحاً ، ويقوي إرادتك على نفسك.

آمن بأن توقع الشر شر من الشر نفسه؛ فلا معنى أن يجمع الإنسان على نفسه شر الشر، وشر توقعه.

حلّل نفسك وتبين سبب مخاوفها: هل أنت تكره عملك الذي تعمله، ولماذا ؟ هل أنت خاضع لمؤثرات تستوجب خوفك، فكيف الخلاص منها؟ هل فقدت الثقة بنفسك؛ ولماذا؟ هل أنت فارغ من العمل؛ فتستسلم من أجل ذلك للمخاوف، إذاً فكيف تملأ وقتك بالعمل؟

هل أنت تضعف أعصابك بالمسكرات أو كثرة التدخين؛ فتقع تحت تأثير الخوف من أجل ذلك، إذاً فكيف تتغلب على ذلك؟ أي أنواع الخوف الستة أكثر تأثيراً فيك؛ ولماذا؟ هل لديك الوسائل الروحية، والعقلية التي تستطيع أن تتغلب بها على الخوف؛ فإذا لم تكن؛ فكيف تحصل عليها؟ هل أنت واقع تحت تأثير أصحاب يسببون لك الخوف، فكيف تتخلص منهم؟ هل تصادق من هم أضعف منك عقلاً، وقلباً، وروحاً؟ إذاً فكيف تغيرهم بمن هم خير منهم؟

ما أهم سبب لمتاعبك؟ كيف تعالجه؟ كيف تقسم زمنك، كم منه للنوم؟ وكم للعمل العقلي أو القراءة؟ وكم معملك[1] المعتاد؟ وكم للعبك وراحتك؟

فهذه الأسئلة ونحوها إذا أنت أجبت عنها في أمانة، وإخلاص تعرفت نفسك، وتعرفت مخاوفك، وتعرفت كيف تسلط إرادتك على أسباب الخوف؛ فتمحوها.

---

(١) كذا في الأصل، ولعلها: وكم لمعملك، أو لعملك. (م)

وأخيراً ردد على نفسك «لا تخف» وردد قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ التوبة: ٥١.

٦٥ التعصب[1] للأستاذ أحمد أمين

كانت ثلاثة أيام لطيفة قضيناها على شاطئ البحر، الجو معتدل يميل إلى البرودة، والسماء صافية، والشمس ساطعة، والبحر هادئ، وكل شيء حولنا جميل، ونزلت أنا وصاحبي في فندق على البحر في رمل الإسكندرية، ننعم فيه بالهدوء وجمال المنظر، والأناقة تبدو في كل ما حولنا.

ها نحن في الصباح في حديقة الفندق بعد أن تناولنا فطورنا نقرأ الجرائد، وبعد أن فرغ صاحبي من قراءتها، وضعها، وإذا هو يقول: «شرٌّ ما نُبلى به اليوم التعصب»، ولا أدري ماذا بعثه على هذا القول مما قرأ؟

فقلت: إن التعصب كلمة مصطنعة أطلقها الإفرنج علينا ظلماً وعدواناً؛ ليصرفونا عن التمسك بديننا، والاحتفاظ بقوميتنا، فإذا قاومنا أعمال المبشرين قالوا: تعصب، وما هو إلا حماية ديننا من الاعتداء عليه، وإذا وقفنا في وجه الاستعمار وثرنا من أجل استغلالنا واستعبادنا قالوا: تعصب، وما هو إلا المحافظة على كياننا، والرغبة في التمتع بحرياتنا، وهم يتمسكون في بلادهم بأشد مما نتمسك به في المحافظة على دينهم وقوميتهم، ولا يخطر ببالهم أن يسموا هذا تعصباً.

وإذا صح إطلاق القول فهم أولى به منا؛ إذ يدعوهم تعصبهم لدينهم إلى نشره بيننا، وحماية التبشير بالقوة، ويدعوهم تعصبهم لقوميتهم إلى فرض الاستعمار

(١) فيض الخاطر، ٨/٦٢ـ٦٧.

علينا بالسلاح فهل نحن المتعصبون؟

قال هو: قد يكون هذا القول صحيحاً، ولكن ليس هذا الذي أريد، إذ أريد التعصب الداخلي فيما بيننا، ويظهر ذلك في الجمعيات الدينية، والأحزاب السياسية، والهيئات الاجتماعية، فكل جمعية دينية ترى أنها هي التي على الحق ومن عداها فعلى الباطل، وتخاصم من عداها، وقد ترميه بالكفر والإلحاد، وقد تنفِّذ آراءها بقوة السلاح، وكل حزب سياسي يتعصب لحزبه، ويرى كل ما يصدر عنه حقًّا، ولا يرى أي حق فيما يصدر عن الأحزاب الأخرى، ويتمثل ذلك في قول قائلهم: «الحماية على يدنا خير من الاستقلال على يد غيرنا».

وكل هيئة اجتماعية ترى أنها الوحيدة في فعل الخير وفي الإصلاح، أما ما عداها من الهيئات فأداة فساد، هذا هو التعصب الذي أعنيه وأكرهه وأمقته، وأدعي أنه كارثة من أكبر كوارثنا.

أنا: ولكن علمني أستاذي سقراط أننا قبل أن ندخل في الحوار نحدد الموضوع؛ فما الذي تعني بالتعصب؟

هو: إنما أعني به الغيرة العمياء، وأعني بالعمياء أنها غيرة لا تصدر عن تفكير هادئ، ولا منطق سليم، وإنما تصدر عن تقليد من غير نظر، أو عقيدة من غير تفكير، أو تلقين من غير بحث، وهذا مرض نفسي له أعراض ككل الأمراض، **وأهم هذه الأعراض ثلاثة تظهر مجتمعة لا متفرقة:**

أولها: ضيق النظر؛ فليس يرى المتعصب إلا ما اعتقده، أو لقِّنه أو ألقي في

روعه، أما ما عداه فهو يكرهه من غير تفكير، ويمقته من غير أن يصغي إلى حججه، قد وضع أمام عينيه ما اعتقد، وأبى أن يرى أيَّ شيء عداه؛ فمهما قال مخالفه فهو باطل قبل أن يدلي بحججه، ومهما قال مؤيده فهو حق ولو لم يأت ببرهان، قد عكس الوضع الطبيعي، فوضع العربة أمام الحصان، فهو يرى الرأي أولاً، ثم يلتمس البراهين لتأييده ثانياً، وهو يحب كلَّ شيء يقوي رأيَه، ويكره من صميم قلبه كل شيء يعاكسه، وقد يغلو في ذلك حتى يصبح أشبه ما يكون بالمجنون.

وثاني الأعراض: حبه القوي لغلبة فكرته أو عقيدته وهزيمة الآراء المعارضة واندحارها؛ ليس عنده أي شيء من التسامح فيما يخالفه من آراء حتى كأن مخالفه قد قتل قتيلاً له، فهو يريد الأخذ بالثأر منه، فهو متحمس هائج يريد أن يقضي على من يخالفه بكل ما لديه من قوة، ويكون هذا في المعتقدات الدينية وفي الأحزاب السياسية، وفي النظريات الاجتماعية على السواء؛ فالمتعصب الديني كاره لمن خالفه، متحمس للقضاء عليه أو على فكرته، والمتعصب الحزبي لا يرى خيراً إلا ما أتى من حزبه، وأما ما أتى على يد الأحزاب الأخرى فشرٌّ محض يجب أن يقاوم بكل ما استطاع من قوة، ولو بإفساد النظام وإشاعة القلق والاضطراب، وهكذا الشأن في النظريات السياسية، كالنزاع بين الديمقراطية والاشتراكية والشيوعية والنازية وأمثالها، يتحمس معتنقوها حتى يصل التحمس إلى سفك الدماء.

وثالث الأعراض: أن هذه الغيرة العمياء والحماسة الخرقاء تجعل صاحبها لا

يقدِّر ما ينزل بالآخرين من آلام ولا ما يحل بهم من كوارث؛ فلا يرى إلا تحقيق فكرته مهما أَلِم الناس، تطغى رغبته في الفكرة على كل ما لديه من عواطف، فهو قاسٍ جبارٌ يتشفى بعذاب الناس وإيلامهم في سبيل تحقيق فكرته، ويظهر ذلك بأجلى مظهر من الناحية الدينية في محاكم التفتيش، ومن الناحية السياسية والاجتماعية في الثورة الفرنسية، ففي كل ذلك صار التعصب غيرة يلهبها الحقد.

وتركنا مقاعدنا، وسرنا على شاطئ البحر نتم حديثنا.

أنا: ألست ترى أن هذا هو الجانب الأسود من التعصب وأن له جانباً آخر جميلاً؟ فكثير من ضروب الإصلاح أتت على أيدي المتعصبين، اعتنقوا فكرة وتعصبوا لها، ورأوا الخير فيها، وتحمسوا لها وتحملوا العذاب في تحقيقها، وكثر أشياعهم وأتباعهم حتى عمَّ الإصلاح؛ فالحكم على التعصب كما يؤخذ من كلامك بأنه شر محض، مبالغ فيه، والعقيدة ما لم تصهرها حرارة الإيمان لا قيمة لها، والفكرة ما لم يتحمس لها صاحبها وما لم تأخذه الحمية لها وما لم يدع إليها في غيرة واحتمال آلام لا تكون ذات قيمة، وهذا ضرب من التعصب الذي تبغضه.

هو: قد يكون في هذا شيء من الحق، ولم أدَّعِ أن التعصب شر محض، فليس في الدنيا شر محض، وكل ما في الحياة ـ مادياً كان أو معنوياً ـ مزيج من الخير والشر، ونتائجه كذلك، وإنما نكره الشيء، ونحكم عليه بالشر لأن مضاره أكثر من منافعه والعكس، والتعصب شر ما منيت به الإنسانية، والمتعصب لا يرى خيراً إلا ما لقنه من غير تفكير ولا برهان، وهو بذلك ينقلب وحشاً ضارياً،

ويصبح وليس أمامه إلا تحقيق نفسه، وينقلب أنانياً بغيضاً يتحدى الأفكار المخالفة في عنف، ويريد أن يفرض على الناس رأيه بالقوة لا بالإقناع، وأي ضرر بعد هذا؟

إن المتعصب أبعد ما يكون عن معنى الإنسانية، إنما المصلح الحقيقي من اعتنق الفكرة بعد بحث وتمحيص، وتحمس لها في عقل واعتدال، وحاول بث دعوته عن طريق الإقناع والبرهان لا عن طريق القهر والغلبة.

ويدلنا التاريخ على أن التعصب كثيراً ما يسير سيراً وبائيًّاً كالطاعون؛ فينشر المرض في سرعة عجيبة، وخاصة في الجامعات التي ليس لها رأي عام متنور، ويزيد في انتشار هذا الوباء أن يكون للجمعية الدينية أو الحزب السياسي شعائر ومظاهر تتفق وعقلية العامة في الشعوب الساذجة، وعندما تنتشر هذه الفكرة الناشئة عن التعصب يفقد جمهور المعتنقين لها الشعور بالمسئولية، فيأتون من الأعمال ما لا يأتيه الفرد العادي منفرداً في حالة وعيه، وقد ينضم إلى الفكرة أفراد مهذبون على درجةٍ ما من الرقي العقلي بسبب قوة التيار وما في الفكرة أحياناً من بريق ولمعان، وإذ ذاك يكون الخطر ويصبح الناس في حالة هسترية كالتي كانت في محاكم التفتيش وفي الحروب الصليبية، وأكرر القول بأن هذه هي الأعراض في الجمعيات الدينية والأحزاب السياسية على السواء.

أنا: هل تضع أمام عينك وأنت تتكلم هذا الكلام طوائف وأحزاباً خاصة تستلهم منها هذه الآراء؟

هو: قد يكون ذلك، وقد يكون مبعث هذا ما قرأته في جرائد اليوم، ولكني

قد ارتفعت في تفكيري عن الجزئيات، وحلقت في سماء الكليات.

أنا: هذه هي عادتك دائماً، تفلسف كل شيء حتى تجعل من الحبة قبة، ومن القطرة مطراً، ولكن أترى أن هذا الأمر مقصور على الشرقيين؟

هو: كلا، إني أرى أن دور التعصب هذا دور طبيعي، تمر فيه كل جماعة كما يمر كل إنسان في دور الطفولة، فإذا اتسع أفقه، وزاد علمه، وتأصلت حريته، لم يعد التعصب يجد مجالاً لنموه ولا ميداناً يسبح فيه.

أنا: ما دمت تتفلسف فلأتفلسف، ويخيل إليَّ أن فلسفتك كانت فلسفة نفسية أو سيكولوجية، فلأتفلسف أنا فلسفة اجتماعية، فأقول: إن هذا التعصب إنما يسير كما ذكرت سير الوباء في بيئة اجتماعية صالحة له كأن يشيع فيها الفقر، والبؤس، وسوء الحال، وكثرة الضغط، وقوة الاستبداد؛ فتكون هذه الأشياء كلها مرعى خصيباً تسود فيها الفكرة المتعصبة ويدخل الناس فيها أفواجاً، وقد يكون كثير ممن يدخلونها لا يؤمنون بها، ولكن لما رأوها تدعو إلى القلق والاضطراب، أحبوا القلق والاضطراب؛ لأنهم يمنون أنفسهم بإصلاح الحال بعد زوال الاضطراب؛ فيشتركون مع أصحاب الفكرة في النتيجة وإن لم يشتركوا في الأسباب والعقيدة، وإذا كان تشخيصك للمرض نفسياً وعلاجك له علاجاً نفسياً، فتشخيصي له تشخيص اجتماعي، وعلاجي له علاج اجتماعي؛ فلنتحرَّ أسباب القلق والاضطراب ونُزِلْها يترتبْ على ذلك حتماً حصر المرض في بقعة معينة، وعدم سيره سير الوباء.

إن كان منهج فلسفتك النفسية يرسم العلاج بنشر العلم الصحيح بين الأفراد

وتأسيس منهج تربيتهم على البحث والتفكير والشك والتجريب وعدم سرعة التصديق - فليكن منهج فلسفتي الاجتماعية نشر العدالة الاجتماعية، وتأمين الناس على مصالحهم، وحرياتهم، وتحقيق العدل بينهم؛ فإذ ذاك يتعاون الإصلاح النفسي الذي تذكره والإصلاح الاجتماعي الذي أنشده على قطع دابر التعصب، وإحلال التسامح اللطيف محل التعصب السخيف.

وشعرت بأن هناك عدم انسجام بين هذا الجو وهذا الحديث؛ فالجو فَرِحٌ مرح ونحن جادون، والبحر يضحك ونحن عابسون، والنسيم يداعبنا ونحن لا نجاويه، وانتهزت فرصة رجوعنا إلى الفندق فحوَّلت الحديث إلى غزل في الجو وصفائه، وابتهاج بالمنظر وجماله.

٦٦ روح السماحة [(١)] للأستاذ أحمد أمين

قرأت اليوم وصفاً لناد في واشنطن إذا ترجمنا اسمه إلى العربية سمَّيناه «نادي السفود» [(٢)] عدد أعضائه خمسون يُختارون على أساس مراكزهم الاجتماعية، ومقدرتهم الصحافية، ومهارتهم التهكمية.

ولهذا النادي تقاليد؛ فالأعضاء يلبسون في الاجتماع «الفراك» وربطة الرقبة البيضاء، ولهم شارة هي عبارة عن صورة «سفود» تعلق على السترة، فيعلم أن صاحبها عظيم من العظماء؛ إذ كان عضواً في هذا النادي.

وعمر النادي الآن خمس وستون سنة، يقيم أعضاؤه حفلتين كل عام، إحداهما في إبريل، والأخرى في ديسمبر، وفي كل حفلة يدعى رئيس الجمهورية، ورئيس الحزب المعارض، وكبار موظفي الدولة، وقد لبى الدعوة رؤساء الجمهورية جميعاً، ما عدا الرئيس «كليفلاند».

وفي كل اجتماع يعد برنامج حافل يشتمل على نقد الرئيس ورئيس المعارضة وكبار الموظفين نقداً تهكمياً لاذعاً، واستعراض المشاكل التي تشغل بالهم، وتشغل الرأي العام، وكيف تصرف فيها هؤلاء الكبار، ثم وضع ذلك كله في قالب فكه ساخر، وبعد أن ينتهي هذا البرنامج الذي يُشْوى فيه هؤلاء الكبار على السفود يقف رئيس الجمهورية ورئيس الحزب المعارض، فيخطب كلٌّ

---

(١) فيض الخاطر، ١٣٤/٨ ـ ١٣٧.

(٢) السفود: هو الحديدة التي يشوى عليها اللحم.

منهما عشر دقائق شاكراً للنادي تهكمه، مقابلاً السخرية بالسخرية، والتهكم بالتهكم، واللذع باللذع.

وبذلك ينتهي الاحتفال بعد أن يكونوا قد عرضوا للمشاكل والرؤساء من الجانب التهكمي، فأبانوا مثلاً كيف كبَّر هؤلاء الكبار صغار الأمور، وعدوها مشاكل عظمى وهي في ذاتها تافهة، وكيف تصرفوا فيها تصرفات مدوية، وكان يمكن أن يتصرف فيها على أبسط وجه وأخصر طريق، وكل ذلك في ثنايا الضحك اللطيف، والتهزيء الطريف.

ويقول أحد رؤساء الجمهورية في مذكراته: «يزودنا نادي السفود بقدر كبير من المرح، وقد روضت نفسي على الابتسامة العريضة من النكات اللاذعة التي تقال عني، ويغريني على ذلك علمي أن كل رئيس غيري - مهما بلغت منزلته - سيلقى ما لقيت في سبيل المرح في هذا المساء».

وقد حدثني من تخرج من جامعة أمريكية أنه فوجئ آخر العام الدراسي بورقة وزعت عليه وعلى سائر الفصل، تسأله فيها الجامعة عن رأيه في الأستاذ فلان من حيث كفايته العلمية ومن حيث طريقة تدريسه، ومن حيث معاملته الطلبة.... إلخ، والطلبة يجيبون في صراحة من غير ذكر أسمائهم، والجامعة والأساتذة يتقبلون هذا في سماحة.

هذا ما أسميه «روح السماحة»، وهي روح لا يمكن أن تسود في أمة إلا إذا ربي الأفراد فيها على الديمقراطية الحقة[1]، فلكلٍّ شخصيته، ولكلٍّ رأيه، ولكلٍّ

(١) لو قال: الحرية الحقة (م).

أن ينقد ما يشاء، ومن يشاء، وعلى المنقود أن يكون واسع الصدر في سماع النقد.

ولكن على الناقد ـ أيضاً ـ أن يكون لديه من حسن التقدير، ودقة الذوق، ما يصوغ به نقده في أسلوب مؤدب، ولذلك عرف أعضاء نادي «السفود» بأنهم يستطيعون أن يمزجوا الفكاهة والسخرية بالرزانة والذوق السليم.

وليست تستطيع أمة أن تعتنق «روح السماحة» إلا إذا عودت سعة الأفق، وعدم التزمُّت، واحترام الفرد رأيَ غيره، كما يحترم رأيَ الآخرين، وإيمانه بأن رأيه ـ وإن ظهر له صوابه ـ قد يكون خطأً، ورأي غيره ـ وإن ظهر خطؤه ـ قد يكون صواباً، وإن من الصعب رؤيةَ الحق من جميع زواياه، فليس يرى الفرد الحق إلا من زاوية واحدة، وقد يراه الآخر من زاوية أخرى، ومن أجل ذلك فهو واسع الصدر للنقد، مقدر للناقد، محترم له؛ لأنه يزيده في رأيه ثروة.

أما المتعصب فضيق النظر، شديد الحقد على مخالفه، سادٌّ سمعه، ومغمضٌ بصره عن أي حجة لخصمه، لا يرى إلا أن تسير الدنيا على رأيه، وإلا استحقت الخراب؛ ولذلك كان فاقداً لروح الفكاهة، لا تصدر عنه، ولا يستسيغها من غيره؛ لأن روح الفكاهة وروح السماحة منزلة أسمى من منزلته.

في الأدب العربي كثير من الشعر والأخبار التي تمثل روح السماحة، كالذي يروى عن الأحنف بن قيس، ومعن بن زائدة وغيرهما، يُنْقَدون فيحلِمون، ويُتَهَكَّم عليهم فيسمحون، ويقابلون السخرية بالابتسامة، ولكن لسنا الآن بصدد أفراد، وإنما نحن بصدد روح عامة في الأمة.

والحق أن الأمم العربية اليوم في أشد الحاجة إلى روح السماحة، فهي تقربهم إلى التفاهم، وتبعدهم عن التقاطع، نحن أحوج إليه في علاقة الحاكم بالمحكوم؛ فالمحكوم ينفس عن نفسه بنقد ما لا يستصوبه من أعمال الحاكم، ولكنه نقد مؤدب، وقد يكون فكهاً فرحاً، وقد يكون فيه سخرية لطيفة، أو نكتة رائعة، والحاكم من جانبه واسع الصدر لسماع النقد، سمح في قبوله، يجيب عن نقده في رزانة، وقد يقابل التهكم بالتهكم، والسخرية بالسخرية، وروح الجميع سليمة من الحقد، لا تنطوي على الشر، وقد فرج ذلك كله على الحاكم والمحكوم، فبينهما ـ برغم النقد والسخرية ـ صفاء متبادل.

ونحن في حاجة كذلك إلى روح السماحة في العلاقة بين الدول العربية والشعوب العربية بعضها وبعض، ولو سادت هذه الروح ما رأيت ما يحدث بينها كل حين من سباب وغضب، وتهديد بقطع العلاقات، وسد الطرق، وانسحاب من الجامعة العربية، وما إلى ذلك، فمثل هذه الأمور كلها مظهر من مظاهر فقدان «روح السماحة» ودليل على ضيق العطن، والانطواء على الحقد والضغينة، أو العزة الكاذبة.

لَكَمْ نرى في التاريخ الماضي وفي الحاضر من أزمات حادة، عولجت بكلمة سمحة فرجت الأزمة، أو نكتة بارعة أعادت إلى النفوس صفاءها، أو احتمال الرئيس للنقد اللاذع تحقيقاً للمصلحة العامة.

إن روح السماحة هي أشبه ما تكون بالروح الرياضية، يلعب اللاعبون في ميدان اللعب، فيتبارون ويتسابقون، ولكن لا يحملون حقداً، ولا ينطوون على

ضغينة، فإذا انتهى اللعب وضع المغلوب يده في يد الغالب مهنئاً له، وخرجوا جميعاً من الميدان بنفوس صافية وقلوب راضية.

يحكون أن المهدي أراد أن يغزو أهل الشام لخطأ ارتكبوه، فقال لهابن خريم: «يا أمير المؤمنين، عليك بالعفو والتجاوز عن المسيء؛ فلأن تطيعك العرب طاعة محبة خير لك من أن تطيعك طاعة خوف».

٦٧ من نفحات الشرق: الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار[1]

بقلم العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

علم من أعلام الإسلام، وإمام من أئمة السلفية الحقّة، دقيق الفهم لأسرار الكتاب والسنة، واسع الاطّلاع على آراء المفسّرين والمحدثين، سديد البحث في تلك الآراء، أصوليّ النزعة في الموازنة والترجيح بينها، ثم له -بعدُ- رأيه الخاص.

يوافق ما يوافق عن دليل، ويخالف ما يخالف إلى صواب؛ لأنه مستكمل للأدوات المؤهلة لذلك، ولأنه يفهم القرآن على أنه أصل ترجع إليه الآراء والمذاهب والفهوم، وأنه كتاب الكون، ودستور الإنسانية، لا كما يفهمه كثير ممن كتبوا في التفسير؛ فجرّدوا أقلامهم لتسطير أفهام غيرهم، وجرّدوا القرآن من خصائصه العليا، وقيّدوا هدايته العامة بمذاهبهم الخاصّة.

والأستاذ البيطار مجموعة فضائل، ما شئت أن تراه في عالم مسلم من خُلُق فاضل إلا رأيته فيه، مجاوز للحدود المذهبية والإقليمية، يزِن هذه المذاهب الشائعة بآثارها في الأمة، لا بأقدار الأئمة، ويعطي كُلاًّ ما يستحق، جريء على قولة الحق في العلميات، ولكن الجرأة منه يلطفها الوقار، والوقار فيه تُزَيِّنه الجرأة، فيأتي من ذلك مزاجٌ خُلقي لطيف، متساوي الأجزاء، مزدحم الخلايا، قلَّ أن تجده في أحد من علمائنا المعدودين.

والأستاذ البيطار مفكر عميق التفكير، وخصوصاً في أحوال المسلمين، بصير

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٥٦٤/٣، وقد كتبها الإبراهيمي سنة ١٩٤٩م.

بعللهم وأدوائهم، طَبٌّ بعلاجهم ودوائهم؛ يرى أن ذهاب ريحهم من ذهاب أخلاقهم، وأن معظم بلائهم آتٍ من كبرائهم وأمرائهم وعلمائهم، وهو يعني كبراء الدعوى، وأمراء السوء، وعلماء التقليد.

يرجع في ذلك كله إلى استقلال في الفهم والاستدلال، ومقارنات في التاريخ والاجتماع، وتطبيقات مصيبة للحقائق الدينية على السنن الكونية؛ وله في الإصلاح الديني سلف صدق، حققوه علماً، وطبّقوه عملاً.

يعتمد في تحصيله وتربيته على طودَيْن شامخين من أطواد العلم والعمل:

أحدهما عبدالرزاق البيطار، والثاني الإمام المحدّث جمال الدين القاسمي، عنهما أخذ، وفي كنفهما نشأ، وعلى يديهما تخرّج؛ فجاء عالماً من ذلك الطراز الذي نقرؤه في التراجم، ولا نجده فيمن تقع عليه العين من هؤلاء العلماء الذين يقرأون ويحفظون وينقلون، ولكنهم لا يفقهون.

هذا العديد المتشابه الذي كأنه نُسخ من طبعة واحدة من كتاب، لا يقع التحريف في واحدة منها إلا وقع في جميعها، ولا يزيد واحد منهم في العدد إلا كما يزيد كتاب في مكتبة، لا كما يزيد فارس في كتيبة؛ بآية أنهم ما كثروا في الأمة إلا قلّت بهم الأمة، ولا ثقلوا في أنفسهم إلا خف وزنها في الأمم، ولا تغالوا في التعاظم إلا كان ذلك نقصاً من معاني العظمة فيها، وبآية أن علمهم لم يؤهّلهم لقيادة الأمة، فتركوا القيادة لغيرهم، وأصبحوا كأدوات التصدير التي يسبقها حرف الجر، فيدخل عليها ولا يعمل فيها؛ وبآية أن العالم في أوربا لا يعد عالماً إلا إذا زاد في العلم شيئاً، أو كشف من خفيِّه شيئاً، أو جلا من غامضه شيئاً،

ونفض ـ مع ذلك ـ على العلم من روح زمنه شيئاً؛ ولا عجب! فالعلم عندهم ياقوتة في منجم، وعندنا لفظة في معجم، والأُولى تستخرج بالبحث والإلحاح، والثانية تستخرج بمعرفة الإصطلاح، والأولى حظ المجتهد العامل، والثانية حظ المقلّد الخامل.

بدء معرفتي به:

خرجت من المدينة ـ فيمن خرج ـ إلى دمشق في أخريات سنة ست عشرة ميلادية[1]، وكنت أتمنى لو أن دواعي ذلك الخروج كانت تقدمت ببضع سنوات لأدرك الإمامين اللذين كانت لهما في نفسي مكانة، وهما عبد الرزاق البيطار وجمال الدين القاسمي.

وكنت ـ وأنا بالمدينة ـ قرأتُ للقاسمي عدة كتب عرفت منها قيمته ومنزلته، وقرأت عن البيطار، وسمعتُ ما دلني عليه، وأدناني منه.

وفي أول اندلاع الثورة الشريفية قدم المدينة من دمشق جندي شاب من آل المارديني، وتعرّف إليّ في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، وتردّد على دروسي مرات في الحرم النبوي، فانعقدت بيننا ألفية روحية لا تأتي بمثلها الأسباب، وذلك الشاب شقيق الأستاذ جودت المارديني، ولأسرة المارديني بدمشق صلة متينة بأسرتَي القاسمي والبيطار.

فكنت أسأله عما يهمُّني من دمشق وأحوالها وعلمائها، وعن القاسمي والبيطار، كأن هاتفاً من وراء الغيب ألقى إليَّ أنني سأرحل إلى دمشق.

---

(١) يعني سنة ١٩١٦م (م).

فأخبرني ذلك الشاب أن الله ـ تعالى ـ أبقى من بيت البيطار وارثاً لعلم الإمامين ومشربهما في الإصلاح، وهو الأستاذ محمد بهجة البيطار، وأن له من الشباب المصلح صحباً قليلاً عددهم، يوافقونه على الفكرة، ويلتقون معه على المبدأ؛ وأنه هو إمامهم ومرجعهم؛ فشوَّقني حديث الشاب إلى الأستاذ، وعلمت أن الروحين تعارفتا، فائتلفتا، ولم يبق إلا تعارف الأجساد.

ثم رجع الشاب إلى دمشق فأخبر الأستاذ عني بمثل ما أخبرني عنه، فتمّ التجاوب الروحاني بيننا، وتنادت الروابط الفكرية إلى الاجتماع فكان.

ولما دخلت دمشق بعد ذلك بقليل، كان أول من زارني ـ بعد كرام الجالية الجزائرية ـ من أصدقائي السوريين الذين عرفوني بالمدينة المنورة: الأستاذ عبدالقادر الخطيب المظفر، وذلك الشاب الماrديني الذي أنساني الزمان اسمه وإن لم يُنسني ذكراه، فكاد يطير فرحاً بمقدمي، وطار إلى أبناء المشرب ـ كما كان يسمّيهم ـ يُؤذّن فيهم بزيارتي فزاروني لأول مرة في رهط أذكر منهم شيخ الجماعة الأستاذ البيطار، والأستاذ عبد الحكيم الطرابلسي، والأستاذ جودت الماrديني، والأستاذان قاسم ورضا القاسميين، والأستاذ سعيد الغزي، والأستاذ عبد القادر المبارك، وكان بيننا في لحظة ما يكون بين إخوان الصفا وإخوان الصبا من تأكُّد المحبة وارتفاع الكلفة، وسقوط التحفّظ.

ثم تعاقبت الاجتماعات وانتظمت، واتّسقت أسباب اللقاء، واتسعت آفاق البحث في الأسمار، وكثُر الصحب، وما منهم إلا السابق الْمُغَبِّر، والكاتب الْمُحَبِّر؛ واللَّسِن المعبّر، فكنّا لا نفترق من اجتماع إلا على موعد لاجتماع،

وكان واسطة العقد في تلك المجالس الأستاذ الجليل والأخ الوفي الشيخ الأستاذ محمد الخضر حسين مد الله في حياته.

ولقد أقمت بين أولئك الصحب الكرام أربع سنين إلا قليلاً، فَأَشْهدُ صادقاً أنها هي الواحة الخضراء في حياتي المجدبة، وأنها هي الجزء العامر، في عمري الغامر، وأنني كنت فيها أقرّ عيناً وأسعد حالاً من ذلك الذي نزل على آل المهلب شاتياً، فوجد الإدبار رائحاً والإقبال آتياً.(١)

ولا أكذب الله، فأنا قرير العين بأعمالي العلمية بهذا الوطن (الجزائر)، ولكن ... من لي فيه بصدر رحب، وصحب كأولئك الصحب؟

إن نسيت فلن أنسى ساعات كنت قضيتها في مكتبة آل القاسمي ممتعاً عيني وذهني في مخطوطات جمال الدين، ومسودات مباحثه في التفسير والحديث، وفي ذلك المخطوط الحافل الذي ما رأت عيني مثله في موضوعه، وهو كتاب «بدائع الغرف، في الصنائع والحِرف» لجدّه الشيخ محمد سعيد الحلاّق، أرّخ فيه لصناعات دمشق الجليلة التي أخنى الزمان على أكثرها، وجلا فيه صفحات من مجدها الصناعي البائد.

---

(١) يشير إلى قول أبي الهندي:

نزلت على آل المهلب شاتياً ... غريباً عن الأوطان في بلد مَحْلِ
فما زال بي إكرامهم وافتقادهم ... وبرُّهم حتى حسبتهم أهلي

قال ابن عبدالبر ﷺ في بهجة المجالس ١ / ٢٩٤: «تذاكر أهل البصرة من ذوي الأدب والأحساب في أحسن ما قاله المولّدون في حسن الجوار من غير تعسُّف ولا تعجرف، فأجمعوا على بيتي أبي الهندي» (م).

ويا رعى الله عهد دمشق الفيحاء وجادتها الهوامع[١] وسقت، وأفرغت فيها ما وسقت.[٢]

وخصّت بالمثقلات الدوالح[٣] مجامع الأحباب، وأندية الأصحاب، من الصالحية والجسر والنَّيربين[٤]: المزة والربوة.

فكم كانت لنا فيها من مجالس، نتناقل فيها الأدب، ونتجاذب أطراف الأحاديث العلمية، على ودٍّ أصفى من بردى تصفق بالرحيق السلسل[٥]، ووفاء أثبت من أواسي قاسيون، وأرسى من ثهلان ذي الهضبات.

لا تؤبَن في مجالسنا حرمة، ولا يُكلم عرض، ولا يقارف مأثم.

وإنما هو الأدب بلا جدب، نهصر أفنانه؛ والعلم بلا ظلم، نطلق عنانه، والفن بلا ضن نروّق دنانه، والنادرة بلا بادرة نتلقفها، والنكتة بلا سكتة

---

(١) الهوامع: السحب الممطرة(م).

(٢) ما وسقت: أي ما جمعت من ماء(م).

(٣) الدوالح: جمع دلوح ودلوحة، وهي السحابة المثقلة بالماء(م).

(٤) النَّيربان: هما جانبا دمشق الشمالي والجنوبي حول نهر بردى(م).

(٥) قوله: على ود أصفى من بردى تصفق بالرحيق السلسل، هذا تضمين لبيت حسان ابن ثابت رضي الله عنه وهو ضمن قصيدته التي تسمى البتارة، التي مدح بها آل جفنة من الغساسنة، والتي مطلعها:

اسألتَ رسم الدار أم لم تسألِ ... بين الجوابي فالبضيع فَحوقلِ

إلى أن يقول:

يَسقُون مَنْ وَرَدَ البريص عليهم ... بردى يصفّق بالرحيق السلسل(م)

نتخطفها.

ويا تربة الدحداح، بوركت من تربة، لا يذوق فيها الغريب مرارة الغربة، ولا زلت مسقطاً لرحمات الله.

إنني أودعت ثراك أعزّ الناس عليّ: أبي وابني وجَدَّي أولادي؛ فاحفظي الودائع إلى يوم تُجزى الصنائع.

ويا جناتِ الغوطة، وقراها المغبوطة، لا زلت مجلى الفطر، والحد الفاصل بين البدو والحضر، أشهد ما عشوتِ من الغرب إلى نار، ولا عشيت منه بنور.

تبارك من رواك بسبعة أودية، وكساك من وشي آذار بخضر الأردية.

كم فُتِنْتُ بمناظرك الشعرية، وأخذت بمجاليك السحرية، وكم تزوّدتْ عيناي فيك بروضة وغدير، وكم تمتعت أذناي من جداولك وأشجارك بحفيف وهدير.

ويا يوم الوداع ما أقساك، وإن كنت لا أنساك.

لا أنسى بعد ثلاثين سنة ولن أنسى ما حييت موقف الوداع بمحطة البرامكة والأستاذ الخضر يكفكف العبرات، وتلامذتي الأوفياء: جميل صليبا، وبديع المؤيد، ونسيب السكري، والأيوبي، يقدّمون إلي بخطوطهم كلمات في ورقات، ما زلت محتفظاً بها احتفاظ الشحيح بماله.

عهود لم يبق إلا ذكراها في النفس، وصداها في الجوانح، والحنينُ إليها في مجامع الأهواء من الفؤاد.

ولولا أن السلوّ كالزمن يتقادم، وأن الهوى مع العقل يتصادم، لقلت مع

المتنبي: أبوكم آدم!...[(١)]

ولقد راجعت «مذكراتي» المنقوشة في ذاكرتي فوجدُتها حافظة لتلك العهود بأيامها ولياليها وأحاديثها، فليت شعري أيذكر الأحياء من إخوان الصفا مثل ما أذكر؟

ذلك ما تكشف عنه رسالة الأخ الأستاذ محمد بهجة البيطار التي ننشر بعضها بعد هذه الكلمات.

وهي التي أثارت هذه الذكريات في نفسي؛ فكتبتها، ليعلم هذا الجيل الذي نقوم على تربيته أن في الدنيا بقايا من الوفاء والمحبة، تتماسك بها أجزاء هذا الكون الإنساني، وأنه لولا هذه البقايا لانحدر الإنسان إلى حيوانية عارمة كالتي بدت آثارها في الجماعات التي جفّت نفوسها من الوفاء والمحبة، فخلت من الإحسان والرحمة، فهوت بها المطامع، إلى ما يراه الرائي ويسمعه السامع.

وإن منبت الوفاء الشرقُ، وإن زارعه وساقيه والقيّم عليه هو الإسلام، وعسى أن تحمل «البصائر»[(٢)] هذه الذكريات إلى الإخوان الأصفياء في دمشق فنتنادم على البعد، ونلتقي على الذكريات، ونتناشد:

إنا على البعاد والتفرق لنلتقي بالذكر إن لم نلتق

---

(١) يشير إلى قول المتنبي في قصيدة شِعب بَوّانٍ:

يقول بشعب بوان حصاني أعن هذا يُسار إلى الطعان

أبوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان(م)

(٢) يعني صحيفة البصائر التي كان يرأسها(م).

وعهداً لأولئك الإخوان أني ما جفوت ولا غفوت، وأني لم أزل- منذ افترقنا- أتسقّط أخبارهم من الصحف ومن السفار، ولولا الهزاهز والفتن ما انقطع بيننا للصلة حبل.

٦٨ عبرة الموت[١] للأستاذ أحمد أمين

من قديم والإنسان أمام الموت مرتاع فَزِع، ومع أن الموت هو النتيجة الحتمية الطبيعية للحياة لم يتقدم الإنسان أي خطوة في سبيل تهوين أمره وتلطيف وقعه.

ومع أنا إذا نظرنا إليه من الناحية الاجتماعية لا من الناحية الفردية وجدناه أمراً لابد منه لحياة الجيل الحاضر والجيل المستقبل؛ إذ الأرض يستحيل البقاء عليها والعيش فيها، إذا لم يكن الموت ـ مع كل ذلك ـ فهذا التفكير المعقول لم يخفف الشعور بهول الموت، وعدَّه المصيبة الكبرى.

أمامه تنهار كل القيم؛ فالمال، والجاه، والمنصب، واللذائذ تتضاءل كلها أمامه، فَيَسْتَهْوِنُها واجدُها، ويستقلُّ شأنَها فاقدُها.

وفي كل يوم عبر، فهو لا يرحم شاباً لشبابه، ولا عظيماً لعظمته، ولا أباً لِحُنُوِّه، ولا صحيحاً لصحته سواء عنده كل شيء؛ فلو نظرتْ إليه الأرستقراطية لانقلبت شيوعية.

وكلما كان الميت أعظم كانت العبرة به أعظم؛ ومن أجل ذلك وقف الناس وقفة اتعاظ بموت الجبابرة أمثال الإسكندر، ودارا، وتيمورلنك، ونيرون، ونابليون؛ إذ رأوا أن جبروتهم انهار أمام الموت كما ينهار السائل الفقير، والمسكين الحقير، فإذا الدنيا كلها، والجبروت كله، والعظمة كلها فقاقيع منها[٢]

---

(١) فيض الخاطر، ٩/ ١٤٧ ـ ١٥٢.

(٢) لعلها: من(م).

الهواء فزالت، وكأن الحياة لعبة في الهواء، أو كتابة على الماء.

وفي الأدب العربي قصة طريفة بُعْثِرَتْ فجمعناها، ورويت روايات مختلفة فاخترنا خيرها، وهي أن الإسكندر لما مات اجتمع حول جثته جمع من الفلاسفة من تلاميذ أرسطو، فقال عظيمهم: ليقل كل منكم قولاً يكون للخاصة معزِّياً، وللعامة واعظاً.

فقام أحدهم وضرب بيده على التابوت وقال: أيها المنطيق ما أخرسك، أيها العزيز ما أذلك، أيها القانص كيف وقعْت موقع الصيد في الشرَك؟ مَن هذا الذي يقنصك؟

وقام ثان فقال: هذا القوي الذي أصبح اليوم ضعيفاً، والعزيز الذي أصبح اليوم ذليلاً.

وقال ثالث: قد كانت سيوفك لا تجف، ونقمتك لا تُؤمَن، ومدائنك لا ترام، وعطاياك لا تبرح، وضياؤك لا يخبو، فأصبح ضوؤك قد خمد، ونقمتك لا تخشى، وعطاياك لا تُرجى، وسيوفك لا تُنْتَضى، ومدائنك لا تُمنع.

وقال رابع: هذا الذي كان للملوك قاهراً، أصبح اليوم للسوقة مقهوراً.

وقال خامس: قد كان صوتك مرهوباً، وكان مُلْكُك غالباً، فأصبح الصوت قد انقطع، والملك قد اتضع.

وقال سادس: كنتَ كحلمِ نائمٍ قد انقضى، أو كظل غمام انجلى.

وقال سابع: لئن كنتَ أمس لا يأمنك أحد، لقد أصبحت اليوم وما يخافك أحد.

وقال ثامن: هذه الدنيا الطويلة العريضة طُويت في ذراعين.

وقال تاسع: كفى للعامة أسوة بموت الملوك، وكفى الملوك عظة بموت العامة.

وقال عاشر: قد حرَّكَنَا الإسكندر بسكونه، وأنطقنا بصمته.

وهذه القصة إن شك فيها المؤرخ لا يشك في قيمتها الأديب والمعتبر.

وفشت هذه القصة، وهذه الأقوال في أوساط الفلاسفة من المسلمين، فلما مات عضد الدولة البُوَيْهي، وكان ما كان، ضخامةَ مُلْكٍ، وعزةَ جاهٍ، وهو الذي لُقب بشاهنشاه، ولي المملكة وقد استولى الخراب عليها فعمَّرها، وانبثَّ فيها اللصوص والمفسدون فأمَّنها، ونظَّم المخبرين، فعنده أخبار العالم الإسلامي في سرعة البرق، ورتَّب الجواسيس حتى خاف الرجل امرأته، والسيد خادمه، وهو شديد لا يلين، وقاسٍ لا يرحم، ما أكثر من قَتَل وشرَّد لسبب يَسْتَوجِب ولغير سبب، حتى رووا عنه أنه أولع بجارية شغلته بجمالها وحسن حديثها عن بعض شؤون الملك، فأغرقها حتى لا يعود لمثلها، وزهت له الدنيا فاغتر بها، ووصف نفسه في شعره بأنه ـ مالك الأملاك، غلاَّب القَدَر ـ وقصده المتنبي فرأى ملكاً كبيراً، ونعيماً عظيماً، وقدرة قادرة، وسطوة قاهرة، فصرخ:

وقد رأيتُ الملوكَ قاطبة ... وسِرْتُ حتى رأيتُ مولاها

ومَن مناياهم براحته ... يأمُرُها فيهم وينهاها

أبا شجاعٍ بفارسٍ عضد الدولـ ... ـة فَنَّاخُسْرُو شَهَنشَاها

أسامياً لم تزده معرفةً ... وإنما لذةً ذكرناها

إلى أن يقول:

وإن له شرقَها ومغربها ... ونفسُه تستقل دنياها
تجمعت في فؤاده همم ... ملء فؤاد الزمان إحداها

وكان في ملكه كِرْمان، وفارس، وعمان، والعراق، والموصل، وديار بكر، وحرَّان، ومنبج، خضعت له، وخافت منه، واستكانت له، وفزع منه الصغير والكبير، ثم ماذا؟

أصابه المرض وهو في السابعة والأربعين، فأذل نفسه وأحقر شأنه، واستُدعي له مهرة الأطباء، فعجزُوا عجزه، وذلُّوا ذلَّه، فأخذ يقول الشعر ينعى نفسه:

قتلت صناديد الرجال فلم أدع ... عدوًّا ولم أُمهل على ظِنَّةٍ خَلْقا
وأخليت دُورَ المُلْك من كل نازلٍ ... فشرَّدتهم غرباً وبدَّدتهم شرقا
فلما بلغت النجمَ عزًّا ورفعةً ... وصارت ركاب الخلق أجمع لي رقا
رماني الردى سهماً فأخمد جمرتي ... فها أنذا في حجرتي عاطلاً مُلْقى

ثم جعل يقول: ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه، إلى أن مات.

استرعى هذا المنظر عقول الناس، بناء شامخ سقط في لحظة، وقوة هائلة تحطمت في لمحة، واعتداد بالنفس ذهب مع الريح، ووقف القدر يسخر ممن زعم أنه غلاَّب القَدَر.

وإذ ذاك ذكر فلاسفة بغداد القصة التي رويت لهم عن موت الإسكندر، وما قاله تلاميذ أرسطو في العظة به.

وكان أبو سليمان المنطقي رأس الفلاسفة فيها، وبيته ندوة كل من تفلسف، يسألونه فيما أبهم عليهم، ويستفتونه في أعقد المسائل؛ فيجيب إجابة تدل على

علم واسع، وعقل ناضج.

فاجتمع عنده طائفة منهم يوم مات عضد الدولة، واقترح عليهم أن يقولوا فيه كما قال تلاميذ أرسطو في الإسكندر.

وبدأ أبو سليمان فقال: لقد وزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها، وأعطاها فوق قيمتها، وحسبك أنه طلب الربح فيها فخسر روحه.

وقال ثان: من استيقظ للدنيا فهذا نومه، ومن حلم بها فهذا انتباهه.

وقال ثالث: ما رأيت غافلاً في غفلته، ولا عاقلاً في عقله مثله، لقد كان ينقض جانباً وهو يظن أنه مبرِم، ويغرم وهو يظن أنه غانم.

وقال رابع: أما إنه لو كان معتبراً في حياته لما كان عبرة في مماته.

وقال خامس: الصاعد في درجاتها إلى سفال، والنازل من درجاتها إلى معال.

وقال سادس: من جد للدنيا هزلت به، ومن هزل راغباً عنها جدت له، انظر إليه كيف انتهى أمره، ووضع شأنه، وإني لأظن أنَّ فلاناً الفقير الزاهد الذي مات بالأمس أعز ظهيراً من هذا الذي ترك الدنيا شاغرة، ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة.

وقال سابع: إن ماءاً أطفأ هذه النار لعظيم، وإن ريحاً زعزعت هذا الركن لعصوف.

وقال ثامن: كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتى نفذ فيك، وهلا اتخذت دونه جُنَّة تقيك؟ ماذا صنعت بأموالك والعبيد، ورجالك والجنود؟ من أين أُتيت وكنت قوياً صارماً؟ إن فيك لعبرة للمعتبرين، وآية للمستبصرين.

وعلّق ظريف على الموقفين فقال: إن الفرق بين الكلامين كالفرق بين المِلكَين.

إن كان هذا ففيم غرور المعتز، وطمع الطامع، وسطوة الظالم، وطغيان المستبد، وخيلاء المعجب؟

ورحم الله الحسن البصري إذ يقول: ما أكثر المعتبَر وأقل المعتبِر.

عنوانات الموضوعات والمقالات التي تضمنتها المجموعة الأولى

أولاً: مقالات في السعادة

١ـ **ابتسم للحياة**: للأستاذ أحمد أمين

٢ـ **السعادة**: الشيخ علي الطنطاوي

٣ـ **اللذة مع الحكمة**: للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

ثانياً: مقالات في الأخلاق والمروءات والسلوك

٤ـ **أخلاق العرب وعاداتهم**: للعلامة أحمد تيمور باشا

٥ـ **أخلاق الطفولة وأخلاق الرجولة**: للأستاذ أحمد أمين

٦ـ **الإنصاف الأدبي**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٧ـ **علم الأخلاق**: للشيخ علي فكري

٨ـ **أخلاق الناس**: د. زكي مبارك

٩ـ **الوفاء**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

١٠ـ **الشرف**: للأستاذ أحمد أمين

١١ـ **مضار الإسراف**: للعلامة محمد الخضر حسين

ثالثاً: مقالات في العمل والهمة والنبوغ

١٢ـ **قوة العرب المعطلة**: للعلامة محب الدين الخطيب

١٣ـ **معركة الحياة كيف نفوز فيها**: للأستاذ أحمد أمين

١٤ـ **النبوغ**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

١٥ـ **يوم البعث**: للعلامة محمود شاكر

رابعاً: مقالات في الشباب

١٦ـ **التربية الدينية والشباب** : للعلامة محمد الخضر حسين

١٧ـ **الشباب المحمدي** : للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

١٨ـ **حديث إلى الشباب** : للأستاذ أحمد أمين

خامساً: مقالات في المرأة

١٩ـ **تحرير المرأة** : للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

٢٠ـ **مستودع الذخائر** : للأستاذ أحمد أمين

٢١ـ **اختلاط الجنسين في نظر الإسلام** : للشيخ محمد الخضر حسين

٢٢ـ **أمهات المؤمنين** : للشيخ محمد بهجة البيطار

سادساً: مقالات في العادات والعبادات

٢٣ـ **الناس والعادات** : للشيخ علي محفوظ

٢٤ـ **فلسفة الصيام** : للأديب مصطفى صادق الرافعي

٢٥ـ **لبيك اللهم لبيك** : لمحب الدين الخطيب

٢٦ـ **روح المجالس** : للأستاذ أحمد أمين

سابعاً: مقالات في السياسة والإجتماع

٢٧ـ **الدهاء في السياسة** : للعلامة محمد الخضر حسين

٢٨ـ **القضاء العادل في الإسلام** : للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٢٩ـ **الإسلام والمسلمون** : للأستاذ أحمد أمين

٣٠ـ **شرعة الحرب في الإسلام** : للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

٣١ـ **المجاهدون الأولون**: لمحب الدين الخطيب

ثامناً: مقالات في الإصلاح والدعوة إلى الله

٣٢ـ **دمعة على الإسلام**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

٣٣ـ **الله أكبر**: للأديب مصطفى صادق الرافعي

٣٤ـ **الأذان**: للأديب عباس محمود العقاد

٣٥ـ **العلماء والإصلاح**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

تاسعاً: مقالات في العلم والتحقيق والطب

٣٦ـ **التاريخ لا يكون بالافتراض ولا بالتحكيم**: لأمير البيان شكيب أرسلان

٣٧ـ **تصحيح الكتب**: للعلامة الشيخ أحمد شاكر

٣٨ـ **احترام الأفكار**: للعلامة محمد الطاهر بن عاشور

٣٩ـ **الطب في نظر الإسلام**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

عاشراً: مقالات في اللغة والأدب

٤٠ـ **لغة الضاد**: للأستاذ محمد صادق عنبر

٤١ـ **البيان**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

٤٢ـ **الشعر ـ حقيقته ـ وسائل البراعة فيه ـ الارتياح له ـ تحلي العلماء به ـ التجديد فيه**: للشيخ محمد الخضر حسين

حادي عشر: مقالات في السيرة النبوية

٤٣ـ **القول الحق في استعداد محمد ﷺ للنبوة والوحي**: للعلامة الشيخ محمد رشيد رضا

٤٤ـ **عبرة الهجرة**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

٤٥ـ **مجلس رسول الله ﷺ** : للعلامة محمد الطاهر بن عاشور

ثاني عشر: مقالات في المشاعر والعواطف الإنسانية

٤٦ـ **ضبط العواطف** : للأستاذ أحمد أمين

٤٧ـ **الصداقة** : للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٤٨ـ **الأربعون** : للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

٤٩ـ **موت أم** : مصطفى صادق الرافعي

٥٠ـ **مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة** : للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

عنوانات الموضوعات والمقالات التي تضمنتها المجموعة الثالثة

أولاً: مقالات في السعادة

١ـ **أسس الحياة الطيبة**: للأستاذ أحمد أمين

٢ـ **الحياة السعيدة**: للأستاذ أحمد أمين

٣ـ **البرنامج اليومي للسعادة**: للأستاذ أحمد أمين

٤ـ **المثقفون والسعادة**: للأستاذ أحمد أمين

ثانياً: مقالات في التربية والتعليم

٥ـ **العلم بين الأساتذة والطلاب**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٦ـ **إلى أبنائنا المعلمين الأحرار**: للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

٧ـ **كلمات واعظة لأبنائنا المعلمين الأحرار(١)**: للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

٨ـ **كلمات واعظة لأبنائنا المعلمين الأحرار(٢)**: للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

ثالثاً: مقالات في الأخلاق والمروءات والسلوك

٩ـ **السمو الخلقي في الإسلام**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

١٠ـ **العزة والتواضع**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

١١ـ **الأمانة**: للشيخ علي الطنطاوي

١٢ـ **الأخلاق**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

١٣ـ **الانتحار**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

١٤ـ **نداء مصدور**: للأستاذ محمود محمود

١٥ـ **الحسد**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

١٦ـ **جيل يؤمن بالأخلاق**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

رابعاً: مقالات في العمل والهمة

١٧ـ **صدق العزيمة أو قوة الإرادة**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

١٨ـ **اعرف نفسك**: للشيخ علي الطنطاوي

١٩ـ **الطموح**: للشيخ العلامة محب الدين الخطيب

٢٠ـ **تربية الإرادة**: للأستاذ أحمد أمين

٢١ـ **اصنع حياتك**: للأستاذ أحمد أمين

٢٢ـ **موت الأمم وحياتها**: للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

خامساً: مقالات في المدنية والعمران

٢٣ـ **المدنية الغربية**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

٢٤ـ **المدنية تحطم الأعصاب**: للأستاذ أحمد أمين

٢٥ـ **المدينة الفاضلة**: للعلامة محمد الطاهر بن عاشور

سادساً: مقالات في الصداقة والعواطف الإنسانية

٢٦ـ **طبقات الأصدقاء**: للشيخ علي الطنطاوي

٢٧ـ **العاطفة والتسامح في الإسلام**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٢٨ـ **التعب العصبي والخوف**: للأستاذ أحمد أمين

٢٩ـ **لماذا ولأن**: للأستاذ أحمد أمين

٣٠ـ وحي القبور: للأديب مصطفى صادق الرافعي

سابعاً: مقالات في العادات والعبادات

٣١ـ معنى الصوم: للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

٣٢ـ صديقي رمضان: للشيخ علي الطنطاوي

٣٣ـ الإنسان في الشدة والرخاء: للشيخ علي محفوظ

٣٤ـ بساطة العيش: للأستاذ أحمد أمين

ثامناً: مقالات في الشباب

٣٥ـ كيف تكون رجلاً: للأستاذ عبدالوكيل جابر

٣٦ـ يا ابني: للشيخ علي الطنطاوي

٣٧ـ من هو الشاب المسلم: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٣٨ـ يا شباب العرب: للأديب مصطفى صادق الرافعي

تاسعاً: مقالان في المرأة

٣٩ـ دفاع عن الفضيلة: للشيخ علي الطنطاوي

٤٠ـ بين الزوجين: للشيخ علي الطنطاوي

عاشراً: مقالات في السياسة والإجتماع

٤١ـ الصراع بين الإسلام وأعدائه: للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

٤٢ـ ذوق صحفي بارد: للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

٤٣ـ العرب المسلمون في كراسي الحكم: لمحب الدين الخطيب

٤٤ـ ايها المسلمون: للأديب مصطفى صادق الرافعي

٤٥ـ **الحرية** : للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

٤٦ـ **العلماء وأولو الأمر** : للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٤٧ـ **الأنظمة الإسلامية يؤيد بعضها بعضاً** : للأستاذ عبدالباقي نعيم سرور

حادي عشر: مقالات في الإصلاح والدعوة إلى الله

٤٨ـ **ادع إلى سبيل ربك** : للشيخ محمد النخلي

٤٩ـ **الانتقاد** : للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

٥٠ـ **مقاصد الإسلام في إصلاح العام** : للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٥١ـ **من يجدد لهذه الأمة أمر دينها (١)** : للعلامة محمد الطاهر بن عاشور

٥٢ـ **من يجدد لهذه الأمة أمر دينها (٢)** : للعلامة محمد الطاهر بن عاشور

٥٣ـ **من يجدد لهذه الأمة أمر دينها (٣)** : للعلامة محمد الطاهر بن عاشور

٥٤ـ **الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام** : للأديب مصطفى صادق الرافعي

ثاني عشر: مقالات في العلم والتحقيق

٥٥ـ **الإسلام والعلم** : للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٥٦ـ **العلم بالتأليف** : للشيخ عبدالعزيز المسعودي

٥٧ـ **العلم عند الله** : للعلامة محمد الطاهر بن عاشور

ثالث عشر: مقالات في اللغة والأدب

٥٨ـ **الاستشهاد بالحديث في اللغة** : للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٥٩ـ **الأدب وأثره في الحياة** : للأستاذ عبدالوهاب محمد سليم

٦٠ـ **الجملة القرآنية** : للأديب مصطفى صادق الرافعي

٦١ـ **عمر بن عبدالعزيز والشعراء**: للأستاذ محمود محمود

٦٢ـ **فن الكلام**: للشيخ علي الطنطاوي

٦٣ـ **وقاحة الأدب «أدباء الطابور الخامس»** : للأستاذ محمود شاكر

رابع عشر: مقالان في السيرة النبوية

٦٤ـ **مولد الإنسانية**: للشيخ العلامة محب الدين الخطيب

٦٥ـ **محمد ﷺ** : للشيخ العلامة محمد بهجة البيطار

خامس عشر: مقالات في الطب

٦٦ـ **كلمة في المسكرات**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٦٧ـ **الأدوية المفردة بين دسقوريدس وابن البيطار**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٦٨ـ **طرق وضع المصطلحات الطبية**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

صدر للمؤلف

١ـ جوانب من سيرة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله .

٢ـ التوبة وظيفة العمر.

٣ـ رسائل في العقيدة.

٤ـ رسائل في التربية والأخلاق والسلوك.

٥ـ رسائل في الزواج والحياة الزوجية.

٦ـ أخطاء في مفهوم الزواج.

٧ـ من أخطاء الأزواج.

٨ـ من أخطاء الزوجات.

٩ـ كلمات متنوعة في أبواب متفرقة ١.

١٠ـ كلمات متنوعة في أبواب متفرقة ٢.

١١ـ كلمات متنوعة في أبواب متفرقة ٣.

١٢ـ كلمات متنوعة في أبواب متفرقة ٤.

١٣ـ سوء الخلق .. مظاهره .. أسبابه .. العلاج، قرأه سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله .

١٤ـ الفاحشة (عمل قوم لوط) الأسباب ـ العلاج.

١٥ـ عقيدة أهل السنة والجماعة، قرأه وقدم له: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله .

١٦ـ الإيمان بالقضاء والقدر، قرأه وقدم له: سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز رحمه الله .

١٧- الهمة العالية، قرأه وقدم له: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله.

١٨- مع المعلمين.

١٩- شرح وتحقيق الوصية الصغرى لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٢٠- شرح وتحقيق القصيدة التائية في القدر لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٢١- الصداقة بين العلماء (**نماذج تطبيقية معاصرة**).

٢٢- رمضان دروس وعبر تربية وأسرار.

٢٣- أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة.

٢٤- من أقوال الرافعي في المرأة.

٢٥- من أحوال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز في الحج.

٢٦- الحج آداب وأسرار.

٢٧- الدعاء مفهومه -أحكامه- أخطاء تقع فيه، قرأه وعلق عليه: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله.

٢٨- الإيمان باليوم الآخر.

٢٩- الشيوعية.

٣٠- توبة الأمة.

٣١- البابية.

٣٢- البهائية.

٣٣- القاديانية.

٣٤- الوجودية.

٣٥- الجوال آداب وتنبيهات.

٣٦- الإنترنت امتحان الإيمان والأخلاق والعقول.

٣٧- المنتقى من بطون الكتب (**المجموعة الأولى**).

٣٨- المنتقى من بطون الكتب (**المجموعة الثانية**).

٣٩- المنتقى من بطون الكتب (**المجموعة الثالثة**).

٤٠- مختصر الإيمان بالقضاء والقدر.

٤١- لطائف في تفاضل الأعمال الصالحة.

٤٢- عقوق الوالدين .. أسبابه .. مظاهره .. سبل العلاج.

٤٣- قطيعة الرحم .. المظاهر .. الأسباب .. سبل العلاج.

٤٤- التقصير في تربية الأولاد .. المظاهر .. سبل الوقاية والعلاج.

٤٥- التقصير في حقوق الجار.

٤٦- الكذب .. مظاهره .. علاجه.

٤٧- لماذا تدخن؟

٤٨- إلى بائع الدخان.

٤٩- الجريمة الخلقية.

٥٠- العشق .. حقيقته .. خطره .. أسبابه .. علاجه.

٥١- الطريق إلى التوبة.

٥٢- رسالة إلى طالب نجيب، ترجم إلى الأردية.

٥٣- الهجرة دروس وفوائد.

٥٤- الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة.

٥٥- مختصر عقيدة أهل السنة والجماعة؛ المفهوم والخصائص.

٥٦- الإيمان بالله، ترجم إلى الإنجليزية.

٥٧- لا إله إلا الله: معناها -أركانها - فضائلها - شروطها.

٥٨- توحيد الربوبية.

٥٩- توحيد الألوهية.

٦٠- توحيد الأسماء والصفات.

٦١- الإيمان بالكتب.

٦٢- الطريق إلى الإسلام، ترجم إلى عدة لغات.

٦٣- كلمات في المحبة والخوف والرجاء، ترجم إلى الإنجليزية.

٦٤- الطيرة.

٦٥- نبذة مختصرة عن الشفاعة، والشرك، والرقية، والتمائم، والتبرك.

٦٦- من صور تكريم الإسلام للمرأة.

٦٧- معالم في التعامل مع الفتن.

٦٨- فقه اللغة مفهومه - موضوعاته - قضاياه.

٦٩- مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث (المجموعة الأولى).

٧٠- مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث (المجموعة الثانية).

٧١- مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث (المجموعة الثالثة).

سيصدر قريباً - بإذن الله -

١- رسائل وكلمات متنوعة في أبواب متفرقة.

٢- رسائل في الفرق والمذاهب والأديان.

٣- فقر المشاعر.

٤- شرح رسالة الشيخ عبدالرحمن السعدي (الأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب).

مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث

المجموعة الثالثة

انتقاء وإعداد

محمد بن إبراهيم الحمد

دار ابن خزيمة

المقـدّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد:

فإن المقالة ـ أو المقال ـ باب عظيم من أبواب العلم، وطريق واسع لنشر الفكر والتأثير في الناس.

ولا ريب أنَّ الفترة الذَّهبيَّة للمقالة كانت في النِّصف الأوَّل في القرن الرابع عشر إلى ما يقارب العقد السابع من ذلك القرن؛ حيث ازدهرت، وراج سوقها في كثير من البلاد العربيَّة خصوصاً في الشام ومصر، وظهر في ذلك الوقت كُتَّاب أفذاذ يضارعون الكُتَّاب الأوائل في أساليبهم الراقية، وتحريراتهم العالية.

وفي ذلك الوقت حرصت الصحفُ والمجلاَّت على استقطاب أكابر الكُتَّاب والعلماء؛ فصارت ميداناً فسيحاً لنشر الأدب، والعلم، والنَّقد، والرُّدود، وما جرى مجرى ذلك.

ولقد يسَّر الله لي فرصة الاطلاع على كثير من تلك المقالات، سواء عبر أعداد تلك الصحف والمجلات، أو عبر الكتب التي جمعت تلك المقالات.

ومهما يك من انتشار تلك المقالات، وشهرة أصحابها في ذلك الوقت ـ فإنه يبقى محدوداً إذا ما قِيس بانتشارها وسهولة تداولها في عصرنا هذا.

ثمَّ إنَّ كثيراً مما نُشِر آنذاك قد انطوى، ودَرَس، ويُخشى أن تَطَالَهُ يدُ النِّسيان،

وتعدو عليه عوادي الضياع؛ فيُحرمَ هذا الجيلُ خيراً عظيماً من ذلك التُّراث، ومن تلك التَّجارب التي تسمو بهمَّة قارئها، وترتقي بأساليبه الكتابيَّة أو الخطابيَّة، وتكسبه خبرة ودراية، وتختصر عليه كثيراً من الوقت والجهد، وتوقفه على مدى ما وصلت إليه العقول في تلك الفترة، وتُقْصِره عن كثير من البحث في الأطروحات التي طرقت، وقتلت بحثاً، وأخذاً، ورداً.

كما أن بعض تلك المقالات قد خرجت في طباعة رديئة، ولم تراع فيها قواعد الترقيم؛ مما قد يغلق فهمها على كثير من القراء.

ومن هنا نشأت فكرة جمع شيء من تلك المقالات، وانتقائها، وإعدادها للنَّشر إعداداً ملائماً؛ لعلَّها تحقِّق الأغراض السابقة، وتمد قارئها بقسط وافر من العلم والفكر، وتفتح له آفاقاً من المعرفة والتَّجربة، وتوقفه على شيء من تلك الأساليب البيانيَّة الرَّاقية، وتُعرِّف القارئ بكُتَّاب في بلاد لم تأخذ حظَّها الكافي من الدِّراسة والبحث، فيظن بعض الناس أنَّها خِلْوٌ من الفكر والكتابة، مع أنَّها قد بلغت الذُّروة في العلم، والأساليب، كما هو الحال في بلاد تونس، والجزائر -كما سيتبيَّن من قراءة بعض ما خطَّتْهُ أنامل بعضِ العلماء والكُتَّاب هناك-.

ولقد يسر الله إخراج المجموعة الأولى والثانية من هذه المقالات، وهذه هي المجموعة الثالثة من (مقالات لكبار كُتَّاب العربية في العصر الحديث).[1]

---

(١) سبق في مقدمة المجموعة الأولى حديث عن المقالة من حيث مفهومها، ونشأتها، وتاريخها، وأنواعها، كما تضمنت المقدمة حديثاً عن الأسباب الداعية لنشر هذه المقالات، والأهداف المرجوة من ذلك، والطريقة التي ستسير عليها هذه المجموعات.

وهي تشتمل على أبواب متفرقة، وموضوعات متنوعة؛ في العلم والدعوة، وفي الإصلاح، وبيان أصول السَّعادة، وفي الأخلاق والتَّربية، وفي السِّياسة والاجتماع، وفي قضايا الشَّباب والمرأة، وفي أبواب الشِّعر والأدب، وفي العربيَّة وطرق التَّرقِّي في الكتابة، كما أنها تشتمل على مقالات في السِّيرة النبويَّة، وبيان محاسن الإسلام، ودحض المطاعن التي تثار حوله.

وسيجد القارئ فيها جِدَّة الطَّرح، وعمقه، وقوَّته، وطرافةَ بعض الموضوعات، ونُدرةَ طرقها.

وسينتقل من خلالها من روضة أنيقة إلى روضة أخرى، وسيجد الأساليب الرَّاقية المتنوِّعة؛ إذ بعضها يميل إلى الجزالة والشَّماسة، وبعضها يجنح إلى السُّهولة والسَّلاسة، وهكذا.

وقد يخطر ببال القارئ أن بعض المقالات يكفي قراءة عنوانها؛ فيقصره ذلك عن قراءة بقية المقال.

ولو قرأ المقال لربما رأى فيه ما لم يكن يدور في خلده من نفيس العلم، ودقيق الفهم، وجمال العرض.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً في المقالات التي سترد في هذا المجموع.

ولا يغيب عن فطنة القارئ الكريم أنَّ تلك الكتابات قد أنشئت في زمن مظلم؛ فالاحتلال كان ضارباً بجرانه في كثير من بلاد المسلمين، والشيوعيَّة كانت في عزِّ أوجها وبريقها، والجهل والهزيمة النَّفسيَّة كانا شائعين في ذلك الوقت.

وهذا يدفع إلى تقدير ما قام به أولئك الكُتَّاب، وإلى التماس العذر لهم فيما

فاتهم، أو قصَّروا به إن وُجِد شيء من ذلك.

وقد ترجمت لأكثر أولئك الكتاب في المجموعة الأولى.

وهذه المقالات التي يحتويها هذا المجموع معزوَّة إلى مراجعها، ومُشَارٌ إلى تواريخ كتابتها إن كانت موجودة.

كما أنَّ بعضها قصير، وبعضها متوسِّط، وبعضها مطوَّل أقرب ما يكون إلى البحث العلمي.

وقد أبقيت تلك المقالات كما هي، وربَّما حَذَفْت من بعضها -وهو قليل- ما قد يُستغنى عنه، وما لا يخلُّ بأصل الموضوع، خصوصاً إذا كان يحتاج إلى مناقشة، أو كان فيه إلباس على بعض القراء، أو ما كان مشتملاً على تسويغ بعض البدع، وما إلى ذلك.

وما كان الغرض هو محاكمة الكاتب، بل إنَّني أحاول جهدي ألا أتعرَّض لأيِّ مقال بانتقاد أو اعتراض إلا ما لا بدَّ منه من إيضاح معنى، أو إزالة إشكال، وهو قليل جدًّا؛ لأجل ألا أقطع على القارئ استرساله، ومتعته.

وأكثر الهوامش إنما هي من صنع الكُتَّاب، وأما ما أعلق به فسيكون مختوماً بحرف (م) حتى يتميز عن الأصل.

وإليك مسرداً بعنوانات الموضوعات والمقالات التي تضمنتها هذه المجموعة:

أولاً: مقالات في السعادة

١ـ **أسس الحياة الطيبة**: للأستاذ أحمد أمين

٢ـ **الحياة السعيدة**: للأستاذ أحمد أمين

٦٤ـ **مولد الإنسانية :** للشيخ العلامة محب الدين الخطيب

٦٥ـ **محمد ﷺ :** للشيخ العلامة محمد بهجة البيطار

خامس عشر: مقالات في الطب

٦٦ـ **كلمة في المسكرات :** للشيخ محمد الخضر حسين

٦٧ـ **الأدوية المفردة بين دسقوريدس وابن البيطار:** للشيخ محمد الخضر حسين

٦٨ـ **طرق وضع المصطلحات الطبية :** للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

وأخيراً لا يسعني إلا أن أسأل الله العليَّ القدير أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجزيَ خير الجزاء من أعان على إخراجه كتابةً، ومراجعة، ومتابعة.

والله المستعان وعليه التكلان.

وصلّى الله وسلّم على نبيِّنا محمد.

محمد بن إبراهيم الحمد

٥ / ١ / ١٤٢٦هـ

الزلفي ص.ب ٤٦٠

الرمز البريدي ١١٩٣٢

www.toislam.net

Alhamad@toislam.net



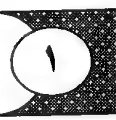
أولاً : مقالات في السعادة

١ـ **أسس الحياة الطيبة :** للأستاذ أحمد أمين

٢ـ **الحياة السعيدة :** للأستاذ أحمد أمين

٣ـ **البرنامج اليومي للسعادة :** للأستاذ أحمد أمين

٤ـ **المثقفون والسعادة :** للأستاذ أحمد أمين



أسس الحياة الطيبة[1] للأستاذ أحمد أمين[2]

كل الناس يطلب الحياة الطيبة السعيدة، ولكن أكثرهم لا يجدها؛ إما لأنه حرم وسائلها؛ وإما لأنه لم يعرف الطريق إليها.

كتبت سيدة فاضلة تقول: إنها في رخاء في عيشها؛ فلديها المال الكافي للإنفاق في سخاء، وزوجها موظف كبير تُدِرُّ عليه وظيفتُه المالَ الكافي، وأولادها في صحة ناجحون في مدارسهم، ومع ذلك فليست سعيدة؛ لأنها تشعر بضيق لا تدري سَبَبَهُ متوقعةً في كل لحظة الشر، وإن لم يكن؛ فابنها إذا غاب قليلاً أوجست خيفة من غيابه، وزوجها إذا سافر توقعت الشر في سفره، وابنها إذا دخل الامتحان اضطربت خوفاً من سقوطه، وهكذا لم ينفعها مالها، ولا غنى زوجها، ولا صحة أولادها، ولا وسائل الترف، والرفاهية من الشقاء الذي هي فيه، وتسأل بعد ذلك عن وسائل الحياة الطيبة السعيدة.

يا سيدتي! **أكثر الناس يخطئ؛ فيفهم أن الغنى هو سبب السعادة**، نعم إن الفقر سبب من أسباب الشقاء؛ فمن لم يجد ما يعوله ويعول أولاده فهو في شقاء؛ فالقدر الكافي من المال لسد الحاجات الضرورية وسيلة من وسائل الحياة السعيدة، ولكن الغنى ليس كل شيء في الحياة السعيدة، بل كثيراً ما يكون عائقاً عن السعادة؛ لأسباب بسيطة واضحة كل الوضوح؛ فالمال لا نستطيع أن نشتري

---

(١) فيض الخاطر ٦/٢٧٥ ـ ٢٧٨.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

به الصحة، ولا الحب، ولا الطمأنينة.

ومن ركز غرضه في جمع المال لم يجد فرصة للترفيه عن نفسه في النواحي الأخرى، واللذائذُ التي تنال بالغنى سريعة الزوال، والنفسُ أسرعُ إلى الملل منها، والغِنَى المُفْرِطُ مشغلةٌ تجعل الغني خادماً للمال وليس المالُ خادمَه، وأكثر الناس يخطئ في حقيقة بديهية، وهي أنْ ليست السعادة أن تكون عندك شيء، ولكن أن تعمل شيئاً؛ فالسعادة ليست في المِلْكية، ولكن في العمل.

إن مَثَلَ مَنْ يجمع المال؛ قصداً للسعادة كمثل مَنْ يتسلح للعدو، فيلبس دروعاً ثقيلة، ويحمل أسلحة كثيرة؛ حتى يثقل ذلك عليه؛ فيمنعه من السير.

فغناك وغنى أسرتك ـ يا سيدتي ـ لا يخلق السعادة، ولكن يصلح أن يكون وسيلة من وسائلها.

تَسْأَلينني في آخر خطابك عن **وسائل الحياة الطيبة، فأرى أنها تقوم على أسس أربعة:**

أولها: العمل ـ وهو قَدْرٌ لا بدَّ منه للغني والفقير، والرجل و المرأة، و بدونه تصبح الحياة عبئاً ثقيلاً لا يطاق.

إن العمل واجب من ناحية الأخلاق؛ فمن أكل من مال الأُمة وجب أن يقدم لها أجر ما أكل، ومن سوء الحظ في المدنية الحاضرة والسابقة أن الجزاء فيها ليس متكافئاً مع العمل؛ فالأمم كلها ـ مع الأسف ـ مملوءة بالأمثلة العديدة لأناس يعملون كثيراً، ويعملون عملاً نافعاً عظيماً، ثم لا يكافئون على عملهم إلا بالقليل الذي يسد رمقهم، وبجانبهم من يعمل قليلاً، أو لا يعمل أصلاً، أو

يعمل شراً، ثمَّ هو يكافأ على ذلك من غير حساب.

وهذا عيب في المدنية يجب أن يعالج، ثم العمل واجب من الناحية النفسية؛ فمن لم يعمل عوقب بالسآمة، والملل، والضجر، وكلما كان العمل لنفع الناس كان الجزاءُ عليه أوفى.

وعبرة ذلك في التاريخ نفسه، فهو لم يحفظ لنا أسماء الأغنياء، والوزراء، والمترفين بقدر ما حفظ لنا أسماء كبار العاملين الخيِّرين.

بالأمس كنت أتحدث إلى صديق لي عن العالِمْ الشهير(ابن حزم الأندلسي) فكان مما قلته إنه كان عالماً كبيراً، وأخلاقياً عظيماً، وكان من بيت كبير فقد كان أبوه وزيراً.

فقال: ما اسم أبيه؟ قلت نسيت ذلك، قال: إن في ذلك لعبرة لقد حفظت وحفظ أمثالك اسم العالم ونسيت ونسي أمثالك اسم الوزير الذي كان ذا جاه عريض؛ فالحياة بلا عمل حياة ميتة، و لست مخيراً أن تعمل؛ وكل اختيارك إنما هو في نوع العمل الذي يصلح لك، ويصلح له، وإني لا أشك في أن الأغنياء الذين لا عمل لهم من أشقى الناس، ولذلك يبحثون عن اللذائذ الرخيصة يضعون بها سأمهم ولكن سرعان ما تنقضي لذائذهم فخير أكلة ما أكلها الإنسان على جوع، وخير نوم ما نامه الإنسان بعد تعب، والراحة الدائمة في حاجة إلى إجازة أكثر من حاجة العمل إلى إجازة، ولعل سأم السيدات وخصوصاً المترفات اللائي اعتمدن في عمل البيت، وتربية الطفل على الخدم، والحشم سببه هذا، وهو الحياة بلا عمل، وتَلَمُّس السعادة من طريق اللذائذ التافهة.

الأساس الثاني للحياة الطبيعية: الطبع الراضي، أو المزاج الفرح، أو الطبيعة المتفائلة؛ فنرى في الحياة وجوهها الباسمة، وخيراتها الكثيرة؛ فكثير من أسباب الشقاء يرجع إلى الطبع الساخط، الطبع الذي لا يرى في الحياة إلاَّ مصائبها، وشرورها، وأحزانها، الطبع الذي يخلق من كل سرور بكاءاً، ومن كل لذة ألماً، ومن كل مسرة محزنة، الطبع الذي إذا أتيت له بعشرين تفاحة كلها جيدة ما عدا واحدة لا تقع عينه إلا على الفاسدة، وإذا كان في بيته كل ما يسر لم يلتفت إليه، وخَلَقَ الغضبَ من طبق كسر، أو كرسي في غير موضعه.

الطبع الراضي متسامح في الصغائر، خالق للسعادة، باشٌّ مستبشر، يتوقع الخير أكثر مما يتوقع الشر، يضحك حتى في الهزيمة، وحتى عند الخسارة المادية، يرى أن مسرح الحياة كميدان لعب الكرة، يكسب اللاعب فيضحك، ويخسر فينتظر الغلبة.

الأساس الثالث: أن يكون للإنسان غرض نبيل في حياته الاجتماعية، يشعر بأن هناك بائسين من نواحيهم؛ فالدنيا مملوءة بآلام الناس من مرض، وفقر؛ فإذا استطاع أن يُشْعَر قَلْبَهَ الرحمة؛ فيعمل في جمعية تخفيف الفقر، أو تواسي المرضى، أو تسعف المنكوبين، أو نحو ذلك شعر بأنَّ حياته غنية بعمل الخير؛ فاغتبط وسعد؛ يَسْعَدُ لمشاركة الخيرين في عملهم، ويسعد في شعوره بمحاولته إنقاذ البائسين من بؤسهم.

وهذا عمل في متناول الرجال، والنساء على السواء؛ فكلٌّ يستطيع أن يشترك في خدمة اجتماعية يقدمها؛ فيشعر بالغبطة والسرور، ولا شيء يبعث الضجر

والسأم كمعيشة الإنسان لنفسه فقط.

إن الأنانية وحب الذات[(١)] **خُلُقٌ طفليٌّ** يصحب النفس الضيِّقة في دور الطفولة؛ فمن كبر ولا زال لا يحب إلا نفسه كان ذلك علامة طفولته، وصغر نفسه؛ الأناني كثير السأم لأنه لا يشعر إلا بنفسِه ونَفْسُهُ تدور حول نفسها، أما الذين يشعرون بغيرهم فيضيفون نفوساً إلى نفوسهم، وآفاقاً إلى آفاقهم، ويجدون لأنفسهم أغذية مختلفة من شعور الآخرين وآرائهم.

الأساس الرابع للحياة الطيبة: أن يكون لك غرض في الحياة محدود، ثم يكون لك اهتمامٌ في تحقيقه، وتعاون مع من يشاركك في برنامجه، توسع ثقافتك فيما حدَّدت من غرض وتتعشقه؛ حتى تتلذذ من العمل الذي يقرب من النجاح فيه؛ فحدد الغرض، وارسم برنامجه، ورتب خطواته، وأحبه، وأحب العمل للوصول إليه تشعر بسعادة لا تُقَدَّر.

إن كثيراً من البؤساء في الحياة سبب بؤسهم أنهم يعيشون ولا يدركون لِمَ يعيشون، وما وظيفتهم في الحياة وما غرضهم منها؛ فيكون كالسائر في الشارع بلا غرض، يتسكع هنا آناً وهنا آناً؛ فإذا رأيت رجلاً متبرماً من الحياة، ضَيِّقَ الصدر، ملولاً ضجراً يغلب عليه الحزن والكدر- فاعلم أنه فقد عنصراً أو أساساً من عناصر الحياة الطيبة؛ فهو إما فارغ لا عمل له يعتمد على مال موروث، أو مال يأتي من عمل غيره، ويكتفي بهذا، ويركن إلى البطالة، أو هو إنسان تعوَّد أن يرى الحياة بمنظارٍ أسودَ دائماً ولم يقاومه، أو هو عاش لنفسه فقط؛ فلم

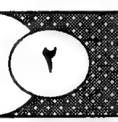
---

(١) لو قال: الغلو في حب الذات(م).

يشترك في عمل اجتماعي يشعره بالرحمة، والشفقة، وهي من النعم الكبرى على الإنسان، أو عاش بلا غرض كالريشة في الهواء لا يتحمس لعمل، ولا ينظر غاية.

هذه - يا سيدتي - هي أسباب الحياة الطيبة، وفقدانها أو فقدان واحدة منْها يجعلها حياة تعسة بغيضة.

فليختبر كل نفسه؛ ليعرف موضع مرضه.



الحياة السعيدة[1] للأستاذ أحمد أمين

لو استعرضنا أنواع الناس، وكيف يحيون، وجدنا أنَّ كثيراً منهم يعيش عيشة جافة جامدة باردة، يستيقظ من النوم، فيفطر، ثم يلبس ملابسه، ويذهب إلى عمله كزارع، أو صانع أو تاجر، أو موظف، حتى إذا جاء وقت الغذاء عاد إلى بيته فَتَغَذَّى، ثم قد يزاول بعض عمله، ثم يجلس في مقهى يسمر مع أصدقائه، أو نحو ذلك، ثم يعود إلى بيته فَيُحَدِّث أهله بعض الحديث، ثم ينام، وهذا هو تاريخ حياته، يوم واحد متكرر، وحياة واحدة رَتِيْبَة...

هذه هي الحياة أشبه ما تكون بحياة آلة في مصنع ندورها فتدور، ونعطيها غذاءها من فحم، أو وقود فتسير على نمط واحد، ثم يوقفها القائم عليها فتقف، وهكذا حياتها كل يوم، بل هي ـ أيضاً ـ كحياة الأنعام تأكل، وتعمل، وتنام، وهكذا عادتها كل يوم، وإنَّ الإسلام لا يرضى عن هذه الحياة.

وهناك قوم أضافوا إلى هذه الحياة الماديّة من أكلٍ، وشربٍ، ونومٍ، حياةً أخرى عقليةً، فهم يخصصون جزءاً كبيراً من وقتهم لاستخدام عقولهم في حياة علمية، أو أدبية كرجال الجامعات والباحثين في العلوم على اختلاف أنواعها، والفلاسفة الذين يجدون للبحث وراء كنه العالم والذين يقضون كثيراً من أوقاتهم في المعامل يبحثون ويجربون ويبتكرون...

وهذا النوع من الحياة أرقى من نوع الحياة الأولى؛ لأنها جمعت بين الحياة

---

(١) فيض الخاطر (٩/٢٩٨ـ٣٠٢).

المادية والعقلية، وجمعت بين السعادة المادية والسعادة الفكرية، ولا شك أنَّ اللغة العقلية الفكرية.

أمتع وأنفع وأطول، ولكن مع كل هذا لا يرضى الإسلام عن هذه الحياة ـ أيضاً ـ لأنه يرى فيها جفافاً؛ لخلوها من القلب والعاطفة؛ ولأن أصحابها كثيراً ما تلهيهم علومهم عن التفكير في إلههم، وإذا فكروا فيه فكروا بنوع من الإنكار، أو من الإلحاد أو الاستخفاف؛ أو عدم الاكتراث.

ومن هؤلاء العلماء من بلغ تقديسهم للعقل، وحصرهم أنفسهم في قوانينه أن ساروا في حياتهم على الأخلاق التي يرتضيها العقل وحده، فيعدلون مع الناس ومع أنفسهم؛ لأن هذا أنفع للمجتمع ولهم بحكم عقلهم، ويلتزمون الصدق ويقومون بالواجبات الفردية، والاجتماعية؛ لأنهم يرون فيها الخير لأنفسهم ولمجتمعهم بحكم العقل فهم فضلاء بالعقل، خيرون بالعقل، ولا يلتزمون بشيء ولا يسيرون على منهج إلاَّ إذا ارتضاه العقل وحتى هذا ـ أيضاً ـ لم يرتضِهِ الإسلام؛ لأن الفضائل إذا صدرت عن العقل وحده خلت من الحرارة، وخلت من القوة التي يتطلبها الدين.

ولذلك لما سئل رسول الله عن قوم في الجاهلية أتوا بأعمال فاضلة من كرم وشجاعة أبى أن يعترف لها بقيمة؛ لأنها لم تنبع من المنبع الذي يرتضيه الإسلام.

إنما يريد الإسلام حياة فيها مادة، وفيها عقل، وفيها روح، وبعبارة أخرى إنَّ الإسلام يلاحظ أنَّ الإنسان ركب من عناصر مختلفة، ولا يمكن أن يسعد إلاَّ إذا عاش عيشة تُغَذِّي كل عنصر من عناصره.

ولتوضيح هذا نقول: **إنَّ في الإنسان عنصراً من عناصر النبات** في خواصه وطبائعه، فهو يبحث عن غذائه في الأرض كما يبحث النبات، وتؤثر فيه الفصول الأربعة كما تؤثر في النبات، ولا بُدَّله من هواء وماء كالنبات، فلا بُدَّ لسعادة الإنسان أن يُغَذِّي هذا العنصر النباتي فيه.

كذلك في الإنسان عنصر حيواني؛ فهو يتحرك بالإرادة كما يتحرك الحيوان، وله شهوات وغرائز، كما للحيوان شهوات وغرائز، يتشهى الأكل، ويشتهي الألفة، ويتشهى الاجتماع ببني جنسه، وفيه غرائز الخوف، وحفظ الذات، وحفظ النوع، ونحو ذلك؛ فلا بُدَّ لسعادته من أن يحيا هذه الحياة الحيوانية ـ أيضاً ـ.

وفي الإنسان عنصران امتاز بهما عن النبات والحيوان:

أحدهما عنصر العقل: والعقل ـ وإن ظهر في شكل بدائي بسيط ساذج في الحيوان ـ فهو في الإنسان أعلى وأرقى وأتم، وبه استطاع أن يَسُود الحيوان، ويسخِّره لمنفعته، وبالعقل استطاع أن تكون له قوةٌ أقوى من الأسد، ومكرٌ أقوى من الثعلب، كما استطاع أن يتغلب على الحيوانات التي هي أقوى منه جسماً، وأوفر حظاً، فتغلب به على الفيل بأنيابه، وعلى الجمل بضخامته ونحو ذلك؛ فلا بُدَّ له ـ أيضاً ـ من أنْ يعيش عيشة فيها غذاء هذا العنصر العقلي، فيفكر ويتأمل، ويقرأ، ويكتب.

والعنصر الآخر الذي يمتاز به عن النبات والحيوان هو عنصر الروح، وهو غير عنصر العقل.

هذا العنصر الروحي أساسه الدين والاعتقاد بإله واحد هو ربه، ورب

العالمين، منه يستمد القوة، ومنه يستمد الحياة، ومنه يستمد وسائل الحياة.

وبهذين العنصرين عنصر العقل والروح استطاع الإنسان أنْ يُنَظِّم عنصر النبات والحيوان فيه، وأن يُنَظِّم، غرائزه، ويلطفها، ويهذبها، ويخضعها لأمرهما.

السعادة ـ في نظر الإسلام ـ يجب أن تتوفر بالأخذ بحظ من كل عنصر من هذه العناصر الأربعة أخذاً معتدلاً، لا إفراط فيه ولا تفريط، فهو لا يرضى عن تعذيب الجسم، وحرمانه من ملذاته، ولذلك كره التبتل وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الأعراف: ٣٢.

وكره حياة حيوانية لا عقل فيها، وعَابَ على قوم أنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً، وحث على العلم وطلبه، والتفكير في خلق السموات والأرض وما فيها، وحرص على العنصر الرابع وهو عنصر الروح؛ فقرر أنَّ الحياة إذا خلت من العنصر الروحي كانت حياة تافهة لا قيمة لها.

والناس إزاء هذه العناصر مختلفون اختلافاً كبيراً، فمنهم من غلب عليه عنصر النبات والحيوان؛ فكان شهوانياً، ومنهم من غلب عليه عنصر العقل؛ فكان عالماً أو فيلسوفاً، ومنهم من غلب عليه عنصر الدين فكان متصوفاً، ولكن خير حياة رسمها الإسلام هي الحياة التي اعتدلت فيها كل هذه العناصر ولم تفقد واحداً منها.

والعلم لا يكفي في الإسعاد لا في إسعاد الفرد ولا في إسعاد المجموع، لقد مَلأَ العلم الدنيا آلات وأدوات واختراعات ونظريات في السياسة والاجتماع،

ووصل في تقدمه إلى تحطيم الذرة، ولكن هل كفى هذا في إسعاد الناس؟

إن العلم وحده صالح لأن تستخدمه في الخير كما تستخدمه في الشر، فهو كالسكين تستخدمه في القتل فيضر، والذي يحدد استخدامه في المنفعة هو الروح التي يعبر عنها دائماً بالقلب.

إن العلم يستطيع أنْ يرقّي وسائل الخير كما يستطيع أن يرقّي وسائل الشر، قد كان الناس قديمًا يَقْتُلُون بالعصا والحجارة ونحو ذلك، فلمَّا تقدم العلم قتلوا بالكهرباء، والغازات الخانقة، والطائرات، والغواصات، والقنابل الذرية.

إنما الذي يستطيع أن يحد من شر العلم هو الروح، وهو الدين، وهو الإيمان بإله يحاسب الناس على أعمالهم، ويطلع على ضمائرهم.

إنَّ الدين الصحيح يُغَذِّي الشعور بالتسامي، والطموح الدائم إلى الرقي، ويعالج الشعور بالنقص، ويحارب الميل إلى التدني.

والدين الصحيح ينقل النفس مما يعتريها من الحزن، والإحساس بالفراغ، والقلق الذي يعتري الإنسان إذا لم يجد سنداً يستند إليه، ينقلها من ذلك كله إلى شعور بالأمن، والطمأنينة، والاستناد إلى قوة ليس فوقها قوة.

إنَّ الدين الصحيح يُشْعِر الإنسان بالاتصال بعالم روحي واسع لا يقاس به عالم المادة؛ فإنْ كان العلم يحضر الإنسان في المادة وفروعها فالدين يضم إلى هذه المادة أكبر منها، وبذلك يتسع أفق صاحبه أضعافاً مضاعفة.

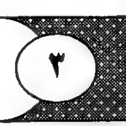
لقد أفهمتنا الحياة أن السير على قوانينها الطبيعية يكسب الراحة والسعادة، وأن كل سأم وقلق وملل واضطراب سببه مخالفة القوانين الطبيعية في جزء من

أجزائه، وإذا كانت طبيعة الإنسان مكونة من هذه العناصر الأربعة: عنصر النبات والحيوان والعقل والروح ـ فنقصان عنصر منها لا يمكن أن يحقق السعادة بالأخذ[1] بحظ وافر من كل عنصر من هذه العناصر وامتزاجها امتزاجاً متعادلاً لا يطغى فيه عنصر على عنصر.

وهذا نوع الحياة التي يرتضيها الإسلام.

---

(١) لعل فيه سقطاً وهو: (إلا) فيكون الكلام: (إلا بالأخذ ....)(م).



٣ البرنامج اليومي للسعادة[1] للأستاذ أحمد أمين

إذا صحوت من نومك، غسلت وجهك وأفطرت، وإني لأتمنى أن يكون لكل إنسان فطور روحي يهتم بالمحافظة عليه قدر اهتمامه بالفطور المَعِدِيّ؛ فليست الروح أقل شأناً من المعدة، فلماذا نحافظ على مطالب المعدة، ونحفل بها، ولا نحفل بمطالب الروح؟!

إن إفطارك كل يوم يزيد جسمك قوة، وإفطارك الروحي يزيدك قوة وسعادة، ونجاحك في الحياة اليومية وسعادتك فيها يتوقفان على هذا الغذاء الروحي؛ لأن السعادة تعتمد على إرادتك، وموقف عقلك أكثر مما تعتمد على الحوادث نفسها؛ فيجب أن نعدِّل أنفسنا حسب الأحداث التي تحدث كل يوم؛ لنبعد عنا الشقاء.

وإن إرادتي تستطيع أن تبعد التسممات التي تسممها الأفكار للعقل، والإرادة هي التي تستطيع ـ أيضاً ـ أن تضع حدًّاً للخوف، ولهياج الأعصاب اللذين يضايقان الإنسان.

والإرادة هي التي تستطيع أن تقف الغضب، وتضع حداً للكبر، والإرادة هي التي تلطف السلوك مع الذين تعاملهم، وتقضي على الخلافات التي بينك وبين عملائك؛ فإذا الذين بينك وبينهم صداقة حميمة.

---

(١) فيض الخاطر، ٩/١٤٦ ـ ١٤٨.

وروحُك القوية التي تغذيها دائماً بالسوائل الروحية هي التي تمنعك من غش الناس وخداعهم، وروحك الصحيحة هي التي تتناغم مع معاملات الناس؛ فتُسْعِدُهم وتسعد نفسك، وهي التي تجعل حياتك مع أسرتك وجيرانك وعملائك ناعمة لطيفة، كأنها الماكينة المزيتة، وبدونها تكون ماكينة جعجاعة؛ لأنها من غيز زيت.

ومن هذا الغذاء الروحي صرفُك كل يوم نحو نصف ساعة في آخر اليوم وتحاسب فيه نفسك ماذا صنعت، وكيف تتجنب الأغلاط التي كانت؟

إن كثيرين مغمورون إما بالعمل المتواصل في جمع العلم أو جمع المال، ولكنهم مع ذلك عبيد مطامعهم، وخير من ذلك كله أن يتفرغوا بعض الوقت إلى أنفسهم؛ فذلك يضمن لهم سعادة أكثر من عملهم ومالهم.

إن سكون الإنسان إلى نفسه غذاء روحي خير من العمل المتواصل، وخير من جمع المال.

وهذا الغذاءُ الروحيُّ إذا تغذيته صباح مساء حملك على أن تعفو عن المسيء وأن تنظر إلى إساءته كأنها نتيجة طبيعية لبيئته وحالته، وتقدر أنك لو كنت مكانه لك مزاجه ولك بيئته لفعلت فعلته.

والغذاء الروحي يخفف من مطامعك، ويجعلك ترضى عما حدث في يومك في مأكلك ومشربك وعملك وما قابلت من أناس، ويجعلك تختم يومك عند محاسبتها بأنه كان يوماً سعيداً يضاف إلى حلقة الحياة السعيدة.

ويخطئ من ظن أن المال وحده يسبب السعادة؛ فإن كان المال عاملاً من عوامل

السعادة يساوي عشرة في المائة ـ فالحالة النفسية تسبب من السعادة التسعين في المائة الباقية، وكم من الناس نراهم يجدون[1] وراء الربح وقد بلغوا منه مبلغاً عظيماً، ومع ذلك هم أشقياء بروحهم ونفسهم!

ويحكون أن سليمان ـ عليه السلام ـ أوتيت له كنوز الأرض، وبنيت له قصور فخمة، ومع ذلك كتب يقول: «إن هذا كله عبث ولا قيمة إلا لسعادة الروح».

وربما كان قلب الطفل أسعد حالاً من كثير من الناس؛ فإنه يبتهج لطلوع الشمس، ويبتهج للعبه الصغيرة يلعبها، ويبتهج للألعاب الرياضية، ويعجب من الطير تطير في السماء. ويفرح للمناظر الطبيعية الجميلة: من منظر بحر، ومنظر جبل، فإذا نحن كبرنا فقدنا هذه العواطف الجميلة، وجفّت نفوسنا لعدم غذائها، وإذا حضرتنا الوفاة تبين لنا أننا كنا نعيش في أوهام.

ولا شيء يغذي الروح أحسن من الحب بمعناه الواسع، فحب الخير للناس، وحب المناظر الجميلة، وحب إسعاد الناس ما أمكن، كل هذا غذاء.

إن بعض الناس منحوا من الملكات ما يجدون معه في كل شيء غذاء لروحهم، في الزهر ونضرته، والماء وجريانه، والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها.

وبعض الناس يرى أن هذا خيال فاسد لا يهمهم إلا المال وجمعه، أو الشهوات وإرواؤها، أولئك قد عميت قلوبهم، كما عميت في بعض الناس

(١) لعلها: يَجْرُون (م).

أبصارهم.

إن الحياة الروحية تجعل لكل شيء طعماً جديداً غير طعمه المادي، فتجعل للعلم طعماً، وللمناظر طعماً، وللعواطف طعماً، لا يدركه إلا من ذاقه.

وهو بهذا الطعم يجد في الوحدة أحياناً لذة قد لا تقل عن لذة الاجتماع بالناس؛ لأن نفسه الروحانية ليست فارغة فراغ النفس المادية.

ومن الأسف أن العالم اليوم قد كسب كثيراً بمخترعاته وصناعاته، ولكنه -أيضاً- خسر كثيراً في روحانيته ومعنوياته، ولو رقى قليلاً في روحانيته ما كان هذا الصراع العنيف بين الأمم، ولا كانت حروب قاسية، ولا قنابل ذرية غاشمة.

إن العالم لا يصح إلا إذا تعادلت فيه يدُه وقلبُه وعقلُه، فإذا اختل توازنه فيها زاد شقاؤه، وهو اليوم صَنَاعُ اليدين، قوي العقل، ضعيف القلب، وهذا ما سبَّب شقاءه، وليس له علاج إلا أن يبحث عن منهج تتعادل به هذه القوى الثلاث، ثم يسير عليه.

٤ المثقفون والسعادة[1] للأستاذ أحمد أمين

قرأت قول المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وقرأت قول الآخر:

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيت مذاهبه وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأفهام حائرة وَصَيَّر العالِم النحرير زنديقا

وقول ابن المعتز:

وحلاوة الدنيا لجاهلها ومرارة الدنيا لمن عقلا

وقول ابن نباته:

من لي بعيش الأغنياء[2] فإنه لا عيش إلا عيش من لم يعلم

وقرأت كثيراً مثل هذا في الشعر العربي يدور حول لعنة العالَم[3]؛ لأنه يعذب العالِم، ويسعد الجاهل.

فتساءلت: هل هذا صحيح؟ هل العلماء في جملتهم أشقى من الجهلاء؟ وهل العلم يسبب الشقاءَ، والجهلُ يسبب السعادةَ؟

إن كان هذا صحيحاً، وكان العالم إنما يسعى وراء السعادة فالنتيجة المنطقية

---

(١) فيض الخاطر ٣/٧٦ ـ ٨٠.

(٢) هكذا في الأصل ولعلها: الأغبياء.

(٣) لعل المقصود: (العِلْم) (م).

لهذا أنه يجب علينا محاربة العلم، ونشر الجهل، وإغلاق المدارس، وعدُّ تأليف الكتب جريمة، وطبعها جريمة، والجامعة جريمة، وكل حركة علمية جريمة؛ لأنها تبعد من السعادة التي هي غاية الإنسان بطبعه، أو على الأقل يجب أن تكون غايته.

إذاً فلا بُدَّ أن يكون أحد الرأيين خطأً، أَمَا والناس يكادون يجمعون على فضل العلم، وأنه وسيلة من وسائل السعادة فوجب أن يكون الرأي الأول باطلاً، ولكن أين وجه البطلان؟

وجه البطلان من نواحٍ عدة:

أولها: سوء تصور الناس للسعادة: فالرأي السائد فيها أنها حياة كسل لا يكدرها عمل، وحياةُ حقوق لا واجب فيها، وحياةُ لذة مشتعلة لا خمود لها، وأكل شهي من غير عناء، وتنوعُ ملاذٍّ من غير انقطاع، وارتواء باللذات من غير جهد، وبُعْدُ الآلام من غير أن يتعب في إبعادها، وحضورٌ لكل ما يخطر بباله من مسرة من غير نصب في جلبها، ونحو ذلك.

وهو تصور فاشٍ بين الناس حتى عقلائهم، ومن لم يقله جهاراً اعتنقه سراً، ومن لم ينله طمع فيه، وتحرق شوقاً إليه، ومن حُرِمه في الدنيا أمَّله في الجنة، وجعل عبادته وسيلة لإدراكه.

وهو تصور لمعنى السعادة باطل، وفهم خاطئ؛ وإني لأتخيل حياة من هذا النوع أشبعت فيها كل الرغبات من غير جهد، وأتصور رجلاً أُجري عليه كل أنواع النعيم: من قصور فخمة، وحور، وولدان، وكل ما تشتهي الأعين، وتلذ

الأنفس، فأجده بعد قليل قد صرخ من السعادة، واشتاق إلى الشقاء، وإن شئت فقل: إنه يبحث عن سعادته في شقائه، ويستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، ويطلب الفول، والعدس، والبصل بدلاً من المن والسلوى، ويفضل المرأة الشوهاء على المرأة الحسناء، ويشتهي جلسة على التراب بدل الأرائك والحرائر، ويتمنى ساعة عذاب يتقي بها شر هذا النعيم المقيم.

هذا هو الإنسان، وهذه طبيعته، ليست سعادته في هدوء متضامن، ولا في ركود مستمر، إنما هي كما قال القائل:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا ... وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

والسعادة إنما هي في السعي للغرض أكثر منها في الغرض، والطريق إلى الغاية هو السعادة لا الغاية، وإنما يسعد الإنسان باستخدام قُواهُ وملكاتِهِ لبلوغ غايته؛ فإذا بلغها تفتحت له غايات جديدة، وبذل فيها جهوداً جديدة، وظهر في أثناء الطريق صعوباتٌ استخرجت أقصى الجهد في التغلب عليها، فشعر بلذة الجهد، ولذة الغلبة، ولذة اعتداده بشخصيته، واستخدامه ملكاتِه، واستكماله نَفْسَه أكثرَ من لذاته بالغاية نفسها.

فلما تصور الناس السعادة بمعناها الخامل الذي ذكرنا نظروا فوجدوا كثيراً من العقلاء والعلماء محرومين منها، فأفاض المحرومون في الشكوى، وصبوا على العالم[1] سخطهم، ولو حسبوا حساب لذاتهم في السعي، ولذتهم العقلية في فهم الكون؛ ولذتهم في الكد في الطريق، وإن لم يبلغوا الغاية، ولو وزنوا بالميزان

---

(١) لعله: العلم (م).

الحقيقي سعادة الجهلاء، ولم يبالغوا في تقديرها، لو فعلوا كل ذلك لصححوا حكمهم، وأدركوا خطأهم، ولقللوا من سخطهم على الزمان، ولعنتهم للدهر، وعتبهم على القدر.

وهبْ أن العلماء أشقى من الجهلاء، وأن العالِمَ لم يسعد بعلمه، بل ساءت معيشته بعلمه، وأن علمه كان نقمة عليه، وأن العلم وسع نظره؛ فأدرك واجباته وتبعاته، وأرهف حسه؛ فجعله يألم مما لا يألم منه الجاهل، وأبعد طموحه؛ فصار لا يرضى بما يرضى به العامي، ووسع حوض لذته(كما عبر الفرنج) فأصبح لا يملؤه إلا الكثير، وقد كان ـ وهو جاهل ـ كالطفل، حوض لذته ضيق يملؤه القليل، وكبرت نفسه، وبعدت غايته، فأصبح يدرك أن ما ناله من اللذائذ ناقص مهما كان.

هبْ كل ذلك كذلك، **فهناك الخطأ الثاني الخطير، وهو مقياس الأشياء بمقياس الفردية**؛ فعلى مرِّ آلاف السنين وصل العقلاء، والعلماء، والنوابغ إلى نتيجة باهرة تِلْوَ نتيجة باهرة، وإلى مخترع لنفع الإنسانية تلو مخترع، حتى وصل العالَمُ بفضل هذه المجهودات والمخترعات إلى حضارته الحاضرة، ومدنيته الحديثة، وكان سعي العلماء في طريقهم شاقاً عسيراً، وقامت في وجوههم صعوبات يعجز القلم عن وصفها، وذهب كثير منهم ضحايا في سبيل غايتهم، ولم يكونوا يتحملون هذه المشقات، والتضحيات في سبيل فردهم، وذاتيتهم، إنما يتحملونها في سبيل الجمعية القومية، أو الإنسانية، وكانوا يتلذذون من تضحيتهم أكثر من تلذذ المادي بشهواته؛ فهب أن العلماء شقوا أكثر مما شقي

الجهلاء، وسعدوا أقل مما سعد الجهلاء، فماذا يضيرنا ما دام العالم كان أسعد وكان أرقى، وكان في جملته أصلح؟

فلا يصح للعلماء أن يبكوا لشقائهم أفراداً ما دامت الجمعية الإنسانية تستفيد من جِدِّهم وشقائهم، كما لا يصح أن نسمع لشكوى فرد نزعت ملكيته لفتح شارع عام، أو جنود قتلوا في سبيل انتصار أمتهم، أو أطباء ماتوا في سبيل مكافحة وباء، بل لا يصح أن يتقدم أحد من هؤلاء بالشكوى؛ لأن العالم علمنا بطريق سيره أن العبرة بتقدم المجموع ولو فَنِيَ الأفراد في أثناء سيره، والفرق بين أمة منحطة، وأمة راقية نظرةُ الأولى إلى صالح بعض الأفراد، أو بعض الأحزاب، ونظرة[1] إلى الصالح العام.

فغلط العلماء، والعقلاء، والمخترعين الذين يشكون من أنهم نظروا إلى أنفسهم كأنهم آلات مستقلة، ولم ينظروا إليها كأنهم تروس في الآلة الضخمة، أو آلة الإنسانية؛ وخطؤهم ـ أيضاً ـ نشأ من اعتقادهم أن علمهم وثقافتهم وقوة عقلهم ـ إنما ركبت فيهم لنفع أفرادهم، وأن غايتهم استفادتهم منها لنفع أشخاصهم، وليس ذلك بصحيح؛ فكل الملكات الممتازة في الأفراد، وكل قدرة على الاختراع، والتثقيف وبث المبادئ إنما منحت للأفراد لخدمة الجماعة وترقيتها؛ فمتى أدت هذا الغرض فلا يهمنا بعد عاش أفرادها في بؤس، أو رخاء، في نعيم، أو شقاء.

---

(١) لعل في الكلام سقطاً: وهو: كلمة (الثانية) بعد كلمة (نظرة) فيكون الكلام: (ونظرة الثانية..)(م).

ولكن... من طبيعة الثقافة أنها ترقي العقل، وترقي المشاعر، ومتى رقى العقل، والمشاعر كان صاحبها أقدر على اللذة، كما يكون أكثر تعرضاً للألم؛ فمتى وجد في ظروف مناسبة كان أسعد من الجاهل، ومتى وجد في ظروفٍ غيرِ مناسبة كان أشقى من الجاهل، والمثقف بعقله الراقي كثير التساؤل: ما الحياة؟ وما الغرض منها؟ وما قيمتي فيها؟

ثم هو واسع الطموح كثير التطلع لحالة خير من حالته؛ وكلما أدرك حالة تطلع لما هو خير منها ثم هو جيد التقدير، يقدر نفسه، ويقدر من حوله؛ فيرى من حقه، ومن حق ثقافته، ومن حق سعة عقله ـ أن ينعم في الحياة المادية بأكثر مما ينعم الجاهل؛ ويرى واجباً على المجتمع الذي يعيش فيه أن يكرمه نظير علمه الذي يخدمهم به، فتوفِّر له وسائل العيش، ووسائل السعادة حسب نظره؛ فلماذا تطلب منه التضحية فقط، ولا يطلب من الأمة أن تضحى بجزء من مادتها؛ ليضحي هو بأغلى من ذلك: بعقله، وصحته، ونفسه أحياناً؟

هذه هي وجهة نظره، وهذا هو سبب شقائه، وهي ـ إن كانت وجهة نظر صحيحة معقولة ـ إلا أنها معقدة، وتعقيدها آتٍ من قلة الثقافة في العالم، لا من كثرة الثقافة، فغير المثقفين ـ وهم السواد الأعظم ـ لا يُقَدِّرُون عظم ما يبذله المثقف، وهم يقدرون على مقدار عقلهم القاصر، وهم الذين في يدهم السلطة والمال، فهم معذورون إذا لم يوفروا للعالم، والنابغة وسائل العيش حسب نظره وتقديره هو؛ ومن أجل هذا كلما انتشرت الثقافة في أمة، وتولَّى زمامهم مثقفوها كان علماؤها ونوابغها أسعدَ حالاً.

وكذلك من أسباب شقائهم عدم تنظيم قوى المجتمع على قواعد معقولة، والفوضى في تقديم الأشياء والمعاني، وتمسك من بيدهم السلطة بالتسعيرة القديمة.

ولكن العالم يسير إلى تنظيم كيانه، وإلى إصلاح عيوبه، وإلى ضبط فوضاه، وإذ ذاك - ونرجو أن يكون قريباً - تكون ثقافة العالم، ونبوغ النابغ، وأدب الأديب، وعقل العاقل موضع التقدير.

ولكن إلى أن يتم هذا لا بدَّ أن ننظر لصالح المجتمع أكثر من صالح الأفراد، وأن ندعو إلى انتشار الثقافة لا انكماشها، وكثرة العلماء لا قلتهم، وألا نعبأ بمن يشقى من العلماء إذا كان في شقائهم سعادة في علمهم، وشعورهم برقيهم.

ثانياً: مقالات في التربية والتعليم

٥ـ العلم بين الأساتذة والطلاب: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٦ـ إلى أبنائنا المعلمين الأحرار: للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

٧ـ كلمات واعظة لأبنائنا المعلمين الأحرار(١): للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

٨ـ كلمات واعظة لأبنائنا المعلمين الأحرار(٢): للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

٥ العلم بين الأساتذة والطلاب[١] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين[٢]

في هذه الفترة بين عام دراسي أوشك أن ينقضي، وبين عام جديد يستقبله المدرسون والطلبة بعد أشهر الاستجمام رأيت أن أتحدث إلى إخواني مدرسي المعاهد، وأبنائهم الطلبة بما ينبغي للفريقين أن يطيلوا التأمل فيه، عندما يفرغون من فترة الاستجمام؛ استعداداً لاستئناف عهد جيد في الحياة الدراسية.

إن من أجمل ما فهمه المسلمون من معاني «العلم» قول أبي حامد الغزالي فيه: «إنه عبادة القلب، وصلاة السر، وقربة الباطن إلى الله، وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر من الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن، وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته من خبائث الأخلاق».

وهذا الفهم الجميل لمعنى العلم في الإسلام إذا كان ينبغي لمدرسي المعاهد الأزهرية وطلبتها أن يجعلوه دستوراً لهم في حياتهم الدراسية في جميع المعاهد؛ فإن أولى ما ينبغي لهم أن يتخذوه دستوراً في هذا المعهد الذي أخذ يتجدد فيه نظرُ الأمة إلى جميع أوضاعها استعداداً لاستئناف حياة سعيدة مباركة النتائج، ويانعة

---

(١) من كتاب أحاديث في رحاب الأزهر، لفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وحققها علي الرضا التونسي ص٩٢ـ ٩٥. ومجلة «الأزهر» الجزء العاشر ـ المجلد الرابع والعشرون، غرة ذي القعدة ١٣٧٢، وقد كتبها الشيخ لما كان شيخاً للأزهر.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

الثمرات إن شاء الله.

من المأثور عن رسول الرحمة ﷺ أنه كان يقول لأصحابه ـ وهم الطبقة الأولى من طبقة العلم في تاريخ الإسلام ـ: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده».

وإن المدرس في المعاهد الإسلامية ينبغي له أن يستقبل سنته الدراسية المقبلة بهذه الروح العالية، وبهذا الأدب الإسلامي الرحيم؛ فيكون لطلبته مثل الوالد مع الولد، روى الذين دوَّنوا ترجمة الإمامِ الفاتحِ أسدِ بن الفرات، أنه لما كان يأخذ العلم عن الإمام محمد بن الحسن الشيباني، تلميذ الإمام أبي حنيفة كان الإمام محمد بن الحسن إذا رأى تلميذه أسد ابن الفرات غلب عليه النوم وهو يسهر في تلقي العلم عنه نضح على وجهه رشاشاً من الماء؛ ليجدد له نشاطه؛ شفقة منه عليه، ورغبة منه في أن ينهض إلى مستوى الإمامة في العلم.

ولولا أن محمد بن الحسن تأدب بأدب الإسلام، وعمل بالمبدأ المحمدي في أن يكون لتلميذه كما يكون الوالد لولده لانتهز فرصة غلبة النوم على تلميذه، وأرجأ الدرس على الليلة الثانية، هذا ما نعلمه من مقام الإمام محمد بن الحسن في الدولة وكثرة أعماله العلمية، لكنه لما كان يعلم أن من أدب الإسلام أن يكون التلميذ بمنزلة الولد من الوالد التزم مع أسد بن الفرات هذا الأدب الرحيم، وكان من نتيجة ذلك نبوغ أسد بن الفرات، وقيامه للملة الإسلامية بما لا يقوم بمثله إلا أفذاذ النوابغ من صفوة البشر.

وهذا الشيخ ابن التلمساني، أحد كبار علماء شمال أفريقيا سأله السلطان عن مسألة فقال: إن تلميذي فلاناً يحسن الجواب عنها، فوجه السلطان السؤال إلى

تلميذ ابن التلمساني، فأحسن الجواب، فأجازه وأحسن منزلته، وكان ابن التلمساني أعلم من تلميذه فيما سأله عنه السلطان، لكنه؛ لاعتباره تلميذه بمنزلة ولده أراد أن يُنَوِّه به في حضرة السلطان كما لو كان ولده حقاً.

والطلبة في دستور الإسلام عرفوا كيف يقابلون هذا العطف الأبوي من أساتذتهم بما يكافئه من حرمة ومحبة وإجلال، ومن أقدم الأمثلة على ذلك ما رواه الشعبي، أن زيد بن ثابت ﵁، صلّى على جنازة، ثم قربت إليه بغلته ليركبها، فبادر إليه عبدالله بن عباس، فأخذ بزمام البغلة؛ ليساعده على الركوب، فقال له زيد: خل عنه يابن عم رسول الله، فأجابه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء.

وقد حافظ ذرية ابن عباس على هذا الأدب من التلاميذ نحو أساتذتهم، بعد أن صار بنو العباس ملوك الدنيا، فقد نقل برهان الإسلام الزرنوجي، في كتاب تعليم المتعلم، وهذا الكتاب ترجمه «رولاند» إلى اللغة اللاتينية وطبعه في مدينة «أوتراخت» بألمانيا قبل نحو مائتين وخمسين سنة ـ أن أمير المؤمنين هارون الرشيد بعث ابنه إلى الأصمعي، ليعلمه العلم والأدب، فرآه يوماً يتوضأ وابن الخليفة يصب الماء على رجله، فعتب الخليفة على الأصمعي؛ لأنه لم يأمره بأن يصب الماء بإحدى يديه، ويغسل رجل أستاذه باليد الأخرى، ورأى أن تقصير ابنه في ذلك تقصير في أدب التلميذ مع أستاذه.

وروى الزرنوجي في هذا الكتاب ـ أيضاً ـ عن شيخه برهان الدين، صاحب الهداية أن أحد كبار أئمة بخارى وهو في حلقة درسه في المسجد رأى ابن أستاذه

يمر أمام باب المسجد، فقام له؛ تعظيماً لحق أستاذه.

وقد علمنا من سيرة ابن خلدون، أنه لما رزئ بوفاة كبار شيوخه وكان منهم قاضي القضاة محمد بن عبدالسلام، والرئيس أبو محمد الحضرمي، والعلامة محمد بن إبراهيم الأبلي ـ ضاق به وطنُه؛ فترك مقامه الوجيه الذي وصل إليه في قصر الإمارة، ورحل عن تونس إلى الجزائر والمغرب الأقصى؛ لأن مقام أساتذته كان في نفسه فوق كل مقام.

وهذه المحبة الصحيحة التي يكنها التلميذ لأستاذه هي التي حملت العالم أحمد بن القاضي على أن يقول في شيخه المنجوري: «وصارت الدنيا تصغر بين عيني، كلما ذكرت أكل التراب للسانه، والدود لبنانه».

ومن ذلك قول ابن عرفة:

إذا لم يكن في مجلس الدرس نكتة ... وإيضاح إشكال بأحسن صورة

الأبيات، فيجيبه تلميذه الأبي بقوله:

يميناً بمن أولاك في العلم رتبة ... وزان بك الدنيا بأحسن زينة

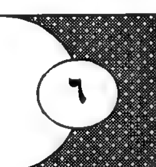
لمجلسك الأعلى كفيل بكلها ... على حينما عنه المجالس ولت

ووقعت خروج جنازة أستاذنا الشيخ عمر بن الشيخ من منزله ليصلى عليها في جامع الزيتونة، ذكرت خروجه منه لدرس كتاب المواقف، والشيوخ ينتظرونه بموضع الدرس، وذكرت قول أحد الأساتذة في قصيدة ألقاها عند ختم الكتاب:

إذا عمر بن الشيخ وافى لدرسه ... تعالَ التَقِطْ دُرًّا بملء جفان

ففاضت عيناي بالدموع.

إن هذا الأدب الإسلامي الذي جعل من الطلبة أبناء للأساتذة كفلذات أكبادهم، وجعل من الأساتذة آباء لتلميذهم، يعطفون عليهم أكثر من عطف الآباء على أبناءهم ـ هو الأدب اللائق بنا أن نرجع إليه لنجدد في تاريخنا عهداً سعيداً، فننعم به ونسعد بنعمته، والطلبة الذين يكتسبون من دراستهم مثل هذا الأدب ينالون به من السعادة أضعاف ما ينالون به من دراسة العلم مهما تقدموا فيه.



إلى أبنائنا المعلمين الأحرار[١]

للشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي[٢]

أيها الأبناء البررة!

وصفناكم ـ في العدد الخاص بالمدارس ـ بما أنتم أهله، وذكرناكم ـ ذكركم الله في الملأ الأعلى ـ بالخير والجميل، وأرسلنا إليكم تلك التحية الأبوية الخالصة صادرةً عن قلب يُكِنُّ لكم الحب والتقدير والشفقة، راجين أن يكون رجعُ التحية منكم واجباً يُؤَدّى على أكمل وجوهه، وعملاً يُحَقَّق على أكمل حالاته، وغايةً توصَل بأسبابها من أقرب الطرق، وبأنفع الوسائل، لا كلاماً يذهب مع الريح، ولا قشوراً من الأعمال تضيِّع الوقت، وتُبعد الغاية، ولا أنيناً من الشكوى والتسخط يذهب بالصبر ويوهن العزيمة وهما حلية الأبطال.

ها أنتم هؤلاء تبوأتم من مدارسكم ميادين جهاد؛ فاحرصوا على أن يكون كل واحد منكم بطل ميدان وها أنتم هؤلاء خلفتم مرابطة الثغور من سلفكم الذين حموا الدين والدنيا، ووقفوا أنفسهم لإحدى خطتين: الدفاع المجيد، أو موت الشهيد؛ فاحذروا أن تؤتى أمتكم من ثغرة يقوم على حراستها واحد منكم، فيجلب العار والهزيمة لجميعكم، واعلموا أنكم عاملون، فمسؤولون عن

(١) نشرت في العدد ٩٤ من جريدة «البصائر»، ٧ نوفمبر سنة ١٩٤٩م، وانظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٣/ ٥٦٢ ـ ٥٦٥، وقد وجهها ﷺ لمعلمي جمعية العلماء في الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

أعمالكم، فمجزيُّون عنها من الله ومن الأمة ومن التاريخ ومن الجيل الذي تقومون على تربيته كيلاً بكيل، ووزناً بوزن.

إننا ـ يا أبنائي ـ كنا أوَّل من نام، وآخر من استيقظ؛ فمن الحزم أن لا نقطع الوقت في العتاب والملام، والحرب بالكلام؛ فإن ذلك إطالة للمرض، وزيادة في البلاء على المريض.

ومن الحزم أن نتحاسب على الدقائق، إذا تحاسب غيرنا على الساعات، وعلى الأيام إذا تحاسب غيرنا على الأعوام.

إنَّ وراءنا من الزمن سائقاً عنيفاً، وإنَّ معنا من العصر وروحه زاجراً مخيفاً، وإنَّ أمامنا سبلاً وعرة، وصراطاً أدقَّ من الشعرة، وإنَّ عن أيماننا وعن شمائلنا عوائقَ من الدهر، ومعوِّقين من البشر، وإنَّ في طيِّ الغيوب من القدر المحجوب بوائقَ في أكمامها لم تفتق، وإنْ أدري أقريب أم بعيد ما أوعد الله الظالمين، ولكنني أدري أن العاقبة للمتقين، وأننا لا نغلب العوائق، ولا نتقي البوائق إلا بإيماننا بالله، ثم بديننا، ثم بلغتنا، ثم بأنفسنا ثم بالحق الذي جعله الله ميزاناً للكون، وقيوماً على الكائنات، ترجع إليه صاغرة، وتقف عنده داخرة.

إن التقصير في الواجب يعدّ جريمة من جميع الناس، ولكنه في حقنا يضاعف مرتين، فيعدّ جريمتين؛ لأن المقصر من غيرنا لا يَعْدَمُ جابراً أو عاذراً؛ فقد يغطي على تقصيره عمل قومه أو حكومته، وقد يقوم له بالعذر حاله الجاري على كمال مقنع.

أما نحن فحالنا حال اليتيم الضائع الجائع، إذا لم يسْعَ لنفسه مات؛ فإذا قصرنا

في العمل لأنفسنا ولما ينفع أمتنا ويرفعها؛ فمن ذا يعمل لها؟ آلحكومة؟ وقد رأينا من معاملتها لنا أنها تمنع الماعون، وتداوي الحمى بالطاعون، وتبارز الإسلام بالمنكرات، وتجاهر العربية بالعدوان؛ فمن ضل منا ـ مع هذا ـ فقد ضل على علم، ومن هلك فإنما هلك عن بينة.

وإن لِما يبوء به المقصرون من الندامة لمرارةً تجتمع في العقبى مع الخسارة، فيكون منها حال من الحسرة يحلو معه بخع النفوس، وإتلاف المهج.

وتلك هي الحالة التي نعيذ أنفسنا ونعيذكم بالله من تسبيب أسبابها، وتقريب وسائلها؛ وقد نهى ديننا الإسلام عن التقصير في الواجبات، ونعى التفريط في الحقوق، وبيّن آثاره وعواقبه، وحض على الأعمال في مواقيتها، وقبح الكسل والتواكل والإضاعة، فشرع لنا بذلك كله من شرائع الحزم والقوة وضبط الوقت والنفس ما لم يشرعه قانون، ولم تأت به عقلية؛ وما أخذنا بذلك إلا ليأخذ بحُجَزِنا عن التهور في الكسل والبطالة، ويقينا تجرع مرارة الندم، وحرارة الحسرة.

قصر آباؤنا وأجدادنا في واجبات اقتضاها زمانهم، وفرطوا في حقوق تقاضاها منهم مكانهم بعد ما لاحت لهم النذر، وقامت عليهم الحجج، ودمغتهم البينات، فغالطوا في الحقائق، وكذبوا بالنذر، وموهوا بالزيف، وغشوا أنفسهم بالأماني والأحلام، وغشونا بالضلالات والأوهام، حتى مات من استيقظت شواعرُه منهم بحسرات الندم، ومات الغافلون منهم كما يموت الغُفْل من النَّعم، فلا حسرةُ أولئك أجدَت علينا شيئاً، ولا غفلةُ هؤلاء أفادتنا نقيراً، وإنما أضاف تفريطهم المخجل واجباتهم إلى واجباتنا، فأصبحت حملاً ثقيلاً، هو هذا الذي

نئوء به وينوء بنا، هو هذه الأعباء المركومة التي نحاول النهوض بها، فيقيمنا الإيمان والأمل، وتُقعدُنا الكثرةُ والثقل.

وإن من الظلم تكليفَ جيل بواجبات أجيال، وإن من الجور أن يحمل القرن الأخير أوزار القرون الماضية.

ولو أنهم ـ سامحهم الله ـ قاموا بواجباتهم أو ببعضها، لخففوا عنا الكثير، وهوّنوا علينا العسير، كما خففنا نحن وهوّنا على الجيل الآتي، ولو أنهم غرسوا الشجرة لقرّبوا منا جني الثمرة.

هذه هي حالتنا ـ يا أبنائي ـ نهدم ونرفع الأنقاض، ونبني ونعمر في آن واحد، ونؤدّي فريضة الوقت، ونقضي الفوائت على غيرنا في آن واحد، ثم نؤدّي الكفارات على ذنوب لم نجترحها.

كل ذلك مع محاربة من الجار، ومشاغبة من الشريك في الدار، ومع وَشَل من المال لا يتمّ به العمل، ومثبطات من سوء الحال يتضاءل معها ـ لولا الإيمان ـ الأمل.

وإنها لحالة لا يثبت معها إلا المؤمنون الصابرون الصادقون المخلصون المحتسبون، المؤيَّدون بروح من الله، ونحن وأنتم كل ذلك إن شاء الله.

ها أنتم هؤلاء تربعتم من مدارسكم عروش ممالك؛ رعاياها أبناء الأمة وأفلاذ أكبادها؛ تديرون نفوسهم على الدين وحقائقه، وألسنتهم على اللسان العربي ودقائقه، وتسكبون في آذانهم نغمات العربية، وفي أذهانهم سر العربية، وتدبرون أرواحهم بالفضيلة والخلق المتين، وتروضونهم على الاستعداد للحياة

الشريفة بعد أن تجتثوا من نفوسهم بقايا آثار المنزل الجاهل، والأب الغافل، وتقودونهم بزمام التربية إلى مواقع العبر من تاريخهم، ومواطن القدوة الصالحة من سلفهم، ومنابت العز والمجد من مآثر أجدادهم الأولين؛ فقفوا عند هذه الحدود، واجعلوها مقدّمة على البرنامج الآلي في العمل والاعتبار، وفي السبر والاختبار؛ واحرصوا كل الحرص على أن تكون التربية قبل التعليم، واجعلوا الحقيقة الآتية نصب أعينكم، واجعلوها حادِيَكم في تربية هذا الجيل الصغير، وهاديكم في تكوينه، وهي: أن هذا الجيل الذي أنتم منه لم يؤتَ في خيبته في الحياة من نقص في العلم، وإنما خاب أكثر ما خاب من نقص في الأخلاق، فمنها كانت الخيبة، ومنها كان الإخفاق.

ثم احرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلامذتكم من الأقوال، منطبقاً على ما يرونه ويشهدونه منكم من الأعمال؛ فإن الناشئ الصغير مرهف الحس، طُلَعَة إلى مثل هذه الدقائق التي تغفلون عنها، ولا ينالها اهتمامكم، وإنه قويٌّ الإدراك للمعايب والكمالات؛ فإذا زينتم له الصدق فكونوا صادقين، وإذا حسنتم له الصبر، فكونوا من الصابرين.

واعلموا أن كل نقش تنقشونه في نفوس تلامذتكم من غير أن يكون منقوشاً في نفوسكم فهو زائل، وأن كل صبغ تنفضونه على أرواحهم من قبل أن يكون متغلغلاً في أرواحكم فهو ـ لا محالة ـ ناصل حائل، وأن كل سحر تنفثونه؛ لاستنزالهم غير الصدق فهو باطل.

ألا إن رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عنكم من الأخلاق الصالحة بالقدوة،

وأما ما يأخذه عنكم بالتلقين من العلم والمعرفة فهو ربح وفائدة.

أوصيكم بتقوى الله فهي العدّة في الشدائد، والعون في الملمات، وهي مهبط الروح والطمأنينة، وهي متنزل الصبر والسكينة، وهي مبعث القوة واليقين، وهي معراج السمو إلى السماء، وهي التي تثبت الأقدام في المزالق، وتربط على القلوب في الفتن.

وأوصيكم بالرفق والأناة في أموركم كلها، وبخفض الجناح للناس كلهم، وباتقاء مواطن الشبه، واجتناب مصارع الفضيلة، وما أكثرها في وطنكم هذا، وبإجرار الألسنة عن مراتع الغيبة والنميمة، وفطمها عن مراضع اللغو واللجاج؛ فهي ـ لعمري ـ مفتاح باب الشر، وثقاب نار العداوة والبغضاء.

وأوصيكم بالابتعاد عن هذه الحزبيات التي نجم بالشر ناجمها، وهجم ـليفتك بالعلم والخيرـ هاجمها، وسجم على الوطن بالملح الأجاج ساجمها؛ إن هذه الأحزاب كالميزاب، جمع الماء كدراً، وفرّقه هدراً، فلا الزّلال جمع، ولا الأرض نفع.

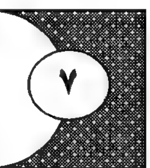
وأوصيكم بحسن العشرة مع بعضكم إذا اجتمعتم؛ وبحفظ العهد والغيب لبعضكم إذا افترقتم؛ إن العامة التي ائتمنتكم على تربية أبنائها تنظر إلى أعمالكم بالمرآة المكبرة؛ فالصغيرة من أعمالكم تعدها كبيرة، والخافتة من أقوالكم تسمعها جهيرة؛ فاحذروا ثم احذروا...

أي أبنائي! إن هذا القلب الذي أحمله يحمل من الشفقة عليكم، والرحمة بكم، والاهتمام بشؤونكم ما تَنْبَتُّ منه الحبال، وتنوء بحمله الجبال، وهو يرثي

لحالكم من الغربة، وإلحاح الأزمات ويودّ ـ بقطع وتينه ـ لو أزيحت عللكم، ورقع بالسداد خللكم، ولكنكم جنود، ومتى طمع الجندي في رَفْهَنِيَّة العيش؟ وأسود، ومتى عاش الأسد على التدليل؟ وهو يشعر أن التدليل تذليل.

إنكم ـ يا أبنائي ـ رجال حركة؛ فلا تشينوها بالسكون، وأبطال معركة؛ فلا يكن منكم إلى الهوينا ركون.

وإنكم رجال جمعية العلماء؛ فشرفوا جمعية العلماء.



كلمات واعظة لأبنائنا المعلمين الأحرار[1]
للشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي

(١)

أيها الأبناء الأعزة!

إن هذه الحركة العلمية المباركة أمانةٌ في أعناقنا جميعاً، وعهد إلهيٌّ محتم الوفاء علينا جميعاً، فنحن في تحمله وفي وجوب الوفاء به سواسية، ليس صغيرنا بأقل تبعةً ولا أخف حملاً من كبيرنا.

ونحن في تحمل هذه الأمانة وأدائها أمام ربٍّ يعلم ما نخفي من النيات وما نعلن من الأعمال، وأمام أمة تعين على الوسائل، وتنتظر النتائج، وتحاسب على ما بينهما، وأمام تاريخ لا يغادر سيئةً ولا حسنةً إلا أحصاها، وأمام خصوم أشداء يحصون الأنفاس؛ ليوقعوا العقوبة ويترقبون العثرة؛ ليعلنوا الشماتة؛ فلنحاسب أنفسنا قبل أن يحاسبنا الناس، ولنقدِّر موقع أقدامنا قبل أن نضع الأقدام، ولنجعل من ضمائرنا علينا رقيباً لا يغفل ولا يتسامح.

إننا نزيد عليكم ـ بعد الاشتراك في حمل الأمانة العامة ـ باستحكام التجربة، وعرك الأيام، وعجم الحوادث، والتَّمرُّس بالخصوم، والصبر على المكاره، والاستخفاف بالحساد الذين أكل الحسد أكبادهم، فما بالينا أطاروا أم وقعوا؛

---

(١) نشرت في العدد ١٣٢ من جريدة «البصائر»، ٩ أكتوبر سنة ١٩٥٠م، وانظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٣/ ٢٦٦ ـ ٢٦٩.

وملابسة الأمة على البر والجفاء، وعلى الإحلاء والإمرار، وعلى الخشونة واللين، وبأننا الغرض المنصوب للسهام؛ لأننا ـ دائماً ـ في مكان القيادة في الصفوف، فلا تصل الرمية إلى أحدكم إلا بعد أن نُثْخَن، ولا يبقى فينا موضع لسهم؛ فإذا رأيتمونا نَمَسُّكم بالشدة أحياناً، ونقسو عليكم في التثقيف فذلك لكي يخلص لنا من عشراتكم آحادٌ يخلفوننا في هذه الخلال إذا خلتْ أمكنتنا في المراكز الأمامية بعد أن يقطعوا من مراحل العمر ومقامات التدريب ما يؤهلهم لذلك.

أنتم في ميادين التعليم فرسان سباق، منكم المبتدي، ومنكم الشادي، وفيكم المغبر، وفيكم المتخلف، ولا يكشف عن جواهر الأصالة والعتق فيكم إلا هذه الأعمال التي واجهتكم في أطوار الحداثة والاقتبال، خيرةً من الله، فيها الخير واليمن، وتوجيهات منه، فيها السداد والنجح، وامتحاناً من زمنكم، فيه التربية والتمحيص، وفيه التمرس والاحتكاك؛ فإذا تكشَّف هذا الامتحان عن نتيجة صادقة كنتم غريبةً في الأجيال، وفلتةً في السنن.

وعذركم الشفيع في هذا التفاوت أنكم لستم أبناء مدرسة واحدة، تجمع وتوحد، وتقارب وتسدِّد، وأنكم لا ترجعون جميعاً إلى تربية منزلية، أحكمتها العادات الرشيدة، وأقرتها المصطلحات المفيدة؛ ولا إلى توجيه حكومي؛ يهيئكم للحياة، ويسوسكم بالمصلحة، ويروضكم على الرجولة، ويجمعكم على المنفعة.

وإنما أنتم أبناء زمن عقَّه آباؤكم؛ فعقكم، وأضاعوا حقه؛ فأضاع حقكم،

وتنكروا له فتنكر هو لكم؛ فما افترَّت شفاهكم له عن ابتسامة إلا قابلها بالتجهم، ولا أزلفتم إليه بتحقُّق إلا عاملكم بالتوهم، ولا مددتم إليه كفَّ رغبة إلا ردَّها بالحرمان.

أنتم - في وضعكم الاجتماعي - أبناءُ حياة ليس لكم في تسييرها يد، ووطن ليس لكم في أرضه مستقرّ، وجيل ليس لكم في تكوينه أثر، وتاريخ ليس لكم في تسطيره قلم، وقانون ليس لكم في وضعه شرْك، وحاضر ليس لكم في تدبير مستقبله رأيٌ؛ فجئتم على هذه الصورة التي لا تأتي إلا فترات من الزمن.

وأنتم - في وضعكم العلمي - أبناء مدارس[1]، وجودها في زمان، وروحها في زمان، فهي من يقظتها في حلم، وهي مع جدّة الزمان في قِدَم، وهي لا تعطي من الحياة إلا صورَها الميتة، وهياكلها العظمية، وألوانها الحائلة؛ هذه المدارس التي بنيت بإرشاد القرآن، فأصبحت وهي أبعد شيء عن القرآن، وهدْي القرآن، وخلق القرآن، بل لا يُبْعد من يقول: إنها أصبحتْ معاول لهدم القرآن؛ لأنها لم تخدم القرآن، بهذه العلوم التي قالوا: إنها خادمة للقرآن، فلم تزكِّ النفوس التي جاء القرآن لتزكيتها، ولم تهيئها لسعادة الدنيا، ولا لسعادة الآخرة، ولم ترفع العقل من درجة الحَجر إلى درجة الاستقلال في التعقل، ولم تصحح موازينه في إدراك الحياة وفِقْه أسرارها.

وليت شعري: هل صححت دراسةُ المنطق في هذه المدارس - بهذه الطريقة

---

(١) يشير إلى الحالة السيئة التي كان عليها التعليم الديني والعربي لأوائل هذا العهد، وربما يشير إلى ماكانت عليه أيام الاستعمار.

اللفظية العقيمة ـ إدراكات العقول ومقاييسها، كما صححت دراسته العلمية إدراكات القدماء أو كما صححت إدراكات المعاصرين لماضي الأمم الأخرى؟ وهل طابت هذه المدارس لأخلاق أبنائها الذين أذووْا زهرات أعمارهم فيها؟ وهل أفاضت البيان في قرائحهم وألسنتهم وأقلامهم؟

ليس الذنب في هذه الحالة الأليمة ذنبكم، وليست التبعة فيها واقعة عليكم. بل أنتم فرائس هذه الأخلاط القاتلة، وأنتم المجني عليكم لا الجناة، وإنما التبعة على الذين يملكون القدرة على التغيير، ثم لا يغيرون، وتواتيهم الفرص إلى الإصلاح، ثم لا يصلحون.

إن كثيراً منكم في حاجة إلى الاستزادة من التحصيل لو تيسرت لهم أسبابه، وانفتحت في وجوههم أبوابه، ولكنهم انقطعوا عن التعلم اضطراراً، فشغلناهم بالتعليم اضطراراً؛ لأن حالتنا جميعاً ـ وأمتنا معنا ـ حالةُ اضطرار لا اختيار معه، وحالة شذوذ لا قاعدةَ له، وإن التعليم لإحدى طرق العلم للمعلم قبل المتعلم، إذا عرف كيف يصرّف مواهبه، وكيف يستزيد وكيف يستفيد، وكيف يَنْفُذ من قضية من العلم إلى قضية، وكيف يخرج منه من باب إلى باب؛ فاعرفوا كيف تدخلون من باب التعليم إلى العلم، ومن مدخل القراءة إلى الفهم، وتوسعوا في المطالعة يتسع الاطلاع، ولا يصدنكم الغرور عن أن يستفيد القاصر منكم من الكامل، والكامل ممن هو أكمل منه.

إن حاجتنا إليكم هي أن تنقذوا هذا الجيل الناشئَ من الأمية التي ضربت بالشلل على مواهب آبائهم، وكانت نقصاً لا يعوَّض في إنسانيتهم، ثم كانت سبباً في كل ما يعانونه من بلاء وشقاء، وأن تحببوا إليهم العربية، وتزينونها في قلوبهم، وأن

تطبعوهم على التآخي والتعاون على الخير، وأن تربوهم على الفضيلة الإسلامية التي هي مناط الشرف والكرامة والكمال، وأن تأخذوهم بممارسة الشعائر الدينية صغاراً، حتى نأمن تضييعهم لها كباراً، وأن تزرعوا في نفوسهم حب العلم والمعلم، وحب الأب والأم، وحب بعضهم بعضاً، وحبَّ الله ورسوله والإسلام قبل ذلك ومعه وبعده.

لا يضيركم ضعف حظكم من العلم إذا وفر حظُّكم من الأخلاق الفاضلة؛ فإن أمتكم في حاجة إلى الأخلاق والفضائل؛ إن حاجتها إلى الفضائل أشد وأوكد من حاجتها إلى العلم؛ لأنها ما سقطت هذه السقطة الشنيعة من نقص في العلم، ولكن من نقص في الأخلاق.

أخشى أن تغيب عن بصائركم حقيقة ثابتة، وهي أنكم معلمون للصغار، وأئمةٌ للكبار، أولئك يأخذون من أخلاقكم وعلمكم، وهؤلاء يأخذون من أخلاقكم؛ فإذا راعيتم الجانب الأول، واعتقدتم أنكم معلمون للصغار ـ وحسبُ المعلم أن يؤدّي وظيفته أداءً آلياً، وأغفلتم الجانب الثاني فلم تبالوا بما يأخذه منكم استقامةً واعوجاجاً ـ كان ضركم أكثر من نفعكم؛ وإن الذي يلوح لي من تتبع أعمالكم، وتقصّي أحوالكم أن كثيراً منكم عن هذه الحقيقة غافلون.

يسوؤني أن أرى في كثير مما يرجع إليّ من شؤونكم هِنَاتٍ يهوّنها عليكم الترخص، واتساع مجال الإباحة، وتغضّون النظر عن عواقبها إذا استشرتْ، وسرَت عدواها من بعض إلى بعض، وأصبحت وسماً لكم وتعريفاً بكم، وتزنونها بمعانيها عندكم لا بآثارها في الأمة، مما يدخل في معنى «الاستهانة بشعور الأمة».

٨ كلمات واعظة لأبنائنا المعلمين الأحرار[١]

للشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي

(٢)

إن هذه الأمة ـ يا أبنائي ـ هي أمتنا، وهي رأس مالنا شئنا أو أبينا، وهي عوننا على العلم، وهي مدَدُنا وملاذنا، وهي نصرتنا ومعاذنا، وهي مناط قوتنا[٢]، ومظهر أعمالنا؛ فعلينا أن نراعي شعورها في غير واجب يترك، أو محرم يؤتى، وأن نسير بها إلى الغاية في رفق وأناة.

لا أقول لكم: سايروها على الباطل، وجاوروها في البدع، وواطئوها على الضلال؛ فذلك ميدانٌ وَقَفْنَا فيه قبلكم موقف المُنْكر المتشدّد، ونازلنا أبطال الباطل حتى زلزلنا أقدامهم، ونكسنا أعلامهم، وقد أرحناكم ومهدنا لكم السبيل.

وإنما حديثنا فيما دون ذلك، مما مرجعه العادة لا الدين، وسبيله العرف لا السنة، ودرجته الكمال لا الضرورة.

ولنا في نبينا ﷺ القدوة الحسنة؛ فقد كان يجاري العرف الجاري ما لم يناقض عقيدة دينية أو حكماً شرعيّاً، وإذا توقف إصلاح الأمة على هجر الشهوات،

---

(١) نشرت في العدد ١٣٣ من جريدة «البصائر»، ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٥٠م، وانظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٣/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢.

(٢) لو قال: بعد الله (م).

والإمساك عن بعض المباحات فمن الواجب أن يقدم حظ الأمة على حظ النفس.

أنتم جنود العلم، ولكلمة «جندي» معنى يبعث الروعة، ويوحي بالاحترام، ويجلب الشرف، ويُغلي القيمة؛ لأنه في غاية معناه حارس مجد، وحافظ أمانة، وقيّم أمة؛ لذلك كان من واجبات الجندي الصبر على المكاره واللزبات، والثبات في الشدائد والأزمات، والسمع والطاعة فيما يغمض على الأذهان فهمه من العلل، ويعسر على العقول هضمه من الحكم؛ فإذا استرسل الجندي في الجزع والشكوى، أو خانه الصبر فلاذ بالضجر أخطأ النصر، وضاع الثغر.

وإنما أنتم حراس دروب، ومُرابِطَةُ ثغورٍ؛ فاصبروا واثبتوا، وقد كفيناكم سداد الرأي؛ فهاتوا سداد الإرادة، وسداد العمل.

وأنتم ممثلو جمعية العلماء في ناحية من أهم أعمالها، وهي التربية والتعليم، فكل واحد منكم صورة مصغرة من الجمعية في نظر الأمة، وجمعية العلماء هي رمز الدين الصحيح، وهي حارس الفضيلة الإسلامية، وهي المثال المفسر للحكمة المحمدية بأحسن تفسيراتها، وهي المثل المضروب في مقاومة الباطل والمبطلين، وهي مظهر القدوة الدينية اعتقاداً وعملاً؛ فهي ـ لذلك كله ـ ملءُ سمع الأمة وبصرها، وهي الأريج المتضوّع بسمعة الجزائر في العالم الإسلامي؛ فكونوا ـ في مظهركم ومخبركم ـ أمثلة صحيحة منها، واعلموا أن كل زلة منكم ـوإن صغرتـ محسوبةٌ على جمعية العلماء، منسوبةٌ إليها.

وفي وطنكم موجة من الإلحاد، جاءت في ركاب الثقافة الغربية، ومكّن لها

القصد الصحيح من غايات الاستعمار، ومهد لها في نفوس هذا الجيل جهله بحقائق الإسلام، وضعف صلته بالله.

وإنّ تساهلكم في إقامة شعائر الدين، أو استخفافكم بأحكامه معين على تفشي الإلحاد في الجيل الجديد الذي تقومون على تربيته؛ فاحذروا الظهور بمظهر المستخف بالدين، ولو في فلتات اللسان؛ فإن لكل فلتة، ولكل كلمة تصدر منكم أثراً في نفوس تلاميذكم؛ لأنكم محل القدوة عندهم، ولأن زمنهم يتبرع بالباقي، فإذا وجد العون منكم كان أجود بالشر من الريح المرسلة.

وفي زمنكم عارض من انحلال الأخلاق؛ بعض أسبابه في الواجدين الاسترسالُ في الشهوات، وبعض أسبابه في المعدمين التشوّفُ إليها، وأكبر أسبابه في الجميع الاستعمار وأساليبه في علاج المرض بالموت، وغسل النجيع بالرجيع؛ فعالجوا هذا الداء قبل حلوله في نفوس الصغار بتقوية العزائم والإرادات فيهم، وبتعويدهم الصوم عن الشهوات، وبتحبيب العمل إليهم، حتى إذا انتهوا إلى الحياة العملية اقتحموا ميادينها بنفوس غير نفوسنا، وهمم غير هممنا، وعزائم غير عزائمنا، وإرادات غير إراداتنا، وقدرة على كبح الغرائز الشهوانية غير قدرتنا.

أنتم حراس هذا الجيل الجديد، والمؤتمنون عليه، والقوَّامون على بنائه، وأنتم بناة عقوله ونفوسه؛ فابنوا عقوله على أساس من الحقيقة، وابنوا نفوسه على صخرة من الفضائل الإنسانية، وأشربوه عِرْفانَ قيمتها؛ فإن من لم يعرف قيمة الثمين أضاعه، وقد غُبِنَتْ هذه القيم في عصركم فكان ما ترون من فوضى واختلاط.

ربوهم على ما ينفعهم، وينفع الوطن بهم؛ فهم أمانة الوطن عندكم، وودائع

الأمة بين أيديكم.

ربوهم على التحاب في الخير، والتآخي في الحق، والتعاون على الإحسان، والصبر إلا على الضيم، والإقدام إلا على الشر، والإيثار إلا بالشرف، والتسامح إلا بالكرامة.

ربوهم على استخدام المواهب الفطرية من عقل وفكر وذهن، وعلى صدق التصور، وصحة الإدراك، ودقة الملاحظة، والوقوف عند حدود الواقع.

هناك حدود مشتركة بين الضار والنافع من أعمالكم؛ فتبينوها ثم اعملوا على قدرها، ولا تجاوزوا حدًّا إلى حد؛ فتضروا من حيث قصدتم إلى النفع؛ فمدح المجتهد من تلامذتكم مُذْكٍ للنشاط، كما هو مدعاة إلى الغرور، والفصل بينهما رهينُ لفظةِ مدحٍ مقدرة أو مبالغ فيها منكم؛ ولأن تخمدوا نشاطاً خيرٌ من أن تشعلوا غروراً في نفس التلميذ؛ إن النشاط قد يعاود، ولكن الغرور لا يزايل، وإن الغرور لأعضل داء في عصركم، وإن صنفكم لأكثر الأصناف قابلية لهذا الداء، لما فيه من إيهام بالكمال في موضع النقص، وتمويه للتخلف بالتقدم، وتغطية للسيِّئ بالحسن.

وهذه مَحسَّات الغرور في نفوس المغرورين، والغرائز ضارية، والتجارب فضّاحة، والصراع بينهما كان ولا زال ولا يزول؛ فاحذروا الزلة في هذا المزلق، وحذّروا تلامذتكم منها بالقول والعمل.

ربوهم على بناء الأمور على أسبابها، والنتائج على مقدماتها علماً وعملاً، واعلموا أن العلم يبدأ مرحلته الأولى من هذه البسائط التي تقع عليها حواسكم

في الحياة كل لحظة؛ فتحتقرونها، ولا تلقون لها بالاً مع أن مجموعها هو العلم إذا وجد ذهناً مُحَلِّلاً، وهو الحياة إذا وجدت عقلاً مفصِّلاً.

بيِّنوا لهم الحقائق، واقرنوا الأشباه بالأشباه، واجمعوا النظائر إلى النظائر، وبيِّنوا لهم العلل والأسباب، حتى تنبت في نفوسهم من الصغر ملكة التعليل؛ فإن الغفلة عن الأسباب هي إحدى المهلكات لأمتكم، وهي التي جرّت لها هذه الحيرة المستولية على شواعرها، وهذا التردد الضارب على عزائمها، وهذا الالتباس بين المتضادات في نظرها.

امزجوا لهم العلم بالحياة، والحياة بالعلم يأتِ التركيبُ بعجيبة، ولا تعمروا أوقاتهم كلها بالقواعد؛ فإن العكوف على القواعد هو الذي صير علماءنا مثل «القواعد»، وإنما القواعد أساس، وإذا أنفقت الأعمار في القواعد فمتى يتمّ البناء؟

ربوهم على أن يعيشوا بالروح في ذلك الجو المشرق بالإسلام وآدابه وتاريخه ورجاله، ذلك الجو الذي يستوي ماضيه ومستقبله في أنهما طرفا حقٍّ لا يشوبه الباطل، وحاشيتا جديدٍ لا يبليه الزمن، وعلى أن يعيشوا بالبدن في هذا الزمن الذي يدين بالقوة، ويُدِلّ بالبأس، وعلى أن يعيشوا بالروح في ذلك الزمن المشرق العامر بالحق والخير والفضيلة، وعلى أن يلبسوا لبوسَ عصرهم الذي يبني الحياة على قاعدتين: «إن لم تكن آكلاً كنت مأكولاً»! و«كن قويًّا تحترم».

ثالثاً: مقالات في الأخلاق والمروءات والسلوك

٩ـ **السمو الخلقي في الإسلام**: للعلامة محمد الخضر حسين

١٠ـ **العزة والتواضع**: للعلامة محمد الخضر حسين

١١ـ **الأمانة**: للشيخ علي الطنطاوي

١٢ـ **الأخلاق**: للعلامة محمد الخضر حسين

١٣ـ **الانتحار**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

١٤ـ **نداء مصدور**: للأستاذ محمود محمود

١٥ـ **الحسد**: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

١٦ـ **جيل يؤمن بالأخلاق**: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٩ السمو الخلقي في الإسلام[1] للشيخ محمد الخضر حسين

جاء الإسلام ليحرز به الناس في الدنيا مدنية فاضلة، ويغنموا به في الآخرة سعادة خالصة، وكان من مقتضيات هذا المقصد الأسمى أن تشتمل تعاليمه على نظمٍ لصلة المخلوقين بالخالق - جلَّ شأنه - وهي أحكام العبادات، ونظمٍ لصلة الإنسان بأخيه الإنسان وهي أحكام المعاملات، ونريد من المعاملات ما يشمل القضاء وتدبير السياسة.

وحيث كانت العبادات والمعاملات لا تجري على وجه صحيح منتظم إلا أن تصدر عن آداب نفسية نبيلة راسخة - كان من حكمة الدعوة أن تعنى بتهذيب الأخلاق، ولا تكتفي بتقرير أحكام الأفعال التي هي مناط التكليف.

وبهذا أخذ النظر في الأخلاق والآداب النفسية من علوم الشريعة مكاناً واسعاً.

وإذا نظرنا إلى الأخلاق التي تساعد على القيام بالواجبات العملية، وجدناها ترجع إلى الحلم، والسخاء، والشجاعة، والحياء، وصدق اللهجة، والصبر، وعزة النفس، والتواضع، وكبر الهمة، والوفاء بالعهد، والزهد، والعدل، والأمانة.

وليس من غرضنا الليلة أن نتحدث عن هذه الخصال مثلما يتحدث عنها علماء النفس بتفصيل، إذ يتعرضون للبحث عن حقائقها، ويقسمونها إلى

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية الجزءان السادس والثامن من المجلد السابع عشر، وانظر محاضرات إسلامية ص١٦٨ - ١٧٦.

أصول وفروع، ويذكرون ما بين فروعها من مناسبات أو فروق، ويدلون على الآثار المترتبة عليها، ويصلون حديثهم بالبحث عن كيفية تربية النشء عليها ـ كان هذا التفصيل يستدعي تخصيص كل خصلة منها بمحاضرة على أقل تقدير.

والذي أستطيعه في هذا المقام إنما هو إلقاء نظرة على هذه الآداب، أقصر فيها القول على ناحية ارتباط الهداية الإسلامية بها، وتنبيهها على سمو مكانتها، وحثها الناسَّ على التجمل بِحِلْيتها؛ حتى يزداد شبابنا علماً بأن الدين الحنيف قد أتى إلى الأخلاق وهي الأساس الذي تقوم عليه سعادة الأمم؛ فهذبها وأرشد إليها على طريقة أقرب إلى العقول، وأدعى إلى العمل عليها من الطرق التي سلكها الفلاسفة.

أما الحلم الذي هو ضبط النفس عن أن يهيجها الغضب بسهولة وسرعة ـ فقد ذكره القرآن المجيد في صفات المؤمنين بحق فقال ـتعالىـ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ فإن عقب هذه الطمأنينة ترك المؤاخذة على الإساءة، فذلك العفو المشار إليه بقوله ـتعالىـ: ﴿وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ﴾ آل عمران: ١٣٤.

فطمأنينة النفس عند الإساءة بحيث لا يحركها الغضب بسهولة كمال في نفسها، فإن انضم إليها ارتياح النفس لعدم المؤاخذة على الذنب كان الكمال مضاعفاً.

ووجه ارتباط خلق العفو بما دعا إليه الإسلام، هو أن من مقاصد الدعوة تكوين أمة مؤتلفة القلوب، متعاونة على البر والتقوى.

ولا يمكن تحقيق هذا القصد إلا أن تنتفي أسباب التجافي والتقاطع.

وحيث كانت الجماعات الكبيرة لا تخلو من أن يتعرض طائفة لطائفة بمكروه من قول أو فعل ـ كان من الآداب التي عنيت بها دعوة الإسلام الإغضاء عن أمثال هذه الهفوات، وشمولها بالعفو.

وللحلم بمعنى عدم إظهار الغضب أثر عظيم في نجاح السياسة:

ولربما ابتسم الكريم من الأذى   وفؤاده من حَرِّه يتأوه

وقد عد الحلم بمعنى الإغضاء عن بعض الزلات في مقتضيات السياسة الرشيدة، قال في وصف سياسة أميره:

أناةٌ فإن لم تُغْنِ عَقَّب بعدها   وعيداً فإن لم يُغْنِ أغنت عزائمه

وفي عهد ذوي الحلم والأناة من رجال الدولة يجد المصلحون مجال الدعوة أمامهم فسيحاً؛ فيعملون في طمأنينة وثقة من إدراك أسمى المقاصد وأحمد العواقب.

وأما السخاء: فإن من مقاصد الشريعة سد حاجات الفقراء وإعانتهم على القيام بتكاليف الحياة، ومن أجل هذا فَرَضتْ الزكاة، ونَدَبَتْ إلى الصدقات، وقررت بعد هذا على الرجل حقوقاً مالية كالإنفاق على الزوجات والأبناء وبعض ذوي القربى؛ فلا جرم أن يعنى الإسلام بتطهير النفوس من رذيلة الشح وتَحْلِيَتِها بفضيلة السخاء، حتى إذا ورد الأمر بالإنفاق في وجه من الوجوه سارعت إلى امتثاله عن طيب خاطر، وجاءته كأنما تَنْحَطُّ من صَبَب.

ولا أكون مخطئاً إذا قلت إنّ من أسباب العاقبة السيئة التي سار إليها كثير من الشعوب الإسلامية انقباضَ الأيدي عن البذل في سبيل الله.

لم يكتف الشرع الحكيم من المسلم أن ينفق من فضل ماله، بل مدحه بأعلى مراتب السخاء وهو أن يؤثر غيره بالنوال وهو في حاجة إليه فقال ـتعالى ـ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ الحشر: ٩.

وأما الشجاعة فنوعان: شجاعة حربية: وهي بذل النفس في سبيل الدين أو العرض أو المال.

وشجاعة أدبية: وهو إقدام الرجل على إسماع ذي سلطان كلمة الحق من أمر بمعروف أو نهي عن منكر، من غير مبالاة بما يلحقه من أذى السلطان، وكلتا الشجاعتين شملها الإسلام بعناية كبيرة.

أما الشجاعة الحربية: فقد أمر الرجل الواحد من المسلمين بأن يقف في مشاهد القتال لرجلين اثنين من المخالفين المهاجمين، وجعل الفرار من الزحف كبيرة موجبة لغضب الله ـتعالى ـ وإنما جزاؤها يوم القيامة الحرق بالنار.

وأما الشجاعة الأدبية: فقد جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات الإيمان، ولا يختص هذا الواجب بعلماء الدين الرسميين، ولا بالعلماء المتميزين بزي خاص، بل هو فريضة في عنق كل مسلم تُرِكَ أمامه معروفٌ، وهو يعلم أنه معروف، أو فُعِل أمامه منكرٌ وهو يعلم أنه منكر.

وقد تكلم الفقهاء المحققون عن هذه الفريضة بما يشبه[1] غليل الباحث، وأذكر هنا أن الإمام عرفة أفتى بأن خوف العزل من الوظيفة ليس بعذر يجيز ترك النهي عن المنكرات.

---

(١) لعلها: يشفي (م).

فكل مسلم مطالب بأن يكون جامعاً للفضيلتين: الشجاعة الحربية، والشجاعة الأدبية ما استطاع.

ومن عرف أن الأمة لا تقع تحت سلطان أجنبي غاشم إلا بفقدها للشجاعة الحربية، وأن الفسوق والبغي لا ينتشران بين بيوتها إلا بفقدها للشجاعة الأدبية- أدرك سر عناية الشرع الحكيم بهاتين الفضيلتين.

وأما الحياء: وهو انفعال في النفس يمنع من ارتكاب ما لا يليق فقد كانت عناية الدين به شديدة، حتى جعله ـ عليه الصلاة والسلام- شعار الإسلام، فقال كما ورد في الصحيح: «**لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء**».

وفَضْلُه في أن يكون معتدلاً واعتداله في أن يمنع من ارتكاب ما لا يليق، ولا يتجاوزه إلى الإحجام عما يكون بعيداً.

وقد نبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى أن النفس التي تفقد هذا الخلق لا يُؤَمَّل منها أن تكون على رشد أو عفاف فقال: «**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**».

ولعلكم شعرتم كما شعرتُ أن كلمة الحرية تجري على ألسنة أشخاص لايدركون كنهها ولا يضعونها موضعها ـ قد أنقصت جانباً من الحياء في نفوس بعض أبنائنا، فنجد في شبابنا من لا يبالي أن يقول أو يفعل بحضرة والديه أو المتقدمين في السن من أقاربه أو غيرهم ما لا يقبله الذوق الأدبي؛ بزعم أنه من مقتضيات الحرية في هذا العصر!.

والواقع أن الحياء حلية يزداد بها الشيخ وقاراً، والشاب كياسة، وإني لمن يرى للأب أن يفسح المجال لابنه في أن يتكلم بحضرته في شؤون دنيوية، أو

مسائل علمية؛ حتى يتمرن تحت إشرافه على إبدائه الآراء الصائبة ومناقشتها، وله متى رآه قد حاد عن أدب الحياء بكلمة أو حركة أن ينبهه برفق، ويعظه بحكمة.

وأما صدق اللهجة: فله أثر كبير في شرف النفس، وانتظام الشؤون المدنية؛ فإن من جُرِّب عليه الكذب يكون محتقراً بين الناس، مزدرىً به في مجالسهم، ولا يمكنه أن يدرك بينهم ولو أدنى مرتبة من مراتب السيادة.

ثم إن ظهور هذا الخلق عليه يفسد عليه أمر المعاملات، ويجعل روايته وشهاداته مطروحة إلى وراء؛ فلا جَرَمَ أن يُعنى الدينُ الذي جاء لإصلاح حال الأفراد والجماعات بفضيلة الصدق، ويُحَرِّم الكذب تحريماً لا هوادة فيه، حتى أن النبي ﷺ قد جعل الكذب في الدرك الأسفل من الرذائل، ونبه على أنه لا يجتمع مع الإيمان الصحيح في نفس واحدة.

روى مالك في كتاب الموطأ، أنه قيل لرسول الله ﷺ: «**أيكون المؤمن كذاباً؟ فقال: لا**».

وأما الصبر: فيراد به طمأنينة النفس، والتزامها السكينة، عند حصول مكروه من نحو ضياع مال، أو فقد عزيز، ويراد منه الثبات في طلب الأمر المحمود، واحتمال المشاق التي تعترض في سبيله، ومنه الصبر على الطاعات، ويراد منه كف النفس عن اتباع الشهوات وارتكاب المحظورات، ومنه الصبر عن المعصية.

وكل من هذه المعاني الثلاثة مبني على فضل وافر، وعقل رصين؛ إذ لا يصبر عند مفاجأة المصيبة، أو عند السعي إلى غاية حميدة، أو عند طغيان الشهوات ـ

إلاَّ الراسخون في العلم بمصادر الأمور وعواقبها، ومن هنا كان الصبر بمعانيه الثلاثة في مقدمة الأخلاق التي شملها الإسلام برعايته.

ومن مزايا الصبر أن يساعد الإنسان على الاقتصاد في معيشته، ويحميه من أن يقع في غم الدَّين ومذلته.

وأما العزة: وهي أن يعرف الإنسان قدر نفسه ولا يرضى لها أن تمس بإهانة.

فإن من مقاصد الشريعة أن تتمتع الأمة بحياة طيبة، ولا حياة طيبة مع احتمال الذلة؛ ومن مقاصدها أنْ تكون الأمة دولة قوية السلطان، مهيبة الجانب.

وخلق العزة هو الذي يمنعها من أنْ تخفض جناحها لمن يريد أن يسومها ضيماً، وخلق العزة يدعو الإنسان إلى تجنب كل ما قد يجره إلى مهانة؛ فقد ينبه الموظف لأن يقوم بالمهمة التي تناط به؛ كراهة أن يسمع عتاباً جافياً من رئيسه المسؤول عنه، وخلق العزة يتجه بالإنسان القادر على العمل إلى أن يعمل ويصرفه عن التشوف إلى ما في أيدي الناس.

وأما التواضع: فهو أن يكون الإنسان عارفاً بقيمة نفسه في فضل أو علم، ويسير مع الناس سيرة نقية من الكبر والإعجاب بالنفس.

وبمثل هذا تتأكد روابط الألفة بينه وبين الطبقات الكثيرة من الناس.

والقرآن الكريم يسمي التواضع بخفض الجناح، قال ـتعالىـ: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الشعراء: ٢١٥.

وقال في التواضع للوالدين: ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ ﴾.

وإنما يتواضع الإنسان لمن يَقْدُره قَدْرَه، ويَعُدُّ خفضَ جناحه له مِنْ سماحة

نفسه:

تواضع لمن إن تواضعت له يرى ذاك للفضل لا لِلْبله
وجانب صداقةَ مَنْ لا يزالُ على الأصدقاء يرى الفضل له

وأشار أحد الشعراء إلى أن في الناس من يخطئ في فهم بعض ما يتحلى به أهل الفضل من التواضع كما يخطؤون في فهم بعض ما يتجملون به من العزة فقال:

وفي الناس من عدَّ التواضع ذلة وعدَّ اعتزاز النفس من جهله كبرا

وأما كبر الهمة: فهو الخلق الذي يطمح به الإنسان إلى أغراض بعيدة المرمى، فيكون اتجاهه دائماً إلى أشرف الأعمال وأرفع المنازل، ولا يرضى صاحبه بأدنى الأعمال أو المراتب وهو قادر على ما فوقها:

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم
له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

والإسلام يحث على هذا الخلق النبيل؛ فإن الفتوحاتِ العظيمةَ والمشروعاتِ الجليلةَ والعبقريةَ والعلومَ إنما هي آثار الهمم الكبيرة؛ فابن حزم عندما ترك الوزارة حتى ينقطع للازدياد من العلم إنما فعل ما فعل منساقاً بكبر همته.

وأما الوفاء بالعهد: فمن أعز الأخلاق التي رفع الإسلام شأنها، وشدد الوعيد على الإخلال بها، فأوجبه على الأفراد لتهذيب نفوسهم وإصلاح معاملاتهم، وأوجبه على رجال الدولة؛ لتثق الدول بمعاهداتهم، ويستقيم أمر سياستهم، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ النحل: ٩١.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

التوبة: ٤.

وقد نهى الدين المسلم أن يقول قولاً ثم لا يعقبه بالنفاذ، وعدَّ هذا من موجبات المقت عند الله، قال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ الحشر: ٢.

ويدخل في الوفاء بالعهد الوفاء بالوعد مع القدرة على الوفاء، وهذه الآية الكريمة شاهدة على وجوب الوفاء بالوعد؛ إذ أصبح الموعود به من الخير حقاً من حقوق الموعود، وإخلافه كأنه اعتداء عليه.

ويتصل بالوفاء بالعهد أدب آخر يسمى حسن العهد، وهو أن يرعى الإنسان حقوق الصداقة والعشرة فيحافظ عليها، وإن حصلت بينه وبين صديقه فرقة أو تغيرت حاله من يسر إلى عسر.

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم في الموضع الخشن

وروي في الصحيح أن النبي ﷺ دخلت عليه امرأة فهشَّ إليها وأحسن السؤال عنها، ولما خرجت، قال: «**إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان**».

وأما الزهد: فمعدود في آداب النفس التي استحبتها الشريعة، وأثنت على المتجملين بها، **وهو استصغار شأن المال والملاذ والزينة، وعدم تعلق القلب بها تعلقاً يتساهل معه الإنسان في أن يصل إليها ولو من طريق غير مشروعة.**

وهو بهذا المعنى يساعد على خلق العزة، وخلق السخاء، وخلق العفاف.

وقد أساء بعض الناس فهم الزهد الذي هو أدب رفيع، ووصفوا به الشخص

الذي يترك العمل لكسب الرزق وهو قادر عليه، ويرضى أن يكون في زمرة الفقراء الذين يتناولون أقواتهم من أيدي الأغنياء.

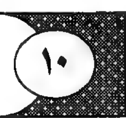
وأما العدل: فهو خلق يدعو الإنسان إلى أن يعطي كل ذي حق حقه، وأكثر ما يظهر فضله في القضاء بين المتنازعين، وهو خلق لا يُحْكِمُه إلا من جمع فضائل شتى؛ من نحو الشجاعة الأدبية، وعزة النفس، وقلة الحرص على المنافع المادية.

وقد ورد الأمر بالعدل في آيات قرآنية وأحاديث نبوية، وعرض النبي ﷺ أصناف الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة، وذكر في صدرهم الإمام العادل.

وأما الأمانة: وهي الخلق الذي يرعى به الإنسان ما يؤتمن عليه من مال أو عمل ـ فقد حَفَّتْها الشريعة بعناية بالغة، وحرمت على الإنسان أن يتصرف فيما يوضع تحت يده على وجه الوديعة أو العارية أو الإجارة إلا بالمقدار الذي يسمح به مالكه، كما أمرته بحفظ ما يناط بعهدته من عمل، ويدخل في هذا إتقان الصناعة، وحسن تدبير السياسة، والنصح في التعليم؛ فمن غش في صنع شيء لحريفه[1]، ومن لم يحسن تدبير السياسة فهو خائن لأمته، ومن لم يسر في التعليم على أقرب المناهج، وأغزرها فائدة فهو خائن لتلاميذه.

---

(١) لعلها: لحليفه.



١٠ العزة والتواضع[1] للشيخ العلامة محمد الخضر حسين

سَهْلٌ على الإنسان أن يدرك معنى الفضيلة في صورة مجملة، بل سهل عليه أن يتعرف ما هي الفضائل بتفصيل.

وإنما العُسْر في أخذ النفس بها، والسير في معاملة الناس على قانونها.

وعُسْرُ العمل على الفضيلة مع تصور مفهومها، والشعور بحسن أثرها يجيء من ناحية الشهوات التي قد تطغى؛ فتطمس على البصائر، وتكاد تُحوِّل معرفتها للخير إلى جهالة عمياء.

وقد يؤخذ الدارس للأخلاق من ناحية ضعفه في تطبيق الأعمال على ما تقتضيه أصول المكارم؛ ذلك لأن علم الأخلاق يشرح الفضيلة، ويبين ما بينها وبين الأخلاق الأخرى من صلة، وينبه على ما لها من آثار حميدة، ولا يتعرض لمظاهر الفضيلة مظهراً فمظهراً، ولا لمواضع الأخذ بها موضعاً فموضعاً، بل يكل ذلك إلى اجتهاد الشخص ونباهته.

وحدود الفضائل تقع بمقربة من أخلاق مكروهة، وهذه الحدود في نفسها واضحة جلية، إلا أن تميز ما يدخل فيها مما هو خارج عنها، يحتاج إلى صفاء فطرة، أو تربية تساس بها النفوس شيئاً فشيئاً.

وكثيراً ما يتشابه على الرجل لأول النظر أمور، فلا يدري أهي داخلة في الفضيلة أم هي خارجة عن حدودها، وربما سبق ظنه إلى غير صواب، فيخال ما

---

(١) رسائل الإصلاح ١ / ١٢٤ ـ ١٣٠.

هو من قبيل الفضيلة مكروهاً فيدعه، أو يعيب غيره به، أو يخال ما هو من قبيل المكروه فضيلة فيرتكبه، أو يمدح غيره عليه.

وهذا الشأن يجري في خلقي العزة والتواضع.

فعزة النفس تمتاز في الأذهان عن الكبرياء امتياز الصبح من الدجى؛ إذ العزة ارتفاع النفس عن مواضع المهانة، والكبرياء استنكاف النفس أن تأتي صالحاً؛ بِتَخَيُّلِ أن ذلك العمل لايليق بمنزلتها، أوتعظُّمها عن أن تجامل ذا نفس زكية؛ بزعم أَنه غيرُكفءٍ لها.

ويقابل العزة الضعة، وهي إن انحدار النفس في هُوَّة المهانة، **ويقابل الكبرياء التواضع**، وهو إذعانها للحق ونظرها إلى ذى النفس الزاكية أو المستعدة لأن تكون زاكية نظر احترام أو عطف وإشفاق.

والفرق بين حقائق هذه الأخلاق سهل المأخذ، ولا يكاد يخفى أمره على عامة الناس فضلاً عن خواصهم، ولكن أحوالاً تعرض للرجل؛ فيخفي فيها الوجه الذي يدعو إلى مظهر الرفعة، فيُعد مستكبراً، أويخفي فيها الوجه الذي يدعو إلى التواضع، فيعد صاغراً.

وفى الناس من عد التواضع ذلة وعد اعتزاز النفس من جهله كبرا

وقال رجل للحسن بن علي: إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً، فقال: ليس بتيه ولكنه عزة، وتلا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموي بالأندلس لابنه المنذر: «إن فيك

لتهياً مفرطاً، وإن العيون تَمُجُّ التَيَّاه، والقلوب تنفر عنه، فقال المنذر: إن لهذا السلطان رونقاً يريقه التبذل، وعلواً يخفضه الانبساط، ولايصونه إلا التيه والانقباض».

ثم ذكر أناساً يعدون تواضع الرجل صغراً، وتَخَفُّضَه خسةً، فقال له عبدالرحمن: ابق وما رأيت.

فوزن المعاملات الخاصة وإلحاقها بإحدى خصلتي العزة أو التواضع، أو طرحها إلى الكبرياء أو المهانة ـ يرجع إلى اجتهاد الشخص نفسه.

وهذا لايمنع غيره الذي عرف من سر المعاملة ما عرف من علانيتها أن ينقدهم، ويصف صاحبها بأنه عزيز النفس أو متواضع، أويحكم عليه بأنه متكبر أو متصاغر.

في عزة النفس فوائد تعود على الشخص نفسه، منها ارتياح ضميره، وسلامته من ألم الهوان الذي يلاقيه من لايحتفظ بكرامته، ثم مايلقيه هذا الخلق على صاحبه من مهابة ووقار، وإحرازِ مكانةِ احترامٍ في النفوس مما تنشرح له صدور العظماء.

وإنما عيب الرجل في أن يجعل هذه المكانة غايته المنشودة، أو يتخذها حِبَالَةً لاصطياد مآرب لايتعداه نفعها.

ولهذه الخصلة آثار صالحة في الاجتماع؛ فإن الأمة التي تشرب في نفوسها العزة يشتد فيها الحرص على أن تكون مستقلة بشئونها، غنية عن أمم من غيرها، وتبالغ في الحذر من أَنْ تقعَ في يَدِ مَنْ يطعن في نحر كرامتها، ولا يستحيي

الإنسانيةَ أن تراه مهتضماً لحقوقها.

ومن عناية الإسلام بأدب العزة أنه بنى كثيراً من أحكامه العملية على رعايتها، كما منع القادر على الكسب من بسط كفه للاستجداء إذ كان في استجدائه إراقة لماء وجهه بين يدى من تكون يده هي العليا.

قال ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله، فيسأله أعطاه أو منعه».

وسن الهجرة من بلد لايرفع فيها الإسلام لواءه إلى بلد تخفق عليه رايته وتقام فيه أحكام شريعته، قال ـتعالى ـ: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً﴾.

وشرع الذود عن الأوطان وحمايتها من أن يكون للخصوم عليها سيطرة؛ إذ لا نصيب لجماعة المسلمين من سيطرة غير المسلم إلا العسف والإرهاق.

ومن الأحكام القائمة على رعاية العزة، أن التبرعات لاتتقرر إلا بقبول المتبرع له؛ فلو وهب شخص لآخر مالاً لم تنعقد الهبة إلا أن يقبلها الموهوب له؛ إذ قد يربأ به خلق العزة عن قبولها؛ كراهة احتمال منّتها، والمنة تصدع قناة العزة؛ فلا يحتملها ذوو المروآت إلا في حال الضرورة، ولاسيما مِنَّة تجيء من غير ذي طبع كريم، أو قدر رفيع.

والعلماء الذين كانوا لايقبلون عطايا ولاة الأمور يريدون الاحتفاظ بكامل عزتهم؛ حتى يكون موقفهم في وعظ أولئك الولاة إذا حادوا عن الرشد موقف الناصح الأمين.

ومن هذه الأحكام شرط الكفاءة في النكاح؛ ذلك لأن في تزوج الرفيعة بمن هو دونها امتهاناً لقدرها، وغضاً من كرامة أوليائها؛ فجعل للمرأة وأوليائها الحق في الممانعة من تزويجها بمن لايكافئها، وإنما اختلف الفقهاء في تحديد الكفاءة، كما هومقرر في كتب الأحكام.

وقد عَرَفَ الفقهاءُ أن الشريعة تراعي في أحكامها حق العزة فقالوا: إن المسافر يقبل هبة الماء للوضوء ولا يتيمم؛ إذ لايُمتن بمقدار ما يتوضأ به من الماء عادة، ولم يلزموه قبول هبة ثمن الماء، وأجازوا له التيمم؛ إذ كان في هبةالثمن منة، والمنة تورث شيئاً من الذلة.

وعلى هذا النحو جرى الإمام الغزالي؛ إذ جعل خشية الإهانة مسقطة لوجوب النهي عن المنكر، وموضع هذا أن يعرف العالم أن نهيه لا يجدي نفعاً، ويزيد على عدم جدواه بأن يسومه أولئك المبطلون أو الفاسقون خسفاً.

أما إذا كان يرجو مما يقوله أو يكتبه فائدة فاحتمال الأذى في سبيل العمل الصالح عزة لا تُطَاولها عزة.

ومدح الإنسان نفسه رعونة، فإذا مسه أحدٌ بازدراء فإن علم الأخلاق يسمح له بأن يذود عن عزته، ويقول كلمة ينبه بها على مكانته.

وَفَدَ أبو الفضل بن شرف إلى المعتصم أحد أمراء الأندلس في زي تظهر عليه البداوة، وأنشد قصيدته التي يقول في طالعها:

مطل الليل بوعد الفلق ... وتشكّى النجم طول الأرق

فاهتز المعتصم لسماعها طرباً، فحسد أبا الفضل من الحاضرين ابن أخت

غانم، وقال له: من أي البوادي أنت؟ فقال أبو الفضل: أنا من الشرف في الدرجة العالية، وإن كانت البادية عليّ بادية، ولا أنكر خالي، ولا أُعَرِّف بحالي؛ فا نقبض ابن أخت غانم خجلاً.

وأما التواضع وهو بذل الاحترام، أو العطف والمجاملة لمن يستحقه ـ فهو خلق يكسب صاحبه رضا أهل الفضل من الناس ومودتهم، وهو الطريق الذي يدخل بالشخص في المجتمع، ويكون به عضواً ملتئماً مع سائر الأعضاء التي يتألف منها جسد نسميه الأمة؛ فالتواضع أنجح وسيلة إلى الائتلاف والاتحاد اللذين هما أساس التعاون على مرافق الحياة وجلائل الأعمال.

قال الله ـ تعالى ـ يدعو رسوله الكريم إلى هذا الخلق العظيم: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

يستكبر الأغبياء؛ ظناً منهم أن في الاستكبار رفعة، والحقيقة أن ابتغاء الرفعة من طريق التواضع أنجح من التوصل إليها بطريق التجبر والغطرسة؛ فالتواضع الحكيم يورث المودة، ومن عمر فؤاده بمودتك امتلأت عينه بمهابتك.

وأحسن مقرونين في عين ناظر جلالة قدر في خمول تواضع

قد يراك الرجل وأنت تؤدي حق الاحترام إلى رجل عرفت من كماله ما لم يعرفه، فيعد عملك تصاغراً، ويرمي أمامك أو وراءك بسهم الإنكار.

ولو اطلع على ما بطن من هذه المعاملة كما اطلع على ما ظهر منها لأقام لك

بدل الإنكار عذراً.

قَدَّم أبو الفضل بن العميد لأبي بكر بن الخياط نعلَه؛ فعده بعض الحاضرين إفراطاً في التنازل، فقال أبو الفضل: أؤلام على تعظيم رجل ما قرأت عليه شيئاً من الطبائع للجاحظ إلا عرف ديوانه، وقرأ القصيدة من أولها إلى آخرها حتى ينتهي إليه؟!

وكان أبوالعباس المبرد عندما يرى أبا بكر الأبهري مقبلاً ينهض قائماً حفاوة وإجلالاً، فخطر على بال بعض أصحابه أنه تجاوز حد التواضع، وأن أبا بكر لايستحق هذا القدر من الإجلال، وشافَه المبرد بهذا الخاطر، فقال المبرد:

إذا ما رأيناه مقتبلا حللنا الحِبا وابتدرنا القياما

فلا تنكرن قيامي له فإن الكريم يجل الكراما

يتواضع الرجل لأقرانه، فلا يصاعر لهم خداً وإن أبى الدهر إسعافهم، ولايخرج في معاملتهم عن حدود المساواة وإن رزق من المال أو الجاه ما لم يرزقوا، قال البحتري:

وإذا ما الشريف لم يتواضع للأخلاء فهو عين الوضيع

ويتواضع الرجل لمن هو دونه في ظاهر هذه الحياة، أو فيما يجري به عرف الناس، كالأستاذ يجامل طالب العلم، والرئيس يجامل المرءوس.

وفي سنة رسول الله ﷺ وأقوال الذين أوتوا الحكمة، وسيرة الذين استقاموا على الفضيلة، ما فيه عظة حسنة، وقدوة صالحة.

أما الأستاذ لا يتعاظم على طالب العلم فمن مظاهره الإصغاء إليه عند

المناقشة، وإجابته عما سأل في رفق، وتلقي ما يبديه من الفهم بإنصاف، فإن أخطأ نبهه لوجه الخطأ، وإن قال صواباً تقبله منه بارتياح، وارتياح الأستاذ لآثار نجابة الطلاب مما يزيدهم جداً في الطلب، ويشعرهم باستعدادهم لأن يكونوا في النوابغ، وإنما ينبغ الناشيء في العلم متى سطع في نفسه مثل هذا الشعور.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «تعلموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا له الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن تعلمتم منه ولمن علمتموه».

ومن حكم الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ: «وتواضعوا لمن تتعلمون منه، ولمن تعلمونه، ولا تكونوا جبابرة العلماء».

وأما الرئيس لايتعظم على المرءوس فمن مظاهره لين القول في مخاطبته، والعناية بقضاء ما يستطيع من حاجته، والسعي في دفع الأذى عن جانبه.

والرئيس المتواضع يتحامى أن تشهد منه أثراً يدل على أن نفسه تحدثه بأنه أفضل منك إلا مظاهر يسيغها عرفٌ أصبح مألوفاً بين الناس.

روى الإمام مالك: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كان في فضله وقدمه ينفخ عام الرمادة[1] النار تحت القدور حتى يخرج الدخان من تحت لحيته».

ذكر هذا مالك لهارون الرشيد، وقال له: إن الناس يرضون منكم بما دون هذا.

ونقرأ في سيرة المظفر الدين صاحب أربل، أنه بنى أربعة ملاجيء للزَّمنى

---

(١) الرمادة: الهلكة، سمى به عام جدب وقحط وقع في زمن عمر بن الخطاب لهلاك الناس فيه والأموال.

والعميان، وقرر لهم كل ما يحتاجون إليه في كل يوم، وكان يأتيهم بنفسه في عصر كل اثنين وخميس، ويدخل على كل واحد في منزله، ويسأله عن حاجته؛ فإحسان مظفر الدين إلى هؤلاء رحمة، ودخوله على كل واحد في نُزُله، وسؤاله عن حاله تواضع.

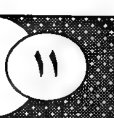
وصفوة المقال أن العزة ترجع إلى أن يقدرالإنسان قيمة نفسه؛ فلا يوردها إلا الموارد التي تليق بها، والكبر يرجع إلى أن يرى نفسه في منزلة فوق منزلتها؛ فيتراءى في مظاهر يعدها العارفون بكنة حاله اغتراراً وإسرافاً في التقدير.

والضعة ترجع إلى أن يغمط نفسه حقها، ويضعها في مواضع أدنى مما يستحق أن يضعها.

والمتواضع من يعرف قدره، ولايأبى أن يرسل نفسه في وجوه الخير وما يقتضيه من حسن المعاشرة.

وإذا كان من يحتفظ بالعزة، ولا يصرف وجهه عن التواضع، هوالرجل الذي يرجى لنفع الأمة، ويستطيع أن يخوض في كل مجتمع، ضافي الكرامة، أنيس الملتقى، شديد الثقة بنفسه ـ كان حقاً على من يتولى تربية الناشئ أن يتفقده في كل طور، حتى إذا رأى فيه خمولاً وقلة احتراس من مواقع المهانة أيقظ فيه الشعور بالعزة، والطموح إلى المقامات العلا.

وإذا رأى فيه كبراً عاتياً، وتيهاً مسرفاً ـ خفف من غلوائه، وساسه بالحكمة، حتى يتعلم أن المجد المؤثل لا يقوم إلا على دعائم العزة والتواضع.



١١ الأمانة[١] للشيخ علي الطنطاوي[٢]

جعل النبي ﷺ للمنافق آية يعرف بها بين الناس، ومن آياته أنه إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان.

وهذه الثلاث ـ الصدق والوفاء والأمانة ـ أركان الحياة الخلقية والاجتماعية، وقد تضافرت الآثار على ذم الكذب وأهله، ومدح الصدق وأهله، وبيان خطر الأمانة، وأنها عرضت على السماوات و الأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها [٣]، وهن كن أقوى عليها، وحملها على ضعفه الإنسان، وأن المسلم ربما ألم ببعض الذنوب ولكنه لا يكذب أبداً كما جاء في الحديث.

ثم إنك مع ذلك كله تجد المنتسبين إلى الإسلام اليوم، من أرباب الصناعات وأهل السوق أكذبَ لهجةً، وأخلفَ وعداً، وأضيع لأمانة من كثير ممن ليسوا مسلمين، حتى صار المثل يضرب بالوعد الشرقي في خلفه وإضاعته والتأخر عنه، وصار من يريد أن يؤكد وعداً يصف بأنه (وعد أوربي)!

اللهم إن هذا لمن العجب العجاب!!

إن الله بين خطر الأمانة، وأنزلها هذه المنزلة، وخوَّف من حملها؛ لأنها جماع

---

(١) نشرة عام ١٩٤٦م انظر كتاب (في سبيل الإصلاح) ص٨٣ـ٨٧.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

(٣) تلك هي حرية الاختيار التي خص بها الإنس و الجن دون سائر المخلوقات، وتفصيل هذا الإجمال في كتاب (فتاوى علي الطنطاوي)، نشرته (دار المنارة في جدة).

الأخلاق، وسلكة[١] عقد الفضائل، وعمادها؛ فما من شعبة من شعب الأخلاق والخير الاجتماعي إلا إليها مردّها، وما خصلة من خصال الشر إلا والخيانة أساسها وحقيقتها.

وليست الأمانة هي أن تحفظ الوديعة التي تؤديها إلى أصحابها (فقط)؛ فإن هذه صورة من صورها، وشكل من أشكالها، وإن السلطان في يد الموظف أمانة؛ فإن وضعه في غير موضعه، أو اتخذه وسيلة إلى جلب منفعة له أو لأسرته أو لأصحابه فقد خان أمانته.

والدرجات أمانة في يد الأستاذ الممتحن يوم الامتحان؛ فإن أعطى منها واحدة لغير مستحقها، أو منع واحدة من يستحقها، أو راعى في منحها شفاعة أو صداقة أو بغضاً أو موجدة ـ فقد خان أمانته.

والقدرة على الحكم أمانة في يد القاضي؛ فإن زاغ عن الحق شعرة فقد خان.

والعمل أمانة في يد الأجير المستصنع؛ فإن قصر في تجويده أو أفسد فيه شيئاً ولو كان الفساد خفياً لا يظهر ـ فقد خان.

واعتقاد الناس بك الصلاح والتقى أمانة في يدك؛ فإن اتخذت هذا الاعتقاد سبباً إلى جمع المال، وعملت من لحيتك العريضة وعمامتك المنيفة شبكة لاصطياد الدنيا، أو كتمت الحق ابتغاء الحظوة عند العامة، أو الزلفى إلى الحاكم ـ فهي خيانة، إلى غير ذلك من الصور والأشكال.

بل إنك إذا دققت، وتلطفت وجدت هذه الجوارح التي أعطاكها الله أمانة في

---

(١) السلكة: الخيط وجمعها سلك وأسلاك.

يدك؛ فإذا نظرت بعينيك إلى حرام، أو حركت به لسانك، أو خطوت إليه برجلك، أو مددت إليه يدك ـ فقد خنت أمانتك.

بل إن عمرك كله أمانة لديك؛ فلا تنفق ساعة منه إلا فيما يرضي (صاحب الأمانة)!

فأين المسلمون اليوم من هذا ؟

لقد رأيت من قلة الأمانة، عند الصناع والتجار والعلماء و الجهلاء ومن يظنّ به المغفلون الولاية ويرونه قطب الوقت[1] مالا ينتهي حديثه ولا العجب منه، وما خوفني الناس من أعمالهم، حتى جعلني أحمل هماً كالجبل ثقلاً كلما عرضت لي حاجة لا بد فيها من معاملة الناس، ولا والله لا أتألم من اللص يتسور عليّ الجدار، ويسرق الدار، كما أتألم من الرجل يظهر لي المودة ويعلن التقى، فإذا كانت بيني وبينه معاملة، وتمكن مني أكلني بغير ملح، وتعرَّق عظامي !

تذهب إلى الخياط الحاذق الذي ألفته، وألفك واستمررت على معاملته عمرك، والخياط من شرور المدينة لا يستغنى اليوم عنه، وقد انقضى زمان كان الرجل فيه يخيط لنفسه أو يخيط له أهله، وكان الثوب يتخذ فيه لمجرد الستر والدفء، ولم يبق لك منجى أن تؤم الخياط تحمل إليه (الجوخ) الثمين، وتسأله أن يضرب موعداً لا يخلفه ينجز لك فيه ثوبك الذي تريده للعيد أو للزفاف أو

---

(١) حكاية القطب والأوتاد لا أصل لها في نقل ولا عقل ، ولم يرو في ذلك إلا حديث ضعيف في «الأبدال» لايثبت بمثله حكم وهي من بقايا الوثنية الأولى .

للسفر، ولكل واحد من أولئك وقت لا يتقدم عنه ولا يتأخر؛ فالعيد لا يُنسأ لك في أيامه، والزفاف إن أعلنته لا يؤجل؛ فيعدك، ويؤكد الوعد، فإذا جئت في اليوم الموعود وجدته لم يمس بعد قماشك، فإذا زجرته أو أنبهته أخذك باللين، وراغ منك، وحلف لك مائة يمين غموس أنه نسي، أو مرض، أو أنه لم يعدك في هذا اليوم ولكن كان (سوء تفاهم)، وأنك راجع في يوم كذا فواجد ثوبك معداً، وتعود، ويعود إلى كذبه، حتى يمضي العيد أو الزفاف ولا يبقى للثوب فائدة، وربما جعله قصيراً أو ضيقاً أو (معتلاً) أو (مضاعفاً) أو (مجوفاً)... أو على خلاف ما استصنعه عليه ولا حيلة لك فيه، ولا سبيل إلى إصلاح ما فسد، فتلبسه مكرهاً، أو تلقيه في دارك حتى تأكله (العثة) والأرضَة.

وهذه الحال من إخلاف المواعيد، واختلاق الأكاذيب عامة في أرباب الصناعات في بلادنا لم ينجُ منها إلا الأقل الأقل ممن عصم ربك.

ولقد وقع لي أني كنت على جناح السفر إلى العراق، وقد أعددت له كل شيء، واتخذت له مكاناً في السيارة، ولم يبقَ إلا يوم واحد فخطر لي أن أبعث إلى الكَوَّاء بحلتي الجديدة؛ لكيّها حتى إذا نزلت بغداد لبستها صالحة، وبيَّنت له استعجالي ونفضت إليه قصة حالي، ونهيته أشد النهي عن غسلها؛ لأنه يفسدها، ويؤخرني عن غايتي، فما كان منه إلا أن غسلها؛ طمعاً بفضل أجرة ينالها؛ فأفسدها وجعلني أسافر، وأدعها.

وآخر من الكوائين غسل معطفي بصابون له مثل رائحة الخنازير الوحشية؛ فلم أستطع لبسه وحملته إليه ووبخته، فما كان منه إلا أن أنكر أن يكون له تلك

الرائحة (وإنها لتشمّ من مسافة فرسخ) وقلت: شمّها، أليس لك أنف؟ فشمها بمثل خرطوم فيل، وقال: مابها شيء! فكدت أنشق من غيظي، وقلت لجماعة عنده: شموا بالله عليكم؛ فمدو أنوفهم إليها وعيونهم إليه، وقالوا بلسان واحد مثل مقالته؛ فاضطررت إلى أن أخرج، فأدفع الثوب إلى فقير، وإني لفقير إلى مثله!

واحتجت مرة إلى عامل يصلح لي طائفة من المقاعد، أستقبل عليها ضيفي، وأكرم بها زواري، وهي وحدها التي أخشى اللصوص عليها؛ لأنها خير ما في الدار، حاشا الكتب، فدلوني على رجل له دكان ظاهر في شارع كبير، وفوقه لوحة كتب عليها اسمه، وصناعته، ووصف براعته وأمانته؛ فأنست به، وكان كهلاً مشقشق اللسان، وأخذته؛ فأريته المقاعد واستأجرته لإصلاحها، ودفعت إليه أكثر الأجرة مقدماً، وتركته ووكلت أخاً لي صغيراً به، وذهبت إلى عملي ولم أرجع إلا المساء، فوجدت الرجل قد بعج بطون الكراسي، وأخرج أحشاءها وكسر عظامها وأرجلها، ولم يقدر على إعادتها سيرتها الأولى؛ لأنه جاهل بالصناعة، فهرب، وذهبت أفتش عنه حتى قبضت عليه، وأعدته إلى الدار، فاجتهد جهده، فكانت غاية ما استطاعه أنه جعل من مقاعدي المريحة آلات للتعذيب، ومقاعد للأذى، ألم يشق ثوب القاعد عليها مسمار ظاهر منها، ثقبت ظهره خشبة بارزه، أو كان مجلسه على أحدّ من شوك القتاد، وقبض الأجرة كاملة غير منقوصة.

ولو شئت أو لو شاء القراء لسردت ثلاثين واقعة، ما هذا الذي ذكرت بأشد

منها ولا أعجب؛ فأين تقع الأمانة من نفوس هؤلاء الذين يدَّعون أنهم من المسلمين!؟

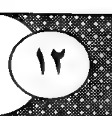
وكيف أصنع إذا كان هؤلاء (المسلمون) لا يوثق بهم، ولا يطمئن إليهم أأعامل الفرنسي و الرومي و الصهيوني وأقاطع بني ديني ووطني؟

أما إنه لخطب جسيم؛ فماذا تصنع المدارس ومعلموها والمساجد وواعظوها والصحف وكاتبوها، إذا لم يعلنوا على الخيانة حرباً لا هوادة فيها ولا مسالمة حتى يكون النصر عليها؟

وكيف لعمر الحق يكمل لنا استقلال، أو تتم سيادة، أو نجاري شعوب المدينة ونسابقها، إذ لم تَسُدْ الأمانة فينا، وإذا كان الواحد منا لا يستطيع أن يطمئن إلى أخيه ولا يعتمد على أمانته؟

وإذا كنا نقلد الغربيين في الشرور فلماذا لا نقلدهم في الصدق في المعاملة والوفاء بالوعد و الاستقامة في العمل؟

أما إن من أشكال الأمانة وصورها أن القلم المتين، واللسان البليغ أمانةٌ في يد الكاتب والخطيب؛ فإذا لم يستعملاهما في إنكار المنكر، والأمر بالمعروف، والدعوة إلى الإصلاح كانا ممن خان أمانته، وأضاعها، وفرَّط فيها؛ فلينظر لنفسه كل كاتب و شاعر وصحفي وخطيب!



١٢ الأخلاق[١] للشيخ محمد الخضر حسين

متى انعطف الناقد البصير يبحث عن الوسائل التي تترقى بها الأمة إلى سنام السعادة القصوى لا تطمئن نظراته السامية إلا على أخلاقها؛ فبمقدار ما لها من المحافظة على محاسنها، يملأ منظرها أعين الملأ الذي لا يعبأ إلا بجلائل الأمور.

والدليل على ما نقوله أن الامتزاج بمكارم الأخلاق يَجْبِيْ إلى صاحبه عِرْفانَ ما له من الحقوق وما عليه من الواجبات؛ فلا يخلُّ ـ حينئذ ـ بواجب، ولا يدعى إلا بحق، وذلك يدعو بالضرورة إلى شدة الارتباط، وكمال الالتئام الذي يجعل أفراد الأمة عضواً واحداً للتعاون على البر والتقوى، والتعاضد على الأعمال التي تنتج لهم التقلب في عيشة راضية، وتحفظ لأعقابهم مستقبلاً حسناً.

وذلك السبب الذي دفع بنا إلى جعلها ـ أي الأخلاق ـ شُعبة من شُعَبِ ما تصدُع به هاته الصحائف وهذا أوانها.

الخلق: حال للنفس تصدر عنها الأفعال بسهولة، وإن شئت فقل: هي حال للنفس داعية إلى أفعالها من غير فكر ولا روية.

وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون في أصل المزاج كالإنسان الذي يستفزه أدنى غضب يعرض له، أو يَفْرَقُ من أدنى صوت يَقْرَعُ سمعَه، أو يُفْرِط في الضحك على أقل شيء يعجبه، أو يَغْتَمُّ من أيسر شيء يُلِمُّ به.

---

(١) السعادة العظمى ـ عدد٣ ـ غرة صفر ١٣٢٢ المجلد الأول ص٢٥ـ٢٧، وهو مما كتبه في مقتبل عمره.

ومنها ما يكون مستفاداً بالتربية والتدرب، وربما كان مبدؤه بالروية، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً حتى يصير ملكةً وخلقاً.

وللأخلاق ثلاث قوى متباينة:

أحدها القوة الناطقة: وتسمى بالملكية، **ثانيها القوة الشهوية**: وتسمى بالبهيمية، **ثالثها القوة الغضبية**: وتسمى بالسبعية، فمتى كانت حركة النفس الناطقة معتدلة، وكان التفاتها دائماً إلى المعلومات الصحيحة ـ نشأت عنها فضيلة العلم، وتتبعها الحكمة.

ومتى كانت حركة النفس البهيمية معتدلة بدخولها تحت سلطة القوة العاقلة، حدثت عنها فضيلة العفة، وتتبعها فضيلة السخاء.

ومتى كانت حركة النفس الغضبية معتدلةً منقادةً إلى النفس العاقلة بحيث لا تهيج في غير حينها، ولا تحمي أكثر مما ينبغي لها ـ حدثت منها فضيلة الحلم، وتتبعها الشجاعة.

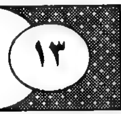
ثم يحدث باجتماع هاتِه الفضائلِ الثلاثِ فضيلةٌ رابعةٌ هي كمالها وتمامها وهي العدالة، وهذه الأربع أصول، وما عداها متفرع عنها.

ثم إن تلك الفضائل لا يمدح عليها صاحبها، ويتسمى بها إلا إذا تعدت إلى غيره، وانتشرت آثارها عند بني جنسه، وأما إذا اقتصر بها على نفسه فإنه تُصْرَفُ عنه أسماؤها، ولا يذكر بمسمياتها.

فإذا لم يبسط الإنسان يده ببذل مال الله الذي آتاه في وجوه المصالح العامة،

وخصص صرفه بمآربه الشخصية ـ سمّي منافقاً[1]، وإذا اقتصر بشجاعته على الذَّب عن حوزته دون أن يحمي ذمار المستجيرين أو يناضل على حقوق المستضعفين ـ سمِّي أَنِفاً، وإذا لم يتجاوز علمه إلى غيره سمِّي متبصراً.

(١) هكذا في الأصل ولعلها: منفقاً (م).



١٣ الانتحار[1] للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

قرأت في بعض الصحف أن رجلاً من تجار المسلمين انتحر لا لضيق يد، أو شدة مرض، أو بؤس حال، بل لأنه حزن على وفاة صديق له؛ فقتل نفسه.

إن الرجل المؤمن يعتقد ولا شك بسوء عاقبة المنتحر؛ فكيف هان عليه، وهو في آخر يوم من أيام حياته أن يضمَّ إلى خسارة دنياه خسارة آخرته، وهي العزاء الباقي له عن كل ما لاقاه في حياته من شقاء، وعناء؟

إن الانتحار نزعة فاسدة، وعادة مستهجنة، رمتنا بها المدنية الغربية فيما رمتنا به من مفاسدها وآفاتها.

ولقد كنا نعجب قبل اليوم من تهالك الشرقيين على حب تقليد الغربيين حتى فيما يؤذيهم في شرفهم وكرامتهم، وكنا إذا أردنا المبالغة في تمثيل هذا التهالك قلنا: يوشك أن يقتل الشرقي نفسه بنفسه إذا علم أن تلك عادة من العادات الغربية، فقد صار قريباً ما كان بعيداً، وأصبح مألوفاً ما كنا نعده فرضاً من الفروض.

الانتحار منتهى ما تصل إليه النفس من الجبن والخور، وما يصل إليه العقل من الاضطراب والخبل، وأحسب أن الإنسان لا يقدم على الانتحار، وفي رأسه ذرة من العقل والشعور.

حب النفس غريزة ركبها الله ـ تعالى ـ في نفس الإنسان؛ لتكون ينبوع حياته،

---

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة الموضوعة ص٤٠٤ـ٤٠٧.

وعماد وجوده، والمنتحر يبغض نفسه أشد مما يبغض العدو عدوه، فهو شاذ في طبيعته، غريب في خلقه، معاند لإرادة الله -تعالى- في بقاء الكون وعمرانه، ومن كان هذا شأنه كان بلا قلب ولا عقل.

لا عذر للمنتحر في انتحاره مهما امتلأ قلبه بالهم، ونفسه بالأسى، ومهما ألمت به كوارث الدهر، وأزمت به أزمات العيش؛ فإن ما قَدِمَ عليه أشدُّ مما فرَّ منه، وما خَسِرَهُ أضعافُ ما كسبه.

ولو كان ذا عقل لعلم أن سكرات الموت تَجْمَعُ في لحظة جميع ما تفرق من آلام الحياة وشدائدها في الأعوام الطوال، وأن قضاء ساعة واحدة فيما أعد الله لقاتل نفسه من العذاب الأليم أشد من جميع ما يشكو منه، وما يكابده من مصائب حياته وأرزائها لو يعمر ألف سنة.

ما أكثر هموم الدنيا، وما أطول أحزانها، لا يفيق المرء فيها من همٍّ إلا إلى همٍّ، ولا يرتاح من فاجعة إلا إلى فاجعة مثلها، ولا يزال بنوها يترجحون فيها ما بين صحة ومرض، وفقر وغنى، وعز وذل، وسعادة وشقاء؛ فإذا صح لكل مهموم أن يمقت حياته، ولكل محزون أن يقتل نفسه خلت الدنيا من أهلها، واستحال المقام فيها، بل استحال الوفود إليها، وتبدلت سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ما سمي القاتل مجرماً إلا لأنه قاسي القلب، متحجر الفؤاد وأقسى منه قاتل نفسه؛ لأنه ليس بينه وبينها من الضغينة والمُوْجِدَة ما بين القاتل والمقتول؛ فهو أكبر المجرمين، وأقسى القاتلين.

يخدع المنتحر نفسه أنْ ظنَّ أنه مقتنع بفضل الموت على الحياة، وأنه إنما يفعل فعلته عن روية وبصيرة؛ فإنه لا يكاد يضع قدمه في المأزق الأول من مآزق الموت حتى يثوب إلى رشده وهداه، ويحاول التخلص مما وقع فيه لو وجد إلى ذلك سبيلاً.

إن ألقى نفسه في الماء تخبط، وبسط يده إلى من يرجو الخلاص على يده ووَدَّ لو يفتدي نفسه بكل ما تملك يمينه، وإن حبس نفسه في غرفته؛ ليموت مختنقاً بالغاز، ولو سقط عليه سقف الغرفة؛ ليستنشق نسمة من نسمات الهواء ولو عاش بعد ذلك كسير اليد والرجل، فاسد السمع والبصر.

إن فكرة الانتحار نزغة من نزغات الشيطان، وخَطْوة من خطوات النفس الشريرة، فمن حدثته نفسه فليتريث ريثما يتبين كيف يكون صبره على احتمال سكرات الموت، وآلام النزع، وماذا يكون حديث الناس عنه بعد موته، وهل يمكن أن يوجد بينهم عاذر له، أو مشفق عليه، أو مقتصد في النيل منه، والسخرية به؟ وليعرض على مخيلته قبل ذلك أشكال العذاب، وأنواع العقاب التي أعدها الله في الدار الآخرة لأمثاله.

إني لا أظنه بعد ذلك فاعلاً إلا إذا كان وحشاً في ثوب إنسان، أو بطلاً من أبطال المارستان.

١٤ نداء مصدور[1] للأستاذ محمود محمود

يا قوم: إن الزمان يخاطب أهله بألسنة فصيحة فمن أحسن فهمه رشد ونجا، ومن عجز عن الفهم غوى وهلك وقد ـ والذي نفوسنا بيده ـ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، فساءت الأحوال، وفسدت الأخلاق، وكأننا في زمن بصير الشعراء الذي يقول:

والأرض للطوفان مشتاقة لعلها مِنْ دَرَنٍ تُغْسَل

والذي يروعنا أننا نرى أمتنا المصرية متورطة في فساد وسوء أخلاق ليس وراءهما فساد وسوء، ولم يكن هذا في طبقة من الأمة دون أخرى بل جرف سيله كل الطبقات، ولم ينج منه إلا من رحم الله.

ولو قلنا أن الأمة لم تترك رذيلة من رذائل الأمم الماضية إلا اقترفتها، ولا سيئة من سيئاتها إلا اجترحتها وهي تعلم بما نزل بتلك الأمم من خراب وفناء وبما ضُربَ عليها من ذلة ومسكنة ﴿وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(١١٧)﴾ آل عمران، ما كنا غالين ولا مبالغين.

وإنه ليحزننا أن يكون كلٌّ منا شاعراً بنقصه وخطئه، عارفاً داءه ودواءه، ثم يقيم على ما هو عليه من الخطأ والباطل.

أبناء وطننا: متى نهجر ما يغضب الرحمن، وما يرضي الشيطان، وما يسيء سمعة أمتنا بين الأمم؟ متى نعاهد الله على ترك ما يخالف الحق والعدل ثم نوفي

---

(١) مجلة جمعية مكارم الأخلاق، العدد الأول، ص١٤ـ ١٦، رجب ١٣٤٣هـ.

بالعهود؟

إنه لا لوم على الجهلاء ما داموا يرون المتعلمين منا في لهو وباطل سرّاً وعلانية.

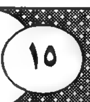
أما آن لنا أن نحرِّر أرواحنا ونخلصها من الشرِّ عسى أن نصل بذلك إلى تحرير أجسامنا وبلادنا فنحيا حياة طيبة؟

لقد حذَّركم شاعركم فقال:

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

وبعد فإننا لا نرى شيئاً أشدَّ وقعاً على النفس من انصراف أمتنا إلى اللهو، وإنفاقها درهمها ودينارها فيما يذهب بالعقول، ويضني الأجسام، ويفسد الأنساب، ثم يشتدُّ الخَطْب عليها فيرثى لها ويشفق عليها من ليس من أهلها، فينصح لها، ويحذرها عاقبة التمادي في تناول مفسدات العقول.

أي حكومتنا: إننا نعتقد كل الاعتقاد أن إصلاح أخلاق هذه الأمة ليس بالأمر الذي يتعذَّر أو يتعسر تحقيقه فما ذلك بعزيز على رجالنا، وأولي الأمر فينا بمعونة الله.



١٥ الحسد [1] للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

لو عرف المحسود ما للحاسد عنده من يد، وما أسدى إليه من نعمة لأنزله من نفسه منزلة الأوفياء المخلصين، ولَوقفَ بين يديه تلك الوقفة التي يقفها الشاكرون بين أيدي المحسنين.

لا يزال صاحب النعمة ضالاً عن نعمته، لا يعرف لها شأناً، ولا يقيم لها وزناً، حتى يَدُلَّه الحاسد عليها بنكرانها، ويرشده إليها بتحقيرها، والغض منها، فهو الصديق في ثياب العدو، والمحسن في ثياب المسيء.

أنا لا أعجب لشيء عجبي لهذا الحاسد، ينقم على محسوده نعم الله عليه، ويتمنى لو لم تبق له واحدة منها وهو لا يعلم أنه في هذه النقمة، وفي تلك الأمنية قد أضاف إلى محسوده نعمة هي أفضل من كل ما في يديه من النعم.

وجهُ الحاسدِ ميزان النعمة ومقياسها، فإن أردت أن تزن نعمة وافتْكَ فَارْمِ بخيرها في فؤاد الحاسد، ثم خَالِسْهُ نظرةً خفيفة؛ فحيث ترى الكآبة والهم فهناك جمال النعمة وسناؤها.

ليس بين النعم التي ينعم بها الله على عباده نعمةٌ أصغر شأناً، وأهون خطراً من نعمة ليس لها حاسد، فإن كنت تريد أن تصفو لك النعم فَقِفْ بها في سبيل الحاسدين، وألقها في طريق الناقمين، فإن حاولوا تحقيرها وازدراءها فاعلم أنهم

---

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة الموضوعة ص٣٦١-٣٦٣.

قد منحوك لقب «الـمُحَسَّد»؛ فليهنأ عيشك، ولِيَعْذَبْ موردُك.

إن أردت أن تعرف أي الرجلين أفضل فانظر إلى أكثرهما نقمة على صاحبه، وكلفاً بالغض منه، والنيل من كرامته، فاعلم أنه أصغرهما شأناً، وأقلهما فضلاً.

قد جعل الله لكل ذنب عقوبة مستقلة يتألم لها المذنب عند حلول أجلها؛ فالشارب يتألم عند حلول المرض، والمقامر يتألم يوم نزول الفقر، والسارق يتألم يوم دخول السجن.

أما الحاسد فعقوبته حاضرة دائمة، لا تفارقه ساعة واحدة.

إنه يتألم لمنظر النعمة كلما رآها، والنعمة موجودة من الموجودات الثابتة التي لا يلم بها إلا التنقل من مظهر إلى مظهر، والتحول من موقف إلى موقف؛ فهيهات أن يفنى ألمه، أو ينقضي عذابه؛ حتى تقر عينه التي تبصر، ويسكن قلبه الذي ينبض.

الحسد مرض من الأمراض القلبية الفاتكة، ولكل داء دواء، ودواء الحسد أن يسلك الحاسد سبيل المحسود؛ ليبلغ مبلغه من تلك النعمة التي يحسده عليها، ولا أحسب أنه ينفق من وقته ومجهوده في هذه السبيل أكثر مما ينفق من ذلك الغض من شأن محسوده، والنيل منه؛ فإن كان يحسده على المال، فلينظر أي طريق سلك فليسلكه، وإن كان يحسده على العلم فليتعلم، أو الأدب فليتأدب، فإن بلغ من ذلك مأربه فذاك، وإلا فحسبه أنه ملأ فراغ حياته بشؤون لولاها لقضاها بين الغيظ الفاتك، والكمد القاتل.



جيل يؤمن بالأخلاق[1] للشيخ العلاَّمة محمد الخضر حسين

إن الأمم الناهضة تحتاج نفوسها إلى الغذاء الجيِّد من الأخلاق والسجايا؛ لتقوى به على مواصلة النهوض إلى المعالي، كما تحتاج أجسامها إلى الغذاء الجيد من الطعام؛ لتقوى به على مواصلة الكفاح في سبيل المعايش.

والشجاعةَ غذاءٌ من أغذية الأمة في طور التحرير لا يتهاون به إلاَّ صغار النفوس، والذين يستعذبون موارد العبودية، وإن لم تفرض عليهم.

وأصل الشجاعة أنْ تعرف الحق: حق الله، وحق الأمة، وحقوق المواطنين، وحقك الشخصي؛ فتوطن نفسك على أن تكون صادق العزم في إعطاء كل ذي حق حقه بالعدل والإنصاف.

وقد أوصى المسلمين بأن يكونوا أهل الشجاعة في مواقف الدفاع عن الحق ماداموا يرجون لهذا الحق العزة والاستعلاء؛ فقال ـ عز وجل ـ في سورة النساء: ﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ النساء: ١٠٤.

فأرشدهم الله إلى أنهم بما يرجون من إقامة الحق ومعونة الله عليه ينبغي لهم أن يكونوا أبعد من أعداء الحق عن الوهن والضعف؛ لأنَّ المؤمن الذي يرجو الحق، ويعيش له، ويَعُدّ نفسه لإعلانه ونصرته ـ يجب أن يكون من أبعد الناس

---

(١) حديث صحفي نشرته مجلة الأزهر، الجزء السابع من المجلد الرابع والعشرين، غرة رجب ١٣٧٢هـ، وانظر أحاديث في رحاب الأزهر ص٦٨ـ٧١، والدعوة إلى الإصلاح ص١٣٠ـ١٣٣.

عن الوهن في سبيله.

ومن هُنَا يتبين لنا أن الشجاعة العسكرية وليدة الشجاعة الأدبية؛ لأنَّ كِلاَ نوعي الشجاعة منبعث عن الولاء للحق، وتوطين النفس على إقامته ونصرته.

وإنَّ الرجل الشهم الذي يُوَطِنُ نفسه على الدفاع عن الحق، ويؤدي الشهادة الصادقة على نحو ما علم دون أن يهاب ذا جاه أو سطوة ـ لا يقل عن البطل الصنديد في موقفه بساحة الحرب أمام نيران العدو مدافعاً عن حق أمته وملته ووطنه.

إن المسلم الذي يعلم أنه لم يكن مسلما إلاَّ بشهادة الحق «**لا إله إلا الله**» يُوَطِّن نفسه على ألاَّ يشهد إلاَّ بالحق ولو على نفسه وعلى والديه في كل المواقف، متمثلاً دائما في ذهنه أمر الله ـ عز وجل ـ للمسلمين ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ البقرة: ٢٨٣.

ولما ربَّى الإسلام أبناءه على إقامة الحق، ونصرته، ومحبته، والشهادة به، والإعانة عليه ـ ربَّى فيهم بهذه السجية خلقَ الشجاعة في النفوس؛ فأخرج منهم أمة لا تهاب الخطوب، وترى الموت في سبيل إعلاء كلمة الحق خيراً من ألف حياة يقضيها صاحبها في مشاهدة الباطل يمشي في الأرض مرحاً.

انظروا إلى قول الخليفة الأول أبي بكر الصديق في وصيته لقائده العظيم خالد ابن الوليد «احرص على الموت توهب لك الحياة».

فباقتحام موارد الموت في سبيل إقامة الحق، تبرهن الأمة على أنها جديرة بالحق، وبهذا نكون من أهل الحياة، وأن الشهداء من رجالها أحياء عند ربهم،

وأحياء في قلوب عباده، والذين لم ينالوا منهم نعمة الشهادة يتمتعون بالحق وبما يفيضه عليهم الحق من نعمة الحياة، وإلى هذا المعنى يشير الفارس الشاعر حصين ابن الحمام أحد بني سهم بن مرة:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد   لنفسي حياة مثل أن أتقدما

جلس القائد المجاهد الشهير مسلمة بن عبد الملك مع أخيه الخليفة الأموي هشام ذات ليلة، فقال له أخوه الخليفة:

«يا أبا سعيد هل دخلك ذعر قط لحرب أو عَدو؟» فأجاب مسلمة «ما سلمت في ذلك من ذعر ينبه إلى حيلة، ولم يَغْشَني فيها ذعرٌ سلبني رأيي».

فقال له هشام: «هذه هي البسالة».

ولما كان الحكم والسلطان في أسبانيا للخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر رفع أحد التجار قضية على الخليفة إلى القاضي الأكبر في عاصمة الأندلس «قرطبة» وهو العالم الفقيه الورع ابن بشير، فحكم ابن بشير للتاجر على الخليفة، ولم يكتف بإصدار الحكم، بل كان حريصاً على سرعة تنفيذه، فذهب إلى الخليفة يخبره بنص الحكم الذي صدر عليه، وينذره بالاستقالة من القضاء إنْ لم يبادر الخليفة بالتنفيذ.

وحتى في أحط أدوار الدولة العبيدية بمصر دخل الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي على الملك الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي ـ وكان الأفضل وزير مصر للمستنصر والمستعلي والآمر ـ فتكلم الطرطوشي موجهاً الموعظة والنصيحة للملك الأفضل، ولاحظ في أثناء موعظته أنَّ إلى جانب الملك رجلاً

لا يؤتمن على الدولة، ولا تهمه مصلحة الملة، فختم الطرطوشي موعظته بالحديث عن ذلك الرجل غير المؤتمن وأشار إليه بيده، فلم يكن من الملك الأفضل ـ لما استشعره من صدق الإمام الطرطوشي وغيرته على الحق وشجاعته في إعلانه ـ إلاَّ أن أمر ذلك الرجل الجالس إلى جانبه بأن يتنحى عن ذلك المقام.

إن الأمة الضعيفة المستكينة لا تستحق الحياة، وهي لا تقوى وترتقي وتعتز إلاَّ إذا شاع في أفرادها ـ ولاسِيَّما شبابها، خصوصاً المثقفين منهم ـ خلق الصدق، ومحبة الحق، وتوطين النفوس على نصرته، والصراحة فيه، والدفاع عنه.

ومن هذا الخلق يولد الجيش الباسل الذي لا يغلب، بل من ذلك الخلق يولد الجيل الفاضل الذي لا يطمع في حق غيره، ولا يطمع غيره في حقه.

والحق شطر الإسلام، بل هو عظامه التي تقوم بها بنيته، أَمَّا الشطر الآخر فهو الخير، وهو في مقام اللحم والشحم من بِنْيَة الإسلام.

ولم يرد في الإسلام أمر ولا نهي، إلا وهو يرجع إلى شعبة من شعب الحق، أو إلى شعبة من شعب الخير.

والمسلمون لن يعودوا كإخوانهم الذين حملوا لواء الحق، ونشروا قانونه في الأرض إلاَّ إذا تضلعوا من معين الحق، وارتووا من موارد الخير، فأصبحوا يعرفون بين الأمم بأنهم أمة الحق والخير.

وحينئذ يكون منهم الجيش الغالب الظافر الذي يقتحم كل عقبة تحول بينه وبين الحق، ويجتاز كل مَخاضة تمنعه من الوصول إلى أهداف الخير.

وكما ينبغي أن يجهز الجيش بالدبابات والمدافع الضخمة والطائرات النفاثة

والقنابل الذرية ـ فإن كل هذه المعدات لا تنفعه إن لم يُستَمد جنوده وضباطه من أمة تربَّت على الصدق، وآمنت بالحق، ووطنت نفسها على محبة الخير.

بل إن تجهيز الأمة بسجية الصدق، وتربيتها على الإيمان بالحق، وعلى الإيمان بالخير ـ هو الذي ييسر لها الأسلحة من كل نوع، والأنصار من كل أمة، وهو الذي يملأ بالهيبة والحرمة لها قلوب الأمم جميعاً.

وهكذا الأخلاق لا تزال معيار الأمم، وهي مفتاح الأماني المغلقة، وهي السبيل إلى استرداد الحقوق، وتيسير السبل إليها.

إن إعداد شباب الجيل بسجية الصدق، وتربيتهم على الإيمان بالحق، وعلى محبة الخير ـ عنصر من عناصر الإسلام.

ولقد صرنا الآن إلى عهد قام بالأخلاق، وهو في حاجة إلى الاستعانة بجيل يؤمن بالأخلاق.

والمصانع المصرية لتربية الأخلاق، هي معاهد العلم الذي يتوقف عليها نجاح هذا المعهد، ويكون لأمتنا منها الجيش الظافر، الذي هي بحاجة إليه في مصيرها القريب، وكل يوم تضيعه معاهدنا العلمية، وتحجم فيه عن البدء في مناهجنا الصالحة يكون خسارة على الأمة، وعلى حقوقها.

إن الأمر جد، والوقت أثمن من أن يضيع بغير عمل.



رابعاً: مقالات في العمل والهمة

١٧ صدق العزيمة، أو قوة الإرادة[١] للشيخ العلامة محمد الخضر حسين

يخطر في النفس أمر فتثق بأنه حق أو نافع، فتحرص على حصوله، فإذا أضافت إلى هذا الحرصِ النظرَ في وسيلة بلوغها إياه، وبدا لها أنه في حدود استطاعتها ـ فسرعَان ما تقبل عليه، وتبذل سعيها للوصول إليه، وذلك ما نسميه بالعزم أو الإرادة.

فما يخطر في النفس مما تعتقد حقيته أو نفعه، وتود أن يكون حاصلاً لديها ثم لا تسعى له سعيه، ولا تضع لبلوغه خُطَّةً ـ فإنما هو التمني الذي لا يفرق بين المحال والمستطاع، والذي يخطر في نفوس القاعدين كما يخطر في نفوس المجاهدين، وما مثله إلا كمثل الشرر الذي يلمع حول النار ثم يتصاعد هباءً.

وإذا تحدثنا في هذا المقال عن قوة الإرادة وذهبنا في حديثها مذهب خصال الحمد، فإنما نعني الإرادة المتوجهة إلى ما هو خير.

ومن أفضل ما يمدح به الرجل أن يتوجه بعزمه القاطع إلى إظهار حق، أو إقامة مصلحة.

تنشأ قوة الإرادة من التجارب، فمن تعلق همه بأمر كان قد عرف بطريق التجربة أنه ميسور وأن عاقبته سلامة ونجاح ـ انقلب همه في الحال عزماً صادقاً.

أما من لم تسبق له تجربة فقد يتخيل الأمر بمكان لا تناله يده أو يخشى من أن يلاقي وراء السعي إليه خيبة، فيقف في تردد وإحجام؛ فذو العمر الطويل من

---

(١) رسائل الإصلاح ١/ ٦٥ ـ ٧٠

أولي الألباب قد يكون أسرع إلى بعض الأمور وأشد عزماً عليها من حديث السن لما تفيده التجارب من إمكانها ونجاح السعي لها .

وتنشأ قوة الإرادة من درس التاريخ؛ فالذي يخطر في باله أمر قرأ في سيرة شخص أنه كان قد هم بمثله وعمل لحصوله فنجح عمله وصلحت عاقبته ـ شأنه أن يعزم على ذلك الخاطر، ويجعله بعد العزم عملاً نافذاً؛ فمن يخطر في باله أن يدعو الحاكم الجائر بالموعظة الحسنة، وقد قرأ سير العلماء الذين كانوا يأمرون بعض الجبارين بالمعروف فيأتمرون، أو يكظمون في الأقل غيظهم ولا يبطشون، يكون أقوى عزماً على الدعوة ممن لم يقرأ في هذا الشأن خبراً؛ لما عرفه من أن للحق الذي يخرج في أسلوبه الحكيم سطوةً على النفوس وإن كانت طاغية؛ فيقدم على وعظه في رفق وحسن خطاب، فإن لم يهده سبيل الرشد قضى حق النصيحة له، وما على الذين أوتوا الحكمة إلا البلاغ .

وتنشأ قوة الإرادة من أدلة خاصة تجعل الرجل على يقين من نجاح العمل وحسن العاقبة، واعْتَبَروا في هذا بتصميم أبي بكر الصديق رضي الله عنه على قتل أهل الردة ومانعي الزكاة؛ فإنه كان عالماً بأنه على حق من قتالهم، وكان على ثقة من أنه سينتصر بفئته القليلة على جموعهم الكثيرة.

ومما دله على أنه الظافر وأن المرتدين عن الدين لا يفلحون قوله ـ تعالى ـ: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾.

ولو تقاعد أبو بكر عن جهاد تلك القبائل، وخلى الردة تتفشى في جزيرة

العرب وباءً فاتكاً ـ لانفصمت عرى الوحدة العربية الإسلامية، ولم يستقم أمر تلك الفتوح التي كانت عاقبتها ظهور دين الحق على سائر الأديان.

وتنشأ قوة الإرادة من كمال بعض السجايا الأخرى وبلوغها غاية قصوى كسجية إباء الضيم تهز الضعيف، وتثير في نفسه العزم على أن يدافع القوي عن حقوقه ما استطاع دفاعه، وكذلك خلق الشجاعة يجعل الرجل أمضى عزماً وأسبق إلى الحروب من الجبان الذي يتمثل له الموت في كل سبيل.

ومما يساعد الرجل على صدق العزيمة خلق التعفف وشرف الهمة؛ فلتجدن أنزه القوم نفساً، وأبعد هم عن الطمع وجهة أشد هم عزماً على أن يقول حقاً، أو يعمل صالحاً وإن لم يرض عن قوله الحق، أو عمله الصالح ذو مال أو سلطان.

تتفاوت الإرادة في القوة، وتفاوتها على قدر قوة شعور الرجل بما للشيء من حقيقة أو نفع، وعلى قدر ثقته من تَيَسُّره، وإمكان حصوله؛ فالذي أتقن علماً فأحاط بأصوله، وغاص على أسراره يكون عزمه في الدعاية إلى الأعمال المرتبطة به أقوى من عزم ذلك الذي وقف في دراسته عند حد لايجعله من أعلامه، والرئيس العادل يكون أقوى عزماً على حرب أعدائه من الرئيس الجائر؛ لأن العادل يثق من قومه بحسن الطاعة فقد ظفر بأكبر أسباب الفوز والانتصار.

نقرأ في التاريخ أن المنصور بن أبى عامر الذي جذب عنان الملك من يد هشام ابن الحكم في قرطبة قد غزا ستاً وخمسين غزوة دون أن تنتكس له راية، أو يتخاذل له جيش، أو يصاب له بعث، أو تهلك له سرية.

ومن درس سيرته لم يعجب لهذا الانتصار المطرد؛ إذ يجد فيها عدلاً ومساواة يأخذان النفوس إلى أن تلقى إليه بالمواد والامتثال.

ومن الأخبار الشاهدة بما وصفنا أن رجلاً من العامة وقف بمجلسه وقال له: إن لي مظلةً عند ذلك الوصيف على رأسك، وأشار إلى الفتى صاحب الدرقة[1]، وكان للفتى فضل محل عنده، فقال المنصور: ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية، ثم نظر إلى الفتى وقال له: ادفع الدرقة إلى فلان، وانزل صاغراً، وساوِ خصمك في مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به: خذ بيد هذا الفاسق الظالم، وقدِّمْه مع خصمه إلى صاحب المظالم؛ لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره، وبعد أن جازاه القضاء بما يستحق أبعده المنصور عن خدمته.

وصاحب مثل هذه السيرة حقيق بأن يكون له متى هم بالحرب عزمٌ لا يختلج بتردد.

فمن وضع أمامه غاية شريفة، ورام من قومه العمل لها بعزم لايخالطه فتور ـ فما عليه إلا أن يريهم بالأسلوب السائغ، والدليل المقنع وجهَ شرفِ تلك الغايةِ، ثم يصف لهم طريقها الناجح؛ فلا يكون منهم إلا أن يتسابقوا إليها، ويقتحموا كل عقبة تلاقيهم في سبيلها.

فإذا رأيت قوماً يذكرون في صبحهم ومسائهم شيئاً من معالي الأمور، ولم ترهم يسعون له سعيه، ولا يتقدمون إليه بخطوة ـ فاعلم أن العزم لم يأخذ من

---

(١) الدرقة: الترس.

قلوبهم مأخذه؛ فهم إما أن يكونوا عن حقيقته، وشرف غايته غائبين، وإما أنهم ضلوا طريقه وما كانوا مهتدين.

وإذا ذكرنا العزم النافذ في خصال الشرف فإنما نريد الإقدام على الأمر بعد استبانة عاقبته ولو على وجه الظن الغالب، وذلك ما يعنيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله: «ولكن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث».

والمكيث من لا يَخِفُّ إلى الهجوم إلا بعد روية وتدبر.

ولا يعد في قلة العزم أن يستبين الرجل الحق، أو المصلحة ويقف دون عزمه مانع؛ كأن يعلم أن عقول الجمهور لا تتسع لقبوله ويخشى الفتنة، فيرجئه ريثما يمهد له بما يجعله مقبولاً سائغاً، قال عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز لأبيه عمر: ياأبت مالك لا تنفذ الأمور؟ فو الله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبك القدور، فقال له عمر: لا تعجل يابني إن الله ـ تعالى ـ ذم الخمر مرتين وحرمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة؛ فيدفعوه وتكون فتنة.

ولا يعد في قلة العزم أن يرى الرجل رأياً، ويعقد النية على إنفاذه، ثم يبدو له على طريق الحجة أنه غير صالح، فينصرف عنه.

وقوي العزيمة هو الذي تكون إرادته تحت سلطان عقله، فيقبل بها على ما يراه صواباً، ويدبر بها عما يراه فساداً.

وإذا قال الشاعر مادحاً:

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر العواقب جانبا

فإنما يريد الهم الناشئ عن رجاحة رأي.

وقوي العزم متى بَصَر بالأمور ووثق بأنه سداد قطع نظره عن العواقب ونهض له في قوة، أما ضعيف العزم فإنه يترك نفسه مجالاً للخواطر، وذكر العواقب، هذه تغريه على العمل، وهذه تصده عنه حتى تَفوتَ الفرصة، ويذهب وقت العمل ضائعاً.

ومن صرامة العزم أن تُفْرِغَ فؤادك من كل داعيةٍ شأنُها أن تلحق بعزمك وهناً، أو تصرف وجهك عنه صفحاً.

وتتمثل هذه الصرامة في عبد الرحمن الداخل ـ صقر قريش[1] ـ إذ خرج من البحر أول قدومه على الأندلس، وأهديت له جاريةٌ بارعةُ الجمال، فنظر إليها وقال: «إن هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا شغلت عنها بما أهم به ظلمتها، وإن أنا اشتغلت بها عما أهم به ظلمت همتي، فلا حاجة لي بها الآن».

وردها على صاحبها.

وكثيراً ما يجيء التردد في أمر من ناحية الشهوات والعواطف، كالذي يثق بما في طلب العلم من خير وشرف، ويقعده عنه حب الراحة، وإيثار ما تنزع إليه

(١) قال أبو جعفر المنصور لأصحابه يوماً: أخبروني عن صقر قريش، فذكروا له طائفة من الخلفاء وهو يقول (لا) فقالوا: من أمير المؤمنين ؟ فقال: عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر وقطع القفر، ودخل بلداً أعجمياً مفرداً، فمصر الأمصار، وجند الأجناد، ودوَّن الدواوين، وأقام ملكاً بعد انقطاعه؛ لحسن تدبيره، وشدة شكيمته.

النفس من اللذات الحاضرة، والذي يقول:

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمةٍ فإن فساد الرأي أن تترددا

إنماينبه على التردد الناشئ عن نحو الشهوات والعواطف، فذلك هو التردد المفسد للرأي، والموقع في خسر.

لقوة الإرادة أثر في انقلاب حال الأفراد والجماعات عظيم؛ فكم من فتى يساويه في نباهة الذهن وسائر وسائل السؤدد فتيان كثيرون، ولكنه يجد من قوة الإرادة مالا يجدون؛ فيكون له شأن غير شأنهم، ويبلغ في المحامد شأواً أبعد من شأوهم.

ولو نظرت إلى كثير ممن ظهروا أكثر مما ظهر غيرهم، وأقمت موازنة بينهم وبين كثير من لِداتهم[1] لم تجد في أولئك الظاهرين مزيةً يرجح بها وزنهم غير أنهم يهمون بالأمر فيعملون.

وإذا جعلت تتقصَّى أثر دولةِ الموحدين التي وضعت قدمها في فاس، وبسطت أجنحتها على الأندلس والجزائر وتونس - وجدت أقصى هذه الدولة همةً طفحت بها نفس محمد بن تومرت بعد انصرافه عن مجالس أبى حامد الغزالي وأبى بكر الطرطوشي، وغيرهما عائداً إلى بلدة المغرب الأقصى، وكم من أمة أو دولة لم ينقذها ممن يبتغي بها سوءاً سوى قوة الإرادة، وقد يكون فيما صنع هارون الرشيد بالبرامكة غلوٌّ في الانتقام، وسرفٌ في القتل.

ولكنَّ تنقيةَ مناصبِ الدولة منهم لم تكن إلا بِنْتُ اليقظة والإرادة التي لا

(١) لداتهم: أقرانهم.

يأخذها التردد في قطع المكر السيئ من جذوره .

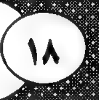
وإذا صح ما يصفهم به بعض أهل العلم[١] من أنهم كانوا يكيدون للإسلام كيد الباطنية ، كان لهارون الرشيد موقفٌ خيرٌ من موقف المنتقم لملكه أوملك أسرته من بعده.

فإذا كان صدق العزيمة من أفضل خصال الشرف وأجلها في الإصلاح أثراً فجدير بأساتيذ التربية أن يعطوه من عنايتهم نصيباً وافراً، وحقيق بالرجال القوامين على الشؤون العامة أن يأخذوا به أنفسهم ، ويقيموه شاهداً على كفايتهم؛ فإن ما بيننا وبين المدنية الفاضلة ، والحياة الآمنة مسافةً طويلة المدى ، صعبة المرتقى ، إذا لم نقطعها بالعزم الصارم ، والعمل المتواصل ظلمنا أنفسنا ، ولم نقض حق الأجيال بعدنا؛ فمن واجبهم علينا أن نبني لهم صروحاً من العز شامخة؛ فإن لم نستطع هيأنا لهم أسساً؛ ليرفعوا عليها قواعد الشرف والمنعة ، فإذا هم أحرارا في أوطانهم حقاً ، مكرمون لنزلائهم طوعاً.

وما اقترن العزم الصحيح بأدب التوكل على من بيده ملكوت كل شيء إلا كانت عاقبته نجاحاً ورشداً ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ .

---

(١) هذا ما قرره القاضي أبو بكر العربي في كتاب القواصم والعواصم.



اعرف نفسك[1] للشيخ علي الطنطاوي

إنكم تسمعون كل يوم أحاديث في الجد والهزل، وفي الخير وفي الشر، أحاديث تدعو إلى الوطنية، وأحاديث تسمو بالخلق، وأحاديث فيها متعة وفيها تسلية؛ ولكن حديثي الليلة أهم من هذه الأحاديث كلها، لا لأني أنا كاتبه، أعوذ بالله من رذيلة الغرور، بل لأنه أمسُّ الموضوعات بكم، وأقربها إليكم، ولأنه دعوة لكم لتعرفوا أنفسكم.

لا تضحكوا يا سادة، ولا تظنوا أني أهزل، ولا تقولوا: ومن منا لا يعرف نفسه؟ فإن كان مكتوباً على باب معبد أثينة كلمة سقراط: «أيها الإنسان اعرف نفسك».

ومن يوم سقراط إلى هذه الأيام، لم يوجد في الناس ـ إلا الأقل منهم ـ من عرف نفسه!.

ومتى تعرف نفسك يا أخي، وأنت من حين تصبح إلى حين تنام مشغول عنها بحديث أو عمل أو لهو أو كتاب؟.

ومتى تعرف نفسك وأنت لا تحاول أن تخلو بها ساعة كل يوم تفكر فيها، لا يشغلك عنها تجارة ولا علم ولا متاع؟.

ومتى وأنت أبداً تفكر في الناس كلهم إلا نفسك، وتحدثهم جميعاً إلاّها؟.

تقول: أنا فهل خطر على بالك مرة واحدة أن تسأل: من أنا؟ هل جسمي هو

---

(١) نشرت عام ١٩٥٢م، انظر كتاب (صور وخواطر) ص٤٧ـ٥٠.

(أنا)؟ هل أنا هذه الجوارح والأعضاء؟.

إن الجسم قد ينقص بعاهة أو مرض، فتبتر رجل، أو تقطع يد، ولكن لا يصيبني بذلك نقصان!.

فما أنا؟

ولقد كنت يوماً طفلاً ثم صرت شابّاً، وكنت شابّاً وصرت كهلاً؛ فهل خطر على بالك أن تسأل: هل هذا الشاب هو ذلك الطفل؟ وكيف؟ وما جسمي بجسمه، ولا عقلي بعقله، ولا يدي هذه يد الصغيرة. فأين ذهبت تلك اليد؟ ومن أين جاءت هذه؟

وإذا كانا شخصين مختلفين فأيهما أنا؟ هل أنا ذلك الطفل الذي مات ولم يبق فيَّ من جسده ولا فكره بقية؟ أم أنا الكهل الذي يلقي هذا الحديث؟ أم أنا الشيخ الذي سيأتي على أثره بجسمه الواني وذهنه الكليل؟ ما أنا؟.

وتقول: حدَّثْتُ نفسي، ونفسي حدثتني؛ فهل فكرت مرة، ما أنت؟ وما نفسك؟ وما الحد بينهما؟ وكيف تحدثك أو تحدثها؟.

وتسمع الصباح جرس الساعة يدعوك إلى القيام، فقد حان الموعد، فتحس من داخلك داعياً يدعوك إلى النهوض، فإذا ذهبت تنهض ناداك منك منادٍ أن تَرَيَّثْ قليلاً، واستمتع بدفء الفراش، ولذة المنام.

ويتجاذبك الداعيان: داعي القيام وداعي المنام؛ فهل تساءلت ما هذا؟ وما ذاك؟ وما أنت بينهما؟ وما الذي يزين لك المعصية، ومن يصوِّر لك لذتها؟ ويحرُّك إليها؟ وما الذي ينفرك منها، ويبعدك عنها؟.

يقولون: إنها النفس وإنه العقل؛ فهل فكرت يوماً ما النفس الأمَّارة بالسوء؟ وما العقل الرادع عنه؟ وما أنت؟.

وتثور بك الشهوة، حتى ترى الدنيا كلها مخدع الحبيب، والحياة كلها متعة الجسد، وتتمنى أماني لو أعطيها شيطان لارتجف من فظاعتها الشيطان، ثم تهدأ شهوتك فلا ترى أقبح من هذه الأماني، ولا أسخف من ذلك الوصول!

ويعصف بنفسك الغضب حتى ترى اللذة في الأذى، والمتعة في الانتقام، وتغدو كأن سَبُعاً حلَّ فيك، فصارت إنسانيتك وحشيَّة، ثم يسكت عنك الغضب، فتجد الألم فيما كنت تراه لذة، والندم على ما كنت تتمناه.

وتقرأ كتاباً في السيرة، أو تتلو قصة، أو تنشد قصيدة؛ فتحس كأن قد سكن قلبك ملَك، فطرت بغير جناح إلى عالم كله خير وجمال، ثم تدع الكتاب، فلا تجد في نفسك ولا في الوجود أثارة من ذلك العالم.

فهل تساءلت مرة ما أنا من هؤلاء؟ هل أنا ذلك الإنسان الشهوان الذي يستبيح في لذَّته كل محرَّم ويأتي كل قبيح؟ أم ذلك الإنسان البطَّاش الذي يشرب دم أخيه الإنسان، ويتغذى بعذابه ويسعد بشقائه؟ أم ذلك الإنسان السامي الذي يحلق في سماء الطهر بلا جناح؟ أسبع أنا أم شيطان أم ملك؟.

أتحسب أنك واحد وأنك معروف، وأنت جماعة في واحد، وأنت عالم مجهول؟ كشفتَ مجاهل البلاد، وعرفت أطباق الجو، ولا تزال أنت مخفيَّاً لم يَظْهر على أسرارك أحدٌ؛ فهل حاولت مرة أن تدخل إلى نفسك، فتكشف مجاهلها؟.

نفسك عالم عجيب، يتبدل كل لحظة ويتغيَّر، ولا يستقرُّ على حال: تحب

المرء فتراه ملكاً، ثم تكرهه فتبصره شيطاناً، وما ملكاً كان قط ولا شيطاناً، وما تبدل، ولكن تبدلت حالة نفسك.

وتكون في مسرَّة فترى الدنيا ضاحكة، حتى أنك لو كُنت مصوراً لملأت صورتها على لوحتك بزاهي الألوان، ثم تراها وأنت في كدر باكية قد غرقت في سواد الحداد.

وما ضحكت الدنيا قطُّ ولا بكت، ولكن كنت أنت الضاحك الباكي.

فما هذا التحوُّل فيك؟ وأيُّ أحكامك على الدنيا أصدق، وأي نظريك أصح؟ وإذا أصابك إمساك فنالك منه صداع، ساءت عندك الحياة، وانمحى جمال الرياض، وطمس بهاءُ الشمس، واسودَّ بياضُ القمر، وملأت الدنيا فلسفة شؤم إن كنت فيلسوفاً، وحشوت الأسماع شعر بؤس إن كنت شاعراً، فإذا زال ما بك بقدح من زيت الخروع، ذهب التشاؤم في الفلسفة، والبؤس في الشعر؛ فما فلسفتك يا أيها الإنسان؟ وما شعرك إن كان مصدرهما فَقْدُ قدحٍ من زيت الخروع؟.

وتكون وانياً، واهي الجسم، لا تستطيع حراكاً، فإذا حاق بك خطر، أو هبط عليك فرح وَثَبت كأن قد نشطت من عقال، وعدوت عَدْوَ الغزال، فأين كانت هذه القوة كامنة فيك؟ هل خطر على بالك أن تبحث عن هذه القوة فتحسن استغلالها؟ هل تساءلت مرة عندما تغضب أو تفرح فتفعل الأفاعيل كيف استطعت أن تفعلها؟.

إن النفس يا أخي كالنهر الجاري؛ لا تثبت قطرة منه في مكانها، ولا تبقى لحظة

على حالها، تذهب ويجيء غيرها، تدفعها التي هي وراءها، وتدفع هي التي أمامها.

في كل لحظة يموت واحد ويولد واحد، وأنت الكل؛ أنت الذي مات، وأنت الذي ولد؛ فابتغ لنفسك الكمال أبداً، واصعد بها إلى الأعالي، واستَولِدْها دائماً مولوداً أصلح وأحسن، ولا تقل لشيء: لا أستطيعه؛ فإنك لا تزال كالغصن الطري؛ لأن النفس لا تيبس أبداً، ولا تجمد على حال ولو تباعدت النقلة، وتباينت الأحوال، إنك تتعود السهر حتى ما تتصور إمكان تعجيل المنام؛ فما هي إلا أن تبكر المنام ليالي حتى تتعوده، فتعجب كيف كنت تستطيع السهر؟

وتدمن الخمر حتى ما تظن أنك تصبر عنها؛ فما هي إلا أن تدعها حتى تألف تركها، وتعجب كيف كنت تشربها؟!

وتحب المرأة حتى ما ترى لك حياة إلا بها، فما هي إلا أن تسلوها حتى تعجب كيف كنت تحبها؟!

فلا تقل لحالة أنت فيها: لا أستطيع تركها؛ فإنك في سفر دائم، وكل حالة لك محطة على الطريق، لا تنزل فيها حتى ترحل عنها.

فيا أخي! اعرف نفسك، واخلُ بها، وغُصْ على أسرارها، وتساءل أبداً: ما النفس؟ وما العقل؟ وما الحياة؟ وما العمر؟ وإلى أين المسير؟.

ولا تنس أن من عرف نفسه عرف ربه، وعرف الحياة، وعرف اللذة الحق التي لا تعدلها لذة، وأن أكبر عقاب عاقب به الله من نسوا الله أنه أنساهم أنفسهم!

١٩ الطموح[1] للشيخ العلامة محب الدين الخطيب

خلوت بنفسي ليلة، وحاولت الالتجاء إلى سكينة الماضي؛ لأستريح من ضوضاء الحاضر؛ فتَمَثَّلْتُ أجيال البشر الغابرة، وجماعات الأمم الخالية كأنها المواكب تجتاز الوهاد والآكام، أوالمراكب تمخر في بحار الأيام.

وما من موكب سائر في قفر، أو مركب سائر في بحر إلا وله عند الأفق مَشْعَل تلوح أنواره من بعيد وهذا المشعل هو المطمح السياسي العام الذي تتخذه القوميات هدفاً لها في كل أعمالها، فتتجه نحوه الأنظار والألباب، وتتوحد به الجماعات والأحزاب.

إن الارتفاع والانحطاط من شأن هذه المواكب وهي في قفارها، ومن دأب هذه المراكب وهي في بحارها؛ ففي حالتي الاعتدال والارتفاع يكون المشعل بادياً لطالبيه، ومِنْ ثَمَّ يكون السير مستمرّاً على هدى نحو الهدف المعين.

وأما إذا جاء دور الانحطاط فهنالك تغيب أشعة المشعل عن الناظرين إليها، فتختلف الأفكار في تعيين الغاية المنشودة، وبالتالي تتعدد المسالك، ويتشتت شمل سالكيها، ولذلك قال الدكتور غوستاف لوبون:

«ليس التاريخ إلا رواية الأحداث والأفعال التي قام بها الناس سعياً وراء المطمح، ولولا هذا لظل الإنسان على بربريته، ولما كان له من المدنية نصيب.

وإن انحطاط الأمة يبتدئ يوم لا يكون للأمة مطمح تحترمه بجملتها، فيجاهد

---

(١) الحديقة ٧/ ٧٦ ـ ٨١، عام ١٣٤٩هـ

كل فرد منها بنفسه في سبيل حمايته والذود عنه».

وفي اعتقادي أنه ليس هناك كبير خوف على المطمح إذا كانت الأمة تعرفه وتتعلق به، وتلمح أشعته أثناء سيرها في موكب الأيام مع طبقات الأيام.

وإنما الخوف من انحطاط يخفى فيه على الأمة مطمحها؛ فتجهل غايتها العامة، ومقصدها الأسنى.

وحينئذ يظهر في الأمة أناس ممتازون من أهل الطموح فيفنون في أمتهم، ويتنازلون عن شخصياتهم، ويصرفون كل قوتهم في سبيل إنهاض موكبهم إن كانوا في بر، أو مركبهم إن كانوا في بحر، حتى يجعلوه في مستوى معتدل أو مرتفع، فيلوح للأمة حينئذ شُعَاعُ مشْعَلِها؛ فتهتدي إلى طريقها على نور المطمح السياسي العام.

المطمح السياسي لهذه الأمة - في كل أعصارها وأقطارها - هو الحرية والاستقلال، وأهل الطموح هم الذين يأخذون بيد الأمة وهي سائرة في موكب الأيام، فيرتفعون بها من وَهْدَةٍ إلى أَكَمَةٍ، أو ينتشلون مركبها من هوة إلى رأس لجة، حتى تكون مُبْصرةً مِشْعَلَها المنيرَ في الأفق، فتسير نحوه بأقدام ثابتة كإقدام الأسود، وبخطوات واسعة كخطوات المرَدَةِ.

مثل ذوي الطموح في الأمم كمثل العزم النوراني الشفاف المنبث في مواكب الأيام يدفعها نحو مشاعلها المتألقة في الآفاق، أو كالقوة البخارية التي تحرك مراجلَ مراكبِ الأنام؛ لتبلغ بها غاياتها المنشودة.

وكما أن قيمة المواكب تقاس بمبلغ ما فيها من نور العزائم، وقيمة المراكب

تقاس بقوة البخار المحرك لمراجلها ـ فكذلك الأمم ما زالت، ولن تزال تقدر بأقدار أفرادها الممتازين، ورجالها البعيدة مرامي أنظارهم، الذين ندعوهم بذوي الطموح.

إن كلمة الشهيد محمد المحمصاني لأخيه محمود وهما صاعدان إلى المشنقة تُعدُّ من الكلمات المأثورة التي يحفظها كل مجاهد من شباب أمتهما.

ولا ريب أن مثل هذه الكلمة من الآيات الملهمة إلى قلوب ذوي الطموح؛ فلا يشعر بها في ذلك الموقف إلا الرجل الذي فَنِيَ في أمته؛ فصار لا يتألم إلا بآلامها، ولا يسر إلا بمسراتها، ولا تطلب نفسه إلا ما تحتاج إليه أمته في حياتها العامة، ولا يرى خطراً على نفسه غير الخطر الذي يداهم أمته في حريتها واستقلالها، وفي عزتها وهنائها.

شاب وصل عنقه إلى حبل المشنقة ثم لا يزال ناسياً نفسه، مستغرقاً في التفكير بقضية أمته، راضياً ـ عن طيب خاطر ـ أن تكتسب الأمة حياة من طريق موته، ووجوداً من طريق عدمه، واستقلالاً من طريق التحكم في أثمن شيء يملكه وهو نفسه.

هذا هو الطموح الذي جعلته موضوع مقالي وبه تَهُبُّ الأمة فترتفع من وهدتها حتى يشرف موكبها على منطقة الأفق، فيرى مشعَل المطمح العام، فيأنس به، ويُوَجِّهَ نحوه الأبصار والبصائر.

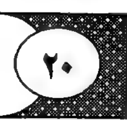
إن حكمة الله في فوز أهل الطموح دائماً ظاهرة من هبوط آيات الطموح الملهمة على قلوب أصحاب الحق، والحق من أسماء الله ـ تعالى ـ.

وإن من سنة الله في خلقه أن يقيض للحق أنصاراً من وراء سجف الغيب يؤيد بهم الثابتين على تأييد حقهم، المضحين بأرواحهم في سبيل الوصول إلى مطمح بني قومهم، الفانين في مصالح أوطانهم.

في استطاعة كل رجل من أفراد الأمة أن يكون من أهل الطموح إذا أذاب نفسه في الأمة والوطن، فصار يرى كل شيء فيه منهما ولهما، فإذا شعر بأن الأمة مهددة بخطر ينتاب مطمحها السياسي العام أدرك أنه لا قيمة بعد ذلك لماله وولده ونفسه فينسى كل هذه المقدسات الشخصية.

بمثل هؤلاء نهضت الأمم، وسلِمت الأوطان، وعلى قلوب هؤلاء هبطت ملهمات الفضائل، وعلى أيدي هؤلاء تتم جلائل الأعمال، وكل فرد يستطيع أن يكون منهم، وإن من عادة الأبطال من أهل الطموح أن يولدوا رجالاً كاملين عندما تتمخض بهم المصائب.

والليالي من الزمان حبالى مثقلات يَلِدْنَ كلَّ عجيبه



٢٠ تربية الإرادة[1] للأستاذ أحمد أمين

ليس يمكن أي إصلاح خلقي إلا إذا ربينا الإرادة أولاً، فإذا طالبنا شاباً أو شابةً بضبط النفس عند الغضب، أو عدم الإسراف في الملذات، أو بالشجاعة عند الجبن، أو بالعدل عند الظلم ـ فلا قيمة لكل هذه النصائح ما لم تسبقها عند الشاب أو الشابة إرادة قوية رباها صاحبها؛ لينفذ بها ما اعتقد أنه حسن، ويتجنب بها ما اعتقد أنه ضار؛ فانصح ما شئت، وكرر النصح ما أردت، فليس لهذا كله قيمة إذا لم يكن المنصوح قوي الإرادة يستطيع بها أن يسيطر على نفسه.

ولكن كيف نربي إرادتنا؟

انظر إلى من يريد أن يتعلم ركوب الدراجة أو كما نسميها «البسكليت» إن الشخص أول الأمر لا يستطيع ضبطها ولا يحسن السير عليها؛ فهو يتأرجح مرة ذات اليمين ومرة ذات اليسار، وكثيراً ما يبدأ ثم يقع، وأخيراً وبعد جهد جهيد تستقيم في يده البسكليت، ويسير بها سيراً حسناً ويعدو بها ويتجنب الأخطاء حتى ليأتي بالأعاجيب في السير بها، فماذا حدث؟ البسكليت هي البسكليت لم تتغير، وهي دائماً مطيعة خاضعة، ولكن الذي تغير هو راكبها؛ فقد كان لا يحسن حركاتها، ثم أحسنها، ولا يمكنه ضبط نفسه عليها ثم ضبطها؛ فالتغير إنما حدث في النفس لا في البسكليت، كذلك الشأن في كل أنواع الحياة، لابد من

---

(١) فيض الخاطر، ٩/ ٢٨٠ ـ ٢٨٤.

السيطرة أولاً على النفس ثم مواجهة الأحداث، لابد أولاً من تربية الإرادة، وبعد ذلك يمكن مواجهة المشاكل بالإرادة وحلها.

إن ضعيف الإرادة يتأرجح في أمره كما يتأرجح راكب الدراجة عند ركوبها لأول مرة، فإذا هو ربى إرادته سار سيراً متوازناً معتدلاً متجنباً الأخطاء، كما يفعل راكب الدراجة إذا اعتادها.

وكما يحتاج راكب الدراجة إلى جهد جهيد أول أمره حتى يستقيم له السير، وحتى يسير سيراً هيناً من غير بذل جهد كبير ـ كذلك الشأن في تربية الإرادة يحتاج المرء أول أمره إلى كبير جهد، وقوة وتصميم، وصحة عزم، واحتمال الشدائد، ثم تسير الأمور بعد ذلك في يسر وسهولة من غير جهد ملحوظ، ولذلك جاء في الحديث: **«إنما الصبر عند الصدمة الأولى»**.

فمن صبر على الشدة الأولى في تربية إرادته كان ما بعدها أهون.

إن الذي يفسد الإرادة أن تعزم، وتَعْدِلُ، ثم تعزم، وتعدل، فيكون شأنك شأن بَكْرةِ الخيط يلقي صاحبها عليها الخيط ثم ينقض ما لف.

وبعدما يصبر المرء على الشيء الذي يريده ويربي فيه إرادته، يصبح عادة يأتي به من غير عناء كبير؛ فالرجل الفاضل الذي اعتاد الإتيان بالأعمال الفاضلة كالرجل الشرير الذي اعتاد أن يأتي بالأعمال الشريرة، كلاهما تصدر عنه الأعمال في يسر وسهولة، وليس من فرق بينهما إلا أن الأولَ وجه إرادته وعوَّدها أعمالاً صالحة، والثاني وجه إرادته وعوَّدها أعمالاً سيئة.

وكثير من الشباب يقع في العادات السيئة من غير تفكير وعن غير قصد، إنما

هم ينساقون مع التيار، يجدون بعض الشبان المستهترين يتجهون اتجاهاً سيئاً؛ فيسيرون في اتجاههم من غير وعي ولا تفكير ولا إعمال عقل في النتائج، وكان يجب أن يقدروا هذا الاتجاه ويزنوا نتائجه، ثم يسلطوا إرادتهم؛ لتجنيبهم هذا الاتجاه السيئ.

إن أكثر ما يفسد الشبان ويضعف إرادتهم هو الإغراء، يجلس الشاب مثلاً مع بعض أصحابه، فيجد اثنين منهم أو ثلاثة يدخنون، فيعزمون عليه بسيجارة، فيأبى فيلحون عليه، ويبررون تدخينهم بمبررات، مثل أنه يبهج النفس، أو يزيل الكرب، أو نحو ذلك من علل فاسدة؛ فيشرب أول سيجارة فلا يحس لها طعماً، وقد يشعر بشيء من الدوخان؛ فيكرهها، وينفر منها.

ولكن قد يوجد في مثل هذا الظرف؛ فيشربها ثانية، فلا يحس بالألم الأول، وإذا هو مدخن مثلهم.

ولو جرد إرادته للمرة الأولى، واعتزم ألا يدخن ما وقع في هذه العادة السيئة.

وقل مثل ذلك فيمن يشرب الخمر، أو يجري وراء الفتيات، أو نحو ذلك من عادات سيئة كلها إنما يقع الشاب بسبب ما يحيط به من إغراء، ومتى وجد الإغراء وجب على الشاب أن يتسلح بالإرادة القوية؛ ليتقيَ الوقوع في مثل هذه العادات.

كثيراً ما يحدث أن يسكر سائق قطار ويفرط في الشرب؛ فيخطئ في تسيير القطار، ويعرض أرواح الراكبين فيه إلى أشد الأخطار.

وقد روي لنا كثيرٌ من هذه الأحداث؛ فلنتصورْ كيف يجني سائق هذا القطار

على من يحمل مسؤوليتهم من الركاب، ولنتصورِ الفزع الذي يعرض للركاب لو علموا بحالة سائقهم.

والحقيقة أن كل إنسان هو سائق قطار؛ أعني أن نفسه تسوق قطاراً، وأن مثل هذه العادات السيئة مثل الخمر الذي يشربها السائق تقوده إلى أشد الأخطار، وليس هناك دواء لتجنب هذا الخطر إلا الإرادة القوية التي تحمي صاحبها من السكر عند سَوْق القطار.

ومع الأسف كثير من الشبان لا يفهمون هذا، ويسوقون قطار أنفسهم وهم سكارى، ولا يفيقون من سكرهم إلا بعد الاصطدام، وفوات الوقت، وخسارة النفس.

لابد أن يعوِّد الشاب نفسه إيقاظ العقل، وقوة الإرادة، والشعور بالواجب؛ ليقاوم هذا الإغراء، مثل ذلك مثل من استحلى النوم في السرير مع مجيء موعد عمله؛ فإنه إذا استسلم للنوم والخمول والكسل ضعفت إرادته.

ولكن إذا أشعر نفسه بواجبها، ونبَّه وعيَه؛ لوجوب الانتباه، والقيام من السرير؛ لمباشرة عمله ـ استطاع بذلك أن يقاوم الإغراء، ويباشر العمل.

وهكذا الشأن في شؤون الحياة كلها، إذا استسلم للراحة، واستسلم للإغراء خمل عقلُه، ونامت إرادتُه، ولم ينتبه إلى ما يجب أن يعمل إلا بعد فوات الأوان.

وعظماء الناس إنما كان سر عظمتهم في قوة إرادتهم، وإطاعة عقلهم لا شهوتهم، وتمرين إرادتهم على العمل الجاد أمام الصعاب الحادة.

إن الرجل العظيم يتلذذ من مقاومة الإغراء ويتلذذ من السيطرة على نفسه، ويحس اغتباطاً من أنه غلب الإغراء ولم يغلبه، وصبر على الشدة ولم يخضع لها، وفي التاريخ أمثلة كثيرة من هذا القبيل؛ فقول رسول الله ﷺ «**والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته**» معناه أن أي إغراء مما اعتاد الناس أن يخضعوا له ويتركوا مبادءهم من أجله لا يغريني، ولا يؤثر في مبادئي وتعاليمي.

وموقفُ أبي بكر ﷺ يوم ارتد كثير من العرب، وأبوا أن يدفعوا الزكاة، ونُصْحُ بعض الناس له بأن يلين معهم، ورَفْضُه ذلك، وتصميمُه على الحرب وألا يقبل من العرب إلا الإسلام كله كاملاً من غير أن ينقص منه شيء- قوة في العزم، وقوة في الإرادة، ومقاومة للإغراء.

وموقف ابن تيمية وقد أراده السلطان على أن يعدل عن رأيه الذي وصل إليه اجتهاده وبحثه فأبى، ثم حبسه وعذَّبه فأبى، وكان وهو في السجن يكتب الكتب يشرح مبادئه وتعاليمه، ويستدل على صحتها، ثم لما منع عنه القلم والورق أخذ الفحم، وصار يكتب على حيطان السجن في شرح أدلته وبراهينه على تعاليمه- مثلٌ صالحٌ كذلك على قوة الإرادة، وصحة العزم، وشدة التصميم، وعدم الاستماع إلى المغريات أو التخويف.

وكثير من المؤرخين كانوا يرون أن سر نجاح نابليون في حروبه كان في سرعة تصميمه، ومواجهة العدو بكل قوته.

وعلى كل حال فتربية الإرادة، وقوتها وتعويدها مقاومة الإغراء سر النجاح،

وسر الاستقامة، وحصن حصين من الزلل.

ومن ربى إرادته أمكن إصلاحه، وأمكن حسن توجيهه.

ومن فقد إرادته فلا أمل مطلقاً في تقويمه إلا أن يبدأ من جديد؛ فيعالج نفسه كما يعالج المريض، ويصبر على العلاج المر؛ حتى يشفى من الداء.



اصنع حياتك[1] للأستاذ أحمد أمين

كل إنسان في هذه الحياة قادر ـ إلى حد ما ـ أن يصنع حياته فقيرة أو غنية، خصبة أو مجدبة، سعيدة أو شقية، باسمة أو عابسة.

نعم إن للوراثة والبيئة دخلاً في تحديد حياته، فهو ـ إلى حد كبيرة ـ ذكي أو غبي بالوراثة، قوي الأعصاب أو ضعيفها بالوراثة، وهو ناشئ في وسط فقير أو غني بالبيئة، معتادٌ عاداتٍ حسنةً أو سيئةً بالبيئة وهكذا...

ولكنَّ إرادةَ الإنسان، وعزمه، وهمته، وتربيته نفسه قادرةٌ قدرةً كبيرةً على التغلب على عقبات الوراثة، والبيئة.

نعم إنَّك لا تقدر أن تكون في الذكاء قوةَ مائةٍ إذا خلقت وذكاؤك قوة عشرين، ولكنك قادر أن تستعمل ذكاءك المحدود خير استعمال حتى يفيد فائدة أكثر ممن ذكاؤه مائة إذا أهمل؛ كمصباح الكهرباء إذا نُظِّف وكانت قوته عشرين شمعة كان خيراً من مصباح قوته خمسون إذا عَلَتْهُ الأتربة، وأهمل شأنه.

ونعم إنك لا تقدر أن تساير أبناء الأغنياء في ملبسهم، ومأكلهم، ومركبهم، ولكنك تستطيع أن تعيش عيشة نظيفة، وصِحِّية بدخلك القليل، حتى تفوق الغني في مظهره البراق إذا لم يسر على قوانين العقل، والصحة، وهكذا...

إذاً فالوراثة والبيئة لا تعوقان الإنسان عن إسعاد حياته إذا منح الهمة، وقوة الإرادة، والتفكير الصحيح، ومجال القول في ذلك فسيح، ولكني أقتصر هنا

---

(١) فيض الخاطر ٦/ ٢٤١ـ٢٤٥.

على بعض هذه المبادئ.

أول نصيحة لك ألاّ تيأس، وأن تتوقع الخير في مستقبلك، ولا تقطب وجهك زاعماً أن الخير مُنِحَهُ غيرُك، وليس لك منه نصيب، وَوَسِّع أفقك، واعتقد أن العناية الإلهية لن تحرمك الخير في مستقبلك؛ فاعتقادك أن لا مستقبل لك، ولا أمل في حياتك، وأن لا خير ينتظرك سمٌّ قاتل يضني الإنسان حتى يميته.

وعلى العكس من ذلك توقعه الخير، وأمله في الحياة يوسع أفقه، ويحمله على أن يوسع معارفه في الحياة، وعلى الجد فيما اختاره لنفسه من صنوف العيش، وعلى استعمال المادة التي في يده خير استعمال.

لا تتعلل بأنك لست نابغة، ولا أن الظروف لا تواتيك ونحو ذلك؛ فالعالم لا يحتاج إلى النوابغ وحدهم، والنجاح ليس مقصوراً على النابغين وحدهم، وبذرة الجوافة ليس من حقها أن تطمح في أن تكون شجرة مانجو أو شجرة تفاح، ولكن ما ضرها أن تكون شجرة جوافة حلوة لذيذة، والحياة تتطلب الجوافة كما تتطلب المانجو والتفاح.

إن كثيراً من الشُبَّان يعتقدون أن هناك مَنْ مُنِحُوا قدرة على التفوق من غير جهد، وعلى الإتيان بالعجائب من غير مشقة، وعلى قلب التراب ذهباً بعصا سحرية، ولكن كل هذه أفكار عائقة عن العمل، وعن النجاح.

كل من ساروا في طريق العمل بدءوا حياتهم بنوع من الغموض، والشك، والظلام، ولكن من نجح منهم إنما نجح؛ لأنه بعد أن بدأ حياته أحسَّ أنَّ في يده مصباحاً من نفسه يضيء له الطريق، ويستحثه على السير، وكلما تقدم إلى

الأمام خطوة استحثه عزمه على متابعة الخطى في غير خوف، ولا ملل، ومتى أراه مصباحه أنه سائر على هدى، وعلى صراط مستقيم لم يتشكك في سيره، ولم يتعجل النجاح، واستمر في طريقه حتى يبلغ الغاية.

وخير وسيلة للنجاح في الحياة أن يكون للشاب مثل أعلى عظيم يطمح إليه، وينشده، ويضعه دائماً نصب عينيه، ويسعى دائماً في الوصول إليه: أن يكون عالماً عظيماً، أو تاجراً عظيماً، أو صانعاً عظيماً، أو سياسياً عظيماً؛ فمن قنع بالدون لم يصل إلا إلى الدون.

ونحن نشاهد في حياتنا العادية أن من عزم أن يسير ميلاً واحداً أحسَّ التعب عند الفراغ منه، ولكن من عزم أن يسير خمسة أميال قطع ميلاً، أو ميلين وثلاثة من غير تعب؛ لأن غرضه أوسع، وهمته المدخرة أكبر.

إنا نشاهد أن كل من رسم لنفسه غرضاً يسعى إليه، وأخلص له، واستوحاه، واجتهد في الوصول إليه ـ نجح في حياته، ولو لم يدرك الغايةَ كلَّها أدرك جانباً عظيماً منها.

أكبر أسباب فشلنا أننا نخلق لأنفسنا أعذاراً، وأوهاماً، وعوائقَ؛ حتى تُكَوِّن لنا سَدّاً كبيراً كسدِّ الصين حجارتُه أحياناً سوءُ الظنِّ، وأحياناً تخذيلُ النفسِ، وأحياناً الشكُّ في النتيجة، وأحياناً الخوفُ من الفشل، وأحياناً الكسلُ، إلى غير ذلك من أسباب.

ولا تزال هذه الأحجار تتراكم حتى يحجب السور الشمس عن أعيننا، فلا نرى خيراً، ولا نرى غاية.

ليس الإنسان إلا بذرة أو نبتة تسعى دائماً للخروج إلى الشمس، والهواء الطلق، وثمرتها إنما تثمر بحظها من هذين، وبذرة الإنسان يقضي عليها بهذه العوائق التي ذكرنا؛ فلا تثمر.

إن هذا المثل الأعلى الذي يجب أن ينشده الشباب يجب ألا يكون المال وحده ولو من طريق التحايل، والمكر، واستغلال الآخرين لمصلحته، وابتزاز الضعفاء لشخصه؛ فتلك وسيلة من الوسائل الحقيرة، والنجاحُ المؤسسُ على نجاحٍ حقيرٍ رخيصٌ.

إنما النجاح الحق أن يجمع - إلى نجاحه في عمله - نُبْلَه في خلقه، وصدقَه، وأمانته في نفسه، وعطفه، وتسامحه، وبره بالضعفاء وذوي الحاجة، فلم يخلق الناس حوله؛ ليكونوا مادة لاستغلاله، إنما خلقوا؛ ليتبادل معهم المنافع، والخير العام.

إن مما يؤسف له أن نرى الآن موجةً تطغى على الناس أن يقيسوا نجاح الشخص بما حصله من المال؛ فالموظفُ مقدارُ نجاحِه الدرجةُ التي نالها، والتاجرُ ما كسب في تجارته من غير سؤال دقيق عن الوسائل التي استخدمها في حصوله على هذه الدرجة، ووصوله إلى هذا المال، أبالملق، والخداع، والحيل، وقول الزور، والبهتان، وضياع المبادئ، أم بغير ذلك؟

أبالتلاعب في التجارة، واستغلال الضعفاء، وانتهاز الفرص، أم بغير ذلك ؟

إن كان الأول فليس في الحقيقة نجاحاً، إنما هو نجاح إذا سمينا السارق لا ينضبط بجريمته ناجحاً؛ فالحصول على المال، والدرجة وحده لا يكفي ما لم نقف

طويلاً، ونتساءل عن الوسائل التي استخدمها في الحصول على غرضه، أو سائل شريفة فذلك النجاح، أو وضيعة فلا نجاح، بل إنَّ الشخص إذا رسم مثله الأعلى في النجاح مع الأخلاق، وسار عليها ثم لم يصل إلى غايته، ولم يُدْرِك بغيته ـ خيرٌ ألفَ مرةٍ للمجتمع ممن جعل كل غرضه المال مهما تَخَطَّى في سبيل ذلك رقاب الناس.

ليس الإنسان حيواناً آكلاً شارباً فحسب حتى يقدَّرَ نجاحه بمقدار ما يحصل من مال يأكل به أفخم الأكل، ويشرب به أعذب الشراب، إنما الإنسان فوق ذلك إنسان يستمتع بحب الخير، وإدراك جمال الدنيا، وجمال الأفعال، ويشعر بالسمو.

إن الغِنَى إذا طُلب يجب أن يطلب بجانبه غنى النفس، وتسليحُها بحب الخير، والعمل للخير وما قيمة أموال تُكَدَّس، وذهب، وأوراق مالية تجمع، إذا صحبها فقر النفس؟

إن غنى النفس في حب التسامي، وحب الخير الرحمة، وحب تقديم الخير، والأخذ بيد الضعيف وذوي الحاجة، هذا هو الغِنى الدائم، أما غنى المال فغنى بائد.

لست أريد أن أثبِّط الشباب عن الرغبة في النجاح المادي من رغبة في وظيفة راقية، أو تجارة ناجحة، أو عمل يُدِرُ الربح، فذلك مطلب مشروع، ويجب أن يكون، ويجب أن نحارب الزهادة في الحياة، والرضا بالدون من العيش، والميل إلى الكسل، والخمول، والارتكان على الحظ والقدر.

إنما الذي نريد أن نقوله: إن ذلك لا يكفي ما لم يُدْعَم بالخلق، ولا يصح مطلقاً أن تطغى الرغبة في الخلق، والسمو النفسي، ومحاسبة النفس على الوسائل التي نُحَصِّل بها المال.

ومن أهم الأمور في تكوين حياتك وصنعها ثقتك بنفسك، واعتقادك فيها أنها صالحة للحياة قابلة للنجاح، ولا أضر على الإنسان من احتقاره نَفْسَه، واعتقادِه عَجْزَه.

وبعضُ الناس مصابون بهذا المرض، يعتقدون في أنفسهم أنهم لا شيء، وأن لا قيمة لهم، وأن لا أمل في نجاحهم، إما لأنهم ولدوا فقراء، وإما لأنهم ليسوا من بيوت كبيرة.

وهذا أكبر خطأ يرتكبونه نحو أنفسهم، ومن المسؤولين عن هذا خطباء المساجد، والوعاظ؛ فإنهم يجتهدون أن يحقر الإنسان من نفسه، ويعتقد أنه لا شيء، مع أنَّ الأمة لا تحيا، ولا تتقدم إلاَّ إذا وثق أفرادها بأنفسهم، والقرآن نفسه بث روح الثقة بالنفس، والاعتزاز بالأمة، فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران: ١١٠.

وضَعْفُ الثقةِ بالنفس يقتل طموحها، ويقتل استقلالها، ويفقدها حياتها.

ومن طبيعة الناس أنهم يحتقرون من احتقر نفسه، ويدوسون بأقدامهم من استذل.

ومن عادتهم أن يحترموا من احترم نفسه، ويثقوا بمن وثق بها، ويعاملوا معاملة الإنسان من تَذَكَّر دائماً أنه إنسان؛ غاية الأمر أن الإنسان كثيراً ما يخلط بين

الثقة بالنفس، واحترامها وبين الكبرِ والغرورِ؛ **الثقةُ بالنفس**: اعتقادُك بقدرتك على ما تتحمله من أعباء، وما تلتزمه من واجب ومعرفتك الصحيحة بنفسك، ونواحيها الجيدة.

والكبرُ، والغرور: تعظيمُ نفسك أكثر مما تستحق، والمطالبة بالجزاء من غير عمل، وخداع الناس بالمظاهر الكاذبة من غير أن تكون لك قيمة حقيقية.

ثقتك بنفسك، واحترامك لها من غير كبر وغرور أحسن تأمين على الحياة ضد الوقوف في المواقف الخسيسة، وضد أعمال النذالة.

بعد أن يكون لك مثل أعلى تنشئه، وتعمل للوصول إليه، وبعد الثقة بنفسك، واحترامها ـ اجتهد أن تبتسم للحياة؛ فالابتسام للحياة خير دواء للعقل، وخير علاج لاحتمال المتاعب إن أعيته، والابتسام للحياة يضيئها؛ فإن رأيت عابساً فلا بدَّ أن يكون هناك من أخطأ في تربيته من آبائه، أو مدرسيه، وقد أرتنا التجربة أن الفرحين المستبشرين الباسمين للحياة خير الناس صحة، وأقدرهم على الجد في العمل، وأقربهم إلى النجاح، وأكثرهم استفادة وسعادة مما في يده ولو قليلاً.

ومن أكبر النعم على الإنسان أن يعتاد النظر إلى الجانب المشرق في الحياة لا الجانب المظلم منها؛ إن العمل الشاق العسير يخف حمله بالطبع، والنفس الفرحة.

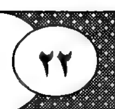
قيل لشيخ هرم: إنك في ظل السبعين من السنين، قال: لا، ولكني في الجانب المشمس من الحياة.

إن الباسم للحياة يرى الجانب المشمس منها، والمتشائم لا يرى إلا الجانب المظلم؛ فعود نفسك هذه العادة، وانثر الأزهار باسماً على كل من عاملته، ولا تنظر للحياة من خلال نَظَّارَةٍ معتمة.

توسيع أفقك، وتحديد مثلك عالياً، وطموحك أن تكون عظيماً، ثم ثقتك بنفسك، واحترامك لها في غير كبرياء وغرور، ثم تفاؤلك، وابتسامك، وسرورك ـ هي الخيوط التي يجب أن تنسج منها حياتك، وما أحسنه من نسيج.

إنك إن فعلت كان ذلك خيراً لك ولأمتك، وكان ذلك نجاحاً عظيماً.

ولو تكسب مالاً كثيراً؛ فما قيمة المال إذا لم تكن سعادة؟ وما قيمة النجاح إذا لم يكن خلق؟ وما قيمة الدنيا إذا عبست في وجهها دائماً؟



٢٢ موت الأمم وحياتها [1] للشيخ محمد البشير الإبراهيمي

إنَّ موت الأمم، وحياة الأمم لفظان مطروقان مستعملان في نصابهما من الوضع اللغوي، كموت الأرض بالقحط، وحياتها بالغيث، لا ينبو بهما ذوق ولا منطق ولا فهم، وإن معناهما لأوسع وأجل من معنى حياة الفرد، وموت الفرد، هذه حياة محدودة، وموت لا رجعة بعده إلاَّ في اليوم الآخر، وتلك حياة ممدودة الأسباب ينتابها الضعف فتعالج، ويُلِمّ بها المرض فتداوى، ويطرقها الوهن فتقوى، ويدركها الانحلال فتشد، ويعرض لها الانتقاض فترمم، وتظلم آفاقها بالجهل فتنار بالعلم.

طالما قال القائلون عن أمتنا: إنها ماتت، وطالما فرح الشامتون بموتها، وطالما نعاها نعاة الاستعمار على مسمع منَّا، وأعلنوا البشائر بموتها في عيدهم المئوي فَعَدَّوه تشييعاً لجنازة الإسلام الذي هو مَسّاك حياة هذه الأمة في هذا الوطن، فقالوا: ماتت لا رحمها الله، وصدقهم ضعفاء الإيمان منَّا فقالوا: ماتت رحمها الله، وقلنا نحن: إنها مريضة مشفية، ولكن يرجى لها الشفاء إن حضر الطبيب، وأحسن استعمال الدواء؛ فحقق الله قولنا، وخيب أقوال المبطلين وكذب فألهم، فحضر الطبيب في حين الحاجة إليه، وأذن بالإصلاح في آذان المريض فانتفض انتفاضة تطايرت بها الأثقال، وانفصمت الأغلال، وكان من آثارها هذا اليوم

---

(١) نشرت في العدد ١٢٤ من جريدة «البصائر»، ١٩ جوان سنة ١٩٥٠م، وانظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٢/٣٥٠-٣٥١).

الذي لا يصوره الخيال والوهم، وإنما يصوره العيان والواقع.

فإذا بقي في الدنيا ممسوس، يكابر في المحسوس، ولا يصدق بوجود هذه الأمة، ولا يؤمن بحياتها ـ فقولوا له: تطلع من هذه الثنايا على قرية الحنايا، وقارن يومها بأمسها، يراجعك اليقين، ويعاودك الإيمان.

قلنا في هذه الأمة ومازلنا نقول: إن عوارض الموت وأسبابه كلها موجودة فيها من الجهل، والفقر، والتخاذل، وفساد الأخلاق، واختلاف الرأي، وفقد القيادة الرشيدة.

وقلنا ـ مع ذلك ـ ومازلنا نقول: إنها مرْجُوَّة الحياة ما دام مناط الرجاء فيها سالماً صحيحاً، ومناط الرجاء هو نقطة من الإيمان ما زالت لائطة بالقلوب وصِلَةٌ بالقرآن ما زالت مرعية في الألسنة، وإن هذا الرجاء معلق بخيط دقيق لا نقول إنه كخيط العنكبوت، ولكننا نقول: إنه أقوى من السلاسل الحديدية إذا أمده الاستعداد والتدبير الرشيد.

هذه النقطة هي مبعث القوة ولو بعد حين، وهي مكمن السيادة والعزة ولو في الأخير، والسبق يعرف آخر المضمار.

من أطوار هذه الأمة في التاريخ أن اختلف ملوكها وقادتها وساستها، وذاقت من خلافهم الشر والبلاء، واختلف علماؤها في الدين فكان خلافهم وبالاً على الأمة، وتشتيتاً لشملها، وصدعاً لجدار وحدتها، وقطعاً لما أمر الله به أن يوصل من أرحامها، ثم فَرَّ العلماء من الميدان، وتركوه للأمراء المستبدين، ثم ألقى الأمراء المقاليد في أيدي السفهاء من الأنصار والذرية والأتباع، وكل أولئك قد

فعل في هذه الأمة ما لم يفعله «نيرون».

وكل تلك الأعمال قد أثرت في أخلاق الأمة التأثير العميق، وسكت العلماء أذلة وهم صاغرون، يرون الحق مهضوماً فلا ينطقون، والمنكر فاشياً فلا يغيِّرون ولا ينكرون، وهيهات بعد أن تنازلوا عن حقهم طائعين.

يقع ذلك كله في كل طور من الأطوار التاريخية حتى يبتلى المؤمنون، ويظنوا بالله الظنون، وإذا بذلك العرق يتحرك، وإذا بتلك الانتفاضة تعرو، وإذا بالأمة قائمة من كبوتها، تذود قادة السوء عن القيادة، وعلماء السوء عن الإمامة، وتنزل دخيل الشر بدار الغربة.

جَرَّبنا فصحَّت التجربة، وبلونا فصدق الابتلاء، وامْتَحَنَّا فدل الامتحان على أن عرق الإيمان في قلوب هذه الأمة كعرق الذهب في المنجم كلاهما لا يبلى وإن تطاولت القرون، ثم جلونا هذا العرق في عمل ثلاثين سنة خلت فإذا خصائصه الطبيعية لم تتغير.

هذه الأمة كَبَا بِها الزمن، وأدارها على غرائب من تصاريفه حتى أصبحت عوناً له على نفسها، وترصد لها العدو كل غائلة، ففتنها عن دنياها حتى سلمت له فيها، ثم فتنها عن دينها حتى كادت تتلقاه عنه مشوهاً ممسوخاً، وأحاطت بها خطيئاتها من كل جانب فجنت على نفسها بما كسبت أيديها من سوء الأقوال، وفساد الأعمال.

ولكن ذلك العرق المخبوء في تلك المضغة يتحرك، فيأتي بالعجائب.

هذا تَطَوُّر شهدناه في تاريخ الأمة الجزائرية الحديث، كما شاهدناه في تاريخ أسلافها وجيرانها، وما هذا المنظر المعجب المطرب بآخر منظر في رواية التاريخ.



خامساً: مقالات في المدنية والعمران

٢٣ـ المدنية الغربية : للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

٢٤ـ المدنية تحطم الأعصاب : للأستاذ أحمد أمين

٢٥ـ المدينة الفاضلة : للعلامة محمد الطاهر بن عاشور

٢٣ المدنيَّة الغربية[1] للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

سأودّع في هذه النظرة الخيال والشعر وداعَ مَنْ يعلم أن الأمر أعظم شأناً، وأجل خطراً من أن يعبث فيه العابث بأمثال هذه الطرائف التي هي بالهزل أشبه منها بالجد، والتي إنما يلهو بها الكاتب في مواطن فراغه ولعبه لا في مواطن جده وعمله.

إن في أيدينا معشر الكُتَّاب من نفوس هذه الأمة وديعةً يجب علينا تعهدها، والاحتفاظ بها والحدب عليها حتى نؤديها إلى أخلافنا من بعدنا، كما أداها إلينا أسلافنا سالمة غير مأروضة[2] ولا متآكلة، فإن فعلنا فذاك، أولا فرحمة الله على الصدق والوفاء، وسلام على الكُتَّاب الأمناء.

الأمة المصرية أمة مسلمة شرقية، فيجب أن يبقى لها دينها وشرقيتها ما جرى نيلها في أرضها، وذهبت أهرامها في سمائها، حتى تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسموات.

إن خطوة واحدة يخطوها المصري إلى الغرب تدني إليه أجله، وتدنيه من مهوى سحيق يقبر فيه قبراً لا حياة له من بعده إلى يوم يبعثون.

لا يستطيع المصري وهو ذلك الضعيف المستسلم أن يكون من المدنية الغربية إن داناها إلا كالغربال من دقيق الخبز، يمسك خشاره، ويفلت لبابه، أو

---

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة الموضوعة ص١٣٦-١٤٠.

(٢) الخشب المأروض: الذي أكلته الأرضة.

الراووق[1] من الخمر، يحتفظ بعقاره، ويستهين برحيقه؛ فخير له أن يتجنبها جهده، وأن يفر منها فرار السليم من الأجرب.

يريد المصري أن يقلد الغربي في نشاطه وخفته، فلا ينشط إلا في غدواته وروحاته، وقعدته وقومته، فإذا جد الجد، وأراد نفسه على أن يعمل عملاً من الأعمال المحتاجة إلى قليل من الصبر والجلد دَبَّ الملل إلى نفسه دبيب الصهباء في الأعضاء، والكرى بين الجفون.

يريد أن يقلده في رفاهيته، ونعمته فلا يفهم منهما إلا الأولى التأنث في الحركات، والثانية الاختلاف إلى مواطن الفسق ومخابئ الفجور.

يريد أن يقلده في الوطنية فلا يأخذ منها إلا نعيقها ونعيبها، وضجيجها وصفيرها، فإذا قيل له: هذه المقدمات، فأين النتائج؟أسلم رجليه إلى الرياح الأربع واستن في فراره استنان المهر الأرن[2] فإذا سمع صفير الصافر مات وجلاً، وإذا رأى غير شيء ظنه رجلاً.

يريد أن يقلده في السياحة، فلا يزال يترقب فصل الصيف ترقب الأرض الميتة فصل الربيع، حتى إذا حان حينه طار إلى مدن أوروبا طيران حمام الزاجل لا يبصر شيئاً مما حوله، ولا يلوي على شيء مما وراءه، حتى يقع على مجامع اللهو، ومكان الفجور، وملاعب القمار، وهناك يبذل من عقله وماله ما يعود من بعده فقير الرأس والجيب، لا يملك من الأول ما يقوده على طريق السفينة

---

(١) الراووق: المصفاة.

(٢) الأرن: النشيط.

التي تحمله في أوبته، ولا من الثاني أكثر من الجعالة التي يجتعلها منه صاحب الجريدة؛ ليكتب له بين حوادث صحيفته حادثة عودته بجمل الإجلال والاحترام مطرزة بوشائع الإكرام والإعظام.

يريد أن يقلده في العلم، فلا يعرف منه إلا كلمات يرددها بين شدقيه ترديداً لا يلجأ فيه إلى ركن من العلم وثيق، ولا يعتصم به من جهل شائن.

يريد أن يقلده في الإحسان والبر، فيترك جيرانه وجاراته يطوون حنايا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها نار الجوع التهاباً؛ حتى إذا سمع دعوة إلى اكتتاب في فاجعة نزلت في القطب الشمالي، أو كارثة أَلَمَّت بسد يأجوج ومأجوج سَجَّل اسمه في فاتحة الاكتتاب، ورصد هبته في مستهل جريدة الحساب.

يريد أن يقلده في تعليم المرأة وتربيتها، فيقنعه من عملها مقالة تكتبها في جريدة، أو خطبة تخطبها في محفل ومن تربيتها التفنن في الأزياء، والمقدرة على استهواء النفوس، واستلاب الألباب.

هذا شأنه في الفضائل الغربية، يأخذها صورة مشوهة، وقضية معكوسة لا يعرف لها مغزى، ولا ينتحي بها مقصداً، ولا يذهب فيها إلى مذهب، فيكون مثله كمثل جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير الثياب، وقلوبهم ملآى بالأقذار والأكدار، ويجارونهم في أداء صور العبادات، وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاء ولا عن منكر، أو كمثل الذين يتشبهون بِعُمَر في ترقيع الثياب، وإن كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة اليهود.

أما شأنه في رذائلها فإنه أقدر الناس على أخذها كما هي، فينتحر كما ينتحر

الغربي، ويلحد كما يلحد، ويستهتر الفسوق استهتاره، ويترسم في الفجور آثاره.

إن في المصريين عيوباً جمة في أخلاقهم وطباعهم، ومذاهبهم وعاداتهم، فإن كان لا بدَّ لنا من الدعوة إلى إصلاحها فلندع إلى ذلك باسم المدنية الشرقية لا باسم المدنية الغربية.

إن دعوناهم إلى الحضارة فلنضرب لهم مثلاً بحضارة بغداد، وقرطبة، وثيبة، وفينيقيا، لا بباريس وروما، وسويسرا، ونيويورك.

وإن دعوناهم إلى مكرمة، فلنتل عليهم آيات الكتاب المنزلة، وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه، لا آيات روسو وباكون ونيوتن وسبنسر.

وإن دعوناهم إلى حرب، ففي تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وموسى بن نصير، وصلاح الدين - ما يغنينا عن تاريخ نابليون، وولنجتون، وواشنطون، ونلسن، وبلوخر، وفي وقائع القادسية، وعمورية، وإفريقية، والحروب الصليبية، ما يغنينا عن وقائع واترلو، وترافلغار، واسترليتز، والسبعين.

إن عاراً عن التاريخ المصري أن يعرف المسلم الشرقي في مصر من تاريخ بونابرت ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص، ويحفظ من تاريخ الجمهورية الفرنسية، ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية، ومن مبادئ ديكارت، وأبحاث دارون ما لا يحفظ من حكم الغزالي وأبحاث ابن رشد، ويروي من الشعر لشكسبير، وهوجو، ما لا يروي للمتنبي والمعري.

لا مانع من أن يُعَرِّب لنا المعرِّبون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب، والجيد الممتع من أدب كُتَّابهم، وشعرائهم على أن ننظر فيه نظر الباحث المنتقد لا

الضعيف المستسلم؛ فلا نأخذ كل قضية مسلمة، ولا نطرب لكل معنى أدبي طرباً متهوراً.

ولا مانع من أن ينقل إلينا الناقلون شيئاً من عادات الغربيين، ومصطلحاتهم في مدنيتهم على أن ننظر إليه نظر من يريد التبسط في العلم والتجربة والاختبار، لا على أن نقلدها، ونتقلدها، وننتحلها قاعدتنا في استحسان ما نستحسن من شؤوننا، واستهجان ما نستهجن من عاداتنا.

وبعد فليعلم كُتَّاب هذه الأمة وقادتها: أنه ليس من عادات الغربيين، وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيراً؛ فلا يخدعون أمتهم عن نفسها، ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها، ولا يزينوا لها تلك المدنية تزييناً يرزؤها في استقلالها النفسي، وبعدما رزأتها السياسة في استقلالها الشخصي.

٢٤ المدنية تحطيم الأعصاب[1] للأستاذ أحمد أمين

ما أصدق اللغة الحية في تسجيل الأفكار الجيدة؛ فكما أن اللغة تضع الاسم لما تخترع من الآلات والأدوات بمجرد اختراعه كذلك الشأن في المعاني المستحدثة.

ونجد في لغتنا الحديثة كثرة استعمال تهدمت أعصابه، وتحطمت أعصابه، وتوترت أعصابه، ونحو ذلك مما لا نجد في كتبنا القديمة، كما أننا نجد اللغة العامية أكثرت من استعمال «النرفزة» أخذاً من الكلمة الإفرنجية Nervous بمعنى عصبي المزاج، ولم يكن آباؤنا يستعملون هذه الكلمات، ولا التعبيرات؛ لأنهم لم يشعروا بتهدم الأعصاب، وإنما تهدمت أعصابنا بتكاليف المدنية، وأعباء الحياة.

والسبب في هذا الشعور بتهدم الأعصاب كثرةُ تكاليف الحياة، وزيادة أعبائها، وتعدد مطالبها، وانتقال كثير من الكماليات إلى ضروريات مما لم يكن له نظير عند آبائنا وأجدادنا.

تعقدت المدنية، وتركبت، وكثرت فيها المطالب، وشعر الإنسان بأنه لا بد أن يوفي المطالب كلها، وطاقته محدودة وماليته محدودة؛ فينوء تحت هذه الأعباء، ويشعر بتهدم أعصابه.

كان أكثر آبائنا إذا عَلَّمُوا أبناءهم فك الخط فهذا يكفي للحياة، ولشغل الوظائف.

---

(١) فيض الخاطر ٦/٢٦٥ـ ٢٧٤.

أما الآن فالأب يحمل أعباء تربية أبنائه، وبناته تعليماً، ابتدائياً، وثانوياً، وعالياً.

وماليته قد تكون محدودة؛ فيرهق نفسه، وفي كل دور من أدوار التعليم مشاكل لا حَدَّ لها؛ هذا رسب في الامتحان، وهذا له ملحق، وهذا شَبَّ؛ فلا يخضع لحكم آبائه، وهذا كان متأخراً في الترتيب؛ فلا تقبله المدارس العالية، أو الجامعة، والأسرة كلها في مشاكل من هذا القبيل لا تنتهي.

هذا باب واحد من أبواب الحياة.

وهذه ميزانية البيت معقدة مركبة، يحصل عليها النزاع في أول كل شهر وآخر كل شهر، الرزق محدود، والمطالب غير محدودة، أقساط المدارس، وغلاء المأكل، وحاجة السيدة والأولاد إلى الملابس، وحاجة الأب إلى مصاريف خاصة من أجرة انتقال، وشرب دخان، والماهية لا تكفي لكل ذلك، فينفق ما يستطيع من ماهيته، والباقي ينفقه من أعصابه.

ويذهب الموظف إلى ديوانه، فلا يزال يسمع من أخبار الدرجات والعلاوات ما يثير نفسه، ويهيج مطامعه، والويل لأعصابه إذا لم تتحقق أمانيه، ونظام كل شيء في الحياة مركب معقد، الزواج سلسلة متاعب في الخطبة، والمهرِ، والجهازِ، والعقد، والحفلاتِ، والتعليمُ سلسلةُ مشاكل، وإدارةُ الأموال سلسلة مشاكل.

حتى الغني الذي عنده أكثر مما يكفيه متعب مهدم الأعصاب من إدارة أمواله، هذا سرقه، وهذا أكل ماله، والقضايا ترفع في المحاكم، والقضية الواحدة تطول،

ويتفرع عن القضية عشر قضايا، والمطالب عليه تتكاثر، مشاكل إدارة الأطيان، والفلاحين، وناظر الزراعة والآلات، ثم مشاكل بيته من السيارات والخدم، وواجبات حياته الاجتماعية من استقبالات، وزيارات، وحفلات، ومصاريف، ومشات، ومرض، وعلاج، وما إلى ذلك مما لو رآه الفقير لحمد الله على الفقر.

كان أجدادنا أبسط عيشاً، وحياتهم أهدأ من آبائنا، وآباؤنا أبسط عيشاً وأهدأ بالاً مِنَّا، ونحن أحسن حالاً من أبنائنا، حياتنا كلها زائطة متعبة، في المنزل من هذه المشاكل، وفي الشارع من السيارات، والعربات، وسرعة الحركة، وكثرة الناس، في كل محل ضوضاء، فأين تهدأ الأعصاب؟

ولهذا كان تهدم الأعصاب في سكان المدن أكثر منه في سكان الريف، وبين من يحملون الأعباء الكثيرة، والمسؤوليات المتنوعة أكثر من ذوي المسؤوليات القليلة، وهكذا.

ما هي أعراض تهدم الأعصاب؟

هي بيننا كثيرة وأشكالها متعددة: **ضيق في الحياة، وانقباض صدر منها**، وشعور بأن الدنيا كلها سوداء في عينيه ليس فيها ما يسر، والمبالغة في تقدير ما يحزن، والمبالغة في تقليلِ قِيمَةِ ما يَسُرُّ، فإذا أتاه في يوم واحد عشرة أخبار تسعة منها سارة وواحد منها محزن لم يلتفت إلى التسعة السارة، وعلق كلَّ أهمية على الخبر المحزن ، وبالغ فيه، ثم ينتج عن ذلك **غضب لأتفه الأشياء**؛ فالكلمة التي كان يسمعها، فيبتسم منها أو لا يعيرها أي التفات تصبح كلمة لها أهميتها، يثور

منها، ويقيم الدنيا ويقعدها؛ حتى ليكاد يغضب ممن قال له: السلام عليكم أو نهارك سعيد، ليس عنده شيء يتساهل به ، يدقق في كل صغيرة ويخلق منها سببها للنزاع والخصام، الأشياء التي كان يراها كل يوم ويضحك منها أو يسكت عليها تنقلب فجأة أشياء خطيرة لا يصح السكوت عليها، ولا يصح أن تمر من غير نزاع وخصام، ثم **الشك المؤلم في قيمة الحياة**، فلا هو يؤمن بقيمة ماله إن كان غنياً، ولا بقيمة وظيفته إن كان في وظيفة كبيرة، ولا بقيمة أولاده مهما كانوا ناجحين في حياتهم، أو مدارسهم، بل ولا يؤمن بقيمة نفسه، ثم يلح به هذا الشك في الأشياء وقيمها إلى أن يصاب بتردد، فلا يَبُتُّ ولا يقرر؛ لأنه شاكٌّ في نتيجة هذا، ونتيجة ذاك غير مؤمن بالشيء ولا بضده، وهذا الشك وهذا التردد وهذه الحيرة تُضاعف من انقباض صدره، وحِدَّة غضبه، وتبرمه بالدنيا، ثم **يحيط به الخوف من كل جانب**؛ فهو خائف على ثروته أن تضيع، وعلى أولاده أن يصابوا بأذى، وعلى زوجته أن تخونه، أو على زوجها أن يخونها، وعلى سيارته أن تحدث لها حادثة، وعلى الترام يركبه أن يصطدم، وقد يبلغ به هذا الخوف إلى درجة من السخافة بمكان حتى قد يخلق من خياله أشخاصاً يتصور أنهم يدبرون له المكايد، ويحيكون له الدسائس؛ ففلان إنما يُسَارُّ فلاناً في أمره، وفلان قابل فلاناً لتدبير مؤامرة له ، وهكذا من أنواع السخافات التي لا تنتهي، حتى ليبلغ به الأمر أن **يفسر حركات الناس**، وتصرفاتهم تفسيراً غريباً يتعلق بشخصه والحط منه والكيد له وغير ذلك من الأشكال والألوان، **كحب العزلة، والابتعاد عن الناس** والانفراد في حجرة حتى في بيته بين أسرته ، وقلة الرغبة في

الكلام ونحو ذلك، وكما أن الجنون فنون فكذالك أعراض تهدم الأعصاب فنون.

ومن مصائب هذا المرض أن صاحبه غالباً لا يؤمن بأنه مريض، عكس الأمراض الجسمية؛ فمن مرض بمعدته تألم منها، وإذا لم يهضم أدرك أن العيب في معدته لا في الأكل الذي أكله.

أما متهدم الأعصاب فيرى أن الدنيا سوداء كما يراها، ولا يؤمن بأنَّ العيب عيبه هو ، وإذا أجبر إلى الذهاب إليه اعتقد أن المريض هو الطبيب.

أكثر ما يحدث هذا التهدم العصبي عند فشل الإنسان في الحياة فشلاً فظيعاً لسبب من الأسباب، أو تحميل الإنسان نفسه فوق طاقتها من تكاليف وأعباء، وعدم إعطائها حظها من الراحة والهدوء.

ولو حللنا **أكثر الأسباب التي تدعو إلى هذا التهدم**، وجدناها ترجع إلى سببين أساسيين : **الجهل والخوف.**

أما الجهل وعلاقته بتهديم الأعصاب فيتجلى في عدم فهم الإنسان مقدرته، ومركزه، وكفايته أمام المطالب الاجتماعية ، كأن يضع نفسه فوق ما يستحق، فهو يريد أن يُسَخِّر المجتمع لخدمته، يريد أن يتزوج خير زوجة، ويشغل أكبر وظيفة، وتريد هي أن تتزوج خير رجل، وتلعب بالمال لعباً، ويريد أن يظفر في المناصب أو في الغنى ظفراً، ويريد أن يكون له الجاه العريض، والنجاح السريع.

والدنيا لا تسير على هواه وحده ، والمجتمع إنما يسير بقيود وشروط؛ فإذا هو لم يحقق مطامحه البعيدة عدَّ نفسه فاشلاً ، فصدمه ذلك صدمة هدمت أعصابه.

وأسعدُ الناس، وأهدؤهم بالاً مَنْ وزنوا أنفسهم وزناً صحيحاً، وعرفوا الدنيا التي حولهم معرفة صحيحة، عرفوا أنفسهم بعيوبها ومزاياها، وعرفوا الدنيا بعيوبها ومزاياها، وطلبوا من الدنيا فقط ما يتفق وطبيعةَ نفوسهم، وما يتفق وطبيعة المجتمع الذي يعيشون فيه.

ومما لا شك فيه أن العيب ليس كله راجعاً إلى الشخص نفسه؛ فكثيراً ما تكون العيوب الكثيرة التي تهدم الأعصاب في المجتمع نفسه، كما إذا اختل فيه العدل الاجتماعي، واختل فيه تقدير الكفايات، وكانت الرذائل تنجح فيه حيث تفشل الفضيلة، كذلك إذا كان المجتمع يرهق أرباب الأسر، ولا يساعدهم في تخفيف الحياة عنهم في تسهيل وسائل التعليم، ووسائل العيش.

ولذلك كان المجتمع الفاسد التي تسود فيه الفوضى والاضطراب محتاجاً لكثير من المستشفيات لمتهدمي الأعصاب.

إن جهل الأفراد بوزن نفوسهم، وجهل أولي الأمر في تنظيم مجتمعهم هو أكبر سبب في تهديم أعصابهم؛ فتهدُّم الأعصاب ليس إلا نتيجةَ ارتباكٍ في الحياة الخاصة، والحياة العامةِ، وكثيرٌ من الناس يرون أنهم إما أن ينجحوا في الحياة مائة في المائة، أو الخيبة المطلقة على مبدأ الشاعر الذي يقول:

.... لنا الصدر دون العالمين أو القبر[1]

ولكن طبيعة الحياة تأبى هذا فليس في الدنيا ناجح مائة في المائة في كل

---

(١) البيت لأبي فراس، وصدره:

ونحن أناسٌ لا توسط بيننا .... (م).

شؤونها، فالمطالبة بهذا القدر، وتنغيص النفس إذا لم يحدث، والاتكاء على الأعصاب من أجل هذا المطلب المستحيل - جهلٌ بقوانين الطبيعة، ويكفي الإنسان طمأنينةً وراحةَ بالٍ أن ينجح بعض النجاح.

أما السبب الخطير الثاني في تهدم الأعصاب فهو الخوف وهو أشكال وأنواع:

الخوف من الفشل، والخوف من الفقر، والخوف من الموت، والخوف من كلام الناس، الخ..

وليس أدل على تهديم الخوف للأعصاب مما يحصل للناس أثناء الحروب؛ فالخوف على أشكاله يهدم أعصاب الناس، وليس هناك أهدأ بالاً، وأصلح أعصاباً ممن استهان بالمخاوف، وتشجع لمواجهة الصعاب، ولتكن النتيجة ما تكون.

ومن الحمق أن يجمع الإنسان على نفسه ألم الخوف من الشر قبل وقوعه، وألم الشر عند وقوعه؛ فإذا كان لا بد من ألم فليكف ألم الشر إذا وقع لا قبل أن يقع.

وإذا كان أهم سبب لتهدم الأعصاب الجهل، والخوف، فأهم علاج له العلم الشجاعة.

إن متاعب الحياة وتعقيد المدنية وإرهاق الناس بالمطالب سببت تحطيم أعصاب كثير من الناس، وربما كان ذلك في الشرق أكثر منه في الغرب، وذلك لأسباب عدة: منها فشو الفقر في الشرق، والمسافات البعيدة بين الطبقات، و فشو الأمية؛ فالجهل كثيراً ما يكون السبب في تهدم الأعصاب، ثم عدم تنظيم الحياة

الاجتماعية تنظيماً مريحاً؛ فأكثر البيوت لا راحة فيها من كثرة النزاع على توافه الأشياء، وضياع كثير من الرجال في القهوات فراراً من البيت، وهي أمكنة مملوءة بالضوضاء فاسدة الهواء، فاسدة الناظر، لا تُسَرِّي حُزْناً ولا تفرج كرباً، وليس هناك مجال للرجل المثقف، ولا المرأة المثقفة ينعم فيه بالسعادة الهنيئة البريئة.

فمحال اللهو لا تناسبهم، والاجتماعات العامة تضايقهم، ثم النظامات الاجتماعية لم تخفف عن الفقير فقره، ولا المريض مرضه، ولا رب الأسرة عبئه، ولا الفلاح والصانع والعامل متاعبه، إلى كثير من أمثال ذلك.

لهذا كانت ضحايا تحطيم الأعصاب كثيرة العدد، وهو يتخذ أشكالا عديدة: منها غلبة الحزن على الشخص أو السوداء، تختلف الأسماء والمسمى واحد.

ومصداق ذلك أن أكثر كلامنا في عيوبنا لا في مزايانا؛ لأن ذلك يتفق وآلامنا، وأكثر احتفالاتنا في مظاهر الحزن لا في مظاهر السرور.

فالمآتم، والقرافة، وذكرى الأربعين، وذكرى الوفاة للعالم الأول والثاني إلى غير ذلك - كلها تناسب النفوس الحزينة الضعيفة الأعصاب التي إن لم تجد محزنة خلقت محزنةً، بل إن لم تجد سبباً للحزن حزنت؛ لتوقعها للحزن.

ومن مظاهر تحطم الأعصاب - أيضاً - هذا الغضب السريع الجامح، والانفعال الشديد للشيء السخيف، وتحول الإنسان إلى شعلة نار من الغضب، ثم تحوله بعد ذلك سريعاً إلى لوح ثلج بارد.

وسرعةُ التنقل من بكاء إلى ضحك، ومن سب إلى استعطاف، ومن زمجرة إلى ندم، ومن أسد إلى قط، ومن ماء إلى حجر - كل هذه أشكال من تحطم

الأعصاب.

وقد يتخذ شكلاً آخر هو شكل الخوف، خوف مبني على غير أساس، يخاف الفقر وعنده ما يكفيه، ويخاف المرض وصحته جيدة، ويخاف فساد الأولاد، وهم صالحون، وسقوطهم في المدرسة، وهم ناجحون، ويخاف من رؤسائه وهم عنه راضون، أو من شياطين الإنس والجن، أو من الترام، أو من القطار، أو من خيالات لا وجود لها يخلقها هو ثم يخاف منها - هذا كذلك شكل من تحطم الأعصاب.

وشكل آخر هو حالات عقلية غريبة، كضعف الثقة بنفسه؛ فيعتقد أنه لا يصلح لعمل، وأنه إذا عمل عملاً فهو لا يستحق شيئاً، أو يخشى الناس، ويخشى الاجتماع، أو يشك في الناس ويعتقد أنهم كلهم أنجاس لا يرجى منهم خير، أو هو لا يكترث بشأن من شؤون الحياة، ولو انطبقت السماء على الأرض، لا تهمه أسرة، ولا تهمه وظيفة، ولا تهمه أُمة، هذا كذلك شكل من تحطم الأعصاب.

وما أكثر الأشكال والألوان، وألوف وألوف من الناس فقدوا سعادتهم، وفي كثير من الأحيان سَلبوا سَعادةَ مَنْ يتصل بهم، لا لسبب إلا ضعف أعصابهم، وما نشأ عن ذلك من سوء تصرفاتهم.

وتحطم الأعصاب ليس ضرورة مقصوراً على المريض وأسرته، بل هو عظيم الضرر للأمة كلها؛ فكيف يؤدي الشخص عمله في وظيفته، أو متجره، أو مصنعه، إذا تحطمت نفسه من تحطم أعصابه؟ كيف يركز قوته في عمله؟ كيف

يفكر تفكيراً صحيحاً سليماً؟ كيف يؤدي عمله إذا لم ينم النوم الكافي لضعف أعصابه؟ كم محطم الأعصاب كارثة على نفسه، وعلى أسرته وعلى أمته.

قد تكون هذه الحالات العصبية وهماً من الأوهام يتخيله المريض، وليس به مرض، فهو يخلق المرض، ولا يزال يلح في اعتقاده أنه مريض حتى ينمو المرض في نفسه، ولهذا اعتدنا من قديم أن نعالج الوهم بوهم، كالزار، والبخور، ونحو ذلك، وقد تنجح هذه الأمور، ولكن سبب نجاحها أنها أوهام تعالج أوهاماً، كالذي قرأت مرة أن طبيباً عربياً لا أذكر اسمه الآن عرض عليه مريض يتوهم دائماً أنه يحمل على رأسه جرة، فإذا دخل بابا انحنى حتى لا يعوق الباب الجرة، وقد حار فيه الأطباء، فاتفق هذا الطبيب الماهر مع خادمه أن يحضر جرة؛ فإذا جاء هذا المريض غَافَلَه، ووقف وراءه بالجرة من غير أن يراه، ثم كسر الجرة، وأوهم المريض أنها هي الجرة التي على رأسه، ففعل ذلك، وشُفي المريض، وهكذا عالج الوهم بالوهم.

ولكن في بعض الأحيان يكون تحطم الأعصاب مرضاً حقيقياً سببه مرض في الجسم، أو مرض في النفس.

وكثير منا في حياتنا اليومية يرهق أصابه؛ فتكون النتيجة ما ذكرنا.

فمثلاً قسطٌ من الراحة لا بد منه للإنسان، وإن لبدنك عليك حقاً؛ فإذا أنت أنهكته بالسهر، أو بالعمل ولم تعطه حظه من الراحة كان نتيجة ذلك تحطم الأعصاب، وانشغال البال بمطالب الحياة المادية، والاجتماعية.

والإفراط في ذلك ضرر يصيب الجسم لا محالة تظهر آثاره على مدى الزمان؛

فتضعف الأعصاب.

وتحميل النفس أعباءاً كثيرةً، وهموماً ثقيلة، ومداومةُ التفكير فيها كثيراً ما ينتج هذه النتيجة، وهكذا.

مثل أعصابنا كمثل أسلاك الكهرباء في بيوتنا؛ فإذا انطفأ النور فابحث عن سببه ثم عالجه بما يصلحه.

فافحص حياتك هل تعتاد عادات سيئة في جسمك؛ فتسهر أكثر مما يلزم، أو تتعب في العمل أكثر مما يلزم؛ أو ترتاح أكثر مما يلزم، أو تتغذى أقل أو أكثر مما يلزم، أو نحو ذلك؟

واسأل مثل هذه الأسئلة نحو نفسك، هل ترهقها بالفكر أو تَحَمُّل الهم؟ هل تحملها ما لا تطيق من اجتماعات وحفلات؟ هل تعرضها لكثير من الانفعالات؟ فإذا أنت وقفت إلى موضع الداء؛ فعالج سلوكك كما تعالج سلوك الكهرباء كل شيء بما يناسبه.

فأما الأعصاب المحطمة الناتجة من مرض جسمي؛ فاطلب علاجها من أطباء الأجسام، وأما الناتجة عن مرض النفس؛ فمع الأسف لم يلتفت الناس إليها كما التفتوا إلى مرض الجسم، ثم كانت النهضة الحديثة في أوربا؛ فتقدم علم النفس كثيراً، وكان له أطباء، وإن كانوا في أول مراحلهم.

غير أن هناك مفتاحاً أستطيع أن أدلك عليه كمفتاح البيت يفتح أبواب الحجر كلها، هو التنفيس عن نفسك بالتفكير في غيرك؛ **إن الناس ينقسمون ـ عادة ـ إلى قسمين: قسم يكثر التفكير في نفسه، وقسم يكثر التفكير فيما حوله**، وأكثر

المصابين في أعصابهم، هم من الصنف الأول الذي يكثر التفكير في نفسه؛ فحوِّل البخار المضغوط في نفسك إلى عمل خارجي؛ ولذلك ترى أن الناس الذين يشغلون وقتهم بعمل للخدمات العامة، أو المصلحة العامة ـ أقلَّ الناس تعرضاً لضعف الأعصاب، وأكثر النساء المصابات بهذا المرض نشأ مرضهن كذلك مِنْ قَصْر نظرهن على التفكر في أنفسهن، وأولادهن، وبيتهن.

وعلاج ذلك عندهن تأليف جمعيات لمساعدة المرضى، أو الفقراء، أو البؤساء، أو نحو ذلك مما يصرف ذهنهن عن إطالة التفكر في أنفسهن.

والدليل على ذلك أن المريض بأعصابه يكره المجتمعات، ويكره الصداقة، ويكره إلا أن يفكر في نفسه؛ فالدواء لا بُدَّ أن يكون على عكس الداء، كما تعالج الحرارة بالبرودة، والبرودة بالحرارة؛ فوسِّع نفسك، وأشغلها بعمل يعود بالخير على الناس، واهتم بأصدقائك، وجيرانك، واهتم بشيء يناسبك يكون صلة بالعالم الخارجي؛ ومن أجل هذا نرى أن المتدينين من أقل الناس تعرضاً لهذه الأمراض العصبية؛ لأنهم يفكرون في ربهم؛ ولأنهم يطيعونه في أمره بأن نحب الناس كما نحب أنفسنا؛ ولأنهم يأتمرون بأمره في الإحسان إلى الجار، وإلى الفقير، والإيثار على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، كل هذا فيه خير العلاج من المرض العصبي؛ لأنه ينقذ الإنسان من الاستغراق في التفكير في نفسه.

ومن أجل هذا ـ أيضاً ـ كان من أشد الناس تعرضاً لهذه الأمراض من لا عمل لهم، لغناهم، أو اعتمادهم على ما يأتيهم من معاش، أو من ميراث؛ فيصبح الزمن عبئاً ثقيلاً على أنفسهم يحاولون أن يهربوا منه بلعب النرد، أو الشطرنج،

أو نحو ذلك، وباقي الزمن لا يفكرون فيه إلا في أنفسهم؛ فيستولي عليهم الهم، ويعتريهم ضعف الأعصاب.

إن ضعف الأعصاب كثيراً ما يكون سببه نتيجة قوة مكبوتة كالبخار المضغوط؛ فَفَرِّج عن نفسك بفتح الصمام له، وتوجيهه إلى عمل نافع؛ فالعمل والاهتمام بشأن من شؤون الناس، وقلة تفكير الإنسان في نفسه خير دواء لمعالجة الأعصاب، والشفاء من أمراضها.

٢٥ المدينة الفاضلة[١] للشيخ العلامة المحقق محمد الطاهر بن عاشور[٢]

لم تزل أمنية كل مصلح قيضه الله للبشر لأن يهدي الناس إلى تكوين ما يسمى في عُرْف الحكماء بالمدينة الفاضلة، وهم إن اختلفت عندهم الأسماء لاختلاف أساليب التعبير في اللغات لا نجد بينهم اختلافاً في أن مسمى الذي يدعون إليه هو مسمى ما عناه الحكماء **المدينة الفاضلة: مجتمع من الناس هو على أكمل حال يكون عليها المجتمع البشري في الرأي والعمل**؛ ذلك أن الإنسان مدنيٌّ بالطبع كما هو مشهور على الألسنة، وقد علل كثير من الحكماء كون الإنسان مدنياً بالطبع.

وأنا أختصره وأزيد بياناً: **فمعنى كونه مدنيًّا بالطبع** أنه بطبع خلقته مجعول لأن يكون مدنياً، لأنه خلق بحيث لا يستقل وحده بأمر نفسه، بل هو محتاج إلى مشاركة غيره من بني جنسه؛ لظهور كثرة حاجاته الناشئة عن ضعفه الجبلي وتفكيره؛ فالضعف الجبلي جعله محتاجاً إلى مكملات يصير بها قويًّا على مصادمة الكوارث والمهالك، والتفكير جعله متطلعاً إلى أن يعيش كما يحب لا كما يلقى، وذلك بالمُقام في حيث يريد دون انزواء أمام الحوادث المغتالة، وبتحصيل ما لا يستطيع نواله مع فرط رغبته؛ فزاد بالتفكير ضعفه جلاء لأنه يطمح به إلى تمنيات وفروض لا يستطيع تحصيلها لعجزه، على حد قول أبي الطيب:

---

(١) الهداية الإسلامية، الجزء العاشر/ المجلد التاسع/ ربيع الآخر ١٣٥٦هـ - يونيو ١٩٣٧م، ص٥٧٨-٥٩٤، ولعلك - أيها القارئ - لا تكاد تظفر بمثل هذا المقال في بابه (م).

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

فاحتاج أفراد البشر إلى معونة بعضهم بعضاً؛ لتصل لهم من تفكيرهم وسعيهم قوةُ التعاضد والتوازر، فيبذل كلَّما يستطيع بذله من كده أو من كسبه، عسى أن يحصل من مجموع سعيهم تحصيل معظم أماني الجميع، وبذلك التفكير والتعاضد امتاز البشر عن أصناف الحيوان.

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان

وقد صار الإنسان بموجب هذا الاحتياج إلى التعاون والتكاتف مضطراً إلى اقتراب بعض أفراده من بعض، وإلى التكثر من هؤلاء المقتربين والمجتمعين، وإقامة بعضهم حيال بعض؛ ليجد كلٌّ عن احتياجه مَنْ يسارع إلى سد خلته؛ فاضطر إلى التجمع والإقامة، وهو المعبر عنه بالتمدن؛ المأخوذ من لفظ المدينة، الذي هو مشتق من فعلٍ مُماتٍ في اللغة العربية وهو فعل مدَن.

ثم إن هذا الخُلق الجِبِلِّي من شأنه أن يتدرج بهم في سلم الارتقاء، ولا يزال يغريهم نوال شيء بالتطلع إلى ما فوقه.

ثم إن هذا التمدن يفضي بالناس في غالب الأحوال إلى توارد الرغبات على شيء يكون الموجود منه لا يفي بإرضاء الجميع، أو إلى اختلافهم في وسائل السعي إلى ما يدفع عنهم ضرراً، أو يجلب إليهم نفعاً، فكانوا في اجتماعهم ذلك مَظِنَّةَ حدوثِ الخلاف بينهم، وكان ذلك الخلاف من شأنه أن يهيِّج ما فيهم من قوة الغضب، ويحمل بعضهم على مقارعة بعض؛ فيصير بعضهم سبب إتلاف مصالح بعض، وإفساد ما أصلحوه في تجمعهم بعد أن كان تجمعهم سبب تحصيل

تلك المصالح؛ فيؤول اجتماعهم في الإهلاك والضلال على أن يكون عائداً على مقصدهم الأول بالإبطال؛ فلذلك لم يزل الساعون إلى إصلاحهم من الأنبياء والحكماء يدعونهم إلى الاستقامة، وينبهونهم على أن مراد الله منهم أن يكون مجتمعهم كاملاً، ومدينتهم فاضلة؛ ليكون لهم من تقويم أحوالهم ما يلائم أحسن تقويم خلقوا عليه، الدال على أن الله ـ تعالى ـ حين خلقهم على أحسن تقويم قد أراد أن يكونوا متصفين بكل وصف قويم.

وإنما يتضح كمال هذا التمدن إذا كان مظهر هؤلاء المتحدين كاملاً، ولا يكمل مظهرهم إلا بكمال أفرادهم، فإذا كملت أفرادهم كمل المجتمع المتركب منهم؛ لأن المركب من الصالحِ صالحٌ.

فليس المراد بالمدينة الفاضلة ما لولاه لهلك النوع؛ إذ قد ينتظم حال النوع انتظاماً ما ـ أي في الجملة ـ بمجرد صلاح قليل؛ فيسلم من الهلاك، ويعيش عيشاً بسيطاً، ولكنه لا يكون على حالة ملائمة لحال التقويم الجبلي الذي خلق عليه.

أودع خالق النوع ـ سبحانه ـ في جِبِلَّة أفراده عقلاً يهديهم إلى إيجاد وسائل قليلة لحفظ النوع كما قدمنا، ولكنه لما علم أن ذلك غير كاف في العروج بهم إلى معارج الكمال التي أُعدوا لها، ولا في الخروج عن مآزق قد يلقون أنفسهم فيها ـ قيض الله دعاة يدعونهم إلى الهدى، ويحذرونهم مواقع الردى، وهم العارفون؛ فمنهم أنبياء تولى الحقُّ إرشادَهم إلى ما فيه صلاح قومهم، ومنهم حكماء خصهم الله بعقول تفوق عقول عامة أقوامهم، وخص الفريقين بجلائل الصفات النافعة في

إيصال الإصلاح إلى البشر غير مشوب ولا مؤرب[1]؛ فتظافر الفريقان وعملا على الأخذ بيد البشر في مزالق الضلال، ومهاوي السقوط، وانتشاله من مخالب الهلاك، وجعل بمقدار تخلقهم بأخلاق الكمال وجريهم على طريق الهدى مقدار عروجهم في المعالي في عالم الخلود الذي لا فناء يعتريه، ولا حقائق تقلب فيه.

وجماع هذا الصلاح هو صلاح الاعتقاد، وصلاح العمل، وقد جمع ذلك قوله ﷺ في حديث مسلم عن أبي عمرة الثقفي، قال: «قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال قل آمنت بالله ثم استقم».

ابتدأ أول دعاة الصلاح، وهو أول رسول أُرسل إلى البشر، نوح - عليه السلام - دعوته بتطهير العقيدة، ووجوب التوبة من الشرك، ولم يزدهم على ذلك، فعلمنا أن الله ابتدأ البشر بالترقي به إلى أُولى درجات الصلاح.

وكذلك جاء إبراهيم قومه بالدعوة إلى التوحيد وإعلانه، وإلى مكارم الأخلاق، ورحل في بلاد الله يبث دعوته الصالحة بين البشر.

ثم جاءت الرسل تترى، ما منهم إلا يأمر بالإصلاح العام، فقد قال هود لقومه ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١)﴾ الشعراء.

وقال صالح لثمود ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ هود: ٨٨.

وقال شعيب لأهل مدين ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾

---

(١) لعل مراده أنه خالص لا يداخله ريبة، أو شيء من المآرب الخاصة الدنيوية (م).

الأعراف: ٥٦.

وقرون بين ذلك كثير ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ غافر: ٧٨.

وهؤلاء كلهم قد اقتصرت دعوتهم على تأسيس جماعة فاضلة، ثم اتسعت الدعوة في شريعة موسى اتساعاً يؤذن باقتراب استعداد البشر إلى تلقي التهذيب الكامل؛ فأخذ في تخطيط ما يصلح لأن يكون تأسيس مدينة فاضلة، ولكنه توفي ولم يقض إلا إصلاح الجماعة، إلا أنها كانت جماعة كبيرة، ثم كانت بعده أشكال كثيرة في سياسة بني إسرائيل؛ فكانت أمة فيها فضلاء كثيرون، وفيها دون ذلك.

وجاء دعاة كثيرون مختلطون: أنبياء وحكماء، مثل أنبياء بني إسرائيل حتى عيسى، ومثل لقمان، وذي القرنين وتبَّع، وهرمس الأكبر الحكيم المصري الذي قيل: إنه النبي إدريس، وبياس الحكيم اليوناني، وسولون المشرِّع اليوناني، ثم سقراط، وأفلاطون.

قال الحكيم الجليل يحيى السهروردي في حكمة الإشراق، وقطب الدين الشيرازي في شرحه[1] بعد أن ذكر أساتذة أرسطاليس: «ومن جملتهم جماعة من أهل السفارة ـ أي أهل الكتب السماوية وإصلاح الناس ـ مثل هرمس ـ أي

(١) ورقة ٨ من شرح حكمة الإشراق لقطب الدين الشيرازي في شرح الديباجة (مخطوطة).

إدريس ـ واسقليبوس ـ خادم هرمس، وهو أبو الأطباء[1] وغيرهم ـ وإنما سمي الثلاثة لأنهم من عظماء الأنبياء الجامعين بين الفضيلة النبوية، والحكمة الفلسفية» اهـ.

وهؤلاء الحكماء قد دعوا، وسعوا إلى إيجاد المدينة الفاضلة، وكان أكثرهم تنويهاً بها هو أفلاطون.

فقد رام سولون[2] الحكيم إيجاد المدينة الفاضلة بما شرع لأهل أثينا من قوانين العدل، ونظام الشورى؛ وقال بيتاقوس الحكيم: «إذا أراد الملك ضبط المملكة وجب أن يكون هو وخاصته وجنوده مطيعين للقانون مثل سائر الرعية».

ورام أفلاطون إيجاد المدينة الفاضلة بضبط قواعد تكوينها.

وفيهم من كان انصرافه إلى إيجاد المدينة الفاضلة أكثر من انصرافه إلى إعداد أمة فاضلة لها، مثل سولون، ومن كان انصرافهم إلى إصلاح النفوس لإعداد أمة فاضلة للمدينة الفاضلة، مثل سقراط وأفلاطون.

كانت شكايات من الرسل والحكماء من سوء تلقي أقوامهم لنصيحتهم أوضح دليل على أن المدينة الفاضلة لم تلتئم، فما من الرسل السالفين إلا قائل ﴿إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ الشعراء: ١١٧، أو قائل ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي

---

(١) هو واضع علم الطب عند اليونانيين، فتلقبه بأبي الأطباء إما لأن مؤسس الشيء يدعى أباً له، وإما لأن معظم الأطباء في العصور الأولى كان من ذريته، وكلا الوجهين أمر واقع.

(٢) سولون هو حكيم يوناني من أهل أثينا، ولد في حدود سنة ٦٤٠ قبل المسيح؛ كان من أساطين الحكمة في السياسة والتشريع، وتوفي وعمره ثمانون سنة بجزيرة قبرص.

وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ الأعراف: ٧٩، أو قائل ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الشعراء: ١١٨، أو قائل ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ المائدة: ٢٥.

وربما فارق كثير منهم أوطانهم، إذ أبوا أن يروا فيها الفساد، فقد قال إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ الصافات: ٩٩، وقال لوط ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العنكبوت: ٢٦، وخرج الحكيم سولون من أثينا بعد أن أقام لها الشرائع والعدل، والحكومة الشورية، فأفسد أهلها ذلك، وولوا عليهم الملك (بيزاستراتث) وأخذ (يوجينوس) الحكيم مصباحاً في يده في الصباح، وجعل يجول به في شوارع أثينا كأنه يفتش على شيء، فإذا سئل: على ماذا تفتش؟ قال: لعلي أظفر برجل.

بقيت المدينة الفاضلة مرتسمة في خيال الحكماء، فلم يزالوا يدعون، ويبتغون تأسيسها، ولكنهم لم يحصلوا على طِلْبَتِهم المنشودة؛ ذلك أن المدينة الفاضلة يلزم أن يكون رئيسها حكيماً صالحاً عارفاً، وأن يكون أصحابه أهلُ الحل والعقد فيها حكماءَ مثلَ رئيسهم، وأن يكون سكانها أفاضلَ قابلين لسياسة الحكيم مطيعين له، غير مفسدين لما يصلحه.

وقد كادت مدينة أثينا في زمن سولون أن تكون المدينة الفاضلة، وقد كان سولون يقول: «المملكة البالغة غاية الكمال هي التي لا يقبل أهلها الذل والظلم، وينتصرون للمظلوم كما ينتصرون لأنفسهم».

إلا أنها لم تحصل على عامة مطيعين لرؤسائهم إلا في فترات قليلة من الزمن؛

فإن سولون مؤسس شرائع أثينا، ومنظم حكومتها الجمهورية لم يلبث أن فارق أثينا، وسكن في بلاد مصر، وأبى الرجوع إلى بلده مع شدة رغبة الملك (بيزاستراتث) في رجوعه، والانتفاع بحكمته، ودارت بينهما في ذلك مراسلة لها شأنها في التاريخ.

وكذلك أوشكت أن تكون مقدونية مدينة فاضلة في زمن مُلْك اسكندر ابن فيليبوس، ووزارة أرسطاليس له، غير أن ذلك لم يخلص لهما، ولم يلبث أن غضب ارسطاليس على الاسكندر، وفارقه فراقاً لا لقاء بعده.

وقد اعترف أفلاطون بعده بقرون بأن ليس في نظام الجمهورية في أثينا في زمانه ما يجعلها ملائمة للحكمة والفضيلة التامة.

واضطرب العالم عقب ذلك اضطراباتٍ عامةً في كل مكان؛ فلم يتأتَ إيجادُ المدينة الفاضلة.

كان الرسلُ ـ كما قلنا ـ أولَ المصلحين للبشر، وأعظمَ المصلحين، وكان الحكماء من أتباع الرسل ومن غيرهم يظهرون في فترات من التاريخ يكملون الإصلاح، ويبرهنون عليه، فرجعت محاولة إيجاد ما يسمى بالمدينة الفاضلة إلى دعوة الرسل؛ فلا جرم أن يكون أعظمُ الرسل الذي جاء بالدين الخالص القيم، والذي هو المقصدُ من الإصلاح الأخيرِ للبشر ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ آل عمران: ١٩، والذي كانت الأديانُ الماضيةُ معه بنسبة مقدمة الجيش للجيش، ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ الأنعام: ٩٢، والذي كانت دعوتُه عامةً لسائر البشر، والذي كان الرسول الجائي به هو أفضل

الرسل - لا جرم أن يكون ذلك الرسولُ هو الذي ادُّخر له تأسيس المدينة الفاضلة في جملة ما ادُّخر له من الفضائل الجمة.

جاء محمد ﷺ يدعو إلى إصلاح البشر قاطبة، وشملت دعوتُه علاج إصلاح الأفراد وإصلاح المجموع؛ فكان مرماها إيجادَ المدينة الفاضلة، وإعدادَ أمةٍ فاضلة لها.

ولم تشتمل دعوة رسول ممن جاء قبله على ما اشتملت عليه دعوته من أصول نظام الاجتماع وتفاصيله؛ فبقي بمكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الدين، ويصلح نفوس الذين آمنوا به والتفوا حوله، فكانت في مكة جماعة فاضلة هي زَرْع المدينة الفاضلة.

فلما تهيأت للدعوة ساعةُ الانتشار، وتردد صداها في معظم بلاد العرب، وأصغت لها آذان السامعين، وانفتحت أعين الناس إليها - ألهم اللهُ الأوسَ والخزرج أهلَ مدينة يثرب إلى الدخول في الإسلام إلهاماً خارقاً للعادة؛ فأصبح سكان تلك المدينة كلهم مسلمين، وبذلوا أنفسهم وأموالهم ووطنهم لنصر هذا الدين؛ فأذن الله لرسوله وللمسلمين معه في الهجرة إلى هذه المدينة؛ فانتقل إليها الرسول بمن معه من المسلمين بمكة، ودعا اسمها (طيبة) وخصها الله - تعالى - بشرف أن تكون محققةً أمنيةَ المدينةِ الفاضلة.

ومن العجب أن الله ألهم الناس إلى أن يدعوا هذه البلدة باسم (المدينة) وأنساهم اسم يثرب واسم طيبة أيضاً؛ ليكون ما جرى على الألسنة رمزاً إلهياً لطيفاً إلى أنها المدينة المقصودة، والضالة المنشودة.

دخل رسول الله ﷺ المدينة (يثرب) ودخلها خمسون رجلاً من أصحابه

المهاجرين، وهم المسلمون الأولون، وكانت المدينة تحتوي على زهاء خمسة آلاف رجل من الأوس والخزرج وأحلافهم، كانوا مسلمين إلا قليلاً منهم لا يبلغون مائة رجل.

فتلك مدينة سكانها أفاضلُ أهلِ عصرهم، قد تطهرت نفوسهم بإقبالهم على الخير، والتزكية بمحض الاختيار.

إن قوام المدينة الفاضلة يتقوَّم من صلاح الأفراد في خاصتهم، وصلاح المجتمع المتقوِّم منهم في حال معاملتهم؛ ومن سهولة طباعهم مع المسالمين، ومن الشدة والذب عن حوزتهم أمام العدو، ومن سياسة تدبير جماعتهم؛ فإذا تقومت هاتِهِ الأصولُ في المدينة حصل فيها الأمن، وهو جالب جميع الخيرات لكل أهل المدينة، وجاعلها أفضل مدينة.

لا جرم أن المدينة كالجسد؛ فكما يتركب الجسد من الأعضاء والجوارح فكذلك تتركب المدينةُ من آحاد الناس، وإن سلامة المدينة وفضلها كصحة المزاج؛ فكما لا يصح المزاج إلا بسلامة جميع أجزائه كذلك لا تصلح المدينة إلا بصلاح جميع أفرادها، وكما أن بعض أجزاء الجسم أجدر بكمال السلامة ودوامها من بعض الأجزاء التي قد تشتكي، فتزول شكواها سريعاً عند سلامة البقية، وذلك البعض هو الأعضاء الرئيسية كالقلب والدماغ والرئة ـ كذلك المدينة تتطلب صلاح ولاة أمورها أكثر مما تطلب صلاح عامتها، وإن صلاح ولاة الأمور يعود بصلاح العامة إذا عرض لها فسادٌ ما بخلاف العكس، كما تعود صحة الأعضاء الرئيسية بسلامة الجوارح والأعضاء إذا اشتكت وجعاً

بخلاف العكس؛ فكان صلاح المدينة يتطلب صلاح ولاة الأمور، وصلاح أعوانهم، وصلاح عامة الناس على تفاوت في المقدار المطلوب من ذلك الصلاح.

ولنلتفت لفتة تاريخية صادقة إلى حالة مدينة الرسول وحالة مجتمعها، ونقارن بين تلك الحالة وبين الصفة التي عينت للمدينة الفاضلة؛ حتى نرى تحقق معنى المدينة الفاضلة في مدينة الرسول ـ عليه السلام ـ.

فأما ولاة الأمور فيها فإن سيد ولاة الأمور بالمدينة هو الرسول المؤيد بالعصمة، المسيَّر بالوحي والتوفيق الإلهيين، وهما ملاك الفضائل كلها، وحسبك برأس المدينة أن يكون بهذه المثابة؛ فإن الحكماء اشترطوا للمدينة الفاضلة أن يحكمها الحكماء المتصفون بصفات الكمال، وقد جمعها أفلاطون في عشر صفات، وهي: المعرفة، والإعراض عن التعلق بالدنيا، والصدق، ومحبة اللذات الروحية، والزهد، والعفة، والإقبال على الآخرة، والشجاعة، والإنصاف، وصحة العقل.

وقد كانت هذه الصفات كمالات رسول الله ﷺ وكانت العصمة فوقها كلها.

وأما أعضاء رأس المدينة وأصحابه فشرطهم المعرفة، أي أن يكونوا من العارفين، والعارف فسره الشيخ ابن سينا بأنه هو الذي يريد الحق الأول ـسبحانهـ لذاته لا لشيء آخر، ولا يُؤْثِر شيئاً عليه، والعارف شجاع جواد، صفّاح عن الذنوب، نسّاء للأحقاد.

وإن أصحاب رسول الله وبطانته هم أولئك المهاجرون الذين نبذوا الشرك

وآثاره كلّها عن محض اختيار، ومحبة للخير، وتخلّقوا من أجل ذلك بأخلاق الإسلام، وخاصة الأنصار وأعيانهم الذين رغبوا في الإسلام لما دعاهم إليه رسول الله يومي العقبتين؛ فلم يترددوا في قبوله، على ما هم عليه يومئذ من كثرة ومنعة؛ فكانوا لاحقين بالمهاجرين في إقبالهم على الحق ونبذ الضلال، وكان سادتهم وأهل الرأي منهم ملازمين لرسول الله؛ للاقتباس منه وتنفيذ أوامره.

ثم إن الرسول آخى بين المهاجرين وبين زهاء خمسين من الأنصار بقدر المهاجرين؛ ليحصل من تلك المؤاخاة تماثل في الأخلاق والفضائل، وقد حكى القرآن حالهم الجامعة للفضائل، ونبذ الرذائل بقوله ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾ الفتح: ٢٩.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**خير القرون قرني**» وهم أصحابه الذين رأوه وآمنوا به، لأن شرف ذلك القرن إنما كان به وبهم؛ إذ كان آخرهم وفاة أنس بن مالك وسهل بن سعد الساعدي، توفيا في أوائل العشرة الأخيرة من القرن الأول من الهجرة.

وأما عامة أهل المدينة فهم المؤمنون السابقون بعد المهاجرين، كما وصفهم الله ـ تعالى ـ ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ التوبة: ١٠٠.

وهم أصحاب رسول الله الذين سكن بين ظهرانيهم، وتملّوا من طلعته المباركة كل يوم، وشهدوا هديه، وأشرقت عليهم أنواره، ففيهم أشرقت الشريعة؛ فصلح اعتقادهم، وصلح عملهم، وصلح خُلُقهم، ولم يزل رسول الله يبين

لهم المكارم، ويحذرهم المآثم، حتى أصبحوا خيرة أهل الأرض.

في الصحيح عن عبادة بن الصامت أنه قال: «بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم بالحق حيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم».

فاستملوا صحة الإيمان، وفضل العمل، وحسن الخلق، ومحبة العدل.

يحق لأهل المدينة أن يكونوا أهل بأس شديد على أعدائهم، وأن يكونوا فضلاء؛ أما شدتهم على أعدائهم فلأنهم جند المدينة يدفعون عنها، وذلك وصفٌ تُحْفَظ به المدينة من تَطَرُّقِ أهل الفساد إليها، فإذا تطرقوها أفسدوا بهجتها، كما قال ـ تعالى ـ ﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾.

تريد ما هو معهود من ملوك الجور.

وهذه الشدة أساسها الشجاعة، وقد عرف أهل المدينة بالشجاعة والبأس، كما خلدت لهم حرب بعاث أجمل الذكر في الشجاعة.

ومن فضائل شجاعة أهل المدينة في الجاهلية أنها شجاعة فاضلة؛ لأنهم ما كانوا يغيرون على القبائل الآمنة، ولكنهم كانوا يذبون عن مدينتهم من كل طارق بسوء؛ فكانت مدينتهم من أحصن مدن العرب في الجاهلية، واشتهرت بسورها، وبحصونها المنيعة المسماة بالآطام؛ يتحصنون بها إذا دهمهم العدو، وكانت تحف بها بساتين النخيل التي تمونهم إذا حاصرهم العدو، على أن تلك الحوائط كانت فيها آطام[1] لهم للدفاع عن ثمارهم.

---

(١) الآطام: بالمد جمع أطم بضم الهمزة وضم الطاء المهملة: الحصن بلسان أهل المدينة.

فأما المهاجرون فمن أهل مكة، وأهل مكة وإن لم تكن لهم سابقة في الحرب؛ إذ كان العرب مسالمين لهم، إلا أن الفئة الذين آمنوا منهم قد أكسبهم الإيمان واليقين بالله؛ والغيرة على الحق، والحنق على المشركين ـ إقداماً على الانتصار للدين، ظهرت بوادره في صبرهم واستخفافهم بعداوة أعدائهم.

وقد أيَّد الله المسلمين في مدينتهم بعصمة الهيئة من أن يتطرَّقها ما يفسد أهلها. ففي الحديث أن «**على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون، ولا الدجال**» وفي الحديث «**المدينة كالكير تنفي خبثها، وينصع طيبها**».

وأما كونهم فضلاء فلكي لا يختل فضل المجموع باختلال فضيلة أجزائه، وقد أشرنا على فضل المجموع الذي تتركب منه مدينة الرسول آنفاً.

ونريد أن ننبه هنا على أن أهل المدينة الفاضلة لا يكونون في الفضل سواسية، ولكن يشترط أن يكون الفضل متأصلاً في نفوسهم، وجماع ذلك هو الطاعة لولي أمرهم، وقد كان المسلمون في الطاعة للرسول أفضل مثل لأمة في طاعة قائدها؛ فكانوا إذا أمرهم رسول الله أمراً في الشؤون العامة؛ والقضايا الخاصة، امتثلوا، سواء وافق مرغوبهم أم لا.

قال الله ـ تعالى ـ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الأحزاب: ٣٦.

وقال سهل بن حنيف: لقد رأيتُنا يوم أبي جندل ـ يوم صلح القضية ـ ولو نستطيع أن نرد على رسول الله أمره لفعلنا، والله ورسوله أعلم.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا

يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ النساء: ٦٥.

أراد بالحرج المنفي حرجَ توهمِ أن يكون قضاءُ الرسول غيرَ عادل.

لقد يندر أن يكون في المدينة الفاضلة سفلة وأراذل؛ لأن المجتمع البشري لا يخلص جميعه من ذوي العاهات النفسية، إلا أن وجودهم لا يضر المجتمع؛ لأنهم مغمورون بالصالحين؛ ففسادهم يقتصر على أنفسهم، ثم يرجى لهم الصلاح بتأثير الوسط عليهم؛ فقد كان في المدينة المنافقون، وعن ابن عباس كانوا ثلاثمائة من الرجال، ومائة وسبعين من النساء؛ فانقرض معظمهم؛ إذ كانوا كلهم شيوخاً إلا قيس بن عمرو بن سهل المختلف في بقائه، ومنهم من تاب وحسن إسلامه مثل ثعلبة بن حاطب، ومتعب بن قشير، ومنهم من بقي على نفاقه وقد عد بعضهم من بقي على النفاق اثنين وأربعين.

وقد حدثت في المدينة في حياة الرسول أحداث قليلة، منها ثلاثة حوادث في السرقة، وحادثان أو ثلاثة في الزنا، وحوادث قليلة في شرب الخمر، وثلاثة حوادث في القتل، على أن بعض هذه الحوادث منسوب إلى اليهود، ونوازل قليلة في الخديعة والغصب والجراح مما لا يخلو من مثله مجتمع بشري.

وكل ذلك إذا عرض في المدينة الفاضلة لا يكدر صفاء المدينة، لأن الصلاح الغالب يغطي على تلك العوارض النادرة؛ فَوِزَانُ ذلك وِزَانُ ما يعرض للجسم السليم من صداع أو انحراف مزاج، ثم لا يلبث الجسم أن يدفع ذلك عنه، ويسرع العود إلى معتاده من السلامة.

ولا تخلو المدينة الفاضلة ـ أيضاً ـ من العوارض الخفية اللازمة للاجتماع

والمعاشرة، مثل ما ينشأ بين بعض الأزواج من عدم الملاءمة في المعاشرة، وما يعرض بين الشركاء والجيران من النزاع، وما يعرض بين الناس من الحوادث كالجراح الخفيفة والدعاوي.

كل ذلك لا يقدح في فضل المدينة إذا كان العدل قائماً، والقضاء نافذاً، وكانت نفوس أهلها مطيعة لما تقضى به العدالة، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ التوبة: ١٢٠.

تحتاج المدينة الفاضلة إلى الاستكثار من الأفاضل فيها، حتى تعتضد عزتهم النفسانية بالعزة الجثمانية، وإن كانت العزة الجثمانية في الدرجة الثانية كما قال السموأل:

وما ضرّنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

يريد ما ضرنا القلة إذا كنا أعزاء؛ لأن عزةَ الجار هنا كناية عن عزة من أجاره، ومن أجل هذا قصد الإسلام إزواء المؤمنين كلهم إلى المدينة، فكانت الهجرة إليها واجبة على المسلمين الذين يسلمون بمكة.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾ الأنفال: ٧٢.

وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ

وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) ﴾ النساء.

إلا من أذن له النبي ﷺ في الالتحاق بأفقه، مثل الأعرابي الذي قال له: ويلك إن الهجرة شأنها شديد، ثم قال له: اعمل من وراء البحار.

وقد كان الأعراب النازلون حول المدينة من مزينة وجهينة وأشجع وغفار معدودين كالنازلين بالمدينة، ولما فتحت مكة نسخ حكم الهجرة.

تحتاج المدينة الفاضلة إلى سلامة سكانها من الآفات الجسدية؛ ليتم لهم التمتع بالصحة، فيكونوا أهل مقدرة على الأعمال العظيمة، ويطولَ الانتفاع بفضلهم.

وقد متع الله المدينة بهذه النعمة بدعوة رسول الله ﷺ، فقد كانت المدينة مشهورة بالحمى المستوبئة قد اعتادها سكانها، ولا يطيقها من وفد عليها؛ فلما قدم المهاجرون أصابت الحمى كثيراً منهم، منهم أبو بكر الصديق وبلال وعائشة، فدعا النبي ربه أن تنقل حماها إلى الجحفة، واستجيب له، فما بقيت الحمى المستوبئة تصيب سكان المدينة وقد دعا لها رسول الله بأن لا يدخلها الطاعون؛ فلم يدخل المدينة قط، ولا تدخلها أبداً إن شاء الله.

وإن جدوى المدينة الفاضلة على المجتمع الإسلامي أنها إذا قامت على الفضيلة والعدالة كانت قدوة المجتمع كله؛ إذ هي قلبه، وبصلاح القلب صلاح الجسد كله؛ فتكون هي المرجعَ عند اضطراب الناس، وهي الآخذةُ على يد كل من يحاول فساداً في المجتمع.

ولقد يسر الله لمدينة الرسول هذه الخصلة الكاملة؛ فصارت قدوة الإسلام مدة قيام الخلافة فيها، ثم أخذ أمرها في اضطراب بعد الفتنة التي أثارها الثائرون على

عثمان رضي الله عنه فكانت تلك الفتنة أول بوارق اضطراب الحكومة الإسلامية؛ فبئست فئة الفئة التي أثارت تلك المصيبة.

ومن أجل هذا قُصِدَتْ أن تبقى مدينة الرسول مدينة فاضلة، فَخُصَّت بمزايا أشرنا إلى بعضها آنفاً، ثم حيطت بأن جعلها رسول الله ﷺ حرماً، وبدعائه لها بقوله «**من أحدث فيها أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً**».

ولذلك أمر رسول الله بتعمير المدينة، وكره أن تعرى المدينة، وقال لبني سلمة لما أرادوا أن ينتقلوا بالسكنى إلى قرب المسجد النبوي: «يا بني سَلِمة ألا تحتسبون خطاكم؟».

وفي الموطأ عن سفيان بن أبي زهير قال: سمعت رسول الله يقول: «**تفتح اليمن فيأتي قوم يبِسّون[1]، فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح العراق فيأتي قوم يبِسّون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح الشام فيأتي قوم يبِسّون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون**».

---

(١) يبسون بكسر الباء الموحدة وتشديد السين المهملة مضارع بسّ بمعنى سار.



سادساً: مقالات في الصداقة والعواطف الإنسانية

٢٦ طبقات الأصدقاء[1] للشيخ علي الطنطاوي

خذ قلماً وورقاً وحاول أن تكتب أسماء أصدقائك جميعاً، ثم صنفهم أصنافاً، تجد ـ أوّلاً ـ أن منهم من ليس أصدقاء على التحقيق، ولكنهم أصحاب ورفقاء.

فمنهم رفيق، تلقاه كل يوم أمامك، في السيارة أو الترام، يحيِّيك فتحيِّيه، ويسألك فتجيبه، ويرجوك إغلاق النافذة، فإن فعلت شكر، أو يدوس على رجلك فإن أحسَّ اعتذر، والكلمة تجرُّ الابتسام، والابتسام يجرُّ الكلام، وتمرُّ الأيام فإذا أنتما تتبادلان تحية الصديقين، وتتحدثان حديث الصفيِّين، وأنت لا تعرف اسمه ولا تدري ما هو.

ومنهم رفيق العمل، تكون موظفاً، فترى مكتبه حيال مكتبك، ووجهه تلقاء وجهك، أو تكون عاملاً، فترى آلته إلى جانب آلتك، أو يكون زميلك في المتجر أو جارك في السوق، تكون معه أكثر مما تكون مع أهلك وولدك، وتلقاه أكثر مما تلقى أصدقاءك وأهل ودِّك، وقد تشاركه الجدَّ والهزل، والرضا والغضب، وما شكلك من شكله، ولا عقلك من عقله، ولا أنت من واديه.

ورفيق السفر، ممن تجمع جسديكما عربة القطار، وروحيكما الرغبة في دفع الملل، فيكون منك سلام ومنه كلام، وملاحظة لما ترى، وجواب لما تسمع، وما هي إلا ساعات، حتى تتشاركا في الطعام، وتتجاورا في المنام، وتسَّاقط بينكما

---

(١) نشرت عام ١٩٥٨م، انظر كتاب (صور وخواطر) ص١٦٩-١٧٢.

الأستار، فيرى منك، وترى منه، ما لا يراه المرء إلا من ساكن بيته، وذي قرابته، وما أنت منه ولا هو منك في ودٍّ ولا إخاء.

ورفيق القهوة، ورفيق السينما، ورفيق الملعب، وضروب من الرفقاء غير من ذكرت، ربما استمرت صلة المرء ببعضهم حتى سمَّاهم أصدقاءه، وما هم بالأصدقاء، ولا اختارهم بملكه، ولا صاحبهم باختياره، ولكن الحياة ألقتهم في طريقه، وحملتهم على عاتقه، وإذا هو لم يُحْصِهم ولم يَجْردهم مثل جرد التاجر بضاعتَه، ثم يصنِّفهم أصنافاً؛ فيبقي على الجيد، ويطرح الرديء، لم يدر إلى أي هاوية تسوقه هذه الصداقات؛ لأن الصاحب ساحب، وكل قرين بالمقارن يقتدي.

ورب رجل سايرته في طريق، أو رافقته في سفر، أو عرفته في ديوان، فبذلت له من ظواهر الود، ما يبذله الرجل المهذب لمن يلقاه، وأنت لا تدري وجهته في الحياة، فنسب إليك، وعرف بك، واتصل بك شره، أو أصابك ضره، أو لحق بك عاره، وإذا هو قد ترك فيه أثراً منه من حيث لا تشعر، وكل كلمة تنصبُّ في أذنك إنما هي بذرة كالبذرة التي تلقى في الأرض المخصبة قد تكون بذرة خير فتنبت في نفسك خيراً، وقد تكون بذرة شر فتنبت في نفسك شرّاً، ورب ناس كانوا صالحين فأفسدتهم صحبة شرير بدل حالهم، وأشقى حياتهم، وناس كانوا أشراراً فصلحوا بصحبة الصالحين، ومن كان مستريحاً من وخز الغريزة يشتغل عنها بعلم أو فنٍّ أو رياضة قلب أو جسد، فأوقد عليه نارها، وأذاقه أوارها، صاحب لا يدري من أين يسقط عليه، وآخر يمشي في طريق النار، فمشى به

صديق في طريق الجنة، وليس الصديق الذي يذكِّرك الله كمن ينسِّيك ذكره، ولا الذي يسوقك إلى المسجد للعبادة كمن يقودك إلى الماخور للفجور، ولا من يحدثك عن كتاب طالعه؛ لتطالعه أنت، كمن يصف حسن راقصة رآها؛ لتسعى أنت لمرآها.

فإذا أردت الخَلَّة التي تجمع خلال الخير، والعمل الذي يصلح الأعمال كلها ـ فاكتب أسماء أصدقائك وأصحابك، ومن تتصل به بروابط الود، وانظر إلى كل واحد منهم هل هو صالح في نفسه أم هو غير صالح، وهل هو مخلص لصديقه أم هو لا يبالي إلا نفع نفسه ولذتها، وهل هو مؤنس لجليسه أم هو فقط مزعج غليظ؟

فإذا فعلت رأيت الرفاق على أنواع، ووجدت فيهم من هو صائم مُصَلٍّ له سمت المتقين، وزيُّ الصالحين.

ولكنه يتخذ ذلك سُلَّماً للدنيا وشبكة للمال، ووجدت حقيقته تكذب ظواهر تقاه، فإن عاهدته خانك، وإن عاملته غشَّك.

ووجدت فيهم من هو صادق المعاملة أمين اليد، ولكنه لا يصوم ولا يصلي، وليس له من الدين إلا اسمه؛ فهو يفسد عليك دينك.

ووجدت فيهم من هو صالح متعبد، أمين صادق المعاملة، ولكنه عارم الشهوة، جامح الغريزة، لا حديث له إلا عنها، ولا خوض إلا فيها، وقد كفَّ عن الحرام جوارحه، وأطلق فيه لسانه؛ فهو يؤذيك بإثارة الخامد من رغبتك، وإيقاظ الهاجع من غريزتك.

ومن هو صالح في نفسه، أمين في معاملته، عفُّ اللسان، طاهر الذيل، لكنه لا ينفع صديقاً، ولا يسعد صاحباً، ولو كان على الفرات وأنت تحترق من الظمأ ما ناولك كأس ماء.

ومن يخدم صديقه ويسره، ولكنه لا يبالي في خدمته ومسرته أن يعطيه من دينه؛ فيخون من أجله أمانته، ومن عرضه، فينيله من باب الحرام لذته، ومن شرفه، فيعينه على أكل حقوق الناس، وسرقة أموالهم، يرى كل ذلك في سبيل الصداقة جائزاً مباحاً؛ فيأخذ بيدك حتى يدخلك معه جهنم.

ومن هو ديِّن في نفسه، معين لصديقه، واقف عند حدود الله، لا يقارف إثماً، ولا يباشر محرماً، ولكنه يجهل طرائق المعاشرة، وآداب المؤاكلة، وكل ما تواضع عليه المهذَّبون من الناس، يأتي بما تغثى منه نفسك، وتهيج أعصابك.

ومن هو أحمق رقيع، أو فحاش طياش، ومن يصادقك لحسبك أو منصبك؛ فهو يتخذك زينة بيومه، وعُدَّة لغده؛ فأنت عنده حلية تجمِّل الجدار.

والخلاصة أن الأصحاب خمسة: فصاحب كالهواء لا يستغنى عنه، وصديق كالغذاء لا عيش إلا به، ولكن ربما ساء طعمه، أو صعب هضمه، وصاحب كالدواء مرٌّ كريه، ولكن لا بد منه أحياناً، وصاحب كالصهباء[1] تلذُّ شاربها، ولكنها تودي بصحته وشرفه، وصاحب كالبلاء.

أما الذي هو كالهواء: فهو الذي يفيدك في دينك، وينفعك في دنياك، وتلذك عشرته، وتمتعك صحبته.

---

(١) الصهباء: من أسماء الخمر (م).

وأما الذي هو كالغذاء: فهو الذي يفيدك في الدنيا والدين، لكنه يزعجك أحياناً بغلظته، وثقل دمه، وجفاء طبعه.

وأما الذي هو كالدواء: فهو الذي تضطرك الحاجة إليه، وينالك النفع منه، ولا يرضيك دينه ولا تسلّيك عشرته.

وأما الذي هو كالصهباء: فهو الذي يبلِّغك لذَّتك، وينيلك رغبتك، ولكن يفسد خلقك، ويهلك آخرتك.

وأما الذي هو كالبلاء، فهو الذي لا ينفعك في دنيا ولا دين، ولا يمتعك بعشرة ولا حديث، ولكن لا بد لك من صحبته.

وعليك أن تجعل الدين مقياساً، ورضا الله ميزاناً؛ فمن كان يفيدك في دينك فاستمسك به، إلا أن يكون ممن لا تقدر على عشرته.

ومن كان يضرك فاطَّرحه، واهجره، إلا أن تكون مضطرًّا إلى صحبته؛ فتكون هذه الصحبة ضرورة، والضرورات تبيح المحظورات، بشرط ألا تجاوز هذه الصحبة حدَّ الضرورة.

وأما الذي لا يضرُّك في دينك، ولا ينفعك في دنياك، ولكنه ظريف ممتع - اقتصرت منه على الاستمتاع بظرفه، على ألا تمنعك هذه الصحبة من الواجب، ولا تمشي بك إلى عبث أو إثم.

وما كان وراء ذلك فهو الذي قيل في مثله:

إذا كنت لا علمٌ لديك تفيدنا ... ولا أنت ذو دين فنرجوك للدين

ولا أنت ممن يرتجى لملمّة ... عملنا مثالاً مثلَ شخصك من طين



٢٧ العاطفة والتسامح في الإسلام[1] للشيخ محمد الخضر حسين

يظهر الناس في نسق الائتلاف، وينهض بعضهم لإسعاد بعض على حسب ما يكون بينهم من الاتحاد، والتماثل في مسالكهم الحيوية، وأحوالهم النفسية من آراء وآداب، بل تنعقد الألفة بين الرجلين؛ لتشابههما في بعض أحوال عارضة كغربة، وقد أشار إليها الشاعر العربي بقوله:

.... وكل غريب للغريب نسيب

وكون كل منهما مضطهداً لسلطة واحدة، أو غرضاً لمتحفز ينوي القبض على ناصيته.

تقوى العاطفة بمقدار شدة التماثل وكثرة وجوهه، وتخف على قدر ضعفه وقلة مقوماته، فالألفة التي ينتظم بها أولوا العلم والأدب مثلاً أمتن من الألفة التي تدور بين طائفة لا جامع بينها سوى الاشتراك في نسب أو صناعة:

وقُرَابَةُ الأُدباء يَقْصُرُ دُونَها عند الأَدِيْبِ قُرَابَة الأَرْحَامِ

وعلى هذا المبدأ تقوم الرابطة الدينية، أو القومية، أو الوطنية، فيعطف الإنسان على من يدينون بشريعته، أو ينتمون إلى قبيلته، أو يَشِبُّون في وطنه.

والمثير لهذه العاطفة شعوره بوفاقهم له في كثير من مبادئه وتقاليده، وطَرْز حياته.

وإذا كانت العاطفة الدينية تتولد من الاتحاد في كثير من الأحوال النفسية

---

(١) مجلة البدر ـ الجزء الثاني من المجلد الثاني الصادر في منتصف شهر صفر سنة ١٣٤٠هـ ـ تونس.

والتقاليد العملية ـ دخلت في جملة العواطف الفطرية، أعني ما يقوم بالنفس من أسباب واقعية، دون أن يتوقف عن أمر الشارع، أو موعظة الخطيب.

وينبئك بكونها من الطبائع التي ترتسم في النفس لمجرد التوافق في العقيدة أو المسلك ـ أنَّك لا ترى أمة تنتحل ديناً، أو مذهباً اعتقدت حكمته إلاَّ وقد اشتبكت بينها أوصال التراحم، ولو لم تتلقن من دينها أو مذهبها تعليم هذه العاطفة والحثَّ على تأكيدها؛ فمن تقلد ديناً، وادعى أنَّ عواطفه على شيعة هذا الدين وغيرهم في درجات متساوية ـ فقد ادعى ما تأباه الفلسفة، ويرده الاختبار والتجربة.

فَلِسُلْطَان المغرب، الذي راسله صلاح الدين الأيوبي، طالباً منه المدد بالأساطيل لحماية ثغور الشام عاطفة دينية، ولكنها كانت من الضعف بحيث أخمدها وأَطْفَأَ بارقتها أنَّ ذلك المجاهد العظيم خاطبه بأمير المسلمين بدل أمير المؤمنين الذي هو لقب الخلفاء، فرد البعثة الصلاحية إلى مرسلها خائبة، ولم يبال بالسهام التي ترشقه بها أقلام المؤرخين، والحيرةُ في الجواب عندما تنصب لأمثاله الموازين.

حَذَّرَ الإسلام أنْ تتضاءل العاطفة الدينية، فيضيع كثير من حقائق الشريعة وعزة أهلها، فجاء بها يربيها، ويحييها في النفوس زاكية كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾الحجرات: ١٠، وقوله عليه الصلاة والسلام: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**».

ثم كرَّه أن تطغى كما طغت في نفوس أمم أخرى، فَتَحْمِلَها على التحيز إلى

من يوافقها في الدين، فتؤثره بحقوق غيره، وتَشُد أزره وإن كان مبطلاً، فجاء بما يهذب حواشيها، ويسكبها في قالب عمراني يتمكن معه الشعب المسلم من معاشرة غير المسلمين، فيعيشون على صعيد واحد ولواء السلام والعدالة الصادقة يخفق على رؤوسهم كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ الممتحنة: ٨.

وكقوله ـ تعالى ـ في حق الوالدين: ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ لقمان: ١٥، فقد أرشدت الآيتان وما يُشَاكلهما إلى صحة معاشرة غير المسلمين، وإقامة معاملتهم على قواعد البر والعدالة، ولكنها أذنت للمسلم إذا ابتغوا الخروج به عن سيرة الشرع المحكمة، وآدابه اللامعة، أَنْ يقبض يده عن وفاقهم، ويَلْوي بعنقه عن طاعتهم، وإن كانوا بمنزلة والديه اللذين هما أَشَد الناس به صلة، وأحقهم بامتلاك زمامه.

فالعاطفة الإسلامية لا تصادم غيرها من سائر العواطف الصحيحة، فيستقيم للنفس الواحدة أنْ تحمل عاطفة تَحْنُو بها على من يسايرونها في طريق سعادتها الباقية، وأُخْرَى تشفق بها على من نشأوا معها في منبت، أَو قاسموها القيام بمرافق الحياة الدنيا.

٢٨ التعب العصبي.. والخوف[1] للأستاذ أحمد أمين

من الكلمات التي دخلت اللغة العامية حديثاً «النرفزة» و«تنرفز» بمعنى هاجت أعصابه، وهي مأخوذة من الكلمة الأفرنجية «nerves» بمعنى أعصاب.

وليس معنى هذا أن النرفزة لم تكن موجودة ثم وجدت، بل هي موجودة منذ وجد الإنسان، ولكن كنَّا نسميها سَورة الغضب، أو نحو ذلك من أسماء. وإنما الجديد هو التسمية فقط بالنرفزة، والجديد ـ أيضاً ـ أنَّ حياتنا المعقدة المركبة التي خلفتها المدنية الحديثة، وزادت من أعبائها ومسؤوليتها زادت ـ أيضاً ـ في هياج أعصابنا، بدليل أنَّ الفَلاَّحِين في القرى ومن عاشوا عيشة بسيطة أقل نرفزة من سكان المدن، وأنَّ الطبقة الفقيرة من سكان المدن أقل من الطبقة الوسطى والعليا؛ لقلة مسؤوليتها.

والنرفزة أو هياج الأعصاب تنشأ من المجموع العصبي عند الإنسان، والمجموع العصبي يتكون من المخ، ومن النخاع الشوكي وهو المادة الهُلاَمية الموجودة في سلسلة العمود الفقري ومن ملايين من الخيوط الدقيقة التي تتفرع من المخ ومن النخاع الشوكي، وتصل إلى كل خلية من خلايا الجسم، وهذه الأسلاك أو الخيوط من أهم وظائفها أنها ترسل الإشارات إلى المخ، وتتلقى منه الإشارات؛ فهي أكبر وأعقد من أي محطة للأسلاك التلغرافية؛ فمثلاً إذا لمس أصبعك شيئاً ساخناً جداً، فجذبت يدك فمعنى هذا أن خلاياك التي في الإصبع لمست هذا

---

(١) فيض الخاطر ١٠/٢٢٠ـ٢٢٤.

الشيء الساخن وأرسلت خيوط أعصابك إشارة إلى المخ بما وجدت وما أحست، وتلقت إشارة من المخ بالانسحاب فانسحبت.

وكل هذا يحدث في سرعة البرق، وهكذا إذا أردت المشي، أو تحريك يدك، أو الراحة، أو نحو ذلك.

والأعصاب من مخٍّ ونخاعٍ وأسلاكٍ شيءٌ ماديٌّ يُرَى بالعين، أو بالميكروسكوب، ولكنَّ التيار الذي يجري فيها كالتيار الكهربائي لا يُرَى ولكن يعرف بآثاره.

وتختلف هذه المجموعة العصبية عند كل إنسان عن الآخر، فكما أنَّ كل فرد يختلف في ملامح وجهه وقوة حواسه وعضلاته وبناء جسمه عن الشخص الآخر قوة وضعفاً وجمالاً، بل ترى الشخص الواحد يكون في حالة من الحالات قوي الأعصاب، فيواجه الأحداث العظام في صبر وثبات، ثم تتعب أعصابه لسبب من الأسباب، فيواجهها في قلق وجزع واضطراب، بل خذ مثلاً الطفل إذا مشى مشياً طويلاً، وتعب من الحركات عاد إلى بيته هائجاً مضطرباً كثير الصراخ كثير البكاء، يتلمس أي سبب للغضب حتى إذا نام وهدأ قام كالمعتاد هادئاً مطمئناً.

وكذلك الرجل أو المرأة تتعب أعصابه، فيغضب مما لا يغضب منه، ويثور من أجل التافه من الأمور، يثور من أجل كسر الطبق، ومن أجل قرش ضاع في غير محله، ومن فَعْلَةٍ صغيرة فعلها الموظف الذي معه، ومن زوجته إذا كلمته كلمة في غير محلها، ومن ابنه إذا طلب منه مصاريف المدرسة مع أن هذه الأحداث نفسها وأكبر منها إذا حدثت وأعصابه غير متعبة قابلها مقابلة عادية، ولم يعبأ بها، ولم

يَهِجْ منها.

ومن أعجب ما لاحظه الأطباء في الأعصاب أن هناك سدوداً للتيارات التي تمر في الأعصاب، وظيفتها أنها تقلل من قوة التيار حتى يصل إلى المخ هادئاً، فإذا ضعفت هذه السدود وصل الانتباه إلى المخ في قوة تسبب اضطراباً، ومثله في ذلك مثل الأسلاك من الرصاص التي تركب في «الكوبس» ينتقل فيها التيار من الخارج، وإذا زاد التيار احترق الرصاص؛ ليمنع احتراق المنزل بالتيار القوي.

وتضعف هذه الأعصاب بالتعب المضني، وبالكوارث المتتالية، وبالهزات العنيفة المتتابعة وهذا الضعف على درجات؛ فهو يبدأ بقلق وأرق، ويتدرج إلى عجز من تركيز الفكر وإظلام نفس، ويزيد إلى يأس شديد، وهيجان لأقل الأسباب، وعجز عن الراحة والهدوء، ونحو ذلك.

ومما يلاحظ ـ أيضاً ـ أن هذا التعب العصبي يتبعه دائماً الخوف، وهذا الخوف يتخذ أشكالاً مختلفة حسب ظروف كل شخص.

فمن نما عنده الشعور الديني تمثل خوفه في الموت؛ فهو يخاف الموت، ويخاف العقاب بعد الموت، ويخاف الخطايا التي ارتكبها، والمعاصي التي وقع فيها في شبابه، وتتجسم هذه المعاني في نفسه، وتكبر حتى تقلق باله وتعكر صفو حياته.

ومن كان شديد الشعور بالمال خاف الفقر إن كان غنياً؛ فألجأه ذلك إلى شدة الحرص والهياج عند كل قرش يصرف، والغضب الشديد عند كل ما يعرض من مطالب مالية.

ومن كان رحيماً شديد العطف على أولاده ظهر خوفه من هذه الناحية؛ فهو

يخاف على أولاده من الترام والسيارات، ويقلق أشد القلق إذا تغيبوا عن البيت ساعة وكلما قرأوا وسمعوا عن حُمَّى أصابت ولداً، أو شاباً أو شابة مات في ريعان شبابه زاد خوفهم واضطراب حالهم.

ومن بلغت سنَّ الزواج، ولم تتزوج خافت أنْ يمرَّ موسم زواجها، وإذا خُطِبَتْ خافت أن تفشلَ في زواجها، وهكذا وهكذا الخوف فنون.

وقد يزيد الخوف حتى يكون خوفاً من أوهام، فهو يتخيل دسائس تحاك حوله، وأن له أعداءاً يتربصون به، وأن بعض أقربائه يكيد له، وأن له في المصلحة من يفسد الأمر بينه وبين رؤسائه، وهكذا؛ فيخلق أوهاماً يخاف منها.

وفي الناس ألوانٌ شتى من هذه المخاوف، وعددهم ليس بالقليل، وكلما عظمت المدنية زادت ضحايا ضعف الأعصاب وخاصة أيام الحروب، فيقول طبيب أمريكي: إنه في أوائل الحرب العالمية الثانية كان عدد سكان أمريكا ١٣٠ مليوناً وكان عدد ضحايا الأمراض العصبية يقرب من ١٣ مليوناً بين مجنون ومضطرب، ومختل التوازن، وقد كان كثيراً جداً عدد الشبان الذين يتقدمون للجندية، فيُرَدُّونَ عنها بعد الكشف الطبي عليهم؛ لاختلال توازنهم العصبي.

وبعد: **فما علاج هذا؟** الواقع أنَّ علاجه في يد الإنسان أكثر من أن يكون في يد الطبيب، وأهم علاج له شيئان: يستنتجان مما وصفنا قبلا.

أولهما: الراحة الجسمية؛ فقد رأينا أن الخوف يتبع التعب الذي ينال المجموع العصبي كما ينال الشخص عقب مجهود كبير بذله؛ أو تفكير طويل فكره، أو حادثة جليلة هزَّته.

فهذه الأشياء وأمثالها تضعف المجموع العصبي، وتضعف السدود التي تحجز بعض التيار عن المخ؛ فإذا استرد الإنسان راحته قويت هذه السدود كالشأن في الإنسان يتعب، ثم ينام نوماً عميقاً، فيسترد ما فقده من خلايا، ومن وسائل هذه الراحة تغيير البيئة والمكان والرياضة المعتدلة، والرحلات الخفيفة اللطيفة ونحو ذلك؛ فإنها تفعل في النفوس ما لا تفعله الأدوية.

ومن ذلك ـ أيضاً ـ عدم التعرض لما يهيج الأعصاب، فمن عرف أنَّ شيئاً معيناً يُهَيِّجُه فليبتعد عنه، وليبتعد عن الأوساط التي تخلقه، وليرأف به أهله، فلا يسببون له متاعب في النواحي التي يعرفون أنها تقلقه وتزيد اضطرابه، فإذا تمت راحته رأينا أنه قد زال خوفه، وتلك نتيجة طبيعية لما رأينا من أنَّ التعب يتبعه الخوف.

والأمر الثاني: الإيحاء الذاتي؛ فهو يعمل في النفوس فعل السِّحْر، فليُكَرِر المريض على نفسه الإيحاء، بأنَّ جسمه سليم، وأنه يستطيع التغلب على هذا الخوف، وأنَّ يومه خير من أمسه، وأنَّ غده سيكون خيراً من يومه، وأنَّ ما هو فيه أوهام تزول بقوة إرادته، وليعرف منتحى خوفه؛ فليعالجه من الناحية التي توائمه، فمن كان يخاف الموت، ويخاف ما ارتكب من المعاصي فليُكرر على نفسه أنَّ الله غفور رحيم، وأنَّه يغفر الذنوب جميعاً، وأنَّ ما ورد في القرآن من آيات الرحمة أكثر مما ورد من آيات العذاب، وأنَّ الله أحنى على العبد من الوالد على ولده، فإذا رَدَّدَ هذه المعاني كلها وكررها كل يوم انتعشت نفسه، وأَحَسَّ أنَّه يتقدم تقدماً عظيماً.

ومن كان يخاف الفقر فليكرر على نفسه فلسفة المال، وأنَّ المال عَرَضٌ من أعراض الحياة، وأنه ليس هو السعادة، وإنما هو وسيلة السعادة، وأنَّه لا يحق على نفسه الخوف من الفقر قبل حدوثه.

وهكذا الشأن في الخوف على الأولاد وكل نوع من أنواع الخوف؛ فكل إنسان بقليل من التفكير يستطيع أنْ يكون له فلسفة تشجعه ضد خوفه، وتملؤه غبطة وطمأنينة.

هذان في نظري هما العلاجان الطبيعيان للأعصاب، وهما في يد كل إنسان إذا صحت عزيمته، وقويت إرادته.

٢٩ لماذا ـ ولأن [1] للأستاذ أحمد أمين

لماذا ترى الرجل عاقلاً حكيماً، صادق الرأي في الحكم على الأشياء، صحيح التقويم لها، عادلاً في تقديرها، وذلك كله إذا كان الشيء الذي يحكم عليه أو يقدره غير متصل بذاته، ولا يمس مصلحة من مصالحه، ولا يناله منه خير أو شر.

فإذا اتصل هذا الشيء بنفسه، أو كان يتوقع منه ضراً أو نفعاً ـ فَسَدَ حكمُه، وساء تقديره، وفقد حكمته، وأصبح مثله مثل السفيه في الرأي، الكاذب في النظر، السيئ التقدير؟

لأن الإنسان ـ في الأعم الأغلب ـ لا يستطيع أن يجرد الأشياء عند الحكم عليها من عواطفه، وقد لاحظ الفلاسفة هذا الخطأ في الأحكام، فحاولوا تجريد الأشياء المحكوم عليها مما يتصل بها من العواطف، وأدرك هذا علماء المنطق، فرأوا أن الألفاظ في القضية قد يتصل بها شيء من العواطف يفسد حكمهم، فحاولوا أن يعبِّروا عن هذه القضايا بـ: أ، ب، جـ، د؛ حتى يكون حكمهم مجرداً؛ فيكون أقرب إلى الصدق.

والدنيا مملوءة بالأحكام الفاسدة، والتقويم الفاسد، وكان سبب الفساد وسوء التقويم دخول المنفعة الشخصية في التقويم والحكم، حتى في القضية الواحدة، والمثل الواحد، ينظر إليه الإنسان في غيره؛ فيصدر حكمه صحيحاً، فإذا اتصل هذا الأمر بشخصه نفسه أصدر حكماً آخر، وتقويماً آخر.

---

(١) فيض الخاطر، ٨/١٣٨ ـ ١٤١.

وهذا ما حدا بطائفة من الفلاسفة أن يقولوا إن الإنسان لم يمنح العقل لمعرفة الحقائق، ولكن لخدمة المصالح.

ومما يؤسف له أن مداخلَ العواطف في تقويم الأشياء والحكم عليها مداخلُ في منتهى الخفاء، وليس الكذب مقصوراً على الكذب على الآخرين، بل أشد منه خطراً كذب الإنسان على نفسه؛ فهو يخدعها، ويظن أنه ينصحها، ويجور في حكمه، ويظن أنه يعدل، ولم يستطع أن يتحرر من هذا إلا القليل النادر.

وما سبب النزاع في العالم إلا الوقوع في هذا الخطأ، وما ملأ المحاكم بالقضايا إلا هذا الخطأ؛ فليست المحاكم والمجالس القضائية وغير القضائية مقصورة على الشريرين والباغين الذين يدعون الحق، ويعلمون أنهم مبطلون.

ولكن أكثر من هؤلاء ـ المتخاصمون الذين يختلفون على الأمر الواحد ويعتقد كلٌّ منهم أنه على حق؛ ذلك أن كلاً منهم ينظر إلى المسألة من زاويته هو، لا من زاويةِ خصمه، والزاوية التي ينظر منها كل متخاصم عَمِل في تكوينها عقلُه ومنطقُه، وبواعثُه، وعواطفه، والخير الذي يرتجيه، والشر الذي يهرب منه.

وهذه المصيبة الكبرى تطالعك كل يوم في الخلاف المالي بين الأشخاص، والخلاف بين أعضاء المجالس، حتى في الهيئات التي تتكون من أرقى الناس عقولاً، وأكثرهم ثقافة، وأوسعهم إدراكاً؛ فإنك إذا فتشت عن أكبر سبب للخلاف بينهم وجدته في لعب العواطف، والمصالح الشخصية الخفية في أعماق النفوس.

وهذا هو ما يطالعك كل يوم في الجرائد في أكثر ما تكتب يومياً؛ فالمسألة

الواحدة تعرضها جريدة بشكل، وتحكم عليها بشكل، وتخالفها في كل ذلك الجريدة الأخرى.

وكلا الكاتبين عاقلٌ ممتاز، كان من الممكن أن يتفق مع صاحبه في نظره وحكمه، لو تجرد من عواطفه وهواه.

ولكن تدخلت في حكمه على الشيء مصلحتُه الشخصيةُ، أو مصلحتُه الحزبية، فَلَوَّنَتْ عَرْضَه للمسألة، وحكمَه عليها، حتى رآها أحدهما سوداء، والآخر بيضاء، وحتى عجب القارئ على الحياد من بعد ما بين الفريقين من الخلاف، وكيف لعبت المصالح بالعقول، حتى صارت موضع الهزء والسخرية.

بل هذا ما يطالعك ـ أيضاً ـ في شؤون السياسة العامة، فخروج الروس من إيران صواب في نظر الإنجليز خطأ في نظر الروس، وخروج الإنجليز من مصر صواب في نظر الروس خطأ في نظر الإنجليز، والتعدي على أية أمة ولو صغيرة بتقسيمها خطأ في نظر جميع الأمم، ولكن تقسيم فلسطين صواب عند أغلب الأمم، ووجود منفذ على البحر الأبيض لروسيا خير لابد منه في نظر الروسيين، شر لابد من مقاومته في نظر الإنجليز والأمريكيين، وهكذا...

ذلك لأن العقل ليس هو الذي يحكم وحده، ولكن تدخلت العاطفة الوطنية، والمصالح القومية، فلوَّنت المسألة الواحدة عند كل فريق بلون يخالف تمام المخالفة اللون الذي صبغه الفريق الآخر.

وهذا هو سر الخلاف بين الشرق والغرب، بل سر الخلاف بين الدول كلها الآن، وانقسام العالم إلى معسكرين، كما كان من قبل، بل هو سر الخلاف بين

الممثلين لهذه الأمم، مع أن المفروض فيهم أنهم من أرقى الناس عقلاً، وأصدقهم حكماً، وأعدلهم تقويماً للأشياء.

وإنما المسألة أن العقل وحده ليس الذي يحكم، وليس الذي يقدر، ولكن العامل الأكبر في الحكم والتقدير هو ما تراه كل أمة ومن يمثلها، مراعياً ما يعود من الرأي على أمته من مصالح أو مضار.

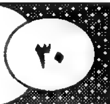
ولو أنك جمعت هؤلاء الممثلين، وجردتهم من عواطفهم لاتفقوا على رأي واحد في تقدير الأشياء وخيرها وشرها، وما يجب أن يعمل، وما يجب أن يترك في أقرب زمن.

وإن شئت فقل: إن الحروب في العالم وويلاتها سببها هذا الخطأ في الحكم من حفنة من قادة الرأي والسياسة، قدَّر كلُّ زعيمِ أمةٍ مصلحةَ أمته، وما ينالها في الحرب إن دخلت الحرب، أو السلم إن جنحت إلى السلم، ثم أصدر حكمه غير مصغٍ إلى عقله المجرد، وغير مُقَدِّرٍ للحقائق كما ينبغي أن تقدر، وقد يؤثِّر في رأيه هوىً شخصيٌّ، أو ناحيةٌ من نواحي ضعفه الخلقي، أو رغبتُه في المجد الوطني الكاذب، أو خضوعه تحت تأثير قوم من الرأسماليين الشريرين، أو نحو ذلك من شهوات أو مطامع أو مطامح، يتأثر بها عدد قليل من القادة؛ فيوقعون العالم الإنساني كله في كوارث لا تقدر خطورتها.

ولو أتيح للعالم يوماً من الأيام أن يكون قادته من المناطقة أو الفلاسفة الذين يستطيعون أن يتجردوا في حكمهم على الأشياء من هوى أو مطمع أو مطمح، وأن يقدروا المسائل حسب قيمتها الذاتية لا حسب ما يغلِّفها من أعراض

وأغراض، فإن كان ولابد من اشتراك العواطف والمشاعر في الحكم فالعواطف للإنسانية لا للوطنية، والمشاعر للعالمية لا للقومية ـ لعم العالمَ السلمُ، وعاش في رفاهية، وكان الناس بنعمة الله إخواناً.

ولكن أنَّى لنا ذلك والقول ما قال بديع الزمان: «والله ما فسد الناس، ولكن اطرد القياس».



٣٠ وحي القبور[١] للأديب مصطفى صادق الرافعي[٢]

ذهبتُ في صبُح يوم عيد الفطر أحملُ نفسي بنفسي إلى المقبَرَة، وقد مات لي من الخواطر مَوْتَى لا مَيِّتٌ واحد؛ فكنت أمشي وفيَّ جنازةٌ بمُشَيِّعيها؛ من فكر يَحملُ فكراً، وخاطر يتبع خاطراً، ومعنىً يَبكي، ومعنىً يُبكَي عليه.

وكذلك دأبي كلما انحدرتُ في هذه الطريق إلى غير ذلك المكان الذي تأتيه العيون بدموعها، وتمشي إليه النفوس بأحزانها، وتجيء فيه القلوب بقاياها.

تلك المقابر التي لا يُنَادَى أهلها من أهليهم بالأسماء ولا بالألقاب، ولكن بهذا النداء: يا أحبابنا، يا أحزانَنا!

ذهبتُ أزورُ أمواتي الأعزاء، وأتصل منهم بأطراف نفسي؛ لأحيا معهم في الموت ساعةً أعرض فيها أمرَ الدنيا على أمر الآخرة، فأنسى وأذكر، ثم أنظرُ وأعتبر، ثم أتعرَّف وأتوسَّم، ثم أستبطِنُ مما في بطن الأرض، وأستَظهِرُ مما على ظهرها.

وجلست هناك أُشْرِفُ من دهرٍ على دهر، ومن دنيا على دنيا، وأخرجت الذاكرةُ أفراحها القديمة؛ لتجعلَها مادةً جديدة لأحزانها، وانفتح لي الزمن الماضي، فرأيت رجعة الأمس، وكأن دهراً كاملاً خلق بحوادثه وأيامه، ورفع لعينيَّ كما ترفع الصورة المعلقة في إطارها.

---

(١) وحي القلم ٢/١٤١ـ١٤٥.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

أعرف أنهم ماتوا، ولكني لم أشعر قطّ إلا أنهم غابوا، والحبيبُ الغائبُ لا يتغيَّرُ عليه الزمان ولا المكان في القلب الذي يحبه مهما تَراخَتْ به الأيام؛ وهذه هي بقية الروح إذا امتزجت بالحب في روح أخرى: تترك فيها ما لا يُمحَى؛ لأنها هي خالدة لا تُمحى.

ذهب الأموات ذهابهم ولم يقيموا في الدنيا، ومعنى ذلك أنهم مرُّوا بالدنيا ليس غير، فهذه هي الحياة حين تعبِّر عنها النفس بلسانها لا بلسان حاجتها وحرصها.

الحياة مدةُ عمل، وكأن هذه الدنيا بكل ما فيها من المتناقضات، إن هي إلا مَصْنَعٌ

يُسَوَّغُ كل إنسان جانباً منه، ثم يقال له: هذه الأداة فاصنع ما شئت: فضيلتَك أو رذيلتك.

جلست في المقبرة، وأطرقت أُفكر في هذا الموت، يا عجباً للناس! كيف لا يستشعرونه وهو يهدم من كل حي أجزاءاً تحيط به قبل أن يهدمه هو بجملته، وما زال كل بنيان من الناس به كالحائط المُسَلَّطِ عليه خرابه، يتأكَّلُ من هنا، ويتناثر من هناك؟!

يا عجباً للناس عجباً لا ينتهي! كيف يجعلون الحياة مدة نزاع وهي مدة عمل؟ وكيف لا تبرح تنزو النَّوازِي بهم في الخلاف والباطل، وهم كلما تَدَافَعوا بينهم قضيةً من النزاع فضربوا خصماً بخصم، وردُّوا كيداً بكيد جاء حكم الموت تكذيباً قاطعاً لكل من يقول لشيء: هذا لي؟

أما والله إنه ليس أعجب في السخرية بهذه الدنيا من أن يعطي الناس ما يملكون فيها لإثبات أن أحداً منهم لا يملك منها شيئاً؛ إذ يأتي الآتي إليها لحماً وعظماً، ولا يرجع عنها الراجع إلا لحماً وعظماً، وبينهما سفاهة العظم واللحم حتى على السِّكِّين القاطعة...

تأتي الأيام وهي في الحقيقة تفرُّ فرارها؛ فمن جاء من عمره عشرون سنةً فإنما مضت هذه العشرون من عمره، ولقد كان ينبغي أن تُصحَّح أعمال الحياة في الناس على هذه الأصل البين، لولا الطباع المدخولة، والنفوس الغافلة، والعقول الضعيفة، والشهوات العارمة؛ فإنه مادام العمر مقبلاً مدبراً في اعتبار واحد فليس للإنسان أن يتناول من الدنيا إلا ما يرضيه محبوساً له ومحبوساً عليه في وقت معاً، وتكونُ الحياة في حقيقتها ليست شيئاً إلاَّ أن يكونَ الضميرُ الإنسانيُّ هو الحيَّ في الحيِّ.

وما هي هذه القبور؟ لقد رجعتْ عند أكثر الناس مع الْمَوتى أبنية ميتة؛ فما قطُّ رأوها موجودةً إلا لينسَوا أنها موجودة، ولولا ذلك من أمرهم لكان للقبر معناه الحي المتغلغل في الحياة إلى بعيد؛ فما القبر إلا بناء قائم لفكرة النهاية والانقطاع، وهي في الطَّرَف الآخر ردٌّ على البيت الذي هو بناء قائم لفكرة البدء والاستمرار، وبين الطَّرفين المعبد وهو بناءٌ لفكرة البدء والاستمرار، وبين الطرفين المعبد وهو بناء لفكرة الضمير الذي يحيا في البيت وفي القبر، فهو على الحياة والموت كالقاضي بين خصمين يصلح بينهما صُلحاً أو يَقضى.

القبر كلمة الصدق مبنيةً متجسِّمةً، فكل ما حولها يَتَكَذَّب ويتأوَّل، وليس

فيها هي إلا معناها لا يَدْخُلُه كذبٌ، ولا يعتريه تأويل، وإذا ماتت في الأحياء كلمة الموت من غرور، أو باطل، أو غفلة، أو أثرة، بقي القبر مذكّراً بالكلمة شارحاً لها بأظهر معانيها، وداعياً إلى الاعتبار بمدلولها، مبيِّناً بما ينوي عليه أن الأمر كله النهاية.

القبر كلمة الأرض لمن ينخدع فيرى العمرَ الماضيَ كأنه غير ماض، فيعمل في إفراغ حياته من الحياة بما يملؤها من رذائله وخسائسه؛ فلا يزال دائباً في معاني الأرض واستجماعها والاستمتاع بها، يتلو في ذلك تِلْوَ الحيوان ويقْتَاسُ به، فشريعته جَوْفُه وأعضاؤه، وترجع في ذلك حيوانيتُه مع نفسه الروحانية، كالحمار مع الذي يملكه ويعلفه، ولو سُئل الحمار عن صاحبه من هو؟ لقال: هو حِماري.....

القبر على الأرض كلمةٌ مكتوبةٌ في الأرض إلى آخر الدنيا، معناها أن الإنسان حيٌّ في قانون نهايته؛ فلينظرْ كيف ينتهي.

إذا كان الأمر كله للنهاية، وكان الاعتبارُ بها والجزاء عليها فالحياةُ هي الحياةُ على طريقة السلامة لا غيرها، طريقةِ إكراه الحيوان الإنسانيّ على ممارسة الأخلاقية الاجتماعية، وجعلِها أصلاً في طباعه، ووزن أعماله بنتائجها التي تنتهي بها؛ إذ كانت روحانيتُه في النهايات لا في بداياتها.

في الحياة الدنيا يكون الإنسان ذاتاً تعملُ أعمالَها؛ فإذا انتهت الحياة انقلبت أعمالُ الإنسان ذاتاً يُخَلَّد هو فيها؛ فهو من الخير خالدٌ في الخير، ومن الشر هو خالدٌ في الشر؛ فكأن الموتَ إنْ هو إلا ميلادٌ للروح من أعمالها؛ تولد مرتين: آتيةً

وراجعة.

وإذا كان الأمرُ للنهاية فقد وجب أن تبطل من الحياة نهاياتٌ كثيرة؛ فلا يترك الشرُّ يمضي إلى نهايته بل يُحسَم في بدئه، ويُقتل في أول أنفاسه، وكذلك الشأنُ في كل ما لا يَحسنُ أن يبدأ، فإنه لا يجوز أن يمتدَّ: كالعداوة والبغضاء، والبخل والأثرة، والكبرياء والغرور، والخداع والكذب، وما شابك هذه أو شابَهَهَا؛ فإنها كلُّها انبعاثٌ من الوجود الحيواني، وانفجارٌ من طبيعته؛ ويجب أن يكون لكل منها في الإدارة قبرٌ كَيْ تَسْلَم للنفس الطيبة إنسانيتها إلى النهاية.

يا من لهم في القبور أموات!

إن رؤيةَ القبر زيادةٌ في الشعور بقيمة الحياة، فيجب أن يكونَ معنى القبر من معاني السلام العقليّ في هذه الدنيا.

القبر فمٌ ينادي: أسرعوا أسرعوا، فهي مدة لو صُرِفت كلها في الخير ما وَفَتْ به؛ فكيف يضيع منها ضياع في الشر أو الإثم؟

لو ولد الإنسان، ومشى، وأيفع، وشب، واكتهل وهرم في يوم واحد فما عساه كان يُضِيع من هذا اليوم الواحد؟ إن أطولَ الأعمار لا يراه صاحبه في ساعة موته إلا أقصرَ من يوم.

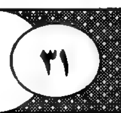
ينادي القبر: أصلحوا عيوبكم، وعليكم وقتٌ لإصلاحها؛ فإنها إن جاءت إلى هنا كما هي بقيت كما هي إلى الأبد، وتركها الوقتُ وهرب.

هنا قبر، وهناك قبر، وهنالك القبرُ أيضاً؛ فليس ينظر في هذا عاقلٌ إلا كان نظره كأنه حُكْمُ محكمةٍ على هذه الحياة كيف تنبغي، وكيف تكون؟

في القبر معنى إلغاء الزمان، فمن يفهم هذا استطاع أن ينتصر على أيامه، وأن يسقط منها أوقات الشر والإثم، وأن يميت في نفسه خواطر السوء؛ فمن معاني القبر عقلها القويُّ الثابت، وكل الأيام المكروهة لا تجد لها مكاناً في هذا العقل، كما لا يجد الليل محلاً في ساعات الشمس.

ثلاثةُ أرواح لا تَصلُح روحُ الإنسان في الأرض إلا بها:
روح الطبيعة في جمالها، وروحُ المعبد في طهارته، وروحُ القبر في موعظته.

سابعاً: مقالات في العادات والعبادات



معنى الصوم[1] للشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي

للإسلام في كل عبادة من عباداته حِكَمٌ تستجليها العقول على قدر استعدادها، فمنها حكم ظاهرة يدركها العقل الواعي بسهولة، ومنها حِكَمٌ خفية يفتقر العقل في اجتلائها إلى فَضْلِ تأملٍ، وجَوَلانِ فكرٍ.

ولكلٍّ عبادة في الإسلام تؤدَّى على وجهها المشروع، وبمعناها الحقيقي آثارٌ في النفوس تختلف باختلاف العابدين في صدق التوجُّه، واستجماع الخواطر، واستحضار العلاقة بالمعبود.

والغرض الأخصّ للإسلام في عباداته التي شرعها هو تزكية النفس، وتصفيتُها من شوائب الحيوانية الملازمة لها من أصل الجِبِلَّة، وترقيتُها للمنازل الإنسانية الكاملة، وتغذيتها بالمعاني السماوية الطاهرة، وفتح الطريق أمامها للملأ الأعلى؛ لأن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه كائنٌ وسطٌ ذو قابلية للصفاء الملَكِي، والكَدَر الحيواني، وذو تركيب يجمع حمأ الأرض وإشراق السماء، وقد أوتي العقل والإرادة والتميز؛ ليسعد في الحياتين: المنظورة والمذخورة، أو يشقى فيهما؛ امتحاناً للعقل من خالق العقل والمنعم به؛ ليظهر مزية العاقل على غير العاقل من المخلوقات.

والعبادات إذا لم تعطِ آثارَها في أعمال الإنسان الظاهرة فهي عبادة مدخولة،

---

(١) حديث في إذاعة بغداد، ماي ١٩٥٤، وانظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٤/٢٨٨ـ٢٩٠.

أو جسم بلا روح.

والصوم في الإسلام عبادة سلبية؛ بمعنى أنها إمساك مطلق عن عدة شهوات نفسية في اليوم كله لمدة شهر معيّن؛ فليس فيها عمل ظاهر للجوارح كأعمال الصلاة وأعمال الحج مثلاً.

ولكن آثار الصوم في النفوس جليلة، وفِيْهِ من الحكم أنه قمع للقوى الشهوانية في الإنسان، وأنه تنمية للإرادة، وتدريب على التحكم في نوازع النفس، وهو في جملته امتحان سنوي يؤدّيه المسلم بين يدي ربّه، والنجاح في هذا الامتحان يكون بأداء الصوم على وجهه الكامل المشروع، ولكن درجة النجاح لا يعلمها إلا الله؛ لتوقف الأمر فيه على أشياء خفية لا تظهر للناس، ومنها الإخلاص، ولذا ورد في النصوص الدينية: **«الصوم لي وأنا أجزي به»**.

والصوم مشروع في جميع الأديان السماوية، وحكمته فيها واحدة، ولكن هيئاته وكيفياته تختلف.

واختلافُ المظاهر في العبادة الواحدة لا يقدح في اتحاد حقيقتها، ولا في اتحاد حكمها؛ لأن المظاهر قشور، والحقائق هي اللباب.

وهذا الإمساك يشمل في اعتبار الدين الكامل عدة أشياء جوهرية تمسك المسلمون بالظواهر منها كالإمساك عن شهوة البطن، وغفلوا عن غيرها وهي سر الصوم وجوهره وغايته المقصودة في تزكية النفس، وأهمّها الإمساك عن شهوة اللسان من اللغو والكذب والغيبة والنميمة، ومنها اطمئنان النفس وفرحها بالاتصال بالله، ومنها تعمير النهار كله بالأعمال الصالحة، ومنها الحرص على

أداء العبادات الأخرى كالصلاة في مواقيتها، ومنها كثرة الإحسان إلى الفقراء والبائسين وإدخال السرور عليهم بجميع الوسائل؛ حتى يشترك الناس كلهم بالخير، فتتقارب قلوبهم، وتتعاون أنواع البر على تهذيب نفوسهم، وتصفية صدورهم من عوامل الغل والبغضاء، وتثبيت ملكات الخير فيهم.

ومن المقاصد الإلهية البارزة في ناحية من نواحي الصوم أنه تجويع إلزامي، يذوق فيه ألمَ الجوع مَنْ لم يذقْه طول عمره من المُنَعَّمِين الواجدين.

وفي ذلك مِنْ سِرِّ التربية ما هو معروف في أخذ الطفل بالشدة في بعض الأوقات، ومن لوازم هذا التجويع ترقيقُ العواطف، وتهيئة صاحبها للإحسان إلى الفقراء المحرومين؛ فإن مَن لم يذق طعم الجوعِ لا يعرف حقيقة الجوع، ولا يحسّ آثاره، ولا يتصوّره تصوّراً حقيقيًا، ولا يهزّه إذا ذكّر به؛ فالغني الذي لم يذق آلام الجوع طوال عمره لا يتأثر إذا وقف أمامه سائل محروم يشكو الجوع، ويصف آلامه، ويطلب الإحسان بما يخفّف تلك الآلام؛ فيخاطبه وكأنما يخاطب صخرة صمّاء؛ لأنه يحدِّثه بلغة الجوعِ، ولغةُ الجوع لا يفهمها المترفون المنعّمون، وإنما يفهمها الجياع؛ فكيف نرجو من هذا الغني أن يتأثر، وأن يهتزّ للإحسان، وهو لم يَجُع مرة واحدة في عمره؟.

فهو لا يتصّور ألم الجوع، ومن لم يتصوّر لم يصدِّق، ومن لم يحس بالألم لم يحسن إلى المتألمين.

و لو أن المسلمين أقاموا سنة الإحسان التي أرشدهم إليها الصوم لم ينبت في أرضهم مبدأ من هذه المبادئ التي كفرت بالله، وكانت شرّاً على الإنسانية.

وأنا فقد عافاني الله من وجع الأضراس طول عمري؛ فانعدم إحساسي به؛ فكلما وصف لي الناس وجع الأضراس، وشكوا آلامه المبرحة سخرت منهم، وعددت الشكوى من ذلك نقيصة فيهم؛ هلعاً، أو خورًا، أو ما شئت.

وفي هذه الأيام غمزني ضرس من أضراسي غمزةً مؤلمة أطارت صوابي، وأصبحت أؤمن بأن وجع الأضراس حق، وأنه فوق ما سمعت عنه، وأن شاكيه معذور جدير بالرثاء والتخفيف بكلّ ما يستطاع.

هذه هي القاعدة العامة في طبائع الناس، فأما الذي يحسن؛ لأن الإحسان طبيعة قارَّةٌ فيه، أو يحسن لأن الإحسان فضيلة وكفى ـ فهؤلاء شذوذ في القاعدة العامة.

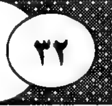
وشهر الصوم في الإسلام هو مستشفى زمانيّ[1] تعالج فيه النفوس من النقائص التي تراكمت عليها في جميع الشهور من السنة، ومكّن لها الاسترسال في الشهوات التي يغري بها الإمكان والوُجْد، فيداويها هذا الشهر بالفطام والحِمْية والحيلولة بين الصائم وبين المراتع البهيمية.

ولكنَّ هذه الأشفيةَ كلَّها لا تنفع إلا بالقصد والاعتدال.

لو اتّبع الناس أوامر ربّهم، ووقفوا عند حدوده لصلحت الأرض، وسَعُد مَنْ عليها، ولكنهم اتبعوا أهواءهم ففسدوا، وأفسدوا في الأرض وشقوا، وأشقوا الناس.

---

(١) زماني: جمع زَمِن، وهو المريض (م).



٣٢ صديقي رمضان[(١)] للشيخ علي الطنطاوي

صديق عزيز، لقيته، وأنا طفل في دمشق، ثم افتقدته وأنا شاب أذرع الأرض وأضرب في بلاد الله، ففرحت بلقائه وأحببته، وألمت لفقده وازداد حنيني إليه، فأين أنت ياصديقي رمضان؟

كنت أرقب قدومه، وأحسب له الأيام والليالي على مقدار ما يحسن طفل من الحساب، فإذا جاء فرحت به، وضَحِكت له روحي؛ لأني كنت أرى الدنيا تضحك له، وتفرح بقدومه.

كنت أبصره في المدرسة؛ فالمدرسة في رمضان مسجد، ودرسها تلاوة وذكر، وأهلوها أحبه: ما فيهم مدرسٌ يقسو على طلابٍ، وطلابٌ يكرهون المدرس؛ لأن رمضان وصل النفوس بالله، فأشرق عليها من لدنه النور، فذاقت حلاوة الإيمان، ومن ذاق حلاوة الإيمان لم يعرف البغض، ولا الشر، ولا العدوان.

كنت أراه في الأسواق، فالأسواق تعرض بضاعة رمضان، وتفيض عليها روح رمضان، فتمحو الغش من نفوس أهلها محواً، ويملؤها خوف الله ورجاؤه، وتقف ألسنتهم عن الكذب؛ لأنها جرت بذكر الله واستغفاره، وهانت عليهم الدنيا حين أرادوا الله والدار الآخرة؛ فغدا الناس آمنين أن يغشهم تاجر، أو يخدعهم في مال أو متاع.

ويمضي النهار كله على ذلك، فإذا كان الأصيل، ودنا الغروب تجلى رمضان

---

(١) نشرت عام ١٩٣٩ انظر كتاب في سبيل الإصلاح ص٢٠٣-٢٠٦.

على الأسواق بوجهه فهشت له وجوه الناس، وهتفت باسمه ألسنة الباعة، فلا تسمع إلا أمثال قولهم: «الصايم في البيت بركة» - «الله وليك ياصايم» - «الله وليك ومحمد نبيك»، ثم لا ترى إلا مسرعاً إلى داره حاملاً طبق «الفول المدمس» أو «المسبحة» أو «سلال الفاكهة» أو قطع «الجرادق»[1]، ثم لا تبصر إلا مراقباً المنارة في دمشق ذات الثمانين منارة كبيرة، أو منتظراً المدفع، فإذا سمع صيحة المؤذن أو طلقة المدفع دخل داره، والأطفال يجتمعون في كل رحبة في دمشق ليسمعوها فيصيحوا: أذن ... أذن... أذن... ثم يطيروا إلى منازلهم كالظباء النافرة.

وكنت أبصر رمضان يؤلف بين القلوب المتباينة، ويجلو الأخوة الإسلامية رابطة «المسلم أخو المسلم» فتبدو في أكمل صورها، فيتقابل الناس عند الغروب تقابل الأصدقاء على غير معرفة متقدمة، فيتساءلون، ويتحدثون، ثم يتبادلون التمر والزبيب، ويقدمون الفطور لمن أدركه المغرب على الطريق فلم يجد ما يفطر عليه، تمرات أو حبات من الزبيب، هينة في ذاتها، تافهة في ثمنها، ولكنها تنشئ صداقة، وتدل على عاطفة، وتشير إلى معنى كبير.

وكنت أنظر إلى رمضان وقد سكن الدنيا ساعة الإفطار، وأراح أهلها من التكالب على الدنيا والازدحام على الشهوات، وضم الرجل إلى أهله، وجمع الأسرة على أحلى مائدة، وأجمل مجلس وأنفع مدرسة؛ فوا شوقاه إلى موائد

---

(١) أطباق جافة رقيقة وكبيرة تصنع من مواد خاصة يرش عليها الدبس، ولا تصنع إلا في رمضان. الواحدة جردقة، وهي كلمة فصيحة.

رمضان وأنا الغريب المنفرد[1] في مطعم أجنبي، لا أجد فيه صائماً، ولا أسمع فيه أذاناً، ولا أرى فيه ظلاً لرمضان.

فإذا انتهت ساعة الإفطار بدأ رمضان يظهر في جلاله وجماله وعظمته في المسجد الأموي أجل مساجد الأرض اليوم وأجملها وأعظمها، حاشا الحرمين وثالثهما، وكنت أذهب إلى المسجد بعد المغرب وأنا طفل؛ فأراه عامراً بالناس ممتلئاً بحلق العلم كما كان عامراً بهم ممتلئاً بها النهار بطوله، فأجول فيه مع صديقي سعيد الأفغاني خلال الحلقات نستمع ما يقول المدرسون والوعاظ، وأشهد ثريّاته وأضواءه وجماعته.

ومِن صنع الله لهذا المسجد أن صلاة الجماعة لا تنقطع فيه خمس دقائق من الظهر إلى العشاء الآخرة في أيام السنة كلها وقد بقي ذلك إلى اليوم على ضعف الدين في النفوس وفساد الزمان[2].

وإن أنسى لا أنسى تلك الثريا الضخمة ولم يكن قد مدّ إليها الكهرباء، فكانت توقد مصابيحها ـ وهي أكثر من ألف ـ بالزيت واحداً بعد واحد يشعلها الحسكيون[3] وهم يطيفون بها على سلاليم قصيرة من الخشب، فيكون لذلك المشهد أثر في النفس واضح، ثم يكون العشاء وتقوم من بعده التراويح ولها في

---

(١) كتبت هذه المقالة وأنا موظف في كركوك في شمالي العراق.

(٢) على أن تكرار الجماعة في مثل الأموي يخالف السنّة.

(٣) الحسكي خادم الأموي، كلمة شامية ولعل أصلها من الحسكة، ومعناها بلغة المغرب: المشعدان، وزخرفة المساجد واتخاذ هذه الثريا من البدع.

الأموي منظر ما رأيت أجلَّ منه ولا أعظم إلا الصلاة حول الكعبة في مسجد الله الحرام؛ فإن ذلك يفوق الوصف، ولا يعرف قدره إلا بالعيان.

وليس يقل من يصلي التراويح في الأموي عن خمسة آلاف أصلاً، وقد يبلغون في الليالي الأواخر الخمسة عشر والعشرين ألفاً[١]، وهو عدد يكاد يشك فيه من لم يكن عارفاً بحقيقته، ولكنه الواقع، يعرف ذلك الدماشقة ومن رأى الأموي من غيرهم.

وحدِّث عن الليالي الأواخر في دمشق ولا حرج، وبالغ ولا تخش كذباً؛ فإن الحقيقة توشك أن تسبقك مبالغة، تلك هي ليالي الوداع يجلس فيها الناس صفوفاً حول السدّة بعد التراويح، ويقوم المؤذنون والمنشدون فينشدون الأشعار في وداع رمضان بأشجى نغمة وأحزنها ثم يردّد الناس كلهم: يا شهرنا ودعتنا عليك السلام! ياشهرنا هذا عليك السلام، ويتزلزل المسجد من البكاء حزناً على رمضان[٢].

وسَحَر رمضان! إنه السِّحر الحلال، إنه جنة النفس ونعيمها في هذه الدنيا، وإني لأقنع من جنات الفردوس أن تكون مثل سحر رمضان؛ فأين ذهب رمضان؟ وأنّى لي بأن تعود أيامي التي وصفت لأعود إليه؟

---

(١) هذا ما كان عند نشر هذا الفصل سنة ١٩٣٩، فيا أسفي كم تبدلت الحال الآن! أما الذين يصلون في الحرم في مكة فقد زادوا هذه السنة (١٤٠٧) على ثلاثمائة ألف، في الصحن وفي الطبقة الأولى وعلى السطح المضاد المفروش.

(٢) وذلك كله من البدع.

ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأيام

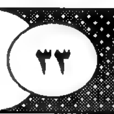
إني لا أشتهي شيئاً إلا أن أعود طفلاً صغيراً؛ لأستمتع بجوِّ المسجد في رمضان، وأنشق هواءه، وأتذوق نعيمه، لم أعد أجد هذا النعيم، وما تغيّرت أنا أفتغيرت الدنيا؟

إني لأتلفت أفتش في غربتي عن رمضان، فلا ألقاه لا في المسجد، ولا في السوق ولا في المدرسة؛ فهل مات رمضان [١]؟

إذن فإنا لله وإنا إليه راجعون.

لقد فقدت أنس قلبي يوم فقدت أمي، وأضعت راحة روحي يوم افتقدت رمضان؛ فعلى قلبي وأمي ورمضان وروحي رحمة الله وسلامه!

(١) لا ولا يموت، وأحمد الله على أن أحياني حتى عشت في مكة - ورأيت في الحرم - ما يعد معه رمضان الشام يوماً من عام.



الإنسان في الشدة والرخاء[1] علي محفوظ

من نظر إلى الإنسان، وفكَّر في أحواله وطبائعه وجده كثير العجز، قليل الصبر عند نزول الشدائد والبلاء، كثير الغرور قليل الشكر عند وجدان الرخاء والنعماء؛ فإذا أصابه نوع مكروه كمرض، وفقر، وعسر، وغيرها من بلايا الدنيا، وشدائدها ـ استولى عليه اليأس، وملكه الجزع، ثم إذا ثاب إلى رشده أقبل على مولاه، وأكثر من التضرع والدعاء له ـ تعالى ـ في جميع أحواله نائماً، أو مضطجعاً، أو قاعداً، أو قائماً ساكناً، أو متحركاً مجتهداً في التذلل والدعاء طالباً، من الله ـ تعالى ـ إزالة تلك الشدة والمحنة وتبديلها بالنعمة والمنحة؛ فإذا استجيب له وكُشِفَ عنه ما نزل به مضى في سبيله، وعاد إلى سيرته الأولى، واستمر على طريقته التي كان ينتهجها قبل مساس الضر وإصابة المكروه، ونسي حال الجهد والبلاء، وأعرض عن شكر مولاه، ولم يعرف قدر إنعامه عليه، وصار بمنزلة من لم يشعر بمكروه، ولم يدع الله ـ تعالى ـ لكشف ضرٍّ نزل به.

وذلك بلا ريب يدل على ضعف طبيعة الإنسان، وقلة وفائه، وشدة استيلاء الغفلة والشهوة عليه.

وفي ذلك يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، ١٣٤٩هـ.

ويقول ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾.

فأفاد ـ تعالى ـ أنه إذا تفضل على عبده بنعمة كعافية، ورخاء، أعرض عن شكره وطاعته، واستطال بنعم الله على خلقه، وثنى عِطْفَه متبختراً كبرياءً وعظمة.

وإذا عرض له نوع مكروه كمرض وعسر أكثر من التضرع والدعاء؛ لكشف ما عرض له؛ فهذا شأن الإنسان، وهذا حاله في الشدة والرخاء كما بينه الله ـ تعالى ـ في كتابه الحكيم؛ تنبيهاً على أن هذه طريقة ممقوتة وأخلاق مذمومة، وأن الواجب على الإنسان العاقل أن يكون شجاعاً في الشدائد، ثابتاً عند نزول البلايا، شاكراً عند الفوز بالنعماء، ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الرفاهية والراحة حتى يكون مجاب الدعوة في وقت المحنة، ففي الحديث: «تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» رواه عبد بن حميد والإمام أحمد.

وعنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «من سره أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء» رواه غير واحد.

وجملة القول أن الإنسان جُبِلَ على الضعف، والعجز، وقلة الصبر كما جُبِلَ على الغرور، والبطر، والنسيان، والتمرد، والعتو؛ فإذا نزل به البلاء حمله ضعفُه على كثرة الدعاء والتضرع وإظهار الخضوع والانقياد، وإذا زال عنه البلاء، وحصل على الراحة استولى عليه النسيان، وغفل عن إحسان الله ـتعالىـ إليه، ووقع في البغي والعدوان والجحود والنكران.

وهذه الأحوال من نتائج طبيعته ولوازم خلقته ولكنه معذور ولا عذر له.

ولقد أرشد العليم الحكيم عباده في كتابه الكريم إلى التغلب على هذه الطبائع، والسلامة من هذه الأدواء بقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ والهلع: سرعة الجزع عند إصابة المكروه، وسرعة المنع عند مساس الخير، وقد فسره أحسن تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعا﴾ فإنه كشف لنا عن خبيئة الإنسان، وبيَّن لنا ما فيه من علة ثم عقبه بقوله: ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾.

فاستثنى المتصفين بهذه النعوت الجليلة من المطبوعين على تلك القبائح الذميمة؛ لأن نعوتهم الحميدة تُنْبِئُ عن استغراقهم في طاعة الحق، والإشفاق على الخلق بمدِّ أيدي المساعدة نحو الضعفاء، والعطف على البائسين والمحرومين، وتنبئُ عن الإيمان بيوم الجزاء وما فيه من حساب وهول، والخوف من العقوبة وكسر الشهوة، والاقتصار على ما أحل لهم، وإيثار الآجل على العاجل بالصدق والوفاء على خلاف القبائح المذكورة الناشئة من الانهماك في حب

العاجل والركون إليه، والاغترار به، وقصر النظر عليه؛ فبمثل هذه الأدوية النافعة ينجو الإنسان من الشر وتسلم القلوب من المخاطر عند عروض البلايا، وتفاقم الشدائد.

واعلم أن المؤمن إذا ابتلي ببلية ونزلت به محنة وجبت عليه رعاية أمور منها:

١ـ **أن يكون راضياً بقضاء الله ـ عز وجل ـ** غير معترض عليه بالقلب واللسان وإنما وجب عليه ذلك؛ لأنه ـ تعالى ـ مالك على الإطلاق، ومَلِكٌ بالاستحقاق.

ومن كان كذلك فله أن يفعل في مِلكه ومُلكه ما شاء كما يشاء؛ لأنه حكيم على الإطلاق، وهو منزه عن فعل الباطل والعبث؛ فكل ما فعله صواب وحكمة.

وإذا كان كذلك فإنه حينئذ يعلم أنه ـ تعالى ـ إن أبقى عليه المحنة فهو عدل، وإن أزالها عنه فهو فضل وحينئذ يجب عليه الصبر، والسكون، والرضا، والتسليم، وترك القلق والاضطراب.

٢ـ **أن يصلح حاله بالتوبة إلى الله ـ تعالى ـ** والإنابة إليه مما فرط منه؛ فقد تكون البلية عقوبة معجلة لبعض ما اقترف من السيئات لعله يرجع عن غيِّه، ويثوب إلى رشده قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾.

٣ـ **أنه في ذلك الوقت لو اشتغل بذكر الله ـ تعالى ـ والثناء عليه بدلاً من الدعاء كان أحسن وأفضل،** ففي الحديث القدسي عن رب العزة: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

ولأن الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق، والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ النفس، ولا ريب أن الأول أفضل.

٤ـ أن يبالغ في الشكر إذا أزال الله عنه تلك البلية، وأن لا ينقطع عن ذلك الشكر في السراء والضراء وأحوال الرخاء.

وكل هذا لا يمنع العبد الموفق من أن يستخدم مواهبه في تلمس الخلاص من بعض ما نزل به بالوسائل المشروعة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ فهذا هو المنهج القويم والصراط المستقيم عند نزول الشدائد، وعروض البلايا، والله الموفق.



٣٤ بساطة العيش[1] للأستاذ أحمد أمين

تعجبني الحياة البسيطة لا تعقيد فيها ولا تركيب، وأكره ما أكره التكلف، والتصنع، وتعقيد الحياة، وتركيبها.

ويظهر أن المدينة والحضارة تميل دائماً إلى تعقيد الحياة وتركيبها، وكلما قرأت في الحضارات المختلفة ـ رومانية، أو إسلامية، أو أوربية حديثة ـ وجدتها جميعاً تتشابه في الميل إلى التعقيد والتركيب، والإسراف في البذخ، والترف، والرفاهية، ففي الحضارة الإسلامية ـ مثلاً ـ قرأت أن الوزير ابن الفرات تناهى في الترف حتى ما كان يأكل إلا بملاعق البلور، وما كان يأكل بالملعقة إلا لقمة واحدة، فكان يوضع على المائدة أكثر من ثلاثين ملعقة، وذكروا عن المأمون أن مائدته كانت تبلغ في بعض الأحيان ثلاثمائة لون، وكان راتب أبي طاهر وزير عز الدولة من الثلج في كل يوم ألف رطل، ومن الشمع في كل شهر ألف مَنٍّ، وغضب المأمون على جارية له، فأرسلت إليه تفاحة من العنبر مكتوباً عليها بالذهب: «يا سيدي ثبت».

وكانت أم الخليفة المقتدر تعمل نعالها من ثياب تسمى الثياب الديبقية، تقطع على قدر النعال، وتطلى بالمسك والعنبر المذاب، ويجعل بين كل طبقتين من الثياب مسك وعنبر مُجَمَّدان، وكان لا يمكث النعل في رجلها إلا أياماً ثم ترميه للخدم.

---

(١) فيض الخاطر ٤/٢٢٧ـ٢٣١.

وكان النساء المترفات يشترين جلود الثعالب تحضره التجار من سيبيريا، يبطن به ثيابهن في الشتاء.

وقد ذكر المسعودي أن إبراهيم بن المهدي استزار الرشيد يوماً، فقدم له على المائدة ـ فيما قدمه له ـ طبقاً فيه قطع من سمك، فقال له الرشيد: لم صَغَّر طباخك قطع السمك، قال له أمير المؤمنين هذه ألسنة سمك؛ فاستحلفه الرشيد أن يخبره عن ثمن هذه الألسنة، فقال له: أكثر من ألف درهم، فرفع الرشيد يده، وأبى أن يأكل منها.

ويشبه هذا ما قرأته مرة أن أحد اللوردات من كبار الأغنياء عمل وليمة لبعض الكبراء، فقدم فيها طبقاً فيه ألسنة بعض الطيور النادرة.

وقرأت مرة أن أمريكا في سنة ١٨٩٩م، كانت اعتزمت أن تقيم في معرض باريس عموداً من الذهب يساوي ما فيه مائتي ألف جنيه إشارة إلى أنها مملكة الذهب.

ومثل ذلك ما جاء في تاريخ الوزراء للصابي أن المعتضد اجتمع في خزائنه تسعة ملايين من الدنانير، فأَمَّل أن يتمها عشرة، ويسبكها سبيكة واحدة، ويضعها في مكان بمرأى من الناس ليسير في الآفاق أن للمعتضد عشرة ملايين ديناراً ذهباً هو في غنى عنها، فاخترمته المنية قبل أن يحقق غرضه.

وأمثلة ذلك في الحضارات القديمة والحديثة، وهي في الحديثة آنق[1]، وأترف، وأعقد، وقد شمل التعقيد، والتصنع، والتكلف كل مناحي الحياة،

---

(١) من الأناقة (م).

وشمل كثيراً من الأوساط بعد أن كان في الحضارات القديمة مقصوراً على بعض الملوك والأمراء.

هذا حفل عرس يقام في بيت الأغنياء حتى والأوساط؛ فتقوم دنياهم وتقعد وترتبك حياتهم وترتبك، ويمر الشهر والشهران، والأسرة لا تعرف الراحة، من خطوبة وجهاز، وإعداد حفلة وتنظيمها، ونحو ذلك من مشاكل لا عداد لها، ولا ينتهي الزواج حتى تكون الأسرة كلها قد تهدمت أعصابها وماليتها من كثرة ما لاقت من العناء، وما تحملت من أعباء، وما سبب ذلك إلا ما اندفع فيه الناس من تعقيد، وتكلف، وتصنع.

وهذه مظاهر الحياة كلها معقدة؛ فالمرأة تقضي نصف عمرها أمام المرآة متصنعة متجملة، وهذه مائدة الأكل يقضي الوقت الطويل في إعدادها وتصفيفها، وهذا الأكل يقضي فيه كل مرة ساعة، أو أكثر في وضع صنف، ورفع صنف، وما إلى ذلك.

وهذه الملذات ووسائلها كلها تعقدت وتركبت؛ فالذهاب إلى التمثيل يكلف كثيراً من العناء في المظهر، والملبس، والمركب، ويحب كل من ذهب إليه أن يكون هو في نفسه رواية ينظر إليه الناظرون: في ملبسه، ومشيته، ونظراته وما إلى ذلك، وكل ملذة من ملذات الحياة ـ مشروعة أو غير مشروعة ـ لا تنال على بساطتها وسذاجتها، وإنما تنال على ضروب من التعقيد والتكلف لا نهاية لها.

ومن الغريب أن المتلذذ بهذه الضروب من التكلف لا يلبث أن يعتادها، ويألفها على بسيطة ساذجة؛ فيبحث عن وسائل أخرى لزيادة تعقيدها.

ولو كان تعقيد الملذات يزيد السرور بها لهان الأمر، ولكن الواقع أن تعقيدها يضيع بهجتها، ويقلل الاستمتاع بها؛ فالعامل البسيط يتلذذ من منظر رواية بسيطة أكثر مما يتلذذ الغني المترف من رواية امرأة غنية بفستانها الأنيق الموشي.

هذا فضلاً عما يستوجبه هذا التكلف والتعقد من أسباب التعاسة؛ فكم بيت شقي بسبب امرأة في البيت تتكلف أكثر ما تحتمل ميزانيتها في الملابس وأدوات الزينة، وكم أسرة شقيت؛ لأن رجلاً يحتفل بسكره أو قماره أكثر مما يحتفل بضرورات بيته.

وكثير من البيوت بائسة؛ لأن حاجة المعيشة تعقدت وتركبت؛ فأصبحت ميزانياتها لا تكفي لضروراتها، وكثيراً ما تضطر تكاليف الحياة، وتعقدُها أن يسلك الناس سُبُلاً غير شريفة في الحصول على المال الذي تتطلبه تعقيدات الحياة.

ومن استطاع أن يحتفظ بشرفه عاش في قلق وهمٍّ من المطالب الكثيرة التي يحيط به، والتي يستطيع أن يحتملها في نفسه ولكنه لا يحتملها في أهله وولده.

وضروب المعاملة والسلوك يسودها التصنع، والتكلف، ومظاهر الرياء في الوظيفة، وفي المصالح الحكومية، وفي المحال التجارية، وفي الحفلات، والولائم، والأفراح، والمآتم لا شيء من البساطة، ولا شيء من الرجوع لفطرة.

وحتى الآداب والفنون دخلتها الحضارة فعقدتها، وملأتها زينة، وصناعة، ومحسنات لفظية، ومحسنات معنوية، واستعارة ومجازاً، وتكلفاً في التعبير لا يجري مع الطبيعة، والروائي لا يكون روائياً حقاً حتى يغرب، والممثل لا يكون ممثلاً حقاً؛ حتى يتصنع ويتكلف البكاء، والضحك، والصياح، وإلواء اللسان،

والتشدق في الأداء.

والناس في مخاطبتهم لا يسلون[١] أقرب طريق للفهم والأفهام، ولا أصدق عبارة وأبسطها للتعبير عما في النفس، حتى ليصعب علينا في كثير من الأحيان معرفة الحق في الموضوع؛ لما يمتزج به الحقيقة من شكوك، وغموض، وإيهام، وتَصَنُّع، وتزويق، مع أن البساطة في التعبير هي خير وسيلة للإقناع والإفهام، ورُبَّ كلمة صريحة صادقة بسيطة فعلت ما لا تفعل الخطب المروقة[٢]، والأحاديث المنمقة، وخير الأدب ما قال[٣] إلى البساطة.

من كل هذا نرى أن الحضارة صحبها في كل نواحيها تعقيد، وتكلف، ورياء، وتصنع، وبعد عن البساطة؛ وأن هذا التكلف، والتصنع قد جرَّ من الشرور على العالم ما لا يحصى، ولكن هل هذا عرض ملازم للحضارة لا يمكن أن تنفك عنه؟

أو هو ـ كما يقول المناطقة ـ عرض مفارق يمكن أن يكون، ويمكن ألا يكون؟.

إن الحضارة درجة في الرقي طبيعية فلا يمكن ولا من الخير أن يتبدئ الناس بعد أن تحضروا، ولكن ألا يمكن أن نتحضر وأن تتبسط معاً؟

لست أرى أن الحضارة من لوازمها التعقيد، بل إني أتصور حضارة سامية تعني ببساطة العيش مع انتفاعها بما وصل إليه العلم.

---

(١) لعلها: لا يسلكون (م).

(٢) لعلها: المزوَّقة(م).

(٣) لعلها: ما مال (م).

وقد قرأنا أخباراً عن قوم نبلاء عاشوا عيشة البساطة وسط الحضارة كما فعل (تولوستوي) في حياته الأخيرة، وقد قرأت قصة لطيفة في كتاب «أدب النديم» إذ حَكَى أن عبدالله بن طاهر دعاه غني إلى وليمة، ثم أَخَّر الأكل لإعداده إعداداً يتناسب ومقام ابن طاهر، فطال غيابه ثم أحضر من الألوان، والتصنع، والتكلف ما لا حدَّ له، فلما همَّ ابن طاهر بالانصراف سأله الداعي: أيأمر الأمير بشيء؟ قال: أن تذهب إلى فلان وتتعلم منه الفتوة؛ فذهب إليه وكان الوقت وقت غداء، فأمر الخادم أن يحضر ما عنده من غير أن يزيد شيئاً، فحضر طعام نظيف بسيط لساعته، ثمَّ قال له: هذه هي الفتوة التي أراد ابن طاهر أن أعلمكها.

على أنا نجد اليوم نزعة ظاهرة في المدنية الحديثة، وهي كراهية التكلف والسآمة من التعقيد في المعيشة، والإمعان في الملذات، والتصنع في الفن، والأدب، والتشدق في الكلام، وهي نزعة ظهرت في نواح كثيرة نرجو أن تعم وتتسع.

أريد من البساطة الصراحة في القول، والطهارة في التفكير، وعدم الإمعان في المظهر، والتصرف في بساطة ويسر، ونظافة الفكر من كراهية الناس، والتعالي عليهم، والسيرَ في الحياة كما هي من غير كلفة، ولا رياء، ولا تظاهر، ولا تعقيد؛ فقد تكون مائدة نظيفة بسيطة أشهى عند العاقل من مائدة معقدة مركبة، وقد يكون جمال الفتاة في بساطة حليها وبساطة ملبسها خيراً من حليٍّ مكدسة، وثياب مزركشة.

في بساطة العيش راحة النفس، وحفظ الصحة، وحسن التفاهم، والتخفف من

الأعباء المالية، وشعور بأن الحياة المادية ليست كل شيء في الحياة؛ حتى يضيع كل الزمن في تعقيداتها وتركيباتها، فهناك حياة روحية سامية جميلة تستحق أن يوفر لها جزء من الزمان، ويخصص لها وقت من التفكير.

ثامناً: مقالات في الشباب

٣٥ـ كيف تكون رجلاً: للأستاذ عبدالوكيل جابر

٣٦ـ يا ابني: للشيخ علي الطنطاوي

٣٧ـ من هو الشاب المسلم: للشيخ العلامة محمد الخضر حسين

٣٨ـ يا شباب العرب: للأديب مصطفى صادق الرافعي



٣٥ كيف تكون رجلاً؟[١] للأستاذ عبدالوكيل جابر

يقول الشاعر العربي:

ولا تحسبن المجد زِقّاً[٢] وقينةً ... فما المجد إلا السيف والفَتْكَةُ البِكرُ

وتضريب أعناق الرجال وأن ترى ... لك الهبوات السود والعسكر المجرُ

وتركك في الدنيا دويّاً كأنما ... تداول سمعَ المرء أنمُله العشرُ

وإذا كان هذا الشاعر يتمثل المجد في هذه الضروب من الأعمال التي تدور حول القتال، وقيادة الجيوش، والمخاطرة بالنفس - فإنما يصدر في هذا عن النفسية الذائعة في عصره؛ إذ كان أمضى طريق إلى اكتساب الحمد، وذيوع الذكر في إثارة الحروب الموفقة، وقهر الأعداء من طريق النضال المادي.

وليس هذا شأن اكتساب المجد في هذا العصر إلا عند الفترات الشاذة التي يتمثل فيها الجشع الاستعماري، وتسود النزوات الإنسانية المرذولة.

أما سبيل المجد اليوم فهو العمل المجدي الذي يطغو على الأعمال الأخرى؛ فيبدو ممتازاً بفائدته للمجموع، وثمرته الشاملة للإنسانية.

ولا يكون هذا الآن كما لم يكن قديماً في احتساء الزقاق[٣]، ومغازلة القينات؛ فإن هذا ونظائره دليل سقوط النفس، واستسلامها لدواعي الهوى.

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، الجزء التاسع، المجلد الأول ص٤١٩، صفر ١٣٤٨هـ.

(٢) الزِّق: إناء الخمر (م).

(٣) يعني شرب الخمر (م).

ومثل هذه النفس أضأل شأناً، وأحقر تكويناً من أن يكون لها في الوجود ذِكْرٌ، أو يستقيم لها في العمل النافع رأي.

فكيف ـ إذاً ـ يتهيأ لامرئ أن ينال المجد، ويترك في الدنيا دويًّا شديداً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر؟

لقد اقتضت طبيعة الاجتماع أن تكثر المشكلات العامة التي تضل فيها الأحلام، وتتعدد حاجات الأمم تعدداً أذاع التنافس بينها، وكان الظفر لأكثرها تفكيراً، وأقدرها على تحصيل ما يعوزها من رغبات؛ فليس ينقص طالبَ المجدِ شيءٌ إلا أن يظهر في ميادين العمل العام بما يُعْجِز سواه، أو على الأقل يأتي بعمل الممتازين الذين تعرف لهم الأمم شرف القيام بالأعمال الفذَّة التي لا يستطيع القيام بها السواد والدهماء.

وطريق العمل معبَّد أمام أبناء الإنسانية جميعاً؛ ففي مُكْنَةِ الرجل المغمور المقرف أن يصير ذات يوم علماً يسير اسمه مسير الشمس والقمر.

وكم أرانا التاريخ أمثلة هي في الواقع تَعِلَةٌ لمن لم يسعدهم الجد بِنِجَارٍ شامخ، أو عزٍّ قائم.

وما عاب هؤلاء، ولا نقص من قيمة أعمالهم أنها صدرت عن غير معروف، بل العكس كان قيام النكرات بالأعمال الجليلة مثاراً لزيادة إجلالهم في عيون الجماهير.

ولعل منشأ ذلك قوةُ نفوس هؤلاء، وتمكنهم من التغلب على الصعوبات التي تعترض العاملين وهي كثيرة، وبخاصة من لم يسعده جاهٌ بارعٌ، أو حسب

مستطيل.

وفي اعتقادي أن من له مُسْكَةٌ من العقل يستطيع أن يقوم بعمل نافع إذا سلك السبيل القويم، وتوفر على العمل في الدائرة التي يشعر من نفسه بالميل إليها.

ولسنا نزعم أن كل إنسان يقدر على إذاعة اسمه إذاعة عطرية، ولكنا نريد أن نقول: إن كل عاقل يمكنه من عمل شريف يرفع له ذكراً ولو في دائرته المحدودة، وهذا على أي حال خير من الذكرى الذميمة، أو فقدان الأثر الطيب.

إن الإنسان خلق في هذه الحياة ليكون عاملاً، وقد أعده الله للعمل بما رُكِّب فيه من أدواته وبواعثه، وكلُّ عواطفِ الشهوةِ التي رُكِّبت فيه ليست إلا خادماً للغرض من الحياة؛ فإذا اشتط الإنسان في استخدام شهوته، وجعل إرضاءها هو كل الغرض من وجوده فقد ارتكب أشنع خُطةٍ تُلْحقه بعالم الحشرات المؤذية.

إن سبل الذِّكر الذائع أصبحت متعددة لاشتباك المصالح، وكثرةِ المطالب، كما أصبح العمل ميسراً؛ لانتشار العلم، وتَمكُّنِ المُجِدِّ من الابتداع، وابتكار الجديد.

وإذا حصرنا العمل في دائرة مطالبنا الإسلامية أو الشرقية تبيَّن جليَّاً فقرُنا إلى الجد، وتهيؤ الفرص لاكتساب المجد.

ومن دواعي الأسف أن يكون فينا عاملون، ولكن لا توجد روح التعاون العامة التي يستطاع بها إيجاد الثمرات التي تنتجها أعمالهم على أحسن وجه.

وكلنا يعرف أن الحياة قصيرة الأجل؛ فليس من الحزم أن يضيعَ المرءُ فتراتِها القصيرةَ فيما لا يجدي، أو يعيش حياتَه الوشيكةَ الزوالِ مغموراً كسلاناً لا يشعر بوجوده أحد، كأنما هو بعض الأشباح التي يراها النائم، فإذا أفاق من غفوته

تبددت من ذاكرته كما تتبدد الثلوج تشرق عليها الشمس.

وأرى مجد الحياة قريباً من النفوس القوية المليئة بالجد، البعيدة عن مهازل الدنيا وسفاسفها.

وعلى قدر تَشَبُّع النفس بهذا الخلق يكون مبلغها من الحصول على الشهرة، وبياض السمعة.

وإن الفؤاد ليعنو خشوعاً كلما ذكر واحداً من أولئك العاملين، فنظر في صفحة حياته مظاهر الحنين إلى المجد تلازمه منذ طفولته.

وأذكر أن عبدالله باشا فكري، كان وهو طالب الأزهر الصغير يكتب على سواري المسجد: (عبدالله باشا فكري) فيقرأ إخوانه ذلك هازئين ساخرين، ولكن عبدالله فكري الحديث يقابل سخريتهم هذه برزانة الواثق من نفسه، المتفائل بمستقبله؛ فكان من شأنه بعد ذلك ما يعرفه الناس.

سواء أصح هذا أم لم يصح فإن الشيء الذي لا شك فيه أن القيام بالعمل الجليل لا يكون إلا إذا خامرت النفس فكرة شريفة تلازمها في فجر الحياة.

ومن أجل ذلك جهد المربون في أن يفتحوا مغاليق الأذهان منذ الصغر؛ كي تشعر بمسئوليتها في الوجود، وواجبها الذي يطلب منها للمجموع.

ومن أساليبهم في الوصول إلى هذا الغرض دراسة تاريخ العظماء، وتحليل حياتهم تحليلاً تتجلى فيه الأسباب التي أوصلتهم إلى مركزهم الممتاز في هذه الدنيا.

ولعل ذلك من أجدى أنواع التعليم للنشء، وَأعْوَدِه عليهم بالخير، وعلى

مقدار اتجاه الناشئ في هذا السبيل يكون مبلغه من النجاح.

ويحضرني في هذا المقام قصة ذلك الأعرابي الذي سأل ابنه فقال: كمن تحب أن تكون؟ فأجاب الغلام بقوله: أحب أن أكون مثلك! فامتعض الأب وقال: يا بني إني لم أبلغ ما بلغت إلا بعد أن تمنيت أن أكون مثل علي بن أبي طالب، فإذا كان شأني ما ترى، فكيف يكون حالك إذا تمنيت أن تكون مثلي فحسب؟

يستخلص مما ذكرناه ومما قرره الواقعُ المُحَسُّ أن **النجاح في الحياة، والظفر بالذكر المجيد، ونيل المنزلة السابقة بين الناس تتوقف على أمور أهمها:**

أ- أن يتناول المرء من المهن أحبها إلى قلبه، وآثرها عند ميوله، فإذا فرض أنه اشتغل بالعلم فليكن همه متجهاً إلى الفرع الذي يشعر من نفسه بقدرته على إتقانه، والنفاذ في نظرياته.

ب- أن يؤثر الثبات في جميع أدوار حياته، وألا تؤثر في اعتقاده بالنجاح العقبات التي تعترضه؛ فما أتي امرؤ إلا من الجزع يناله عن سعيه إلى غاية.

ج- أن يوفر همه على البحث، واستطلاع الآراء التي من شأنها أن تزيده علماً بمادته، وإلا يعوقه الكبر وغيره من رذائل الخصال عن استقاء المعلومات من مظانها الصالحة.

د - ألا يكترث بالآراء الزارية[1] ما دام واثقاً من نفسه، معتقداً بوضوح السبيل الذي يلجه؛ فإن الجديد الصالح يجد أحياناً معارضين جاهلين أو حاقدين، ولا يثبطن من همته أنه لم يلق تشجيعاً أو تقديراً لأعماله؛ فإن لذلك

(١) الزارية: التي تحتقره وتزدريه (م).

يوماً لا بد أن يحين.

هـ ـ أن يتمسك دائماً بالأخلاق الشخصية الفاضلة؛ فذلك أدعى إلى جمع القلوب حوله، وهذا يمهد الطريق لإذاعة آرائه، ويجعلها بمنجاة من المعارضة والنزاع.

وبعد فتلك آراء نذيعها لأبناء اليوم وهم رجال الغد، عسى أن يكون فيها قبس ضئيل إن لم يكن فيها مشكاة واضحة النور.



٣٦ يا ابني[١] للشيخ علي الطنطاوي

(إلى السيد «م.أ» من «الإسماعيلية» بمصر الذي كتب إليَّ، واستحلفني أن أقرأ كتابه، وأن أرد عليه).

لماذا تكتب إليَّ على تردد واستحياء؟ أتحسب أنك أنت وحدك الذي يحس هذه الوقدة في أعصابه من ضَرَم الشهوة، وأنك أنت وحدك الذي اختُصَّ بها دون الناس أجمعين؟

لا، يا ابني، هوِّن عليك؛ فليس الذي تشكو داءك وحدك، ولكنه (داء الشباب)، وقد كتبت فيه قديماً وحديثاً، ولولا أني لا أحب الحديث المعاد، ولا أقتني - مع الأسف - إلا الأقل من مقالاتي القديمة لنقلتها إليك، أو لأحلتك عليها.

ولئن أرَّقك هذا الذي تجد وأنت في السابعة عشرة فلطالما أرَّق كثيرين غيرك، صغاراً وكباراً، ولطالما نفى عن عيونهم لذيذ الكرى، ولطالما صرف عن درسه التلميذَ، وعن عمله العامل، وعن تجارته التاجر.

وما الحب الذي افتنَّ في وصفه الشعراء، وفي تحليله الأدباء إلا ما تجده أنت سواء بسواء، ولكنك أخذته مجرداً مكشوفاً، فعرفه الناس، فلم يخدعوا عنه،

---

(١) نشرت عام ١٩٥٥م، انظر كتاب (صور وخواطر) ص١٥٦-١٦٢.

وأخذوه فلفوه بمثل الورق (الشكلاطة)؛ ليخدعوا عن حقيقته الناس.

وشربت بفيك من الينبوع، وشربوا بالكأس المذهبة الحواشي.

والماء في كأس أبي نواس التي أقام في قرارتها كسرى كالماء في ساقية، والشهوة في رسالتك إليَّ كالشهوة في غزل الشعراء، وشعر الغزليين، ولوحات المصورين، وألحان المغنين، ولكن الضمير هاهنا بارز ظاهر، والضمير هنالك مستتر خفي، وشر الداء ما خفي واستتر!

إنه ما أشرف على مثل سنك أحد إلا توقّد في نفسه شيء كان خامداً، فأحس حرَّه في أعصابه، وتبدلت في عينه الدنيا غير الدنيا، والناس غير الناس فلم يعد يرى المرأة على حقيقتها إنساناً من لحم ودم، له ما للإنسان من المزايا، وفيه ما فيه من العيوب، ولكن أملاً فيه تجتمع الآمال كلها، وأمنيَّة فيها تلتقي الأماني، ويلبسها من خيال غريزته ثوباً يخفي عيوبها، ويستر نقائصها، ويبرزها تمثالاً للخير المحض، والجمال الكامل، ويعمل منها ما يعمل الوثني من الحجر: ينحته بيده صنماً، ثم يعبده بطوعه ربًّا! إن الصنم للوثني رب من حجر، والمرأة للعاشق وثن من خيال!

كل هذا طبيعي[1] معقول، ولكن الذي لا يكون أبداً طبيعيًّا ولا معقولاً، أن يحس الفتى بهذا كله في سن خمس عشرة، أو ست عشرة سنة، ثم يضطره أسلوب التعليم إلى البقاء في المدرسة إلى سن العشرين أو خمس وعشرين.

فماذا يصنع في هذه السنوات، وهي أشد سنين العمر اضطرام شهوة،

---

(١) طبيعي هي الدائرة على أقلام البلغاء من القدم، وإن كان القياس طبعي.

واضطراب جسد، وهياجاً وغلياناً؟

ماذا يصنع؟

هذه هي المشكلة!

أما سنة الله، وطبيعة النفس فتقول له: تزوج.

وأما أوضاع المجتمع وأساليب التعليم فتقول له: اختر إحدى ثلاث كلها شر، ولكن إياك أن تفكر في الرابعة التي هي وحدها الخير، وهي الزواج...

إما أن تنطوي على نفسك، على أوهام غريزتك، وأحلام شهوتك، تدأب على التفكير فيها، وتغذيها بالروايات الداعرة، والأفلام الفاجرة، والصور العاهرة، حتى تملأ وحدها نفسك، وتستأثر بسمعك وبصرك، فلا ترى حيثما نظرت إلا صور الغيد الفواتن، تراهن في كتاب الجغرافيا إن فتحته، وفي طلعة البدر إن لمحته، وفي حمرة الشفق، وفي سواد الليل، وفي أحلام اليقظة، وفي رؤى المنام.

أريد لأنسى ذكرها فكأنما ... تَمَثَّلُ لي ليلى بكل سبيل

ثم لا تنتهي بك الحال إلا إلى الهوس أو الجنون أو انهيار الأعصاب.

وإما أن تعتمد إلى ما يسمونه اليوم (الاستمناء)، وقد كان يسمى قديماً غير هذا، وقد تكلم في حكمه الفقهاء، وقال فيه الشعراء، وكان له في كتب الآداب باب لا أحب أن أدل عليه أو أرشد إليه، وهو وإن كان أقل الثلاثة شرًّا، وأخفها

ضراً[1]، ولكنه إن جاوز حده ركب النفس بالهم، والجسم بالسقم وجعل صاحبه الشاب كهلاً محطماً، كئيباً، مستوحشاً، يفر من الناس، ويجبن عن لقائهم، ويخاف الحياة، ويهرب من تبعاتها، وهذا حكم على المرء بالموت وهو في رباط الحياة.

وإما أن تغرف من حمأة اللذة المحرمة، وتسلك سبل الضلال، وتؤم بيوت الفحش، تبذل صحتك، وشبابك، ومستقبلك، ودينك في لذة عارضة، ومتعة عابرة، فإذا أنت قد خسرت الشهادة التي تسعى إليها، والوظيفة التي تحرص عليها، والعلم الذي أملت فيه، ولم يبق لك من قوّتك وفتوتك ما تضرب به في لجِّ العمل الحرّ.

ولا تحسب بعد أنك تشبع، كلا، إنك كلما واصلت واحدة زادك الوصال نهماً كشارب الماء الملح[2] لا يزداد شرباً إلا ازداد عطشاً، ولو أنك عرفت آلافاً منهن ثم رأيت أخرى متمنعة عليك، معرضة عنك، لرغبة فيها وحدها، وأحسست من الألم لفقدها مثل الذي يحسه من لم يعرف امرأة قط وهاك (فاروق) مثلاً!

وَهَبْكَ وجدت منهن كل ما طلبت، ووسعك السلطان والمال، فهل يسعك الجسد؟ وهل تقوى الصحة على حمل مطالب الشهوة؟ ودون ذلك تنهار أقوى

---

(١) لست أدعو إليه ولكن أقرر حقيقة قررها كثير من الأطباء ووافقوا فيها رأي الفقهاء من الحنفية في الجملة.

(٢) الماء الملح: أي المالح.

الأجساد.

وكم من رجال كانوا أعاجيب في القوة وكانوا أبطالاً في الرَّبع والصرع والرمي والسَّبق، ما هي إلا أن استجابوا إلى شهواتهم، وانقادوا إلى غرائزهم، حتى أمسوا حطاماً...

إن من عجائب حكمة الله، أنه جعل مع الفضيلة ثوابها؛ الصحة والنشاط، وجعل مع الرذيلة عقابها؛ الانحطاط والمرض.

ولرب رجل ما جاوز الثلاثين يبدو مما جار على نفسه كابن ستين، وابن ستين يبدوا من العفاف كشاب في الثلاثين، ومن أمثال الإفرنج التي سمعناها وهي حق وصدق: من حفظ شبابه حفظ له شيخوخته.

ولو تُرك الرجل لغريزته، ولم تكن هذه المغريات من الصور والروايات والأفلام، وتكشّف النساء وشيوع الفاحشة ـ لما هاجت به الغريزة إلا مرة أو مرتين في الشهر والشهرين؛ لأن من القواعد الثابتة في العلم أنه كلما ارتقى الحيوان ـ والإنسان هنا حيوان ـ في سلّم التطور، قلّ عنده السِّفاد، وطال الحمل، فالديك والدجاجة يتسافدان كل يوم؛ لأن مدة الحمل بالبيضة يوم واحد أما القط ـ وهو من ذوات الأثداء ـ فيسافد القطة مرة أو مرتين في السنة؛ لأن حملها مرة في السنة أو مرتين.

وأظن أن الإنسان أرقى من القط؛ فلماذا يكون للقط موسم واحد، وهو عندنا شباط ـ فبراير ـ وتكون شهور السنة كلها شباط عند بعض الناس؟ لهذه المغريات!

فالبلاء كله من المغريات، من دعاة الشر ورسل إبليس، اللذين يزينون للمرأة التكشف، والتبرج، والاختلاط باسم المدنية، والتقدمية، والنهضة النسائية.

وما يُعْنون بالمرأة إلا كعناية الجزاز بالنعجة: يطعمها، ويدفع عنها، ويحميها، ويسمنها، ولكن للذبح.

والذين دأبوا على نشر صور العاريات في مجلاتهم من الممثلات الأجنبيات أولاً، ثم من بنات المدارس بدعوى الرياضة، ونساء السواحل بحجّة الاصطياف، وعملوا على ذلك الدهر الطويل، على خطة مرسومة، وسبيل معينة، صابرين محتسبين لوجه إبليس، ولولاهم، ولولا مجلاتهم، ولولا تلك الروايات من قبل وهاتيك الأفلام من بعد، ولولا الذين تخرجوا بمدرسة الضلال، ثم وَلُوا ـ مع الأسف ـ أمر أبنائنا وبناتنا في مدارسنا ـ ما رأينا، ولا توهمنا أننا سنرى يوماً، بنات المسلمين يكشفن عن سيقانهن وأفخاذهن؛ للعبة بكرة السلة، أو لعرض في حفلة الرياضة، أو لاصطياف على الساحل، ولو بعث قاسم أمين ومن شايعه على دعوته من رؤوس الفتنة، ورأوا إلامَ انتهت إليه المرأة بدعوتهم التي أرادوا بها غير هذا ـ لأخذتهم الصعقة!

وأؤكد لك أن ذلك الأمر في حقيقته أتفه وأهون مما تظن، وأن الحديث عنه أعظم منه، ووصفه أكبر أثراً في النفس من فعله.

ولولا هذا الفن: فن الشعر والقصة والتصوير والغناء، ولولا هذا الذي يجمّل المرأة، ويحسّن الحب ـ لما رأيت لتلك الصلة الجسمية في نفسك ولا نفس غيرك من الشباب عشر معشار ما تحسّه اليوم.

إنها عملية كالعمليات الطبية كلها، ولكنها قذرة حقّاً؛ لذلك وضع لها هذا (البنج) الذي يعمي ويصمّ، فلا يرى المرء القبح فيها، وهذا البنج هو الشهوة، ولو فكر المرء فيها هادئاً، لو فكر فيها بعقل رأسه لا بعقل أعصابه لما رآها إلا كما أقول.

وهذه المغريات كلها لا تعمل عملها، ولا تؤتي المرّ من ثمرها، ما لم يوجد رفيق السوء، الذي يدلك على طريق الفاحشة، ويوصلك إلى بابها، إنها كالسيارة الكاملة العدة، وهذا الرفيق كالزناد ـ المارش ـ وليس تمشي السيارة مهما كانت قوتها إلا بالزناد.

وكأني أسمعك تقول: هذا هو الداء، فما الدواء؟

الدواء أن نعود إلى سنة الله، وطبائع الأشياء التي طبعها عليها، إن الله ما حرم شيئاً إلا أحل شيئاً مكانه، حرم المراباة وأحل التجارة، وحرم الزنا وأحل الزواج؛ فالدواء هو الزواج.

الزواج وحده طريق الإصلاح، وأنا أقترح على الجمعيات الإسلامية، والنوادي الإصلاحية أن تؤسس قسماً جديداً يرغّب الشبان في الزواج، ويدعوهم إليه، ويسهله عليهم، ويدل الخاطب على الفتاة التي تصلح له ويصلح لها، ويقرضه المال إن كان معسراً، ولهذا الاقتراح تفصيلات وذيول من استجاب له وأراد العمل به شرحت له تفصيلاته.

فإذا لم يتيسر لك الزواج، ولم ترد الفاحشة، **فليس إلا التسامي**، وأنا لا أريد أن أعقّد هذا الفصل الذي أكتبه؛ ليكون مفهوماً واضحاً، بمصطلحات علم

النفس؛ لذلك أعمد إلى مثال لك: أترى إلى إبريق الشاي الذي يغلي على النار إنك إن سددته فأحكمت سدَّه، وأوقدت عليه فجَّره البخار المحبوس، وإن خرقته سال ماؤه فاحترق الإبريق، وإن وصلت به ذراعاً كبيراً كذراع القاطرة، أدار لك المصنع وسيّر القطار، وعمل الأعاجيب؛ فالأولى حالة من يحبس نفسه عن شهوته، يفكر فيها، ويعكف عليها، والثانية حال من يتبع سبل الضلال، ويؤم مواطن اللّذة المحرَّمة، والثالثة حالة المتسامي.

فالتسامي هو أن تنفّس عن نفسك بجهد روحي، أو عقلي، أو قلبي، أو جسدي يستنفد هذه القدرة المدخرة، ويخرج هذه الطاقة المحبوسة بالالتجاء إلى الله، والاستغراق في العبادة، أو بالانقطاع إلى العمل والانغماس في البحث، أو بالجهد الجسدي والإقبال على الرياضة، والعناية بالتربية البدنية أو بالبطولة الرياضية.

والإنسان يا ابني محب لنفسه لا يقدم أحداً عليها، فإذا وقف أمام المرآة، ورأى استدارة كتفيه، ومتانة صدره، وقوة يديه كان هذا الجسم الرياضي المتناسق القوي أحب إليه من كل جسد أنثى، ولم يرض أن يضحي به، ويذهب قوته ويعصر عضلاته، ويعود به جلداً على عظم من أجل سواد عيني فتاة، ولا من أجل زرقتهما...

هذا هو الدواء: الزواج، وهو العلاج الكامل؛ فإن لم يمكن فالتسامي، وهو مسكّن مؤقت، ولكنه مسكن قوي، ينفع ولا يؤذي.

أما ما يقوله المغفلون، أو المفسدون، من أن دواء هذا الفساد الاجتماعي هو

تعويد الجنسين على الاختلاط؛ حتى تنكسر بالاعتياد حدة الشهوة، وفتح المحلات العمومية؛ حتى يُقضى بها على البغاء السري - فكلام فارغ، وقد جرَّبت الاختلاطَ أممُ الكفر؛ فما زادها إلا شهوة وفساداً.

أما المحلات العمومية فإننا إذا أقررناها وجب أن نوسعها حتى تكفي الشبان جميعاً، وإذن فينبغي أن يكون في القاهرة أكثر من عشرة آلاف بغيّ؛ لأن في القاهرة (من أصل المليونين ونصف المليون من سكانها) مائتي ألف شاب على الأقل... وإذا نحن جوَّزنا للشباب ارتيادها، فاستغنوا بذلك عن الزواج، فماذا نصنع بالبنات؟ هل نفتح لهن محلات عمومية فيها (بغايا) من الذكور؟!

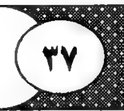
كلام فارغ يا ابني والله، وما تقوله عقولهم، ولكن غرائزهم، وما يريدون إصلاح الأخلاق ولا تقدم المرأة، ولا نشر المدنية، ولا الروح الرياضية، ولا الحياة الجامعية.

إنما هي ألفاظ يتلمظون بها، ويبتدعون كل يوم جديداً منها يهولون به على الناس، ويروّجون به لدعوتهم، وما يريدون إلا أن تخرج لهم بناتنا وأخواتنا؛ ليستمتعوا برؤية الظاهر والمخفي من أجسادهن، وينالوا الحلال والحرام من المتعة بهن، ويصاحبوهن منفردات في الأسفار، ويراقصوهن متجملات في الحفلات، وينخدع مع ذلك بعض الآباء، فيضحون بأعراض بناتهن؛ ليقال: أنهم من المتمدنين...

وبعد يا ابني فلا تتردد في الكتابة إليَّ إن لم يرضك هذا الجواب، ولا تستح مما تجد من حرّ هذه الشهوة التي ركبها الله في النفس، إنها علامة القوة والأيد والشباب، وعليك بالزواج، ولو أنك طالب لا تزال؛ فإن لم تستطعه فاعتصم

بخوف الله، والانغماس في العبادة والدرس، وعليك بالرياضة؛ فإنها نعم العلاج.

والحديث طويل، وهذا ما اتسع له مجال المقال، ومن استزادني زدته رسالة إن شاء، أو مقالة إن شاء الناشرون.

 من هو الشاب المسلم؟[1] للعلاَّمة الشيخ محمد الخضر حسين

في شبابنا من يكتفي في إسلامه أنْ ينشأ في بيت إسلامي، ويُسَمَّى محمداً، أو مصطفى، ويُعَدُّ عند إحصاء طوائف البلاد في قبيل المسلمين، ولا تَجِدُ بعد هذا فارقاً بينه وبين شاب لا تمت روحه إلى الإسلام بصلة.

وهذا ما بعثني على أن اخترت للمحاضرة موضوع «من هو الشاب المسلم».

ذلك أَنَّ أنظار حكماء الأمة متجهة إلى بناء مَدَنِيَّةٍ روحُها الإيمان، وجسمها نظم الإسلام، وحليتها آدابه السامية التي ما زالت ولن تزال في صفاء وضياء، فوجب أَنْ تعلم من هو الشاب الذي يصلح لأن يَمُدَّ يده لبناء هذه المدينة، الشامخة الذرى، فنقول:

الشاب المسلم هو الذي يَسْمُو بنفسه إلى أن يكون مسلماً حقاً، فيقرأ القرآن المجيد بِرَوِيَّة، ويجيل فكره في آياته الزاهرة، حتى يتملأ حكمه البالغة، ومواعظه الرائعة، قال ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ العنكبوت: ٥١ .

والشاب المسلم هو الذي يؤمن بالله من الشرك، أو ما يشابه الشرك، فيعتقد من صميم قلبه أَنَّ الله وحده هو المتصرف في الكون، فلا مانع ولا ضار إلا هو، وبهذه العقيدة السليمة يحمي نفسه من أَنْ تلابسها مزاعم مزرية، ويصغر في عينه

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، الجزءان السادس والسابع من المجلد الثامن عشر، وانظر الدعوة إلى الإصلاح (ص٩٦-١٠٠).

كل جبَّار، ويهون عليه احتمال المصاعب، واقتحام الأخطار في سبيل الجهاد في الإصلاح، والدعوة إلى الحق.

والشاب المسلم هو الذي يدرس سيرة رسول ﷺ دراسة يرى بها رأى العين أن تلك المكانة البالغة المنتهى من الحكمة وقوة البصيرة، والنهوض بجلائل الأعمال المختلفة الغايات ـ مكانةٌ لا يدركها بشر ليس برسول، وإن بلغ في العبقرية الذروة القصوى، وأنفق في السعي إليها مئات من الأعوام أو الأحقاب.

والشاب المسلم يستجيب لله فيما شرعه من عبادات تقربه إليه زلفى، كالصلوات الخمس بقلب حاضر، ويؤديها ولو بمحضر طائفة لم تذق حلاوة الإيمان، فتنظر إلى المستقيمين بتهكم وسخرية.

وضعفاء الإيمان من شبابنا لا يقومون إلى الصلاة في مجالس الملاحدة، وأشباه الملاحدة من المترفين؛ يخافون أن يسخروا منهم، أو تزدريهم أعينهم[1].

والشاب المسلم يعتز بدين الله، فيدافع عنه بالطرق المنطقية، ويرمي بشواهد حكمته في وجه المهاجم له، أو مُلْقِي الشبه حوله، وإن كان ذا سلطان واسع وكلمة نافذة.

وضعفاء الإيمان من شبابنا تتضاءل نفوسهم أمام أولئك الطغاة، ويقابلون تهجمهم على الدين بالصمت، وربما بلغ بهم ضعف العقيدة أن يجاروهم فيما

---

(١) يقول هذا الكلام رحمه الله في وقت ضعفٍ وهزيمة به حيث كان الواحد يستحيي أن يصلي بحضرة أناسٍ ممن ذكروا، أما الآن ـ بحمد الله ـ فالمساجد في كثير من بلاد المسلمين ملأى، والذي لا يصلي هو المنبوذ الجدير بالاستحياء والاستخفاء (م).

يقولون، وسيعلم الذين يشترون رضا المخلوق بغضب الخالق أي منقلب ينقلبون.

والشاب المسلم يذكر في كل حين أن أمد عمره غير معروف، ويتوقع انقطاعه في كل يوم، فتجده حريصاً على أن لا تمر ساعة من ساعات حياته دون أن يكسب فيها علماً نافعاً، أو عملاً صالحاً.

إذا ما مضى يوم ولم أصطنع يداً ولم أكتسب علماً فما ذاك من عمري

والشاب المسلم إذا وكل إليه عمل أقبل عليه بنصح، وتولاه بأمانة، ذلك بأنه يشعر بأن الرجال إنما يتفاضلون على قدر إتقانهم للأعمال، ويشعر بأنه مسؤول عما ائتمن عليه بين يدي من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والشاب المسلم ينظر بنور الله، فلا يسارع إلى تقليد المخالفين، ومحاكاتهم في عاداتهم، وأساليب مدنيتهم وإن لم تقم على رعاية مصلحة.

وضعفاء الإيمان يحرصون على أن يقلدوهم في كل شيء، ولو خالف آداب الشريعة، كمن يمسك السكين باليمين عند الأكل والشوكة بالشمال، ويتناول بها الطعام مخالفاً لآداب الشريعة الغَرَّاء.

والشاب المسلم يؤمن بأنَّ النظم الإسلامية الاقتصادية أرقى نظم يسعد بها البشر، ويدركون بها حياة مطمئنة آمنة؛ فمن يعتقد أَنَّ الربا ـ مثلاً ـ من الوسائل التي تتسع بها الثروة، وينتقل بها الناس من فقر إلى غنى ـ فقد وقف بهذا الرأي محارباً لله ورسوله، ولا يزيده ما يرتكبه في تحريف نصوص الشريعة عن مواضعها إلاَّ ضلالاً.

والشاب المسلم لا يجعل أحكام الشريعة تابعة لهواه وشهواته، فيأخذ في تأويل نصوص الشريعة والتلاعب بقواعدها، حتى يزعم أنها موافقة لهواه، كمن يحاول أن يكون لسفور النساء وتبرجهن، واختلاطهن بالرجال غير محظور شرعاً، يزعم هذا لينظر إلى بنات المسلمين وأزواجهن بملء عينيه، أو يتصل بهم دون أن يسمع كلمة إنكار.

والشاب المسلم لا يسعى لمجالسة الجاحدين إلاَّ أن تدعوه إلى ذلك ضرورة؛ فإن علامة حياة القلب بالإيمان تألُّمُه من سماع كلمة تهكم أو طعن في الدين.

وقد دَلَّ التاريخ والمشاهدة أن الزنادقة إن لم يطعنوا في الدين أو يتهكموا بالمؤمنين صراحة لم يلبثوا أن يطعنوا فيه أو يتهكموا به رمزاً وكناية.

ثم إنَّ الملحد أيها الشاب المسلم لا تجد في خلقه وفاءاً، ولا في مودته صفاءاً، إلاَّ أن تسير سيرته، وتحمل بين جنبيك سريرته.

والشاب المسلم يمثل سماحة الإسلام، وفضله في تهذيب النفوس، وأخذها بأرقى الآداب؛ فإذا جمع بينه وبين المخالفين المسالمين عمل لمصلحة وطنية عاشرهم برفق وإنصاف، وإذا دارت بينه وبينهم محاورة في علم أو دين اكتفى بتقرير الحقائق، وإقامة الحجة، وطَهَّرَ لسانه أو قلمه من الكلمات الجافية، وأخفى ما قد يقع في نفسه من غيظ.

والتجملُ بالأناة، وحسن السمت، ولين القول قد يجاذب النفوس الجامحة عن الحق، ويخطو بها الخطوة الأولى إلى التدبر في الحجة.

والشاب المسلم يعمل ليرضي ربه، ولا يحفل بأن تكون له وجاهة عند رجال

الدولة؛ فإذا وجد أمامه أمرين أحدهما يرضي الخالق، وثانيهما يُقرِّبه من ذوي السلطان درجة اختار أولهما؛ فإن آثر رضا السلطان على رضا الله فليتفقد مقر إيمانه، فعساه أن يهتدي إلى المرض الذي طرأ على قلبه، فليلتمس له دواء ناجعاً، وإنما دواؤه الناجع أن يعلم أن الله يمنعه من ذوي السلطان، وأن ذوي السلطان لا يمنعونه من الله.

والشاب المسلم قد تقتضي عليه ظروف خاصة بأن يسكت عن بعض ما هو حق، ولكنه إذا تكلم لا يقول إلاَّ الحق.

والشاب المسلم لا يزن الناس في مقام التفاضل بما يزنهم به العامة، من نحو المال أو المنصب، وإنما يزنهم بما يزنهم به القرآن المجيد، والعقل السليم من ورائه، أعني العلم النافع والسيرة النقية الطاهرة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ الحجرات: ١٣.

والشاب المسلم يكسب المال، ليسد حاجات الحياة، ويحيط نفسه بسياج من العفاف والكرامة، ويَأَبى أَشَدَّ الإباء أن يسعى له من طريق الملق، وإراقة ماء الوجه.

والذي يبذل ماء مُحَيَّاه ولا يبالي أن يقف موقف الهوان هو الشخص الذي فَقَدَ أَدَب التوكل على الخالق جُلَّ شأنه، وزَهَدَ في ثوب العزة الذي ألبسه إياه بقوله: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المنافقين: ٨.

والشاب المسلم لا يرفع رأسه كبراً وتعاظماً على الطيبين من الناس، وإن كان أغزر منهم علماً، وأعلى منصباً، وأكثر مالاً، وأوسع جاهاً.

وإنما الكبر والتعاظم مظهر قذارة في النفس توحي إلى أَنَّ من ورائها نقائصَ أراد صاحبها أن يوريها عن أعين الناس بهذه الكبرياء.

والشاب المسلم يرفع رأسه عزة على من يَعُدُّون تواضعه خِسَّة في النفس أو بلاهة في العقل، حتى يريهم أَنَّ الإيمان الصادق لا يلتقي بالذلة في نفس واحدة.

والشاب المسلم إذا رأى منكراً يفعل نهى عنه، وإذا رأى معروفاً يترك أمر به، ولا يقول كما يقول فاقدوا الغَيْرَة على الإصلاح: ذلك شأن رجال الدِّين يعنون أرباب العمائم الخاصة.

والدين لم يَقْصُرْ واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على طائفة تسمى رجال الدين، بل أوجب الأمر بالمعروف على كل من عرف أنه معروف، وأوجب النهي عن المنكر على كل من عرف أنه منكر، لا فرق بين الشاب والشيخ، والمتعمم وحاسر الرأس.

سادتي: هذه كلمة سقنا فيها مُثُلاً من السيرة التي تجب أن يكون عليها شباب الإسلام، وإذا هم نحروها رشداً وثقنا بأن لنا أمة تستطيع أن تقف أمام كل قوة، وهي على ثقة بأن تجد من الله ولياً نصيراً.



يا شباب العرب![1] للأديب مصطفى صادق الرافعي

يقولون: إن شباب العرب شيخوخة الهمم والعزائم، فالشبان يمتدون في حياة الأمم وهم ينكمشون.

وإن اللهو قد خفَّ بهم حتى ثقلت عليهم حياة الجد، فأهملوا الممكنات فرجعت لهم كالمستحيلات.

وإن الهزل قد هوَّن عليهم كل صعبةٍ فاختصروها؛ فإذا هزؤوا بالعدو في كلمة فكأنما هزموه في معركة....

وإن الشابَّ منهم يكون رجلاً تاماً، ورجولةُ جسمه تحتجُّ على طفولة أعماله.

ويقولون: إن الأمر العظيم عند شباب العرب ألا يحملوا أبداً تبعة أمر عظيم.

ويزعمون أن هذا الشباب قد تـمَّت الألفةُ بينه وبين أغلاطه، فحياته حياة هذه الأغلاط فيه.

وأنه أبرع للغرب في الرذائل خاصة؛ وبهذا جعله الغرب كالحيوان محصوراً في طعامه وشرابه ولذته.

ويزعمون أن الزجاجة من الخمر تعمل في هذا الشرق المسكين عمل جنديٍّ أجنبي فاتح...

ويتواصَوْن بأن أولَ السياسة في استعباد أمم الشرق، أن يترك لهم الاستقلال التام في حرية الرذيلة...

---

(١) من كتاب وحي القلم ٢/ ٢٣٠ـ٢٣٣.

ويقولون: إنه لا بدَّ في الشرق من آلتين للتخريب: قوة أوربا، ورذائل أوربا.

يا شباب العرب! مَنْ غَيْرُكم يُكذِّب ما يقولون ويزعمون على هذا الشرق المسكين؟

مَنْ غيرُ الشباب يضع القوة بإزاء هذا الضعف الذي وصفوه؛ لتكون جواباً عليه؟

مَنْ غيركم يجعل النفوس قوانينَ صارمة، تكون المادة الأولى فيها: قَدَرْنا لأننا أردنا؟

ألا إن المعركةَ بيننا وبين الاستعمار معركةٌ نفسية، إن لم يقتل فيها الهَزْلُ قتل فيها الواجب!

والحقائق التي بيننا وبين هذا الاستعمار إنما يكون أنتم بحثها التحليلي، تكذب أو تصدق.

الشباب هو القوة؛ فالشمس لا تملأُ النهار في آخره كما تملؤه في أوله.

وفي الشباب نوع من الحياة تظهر كلمة الموت عنده كأنها أختُ كلمة النوم.

وللشباب طبيعة أول إدراكها الثقة بالبقاء، فأول صفاتها الإصرار على العزم.

وفي الشباب تصنع كل شجرة من أشجار الحياة أثمارها، وبعد ذلك لا تصنع الأشجار كلها إلا خشباً...

يا شباب العرب! اجعلوا رسالتكم: إما أن يحيا الشرق عزيزاً، وإما أن تموتوا.

أنقذوا فضائلنا من رذائل هذه المدنية الأوربية، تنقذوا استقلالنا بعد ذلك، وتنقذوه بذلك.

إن هذا الشرق حين يدعو إليه الغرب، ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ الحج: ١٣.

لَبئس المولى إذا جاء بقوته وقوانينه، ولَبئس العشير إذا جاء برذائله وأطماعه.

أيها الشرقي! إنَّ الدينار الأجنبيّ فيه رصاصةٌ مخبوءة، وحقوقنا مقتولةٌ بهذه الدنانير.

أيها الشرقي! لا يقول لك الأجنبي إلاَّ ما قال الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ إبراهيم: ٢٢.

يا شباب العرب! لم يكن العسيرُ يَعسُر على أسلافكم الأولين، كأن في يدهم مفاتيح من العناصر يفتحون بها.

أتريدون معرفة السر؟ السر أنهم ارتفعوا فوق ضعف المخلوق، فصاروا عملاً من أعمال الخالق.

غلبوا على الدنيا لما غلبوا في أنفسهم معنى الفقر، ومعنى الخوف، والمعنى الأرضي.

وعلَّمهم الدين كيف يعيشون باللذات السماوية التي وضعت في كل قلب عَظَمَتَه وكبرياءه.

واخترعهم الإيمان اختراعاً نفسياً، علامته المسجلةُ على كل منهم هذه الكلمة: لا يَذِل.

حين يكون الفقر قلة المال يفتقر أكثر الناس، وتنخذل القوة الإنسانية، وتهلك المواهب.

ولكن حين يكون فقر العمل الطيب، يستطيع كل إنسان أن يعتني، وتنبعثُ القوةُ، وتعملُ كل موهبة.

وحين يكون الخوف من نقص هذه الحياة وآلامها تفسِّر كلمة الخوف مائة رذيلة غير الخوف.

ولكن حين يكون من نقص الحياة الآخرة وعذابها تصبح الكلمة قانون الفضائل أجمع.

هكذا اخترع الدين إنسانه الكبير النفس الذي لا يقال فيه: انهزمت نفسه.

يا شباب العرب! كانت حكمةُ العرب التي يعملون عليها: اطلُب الموتَ تُوهَب لك الحياة.

والنفس إذا لم تخشَ الموتَ كانت غريزة الكفاحِ أولَ غرائزها تَعْمل.

وللكفاح غريزةٌ تجعلُ الحياةَ كلَّها نصراً؛ إذ لا تكون الفكرة معها إلا فكرةً مقاتلة.

غريزة الكفاح يا شباب، هي التي جعلت الأسد لا يُسمَّنُ كما تسمن الشاة للذبح.

وإذا انكسرتْ يوماً فالحجر الصَّلْد إذا تَرَضْرَضَتْ منه قطعة كانت دليلاً يكشف للعين أن جميعه حجرٌ صلد.

يا شباب العرب! إن كلمة (حقيّ) لا تحيا في السياسة إلا إذا وضع قائلها حياته فيها.

فالقوة القوة يا شباب! القوة التي تقتُل أولَ ما تقتل فكرةَ الترَفِ والتخنُّث.

القوة الفاضلةُ المتساميةُ التي تضع للأنصار في كلمة (نعم) معنى نعم.

القوة الصارمة النفّاذة التي للأعداء في كلمة (لا) معنى لا.

يا شباب العرب اجعلوا رسالتكم: إما أن يحيا الشرق عزيزاً، وإما أن تموتوا.

تاسعاً: مقالان في المرأة

٣٩ـ دفاع عن الفضيلة: للشيخ علي الطنطاوي

٤٠ـ بين الزوجين: للشيخ علي الطنطاوي



دفاع عن الفضيلة[1] للشيخ علي الطنطاوي

هال بعض المصلحين منذ سنتين ما رأوا من فشوِّ التبرج والاختلاط في دمشق البلد العربي المسلم، فقاموا يدافعون عن الفضيلة المغلوبة ويردُّن الرذيلة الغالبة، وانقاد إليهم الناس؛ لأن الكثرة الكاثرة من أهل دمشق لا تزال متمسكة بدينها، ولا تزال نساؤها في الحجاب الساتر، ومشت الأمور في طريقها وكادت تصل إلى غايتها، ودعاة الفجور ينظرون ويتحرقون لولا أن دفعت الغيرة على الأخلاق الإسلامية، والسلائق العربية بعض العامة إلى الدخول على النساء في السينما، وإخراجهنَّ منها وترويعهنَّ، وإلى التجوال في البلد ونصح كل متبرجة ووعظها وزجرها...

وقد أنكر العلماء وعقلاء البلد ذلك عليهم، فكفوا عنه وأقلعوا، ولكن دعاة الفجور لم يرضهم أن تنتصر دمشق للفضيلة وأن تهدم عليهم عملهم على رفع الحجاب وإباحة الاختلاط؛ فاستغلوا عمل هؤلاء العوام وأعلنوا إنكاره، وكبَّروه وبالغوا في روايته، وذهبوا يقيمون الدنيا، ويبرقون البرقيات ويُرعدون بالخطب، وما أهون الإبراق والإرعاد، وما أسهل إثارة الشبان الفاسقين على الستر والحجاب، باسم (الحرية الشخصية) التي تمتع عيونهم بما وراء الحجاب من جمال، وتُنيلهم ما بعد حدود الفضيلة من لذائذ!

أيخرجون النساء من السينما؟ أيعرضون بالنصح للمتبرجات الكاشفات؟ يا

(١) نشرت عام ١٩٤٦م، انظر كتاب (في سبيل الإصلاح) ص٨٨-٩٤.

للحدث الأكبر، يا للعدوان على الحرية الشخصية التي ضمنها الدستور!

أليست المرأة حرة ولو خرجت عارية؟ أليس الناس أحراراً ولو فسقوا وفجروا؟ أليس كل امرئ حرًّا ولو نقب مكانه في السفينة[١]؛ فأدخل إليها الماء؛ فأغرقها وأهلها؟!

كذلك فَهَم الحرية هؤلاء الجاهلون، أو كذلك أراد لهم هواهم، وشاءت لهم رغباتهم الجنسية وميولهم النفسية أن يفهموها، ودفعوا الصحفيين فلبثوا أياماً طوالاً لا كلام لهم إلا في الدفاع عن الحرية، وهاجوا[٢] بعض النواب، فجرب كل واحد منهم أن يتعلم الخطابة في تقديسها، ثم عمدوا إلى فئة من خطباء المساجد حامَوا عن الفضيلة؛ فساقوهم إلى المحاكم سوق المجرمين، وأدخلوهم السجون، وجرعوهم كؤوس المهانة، حتى صار من يذكر السفور بسوء، أو يدعو إلى الفضيلة والستر كمن يدعو إلى الخيانة العظمى، وصار النساء إذا رأين شيخاً في الطريق شتَمْنَه، وسخرن منه، وتوارى أنصار الفضيلة من وجه هذه العاصفة الفاجرة الهوجاء، وهم جمهرة أهل الشام وعلماؤهم وأفاضلهم وعقلاؤهم، وحسب أولئك أن الظفر قد تمَّ لهم، وأن أهل الدين قد انكسروا كسرة لا تجبر؛ فكشفوا القناع وانطلقوا يسرحون وحدهم في الساحة ويمرحون، وكانت النتيجة أن انحطم السدّ، فطغى سيل الرذيلة وعمّ، وامتد في هاتين السنتين أضعاف ما امتد أيام حكم الفرنسيين الذين هم أفسق الناس.

---

(١) إشارة إلى الحديث المشهور.

(٢) أي هيَّجوا.

وهذه حقيقة نثبتها بأسف وخجل، وكانت النتيجة أن ازدادت جرائم التعدي على العفاف، واستفحلت حتى رأيت في المحاكم من يتعدى على عفاف بنته وأخته، ومن يفجر بطفل رضيع، وماذا يصنع هذا الوحش الذي أثارت (الحرية الشخصية) غرائزه فلم يجد إلا البنت والأخت أو الطفل الرضيع؟

وكانت النتيجة أن دمشق التي تستر بالملاءة البنت من سنتها العاشرة شهدت في يوم عيد من أعياد الوطن، بنات في السادسة عشرة وما فوقها يمشين في العرض بادية أفخاذهن، ترتج نهودهن في صدورهن، تكاد تأكلهن النظرات الفاسقة.

وشهدت بنتاً جميلة زينت بأبهى الحلل، وألبست لباس عروس، وركبت السيارة وسط الشباب ـ قالوا: إنها رمز الوحدة العربية ـ.

ولم يدر الذين رمزوا هذا الرمز أن العروبة إنما هي في تقديس الأعراض لا في امتهانها.

ومشى الموكب أمام الناس وفيهم والد هذه البنت لا يستحي ولا يخجل، وأخرى قالوا: إنها رمز سورية الأسيرة قد فكت قيودها، وأمثال هذا الهذيان الذي لا معنى له إلا استغلال العيد الوطني في هدم أركان الفضيلة، وتمزيق حجابها.

وأُخِذَت صور هذا كله؛ فنشرت في الجرائد، وعرضت في السينمات، ثم ازدادت جرأة الناس على نقض عرى الأخلاق حتى رأينا صور رجال منا مع نسائهم على (بلاج) الإسكندرية منشورة في مجلة من المجلات التي لا تدع فرصة فيها تشهير بنا، وفضح لنقائصنا إلا استغلتها، ثم ازدادت الجرأة حتى صارت

مجلات دمشق تنشر صور العرايا، فيشتريها الشباب لهذه الصور؛ لأنه ليس فيها ما تشترى له.

ثم... ثم ماذا؟ الله وحده الذي يعلم ماذا يكون ـ أيضاً ـ وإلى أين يبلغ بنا المسير؟.

وقد نزلت هذه الضربات على وجه الفضيلة متلاحقة متتابعة لا تصحو من واحدة حتى تحس بالأخرى، وهم يريدون منا مع ذلك أن نسكت وألا نقول شيئاً؛ لئلا نشوِّه (زعموا) جمال العهد الوطني.

كلا، إن العهد الوطني هو الذي تنتصر فيه الفضيلة، ويسود الحق، ويحفظ العفاف، كلا، ولا كرامة، إنها أعراض بناتنا وأخواتنا، ولو غير الأعراض لهاوَدْناكم عليها، ولكن لا هوادة في العِرْض!.

إنها حياة هذه الأمة: لا تحيا أمة بلا أخلاق، أفئن قامت فئة من العامة بما لا نرضى عنه، وانتهكت حرمة هذا الحرم الأقدس: السينما، وتجاوزت على حريات الفاضلات المطهرات ـ النساء المتبرجات ـ نسكت كلنا عن نصرة الفضيلة إلى يوم القيامة؟!.

إن من الأمور ما يتفق عليه أبناء الملل كلها، وما يلتقي فيه أتباع الأديان جميعاً كما يلتقي سالكو شوارع مختلفة في ساحة من الساحات، ومن ذلك الدعوة إلى العفاف؛ إنها دعوة لا بد منها، فإذا لم يريدوها عن طريق الجمعية الغراء والمشايخ، فلتكن عن طريق غيرهم، المهم أن يجهر بها جاهر ونحن معه مؤيدون له، ومحاربون لمن يحاربه، ونحن نريد الجوهر لا المظهر.

ثم ما هذه الحرية التي طبَّلتم لها وزوَّرتم، وهوَّلتم وعظَّمْتم، وجعلتم الاعتداء عليها كفراً بدين الحضارة والديمقراطيَّة، أهي حرية المرأة أن تكشف ما تريد من جسمها متى أرادت وأين شاءت؟ أهي حرية ناظر المدرسة في أن يحوّل مدرسته إلى مرقص؟ أهي حرية الفسوق والعصيان؟.

أهذه هي الحرية المقدسة؟.

إنكم ـ أيها السادة ـ بين أمرين: إما أنكم تقولون ما لا تفهمون، وإما أنكم تسترون بهذه الأسماء الحلوة أغراض نفوسكم ورغبات أجسادكم؟ وإلا فخبّروني أي أمة في الدنيا تصنع هذا الصنيع:

العرب؟ إن العرب أغْيَر الناس على الأعراض، وإن كلمة العرض في لسانهم لا يقابلها كلمة في ألسنة الأمم تترجم بها!.

المسلمون؟ إن الإسلام أمر بغض البصر، وستر العورة، ولعن الناظر إليها والمنظور!

الفرنسيون؟ إن الفرنسيين يكشفون أفخاذ الشباب في الملعب فعلام تكشفونها أنتم في سوق الحميدية وهو للبيع والشراء، وفيه الرجال والنساء وهو كالموسكي في مصر، والشورجة في بغداد، ما كان قط ملعباً ولا ميدان كرة.

وإن الفرنسيين ينشؤون بيوتاً للهو واللذة، وبيوتاً للعلم، وأنتم جعلتم بيوت العلم بيوت لذة ولهو، وإن الفرنسيين كانوا يسترون سيقان الجند، فلما استلمتم أنتم أمرهم كشفتم عن أفخاذهم[1].

---

(١) وما أستحسن عمل الفرنسيين، ولكن أقيم الحجة على المخالفين.

الروس؟ إن الروس فصلوا بين الجنسين في المدارس لما رأوا بالتجربة أن الاختلاط لا يأتي بخير، وأنتم تسعون الآن بكل طريق لجمع الجنسين في المدارس.

العفاريت؟ الجن؟ فمن إذن؟ أنكون نحن بدعاً في الأمم نأخذ من كل واحدة شرَّ ما عندها، ونريد أن نبدأ حياتنا الاستقلالية بهذا الخليط من الشرور مركباً تركيباً مزجيّاً، كحضرموت، إنه والله طريق الموت الحاضر لا طريق الحياة!.

لا، لم أرد أن أنحو في هذا الحديث نحو الخطابيات، ولم أنشئه لأخاطب به العواطف وحدها، ولكن نحوت فيه نحو التدليل والتعليل، وقررت حقائق بأدلتها، وأنا أدعو إلى مناظرتي فيه كل مخالف في رأسه عقل، وفي يده قلم، وفي فمه لسان.

ولم أوجه للمسلم وحده، بل لكل من قال أنا عربي، لا أخص مسلماً ولا مسيحيّاً؛ لأن من صفات العربي التي تقوم عليها عروبته الشهامة والغيرة على الأعراض، ومن ادعى العربية ولم تكن له على العرض غيرة، ولم يغضب لحرمة فهو كذاب دعي ليس بعربي.

وسيقول ناس من القراء: هذا رجل معروف بالدعوة إلى الرجعية فلا تسمعوا له؛ إنه يريد أن يعود بنا إلى الوراء، ونحن نريد أن نتقدم.

وهذا كلام لا يناقش ولا يرد عليه، إنما يناقش كلام مؤيد بحجة، إنما يدفع اعتراض قائم على منطق، إنما يقرع الدليل، فهل في هذا الكلام حجة أو منطق أو دليل؟.

إنهم حفظوا كلمات فهم يرددونها لا يحاولون فهم معناها، يقولون: رجعيَّة،

وما الرجعية؟ هي الرجوع إلى الماضي، أي إلى أخلاقه وعاداته؛ فما يمكن أن يرجع إلى زمان مضى، فهل الرجوع إلى مثل أخلاق المسلمين الأولين نفع أو ضرر؟ وهل يكون الداعي إلى تلك الأخلاق مصلحاً أو مفسداً؟.

هذه هي الرجعية!.

هي رجوع إلى الدين، أفترجع فرنسا إلى دينها، أي إلى كاثوليكيتها، ويظفر الحزب الديني فيها بأكثر مقاعد المجلس النيابي، فلا ينكر عليها أحد، ولا يتهمها بالتأخر، ولا يصمها بالجمود، ونطلب نحن العودة إلى ديننا الحق، فيقول السفهاء: إنا متأخرون جامدون؟.

لا، هذا كثير! هذا كفر بالمنطق، وتعطيل للفكر، وإلحاد في المدينة، هذا شيء نستحي من الأمم أن يكون فينا من يقوله!.

ونحن إذ ننتقد شيئاً نبيِّن أضراره، فبينوا أنتم منافعه، حتى إذا وجدنا المنافع أكثر أخذنا به، ولو حملنا معه شيئاً من الضرر، ونحن نعلم أنه ليس في الدنيا خير محض ولا شر محض، وإن الخمر والميسر فيهما إثم كبير ومنافع للناس، ولكن إثمهما أكبر من نفعهما، فلذلك حُرِّما.

فتعالوا نتناظر!.

إنه لا بد في كل مناظرة من مبادئ يتفق عليها الطرفان؛ ليعودا إليها، ويرتكزا عليها، وما المنطق إلا رد الفروع إلى هذه الأصول، فإذا كان المتناظران مختلفين في كل شيء، يرى هذا أن العفاف نافع، فيقول الآخر بل هو ضار، ويدعي هذا أن اتباع الدين واجب فينكر الآخر هذه الدعوى، ويرى هذا العمل على منع

الفجور، ويرى ذاك العمل على نشره فلا يمكن أن يكون بينهما كلام؟.

فلنتفق أولاً على الأصول:

هل العفاف وقصر الاتصال الجنسي على المشروع منه خير أم شر؟.

هل قيام المرأة على تربية أولادها بنفسها وإخلاصها لزوجها وبيتها خير أم شر؟.

هل مراقبة الله، وخوفه وتمسك كل امرئ بفضائل دينه خير أم شر؟.

هذه ثلاث مسائل أطلب الجواب عليها.

وإنه ليكون غروراً مني وازدراءاً للخصوم والقراء إذا افترضت أنهم يرون هذه الأمور شرًّا، وحاولت إقامة البراهين على أنها خير، وأتعبت نفسي والقراء في إثبات هذا الأمر الذي أظنه ثابتاً عند العقلاء جميعاً، وإني أؤجل هذا الإثبات إلى حين الحاجة إليه، وأبني المناظرة على هذه الأسس الثلاثة.

فتفضلوا قولوا، هل هذا الذي نحن فيه يحفظ علينا عفافنا أم هو يضيّعه علينا؟ هل يعمر بيوتنا أم يقوّضها على رؤوسنا؟ هل يرضي ربنا أم يسخطه علينا؟ هل يجعلنا أمة قوية أم هو يذهب بقوتنا؟.

وإذا سلمنا جدلاً بأن من الخير مشاركةَ الطالبات الطلاب في أفراح الجلاء، فهل يشترط في هذه المشاركة أن يكشفن سيقانهن وأفخاذهن، وأن يُنتخَب لها الجميلات منهن لا النابغات ولا المجدات ولو كن قبيحات، وإذا لبسن الجوارب الساترة والثياب الطويلة أيبطل رواء العيد وتذهب بهجته؟ أم أنتم تريدون النظر إلى أفخاذهن بحجة المشاركة في أعياد الجلاء؟.

وإذا حسُن أن نقوي بالرياضة أجساد الطالبات، فهل يشترط في هذه التقوية أن يختلطن بالرجال؟.

لا والله، أحلفها يميناً غموساً وأضعها في عنقي، إنكم لا تريدون الصحة، ولا الرياضة، ولا المشاركة بالعيد، إنما تريدون التلذذ بمرأى بناتنا باسم العيد والرياضة والصحة؛ إنكم لصوص أعراض، ولكن ليس الحق عليكم، الحق علينا نحن آباء الطالبات والطلاب؛ فنحن عُميان لا نبصر، خُرسان لا ننطق، حمير لا نغار، وإذا استمرت هذه الحال فليس أمامنا إلا اللعنة التي نزلت على بني إسرائيل، على لسان داود وعيسى بن مريم.

اللهم لقد بلغت، اللهم لقد أنكرت المنكر.

اللهم لا تنزل علينا لعنتك، ولا تحلل بنا غضبك.

٤٠ بين الزوجين[١] للشيخ علي الطنطاوي

يا سادتي ويا سيداتي: قعدت لأكتب هذا الحديث، فما بدأت به حتى هبَّت العاصفة في بيت الجيران، وعلت الأصوات، وزمجر الرجل، وصخب، وولولت المرأة وعيَّطت[٢]، وقام الشيطان يهيج للشر ويضحك، ثم هدأت العاصفة فجأة كما هبَّت فجأة، وأعقبها سكون ثقيل، سمعت له دويًّا في أذنيَّ شغلني عن الكتابة؛ فقمت أنظر من شباكي الذي يكشف مكانهم ويبدي كل ما فيه[٣]، أَنْظُرُ ماذا جرى، فإذا الزوج قاعد في ركن المنزل ينظر في جريدته عابساً، ولا أظنه يفقه منها حرفاً، والمرأة في الركن الآخر تطرِّز ولا أحسبها تلقي لتطريزها بالاً، وهو يندب حظه يحسب أنه وحده الخائب في زواجه، وهي تبكي جدّها تحسب أنها وحدها التي فقدت سعادتها، ورأيت الولد قد ملّ هذا السكون، فمشى إلى أبيه خائفاً يترقب، فقال له: بابا. أعطني شُكلاطة.

فصرخ به زاجراً: قل لأمك: أتريد أن أخدمكم في السوق، وفي البيت، وأن أعمل عمل الرجل والمرأة؟!

فابتعد عنه الولد، ونظر إلى أمه، فصاحت به من غير أن ترفع رأسها عن شغلها: ابتعد عني وإلا كسرت رأسك، أنت أصل السبب، يا ضيعة تعبي،

---

(١) نشرت عام ١٩٤٨م، انظر كتاب «في سبيل الإصلاح» ص١٩٧ـ٢٠٢.

(٢) «عيط» في الشام: صاح، وفي العربية كذلك «تقريباً»، وفي مصر: بكى.

(٣) وهذه بليَّة من بلايا هذه المساكن الجديدة...

أشقى من الصباح إلى المساء فلا أجد من يقول لي: الله يعطيك العافية!

فهمَّ الرجل بالانفجار، ثم تماسك وتجلَّد، وسكت على غيظ ومضض، ومشى الولد إلى الأريكة فتكوَّم عليها، ودسَّ وجهه في وسادتها، وراح يبكي بكاءً خافتاً متصلاً موجعاً!

وعاد البيت ساكناً كما كان، ومرَّت دقائق، لمحت فيها على وجه المرأة ظلال نزاع عنيف في نفسها، بين شفقتها على ولدها، وغيظها من زوجها، ثم رأيتها تثب فُجاءة فتمضي إلى غرفتها وتنشج، ويرفع الرجل رأسه، متعجباً منها، ويضيق صبره على هذه المسرحيَّات تُمَثَّل في بيته وهو يريده بيتاً فيه الهدوء والمحبة، ولا يفهم سرَّ بكائها وهي - عنده - الظالمة، فيمضي إليها بعد تردد، حتى يقوم أمام السرير منتصباً مربدَّ الوجه، كأنه القائد العسكري في جنده، أو النائب العام في مقعده، ويقول لها بصوت بارد كالثلج متماسك كالجلمد: وما آخر هذه المساخر؟

وكانت تظنه قد جاء يواسيها في كربتها، ويعطف عليها، ويحاول أن يفهم ألمها، ويزيح همها، فلما سمعت ذلك منه، فقدت عقلها، فصاحت:

مساخر؟ أنتم الرجال ليس عندكم وفاء، ليس لكم قلوب، إنكم...

فنسي أنه أمام امرأة، وأنه أمام زوجة، وحسب أن الذي يقول له الكلام قرن له أو خصم، فأجابها جواب الأقران، وكلمها كلام الخصوم، ولم يبق بينها وبين الطلاق إلا شعرة واحدة.

فذهبت إليهما فصحت بهما: بسّ، انتظروا، قولوا ما هي الحكاية؟

فنظرا إليَّ، وحسباني ـ وأنا قريبهما ـ عفريتاً قد نبع من الأرض، ففزعا منه، ثم اطمأنَّا إليَّ وعرفاني، وانطلقا يتكلمان بصوت واحد كلاماً متواصلاً متداخلاً، تتلاحق كلماته، كأنه السيل انهدم سدّه فاندفع، أو لسان النار غفلت عنه فاندلع، وما فهمت الحكاية حتى كادت نفسي تزهق...

و(الحكاية) التي سببت هذه النكبة، وكادت تهدُّ بيت الزوجية، وتطلق الزوجة، وتشرد الولد، أنه جاء من عمله، فوجد الصبي على الباب، والباب مفتوحاً، وليس عنده أحد يمنعه أن يمشي، فيضل في الحارة، أو تدعسه[1] سيارة أو تلفحه الشمس، أو يصيبه المرض، وتخيل ألف مصيبة قد حاقت بالصبي ونزلت به، فاستحال حبه له حنقاً على أمه التي أهملته، وتركته على شفا الهلاك، ودخل مغضباً محنقاً، وبدأها باللوم قبل السلام، وكانت قد نظفت الدار وأعدت الطعام، ولبست؛ تنتظر وصوله؛ لتسعد بقربه، وتجد مكافأتها في شكره إياها ومسرته منها، فلما رأته مخاصماً تبدد أملها، وخاب ظنها، وسيطر عليها الغضب، حتى أعماها عن حادثة (الباب المفتوح) والخطر المرتقب، فلم تر فيها إلا حادثة تافهة، لم ينشأ عنها شيء، ولم يأت منها ضرر.

وبدأ من هنا الخلاف، وتطاير الشرر.

يا سادتي ويا سيداتي: هذه صورة ترون كل يوم أمثالها، فاسمحوا لي أن أجعل حديثي هذه العشيَّة تعليقاً عليها، وبياناً لها، وليست صورة غريبة عنكم ولا نادرة، بل الغريب النادر أن تخلو دار منها؛ وأنا قاضٍ شرعيٌّ عملي أن أرى

---

(١) دعسته السيارة: وطئته، أما قولهم دهسته، فهو من الغلط.

دائماً دخائل البيوت، وأن أطلع على أسرار الأسر، فصدقوني إذا قلت لكم: إني لا أعرف زوجين لا يختلفان، ولكن خلاف الأزواج كحريق في كومة من القش ملقاة في رحب الدار، إذا أطفأته أو تركته ينطفئ همد بعد لحظة، وحمل الريح رماده، فلم يرزأك رزءاً، ولم يعقبك أذىً، وإن هجته أو أدنيت منه ثوبك، أو قربته من بيتك أحرق الثوب، وخرَّ البيت.

ولقد كان بيني وبين زوجي خلاف كهذا، فقلت لها: تعاليْ أعينيني على كتابة مقالة.

وكانت هذه المقالات ضرَّتها، فحسبتني أسخر منها، واندفعت تريد أن (تقول)... فما زلت أكلمها بجد، حتى بدا عليها الاهتمام وقالت: وكيف أعينك؟

قلت: تقولين لي كيف يختلف الأزواج؟

ومضينا نستعرض حوادث الاختلاف بيننا، ونحلِّل أسبابها، فانتهينا إلى الضحك منها.

يا سادة ويا سيدات: إنه قد يكون بين الزوجين اختلاف مفهوم على مال أو عقار، ولكنه نادر، وأكثر الخلاف تافهٌ مضحك، ليس له إلا عندهما قيمة أو خطر، وأنا أفهم أن تهتم المرأة بهذا، وما دامت تريد أن تشغل عقلها كما تشغل يدها، وما دامت لا تجد مشكلة علمية أو أدبية تبحث فيها وليس لها إلا مشاكل البيت، ولكن ما بال الرجل يهتم بها ويبالغ في تقديرها؟

تقولون: **كيف نصنع؛ ليسود البيت السلام، ويشمله الهدوء؟**

أنا أقول لكم؛ مقالة مجرِّب حكيم، فاستفيدوا إن شئتم من حكمتي وتجربتي.

هذه (أقراص) سهلة البلع، عظيمة النفع، فيها شفاؤكم من هذا الداء:

أولها: أن الزواج يبدأ بالحب والعاطفة، والحب أوله حلاوة وآخره مرارة، فهو يعمي البصر، ويصمُّ الأذن، ويغطي العيوب، فإذا زال الغطاء، ولا بد يوماً أن يزول الغطاء، وبدا المحجوب من العيوب، وظهر المستور من الأمور، وافتقد الزوجان لذة الحب، فلم يجداها ـ انتهى شهر العسل، وبدأت سنوات العلقم، فتجرعا العمر كله مرّها، وقاسيا ضرّها.

والدواء ألا يرقب الزوجان المحبة والعشق؛ فالحب عمره كعمر الورد، لا يعيش إلا أمداً قصيراً، ومن طلبه بعد عشر سنين من الزواج كان كمن يطلب من وسط القبر من العظام والرمم ـ الغادةَ الحسناءَ، والفاتنةَ الهيفاءَ.

لا، ولكن مودة وإخلاص، وحب كحب الأصدقاء والإخوان[1].

وثانيها: أن الرجل يغتفر لصديقه ما لا يغتفر لزوجته، ويحمل منه ما لا يحمل منها، ويتسامح معه فيما لا يتسامح فيه معها، وما ذلك إلا لأنه يصدق هذه الخرافة التي تقول: إن الرجل والمرأة كليهما مخلوق واحد؛ فهو يريد منها أن تفكر برأسه، وهي تريد منه أن يحس بقلبها، مع أن الناس كخطوط مستطيلة وفيها اعوجاج يسير، فإذا كانت متباعدة بدت للعين متوازية متوافقة تضيع من البعد هذه الفوارق الصغيرة بينها، فإذا تدانت وتقاربت بانت الفجوات؛ فأنت تصحب الصديق عشرين سنة فلا ترى بينك وبينه اختلافاً، ثم ترافقه أسبوعاً في سفر تنام

(١) ليس هذا الكلام على إطلاقه (م).

معه، وتأكل، وتشرب، فترى في هذا الأسبوع ما لم تره في السنين العشرين؛ فتشنؤه، وتبغضه، وقد كنت تحبه وتؤثره.

والله لم يخلق اثنين بطباع واحدة، لا الصديقين ولا الزوجين؛ فليكن الزوجان متباعدين قليلاً، حتى لا يظهر الاختلاف بينهما، وليكن بينهما شيء من الكلفة والرسميات، كما يكون في عهد الخطبة وأوائل الزواج، ولتكتم عنه بعض ما في نفسها؛ فإنه ما تكاشف اثنان إلا اختلفا.

وما زالت الكلفة إلا زالت معها الألفة؛ لأن المرء يتظرف؛ ليظرف، ويتلطف؛ لِيُلْطَف، ويساير الناس؛ ليحبه الناس؛ فإن لم يفعل ثقل عليهم.

وأنا أعرف رجالاً من أهل النكتة والظرف يحرص الناس عليهم في مجالسهم لخفة أرواحهم، وحلاوة أحاديثهم إذا دخلوا بيوتهم كانوا أجهم الناس وجهاً، وأيبسهم لساناً، وأثقلهم نفساً، وما ذاك إلا لإسقاط الكلفة، وإذهاب المجاملة.

وثالثها: أن الرجل يمشي في الطريق فلا يرى إلا نساء في أحسن حالاتهن قد طلين وجوههن، وجمّلن ثيابهن، ثم يدخل داره، فيرى زوجه على شرِّ هيئة، وأقبح صورة: مصفرة الوجه، قذرة الثوب، منغمسة في أوضار المطبخ أو غارقة في غبار الكنس؛ فيظن أن نساء الطريق من طينة غير طينتها، وأن عندهن ما ليس عندها، فيميل إليهن وينصرف عنها.

والدواء أن تكون المرأة عاقلة، فلا تجعله يراها إلا في الهيئة التي تخرج فيها من

بيتها، وتستقبل عليها ضيفها، ولا تدعه يبصرها نائمة[١] ولا يراها بغير زينة، ولا يطلع عليها في مباذلها وأعمالها.

ورابعها: أنه لا بد من كل شركة أو جماعة من رئيس، فإن كان في المركب رئيسان غرق المركب، ولو كان في السماء والأرض إلهان فسدت السماء والأرض؛ فلا بد من ترئيس أحد الزوجين والرجوع عند الاختلاف إلى رأيه، واعتراف الثاني برياسته، وعلى الرئيس بعد أن يكون حاكماً بعدل ورفق، وعلى المرؤوس أن يكون طيِّعاً بفهم واحترام.

وخامسها: أنه لا بد لدوام المودة من اغتنام الفرصة؛ لإظهار العاطفة المكنونة بحديث حلو، أو مفاجأة منه: هدية ولو صغرت، وطرفة ولو قلَّت، واهتمام منها بصحته وراحة نفسه، ومطعمه، وملبسه، وكتبه، وأن يصبر كل منهما على غضب الآخر وتعتبه.

يا سادة: إن مشكلات البيت هيِّنة سخيفة، ولكنها إن استفحلت نغَّصت العيش، وسوَّدت وجه الدنيا، ولم ينفع معها ملك ولا مال؛ فلقد كان الامبراطور نابليون الثالث يجد من مكارهها ما لم ينجه منه ملكه، وكان الرئيس لنكولن يلقى من متاعبها ما لم يخلصه منه سلطانه، وإني لأستأذن السيدات المستمعات بأن أختم هذا الحديث بكلمة لامرأة مثلهن هي (آن شرر). قالت:

«إن بين كل عشر نساء تسعاً يحرصن على مضايقة الرجل، وتنكيد عيشه

---

(١) وجدت هنا لما جئت المملكة ودرست في جامعاتها وجدته في بعض كتب الفقه الحنبلي ولعله كتاب (الإنصاف) فعجبت من بعد نظر مؤلفه، ومعرفة بأسرار النفوس.

ولهن إلى ذلك وسائل لا تحصى، وهن يعتقدن أنه لا عمل للرجل إلا الثناء على جمالهن يومه كله، وامتثال أوامرهن، وإجابة رغباتهن، وإذا رأينه مقبلاً على قراءة أو كتابة أو عمل له اقتحمن عليه مكتبه، ونفضن في وجهه من المنغِّصات ما يحيل عزلته سجناً، وحياته جحيماً».

فيا سيداتي المستمعات: أرجو أن لا تكون فيكنَّ واحدة من هؤلاء!

عاشراً: مقالات في السياسة والاجتماع

٤١ـ الصراع بين الإسلام وأعدائه: للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

٤٢ـ ذوق صحفي بارد: للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

٤٣ـ العرب المسلمون في كراسي الحكم: للعلامة محب الدين الخطيب

٤٤ـ أيها المسلمون: للأديب مصطفى صادق الرافعي

٤٥ـ الحرية: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

٤٦ـ العلماء وأولو الأمر: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٤٧ـ الأنظمة الإسلامية يؤيد بعضها بعضاً: للأستاذ عبدالباقي نعيم سرور

٤١ الصراع بين الإسلام وأعدائه[1] للشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي

الصراع بين الحق والباطل قديم، كان منذ خلق الله البشر، وجعل للأهواء حظاً من السلطان على نفوسهم.

ومن فروع هذا الصراع الصراع بين الإسلام والكفر؛ فقد صرع الإسلام في عُنْفُوان قوّته السماوية الأولى كل ما كان قائمًا من الأديان والنحل الباطلة، ومزّق بنوره وبرهانه الضلالات التي كانت مغطّية على العقول، حتى استقرّ في قرارة من النفوس والأقطار، وضرب بجرّانه في القطعة العامرة من أرض الله.

وأصبح برهانه لائحاً، وبيّناته واضحة، وقوّته غالبة، فإما مسلم وإما مُلْقٍ بالسلم.

و من كلمته العالية أنه جعل فريضة الدعوة إليه كلمةً باقية في أهله تتوجّه إلى الضال، ليهتدي وإلى المهتدي؛ كي لا يضلّ.

فلما ضعفت الدعوة إلى الإسلام في المسلمين بما شاب هدايتهم من ضلال، وما خالط عزائمهم من وهن، ثم تلاشت بتفرّقهم فيه، واشتغالهم بالجدل الداخلي، وغفلتهم عن فوائد الدعوة فيهم وفي غيرهم، وبعدهم عن منبع هدايته الأولى ـ هاجت عليهم دعاياتُ الأديان الأخرى، وما تفرّع عنها من

---

(١) مجلة «الإخوة الإسلامية»، العدد العاشر، السنة الثانية، بغداد، ١شوال ١٣٧٣هـ الموافق ٢جوان ١٩٥٤م، وانظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي جمع وتقديم نجله: د. أحمد طالب الإبراهيمي ٤/٢٨٤ـ٢٨٧.

مذاهب مادية تُغْري بالمادة وتؤلّهها، ومن مذاهب فكرية تغري الفكر المسلم بالمُرُوْقِ من الدين، وَخِلْعِ رِبْقَته، ثم تشعّبت هذه المذاهب الفكرية إلى شعبتين: واحدة تسعى سعيها، وتبذل وسائلها؛ لفتنة المسلم عن دينه وإدخاله في دين آخر، وهذه الشعبة تجعل هدفها أطفال المسلمين الأحداث.

والأخرى تريد المسلم أن يخرج من الإسلام إلى الإلحاد المحض الذي يكفر بالأديان كلها.

وهذه الشعبة تجعل هدفها شباب المسلمين؛ لما يصحب الشباب من قوّة الإحساس، وسرعة التأثّر، وتأجّج العاطفة، والميل إلى الانطلاق.

والشعبتان معاً تلتقيان عند غاية واحدة هي فصل المسلمين ـوهم قوة في العددـ عن دينهم وهو مناط قوّتهم الروحية؛ ليتم للقائمين على الشعبتين استعباد أبدان المسلمين، واستغلال خيرات أوطانهم.

ومَنْ ظنّ مِنْ عقلاء المسلمين وعلمائهم أن هذه الحملة عليهم وعلى دينهم ليستْ مدبرة، وليست منظمة، وليست متعاونة متساندة، وليست مُرْصَدَةً لوقتها، وراميةً إلى هذا الهدف، من ظنّ هذا فأقل درجته أنه مغفل جاهل مغرور.

ولو حافظ المسلمون على فريضة الدعوة في دينهم، وكانت لهم دعاية منظمة يمدّها الأغنياء بالمال، والعقلاء بالرأي، والعلماء بالبرهان المثبت للحقائق الإسلامية، وبالتوجيه لغاية الغايات فيه وهي إسعاد الانسانية وتحقيق السلام بين البشر، والقضاء على الطغيان والعدوان والظلم، وإقامة العدل بين الناس ونشر

المحبة بينهم، لو فعلوا ذلك وحافظوا عليه في كل أطوار الزمن لكانوا اليوم فيصلاً بين الكتلتين المتطاحنتين، وحاجزاً حصيناً بين البشرية وبين الكارثة المتوقعة التي لا تبقي على بر ولا فاجر، ولا مؤمن ولا كافر.

بل إنني أعتقد اعتقادًا جازمًا أنه لو كان للإسلام دعاةٌ فاهمون لحقيقة الإسلام، محسنون للإبانة عنها ولعرضها على العقول ـ لرجعت إليه هذه الأمم الحائرة في هذا العصر، الثائرة على أديانه وقوانينه وأوضاعه؛ لأن أديانه لم تحفظ لهم الاستقرار النفسي والطمأنينة الروحية، ولأن قوانينه الوضعية لم تضمن لهم المصالح المادية ولم تقم الموازين القسط بين طبقاتهم، ولأن الأوضاع العامة لم تحقن دماءهم، ولم تغرس المحبة بينهم؛ فهم لذلك تائهون متطلعون إلى حال تغيّر هذه الأحوال.

وفي الإسلام مايقوم بذلك كله، ويرجع بالناس إليه وإلى اختياره حَكَماً تُرضى حكومتُه لو وجد من يدعو إليه على بصيرة، ويبيّن حقائقه، ويحسن عرضها على العقول ببرهان الواقع والمعقول.

لم يمض على المسلمين في تاريخهم الطويل عهد كهذا العهد في قعودهم عن الدعوة إلى دينهم، وفي هجوم الدعاية الأجنبية عليهم.

والقضيتان متلازمتان في الطباع البشرية الغالبة، وفي طبيعة الاجتماع الذي هو أملك لأحوالهم.

فمن سننه أن مَنْ لم يُدافِع دُوفع، وأن مَنْ لم يُهاجِم هُوجم، وأن من سكت على الحق أنطق غيره بالباطل.

ولم يَمْضِ عليهم زمن تألّبت فيه قوى الشرّ عليهم وتألّفت جنوده على ما بينها من دعوات ومناقضات كما تألّبت في هذا الزمن؛ فالأديان كاليهودية والمسيحية الغربية الاستعمارية، والبوذية، والوثنية، بجميع ألوانها، والمذاهب الاجتماعية المادية كلها أصبحت أَلْباً على المسلمين والإسلام، متداعية إلى ذلك عن قصد واتفاق، صادرة في ذلك عن عهد وميثاق، يسند بعضُها بعضاً، ويُقْرِض بعضُها بعضاً العون والتأييد، وإن العقلاء من هذه الأمم المتعاونة على حرب الإسلام مسوقون بأيدي الساسة الطامعين، والقساوسة المتعصّبين، والملاحدة المستهترين حتى أصبح باطن أمرهم كظاهره، وهو أنهم قوةٌ متحدةٌ لحرب الإسلام يشارك فيها ذو الدين بدينه، وذو المال بماله، وذو العقل بعقله، ويشارك فيها الساكت بسكوته.

لانلوم هؤلاء الأقوام على مايُسِرون من عداوة الإسلام وما يعلنون، ولا على ما صنعوا بأهله وما يصنعون؛ فما اللوم برادّهم على ما هم ماضون فيه بعد أن ابتلوا سرائرنا وامتحنوا ضمائرنا؛ فوجدوها عوراتٍ ومنافذَ خاليةً من الحراسة التي يعرفونها عنا، ومن المناعة التي يتوقّعونها منَّا؛ فسدّدوا الغارة على ديارنا، فاكتسحوها، وشدّدوا الحملة على خيرات أوطاننا، فاستباحوها، ثم شنّوا غارة أفجر وأنكر على عقولنا؛ ليمسخوها؛ إذ بذلك وحده يضمنون التمتّع بخيراتنا، والتلذذ باستعبادنا.

لا نلومهم على ذلك؛ فما منهم إلا موتور من هذا الإسلام في ماضيه وأحد أطوار تاريخه، فهو حاقد عليه يتخيّل في شبحه مفوّتاً للعز والسلطان، ومقيدًا

للشهوات في اتّباع الشيطان، أو مانعاً من الانطلاق الحيواني في بغي الإنسان على الإنسان.

وما ينقمون من الإسلام إلا أنه يقيّد الغريزة الحيوانية عن الظلم والتسلط والشهوة، ويفيض عليها من النور السماوي ما يرفعها إلى أفق أسمى.

وهم بعد ذلك عَمُون عما وراء ذلك الذي ينقمونه من خير في الإسلام ونفع، ولا نملك لهم أن يهتدوا إلى ما في الإسلام من عِزٍّ بالله وعدل في أحكامه بين عباده؛ رحمة بهم وإحساناً، وإلى ما فيه من انطلاق ولكن إلى الآفاق العليا الملكية.

إنما نلوم أنفسنا، ونلوم قومنا على التفريط والإضاعة، وعلى إهمال الدعوة لدينهم، والعَرْض لجماله ومحاسنه، وعلى التخاذل في وجه هذه القوة المتألِّبة المتكالبة عليهم وعلى دينهم، حتى أصبح سكوتنا وإهمالنا عوناً لها على هدم ديننا، ومَحْوِ فضائلنا، والقضاء على مقوّماتنا؛ فأغنياؤنا ممسكون عن البذل في سبيل الدعوة إلى دينهم، وكأن الأمر لا يعنيهم وكأن الدين ليس دينهم، وكأنهم لا يعلمون أن هذا التكالب إن استمرّ لا يبقي لهم عِرْضًا، ولا مالاً، ولا متاعاً.

وقد بلغت الغفلة ببعضهم أن يُعِينَ الجمعيات التبشيرية المسيحية بماله، وكأنه يقلّد عدوّه سلاحا قتالاً يقتل به دينه وقومه، ولم يبق عليه من فضائح الجهل إلا أن يقول لعدوّه: اقتلني به.

إننا لا نكون مسلمين حقًا ولا نستطيع أن ندفع هذه الجيوشَ المُغِيرةَ علينا وعلى ديننا تارة باسم العلم، وتارة باسم الخير والإحسان، وأخرى باسم

الرحمة بالإنسان ـ إلا إذا علمنا ما يراد بنا وفقهنا الغايات لهذه الغارات، وتحديناها بجميع قوانا المعنوية والمادية، وحشدها في ميدان واحد هو ميدان الدفاع عن حياتنا الروحية والمادية.

ولا يتم لهذا الشأن تمامٌ إلا إذا أقمنا الدعوة إلى الله، وإلى دينه الإسلام على أساس قوي من أحجار العالم الربّاني، والخطيب الذي يتكلم بقلبه لا بلسانه، والكاتب الذي يكتب بقلمه ما يمليه عقله، والغني المستهين بماله في سبيل دينه، ثم وجهنا هذه الدعوة إلى القريب قبل الغريب، إلى المسلم الضالّ قبل الأجنبي، فإذا فعلت الدعوة فعلها في نفوس المسلمين، وأرجعتهم إلى ربّهم، فاتصلوا به، فتمسكوا بكتابه وهدي نبيّه، وتمجّدوا بتاريخه وأمجاده وفضائله ولسانه ـ كنا قلّدناهم سلاحاً لا يُفَلّ، وأسبغنا عليهم حصانة روحية لا تؤثر عليها هذه الدعايات المضللة، وحصانة أخرى مادية ملازمة لها لا تهزمها الجموع المجمَّعة ولو كان بعضها لبعض ظهيرًا.

المسلمون في حاجة أكيدة إلى دعاية داخلية تهدي ضالهم، وتصلح فاسدهم، تبتدئ من البيت، وتجاوزه إلى الجار والقرية، حتى تنتظم المجتمع كله.

فإذا عمرت القلوب والبيوت والمجتمعات بمعاني الإسلام الصحيحة أعطت ثمراتِها الصحيحة، وجاء نصر الله والفتح؛ ربطاً للوعد بالإنجاز، ووصولاً إلى الحقيقة على المجاز.

و يومئذ تزول هذه الفوارق البغيضة من تلقاء نفسها؛ فلا مذهب إلا مذهب الحق، ولا طريق إلا طريق القرآن، ولا نزعة إلا نزعة المجد والسمو، و لا عاطفة

إلا عاطفة المحبة والخير، ولا غاية إلا نشر السلام والطمأنينة في هذا العالم المضطرب.

لا يأس من روح الله؛ فهذه مخايل نصر، وهذه مبشرات القطر، وهذه طلائع الزحوف الحاملة لراية الدعوة الإسلامية، وهؤلاء عُصُبٌ من علماء الإسلام قائمون بإحياء هذه الفريضة بصدق وإخلاص وتضحية، ومن ورائهم كتائب من شباب الإسلام تفتّحت بصائرهم على نوره يحملون ألسنة قوّالة للحق، وعقولاً جوّالة في ميدان الحق، وإن عددهم كل يوم لفي ازدياد، وإن نجاحهم فيما يمارسونه من الدعوة إلى الله لفي اطراد؛ فما على القاعدين إلا أن ينضمُّوا، وما على الغافين إلا أن يهتموا، ولا على المستيئسين إلا أن يستبشروا ويؤيّدوا، وما على الغافلين عن ذاك الشر المستطير إلا إن ينتبهوا إلى هذا الخير؛ فيعملوا على نمائه وبقائه.

وإن أثمن هدية يقدّمها المسلم إلى هؤلاء الدعاة هي الاهتداء إلى الحق، والاقتداء بأهل الحق.

٤٢ ذوق صحفي بارد[1] للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

تعاني فلسطين «المجاهدة» محنة لا تُحلُّ إلا بعزائم وعقائد وإيمان تظاهرها أموال ورجال، على كثرة مصائبها وتفاوت تلك المصائب في الشدة والنكاية والإيلام، فإنَّ أشدَّ تلك المصائب، وأوجعها إيلاماً، تَحَذْلُق بعض الأقلام في تسميتها بـ«الشهيدة» كأنما تنعاها قبل الموت، ونَعِيق بعض الغربان البشرية بأخبار الهزائم وتسويد بعض الصحف لأطرافها حداداً عليها.

ما هذه التفاهة في الذوق أيها الصحفيون! أماتت فلسطين حتى تصفوها بـ«الشهيدة» وتجلّلوا صحفكم بالسواد حداداً عليها؟.

إن لم يكن فعال فليكن حسن فأل.

إن فلسطين حية، ولكنها تجاهد، ومأزومة، ولكنها تكابد، ولفألكم الخيبة.

أتدرون أن ذوقكم هذا لا يحلو إلاَّ لخصوم فلسطين؟

---

(١) البصائر العدد ٣٥ السنة الأولى من السلسلة ١٩٤٨، وانظر الآثار ١٩٩/٢.

٤٣ العرب المسلمون في كراسي الحكم[1]

للعلامة محب الدين الخطيب

لقد شوَّهت الحزبيات السياسية القديمة، والعصبيات المذهبية الآثمة جمالَ تاريخنا ـ من بدء تدوينه إلى الآن ـ بما عبثت به من حقائق، وما دفنته من مزايا وسجايا وفضائل، وما ابتكرته من أكاذيب، وما صرفته عن وجهه من المعاذير، حتى صار الذين لا يساوون عند الله جناح بعوضة يتطاولون بالنقد، والتنقيص، والثلب، وقلة الأدب على مقامات عظماء من الصحابة الذين قام الإسلام على عواتقهم، وسقيت تربة بلاده بدمائهم، وكان دخول أوطاننا في كيان العروبة والإسلام بعض حسناتهم كما يتطاولون على مقامات عظماء من علماء التابعين وسادتهم وقادتهم وولاتهم ممن نتمنى الآن ـ عند دراستنا تراجم حياتهم ـ لو أن الإنسانية كلها ترزق مثلهم أو أقل منهم في هذا العصر الذي نتبجَّح، فنتشدَّق بتقدمه الصناعي، بينما حكماؤه وعظماؤه يُنْحُون بالمذمة على انحلال المبادئ في أهله، وغلبة الشرور في أفراده وجماعته.

إن الموّهين والمشوّهين من مدوني الأخبار المتقرّبين إلى حكام كل عصر بذمّ خصومهم والسابقين لهم ـ قد حقنوا قلوب الناس جميعاً بالكراهية والبغضاء لمثل مروان بن الحكم، بل لمن هم أعظم منه مقاماً وفضلاً ونبلاً كالخليفة الراشد صهر رسول الله عثمان بن عفان؛ فكان ذلك سبباً في صدّ الأطفال والتلاميذ ـ تبعاً

(١) مع الرعيل الأول ص٢١٤ ـ ٢١٦.

لآبائهم وأساتذتهم ـ عن معرفة ما كان عليه سلفنا من فضائل؛ لأن ما دسه الإخباريون في سيرتهم من أكاذيب قد ابتعدت بسيرتهم عما كانت عليه في الوقائع، فعرضت على أنظار الناس كما أراد شانؤوهم أن يصوّروهم للناس...

ولأجل أن تعرف مروان بن الحكم ـ مثلاً ـ كما كان في الواقع، ننقل هذه الحادثة من تاريخ حياته، ونشير على القارئ أن يبحث في ذاكرته عن أحب الشخصيات إليه ممن تبوَّأوا مقاعد الحكم في أيّ عصر، ولينظر هل بلغ من أحدهم أن يصدر عنه مثل العدل الباهر الذي صدر عن مروان بن الحكم فيما سنقصه من خبره؟

قال أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني (١٣ : ٧٦ بولاق) أخبرني محمد ابن الحسن بن دريد، عن أبي حاتم، عن أبي عبيد أن عبدالرحمن بن الحكم ـوهو أخو مروان لأبيه وأمهـ لطم مولى لأهل المدينة حنَّاطاً، وكان مروان يومئذ والياً على المدينة وله فيها الأمر والحكم، فشكا الحنَّاط عبدَالرحمن بن الحكم إلى أخيه مروان، فما كان من الأمير إلا أن أجلس أخاه ـوهو النبيل الشاعر الوجيهـ بين يديه إلى جانب العبد الحنَّاط وقال للحنَّاط: الطمه كما لطمك!

قال الحنَّاط: والله ما أردت هذا، وإنما أردت أن أعلمه أن فوقه سلطاناً ينصرني عليه. وقد وهبتها لك.

قال مروان: لست أقبلها منك؛ فخذ حقك!

قال الحناط: والله لا ألطمه، ولكني أهبها لك.

قال مروان: إن كنت ترى أن ذلك يسخطني عليك فوالله لا أسخط فخذ

حقك!

فعاد الحناط إلى قوله: قد وهبتها لك، ولست والله لألطمه.

فقال الأمير: لست والله قابلها، فإن وهبتها فهبها لمن لطمك، أو لله -عز وجل-.

فقال: قد وهبتها لله - عز وجل -.

وبذلك انتهت جلسة القضاء والحكم.

ونحب أن يعلم القارئ أن عبدالرحمن بن الحكم من أشراف قريش في الجاهلية والإسلام، وقد علمت أن أخاه أمير المدينة، وأزيدك أن ابن عمه الخليفة بدمشق، وأنه هو نفسه من كبار شعراء قريش.

فإذا كان العدل القائم سلطانه في تلك الدولة قد أوقفه هذا الموقف من حنَّاط معدود في موالي أهل المدينة - أي عبيدهم - فإن مكانة عبدالرحمن بن الحكم في ذاته أباحت له أن يقول لأخيه الأمير في مثل ما يكون بين الأخ وأخيه:

وكلُّ ابنِ أمٍّ زائدٌ غيُر ناقصٍ وأنت ابنُ أمٍّ ناقصٌ غيرُ زائدِ

وهبت نصيبي منك يا مروَ كلَّه لعمروٍ وعثمانَ الطويلِ وخالدِ

ولكن الأخ الذي كانت له هذه الدالة وهذه الجرأة على أخيه في البيت، كانت له - في نظام الحكم الذي كان للعرب في صدر الإسلام - تلك الطاعة التي رأيناها منه يوم أوقفه أخوه في موقف العدل وهو ينتظر أن تقع اللطمة على وجهه من كفّ العبد الحنَّاط الذي يمثّل أحطّ طبقات الناس في المجتمع.

٤٤ أيها المسلمون![1] للأديب مصطفى صادق الرافعي

نهضت فلسطين تَحِلُّ العقدة التي عُقِدَت لها بين السيف، والمكر، والذهب.

عقدةٌ سياسية خبيثة، فيها لذلك الشعب الحرِّ قتلٌ وتخريبٌ، وفقر.

عقدة الحكم الذي يحكم بثلاثة أساليب: الوعد الكذب، والفناء البطيء، ومطامع اليهود المتوحشة.

أيها المسلمون! ليست هذه محنة فلسطين، ولكنها محنة الإسلام، يريدون ألاَّ يثبت شخصيته العزيزة الحرة.

كل قرش يُدفع الآن لفلسطين، يذهب إلى هناك؛ ليجاهد هو أيضاً.

أولئك إخواننا المجاهدون، ومعنى ذلك أن أخلاقنا هي حلفاؤهم في هذا الجهاد.

أولئك إخواننا المنكوبون، ومعنى ذلك أنهم في نكبتهم امتحانٌ لضمائرنا نحن المسلمين جميعاً.

أولئك إخواننا المضطَهَدون، ومعنى ذلك أن السياسةَ التي أذلتهم تسألنا نحن: هل عندنا إقرار للذل؟

ماذا تكون نكبة الأخ إلا أن تكون اسماً آخر لمروءة سائر إخوته أو مذلتهم؟

أيها المسلمون! كل قرش يدفع لفلسطين يذهب إلى هناك؛ ليفرض على السياسة احترام الشعور الإسلامي.

---

(١) وحي القلم ٢/٢٤٠ـ٢٤٣

ابْتَلوهم باليهود يحملون في دمائهم حقيقتين ثابتتين: من ذل الماضي، وتشريد الحاضر.

ويحملون في قلوبهم نقمتين طاغيتين: إحداهما من ذهبهم، والأخرى من رذائلهم.

ويخبؤون في أدمغتهم فكرتين خبيثتين: أن يكون العرب أقليَّة، ثم أن يكونوا بعد ذلك خدم اليهود.

في أنفسهم الحقد، وفي خيالهم الجنون، وفي عقولهم المكر، وفي أيديهم الذهب الذي أصبح لئيماً؛ لأنه في أيديهم.

أيها المسلمون! كل قرش يدفع لفلسطين يذهب إلى هناك؛ ليتكلم كلمة تردُّ إلى هؤلاء العقل.

ابتلوهم باليهود يمرُّون مرور الدنانير بالربا الفاحش في أيدي الفقراء.

كل مائة يهودي على مذهب القوم يجب أن يكون في سنة واحدة مائة وسبعين...

حسابٌ خبيث يبدأ بشيء من العقل، لا ينتهي أبداً وفيه شيء من العقل.

والسياسة وراء اليهود، واليهود وراء خيالهم الديني، وخيالهم الديني هو طردُ الحقيقة المسلمة.

أيها المسلمون! كل قرش يدفع لفلسطين يذهب إلى هناك؛ ليثبِّت الحقيقة التي يريدون طردها.

يقول اليهود: إنهم شعبٌ مضطهد في جميع بلاد العالم.

ويزعمون: أن من حقهم أن يعيشوا أحراراً في فلسطين، كأنها ليست من جميع بلاد العالم...

وقد صنعوا للإنجليز أسطولاً عظيماً لا يسبح في البحار، ولكن في الخزائن...

وأراد الإنجليز أن يطمئنوا في فلسطين إلى شعب لم يتعود قط أن يقول: أنا.

ولكن لماذا كنستكم كل أمة من أرضها بمكنسةٍ أيها اليهود؟

أجهلتم الإسلام؟ الإسلام قوة كتلك التي توجد الأنياب والمخالب في كل أسد.

قوةٌ تخرج سلاحها بنفسها؛ لأن مخلوقها عزيز لم يوجد، ليؤكل، ولم يُخلق؛ ليَذلّ.

قوةٌ وراء قلب مشتعل كالبركان، تتحول فيه كل قطرة دم إلى شرارة دم، ولئن كانت الحوافر تهيئ مخلوقاتها ليركبها الراكب إن المخالب والأنياب تهيئ مخلوقاتها لمعنى آخر.

لو سُئلتُ ما الإسلامُ في معناه الاجتماعي؟ لسَألتُ: كم عدد المسلمين؟ فإن قيل: ثلثمائة مليون، قلت: فالإسلام هو الفكرة التي يجب أن يكون لها ثلثمائة مليون قوة.

أيجوع إخوانكم أيها المسلمون وتشبعون؟ إن هذا الشِّبعَ ذنبٌ يعاقب الله عليه.

والغني اليوم في الأغنياء الممسكين عن إخوانهم هو وصف الأغنياء باللؤم لا بالغنى.

كل ما يبذله المسلمون لفلسطين يدل دلالاتٍ كثيرة، أقلها سياسة المقاومة.

كان أسلافكم أيها المسلمون يفتحون الممالك، ففتحوا أنتم أيديكم.

كانوا يرمون بأنفسهم في سبيل الله غيرَ مكترثين، فارموا أنتم في سبيل الحق بالدنانير والدراهم.

لماذا كانت القِبلة في الإسلام إلا لتعتاد الوجوه كلها تتحول إلى الجهة الواحدة؟.

لماذا ارتفعت المآذن إلا ليعتاد المسلمون رفع الصوت في الحق؟

أيها المسلمون! كونوا هناك، كونوا هناك مع إخوانكم بمعنىً من المعاني.

أيها المسلمون! هذا موطنٌ يزيد فيه معنى المال المبذول فيكون شيئاً سماويًّاً.

كل قرش يبذله المسلم لفلسطين يتكلم يوم الحساب يقول: يا ربِّ، أنا إيمانُ فلان!

٤٥ الحرية[١] للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

استيقظت فجر يوم من الأيام على صوت هرَّة تموء[٢] بجانب فراشي وتتمسح بي، وتلح في ذلك إلحاحاً غريباً، فرابني أمرها، وأهمني همها، وقلت: لعلها جائعة، فنهضت، وأحضرت لها طعاماً فعافته، وانصرفت عنه، فقلت: لعلها ظمآنة، فأرشدتها إلى الماء فلم تحفل به، وأنشأت تنظر إليَّ نظرات تنطق بما تشتمل عليها نفسي من الآلام والأحزان؛ فأثَّر في نفسي منظرها تأثيراً شديداً، حتى تمنيت أن لو كنتُ سليمانَ أفهم لغة الحيوان، لأعرف حاجتها، وأفرج كربتها، وكان باب الغرفة مُرْتَجاً[٣]، فرأيت أنها تطيل النظر إليه، وتلتصق بي كلما رأتني أتجه نحوه، فأدركت غرضها وعرفت أنها تريد أن أفتح لها الباب، فأسرعت بفتحه فما وقع نظرها على الفضاء، ورأت وجه السماء، حتى استحالت حالتها من حزن وهم إلى غبطة وسرور، وانطلقت تعدو في سبيلها، فعدت إلى فراشي وأسلمت رأسي إلى يدي، وأنشأت أفكر في أمر هذه الهرة، وأعجب لشأنها وأقول: ليت شعري هل تفهم هذه الهرة معنى الحرية؛ فهي تحزن لفقدانها، وتفرح بلقياها؟ أجل، إنها تفهم معنى الحرية حق الفهم، وما كان حزنها وبكاؤها وإمساكها عن الطعام والشراب إلا من أجلها، وما كان تضرُّعها

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات المنفلوطي ص١٢٧.

(٢) المواء: صوت الهرة.

(٣) أي مقفلاً (م).

ورجاؤها وتمسحها وإلحاحها إلا سعياً وراء بلوغها.

وهنا ذكرت أن كثيراً من أسرى الاستبداد من بني الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة في الغرفة، والوحش المعتقل في القفص، والطير المقصوص الجناح من ألم الأسر وشقائه، بل ربما كان بينهم من يفكر في وجهه الخلاص، أو يتلمس السبيل إلى النجاة مما هو فيه، بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء في هذا السجن، ويأنس به، ويتلذذ بآلامه وأسقامه.

من أصعب المسائل التي يحار العقل البشري في حلها: أن يكون الحيوان الأعجم أوسع ميداناً في الحرية من الحيوان الناطق، فهل كان نطقُه شؤماً عليه وعلى سعادته؟ وهل يجمل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيداً بحريته كما كان سعيداً بها قبل أن يصبح ناطقاً مدركاً؟

يحلق الطير في الجو، ويسبح السمك في البحر، ويهيم الوحش في الأودية والجبال، ويعيش الإنسان رهين المحبسين: محبس نفسه، ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد.

صنع الإنسان القوي للإنسان الضعيف سلاسل وأغلالاً، وسماها تارة ناموساً وأخرى قانوناً؛ ليظلمه باسم العدل، ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام.

صنع له هذه الآلة المخيفة، وتركه قلقاً حذراً، مروع القلب، مرتعد الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حراساً تراقب حركات يديه، وخطوات رجليه، وحركات لسانه، وخطرات وهمه وخياله؛ لينجو من عقاب المستبد، ويتخلص

من تعذيبه، فويل له ما أكثر جهله! وويح له ما أشد حمقه! وهل يوجد في الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذي يعالجه؟ أو سجن أضيق من السجن الذي هو فيه؟

ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته، بل جنايته الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه، فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية، ولا يذرف دمعة واحدة عليها.

لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه وأدرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من القيود ـ لانتحر كما ينتحر البلبل إذا حبسه الصياد في القفص، وكان ذلك خيراً له من حياة لا يرى فيها شعاعاً من أشعة الحرية، ولا تخلص إليه نسمة من نسماتها.

كان في مبدأ خلقه يمشي عرياناً، أو يلبس لباساً واسعاً يشبه أن يكون ظلة تَقِيْهِ لفحة الرمضاء، أو هبة النكباء، فوضعوه في القماط كما يضعون الطفل، وكفنوه كما يكفنون الموتى، وقالوا له: هكذا نظام الأزياء.

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته، فحالوا بينه وبين ذلك، وملؤوا قلبه خوفاً من المرض أو الموت، وأبوا أن يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب، وأن يقوم أو يقعد أو يمشي أو يقف أو يتحرك أو يسكن إلا كما تقضي به قوانين العادات والمصطلحات.

لا سبيل إلى السعادة في الحياة، إلا إذا عاش الإنسان فيها حرّاً مطلقاً، لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر إلا أدب النفس.

الحرية شمس يجب أن تشرق في كل نفس، فمن عاش محروماً منها عاش في

ظلمة حالكة، يتصل أولها بظلمة الرحم، وآخرها بظلمة القبر.

الحرية هي الحياة، ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شيء بحياة اللُّعب المتحركة في أيدي الأطفال بحركة صناعية.

ليست الحرية في تاريخ الإنسان حادثاً جديداً، أو طارئاً غريباً، وإنما هي فطرته التي فُطر عليها مذ كان وحشاً يتسلق الصخور، ويتعلق بأغصان الأشجار.

إن الإنسان الذي يمدّ يديه لطلب الحرية ليس بمتسوِّل ولا مستجد، وإنما هو يطلب حقاً من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية، فإن ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه، ولا يد لأحد عنده.

٤٦ العلماء وأولو الأمر[(١)] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

يقصد الإسلام لأن يخرج للناس أمة تجلها القلوب، وتهابها العيون، وإنما تجلها القلوب وتهابها العيون على قدر اعتصامها بهدي الله، وعلى قدر ما تأخذ به من مظاهر القوة والمنعة.

ولا تعتصم الأمة بهدي الله، ولا تظهر في قوة ومنعة إلا أن يقيض الله لها علماء، يملأ الخوف من الله قلوبهم، حتى لا يدع فيها للخوف من مخلوق مثقال ذرة، وتظفر مع هذا بولاة يحرصون على أن يقيموا العدل، ويستقيموا على طريق الرشد أكثر من حرصهم على ما تشتهي أنفسهم، وتلذ أعينهم من متاع هذه الحياة.

لهذا عُني الإسلام بأن يكون في الأمة علماء لا يكتمون عن أحد نصائحهم، وأمراء يحبون أن يسمعوا كلمة الحق تتردد في مجالسهم.

والتاريخ الصادق يحدثنا أن بلاد الإسلام قد حظيت بعلماء يزهدون في زهرة الحياة الدنيا، ويبيعونها بكلمة حقٍّ يقولونها؛ ابتغاء أن يكون لها في إصلاح حال السلطان أثر كبير أو صغير.

وحظيت برؤساء يرتاحون لوعظ العالم الأمين، ويسيغونه إساغة الظمآن للماء القراح.

وبمثل هؤلاء العلماء والأمراء تسعد الأمة، ويعظم شأن الدولة.

---

(١) رسائل الإصلاح - ١/٢٢٣.

والتاريخ الصادق قد حدثنا - أيضاً - أن في أهل العلم من فَتَنَتْهُ الدنيا بزخرفها، فانطلق يجري وراءها، لا يرعى للحق عهداً، ولا لجانب الله حرمة. وحدثنا أن في الرؤساء من يكون نصيب اللهو والانهماك في الشهوات منه أكثر من نصيب الجد والرُّشْد.

وإذا حدثنا التاريخ عن أمة ذلت بعد عزة، أو دولة سقطت بعد قوة فَتَبِعَةُ الذل والسقوط ملقاة على رقاب أولئك العلماء الذين لا ينصحون، أو الرؤساء الذين لا يحبون الناصحين.

نلقي نظرة على تراجم العلماء، فنجد حالهم مع الأمراء يجعلهم على ثلاثة أصناف:

أولهم: عالم يضع نصب عينه رضا الله، ويهمه أن يسير أولو الأمر في الناس على استقامة، فيأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر بمرأى ومسمع منهم غير مبال بأن يقع أمره أو نهيه لديهم موقع الرضا والقبول، أو موقع الكراهة، والإعراض عنه.

قيل لمالك: إنك تدخل على السلطان وهو يظلم ويجور؟ فقال: يرحمك الله، فأين يكون الكلام في الحق؟!.

والعلماء الذين يقومون بواجب النصيحة للأمراء يختلفون في أساليب وعظهم؛ فمنهم من يسلك طريق الصراحة، ويشافِهُ الأمير بإنكار ما يريد إنكاره على وجه التعيين؛ حيث يرى أن طريق التصريح والتعيين أبلغ وأقرب إلى نجاح الدعوة.

كان السلطان سليم أمر بقتل مائة وخمسين رجلاً من حفاظ الخزائن؛ فبلغ ذلك الشيخ علاء الدين الجمالي فدخل على السلطان وقال له: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وهؤلاء الرجال لا يجوز قتلهم شرعاً؛ فعليك بالعفو عنهم، فغضب السلطان سليم، وقال للشيخ: إنك تتعرض لأمر السلطنة، وليس ذلك من وظيفتك.

فقال: لا، بل أتعرض لأمر آخرتك، وإنه من وظيفتي؛ فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فعليك عقاب عظيم؛ فانكسرت سورة الغضب في نفس السلطان، وعفا عن أولئك الرجال الذين كان قد أمر بقتلهم.

ومن العلماء الحكماء من يسلك في وعظ الأمراء طريقاً غير صريح؛ إذ يراه كافياً في إبلاغ النصيحة.

قدم الشيخ أبو بكر بن سيد الناس حاضرة تونس في عهد المنتصر بالله، ولما دخل على الأمير أمره أن يقرأ بين يديه آية من القرآن، فقرأ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ فاستحسن المنتصر قراءته، وقصدَه، وكان ذلك سبب حظوته، ورفع منزلته عنده.

ومن العلماء من يأخذ في نصحَ الأمراء بالعزيمة، ويوطِّن نفسه على احتمال كل ما يمكن أن يلاقيه من أذى.

وقد صبر رجال من كبار أهل العلم أيام فتنة القول بخلق القرآن، على ما أصابهم في الدين من أذى، واحتملوا أشد العذاب، مثل نعيم بن حميد الذي

توفي في سجن الواثق، وأحمد بن نصر الخزاعي الذي قتل في عهد الواثق، وأحمد بن حنبل الذي سجن وضرب في عهد المعتصم، ومثل أبي يعقوب البويطي الذي حمل مقيداً من مصر إلى العراق حتى مات في أقياده.

ومن العلماء من يرى أن له فيما يلحقه من الأذى عذراً في السكوت، وعدم التعرض للسلطان بأمر أو نهي، ويصح أن يقال: إن هؤلاء قد أخذوا بالرخصة، وليس لهم من قوة الصبر على الأذى ما يحملهم على أن يأخذوا بالعزيمة، ويجاهروا بالدعوة إلى حق أو إصلاح.

وإذا جاز للعالم أن يسكت عن الأمر أو النهي؛ اتقاء لأذى لا طاقة له به فليس له أن يكتم الحق لمجرد الخوف من أن يجفوه السلطان، أو يبعده من مجلسه، أو يحرمه من ولاية منصب.

ثانيهم: عالم يذهب مذهب العزلة والبعد من ساحات الأمراء؛ حتى لا يقف بين يدي ذي نخوة وتعاظم، ومن هؤلاء من يقول:

إن صحبنا الملوك تاهوا علينا ... واستخفوا كبراً بحق الجليس

فلزمنا البيوت نستخرج العلم ... ونَمْلا به بطون الطُّروس

وملاقاة النخوة والتعاظم ليست عذراً يبيح للعالم القعود عن إسماع الأمراء النصيحة، فقد دخل موسى ـ عليه السلام ـ على فرعون؛ ليدعوه إلى الحق وكان فرعون متكبِّراً جبَّاراً.

وقد يبتعد العالم عن الأمراء الذين لا يعنون بتنقية ساحتهم من أقذاء النكرات؛ كراهة أن يشاهد منكراً.

وقد يكون هذا الابتعاد حكمة متى عرف العالم أنه لا يستطيع النصح بإزالة ذلك المنكر، وأنه لا يجتني من رؤيته إلا حسرة وأسفاً.

وقد يكون الاقتراب خيراً من الابتعاد متى قصد بالاقتراب إيصالَ النصيحة إليهم، عسى أن تجد أذناً واعية أو نفساً زاكية، وكان أبو الحسن الأشعري يقصد إلى مجالس المعتزلة؛ ليناظرهم، ويقول: هم أولو رياسة منهم الوالي والقاضي، ولرياستهم لا ينزلون إليَّ، فإذا لم أسر إليهم، فكيف يظهر الحق، ويعلمون أن لأهل السنة ناصراً بالحجة؟

ثالثهم: عالم يتردد على ساحة الأمراء، ويميل مع أهوائهم، وربما بلغ به الإغراق في ابتغاء مرضاتهم أن يحرِّف أحكام الله عن مواضعها.

ومثل هذا الصنف من العلماء لا يرجى منهم أن يبسطوا ألسنتهم إلى السلطان بنصيحة.

ولهذا الصنف جنايات على الدين، وعلى الأمة، وعلى الأمراء أنفسهم؛ أما جنايتهم على الدين فلأنهم يختلقون أحكاماً يلصقونها بالدين وليست من الدين.

وأما جنايتهم على الأمة فلأنهم يسهلون على الولاة السير بالسياسة في طريقة عمياء.

وأما جنايتهم على الأمراء أنفسهم فلأن الأمة إنما تَفْتَحُ صدورها لمحبة أمرائها، وتبذل لهم حسن الطاعة من جميع أفئدتها متى ساروا في رَشَد، وساسوا الناس بقوانين العدل.

ونحن نعلم أن العصور تتغيَّر، وأن مقتضياتها تختلف، ولكن الحق هو الحق،

والكرامة هي الكرامة؛ فلا يأتي عصر يفقد فيه الحق جلالَه، ولا يأتي عصر يبيح للعالم أن يداهن السلطان، ولا أن يغمض عن شيء من كرامته.

وإنما هي التربية الدينية الصحيحة تُرِي العالمَ وجهَ الحق مشرقاً؛ فلا يرضى إلا أن يحميه بيده أو لسانه، وتريه منزلتَهُ شامخةَ الذُّرى؛ فيأبى أن ينزل عنها، ولو وضعت الشمس في يمينه، والقمر في يساره.

يحدثنا التاريخ القديم أن بعض المنتمين إلى العلم كانوا يتملقون أولي الأمر من المسلمين، وقد يفتونهم بغير ما أنزل الله، ويحدثنا التاريخ غير القديم أن من المنتمين إلى العلم من يتملق بعض المخالفين الغاصبين، ويرضى أن يكون جسراً يعبرون به إلى قضاء مآربهم التي يكيدون بها الإسلام، والمسلمين.

وقد يسمي هذا العالمُ تَمَلُّقه للمخالفين الغاصبين مُداراة؛ ليقضيَ بعض حاجات شخصية، وربما زعم أنه يقضي بهذا التملُّق مصالح وطنية.

والواقع أن اتصال العالم بالمخالفين الظالمين، وهو يستطيع أن لا يتصل بهم وصمة في عرضه لا يغسلها ماء، وجناية على الدين خاصة، والأمة عامة.

أما أنه وصمة في عرض ذلك العالم فلِمَا عُرِف من أن المخالف الغاصب لا يقبل بوجهه، ولا يضع يدَ الصداقة إلا في يد مَنِ اختبر سرائرهم، ووثق من إخلاصهم له.

وأما أنه جناية على الدين فلأن ذلك الاتصالَ الآخذَ اسمَ الصداقة خروجٌ عن الدين الذي ينهى عن مودة أعدائه.

وأما أنه جناية على الأمة عامة فلأن هذا العالم لا يتحامى أن يرضى أولئك

المتغلبين المخالفين بالمساعدة على أعمال يفسدون بها على الأمة أمر دينهم أو دنياهم.

ونلقي بعد هذا نظرة في حال الأمراء مع العلماء الذين يجاهرونهم بالنصيحة، أو يؤثرون الحق على أهواء الأمراء، فنجدهم ثلاثة أصناف:

أولهم: أمير تلقى إليه النصيحة فيأخذه التعاظم بالإثم، ويقابل الناصحين بوعيد أو بعقوبة المجرمين.

وقد يدعو بعض الأمراء بعض العلماء إلى حرام، فلا يجيبه إلى ذلك، فيناله بالعقوبة، ويتلقاها العالم بصبر جميل: دعا أحمد بن طولون القاضي بكار ابن قتيبة لخلع الموفق من ولاية العهد للخلافة، فامتنع، فحبسه، وما زال يكرر عليه القول وهو لا يجيبه إلى ذلك، حتى مرض ابن طولون وأمر بنقل بكار من السجن إلى دار اكتُريت له.

ثانيهم: أمير يجد في صدره الحرج من إسماعه الموعظةَ تأتي على غير ما يهوى، ولكنه يهاب مكان العالم؛ فلا يقابله بأذى: استدعى أبو جعفر المنصور عبدالله بن طاوس بن كيسان ومالك بن أنس، فلما دخلا عليه أطرق ساعة، ثم التفت إلى ابن طاوس، وقال له حدثني عن أبيك، فقال: حدثني أبي أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله ـ تعالى ـ في سلطانه، فأدخل عليه الجور في حكمه، فأمسك أبو جعفر ساعة، قال مالك: فضممت ثيابي؛ خوفاً أن يصيبني دمه، ثم قال له المنصور: ناولني تلك الدواة، قال ذلك ثلاث مرات، فلم يفعل، فقال له لم لا تناولني؟ فقال: أخاف أن تكتب بها معصية؛ فأكون قد

شاركتك فيها!

فلما سمع ذلك قال: قوما عني، قال: ذلك ما كنا نبغي!

قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم.

ثالثهم: تأخذه اليقظة وصفاء الفطرة إلى طاعة الحق وشكر الدعاة إليه: دخل عز الدين بن عبدالسلام إلى السلطان أيوب نجم الدين وقال له: ما حجتك عند الله إذا قال لك: لم أبق لك ملك مصر ثم تبيح الخمور! فقال: هل جرى هذا؟ قال: نعم، الحانةُ الفلانية تباح فيها الخمور وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة! فقال: أنا ما علمته، ثم أمر السلطان بإبطال تلك الحانة.

ودخل ابن شهاب على الوليد بن عبدالملك، فسأله الوليد عن حديث: «إن الله إذا استرعى عبداً لخلافة كتب له من الحسنات ولم يكتب له من السيئات» فقال له: هذا كذب، ثم تلا ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ الآية.

فقال الوليد: إن الناس ليغروننا عن ديننا.

ولما ولي عمر بن عبدالعزيز الخلافة كتب طاوس بن كيسان إليه: «إن أردت أن يكون عملك خيراً فاستعمل أهل الخير».

فقال عمر: «كفى بها موعظة».

ومن الأمراء الذين كانوا يوسعون صدورهم لنصح العلماء عبدالرحمن الناصر؛ فقد كان القاضي منذر بن سعيد يواجهه بإنكار ما يراه من أعماله منكراً، كخطبته التي ألقاها على مسمع منه في إنكاره عليه الإسراف في الإنفاق على بناء القصور وزخارفها.

ومن مواقف منذر بن سعيد في هذا السبيل دخولُه على الناصر، ومخاطبتُه بالبيتين:

يا بانيَ الزهراء مستغرقاً أوقاتَه فيها أَمَا تمهل

لله ما أحسنها رونقاً لو لم تكن زهرتها تذبل

ولم يزد الناصر على أن قال: «إذا سقيت بماء الخشوع، وهب عليها نسيم التذكار، لا تذبل إن شاء الله».

ولقبول الأمراء لنصح العلماء فضل لا يقل عن فضل قيام العلماء بنصيحة الأمراء، فإن النفوس ولاسيما الشاعرة بما لديها من قوة ومقدرة على البطش شأنها النُّفورُ مِنْ أن تُؤْمَرَ بمعروف أو تُنْهَى عن منكر؛ تتخيل أن ذلك الأمر أو النهي يتضمن نسبتها إلى الجهل، أو القصد إلى ارتكاب أمر قبيح؛ فإن تَلَقَّى الأميرُ نصيحةَ العالمِ الأمين، وأساغها على ما فيها من مرارة ـ دلَّ ذلك على أنه يُجل الحقَّ، ويبتغي الخير، ويريد أن يفتح لحرية القول باباً طالما أغلقه المستبدون الظالمون.

ولا تبلغ الأمم مراقيَ المنعة والسيادة إلا أن يكون باب الحرية مفتوحاً في وجوه الدعاة المصلحين.

يُقْدِمُ العالمُ الأمينُ على نصح ذي السلطان؛ غيرة على الحق، وحرصاً على أن يكون ذو السلطان كاملَ السيرة طيب السمعة.

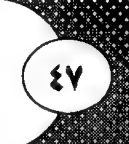
وكثير من الأمراء مَنْ يفهم وعظ العلماء على هذا القصد، ويكون في نفسه نزعة إلى الاستقامة؛ فيتلقى الإرشاد بارتياح وشكر.

الأمراء المستقيمون يرتاحون لوعظ أهل العلم، ومنهم من يطلب من أتقياء العلماء أن يزودوه بالوعظ، كما كان عمر بن عبدالعزيز وأمثاله يفعلون ذلك.

يعظ العلماء المستقيمون الأمراء؛ فيساعدونهم على أن يكونوا أمراء راشدين، ويستطيع الأمراء أن يلاقوا العلماء بما يساعدهم على أن يكونوا علماء مصلحين، وسبيل هذه المساعدة أن يُجِلُّوا العلماء، ويُفْهِموهم أنهم يُجِلُّونهم لعلمهم واستقامتهم، ثم إذا استفتوهم في واقعة طلبوا منهم أن يبينوا لهم حكم الله الذي تدل عليه نصوص الشريعة أو أصولها دلالةً تطمئن إليها النفوس.

وإذا استبانوا أنَّ عالماً فقد الخشية من الله، وأخذ يبتغي مرضاتهم بتحريف النصوص أو تلقط الأقوال الساقطة ـ عدوه في جماعة المنافقين، وأشعروه بأن مثل هذا النفاق لا يزيدهم عندهم إلا حقارة، ثم كانوا منه على حذر.

وبمثل هذه السيرة يصل الأمير العادل إلى أن يرى المعاهد العلمية، والمحاكم الشرعية طافحة بعلماء تزدهر به مملكتُهُ ازدهارَ السماء بالكواكب النَّيِّرة.



الأنظمة الإسلامية يؤيد بعضها بعضاً[1]

للأستاذ عبدالباقي نعيم سرور

كان **النظام الإسلامي** - يوم كان قائماً ومعمولاً به - **يحمي بعضه بعضاً**؛ فالتكاليف الخاصة بإقامة حكومة عادلة، وبالأخوة الإسلامية، وبالتواصي بالحق والصبر، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبحماية الدعوة الإسلامية، وصيانة الشريعة من العبث بها، وردِّ عاديةِ المعتدين عليها كان من شأنها أن تحمي التكاليف الفردية، وهي العقائد والعبادات؛ فكل اعتداء يقع على العقائد، أو يصيب العبادات كان يدفع عنهما بما سنه الإسلام من أنظمة؛ حماية الشريعة، وصيانة الملة.

في الإسلام تكاليف موجهة إلى الأفراد، وتكاليف موجهة إلى الأمة، ومجموع التكاليف هو النظام الإسلامي، فالعقائد، والصلاة، والصيام، تكاليف موجهة إلى الأفرادِ، وحمايةُ الشريعةِ وصيانتُها تكاليف موجهة إلى الأمة.

كانت الأمة الإسلامية عزيزة الجانب يوم كانت قائمة بالتكاليف التي وجهت إليها من إعداد العدة، وأخذ الحذر واليقظة، ومن فهم سياسة العدو، ومن إقامة الجهاد، ومن نشر الدعوة الإسلامية، ومن جعل أمرهم بينهم شورى، ومن إقامة حكومة عادلة تسوس أمرهم وتحمي شريعتهم، ومن جعل العلائق بين المؤمنين قائمة على الولاء والمودة، ومبنية على المناصرة والمؤازرة، ومن الأمر

(١) الحديقة ٥/ ١٨٢ - ١٨٧، عام ١٣٤٩هـ

بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة العدل، وتقرير المساواة.

كانت هذه التكاليف مطلوبة من الأمة؛ لتكون أمة قوية عزيزة ذات حكومة شورية عادلة، وكان مما طولبت به الحكومة - التي هي نائبة عن الأمة في القيام به - حماية الشريعة، وصيانة الملة من هجوم الهاجمين، واعتداء المعتدين، وكانت التكاليف الفردية - أي العقائد والعبادات - في حرز منيع؛ لأن الأمة ساهرة، والحكومة حامية، فالنظام الإسلامي يؤيد بعضه بعضاً، ويدفع بعضه عن بعض.

مر على المسلمين زمن أهملوا فيه العناية بالتكاليف الموجهة إلى الأمة؛ فضعف هذا الجانب، وأخذت الأمة تنحدر كلما أهملت فرضاً من فروض الكفاية الموجهة للمجموع، ووصل الانحدار غايته حينما قام بفكر المسلمين أن المسلم متى قام بالتكاليف الفردية؛ فآمن بالعقائد، وأدى العبادات - فقد فرغ من التكاليف، وأصبح من عباد الله الصالحين، وإن كان قد أغفل جميع التكاليف التي خوطب المجموع بها.

ساد هذا الاعتقاد في القرون الأخيرة؛ فضعف أمر الجهاد أو زال، وضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضعفت العناية بالشورى، وضعفت حماية الشريعة، وذهبت العناية بصيانة الملة، وفُقِدَ الاهتمام بفروض الكفاية؛ فضعف شأن المسلمين، وذهب من بينهم الولاء والتناصر، وذهبت بذهاب هذا كله وحدتهم، فلم يعودوا أمة كما كانوا في الصدر الأول، بل صاروا أفراداً متخاذلين وشيعاً متفرقين؛ فجاءهم العدو، فوجد قوة فانية، وضعفاً قاتلاً، وأفراداً لا تعرف معنى التناصر؛ فاحتل ديارهم، واستعمر بلادهم، وشرعت أنظمته تحتل

الأنظمة الإسلامية.

فحينما ظهر الملحدون ونعق ناعقوهم وشرعوا يهاجمون التكاليف الفردية، وتناولوا العقائد بالجرح، والتشهير، واستهزؤوا بالعبادات ـ أخذ المسلمون يتلفتون وراءهم كيما يجدوا نظاماً يحمي عقائدهم وعباداتهم، فلم يجدوا شيئاً...

لم يجدوا النظام الذي يقرر حماية الملة، وصيانة الشريعة؛ لأن النظام الأوروبي احتل مكانه، وهو لا يريد حماية العقيدة الإسلامية، وليس موضوعاً لذلك، وليس في طبيعته ما يدعوه إلى حماية نظام إسلامي، وليس بينه وبين العقائد الإسلامية رحم وقربى.

فرَّط المسلمون يوم أهملوا العناية بالتكاليف الموجهة إلى الأمة، ويوم سمحوا بضياع التكاليف التي تجعل منهم أمة عزيزة غيورة على دينها وملتها.

لم تكتف الأنظمةُ الغربية باحتلال الأمكنة التي كانت تشغلها الأنظمة الإسلامية، بل فكرت، وسعت في مطاردة التعليم الديني من المدارس المدنية، وعلَّمت على أن يخرج التلميذ المسلم من المدرسة وهو يجهل العقائد والعبادات الإسلامية، وبذلك تكون قد حاربت التكاليف الفردية ـ أيضاً ـ كما حاربت التكاليف الاجتماعية والسياسية والتشريعية، فيتم الغزو الأوروبي للإسلام في جميع مظاهره.

فإذا لم يتنبه المسلمون، ويجتمع المفكرون منهم للنظر في تلك الحالة ووضع علاج لها، وإذا لم يعملوا على إحياء التكاليف الاجتماعية من النظام الإسلامي في الوطن الإسلامي الذي لا يزال محتفظاً باستقلاله ـ فإنه يخشى على البقية الباقية

أن تزول.

إن الخطر شديد، وإن العدو قد طرق جميع الأبواب، إنه يعمل بيقظة وانتباه، والمسلمون نائمون متفرقون، وأخشى أن يصدق عليهم قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾.

نسأل الله أن يوفق رجالات العالم الإسلامي لإنقاذه من هذا الخطر؛ إنه على ما يشاء قدير[١].

(١) لو قال: على كل شيء قدير (م).

حادي عشر : مقالات في الإصلاح والدعوة إلى الله

٤٨ ادع إلى سبيل ربك[١] للعلامة الشيخ النخلي[٢]

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

أقيم الإصلاح على قاعدة الدعوة إلى السبيل التي جرت سنَّة الله في خلقه بأن تكون مدرسة يدرس بها النوع الإنساني العقائد الحقة، والملكات الفاضلة، والأعمال الصحيحة، التي تثمر العمران في العاجل، والفوز بالوعد والأمن من الوعيد في الأجل؛ حتى يرتقي الإنسان رقيَّيْهِ: الجسمانيَّ والروحانيَّ.

وهنالك تتم حكمة الله البالغة في خلقه في أحسن تقويم، واستخلافه في الأرض.

ولما كان الإنسان محكوماً بطبعه، لما غُرز فيه من الفواعل الثلاثة: فاعلِ عقله، وفَاعلِ شهوته، وفاعل غضبه، يتصور فيشتهي، فيستعمل كل وسيلة لتناول مشتهاه، فيدفعه بنو أبيه[٣]، فيغضب، فيجادل، ويصاخب، وينازع، ويقاتل حتى ينقلب الهدوء اضطراباً، والصفاء كدراً، والسلم حرباً، وحتى تختضب الأرض بدمه، وتجره شهوته إلى عدمه ـ صار محتاجاً إلى من يعدِّل أفكاره، إلى من يعدِّل شهواته، إلى من يعدِّل غضبه، إلى من يلائم بين صفاته المعنوية وشِياته

---

(١) مجلة السعادة العظمى، عدد ٥، المجلد الأول ص٥٧، غرة ربيع ١٣٢٢هـ.

(٢) أحد أعيان المدرسين في جامعة الزيتونة.

(٣) يعني بهم بني آدم(م).

الحسية؛ حتى يصير إنساناً حقيقيّاً ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ البقرة.

الداعي إلى سبيل ربك إنسانٌ طبعت في مرآة عقله حقائقُ الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر، وأطلَّ على معقبات الأمور ونتائج الحوادث من مَرْقَبٍ عالٍ، وتسلطت نفسُه الناطقة على قواه الحيوانية؛ فهو مَلَك في صورة رجل، ووافد الآخرة في لباس أهل الدنيا، لم تنزع به شهوته إلى الاستئثار بالحطام، بل ربما حرم نفسه منها، وقد أمكنه نيلُ الملك والجاه، ولم يدفعه قاسرُ الغضب إلى الانتقام إلا بقدر ما يحفظ هيكل حقٍّ، أو يعفيَ رسمَ باطلٍ، حقق في بني جلدته كُنْهَ الداءِ، وجهز له بحكمته الموهوبة ناجع الدواء.

وعلى الجملة مواهبُه كلُّها ربانية، وتصرفاتُه بأسرها شرعية، بهذه الصفات العلى كان أهلاً لخطاب الربِّ الأعلى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

الإحاطة بالمصالح الدنيوية والاطلاع على أمور الآخرة فوق متناول العقول، وخارج عن دائرة الفكر الإنساني الذي ألف المحسوس، وشهوات النفوس؛ فبعث الله الأنبياء مبشرين ومنذرين؛ ريثما تأخذ الدعوة إلى سبيل ربك مستقرها

من العقول، وتُهبُّ الناس من نومة الغفلة، وتنشط من مرقد الخمول، وتتجه إلى الوجهة التي أرادها اللطيف الخبير، ثم يلتحق ذلك النبي بربه، تاركاً لقومه تراث دينه باقياً فيهم تستقيم شؤونهم ما أقاموا عليه، ويلتئم شعثهم ما تظافروا على العمل به: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾.

من ضرورة بقاء الدين قيام العلماء الحكماء، حافظين لجوهره النفيس، عارفين بقيمة ما استحفظوا عليه.

العلماء ورثة الأنبياء، بحيث إن المعالي التي نسختها أمة الدين في عهد النبوة، والمفاخر الجمَّة التي أحرزتها بسرِّ الوحي - يرتبطان ارتباطاً محكماً ببقاء هذا الصنف من العلماء.

ولا أسوق لك من التاريخ إلا عدلاً مبرزاً وهو عصر الخلافة الزاهر، فإذا رأيت زلزلة أركان، وتداعي بنيان، وتقلُّص ظلال، وحيرة من أودية ضلال - فاعلم بأن هاته الطائفة قد سكنت القبور، واستقبلت يوم النشور، وأن أهواء تغلبت على سلطنة العقول، وبدعاً انصبغت بصبغة أحكام الدين، وأحدقت بالأمة ذات الشمال وذات اليمين.

الإصلاح بالدين يقدر عليه من عرف طبيعة الدين، وخبر سنة سيد المرسلين، وسبَر سيرة الصحابة والتابعين؛ لا من كان دأْبه الجمود على الموجود، والتمسك بالمألوف؛ لأنه هو المعروف، فإذا حذَّرته الحوادثُ مكامن الردى، وأخذ بيده التاريخ إلى معالي الهدى، ووعظه خطيبُ الوجود أن يعيد النظر في

سيرة رجال دينه، وأن يترك مكابرة يقينه ـ أخذته العزة بالإثم، وكانت حجته القاطعة «فسد الزمان»، وَمسْلاتُه الوحيدةُ تأففاً وتأسُّفاً، فإذا قلت له: الليل ليل والنهار نهار، والكتاب والسنة محفوظان، وأقوال الأئمة مدونة، ووسائل الفهم حاضرة؛ فهلم إلى العمل ـ أجابك جواب العاجز الكسلان: لا أقدر على ذلك.

العالم المرشد محتاج إلى كبر الهمة، ومضاء العزيمة، وثقافة الفكر، وانطلاق اللسان في فنون البيان، لا يهنُ لملم أن يصيبه من النكبات، ولا يقف لما يعترض سعيه من العقبات؛ فإن التأثير على الأفكار، واندفاع العزائم إلى الوجهة التي يدعو إليها متوقفان على مجموع ذلك؛ ولهذا قلما وعظ واعظ فأنعش أرواحاً، وأذهب أتراحاً، وجلب أفراحاً؛ فالنتيجة أنه لا إصلاح يلائم بين الضرتين الدنيا والآخرة إلا بدين، ولا دين إلا بالعلم، ولا علم إلا بالعقل وكبر همة؛ لهذا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ الآية.

الحكمة: هو الكلام الصواب الواقع من النفوس أجمل موقع، يبعث النفوس من أجداث الجهالة والخمول، يُنبت في قلوبها حدائق ذات بهجة، ينجيها من سِباع شهواتها المغتالة، يفكها من أغلال معتاداتها القتالة، يدفعها إلى عظائم الأمور، بهمة لا يتخللها فتور.

وهذا النوع من الدعوة لصنف مخصوص من الناس، أهل هذا النوع أصحاب النفوسِ المشرقةِ القويةِ الاستعداد لإدراك المطالب العالية السريعة الانجذاب لعرفان اليقين على تفاوت مراتبهم ـ أيضاً ـ.

الموعظة الحسنة: هي الخطابات المقنعة، والعبر النافعة تسيم العامة مراتب

العمل الصالح، وتردُ بهم مناهل السعي النافع، وتعدل بهم عن المرتع الوخيم والمورد الذميم، وتؤكد لُحمة الإخاء بين الطوائف، وتحكم حلقات الارتباط بين الأباعد، وتسوق الجماعة إلى الجهة التي يقصدها العليم الخبير.

وهذا النوع من الدعوة لصنف مخصوص ـ أيضاً ـ وهم العامة أصحاب النفوس الكدرة الضعيفة الاستعداد، المحبوسة في قفص المحسوسات، المقيدة بقيود الرسوم والعادات، لم يتميزوا على من سواهم ممن شاركهم في أخص أوصافهم إلا بسلامة عقولهم من مرض العناد.

الجدال بالتي هي أحسن: هو المناظرة بالرفق واللين، واختيار الوجه الأيسر، واستعمال المقدمات المشهورة، يُلجم أفواه المبطلين، يُغل يدَي من يروم أن يبذر بذور الشبه بين المحقين، يسكن سَكَنَ المشاغبِ، يطفئ بها المعاني.

وبالجملة فهو سجن المعاندين بجريمة العناد التي ارتكبوها، وعقابها الأليم على الشاغبة التي بَرْقَشوها.

وهذا النوع ـ أيضاً ـ لصنف مخصوص، وهم الذين يجادلون بالباطل؛ ليدحضوا به الحق؛ لما غلب عليهم من تقليد الأسلاف، ورسخ في أذهانهم من العقائد الباطلة؛ فصار بحيث لا تنفعهم المواعظ والعبر، بل لابد من إلقامهم الحجر بأحسن طرق الجدال؛ لتلين عريكتهم، وتزول شكيمتهم.

وللطيفة جليلة قال القرآن: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ لأن الجدال ليس من الدعوة في شيء، وإنما هو سلاح يقاوم به أهل الباطل كما علمت.

على هذه القاعدة القرآنية قامت هياكل الإصلاح الديني في النوع الإنساني،

وبِعَمَلَتِهِ الحكماء تمَّ المشروع العمراني، وقد دلت الآية دلالة ساطعة على وجوب مراعاة مراتب المخاطبين، ودرجة استعدادهم لقبول المطالب الدينية إلا ما تساوت الأذهان في إدراكه.

وإياك أن تفهم اختلاف المكلفين في المكلَّف به بل هو واحد، والمكلفون متساوو الأقدام فيه، وإنما الكلام على المسالك التي تسلك للوصول إليه؛ فهي التي تختلف باختلاف درجات الأذهان كما صرح بذلك الغزالي.

وبهذا يظهر جليَّاً أنه لا تشنيع على السعد في جعله قوله -تعالى-: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ دليلاً إقناعيَّاً على الوحدانية، وإن كان أحسن منه أن يكون برهاناً يقينيَّاً.

وفي هذه الآية تعميم للمعلمين، وعظة للواعظين أن يأتسوا بالقرآن؛ فيجب على المعلم أن يعتبر درجات الأذهان، وطبقات التلامذة، وأن يسلك الطرق السهلة للتحصيل؛ إذ المقصود من التعليم هو انطباع صورة المعلوم في ذهن المتعلم، فعلى المعلم أن يحتال على طريقة سهلة تفضي إلى انتقاش المسألة في ذهن تلميذه على الوجه الأكمل، وذلك مضبوط في ثلاثة أمور: اجتناب اللفظ الغريب والتركيب المعقد، رعاية استعداد المتعلم، اعتبار مرتبته في ذلك العلم.

بهذا الأسلوب الحكيم المستنبط من القرآن يثمر التعليم ثمرته المقصودة منه، ويمكن للتلميذ أن يملأ وِطابَه[1] من دروس أستاذه، ويذوق حلاوة العلم، فينهض من الابتداء إلى التوسط إلى الانتهاء، والموضوع طويل نرجئه لفرصة

---

(١) الوِطاب: في الأصل سقاء اللبن، ويريد بذلك ملء وعاء عقله من العلم (م).

أخرى، وإنما نقول اليوم: إن التعليم الفاسد كما أنه مخالف لسنة الفطرة، حيث لا يأتي بالنتيجة المطلوبة ـ ليس على طريقة القرآن ينبوع الهدى والبيان.

وأما الموعظة الحسنة التي هي وظيفة الخطيب اليوم، فينبغي أن تكون مناصحة محضة بعبارة تجمع بين التأثير والإفصاح، مؤسسة على أساس الكتاب والسنة الصحيحة، مُتَفَتِّقة كمائمها عن حقائق المصلحتين الأخروية والدنيوية كالزراعة والتجارة والصناعة، بصفة أن الشارع يُرغّب فيها، ويَعِدُ بالثواب عليها.

وفي الموضوع بحث جليل نؤخره لعدد آخر.

وهذه الطرق الثلاث التي أُمر النبي أن يدعو بها إلى سبيل ربه في الصناعات الثلاث المنطقية: البرهان، والخطابة، والجدل.

أما الصناعتان الأخريان وهما المغالطة والشعر فقد نزَّه عنهما القرآن كما نزه عنهما من نزل عليه القرآن؛ ذلك لأن المغالطة جهل، أو تجهيل، وضلال، أو تضليل، وهو لا يتفق مع الإرشاد والمناصحة، والشعر تخييلي وإغراق وتهويل، وهو إلى الكذب أقرب منه إلى الصدق، بل مداره على الكذب حتى قيل: أعذبُ الشعر أكذبُه ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ فنزاهة الرسول عن الشعر من حيث إنه يستدعي إيراد القضايا التخيلية، ومجافاة الحقائق الثابتة.

ولما كان الشعر بلباسه العربي يعتمد وزناً وقافية نزه عنه الرسول مطلقاً؛ سدّاً لباب الظِّنّة والزيادة تحقيقاً لمعجزة الإرسال؛ لذلك ينبغي لمن تَصدَّرَ للتعليم والإرشاد أن يجتنب المغالطة والتخييل؛ لأنه في مقام بيان حقائق العلوم، وأن يقرع باب التعليم بما قرع به النبي ﷺ باب الدعوة إلى سبيل ربه كما أمر به ربه؛

فكم رأينا من مقالة شعرية يعزوها صاحبها إلى هداية علمية وما هي منها في قبيل ولا دبير.

أما ما ورد من الآي الكريمة مما جاء على الأوزان الشعرية، فقد قام بتحرير جوابها صاحب هاته المجلة الغراء مستوفي البيان، ولكن الجواب بالقصد الأول لا محيص عنه في بعض الآيات كقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ آل عمران: ٩٢، فإنه موزون ولو بزيادة النون إذ هو من مجزوء الرمل المسبغ الضرب وبيته يا (خليلي اربعاً واستخبرا ربعاً بعسفان).

وهذا الموضوع الذي وفقنا الله لخوض عبابه يتشعب إلى أغراض كثيرة لا نضيع البحث عنها كلما سنحت فرصة والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

٤٩ الانتقاد[١] للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

سألني بعض الأصدقاء عن رأيي في الانتقاد، وشروطه، وحدوده، وآدابه وواجباته، ورأيي فيه ألا شروط له ولا حدود، ولا آداب ولا واجبات، وأن لكل كاتب أو قائلٍ الحقَّ في انتقاد ما يشاء من الكلام، مصيباً كان أم مخطئاً محقاً أم مبطلاً، صادقاً أم كاذباً، مخلصاً أم غير مخلص؛ لأن الانتقاد نوع من أنواع الاستحسان والاستهجان، وهما حالتان طبيعيتان للإنسان لا تفارقانه من صرخة الوضع، إلى أَنَّة النزع[٢].

وكل ما هو طبيعي فهو حق لا ريبة فيه، ولا مراء فإن أصاب الناقد في نقده فقد أحسن إلى نفسه وإلى الناس، وإن أخطأ فسيجد من الناس من يدله على موضع الخطأ فيه ويرشده إلى مكان الصواب منه، فلا يزال يتعثر بين الصواب والخطأ، حتى يستقيم له الصواب كله.

فإن أبينا عليه أن ينتقد إلا إذا كان كفؤاً في عمله، ومخلصاً في عمله كما يشترط عليه ذلك أكثر الناس ـ فقد أبينا عليه أن يخط سطراً واحداً في الانتقاد، وقضينا على ذهنه بالجمود والموت؛ لأننا لا نعرف لهاتين الصفتين حدوداً معينة واضحة، فكل منتقد يزعمها لنفسه، وكل منتقد عليه يجرد منتقده منهما، ومتى سمح الدهر لعامل من العاملين بالإخلاص الكامل في عمله، فيسمح به لجماعة

---

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة الموضوعة ص٥٥٦ ـ ٥٥٩.

(٢) يعني من أول ولادته إلى حين مماته (م).

المنتقدين؟!.

على أن المنتقد الناقم لا تمنعه نقمته من أن يكون مصيباً في بعض ما يقول؛ لأنه لم يأخذ على نفسه عهداً أن يختلق جميع المآخذ التي يأخذها، وألا يكتب إلا الباطل والمحال، وإنما هو رجل عياب بالحق وبالباطل؛ فهو يفتش عن السيئات الموجودة حتى يفرغ منها؛ فيلجأ إلى السيئات المختلقة.

ولقد كُتِب أول انتقاد في التاريخ بمداد الضغينة والحقد؛ فقد كانت توجد في عصور اليونان القديمة طائفة من الشعراء يجوبون البلاد، ويتغنون بالقصائد الحماسية، والأناشيد الوطنية في الأسواق والمجتمعات، وبين أيدي الأمراء والعظماء؛ فيكرمهم الناس ويجلونهم إجلالاً عظيماً، ويجزلون لهم العطايا والهبات؛ فَنَفَسَ عليهم مكانَتَهم هذه جماعةٌ من معاصريهم من الذين لا يطوفون طوافهم، ولا يَحْظَون عند الملوك العظماء حَظْوَتَهم، فأخذوا يعيبونهم، ويكتبون الكتب في انتقاد حركاتهم وأصواتهم، ومعاني أشعارهم، وأساليبهم، وكان هذا أول عهد العالم بالانتقاد، والفضل في ذلك للضغينة والحقد؛ فلرذيلة الحقد الفضل الأول في وجود الانتقاد، وبزوغ شمسه المنيرة.

كذلك لا يمنع الجاهل جهله من أن يكون رأيه في استحسان الكلام واستهجانه رأياً صائباً، لا بل ربما كان شعوره بحسن الكلام وقبحه ـ متى رزق حظاً من سلامة الذوق، واستقامة الفهم ـ أصح من رأي الأديب المتكلف الذي يتعمل الانتقاد تعملاً، ويتعمق تعمقاً كثيراً في التفتيش عن حسنات الكلام وسيئاته حتى يضل عنهما، ورب ابتسامة أو تقطيبة يمران بوجه السامع العامي عفواً أنفع

للأديب حين يراهما، وأعون له على معرفة مكان الحسنة والسيئة من كلامه من مجلد ضخم يكتبه عالم متضلع بالأدب، واللغة في نقد شعره أو نثره.

وإذا كان من الواجب على كل شاعر أو كاتب أن ينظم أو يكتب للأمة جميعها، أو خاصتها أو عامتها ـ فلم لا يكون من حق كل فرد من أفرادها متعلماً كان أو جاهلاً، أن يدلي برأيه في استحسان ما يستحسن من كلامه، واستهجان من يستهجن منه.

وهل رفع العظماء من رجال الأدب إلى مواقف عظمتهم وسجل لهم أسماءهم في صحائف المجد، إلا منزلتهم التي نزلوها من نفوس السواد الأعظم من الأمة، والمكانة التي نالوها بين عامتها ودهمائها؟

وبعد، **فلا يتبرم بالانتقاد ولا يضيق به ذرعاً إلا الغبي الأبله**، الذي لا يبالي أن يقف الناس على سيئاته فيما بينهم وبين أنفسهم، ويزعجه كل الانزعاج أن يتحدثوا بها في مجامعهم، ولا فرق بين وقوفهم عليها وحديثهم عنها، أو الجبان المستطار الذي يخاف من الوهم، ويفرق من رؤية الأشباح، ولو رجع إلى أَناته ورويَّته لعلم أن النقد إن كان صواباً فقد دله على عيوب نفسه فاتقاها، أو خطأً فلا خوف على سمعته ومكانته منه؛ لأن الناس ليسوا عبيد الناقدين ولا أسراهم، يأمرونهم بالباطل فيذعنون، ويدعونهم إلى المحال فيتبعون.

ولئن استطاع أحد أن يخدع أحداً في كل شأن من الشؤون فإنه لا يستطيع أن يخدعه في شعور نفسه بجمال الكلام أو قبحه، ولو أن الأصمعي، وأبا عبيدة، وأبا زيد، والمبرد، والجاحظ، والقالي، وقدامة، وابن قتيبة، والآمدي، وأبا هلال،

والجرجاني[١] بُعِثوا في هذا العصر من مراقدهم وتكلفوا أن يذموا قصيدة يحبها الناس من شعر شوقي مثلاً لما كرهوها، أو يمدحوا مقالة يستثقلها الناس من نثر «فلان» لما أحبوها، فالحقيقة موجودة ثابتة لا سبيل للباطل إليها، فهي تختفي حيناً، أو تتراءى في ثوبٍ غير ثوبها، ولكنها لا تنمحي ولا تزول.

فلتنطق ألسنة الناقدين بما شاءت، ولتتسع لها صدور المنتقدين ما استطاعت؛ فلقد حرمنا الحرية في كل شأن من شؤون حياتنا، فلا أقل من أن نتمتع بحرية النظر والتفكير.

---

(١) هؤلاء من كبار الأدباء والنقاد في الأدب العربي.

٥٠ مقاصد الإسلام في إصلاح العَالم[١]

للعَلاَّمة الشيخ محمد الخضر حسين

يدخل الفساد في العقائد والآراء والأخلاق، وفيما يُقْصَد به التقرب إلى الخالق - جَلَّ شأنه - فيما يتناوله الإنسان من نحو المطعوم والملبوس، وفي المعاملات الجارية بين الأفراد والجماعات من الناس، بل يدخل الفساد في معاملة الإنسان للحيوان.

وقد دَلَّنا التاريخ أن كثيراً من عقائد الأمم كانت زائغة، وكثيراً من آرائهم كانت مزاعم ينبذها العقل، وأنَّ الأخلاق كانت منحطة.

والتقرب إلى مُبْدِع الخليقة لا يقع على وجهه الصحيح، والتمتع بالمطعومات والملبوسات وما يُتَّخذ من المراكب لا يقف عند الطيبات والزينة وما يوافق الحكمة، ومعاملات الأفراد والجماعات من الناس والحيوان - لم تكن جارية على نظام الرحمة والعدل.

فكان من مقاصد الإسلام تقويم العقائد، وتطهير العقول من المزاعم السخيفة وإصلاح الأخلاق، وشرع العبادات الصحيحة، وبيان الطيبات من الرزق، وما لا يخرج عن حدود الحكمة من نحو الملابس والمراكب، وتنظيم المعاملات على وجه العدل والرفق.

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية الأجزاء الخامس، والثامن، والتاسع من المجلد التاسع، وانظر الدعوة إلى الإصلاح ١٠٤-١٠٦.

أمَّا العقائد فقد أنكر الإسلام على أصحاب الملل الباطلة، وأقام الحجج على بطلان تلك الملل، وقرر العقائد السليمة، وثبتها بالبراهين القاطعة.

حارب عقيدة الشرك بالله، ونهى عما يفضي إليها، كالمبالغة في تعظيم بعض المخلوقات، وصرَّح ببطلان كل عبادة يُتَوجَّه بها إلى مخلوق من نحو صنم، أو كوكب، أو نار، أو حيوان، أو إنسان، ونظر في الأديان السماوية السابقة كاليهودية، والنصرانية، فَدَلَّ على ما طَرَأَ عليها من تغيير، وما دخلها من مبتدعات حتى بعدت عن هداية الله، وأصبحت تلك الأديان في واد، والسعادة في واد.

وأمَّا الآراء فقد قصد الإسلام لتقويمها بطريقة عامة هي نهيه عن التقليد، وحثه على الرجوع إلى العقل، وإقامة العلم على قاعدة الاستدلال، ثم أتى إلى مزاعم كانت ذائعة بين الناس، فنبه على بطلانها، كزعم الشؤم في بعض الأشياء، وكزعم أن خسوف الشمس أو القمر يقع لموت رجل عظيم.

وأمَّا الأخلاق فقد وجَّه إليها الإسلام جانباً كبيراً من عنايته؛ فأنكر الجبن والبخل، والكذب، والخيانة، والرياء، والحسد، إلى غير ذلك من الأخلاق الذميمة، وحثَّ على الشجاعة، والكرم، والصدق، والأمانة، والحلم، والإخلاص، إلى نحو هذا من الأخلاق الحميدة.

وأما العبادات التي هي صلة بين الخالق والمخلوق فقد قرر أوضاعها، ورسم حدودها، ونبه على شروط صحتها، مثل الصلوات، والصيام، والحج، والزكاة، والذكر، ونبه على فساد أعمال قد يحسبها الناس عبادات تقربهم إلى

الله، نبه على ذلك بوجه عام كما قال ﷺ : «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**».

وقصد لكثير من الأعمال الخاصة، فدل على أنها ليست من العبادات في شيء، كشدِّ الرحال للصلاة في مسجد غير المساجد الثلاثة، وكوصل الليل بالنهار في الصيام.

وأمَّا المطعومات، فقد ذكر الطيبات، وأذن في التمتع بها، وذكر الخبائث ونهى عن تناولها.

وأمَّا الملبوسات فقد حرم بعضها، كما حَرَّم على الرجال لبس الحرير، والذهب، والفضة؛ لما في استعمالها من السرف والرفاهية؛ والرجالُ في حاجة إلى الكمال النفسي، وليسوا في حاجة إلى زخرف المظهر.

وإذا كان الحرير والذهب والفضة تزيد في ظاهر المرأة حسناً ـ فإن الرجل لا يباهي إلاَّ بسمو خلقه، واستنارة فكره، واستقامة سيرته، وصلاح أعماله.

وتطوّحُه في النعيم إلى حد بعيد يعود على الرجولة الكاملة بشيء من النقص كثير أو قليل.

وأما المراكب فقد أذن في ركوب بعض الحيوان، كالخيل، والبغال، والحمير، والإبل، ونهى عن ركوب البقر، ويلحق بالبقر كل حيوان يحصل له ما يحصل للبقر من ضرر الركوب عليه.

وأما المعاملات بين الناس، فقد أخذت من شريعة الإسلام أوسع مكان، ونريد من المعاملات ما يجري بين شخصين، أو أشخاص، من نحو عقود البيع

والإجارة، والقرض، والهبة، ويدخل في هذا القبيل مراعاة حقوق الزوجين والأقارب، والأرقاء، والأطفال، فَيُعدُّ في قبيل المعاملات أحكام النكاح، والطلاق، والعتق، والحضانة، والنفقات، والإيصاء.

وأما معاملة الحيوان فقد أخذت جانباً من عناية الإسلام؛ إذ نهى عن تعذيب الحيوان، وحث على الرفق به.

ثم إنَّ الإسلام أرشد إلى أشياء قَصَدَ لها قَصْدَ الوسائل التي لا تتحقق المقاصد الأصلية إلاَّ بها، كالجهاد، وعقوبات الجناة المشروعة للزجر عن الاعتداء على الدين، والنفس، والعرض، والمال، والعقل، وكالشورى؛ فإنها طريق الوصول إلى الحكم العادل، وطريق تدبير الأمور على نهج السداد، وكإطلاق العقل من أسر التقليد؛ لأنه طريق الإيمان الصادق، واستنباط الأحكام الصحيحة، وتوسيع دائرة العلوم على اختلاف موضوعاتها.

فالإسلام لم يقتصر على إصلاح العقائد، وتنظيم الصلة بين العبد وربه، كما يقول بعض من يُظْهِر الإسلام ويُخْفِي الإنكار، بل الإسلام دين سماوي نظر إلى كل ناحية من نواحي الحياة الفردية، والاجتماعية، وقرر لها نظماً مفصلة، أو وضع لها أصولاً عامة، وعدَّ الخروج على هذه النظم وهذه الأصول فسقاً وظلماً، بل سماه في بعض الآيات كفراً كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾ المائدة: ٤٤.

وليس من شكٍّ في أنَّ من خرج على نظم الإسلام وأصوله معتقداً أنَّ ما خرج إليه أقرب إلى الحكمة، وأحفظ للمصلحة ـ فقد خلع طوق الدين الحنيف من عنقه.



من يجدد لهذه الأمة أمر دينها

للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

(١)

أراد الله للإسلام أن يكون خاتمة الأديان والشرائع، وأن يكون لذلك ديناً عامًّا سائرَ البشرِ، وباقياً على امتداد الدهر إرادةً دلت عليها نصوص القرآن، وأيدها متواترُ أفعالِ الرسول ﷺ مما لا يترك مجالاً للشك في نفس المتأمل؛ فلا جرم قدَّر الله للإسلام التأييد والتجديد اللَّذَينِ لا يكون الدوام في الموجودات إلا بهما؛ فكما جُعِل في كل حيٍّ وسائل الدفاع عن كيانه، وهو ضرب من التأييد، وجعل له وسائل لإخلاف ما يضمحل من قوته بالتغذية ونحوها، وهو التجديد- كذلك جعل للإسلام حين أراد حياته؛ فالتأييد بعلمائه يذودون عنه ما يطرقه من التعاليم الغريبة عن مقاصده؛ حتى تبقى مقاصده سالمة واضحة، ومحجته بيضاء للسالكين لائحة، والتجديد بما نفحه من قائمين بدعوته، ناهضين بحجته، صياقل يجلون صفائحه البواتر، وزعماء بِسُرَى الأساحر، وتأويب البواكر.

إن هذه الشريعة إرشادٌ صِرْفٌ، وإن للفضائل والصالحات تضاؤلاً وتخلقاً بكرور الأزمان، وإن لدأب النفوس في المسير حنفاً وانحرافاً إذا امتد الميدان.

من أجل ذلك ضمن الله لهذا الدين حفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ **وإن لحفظه ثلاثة مقامات:**

أولها: مقام الرجوع إلى أصل التشريع عند الإشكال: وهو مقام العمل بآية ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾.

وثانيها: مقام تجديد ما رثَّ من أصول الدعوة: وهو مقام العمل بآية ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

وثالثها: مقام الذب عنه وحمايته: وهو مقام ﴿ إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾.

وكلا المقامين الأولين لا يقفه[1] إلا الفقيه في الدين، وهو المجتهد العارف بالطرق الموصلة إلى الغايات المقصودة من التشريع الإسلامي، بحيث تصير معرفة الشريعة ـ وسائلها ومقاصدها ـ ملكة له أي علماً راسخاً في نفسه، لا تشذ عنه مراعاته، والإصابة فيه عند جولان فكره في أمور التشريع.

وبمقدار ما يكون عدد هؤلاء الفقهاء مبثوثاً بين المسلمين تكون حالتهم قريبة من الاستقامة، كما يكون أمرهم صائراً إلى التضاؤل بمقدار قلة وجود هذا الفريق بين أظهرهم؛ ففي الحديث الصحيح: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله».

قال البخاري: وهم أهل العلم.

وفي الحديث «**العلماء ورثة الأنبياء**» وهو حديث حسن.

وفي الحديث «**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**» وهو حديث ضعيف السند، لكنه صحيح المعنى.

---

(١) لعلها: لا يفقهها، أو لا يفقهه (م).

فوجود هؤلاء العلماء في عصور عدم الاضطرار إليهم، منة من الله -تعالى- على الأمة لتحسين حالها، ووجودهم في حالة اضطرار الأمة عصمة من الله -تعالى- للأمة، ولطف بها؛ لإنقاذها من التهلكة.

وقد يحتاج الدين وأهله إلى الاجتنان بِجُنَّة القوة لحماية الحق، وإقامة الشريعة كما أشار إليه قوله -تعالى-: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾.

فذلك هو موقع المقام الثالث؛ لذلك منح الله الأمة مجدِّداً على رأس كل مائة سنة.

روى أبو داود في سننه في أول كتاب الملاحم: حدثنا سليمان بن داود المهري أخبرنا ابن وهب أخبرني سعيد بن أيوب عن شراحيل بن يزيد المعافري عن أبي علقمة عن أبي هريرة فيما أعلم، عن رسول الله قال: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها دينها**».

قال أبو داود عبدالرحمن بن شريح الأسكندراني: لم يجز[1] به شراحيل. اهـ يعني أن عبدالرحمن بن شريح وقف عند شراحيل ولم يعرفه، فهو في رواية ابن شريح مقطوع، وليس مرفوعاً إلا في رواية ابن وهب.

قال ابن عدي في الكامل: لا أعلم يرويه غير عبدالله - يعني ابن وهب - عن سعيد بن أبي أيوب.

---

(١) لعلها: لم يجزم (م).

ورواه عنه ـ أي عن ابن وهب ـ عمرو بن سوَّاد، وحرملة بن يحيى، وأحمد بن عبدالرحمن بن وهب ابن أخيه ـ أي ابن أخي أبي وهب ـ ولم يروه عنه غير هؤلاء الثلاثة ا. هـ.

فابن عدي لم يطلع على رواية سليمان بن داود عن ابن وهب التي ثبتت عند أبي داود، وبهذا السند رواه البيهقي في سننه، والحاكم في المستدرك.

وذكر ابن السبكي أن أحمد بن حنبل رواه بزيادة «**رجلاً من أهل بيتي يجدد لهم أمر دينهم**».

وظاهر أن زيادة كونه من أهل البيت، من موضوعات الشيعة على العادة؛ لتنحرف بالحديث إلى مهيع الأحاديث المصنوعة في المهدي المنتظر[1].

ومعنى «**يبعث الله من يجدد**» أنه يقيمه، وييسره لهذا المهم؛ لأن حقيقة البعث الإرسال، قال الله ـتعالىـ: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾.

وقال طريف العنبري:

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إليَّ عريفهم يتوسم

ثم تطلق مجازاً على الإقامة والتنصيب، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾.

ومنه قولهم: بعث فلان بعيره، إذا أقامه في مبركه.

وهو المراد هنا؛ لأن الله لا يبعث المجدد بأن يرسله، ولكنه يوفقه، ويرشده،

---

(١) إن كان رحمه الله يقصد أن هناك أحاديثَ مصنوعةً وردت في المهدي فلا بأس، وإن كان يقصد أن الأحاديث الواردة في شأن المهدي مصنوعة فغلط؛ لأن خروج المهدي ثابت بالأحاديث الصحيحة (م).

ويهيئ له.

«ومَنْ يجدِّد» اسم موصول، وهو صادق على من اتصف بِعِلَّتِه، وهو التجديد للدين سواء كان المجدد واحداً أو متعدداً.

ومعنى التجديد إرجاع الشيء جديداً، أي إزالة رثاثته وتَخَلُّقِه، وهو هنا مجاز في إيضاح حقيقة الدين، وتجريده عما يلصق به من اعتقاد، أو عمل، أو سيرة، ليس شيء من ذلك في شيء من الدين، في حال أن الناس يتوهمون شيئاً من ذلك ديناً.

«وأمر الدين» : شأنه، وماهيته.

ودين هذه الأمة الإسلام لا محالة، وهو اعتقاد، وقول، وعمل، وشريعة، وجامعة؛ فتجديده إرجاع هذه الأمور أو بعضها إلى شبابه، وقوته وجدّته.

دعائم الإسلام:

يقوم الإسلام على ثلاثة دعائم لا ينتظم أمره بدونها:

الدعامة الأولى: العقيدة؛ لأن العقيدة الحقة هي أصل الإسلام، وهو المقصد الأعظم المسمى بالإيمان، والذي هو المدخل إلى التدين بدين الإسلام.

ومبنى هذه الدعامة على صحة التلقي لما يجب اعتقاده في الإسلام عن الرسول، ومن البراهين القاطعة التي يهتدي إليها العقل.

الدعامة الثانية: شرائع الإسلام التي لا يستقيم أمر الأمة الداخلة في الإسلام إلا بمتابعتها؛ إذ فيها صلاح أمرهم في الدنيا بانتظام جماعتهم، وسيادتهم، وبها صلاح أمرهم في الآخرة بسلامتهم من العذاب، ومن قول باللسان، وعمل

بالجوارح، ويدخل فيها ضمائرُ قلبيةٌ كمحبة المؤمنين، وسلامة الطوية إلا أنها لما كانت آثارها أعمالاً ألحقت بقسم عمل الجوارح.

ومبنى هذه الدعامة على تلقي الشريعة من لفظ القرآن، ومن سنة الرسول وأعماله، وأفهام أئمة الدين الذين تلقوه صافياً من شوائب الضلالات؛ حيث يكون هذا التلقي سالماً من اختلال نقل الرواة، ومن سوء فهم المنتمين لحمل الشريعة، ومن دخائل الملاحدة، ورقائق الديانة.

الدعامة الثالثة: جامعة الإسلام المسماة بالبيضة: وهي سلطان المسلمين، وقوتهم، وانتظام أمرهم انتظاماً يقيم فيهم الشريعة، ويدفع عنهم العوادي العادية عليه من المجاهرين بعداوته، والمسيئين معاملته من أتباعه الذين يحق عليهم المثل: «**عدوك العاقل خير من حبيبك الأحمق**».

ومبنى هذه الدعامة على إقامة الحكومة الإسلامية في عظمة، وقوة، ومنعة، ونشر الإسلام بالفتوح الصالحة.

وقد رأى الصحابة القتال لإقامة جامعة الشريعة، وذود أهل العقائد الضالة، المريدين حمل الناس على عقائدهم، كالقتال للدفاع عن بثّ الإسلام في أول أمره؛ فلذلك امتشقوا السيوف في الثأر لعثمان، وفي الانتصار لعلي على من خرج عنه، وقد قال عبدالله بن رواحة:

اليوم نضربكم على تأويله   كما ضربناكم على تنزيله

معنى التجديد

تجديد الشيء هو إرجاعه إلى حالة الجدة أي الحالة الأولى التي كان الشيء

عليها في استقامته وقوة أمره؛ وذلك أن الشيء يوصف بالجديد إذا كان متماسكةً أجزاؤه، واضحاً رواؤه، مترقرقاً ماؤه.

ويقابل الجديدَ: الرثيثُ، والرثاثةُ انحلالُ أجزاء الشيء، وإشرافُه على الاضمحلال.

ولقد أفصح عن معنى الجدة والرثاثة قول الشاعر:

قد كان رثّ هوايَ فابـ تسمت فَردَّتْهُ جديدا

فهذا الدين قد أظهره الله -تعالى- ونصره؛ فتكامل أمره حين قال - تعالى -: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾.

فكان في زمن رسول الله ﷺ ديناً واضحاً بيِّناً قويًّاً، لا يتطرقه تضليل، ولا يحول دون نفوذه قويٌّ ولا ضئيل، **وذلك الكمال في أمور**:

أولها: العمل به، وتحقيق مقاصده.

الثاني: نصره وإقامته.

الثالث: انتشاره، وزيادته، وتسهيل بثِّه.

الرابع: حراسته، وحفظه من تدخل الضلالات.

الخامس: دفع نائبة حلت بالإسلام إذا استمرت أفضت إلى طمس معالم الدين، أو إفساد الإيمان، أو ذهاب سلطانه.

وقد تمتد إليه يدُ الرثاثة من إحدى نواحي جِدَّتِه؛ فهو لا يرثُّ من جميع نواحيه؛ لأن الله قد ضمن حفظه، ولكنه قد تتسرب إليه أسباب الرثاثة من إحدى النواحي؛ فَيُشاهد الضعف فيها، فيبعث الله له من يجدده بأن يزيل عنه

أسباب الرثاثة، ويرده جديداً ناصعاً.

فالتجديد الديني يلزم أن يعود عمله بإصلاح للناس في الدنيا: إما من جهة التفكير الديني الراجع إلى إدراك حقائق الدين كما هي، وإما من جهة العمل الديني الراجع إلى إصلاح الأعمال، وإما من جهة تأييد سلطانه.

مُضِيُّ مائة سنة مظنة لتطرق الرثاثة، والاحتياج إلى التجديد:

ليست حكمةُ الله بالمُضَاعة، ولا فعلُه بالعبث؛ فقد أنبأنا رسول الله أن الله يبعث للأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها؛ فعلمنا أن لهذا الأمر أثراً في تطرق الرثاثة إلى بعض الأمور؛ ذلك أن مدة مائة تنطوي فيها ثلاثة أجيال، ويكثر أن يتسلسل فيها البشر آباءاً وأبناءاً وحفدة؛ فإذا فرضنا كمال أمر الدين كان في عصر الآباء عن مشاهدتهم أمره كما نفرضه في عصر النبوة حين شاهد الصحابة الدين في منعة شبابه ـ جاء الأبناء، فتلقوا عن الآباء صور الأمور الدينية عن سماع وعلم دون مشاهدة، فكان علمهم به أضعف.

ومن شأن الجيل إحداث أمور لم تكن في الجيل السابق، لكنهم يغلب عليهم ما كان في الجيل السابق؛ فإذا جاء جيل الحفدة تُنُوْسِيَتْ الأصولُ، وكثر الدخيلُ في أمور الدين؛ فأشرف الدين على التغيير؛ فبعث الله مجدد أمور الدين؛ تحقيقاً لما وعد الله به في حفظ الدين.

وهذا التيسير الإلهي بقيام المجدد على رأس كل مائة سنة تجديد مضمون منضبط، وهو لا يمنع من ظهور مجددين في خلال القرن ظهوراً غير منضبط، فقد ظهر في خلال القرن الأول علي بن أبي طالب وعبدالملك بن مروان وعمر ابن

عبدالعزيز، وظهر في خلال القرن الثاني محمد بن إدريس الشافعي وظهر في خلال القرن الرابع أبو حامد الغزالي.

كيف يكون مبدأ تعيين المائة السنة؟:

جاء في لفظ الحديث أن ظهور المجدد يكون على رأس كل مائة سنة، والرأس في كلام العرب يطلق على أول الشيء، يقال فلان على رأس أمره، أي أن أمره أُنُفٌ كأنه لم يكن له قبل أمر.

في الحديث أن رسول الله بعثه الله على رأس على أربعين سنة من عمره؛ فيظهر أن المراد في رأس مائة سنة مبدأ مائة سنة؛ فمقتضاه أن يكون العدُّ مِنْ يوم قال الرسول ذلك، إلا أن قرينة قوله: «مَنْ يجددُ لهذه الأمة أمر دينها» دلت على أن ذلك لا يكون ما دام رسول الله بين أظهر المسلمين؛ لأن وجود رسول الله وقاية للدين من الرثاثة، وسلامة له من التخلق؛ فلا يحتاج إلى التجديد؛ فيتعين أن يكون ابتداء العدِّ عَقِبَ وفاةِ الرسول؛ ليحمل لفظ الرأس على ما يناسبه من الأولية بحسب المقام؛ فإن أول كل شيء بحسبه.

ويحتمل أن يراد من رأس مائة مبدأ مائة بعد مائة سنة تمضي بعد اليوم الذي صدر فيه هذا القول من الرسول على حدِّ قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح المروي في صحيح البخاري وسنن الترمذي من حديث الزهري عن سالم ابن عبدالله وأبي بكر بن خيثمة عن ابن عمر أن رسول الله صلى صلاة العشاء في آخر حياته، فلما سلم قام فقال: «**أرأيتكم ليلتكم هذه فإن رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد**».

إذ يتعين أن يكون قوله فيه: «**فإن رأس مائة سنة**» أي مبدأ مائة سنة من تلك الليلة بقرينة السياق.

ولذلك قدَّر شراح الحديث قوله: «**فإن رأس مائة سنة**» أي من تلك الليلة، أي بعد مضيها.

وقد قيل بمثل هذا في إطلاق رأس مائة سنة في قولهم في الحديث بعثه الله على رأس أربعين سنة أي عند تمام الأربعين من عمره الشريف، فيكون ابتداء العدِّ -أيضاً- من يوم قال رسول الله ذلك، ومثال الاحتمالين واحد إلا في عدِّ المرة الأولى من التجديد، وعدِّ أول المجددين.

وأيّاً ما كان فالظاهر أن رسول الله قال ذلك في آخر حياته؛ إذ قد دلت أدلة من السنة على أن رسول الله قد أكثر في آخر حياته من أقوال تؤذن بقرب انتقاله؛ تأنِّياً للمسلمين بتلقي مصيبة وفاته بصبر، وتنبيهاً لهم؛ ليتهيؤوا إلى سدِّ ما تعقبه وفاته من ثلمة في أمور المسلمين، وبشارة لهم بما يعرفون به تولي الله -تعالى- حفظَ هذا الدينِ كما جمعه قوله ﷺ: «**حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم**».

وفي ذلك الغرض جاء قوله - تعالى -: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾، وقوله - تعالى -: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ إلى آخر السورة.

وقد صرح عبدالله بن عمر في حديثه الذي ذكرته آنفاً بأن رسول الله قال: «أرأيتكم ليلتكم هذه...الخ» في آخر حياته، وهو نظير هذا الحديث.

فالظاهر أن رسول الله قال هذا الكلام في شأن المجدد في سنة عشر، أو في سنة

إحدى عشرة من هجرته.

فإن كان المراد من رأس مائة سنة تأتي كما هو الظاهر ـ فالمجدد الأول هو أبو بكر الصديق ﵁ وإن كان المراد رأس مائة سنة تمضي فالمجدد الأول هو من ظهر لتجديد الدين في حدود سنة عشر ومائة من الهجرة.

وكل ذلك يوقنك بأن ما سلكه تاج الدين السبكي في تعيين المجددين للدين، وضبطه ذلك بموافقة وفاة من نَحَلَهُمْ صفةَ المجدد مبادئ مرور المئين من السنين ابتداء من يوم الهجرة ـ **قد أخطأ فيه من وجهين عظيمين وإن كانا خفيين**:

أحدهما: إناطة ذلك بوقت ظهوره، أو انتشار أمره، وقوة عمله في تجديد الدين كما يُفْصِحُ عنه لفظ: **(يبعث)** الواقع في الحديث الذي هو بمعنى يقيم، ولفظ: **(يجدد)** المقتضي أن يكون معظمُ حياةِ المجدد في رأس القرن؛ إذ العمل من أثر الحياة لا أثر الموت.

الوجه الثاني: أنه جعل ابتداء عد رأس القرن من يوم الهجرة، وشأن العدِّ أن يكون من يوم الوعد بذلك؛ فإن اعتبارَ سنة الهجرة مبدأً للقرون الإسلامية أمرٌ اصطلح عليه المسلمون بعد وفاة رسول الله في خلافة عمر؛ فكيف يفسر به كلام واقع قبل ذلك بسنين؟

رأي ابن السبكي في نعت المجدد وزمنه:

قال تاج الدين عبدالوهاب ابن السبكي في كتاب طبقات الشافعية في مقدمته المسهبة وذكر حديث أبي هريرة في المجدد والحديث الذي فيه زيادة **(من أهل بيتي)** وذكر عن أحمد بن حنبل أنه قال: نظرت في سنة مائة فإذا هو رجل من آل

الرسول عمر بن عبدالعزيز، ونظرت في رأس المائة الثانية فإذا هو رجل من آل الرسول محمد بن إدريس الشافعي، ثم قال ابن السبكي: «ولأجل ما في هذه الرواية الثانية من الزيادة ـ أي زيادة من أهل بيتي ـ لا أستطيع أتكلم في المئين بعد الثانية؛ فإنه لم يُذْكَر فيها أحد من آل النبي ﷺ ولكن هنا دقيقة وهي أنا لم نجد بعد المائة الثانية من هو بهذه المثابة، ووجدنا جميع من قيل: إنه المبعوث في رأس كل مائة سنة ممن تمذهب بمذهب الشافعي؛ فعلمنا أنه ابن الشافعي الإمام المبعوث الذي استقر أمر الناس على قوله، وبعث بعده في رأس كل سنة من يقرر مذهبه، ولهذا تعين عندي تقديم ابن سريح في الثالثة على الأشعري؛ فإن الأشعري ـ وإن كان ـ أيضاً شافعي المذهب ـ إلا أن قيامه كان للذب عن أصول العقائد دون فروعها، فكان ابن سريح أولى بهذه المرتبة لاسيما ووفاة الأشعري تأخرت عن رأس القرن إلى بعد العشرين.

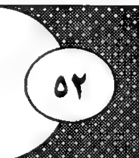
وعندي لا يبعد أن يكون كل منهما مبعوثاً، هذا في فروع الدين، وهذا في أصوله وكلاهما شافعي.

وأما المائة الرابعة فقد قيل: إن الشيخ أبا حامد الاسفرائيني هو المبعوث فيها، وقيل: بل الأستاذ سهل الصعلوكي وكلاهما من أئمة الشافعيين. قلت: والخامس الغزالي، والسادس فخر الدين الرازي، ويحتمل أن يكون الرافعي؛ لأن وفاته تأخرت إلى بعد العشرين وستمائة، والسابع الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد».

هذا حاصل كلام ابن السبكي بعد تجريده من التطويل، وقد قَفى جلال الدين

السيوطي على أثر تاج الدين ابن السبكي، ورجا لنفسه أن يكون هو مجدد المائة التاسعة.

وكلاهما حجَّر واسعاً من نعمة الله؛ فاحتكراها لعلماء الشافعية، ولا أعجب من إسرار السبكي في مطاوي ذلك أن يومئ إلى أن الدين عنده هو مذهب الشافعي إذ يقول: «ووجدنا جميع من قيل: إنه المبعوث في رأس كل مائة ممن تمذهب بمذهب الشافعي؛ فعلمنا أنه ـ أي الشافعي ـ الإمام المبعوث الذي استقر أمر الناس على قوله، وبعث بعده في رأس كل مائة سنة من يقرِّر مذهبه».



من يجدد لهذه الأمة أمر دينها[1]
للعلامة محمد الطاهر بن عاشور

(٢)

وإذ يقول في منظومة له نظم فيها المجددين على حسب اختياره:

هذا على أن المصيب إمامنا أجلى دليلٍ واضح للمهتدي

فابن السبكي ظهر بمظهر التعصب المذهبي، وأتى بدليل مصنوع بيده، فكان هو واضعَ الدعوى وواضعَ الدليل، وقد غفل عن أن هذا يعطل عليه وجود مجدد في المائة الأولى.

ثم إنا نرى معظم مَنْ عَدَّهم السبكي مجددين لا يزيد معظمهم على أن كانوا مدونين مذهبَ الشافعي، وليس ذلك كافياً في وصف المجدد، وأين معنى التجديد من معنى التدوين؟

ولم أَرَ من عني بتحقيق هذا الأمر، ولا عرضه على شواهد التاريخ وأحوال الدهر، وها أنا ذا أبدي ما وقر في روعي من الاختبار في صفة هذا المجدد على العموم، ثم أتبعه بأفراد هذه الأمة الذين انبروا للتجديد في وقت الحاجة، وليس ببدع أن يكون ما أراه في هذا الشأن راجحاً في كفة البيان، فليس الحق بمحتكر، ولا شرب الصواب بمحتضر، والحكم في الترجيح لمحك النظر.

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، الجزء الثامن، المجلد العاشر، صفر ١٣٥٧هـ، إبريل ١٩٣٨م، ص٤٦٣ـ٤٧٤.

التحقيق في صفات المجدد وصنفه وعدده:

لقد صرح الكلام النبوي أن هذا المجدد يبعثه الله ويلهمه لتجديد أمر الدين للأمة؛ **فوجب أن يكون هذا المجدد قائماً بعمل مثمر تجديداً في هذا الدين**، وقد أَبَنْتُ فيما مضى معنى التجديد؛ فيتعين أن تكون لهذا المجدد الصفات التي تؤهله لرتق ما فُتِقَ من أمر الدين في زمنه، فإذا كان الفتق قد طرأ على ناحية من نواحي علم الدين تعين أن يكون المجدد في تلك الناحية عالماً يؤهله علمه لإدراك الدين الحق في الغرض المقصود، وإن كان الفتق قد طرأ على الدين من ناحية وهن نفوذه ووقوف انتشاره تعيَّن أن يكون المجدد في ذلك قادراً على حماية البيضة، ونصر الشريعة، أي نصر الحق من الدين؛ لئلا يدخل في المجددين من قام ينصر نحلة اعتقادية يعتقد أنها الدين وهو فيها زائغ، مثل أبي زيد راكب الحمار، ومثل أبي عبدالله الشيعي داعية المهدي العبيدي، أو لإعلان فتنة وانقلاب دولة تحت اسم الدين مثل مهدي الصومال، والتعايشي.

ويجب أن يكون المجدد في هذا المقام عالماً بالشريعة، وأن يكون مسترشداً بالعلماء؛ ليصادف الحق الذي يتطلبه الشرع.

وإذا كان الفتق الذي اعترى الدين من ناحيتين فصاعداً تعين أن يكون المجدد كفئاً للنهوض بما يتطلبه التجديد في ذلك، مثل أبي بكر الصديق رضي الله عنه في موقف ارتداد العرب.

ثم إن الأظهر أن يكون هذا المجدد واحداً؛ لأن اضطلاعه بالتجديد وهو واحد يكون أوقع؛ إذ يكون عمله متحداً، ويكون أنفذ؛ إذ يسلم من تطرق الاختلاف

باختلاف الاجتهاد في وسائل المقصد، وربما اقتضى حال الزمان أن يكون المجدد متعدداً في الأقطار بأن يقوم في أقطار الإسلام مجددون دعوتهم واحدة، أو يكون رجلان فأكثر متظاهرين على عمل التجديد في موضع واحد.

ولقد جوز ابن السبكي أن يكون ابن سريج وأبو الحسن الأشعري مجددين في نهاية المائة الثالثة: أولهما في الفروع، وثانيهما في الأصول، ولا مانع من قيام رجلين بمهم واحد، فقد أظهر ذلك في أعظم مهم وهو الرسالة، إذ أرسل الله موسى وأخاه هارون إلى بني إسرائيل وفرعون وملئه، وأرسل رسولين لأهل القرية ثم عززهما بثالث كما جاء في سورة يس.

ويشترط أن يكون المجدد قد سعى لعمل في التجديد من تعليم شائع، أو تأليف مثبوت بين الأمة، أو حمل الناس على سيرة، بحيث يكون سعيه قد أفاد المسلمين يقظة في أمر دينهم، فسار سعيه بين المسلمين، وتلقوه وانتفعوا به من حين ظهوره إلى وقت إثماره، سواء كان حصول ذلك دفعة واحدة أم تدريجيًّا.

ويشترط أن يظهر المجدد في جهة تتجه إليها أنظار المسلمين، وتكون سمعتها بموضع القدوة للمسلمين، مثل أن يكون من أهل الحرمين، أو من مقر الخلافة، أو من البلاد التي تعنوا إليها وجوه المسلمين، مثل مصر في بعض عصور التاريخ، ولذلك نجزم بأن مظهر المجددين الذين ظهروا في عصور الإسلام كان هو الشرق؛ إذ يلزم أن يكون عمله نافعاً لجميع الأمة لا لصقع خاص.

وليس يكفي للوصف بالمجدد أن يكون رجاله بالغاً حدًّاً قاصياً في الزهد أو في الصلاح أو في التقوى، ولا بالغاً الغاية في الفقه، ولا كائناً من أهل القضاء

بالعدل؛ لأن تلك صفات قاصرة عليه؛ لذلك نرى عدَّ عمر بن عبدا لعزيز مجدد القرن الثاني غير متجه؛ إذ هو وإن كان بحق خليفة عدل إلا أن الإسلام قبل زمانه لم ترهقه رثاثة، وليت الذين عدوا عمر بن عبدا لعزيز في المجددين عللوا ذلك بأنه الذي أمر بتدوين السنة، وفيه نظر.

التوسم في تعيين المجددين، بحسب أدلة الحق المبين:

لقد قضيت حق البيان في توقيت الزمن الذي نطق فيه رسول الله ﷺ بقوله: «**إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها**».

وأوضحت أنه مما قاله رسول الله في آخر سني حياته المباركة، فقضى ذلك أن يكون ابتداء الحاجة إلى التجديد من وقت وفاة رسول الله ﷺ لأن مدة حياة رسول الله هي مدة أكمل أحوال نماء الدين ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾.

إن وفاة رسول الله أكبر نائبة أصابت المسلمين، فإن رسول الله هو مظهر الإسلام، وكان جميع أحواله نفعاً للإسلام، ولعل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾ إيماء إلى هذا المعنى، إذ قَصَرَهُ على صفة الرسالة؛ فكأنه لا صفة له إلا الرسالة، فوفاته بمنزلة رفع الإسلام من جذوره، وكأن الله أراد أن يظهر بركة رسوله لمحة، فيرى الناس كيف اضطرب أمرهم بموته، حتى لا يكون انتقاله هيناً عليهم؛ لأن عواقب المصيبة تزيدها قوة، فكأن الإسلام قد ذهب مشيعاً روح الرسول، ثم عاد بعد التشييع.

فما شاع نبأ وفاته ﷺ حتى ارتجت المدينة واضطرب أمر الأمة، وهجست

خواطر الشيطان في نفوس الأعراب وحديثي الإسلام، وكاد الخلاف أن يدب بين المسلمين في أمر الخلافة، وأخطر ما فيه توقع دبيب الخلاف بين فريقين لم يختلفا البتة، وهما المهاجرون والأنصار، فكان موقف أبي بكر أول يوم عقب وفاة رسول الله موقف من رتق الفتق، ورأب الثأي، وبه استقر أمر الجماعة في وطن الإسلام، ومدينة أهل الحل والعقد من قادة الأمة، فبايعوا أبا بكر خليفة لرسول الله في تدبير شؤون المسلمين، **فكان ذلك مبدأ تجديد أمر الدين** بعد انفتاق نسيجه، ومبدأ إشادة صرحه بعد أن أشرف على الانهيار.

وما استقر الأمر بضعة أيام حتى ارتدت العرب، وتسرب الانحلال إلى الجامعة الإسلامية، وبقيت سلطة الخليفة قاصرة على المدينة وقليل من القبائل؛ فوجم أبوبكر، وحار المسلمون، فاستشارهم أبو بكر في ذلك، فما أقدموا ارتياء مقاتلة معظم العرب؛ ولكن أبا بكر قد سدد الله رأيه وثبَّت فؤاده فقال: «**والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه، كيف لا أقاتل من فرَّق بيْن الصلاة والزكاة؟ فإن الزكاة حق المال**».

فشرح الله صدر الصحابة إلى تأييد أبي بكر والمقاتلة معه، وامتشق الحسام لنصر الإسلام، فلم يلبث إلا قليلاً حتى هَزَمت جيوشُه جميعَ قبائل الردة، وردَّ للإسلام قوته؛ فكان ذلك أول تجديد للإسلام، وكانت القبائل التي قاتلت معه هم الذين خاطبهم على لسان رسوله بقوله: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنْ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾.

وثاب العرب إلى الرشد، وعاد لهم إسلامهم، وطاعة إمامهم، وكان ذلك

دخولاً جديداً في الإسلام لمعظم قبائل العرب دخولاً لم يخرجوا بعده.

ثم رجع السيف إلى قرابه، واستقر أمر الإسلام في نصابه، وصلح حال المسلمين، وعلم الجميع معنى الإسلام ودوامه، فكان أبو بكر مجدد معنى الرسالة ومبيناً له، ولم يزل الإسلام يعلو، وينتصر، ويفيض على الأقطار كالسيل المنهمر، ففتحت الأمصار، ودُرِّست العلوم، وعَلِم الناسُ أمرَ دينهم، وأمن المسلمون كيد أعدائهم، وانتصبوا لنظام أمرهم، وتأييد أمور دينهم، وتلقي علوم الكتاب والسنة، وتدوين الآثار المروية عن الرسول ﷺ.

وانقضى عصر الصحابة، وحمل العلم من كل قطر عدولُه وأفاضلُه، وصار الناس متعطشين إلى ما يؤثر عن رسول الله وخلفائه، ومصيخين لكل من يقول: قال رسول الله، فتهمم بالرواية أقوام كثيرون، وصار التصدي والتلقي غاية أهل الألباب، ولكن تفاوت الأفهام وتباينها في الضبط والتقوى قد حدا بقوم إلى الاستكثار من الرواية عن رسول الله، والاستهتار بحب الإغراب في ذلك، وبالإصغاء لكل من يتظاهر بأن له علماً بسنة، أو تفسيراً لآية؛ فكثر الدخيل، وعظم القال والقيل، وتفطن علماء الأمة لهذا الخطب الجليل، وبدأت الشكاية من تساهل الضعفاء وغلاة الرواة تئن بها صدور أهل العلم والضبط، ففي صحيح مسلم أن عبدالله بن عباس قال: «إنا كنا مدة إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله، ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف».

لقد تصدى للرواية عن رسول الله، ولتفسير القرآن أصنافٌ من الناس في

العلم؛ فمنهم أهل الضبط والتحري من أهل الفقه والإفتاء والرواة، ومنهم أصحاب التساهل من أصحاب السِّيَر المتبعين لكل ما جاء فيه من أثر، ومنهم الوعاظ الذين تعلقوا ما يناسب دعوتهم من الآثار، وأبهجهم ما أعانهم من أثر يروى يعضد مقصدهم، ومنهم القصَّاص في المساجد والنوادي، والمتجولون في الحواضر والبوادي، يُلْقون إلى اللفيف ما تقبله عقولهم، وتبلغ إليه أفهامهم، فيتوخون أن يلتقطوا من المرويات كل ما يسهل على العامة قبوله، ويطابق ما في مخيلاتهم وإن كان ضعيف المعنى واللفظ، ومنهم أهل الأهواء والنحل الذين تعمدوا الكذب على رسول الله، أو تساهلوا بحسب جرأتهم على التدليس والترويج؛ فقد وضع الكَرّامية[1] عشرة آلاف حديث.

فكانت أهل هذه الأصناف الأخيرة غير مكترثين بالبحث عن صحة نسبة الآثار المروية إلى رسول الله ﷺ كاكتراثهم بمناسبة الآثار لأغراضهم، وحب الشيء يعمي ويصم، وهنالك اختلط الحابل بالنابل والخاثر بالزباد، ولم يزل تفاقمه في ازدياد، حتى بلغ السيل الزبى، وكادت أن تذهب السُّنَّةُ أيادي سبا.

ولم تزل طائفة من الأمة ظاهرين على الحق، باحثين عن مراتب الخلق، متهممين بانتقاد ما صح عن رسول الله من الآثار، لم يخل عن طائفة منهم قطر من الأقطار، إلا أن جمهرة هؤلاء كانت من علماء المدينة، يتلقى الخلف عن السلف رواية الصحيح؛ إذ كانوا عاكفين على معاهد الرسول وآثاره، سالمين مما تطرق من الابتداع في بعض أقطاره، والإيمان يأرِز إليهم، وسنة الرسول شائعة

---

(١) هم أتباع محمد بن كرام (م).

بين ظهرانيهم، وانحصر ذلك في فقهاء المدينة ورواتها، وهم عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وسعيد ابن المسيب، وسليمان بن يسار، وخارجة بن زيد، وأبو بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم، ولحق بهم محمد بن شهاب الزهري؛ فكانوا قدوة الرواة.

ثم انحصر علمهم في مالك بن أنس عالم المدينة، فأزبد عنده ذلك المخض، وأفصح عن الخالص المحض، فانفرد في زمنه بحمل السنة الصحيحة، وعرض المرويات على محك النقد، وكان اعتماده في النقد من ثلاث معايير: عمل أهل المدينة، وقواعد الشريعة، وصفات الرواة، ولم تجتمع هذه المعايير لغير مالك.

وكان ظهور مالك في أوائل القرن الثاني في حدود سنة ١١٢ لأن مالكاً قد نبغ وهو شاب، وكانت ولادته سنة ٩٣ وقيل ٩٦ فيكون في حدود سنة ١١٠ قد بلغ الحلم أو تجاوزه.

قال شعبة: دخلت المدينة بعد موت نافع فإذا لمالك حلقة، وموت نافع سنة ١١٧.

وقد اتفق العلماء من أهل عصره على تأويل ما روي عن رسول الله بروايات متقاربة في سنن الترمذي، وكتاب النسائي، ومسند أحمد بن حنبل ومستدرك الحاكم ومسند الشافعي من قوله ﷺ: «**يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة**» أنه إشارة إلى مالك بن أنس، قال بذلك سفيان بن عيينة، وابن مهدي، ويحيى بن معين، وابن المديني، وجمع كثير.

ثم إن ما بلغه مالك من توقير خلفاء الدولة العباسية، وبرّهم إياه، ووقوفهم عند نصائحه، مع ما كان له من شدة على المتساهلين في الحديث وتلقي السنة - قد أعان على نفاذ أصوله في تحمل الحديث، ومكّنه من التقريع والتأديب لكل من يبلغه من المتساهلين والمبتدعين وأهل الأهواء.

وحسبك أن المنصور أبا جعفر قد همَّ همًّاً قويًّاً على أن يأمر الناس في أقطار الإسلام باتباع ما في الموطأ دون غيره؛ فانثال الناس على الأخذ عن مالك.

وقد اختص بأشياء لم تأت لغيره، وهي التعمير، وكثرة الآخذين عنه، وتفرقهم في سائر الأمصار، وإعلانه بطريقته، وتزييف الطرائق المخالفة لها، واجتماع إمامة الفقه والحديث فيه؛ وهذه صفات لم يشاركه فيها غيره ممن كان يدانيه في صحة الرواية مثل يحيى القطان، وسفيان بن عيينة، وشعبة بن الحجاج، وعبدالرحمن بن مهدي، مع شدته في متابعة أصوله، لا ينحرف عنها قيد أنملة.

ولأجل تخليد عمله، وتخطيط طريقه ألف كتاب الموطأ، وهو أول كتاب ألف في الإسلام، فذلك كله عيَّن عندي أن يكون مالكٌ مجددَ أولِ القرن الثاني.

وأرى أنه لم يشاركه أحد في تجديد أمر الدين من ناحية لحقت الدين منها رثاثة، فطريقة مالك رحمه الله هي التي كانت الطريقة المثلى للتمييز بين الصحيح والسقيم من الآثار، وقد ذهب بها جُفاء ما طرأ على الرواية من الخلل، وقد أصبحت تلك الطريقة مسلوكة إلى يومنا هذا؛ فهو مجدد طريقة، وأصل عام في التحمل.

وما فرغ المسلمون من علم قواعد التحمل، ومعرفة المقبولين والضعفاء والمدلسين حتى طفحت الروايات عليهم من كل مكان، فمن صحيح وعليل، وأصيل ودخيل، فأصبح الناس في حيرة في مقام التمييز، لاحتياجه إلى علاج بوسائل القواعد، وذلك على الناس عزيز، فكانوا بحاجة إلى تدوين كتاب يجمع صحاح الآثار في كل نوع من أنواع التشريع، ويدحض ما عداها، فكان محمد ابن إسماعيل البخاري للأمة شمس هداها؛ إذ ألف الجامع الصحيح فاطمأنت نفوس المؤمنين، وألغوا كل معروف بالوضع وكل ظنين.

كان ابتداء ظهور عمل محمد بن إسماعيل البخاري في مبتدأ القرن الثالث من يوم قال رسول الله ﷺ مقالته تلك، أعني في حدود سنة ٢١١ وقد كان هذا التجديد لناحية من الرثاثة في الدين، وهي رثاثة التساهل في الحديث من حيث جزئيات الأحاديث لا من حيث الأصل الكلي؛ فذلك وجه غير الذي لمالك، وإن جرى على أصل مالك؛ لأن البخاري جدد طريقة تمييز أعيان الأحاديث، ومالكاً جدد طريقة تأصيل قواعد الأخذ للسنة، وتخريج الأحاديث التي هي أصول للتفقه في الدين من صحيح الآثار.

هكذا مضى المسلمون آمنين في طريق نقل الآثار الشرعية، ومسالك التفقه في الدين والتفريع فيه؛ فظهر الحق من الباطل، واستبانت السنن من الابتداع، فكان أهل السنة وأهل الحق غالبين من يغالبهم من أهل الأهواء والبدع الذميمة، وكان العلم الغالب في تلك القرون هو النقل والآثار، ولم يكونوا بحاجة إلى تجديد في علم الفقه، ولا في علم التوحيد.

وفيما هم على تلك الحال من الهدى إذ نبعت فيهم فئات يخوضون في أصول الدين خوضاً يشوب الأدلة الشرعية بالأصول الفلسفية، ويعلنون أن الحق هو الذي يجب أن يكون رائد المسلم في أصول الاعتقاد، ويردُّون الأدلة السمعية التي تخالف الأصول التي أصلوها ردًّا بالتأويل أو الإبطال، وكانوا قد درسوا ما ترجم من علوم الأوائل، وأصبحت مبثوثة بينهم وبين أتباعهم، وصاروا يتبجحون على مخالفيهم بأنهم لا ثقة بعلومهم؛ لعدم ارتياض عقولهم بالعلوم الحقيقية، فدخلت بذلك على الأمة فتنٌ في عقائدها كانت أولاها فتنة القدر، ثم فتنة خلق القرآن، وتبعتها فتنة الاستثناء في الإيمان، وفتنة صحة إيمان المقلد، وفتنة خلق الأفعال، وغيرها.

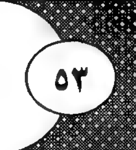
فوجم أهل السنة وجمة عضوا عندها على اعتقادهم بالنواجذ؛ فرثَّ الإسلام من ناحية العقيدة استدعت رحمة الله بأهله، وضمانه لحفظه، لأن يقيض من يذبُّ عن السنة، ويزيف مذاهب أهل الأهواء بنصب أدلة من نوع مما موَّهوا به على الناس وذلك هو إمام المسلمين الشيخ أبو الحسن الأشعري[1].

كان الشيخ من أتباع مذهب الاعتزال، فأنهضه الله للذب عن السنة، وبين له سقم كثير من أصول المعتزلة، فانبرى لتأييد العقيدة الإسلامية السنية، وكان

---

(١) ليس أبو الحسن الأشعري رحمه الله وحده في هذا بل سبقه بقليل وعاصره أئمة نفوا كثيراً مما ألصق بالدين من بدع، ومن أعظم أولئك إمام أهل السنة أبو عبدالله أحمد بن حنبل رحمه الله الذي وقف سداً منيعاً أمام كثير من البدع، وعلى رأسها فتنة القول بخلق القرآن، بل إن الأشعري رحمه الله لما رجع إلى السنة بعد الأربعين من عمره أعلن أنه على مذهب أحمد بن حنبل (م).

انتقاله إلى أتباع السنة منذ سنة ٣٠٠ وأخذ يدلل العقائد بالأدلة الفلسفية، ويعضد بها الأدلة السمعية فتم عمله في حدود سنة ٣١٠ وتوفي سنة نيف وثلاثمائة وثلاثين، وقيل سنة ٣٣٠ ببغداد، فهو مجدد رأس المائة الرابعة ولا أجدر منه بهذه المزية من علماء ذلك القرن.



من يجدد لهذه الأمة أمر دينها[1]

للشيخ العلامة محمد الطاهر بن عاشور

(٣)

لا بأس على المسلمين بعد ذلك في أمور شرعهم واعتقادهم وسلطانهم، ولكن ما طلع القرن الرابع، ولاح ظله حتى حدثت في الإسلام دول كثيرة، وادعى كل زعيم في صقعه السلطان لنفسه، وضعف أمر الخلافة العباسية لظهور الدولة السمانية فيما وراء النهر، والدولة البويهية في العراق، ودولة بني طولون بمصر، والدولة الصغارية بسجستان وخراسان، ودولة بني حمدان بالموصل والجزيرة والشام.

وفي أول هذا القرن ابتلى المسلمون بولاية الحاكم الفاطمي ملك مصر، وتفاقم حزب غلاة الشيعة بسائر أقطار الإسلام إدلالاً بملوكهم في مصر، وأنصارهم في الأقطار بالعراق والشام، وجباله وبإفريقية، وآلت الحال بالحاكم إلى أن ادعى الإلهية، واستوزر حمزة زعيم الإسماعيلية من الفاطمية، فأصبح المشرق والمغرب في مرج وفتنة من جراء تعدد الدول، وظهور ضلال النحل، وأصبحت قوة دول الإسلام مسلطة على أنفسهم بالحروب الطاحنة التي أزهقت النفوس، وكانت قصاراها أخذاً وردًّا في أصقاع الإسلام، فضعفت السلطنة

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية/ الجزء التاسع/ المجلد التاسع/ ربيع الأول ١٣٥٦هـ - مايو ١٩٣٧م، ص٥٦٣-٥٦٥.

الإسلامية وجاء أعداء الإسلام، وانقطعت الفتوحُ وبَثُّ الدعوةِ الإسلامية الذي كان أمر الدين منذ ظهر الدين.

فظهر السلطان محمود بن سُبُكْتُكِين الغزنوي يمين الدولة؛ صار إليه الملك بغزنة سنة ٣٨٨هـ وكان من أشد الثوار المتغلبين على الدولة العباسية ومسّ بحروبه سائر الممالك التي استبدت على الدولة العباسية.

كان محمود بن سبكتكين بَدَا له في سنة ٣٩٢هـ أن يأتي عملاً يكون كفارة عما فرط منه في ابتداء تأسيس سلطانه من قتال المسلمين؛ فصمم العزم على أن يفتح للإسلام بلاد الهند، فأخذ يستعد لغزو الهند، وهجم على تخومها، وكان يفتح البلاد، ويحمل أهلها على الإسلام.

وكانت الحرب سجالاً، والهدنة تعقب قتالاً، وكان ملوك الهند كلما أحسوا بانصراف يمين الدولة عنهم نقضوا طاعته وكفروا إلى سنة ٤٠٦هـ غزا الهند غزوته الفاصلة، فجهز جيشاً عظيماً، فابتدأ بغزو بلاد الأفغان، ثم اخترق بلاد الهند وعبر نهر الكنك وأوقع ببلاد الهند وقائع عظيمة، فلما رأى ملوك الهند أن لا قِبل لهم بمقاومته اجتمعوا على أن يراسلوه في الصلح، وبذلوا الطاعة له، فتم له استصفاء بلاد الهند في سنتي٤٠٩ و ٤١٠هـ وصارت بلاد إسلام.

واعلم أن يمين الدولة محموداً لم يكن في أعماله خِلْواً عن إرشاد علماء الشريعة؛ فقد كان من أكبر مرشديه الإمام الجليل الأستاذ أبو حامد الإسفرائيني أحمد بن ابي طاهر الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٤٠٦هـ وهو الذي توسط لولدي الخليفة القادر

بالله في ولايته كورة[١] خراسان، وما إليها وتلقيبه يمين الدولة.

وقد جاء في التقليد الذي صدر له من دار الخلافة هذه الفقرة: «وليناك كورة خراسان، ولقبناك يمين الدولة بشفاعة أبي حامد الإسفرائيني».

وكان من جملة العلماء الذين اتصلوا بيمين الدولة أبو القاسم عبدالله القَفَّال[٢] المروزي الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٤١٥هـ وهو الذي صلى بحضرته صلاة لا تصح إلا على مذهب الشافعي ـ والشافعي موافق فيها للجمهور ـ وصلاة تصح على مذهب أبي حنيفة، فرأى السلطان ذلك كافياً في ترجيح مذهب الشافعي في نظر السلطان ترجيحاً خطابياً يناسب أفكار العامة؛ فكانت سبباً في تقلد السلطان مذهب الشافعي.

فالتجديد في صدر هذا القرن تجديد سياسي، وليس تجديداً علمياً إلا من فتنة الحاكم بمصر، وتفشي أنصاره في الشام وجبالها وبعض بلاد العراق والموصل، وتطاوله على أهل السنة أفضى ذلك خلال السنين إلى حدوث المَقَاتِل بين أهل السنة والشيعة فكانت في سنة ٤٠٧هـ فتنة كبيرة بين أهل السنة والشيعة في واسط، وفي القيروان بإفريقية، وكان مثار هذه الضلالات والفتن والمقاتلات الحاكم وأتباعه؛ فيمكن أن نعد في المجددين الرجلين المجهولين اللذين قتلا الحاكم سنة ٤١١هـ بسعي القائد ابن دوّاس، أحد قواد الحاكم بمصر وبإغراء ست الملك أخت الحاكم[٣].

---

(١) كَورَة: هي ما يُسمى في زماننا بالمحافظة. (م)

(٢) ليست واضحة في الأصل، ولعل الصواب ما أُثبت (م).

(٣) واضح أن تلك المقالات في التجديد لم تنتهِ بَعْدُ، ولكن هذا ما يسر الله الاطلاع عليه (م).

٥٤ الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام[1]

للأديب مصطفى صادق الرافعي

كما تطلع الشمسُ بأنواعها فتُفَجِّرُ ينبوعَ الضوء المسمَّى النهار، يولَد النبيُّ فيوجد في الإنسانية ينبوع النور المسمَّى بالدين، وليس النهار إلا يقظةَ الحياة تحقِّقُ أعمالَها، وليس الدينُ إلا يقظة النفس تحقق فضائلَها.

وَرَعَشَاتُ الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون في كلام من النور، وأشعة الوحي في النبي هي قصة الهداية لإنسان الكون في نور من الكلام.

والعامل الإلهيُّ العظيم يعملُ في نظام النفس والأرضِ بأداتين متشابهتين:

أجرام النور من الشموس والكواكب، وأجرام العقل من الرُّسُلِ والأنبياء.

فليس النبي إنساناً من العظماء يقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق، ومع المنطق الشك، ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشريةِ العامة؛ ولكنه إنسانٌ نجميٌّ يقرأ بمثل «التلسكوب» في الدقة، معه العلم، ومع العلم الإيمان؛ ثم يدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها.

والحياةُ تنشئ علم التاريخ، ولكن هذه الطريقة في درس الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ تجعل التاريخ هو ينشئ علم الحياة؛ فإنما النبي إشراقٌ إلهيٌّ على الإنسانية، يُقَوِّمُها في فلكها الأخلاقي، ويجذبُها إلى الكمال في نظامٍ هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب.

---

(١) وحي القلم ٢/٥.

ويجيء النبي فتجيء الإلهية معه في مثل بلاغة الفن البياني، لتكون أقوى أثراً، وأيسر فهماً، وأبدع تمثيلاً، وليس عليها خلافٌ من الحس.

وهذا هو الأسلوب الذي يجعلُ إنساناً واحداً فَنَّ الناسِ جميعاً، كما تكونُ البلاغةُ فنَّ لغة بأكملها؛ هو الشخص المفسر إذا تعسف الناسُ الحياةَ لا يدرون أين يؤمنون منها، ولا كيف يتَهدَّون فيها، فتضطرب الملايين من البشرية اضطرابها فيما تنقبض عنه وتتهالك فيه من أطماع الدنيا، ثم يخلق رجل واحد؛ ليكون هو التفسيرَ لما مضى وما يأتي، فتظهرَ به حقائقُ الآداب العالية في قالب من الإنسان العامل المرئي أبلغ مما تظهر في قصة متكلمة مروية.

وما الشهادة للنبوة إلا أن تكون نفسُ النبي أبلغَ نفوس قومه، حتى لهو في طباعه وشمائله طبيعة قائمة وحدها، كأنها الوضع النفسانيُّ الدقيق الذي يُنْصَبُ لتصحيح الوضع المغلوط للبشرية في عالم المادة وتنازع البقاء، وكأن الحقيقة السامية في هذا النبي تنادي الناس: أن قَابِلوا على هذا الأصل، وصحِّحوا ما اعترى أنفسكم من غلَط الحياة وتحريفِ الإنسانية.

ومن ثمَّ فنبي البشرية كلِّها من بُعثَ بالدين أعمالاً مفصَّلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها، فهو يُعطي الحياة في كل عصر عقلها العمليَّ الثابتَ المستقرَّ تنظِّم به أحوال النفس على مَيْزة وبصيرة، ويَدَع للحياة عقلَها العلمي المتجددَ المتغير تنظِّم به أحوالَ الطبيعة على قصْد وهدى.

وهذه هي حقيقة الإسلام في أخص معانيه، لا يُغني عنه في ذلك دينٌ آخر، ولا يؤدِّي تأديته في هذه الحاجة أدبٌ ولا علم ولا فلسفة، كأنما هو نبعٌ في الأرض

لمعاني النور، بإزاء الشمس نبع النور في السماء.

وكل ذلك تراه في نفس محمد ﷺ فهي في مجموعها أبلغ الأنفس قاطبة، لا يمكن أن تعرف الأرض أكملَ منها، ولو اجتمعت فضائل الحكماء والفلاسفة والمتألِّهين وجُعلت في نِصاب واحد ـ ما بلغتْ أن يجيء منها مثل نفسه ﷺ وكأنما خرجت هذه النفس من صيغة كصيغة الدُرَّة في مَحَّارتها، أو تركيب كتركيب الماس في مَنْجمه، أو صفة كصفة الذهب في عِرْقه، وهي النفس الاجتماعية الكبرى، من أين تَدَبَّرْتَها رأيتها على الإنسانية كالشمس في الأفق الأعلى تنبسط وتَضْحَى.

وتلك هي الشهادة له ﷺ بأنه خاتم الأنبياء، وأن دينه هو دين الإنسانية الأخير، فهذا الدين في مجموعه إن هو إلا صورة تلك النفس العظيمة في مجموعها: صلابتُه بمقدار الحق الإنساني الثابت، لا بمقدار الإنسان المتغير الذي يكون عند سبَبٍ جبَلاً صَلْداً يَشْمَخ، وعند سببٍ آخر ماءاً عذب يجري.

وهو دين يعلو بقوة ويدعو إليها، ويريد إخضاع الدنيا وحكمَ العالم، ويستفرغ همَّه في ذلك، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى.

وفَرْقُ ما بين شريعته وشرائع القوة أن هذه إنما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكُّمها، أما هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلُّبها، وتلك تعمل للتفريق، وهو يعمل للمساواةِ، وسيادةُ الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس العبودية، وغلبة الفضيلة وعملُها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية.

ومن هنا كان طبيعياً في الإسلام ما جاء به من أنه لا فضيلة إلا وهو يطبع عليها صورةَ الجنة بنعيمها الخالد، ولا رذيلةَ إلا وهو يضع عليها صورة النار الأبدية وَقُودُها الناس والحجارة؛ فلا تنظرُ العينُ المسلمة إلى أسباب الحياة نظرةَ الفكر المنازع: يحرص على ما يكون له، ويَشْرَهُ إلى ما ليس له، ويمكُرُ الحيلةَ، ويبدعُ وسائلَ الخداع، ويزيدُ بكل ذلك في تعقيد الدنيا.

بل نظرة القلب المسالم: يخْلع الدنيا ويسخو بكل مضنون فيها؛ فيعفُّ عن كثير، ويعرف الإنسانية ويطمع في غاياتها العليا؛ فيعفو عن كثير، ويُدرك أن الحلال ـ وإنْ حلَّ ـ فوراءه حسابه، وأن الحرامَ ـ وإن غرَّ ـ ليس إلا تعلُّلُ ساعة ذاهبة ثم من ورائه عقاب الأبد.

ويخرج من ذلك أن يكون أكبرُ أغراض الإسلام هو أن يجعلَ من خشية الله ـتعالىـ قانونَ وجود الإنسان على الأرض؛ فمن أي عِطْفَيْهِ التفتَ هذا الإنسان وجد على يمنته ويَسرته مَلَكين من ملائكة الله يكتبان أعمالَه بخيرها وشرها.

وإذا قامت هذه المحكمة الملائكية وتقررت في اعتبار النفس، قام منها على النفس شرعٌ نافذٌ هو قانون الإرادة المميِّزة، تُريد الحسنات وتعملُ لها، وتخشَى السيئات وتنفرُ منها، فإذا معاني الجسد يحكم بعضها بعضاً، لا لتحقيق الحكومة والسلطة، ولكن لتحقيق الخير والمصلحة، وإذا نواميس الطبيعة المجنونة في هذا الحيوان قد نهضتْ إلى جانبها نواميسُ الإرادة الحكيمة في الإنسان، وإذا كل صغيرة وكبيرة في النفس هي من صاحبها مادةُ تُهمَةٍ عند قاضيها في محكمتها، وإذا كلُّ ما في الإنسان وما حولَ الإنسان لا يُراد منه إلا سلامُ النفس في عاقبتها، وإذا

معنى السلام هو المعنى الغالبُ المتصرِّفُ بالإنسانية في دنياها.

وكلُّ أعمال الإسلام وأخلاقِه وآدابه فتلك هي غايتها، وهذه هي فلسفتها، لا يقررها للإنسانية حَسْبُ، بل يغرسها في الوراثة غرساً بالاعتياد والمران الدائم؛ لتكون علماً وعملاً، فتمكِّنَ لسلام النفس بين الأسلحة المسدَّدة إليها من ضرورات الحياة، في أيدي الأعادي المتألِّبة عليها من شهوات الغريزة.

فليس يعمُّ السلام إلا إذا عمَّ هذا الدين بأخلاقه فشمَلَ الأرض أو أكثَرَها؛ فإن قانون العالم حينئذ يصبح منتزَعاً من طبيعة التراحم، فإمَّا انتسخَ به قانونُ التنازع الطبيعي، وإما كسَرَ من شرَّته، ويُولد المولود يومئذ، وتولدُ معه الأخلاق الإنسانية.

تقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس حتى مثقال الذرة من الخير والشر، وضبط ذلك برياضةٍ عملية دائمة مفروضة على الناس جميعاً ـ هذا هو أساس العقيدة الإسلامية، ولا صلاحَ للإنسانية بغيره يردها إلى سبيل قصدها؛ فإن من ذلك تكون الصفة العقلية التي تغلِبُ على المجتمع، وتُجانس بين أفراده، فتوجِّه الإنسانيةَ كلَّها نحو الممكن من كمالها، ولا تزال توجهها نحو ما هو أعلى، وتحكم فاسدها بصالحها، وتأخذ عاصيها بمطيعها، فيصبح المرء ـ وهذا دينُه ـ كلما تقدم به العمر كَمُلَ فيه اثنان: الإنسان والشريعة، ولا يعودُ طالب السعادة النفسية في الدنيا كالمجنون يجري وراء ظله؛ ليُمْسِكه، فلا يدرك في الآخر شيئاً غيرَ معرفته أنه كان في عمل باطل، وسعي ضائع.

والإسلام يحرص أشد الحرص وأبلَغَه على تقرير ذلك المعنى الإلهي العظيم،

لا بالمنطق، ولكن بالعمل، ثم في النفس وعواطفِها، لا في العقل وآرائه، ثم على وجه التعميم، دون الاستثناء والخصوص، وذلك هو سرُّ مشقَّته على النفس بما يفرضه عليها؛ فإن فلسفته أن هذا النفسَ هي أساسُ العالم، وأن النظامَ الخُلُقيَّ هو أساسُ النفس، وأن العمل الدائم هو أساس النظام، وأن روح العمل الدائم تكون فيما يشقُّ بعضَ المشقة ولا يبلغ العُسر والحرج كما تكون فيما يَسْهُلُ بعضَ السهولة ولا يبلغ الكَسَل والإهمال.

وللنفس وجهان: ما تُعلن، وما تسرّ، ولا صدقَ لإعلانها حتى يصدقَ ضميرها، ولا صلاحَ لجهرها حتى يصلُحَ السرُّ فيها، ولا يكون الإنسان الاجتماعي فاضلاً بمشهده حتى يكون كذلك بغيْبِه.

وللعالم كذلك وجهان: حاضرُه الذي يمر فيه، وآتيه الذي يمتد له، ولا يُفلح حاضرٌ منقطعٌ لا يورِّثُ ما بعده كما وَرث ما قبله، وما حاضرُ الإنسانية إلا جزء من عمل الناس في استمرار فضائلهم باقيةً نامية.

وللنظام أيضاً وجهان: نظامُ الرغبة على الطاعة والاطمئنان لها، ونظام الرغبة على الخشية والنُّفْرة منها، ولا يستقيم شأنٌ ليس أساسُه الطاعةَ في النفس، ولا يستمر نظامٌ عليه خلافٌ من فكر العامل به.

وللعمل الدائم طريقتان: إحداهما[1] طريقة الجاد يعمل للعاقبة يستْيقِنُها، فلا يجد مما يشقُّ عليه إلا لذةَ المغالبة للنصر: كلُّ مرارة من قِبَله هي حلاوة فيه من بَعد، ولا يعرف للمحنة يُبتلى بها إلا معناها الحقيقيَّ وهو إيقاظ نفسه، فيصبح

---

(١) ذكر واحدة ولم يذكر الأخرى.

الصبر عنده كصبر المحب على أشياء ممن تحبه، صبرٌ فيه من السحر ما يكسو الحرمان في بعض الأحيان خيالَ الاستمتاع، ويُذيق النفسَ في العجز عن بعض أغراضها لذةً كلذة إدراكه.

تلك هي فلسفة الإسلام، لا قِوامَ للأمر فيها، ولا مِساك له إلا بتقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس، ووضع طابَع الجنة على أعمال الجنة، وطابَع النار على أعمال النار، وحياطة كل فرد من الناس حياطةً رياضية عمليةً بين الساعة والساعة، بل بين الدقيقة والدقيقة، بما يكلَّف من أعمال جسمه وحواسه، ثم أعمال قلبه ونيَّته، وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية؛ فلا يحاول كلُّ إنسان أن يجعل بطنَه في حجم مملكة أو مدينة أو قرية بما ينتقض من حقوق غيره، بل تتسع ذاتية كل فرد بما يجب له على المجتمع من الواجبات الإنسانية.

وبهذا لا بغيره تتعين مقاييس الأخلاق في الأرض، بالمصلحة لا باللذة، فلا يقع الخطأ ولا التزوير، وتنحلُّ المشكلة الاجتماعية ما دامت الحياة لا تجد من أهلها كلَّ ساعة عُقَداً فيها.

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحدَه الطريقة لإنشاء طبيعة الخير في الناس على نَسَقها الطبيعي، كما أنه هو وحده الطريقةُ لتطهير التاريخ الإنساني من أوبائه الاقتصادية، التي جعلته كأنما هو تاريخ الأسنان والأضراس، وتركت الناس يهدم بعضهم بعضاً، كما يهدم الجار حائط جاره؛ ليوسِّع بيته.

وأساس العمل في الإسلام إخضاع الحياة للعقيدة، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة، فيكونُ الفقير مُعْدِماً ويتعفَّفْ، ويكون الغنيُّ موسراً ويتصدَّق، ويكون

الشَّرِهُ طامعاً ويمسك، ويكون القوي قادراً ويُحجم، وكما قال العرب في تحقيق ناموس الأَنفة والحميَّة وغلبته على الناموس الاقتصادي: «تجوع الحرَّة ولا تأكل بثدييها».

تريد الإنسانية امتداداً غيرَ امتدادها التجاري في الأرض، وتحتاج إلى معنى يقود إنسانَها غير الحيوان الذي فيه، وإذا قاد الغراب قوماً فإنما هو ـ كما قال شاعرنا ـ يمرُّ بهم على جِيَفِ الكلاب.

والإنسانية اليوم في مثل ليل حَوْشِيٍّ مظلم اختلط بعضه في بعض، وليست معاني الإسلام إلا الإشراقَ الإلهي على هذه الكثافة المادية المتراكمة، وإذا رفع المصباح لم تجد الظلامَ إلا وراء الحدود التي تنتهي إليها أشعته.

وقد علمنا من طبيعة النفس أن إنسانية الفرد لا تعظُم وتسمو وتتخيلُ وتفرحُ فرحها الصادقَ وتحزنُ حزناها السامي ـ إلا أن تعيش في محبوب؛ فإنسانية العالَم لا تكون مثل ذلك إلا إذا عاشت في نبيِّها الطبيعي، نبيٍّ أخلاقها الصحيحة وآدابِها العالية ونظامها الدقيق، وأين تجد هذا المحبوبَ الأعظم إلا في محمد ودين محمد؟

وعجيب أن يجهلَ المسلمون حكمةَ ذكر النبي العظيم خمسَ مرات في الأذان كل يوم، يُنادَى باسمه الشريف ملءَ الجو، ثم حكمةَ ذكره في كل صلاة من الفريضة والسنة والنافلة، يُهْمس باسمه الكريم ملء النفس! وهل الحكمة من ذلك إلا الفرضُ عليهم ألا ينقطعوا من نبيهم ولا يوماً واحداً من التاريخ، ولا جزءاً واحداً من اليوم؛ فيمتدُّ الزمن مهما امتدَّ والإسلام كأنه على أوَّله، وكأنه في

يومه لا في دهرٍ بعيد، والمسلم كأنه مع نبيِّه بين يديه تبعثه روحُ الرسالة، ويسطع في نفسه إشراقُ النبوَّة، فيكون دائماً في أمره كالمسلم الأول الذي غيَّر وجه الأرض، ويظهر هذا المسلم الأولُ بأخلاقه وفضائله وحَمِيميَّته في كل بقعة من الدنيا مكانَ إنسان هذه البقعة، لا كما نرى اليوم؛ فإنَّ كلَّ أرضٍ إسلامية يكادُ لا يظهر فيها إلا إنسانها التاريخيُّ بجهله وخرافاته وما وَرِثَ من القِدَم، فهنا المسلم الفرعوني، وفي ناحية المسلم الوثني، وفي بلد المسلم المجوسي، وفي جهة المسلم المعطِّل... وما يريدُ الإسلام إلا نفسَ المسلم الإنساني[1].

أيها المسلم!

لا تنقطعْ من نبيك العظيم، وعشْ فيه أبداً، واجعله مثلك الأعلى، وحين تذكره في كل وقت فكن كأنك بين يديه، كن دائماً كالمسلم الأول، كن دائماً ابنَ المعجزة.

---

(١) يقصد المسلم الفطري الذي لم تتدنس فطرته (م).

ثاني عشر: مقالات في العلم والتحقيق

٥٥ الإسلام والعلم[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

طَلَعَ الإسلام، فوجد طرقاً من الباطل مسلوكة، ومظاهر من الفساد مألوفة، فجاهد تلك الأباطيل حتى زهقت، وكشف عن قبح تلك المفاسد حتى هجرت، قوم النفوس حتى استقامت على توحيد الله ـ تعالى ـ والعبادات التي يتقبلها، ويجزل المثوبة عليها، وعلّمها بعد هذا كيف تعيش في هذه الدنيا عالية الهمم، نبيلة الأعمال، عزيزة الجانب، محفوظة الكرامة مأمونة العواقب، سديدة الأنظار، رشيدة الآراء، متواصلة القلوب.

وتفاضل الشعوب على قدر أنصبائها في هذه الخصال والمزايا التي لا تتحقق المدَنِيَّةُ الفاضلة إلاّ بها.

دعا الإسلام إلى تلك المقاصد السامية، وأخذ في دعوته بإقامة الحجة، وإلقاء الحكمة، وضرب الأمثال، وإيراد القصص العامرة بما فيه عبرة.

نَشَأَ هذا الدين الحق بين خصوم يناصبونه العداء، ويأتمرون به؛ ليطفؤوا نوره ويقطعوا السبيل دونه، وما كان إلاّ أن خاب سعيهم، فسطعت حُجَّته، وعَلَتْ كلمته، ومع سطوع حجته وعلو كلمته يَلْقى في كل عصر طوائفَ يأكل الزيغُ قلوبَهم، فيطعنون فيه علناً، أو يذهبون في الكيد له مذهب التأويل الفاسد وهم يعلمون.

ولم يفقد بتوفيق الله ـ تعالى ـ في كل عصر طائفة من ذوي العقول الراجحة لا

(١) مجلة نور الإسلام الجزء السادس، المجلد الرابع ص٦٧ـ٦٩.

يخشون في الذود عن موارده لومة لائم، فيزيحون من طريق هدايته ما يلقيه أولئك الجاحدون أو الـمُرَاؤون.

ومن هذه الطوائف الخاطئة من يزعم أنَّ الإسلام لم يبعث الدواعي إلى طلب العلم.

والواقع أنَّ الإسلام قد رفع قدر العلم، ونوَّه بشأن العقل، وسلك بطلاب العلم مسالك النظر والاجتهاد، وعودهم على نقد الآراء، و تمييز زائف الأخبار من صحيحها، فلما نُقلت العلوم النظرية إلى اللغة العربية وجدت منهم نفوساً تَلَذُّ العلم، وعقولاً تنشط للمناظرة، وألسنةً تعرف كيف تقرر الحجة؛ ففتحوا لها صدورهم، ووضعوها تحت سلطان أنظارهم، ولم يمنعهم إعجابهم بها، وتنافسهم على التَضَلُّعِ من مواردها أن يطلقوا الأَعِنَّةَ في مناقشتها، وتقويم الـمُعْوَجِّ من مذهبها، فَسَدُّوا ثغوراً يأتي من قِبَلها الباطل، وذَلَّلوا لطلاب العلم الطريق الذي تَفَيَأوا فيه ظلال الرشد، وتُدْني فيه الفلسفةُ المعقولةُ قطوفها؛ فقامت للعلوم على اختلاف موضوعاتها سوقٌ نافقة، وأصبحتَ ترى علوم الشريعة وعلوم الفلسفة المعقولة يلتقيان في النفوس المطمئنة بالإيمان، وتَسَنَّى للتاريخ أن يحدثك عن كثير من علماء الإسلام، ويصفهم بأنهم جمعوا بين العلوم الشرعية، والعلوم الفلسفية، كالغزالي، وابن رشد، وأبي عبيدة مسلم ابن أحمد الأندلسي، وهو أول من اشتهر في الأندلس بعلم الفلسفة، وكان مع هذا صاحب فقهٍ وحديث.

ومن الظن الخاطئ ما تَخُطُّه بعض الأقلام من أنَّ هذه العلوم المادية قد تشد

أزر الإلحاد، و تجعله يظهر على دين كدين الإسلام؛ فإنَّ النظر الصحيح في هذه العلوم لم يأت بما يؤازر الإلحاد، وليس في نصوص الدين الإسلامي وأصوله ما يتعارض مع العلم الصحيح حتى يستطيع الإلحاد أن يتخذ منه قوة.

وإنما الآراء التي تدفعها الحجة قد تقع في يد من لا يحسن نقدها، ولا يميز رأسها من عقبها، فيعارض بها آية من كتاب الله، أو حديثاً صح عن رسول الله ﷺ ويذهب في الحيرة أو الضلالة إلى مكان بعيد.

وقد تكون آفة الرجل من عدم تفقهه في الدين، وتخيله أن معنى الآية أو الحديث يخالف ما أثبته العلم الصحيح.

فبلاء أبناء المسلمين الآن من أحد رجلين: رجلٍ يتعلق بآراء المنتمين إلى الفلسفة، لا يُفَرق بين جَيِّدِها وزائفها، حتى إذا لَقِيَ في الدين ما لا يوافق تلك الآراء الزائفة خالطه الريب أو الجحود، ورجلٍ يدرس الفلسفة ولكنه لم يدرس الدين في طمأنينة، ولم يبحث في حقائقه بنظر فاصل؛ فيتوهم أن بعض نصوص الدين أو أصوله لا يطابق المعقول.

ماذا يكون مَبْلَغُنَا من الحكمة إذا لم نَزِنْ آراء علماء الغرب بالقسطاس المستقيم، ولم نُفَرِّق بين ما ينبني على علم أصيل، وما يقولونه على وجه الفرض، أو يتعلقون فيه بشبه واهية، وعمدنا إلى كل نص يظهر لنا أنه مخالف لرأي من آراء أولئك العلماء؛ فنذهب في تأويله إلى معنى يطابق ذلك الرأي، حتى إذا انكشف الحق وظهر للملأ أنَّ ذلك الرأي خيال في خيال، عُدْنَا إلى ذلك التأويل فمحوناه بأيدينا، وكذلك يفعل من يستهويه كل ناعق، ويفتنه كل

جديد؟!.

لم يخلص الدين من مبتدعة أو زنادقة افتروا عليه مزاعم باطلة، وذهبوا في تأويله مذاهب فاسدة.

وقد قام علماء الشريعة الذين يردون منابعها العالية؛ فبينوا بطلان تلك المزاعم وفساد تلك المذاهب، فما كان لأحد أن يأتي إلى أمثال هذه الأقذاء التي نفاها أهل العلم من قبل، ويتخذ منها شبهة على أن في الدين ما لا يقبله العقل أو لا يرضى عنه العلم.

فإنْ بدا لك أنَّ في قسم العبادات ما لم يصل العقل إلى حكمته الخاصة وهو ما يقول فيه بعض العلماء: هذا الأمر تعبدي، قلنا: معنى هذا أن في الشريعة أحكاماً قد تخفى على العقل حكمتها المعينة، كما أنه لا يستطيع إنكارها إنكاراً يستند إلى وجه معقول.

وهذا النوع ـ على قلته في شريعة الإسلام ـ ليس بموضع خلاف بين الدين والعلم أو العقل، وإنما يرينا أن من أحكام الدين ما لا يدخل العقل في تفصيل حكمته، ولا في نفي حكمته.

ولكن الآيات القائمات على أن الدين حق هي الآيات البيِّنات على أن هذه الأحكام مطوية على حكمة بالغة، وإن لم ندركها بوجه خاص؛ فإن الدين الحق لا يدعو إلاَّ لما فيه خير ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ الأحزاب: ٤.

٥٦ العلم بالتأليف[1] للشيخ عبد العزيز المسعودي

علم الذين أوتوا العلم من المصريين ماهو التأليف والتدوين، فنبهوا الناس من سبات عميق، وأروهم كيف يكون التقدم بالمعارف؛ فكتب الكاتب، وتلاه المحرر، ثم المؤلف، وقام الخطيب يشكر صنيعهم علماً منه أن الشكر داعية المزيد، فثارت النفوس، وتسابقت الهمم، وكثرت التآليف التي هي حياة العلم، ولسانه الذي يناجي النفوس.

فما راعنا وقد كنا نرى المصري يؤلف في كتب هي سواد على بياض إلا وقد ألف في الفلسفة، والكيمياء، والبلاغة، والتفسير، وجاء بما يقرب من حد الإعجاز في الكتابة والإنشاء.

أما نحن رجال هذا القطر[2]، فإنا نعرف مزية التأليف ونتيجة التحرير، ولكن لانكتب، ونتعلل بتعاليل لاتحط عنا واجباً.

وحيث كان من طرق الترغيب، والحث على العمل بيان الحقيقة والنتيجة، رأينا أن نكتب كلمة في تاريخ التأليف بما يكون باعثاً على إيجاده من الذين توفرت فيهم شروطه، حتى يفيدوا الأمة، وتنبعث فيها روح حياة لا موت بعدها، وبذلك يرجع عن فكره من كان يعتقد أن صناعة التأليف دفعت مع المتقدمين، ويعترف بكبر خطئه، وبُعْد خُطَاه.

---

(١) مجلة السعادة العظمى عدد ١٦، ١٦، شعبان ١٣٢٢ هـ ص٢٤١-٢٤٤.

(٢) يعني: (تونس).

فأقول: إن التآليف العربية كانت مجهولة عند المتقدمين، وما كان لهم إلا الشعر، وهومجمع أخبارهم، وفيه ذُكرت مفاخرهم بالضيف، والفصاحة، والسيف، وبه بلغت لغيرهم أخبارهم.

ولولا خِلالٌ سنَّها الشعرُ ما درى بُناةُ المعالي كيف تُبنى المكارمُ

ومن ذلك مُدح الشعر عندهم، وكانوا يفخرون به من هاته الفائدة، حتى قال شاعرهم:

أرى الشعر يحيي الجودَ والبأس بالذي تبقّيه أرواحٌ له عَطِراتُ

وما المجدُ لولا الشعرَ إلا معاهِدٌ وما الناسُ إلا أعظمٌ نخِرات

وكان العلم إذ ذاك كنزاً يبالغ في كتمانه من اهتدى إليه؛ ليمتاز به على غيره، إلى أن جاء الدين الحيف وسط بساطة البداوة، وحرية الفطرة داعياً الناس إلى المساواة في الحقوق البشرية، آمراً بالتعليم والتعلم، وناهياً عن كتمان العلم، متوعداً بأشد العقاب من عرف علماً وأخفاه.

وقد كانوا غير منشغلين بالتصيف، جارين على طريق العرب الأول للاستغناء بالحفظ؛ فأخذوا يتوجهون وجهة العلوم، وتولد فيهم حب استطلاعها، وقد انتشر الإسلام، واتسعت مملكته، وحدثت الفتن، فأول شيء عملوه في ذلك هو تدوين الحديث الشريف، وقوانين الشريعة السمحاء، ثم اشتغلوا بالنظر والاستدلال والاستنباط، وتمهيد القواعد والأصول، وترتيب الفوائد والفصول، وكان ذلك مصلحة عظيمة، ثم اشتغلوا بعد تدوين ذلك بتدوين فنون أخرى عند مسيس الحاجة إليها، حتى ضُبطت جلُّ العلوم ودُوِّنت.

وبقوا ينقبون عن آثارها، ويتتبعون مظانها، ويستوضحون طرقها، حتى أزاحوا عن كتب العلم الأرصاد، وعمدوا إلى تلك الكتب اليونانية والرومانية «التي قامت دهوراً في محابسها لاينتفع منها أهلها» فترجموها إلى العربية، وقالوا في سبيل منفعة الكتابة أن عقل الإنسان لايقدر على استنباط العلوم الكثيرة، فصار الإنسان إذا استنبط مقداراً من العلم أثبته بالكتابة، فإذا جاء إنسان آخر، ووقف عليه، قدر على استنباط شيء أخر زائد على ذلك الأول.

كما قالوا: لا كلمة أضر بالعلم من قول القائل: «ما ترك الأول للآخر شيئاً»؛ لأن هذه الكلمة تقطع الآمال عن زيادة العلم على علم المتقدمين، ويقتصر الآخر على ما قدمة الأول، وهو خطر عظيم وقول سقيم.

قل لمنْ لايرى المعاصر شيئاً ويرى للأوائل التقديما
إن ذاك القديم كان حديثاً وسيبقى هذا الحديث قديما

وفي سنة ٦٩٧: يقول الشيخ عبد العزيز الديريني في خاتمة كتابه ـ الروضة الأنيقة في بيان الشريعة والحقيقة ـ: «إذا حُقق أصل العلم، وعُرفت مواده، وجرت فروعه، ولاحت أصوله ـ كان الفهم فيه مبذولاً بين أهله، فليس المتقدم فيه بأولى من المتأخر، وإن كان له فضيلة السبق؛ فالعلم حاكم، ونظر المتأخر أتم؛ لأنه زائد على المتقدم، والفتح من الله مأمول لكل أحد».

وعسى أن يكون لهاته الكلمة أثرٌ في بعض النفوس الحية، فتنتبه إلى فائدتي التآليف العامة والخاصة؛ فإن فائدة التآليف على المجتمع العمومي أشهر من أن تذكر، ويكفي أن يقال: إن بها بقاءَ العلوم ونموَّها وانتشارها الذي به تقدم

الأمة، وصلاحها الذي يرغب فيه؛ كما أن المؤلف يبقى ذكره حياً على ممر الزمان، حتى كان جسده كذلك لايفوت إلا شبَحه إذا لم يكن له مثال، أو صوته إذا لم يتكلم أمام حفظ الصوت.

٥٧ العلم عند الله[1]
تحصيله - المقدَّم منه والمتعين - خطته - نعيمه - الغاية القصوى
للعلامة محمد الطاهر ابن عاشور

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ التوبة: ١٢٢.

عَذَر الله - تعالى - المؤمنين في قعود فريق منهم عن طلب العلم، ولقاء رسول الله ﷺ لما علم ما سنّه ناموس الكون أنه لا يستقم نظامه إذا اتحدت غاية أهله في أعمالهم كيفما بلغت من الشرف.

وحسبك من شرف العلم اتفاق العقلاء وغيرهم أنَّه أعلى صفة يتحلى بها البشر، وأسمى غاية يقصدها الناس، وصل ذلك إلى حد أن عَرَفَتْه العامة في أسواقها، وتهافتت على الاتسام بميسمه والتعوذ من ضده.

ولكن مع ذلك لو اقتصروا عليه لفسد نظام الكون كما لو اقتصروا على غيره؛ فأمرهم أن تنفر من كل فرقة منهم طائفة؛ لتحصيل العلم والتفقه بالدين؛ لأنَّ العلم لا يستقيم بدونه، ولأن وجود العلماء من بين الفرق تنبيه لها، ونبراس ينوس بين يدي صنعها في ظلمات الشك.

هب أنها وصلت من السقوط إلى حد أن كانت في صمم عن تلقي نصائحهم؛ فإنها لا تعدم في ضمن ذلك شعورها بحقائق الأشياء، وصد الباطل منها عن

---

(١) السعادة العظمى، العدد(٤)، (١٦) صفر ١٣٢٢هـ، المجلد الأول ص٣٤ - ٣٩.

الحق سواء رضيها أم أسخطها .

ولا مرية أن إتيان الشيء بعد العلم بحالة ادعى للدوام عليه إن كان خيراً، وأقرب إلى الانكفاف والتقهقر عنه في حكم سخافته وكراهته التي تنطبع في النفس مع العلم بحاله مهما غولطت تلك النفس في انطباعه ، أو عرضت سحب وهمها لستر شعاعه .

الغاية الذي حض الله ـ تعالى ـ عليها الناس بلولا المتلوة بالفعل هي الفقه في الدين ، والفقه إدراك الأشياء الخفية ، وهو بهذا المعنى باب الحكمة ، أو هو الحكمة نفسها؛ ولذا نرى الله ـ تعالى ـ ينفي عن أقوام الفقه في مواضع الخفاء نحو ما قال ﴿ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الإسراء : ٤٤.

فهو تمهيد للعذر في الجملة ، وينفي عن آخرين العلم في مواضع الظهور نحو لا يعلمون ، وفرق مابين العلم والفقه .

كان الله ـ تعالى ـ ولا يزال حريصاً على المؤمنين أن يتلقوا الدين بفهم لخفاياه وأسراره؛ فأوصاهم في غير موضع بالفهم والاستنباط والعلم ، مرة بالتصريح ، وأخرى بالإشارة حتى بترك البيان في مواضع ، وذلك أرشدنا إلى أن الغاية المطلوبة من العلم كيفما كان هي الوصول إلى معرفة الأشياء على ما هي عليه بحيث لا يحتمل نقيضاً .

ولا يؤثر فيه تشككيك المشككين ، ولا اعتراض أو سخط الواهمين .

سنَّ الله ـ تعالى ـ النفر في طلب العلم ،والعلم وإن كان ربما وجد في فسطاطك ، بل في بيتك؛ فقد كان النفر والرحلة من أكبر ما يفيد قوته وكماله.

وبمقدار الرحلة إليه تحصل غايات شريفة من معانيه؛ لأن التعلم باعتبار المغبَّة يؤول إلى توسيع الرأي وقوته؛ ليكون رائد نفسه بنفسه، والعمل الذي هو موجب رسوخ الملكات في أصحابها ونموِّها في جانب العلم والرأي - هو ملاقاة الآراء وتقادحها، حتى قيل: ما بين الرأيين رأي.

انظر إلى رجل يقرأ في بيته ما يقرأ الناس، كيف لا تجده على كمال نحو ما تجد المتعلم بالدروس العامة؛ لما يلقاه من مقادحة الأفكار ومبادلة الآراء.

وفي ذلك دَرَبَةٌ عقلية طبيعة تحصل بتدرج وخفاء حتى تنمو الملكة العقلية وتعتاد بالعمل التيقظ؛ إذ التشاور الفكري والتبادل النظري يجعل جليسك منبِّهاً لغفلتك عند حصولها، كما يجعلك له منبهاً حتى يصير التنبُّه إلى الحقائق سجيَّة لك متى كنت مجبولاً على التهيؤ لذلك، والرحلة بعد ذلك تفيد أكبر.

ولو ذهبت تعد الأفراد الذين سموا برسوخ القدم إلى مرتقى راق في قوة الرأي - لرأيت فيهم من الراحلين أكثر مما ترى غيرهم؛ وما وصلت إلى قرطبة بعلمائها إلى تلك الغاية إلا بالرحلة، ولعلك تذكر الباجي، والأصيلي، وأبا بكر بن العربي، وبقيَّ بن مخلد، ومنذر بن سعيد البلوطي، وعبدالملك بن حبيب و.....

خص الله - تعالى - الفقه في الدين من بين العلوم كلها؛ لأنه يومئذ واليوم أكبر شيء تحتاج له الأمة؛ إذ لا يكون لها أن تعرف كنه شرعها الذي هو مستودع آدابها، وتعليماتها القانونية، والأخلاقية وملاك تقدمها إلا به.

وذلك ينبغي أن يكون الفرض الأول من تعليم المسلمين في أي زمان وأي

مدرسة، وبدونه لا يستقيم لهم أمر كما لم يستقم.

ثم لما آل أمر العلم إلى قضاء الحاجة منه، وكان تعليم الأمة في كل زمان على مقدار حاجتها، وربما تزيد على علم الدين، فمن المتعين عليها أو على من يدبر أمر تعليمها من سادتها وكبرائها الحكماء أن تضم إليه ما تحتاجه، سواء في ذلك مبادئ الدين و هي علوم العربية: اللغة والنحو والبيان التي لا يمكن لغير العربي بالسجية أن يصل إلى معنى الفقه في الدين بدونها، أم غيرها من العلوم التي يتوقف عليها كمالها؛ فالحاجة هي مقدر العلوم وهي شيء واحد ينطبق على كل زمان؛ عنيت بالحاجة أن يتوقف تقدم الأمة، ويتقلص ظلها، ولا يمكنها مزاحمة غيرها من الأمم في خوض لجة الحياة بدون ما احتاجت إليه؛ فذلك العلم الذي يطلب منها في مرتبة فرض الكفاية، وهذا في كل زمان يتحول مع المحافظة على الأصل الذي نص الله عليه، وهو الذي لا يحتوي إلا متى تحولت الأمة كلها، والحكيم قدير على أن يشرح هذا في دروس أو مقالات فائضة يتبع بعضها بعضاً.

نبَّه الله ـ تعالى ـ على أن **فائدة المتعلم من علمه أمران مهمان:**

أحدهما: تفقهه في نفسه الذي يرفع عنه رجس الجهالة، ويذيقه حلاوة الإدراك، ويخفف همه، ويعمر وقته، ويجيد عمله.

وثانيها: وهي الغاية العامة والمصلحة الشاملة إنذار قومه وأمته الداخل تحت عموم قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ العصر: ٣.

وقول رسوله: «**الدين النصيحة لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**».

إنذار القوم هو أن يبلغ لهم أمانة الله ـ تعالى ـ مما علمه على ما هو معتقد غير

مداهن في ذلك؛ لاستجلاب بشاشة الكبراء، أو قضاء مألوف العامة.

بل الذي أوجبه الله ـ تعالى ـ أن ينذرهم بما علمه على ما اعتقده سواء أرضى الأمة أم أسخطها، متذكراً في ذلك قول رسوله الأمين ﷺ في خطبة حجة الوداع «**ألا هل بلغت اللهم فاشهد**» يكررها المرات.

أما التصميم في الرأي فهو الذي يُفْشل المكابرين، ويركد ريح الحاسدين، والعاقبة بعدُ للمتقين قال الله ـ تعالى ـ ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ آل عمران: ١٤٦.

لسنا نطالبه أن يعض بالنواجذ على رأيه وإن كان خطأ؛ لأن هذه صفة المكابرة التي نتبرأ منها، والمجاحدة التي جاء الدين لإزالتها من نفوس الناس.

ولكنا نرغب أن لا يرجع إلاَّ إلى العلماء الحقيقيين متى أرجعوه بالدليل، ولا عليه أن لا تتقبل الأمة نصحه وعلمه؛ فييأس من غاية سعيه، ويستأيس إن قد خاب أمله، ويرى أن لم تبقَ فائدةٌ في تذكير قوم كالأنعام أو هم أضل سبيلاً؛ فموافقتهم أولى من مخالفتهم، يتأول أن الله ما أمر بالمجاهرة بالحق إلا لتحصل الغاية منها، فإذ قد انعدمت الغاية كان الواجب أن نسعى في مرضاة قومنا، فنحصل ـ في الأقل ـ على لذة المصافاة، هذا هو سوء التأويل.

إنَّ الإنذار بالحق يقذف في قلوب المنذرين علماً إن خالفوه أصيب هواهم بالمرار من النكد، أو شكاً يكشفه لهم ريب الزمان.

وتكرر الإنذار إن لم ينفث في قلوب المنذرين ما أُمِّل منهم لا يعدم أن يصدر عن أزدواجه نشأٌ ربما يطبق تكاثفه المُتَرَقَّبُ جو العقول، ويمطر من مزنه على

أرض قلوبهم الميتة، وليذكر ما أوصى الله به رسوله ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ الشورى: ٤٨، وقوله ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ البقرة: ٢٧٢، وقوله ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾، ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)﴾، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧)﴾ الحجر.

نظراً لهذا المعنى حين علم الله ـ تعالى ـ عسر تحول الناس عن الفهم، وانقلابهم عن جهلهم وشدة استمساكهم بضلالهم ما حقق لنا سبحانه لحصول الغاية ـ وهو أعلم بالحال ـ ولكنه جعلها في موضع الرجاء لا في موضع اليقين فقال: **﴿لعلهم يحذرون﴾**.

فإن قال قائل من الذين يستمعون إلينا: إذا كان العلم كمالاً، واشتاقت النفوس إليه وأراد كل أحد أن يضرب بسهمه فيه، حين يعلم بما وصفت حاله قبل من الرجس وسوء القصد ـ فبأي وسيلة يمكن أن نكشف عنها هذا الرجس مع قضاء حق الكون من اختلاف الآيات والأعمال؟ وكيف نستطيع أن نجعل العلماء صانعين سواء كنَّا مدبري أمر الأمة أم بالأقل أمر أنفسنا وأبنائنا ومن يهمنا الأمر بحالهم من أصفيائنا ؟.

فجوابنا أن طريقة ذلك أن يسعى معلموهم في ثلاثة أمور إن تمت لهم.

الأمر الأول: أن يقذفوا في قلوب الأمة جمعاء الإقناع بمبدأ واحد، وهو الشعور بأن تقدم أي صناعة يتوقف على إتقان علم تلك الصناعة، وتنوُّر عقل صاحبها؛ فإتقان علمها شيء ثانٍ وهو أن يمارس قواعدها سواءٌ كانت ممارسة مدرسية كلية، أم تجريبية جزئية تفيد الاطلاع على غوامض تلك المهنة وتوسيع

عقل الصانع، وتنوره هو المرتبة الأولى، وذلك إعداد من الله غير أن الناس قادرون أن يسعوا فيه بوجه الجملة من حيث أن الله أعد كل إنسان بما هو إنسان لتلقي الكمال والنقصان بحسب همته، وذلك بالأمرين التاليين، وعن ازدواج هذين تتولد ملكة الاختراع في سائر الأشياء.

الأمر الثاني: تعميم التعليم بين سائر أفراد الأمة، وجبر الناس عليه لا بإخراج التلميذ من بيته إلى المدرسة كرهاً، ولكن باتفاق الأمة مع كبرائها على أن لا يعتمد بأي رجل لم يكن مستكملاً للتعليم الابتدائي الذي يجب أن يشترك فيه سائر الأمة، فيلزّ الأب أو الابن في قرن هذا التكليف متى علم توقف مستقبله على التعليم.

أما تنشيط الكبراء وتعضيدهم للنابغين من أهل النشأة العلمية فهو الباعث الأكبر على المسابقة في حلبة النظر، ولكنه ـ ويا للأسف ـ شيء لا ينشأ إلاَّ عن معرفة مقدار كدِّ الأفكار، وكفى بلذة العلم منشطاً لأصحابه وشاغلاً للقلب عن اطراحه دون عناية أمته واغترابه.

الأمر الثالث: أن يصلوا بتعميم التعليم إلى مبادئ العلوم المحتاج إليها، والتعود على النقد والـمَيْزِ بقدر حاجة العامة مع إبقاء مسلك تناجي منه الخطابةُ نفوسَهم؛ كي لا تنقطع منهم حاجة الإقناع في الأمور العامة، وأن ينهجوا أسهل طريق لإيصالهم إلى غاية ذوق حلاوة العلم في الجملة.

وينجم عن ذلك مصلحتان:

إحداهما: تَمتُّع الجميع بالعلم، وتيقظ البصائر من سنة الوهم والجهل؛

فيكونوا أهلاً لإدارة أمورهم، وإدراك مصلحة جمهورهم.

وثانيها: أن يقدروا العلماء حق قدرهم، ويشعروا بحاجتهم إلى تسليم أمر تربيتهم، وإصلاح آدابهم، وعلومهم، وكتبهم إليهم مع الانقياد إلى أوامرهم وجعلهم ولاة أمرهم ومشورتهم، حتى تكون الأمة بوجود العالم الحكيم فيها حكماء، ويكون ما تراه من مصالحهم وفوائدهم سريع الانطباع في نفوسهم؛ فيسهل عليهم مطالبة الحكام منهم بتقويم أمورهم، وبذلك يرقب الحاكم الأمة، ويخشاها، وتأمن من اللهو عن مصالحها باتباع هواها، ويكشف عن العلماء عذاب محاولة إصلاحها، واصطياد هداها.



ثالث عشر: مقالات في اللغة والأدب

٥٨ الاستشهاد بالحديث في اللغة[١] للشيخ العلامة محمد الخضر حسين

يستند علماء العربية في إثبات الألفاظ اللغوية، وتقرير الأصول النحوية إلى القرآن المجيد، وكلام العرب الخُلَّص.

وجرى بينهم الخلاف في الاحتجاج بما يروى من الأحاديث النبوية، وحقيق بمجمع اللغة العربية أن ينظر في هذه المسألة، ويقطع فيها رأياً، فإن الكتب المؤلفة في الحديث وغريبه كثيرة، ومنها ما يبلغ مجلدات ضخمة.

ومتى رأينا أن الحق في جانب من يراها حجة كافية في اللغة كان مجال البحث في علوم اللغة أوسع، ووجدنا من المساعدة على إعلاء شأن اللغة ما لا نجده عندما نقصر الحجة في القرآن الكريم، وما يبلغنا من كلام عربي فصيح.

وهذا ما دعاني إلى أن بحثت هذه المسألة، وبذلت جهداً في استقصاء ما كتبه فيها أهل العلم، ثم استخلصت من بين اختلافهم رأياً.

وهأنذا أعرض البحث كما اتفق لي أنْ سِرْتُ فيه، وأَصِلُهُ بإبداء ما رأيت؛ لينظر مجمعنا اللغوي ماذا يرى.

ما المراد بالحديث؟:

تشتمل كتب الحديث على أقوال النبي ﷺ وعلى أقوال الصحابة: تحكي فعلاً

---

(١) بحث قدمه المؤلف إلى مجمع اللغة العربية، ونشر في الجزء الثالث من مجلة المجمع، وانظر رسائل الإصلاح ٢/٥٣-٦٦، وهذا البحث من أحسن وأبدع ما كتب في هذا الموضوع في القديم وفي الحديث(م).

من أفعاله ـ عليه السلام ـ أو حالاً من أحواله، أو تحكي ما سوى ذلك من شؤون عامة أو خاصة تتصل بالدين.

بل يوجد في كثير من كتب الحديث أقوالٌ صادرة عن بعض التابعين.

وكذلك نرى المؤلفين في غريب الحديث يوردون ألفاظاً من أقوال رسول الله ﷺ أو أقوال الصحابة، أو أقوال بعض التابعين كعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه.

وهذه الأقوال المنسوبة إلى الصحابة أو التابعين، ومتى جاءت من طريق المحدثين تأخذ حكم الأقوال المرفوعة إلى رسول الله ﷺ من جهة الاحتجاج بها في إثبات لفظ لغوي، أو قاعدة نحوية.

هل في الحديث ما لا شاهد له في كلام العرب؟

يرد في الحديث ألفاظ لا يعرف لها علماء اللغة شاهداً في كلام العرب، وتَرِدُ بعض الألفاظ على وجه من الاستعمال لا يعرف إلا من الحديث.

وكثيراً ما يقول شراح غريب الحديث ـ وهم جهابذة علماء اللغة ـ: هذا اللفظ لم يجئ إلا في الحديث، ولم نسمعه إلا فيه.

وقال أبو بكر محمد بن قاسم الأنباري أحد المؤلفين في غريب الحديث: «وكذلك أشياء كثيرة لم تسمع إلا في الحديث»[١].

وتكلم أبو موسى محمد بن أبي بكر الأصفهاني في كتاب الغريب عن الألفاظ التي لم ترد إلا في بعض روايات الحديث فقال: «وإنما أورد نحو هذه الألفاظ؛ لأن الإنسان إذا طلبه لم يجده في شيء من الكتب، فيتحير، فإذا نظر في كتابنا عرف

---

(١) النهاية لابن الأثير في مادة «هرو».

أصله ومعناه».

ومن أمثلة هذا النوع كلمة «إستارة» وردت في حديث «أيما رجل أغلق بابه على امرأته وأرخى دونها إستارة فقد تم صداقها».

لقد قال شراح الغريب: لم تستعمل إستارة إلا في هذا الحديث[١].

ومن أمثلته كلمة «أفلج» من الفلج أي تباعد ما بين الثنايا؛ فقد وردت في وصف ابن أبي هالة للنبي ﷺ غير مضافة إلى الأسنان، وابن دريد وصاحب القاموس يقولان: «لا يقال رجل أفلج إلا إذا ذكر معه الأسنان».

الخلاف في الاحتجاج بالحديث:

ذهب جماعة من النحاة إلى أن الحديث لا يستشهد به في اللغة، أي لا يستند إليه في إثبات ألفاظ اللغة ولا في وضع قواعدها، ومن هذه الجماعة أبو الحسن علي بن محمد الأشبيلي المعروف بابن الضائع، وأثير الدين محمد بن يوسف المعروف بأبي حيان، وزعم أبو حيان أنه مذهب المتقدمين والمتأخرين من علماء العربية، فقال في شرح كتاب التسهيل: «إن الواضعين الأولين لعلم النحو المستقرئين للأحكام من لسان العرب كأبي عمرو، وعيسى بن عمر، والخليل، وسيبويه، من أئمة البصريين، والكسائي، والفراء، وعلي بن مبارك الأحمر، وهشام الضرير، من أئمة الكوفيين، لم يفعلوا ذلك ـ أي لم يحتجوا بالحديث ـ وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الأقاليم كنحاة بغداد وأهل الأندلس».

---

(١) النهاية لابن الأثير في مادة «ستر».

وأجاز قوم الاحتجاج بالحديث في اللغة، وعدوه في الأصول التي يرجع إليها في تحقيق الألفاظ، وتقرير القواعد.

وممن عرف بهذا المذهب محمد بن عبدالله المعروف بابن مالك، وعبدالله بن يوسف المعروف بابن هشام.

وممن انتصر لهذا المذهب البدر الدماميني في شرحه للتسهيل، والعلامة ابن الطيب في شرحه لكتاب الاقتراح، وفي شرحه لكفاية المحتفظ المسمى بتحرير الرواية.

وعُدَّ من أصحاب هذه المذاهب الجوهري، وابن سيدة، وابن فارس، وابن خروف، وابن جني، وابن بري، والسهيلي، حتى قال: لا نعلم أحداً من علماء العربية خالف في هذه المسألة إلا ما أبداه الشيخ أبو حيان في شرح التسهيل، وأبو الحسن الضائع في شرح الجمل، وتابعهما على ذلك الجلال السيوطي.

وجهة نظر المانعين:

قالوا: لا يستشهد بالحديث؛ لعدم الوثوق بأن ذلك لفظ رسول الله ﷺ **وانتفت الثقة من أنه لفظ الرسول لأمرين:**

أحدهما: أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى؛ فتجد القصة الواحدة قد جرت في زمانه ﷺ فتنقل بألفاظ مختلفة، كحديث: «زوجتكها بما معك من القرآن» وفي رواية أخرى: «ملكتكها بما معك من القرآن» وفي ثالثة: «خذها بما معك من القرآن» وفي رابعة: «أمكناكها بما معك من القرآن».

نعلم يقيناً أنه ﷺ لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ، بل لا نجزم بأنه قال بعضها، إذ يحتمل أنه قال لفظاً آخر مرادفاً لهذه الألفاظ، فأتى الرواة بالمراد منه، ولم يأتوا بلفظه؛ إذ المطلوب إنما هو نقل المعنى.

وأضافوا إلى هذا أن الرواة لم يكونوا يضبطون الحديث بالكتابة؛ اتكالاً على الحفظ، وأن الضابط منهم من يحتفظ بالمعنى، وأما ضبط اللفظ فبعيد جدًّاً ولا سيما ألفاظ الأحاديث الطويلة.

ثانيهما: أنه وقع اللحن في كثير مما روي من الأحاديث؛ لأن كثيراً من الرواة لم ينشأوا في بيئة عربية خالصة حتى يكونوا عرباً بالفطرة، بل كانوا قد تعلموا العربية الفصحى من طريق صناعة النحو.

وجهة نظر المجوزين:

يستند هؤلاء إلى الإجماع على أنه ﷺ أفصح العرب لهجة كما قال ابن حزم في كتاب الفصل منكراً على من لم يجعلوا الحديث حجة في اللغة: «لقد كان محمد ابن عبدالله قبل أن يكرمه الله بالنبوة، وأيام كان بمكة أعلم بلغة قومه وأفصح؛ فكيف بعد أن اختصه الله للنذارة واجتباه للوساطة بينه وبين خلقه».

وقالوا: إن الأحاديث أصح سنداً مما ينقل من أشعار العرب كما قال صاحب المصباح بعد أن استشهد بحديث: «من أثنيتم عليه بشر وجبت» على صحة إطلاق الثناء على الذكر بشر: «قد نقل هذا العدل الضابط عن العرب الفصحاء عن أفصح العرب؛ فكان أوثق من نقل أهل اللغة؛ فإنهم قد يكتفون بالنقل عن واحد ولا يعرف حاله».

وقد عرفت أن المانعين من الاحتجاج بالحديث معترفون بأن الرسول ﷺ أفصح العرب لساناً، وأبرعهم بياناً، ولا ينازعون في أن أسانيد الأحاديث أقوى من أسانيد الأشعار، وإنما استندوا في المنع إلى أن الأحاديث قد تروى بالمعنى، بخلاف شعر العرب أو منثورهم فإن رواته اعتنوا بألفاظه؛ لأن الغرض من روايته تقرير أحكام الألفاظ.

قال ابن الضائع في شرح الجمل: «لولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى في الحديث لكان أولى وأثبت في إثبات فصيح اللغة كلام رسول الله ﷺ».

وأظهر وجه يورده المجيزون أن الأصل رواية الحديث الشريف على نحو ما سمع، وأن أهل العلم قد شددوا في ضبط ألفاظه والتحري في نقله ولهذا الأصل تحصل غلبة الظن بأن الحديث مروي بلفظه.

وهذا الظن كافٍ في إثبات الألفاظ اللغوية، وتقرير الأحكام النحوية.

مناقشتهم لأدلة المانعين

يقول المانعون: إن الرواة كانوا ينقلون الأحاديث بالمعنى؛ فلا ثقة لنا من أن اللفظ الذي روي به الحديث هو لفظ رسول الله ﷺ.

وأجاب المجيزون على هذا بأن كثيراً من المحدثين والفقهاء والأصوليين قد ذهبوا إلى منع رواية الحديث بالمعنى، ومن أجازوا الرواية بالمعنى شرطوا لذلك أن يكون الراوي على علم بما يغير المعنى أو ينقصه، وأن يكون محيطاً بمواقع الألفاظ، بل قال بعضهم: شرطه أن يحيط بدقائق علم اللغة، وأن تكون المحسنات الفائقة على ذكر منه؛ فيراعيَها في نظم كلامه على أن المجيزين للرواية

بالمعنى معترفون بأن الرواية باللفظ هي الأولى، وإذا كانت الرواية بالمعنى ليست في رأيهم سوى رخصة فإنهم لا يحتجون لها إلا في حال ضرورة، وأضافوا إلى هذا أن النقل بالمعنى إنما أجازه من أجازه في غير ما لم يدون في الكتب، أما ما دون في الكتب فلا يجوز التصرف فيه بوجه، وتدوين الأحاديث وقع في الصدر الأول قبل أن تفسد اللغة، وإذا كان قد وقع في الأحاديث المدونة نقل بالمعنى فإنما هو تصرف ممن يصح الاحتجاج بأقوالهم.

وإليك ما قاله البدر الدماميني وما حكاه عن شيخه ابن خلدون في الرد على من يمنعون الاستشهاد بالحديث، قال في حواشيه على المغني:

«أسقط أبو حيان الاستدلال على الأحكام النحوية بالأحاديث النبوية باحتمال رواية من لا يوثق بعربيته إياها بالمعنى، وكثيراً ما يعترض على ابن مالك في استدلاله بها، ورده شيخنا ابن خلدون بأنها على تسليم أنها لا تفيد القطع بالأحكام النحوية تفيد غلبة الظن بها؛ لأن الأصل عدم التبديل، لا سيما والتشديد في ضبط ألفاظها، والتحري في نقلها بأعيانها مما شاع بين الرواة.

والقائلون منهم بجواز الرواية بالمعنى معترفون بأنها خلاف الأولى، وغلبة الظن كافية في مثل تلك الأحكام بل في الأحكام الشرعية؛ فلا يؤثر فيها الاحتمال المخالف للظاهر، وبأن الخلاف في جواز النقل بالمعنى في غير ما لم يُدَوَّنْ في كتب.

أما ما دُوِّنَ فلا يجوز تبديل ألفاظه بلا خلاف كما قاله ابن الصلاح[١] وتدوين الأحاديث وقع في الصدر الأول قبل فساد اللغة العربية، وحين كان كلام أولئك - على تقدير تبديلهم - يسوغ الاحتجاج به، وغايته يومئذ تبديل لفظ يحتج به بآخر كذلك، ثم دُوِّن ذلك البدل، ومُنِع مِنْ تغييره ونقله بالمعنى، فبقي حجة في بابه صحيحة، ولا يضر توهم ذلك الاحتمال السابق في استدلالهم بالمتأخر».

وقد ناقش بعض شارحي[٢] كتاب الاقتراح ابن خلدون، فقال: «إن تدوين الأحاديث وقع بعد فساد اللغة».

وقال: «لم يحصل التدوين إلا في عصر التابعين، ووقع يومئذ الاختلاط في اللغة، والرواية بالمعنى لم تقف عند حد من يتكلم بالعربية سليقة».

ولا يسعنا أمام دعوى ابن خلدون ومناقشة هذا الشارح له، إلا أن نقول كلمة في تاريخ تدوين الحديث، ونتحدث عن العهد الذي وقع فيه فساد اللغة؛ لعلنا نهتدي إلى ما يفيدنا في أصل البحث «بحث الاستشهاد بالحديث في اللغة».

الواقع أن أصل كتابة الحديث وقع في عهد النبي ﷺ.

وممن كان يكتب الحديث عبدالله بن عمرو بن العاص، ولهذا كان أكثر جمعاً للحديث من أبي هريرة.

أما تدوينه في كتب فقد وقع بأمر الخليفة عمر بن عبدالعزيز المتوفى سنة ١٠١هـ،

---

(١) قال أهل العلم بالحديث: ليس لك فيما تجده في الكتب المؤلفة من روايات من تقدمك أن تبدل في نفس الكتاب ما قيل فيه: أخبرنا بقولك: حدثنا، ونحوه.

(٢) هو ابن علان، وتوجد نسخة من شرحه بالمكتبة التيمورية.

ومن المروي في الصحيح أنه كتب إلى أهل الآفاق أن انظروا ما كان من حديث رسول ﷺ أو سنته فاجمعوه أو فاكتبوه.

وأول من دَوَّن الحديث محمد بن مسلم الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ والمعروف أنه كان يروي عن الصحابة مثل عبدالله بن عمر، وأنس بن مالك، وسهل ابن سعد الساعدي.

وقيل إن أول من دَوَّن الحديث الربيع بن صبيح المتوفى سنة ١٦٠هـ، وسعيد بن أبي عروبة المتوفى سنة ١٥٦هـ.

ثم شاع التدوين في الطبقة التي تلي طبقة الزهري كمالك بن أنس، وعبدالملك بن جريج، والأوزاعي، وسفيان الثوري، وحماد بن سلمة.

وكان كثير من رواة الحديث في هذا العهد يكتبون الأحاديث عند تلقيها، ولا يكتفون بحفظها عن ظهر القلب؛ فإنا نجد في تاريخ طائفة منهم أن لهم كتباً كانوا يرجعون إليها عند الرواية.

ونجد في تاريخ من يروون عن أمثال الزهري إن في مخلفاتهم أجزاءاً كثيرة تحتوي أحاديث أخذوها عن أولئك الأئمة.

وكتابة الحديث تساعد على روايته بلفظِه، وحِفْظُه عن ظهر القلب يبعده من أن يدخله غلط أو تصحيف.

ويصل بنا البحث إلى مصنفات الطبقة التي جاءت بعد طبقة مالك وابن جريج قد بلغت الغاية في جمع الأحاديث، وفي ذلك العهد صنفت مسندات كثيرة كمسند أسد بن موسى الأموي المتوفى سنة ٢١٢هـ، ومسند عبيدالله بن موسى العيسى

المتوفى سنة ٢١٣هـ، ومسند نعيم بن حماد الخزاعي المتوفى سنة ٢٢٨هـ، ومسند أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١هـ.

وجاء بعد هؤلاء أصحاب الكتب الستة، وأولهم البخاري المولود سنة ١٩٤هـ وآخرهم النسائي المولود سنة ٢١٥هـ.

وما في الكتب الستة أو معظمه كان مدوناً في الكتب المصنفة من قبل.

ذكر الحافظ ابن حجر مصنفات أئمة الحديث في الصدر الأول وقال: فلما رأى البخاري هذه المصنفات، ورواها وجدها بحسب الوضع جامعة، فألف كتابه مقتصراً على الصحيح.

وإذا رأينا أن البخاري يقول في كتابه: حدثنا فلان، فهذا لا يمنع من أن يكون الحديث مدوناً في كتاب؛ فإنهم كانوا ـ كما عرفت ـ آنفاً لا يستغنون بالكتابة عن الحفظ، وربما قال الراوي: أملى علينا فلان كذا وكذا حديثاً من حفظه، ثم قرأها علينا من كتابه.

وهذه النظرة التاريخية تدلنا على أن ابتداء تدوين الحديث كان في أوائل القرن الثاني، وأنه لم يمض القرن الثاني حتى قيد معظم الأحاديث بالكتابة والتدوين.

ولننظر بعد هذا إلى حال اللغة من جهة ما دخلها من الفساد، وننظر ما يكون لهذا الفساد من أثر في رواية الحديث.

أخذ الفساد يدخل اللغة منذ وصلت الفتوح الإسلامية العرب بالعجم، وأسرع إلى ألسنة طائفتين من أبناء العرب أو الناشئين في بيئتهم: طائفةٍ كانت أمهاتهم من الأعاجم، وطائفةِ العامة الذين يسكنون الأمصار، وتكثر مخالطتهم

للأعاجم.

وظهر اللحن بجلاء في أواخر عهد الدولة الأموية، وكان انقراضها سنة ١٣٢هـ.

ويقي بجانب هاتين الطائفتين فريقان: سكان الجزيرة البعيدون عن مخالطة الأعاجم مخالطة تمس فصاحتهم بسوء، وأبناء الخاصة من سكان الأمصار الذين لم تكن أمهاتهم من الأعاجم.

أما سكان الجزيرة فإنهم ما برحوا على فصاحة اللغة إلى أواسط القرن الرابع، وأما الخاصة من سكان المدن فبقوا على فصاحة اللهجة مدةً في أوائل عهد الدولة العباسية.

وذكر الباحثون في طبقات الشعراء أن إبراهيم بن هرمة آخر من يحتج بشعرهم، وقد توفي في خلافة الرشيد بعد الخمسين والمائة بقليل.

والذين نشأوا في بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة انتشاراً يرفع الثقة بفصاحة لهجتها يوثق بأقوالهم ولو تأخروا عن منتصف القرن الثاني، كالإمام الشافعي؛ فإنه ولد سنة ١٥٠هـ ولكنه نشأ في بيئة عربية وهي مكة، فيصح الاستشهاد بما يستعمله من الألفاظ، قال الإمام أحمد: «كلام الشافعي حجة في اللغة».

وقال الأزهري في إيضاح ما استشكل من مختصر المزني: «ألفاظ الإمام الشافعي عربية محضة، ومن عجمة المولدين مصونة».

وإذا عدنا إلى قول ابن خلدون: «وتدوين الأحاديث وقع في الصدر الأول قبل فساد اللغة العربية، وحين كان كلام أولائك ـ على تقدير تبديلهم ـ يسوغ

الاحتجاج به» وعرضناه على التاريخ ـ وجدنا التدوين وقع بعد أن دخل الفساد في اللغة، ولكن من المدونين من يحتج بأقواله؛ لأنه نشأ في بيئة عربية كالزهري ومالك بن أنس، وعبدالملك بن جريج.

ومنهم من نشأوا في بيئة غير عربية، أو عربية انتشر فيها الفساد، وصارت العربية الفصحى فيها إنما تدرك من طريق التعلم.

فدعوى أن الأحاديث دونت قبل فساد اللغة، وأن كلام المدونين لها يسوغ الاحتجاج به في اللغة ـ غير مطابقة للتاريخ من كل وجه، ولو تمت على نحو ما قرره ابن خلدون لقامت بها الحجة الفاصلة على الاستشهاد بالحديث في اللغة من غير حاجة إلى شيء آخر يعضدها.

والذي نستفيده من حقائق التاريخ أن قسماً كبيراً من الأحاديث دوَّنه رجال يحتج بأقوالهم في العربية، وأن كثيراً من الرواة كانوا يكتبون الأحاديث عند سماعها، وذلك مما يساعد على روايتها بألفاظها؛ فيضاف هذا وذاك إلى ما وقع من التشديد في رواية الحديث بالمعنى، وما عرف من احتياط أئمة الحديث وتحريهم في الرواية؛ فيحصل الظن الكافي لرجحان أن تكون الأحاديث المدونة في الصدر الأول مروية بألفاظها ممن يحتج بكلامه.

وأما قول المانعين: إنه وقع اللحن في كثير من الأحاديث فيجاب عنه بأن كثيراً مما يُرى أنه لحن قد ظهر له وجه من الصحة، وقد ألف في هذا الباب ابن مالك كتابه «التوضيح في حل مشكلات الجامع الصحيح» وذكر للأحاديث التي يشكل إعرابها وجوهاً يستبين بها أنها من قبيل العربي الصحيح، وكثيراً ما نرى ألفاظاً

من الحديث ينكرها بعض اللغويين، فيأتي لغوي آخر فيذكر لها وجهاً مقبولاً، أو يسوق عليها شاهداً صحيحاً.

ثم إن وجود ألفاظ غير موافقة للقواعد المتفق عليها لا يقتضي ترك الاحتجاج بالحديث جملة، وإنما يحمل أمرها على قلة ضبط أحد الرواة في هذه الألفاظ خاصة.

وإذا وقع في رواية بعض الأحاديث غلط أو تصحيف فإن الأشعار يقع فيها الغلط والتصحيف، وهي حجة من غير خلاف.

قال محمد بن سلام: وجدنا رواة العلم يغلطون في الشعر، ولا يضبط الشعر إلا أهله.

وأبو أحمد العسكري الذي ألف كتاباً في تصحيف رواة الحديث قد ألف كتاباً فيما وقع من أصحاب اللغة والشعر من التصحيف.

أما قول أبي حيان: «إن المتقدمين من علماء العربية لا يحتجون بالحديث» فأجاب عنه المجيزون بأن علماء العربية في العهد الأول لم يتعاطوا رواية الحديث، فعلماء الحديث غير علماء العربية[1]، ثم إن دواوين الحديث لم تكن مشتهرة في ذلك العهد، ولم يتناولها علماء العربية كما يتناولون القرآن الكريم، وإنما اشتهرت دواوينه ووصلت إلى أيدي جمهور أهل العلم من بعد؛ فإن سلمنا عدم

---

(١) من علماء العربية من كانوا يعدون في رواة الحديث، مثل أبي عمرو بن العلاء، وعيسى ابن عمر الثقفي، والنضر بن شميل المازني، والخليل بن أحمد، والقاسم بن سلام، وعبدالملك بن قريب الأصمعي، والرياشي.

احتجاجهم بالحديث فلعدم انتشاره بينهم لا لأنهم يمنعون الاحتجاج به، على أن كُتُبَ الأقدمين الموضوعة في اللغة لا تكاد تخلو من الاستدلال على إثبات الكلمات بألفاظ الحديث، واللغة أخت النحو كما صرحوا به.

وكذلك نرى الإمام اللغوي أبا منصور الأزهري المولود سنة ٢٨٢هـ يعتمد في كتابه (التهذيب) على الأحاديث، ويكثر من الاستشهاد بها.

وأما ما ادعاه أبو حيان من أن المتأخرين من نحاة الأقاليم تابعوا المتقدمين في عدم الاحتجاج بالحديث ـ فمردود بأن كتب النحاة من أندلسيين وغيرهم مملوءة بالاستشهاد بالحديث.

وقد استدل بالحديث الشريف: الصِّقلي، والشريف الغرناطي في شرحيهما لكتاب سيبويه، وابن الحاج في شرح المقرب، وابن الخباز في شرح ألفية ابن معطي، وأبو علي الشلوبين في كثير من مسائله.

وكذلك استشهد بالحديث السيرافي، والصفار في شرحيهما لكتاب سيبويه، وقال ابن الطيب: «بل رأيت الاستدلال بالحديث في كلام أبي حيان نفسه».

وقد عرفت أن مذهب البدر الدماميني صحة الاستشهاد بالحديث، وقد جرى على مذهبه في شرحه للمغني والتسهيل والبخاري.

تفصيل وترجيح:

من الأحاديث ما لا ينبغي الاختلاف في الاحتجاج به في اللغة، وهو ستة أنواع:

أحدها: ما يروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحته ـ عليه الصلاة

والسلام ـ: كقوله: «حمي الوطيس» وقوله: «مات حتف أنفه» وقوله: «الظلم ظلمات يوم القيامة» إلى نحو هذا من الأحاديث القصار المشتملة على شيء من محاسن البيان كقوله: «مأزورات غير مأجورات» وقوله: «إن الله لا يمل حتى تملوا».

ثانيها: ما يروى من الأقوال التي كان يتعبد بها، أو أمر بالتعبد بها؛ كألفاظ القنوت والتحيات، وكثير من الأذكار، والأدعية التي كان يدعو بها في أوقات خاصة.

ثالثها: ما يروى شاهداً على أنه كان يخاطب كل قوم من العرب بلغتهم: ومما هو ظاهر أن الرواة يقصدون في هذه الأنواع الثلاثة لرواية الحديث بلفظه.

رابعها: الأحاديث التي وردت من طرق متعددة واتحدت ألفاظها؛ فإن اتحاد الألفاظ مع تعدد الطرق دليل على أن الرواة لم يتصرفوا في ألفاظها.

والمراد أن تتعدد طرقها إلى النبي ﷺ أو إلى الصحابة أو التابعين الذين ينطقون الكلام العربي فصيحاً.

خامسها: الأحاديث التي دونها من نشأ في بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة؛ كمالك بن أنس، وعبدالملك بن جريج، والإمام الشافعي.

سادسها: ما عرف من حال رواته أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى: مثل ابن سيرين، والقاسم بن محمد، ورجاء بن حيوة، وعلي بن المديني.

ومن الأحاديث ما لا ينبغي الاختلاف في عدم الاحتجاج به، وهي الأحاديث التي لم تدون في الصدر الأول، وإنما تروى في بعض كتب المتأخرين.

ولا يحتج بهذا النوع من الأحاديث سواء أكان سندها مقطوعاً أم متصلاً، أما مقطوعة السند فوجه عدم الاحتجاج بها واضح، وأما متصلة السند فلبعد مدونها عن الطبقة التي يحتج بأقوالها.

وإذا أضيفت كثرة المولدين في رجال سند الحديث إلى احتمال أن يكون بعضهم قد رواه بالمعنى أصبح احتمال أن تكون ألفاظه ألفاظ النبي - عليه الصلاة والسلام - أو ألفاظ راويه الذي يحتج بكلامه قاصراً عن درجة الظن الكافي لإثبات الألفاظ اللغوية أو وجوه استعمالها.

والحديث الذي يصح أن تختلف الأنظار في الاستشهاد بألفاظه هو الحديث الذي دون في الصدر الأول، ولم يكن من الأنواع الستة المنبه عليها آنفاً، وهو على نوعين:

(حديث) يرد لفظه على وجه واحد، (وحديث) اختلفت الرواية في بعض ألفاظه.

أما الحديث الوارد على وجه واحد، فالظاهر صحة الاحتجاج به، نظراً إلى أن الأصل الرواية باللفظ، وإلى تشديدهم في الرواية بالمعنى، ويضاف إلى هذا قلة عدد من يوجد في السند من الرواة الذين لا يحتج بأقوالهم؛ فقد يكون بين البخاري ومن يحتج بأقواله من الرواة واحد أو اثنان وأقصاهم ثلاثة.

ومثال هذا النوع أن الحريري أنكر على الناس قولهم قبل الزوال: سهرنا البارحة، قال: وإنما يقال: سهرنا الليلة، ويقال بعد الزوال: سهرنا البارحة.

والشاهد على صحة ما يقوله الناس حديث أن النبي ﷺ كان إذا أصبح قال:

«هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا؟» وحديث: «وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول عملت البارحة كذا».

ففي قوله: «إذا أصبح قال: هل رأى أحد منكم البارحة» وقوله: «ثم يصبح فيقول: عملت البارحة» ـ شاهد على صحة أن يقول الرجل متحدثاً عن الليلة الماضية وهو في الصباح: سهرنا البارحة، أو وقع البارحة كذا.

وأما الأحاديث التي اختلفت فيها الرواية فإنا نرى من يستشهدون بالأحاديث من اللغويين والنحاة لا يفرقون بين ما روي على وجه واحد، وما روي على وجهين أو وجوه.

ويمكننا أن نفصل القول في هذا النوع؛ فنجيز الاستشهاد بما جاء في رواية مشهورة لم يغمزها بعض المحدثين بأنها وهم من الراوي مثل كلمة «ممثل» وردت في أشهر رواية الحديث «قام النبي ﷺ ممثلاً» أي منتصباً، والمعروف في كلام العرب إنما هو ماثل من مثل كنصر وكرم.

وأما ما يجيء في رواية شاذة أو في رواية يقول فيها بعض المحدثين إنها غلط من الراوي ـ فنقف دون الاستشهاد بها، ومثال هذا كلمة «ناعوس» وردت في إحدى روايات حديث «إن كلماته بلغت ناعوس البحر» ووردت في بقية الروايات «قاموس البحر» أو وسطه ولجته.

وكلمة ناعوس غير معروفة في كلام العرب.

قال أبو موسى محمد بن أبي بكر الأصفهاني أحد المؤلفين في غريب الحديث: «فلعل الراوي لم يجود كتب كلمة قاموس».

وأضعف من هذا أن تجيء الكلمة غير المعروفة في اللغة في صورة الشك من الراوي ككلمة خطيط وردت في حديث: «ثم نام حتى سمعت غطيطه أو خطيطه» قال ابن بطال: لم أجد كلمة «خطيط» بالخاء عند أهل اللغة.

وخلاصة البحث: أنا نرى الاستشهاد بألفاظ ما يروى في كتب الحديث المدونة في الصدر الأول وإن اختلفت فيها الرواية، ولا نستثني إلا الألفاظ التي تجيء في رواية شاذة أو يغمزها بعض المحدثين بالغلط أو التصحيف غمزاً لا مرد له، ويشد أزرنا في ترجيح هذا الرأي أن جمهور اللغويين وطائفة عظيمة من النحويين يستشهدون بالألفاظ الواردة في الحديث ولو على بعض رواياته.

٥٩ الأدب وأثره في الحياة[1] للأستاذ عبدالوهاب محمد سليم

للأدب في هذا العصر رسالة قوية لا تقل في أهميتها وخطورة أثرها عن أيِّ فن آخر من نتاج العقل الإنساني.

هذه الرسالة هي مزيج الإحساس الحي، والإلهام الصادق، والنبوغ المشتعل الرامي بأشعته على آفاق الكون، والمتغلغل في البيئات الإنسانية، ونواحي النفس البشرية؛ ليستشف حقيقتها، ويلبسها ثوباً جميلاً يلفت الأنظار إلى ما فيها من دقائق الأسرار.

يتناول أدق الأمور، وأعصاها، فيجليها، ويبرزها في أحسن معرض وآنق ثوب.

يستثير العواطف الدفينة؛ فتصبح حية يقظة تبعث الخير والرحمة.

يعمد إلى أدق النظريات وأخفاها فإذا بها سهلة سائغة.

والأدب في أوربا الآن لا يتمثل في شيء مثل تمثله في القصص؛ فبواسطته تمكن العلماء من التحدث عن علومهم إلى أكبر عدد من القراء، ولو أنهم جمدوا عند حدود التآليف الجافة لأصبح العلم في دائرته الضيقة لا يتجاوز الأخصائيين والمحترفين.

والقصة الأدبية لا يقف أثرها عند عرض الأفكار والمبادئ، ولكنها؛ لطلاوتها وقربها من عقلية الجمهور يستطيع الأديب من خلالها أن يدني الفضيلة من

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، الجزء الثاني، المجلد الثاني ص٩٦، رجب ١٣٤٨هـ.

النفوس، وأن يبغضها الشر في جميع مظاهره، يستطيع ذلك بقوة الإيماء والخيال الأخَّاذ، وبحكايته لما يشابه أدوار الحياة العملية تمام المشابهة في أشخاص قصته.

والأدب في التحرير ليس نثراً يرصف، أو شعراً ينظم فحسب، بل هو قبل كل شيء روح وأسلوب، ودراية عملية لأسرار النفس.

أيُّ قيمة لذلك النثر، أو هذا النظم ما دام خالياً من تلك الروح؟ إنه يكون أشبه شيء بتلك الدُّمى التي يبذل صائغُها جهده في نحتها، وتزويقها، ولكن تعوزها روح الحياة تدب فيها.

يتناول العلماء بحثاً من البحوث، وتتكافأ قواهم في فهم أسراره ومدلولاته، ومع ذلك فطريقة عرضهم تختلف اختلافاً كبيراً، فبينا تجد جفافاً وخشونة إذ تجد طلاوة، وحسناً، ومائية تتقبلها النفوس بقبول حسن.

وليس ذلك الاختلاف إلا نتيجة الروح الأدبية التي تعين صاحبها على بسط معلوماته، وإدخالها في الطور العملي المنتج.

من ذلك نستطيع أن نحكم بأن أيَّ فنان أو عالم يهمل الجانب الأدبي في هذا العصر، ولا يدخله في علمه أو فنه ـ فلا يستطيع بأيِّ حال أن يضمن له الذيوع والانتشار، ثم الثبات والاستقرار.

والشواهد على ذلك يعرفها من وقف على شخصيات العلماء ثم ميَّز بين أساليبها وروحها التأليفية.

٦٠ الجملة القرآنية[1] للأديب مصطفى صادق الرافعي

نَبَّهتني إحدى الصحف العربية التي تصدر في أمريكا عندما تناولت الكلام على «رسائل الأحزان»[2] بقول جاء في بعض معانيه أني لو تركت «الجملة القرآنية» والحديث الشريف ونزعت إلى غيرهما لكان ذلك أجدى عليَّ وملأت الدهر ثم لحطَمتُ في أهل المذهب الجديد حَطْمَةً لا يبعد في أغلب الظن أن تجعلني في الأدب مذهباً وحدي[3]!

ولقد وقفت طويلاً عند قولها: «الجملة القرآنية» فظهر لي في نور هذه الكلمة ما لم أكن أراه من قبل، حتى لكأنها «المكرسكوب» وما يجهر به من بعض الجراثيم مما يكون خفيًّا فيَسْتَعْلِن ودقيقاً فيستعظم، وما يكون كأنه لا شيء ومع ذلك لا تعرف العلل الكبرى إلا به.

وإذا أنا تركت الجملةَ القرآنيةَ وعربيتَها وفصاحتَها وسموَّها، وقيامها في تربية الملكة وإرهاف المنطق وصقل الذوق مقامَ نشأة خالصة في أفصح قبائل العرب، وردَّها تاريخنا القديم إلينا حتى كأننا فيه، وصِلتنا به حتى كأنه فينا، وحِفْظِها لنا منطق رسول الله ﷺ ومنطق الفصحاء من قومه حتى لكأن ألسنتهم عند التلاوة

---

(١) نشرت في مجلة الزهراء، وهي في كتاب تحت راية القرآن ـ المعركة بين القديم والجديد ـ للرافعي ص٢٤ـ٣٠.

(٢) كتاب وضعناه في فلسفة الجمال والحب ثم وضعنا له «السحاب الأحمر» تكملة؛ فهما كالكتاب الواحد.

(٣) الذي قال هذا هو الكاتب المهجري جبران خليل جبران (م).

هي تدور في أفواهنا وسلائقهم هي تقيمنا على أوزانها - إذا أنا فعلت ذلك ورضيته، أفتراني اتَّبع أسلوب الترجمة في الجملة الإنجليزية...

وأسِفُ إلى هذه الرطانة الأعجمية المعربة، وأرتصخ تلك اللُّكنة المعوَجَّة، وأعين بنفسي على لغتي وقوميَّتي، وأكتب كتابة تُمِيت أجدادي في الإسلام ميتة جديدة، فتنقلب كلماتي على تاريخهم كالدود يخرج من الميت ولا يأكل إلا الميت، وأنشئ على سنتي المريضة نشأة من الناس يكون أبغض الأشياء عندها هو الصحيح الذي كان يجب أن يكون أحب الأشياء إليها؟.

كنت أعرف أن صاحبنا الكاتب البليغ المدقق الشيخ إبراهيم اليازجي لما أرادوه على تصحيح ترجمة الأناجيل رغب إليهم أن يصرِّف قلمه في الترجمة فينزلها منزلتها من اللسان، ويتخيَّر ألفاظها، ويزيل عجمتها، ويخلصها من فساد التركيب وسوء التأليف، ويفرغ عليها جزالة، ويجعل لها حلاوة؛ فأبوا عليه كل ذلك ومنعوه منه، وأقاموا فيها بمنزلة من يعرب آخر الكلمة فعليه أن يترك الكلمة إلا آخرها...

كنت أعرف ذلك وما فطنت يوماً إلى سببه حتى كانت قولة «الجملة القرآنية» كالمنبهة عليه، فرأيت القوم قد أثمرت شجرتهم ثمرها المرّ، وخلف من بعدهم خَلْف أضاعوا العربية بعربيتهم، وأفسدوا اللغة بلغتهم، ودفعوا الأقلام في أسلوب ما أدري أهو عبراني إلى العربية أم عربي إلى العبرانية لا يعرفون غيره، ولا يطيقون سواه، وترى أحدهم يهوي باللغة إلى الأرض، وإنه عند نفسه لطائر بها في طيارة من طراز زيلن..!

وليتهم اقتصروا على هذا في أنفسهم، وأنصفوا منها، بل هم يدْعون إلى مذهبهم ذلك، ويعتدُّونه المذهب لا معْدل عنه، ويسمُّونه الجديد لا رغبة من دونه، ويعتبرونه الصحيح لا يصح إلا هو، وكلهم يعلم أنه ليس بصاحب لغة ولا هو مَعْنِيٌّ بها ولا كان ممن يتسمون بعلومها، ثم ينقلهم هذا العبث إلى آراء كآراء الصغار في الأمور الكبيرة فيحاولون أن يختلقوا في اللغة فطرة جديدة غير تلك الأولى التي وضعت عليها جِبَلَّتها، واستقام بها أمرها، وتحقق إعجاز الفصاحة العربية بخصائصها.

ومرجع هذا البلاء كله أن عربية الجملة الإنجليزية تغزو عربية الجملة القرآنية من حيث يدري أولئك أو لا يدرون؛ فما أشبه هذه الأساليب الركيكة في مَقرها من الآداب العربية بالمرض الموروث الكامن في الجسم الصحيح يتربص غفلة أو علة أو تهاوناً فيظهر فإذا هو مَشغلة للصحة، ثم يستشري فإذا هو مَفسدة لها، ثم يضرب فيتمكن فإذا هو مزاج جديد، ثم إذا هو الموت بعدُ!

على أني لا أعرف من السبب في ضعف الأساليب الكتابية والنزول باللغة دون منزلتها إلا واحداً من ثلاثة، مستعمرون يهدمون الأمة في لغتها وآدابها؛ لتتحول عن أساس تاريخها الذي هو أمة به ولن تكون أمة إلا به.

وإما النشأة في الأدب على مثل منهج الترجمة في الجملة الإنجيلية والانطباع عليها وتعويج اللسان بها.

وإما الجهل من حيث هو الجهل أو من حيث هو الضعف؛ فإنه ليس كل كاتب يبلغ، ولا كل من ارتَهن نفسه بصناعة نبغ فيها وإن هو نسب إليها، وإن عدَّ في

طبقة من أهلها، والكتابة صناعة لها أدواتها، وفي النمط الأعلى والأوسط وما دون ذلك.

أفمن الرأي أن نعين المستعمرين على خصائصنا ومقوِّماتنا، أو نتخذ في اللغة أدياناً شتَّى، أو نجعل قياس العلم من الجهل في بعضه والضعف عن بعضه؟ وإلا فماذا بقي بعد هذه الثلاثة مما ينفسح له جانب العذر إن نحن قلنا بمذهب جديد في اللغة؟

أحسب إخواننا في مصر أنهم كانوا يحسنون اليوم شيئاً من الكتابة الفصيحة لو لم يكن في العصر الذي خلا من قبلهم أمثالُ السيد جمال الدين ومحمد عبده وعلي يوسف والبارودي والمويلحي وغيرهم ممن دفعوا الاستعمار عن اللغة ببلاغتهم، وردّوا أساليب السياسة اللغوية بأساليب الفصاحة، وأشرعوا دون الميراث العربي أقلامهم، وحاطوه بألسنتهم، وحفظوه بعقائدهم، حتى أمنوا عليه أن يُنتقص، أو يمحق، أو يزول.

ألا فليقرؤوا هذه البلاغة الجديدة... التي أنقلها بحروفها عن صحيفة عربية إسلامية تصدر في طنجة، وليتأملوا أكان فيهم من يكتب اليوم أبلغ منها بعد أربعين سنة ونيِّفاً من الاحتلال الإنجليزي، والاحتلال الآخر الأوربي في زيغ الطباع وفسادها، لولا تلك النفوس الشرقية العربية الكبيرة التي كانت في هذا السبيل كنفوس الأنبياء قائمة على أنها حمى للحق، وشعار فيه ودعوة إليه، وجهاد من دونه؟

قالت الصحيفة وهي تبحث في تاريخ الحج وتكتب كلاماً لم يبق منه معنى،

ولا لفظ، ولا صيغة إلا وردت في الكتب المختلفة بأفصح عبارة وأبلغ أسلوب، بل هو من بعض دين ذلك الكاتب، واقرأ ماذا قالت:

«زيارة الكعبة المعظمة فريضة على كل مسلم ومسلمة، لو عندهم استطاعة صحية ومالية؛ ومن مناسك الحج، سبع مرات طواف حول الكعبة كل عام في المحل المقدس المذكور يجتمع ٢٠٠٠٠٠ من المؤمنين والمؤمنات هم الحجاج الكرام، لابسين كلهم كسوة بيضاء، وسامعين الخطبة لمفتي الأنام في جبل عرفات، لبيك اللهم لبيك. الكعبة مبنية من طرف إبراهيم خليل الله، ولكن بمرور الدهر والأزمان وبتأثير سيلان وأمطار قد خربت مراراً، ولكن تصلحت من موادّها القديمة وأحجارها الابتدائية، وحجر الأسود موضوعة بمحلها بيد المبارك المحمدية ﷺ.

نظراً للتواريخ القديمة إن ماء زمزم خرجت من ضربة قدم سيدنا إسماعيل ومن المعاني والمعالي... زيارة بيت الله المقدس أهمُّ المادة وهي اجتماع مسلمين العالم في كل سنة في الأراضي المقدّسة الحجازية بتأبيد الولا والمخالصة بين عالم الإسلامي». انتهى. وأشهد ألا إله إلا الله.

وأما بعد: فهذه الألفاظ التي نقلناها إنما تنزل من أصولها الجزلة الفصيحة منزلة أولئك الكتاب المفتونين من أصولهم في البلاغة والرأي والتدقيق، فلو خُلق اللفظ من هذه الجملة إنساناً لكان واحداً منهم، ولو مُسخ الواحد منهم لفظاً لكان كلمة منها، أفيقبل منا بعد ذلك أن نغفل عنهم، أو نتسامح في أمرهم، أو نترخص معهم في أسلوب أو قاعدة أو كلمة؟.

ألا إن الأوزان إنما هي بمقاديرها في الميزان وفاءاً ونقصاً، لا بمقاديرها في أنفسها زعْماً ودعوى، فلا تزعمنّ لي أنك أنت من أنت وأنّ لغتك هي ما هي وأن الرأي ما ترى والكتابة ما تكتب، بل هلمّ إلى ميزانك من علماء الكلام وإلى ميزان لغتك من اللغة وإلى رأيك من الحقيقة وإلى كتابتك من الكتابة، وأنت بعدُ وقبلُ ـ أيضاً ـ لا تستطيع أن تهجم على علم من العلوم، فتقول فيه قولاً إلا على قياس من العلم نفسه ترد إليه قولك، وتقيم به حجتك، ثم لا يقبل قولك مع هذا ولا يُعد قولاً حتى تكون من أهل هذا العلم وممن لابسوه وقتلوا مسائله درساً وبحثاً.

وأنت كذلك إذا عرضت لك مسألة في فنٍّ من الفنون رجعت إلى كتبها وإلى أهلها، ففتَّشت أقوالهم قبل أن تقول شيئاً، وعرفت حكمهم قبل أن تحكم بشيء، واتقيت الخطأ بصوابهم، وتحاميت التقصير باجتهادهم، ثم ما هو إلا أن تنزل على رأيهم في العلم والفن لا تحاول مكراً، ولا تَتَّكل على خداع من الرأي ولا تتعلل بعذر من العذر؛ فليت شعري لِمَ يكون ذلك منك في كل علم وفي كل فن ولا يكون كذلك في اللغة وأصولها والكتابة وأساليبها والبلاغة ومذاهبها؟.

ثم ما هي اللغة؟ أفرأيت قطُّ شعباً من الدفاتر قامت عليه حكومة من المجلدات، وتملك فيها مَلك من المعجمات الضخمة؟ أم اللغة هي أنت وأنا ونحن وهو وهي وهم وهن؟ فإذا أهملناها ولم نأخذها على حقها ولم تحسن القيام عليها وجئت أنت تقول: هذا الأسلوب لا أسيغه فما هو من اللغة، ويقول غيرك: وهذا لا أطيقه فما هو منها، وتقول الأخرى: وأنا امرأة أكتب كتابة

أنثى... وانسحبنا على هذا نقول بالرأي ونستريح إلى العجز، ونحتج بالضعف، ويتخذ كل منا ضعفه أو هواه مقياساً يحد به علم اللغة في أصله وفرعه ـ فماذا عسى أن تكون لغتنا هذه بعدُ؟ وما عسى أن يبقى منها وأين تكون نهايتها؟ ثم أي علم من العلوم يصلح على مثل هذا أو يستقيم عليه؟ وفيم تكون المجاذبة والمدافعة؟ وبمَ يقوم المِراء والجدل إذا اتفقنا على أن بعض الجهل لا يمكن أن يكون قاعدة في بعض العلم؟

إن هذه العربية بنيت على أصل سحري يجعل شبابها خالداً عليها فلا تهرم ولا تموت؛ لأنها أعدت من الأزل فلَكاً دائراً للنيِّرين الأرضيين العظيمين: كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ومن ثمَّ كانت فيها قوَّة عجيبة من الاستهواء كأنها أُخْذَة السحر، لا يملك معها البليغ أن يأخذ أو يدع.

وأنا أتحدى كل أصحابنا الذين أشرت إليهم أن يأتوني بكاتب واحد تنقّل في منازل البلاغة وأطلق أساليب الكتابة العالية، ثم نزل عنها إلى الركاكة أو المذهب الجديد أو ما شئت من الأسماء، ولزِمها مذهباً وجعلها طريقاً، وهذا التاريخ بين أيديهم، وبعضهم بين أيدي بعض، فليأتوني بمثل واحد أسلِّمْ لهم كل ما في يدي من الأدلة على سخفهم، وأجعل واحدهم هذا بألف من عندي!

فأما أن لا تقدر يا أبا خالد وتزعم العفة، وأن تعجز ثم تجنح إلى الرأي، وأن تضعف ثم تتمدح بالسلامة ـ فهذه أساليب ابتدعها من قبلك من أذكياء

الثعالب... وزعموا أنه اقتصر على القول بأن العنقود حامض[١] وأراه ما اقتصر على ذلك إلا لأن زمنه كان أحسن من زمننا وأسلم وأقرب إلى الصدق... فلو هو كان من ثعالبنا... لزعم أنه ابتاع زجاجة من الخل وصبها بيده في حبات العنقود الحلو وبذا صار إلى الحموضة ولهذا تركه!

وكيف تريد ممن عجز عن الفصيح أن يُثنى عليه، وهو لو أثنى عليه لطولب به، ولو طولب به لبان عجزه وقصوره، ولو ظهر الناس منه على العجز والقصور لما عدّوه في شيء، ولذهب عندهم قليل ما لا يحسنه بالكثير الذي يحسنه؟

لقد سألت بعضهم: ما هو هذا الجديد الذي تحامون عنه؟ قال: هو ما يكتب به الصحف. قلت: فإن فيما يكتب الضعيفَ والساقط والمرذول، ثم ما هو إلى الجزالة والفصاحة، ثم ما يلتحق بجيد الكلام؛ فأي هذه تريد؟ وأيها ليس قياساً من أصله العربي المعروف؟ أفتجعلون النقص مذهباً من كماله، ثم لا تكتفون بخطأ واحد وتدعون أن الكمال في نفسه يجب أن يعد مذهباً من النقص؟ أم الجديد هو ما يكتب به في الصحف تعني لأنك أنت تكتب في الصحف...؟

أما إننا لا ندفع أسلوبهم، فهو على كل حال خير من العامية، ولسنا نقول إن كل الناس يجب أن يخاطبوا في كل أمور دنياهم ودينهم من فوق المآذن؛ ولكن

---

(١) هذا مثل مشهور، زعموا أن ثعلباً وقف على دالية من العنب، فأبصر عنقوداً يتميَّز ماءاً وحلاوة، فواثبه مراراً، فلم يصل إليه؛ إذ كان عالياً، فلما أعجزه قال: هذا عنقود حامض لا يؤكل! وانصرف وهو يرى أن العنقود لم يعجزه، ولكنه هو تركه؛ لعلة الحموضة!.

الخلاف بيننا وبين هؤلاء جميعاً ينحصر في أمر واحد هو تفسير لكل فروعه، وذلك أن هؤلاء الكتاب لا يريدون أبداً أن تسمى الغلطة باسمها... فإذا أخطؤوا فلا تقولن أخطؤوا، ولكن قل: إنه صواب جديد.... ...

٦١ عمر بن عبدالعزيز والشعراء[١] للكاتب محمود محمود

روي أنه لما استخلف عمر بن عبدالعزيز بعد سليمان بن عبدالملك سنة تسع وتسعين وفد عليه كثير من شعراء الحجاز والعراق، فكان فيمن حضر نصيب، وجرير، والفرزدق، والأخطل، ثم ترددوا على بابه أيَّاماً، فلم يأذن لأحد منهم في الدخول عليه وإنما كان يأذن للقراء والفقهاء وأهل الورع والوعَّاظ ويبعث في طلبهم فلما استيأسوا أزمعوا على الرحيل، فمرَّ بهم رجاء بن حيوة وكان من خطباء أهل الشام، وله على عمر دالة[٢] فقال له جرير:

يا أيها الرجل المرخي عمامته ... هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

فدخل رجاء، ولم يذكر شيئاً من أمرهم لعمر، ثم مرَّ بهم عديٌّ بن أرطاة فقال له جرير:

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه ... أنِّي لدى الباب كالمصفود في قَرَن[٣]

لا تنس حاجتنا لُقِّيت مغفرةً ... قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

فلما دخل عديٌّ قال: يا أمير المؤمنين، الشعراء ببابك، وسهامهم مسمومة، وأقوالهم نافذة، فقال عمر: ويحك يا عديُّ، مالي وللشعراء؟ قال: أعز الله أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قد امتُدِح فأعطى، ولك في رسول الله ﷺ أسوة.

---

(١) مجلة جمعية مكارم الأخلاق، العدد الثالث، ص ١ ـ ٤، رمضان ١٣٤٣هـ.

(٢) دالة: يعني له أمر عليه، وله حظوة عنده. (م)

(٣) حبل.

قال عمر من بالباب منهم قال: عمر بن أبي ربيعة؛ فقال عمر: أليس هو الذي قد قال:

ثم نبهتها فهبت كعاباً[١] طَلْقَةً[٢] ما تُبِيْنَ رَجْعَ الكلام
ساعة ثم أنها بعدُ قالت ويلنا قد عجلت يا ابن الكرام
أعلى غير موعد جئت تسعى تتخطى إلى رؤوس الأنام

قال: نعم. فقال عمر: لو كان عدوَّ الله إذ فَجَرَ كَتَمَ نفسه، والله لا يدخل عليَّ أبداً.

ثم قال: ومن بالباب غيره؟ قال: الفرزدق.

قال: أليس هو الذي قد قال:

هما دلتاني من ثمانين قامة كما انقض بازٌ أقتمُ[٣] الريش كاسره
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا أحيٌّ يرجى أم قتيل نحاذره

قال: نعم، قال: والله لا يطأ بساطي، فمن سواه بالباب؟ قال: الأخطل.

قال: أليس هو الذي قد قال:

ولست بصائم رمضان طوعاً ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بزائر بيتاً بعيداً بمكة أبتغي فيه صلاحي
ولست بقائم كالعبد أدعو قبيل الصبح حيَّ على الفلاح

---

(١) الجارية ذات الثدي الناهد.

(٢) ضاحكة.

(٣) أسود.

قال: نعم، قال: والله لا يدخل عليَّ وهو كافر، فهل سواه بالباب؟ قال: جرير بن عطيَّة. قال: أليس هو الذي قد قال:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام

وقبل أن يتم قوله قال عدي: يا أمير المؤمنين أحرز لي عرضي منه؛ فأذن له عمر فدخل وهو يقول:

إن الذي بعث النبي محمداً جعل الخلافة للإمام العادل
ومع الخلافة عدلُه ووقارُه حتى ارعوى وأقام ميل المائل
إني لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفس مولعة بحب العاجل

فقال له عمر: يا جرير اتق الله، ولا تقل إلا حقًّاً، فأنشأ يقول:

أأذكر الجهدَ والبلوى التي نزلت أم قد كفاني ما بُلِّغْتَ من خبري
كم باليمامة من شعثاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
ممن يعدك تكفى فقد والده كالفرخ في العشِّ لم ينهض ولم يطر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر
الخير ما دمت حيًّاً لا يفارقنا بوركت يا عمر الخيرات من عمر
زِنْتَ الخلافة إذ جاءت على قدر كما أتى ربه موسى على قدر

فلما فرغ من شعره ترقرقت عينا عمر، وقال: إنك لتصف مشقَّتك، قال جرير: ما غاب عنِّي وعنك أشد؛ فجهَّز عمرُ إلى الحجاز عيراً تحمل الطعام والثياب، ثم قال عمر لجرير: أأنت من المقاتلين في سبيل الله؟ قال: لا، قال: فلا

أرى لك في الفيء الذي عندنا حقّاً، فقال جرير: بلى يا أمير المؤمنين قد فرض الله لي فيه حقّاً، قال عمر: وكيف ذاك؟ قال: إني ابن سبيل منقطع، فأمر له بعشرين ديناراً من ماله، ثم قال له: خذ هذا الذي بقي لي وإن شئت فاحمد، وإن شئت فذم.

قال جرير: بل أحمد يا أمير المؤمنين، فلما خرج تلقّاه الشعراء، وقالوا: ما وراءك؟ قال: ليلحق كل منكم بمطيته فإنه رجل يعطي الفقراء، ولا يعطي الشعراء.



٦٢ فن الكلام[1] للشيخ علي الطنطاوي

زارني الليلة البارحة صديق لي فاستقبلته واعتذرت إليه بأني مشغول، عندي مقالة، قال: كل يوم مقالة، أو حديث؟ متى تنتهي هذه المقالات وهذه الأحاديث؟

قلت: حتى أنتهي أنا.

قال: إنك تنشر باستمرار من أربعين سنة فمن أين تجيء بهذه الموضوعات كلها؟

قلت: أسمع كلمة من تكلم، أو أبصر مشهداً في طريق، فأدير ذلك في ذهني، ولا أزال أولّد من الكلمة كلمة، ومن المشهد مشهداً حتى يجيء من ذلك حديث أو مقالة.

قال: أرني كيف تصنع حتى أتعلم!

فضحكت وقلت: إنها عملية تتم في ذهني لا في يدي؛ فكيف أُرِيك مالا يُرَى؟.

وكنَّا قد شربنا القهوة ولكني، لم أكتف بها ووجدت أنَّها لا تزال بي رغبة إلى الشاي، وأنا كالإنكليز ـ في هذه فقط ـ أشرب الشاي في الصباح، وفي الأصيل، وفي الليل لا أنتهي منه حتى أعود إليه.

فقلت للبنت: قولي لأمك إن بابا يسألك: هل من آداب الضيافة أن نقدم

---

(١) من كتاب صور وخواطر ص(٢٨٠ـ٢٨٦)، وقد نشرت في حدود عام ١٣٨٧هـ.

الشاي بعد القهوة؟

فذهبت فقالت لها: بابا عاوز شاي.

قلت له: أسمعت؟ هذا موضوع حديث.

قال متعجباً: هذا؟ قلت: نعم، لقد بعثتها لتنقل إليها عبارة معناها إني أريد شاياً، ولكني جعلتها نكتة لطيفة، ليس فيها أمر وليس فيها جفاء؛ فأضاعت البنت هذه المزايا كلها حين بلغتها المعنى المجرد جافاً قاسياً كأنه أمر عسكري.

أفلا يوحي إليك هذا بشيء؟

فنظر، وقال: لا!

قلت: أما أنا فقد ذكرني بقصة الأمير الذي رأى رؤيا مزعجة، فدعا بمن يَعْبُرها له، فقال له: تفسيرها أنها ستموت أسرتك كلها، فغضب الملك، وأمر به، فجلد عشر جلدات وطُرِد.

ودعا بآخر، فقال له... أيها الأمير إن تعبير رؤياك واضح أنك أطول عمراً من أسرتك كلها؛ فسر الأمير وأمر أن يعطى عشرة دنانير.

والمعنى واحد ولكن هذا قذف به في وجه الأمير عارياً صلداً كأنه يقذفه بحجر فخرج مضروبًا.

وذلك لفه بثوب جميل من حسن التعبير، وقدَّمه إليه بيمينه برفق وتعظيم؛ فخرج بالجائزة.

إن هذا هو الموضوع؟

قال: إني لم أفهم شيئاً إلى الآن؟ فما هو الموضوع؟

قلت: فن الكلام.

إن الإنسان كما يقولون حيوان ناطق، وليس النطق أن يخرج الحروف، ويصفَّ الكلام، بل أن يعرف كيف يتكلم، ورُبَّ كلمةٍ تدخل الجنة، وكلمةٍ تدخل النار، وكلمةٍ أنجت من القتل، وكلمة دفعت صاحبها إلى القتل، وربَّ صاحبِ حاجةٍ عند وزير أو كبير عرف كيف يطلبها؛ فقضيت له، وآخرَ طلبها فلم يصل إليها.

وكثيراً ما كان يقصدني أرباب الحاجات يسألونني أن أكلم لهم من أعرف من الوزراء والكبراء وأنا أكره أن أسأل في حاجة لي أو لغيري؛ فكنت أعتذر إليهم، ولكني أفيدهم فائدة أكبر من وساطتي، هي أن ألقنهم الكلام الذي يقولونه للوزير أو للكبير، ولولا أن الوقت يضيق عن التمثيل لضربت لذلك أمثالاً.

وفي كتب الأدب العجائب في هذا الباب ولعلي أعود إلى الكلام فيها يوماً.

وهذا فن لا يُتَعَلَّم تعلماً، ولكن يوصل إليه بالقلب الذكي، وبأن تعرف خُلقَ مَنْ تكلمه والطريق إلى نفسه.

وكل نفس لها باب، وإليها طريق، لم يخلق الله نفساً مغلقة لا باب لها، فهذا يدخل إليه من باب التعظيم، وهذا من باب العاطفة، وهذا من باب المنطق، وهذا من باب التهديد والتخويف، وهذا يزعجه التطويل ويحب الاختصار، وهذا يؤثر الشرح والبيان، ولا بدَّ لك من قبل أن تكلم أحداً أن تعرف من أي باب من هذه الأبواب تدخل عليه.

ولا أذهب بك بعيداً معك في الدار، أليس لك أولاد؟

قال: بلى.

قلت: قد يجيئك ولدك وهو عابس مبرطم ـ الكلمة عربية ـ فيقول لك بلا سلام ولا كلام: أبغي نصف ريال.

فتقول له: أما أخذت البارحة نصف ريال؟ أكل يوم نصف ريال؟ وتطرده.

ويجيء الولد الآخر فيقبل يدك، ويُسَلِّم عليك، ويقول لك: بابا أنا أشكرك؛ لأنك أعطيتني أمس نصف ريال، ولكني أنفقته وأنا أريد غيرها، ولكني مستحي منك، وسأقتصد، ولن أنفقها كلها مثل المرة الماضية.

فتقول له: لماذا تستحي مني؟ هل يستحي أحد من أبيه؟ خذ هذا ريال.

إنك لا تفضل ولداً على ولد، ولا تبخل بنصف الريال، ولكن الأول أساء الأدب؛ فعاقبته بالحرمان، والثاني أحسن الأدب؛ فأجبت له الطلب.

والمرأة الحكيمة التي تعرف خلق زوجها، وتعرف كيف تكلمه ـ تصل إلى كل ما تريده منه، والمرأة الحمقاء تحرم نفسها من كل شيء.

الأولى تعرف الوقت المناسب لعرض طلبها، فلا تجيء زوجها وهو غضبان أو متضايق، بل تنظر ساعة رضائه، وانطلاق نفسه، فتطلب منه، ولا يكفي الرضا منه، بل يجب أن يكون مع رضا النفس امتلاء اليد؛ فإذا كانت تعلم أن الزوج ليس لديه من المال ما يلبي به الطلب لم يفدها حسن العرض، ولا جمال القول.

وليست العبرة بألفاظ الكلام فقط، بل باللهجة التي يلقى بها هذا الكلام والتحية إن ألقيت بلهجة جافة كانت شتيمة، والشتيمة إن ألقيت بلهجة حب كانت تحية، والولد الصغير يعرف هذا بالفطرة، إن قلت وأنت ضاحك «أخ يا

خبيث» سُرَّ وابتسم، وإن قلت وأنت عابس مهدد: تعال يا آدمي يا ـ منظوم ـ خاف وهرب.

وإن قلت لصديقك في الدار: تفضل اقعد كانت مكرمة، وإن قالها رئيس المحكمة للمحامي في وسط دفاعه كانت إهانة.

مع أن الكلمة واحدة وإن كتبت لم يكن بين حاليها اختلاف، وما نقلها من حال إلى حال إلاَّ اللهجة.

وخذ ـ مثلاً ـ أقرب كلمة صباح الخير.

إنَّ صباح الخير قد يكون معناها إني لا أبالي بك، ولا أحس غيابك، ولا حضورك؛ وذلك إن قلتها ووجهك خالٍ من كل تعبير، وصوتك خالٍ من الحرارة، كأنك تردد جملة محفوظة.

وقد يكون معناها إني أعطف عليك ولكني أراك دوني، وأحس أني أرفع منك ـ إن قلتها وأنت باسم بسمة دبلوماسية، وقد أحنيت رأسك ربع سانتي انحناءة مُصْطَنَعَة.

وقد يكون معناها إني صديقك المخلص لك ـ إن قلتها بابتسامة صادقة وبلهجة طبيعية.

وإن برقت عيناك وأنت تقولها، وارتجف صوتك حتى كأنه صوت «أحمد علام» في رواية مجنون ليلى كان معناها: إني أعشقك، وأموت حباً فيك.

وقد يكون معناها، إني أحتقرك وأزدريك إن قلتها وأنت مُصَعِّر خَدَّك زاوٍ نظَرك، شامخٌ بأنفك.

وقد يكون معنى صباح الخير: سبَّ الأب؛ فإذا عوتب القائل قال: «وهل شتمته، هل قلت له شيئاً؟ إنما قلت له صباح الخير».

وقد يكون للكلمة أحياناً عكس معناها، الذي يدل عليه لفظها، يفهمُ ذلك من قرائن القول، وظروف الكلام؛ فإذا خرجت من الوزارة أنت وزميلك، فاصطحبتما في الطريق، حتى بلغت دارك، تقول له: تفضل معنا.

فيقول لك: في أمان الله؛ لأنَّ «تفضل معنا» هنا، معناها: فارقنا واذهب عنَّا؛ بدليل أنه لو أخذها على حقيقتها وتفضل معك لضقت به؛ واستقبلته[1] وعجبت منه.

وقد يطيل الزائر السهرة، ثم يتهيأ للقيام فتقول له: بدري «كمان شوي» ومعنى ذلك: لقد أطلت فاذهب.

وإذا مللت من حديث محدثك، تقول: «لا يمل» وهو في الحقيقة قد مَلّ.

وتقول: «غير مقطوع حديثك» وقد قطعته وفصلت رأسه عن جسده، أو بترت ذنبه عن جسمه.

وقد يفقد الكلام كل معنى، ويصير جُمَلاً فارغة، كقولك لمن تلقاه.

كيف حالك؟

ولا يهمك حقيقة أن تعرف حاله ولا ماله.

ويقول لك: مشتاقون، وما هو بالمشتاق إليك، ولا المفكر فيك.

ويقول: طمني عن الصحة؟.

---

(١) لعلها: واستثقلته (م).

كأن صحته تشغل فكرك، وتطرد النوم عن عينيك ولا تطمئن حتى تثق بكمالها وتمامها.

كنت مرة خارجاً من المستشفى، بعد عملية جراحية، لا أزال أقاسي آلامها، فلقيني صديق لي فقال: كيف الصحة؟

فظننته يسأل عنها حقيقة ورحت أشرح له ما بي، و أصور ما أجد وتكلمت خمس دقائق بمقدار حديثي في الإذاعة ـ على مائدة الإفطار ـ في رمضان فلما انتهيت سكتُّ، ونظرت إليه أسمع منه، فقال: كيف الصحة إن شاء الله بخير.

وإذا به لم يسمع من شرحي وبياني شيئاً.

ودليل آخر، هو أسلوب التحية هنا وفي مصر وفي الشام يقول لك، من تلقاه. كيف أصبحت؟ كيف الأولاد، فتجيبه بما تيسر، فيعود فيقول: وكيف أصبحت؟ وكيف الأولاد؟

يعيدها ـ كما تعاد «ازيك» في مصر، و«ايش لونك» في الشام والعراق، سبع عشرة مرة على الأقل؛ فلا تدري بماذا تجيب.

ومن الكلام الذي لا يدري المراد منه سؤال إخواننا الصحفيين كل من يلقونه، في كل مناسبة، وفي غير مناسبة، «عن شعوره» عند رؤيته هذا المشهد، و«انطباعه» ـ وما أدري ما معنى «انطباعه» ـ لذلك الحادث.

ولو حققت عن مراد السائل من سؤاله، وجدت السائل لا يعرف حقيقة ما يريده، فضلاً عن أن يعرفه المسؤول.

ولهجة الكلام وملامح الوجه، تقلب المعنى قلباً؛ تصوروا رجلاً يدخل المأتم

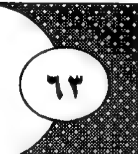
الحزين، وهو باسم الثغر، منطلق الوجه، ويقول بلهجة مرحه: «عَظَّم الله أجركم، والله تألمنا لمصابكم»، أو يدخل الفرح وهو دامع العين، ويقول بلهجة باكية: «لكم تهانينا، إننا فرحون لفرحكم».

إن من يسمعه، يقول إنه أحمق، أو كاذب، ومثله مثل هؤلاء المغنين الذين يسمون أنفسهم قراء وما هم بالقراء، يتلون آية العذاب من كتاب الله التي تقشعر لها الجلود بصوت مرح ونغمة مرقصة، ويتلون آية البشرى والنعيم بنغمة حزينة وصوت باك.

وإن من إمارات الحكم على شخصية إنسان لهجة كرمه، فمن كان يتكلم بصوت هادئ ولهجة متزنة، وحروف واضحة، كانت له شخصية المهذب النبيه، ومن كان مرتفع الصوت، حاد اللهجة يتشدق في كلامه، أو يمط الحروف لم تكن له هذه الشخصية، وقد ترى امرأة جميلة الوجه وأخرى دونها جمالاً، ثم تسمع كلامهما، فتجد الأولى خشناً ولهجتها قاسية، وهي مسترجلة في نطقها، وتجد للثانية صوتاً رقيقاً ولهجة ناعمة ونغمة حبيبة، فيزيد في عينيك جمالها حتى لتجدها أجمل من صاحبتها بل ربما شوه كلام الأولى صورتها في بصرك حتى رأيت جمالها قبحاً.

قال صاحبي: لقد اكتملت المقالة.

قلت: نعم، وكان موضوعها جديداً، هو «فن الكلام».



وقاحة الأدب(١) أدباء الطابور الخامس
للعلامة محمود محمد شاكر

نحن لا نشك في حقيقتين ظاهرتين متمايزتين متحزبتين بطبيعة الفطرة الإنسانية الاجتماعية، فالحقيقة الأولى هي مطالب الفرد لنفسه، ورغباتُه، وأمانيه، وأحلامُه، والحقيقة الأخرى هي: مطالب الجماعة المكونة من الأفراد على اختلاف نزعاتهم في أنفسهم وخاصتهم.

وكل عمل فردي لا يكاد يفلت أثره في الجماعة، وتوجيهه في الحياة الاجتماعية عامة إلى جهة بعينها، وخاصة إذا كان مرد أعمال الأفراد إلى قاعدة عامة تطلق لهم من الحرية ما يجعل أعمال الفرد استقلالاً على طريقة المصلحة الفردية التي لا تحترم قيود الجماعة.

وقيود الجماعة عندنا هي المصلحة التي لا ترقى بها هذه الجماعة المختلفة قوة وضعفاً، ولؤماً وكرماً، وعقلاً وسفاهة، وحكمة وضلالاً.

وأخطر الأشياء في حياة الجماعات والشعوب هي القواعد العامة التي يأتي من تفسيرها وتوجيهها سيلٌ طامٌّ متدفق من تيارات الأفكار المتنازعة التي تتنابذ ولا تتعاون.

---

(١) الدستور ـ السنة الثالثة ـ العدد ٨١٣، السبت ٢٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥٩هـ ـ ٣ أغسطس سنة ١٩٤٠م، ص١، وانظر جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمعها وقرأها وقدم لها د. عادل سليمان جمال، ٨٦١/٢.

فلذلك نحن نعد المبادئ العامة التي تسيِّرها أعمال الأفراد مستقلة عن الفكرة الاجتماعية الرحيمة التي تخاف سوء المغبة في جسم الجماعة ـ هي الأصل الذي يجب أن يُمَحَّصَ ويُحَقَّقَ ويُضْبَطَ؛ حتى لا تتنازع عليه الأهواء أو الشهوات ودناءات الأخلاق الفردية المستأثرة، والتي تعيش بلذاتها قبل حقائق لذاتها؛ فإن طغيان الوحشيَّة الفرديّة يفضي بالعالم إلى فوضى في الجماعة لا تقاومها حسناتُ المجتمع، أو مصالحُه، أو حقيقةُ حياته.

فأنت ترى من ذلك أن أهم ما يجب علينا أن نتوجَّه إليه، هو ضبط النسبة بين حاجة الفرد المستقل باعتباره فرداً من جماعة مستقلة ـ أيضاً ـ.

تريد هذه الجماعة أن تجتنب أكبر قسط، بل أعظم كارثة من بلاء التشقق الاجتماعي الذي يأتي من وراء القانون الذي يضبط دولة الجماعة ويقوم على حياطتها؛ طلباً لإسعادها والترفيه عنها، ووقايتها من التدهور الأدبي والعقلي والسياسي والاجتماعي.

وقد كان من بلاء المدنية الأوربية الفاجرة أن انفجرت في الأخلاق الفردية انفجاراً بعد انفجار حتى صارت مِزَقُ الأخلاق نثراً متطايراً لا يجمعه جامع يكون للجماعة ـ من صعلوكها إلى مليكها ـ جِماعاً ومِلاكاً واستحصاداً، يمسح عن آلام البشرية تلك الدموع الغزيرة التي تجري تحت ظلام تلك الأثرة، والبغي، والاستبداد، والشهوات المظلمة في نفوس مظلمة مثلها.

وأنشأت هذه الطريقة الدنيا من الشهوات المستحكمة الغالبة مبادئ يتخذها الأفراد شعاراً، ثم جعلت تتخذها بعض الجماعات رمزاً لحياتها، ولكنها مع

ذلك لا تعدها نظاماً لجماعة، بل تبديداً لنظام الجماعة، أو لما ينبغي أن يكون عليه نظام الجماعة.

فمن هذا البلاء ما يقوم في عقول بعض المتأدبين من حرية الإنتاج الأدبي على أيِّ صورة من الصور، أي أن يدور الأديب بإنتاجه حول شهواته الخاصة التي يبثها أدباً في أمته، ويدعي مع ذلك أن هذه الحرية الشخصية في نظرته إلى الحياة وأعماله في الحياة، وتصوير هذه النظرات والأعمال ـ عمل أدبيٌّ حرٌّ يكفل له الناس الانتشار والذيوع، وأن يدخل على الأحرار في بيوتهم، وعلى العقائل في خدورهن الطاهرة وعفافهن النبيل، وأنه ينزل على الأمهات والزوجات والعذارى وحياً جديداً من الفن الذي تضمن له فَنِّيَّتُهُ حرية التغلغل في حصون الأمة المقاتلة عن الذراري والأبناء، وكيان الشعب المولود للمستقبل.

ولا يبالي هؤلاء أن يكون في داخل هذه الحصون الشعبيَّة الهائلة معنىً جديدٌ يخذل القوى العاملة على إنشاء الحياة الاجتماعية إنشاءاً يضمن لها البقاء، والاستمرار، والتفوق، والسمو بالشعب إلى القوة الحاكمة التي تدفع عن أرض الوطن بلاء الاستعباد؛ فإن الرجل إذا استعبدته الشهوة فهو يدور أبداً في تصريفها مستعبداً ذليلاً لا يدفع عن نفسه إذا ما أوتي من هذه الحاسة المتلينة الخاضعة بطبيعتها إلى سلطان اللذة غير متورعة عن التدلي إلى الحضيض، وغير حافلة إلا بالساعة الحاضرة العمياء المظلمة ظاهراً أو باطناً.

وإذا فسد الأدب أول ما يفسد هذه الحصون فقد أمدَّ الشعب بهلاكه، وأدخل عليه هذه النوازع المحطِّمة، وبثَّ فيه سراياه وأعوانه من (الطابور الخامس) الذي

يعمل على إيجاد حركة ارتداد تشقُّقٍ وحَيْرَةٍ ووَجَلٍ.

فإذا تمَّ لهذا الطابور الخامس تمامه استولى على الأمة فمحقها بالفزع والتسليم والرضا بالخضوع والذُّل، قبل أن يمحقها العدو بالآلة والسلاح والجيش الغازي.

وفي هذه الأمم التي لا تملك من سلطان القوة ما تسوغ به السيطرة على ميادينها في صراع الأمم إذا تصارعت، أي في هذه الأمم الشرقيَّة، وأخص الأمة العربية - يعيش هذا الطابور الخامس من الأدباء، ويرى أنه قد أجاد المذهب والمسلك، واتخذ لأمته أهدى السبيلين وخير المنزلتين.

وعقيدة هذا الطابور الخامس أن حرية الفن يجب أن لا تتقيَّد بمصلحة الجماعة، أي أن يكون إنتاج هذا الطابور على ما يثور في أنفس أفراده من النزعات المستكلبة[1]، والنزغات المنفجرة في أعصابه بروح الشهوات.

فالأدباء والشعراء خاصة يرون أن أدبهم وشعرهم لابد أن ينطوي على تلك المعاني النفسيَّة النازلة التي تستولغ في دماء الناس وأعراضهم المذبوحة بالآلات الحديدة الماضية التي لا تقاوم بالشهوات الغريزيَّة المجنونة التي تضيء لأعينهم سراج اللذة المحرمة تحت جناح الليل بين الأخلاق المتهالكة في حانات الفجور، تستنقع بأحلامها وهذيانها في كأس تفوح نشوة، وتسيل عربدة، ثم ماذا؟

ثم يأتي هؤلاء فيدفعون إلى المجتمع نتاجاً مركباً من جميع هذه الرذائل المنهوكة المخمورة، ثم تتغلغل هذه المساخط كلها في بيوت الشعب في أوهام الزوجات البريئات، في عيون الفتيات الجاهلات، في أحلام العذارى المتأملات في هدأة

---

(١) المستكلبة: التي أصابها داءُ الكَلَب، وهو السعار (م).

الحياة ينتظرن من وراء النفس والعقل تحقيق أحلام الفطرة الغالبة على كل حيٍّ في هذه الأرض.

ثم يكون ماذا؟ ثم يكون هذا التفكُّك والتَّخاذل بين الأوصال الشعبيَّة التي يجب أن تتماسك، وأن تجعل من تماسكها وارتباطها قوّة، وأن تنفث فيها روح الجماعة روحاً سامية طامحة راغبة جادَّة تريد أن ترتفع بالجميع فوق شهوات الجميع؛ لتحقق للكيان الاجتماعي كله سيادة تامَّة على الأسباب التي يصير بها الشعب قوة عاملة على إيجاد السعادة للشعب وسلالة الشعب في مستقبل أيامه وأعوامه.

فأدباء الطابور الخامس الذين اتخذوا لأنفسهم شعاراً من حرية الفن، وحرية الأدب، وحرية التعبير عن ثورة النفس المشتهية المستكلبة، هم أعدى أعداء هذا الشعب المسكين، وهم البلاء الماحق، وهم الذلُّ الحاضر، والقيد الربوض، وهم سفالة الإنسانية؛ إذ كانت الإنسانية لا تستطيع إلا أن تنزل بهم إلى الحضيض الأوهد من الخضوع لسلطان الشهوة، وهم الهلاك المحقّق؛ لأنهم سبب التفرقة؛ إذ كان بناء أدبهم على الاستقلال الفردي المحض الذي لا يُقَدِّرُ للجماعة معنى الجماعة، بل يأتيها بكل أسباب التمزيق والتعاند والخلاف بين القوى إذا تحررت فانطلقت فاتخذت كل قوة سبيلاً مناقضاً لاتجاه صاحبتها، فتصبح قوى الشعب كلها في نزاع دائم لا خير فيه، بل فيه كل الشر، وكل البلاء، وكل المحق.

إن أحداً من الناس لا يستطيع أن يفرغ دمه من معاني الشيطان ـ لا يستطيع أن

ينقي أعصابه من وراثة الغرائز الإنسانية القديمة الآتية مع الإنسان من الخطيئة الأولى لآدم ـ صلوات الله عليه ـ.

وإن أحداً لا يعطى التحكم في تصريف القدر على الوهم والأحلام، ولكن الإنسان أعطي العقل، وأعطي مع العقل الإرادة، وأعطي مع الإرادة طبيعة التعاون، وأعطي مع هذه الطبيعة نظام الجماعة، **فأعطي مع نظام الجماعة حقيقتين عظيمتين:**

فالحقيقة الأولى: هي قدرة الفرد في بعض حياته على الحياء وعلى التضحية، وبذلك يستطيع أن يضع تحت أعين الجماعة قدوة حسنة، ومثلاً أعلى، ينبل، ويسمو، ويترفع، ويضيء في الأجواء البعيدة بروح الجمال والحق.

والحقيقة الأخرى: هي سرعة استجابة الجماعة للمثل الأعلى بالاقتناع من ناحية، والتقليد من ناحية أخرى، وبجميع ذلك تستطيع الجماعة أن تجعل نظامها سامياً أبداً عظيماً دائماً، متماسكاً على مرِّ الزمن.

فأدباء الطابور الخامس ـ هم كسائر الناس ـ يستطيعون أن يستخدموا العقل والإرادة وطبيعة التعاون ونظام الجماعة؛ لإيجاد المثل الأعلى للشعب، باذلين من أنفسهم تضحية واحدة، هي أن يستحوا قليلاً من الناس ومن أنفسهم، وأن يجعلوا مصلحة هذا الشعب المسكين نصب أعينهم، وعلى مدِّ أفكارهم، وأن يكونوا عاملين على إيجاد القوة في بناء الأمة وإصلاح أفرادها، لا أن يكونوا خبلاً خابلاً وفساداً، ونزولاً بالإنسانية السامية إلى الحضيض المظلم الذي تعيش فيه أرواح الشرِّ المهلكة، تلك الأرواح التي لا تريد من معنى الحرية إلا استعباد

الآخرين للشهوات.

أما نحن فعلينا أن نحارب هذا الطابور الخامس قبل أن نحارب أعداءنا من غيرنا؛ لأن هذا هو العدو الحقيقي الذي يخذل قوانا، ويفسد استحكامنا، ويحطّم قواعدنا الحربية التي بنتها الأجيال من قديمنا الأول.

هذا الطابور الخامس هو من رسل المدنية الخَرِبة التي تهدمت، ولا تزال تتهدم، وستتهدم في ميادين القتال إلى هذا اليوم؛ فلنعمل جميعاً على أن نكون من الفرق الواقية من دسائس الطابور الخامس.



رابع عشر: مقالان في السيرة النبوية

٦٤ مولد الإنسانية[١] للشيخ العلامة محب الدين الخطيب

قال الحكيم الفرنسي الشهير غوستاف لوبون: «ما عرف التاريخ حاكماً أعدل ولا أرحم من العرب».

وهذا الامتياز الذي تفرَّد به العرب في التاريخ ـ كما لاحظه الحكيم الفرنسي وأعلنه للناس ـ إنما كانت نفحة من رسالة الله التي اختار لها صفوة عباده، وأكمل مخلوقاته، محمد بن عبدالله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فكان يوم مولده يوم مولد العدل الذي كانت الإنسانية في انتظاره، وبشيراً برحمة الله التي تعامل الناس بها للمرة الأولى بمقياس واسع في ظلّ الرسالة المحمدية.

فالمولد المحمدي لم يكن مولد إنسان، وإنما كان مولد إنسانية، وكانت الإنسانية قبل ذلك أمنية الخواص، وكان التعامل بها محصوراً بين أفراد ممتازين، فلما آذن الله بمولد صاحب هذه الذكرى الخالدة على الدهر رفع بمولده مقام الإنسانية، ونهض بمستواها إلى المرتبة التي كان يحلم بها الحكماء، ويرونها من أماني الخيال؛ فصارت الإنسانية عقيدة وديناً، بعد أن كانت أمنية ووهماً، وقامت لها في الأرض دولة تعد الصدق من دعائم دينها، والحياء من شعب إيمانها، والرحمة من أسلحة نضالها، وإقامة الحق من شعائر مجتمعها، وإماطة الأذى عن كل طريق خلقاً إسلاميًّاً يتخلّق به كلٌّ من سار وراء هذا المتبوع الأعظم.

---

(١) مع الرعيل الأول ص٧ ـ ١٧.

يقول أديب العصر مصطفى صادق الرافعي رحمه الله: «ليس المصلح من استطاع أن يفسد عمل التاريخ؛ فهذا سهل ميسور حتى للحمقى، ولكن المصلح من لم يستطع التاريخ أن يفسد عمله من بعده».

وإن سيد المصلحين، وأفضل رسل الله أجمعين هو صاحب الرسالة الوحيدة التي تولى الله حفظها، وتكفل بالخلود لكتابها، وحاط مبادءها وسننها وأحكامها وأهدافها بحياطته الصمدانية، وأقامها بين أيدي البشر غضة سليمة كأن نبرات صوته الشريف تنطق بنصوصها وحروفها في كل حين، فتبهر الناس بكمالها الذي لا يدركه كمال.

قالت الليدي إيفلين كوبولد في كتابها (الحج إلى مكة):

«لقد تساءل غوتيه: إذا كان هذا هو الإسلام، ألسنا كلنا مسلمين؟

فأجاب كارليل: أجل، إن من يحيا بالروح إنما يحيا على الإسلام».

ويقول مستر ولز أكبر مؤرخي هذا العصر: «كل دين لا يسير مع المدنية في كل طور من أطوارها فاضرب به عرض الحائط، ولا تبال به؛ لأن الدين الذي لا يسير مع المدنية جنباً إلى جنب لهو شرٌّ مستطير على أصحابه يجرهم إلى الهلاك.

وإن الديانة الحقة التي وجدتها تسير مع المدنية أنَّى سارت هي الديانة الإسلامية، وإذا أراد الإنسان أن يعرف شيئاً من هذا فليقرأ القرآن؛ إن كثيراً من أنظمته تستعمل في وقتنا هذا، وستبقى مستعملة إلى قيام الساعة.

وإذا طلب مني القارئ أن أحدد له (الإسلام) فإني أحدده بالعبارة التالية: (الإسلام هو المدنية)».

وهل في استطاعة إنسان أن يأتيني بدور من الأدوار كان فيه الدين الإسلامي مغايراً للمدنية والتقدم؟

إن محمداً هو الذي استطاع في مدة وجيزة لا تقِلُّ عن ربع قرن أن يكتسح دولتين من أعظم دول العالم، وأن يقلب التاريخ رأساً على عقب، وأن يكبح جماح أمة اتخذت الصحراء المحرقة سكناً لها، واشتهرت بالشجاعة ورباطة الجأش والأخذ بالثأر واتباع آثار آبائها، ولم تستطع الدولة الرومانية أن تغلب الأمة العربية على أمرها؛ فمن الذي يشك أن القوة الخارقة للعادة التي استطاع محمد أن يقهر بها خصومه هي من عند الله؟

وهذه الحضارة الإنسانية، بل الإنسانية الممتازة، التي ولدت بمولد الهادي الأعظم، وانطوت عليها رسالته السامية، وحققها بالتعامل بها من اتبعه من الصحابة والتابعين - هي التي وقف في طريقها شارل مارتل، وكان الذين يجهلون الإسلام من الغربيين يمجِّدون شارل مارتل ويقدسونه لذلك، فلما ظهر فيهم من أدرك أهداف هذه الرسالة، وعرف كريم معدنها، وثمين جوهرها، تغير حكمهم على تلك الحادثة التاريخية الأليمة، فقال مسيو هنري دي شامبون مدير مجلة (ريفو بارلمنتير الفرنسية): «لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على تقدم العرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى، ولما أصيبت بفظائعها، ولا كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الديني والمذهبي.

ولولا ذلك الانتصار البربري على العرب لنجت أسبانيا من وصمة محاكم التفتيش، ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون. نحن مدينون للشعوب

العربية بكل محامد حضارتنا: في العلم، والفن، والصناعة، مع أننا نزعم السيطرة على تلك الشعوب العريقة في الفضائل، وحسبها أنها كانت مثال الكمال البشري مدة ثمانية قرون، بينما كنا يومئذ مثال الهمجية.

وإنه لكذب وافتراء ما ندَّعيه من أن الزمان قد اختلف، وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى».

ويقول مسيو كلود فارير في المقدمة التي كتبها للترجمة الفرنسية من رواية العباسة أخت الرشيد تأليف جورجي زيدان: «أصيبت الإنسانية والعالم الغربي عام ٧٣٢م بكارثة عظمى لم تصب بمثلها في القرون الوسطى، وبقي أثرها ظاهراً في العالم مدة سبعة قرون أو ثمانية، إن لم يكن مثل ذلك؛ لأن روح التجدد كانت يومئذ قد بدت للعيان، حتى وقعت تلك الكارثة فكان من نتائجها تأخر سير الحضارة ورجوع العالم إلى الوراء، هذه الكارثة هي الانتصار المؤلم الذي أحرزه وحوش الهاركا من جيوش الإفرنج التي كان يقودها شارل مارتل سليل الكارلنجيين محارباً بها كتائب العرب والبربر التي لم يحسن عبدالرحمن جمعها وحشدها بالمقدار الكافي؛ فكان ذلك سبب خذلانها وتقهقرها.

في ذلك اليوم المظلم تقهقرت الحضارة إلى الوراء ثمانية قرون.

وحسب الذين يبتغون أن يشهدوا مثالاً من مدنية العرب يومئذ أن يتنقلوا بين حدائق الأندلس الغناء، ثم أن يأتوا الآن فيترددوا بين خرائب ذلك العصر الماثلة للأنظار في إشبيلية وقرطبة وطليطلة وغرناطة».

وبينما كان المنصفون من كبار أدباء الغرب وعلمائه يعترفون بهذه الحقائق عن

الإنسانية الكاملة التي بعث الله بها أكمل رسله إلى صفوة أممه ـ كان شيخ ملاحدة الشرق العالم الشهير الدكتور شبلي شميل يقول بلا محاباة: «إن القرآن فتح أمام البشر أبواب العمل للدنيا والآخرة، وجاء لتقوية الروح والجسد بعد أن أوصد غيره من الأديان تلك الأبواب، فقصر وظيفة البشرية على الزهد والتخلي عن هذا العالم الفاني».

ونتخطى العلماء والحكماء والأدباء إلى سادة العروش وقادة الجيوش، وساسة الأمم، فننقل عن مسيو موريس باليولوغ ـ عضو الأكاديمية الفرنسية، وأحد سفراء فرنسا السابقين في روسيا ـ من كتابه (غليوم الثاني ونقولا الثاني) فقرة من النص الدقيق لرسالة بعث بها الإمبراطور غليوم إلى قريبه قيصر روسيا يوم ٩ نوفمبر ١٨٩٧ يصف له فيها شعوره عند زيارته بيت المقدس في ذلك الشهر من تلك السنة، وختمها بقوله: «ولما غادرت الأماكن المقدسة كنت أشعر بخجل عظيم من المسلمين، وكنت أقول لنفسي في قرارة نفسي: لو لم يكن لي دين عند وصولي إلى القدس لكنت قد اعتنقت حتماً الدين الإسلامي».

وهذا الدين الإسلامي هو دين الأخلاق، وشُعَبُ إيمانه ـ التي بلغت بضعاً وسبعين شعبة ـ يدور أكثرها حول الأخلاق، فالأخلاق من أركان الإيمان في الإسلام، وقد تغنى (شوقي) بذلك يوم قال في الرسول ﷺ:

يا من له الأخلاق ما تهوى ... منها، وما يتعشق الكبراء
لو لم تُقِمْ ديناً لقامت وحدها ... ديناً تضيء بنوره الآناء
زانتك في الخلق العظيم شمائل ... يُغرى بهن ويُولع الكرماء

فإذا رحمت فأنت أمٌّ أو أبٌ هذان في الدنيا هما الرحماء
وإذا غضبتَ فإنما هي غضبة في الحق لا ضغن ولا بغضاء
وإذا قضيتَ فلا ارتيابَ كأنما جاء الخصومَ من السماء قضاءُ
وإذا أخذت العهد أو أعطيته فجميع عهدك ذمةٌ ووفاء

أيها المسلمون، إن الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ هو ما يسميه الإفرنج (السبرمان) أي الإنسانية في أسمى ذروتها، وإنكم - يوم تنشدون لمجتمعكم النظام الصالح - لا مناص لكم من أن ترجعوا إلى هذا النظام فتأخذوه من ينابيعه الأولى، وتفهموا كل فقرة من نصوصه بجوّها الذي كان لها يوم نطق بها هذا الهادي الأعظم، وتأخذوها على أنها أمر لكم من نبيكم لتعملوا بها، لا على أنها حكمة تحفظون ألفاظها؛ لتتحدثوا بها إلى من تجالسونه، ثم تنتهي مهمتها هناك.

إن الله بعث صاحب هذه الرسالة الكريمة ﷺ؛ لتكون لنا به أسوة حسنة، أي لنحاول السير معه من ورائه؛ فنضع قدمنا على آثار قدمه الشريفة، لا نخرج عن طريقه إلى أي طريق آخر، وإن طريقه - كما اعترف هؤلاء الإفرنج الذين نقلنا نصوص أقوالهم - لا تحوجنا إلى التماس طريق آخر، لا طريق موسكو، ولا طريق لندن، ولا طريق واشنطون، ولا طريق باريس، وكل ما عرف الناس وسيعرفون من حق أو خير فإن النظام المحمدي يدل عليه، ويوصل إليه من أيسر الطرق، وأجملها.

نعم إن عصور التأخر التي كان المسلمون محكومين فيها بنظام الاستبداد، ثم

بنظام الاستعمار، قد أحالت قوة الإسلام ضعفاً، وجعلته دين مسبحة ومسكنة بعد أن كان دين حق، ونظام مكافحة لإقامة الحق.

ولكن نصوص الإسلام التي تكفل الله بحفظها كفيلة بأن تجعلنا من أصحاب رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ إذا حرصنا على فهمها فهماً سليماً كما لو كنا معاصرين له، وملازمين لمجالسه، وسائرين في ركابه.

وبعد أن استحال دين القوة إلى ما نرى فقد أهله ثقتهم بأنفسهم، وتراخت صلتهم بماضيهم، ووقفوا من رسالتهم وقفة المتفرج، فكان ذلك موضع العجب من عقلاء الأمم الذين عرفوا قوة هذه الرسالة، وشاهدوا ضعف أهلها.

كنت عقب تأسيس جمعية الشبان المسلمين في القاهرة قبل نحو ربع قرن أحد المستمعين إلى حديث عظيم تحدث به العالم المحقق الجليل مستر مارماديوك بكثول في دار الشبان المسلمين، عن الإسلام وقوته وضعف أهله، فكان مما قاله:

«في رأيي أن الزمن الذي نحن فيه أنسب الأزمان وأصلحها لنشر الدعوة الإسلامية في الأرض.

وما يظنه الظانون مثبطاً من نقص القوة هو ـ بالعكس ـ أدعى لنشر الإسلام وأكثر ملاءمة للنجاح فيه.

إن لنا في (هدنة الحديبية) لعبرة نقضي لها العجب كلما فكرنا فيها؛ فالصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وقعت منهم شروط تلك الهدنة موقع الأسى، وكانت لهم منها صدمة عنيفة لم يسلم من تأثيرها بعد صاحب الهداية العظمى ﷺ غير عدد قليل منهم، في مقدمتهم الصِّدِّيق ـ رضوان الله عليه ـ.

ولكن هذه الهدنة كانت الفتح الأكبر للإسلام حتى أن عدد الذين دخلوا في الإسلام في سنة واحدة بعد صلح الحديبية كان أكثر من عدد الذين دخلوا في مدة تسع عشرة سنة قبل ذلك.

والسبب في هذا الإقبال على الإسلام أن قريشاً وسائر العرب لما ظنوا الفوز في جانبهم بما حصلوا عليه من قيود وعهود تساهلوا في أمر الاتصال بالمسلمين، وزال سبب كبير من أسباب صدودهم عن الإصغاء إلى الهداية الإسلامية؛ فكانوا يرون بأعينهم من سيرة أهل هذه الهداية ما يبهر النظر نوراً، وكانوا يسمعون بآذانهم ما يملأ القلب حقّاً وإيماناً؛ لذلك صاروا يدخلون في دين الله أفواجاً، وكان للإسلام بذلك القوة العظمى التي مهدت لفتح مكة، وإعلاء كلمة الله، فلا يعلو عليها شيء؛ فتبين للذين تلقوا صدمة تلك الشروط القاسية في الحديبية أن هذه المواقف وأمثالها ليس من شأنها أن تدعو إلى اليأس، وليس من شأنها أن تحول بين الحق وبين ما يستحقه من فوز».

ثم قال أخونا في الإسلام مستر محمد مارماديوك بكثول رحمه الله:

«إن صوتاً عُلْويّاً نسمعه الآن من الحديبية ينادينا بأن في الإمكان ـ بالرغم مما صرنا إليه من التجرد عن القوة ـ أن نلم شعثنا، ونعود لنشر هداية ديننا، وأن نبلغ هذه الهداية إلى البشر أجمع؛ فالشعوب اليوم أشد إصغاءاً إلينا منها في العصور السالفة؛ لأن المشادَّة بين القوة والقوة قد تكون سبباً من أسباب الصدود عن الإصغاء إلى الحق، فلم يبق على المسلمين إلا أن يعملوا، والعمل اليوم ممكن جدّاً، ولكنَّ له شرطاً واحداً ـ ولا مناص من تحقيق هذا الشرط ـ وهو أن

نكون الآن متحلين بالصفات التي كان متحلين بالصفات التي كان متحلياً بها مسلمو الحديبية؛ فالمسلم المعاصر إذا تحلى بالأخلاق الإسلامية الأولى ـ من صدق واستقامة وحزم، وعزة نفس، وسعي للخير جهد الطاقة ـ كان من وراء هذه الأخلاق قوةٌ تستمد الدعوة منها، فينتشر الإسلام حتى يعم الأرض.

والشعوب إنما تنظر إلى أهل الدين، قبل أن تنظر إلى الدين نفسه.

وأضرب لكم المثل بالإسلام في الهند؛ فإن إلى جانب مسلمي الهند ملايين كثيرة من مواطنيهم الوثنيين، وإن منهم من إذا أصغى إلى مبادئ الإسلام وتأمل فيها بهرته وقال: إن هذا هو الحق، وإن هذا هو الذي يجب أن يدين به كل إنسان، لكنه لا يملك نفسه بعد ذلك أن يسأل:

ولماذا المسلمون أنفسهم لا يعملون بهذه المبادئ؟ ولماذا لا يهتدون بهذه الهداية؟

هذه هي العقبة الحقيقية الواقفة في سبيل انتشار الإسلام، فلا بد من تذليلها، وليس بعد ذلك ما يحول بين الإسلام وبين أن يكون دين الإنسانية».

هذا الكلام الموجه إلى المسلمين من أخ لهم في الإسلام دخل في دينهم عن بينة وإيمان، كلام (من طبٍّ لمن حب)، ولو أن الله مدَّ في حياته حتى يشهد تطور الدنيا بعد الحرب العالمية الأخيرة لأدرك معنا أننا في فترة من التاريخ يوشك أن تنهار فيها جميع الدعائم التي كان يقوم عليها بنيان النظم الغربية بعد إفلاسها، وثبوت عجزها عن توفير السعادة التي تنشدها الأمم.

ولو أن الله ـ سبحانه ـ لم يبعث رسوله بالإسلام قبل بضعة عشر قرناً لكانت

حكمته العظمى ورحمته بالبشر جديرةً بأن تحسن إليهم الآن برسالة الإسلام نفسها دون غيرها؛ لما انطوت عليه من اعتدال ورفق ومعالجة عملية لجميع مشاكل المجتمع، وإقرار للأوضاع المألوفة لبني الإنسانية، مع تهذيبها بإبقاء ما فيها من حق وخير، وتجريدها من كل ما يتصل بأسباب الجور والحيف والضرر؛ فالزمن الذي نحن فيه أنسب الأزمان بقبول الإنسانية مبادئ الإسلام وأحكامه مطبقة على كل مشاكل العصر، ومنظمة تنظيماً يسهل على رجال التشريع وزعماء الشعوب وقادة الفكر الاستفادة منها في معالجة مشاكلهم، والتفهم لما انطوت عليه من حكمة، ومصلحة، وخير.

فهذا التنظيم العصري لمبادئ الإسلام وأحكامه يجب أن يكون من أهم ما تتوجه إليه همم الجامعيين والمثقفين ـ فضلاً عن أفاضل علماء الأزهر ونجباء طلابه ـ.

ولا يكون ذلك إلا بالوفاء لهذا التراث، والإخلاص له، والصبر عليه، وأخذه من ينابيعه، وفهمه فهماً سليماً كما كان يفهمه الصحابة والتابعون، وهو من العموم والشمول بحيث يصلح لكل زمان ومكان.

وإذا كان عقل عالم بريطاني كبير كالمستر مارماديوك بكثول اقتنع بأن زمن إلقائه تلك المحاضرة كان أنسب الأزمان وأصلحها لتعميم النظام الإسلامي في الأرض فإن ما بعد الحرب العالمية الأخيرة أكثر ملاءمة لذلك.

وبعد فإن المسلمين ما برحوا ـ من مئات السنين ـ حريصين على إحياء ذكرى مولد الهادي الأعظم، ولكن بما نعرفه من أقوال وأشكال ومظاهر.

وأكبر ظني أن الأمة بلغت الآن من الوعي الرشيد ما يجعلها تحيي هذه الذكرى بإحياء رسالة صاحبها ـ عليه من الله أكرم السلام والتحية ـ فالإسلام يحتاج من أبنائه إلى طبقة من الشباب والشيوخ يجعلون شعارهم التأسي برسول الله في أخلاقه الشريفة السامية، وفي مبادئ رسالته العظمى، وتحقيق أهدافها العقلية والاجتماعية والإنسانية، واعتبارها رسالة موجهة إلى عصرنا بالذات؛ لتعالج مشاكله، وتقيم معالمه، وتسن أنظمته، فنتعامل بها في بيوتنا، وأسواقنا، ومحاكمنا، ودواوين حكمنا، وقصور عظمائنا؛ فالإسلام إسلام بالتعامل به، لا بادعائه في شهادة الميلاد، وأرقام التعداد، وتحقيق ذلك يكون بالشروع به من الواحد إلى الاثنين إلى الجماعة الصغيرة، فالبيئة الواسعة، فالوطن الأعظم.

ونحن الآن في عصر الديموقراطية الذي تنزل فيه الدولة على حكم الأمة، ومن هي الأمة؟

أنا كاتب هذه السطور، وأنت القارئ لها، والآخر السامع لك وأنت تقرأ، وغيركما ممن ستجتمعان بهم، وتتحدثان إليهم، وتنقلان من إيمان قلوبكما إلى إيمان قلوبهم.

فإذا كثر المقتنعون بذلك، والداعون إليه، والعاملون به، حتى تكون هذه العقيدةِ عقيدة الرأي العام كان لا مناص لمجالسنا النيابية أن ينزل أعضاؤها على إرادة ناخبيهم، وبذلك تكون دولنا دولاً إسلامية حقّاً.

٦٥ محمد ﷺ [1] للعلامة الشيخ محمد بهجة البيطار

من تصفح كتب السيرة النبوية الشريفة التي صاغها الحكماء قديماً وحديثاً، أو استجلى سيرة النبي الأعظم ﷺ من صفحات الوجود، كان جِدَّ عليمٍ بأنه أعظم مصلح ظهر في هذا الكون، ورأى أن تعاقب الأجيال لم يزد هذه الحقيقة إلا جلاءً وصقالاً؛ فهو ﷺ إن ذكر العظماء كان أعظمهم، وإذا ذكر الرسل والأنبياء كان مقدمهم وخاتمهم.

نشأ يتيماً فاقد الأبوين، فلم نر من ذوي الآباء والأمهات والمعلمين والمعلمات من تربى تلك التربية الطاهرة، واشتغل ـ على حداثة سنِّه ـ بما يعود على كافليه بالخير والبركة والمعاونة.

سافر بتجارة لخديجة بنت خويلد، فكان المثل الكامل في كل عصر بقوة نشاطه، وعظيم أمانته، وأرباحه في تجارته.

تزوج بخديجة، فلم يكن بزواجه أنانيًّاً ولا شهوانيًّاً، بل كان ﷺ وهو ابن خمسة وعشرين عاماً مضرب المثل في العفة والاستقامة، والاكتفاء بامرأة مسنَّة أيِّم، كانت قبله ذات زوج وولد، وهي أولى أزواجه، وأم أولاده، وقد عاش معها ربع قرن كامل، ولم يتزوج عليها أحداً، وإنما تزوج بعدها سودة بنت زمعة، وعاش بمكة حتى بلغ من العمر ٥٣ عاماً لم يجمع فيها بين اثنتين أصلاً.

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» الجزء التاسع من المجلد السابع الصادر في ربيع الأول ١٣٥٤هـ، وانظر كتاب: محمد بهجة البيطار ـ بهجة الإسلام ـ إعداد الأستاذ علي الرضا الحسيني ص٢٤ـ٢٧.

أما تزوجه في المدينة ـ في بضع سنين ـ بتلك النسوة الثاكلات الأيامى، وذوات الأولاد اليتامى ـ فلمصالح زوجية واجتماعية، وأسباب خاصة وعامة، مبسوطة في كتب السيرة الشريفة القديمة منها والحديثة، اللهم إلا عائشة التي بنى بها في المدينة وهي بنت تسع سنين، وبقيت كخديجة آية على وجه الدهر في حبها وإخلاصها لزوجها ووفائها له، ثم كانت إحدى معجزاته ﷺ الخالدة في مشكلات التفسير والحديث والفتاوى والأحكام، ومسندها في مسند أحمد ابن حنبل يقع في ٢٥٣ صفحة، وعلى رواياتها المعوّل في معرفة ما كان رسولﷺ يفعل في بيته.

كان أمر المرأة في التاريخ القديم والحديث عجباً، فمنهم من وَأَدَها، ومنهم من عبدها!.

لكن الإسلام هو الذي أنزلها المنزلة اللائقة بها، فهو قد منحها حقوقها، وعرفها واجباتها وآية: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ لا يوجد في الدنيا قانون أعدل ولا أجمع منها، إذ قد ساوت بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات، وخصت الرجل بدرجة الرئاسة الشورية على الأهل والأولاد؛ فالإسلام لم يستعبد المرأة كما فعلت الأمم السابقة، ولم يقلب نظام الطبيعة؛ ليجعل منها رجلاً ثانياً كما فعلت الأمم الحديثة المتمدنة؛ فقد تخلى عنها عندهم الأب والأخ والابن، ودفعوها جميعاً في تيار العمل خارج المنزل، فشقيت، وشقي الرجل بها ومعها.

زعموا أن الإسلام قد هضمها حقها في الميراث، أوَلا يذكر هؤلاء أن ميراثها

ومهرها لها، وأنها تتصرف في أموالها كيف شاءت؟

وهل تملك المرأة الحديثة من مال زوجها أو من مالها عنده من التصرف المطلق ما تملكه المرأة المسلمة؟ كلا إنها لا تملك حق التصرف في مالها بغير إذن زوجها.

زعموا أن الإسلام قد جعلها بنصف عقل الرجل في كل شيء! أولا يعلمون أن أصل هذه المسألة هي آية المداينة في آخر سورة البقرة، ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ وعلل ذلك بقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾ أي إذا نسيت إحداهما أذكرتها الثانية، فإذا كان الرجل في مقام امرأتين فيما ليس من خصائصها، ولا هو من وظائفها، وهو يُنسى عادة من مثلها أفلا تعد المرأة بمنزلة رجلين في شؤونها المنزلية، وأمورها الداخلية، وهل ينقص هذا من قدره شيئاً يا ترى؟

ألم يفرق الرسول ﷺ بين عقبة بن الحارث وزوجه أم يحيى بنت أبي إهاب مذ شهدت أمة سوداء بأنها أرضعتهما؟ والحديث في الصحيح.

وهل جعلها الرسول ﷺ ناقصة العقل، ضعيفة الذاكرة، فيما هو من خصائصها، أم قَبِل خبرها وحدها بعد نحو عشرين عاماً تقريباً؟

وأما كونها بنصفِ دين فالدين كالإيمان يطلق على الصلاة، وللمرأة عادتها الطبيعية في الحيض وفي النفاس، والشارع قد أسقط عنها الصلاة في تلك المدة طالت أو قصرت ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

بخلاف سائر أركان الإسلام كالزكاة والحج والصيام فإنها مطالبة بأدائها كاملة

كالرجل.

وجملة القول أنه ﷺ أكبر المصلحين، وأكمل الأنبياء، وأشرف الخلق، وأجدر الناس بالمحبة والطاعة والاتباع.

خامس عشر: مقالات في الطب

٦٦ـ كلمة في المسكرات: للشيخ محمد الخضر حسين

٦٧ـ الأدوية المفردة بين دسقوريدس وابن البيطار: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٦٨ـ طرق وضع المصطلحات الطبية: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٦٦ كلمة في المسكرات[1] للشيخ العلامة محمد الخضر حسين

يفضل الإنسان على سائر الحيوان بمزية العقل، وتفاضل الناس في مراقي الكمال على قدر تفاوتهم في هذه المزية، وكل شيء يُضْعِفُ القوة العاقلة أو يعوقها عما خلقت له من تدبر الآيات واستكشاف الحقائق، فهو عدو للإنسانية، تجب مدافعته بقدر المستطاع، وتجنبه الليل والنهار.

فالنوم يعطل هذه القوة، ويلحق الإنسان بالخشب المسندة، وهو أمر غالب ما له من مرد، ولكن أولي الحكمة لا يخضعون لسلطانه إلا حيث يغلب على أمرهم، ولا يعطونه من الوقت إلا أقل ما تفرضه عليهم البشرية، يبتغون بذلك أن تبقى عقولهم في حركات تثمر علماً نافعاً، أو عملاً صالحاً:

إذا ما مضى يومٌ ولم أصطنع يداً ... ولم أكتسب علماً فما ذاك من عمري

وإذا كان من حزم الرجل وحكمته أن يغالب النوم، ولا يأخذ منه إلا بمقدار الحاجة؛ حرصاً على وقته، وتوفيراً لثمرات فكره ـ فإن الخمر يأتي إلى تلك القوة التي هي أكبر مزية للإنسان، فيعبث بها عبث الريح العاصفة بالغصون الناعمة، ولا تسأل عما ينشأ عن هذا العبث من فساد.

للفساد الذي ينشأ من تناول المسكرات ضروب متفرقة، وألوان مختلفة، لا يسع المقام تفصيلها؛ فأكتفي بوصف جانب منها، وفيه كفاية لمن يبغي حياة طيبة في الدنيا، وسعادة وحياة خالصة في الأخرى.

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، ٥/٧، ١٣٥٣هـ، وانظر روائع مجلة الهداية الإسلامية ص٤٩ ـ ٥٢.

تَذْهَبُ المسكرات بعقل من يتناولها، ولو أنه يبقى كالجماد لا ينطق، ولا يتحرك لكان البلاء مقصوراً عليه، ولكن السفاهة تخلف التعقل، والحماقة تظهر في مكان الكياسة؛ فلا تسمع إلا أقوال لاغية أو منكرة، ولا ترى إلا حركاتٍ مزريةً به، أو مسيئةً إلى من يقرب منه.

قيل لعدي بن حاتم: ما لك لا تشرب الخمر؟ قال: معاذ الله أن أصبح حليم قومي، وأمسي سفيههم!

تجيء السفاهة في القول من جهة أن الخمر تعطل القوة العاقلة، وتترك الخيال يلقي على الألسنة ما شاء، وشأن الخيال الذي لا يعمل تحت سلطان العقل أن يصور المعاني في غير انتظام، ويمليها على اللسان كما صورها، فإذا هي أقوال تلبس صاحبها ثوب المهانة، أو تضعه موضع من يُسخر به، أو يثير عليه غضباً.

دعا بعض الأمراء نُصَيب بن رباح إلى تناول الخمر، فقال نصيب: «أصلح الله الأمير! الشعر مُفلفل، واللون موقد، ولم أقعد إليك بكرم عنصر، ولا بحسن منظر، وإنما هو عقلي ولساني؛ فإن رأيت ألا تفرق بينهما فافعل».

ويكفي متعاطي الخمور حقارة أن يضرب به المثل عندما يتكلم أحد بما يشبه الهذيان.

وتجيء السفاهة في الحركات من جهة أن الخمر تعزل العقل إلى جانب، وتبقي النفوس تحت تصرف الخيال؛ فتنبعث إرادتها عن غير تعقل، وتصدر أفعالها في غير حكمة.

ومن المعروف في المسكر أنه يحسن القبيح، ويقبح الحسن، قال أحد الشعراء

المبتلين به:

اسقني حتى تراني حسناً عندي القبيح

فقولوا لمتعاطي المسكرات إذا طمع من الناس أن يلاقوه باحترام: إن من يعلم أن تلك حالات تخرج بها عن الإنسانية إلى حيوانية تصير بها هُزأةً، أو حيوانية تنفث سمها في غير عدو، لا تراك عينه إلا ازدرتك، ولا خطرت على قلبه إلا احتقرك.

ومن مفسدات المسكرات أنها تندفع بالشهوات إلى الفسوق، وهل في إمكانك أن تجد مولعاً بالخمور يحفظ فرجه عن موبقة الزنا، أو ما يشبه الزنا؟

سقى قوم أعرابية شراباً مسكراً، فقالت: أيشرب نساؤكم هذا الشراب؟ قالوا: نعم، قالت: فما يدري أحدكم من أبوه!

وقد عرفت أن السكران يقول ما يثير غضب نديمه، أو من يلقاه في طريقه، وأنت تعلم ما وراء ثورة الغضب من سوء، وعرفت أن السكران قد ينقلب إلى حيوانية متحفزة للشر، فلا يبالي أن يبسط يده للاعتداء على الأنفس، فيصيب ضعيفاً، أو يصيبَه قويٌّ.

وكم من مشاجرات تعالت فيها أصوات، وأصيبت فيها جسوم، وما هي إلا أثر من آثار تعاطي المسكرات.

ولا تزال المسكرات تنقص من عقل المولع بها شيئاً فشيئاً، حتى يقع في خيال، أو ما يقرب من الخيال[1]، ودلت التجارب على أن متعاطي المسكرات يكون

---

(١) هكذا في الأصل، ولعلها: في خبال، أو ما يقرب من الخبال(م).

ضعيف الفكر، خفيف العقل، ولا يصل ولو بعد صحوة إلى ما يصل إليه أقرانه الأذكياء: من آراء سامية، ونتائج صادقة.

قيل لعثمان بن عفان ﷺ: «ما منعك أن تشرب الخمر في الجاهلية ولا حرج عليك؟».

قال: «رأيتها تذهب بالعقل جملة، وما رأيت شيئاً يذهب جملة ويعود جملة».

ولا يليق بك أن تتخذ ممن يتعاطون المسكرات أصحاباً أو أعواناً تفضي إليهم بشيء من أسرار عملك؛ فإن الأسرار المودعة في النفوس إنما تحرسها العقول، وعقول المولعين بالمسكرات تفارقهم في كثير من الأحيان، فلا تلبث تلك الأسرار أن تخرج من أفواههم وهم لا يشعرون.

وفي المسكرات فوق هذه المفاسد إنفاق المال في غير فائدة، بل إنفاقه فيما يعود بخسران، **وفيها صرف القلوب عن القيام بكثير من حقوق الخالق** - جل شأنه - ولا يجتمع الولوع باحتساء أم الخبائث، وتعظيم أمر الله في نفس واحدة.

٦٧ الأدوية المفردة بين دسقوريدس - وابن البيطار[1]

للشيخ العلامة محمد الخضر حسين

بحث تاريخي يرى فيه القارئ كيف انتقل فنُّ الأدوية المفردة من اليونانية إلى العربية، وكيف نماه العرب بتجاربهم ومؤلفاتهم.

اتفق الأطباء على أنه متى أمكن التداوي بالغذاء لا يعدل إلى الدواء، ومتى أمكن التداوي بالمفرد لا يعدل عنه إلى المركب، ويذكر الكاتبون في سيرة الطبيب أبي المطرف عبدالرحمن بن محمد بن وافد الأندلسي: «أنه كان لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية أو ما كان قريباً منها، فإذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوي بمركبها ما وصل إلى التداوي بمفردها، فإن اضطر إلى المركب منها لم يكثر التركيب، بل اقتصر على أقل ما يمكنه منه».

فشأن الطبيب أن يبحث عن حال الأغذية والأدوية المفردة والأدوية المركبة، ولهذا نرى في مؤلفات الأطباء ما يبحث فيه عن الأغذية، وما يبحث فيه عن الأدوية المفردة، وما يبحث فيه عن الأدوية المركبة.

ولما ندبني مجمع فؤاد الأول لتمثيله في المؤتمر الطبي الذي سينعقد في مدينة الإسكندرية في أيام عيد الأضحى سنة ١٣٦١هـ رأيت أن أقدم لهذا المؤتمر كلمة

---

(١) مجلة (الهداية الإسلامية) - الجزءان الخامس والسادس من المجلد الخامس عشر الصادران في ذي القعدة وذي الحجة ١٣٦١هـ، وانظر روائع مجلة الهداية الإسلامية - الإسلام والطب - إعداد الأستاذ علي الرضا الحسيني ص٥٣-٥٨.

في تاريخ التأليف في الأدوية المفردة والتنبيه لطريق نقلها من اليونانية إلى اللغة العربية، والتذكير بشيء من معاناة العرب للتأليف فيها.

من بين الأطباء الذين ظهروا بعد أبقراط وقبل جالينوس نشأ الطبيب دسقوريدس المنسوب إلى عين زربى أو زربة وقد عني هذا الطبيب بالأدوية المفردة بحثاً وتأليفاً وتصويراً، وكان يجول في البلاد لهذا الغرض النبيل، وقد قال في وصفه يحيى النحوي الإسكندراني: «النافع للناس منفعة جليلة، السائح في البلاد المفتش لعلوم الأدوية المفردة في البراري والجزائر والبحار، المصور لها، والمحدد لمنافعها».

ويقول الأطباء في القديم: إن دسقوريدس رأس كل دواء مفرد، وعنه أخذ جميع من جاء بعده.

وجاء على أثر دسقوريدس أطباء من اليونان، ألّفوا في الأدوية المفردة كتباً حتى جاء جالينوس فألف فيها، وفضّل على تلك الكتب كتاب دسقوريدس فقال: «إني تصفحت أربعة عشر كتاباً في الأدوية المفردة لأقوام شتّى، فما رأيت فيها أتم من كتاب دسقوريدس الذي هو من أهل عين زربى».

وممن ألف في الأدوية المفردة بعد جالينوس عيسى بن قسطنطين، فله كتاب الأدوية المفردة، وهو فيما يقال أول من نقل كتب اليونان إلى اللغة السريانية.

كيف نقلت الأدوية المفردة إلى اللغة العربية؟

أول من نقل كتاب الأدوية المفردة لدسقوريدس من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي اصطفن بن بسيل، وطريقته في الترجمة أنه إن علم للمعنى الطبي اسماً

في اللسان العربي ذكره باسمه العربي، وإن لم يعلم له اسماً عربيًّا أبقاه على اسمه اليوناني؛ رجاء أن يأتي بعده من يعرف لذلك المعنى اسماً عربيًّا يناسبه، وبعد أن أتم ترجمته عرضه على حنين بن إسحاق، فصحح الترجمة وأجازها، ووصل هذا الكتاب إلى الأندلس فكان الناس ينتفعون بما عرف اسمه في العربية إلى أيام الخليفة عبدالرحمن الناصر.

وفي سنة ٣٧٧هـ بعث أرمنيوس ملك قسطنطينية بهدايا إلى الخليفة عبدالرحمن الناصر ومن جملة هذه الهدايا كتاب دسقوريدس باللسان الإغريقي اليوناني القديم، وكانت النسخة مصورة الحشائش بالتصوير الرومي، وقال أرمنيوس في كتابه للناصر: إنَّ كتاب دسقوريدس لا تجتنى فائدته إلا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني، ويعرف أشخاص تلك الأدوية، فإن كان في بلدك من يحسن ذلك فزت أيها الملك بفائدة الكتاب.

واتفق أن لم يكن بقرطبة يومئذ من يقرأ اللسان الإغريقي، فبقي كتاب دسقوريدس في خزانة الناصر دون أن يترجم إلى العربية.

ثم إن عبدالرحمن الناصر بعث إلى أرمنيوس أن يبعث إليه برجل يحسن التكلم الإغريقي؛ ليعلِّم من يصلحون لأن يكونوا مترجمين، فبعث أرمنيوس براهب كان يسمى «نقولا»[1] فوصل إلى قرطبة سنة ٣٤٠هـ وكان الناس وقتئذ في حرص على معرفة ما جهلوه من أسماء عقاقير ذلك الكتاب.

ومن الأطباء الباحثين عن تفسير تلك الأسماء، وتعيين أشخاصها محمد

---

(١) قال ابن جلجل: أدركته وصحبته في أيام الحكم بن عبدالرحمن في صدر دولته.

المعروف بالشجار، وطبيب يعرف بالبسباسي وأبو عثمان الحزَّاز، ومحمد ابن سعيد، وعبدالرحمن بن إسحاق بن هيثم، وأبو عبدالله الصقلي.

وكان الراهب يتكلم باليونانية، ويعرف أشخاص الأدوية فتلقى عنه أولئك الأطباء تصحيح أسماء العقاقير، ووقفوا على أشخاصها بمدينة قرطبة.

قال ابن جلجل في أنباء أطباء الأندلس «وقد أدركت هؤلاء الأطباء وصحبتهم».

أما كتاب جالينوس في الأدوية المفردة فمن المعروف أن كتب جالينوس في الطب قد نقلت إلى اللغة العربية، وكان معظمها بنقل حنين بن إسحاق أو تصحيحه لها بعد نقلها.

ومن مؤلفات حنين بن إسحاق اختصاره لكتاب جالينوس في الأدوية المفردة وألفه بالسريانية وهو إحدى عشرة مقالة، ثم نقل منه إلى العربية خمس مقالات وهي الجزء الأول منه.

ولكن ابن البيطار يقول في مقدمة كتابه الجامع: إنه استقصى فيه ما أورده جالينوس في الست المقالات من مفرداته بنصه، وذكروا في مؤلفات الفيلسوف ابن رشد تلخيصه لأول كتاب الأدوية المفردة لجالينوس.

وتناول العرب كتاب دسقوريدس، وكتاب جالينوس، واستمدوا منهما، وأخذ هذا الفن ينمو ويزداد تحقيقاً، كما صنع أبو المطرف عبدالرحمن بن وافد، فقد ألَّف كتاباً جمع فيه ما تضمنه كتاب دسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفان في الأدوية المفردة، ورتبه أحسن ترتيب، وقال صاعد: وأخبرني أنه عانى

جمعه، وحاول ترتيبه، وتصحيح ما تضمنه من أسماء الأدوية وصفاتها، وأودعه إياها من تفصيل قواها، وتحديد درجاتها نحواً من عشرين سنة.

وكما صنع أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقي؛ إذ ألف كتاباً في الأدوية المفردة واستقصى فيه ما ذكره دسقوريدس وجالينوس، وأضاف إلى ذلك ما تجدد للمتأخرين من الكلام في الأدوية المفردة.

وكما صنع أبو داود سليمان المعروف بابن جلجل، فقد فسر أسماء الأدوية المفردة من كتاب دسقوريدس، وكشف مغلقها ورفع إبهامها، وله مقالة في الأدوية التي لم يذكرها دسقوريدس في كتابه[١].

وكما صنع أبو العباس أحمد بن مفرج المعروف بابن الرومية ويعرف بالنباتي، فقد فسَّر أسماء الأدوية المفردة من كتاب دسقوريدس، قال ابن أصيبعة في ابن العباس هذا: أتقن علم النبات ومعرفة أشخاص الأدوية وقواها ومنافعها واختلاف أوصافها وتباين مواطنها، وجال سنة ٦١٣هـ في الشام والعراق ومصر، وعاين نباتاً كثيراً في هذه البلاد مما لم ينبت بالمغرب، وشاهد أشخاصها في منابتها ونظرها في مواضعها، وعاد إلى المغرب وأقام بإشبيلية.

وألف في الأدوية المفردة من غير هؤلاء جمع كبير من الأطباء مثل حنين ابن إسحاق، وإسحاق بن حنين، وإسحاق بن عمران، وإسحاق بن سليمان المعروف بالإسرائيلي، وأحمد بن أبي خالد المعروف بابن الجزار، وخص الرئيس ابن سينا الكتاب الثاني من كتاب القانون بالأدوية المفردة، وجاء بعد

---

(١) ألف ابن جلجل كتابه هذا في سنة ٣٧٢هـ بقرطبة أيام هشام بن الحكم.

هؤلاء أبو محمد بن عبدالله بن أحمد المعروف بابن البيطار، وعني بالأدوية المفردة، وسافر إلى بلاد اليونان، وأقصى بلاد الروم، ولقي أناساً كثيرين من المولعين بهذا الفن، ورأى منابت الحشائش المذكورة في كتب الأدوية المفردة بعينه، وعاد بعد هذه الرحلة إلى الشام وخدم بصناعة الطب الكامل العادل في دمشق، ثم خدم بها ولده الصالح بمصر وتوفي في دمشق سنة ٦٤٦هـ.

ولابن البيطار شرح على أسماء أدوية كتاب دسقوريدس، قال ابن أبي أصيبعة: قرأت عليه تفسيره لأسماء أدوية كتاب دسقوريدس، فكنت أجد من غزارة علمه، ودرايته، وفهمه شيئاً كثيراً، وكان يذكر أولاً ما قاله دسقوريدس في كتابه باللفظ اليوناني على ما قد صححه في بلاد الروم، ثم جمل ما قاله دسقوريدس من نعته وصفته وأفعاله.

وأعجب من ذلك أنه كان لا يذكر دواءاً إلا ويعين في أي مقالة هو من كتاب دسقوريدس، وفي أيِّ عدد هو من جملة الأدوية المذكورة في تلك المقالة.

ولابن البيطار كتابه المشهور المسمى بالجامع، وسماه الجامع لأنه جمع فيه بين الأغذية والأدوية المفردة، قال ابن سعيد في كتاب المغرب بعد أن ذكر الأدوية المفردة: «وقد جمع أبو محمد المالقي الساكن الآن بالقاهرة بمصر كتاباً حشر فيه ما سمع به فقدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة ككتاب الغامقي وكتاب

الزهراوي[1] وكتاب الشريف الإدريسي الصقلي وغيرها، وضبطه على حروف المعجم وهو النهاية في المقصد».

وذكر ابن البيطار في كتابه «الجامع» أنه استوعب فيه مقالات دسقوريدس الخمس بنصها، وما أورده جالينوس في المقالات الست من مفرداته بنصها كذلك، وألحق بهما من أقوال المحدثين في الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية ما لم يذكراه.

ولم يأخذ ابن البيطار فيما ينقله عن هؤلاء طريقة المتابعة المحضة، بل كان يتحرى طريقة النقد فقال: «وما كان مخالفاً في القوى، والكيفية، والمشاهدة الحسية في المنفعة، والماهية للصواب والتحقيق أو أن ناقله أو قائله عدل فيه عن سواء الطريق ـ نبذته ظِهْرِيّاً وهجرته مَلِيّاً، وقلت لناقله أو قائله: لقد جئت شيئاً فريّاً، ولم أحاب في ذلك قديماً لسبقه، ولا محدثاً اعتمد غيري على صدقه».

ونبه في صدر الكتاب على أغراضه، وجعل من هذه الأغراض التنبيه على كل دواء وقع فيه وهم أو غلط لمتقدم أو متأخر لاعتماد أكثرهم على الصحف والنقل واعتمادي على التجربة والمشاهدة.

وقد دل ابن البيطار في هذه الجمل على مبدأ لا يرتقي علم الطب إلا به، وهو نقد الأقوال وعدم تلقيها بالتسليم إلا أن تكون مصحوبة بدليل من نحو التجربة

---

(١) هو أبو القاسم خلف بن عياش الزهراوي الأندلسي، له كتاب في الطب يسمى «التصريف»، وهو الذي فاخر به ابن حزم، وقال: «لو قلنا أنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطباع لنصدقن».

والمشاهدة.

وقدَّر الغربيون هذا الكتاب قدره، وأذكر أن الدكتور لوكير نقله من العربية إلى اللسان الفرنسي وطبعت الترجمة بباريس.

٦٨ طرق وضع المصطلحات الطبية وتوحيدها في البلاد العربية[(١)]

للشيخ العلامة محمد الخضر حسين

شرف الأمة في رقي لغتها، ورقي لغتها في مسايرتها للعلوم والفنون، واتساعها لأن تخوض في بحث كل علم أو فن، وتشرح مسائله وإن بلغت في كثرتها وغموضها أقصى غاية.

كانت العلوم والفنون على اختلاف موضوعاتها، قد وجدت من بيان اللغة العربية معيناً لا ينضب، فلم تلبث أن لبست من ألفاظ هذه اللغة وأساليبها حللاً ضافية.

ومن بين العلوم التي وجدت في اللغة العربية بغيتها في[(٢)] علم الطب، فتقبلته وتقبلت كل ما يدخل فيه أو يتصل به من فنون.

وجد هذا العلم في اللغة أيام انتقاله إلى العرب مادة غزيرة، واستطاع أن يأخذ منها كل ما يسد حاجته، ويجعل العرب والمستعربين يتدارسونه بلسان عربي مبين.

انتقل هذا العلم إلى العرب وهم يعتزون بلغتهم، ويحرصون على أن تكون

---

(١) مجلة (الهداية الإسلامية) ـ الجزء السابع من المجلد الحادي عشر الصادر في المحرم ١٣٥٨هـ.

وهذا المقال بحث قدمه الشيخ محمد الخضر حسين إلى المؤتمر الطبي العربي المنعقد بالقاهرة سنة ١٩٣٩م بصفته مندوب مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ونشر في مجلة المجتمع الجزء الثامن سنة ١٩٥٥م، وانظر روائع مجلة الهداية الإسلامية ـ الإسلام والطب ـ إعداد الأستاذ علي الرضا الحسيني ص٢١ـ٣٢

(٢) هكذا في الأصل، ولعل (في) زائدة (م).

لغة العلم، كما كانت لغة السياسة والأدب والاجتماع، فالتفت علماء الطب إلى الألفاظ العربية التي وضعت لمعان تدخل في علمهم أو تتصل به من نحو أسماء العلل [١] وأسبابها، وأعراضها وأطوارها وآثارها [٢]. وأسماء الأعضاء والأجزاء منها ظاهرة كانت أو باطنة، وأسماء ما يركب منه الأدوية من نحو النبات والمعادن والأحجار، وأسماء الأدوات التي يستعان بها على المداواة [٣].

التفتوا إلى هذه الكلمات واستعملوا كثيراً منها في معانيها المعروفة في اللغة. ولعلي لا أكون مخطئاً إذا قلت: إن علم الطب قد وَجَدَ في اللغة العربية مدداً أكثر مما وجده غيره من العلوم المنقولة إليها، ووجد علماء الطب بعد ذلك المدد أصولاً في اللغة تسمح لهم بوضع مصطلحات لِمَعَانٍ طبية لم يتقدم للعرب أن وضعوا لها أسماء، مثل أصول الاشتقاق والمجاز والنقل؛ فصاروا يضعون مصطلحات زائدة على ما تكلمت به العرب في هذا العلم، وصارت كتب الطب تصدر في عبارات عربية فصحى.

فإذا ألقينا نظرة على كتب الطب المؤلفة فيما سلف بأقلام عربية فصيحة، وجدناها قائمة على كلمات مستعملة فيما وضعها له العرب من المعاني الطبية،

---

(١) معظم أسماء العلل جاء على وزن فعال. نحو «صداع» أو وزن فعل نحو «بهق».

(٢) نريد من آثارها ما يعقبها من نحو «الندبة» لأثر الجرح بعد برئه ونحو «المهج» لحسن الوجه بعد علة.

(٣) نحو «المتجر» لما يصب به الدواء في الفم، و «المسعط» لما يصب به الدواء في الأنف، و«الدسلم» لما يسد به الجرح من نحو الفتيلة.

وكلمات اشتقها أولئك الأطباء لمعان يتحقق فيها معنى الفعل الذي اشتقت منه، كما سموا العرض دليلاً؛ نظراً إلى مطالعة الطبيب إياه، ومعرفته ماهية المرض منه.

وكلمات نقلوها من معانيها المعروفة عند العرب إلى معان تربطها بتلك المعاني مناسبة، كما استعملوا الرسوب في كل جوهر أغلظ قواماً من المائية وإن لم يرسب.

قال ابن سينا في كتاب القانون: إن اصطلاح الأطباء في استعمال لفظة الرسوب والثقل قد زال عن المجرى المتعارف؛ لأنهم يقولون: رسوب وثقل، لا لما يرسب فقط بل لكل جوهر أغلظ قواماً من المائية متميزاً عنها وإن طفا.

وكلمات صاغوها على مثال الإضافة كما قالوا: حمى الدق، وهي الحمى المعروفة «أنطيقوس».

أو على مثال تركيب الصفة والموصوف كما قالوا: الشريان الصاعد، والشريان النازل، أو على مثال النسب الذي يقصد به التشبيه، كما سموا أحد أنواع النبض الموجي؛ لأنه يشبه الأمواج، إذ يتلو بعضها بعضاً على الاستقامة مع اختلاف بينها في السرعة والبطء.

وقد نبه أبو علي ابن سينا في كتاب «القانون» على وجه تسمية الأمراض فقال: قد تلحقها التسمية من وجوه:

إما من الأعضاء الحاملة[١] لها، كذات الجنب، وذات الرئة، وإما من أعراضها، كالصرع، وإما من أسبابها، كقولهم: داء الأسد[٢]، وداء الفيل[٣]، وإما منسوباً إلى أول من يذكر أنه عرض له كقولهم: قرحة طيلانية منسوبة إلى رجل يقال له طيلانس، وإما منسوباً إلى بلدة يكثر حدوثه فيها كقولهم: القروح البلخية، وإما منسوباً إلى من كان مشهوراً بالإنجاح في معالجتها كالقرحة السيروتية، وإما من جواهرها وذواتها كالحمى والورم.

وتجدد لذلك العهد أسماء عربية لأدوات طبية، كأسماء آلات الكي والجراحة التي ذكرها أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي[٤] في كتابه المسمى: التصريف[٥]؛ فإنه رسم في هذا الكتاب صور الآلات، وذكر لكثير منا أسماء مناسبة نحو: المكواة، والزيتونة، والمنشارية، والهلالية، والمسارية.

ودخل في مصطلحاتهم كلمات مولدة ككلمة «بحران» للتغير الذي يحدث

---

(١) اشتق العرب من بعض الأعضاء أسماء العلل التي تصيبها وهي: القلاب لداء يصيب القلب، والكباد لداء يصيب الكبد، والنكاف لداء يصيب النكفتين وهما غدتان تكتنفان الحلقوم من أصل اللحى، والقوام لداء يصيب الشاة في قوائمها.

(٢) الجذام؛ لأن وجه المبتلى به ليشبه وجه الأسد في كراهة منظره.

(٣) زيادة في القدم والساق وسمي داء الفيل؛ لأن رجل المريض به تشبه رجل الفيل، ومن هذا القبيل اسم السرطان؛ فإنه في الأصل اسم لدابة نهرية وسمي به الداء المعروف؛ لأنه إذا كبر ظهر عليه عروق حمر وخضر تشبه أرجل الدابة التي تسمى السرطان.

(٤) ذكره ابن حزم في رسالة أودعها مؤلفات الأندلسيين وقال: قد أدركته، وابن حزم توفي سنة ٣٩٩هـ.

(٥) طبع بالعربية واللاتينية في أكسفورد، وتوجد منه نسخة في دار الكتب المصرية.

للعليل دفعة في الأمراض الحادة، وكلمة «تفسرة» لماء المريض المستدل به على علته، يقال: أرسل فلان تفسرته إلى الطبيب، ونظر الطبيب في تفسرة المريض.

ومن أسباب أخذ علم الطب فيما سلف مكانة في اللغة الفصحى أن كثيراً من رجال هذا العلم كانوا قد درسوا اللغة العربية إلى أن صاروا من أئمتها، أو صاروا من كبار أدبائها، تجدون الحديث عن هؤلاء الرجال والتنبيه على رسوخهم في علم الطب واللغة، في كتب طبقات الأطباء، وطبقات اللغويين والأدباء، مثل الرئيس أبي علي الحسين بن سينا، برع في الطب، وأتقن الأدب، وبلغ في اللغة مرتبة عليا، وله في الطب مؤلفات كثيرة، منها كتاب «القانون» وله مؤلف في اللغة يسمى «لسان العرب».

ومثل أبي بكر محمد بن أبي مروان بن زهر، فقد كان ـ كما قالوا ـ بمكان من اللغة مكين، ومورد من الطب عذب معين، وكان يحفظ شعر ذي الرمة، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب[1].

ومثل محمد بن أحمد بن رشد؛ فقد جمع إلى الطب والفلسفة التضلع في علوم العربية، وله في الطب مؤلفات منها كتاب الكليات، وله في العربية الكتاب المسمى «الضروري».

ونرى طائفة ممن بلغوا في علوم الشريعة مرتبة الاستنباط، ولا يبلغ مرتبة الاستنباط في الشريعة إلا من كان له في علوم اللغة قدم راسخة ـ قد برعوا في علم الطب، ومن هؤلاء الإمام أبو عبدالله محمد بن عمر المازري، كان يعد في طبقة

---

(١) نفح الطيب للمقري.

المجتهدين، ودرس علم الطب وألف فيه، وقالوا في ترجمته: «كان يفزع إليه في الطب كما يفزع إليه في الفتوى[١]».

ولا عجب أن يقبل الفقهاء على علم الطب؛ فإنهم يرونه من العلوم التي رفع الشرع الإسلامي منزلتها، حتى أنهم بنوا كثيراً من الأحكام الشرعية على رعايته، واستعانوا في بيان الأوامر والنواهي بشيء من مسائله، ومثال هذا أن النبي ـ صلوات الله عليه ـ قال: «**إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً إحداهن بتراب**».

والعلامة محمد بن رشد جد الفيلسوف ابن رشد أول من نبه، فيما بلغنا، على أن هذا الأمر مراعى فيه وجهة طبية، هي ما يخالط لعاب الكلب من مادة ضارة تعرض له عندما يصاب بداء الكلب، وإصابته بهذا الداء قد تكون خفية، فلا تظهر لكل ناظر[٢].

فلولا أن علم الطب قد وقع فيما مضى بأيدي علماء اللغة ما ظفر هذا العلم بتلك المصطلحات التي ترتبط باللغة ارتباطاً محكماً.

ويدلكم على أن أولئك الأطباء اللغويين كانوا يجتهدون في أن يخرج علم الطب في لسان عربي فصيح تحريهم العربية الفصحى في ألفاظ مؤلفاتهم، نجد في ترجمة الطبيب اللغوي مهذب الدين عبدالرحيم بن علي أنه كان إذا تفرغ من افتقاد المرضى من أعيان الدولة وغيرهم يأتي إلى داره، ويأتيه طلاب علم الطب

---

(١) كتاب الديباج لابن فرحون.

(٢) بداية المجتهد للحفيد الفيلسوف ابن رشد.

قوماً بعد قوم، وكان إلى جانبه مع ما يحتاج إليه من الكتب الطبية كتب اللغة: الصحاح للجوهري، والمجمل لابن فارس، وكتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري، فكان إذا جاءت في الدرس لغوية محتاج إلى كشفها وتحقيقها نَظَرها من تلك الكتب.

ومن يطالع شيئاً من مؤلفات أولئك الأطباء، ويمعن النظر فيما يستعملون من أسماء الأمراض وغيرها من المعاني المتصلة بعلم الطب، يعرف أن أولئك المؤلفين كانوا على اطلاع واسع في اللغة، وبذلك أمكنهم أن يجعلوا اللغة تسير مع علم الطب جنباً لجنب.

ينبئنا بهذا أننا نجد جانباً عظيماً من الألفاظ العربية غير الكثيرة الاستعمال مبثوثة في هذا العلم، ومنظومة في سلك مصطلحاته، ككلمة «الحصف» للجرب اليابس، وكلمة «الشري» لبثور صغار حكاكة، وكلمة «الحرصان» للحمة دقيقة لاصقة بحجاب البطن، وكلمة «الصاخة» لورم يكون في العظم من صدمة أو كدمة[١] و«القطرب» لنوع من الماليخوليا[٢].

وقف علم الطب بعد هذا في الشرق عند حد، وتناوله الغربيون من مؤلفات علمائنا، وأوسعوه بحثاً، وقطعوا فيه أشواطاً بعيدة المدى، وصارت المصطلحات العربية التي وضعت له من قبل لا تفي بما تجدد فيه من آراء ومستكشفات.

ظل هذا العلم يتقدم بخطوات سريعة، وبقيت لغتنا واقفة دونه بمراحل.

---

(١) التأثير فيه بنحو حديدة.

(٢) الماليخوليا: المزاج السوداوي.

ولما أقبل أبناء العربية على دراسته، اضطروا إلى أن يدرسوه بلغات أجنبية، وأصبح علم الطب وهو في ديارنا يدرس بلسان غير عربي.

وإذا وجد فيما سلف لغويون أطباء استطاعوا أن يسيروا بعلم الطب تحت ظلال اللغة ومقاييسها ـ فإن علم الطب الحديث واسع المباحث، كثير الفنون، فلا يتيسر لعلماء اللغة اليوم أن يبرعوا فيه كما برع فيه كثير من اللغويين من قبل إلا بمجهود كبير، وعناية متناهية.

ومن هنا شعر الناس في هذا العصر بالحاجة إلى إنشاء مجمع لغوي عربي يقوم بوضع مصطلحات العلوم، كي تسير اللغة الفصحى مع العلوم كتفاً لكتف.

وأخذ مجمع اللغة العربية يعمل لهذه الغاية المنشودة، ووجد في ميسوره أن ينقل العلوم ـ وبينها علم الطب على اختلاف فنونه وكثرة مصطلحاته ـ إلى العربية الفصحى.

تجد في المعاجم ألفاظاً كثيرة تتصل بهذا العلم، وهذه الألفاظ إما أن تكون نصّاً في المعنى الطبي نحو «مثير» بمعنى الموضع الذي تلد فيه المرأة، فلو أطلقناه على الحجرة أو الغرفة المُعَدَّة في المستشفى للولادة كان استعمالاً للفظ في معناه العربي من غير تصرف فيه.

وأذكر بهذه المناسبة أني رأيت الطبيب أبا المؤيد محمد بن الصائغ الجزري ينهى في وصية له طبية عن أن يلتزم الإنسان في غذائه طعاماً خاصّاً، فيقول:

إياك تلزم كل شيء واحد ... فتقود طبعك للأذى بزمام

ووجدت لهذا المعنى بعد ذلك كلمة عربية هي المرازمة، فقد شرحتها المعاجم

بأن لا يدوم الإنسان في عيشه على طعام خاص.

ويلحق بمثل هذه الألفاظ المطابقة لمعناها، أن تذكر المعاجم في بيان مفهوم اسم المرض مثلاً، سبب المرض، كما قالت: «السواد» داء يأخذ الإنسان من أكل التمر يجد منه وجعاً في كبده، فنرى أن ذكر السبب لا يجعل الاسم خاصًّاً بما ينشأ عن هذا السبب، فإذا ظهر من طريق علم الطب أن هذا الداء بنفسه وأعراضه قد يحصل في الكبد من سبب آخر غير أكل التمر، صح أن نطلق عليه لفظ «السواد» وإن لم يحدث عن أكل التمر، ولا نعد هذا الإطلاق من نوع التصرف بإخراجها عن موضوعاتها اللغوية.

وأنبه هنا على أن المعاجم قد تذكر للكلمة الواحدة معاني طبية متعددة كما قالوا: «الذرب» فساد الجرح، وفساد المعدة، والمرض الذي لا يبرأ.

والمجمع يتجنب في وضع مصطلحات العلوم أن يكون بينها لفظ مشترك، ويحافظ على أن يكون للاسم الواحد في العلم الواحد معنى واحد.

وقد تذكر المعاجم للمعنى الطبي الواحد، مثلاً، أسماء متعددة توردها على أنها مترادفة، كما قالوا لما يقاس به غور الجرح: سبار، ومسبار، ومحراف، وقالوا لذلك المرض: السل والسحاف.

ولواضعي المصطلحات وجه من الحق في تخصيص كل اسم بنوع من أنواع ذلك المعنى متى تعددت أنواعه، وقد سلك المجمع هذا المسلك في طائفة من مصطلحات العلوم.

وقد تشير المعاجم إلى اختلاف اللغويين في معنى الاسم، كما قال صاحب

القاموس: اللسعة: خراج في العنق، أو غدة في العنق، أو زيادة في البدن كالغدة تتحرك إذا حركت.

وقد جرى المجمع على أن يأخذ في مثل هذا بالقول الذي يسد حاجة العلم.

ووجد المجمع في مؤلفات الأطباء فيما سلف مصطلحات محكمة الوضع، وخطته أن يحافظ على المصطلحات القديمة ما وجد لها وجهاً تدخل به في حدود العربية.

ووجد في علم العربية مقاييس تساعده على أن يصوغ للمعاني التي حدثت أو تحدث أسماء عربية، فلو اتخذ في المستوصف مثلاً محلٌ خاص ينزع فيه المريض ثوبه ووجد العرب قالوا: ثرب فلان المريض يثربه: نزع ثوبه، صح أن يسمى ذلك المحل «مثرباً».

ولم يقتصر المجمع على الأصول المعروفة بأنها مقيسة نحو الاشتقاق من المصادر أو الأفعال، ونحو المجاز والنقل، بل نظر في طريق آخر سلكه العرب في وضع كثير من المفردات، وهو الاشتقاق من أسماء الأعيان كما قال العرب: جَلَده، ورَأَسه، وبَطَنه، وصَمَخَه، أي أصاب جلده، ورأسه، وبطنه، وصماخه، وقالوا: رَمَحه، وسَهَمه، وسافَه، أي أصابه بالرمح، والسهم، والسيف.

ومنه أبرته العقرب أي أصابته بإبرتها، وقالوا: لبّنه، وعسّله، ولحّمه، وشحّمه، أي أطعمه: اللبن والعسل واللحم والشحم[1] وقالوا: جدر، وبأر، أي صنع الجدار والبئر.

---

(١) نص ابن مالك في كتاب التسهيل على أن هذه الأنواع الثلاثة مطردة فيصح القياس عليها.

وقد قرر المجمع صحة الاشتقاق من أسماء الأعيان في مصطلحات العلوم عند الحاجة، وجرى على هذا في وضع طائفة من مصطلحات العلوم.

ومن الطرق التي تتسع بها اللغة، وأخذ بها المجمع في وضع المصطلحات العملية، طريقة المصدر الصناعي، وهو المصدر الحاصل من إلحاق ياء النسب لأسماء الفاعلين والمفعولين، وغيرهما، نحو العالمية والمعلومية، والجاذبية والمجذوبية، وقد استعمله علماؤنا من مناطقة وفلاسفة وغيرهم في مؤلفاتهم كثيراً.

ويمتاز هذا المصدر الصناعي بأنه يدل على معنى الوصف من حيث صدوره عن الفاعل، أو وقوعه على المفعول، بخلاف المصدر الصريح؛ فإنه لا يدل على هذه الناحية الخاصة بنفسه.

ويمتاز هذا المصدر الصناعي عن المصدر الصريح من وجه آخر: هو أنه يدل على المبالغة متى كان المنسوب إليه من صيغ المبالغة؛ فالعلامية أبلغ من العلم، وقد رأينا الأطباء السابقين يقولون: المصحاحية والممراضية، وهاتان الصيغتان من قبيل المصدر الصناعي؛ فالمصحاحية تدل على الصحة التامة؛ لأنها نسبة إلى مصحاح وهو كثير الصحة، والممراضية تدل على المرض الشديد أو الكثير؛ لأنه نسبة إلى ممراض وهو شديد المرض، أو كثيره.

وفي المصدر الصناعي سعة من جهة أخرى هي أنا نتوصل به إلى وضع أسماء لمعان يشير إليها اسم العين، فإذا أردنا أن نتحدث عن كون الشيء إنساناً، أو حيواناً، أو نباتاً، أو حجراً، مثلاً ـ قلنا: الإنسانية والحيوانية والنباتية والحجرية.

ووجد المجمع أن المعجمات قد تقتصر في بعض المواد على ذكر المصدر أو الفعل أو الوصف، فوضع المجمع قواعد لتكميل المادة الناقصة مستمداً هذه القواعد من أقوال علماء العربية، فإذا وجدنا المعجمات تقول مثلاً: المؤتنب: من لا يشتهي الطعام، صح لنا أن نسمي علة انقطاع شهوة الطعام «ائتناباً»، وإذا وجدنا المعجمات تقول: سنِّي هذا الشيء، أي شهي إلى الطعام، صح لنا أن نزيد فيها فعيلاً، ونسمي الدواء الذي يقوي شاهية الطعام «سنيناً» وإذا وجدنا المعجمات تقول: القامح الكاره للماء لأي علة، صح لنا أن نسمي علة انصراف النفس عن شرب الماء: «قماحاً».

ومن المعروف في وضع المصطلحات تفضيل اللفظ المفرد على المركَّب والمجمع يحافظ على هذا القصد، فيؤثر المفرد على المركب إلا أن يكون في المركب مزية تدعو إلى اختياره، فلو أراد المجمع أن يضع لفظاً للموضع الذي يتداوى فيه بحرارة الشمس، لا أحسبه يعدل عن كلمة «المشرقة» إلى لفظ آخر مركب، فإن المشرقة موضع القعود في الشمس للتمتع بدفئها، وهذا المعنى متحقق فيما يقال له الحمام الشمسي، ورأيت ابن سينا في «القانون» يعبر بالتضحي إلى الشمس عن التعرض للشمس بقصد التداوي.

والألفاظ العربية تختلف من حيث أنس السمع بها، وإساغة الذوق لها، والمجمع يلاحظ هذا فيما يضعه من المصطلحات، فإذا وجد في المعجمات ـ مثلاً ـ توحش فلان أي أخلى معدته من الطعم لشرب الدواء، آثر عليها كلمة تحامى للدواء؛ لأن الذوق يسيغها أكثر من كلمة توحش.

ومع ما أحرزته اللغة من الثروة الواسعة، والمقاييس التي يمكننا أن نتصيد بها من الأسماء ما نشاء لم يقف المجمع وقفة الرافض لكل مصطلح علمي أجنبي، بل أبقى التعريب أمامه مفتوحاً، حتى إذا دعته ضرورة إلى قبول اسم غير عربي، وإلحاقه بالمصطلحات العربية الصميمة أجاب داعي الضرورة، وله بالعرب في القديم أسوة، إذ قالوا: الترياق[١]، والقولنج[٢]، والنقرس[٣]، والكيموس[٤]، والكلمات الأربع يونانية، وقالوا: البرسام لذلك المرض الصدري، والكلمة فارسية.

ومن ينظر في كتب الطب أيام رُقِيِّه في البلاد العربية يرى المؤلفين فيه قد يختلفون في بعض المصطلحات؛ فابن سينا ـ مثلاً ـ يستعمل البرسام والشوصة، وذات الجنب على أنها أسماء مترادفة، وغيره يجعل كل واحد من هذه الأسماء، اسماً لمرض مختص به[٥].

وإنما جرى مثل هذا الاختلاف بينهم؛ لأن المصطلحات في ذلك العهد لا تصدر عن مجمع أو مؤتمر ينعقد لها.

---

(١) دواء مركب من أجزاء كثيرة ويطلق على ما له نفع عظيم سريع.

(٢) مرض معوي.

(٣) مرض في مفاصل الكعبين أو أصابع الرجلين.

(٤) الغذاء بعد أن تهضمه العصارة المعدية.

(٥) يخص «البرسام» بالمرض العارض للحجاب الذي بين الكبد والمعدة، و «الشوصة» بالورم العارض في أضلاع الخلف، و «ذات الجنب» بالورم العارض للغشاء المستبطن للأضلاع والحجاب، انظر كشاف مصطلحات العلوم.

والقصد من إنشاء المجمع اللغوي توحيد المصطلحات العلمية، ودليل هذا أن المجمع لم يؤلف من أعضاء مصريين فقط، بل ألف من أعضاء يمثلون البلاد العربية من نحو المغرب والشام والعراق.

وصفوة ما كنت أقول: إن الطموح إلى عزة ليس بعدها عزة يقضي علينا بأن نعيد علم الطب وسائر العلوم والفنون إلى لغتنا العربية، وإن هذه اللغة تسع بما أتاها الله من غزارة العلم، وحكمة المقاييس كل ما تدركه الأبصار والعقول.

ولم يبق علينا إلا أن نرجع إلى معجمات ومصطلحات علمائنا، ومقاييس لغتنا، ونتعاون على أن تكون مصطلحاتنا العلمية واحدة.



عنوانات الموضوعات والمقالات التي تضمنتها المجموعة الأولى

رابعاً: مقالات في الشباب

١٦ـ التربية الدينية والشباب: للعلامة محمد الخضر حسين

١٧ـ الشباب المحمدي: للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

١٨ـ حديث إلى الشباب: للأستاذ أحمد أمين

خامساً: مقالات في المرأة

١٩ـ تحرير المرأة: للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

٢٠ـ مستودع الذخائر: للأستاذ أحمد أمين

٢١ـ اختلاط الجنسين في نظر الإسلام: للشيخ محمد الخضر حسين

٢٢ـ أمهات المؤمنين: للشيخ محمد بهجة البيطار

سادساً: مقالات في العادات والعبادات

٢٣ـ الناس والعادات: للشيخ علي محفوظ

٢٤ـ فلسفة الصيام: للأديب مصطفى صادق الرافعي

٢٥ـ لبيك اللهم لبيك: لمحب الدين الخطيب

٢٦ـ روح المجالس: للأستاذ أحمد أمين

سابعاً: مقالات في السياسة والإجتماع

٢٧ـ الدهاء في السياسة: للعلامة محمد الخضر حسين

٢٨ـ القضاء العادل في الإسلام: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٢٩ـ الإسلام والمسلمون: للأستاذ أحمد أمين

٣٠ـ شرعة الحرب في الإسلام: للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

٤٣ـ القول الحق في استعداد محمد ﷺ للنبوة والوحي: للعلامة الشيخ محمد رشيد رضا

٤٤ـ عبرة الهجرة: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

٤٥ـ مجلس رسول الله ﷺ: للعلامة محمد الطاهر بن عاشور

ثاني عشر: مقالات في المشاعر والعواطف الإنسانية

٤٦ـ ضبط العواطف: للأستاذ أحمد أمين

٤٧ـ الصداقة: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٤٨ـ الأربعون: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

٤٩ـ موت أم: مصطفى صادق الرافعي

٥٠ـ مناجاة مبتورة لدواعي الضرورة: للعلامة محمد البشير الإبراهيمي

عنوانات الموضوعات والمقالات التي تضمنتها المجموعة الثانية

أولاً: مقالات في السعادة

ثانياً: مقالات في التربية والتعليم

ثالثاً: مقالات في الأخلاق والمروءات والسلوك

١٥ـ **صدق اللهجة** : للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

١٦ـ **من أخلاقنا** : للشيخ علي الطنطاوي

١٧ـ **إشاعة السوء وموقف الإسلام منها** : للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

١٨ـ **البخيل** : للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

١٩ـ **الآداب العامة** : للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

رابعاً: مقالات في العمل والهمة

٢٠ـ **النجاح في الحياة** : للأستاذ أحمد أمين

٢١ـ **العمل والبطالة** : للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٢٢ـ **الواجب** : للأستاذ عبدالسلام الشربيني

٢٣ـ **الغني والفقير** : للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

٢٤ـ **متاعب الحياة** : للأستاذ أحمد أمين

٢٥ـ **كبر الهمة** : للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

خامساً: مقالات في المدنية والعمران

٢٦ـ **مدنية الإسلام والعلوم العصرية** : للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٢٧ـ **مدنية الإسلام والخطابة** : للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٢٨ـ **تهيئة الشرق لوراثة الحضارات والمدنيات** : للعلامة محمود شاكر

سادساً: مقالات في الشباب

٢٩ـ **نهوض الشباب بعظائم الأمور** : للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٤٥ـ الدعوة: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

٤٦ـ الدعوة إلى الخير: للشيخ محمد عبدالعزيز الخولي

٤٧ـ عذاب المصلحين: للأستاذ أحمد أمين

٤٨ـ الدعوة الشاملة الخالدة: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٤٩ـ قرآن الفجر: للأديب مصطفى صادق الرافعي

٥٠ـ كلمة الحق: للشيخ العلامة أحمد محمد شاكر

٥١ـ أدب المناظرة: للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

عاشراً: مقالات في العلم والتحقيق

٥٢ـ العلم والعقل: للشيخ عبدالقادر المغربي

٥٣ـ الإنسان على الأرض: للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

٥٤ـ عمر الإنسان: للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

٥٥ـ الفلسفة والعلم والدين: للشيخ عبدالباقي سرور

حادي عشر: مقالات في اللغة والأدب

٥٦ـ طرق الترقي في الكتابة: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٥٧ـ اللغة والأمة: للأستاذ محمد صادق عنبر

٥٨ـ البيان: للأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي

٥٩ـ قوة التخيل وأثرها في العلم والشعر والصناعة والتربية: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

ثاني عشر: مقالات في السيرة النبوية

صدر للمؤلف

١- جوانب من سيرة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله .

٢- التوبة وظيفة العمر.

٣- رسائل في العقيدة.

٤- رسائل في التربية والأخلاق والسلوك.

٥- رسائل في الزواج والحياة الزوجية.

٦- أخطاء في مفهوم الزواج.

٧- من أخطاء الأزواج.

٨- من أخطاء الزوجات.

٩- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة ١.

١٠- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة ٢.

١١- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة ٣.

١٢- كلمات متنوعة في أبواب متفرقة ٤.

١٣- سوء الخلق .. مظاهره .. أسبابه .. العلاج، قرأه سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله .

١٤- الفاحشة (**عمل قوم لوط**) الأسباب - العلاج.

١٥- عقيدة أهل السنة والجماعة، قرأه وقدم له: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله .

١٦- الإيمان بالقضاء والقدر، قرأه وقدم له: سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز رحمه الله .

١٧- الهمة العالية، قرأه وقدم له: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله .

١٨- مع المعلمين.

١٩- شرح وتحقيق الوصية الصغرى لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٢٠- شرح وتحقيق القصيدة التائية في القدر لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٢١- الصداقة بين العلماء (**نماذج تطبيقية معاصرة**).

٢٢- رمضان دروس وعبر تربية وأسرار.

٢٣- أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة.

٢٤- من أقوال الرافعي في المرأة.

٢٥- من أحوال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز في الحج.

٢٦- الحج آداب وأسرار.

٢٧- الدعاء مفهومه -أحكامه- أخطاء تقع فيه، قرأه وعلق عليه: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله .

٢٨- الإيمان باليوم الآخر.

٢٩- الشيوعية.

٣٠- توبة الأمة.

٣١- البابية.

٣٢- البهائية.

٣٣- القاديانية.

٣٤- الوجودية.

٣٥- الجوال آداب وتنبيهات.

٣٦- الإنترنت امتحان الإيمان والأخلاق والعقول.

٣٧ـ المنتقى من بطون الكتب (**المجموعة الأولى**).

٣٨ـ المنتقى من بطون الكتب (**المجموعة الثانية**).

٣٩ـ المنتقى من بطون الكتب (**المجموعة الثالثة**).

٤٠ـ مختصر الإيمان بالقضاء والقدر.

٤١ـ لطائف في تفاضل الأعمال الصالحة.

٤٢ـ عقوق الوالدين .. أسبابه .. مظاهره .. سبل العلاج.

٤٣ـ قطيعة الرحم .. المظاهر .. الأسباب .. سبل العلاج.

٤٤ـ التقصير في تربية الأولاد .. المظاهر .. سبل الوقاية والعلاج.

٤٥ـ التقصير في حقوق الجار.

٤٦ـ الكذب .. مظاهره .. علاجه.

٤٧ـ لماذا تدخن؟.

٤٨ـ إلى بائع الدخان.

٤٩ـ الجريمة الخلقية.

٥٠ـ العشق .. حقيقته .. خطره .. أسبابه .. علاجه.

٥١ـ الطريق إلى التوبة.

٥٢ـ رسالة إلى طالب نجيب، ترجم إلى الأردية.

٥٣ـ الهجرة دروس وفوائد.

٥٤ـ الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة.

٥٥ـ مختصر عقيدة أهل السنة والجماعة؛ المفهوم والخصائص.

٥٦ـ الإيمان بالله، ترجم إلى الإنجليزية.

٥٧ـ لا إله إلا الله: معناها ـ أركانها ـ فضائلها ـ شروطها.

٥٨ـ توحيد الربوبية.

٥٩ـ توحيد الألوهية.

٦٠ـ توحيد الأسماء والصفات.

٦١ـ الإيمان بالكتب.

٦٢ـ الطريق إلى الإسلام، ترجم إلى عدة لغات.

٦٣ـ كلمات في المحبة والخوف والرجاء، ترجم إلى الإنجليزية.

٦٤ـ الطيرة.

٦٥ـ نبذة مختصرة عن الشفاعة، والشرك، والرقية، والتمائم، والتبرك.

٦٦ـ من صور تكريم الإسلام للمرأة.

٦٧ـ معالم في التعامل مع الفتن.

٦٨ـ فقه اللغة مفهومه ـ موضوعاته ـ قضاياه.

٦٩ـ مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث (المجموعة الأولى).

٧٠ـ مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث (المجموعة الثانية).

٧١ـ مقالات لكبار كتاب العربية في العصر الحديث (المجموعة الثالثة).

سيصدر قريباً ـ بإذن الله ـ

١ـ رسائل وكلمات متنوعة في أبواب متفرقة.

٢ـ رسائل في الفرق والمذاهب والأديان.

٣ـ فقر المشاعر.

٤ـ شرح رسالة الشيخ عبدالرحمن السعدي (الأسباب والأعمال التي يضاعف بها الثواب).